(الطبعة الاولى)

الجزء الاول
من التفسير المنير لمعالم
التنزيل المسفر عن وجوه محاسن
التأويل المسمى طبقا لمعناه مراح لبيد
لكشف معنى قرآن مجيد لجامعه العالم النحرير
وعلم الفضل الشهير المتحلى بكريم الشيم ومهابة
الاعزاز العلامة الشيخ محمد نووى من علماء
الحجاز نفع الله تعالى بعلومه المسلمين
وجعلنا واياه من خيار
أحبته المقبولين

بالمطبعة العثمانيه سنة ١٣٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تواضع كل شئ لعظمته وذل كل شئ لعزته واستسلم كل شئ لقدرته وخضع كل شئ لملكه فسبحان الله شارع الاحكام المميز بين الحلال والحرام أحمده على مامنح من غوامض العلوم باخراج الافهام والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أزال بيانه كل ابهام وعلى آله وأصحابه أولى المناقب والاحلام صلاة وسلاما دائمين مادامت الايام (أما بعد) فيقول أحقر الورى محمد نووى قد أمرنى بعض الاعزة عندى أن أكتب تفسير القرآن المجيد فترددت فى ذلك زمانا طويلا خوفا من الدخول فى قوله صلى الله عليه وسلم من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ وفى قوله صلى الله عليه وسلم من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار فأجبتهم الى ذلك للاقتداء بالسلف فى تدوين العلم ابقاء على الخلق وليس على فعلى مزيد ولكن لكل زمان تجديد وليكون ذلك عونا لى وللقاصرين مثلى وأخذته من الفتوحات الالهية ومن مفاتيح الغيب ومن السراج المنير ومن تنوير المقباس ومن تفسير أبى السعود (وسميته) مع الموافقة لتاريخه مراح لبيد لكشف معنى قرآن مجيد وعلى الكريم الفتاح اعتمادى واليه تفويضى واستنادى والآن أشرع بحسن توفيقه وهو المعين لكل من لجأ به

(سورة الفاتحة مكية أو مدنية سبع آيات)

والسابعة صراط الذين الى آخرها ان كانت البسملة منها وان لم تكن منها فالسابعة غير المغضوب عليهم الى آخرها وهى مشتملة على أربعة أنواع من العلوم أحدها علم الاصول وقد جمعت الالهيات فى الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم والنبوات فى الذين أنعمت عليهم والدار الآخرة فى مالك

يوم الدين . وثانيها علم الفروع وأعظمه العبادات وهي مالية وبدنية وهما مفتقرتان الى أمور المعاش من المعاملات والمناكحات ولابد لها من الاحكام التى تقتضيها الأوامر والنواهي وثالثها علم تحصيل الكمالات وهي علم الاخلاق ومنه الاستقامة فى الطريقة والى ذلك الاشارة بقوله واياك نستعين وقد جمعت الشريعة كلها فى الصراط المستقيم ورابعها علم القصص والاخبار عن الامم الخالية وقد جمعت السعداء من الانبياء وغيرهم فى الذين أنعمت عليهم والاشقياء من الكفار فى غير المغضوب عليهم ولا الضالين (بسم الله الرحمن الرحيم) الباء بهاء الله والسين سناؤه فلا شئ أعلى منه والميم ملكه وهو على كل شئ قدير والباء ابتداء اسمه بارئ بصير والسين ابتداء اسمه سميع والميم ابتداء اسمه مجيد مليك والالف ابتداء اسمه الله واللام ابتداء اسمه لطيف والهاء ابتداء اسمه هادى والراء ابتداء اسمه رزاق والحاء ابتداء اسمه حليم والنون ابتداء اسمه نافع ونور (الحمد لله) والشكر لله بنعمه السوابغ على عباده الذين هداهم الايمان (رب العالمين) أي خالق الخلق ورازقهم ومحولهم من حال الى حال (الرحمن) أى العاطف على البار والفاجر بالرزق لهم ودفع الآفات عنهم (الرحيم) أى الذى يستر عليهم الذنوب فى الدنيا ويرحمهم فى الآخرة فيدخلهم الجنة (مالك يوم الدين) باثبات الالف عند عاصم والكسائى ويعقوب أى متصرف الامر كله فى يوم القيامة كما قال تعالى يوم لا تملك نفس لنفس شيأ والامر يومئذ لله وعند الباقين بحذف الالف والمعنى أى المتصرف فى أمر القيامة بالامر والنهى (اياك نعبد) أى لا نعبد أحدا سواك (واياك نستعين) أى بك نستعين على عبادتك فلا حول عن المعصية الا بعصمتك ولا قوة على الطاعة الا بتوفيقك (اهدنا الصراط المستقيم) أى زدنا هداية الى دين الاسلام أو المعنى أدمنا مهديين اليه (صراط الذين أنعمت عليهم) أى دين الذين مننت عليهم بالدين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين (غير المغضوب) أى غير دين اليهود الذين غضبت (عليهم ولا الضالين) أى وغير دين النصارى الذين ضلوا عن الاسلام ويقال المغضوب عليهم هم الكفار والضالون هم المنافقون لان الله تعالى ذكر المؤمنين فى أول البقرة فى أربع آيات ثم ثنى بذكر الكفار فى آيتين ثم ثلث بذكر المنافقين فى ثلاث عشرة آية ويسن للقارئ بعد فراغه من الفاتحة أن يقول آمين وهو اسم بمعنى فعل أمر وهو استجب

(سورة البقرة مدنية أو مكية مائتان وسبع وثمانون آية وكلماتها ثلاثة آلاف ومائة وحروفها خمس وعشرون ألفا وخمسمائة

(بسم الله الرحمن الرحيم الم) قال الشعبى وجماعة الم وسائر حروف الهجاء فى أوائل السور من المتشابه الذى انفرد الله بعلمه وهى سر القرآن فنحن نؤمن بظاهرها ونفوض العلم فيها الى الله تعالى وفائدة ذكرها طلب الايمان بها والله تعالى اختص بعلم لا تقدر عليه عقول الانبياء والانبياء اختصوا بعلم لا تقدر عليه عقول العلماء والعلماء اختصوا بعلم لا تقدر عليه عقول العامة وقال أبو بكر رضى الله عنه فى كل كتاب سر وسر الله فى القرآن أوائل السور (ذلك الكتاب لا ريب فيه) أي هذا الكتاب الذى يقرؤه عليكم رسولى محمد لا شك فى أنه من عندى فان آمنتم به هديتكم وان لم تؤمنوا به عذبتكم (هدى للمتقين) أى رحمة لامة محمد صلى الله عليه وسلم (الذين يؤمنون بالغيب) أى يصدقون بما غاب عنهم من الجنة والنار والصراط والميزان والبعث والحساب وغير ذلك وقيل المراد بالغيب القلب والمعنى يؤمنون بقلوبهم

لا كالذين يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم (ويقيمون الصلاة) أى يتمون الصلاة الخمس بالشروط والأركان والهيآت (ومما رزقناهم ينفقون) أى مما أعطيناهم من الاموال يتصدقون لطاعة الله تعالى وهو أبو بكر الصديق وأصحابه (والذين يؤمنون بما أنزل اليك) من القرآن (وما أنزل من قبلك) على سائر الانبياء من التوراة والانجيل والزبور وغيرها من سائر الكتب السابقة على القرآن (وبالآخرة هم يوقنون) أى وهم يصدقون بما فى الآخرة من البعث بعد الموت والحساب ونعيم الجنة وهو عبد الله بن سلام وأصحابه (أولئك) أى أهل هذه الصفة (على هدى) أى كرامة نزل (من ربهم وأولئك هم المفلحون) أى الناجون من السخط والعذاب وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) أى الذين كفروا فى علم الله متساو لديهم انذارك اياهم بالقرآن وعدمه وهم لا يريدون أن يؤمنوا بما جئت به فلا تطمع يا أشرف الخلق فى ايمانهم ثم ذكر الله سبب تركهم الايمان بقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) أى طبع الله على قلوبهم فلا يدخلها ايمان وعلى سمعهم فلا ينتفعون بما يسمعونه من الحق ووحد السمع لوحدة المسموع وهو الصوت (وعلى أبصارهم غشاوة) مبتدأ وخبر أى على أعينهم غطاء من عند الله تعالى فلا يبصرون الحق (ولهم عذاب عظيم) أى شديد فى الآخرة وهم رؤساء اليهود الذين وصفهم الله بأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون وهم كعب بن الاشرف وحيي بن أخطب وجدي بن أخطب ويقال هم مشركو أهل مكة عتبة وشيبة والوليد بن المغيرة وأبي جهل (ومن الناس من يقول آمنا) فى السر (بالله وباليوم الآخر) أى بالبعث بعد الموت الذى فيه جزاء الاعمال (وما هم بمؤمنين) فى السر (يخادعون الله) أى يكذبونه فى السر (والذين آمنوا) أبا بكر وسائر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (وما يخدعون) أى يكذبون (الا أنفسهم) وهذه الجملة حال من ضمير يخادعون أى يفعلون ذلك والحال أنهم مايضرون بذلك الا أنفسهم فان دائرة فعلهم مقصورة عليهم وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى وما يخدعون بفتح الياء وسكون الخاء وفتح الدال وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الخاء مع المد وكسر الدال ولا خلاف فى قوله يخادعون الله فالجميع قرؤا بضم الياء وفتح الخاء وبالالف بعدها وكسر الدال وأما الرسم فبغير ألف فى الموضعين (وما يشعرون) أن الله يطلع نبيه على كذبهم (فى قلوبهم مرض) أى شك وظلمة (فزادهم الله مرضا) أى شكا وظلمة بما أنزله من القرآن لانه كلما أنزل آية كفروا بها فازدادوا شكا وخلافا (ولهم عذاب أليم) أى وجيع فى الآخرة يخلص وجعه الى قلوبهم (بما كانوا يكذبون) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالتشديد أى بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ الباقون بتخفيف الذال أى بكذبهم فى قولهم آمنا فى السر وهم المنافقون عبد الله بن أبي وجد بن قيس ومعتب بن قشير (واذا قيل لهم) أى لهؤلاء المنافقين (لا تفسدوا فى الارض) بتعويق الناس عن دين محمد صلى الله عليه وسلم (قالوا انما نحن مصلحون) وانما قالوا ذلك لانهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما فى قلوبهم من المرض قال الله تعالى ردا عليهم أبلغ رد (ألا) أى بلى (انهم هم المفسدون) لها بالتعويق (ولكن لا يشعرون) أن الله تعالى يطلع نبيه على فسادهم (واذا قيل لهم آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن أى ان المؤمنين نصحوا المنافقين من وجهين أحدهما النهي عن الافساد وهو التخلي عن الرذائل وثانيهما الامر بالايمان وهو التحلي بالفضائل (كما آمن الناس) أى الكاملون فى الانسانية العاملون بقضية العقل كأصحاب النبي أو كعبد الله بن سلام وغيره من مؤمني أهل الكتاب

والمعنى

والمعنى آمنوا ايمانا مقرونا بالاخلاص متمحضا عن شوائب النفاق مماثلا لايمانهم (قالوا) فيما بينهم لا بحضرة المسلمين (أنؤمن) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (كما آمن السفهاء) أى الجهال وانما سفهوا المؤمنين لتحقير شأنهم لان أكثرهم فقراء وبعضهم موال كصهيب وبلال أو لعدم المبالاة بمن آمن منهم ان فسر الناس بعبد الله بن سلام وأصحابه قال الله تعالى ردا عليهم أبلغ رد (ألا) أى بلى (انهم هم السفهاء) أى الجهال الخرقى (ولكن لا يعلمون) انهم سفهاء (واذا لقوا) أى المنافقون (الذين آمنوا) أبا بكر وأصحابه (قالوا آمنا) فى السر كايمانكم (واذا خلوا) أى عادوا (الى شياطينهم) أى أكابرهم الذين يقدرون على الافساد فى الارض وهم خمسة نفر كعب بن الاشرف من اليهود بالمدينة وأبو بردة فى بنى أسلم وعبد الدار فى جهينة وعوف بن عامر فى بنى أسد وعبد الله بن الاسود بالشام (قالوا) لهم لثلا يتوهموا فيهم المباينة (انا معكم) أى على دينكم فى السر (انما نحن) فى اظهار الايمان عند المؤمنين (مستهزؤن) بهم من غير أن يخطر ببالنا الايمان حقيقة (الله يستهزئ بهم) أى الله يعاملهم معاملة المستهزئ فى الدنيا وفى الآخرة أما فى الدنيا فلانه تعالى أطلع الرسول على أسرارهم مع انهم كانوا يبالغون فى اخفائها عنه وأما فى الآخرة فقال ابن عباس اذا دخل المؤمنون الجنة والكافرون النار فتح الله من الجنة بابا على الجحيم فى الموضع الذى هو مسكن المنافقين فاذا رأى المنافقون الباب مفتوحا خرجوا من الجحيم ويتوجهون الى الجنة وأهل الجنة ينظرون اليهم فاذا وصلوا الى باب الجنة سد عليهم الباب وذلك قوله تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (ويمدهم فى طغيانهم) أى يزيدهم فى ضلالتهم (يعمهون) أى يترددون فى الكفر وتركه متحيرين (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى أولئك الموصوفون بالصفات السابقة من قوله ومن الناس اختاروا الكفر على الايمان (فما ربحت تجارتهم) أى فلم يربحوا فى تجارتهم بل خسروا (وما كانوا مهتدين) الى طرق التجارة فان المقصود منها سلامة رأس المال والربح وهؤلاء قد أضاعوهما فرأس مالهم العقل الصرف وربحه الهدى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) أى صفة المنافقين فى حال نفاقهم كصفة الذى أوقد نارا فى ظلمة لكى يأمن بها على نفسه وأهله وماله (فلما أضاءت ما حوله) أى فلما أضاءت النار المكان الذى حول المستوقد فأبصر وأمن مما يخافه (ذهب الله بنورهم) أى أطفأ الله النور المقصود بالايقاد فبقى المستوقدون فى ظلمة وخوف (وتركهم) أى المستوقدين (فى ظلمات) ظلمة الليل وظلمة تراكم الغمام فيه وظلمة انطفاء النار (لا يبصرون) ما حولهم فكذلك هؤلاء المنافقون آمنوا على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بسبب اظهار كلمة الايمان فاذا ماتوا جاءهم الخوف والعذاب وهم فى القبر وما بعده (صم) عن الحق فلا يسمعونه سماع قبول (بكم) عن الخير فلا يقولونه قولا مطابقا للواقع لما سبق انهم مؤمنون ظاهرا (عمى) عن طريق الهدى فلا يرونه رؤية نافعة (فهم لا يرجعون) عن كفرهم وضلالتهم (أو كصيب) أو صفة المنافقين كصفة أصحاب مطر نازل (من السماء) أى السحاب ليلا وهم فى مفازة (فيه) أى الصيب (ظلمات) ظلمة تكاثفه بتتابع القطر وظلمة اظلال الغمامة مع ظلمة الليل (ورعد) وهو صوت يسمع من السحاب كأن اجرام السحاب تضطرب اذا أخذتها الريح فتصوت عند ذلك من الارتعاد (وبرق) وهو ما يلمع من السحاب (يجعلون) أى أصحاب الصيب (أصابعهم فى آذانهم من الصواعق) أى من أجل الصيحة الشديدة من صوت الرعد تكون معها قطعة نار (حذر الموت) من سماعها فكذلك هؤلاء المنافقون اذا نزل القرآن المشبه بالمطر فى أن كلا سبب الحياة وفيه ذكر

الكفر المشبه بالظلمات وعدم الاهتداء وذكر الوعيد على الكفر المشبه بالرعد فى ازعاجه وارهابه وذكر الحجج البينة المشبهة بالبرق فى ظهورها ويجعلون آذانهم من سماع القرآن حذر الميل الى الايمان الذى هو عنزلة الموت عندهم فان ترك الدين موت (والله محيط بالكافرين) علما وقدرة فلا يفوتونه تعالى لان المحاط لا يفوت المحيط (يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء) أى البرق (لهم مشوا فيه) أى فى ضوء البرق (واذا أظلم عليهم قاموا) أى بقوا فى الظلمة وهذا تمثيل لازعاج ما فى القرآن قلوبهم باختطاف البرق بأبصارهم ولتصديقهم لما يحبونه من تحصيل الغنيمة وعصمة الدماء والاموال بمشيهم فى البرق ولوقوفهم لما يكرهون من التكاليف الشاقة عليهم كالصلاة والصوم بوقوفهم فى الظلمة (ولو شاء الله) أن يذهب بسمعهم وأبصارهم (لذهب بسمعهم) بقصيف الرعد (وأبصارهم) بوميض البرق كذلك لو شاء الله لذهب بسمع المنافقين بزجر ما فى القرآن ووعيد ما فيه وأبصارهم بالبيان (ان الله على كل شئ) أى ممكن من ذهاب السمع والبصر (قدير) قال الفخر الرازى وأضاء اما متعد بمعنى كلما نور لهم مسلكا أخذوه واما غير متعد بمعنى كلما لمع لهم مشوا فيه بطرح نوره ويقويه قراءة ابن أبى عبلة كلما ضاء (يا أيها الناس) أى يا أهل مكة أو يا أيها اليهود (اعبدوا ربكم) أى وحدوه بالعبادة (الذى خلقكم) نسما من النطفة (والذين من قبلكم) أى أنشأهم ولم يكونوا شيأ (لعلكم تتقون) أى لكى تتقوا السخط والعذاب بعبادته ولعل للاطماع لكن الكريم الرحيم اذا أطمع أجرى اطماعه مجرى وعده المحتوم فلهذا السبب قيل لعل فى كلام الله تعالى بمعنى كى (الذى جعل لكم الارض فراشا) أى بساطا (والسماء بناء) أى سقفا مرفوعا وعبر عنه بالبناء لاحكامه (وأنزل من السماء ماء) وعن خالد بن معدان قال المطر ماء يخرج من تحت العرش فينزل من سماء الى سماء حتى يجتمع فى سماء الدنيا فيجتمع فى موضع فتجىء السحاب السود فتدخله فتشرب به فيسوقها الله حيث شاء (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) أى أنبت الله بالمطر من ألوان الثمرات طعاما لكم ولسائر الخلق (فلا تجعلوا لله أندادا) أى شركاء فى العبادة (وأنتم تعلمون) أن الانداد لا تماثله ولا تقدر على مثل ما يفعله أو يقال وأنتم تعلمون انه ليس فى التوراة والانجيل جواز اتخاذ الانداد (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) محمد من القرآن فى انه من عند نفسه (فأتوا بسورة من مثله) أى من ما هو على صفة ما نزلنا فى الفصاحة وحسن النظم والاخبار بالغيوب (وادعوا شهداءكم من دون الله) أى ادعوا أكابركم من غيره تعالى ممن يوافقكم فى انكار أمر محمد ليعينوكم على المعارضة وليحكموا لكم وعليكم فيما يمكن ويتعذر وقد كان فى العرب أكابر يشهدون على المتنازعين فى الفصاحة بأن أحدهما أعلا درجة من الآخر (ان كنتم صادقين) فى مقالتكم ان محمدا يقول من تلقاء نفسه (فان لم تفعلوا) أى لم تأتوا بسورة من مثل المنزل (ولن تفعلوا) أى لن تقدروا أن تجيئوا بمثله (فاتقوا النار) والمعنى اذا ظهر عجزكم عن المعارضة صح عندكم صدق محمد عليه السلام واذا صح ذلك فاتركوا العناد واذا لزمتم العناد استوجبتم العقاب بالنار (التى وقودها الناس) أى حطبها الكفار (والحجارة) المعبودة لهم قال تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم (أعدت) أى هيئت تلك النار (للكافرين) بما نزلناه وجعلت عدة لعذابهم (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى الطاعات (أن لهم جنات) أى بساتين ذات شجر ومساكن والمأمور بالبشارة اما رسول الله صلى الله عليه وسلم واما كل أحد يقدر على البشارة وهذا أحسن كما قال صلى الله عليه وسلم بشر المشائين الى المساجد فى الظلم بالنور التام يوم القيامة ولم يأمر صلى الله عليه وسلم بذلك

واحدا

واحدا بعينه وقرأ زيد بن علي وبشر بلفظ المبني للمفعول عطفا على أعدت (تجري من تحتها) أي من تحت شجرها ومساكنها (الانهار) أي أنهار الخمر واللبن والعسل والماء وعن مسروق أنهار الجنة تجري في غير أخدود (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا) أي كل حين رزقوا مرزوقا من الجنات من نوع ثمرة (قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) أي هذا مثل الذي أطعمنا في الجنة من قبل هذا الذي أحضر الينا قال تعالى تصديقا في تلك الدعوى (وأتوا به متشابها) أي أتتهم الملائكة والولدان برزق الجنة متشابها بعضه بعضا في اللون مختلفا في الطعم (ولهم فيها) أي الجنات (أزواج) من الحور والآدميات (مطهرة) من الحيض وجميع الاقذار ومن دنس الطبع وسوء الخلق (وهم فيها خالدون) أي دائمون لا يموتون ولا يخرجون (ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما) أي ان الله لا يترك أن يبين للخلق مثلا أي مثل كان (بعوضة فما فوقها) في الذات كالذباب والعنكبوت أو في الغرض المقصود من التمثيل كجناح البعوضة وكيف يستحيي الله من ذكر شيء واجتمع الخلائق كلهم على تخليقه ما قدروا عليه والمراد بالبعوضة هنا الناموس وهو من عجيب خلق الله تعالى فانه في غاية الصغر وله ستة أرجل وأربعة أجنحة وذنب وخرطوم مجوف وهو مع صغره يغوص خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمل فيبلغ منه الغاية حتى أن الجمل يموت من قرصته (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه) أي ضرب المثل (الحق) أي الثابت (من ربهم) فلا يسوغ انكاره لانه ليس عبثا بل هو مشتمل على الاسرار والفوائد (وأما الذين كفروا) من اليهود (فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) تمييز نسبة من اسم الاشارة أي أي فائدة في هذا المثل قال الله تعالى في جوابهم (يضل به) أي بهذا المثل عن الدين (كثيرا) من اليهود (ويهدي به كثيرا) من المؤمنين (وما يضل به الا الفاسقين) أي الخارجين عن حد الايمان (الذين ينقضون عهد الله) هو الحجة القائمة على عباده الدالة على وجوب وجوده ووحدانيته وعلى وجوب صدق رسله (من بعد ميثاقه) أي توكيده (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) فالله أمرهم ان يصلوا حبلهم بحبل المؤمنين فهم انقطعوا عن المؤمنين واتصلوا بالكفار (ويفسدون في الارض) بتعويق الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (أولئك) الموصوفون بنقض العهد وما بعده (هم الخاسرون) أي المغبونون بذهاب حسناتهم التي عملوها وبذهاب نعيم الجنة الذي لو أطاعوا الله لوجدوه (كيف تكفرون بالله و) الحال أنكم (كنتم أمواتا) أجساما لا حياة لها نطفا وعلقا ومضغا (فأحياكم) بنفخ الارواح فيكم (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) بالنشور (ثم اليه ترجعون) بعد الحشر فيجازيكم على أعمالكم ان خيرا فخير وان شرا فشر ثم والمعنى ثم اليه تنشرون من قبوركم للحساب (هو الذي خلق لكم) أي لاجل انتفاعكم في الدين والدنيا بالاستدلال على موجدكم واصلاح الابدان (ما في الارض جميعا ثم استوى) أي قصد (الى) خلق (السماء) أي ثم تعلقت ارادته تعلقا حادثا بترجيح وجود السماء على عدمها فتعلقت القدرة بايجادها (فسواهن) أي جعل السماء (سبع سموات) والحاصل أن الله تعالى خلق الارض من غير بسط في يومين ثم خلق السموات السبع مبسوطة في يومين ثم خلق ما في الارض مما ينتفع به في يومين وعن ابن مسعود قال ان الله تعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين في الاحد والاثنين فجعل الارض على حوت والحوت في الماء على صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على الصخرة والصخرة على

ان يتحرك الحوت تزلزلت الارض فأرسى عليها الجبال فقرت فالجبال تفتخر على الارض (والله بكل شيء عليم) فلا يمكن أن يكون خالقا للارض وما فيها وللسموات وما فيهما من العجائب والغرائب الا اذا كان عالما بها محيطا بجزئياتها وكلياتها (واذ قال ربك للملائكة) فاذ نصب باضمار اذكر وقيل زائدة وقيل بمعنى قد ويجوز أن ينتصب بقالوا أتجعل أى قالوا ذلك القول وقت قول الله تعالى لهم انى جاعل فى الارض خليفة روى الضحاك عن ابن عباس انه تعالى انما قال هذا القول للملائكة الذين كانوا فى الارض محاربين مع ابليس لان الله تعالى لما أسكن الجن الارض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا بعث الله ابليس فى جند من الملائكة فقتلهم ابليس بعسكره حتى أخرجوهم من الارض وألحقوهم بجزائر البحر وهؤلاء خزان الجنان أنزلهم الله من السماء الى الارض لطرد الجن الى الجزائر والجبال وسكنوا الارض فخفف الله عنهم العبادة وكان ابليس يعبد الله تارة فى الارض وتارة فى السماء وتارة فى الجنة فدخله العجب وقال فى نفسه ما أعطانى الله هذا الملك الا لانى أكرم الملائكة عليه فقال تعالى له ولجنده (انى جاعل فى الارض خليفة) أى بدلا منكم ورافعكم الى فكرهوا ذلك لانهم كانوا أهون الملائكة عبادة والمراد به آدم عليه السلام (قالوا) استكشافا عما خفى عليهم من الحكمة لا اعتراضا على الله تعالى ولا طعنا فى بنى آدم على طريق الغيبة (أتجعل فيها من يفسد فيها) بالمعاصى بمقتضى القوة الشهوانية (ويسفك الدماء) بالظلم بمقتضى القوة الغضبية فغفلوا عن مقتضى القوة العقلية التى بها يحصل الكمال والفضل (ونحن نسبح) أى ننزهك عن كل ما لا يليق بشأنك ملتبسين (بحمدك) على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التى من جملتها توفيقنا لهذه العبادة فالتسبيح لاظهار صفات الجلال والتحميد لتذكير صفات الانعام (ونقدس لك) أى نصفك بما يليق بك من العلو والعزة وننزهك عما لا يليق بك وقيل المعنى نطهر نفوسنا عن الذنوب لاجلك أى فنحن أحق بالاستخلاف (قال) تعالى (انى أعلم ما لا تعلمون) من مصلحة استخلاف آدم عليه السلام (وعلم آدم الاسماء كلها) أى أسماء كل ما خلق الله من أجناس المحدثات من جميع اللغات المختلفة التى يتكلم بها ولد آدم اليوم (ثم عرضهم) أى ذوات الاشياء (على الملائكة) بأن صور الله الاشياء فى قلوبهم فصارت كأنهم شاهدوها أو خلق الله تعالى معانى الاسماء التى علمها آدم حتى شاهدتها الملائكة (فقال) تعالى لهم توبيخا (أنبؤنى باسماء هؤلاء) المسميات (ان كنتم صادقين) فى زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفته (قالوا) اقرارا بالعجز (سبحانك) أى تبنا اليك من ذلك القول (لا علم لنا الا ما علمتنا) أى وانما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها لان الله تعالى أعلمهم ذلك فكأنهم قالوا انك أعلمتنا انهم يفسدون فى الارض ويسفكون الدماء فقلنا لك أتجعل فيها من يفسد فيها وأما هذه الاسماء فانك ما أعلمتنا كيفيتها فكيف نعلمها (انك أنت العليم) أى الذى لا يخرج عن علمه شىء (الحكيم) أى المحكم لصنعته (قال) تعالى (يا آدم أنبئهم) أى اخبر الملائكة (بأسمائهم) أى المسميات (فلما أنبأهم بأسمائهم) مفصلة وبين لهم أحوال كل من المسميات وخواصه وأحكامه المتعلقة بالمعاش والمعاد (قال) الله تعالى لهم موبخا (ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض) أى أعلم غيب ما يكون فيهما (وأعلم ما تبدون) أى تظهرون من قولكم أتجعل فيها الى آخره (وما كنتم تكتمون) أى من استبطانكم انكم أحقاء بالخلافة وروى الشعبى عن ابن عباس وابن مسعود أن المراد بقوله تعالى ما تبدون قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها وبقوله وما كنتم تكتمون ما أسر ابليس فى نفسه من الكبر ومن أن لا يسجد وقيل لما خلق الله تعالى آدم رأت الملائكة خلقا عجيبا فقالوا ليكن ما شاء فلن

يخلق

بخلق ربنا خلقا الا كنا أكرم عليه منه فهذا الذى كتموه (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) سجود تعظيم لآدم من غير وضع الجبهة على الارض (فسجدوا الا ابليس أبى) عن أمر الله (واستكبر) أى تعاظم عن السجود لآدم (وكان من الكافرين) أى صار من الكافرين باباته عن أمر الله ويقال ان ابليس حين اشتغاله بالعبادة كان منافقا كافرا وهذا السجود كان قبل دخول آدم الجنة وروى أن بنى آدم عشر الجن والجن وبنو آدم عشر حيوانات البر وهؤلاء كلهم عشر الطيور وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحر وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الارض الموكلين بها وكل هؤلاء عشر ملائكة سماء الدنيا وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية وعلى هذا الترتيب الى ملائكة السماء السابعة ثم الكل فى مقابلة ملائكة الكرسى نزر قليل ثم كل هؤلاء عشر ملائكة السرادق الواحد من سرادقات العرش التى عددها ستمائة ألف طول كل سرادق وعرضه وسمكه اذا قوبلت به السموات والارضون وما فيها وما بينها فانها كلها تكون شيأ يسيرا وقدرا صغيرا وما من مقدار موضع قدم الا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم لهم زجل بالتسبيح والتقديس ثم كل هؤلاء فى مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة فى البحر ولا يعلم عددهم الا الله ثم مع هؤلاء ملائكة اللوح الذين هم أشياع اسرافيل عليه السلام والملائكة الذى هم جنود جبريل عليه السلام وكلهم مشتغلون بعبادته تعالى لا يحصى أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفية عباداتهم الا الله تعالى (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك) حواء (الجنة وكلا منها) أكلا (رغدا) أى واسعا لذيذا (حيث شئتما) أى فى أى مكان أردتما منها (ولا تقربا هذه الشجرة) روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشجرة فقال هى الشجرة المباركة السنبلة وعن مجاهد وقتادة هى التين وعن يزيد بن عبد الله هى الاترج وعن ابن عباس هى شجرة العلم عليها من كل لون وفن (فتكونا من الظالمين) أى فتصيرا من الضارين لا نفسكما ويقال من الذين وضعوا أمر الله تعالى فى غير موضعه (فأزلهما الشيطان) أى أزلقهما ابليس (عنها) أى الجنة وقرأ حمزة بألف بعد الزاى والباقون بغير ألف وتشديد اللام (فأخرجهما مما كانا فيه) أى من الرغد (وقلنا) لآدم وحواء وابليس (اهبطوا) انزلوا الى الارض فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود وهبطت حواء بجدة وابليس بالابلة من أعمال البصرة (بعضكم لبعض عدو) قال الله تعالى ان الشيطان لكما عدو مبين (ولكم فى الارض مستقر) أى منزل (ومتاع) أى منفعة ومعاش (الى حين) أى الى وقت الموت (فتلقى آدم من ربه كلمات) أى حفظ آدم من ربه كلمات لكى تكون سببا له ولاولاده الى التوبة وقرأ ابن كثير بنصب آدم ورفع كلمات أى جاءته عن الله تعالى كلمات قال سعيد بن جبير عن ابن عباس انها لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى انك أنت خير الغافرين لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى انك أنت خير الراحمين لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فتب على انك أنت التواب الرحيم وقال مجاهد وقتادة هى ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين (فتاب عليه) أى رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة (انه هو التواب) أى الرجاع على عباده بالمغفرة (الرحيم) أى البالغ فى الرحمة لمن مات على التوبة (قلنا اهبطوا منها) أى الجنة (جميعا) اما فى زمان واحد أو فى أزمنة متفرقة وفائدة تكرير الأمر بالهبوط أن آدم وحواء لما أتيا بالزلة أمرا بالهبوط فتابا بعد الأمر به ووقع فى قلبهما أن الأمر به لما كان بسبب الزلة فبعد التوبة لا يبقى الأمر به فأعاد الله الأمر به مرة ثانية ليعلما أن الأمر به باق بعد التوبة لان الأمر به كان تحقيقا للوعد المتقدم فى قوله تعالى انى جاعل فى الا

خليفته وعلى هذا فالجمع لاثنين فقط آدم وحواء ويحتمل كون الجمع لهما ولولديهما قابيل واقليما بناء على القول بأنهما ولدا في الجنة ولعل عدم ذكرهما كونهما تابعين لابويهما وكان قابيل قد غضبه أبواه لقتله هابيل (فاما يأتينكم) ياذرية آدم (مني هدى) دلالة كدليل العقل والنقل وان للشرطية أدغمت في ما الزائدة للتأكيد (فمن تبع هداي) بأن تأمل الادلة بحقها واستنتج المعارف منها (فلا خوف عليهم) فيما يستقبلهم من العذاب (ولاهم يحزنون) على ما فاتهم من الدنيا ويقال فلا خوف عليهم اذا ذبح الموت ولاهم يحزنون اذا أطبقت النار وزوال الخوف يتضمن السلامة من جميع الآفات وزوال الحزن يقتضي الوصول الى كل اللذات والمرادات وهذا يدل على أن المكلف الذي أطاع الله تعالى لا يلحقه خوف في القبر وعند البعث وعند حضور الموقف وعند تطاير الكتب وعند نصب الميزان وعند الصراط (والذين كفروا) برسلنا المرسلة اليهم (وكذبوا بآياتنا) المنزلة عليهم سواء كانوا من الانس أو من الجن (أولئك أصحاب النار) أي أهل النار وملازموها بحيث لا يفارقونها (هم فيها خالدون) أي دائمون لا يخرجون منها ولا يموتون فيها (يابني اسرائيل) أي ياأولاد يعقوب وهذا خطاب مع جماعة اليهود الذين كانوا بالمدينة من ولد يعقوب عليه السلام في أيام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) أي على آبائكم من الانجاء من فرعون وفلق البحر وتظليل الغمام في التيه وانزال المن والسلوى فيه واعطاء الحجر الذي كان كرأس الرجل يسقيهم ماشاؤا من الماء متى أرادوا واعطاء عمود من النور ليضيء لهم بالليل وجعل رؤسهم لا تتشعث وثيابهم لا تبلى وجعلهم أنبياء وملوكا بعد أن كانوا عبيد القبط وانزال الكتب العظيمة التي ما أنزلها الله على امتسواهم أي أقيموا بشكر تلك النعمة (وأوفوا بعهدي) أي أوفوا بما أمرتكم به من الطاعات ونهيتكم عنه من المعاصي ومن الوفاء بالامر الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم (أوف بعهدكم) أي أرض عنكم وأدخلكم الجنة (واياي فارهبون) فيما تأتون وتتركون واعلم أن كل من كان خوفه في الدنيا أشد كان أمنه يوم القيامة أكثر وبالعكس روي انه ينادي مناد يوم القيامة وعزتي وجلالي أني لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين من أمنني في الدنيا خوفته يوم القيامة ومن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة (وآمنوا بما أنزلت) من القرآن (مصدقا) أي موافقا بالتوحيد وصفة محمد صلى الله عليه وسلم وبعض الشرائع (لما معكم) من التوراة (ولا تكونوا أول كافر به) أي بالقرآن من اليهود فان النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وفيها قريظة والنضير فكفروا به صلى الله عليه وسلم ثم تتابعت سائر اليهود على ذلك الكفر ويقال ولا تكونوا أول من جحد مع المعرفة لان كفر قريش كان مع الجهل لا مع المعرفة (ولا تشتروا بآياتي) أي بكتمان صفة محمد (ثمنا قليلا) أي عوضا يسيرا وذلك لان رؤساء اليهود مثل كعب بن الاشرف وحيي بن أخطب وأمثالهما كانوا يأخذون من سفلة اليهود الهدايا وعلموا أنهم لو اتبعوا محمدا لانقطعت عنهم تلك الهدايا فأصروا على الكفر لئلا ينقطع عنهم ذلك القدر المحقر وذلك لان الدنيا كلها بالنسبة الى الدين قليلة جدا ثم تلك الهدايا كانت في نهاية القلة بالنسبة الى الدنيا (واياي فاتقون) أي خافوني في شأن هذا النبي صلى الله عليه وسلم (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق) والباء للاستعانة والمعنى ولا تخلطوا الحق بسبب الشبهات التي توردونها على السامعين وذلك لان النصوص الواردة في التوراة والانجيل في أمر محمد كانت نصوصا خفية يحتاج في معرفتها الى الاستدلال ثم انهم كانوا يجادلون فيها ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب القاء الشبهات (وأنتم تعلمون) ما في اضلال الخلق من الضرر العظيم العائد عليكم يوم القيامة وذلك لان التلبيس صار صارفا للخلق عن قبول الحق الى يوم القيامة وداعيا لهم الى الاستمرار

على

على الباطل الى يوم القيامة ثم ذكر الله لزوم الشرائع عليهم بعد الايمان (واقيموا الصلاة) أى أتموا الصلوات الخمس (وآتوا الزكاة) أى اعطوا زكاة أموالكم (واركعوا مع الراكعين) أى صلوا الصلوات الخمس مع المصلين محمد وأصحابه فى جماعتهم وخص الله الركوع بالذكر تحريضا لليهود على الاتيان بصلاة المسلمين فان اليهود لاركوع فى صلاتهم فكأنه تعالى قال صلوا الصلاة ذات الركوع فى جماعة (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) روى عن ابن عباس انه قال ان أحبار المدينة اذا جاءهم أحد فى الخفية لاستعلام أمر محمد صلى الله عليه وسلم قالوا هو صادق فيما يقول وأمره حق فاتبعوه وهم كانوا لا يتبعونه لطمعهم فى الهدايا والصلاة التى كانت تصل اليهم من أتباعهم ويقال ان جماعة من اليهود كانوا قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم يخبرون مشركى العرب أن رسولا سيظهر منكم ويدعوا الى الحق وكانوا يرغبونهم فى اتباعه فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حسدوه وكفروا به فبكتهم الله تعالى بذلك فقال (وأنتم تتلون الكتاب) أى التوراة الناطقة بنعوت محمد صلى الله عليه وسلم (أفلا تعقلون) أى أتتلونه فلا تعقلون ما فيه (واستعينوا) أيها اليهود على ترك ما تحبون من الدنيا وعلى الدخول فيما تستثقله طباعكم من قبول دين محمد صلى الله عليه وسلم (بالصبر) أى بحبس النفس عن اللذات (والصلاة) فانها جامعة لانواع العبادات (وانها) أى الصلاة (لكبيرة) أى لشاقة (الا على الخاشعين) أى المائلين الى الطاعة (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) بالموت فى كل لحظة وذلك لان كل من كان منتظرا للموت فى كل لحظة لا يفارق قلبه الخشوع فهم يبادرون الى التوبة لان خوف الموت مما يقوى دواعى التوبة (وأنهم اليه راجعون) فى الآخرة فيجازيهم بأعمالهم (يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين) أى واذكروا انى فضلت آباءكم على الموجودين فى زمانهم لا على من مضى ولا على من يوجد بعدهم وأيضا معنى تفضيلهم على جميع العوالم ان الله تعالى بعث منهم رسلا كثيرة لم يبعثهم من أمة غيرهم ففضلوا لهذا النوع من التفضيل على سائر الامم (واتقوا) أيها اليهود ان لم تؤمنوا (يوما لا تجزى نفس عن نفس شيأ ولا يقبل) بالتأنيث على قراءة ابن كثير وأبى عمرو وبالتذكير على قراءة الباقين (منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل) أى فداء (ولا هم ينصرون) أى يمنعون من عذاب الله تعالى ومعنى الآية أن يوم القيامة لا تنوب نفس عن نفس شيأ ولا تحمل عنها شيأ مما أصابها بل يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه ومعنى هذه النيابة ان طاعة المطيع لا تقضى عن العاصى ما كان واجبا عليه (واذ نجيناكم) وقرئ أنجيناكم ونجيتكم فاذ فى موضع نصب عطفا على نعمتى عطف تفصيل على مجمل وكذلك الظروف الآتية فى الكلام المتعلق ببنى اسرائيل وينقضى عند قوله تعالى سيقول السفهاء والخطاب للموجودين فى زمن نبينا تذكيرا لهم بنعمة الله على آبائهم لان انجاء الآباء سبب فى وجود الابناء والمعنى ويا بنى اسرائيل اذكروا اذ نجينا آباءكم (من آل فرعون) أى أتباعه وأهل دينه وعمر فرعون أكثر من أربعمائة سنة وهو الوليد بن مصعب بن ريان (يسومونكم سوء العذاب) أى يطلبون لكم أشد العذاب ثم بين الله ذلك بقوله (يذبحون أبناءكم) صغارا وقرئ يذبحون بالتخفيف (ويستحيون نساءكم) أى يتركونهن احياء صغارا ويقال يستخدمونهن كبارا وذلك ان فرعون رأى فى منامه نارا أقبلت من بيت المقدس حتى أحاطت ببيوت مصر وأحرقت كل قبطى وتركت بنى اسرائيل فدعا فرعون الكهنة وسألهم عن ذلك فقالوا يولد فى بنى اسرائيل ولد يكون هلاك القبط وزوال ملكك على يده فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى اسرائيل حتى قتل من أولادهم اثنى عشر ألف صبى (وفى ذلكم بلاء من ربكم

عظيم) والبلاء ههنا هو المحنة ان أشير بلفظ ذلكم الى صنع فرعون والنعمة ان أشير به الى الانجاء وحمل البلاء على النعمة أحسن لانها هي التي صدرت من الله تعالى ولان موضع الحجة على اليهود انعام الله تعالى على اسلافهم ثم ان كون استبقاء نسائهم على الحياة محنة مع انه ترك للعذاب لما أن ذلك كان للاستعمال في الاعمال الشاقة وكان سببا لانقطاع النسل ولفساد أمر معيشتهن (واذ فرقنا بكم البحر) أي واذكروا اذ فلقناه بسببكم أي لأجل ان يتيسر لكم سلوكه (فأنجيناكم) من الغرق باخراجكم الى الساحل (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) التطام أمواج البحر بفرعون وقومه وترون بعد ثلاثة أيام جثثهم التي قذفها البحر الى الساحل وفرعون معهم طافين روى انه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسري ببني اسرائيل وكانوا اثني عشر سبطا كل سبط خمسون ألفا فلما خرج موسى ببني اسرائيل بلغ ذلك فرعون فقال لا تتبعوهم حتى يصيح الديك ثم اجتمع الى فرعون ألف ألف ومائتا ألف كل واحد منهم على فرس فتبعوا موسى وقومه نهارا وصادفوهم على شاطئ البحر فضرب موسى بعصاه البحر فانشق البحر اثني عشر جبلا في كل واحد منها طريق فكان فيه وحل فهبت الصبا فجف البحر حتى صار طريقا يابسا فأخذ كل سبط منهم طريقا ودخلوا فيه فقالوا لموسى ان بعضنا لا يرى صاحبه فضرب موسى عصاه على البحر فصار بين الطرق منافذ وكوى فرأى بعضهم بعضا فلما وصل فرعون شاطئ البحر رأى ابليس واقفا ينهاه على الدخول فجاء جبريل على حجرة فتقدم فرعون وهو على فحل فتبعها فرس فرعون فلما دخل فرعون البحر صاح ميكائيل بهم من خلفهم وهو على فرس فقال الحقوا آخركم بأولكم فلما دخلوا البحر ولم يبق واحد منهم التطم البحر عليهم وغرقهم أجمعين وكان بين طرفي البحر أربعة فراسخ وهو بحر القلزم طرف من بحر فارس وقيل كان ذلك اليوم يوم عاشوراء فصام موسى عليه السلام ذلك اليوم شكرا لله تعالى (واذ واعدنا موسى) قرأ أبو عمرو ويعقوب بغير ألف في هذه السورة وفي الاعراف وطه وقرأه الباقون بالالف في المواضع الثلاثة (أربعين ليلة) باعطاء الكتاب (ثم اتخذتم العجل) أي عبدتم العجل المسمى بهموت (من بعده) أي بعد انطلاقه الى الجبل (وأنتم ظالمون) أي ضارون لانفسكم *قيل وعد موسى عليه السلام بني اسرائيل وهم بمصر ان أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره أن يجيء الى الطور ويصوم فيه ذا القعدة وعشر ذي الحجة فذهب اليه واستخلف هرون على بني اسرائيل ومكث في الطور أربعين ليلة وأنزلت عليه التوراة في ألواح من زبرجد فلما ذهب موسى الى الطور كان قد بقي مع بني اسرائيل الثياب والحلي الذي استعاروه من القبط لعمل عرس قال لهم هرون ان هذه الثياب والحلي لا تحل لكم فاحرقوها فجمعوا نارا وأحرقوها وكان موسى السامري في مسيره مع موسى عليه السلام في البحر نظر الى حافر دابة جبريل عليه السلام حين تقدم على فرعون في دخول البحر فقبض قبضة من تراب حافر تلك الدابة ثم ان السامري أخذ ما كان معه من الذهب والفضة وصور منه عجلا في ثلاثة أيام مرصعا بالجواهر كأحسن ما يكون وألقى فيه ذلك التراب فخرج منه صوت ومشى فقال للقوم هذا الهكم واله موسى فتركه ههنا وخرج يطلبه وكانت بنوا اسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدوا اليوم مع الليلة يومين فلما مضى عشرون يوما ولم يرجع موسى عليه السلام وقعوا في الفتنة فعبدوا كلهم العجل الا هرون مع اثني عشر ألف رجل وكان موسى السامري رجلا صائغا من جماعة يقال لها سامرة وكان منافقا يظهر الاسلام وكان من بني اسرائيل من قوم يعبدون البقر (ثم عفونا عنكم) أي محونا ذنوبكم حين تبتم (من بعد

ذلك)

ذلك) أى من بعد عبادتكم العجل (لعلكم تشكرون) أى لكى تشكروا نعمة عفوى وتستمروا بعد ذلك على طاعتى (واذا آتينا موسى الكتاب والفرقان) أى واذكروا اذ أعطينا موسى التوراة وبينا فيها الحلال والحرام والأمر والنهى وغير ذلك (لعلكم تهتدون) لكى تهتدوا بتدبر الكتاب من الضلال (واذ قال موسى لقومه) الذين عبدوا العجل (ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم) أى انكم نقصتم أنفسكم الثواب الواجب بالاقامة على عهد موسى عليه السلام (باتخاذكم العجل) أى بعبادتكم العجل فقالوا لموسى فماذا تأمرنا فقال لهم (فتوبوا الى بارئكم) أى الى خالقكم ولو أظهرتم التوبة بالبدن دون القلب فأنتم ما تبتم الى الله وانما تبتم الى الناس قالوا كيف نتوب فقال لهم (فاقتلوا أنفسكم) أى سلموا أنفسكم للقتل وارضوا به فأجابوا فأخذ عليهم المواثيق ليصبروا على القتل فأصبحوا مجتمعين فكل قبيلة على حدة وأتاهم بالاثنى عشر ألفا الذين لم يعبدوا العجل البتة وبأيديهم السيوف فقال التائبون ان هؤلاء اخوانكم قد أتوكم شاهرين السيوف فاتقوا الله واصبروا فلعن الله رجلا قام من مجلسه أو مد طرفه اليهم او اتقاهم بيد أو رجل فيقولون آمين فجعلوا يقتلون من الصبح الى المساء وقام موسى وهرون عليهما السلام يدعوان الله تعالى ويقولان البقية البقية يا الهنا فاوحى الله اليهما انى قد غفرت لمن قتل وتبت على من بقى وكان القتلى سبعين ألفا (ذلكم) أى القتل فى التوبة (خير لكم عند بارئكم) لما فيه طهارة عن الشرك (فتاب عليكم) أى قبل توبة من قتل منكم وغفر لمن لم يقتل من بقية المجرمين وعفا عنهم من غير قتل (انه هو التواب) أى المتجاوز لمن تاب (الرحيم) على من مات على التوبة (واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة) وذلك لما رجع موسى عليه السلام من الطور الى قومه فرأى ماهم عليه من عبادة العجل حرق العجل وألقاه فى البحر اختار من قومه سبعين رجلا من خيارهم فلما خرجوا الى الطور قالوا لموسى سل ربك حتى يسمعنا كلامه فسأل موسى عليه السلام ذلك فأجابه الله ولما دنا من الجبل وقع عليه عمود من الغمام وتغشى الجبل كله ودنا من موسى ذلك الغمام حتى دخل فيه فقال للقوم ادخلوا وكان موسى عليه السلام متى كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم النظر اليه وسمع القوم كلام الله مع موسى عليه السلام يقول له افعل كذا ولا تفعل كذا فلما تم الكلام انكشف عن موسى الغمام الذى دخل فيه فقال القوم بعد ذلك لا نصدق لك بأن ما نسمعه كلام الله حتى نرى الله معاينة فأحرقتهم نار من السماء وماتوا جميعا وقام موسى رافعا يديه الى السماء يدعو ويقول يا الهى اخترت من بنى اسرائيل سبعين رجلا ليكونوا شهودى بقبول توبتهم فارجع اليهم وليس معى منهم واحد فما الذين يقولون فلم يزل موسى مشتغلا بالدعاء حتى رد الله أرواحهم وطلب توبة بنى اسرائيل من عبادة العجل فقال لا أقبل الا أن يقتلوا أنفسهم (وأنتم تنظرون) الى النار الواقعة من السماء (ثم بعثناكم من بعد موتكم) أى ثم أحييناكم بعد حرقكم بالنار وبعد موتكم يوما وليلة وذلك لاظهار آثار القدرة وليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم ولو ماتوا بانقضاء آجالهم لم يحيوا الى يوم القيامة (لعلكم تشكرون) أى لكى تشكروا احيائى (وظللنا عليكم الغمام) أى جعلنا السحاب الرقيق يظلكم من حر الشمس أى وكان يسير بسيرهم وكانوا يسيرون ليلا ونهارا وينزل عليهم بالليل عمود من نور يسيرون فى ضوئه وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى وذلك فى التيه وهو واد بين الشام ومصر وقدره تسعة فراسخ مكثوا فيه أربعين سنة متحيرين لا يهتدون الى الخروج منه وسبب ذلك مخالفتهم أمر الله تعالى بقتال الجبارين الذين كانوا بالشام حيث امتنعوا من القتال (وأنزلنا) فى التيه (عليكم المن)

وهو شيء كالصمغ كان يقع على الاشجار طعمه كالشهد وكان يقع على أشجارهم من الفجر الى طلوع الشمس لكل انسان صاع (والسلوى) فكان كل واحد منهم يأخذ ما يكفيه يوما وليلة واذا كان يوم الجمعة يأخذ كل واحد منهم ما يكفيه ليومين لانه لم يكن ينزل يوم السبت والسلوى وهو طائر ليس له ذنب ولا يطير الا قليلا ويموت اذا سمع صوت الرعد كما ان الخطاف يقتله البرد فيلهمه الله أن يسكن جزائر البحر التى لا يكون فيها مطر ولا رعد الى انقضاء أوان المطر والرعد فيخرج من الجزائر وينتشر فى الارض وخاصيته ان أكل لحمه يلين القلوب القاسية (كلوا) أى وقلنا لهم كلوا (من طيبات ما رزقناكم) أى من مستلذات ما رزقناكموه ولا تدخروا لغد فادخروا فقطع الله ذلك عنهم ودود ما ادخروه (وما ظلمونا) أى وما نقصونا بما ادخروا (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى يضرون لنقص أنفسهم حظها من النعيم (واذ قلنا) لهم بعد خروجهم من التيه على لسان موسى أو على لسان يوشع (ادخلوا هذه القرية) روى ان موسى عليه السلام سار بعد انقضاء الاربعين سنة بمن بقى من بنى اسرائيل ففتح أريحا بفتح الهمزة وكسر الراء قرية الجبارين وهى بين القدس وحوران وأقام فيها ما شاء الله ثم قبض فيها وقيل انه قبض فى التيه ولما احتضر أخبرهم بأن يوشع بعده نبى وان الله تعالى أمره بقتال الجبابرة فسار بهم يوشع وقتل الجبابرة وصار الشام كله لبنى اسرائيل (فكلوا منها) أى تلك القرية (حيث شئتم رغدا) أى موسعا عليكم (وادخلوا الباب) أى باب القرية أى من أى باب كان من أبوابها السبعة أو من باب يسمى باب الحطة أو باب القبة التى كانوا يصلون اليها فانهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام (سجدا) أى منحنين متواضعين كالراكع (وقولوا حطة) أى ان القوم أمروا بأن يدخلوا الباب على وجه الخضوع وأن يذكروا بلسانهم التماس حط الذنوب حتى يكونوا جامعين بين ندم القلب وخضوع الجوارح والاستغفار باللسان وقرأ ابن أبى عبلة بالنصب والمعنى حط عنا ذنوبنا حطة (نغفر لكم خطاياكم) وقرأ نافع بالتذكير وابن عامر بالتأنيث على البناء للمجهول والباقون بالنون المفتوحة (وسنزيد المحسنين) بالطاعة فى حسناتهم (فبدل الذين ظلموا) أنفسهم (قولا غير الذى قيل لهم) أى أمر لهم أى فدخلوا الباب زاحفين على أدبارهم قائلين حنطة على شعيرة استخفافا بأمر الله تعالى (فأنزلنا على الذين ظلموا) أى غيروا الامر (رجزا) أى طاعونا مقدرا (من السماء بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم أى خروجهم عن الطاعة روى أنه مات بالطاعون فى ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا فهذا الوباء غير الذى حل بهم فى التيه (و) اذكروا (اذ استسقى موسى لقومه) فى التيه (فقلنا اضرب بعصاك الحجر) وكانت العصا من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى ولها شعبتان تتقدان فى الظلمة نورا حملها آدم معه من الجنة فتوارثها الانبياء حتى وصلت الى شعيب فأعطاها لموسى وروى أن ذلك الحجر حجر طورى حمله معه وكان مربعا له أربعة جوانب وكان ذراعا فى ذراع ينبع من كل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين تسيل فى جدول الى ذلك السبط وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلا وقيل كان حجرا أعطاه الله عليه اثنا عشر ثديا كثدى المرأة يخرج من كل ثدى نهر اذا ضرب عصاه عليه (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) أى نهرا (قد علم كل أناس) أى سبط (مشربهم) أى موضع شربهم من نهرهم روى أنه كان لكل سبط عين من اثنتى عشرة عينا لا يشركه فيها غيره وقلنا لهم (كلوا) من المن والسلوى (واشربوا) من الانهار كلها (من رزق الله) أى كلوا واشربوا من رزق الله الذى يأتيكم بلا تعب (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) أى لا تتمادوا فى الفساد فى الارض فى حالة

افساد كم وقال لا تمشوا في الارض على خلاف أمر موسى (واذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد) أي على أكل طعام واحد وهو المن والسلوى (فادع لنا) أي اسأل لأجلنا (ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها) أي من أطايبه التي تؤكل كالكرفس والكراث والنعناع (وقثائها وفومها) أي ثومها كما هو مروي عن ابن عباس ومجاهد وهو اختيار الكسائي لان الثوم بالثاء في حرف عبد الله بن مسعود (وعدسها وبصلها قال) أي موسى (أتستبدلون الذي هو أدنى) أي أخس وهو الثوم والبصل (بالذي هو خير) . أي أشرف وهو المن والسلوى فانه خير في اللذة والنفع وعدم الحاجة الى السعي (اهبطوا مصرا) أي اخرجوا من هذا المكان الى المكان الذي خرجتم منه (فان لكم) هنالك (ماسألتم وضربت عليهم الذلة) أي جعلت على فروع بني اسرائيل الذلة بالجزية (والمسكنة) أي زي الفقر (وباؤا بغضب) أي استحقوا الغضب أي اللعنة (من الله ذلك) أي الذلة والمسكنة واللعنة (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) أي بسبب أنهم كانوا يجحدون على الاستمرار بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وآية الرجم التي في التوراة وبالانجيل (ويقتلون النبيين بغير الحق) أي ظلما روي أن اليهود قتلت سبعين نبيا في أول النهار ولم يغتموا حتى قاموا في آخر النهار يتسوقون مصالحهم وقتلوا زكريا ويحيى وشعيبا وغيرهم من الانبياء (ذلك) الغضب (بما عصوا وكانوا يعتدون) أي يتجاوزون الحد بقتل الانبياء واستحلال المعاصي وهذا الذل الذي أصابهم هو بسبب قتلهم عيسى في زعمهم وقوله تعالى وضربت عليهم الذلة عده بعض العلماء من باب المعجزات لانه صلى الله عليه وسلم أخبر عن ضرب الذلة والمسكنة عليهم وقد وقع الامر كذلك فكان هذا اخبارا عن الغيب فيكون معجزا وهذا الكلام الى قوله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون معترض في خلال القصص المتعلقة بحكاية أحوال بني اسرائيل الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام لان قتل الانبياء انما كان من فروعهم وذرياتهم (ان الذين آمنوا والذين هادوا) أي الذين تهودوا (والنصارى) أي الذين تنصروا (والصابئين) أي الخارجين من دين الى دين وهم قوم من النصارى يحلقون وسط رؤسهم ويقرؤن الزبور ويعبدون الملائكة يقولون صبأت قلوبنا أي رجعت قلوبنا الى الله (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) فيما بينهم وبين ربهم (فلهم أجرهم عند ربهم) بأن يدخلهم الجنة (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) حين يخاف الكفار من العقاب ويحزن المقصرون على تفويت الثواب والمعنى ان الذين آمنوا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم في زمن الفترة بعيسى عليه السلام مثل قس ابن ساعدة وبحيرة الراهب وحبيب النجار وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري ووفد النجاشي والذين كانوا على الدين الباطل الذي لليهود والنصارى والصابئين كل من آمن منهم ببعث محمد صلى الله عليه وسلم بالله واليوم الآخر وبمحمد فلهم أجرهم عند ربهم أو المعنى ان الذين آمنوا باللسان دون القلب وهم المنافقون واليهود والنصارى والصابئين كل من أتى منهم بالايمان الحقيقي صار من المؤمنين عند الله وهذا قول سفيان الثوري (واذ أخذنا ميثاقكم) أي اقراركم بقبول التوراة (ورفعنا فوقكم الطور) أي رفعنا فوق رؤسكم الجبل مقدار قامة كالظلة وكان فرسخا في فرسخ حتى أعطيتم الميثاق وقلنا (خذوا ما آتيناكم) أي اعملوا بما أعطيناكموه من الكتاب (بقوة) أي بجد (واذكروا ما فيه) من الثواب والعقاب واحفظوا ما فيه من الحلال والحرام (لعلكم تتقون) أي لكي تتقوا المعاصي (ثم توليتم) أي أعرضتم عن الوفاء بالميثاق (من بعد ذلك) أي رفع الطور وايتاء التوراة (فلولا فضل الله عليكم) بتأخير العذاب (ورحمته) بارسال محمد صلى الله عليه وسلم اليكم (لكنتم من

الخاسرين) أى لصرتم من المغبونين بالعقوبة وبالانهماك فى المعاصى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت) أى وبالله لقد عرفتم عقوبة الذين تجاوزوا الحد منكم يوم السبت فى زمن داود عليه السلام روى انهم أمروا بان يتمحضوا يوم السبت للعبادة ويتركوا الصيد وهؤلاء القوم كانوا فى زمن داود عليه السلام وكانوا يسكنون بأيلة على ساحل البحر بين المدينة والشام وهو مكان من البحر يجتمع اليه الحيتان من كل أرض فى شهر من السنة حتى لا يرى الماء لكثرتها وفى غير ذلك الشهر فى كل سبت خاصة فحفروا حياضا عند البحر وشرعوا اليها الجداول فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الاحد فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم ثم انهم أخذوا السمك وهم خائفون من العقوبة فلما طال الزمان استسن الابناء بسنة الآباء فمشى اليهم طوائف من أهل المدينة الذين كرهوا الصيد يوم السبت ونهوهم فلم ينتهوا وقالوا نحن فى هذا العمل منذ أزمان فما زادنا الله به الا خيرا فقيل لهم لا تغتروا فربما نزل بكم العذاب فأصبح القوم قردة خاسئين فمكثوا كذلك ثلاثة أيام لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتوالدوا ثم هلكوا وذلك قوله تعالى (فقلنا لهم كونوا) أى صيروا (قردة خاسئين) أى ذليلين مبعدين عن الرحمة والشرف (فجعلناها) أى المسخة أو القردة أو قرية أصحاب السبت أو هذه الامة (نكالا لما بين يديها وما خلفها) أى عقوبة رادعة للامم التى فى زمانها وبعدها الى يوم القيامة أو لما قرب من تلك القرية وما تباعد عنها أو عقوبة لاجل ما تقدم على هذه الامة من ذنوبهم وما تأخر منها (وموعظة للمتقين) أى لكل متق سمع تلك الواقعة فانه يخاف ان فعل مثل فعلهم أن ينزل به مثل ما نزل بهم والمراد بقوله تعالى كونوا امرعة التكوين وانهم صاروا كذلك كما أراد الله بهم (واذ قال موسى لقومه) أى واذكروا وقت قول موسى عليه السلام لاصولكم (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) روى عن ابن عباس وسائر المفسرين أن رجلا فقيرا فى بنى اسرائيل قتل ابن أخيه أو أخاه أو ابن عمه لكى يرثه ثم رماه فى مجمع الطريق ثم شكا ذلك الى موسى عليه السلام فاجتهد موسى فى تعرف القاتل فلما لم يظهر قالوا له سل لنا ربك حتى يبينه فسأله فأوحى الله اليه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة فتعجبوا من ذلك ثم شددوا على انفسهم بالاستفهام حالا بعد حال واستقصوا فى طلب الوصف فلما تعينت البقرة لم يجدوها بذلك النعت الا عند انسان معين ولم يبعها الا بأضعاف ثمنها فاشتروها فذبحوها وأمرهم موسى أن يأخذوا عضوا منها فيضربوا به القتيل ففعلوا فصار المقتول حيا وعين لهم قاتله وهو الذى ابتدأ بالشكاية فقتلوه قودا (قالوا أتتخذنا هزوا) أى أتستهزئ بنا يا موسى فان سؤالنا عن أمر القتيل وأنت تأمرنا بذبح بقرة وانما قالوا ذلك لانهم لم يعلموا أن الحكمة هى حياة القتيل بضربه ببعض البقرة واخباره بقاتله (قال) أى موسى (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) أى المستهزئين بالمؤمنين لان الهزء فى اثناء تبليغ أمر الله تعالى جهل فلما علموا أن الامر بالذبح حق (قالوا ادع لنا) أى لاجلنا (ربك يبين لنا ما هى) اى ما سنها أصغيرة أو كبيرة (قال انه) أى الله تعالى (يقول انها بقرة لا فارض) أى كبيرة فى السن (ولا بكر) أى صغيرة (عوان بين ذلك) أى وسط بين المسنة والفتية (فافعلوا ما تؤمرون) به من ذبحها (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه) تعالى (يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها) أى صاف لونها (تسر الناظرين) اليها بسبب حسنها وتعجبهم من شدة صفرتها لغرابتها وخروجها عن المعتاد (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) أعاملة هى أم لا (ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون) الى وصفها أو الى القاتل (قال انه) تعالى (يقول انها بقرة لا ذلول) أى غير مذللة (تثير الارض) أى تقلبها للزراعة (ولا تسقى الحرث) أى الزرع

(مسلمة)

(مسلمة) من كل عيب (لاشية فيها) أى لا خلط فى لونها قال مجاهد لا بياض فيها ولا سواد (قالوا الآن جئت بالحق) اى نطقت بالبيان المحقق ففتشوا عليها فوجدوها عند الفتى البار لامه فاشتروها بملء جلدها (فذبحوها وما كادوا يفعلون) أى ما قاربوا أن يفعلوا حتى انتهت سؤالاتهم ويقال وما كادوا أن يذبحوها لاجل غلاء ثمنها أو لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل روى أنه كان فى بنى اسرائيل شيخ صالح له ابن طفل وله عجلة فأتى بها الى الغيضة وقال اللهم انى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر فكانت من أحسن البقر وأسمنها فلما كبر الابن كان بارا لوالدته فكان يقسم الليل أثلاثا يصلى ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس امه ثلثا فلما أصبح احتطب على ظهره فيبيع الحطب فى السوق ثم يتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطى والدته ثلثه ثم أمرته أمه أن يأخذ تلك العجلة من الغيضة فلما أخذها قالت له أمه انك فقير يشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فبع هذه البقرة فقال بكم أبيعها قالت بثلاثة دنانير ولا تبع بغير شورتى وكان ثمن البقرة اذ ذاك ثلاثة دنانير فانطلق بها الى السوق فبعث الله ملكا ليختبر الفتى كيف بره بوالدته فقال الملك له بكم تبيع هذه البقرة فقال بثلاثة دنانير بشرط رضى والدتى فقال الملك لك ستة دنانير ولا تستأذن أمك فقال الفتى لو أعطيتنى وزنها ذهبا لم آخذها الا برضا أمى فردها الى أمه وأخبرها بالثمن فقالت ارجع فبعها بستة دنانير على رضا منى فانطلق بها الى السوق وأتى الملك فقال استأذنت أمك فقال الفتى انها أمرتنى أن لا أنقصها عن ستة دنانير على ان أستأذنها فقال الملك انى أعطيك اثنى عشر دينارا على أن لا تستأذنها فأبى الفتى ورجع الى أمه وأخبرها بذلك فقالت ان الذى يأتيك ملك فى صورة آدمى ليختبرك فاذا أتاك فقل له أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا فقال الملك له اذهب الى أمك وقل لها امسكى هذه البقرة فان موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل فى بنى اسرائيل فلا تبيعيها الا بملء مسكها ذهبا دنانير فأمسكتها وقدر الله تعالى على بنى اسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها مكافأة للفتى على بره بوالدته فضلا من الله تعالى (واذ قتلتم نفسا) اسمه عاميل وقيل نكار (فادارأتم فيها) أى تخاصمتم فى شأنها (والله مخرج) أى مظهر (ما كنتم تكتمون) من قتلها وهذه الجملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه وهما فادارأتم وقوله (فقلنا اضربوه) أى القتيل (ببعضها) أى ببعض من أعضاء البقرة قيل بذنبها وقيل بلسانها وقيل بفخذها الايمن ففعلوا ذلك فقام القتيل حيا باذن الله تعالى وأوداجه تشخب دما وقال قتلنى فلان ثم سقط ومات مكانه فقتل قاتله وحرم الميراث وفى الحديث ما ورث قاتل بعد صاحب البقرة (كذلك) أى كما أحيا الله عاميل فى الدنيا (يحيي الله الموتى) فى الآخرة من غير احتياج الى آلة (ويريكم آياته) أى يجعلكم مبصرين دلائل قدرته واحيائه للميت (لعلكم تعقلون) أى لكى تعلموا أن من قدر على احياء نفس واحدة قدر على احياء نفوس كثيرة فتصدقوا بالبعث بعد الموت (ثم قست قلوبكم) أيها اليهود فلم تقبل الحق (من بعد ذلك) أى احياء عاميل واخباره بقاتله أو من بعد الامور التى جرت على أجدادكم (فهى كالحجارة) فى القساوة (أو أشد قسوة) منها (وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار) قال الحكماء ان الانهار انما تنشأ عن أبخرة تجتمع فى باطن الارض فان كان ظاهر الارض رخوا انشقت تلك الابخرة وانفصلت وان كان ظاهر الارض حجريا اجتمعت تلك الابخرة حتى تكثر كثرة عظيمة فتنشق الارض وتسيل تلك المياه أنهارا (وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء) أى العيون الصغار التى هى دون الانهار (وان منها لما يهبط) أى يتدحرج من أعلى الجبل الى أسفله (من خشية الله) أى من انقياد أمر الله

قلوبكم أيها اليهود لا تتحرك من خوف الله واللام في لما اللام الابتداء دخلت على اسم ان وهو ما بمعنى الذى والضمير منه ويشقق ويهبط يعود عليه (وما الله بغافل عما تعملون) أى ان الله محافظ لأعمال القاسية قلوبهم حتى يجازيهم بها فى الآخرة وقرأ ابن كثير بالياء على الغيبة (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) أى أفتطمعون أيها النبي والمؤمنون أن يؤمن هؤلاء اليهود بواسطتكم ويستجيبوا لكم والحال ان طائفة منهم وهم أحبارهم يسمعون كلام الله فى التوراة ثم يغيرونه من بعد المعنى الذى فهموه بعقولهم وهم يعلمون أنهم مفترون وذلك كنعت محمد صلى الله عليه وسلم فكانت صفته صلى الله عليه وسلم فى التوراة أكحل العين ربعة جعد الشعر حسن الوجه فكتبوا بدلها طويلا أزرق العين سبط الشعر وقال ابن عباس والمعنى أفترجو يا أشرف الخلق أن تؤمن بك اليهود والحال ان أسلافهم وهم السبعون المختارون للميقات الذين كانوا مع موسى يسمعون كلام الله بلا واسطة ثم يغيرونه من بعد ما علموه يقينا وهم يعلمون أنهم يغيرونه وذلك أنهم قالوا سمعنا الله يقول فى آخر كلامه ان استطعتم أن تفعلوا هذه الاشياء فافعلوا وان شئتم أن لا تفعلوا فلا بأس (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) أى ان منافقى أهل الكتاب كانوا اذا لقوا أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قالوا لهم آمنا بالذى آمنتم به ونشهد أن صاحبكم صادق وان قوله حق ونجد بنعته فى كتابنا (واذا خلا بعضهم) أى رجع الساكتون الذين لم ينافقوا (الى بعض) آخر منهم وهو منافقوهم (قالوا) أى الساكتون موبخين للمنافقين (أتحدثونهم) أى المؤمنين (بما فتح الله عليكم) أى بما بين الله لكم فى التوراة من صفة النبي صلى الله عليه وسلم (ليحاجوكم به عند ربكم) أى ليقيموا الحجة عليكم بما أنزل ربكم فى كتابه فى ترك اتباع محمد مع اقراركم بصدقه وقوله تعالى ليحاجوكم متعلق بالتحديث والمراد بهذا تشديد التوبيخ فان التحديث بذلك لاجل هذا الغرض مما لا يكاد يصدر عن العاقل أى أتحدثونهم بذلك ليحتجوا عليكم بكتاب الله وحكمه ويقال عند الله كذا معناه فى كتابه وحكمه (أفلا تعقلون) ان ذلك لا يليق بما أنتم عليه (أولا يعلمون) أى اللائمون أو المنافقون أو كلاهما (أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) أى اسرارهم الكفر واعلانهم الايمان واخفاء ما فتح الله عليهم واظهار غيره فيرعووا عن ذلك (ومنهم) أى اليهود (أميون) أى جهلة (لا يعلمون الكتاب) أى لا يعرفونه بقراءة ولا كتابة وطريقتهم التقليد (الا أمانى) أى الا ما هم عليه من أمانيهم فى أن الله لا يؤاخذهم بخطاياهم وان آباءهم الانبياء يشفعون لهم وما تحملهم أحبارهم على تمنى قلوبهم من أن النار لا تمسهم الا أياما معدودة ومن أن الجنة لا يدخلها الا من كان هودا وقال الاكثرون الا بقدر ما يتلى عليهم فيسمعونه أو لا ما يقرؤن قراءة عارية عن معرفة المعنى (وان هم الا يظنون) أى ما هم يعرفون الكتاب الا بأن يذكر لهم تأويله فظنوه (فويل) أى عذاب أليم أو مسيل صديد أهل جهنم أو شدة الشر (للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا) فى الكتاب الذى جاء (من عند الله ليشتروا به) أى ليأخذوا لانفسهم بمقابلة الكتاب المحرف (ثمنا قليلا) أى عوضا يسيرا من الدنيا وهم اليهود غيروا صفة النبي فى التوراة وآية الرجم وغيرهما فغيروا آية الرجم بالجلد والتحميم أى تسويد الوجه (فويل لهم) أى فشدة العذاب لهم (مما كتبت أيديهم) أى فيما غيرت أيديهم (وويل لهم مما يكسبون) أى يصيبون من الحرام والرشوة (وقالوا) أى اليهود (لن تمسنا النار الا أياما معدودة) أى قليلة قال مجاهد ان اليهود كانت تقول عمر الدنيا سبعة آلاف سنة فالله تعالى يعذبهم مكان ألف سنة يوما

فكانوا

فكانوا يقولون ان الله تعالى يعذبنا سبعة أيام وحكى الاصمعي عن بعض اليهود انهم عبدوا العجل سبعة أيام فكانوا يقولون ان الله تعالى يعذبنا سبعة أيام وذلك كما أخرجه الطبراني وغيره بسند حسن عن ابن عباس وأخرج بن أبي حاتم وابن جرير عن طرق ضعيفة عنه انها أربعين يوما (قل) لهم يا أشرف الخلق (أتخذتم عند الله عهدا) أي خبرا فان خبره تعالى أوكد من العهود المؤكدة منا بالقسم والنذر (فلن يخلف الله عهده) أي فان الله تعالى منزه عن الكذب في وعده ووعيده لان الكذب صفة نقص والنقص على الله محال (أم تقولون) مفترين (على الله مالا تعلمون) وقوعه أي أم لم تتخذوا من الله عهدا بل تتقولون عليه تعالى (بلى) تمسكم النار أبدا (من كسب سيئة) أي كفرا (وأحاطت به خطيئته) أي كبيرته بأن مات على الكفر (فأولئك) أي أهل هذه الصفة (أصحاب النار) أي ملازموها في الآخرة (هم فيها خالدون) أي لا يخرجون منها أما أصحاب الكبائر غير الكافرين فانا نقطع بأنه تعالى يعفو عن بعض العصاة وعن بعض المعاصي ولكنا نتوقف في حق كل أحد على التعيين انه هل يعفو عنه أم لا ونقطع بأنه تعالى اذا عذب أحدا منهم مدة فانه لا يعذبه أبدا بل يقطع عذابه وهذا قول أكثر الصحابة والتابعين وأهل السنة والجماعة وقرأ نافع خطيآته بالجمع والمراد بالخطيآت أنواع الكفر المتجددة في كل وقت (والذين آمنوا) بمحمد والقرآن (وعملوا الصالحات) فيما بينهم وبين ربهم (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) لا يموتون فيها ولا يخرجون منها (واذ أخذنا) في التوراة (ميثاق بني اسرائيل) الذين كانوا في زمن موسى (لا تعبدون الا الله) أي لا تشركون به شيأ وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة وقرأ عبد الله وأبي لا تعبدوا بصريح النهي وهذه قراءة شاذة (وبالوالدين احسانا) وهو متعلق بمحذوف أي وتحسنون أو أحسنوا بالبر بهما وان كانا كافرين بأن لا يؤذيهما البتة ويوصل اليهما من المنافع قدر ما يحتاجان اليه فيدخل فيه دعوتهما الى الايمان ان كانا كافرين وأمرهما بالمعروف على سبيل الرفق ان كانا فاسقين (وذي القربى) أي أحسنوا بالاقارب بصلة الرحم (واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا) وقرأ حمزة والكسائي بضم الحاء والسين وقرئ قراءة شاذة حسنا بضمتين وحسنى كبشرى والقول الحسن هو الذي يحصل انتفاعهم به (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) والمراد بالصلاة والزكاة ما فرض عليهم في ملتهم فقبلتم ذلك الميثاق المذكور (ثم توليتم) أي أعرضتم عن الوفاء بالميثاق (الا قليلا منكم) أي آبائكم وهو من أقام اليهودية على طريقها قبل النسخ ويقال الا قليلا منكم وهم من أسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه (وأنتم معرضون) عن الطاعة كآبائكم (واذ أخذنا ميثاقكم) أي واذكروا يا أيها اليهود المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وسلم وقت أن أخذنا الميثاق على آبائكم في التوراة (لا تسفكون دماءكم) أي لا يقتل بعضكم بعضا (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أي لا يخرج بعضكم بعضا من منازلكم يا بني قريظة والنضير (ثم أقررتم) بوجوب المحافظة على الميثاق (وأنتم تشهدون) أي تعلمون ذلك (ثم أنتم هؤلاء) أي هؤلاء الحاضرون بعد ذلك (تقتلون أنفسكم) أي يقتل بعضكم بعضا (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) أي من منازلهم ذلك الفريق (تظاهرون عليهم) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الظاء والباقون بالتشديد أي يتعاون لبعضكم بعضا (بالاثم) أي المعصية (والعدوان) أي التجاوز في الظلم (وان يأتوكم أسارى) أي أسارى أهل دينكم (تفادوهم) بالمال أوغيره أي وان يقع ذلك الفريق الذي تخرجونه من دياره وقت الحرب حال كونه أسيرا في يد حلفائكم تفدوه وقرأ حمزة أسرى بفتح

الهمزة وسكون السين مع الامالة وقرأ عاصم والكسائي تفادوهم بضم التاء وفتح الفاء والباقون بفتح التاء
وسكون الفاء (وهو) أي الشأن (محرم عليكم اخراجهم) قال السدي ان الله تعالى أخذ على بني
اسرائيل في التوراة الميثاق أن لا يقتل بعضهم بعضا ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم وأيما عبد أو أمة
وجدتموه من بني اسرائيل فاشتروه وأعتقوه وكان قريظة والنضير أخوين كالاوس والخزرج
فافترقوا فكانت قريظة حلفاء الاوس والنضير حلفاء الخزرج حين كان بينهما ما كان من العداوة
فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه فاذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم منها ثم اذا أسر رجل من
الفريقين فدوهم كما لو أسر واحد من النضير ووقع في يد الاوس افتدته قريظة منهم بالمال وهكذا يقال في
عكس ذلك فعيرتهم العرب وقالت كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فيقولون أمرنا أن نفديهم وحرم علينا
قتالهم ولكن نستحيي ان تذل حلفاؤنا فذمهم الله تعالى بقوله (أفتؤمنون ببعض الكتاب) أي تفعلون
بعض الواجبات وهو المفاداة (وتكفرون ببعض) أي فلم تتركوا المحرم وهو القتال والاخراج والمعاونة
(فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي) أي ذم عظيم وتحقير بالغ (في الحياة الدنيا) فكان خزي
قريظة القتل والسبي وقد قتل صلى الله عليه وسلم منهم سبعمائة في يوم واحد وخزي بني النضير الاجلاء
الى أزرعات وأريحا وقيل هو ضرب الجزية على النضير في الشام وعلى من بقي من قريظة الذين سكنوا
خيبر (ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب) أي عذاب جهنم لما ان معصيتهم أشد المعاصي (وما الله
بغافل عما تعملون) قرأ ابن كثير ونافع وعاصم بتاء الخطاب في يعملون وأما في يردون فالسبعة بالغيبة
فقط وأما بتاء الخطاب فشاذة وهذه الجملة زجر عظيم عن المعصية وبشارة عظيمة على الطاعة (أولئك
الذين اشتروا الحياة الدنيا) أي استبدلوها (بالآخرة) بأن اختاروا الكفر على الايمان (فلا يخفف
عنهم العذاب) لا بالانقطاع ولا بالقلة في كل وقت أو في بعض الاوقات (ولا هم ينصرون) فلا يدفع
أحد هذا العذاب عنهم (ولقد آتينا) أي أعطينا (موسى الكتاب) أي التوراة (وقفينا من بعده
بالرسل) أي أتبعناهم اياه مترتبين وهم يوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا
وعزير وحزقيل والياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم وجميع الانبياء بين موسى وعيسى
على شريعة موسى قيل هم سبعون ألفا وقيل أربعة آلاف ومدة ما بينهما ألف وتسعمائة سنة وخمسة
وعشرون سنة (وآتينا عيسى بن مريم البينات) أي المعجزات كاحياء الموتى وابراء الاكمه سواء كان
كمهه خلقيا أو طاريا وابراء الابرص وكالاخبار بالمغيبات وكالانجيل ثم عيسى بالسريانية أيشوع
ومعناه المبارك ومريم بالسريانية بمعنى الخادم وفي كتاب لسان العرب هي المرأة التي تكره مخالطة
الرجال (وأيدناه) قرأه ابن كثير بمد الهمزة وتخفيف الياء أي قويناه (بروح القدس) وهو
جبريل وهو الذي بشر مريم بولادتها وولد عيسى عليه السلام من نفخة جبريل وهو الذي رباه في
جميع الاحوال وكان يسير معه حيث سار وكان معه حين صعد الى السماء (أفكلما جاءكم) يا معشر
اليهود (رسول بما لا تهوى أنفسكم) أي بما لا يوافق قلوبكم من الحق (استكبرتم) أي تعظمتم عن
الايمان به والاتباع له (ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) أي كذبتم طائفة محمدا صلى الله عليه وسلم
وعيسى عليه السلام وقتلتم فريقا يحيى وزكريا (وقالوا) أي اليهود (قلوبنا غلف) أي مغشاة
بأغطية من قولك يا محمد أي قلوبنا أوعية لكل علم وهي لا تعي علمك وكلامك (بل لعنهم الله بكفرهم)
أي ليس عدم قبولهم للحق لخلل في قلوبهم ولكن الله أبعدهم عن رحمته بسبب كفرهم فأبطل

استعدادهم عن القبول (فقليلا ما يؤمنون) اى لا يؤمنون الا بقليل مما كلفوا به لانهم كانوا يؤمنون بالله الا أنهم كانوا يكفرون بالرسل وقال قتادة والاصم وأبو مسلم أى لا يؤمن منهم الا القليل وذلك نظير قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا (ولما جاءهم) أى اليهود المعاصرين له صلى الله عليه وسلم (كتاب من عند الله) وهو القرآن (مصدق لما معهم) أى موافق لكتابهم التوراة بالتوحيد وصفة محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه (وكانوا) أى اليهود (من قبل) أى من قبل مبعث محمد ونزول القرآن (يستفتحون) أى يسألون الفتح أى النصرة (على الذين كفروا) أى مشركى العرب أسد وغطفان ومزينة وجهينة وهم عدوهم يقولون اذا دهمهم عدو اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي الامى (فلما جاءهم ما عرفوا) من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم (كفروا به) حسدا وخوفا على الرياسة وقال ابن عباس وقتادة والسدى نزلت هذه الآية فى شأن بنى قريظة والنضيرة كانوا يستفتحون على الاوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثه يقولون لمخالفيهم عند القتال هذا نبي قد قرب زمانه ينصرنا عليكم (فلعنة الله على الكافرين) أى ابعاد الله من خيرات الآخرة عليهم (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله) أى بئس الشئ شيأ اشتروا به أنفسهم كفرهم بالقرآن المصدق والتوراة أى ان هؤلاء اليهود لما اعتقدوا انهم بما فعلوه خلصوا أنفسهم من العقاب وأوصلوها الى الثواب فقد اشتروا أنفسهم به فى زعمهم وقال الاكثرون الاشتراء ههنا بمعنى البيع لان المذموم لا يكون الا لما كان حاصلا لهم لا لما كان زائلا عنهم والمعنى باعوا أنفسهم بكفرهم لان الذين حصلوه على منافع أنفسهم هو الكفر فصاروا بائعين أنفسهم بذلك لكن لما كان الغرض بالبيع والشراء ابدال ملك بملك صلح أن يوصف كل واحد من المتبادلين بأنه بائع ومشتر لوقوع هذا المعنى من كل واحد منهما (بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) أى حسدا على أن ينزل الله النبوة بفضله على محمد وطلبا لما ليس لهم أى فانهم ظنوا ان هذا الفضل العظيم بالنبوة المنتظرة يحصل فى قومهم فلما وجدوه فى العرب حملهم ذلك على الحسد وقد أجاز العلماء أن يكون بغيا مفعولا له ناصبه ان يكفروا وأن ينزل الله مفعولا له وناصبه بغيا (فباؤا بغضب على غضب) أى فاستحقوا لعنة بعد لعنة لامور صدرت عنهم (وللكافرين عذاب مهين) أى يهانون بالعذاب الشديد بخلاف عذاب العاصى فانه طهرة لذنوبه (واذا قيل لهم) أى واذا قال المؤمنون لليهود الموجودين فى زمن نبينا (آمنوا بما أنزل الله) أى بكل ما أنزل الله من الكتب الالهية جميعا (قالوا) فى جواب هذا القيل (نؤمن بما أنزل علينا) أى بما أنزل على أنبيائنا من التوراة وكتب سائر الانبياء الذين أتوا بتقرير شرع موسى عليه السلام (ويكفرون بما وراءه) فأخبر الله تعالى عنهم بأنهم يكفرون بما بعده وهو الانجيل والقرآن (وهو) أى ما وراءها أنزل على نبيهم من الانجيل والقرآن (الحق مصدقا لما معهم) أى موافقا بالتوحيد لكتبهم (قل) لهم يا أشرف الخلق الزاما وبيانا لكفرهم بالتوراة التى ادعوا الايمان بها (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) والمعنى ان كنتم مؤمنين بالتوراة كما زعمتم فلاى شئ كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل لان فى التوراة تحريم القتل وذلك لان التوراة دلت على أن المعجزة تدل على الصدق ودلت على أن من كان صادقا فى ادعاء النبوة فان قتله كفر واذا كان الامر كذلك كان السعى فى قتل زكريا ويحيى وعيسى كفرا فلم سعيتم فى ذلك ان صدقتم فى ادعائكم كونكم مؤمنين بالتوراة والمعنى انهم لو آمنوا بالتوراة لما قتلوا الانبياء فمآل أمرهم الى كفرهم بجميع ما أنزل الله تعالى لا بالبعض كما ادعوا فان قيل

قوله تعالى آمنوا خطاب لهؤلاء الموجودين وقوله فلم تقتلون حكاية فعل أسلافهم فكيف وجه الجمع بينهما
قلنا معناه أنكم بهذا التكذيب للانجيل والقرآن خرجتم من الايمان بما آمنتم كما خرج أسلافكم
بقتل بعض الانبياء عن الايمان بالباقين (ولقد جاءكم موسى بالبينات) أى بالآيات التسع وهي
العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والدم والطوفان والجراد والقمل والضفادع وفلق البحر (ثم
اتخذتم العجل) أى عبدتم العجل (من بعده) أى من بعد انطلاقه الى الجبل (وأنتم ظالمون) أى
كافرون بعبادته (واذ أخذنا ميثاقكم) أى اقراركم (ورفعنا فوقكم الطور) أى رفعنا فوق رؤسكم
الجبل حين امتنعتم من قبول التوراة وقلنا (خذوا ما آتيناكم بقوة) أى اعملوا بما أعطيناكم من
الكتاب بجد (واسمعوا) أى اطيعوا ما تؤمرون (قالوا سمعنا) قولك بآذاننا (وعصينا) أمرك
بقلوبنا وغيرها (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) أى وأدخلوا فى قلوبهم حب عبادة العجل
بسبب كفرهم السابق الموجب لذلك (قل) لهم يا أشرف الخلق (بئسما يأمركم به ايمانكم) بما
أنزل عليكم من التوراة قولهم سمعنا وعصينا وعبادتهم العجل (ان كنتم مؤمنين) بالتوراة كما زعمتم
فان يجوز فيها الوجهان من كونها نافية وشرطية وجوابها محذوف تقديره فبئسما يأمركم (قل ان كانت
لكم الدار الآخرة) أى نعيم الدار الآخرة (عند الله) وهو الجنة (خالصة من دون الناس) أى
خاصة بكم ليس لاحد سواكم فيها حق بأن صح قولكم لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى
(فتمنوا الموت) كأن تقولوا ليتنا نموت (ان كنتم صادقين) فى مقالتكم لان من أيقن انه من أهل
الجنة اشتاق اليها وتمنى سرعة الوصول الى النعيم (ولن يتمنوه) أى لن يسألوا الموت (أبدا بما قدمت
أيديهم) أى بسبب ما عملوا من المعاصي الموجبة لدخول النار كالكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم
وبالقرآن وكتحريف التوراة (والله عليم بالظالمين) أى الكافرين فيجازيهم (ولتجدنهم) أى والله
لتجدن اليهود يا محمد (أحرص الناس على حياة) أى بقاء فى الدنيا (ومن الذين أشركوا) أى وأحرص
من مشركى العرب المنكرين للبعث لعلمهم بأن مصيرهم النار دون المشركين لانكارهم له (يود) أى
يتمنى (أحدهم لو يعمر ألف سنة) والمراد بالف سنة التكثير لا خصوص هذا العدد وليس المراد به قول
الاعاجم عش ألف سنة ولو مصدرية وهي مع صلتها فى تأويل مصدر مفعول يود (وما هو بمزحزحه من
العذاب أن يعمر) فاعل لمزحزح أى وما أحدهم بمبعده من النار تعميره ألف سنة (والله بصير
بما يعملون) فيجازيهم به قرأ السبعة بالياء التحتية ويعقوب من العشرة بالفوقية روى أن النبي صلى
الله عليه وسلم لما قدم المدينة أتاه عبد الله بن صوريا فقال يا محمد كيف نومك فقد أخبرنا عن نوم الذى
يجئ فى آخر الزمان فقال صلى الله عليه وسلم تنام عيناى ولا ينام قلبي قال صدقت يا محمد فأخبرنى عن
الولد أمن الرجل يكون أم من المرأة فقال أما العظام والعصب والعروق فمن الرجل وأما اللحم والدم والظفر
والشعر فمن المرأة فقال صدقت فما بال الرجل يشبه أعمامه دون أخواله أو يشبه أخواله دون أعمامه فقال
أيهما غلب ماؤه ماء صاحبه كان الشبه له قال صدقت أخبرنى أى الطعام حرم اسرائيل على نفسه وفى
التوراة ان النبي الامي يخبر عنه فقال صلى الله عليه وسلم أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل
تعلمون ان اسرائيل مرض مرضا شديدا فطال سقمه فنذر لله نذرا لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن على
نفسه أحب الطعام والشراب وهو لحمان الابل وألبانها فقالوا نعم فقال له بقيت خصلة واحدة ان قلتها
آمنت بك أى ملك يأتيك بما تقول عن الله قال جبريل قال ان ذلك عدونا ينزل بالقتال والشدة ورسولنا

مكائيل يأتي بالبشر والرخاء فلو كان هو الذي يأتيك آمنا بك فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين (قل من كان عدوا لجبريل) لانه ينزل القرآن على محمد فقد خلع ربقة الانصاف (فانه) أي جبريل (نزله) أي القرآن (على قلبك باذن الله) أي بأمره وخص القلب بالذكر لانه خزانة الحفظ وبيت الرب (مصدقا لما بين يديه) أي لما قبل القرآن من الكتب الالهية لان الشرائع التي تشتمل عليها سائر الكتب كانت مقدرة بالاوقات ومنتهية في هذا الوقت فان النسخ بيان انتهاء مدة العبادة وحينئذ لا يكون بين القرآن وسائر الكتب اختلاف في الشرائع (وهدى) أي بيان ماوقع التكاليف به من أعمال القلوب وأعمال الجوارح (وبشرى) أي بيان ثواب تلك الاعمال (للمؤمنين من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فان الله عدو للكافرين) وخص الله جبريل بالذكر ردا على اليهود في دعوى عداوته وضم اليه ميكائيل لانه ملك الرزق الذي هو حياة الاجساد كما ان جبريل ملك الوحي الذي هو حياة القلوب والارواح وقدم جبريل لشرفه لان العلم أشرف من الاغذية وقدم الملائكة على الرسل كما قدم الله على الجميع لان عداوة الرسل بسبب نزول الكتب ونزولها بتنزيل الملائكة وتنزيلهم لها بأمر الله فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب وجبريل قرأ حمزة والكسائي بفتح الجيم والراء وهمزة بعد الراء مكسورة وقرأ شعبة كذلك الا انه حذف الياء بعد الهمزة وكسر الراء والباقون بكسر الجيم والراء من غير همز بعد الراء الا أن ابن كثير فتح الجيم وميكائيل قرأ أبو عمرو وحفص ميكال بغير همز ولا ياء بين الالف واللام وقرأ نافع بهمزة بعد الالف ولا ياء بعد الهمزة والباقون بهمزة بعد الالف وياء قال ابن عباس ان اليهود كانوا يستفتحون على الاوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه فلما بعث من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه فقال لهم معاذ بن جبل يامعشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل الشرك وتخبروننا انه مبعوث وتصفون لنا صفته فقال بعضهم ماجاءنا بشيء من البينات وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولقد أنزلنا اليك) يا أشرف الخلق (آيات بينات) أي آيات القرآن الذي لا يأتي بمثله الجن والانس (وما يكفر بها الا الفاسقون) وهم أهل الكتاب المحرفون لكتابهم الخارجون عن دينهم قال ابن عباس لما ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخذ الله عليهم من العهود في محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به قال مالك بن الصيف والله ما عهد الينا في محمد عهدا فأنزل الله هذه الآية (أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم) أي أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا الله عهدا كقولهم قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم لئن خرج النبي لنؤمنن به ولنخرجن المشركين من ديارهم وكقولهم عاهدوا الله على ان لا يعينوا عليه صلى الله عليه وسلم أحدا من المشركين ثم أعانوا عليه قريشا يوم الخندق نبذه فريق منهم (بل أكثرهم لا يؤمنون) أي لا يصدقون بك أبدا لحسدهم وقيل لا يصدقون بكتابهم لانهم كانوا في قومهم كالمنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهرون لهم الايمان بكتابهم ورسولهم ثم لا يعملون بمقتضاه (ولما جاءهم رسول من عند الله) هو محمد صلى الله عليه وسلم (مصدق لما معهم) من التوراة (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب) أي أعطوه وتمسكوا به (كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) انه كتاب الله أي فكفروا عنادا والكتاب مفعول ثان لاوتوا وكتاب الله مفعول نبذ وقال السدي لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم خاصموه بالتوراة فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة لموافقة القرآن لها وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن (واتبعوا) أي اليهود وهو معطوف على نبذ (ما تتلوا) أي تكذب (الشياطين

على ملك سليمان) من السحر وكانت الشياطين دفنته تحت كرسيه لما نزع ملكه فلم يشعر بذلك سليمان فلما مات استخرجوه وقالوا للناس انما ملككم سليمان بهذا فتعلموه وأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم وفشت الملامة على سليمان فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عليه براءة سليمان ومدة نزع ملكه أربعون يوما وسبب ذلك ان احدى زوجاته عبدت صنما أربعين يوما وهو لا يشعر بها فعاتبه الله تعالى بنزع ملكه أربعين يوما وذلك ان ملكه كان في خاتمه وهو من الجنة وكان اذا دخل الخلاء نزعه ووضعه عند زوجة له تسمى الامينة ففعل ذلك يوما فجاء جني اسمه صخر وتصور بصورة سليمان ودخل على الامينة وقال اعطيني خاتمي فدفعته له فسخرت له الجن والانس والطير والريح وجلس على كرسي سليمان فجاء سليمان الامينة وطلب الخاتم فرأته ورثة غير الصورة التي تعرفها منه فقالت له ما أنت سليمان وهو قد أخذ الخاتم فلما تم الاربعون طار الجني من فوق الكرسي ومر على البحر وألقى الخاتم فيه فابتلعته سمكة فوقعت في يد سليمان فأخذه من بطنها ولبسه ورجع له الملك فأمر الجن باحضار صخر فأتوا به فحبسه في صخرة وسد عليه بالرصاص والحديد ورماها في قعر البحر (وما كفر سليمان) أي ما كتب سليمان السحر وما عمل به لان العمل بالسحر كفر في شريعته وأما في شرعنا فان اعتقدوا حله حل استعماله كفر والافلا وأما تعلمه فان كان ليعمل به فحرام أوليتوقاه فمباح أولا ولا فمكروه (ولكن الشياطين كفروا) أي كتبوا واستعملوا السحر وقرأ لكن ابن عامر وحمزة والكسائي بتخفيف النون مع الكسر ورفع الشياطين (يعلمون) أي الشياطين (الناس السحر) ويقصدون به اضلالهم (وما أنزل على الملكين) عطف على السحر أي ويعلمونهم ما ألهماه من السحر وقيل عطف على ما تتلوا واختار أبو مسلم ان ما في محل جر عطف على ملك سليمان وذلك ان الملكين أنزلا لتعليم السحر امتحانا من الله للناس هل يتعلمونه أولا كما امتحن قوم طالوت بالشرب من النهر وقيل انما أنزلا لتعليمه للتمييز بينه وبين المعجزة لئلا يغتر به الناس لان السحرة كثروا في ذلك الزمن واستنبطوا أبوابا غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة فبعث الله تعالى هذين الملكين ليعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين واظهار أمرهم على الناس (ببابل) وهو بلد في سواد العراق (هاروت وماروت) عطف بيان للملكين لانهما ملكان نزلا من السماء كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وقيل ما أنزل نفي معطوف على قوله تعالى وما كفر سليمان كأنه تعالى قال لم يكفر سليمان ولم ينزل على الملكين سحر لان السحرة كانوا يسندون السحر الى سليمان بزعمهم وانه مما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت فكذبهم الله تعالى على ذلك وقيل ان الملكين هما جبريل وميكائيل أخرجه البخاري في تاريخه وابن المنذر عن ابن عباس وابن أبي حاتم عن عطية وحينئذ يكون هاروت وماروت مرفوعا بدل من الشياطين بدل البعض كما هو قراءة الزهري وعلى هذا كما قاله الحسن والضحاك فهما علجان من بابل يعلمان السحر وقرأ الحسن على الملكين بكسر اللام فهما داود وسليمان كما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن ابزى وقيل كانا رجلين صالحين من الملوك (وما يعلمان من أحد) أي وما يعلم الملكان أحدا السحر (حتى يقولا) أولا (انما نحن فتنة) أي امتحان من الله تعالى للناس (فلا تكفر) أي فلا تتعلم ولا تعمل به أي لا يصفان السحر لاحد الى ان يقولا يبذلا النصيحة له فيقولا له هذا الذي نصفه لك وان كان الغرض منه أن يتميز به الفرق بين السحر والمعجزة ولكنه يمكنك أن تتوصل به الى المفاسد والمعاصي فاياك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نهيت عنه أو تتوصل به الى شيء من الاعراض العاجلة (فيتعلمون) أي

الا احد والمراد به السحرة منهما أي الملكين أو السحر والمنزل على الملكين أو الفتنة والكفر (ما يفرقون به بين المرء وزوجه) اما بأن يعتقد ان ذلك السحر مؤثر في هذا التفريق فيصير كافرا واذا صار كافرا بانت منه امرأته فيحصل تفرق بينهما واما بالتمويه والحيل فيبغض كل منهما في الآخر (وما هم) أي السحرة أو اليهود أو الشياطين (بضارين به) أي باستعمال السحر (من أحد الا باذن الله) أي بايجاد الله وارادته وعلمه (ويتعلمون) أي الشياطين واليهود والسحرة بعضهم من بعض (ما يضرهم) في الآخرة (ولا ينفعهم) في الدنيا ولا في الآخرة وهو السحر (ولقد علموا) أي اليهود (لمن اشتراه) أي استبدل ما تتلوا الشياطين (ماله في الآخرة) اي في الجنة (من خلاق) أي نصيب أو ماله في النار من خلاص أي ان اليهود لما نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واقبلوا على التمسك بما تتلوا الشياطين فكأنهم قد اشتروا ذلك السحر بكتاب الله (ولبئس ما شروا به أنفسهم) أي والله لبئس شيأ باعوا به حظ أنفسهم في الآخرة الكفر أو تعلم السحر (لو كانوا يعلمون) قبحه على اليقين (ولو أنهم) أي اليهود (آمنوا) بمحمد المشار اليه في قوله تعالى ولما جاءهم رسول من عند الله الخ أو بما أنزل اليه من الآيات المذكورة بقوله تعالى ولقد انزلنا اليك آيات بينات أو بالتوراة التي أريدت بقوله تعالى نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم (واتقوا) بأن تابوا من اليهودية واستعمال السحر (لمثوبة من عند الله خير) أي لشيء من ثواب الله خير لهم (لو كانوا يعلمون) ذلك (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا) للنبي صلى الله عليه وسلم (راعنا) وكان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تلا عليهم شيأ من العلم راعنا يا رسول الله أي تأن بنا حتى نفهم كلامك واليهود كانت لهم كلمة عبرانية يتسابون بها فيما بينهم فلما سمعوا المؤمنين يقولون راعنا خاطبوا به النبي صلى الله عليه وسلم وهم يعنون بها تلك المسبة ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ منهم وكان يعرف لغتهم فقال لليهود يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده لئن سمعتها من أحد منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لاضربن عنقه قالوا أولستم تقولونها فنهى المؤمنون عنها وأمروا بلفظة أخرى لئلا يجد اليهود بذلك سبيلا الى شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك قوله تعالى (وقولوا انظرنا) أي انظر الينا والمقصود منه ان المعلم اذا نظر الى المتعلم كان ايراده للكلام على نعت الافهام أقوى وقيل لا تعجل علينا قاله ابن زيد (واسمعوا) أي أحسنوا استماع ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم بآذان واعية وأذهان حاضرة حتى لا تحتاجون الى الاستعادة (وللكافرين) أي اليهود الذين سبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم (عذاب أليم) هو النار (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب) وهم اليهود (ولا المشركين) من العرب (أن ينزل عليكم من خير من ربكم) أي ما يحب اليهود كعب بن الاشرف وأصحابه ومشركوا العرب أبو جهل وأصحابه ان ينزل عليكم وحي من ربكم لانهم يحسدونكم به (والله يختص برحمته) أي بوحيه (من يشاء) أي من كان أهلا لذلك وهو محمد صلى الله عليه وسلم (والله ذو الفضل العظيم) بالوحي على محمد صلى الله عليه وسلم من غير علة ولما قال الكفار ان محمدا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه وما يقوله الا من تلقاء نفسه نزل قوله تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) قرأ ابن عامر ننسخ بضم النون الاولى وكسر السين وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وننسأ بفتح النون الاولى والسين وبهمزة ساكنة بعد السين أي ما نبدل آية اما بأن نبدل حكمها فقط أو تلاوتها فقط أو نبدلهما معا أو نتركهما كما كان فلا نبدل لها نأت بأنفع من المنسوخ وأخف في العمل بها أو نأت بمثلها في الثواب والنفع والعمل أو يقال ما ننسخ من آية قد عمل بها أو نؤخر نسخها فلا نرفع

تلاوتها ولا تزيل حكمها نأت بما هو أنفع للعباد في السهولة كنسخ وجوب مصابرة الواحد لعشرة من الاعداء بوجوب مصابرته لاثنين أو في كثرة الاجر كنسخ التخيير بين الصوم والفدية بتعيين الصوم أو نأت بمثلها في التكليف والثواب كنسخ وجوب استقبال صخرة بيت المقدس بوجوب استقبال الكعبة فهما متساويان في الاجر (ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير) وهذا تنبيه للنبي صلى الله عليه وسلم وغيره على قدرته تعالى على تصريف المكلف تحت مشيئته وحكمه وحكمته وانه لا دافع لما أراد ولا مانع لما اختار (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض) وهذا هو التنبيه على أنه تعالى انما حسن منه التكليف لمحض كونه مالكا للخلق مستوليا عليهم لا لثواب يحصل ولا لعقاب يندفع (ومالكم) يامعشر اليهود (من دون الله) أي غيره (من ولي) أي قريب ينفعكم (ولا نصير) يمنع عنكم عذابه وفرق بين الولي والنصير بأن الولي قد يعجز عن النصرة والنصير قد يكون اجنبيا عن المنصور ولما قالت اليهود يا محمد ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة نزل قوله تعالى (أم تريدون) أي أتريدون (أن تسألوا رسولكم) أي الرسول الذي جاءكم (كما سئل موسى) أي سأله بنوا اسرائيل رؤية الرب وغير ذلك (من قبل) أي من قبل هذا الرسول (ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) أي ومن يختر الكفر على الايمان أي بأن يأخذ الكفر بدل الايمان فقد أخطأ الطريق المستوى أي الحق (ود كثير من أهل الكتاب) أي من أحبار اليهود كعب بن الاشرف وحيي بن أحطب وأبو ياسر ابن أخطب (لو يردونكم) ياعمار ويا حذيفة ويامعاذ بن جبل (من بعد ايمانكم) بمحمد والقرآن (كفارا) أي تمنى كثير من اليهود ان يصيروكم من بعد ايمانكم مرتدين روى ان فنحاص بن عاذوراء وزيد بن قيس ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا الى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلا فقال عمار كيف نقض العهد فيكم قالوا أمر شديد قال فاني قد عاهدت الله تعالى أني لا أكفر بمحمد ماعشت فقالت اليهود اما هذا فقد صبا وقال حذيفة اما أنا فقد رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبالقرآن اماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين اخوانا ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه بذلك فقال أصبتما خيرا وأفلحتما فنزلت هذه الآية (حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) في كتابهم ان محمدا هو الحق وقالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم جاء أبي وعمي من عندك فقال أبي لعمي ما تقول فيه قال أقول انه النبي الذي بشر به موسى عليه السلام قال فما ترى قال أرى معاداته أيام الحياة فهذا حكم الحسد (فاعفوا) أي اتركوهم فلا تؤاخذوهم (واصفحوا) أي أعرضوا عنهم فلا تلوموهم (حتى يأتي الله بأمره) فيهم أي بقتل بني قريظة وسبيهم واجلاء بني النضير واذلالهم بضرب الجزية عليهم أو باذنه في القتال (ان الله على كل شئ قدير) فهو يقدر على الانتقام منهم من القتل والاجلاء (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) الواجبتين عليكم ولما أمر الله المؤمنين بالعفو والصفح عن اليهود أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم فقال أقيموا الصلاة (وما تقدموا لانفسكم من خير) أي عمل صالح أي أي شئ من التطوعات تقدموه لمصلحة أنفسكم (تجدوه عند الله) أي تجدوا ثوابه مدخرا عند الله (ان الله بما تعملون بصير) فلا يضيع عنده عمل (وقالوا) عطف على ود (لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى) أي قالت يهود المدينة لن يدخل الجنة الا اليهود ولا دين الا دين اليهودية وقالت نصارى نجران لن يدخل الجنة الا النصارى ولا دين الا دين النصرانية وقرأ أبي بن كعب الا من كان يهوديا أو

نصرانيا أي قالوا ذلك لما تناظروا بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم (تلك) أي الاماني الباطلة وهي أمنيهم ان لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأمنيهم ان يروا المؤمنين كفارا وأمنيهم ان لا يدخل الجنة غيرهم (أمانيهم) أي مغنياتهم على الله ماليس في كتابهم (قل) يا أشرف الخلق (هاتوا برهانكم) أي أحضروا حجتكم من كتابكم (ان كنتم صادقين) في مقالتكم (بلى) يدخل الجنة غيرهم (من أسلم وجهه) أي من أخلص نفسه (لله) لا يشرك به شيأ (وهو محسن) في جميع أعماله (فله أجره) الذي وعده على عمله (عند ربه) أي في الجنة (ولا خوف عليهم) في الدارين من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) من فوات مطلوب ولما قدم نصارى نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتخاصموا في الدين حتى ارتفعت أصواتهم فقالت لهم اليهود ما أنتم على شئ من الدين وقالت النصارى لليهود ما أنتم على شئ من الدين أنزل الله تعالى هذه الآية (وقالت اليهود) أي يهود المدينة (ليست النصارى على شئ) أي أمر يعتد به من الدين قاله رافع بن حرملة فكفر بعيسى والانجيل (وقالت النصارى ليست اليهود على شئ) قاله رجل من أهل نجران فكفر بموسى والتوراة كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس (وهم) أي الفريقان (يتلون الكتاب) المنزل عليهم ويقولون ماليس فيه وكان حق كل منهم أن يقر بحقيقة دين خصمه بحسب ما ينطق به كتابه فان في كتاب اليهود تصديق عيسى وفي كتاب النصارى تصديق موسى (كذلك) أي مثل ذلك الذي سمعت به (قال الذين لا يعلمون) كتاب الله قال السدي هم العرب وقال عطاء هم أمم كانت قبل اليهود والنصارى كما أخرجهما ابن جرير (مثل قولهم) بدل من كذلك بيان للكاف أي لأهل كل دين أنهم ليسوا على شئ يصح (فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه) من الدين (يختلفون) فيقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه وقال الحسن أي فالله يكذبهم جميعا ويدخلهم النار (ومن أظلم) أي لا أحد أظلم (ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) بالصلاة والتسبيح (وسعى) أي عمل (في خرابها) بالهدم أو التعطيل بانقطاع الذكر (أولئك) المانعون الساعون في خرابها (ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين) أي ما كان ينبغي لهم ان يدخلوا المساجد الا بخشية وخضوع وقيل معنى هذه الجملة النهي عن تمكين الكفار من الدخول في المسجد واختلف الائمة في ذلك فجوزه أبو حنيفة مطلقا ومنعه مالك مطلقا وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس انهم قريش كما قيل ان هذه الآية نزلت في شأن مشركي العرب الذين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء الى الله بمكة وألجؤه الى الهجرة فصاروا مانعين له ولاصحابه ان يذكروا الله في المسجد الحرام وقد كان الصديق رضي الله عنه بنى مسجدا عند داره فمنع وكان ممن يؤذيه ولدان قريش ونساؤهم وقيل ان أبا بكر رضي الله عنه كان له موضع صلاة فخربته قريش لما هاجر ومن طريق العنوي عن ابن عباس انهم النصارى كما نقل عن ابن عباس ان طيطيوس ابن اسبيانوس الرومي ملك النصارى وأصحابه غزوا بني اسرائيل وقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم وأحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير ولم يزل بيت المقدس خرابا حتى بناه المسلمون في زمن عمر رضي الله عنه ومعنى هذه الآية حينئذ لا أحد أظلم في كفره ممن خرب بيت المقدس لكيلا يذكر فيه اسمه بالتوحيد والاذان وعمل في خرابه من القاء الجيف فيه أولئك أي أهل الروم ما كان لهم أمن في دخوله الا مستخفين من المؤمنين مخافة القتل وهذا الحكم عام لكل من فعل ذلك في أي مسجد كان (لهم في الدنيا خزي) أي هوان بالقتل والسبي وضرب الجزية عليهم

(ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) وهو عذاب النار (ولله المشرق والمغرب) أى له تعالى كل الارض فان منعتم أن تصلوا فى المسجد الحرام أو المسجد الاقصى فقد جعلت لكم الارض كلها مسجدا (فأينما تولوا) وجوهكم فى الصلاة بأمره (فثم) أى هنالك (وجه الله) أى قبلته كما قاله مجاهد وقرئ بفتح التاء واللام أى فاينما توجهوا الى القبلة فثم مرضاة الله (ان الله واسع) برحمته يريد التوسعة على عباده (عليم) بمصالحهم وأعمالهم فى الاماكن كلها أى ان الله تعالى أراد تحويل المؤمنين عن استقبال بيت المقدس الى الكعبة فبين تعالى ان المشرق والمغرب وجميع الجهات ملوكه تعالى فأينما أمركم الله باستقباله فهو القبلة لأن القبلة ليست قبلة لذاتها بل ان الله تعالى جعلها قبلة فان جعل الكعبة قبلة فلا تنكروا ذلك لانه تعالى يدبر عباده كيف يريد وقال ابن عباس لما حولت القبلة عن بيت المقدس أنكر اليهود ذلك فنزلت هذه الآية ردا عليهم وقال أبو مسلم ان اليهود انما استقبلوا بيت المقدس لانهم اعتقدوا ان الله تعالى صعد السماء من الصخرة والنصارى انما استقبلوا المشرق لأن عيسى عليه السلام ولد هنالك فرد الله عليهم بهذه الآية (وقالوا اتخذ الله) أى صنع (ولدا) وقرأ ابن عامر قالوا بغير واو وقبل القاف أى قالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح بن الله وقال مشركوا العرب الملائكة بنات الله فقال الله تعالى ردا عليهم (سبحانه) وهى كلمة تنزيه ينزه الله تعالى بها نفسه عما قالوه (بل له ما فى السموات والارض) والملكية تنافى الولدية أى ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التى من جملتها عزير والمسيح والملائكة (كل له قانتون) أى كل ما فى السموات والارض مطيعون له لا يستعصى شئ منهم على تكوينه ومشيئته فالطاعة هنا طاعة الارادة لا طاعة العبادة (بديع السموات والارض) أى موجدهما بلا مثال (واذا قضى أمرا) أى اذا أراد ايجاد شئ (فانما يقول له كن فيكون) أى احدث فيحدث وقوله كن تمثيل لسهولة حصول المقدورات بحسب تعلق مشيئته تعالى وتصوير لسرعة حدوثها من غير توقف كطاعة المأمور المطيع للآمر القوى المطاع ولا يكون من المأمور الاباء وقرأ ابن عامر كن فيكون بالنصب فى كل القرآن الا فى موضعين فى أول آل عمران فى قوله تعالى كن فيكون الحق من ربك وفى الانعام فى قوله تعالى كن فيكون الحق فانه رفعهما وقرأ الكسائى بالنصب فى النحل ويس وبالرفع فى سائر القرآن والباقون بالرفع فى كل القرآن أما النصب فعلى جواب الأمر وأما الرفع فاما على انه خبر مبتدا محذوف أى فهو يكون أو معطوف على يقول أو معطوف على كن من حيث المعنى كما هو قول الفارسى (وقال الذى لا يعلمون) للنبى صلى الله عليه وسلم وهم اليهود منهم رافع بن حرملة كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس أو النصارى كما قاله مجاهد ووصفهم بعدم العلم لعدم علمهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغى أو هم كفار العرب كما أخرج عن قتادة (لولا يكلمنا الله) أى هلا يكلمنا الله مشافهة من غير واسطة بالامر والنهى كما يكلم الملائكة أو موسى وهذا نص على نبوتك وهذا منهم استكبار (أو تأتينا آية) أى فان كان الله تعالى لا يفعل ذلك فلم لا يخصك بآية ومعجزة تأتينا وهذا منهم انكار فى كون القرآن آية ومعجزة لانهم لو أقروا بكونه معجزة لاستحال ان يقولوا ذلك ثم أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله (كذلك) أى مثل ذلك القول الشنيع الصادر عن العناد (قال الذين من قبلهم) أى من كفار الامم الماضية لانبيائهم (مثل قولهم) فى التشديد وطلب الآيات فقالوا أرنا الله جهرة وقالوا لن نصبر على طعام واحد وقالوا اجعل لنا الها وقالوا هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء (تشابهت قلوبهم) أى توافقت قلوبهم مع آبائهم واستوت كلمتهم فى الكفر

والعناد

والعناد (قد بينا الآيات) أى نزلنا بينة (لقوم يوقنون) أى يطلبون اليقين وحاصل هذا الجواب من الله تعالى انا قد أيدنا قول محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزات وبينا صحة قوله بالآيات وهى القرآن وسائر المعجزات فكان طلب هذه الزوائد من باب التعنت واذا كان كذلك لم يجب اجابتها (انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) أى انا أرسلناك ملتبسا بالقرآن والدين لتكون مبشرا لمن اتبعك واهتدى بدينك ومنذرا لمن كفر بك وضل عن دينك أو المعنى انا أرسلناك صادقا حال كونك بشيرا لمن صدقك بالثواب ونذيرا لمن كذبك بالعذاب (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) قرأ الجمهور برفع التاء واللام على الخبر أى ولست بمسؤول عنهم مالهم لم يؤمنوا بما أنزل عليك بعدما بلغت ما أرسلت به وقرأ نافع بالجزم وفتح التاء على النهى أى لا تسأل عن حال كفار أهل الكتاب التى تكون لهم فى القيامة ولا يمكنك فى هذه الدار الاطلاع عليها وذلك اعلام بكمال شدة عقوبة الكفار فلا يستطيع السامع أن يسمع خبرها (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) أى لن ترضى عنك يهود المدينة ولو خليتهم وشأنهم (حتى تتبع) دينهم وقبلتهم ولن ترضى عنك نصارى نجران ولو تركتهم ودينهم حتى تتبع ملتهم وقبلتهم (قل ان هدى الله هو الهدى) أى قل لهم يا أشرف الخلق ردا لقولهم لك لن نرضى عنك حتى تتبع ديننا ان دين الله هو الاسلام وان قبلة الله هى الكعبة (ولئن اتبعت) على سبيل التقدير أو المراد من هذا الخطاب أمته صلى الله عليه وسلم (أهواءهم) أى أقوالهم التى هى أهواء النفس وهو المعبر عنها أولا بقوله تعالى ملتهم اذ هم الذين ينتسبون اليها أما الشريعة الحقيقة من الله فقد غيروها تغييرا أى والله لئن اتبعت ملتهم وقبلتهم (بعد الذى جاءك من العلم) أى من الدين المعلوم صحته فى ان دين الله هو الاسلام وقبلة الله هى الكعبة (مالك من الله) أى من عذاب الله (من ولى) أى قريب ينفعك (ولا نصير) يمنعك منه (الذين آتيناهم الكتاب) عبد الله بن سلام وأصحابه وبحيرا الراهب وأصحابه والنجاشى وأصحابه (يتلونه حق تلاوته) أى يقرؤنه كما أنزل لا يغيرونه ولا يبدلون ما فيه من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتدبرون فى معانيه ويخضعون عند تلاوته ويبينون أمره ونهيه لمن سألهم (أولئك يؤمنون به) أى بكتابهم ويعملون بمتشابهه ويتوقفون فيما أشكل عليهم منه ويفوضونه الى الله تعالى ويعملون بمحكمه (ومن يكفر به) أى بالكتاب المؤتى بأن يغيره (فأولئك هم الخاسرون) حيث اشتروا الكفر بالايمان (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) ومن جملة النعمة التوراة وذكر النعمة انما يكون بشكرها وشكرها الايمان بجميع ما فيها ومن لازم الايمان بها الايمان بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم لان نعت النبى من جملة ما فيها (وأنى فضلتكم) بالاسلام (على العالمين) أى الموجودين فى زمانكم (واتقوا يوما) أى اخشوا عذاب يوم (لا تجزى نفس عن نفس شيأ) من عذاب الله (ولا يقبل منها عدل) أى فداء (ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) أى يمنعون مما يريد الله بهم ثم ذكر الله تعالى قصة ابراهيم توبيخا لاهل الملل المخالفين وذلك لان ابراهيم يعترف بفضله جميع الطوائف قديما وحديثا فالمشركون كانوا متشرفين بانهم من أولاده ومن ساكنى حرمه وخادمى بيته واهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا متشرفين بأنهم من أولاده فحكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام امورا توجب على المشركين واليهود والنصارى قبول قول محمد صلى الله عليه وسلم وانقياد شرعه لان ما اوجبه الله تعالى على ابراهيم جاء به محمد كأفعال الحج واستقبال الكعبة وفى ذلك حجة عليهم فقال تعالى (واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) اى بأوامر ونواه قيل قال ابن عباس وقتادة هى

مناسك الحج كالاحرام والطواف والسعي والرمي وقال ابن عباس هي عشر خصال كانت فرضا في شرعه
وهي سنة في شرعنا خمس في الرأس وخمس في الجسد أما التي في الرأس فالمضمضة والاستنشاق والسواك
وقص الشارب وفرق الرأس اى فرق شعره الى الجانب الايمن والجانب الايسر واما التي في البدن فالختان
وحلق العانة ونتف الابط وتقليم الاظفار والاستنجاء بالماء وقرأ ابن عباس وابو حيوة ابراهيم ربه برفع
ابراهيم ونصب ربه والمعنى ان ابراهيم دعا ربه بكلمات من الدعاء كفعل المختبر هل يجيبه الله تعالى اليهن
أم لا (فأتمهن) اى قام بها حق القيام وأداها أحسن التأدية من غير تفريط (قال) تعالى له (انى جاعلك
للناس اماما) اى قدوة في الدين الى يوم القيامة والذي يكون كذلك لابد وان يكون رسولا من عند الله
مستقلا بالشرع وأن يكون نبيا اذ لم يبعث بعده نبي الا كان من ذريته مأمورا باتباعه في الجملة (قال)
اى ابراهيم (ومن ذريتي) اى واجعل من بعض اولادي أئمة يقتدى بهم في الدين (قال) الله (لا ينال
عهدي الظالمين) اى لا يصيب عهدي بالامامة والنبوة الكافرين وكل عاص فانه ظالم لنفسه وقرأ قتادة
والاعمش وابو رجاء الظالمون رفعا بالفاعلية وعهدي مفعول به وفي هذا دليل على عصمة الانبياء عليهم
السلام من الكبائر مطلقا (واذ جعلنا البيت) اى جميع الحرم (مثابة للناس) اى مرجعا لهم فانهم
يثوبون اليه كل عام بأعيانهم او بأمثالهم كما قاله الحسن أو المراد لا ينصرف عنه أحد الا وهو يتمنى العود
اليه كما قاله ابن عباس ومجاهد او المعنى جعلنا الكعبة موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره (وأمنا) اى
موضع أمن لمن يسكنه ويلجأ اليه من الاعداء والخسف والمسخ أو آمنا من حجه من عذاب الآخرة من حيث
ان الحج يجب ما قبله وحمل بعضهم هذه الكلمة على الامر على سبيل التأويل والمعنى ان الله تعالى أمر
الناس بأن يجعلوا ذلك الموضع آمنا من الغارة والقتل فكأن البيت محترم بحكم الله تعالى (واتخذوا من
مقام ابراهيم مصلى) روى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان ابراهيم عليه السلام كان يبني البيت
واسمعيل يناوله الحجارة ويقولان ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم فلما ارتفع البنيان وضعف
ابراهيم عن وضع الحجارة قام على حجر وهو مقام ابراهيم عليه السلام وقرأ ابن كثير وابو عمرو وحمزة وعاصم
والكسائي واتخذوا بكسر الخاء على صيغة الامر قال قتادة والسدي امروا أن يصلوا عنده وعلى هذا
فهذه الجملة كلام اعترض في خلال ذكر قصة ابراهيم عليه السلام فكأنه تعالى قال واذ جعلنا البيت
مثابة للناس وأمنا واتخذوا أنتم يا أمة محمد من مقام ابراهيم مصلى والتقدير أنا لما شرفناه ووصفناه بكونه
مثابة للناس وأمنا فاتخذوه قبلة لانفسكم وقرأ نافع وابن عامر واتخذوا بفتح الخاء على صيغة الماضي فهو
اخبار عن ولد ابراهيم انهم اتخذوا من مقامه مصلى (وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل) اى أمرناهما (أن طهرا
بيتي) أى بأن أسساه على التقوى وقيل معناه عرفا الناس ان بيتي طهرة لهم متى حجوه وزاروه وأقاموا فيه
(للطائفين والعاكفين والركع السجود) جمع راكع وساجد فالمراد بالطائفين من يقصد البيت حاجا او معتمرا
فيطوف به وبالعاكفين من يقيم هناك ويجاوره وبالركع السجود من يصلي هناك قال عطاء فاذا كان
الشخص طائفا فهو من الطائفين واذا كان جالسا فهو من العاكفين واذا كان مصليا فهو من الركع
السجود ثم اذا فسرنا الطائفين بالغرباء فحينئذ تدل الآية على أن الطواف للغرباء أفضل من الصلاة روي
عن ابن عباس ومجاهد وعطاء أن الطواف لاهل الامصار أفضل والصلاة لاهل مكة أفضل (واذ قال
ابراهيم رب اجعل هذا) الحرم (بلدا آمنا) أى كثير الخصب فان الدنيا اذا طلبت ليتقوى بها على
الدين كان ذلك من أعظم أركان الدين فاذا كان البلد آمنا وحصل فيه الخصب تفرغ أهله لطاعة الله

تعالى وأيضا ان الخصب مما يدعو الانسان الى تلك البلدة فهو سبب اتصاله فى الطاعة (وارزق أهله) أى الحرم (من الثمرات) وقد حصل فى مكة الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد روى أن الطائف كانت من مدائن الشام فى أردن فلما دعا ابراهيم بهذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى قطعها من أصلها وأدارها حول البيت سبعا ثم وضعها موضعها الآن فمنها أكثر ثمرات مكة (من آمن منهم بالله واليوم الآخر) بدل من أهله بدل البعض خصهم سيدنا ابراهيم بالدعاء مراعاة لحسن الادب وفى ذلك ترغيب لقومه فى الايمان (قال) تعالى (ومن كفر) أى ارزقه (فأمتعه بالرزق (قليلا) أى مدة عمره وقرأ ابن عباس بسكون الميم (ثم أضطره) أى ألجأه فى الآخرة (الى عذاب النار وبئس المصير) هى النار (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل) أى واذ يرفع ابراهيم واسماعيل الجدران التى هى من البيت أى التى هى بعضه المستتر من الارض قيل بنى ابراهيم البيت من خمسة أجبل طور سيناء وطور زيتا ولبنان والجودى وأسسه من حراء وجاء جبريل عليه السلام بالحجر الاسود من السماء وكان ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة فلما لمسته الحيض فى الجاهلية اسود يقولان (ربنا تقبل منا) بناءنا بيتك (انك أنت السميع) لدعائنا (العليم) بنياتنا فى جميع أعمالنا (ربنا واجعلنا مسلمين) أى مخلصين (لك) بالتوحيد والعبادة لا نعبد الا ياك (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) أى واجعل بعض أولادنا جماعة مخلصة لك (وأرنا مناسكنا) أى علمنا سنن حجنا (وتب علينا) أى تجاوز عنا تقصيرنا والعبد وان اجتهد فى طاعة ربه فانه لا ينفك عن التقصير من بعض الوجوه اما على سبيل السهو أو على سبيل ترك الاولى فكان هذا الدعاء لاجل ذلك (انك أنت التواب) أى المتجاوز لمن تاب (الرحيم) به (ربنا وابعث فيهم) أى فى ذريتنا (رسولا منهم) أى من أنفسهم وهو النبى صلى الله عليه وسلم ولذلك قال أنا دعوة أبى ابراهيم أخرجه أحمد من حديث العرباض بن سارية وغيره (يتلوا عليهم آياتك) أى يذكرهم بالآيات ويدعوهم اليها ويحملهم على الايمان بها (ويعلمهم الكتاب) أى يأمرهم بتلاوة الكتاب ويعلمهم معانى الكتاب وحقائقه (والحكمة) قال الشافعى رضى الله عنه الحكمة سنة رسول صلى الله عليه وسلم وهو قول قتادة (ويزكيهم) أى يطهرهم من شركهم (انك أنت العزيز) أى القادر الذى لا يغلب (الحكيم) أى العالم الذى لا يجهل شيأ ههنا سؤال ما الحكمة فى ذكر ابراهيم مع محمد فى باب الصلاة حيث يقال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فجوابه أن ابراهيم دعا لمحمد بهذه الدعوة فأجرى الله ذكر ابراهيم على ألسنة أمة محمد الى يوم القيامة أداء عن حق واجب على محمد لابراهيم والجواب الثانى أن ابراهيم سأل ربه بقوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين أى أبق لى ثناء حسنا فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فأجابه الله تعالى فقرن بين ذكرهما ابقاء للثناء الحسن على ابراهيم فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم والجواب الثالث أن ابراهيم كان أبا الملة ومحمد كان أبا الرحمة وفى قراءة ابن مسعود النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وقال صلى الله عليه وسلم انما أنا لكم مثل الوالد أى فى الرأفة والرحمة فلما وجب لكل واحد منهما حق الابوة من وجه قرن بين ذكرهما فى باب الثناء والصلاة والجواب الرابع أن ابراهيم كان منادى الشريعة فى الحج ومحمد كان منادى الايمان فجمع الله تعالى بينهما فى الذكر الجميل (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه) أى لا يكره أحد ملة ابراهيم الا من جهل نفسه وخسر نفسه كما قاله الحسن أى فلم يفكر فى نفسه فيستدل بما يجده فيها من آثار الصنعة على وحدانية الله وعلى حكمته

To: www.al-mostafa.com

ثم يستدل بذلك على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (ولقد اصطفيناه فى الدنيا) أى اخترناه فى الدنيا للرسالة من دون سائر الخليقة وعرفناه الملة التى هى جامعة للتوحيد والعدل والشرائع (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) أى مع آبائه المرسلين فى الجنة (اذ قال له ربه) عند استدلاله بالكوكب والقمر والشمس واطلاعه أمارات الحدوث فيها وذلك قبل النبوة وقبل البلوغ وذلك حين خرج من السرب (أسلم) أى فزد فى مقالتك وقل لا اله الا الله (قال أسلمت لرب العالمين) و يقال قال له ربه حين دعا قومه الى التوحيد أسلم أى أخلص دينك وعملك لله قال أسلمت اى أخلصت دينى وعملى لله رب العالمين و يقال قال له ربه حين ألقى فى النار أسلم نفسك الىّ قال أسلمت نفسى لله رب العالمين أى فوضت أمرى اليه وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى فى النار (ووصى) وقرأ نافع وابن عامر وأوصى بهمزة مفتوحة قبل واو ساكنة (بها) اى باتباع الملة (ابراهيم بنيه) وكانوا ثمانية اسماعيل وهو أول أولاده وأمه هاجر القبطية واسحق وامه سارة والبقية وهم مدن ومدين و يقشان وزمران واشبق وشوح امهم قنطوراء الكنعانية تزوجها ابراهيم بعد وفاة سارة (ويعقوب) والاشهر انه معطوف على ابراهيم ويجوز كونه مبتدا محذوف الخبر والمعنى أن يعقوب وصى كوصية ابراهيم وقرئ بالنصب عطفا على بنيه والمعنى وصى بها ابراهيم بنيه ونافلته يعقوب (يا بنى) هو على اضمار القول عند البصريين ومتعلق بوصى عند الكوفيين لانه فى معنى القول (ان الله اصطفى) أى اختار (لكم الدين) اى دين الاسلام الذى هو صفوة الأديان (فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) أى فاثبتوا على الاسلام حتى تموتوا مسلمين مخلصين له تعالى بالتوحيد والعبادة روى أن اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات نزلت هذه الآية (أم كنتم شهداء) اى أكنتم يامعشر اليهود حضراء (اذ حضر يعقوب الموت) بماذا أوصى بنيه باليهودية أو الاسلام أى حضره أسباب الموت (اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى) أى أى شئ تعبدونه بعد موتى (قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون) أى مقرون بالعبادة والتوحيد (تلك) أى ابراهيم ويعقوب و بنوهما (أمة) أى جماعة (قد خلت) اى مضت بالموت (لها) أى لتلك الامة (ما كسبت) من الخير اى جزاؤه (ولكم) اى يامعشر اليهود (ما كسبتم) اى جزاء ما كسبتموه من العمل (ولا تسئلون) يوم القيامة (عما كانوا يعملون) كما لا يسئلون عن عملكم روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ياصفية عمة محمد يافاطمة بنت محمد ائتونى يوم القيامة بأعمالكم لا بأنسابكم فانى لا أغنى عنكم من الله شيأ وقال ومن ابطأ به عمله لم يسرع به نسبه (وقالوا كونوا هودا أو نصارى) أى قالت يهود المدينة للمؤمنين كونوا هودا أى اتبعوا اليهودية وقالت نصارى نجران للمؤمنين كونوا نصارى اى اتبعوا النصرانية (تهتدوا) من الضلالة (قل بل ملة ابراهيم) أى قل يا اشرف الخلق بل اتبعوا ملة ابراهيم اى بل نكون أهل ملة ابراهيم (حنيفا) اى مستقيما مخالفا لليهود والنصارى منحرفا عنهما (وما كان من المشركين) اى ما كان ابراهيم على دينهم وهذا اعلام ببطلان دعواهم اتباعه عليه السلام مع اشراكهم بقوله عزير بن الله والمسيح بن الله (قولوا) أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم ذلك (آمنا بالله وما انزل الينا) وهو القرآن (وما أنزل الى ابراهيم) من الصحف العشرة (واسماعيل واسحق و يعقوب والاسباط) وهم بنو يعقوب وكانوا اثنى عشر رجلا وهم يوسف و بنيامين وروبيل و يهوذا وشمعون ولاوى ودان ونفتالى وجاد وربالون و يشجر ودان والصحف انما أنزلت على ابراهيم لكن لما كانوا متعبدين

بتلك الصحف كانوا داخلين تحت أحكامها فكانت منزلة اليهم ايضا كما ان القرآن منزل الينا (وما أوتى موسى) من التوراة (وعيسى) من الانجيل (وما أوتى النبيون من ربهم) من كتبهم والمعجزات (لا نفرق بين أحد منهم) كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض بل نؤمن بجميعهم (ونحن له) أى لله (مسلمون) اى مخلصون (فان آمنوا) اى اليهود والنصارى (بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) اى فان آمنوا بالتوراة من غير تصحيف وتحريف كما أنكم آمنتم بالقرآن من غير تصحيف وتحريف فقد اهتدوا لانهم يتوصلون بذلك الى معرفة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو المعنى فان صاروا مؤمنين بمثل ما به صرتم مؤمنين فقد اهتدوا من الضلالة بدين محمد وابراهيم (وان تولوا) أى أعرضوا عن الايمان بالنبيين وكتبهم (فانما هم فى شقاق) أى فانما هم مستقرون فى خلاف عظيم بعيد من الحق (فسيكفيكهم الله) اى سيكفيك الله شقاقهم وقد أنجز الله تعالى وعده بقتل بنى قريظة وسبيهم واجلاء بنى النضير وضرب الجزية عليهم (وهو السميع العليم) فيدرك ما يقولون وما يضمرون وقادر على عقوبتهم (صبغة الله) اى الزموا صبغة الله وهى دين الاسلام عبر بها عن الدين لكونه تطهيرا للمؤمنين من أوضار الكفر وحلية تزينهم بآثاره الجميلة ومتداخلا فى قلوبهم كما أن شأن الصبغ بالنسبة الى الثوب كذلك كما قيل اغماسى دين الله بصبغة الله لان اليهود تصبغ أولادها يهودا والنصارى تصبغ أولادها نصارى بمعنى انهم يلقنونهم فيصبغونهم بذلك لما يشربون فى قلوبهم فقال تعالى صبغة الله اى اتبعوا دين الله (ومن أحسن من الله صبغة) اى لا صبغة أحسن من صبغته تعالى لانه تعالى يصبغ عباده بالايمان ويطهرهم به من أوساخ الكفر (ونحن له) اى لله الذى أعطانا تلك النعمة الجليلة (عابدون) شكرا لها ولسائر نعمه (قل أتحاجوننا فى الله) اى فى شأن الله أن اصطفى رسوله من العرب لا منكم وتقولون لو أنزل الله على أحد لأنزل عليكم وترونكم أحق بالنبوة منا (وهو ربنا وربكم) فانه أعلم بتدبير خلقه وبمن يصلح للرسالة وبمن لا يصلح لها فلا تعترضوا على ربكم فان العبد ليس له أن يعترض على ربه بل يجب عليه تفويض الأمر بالكلية له (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) اى لا يرجع الينا من افعالكم ضرر واغا مرادنا نصحكم وارشادكم (ونحن له مخلصون) فى العبودية ولستم كذلك فنحن أولى بالاصطفاء (أم تقولون) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم بالتاء على المخاطبة فأم يحتمل أن تكون متصلة معادلة للهمزة والتقدير بأى الحجتين تتعلقون فى أمرنا بالتوحيد أم باتباع دين الانبياء وان تكون منقطعة مقدرة ببل والهمزة دالة على الانتقال من التوبيخ على المحاجة الى التوبيخ على الافتراء على الانبياء عليهم السلام وقرأه الباقون بالياء على صيغة الغيبة فأم منقطعة غير داخلة تحت الامر واردة من الله تعالى توبيخا لهم لا من جهة رسول الله صلى الله عليه وسلم على نهج الالتفات (ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط) اى أولاد يعقوب (كانوا) قبل نزول التوراة والانجيل (هودا أو نصارى قل) يا أشرف الخلق لهم (أأنتم أعلم) بدينهم (أم الله) فان الله أعلم وخبره أصدق وقد أخبر فى التوراة والانجيل وفى القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم انهم كانوا مسلمين مبرئين من اليهودية والنصرانية (ومن أظلم) أى لا أحد أظلم (ممن كتم شهادة) ثابتة (عنده) كائنة (من الله) وهو شهادته تعالى لابراهيم عليه السلام بدين الاسلام والبراءة من اليهودية والنصرانية وهم اليهود (وما الله بغافل عما تعملون) أى تكتمون من الشهادة (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) هذا تكرير ليكون وعظا لليهود وزجرا لهم حتى لا يتكلموا على فضل الآباء فكل واحد يؤخذ

بعمله (سيقول السفهاء) أى الجهال الذين خفت أحلامهم (من الناس) وهم اليهود كما قاله ابن عباس ومجاهد لانكار النسخ وكراهة التوجه الى الكعبة والقائل منهم رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الاشرف ورافع بن حرملة والحجاج بن عمرو والربيع بن أبى الحقيق وقيل هم المنافقون كما قاله السدى لمجرد الاستهزاء والطعن وقيل هم مشركو العرب كما قاله ابن عباس والبراء بن عازب والحسن والاصم للطعن فى الدين (ماولاهم) أى أى شئ صرف المؤمنين (عن قبلتهم التى كانوا عليها) وهى بيت المقدس (قل) لهم يا أشرف الخلق (لله المشرق والمغرب) أى الجهات كلها ملكا والخلق عبيده لا يختص به مكان وانما العبرة بامتثال أمره لا بخصوص المكان (يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) أى موصل الى سعادة الدارين وقد هدانا الى ذلك حيث أمرنا بالتوجه الى بيت المقدس تارة والى الكعبة تارة اخرى (وكذلك) أى كما هديناكم الى قبلة هى أوسط القبل (جعلناكم) يا أمة محمد (امة وسطا) أى خيارا عدولا ممدوحين بالعلم والعمل (لتكونوا شهداء على الناس) يوم القيامة أن رسلهم بلغتهم (ويكون الرسول عليكم شهيدا) أى يشهد بعد التكم روى أن الامم يجحدون تبليغ الانبياء فيطالب الله تعالى الانبياء بالبينة على انهم قد بلغوا وهو أعلم فيقولون أمة محمد يشهدون لنا فيؤتى بامة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فتقول الامم الماضية من أين عرفتم وأنتم بعدنا فيقولون علمنا ذلك باخبار الله تعالى فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وقيل معنى قوله تعالى ويكون الرسول عليكم شهيدا انه صلى الله عليه وسلم اذا ادعى على أمته أنه بلغهم تقبل منه هذه الدعوى ولا يطالب بشهيد يشهد له فسميت دعواه شهادة من حيث قبولها وعدم توقفها على شئ آخر (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) أى وما صيرنا لك القبلة الآن الجهة التى كنت عليها أولا وهى الكعبة الا لنعاملهم معاملة من يمتحنهم ونعلم حينئذ من يتبع الرسول فى التوجه الى ما أمر به ممن يرتد عن دين الاسلام وكان صلى الله عليه وسلم يصلى الى الكعبة فلما هاجر أمر بالصلاة الى صخرة بيت المقدس تألفا لليهود فصلى اليها سبعة عشر شهرا ثم حول الى الكعبة وارتد قوم من المسلمين الى اليهودية وقالوا رجع محمد الى دين آبائه (وان) هى المخففة من الثقيلة أى وانها (كانت) أى التولية الى الكعبة (لكبيرة) أى شاقة على الناس (الا على الذين هدى الله) منهم وهم الثابتون على الايمان (وما كان الله ليضيع ايمانكم) أى ثباتكم على الايمان بل أعد لكم الثواب العظيم وقيل ايمانكم بالقبلة المنسوخة وصلاتكم اليها أى فان الله لا يضيع تصديقكم بوجوب تلك الصلاة (ان الله بالناس) أى بالمؤمنين (لرؤف رحيم) فلا يدع صلاتهم الى بيت المقدس (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) فقد للتكثير أى كثيرا نرى تصرف نظرك فى جهة السماء انتظارا للوحى وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يترجى من ربه أن يحوله الى الكعبة لانها قبلة ابراهيم ابيه وأدعى للعرب الى الايمان لانها مفخر لهم ولمخالفة اليهود فكان ينتظر نزول جبريل بالوحى بالتحويل (فلنولينك قبلة ترضاها) أى فلنحولنك فى الصلاة الى قبلة تحبها لاغراضك الصحيحة التى أضمرتها فى قلبك (فول وجهك شطر المسجد الحرام) أى فاصرف جملة بدنك تلقاء الكعبة أى استقبل عينها بصدرك فى الصلاة وان كنت بعيدا عنها والمراد بالمسجد الحرام هنا الكعبة كما هو فى أكثر الروايات وقال آخرون المراد بالمسجد الحرام جميع المسجد لطيبه وقال آخرون والمراد به الحرم كله وروى عن ابن عباس انه قال البيت قبلة لاهل المسجد والمسجد

قبلة

قبلة لاهل الحرم والحرم قبلة لاهل المشرق والمغرب وهذا قول مالك (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) أى فى أى موضع كنتم يا أمة محمد منه برأو بحر مشرق أو مغرب فاصرفوا وجوهكم تلقاء المسجد الحرام الذى هو يعنى الكعبة (وان الذين أوتوا الكتاب) هم أحبار اليهود وعلماء النصارى (ليعلمون أنه) أى التولى الى الكعبة (الحق من ربهم) لعاينتهم لما هو مسطور فى كتبهم من أنه صلى الله عليه وسلم يصلى الى القبلتين ولكن يكتمونه (وما الله بغافل عما يعملون) قرأه ابن عامر وحمزة والكسائى بالتاء اما خطاب للمسلمين أى وما الله بساه عما تعملون أيها المسلمون من امتثال أمر القبلة واما خطاب لاهل الكتاب أى وما الله بغافل عما تكتمون يا أهل الكتاب خبر الرسول وخبر القبلة وقرأ الباقون بالياء على أنه راجع لهؤلاء (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك) أى والله لئن جئت الذين أعطوا الكتاب اليهود والنصارى بكل حجة قطعية دالة على صدقك فى ان تحولك بأمر من الله ما صلوا الى قبلتك وما دخلوا فى دينك (وما أنت بتابع قبلتهم) أى اليهود والنصارى وهذا بيان أن هذه القبلة لا تصير منسوخة وحسم اطماع أهل الكتاب وقرئ بتابع قبلتهم بالاضافة (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) فلليهود بيت المقدس وللنصارى المشرق (ولئن اتبعت أهواءهم) أى الامور التى يحبونها منك (من بعد ما جاءك من العلم) أى الوحى فى أمر القبلة بأنك لا تعود الى قبلتهم (انك اذا) أى انك لو فعلت ذلك على سبيل تقدير المستحيل وقوعه (لمن الظالمين) لانفسهم (الذين آتيناهم الكتاب) أى أعطيناهم علم التوراة (يعرفونه) أى رسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة جلية يميزون بينه وبين غيره (كما يعرفون أبناءهم) لا تشتبه عليهم أبناؤهم وأبناء غيرهم قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لعبد الله بن سلام رضى الله عنه كيف هذه المعرفة المذكورة فى هذه الآية فقال عبد الله يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ومعرفتى بمحمد أشد من معرفتى بابنى فقال عمر فكيف ذلك فقال أشهد أنه رسول الله حقا وقد نعته الله تعالى فى كتابنا ولا أدرى ما تصنع النساء فقبل عمر رأسه وقال وفقك الله يا أبا سلام لقد صدقت (وان فريقا منهم) أى من أهل الكتاب (ليكتمون الحق) أى أمر محمد صلى الله عليه وسلم (وهم يعلمون) أن صفة محمد مكتوبة فى التوراة والانجيل وان كتمان الحق معصية (الحق من ربك) مبتدأ أو خبر أى الحق الذى أنت عليه يا رسول الله صلى الله عليه وسلم كائن من ربك ويحتمل أن الحق خبر مبتدا محذوف أى ما كتموه هو الحق وقرأ على رضى الله عنه الحق من ربك بالنصب على انه بدل من الاول أو مفعول ليعلمون (فلا تكونن من الممترين) أى الشاكين فى أن علماء أهل الكتاب علموا صحة نبوتك وشريعتك (ولكل وجهة) قال بعضهم أى لكل قوم من المسلمين جهة من الكعبة يصلى اليها جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية وقال آخرون ولكل واحد من الرسل وأصحاب الشرائع جهة قبلة فقبلة المقربين العرش وقبلة الروحانيين الكرسى وقبلة الكروبيين البيت المعمور وقبلة الانبياء الذين قبلك حتى عيسى عليه السلام بيت المقدس وقبلتك الكعبة وهى قبلة ابراهيم (هو) أى الله (موليها) أى أمر بأن يستقبلها وفى قراءة عبد الله بن عامر النخعى هو مولاها وهى قراءة ابن عباس وأبى جعفر محمد بن على الباقر والمعنى هو أى كل قوم مولى لتلك الجهة وقرئ ولكل وجهة بالاضافة (فاستبقوا الخيرات) أى فبادروا يا أمة محمد الى الطاعات وقبول أوامرها (أين ما تكونوا) أى فى أى موضع تكونوا من بر أو بحر (يأت بكم الله جميعا) أى يجمعكم الله يوم القيامة فيجزيكم على الخيرات (ان الله على كل شئ قدير) من جمعكم وغيره (ومن حيث خرجت) أى من أى مكان خرجت اليه

للسفر (فول وجهك) عند صلاتك (شطر المسجد الحرام وانه) أي هذا الامر (للحق) أي الثابت الموافق للحكمة (من ربك وما الله بغافل عما تعملون) قرأه أبو عمرو بالياء على الغيبة وهو راجع للكفار أي من انكار أمر القبلة والباقون بالتاء على الخطاب (ومن حيث خرجت) في أسفارك ومغازيك من المنازل القريبة والبعيدة (فول وجهك) في الصلاة (شطر المسجد الحرام) أي تلقاءه (وحيث ما كنتم) من أقطار الارض مقيمين أو مسافرين في بر أو بحر (فولوا وجوهكم) في الصلاة من محالكم (شطره) أي المسجد الحرام وكرر الله تعالى أمر التولي لشطر المسجد الحرام ثلاث مرات تأكيدا أمر القبلة لان النسخ من مظان الفتنة والشبهة مع انه تعالى علق بكل آية فائدة أما في الآية الاولى فبين أن أهل الكتاب يعلمون أن أمر نبوة محمد وأمر هذه القبلة حق لانهم شاهدوا ذلك في التوراة والانجيل وأما في الآية الثانية فبين أنه تعالى يشهد أن ذلك حق وشهادة الله بكونه حقا مغايرة لعلم أهل الكتاب بكونه حقا وأما في الآية الثالثة فبين انه تعالى قطع حجة اليهود والمشركين وذلك قوله تعالى (لئلا يكون للناس) أي اليهود والمشركين (عليكم حجة) أي مجادلة في التولي والمعنى ان التولية عن الصخرة تدفع احتجاج اليهود بأن محمدا يجحد ديننا او يتبع قبلتنا وذلك مدفوع بأن المنعوت في التوراة قبلته صلى الله عليه وسلم الكعبة وتدفع احتجاج المشركين بأنه صلى الله عليه وسلم يدعي ملة ابراهيم و يخالف قبلته (الا الذين ظلموا منهم) أي الا المعاندين منهم فانهم يقولون ما تحول الى الكعبة الا ميلا الى دين قومه وحبا لبلده (فلا تخشوهم) أي فلا تخافوا مطاعنتهم في قبلتكم فانهم لا يضرونكم (واخشوني) أي احذروا عقابي فلا تخالفوا أمري (ولأتم نعمتي عليكم) بالقبلة كما أتممت عليكم بالدين (ولعلكم تهتدون) الى الحق (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم) أي من نسبكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم وهذا اما متعلق بما قبله أي ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة كما أتممتها عليكم في الدنيا بارسال الرسول واما متعلق بما بعده أي كما ذكرتكم بالارسال فاذكروني (يتلو عليكم آياتنا) أي يقرأ عليكم القرآن بالامر والنهي (ويزكيكم) أي يطهركم من الذنوب بالتوحيد والصدقة (ويعلمكم الكتاب) أي معاني القرآن (والحكمة) أي السنة (ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) أي يعلمكم أخبار الأمم الماضية وقصص الانبياء وأخبار الحوادث المستقبلة (فاذكروني) باللسان والقلب والجوارح فالصلاة مشتملة على الثلاثة فالأول كالتسبيح والتكبير والثاني كالخشوع وتدبر القراءة والثالث كالركوع والسجود (أذكركم) بالاحسان والرحمة والنعمة في الدنيا والآخرة (واشكروا لي) نعمتي بالطاعة (ولا تكفرون) أي لا تتركوا شكرها (يا أيها الذين آمنوا استعينوا) على تمحيص الذنوب (بالصبر) على أداء فرائض الله وترك المعاصي وعلى المرازي (والصلاة) أي بكثرة صلاة التطوع في الليل والنهار (ان الله مع الصابرين) بالنصر (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات) كسائر الاموات (بل أحياء) أي بل هم كأحياء أهل الجنة في الجنة يرزقون من التحف (ولكن لا تشعرون) بحياتهم وحالهم قال ابن عباس نزلت الآية في قتلى بدر وقتل من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار فالمهاجرون عبيدة بن الحرث ابن عبد المطلب وعمر بن أبي وقاص وذو الشمالين وعمرو بن نفيلة وعامر بن بكر ومهجع بن عبد الله والانصار سعيد بن خيثمة وقيس بن عبد المنذر وزيد بن الحرث وتميم بن الهمام ورافع بن المعلى وحارثة بن سراقة ومعوذ بن عفراء وعوف بن عفراء وكان الناس يقولون مات فلان ومات فلان فنهى الله تعالى ان يقال فيهم انهم ماتوا وقال آخرون ان الكفار والمنافقين قالوا ان الناس يقتلون أنفسهم طلبا لمرضاة محمد

من غير فائدة فنزلت تلك الآية (ولنبلونكم) أى والله لنصيبنكم اصابة من يختبر أحوالكم أتصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء أم لا (بشئ) أى بقليل (من الخوف) من العدو (والجوع) فى قحط السنين (ونقص من الاموال) بالهلاك (والانفس) بالقتل والموت (والثمرات) بالجوائح قال الشافعى رضى الله عنه الخوف خوف الله والجوع صيام شهر رمضان والنقص من الاموال الزكاة والصدقات والنقص من الانفس الامراض ومن الثمرات موت الاولاد (وبشر الصابرين) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه البشارة (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا) باللسان والقلب معا (انا لله) أى نحن عبيد الله (وانا اليه راجعون) بعد الموت قال أبو بكر الوراق انا لله اقرار منا بالملك له تعالى وانا اليه راجعون اقرار على أنفسنا بالهلاك (أولئك عليهم صلوات) أى مغفرة (من ربهم ورحمة) أى لطف (وأولئك هم المهتدون) للاسترجاع حيث سلموا لقضاء الله تعالى (ان الصفا والمروة من شعائر الله) أى من علامات مواضع العبادات لله بالحج والعمرة (فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) أى فلا اثم عليه فى أن يسعى بينهما سبعا قال ابن عباس كان على الصفا صنم اسمه اساف وعلى المروة صنم آخر اسمه نائلة وكان أهل الجاهلية يطوفون بهما ويتمسحون بهما فلما جاء الاسلام كره المسلمون الطواف بينهما لاجل الصنمين فأذن الله تعالى فيه وأخبر أنه من شعائر الله لا من شعائر الجاهلية (ومن تطوع خيرا) أى زاد على ما فرض الله عليه من حج أو عمرة حتى طاف بالصفا والمروة تطوعا (فان الله شاكر) أى مجاز على الطاعة (عليم) أى يعلم قدر الجزاء فلا يبخس المستحق حقه (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات) هى كل ما أنزله الله على الانبياء (والهدى) أى ما يهدى فى وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم والايمان به من الدلائل العقلية والنقلية (من بعد ما بيناه للناس) أى لبنى اسرائيل (فى الكتاب) أى التوراة (أولئك يلعنهم الله) أى يبعدهم من رحمته (ويلعنهم اللاعنون) أى يسألون الله أن يلعنهم ويقولون اللهم العنهم وهؤلاء دواب الارض كذا قال مجاهد أخرجه سعيد بن منصور وغيره وقال قتادة والربيع هم الملائكة والمؤمنون أخرجه ابن جرير (الا الذين تابوا) أى ندموا على ما فعلوا (وأصلحوا) بالعزم على عدم العود (وبينوا) ما كتموه (فأولئك أتوب عليهم) أى أقبل توبتهم (وأنا التواب) أى القابل لتوبة من تاب (الرحيم) أى المبالغ فى نشر الرحمة لمن مات على التوبة (ان الذين كفروا) بالكتمان وغيره (وماتوا وهم كفار) بالله ورسوله (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) حتى أهل دينهم فانهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضا (خالدين فيها) أى اللعنة (لا يخفف عنهم العذاب) طرفة عين (ولا هم ينظرون) أى يؤجلون من العذاب فاذا استمهلوا لا يمهلون واذا استغاثوا لا يغاثون (والهكم) أى المستحق منكم العبادة (اله واحد) أى فرد فى الالهية (لا اله الا هو) أى لا معبود لنا موجود الا الاله الواحد (الرحمن الرحيم) خبران آخران للمبتدا ذو الرحمن المبالغ فى النعمة والرحيم كثير النعمة (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) اعلم أنه تعالى لما حكم بالوحدانية ذكر ثمانية أنواع من الدلائل التى يمكن أن يستدل بها على وجوده تعالى وعلى براءته من الانداد النوع الاول السموات والارض والآيات فى السماء هى سمكها وارتفاعها بغير عمد ولا علاقة وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم والآيات فى

الارض مدها وبسطها على الماء وما يرى فيهما من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والانهار والاشجار والثمار النوع الثانى الليل والنهار والآيات فيهما تعاقبهما بالمجىء والذهاب واختلافهما فى الطول والقصر والزيادة والنقصان والنور والظلمة وانتظام أحوال العباد فى معاشهم بالراحة فى الليل والسعى فى الكسب فى النهار النوع الثالث السفن والآيات فيها جريانها على وجه الماء وهى موقرة بالاثقال والرجال فلا ترسب وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة وتسخير البحر لحمل السفن مع قوة سلطان الماء وهيجان البحر فلا ينجى منه الا الله تعالى النوع الرابع ركوب السفن والحمل عليها فى التجارة والآيات فى ذلك أن الله تعالى لو لم يقو قلوب من يركب هذه السفن لما تم الغرض فى تجاراتهم ومنافعهم وأيضا فان الله تعالى خص كل قطر من أقطار العالم بشىء معين فصار ذلك سببا يدعوهم الى اقتحام الاخطار فى الاسفار من ركوب السفن وخوف البحر وغير ذلك فالحامل ينتفع لانه يربح والمحمول اليه ينتفع بما حمل اليه النوع الخامس نزول المطر من السماء والآيات فى ذلك ان الله جعل الماء سببا لحياة جميع الموجودات من حيوان ونبات وانه ينزله عند الحاجة اليه بمقدار المنفعة وعند الاستسقاء وينزله بمكان دون مكان النوع السادس انتشار كل دابة فى الارض والآيات فى ذلك ان جنس الانسان يرجع الى أصل واحد وهو آدم مع ما فيهم من الاختلاف فى الصور والاشكال والالوان والالسنة والطبائع والاخلاق والاوصاف الى غير ذلك ثم يقاس على بنى آدم سائر الحيوان ﴿النوع السابع﴾ الريح والآيات فيه انه جسم لطيف لا يمسك ولا يرى وهو مع ذلك فى غاية القوة بحيث يقلع الشجر والصخر ويخرب البنيان وهو مع ذلك حياة الوجود فلو أمسك طرفة عين لمات كل ذى روح وأنتن ما على وجه الارض ﴿النوع الثامن﴾ السحاب والآيات فى ذلك ان السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التى تسيل منها الاودية العظيمة يبقى معلقا بين السماء والارض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده قال القاضى زكريا ان السحاب من شجرة مثمرة فى الجنة والمطر من بحر تحت العرش (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا) أى ومن الكفار من يعبد من غير الله أوثانا (يحبونهم) حبا كائنا (كحب الله) أى كحبهم لله تعالى أى يسوون بينه تعالى وبين الاصنام فى الطاعة والتعظيم أو يحبون عباداتهم أصنامهم كحب المؤمنين الله تعالى بالعبادة (والذين آمنوا أشد حبا لله) من الكفار لاصنامهم فان المؤمنين لا يتضرعون الا الى الله تعالى بخلاف المشركين فانهم يعدلون الى الله عند الحاجة وعند زوال الحاجة يرجعون الى الاصنام (ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب) قرأ الجمهور ولو يرى بالياء المنقوطة من تحت مع فتح الهمزة من أن عند القراء السبع والمعنى ولو يعلم الذين أشركوا بالله شدة عذاب الله وقوته لما اتخذوا من دونه أندادا وعلى قراءة بعض القراء غير السبع بكسر الهمزة من ان كان التقدير ولو يعلم الذين ظلموا بعبادة الاصنام عجزها حال مشاهدتهم عذاب الله لقالوا ان القوة لله وقرأ نافع وابن عامر ترى بالتاء المنقوطة من فوق مع فتح الهمزة على الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب والمعنى ولو ترى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ترى أن القوة لله جميعا ولو كسرت الهمزة كان المعنى ولو ترى الذين أشركوا اذ يرون العذاب لقلت ان القوة لله جميعا وقرأ ابن عامر يرون بضم الياء (اذ تبرأ الذين اتبعوا) أى القادة وهم الرؤساء من مشركى الانس (من الذين اتبعوا) أى السفلة (ورأوا العذاب) أى وقد رأى القادة والسفلة العذاب فى الآخرة (وتقطعت بهم الاسباب) أى تقطعت عنهم المواصلات والارحام والاعمال والعهود والاتفاقيات بينهم أى أنكر القادة اضلال السفلة يوم القيامة حين

يجمعهم

بجمعهم الله (وقال الذين اتبعوا) أى السفلة (لو أن لنا كرة) أى ليت لنا رجعة الى الدنيا (فنتبرأ منهم) أى القادة هناك (كما تبرؤا منا) اليوم (كذلك) أى كما أراهم الله شدة عذابه (يريهم الله أعمالهم حسرات) أى ندامات شديدة (عليهم) أى على تفريطهم (وماهم) أى القادة والسفلة (بخارجين من النار) بعد دخولها (يا أيها الناس) قال ابن عباس نزلت الآية فى الذين حرموا على أنفسهم السوائب والوصائل والبحائر وهم قوم من ثقيف وبنى عامر ابن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج (كلوا مما فى الارض) أى من الحرث والانعام (حلالا طيبا) أى مباحا بأن لا يكون متعلقا به حق الغير (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى لا تقتدوا طرق وساوس الشيطان فى تحريم الحرث والانعام (انه لكم عدو مبين) أى ظاهر العداوة عند ذوى البصيرة (انما يأمركم بالسوء) أى القبيح من الذنوب التى لا حد فيها (والفحشاء) أى المعاصى التى فيها حد (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) أى وبأن تفتروا على الله مالا تعلمون ان الله تعالى حرم هذا وذاك (واذا قيل لهم) أى لمشركى العرب (اتبعوا ما أنزل الله) من التوحيد وتحليل الطيبات (قالوا) لا نتبعه (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) أى ما وجدناهم عليه من عبادة الاصنام وتحريم الطيبات ونحو ذلك قال الله تعالى (أولو كان آباؤهم) أى أيتبعونهم وان كان آباؤهم (لا يعقلون شيأ) من الدين (ولا يهتدون) الى الحق (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء) أى وصفة الذين كفروا فى اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم كصفة الراعى الذى يصوت على ما لا يسمع من البهائم فانها لا تسمع الا صوت الراعى من غير فهم لكلامه أصلا فكما أن الكلام مع البهائم عبث عديم الفائدة فكذا التقليد ويقال مثل الذين كفروا فى قلة عقلهم فى عبادتهم للاوثان كمثل الراعى الذى يتكلم مع البهائم فكما يحكم على الراعى بقلة العقل فكذا هؤلاء (صم) لانهم لم يسمعوا الحق (بكم) لانهم لم يستجيبوا لما دعوا اليه (عمى) لانهم أعرضوا عن الدلائل (فهم لا يعقلون) أى لا يفقهون أمر الله ودعوة النبى صلى الله عليه وسلم كما لا تفهم البهائم كلام الراعى (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) أى كلوا من حلالات ما أعطيناكم من الحرث والانعام (واشكروا لله) على ما رزقكم الطيبات (ان كنتم اياه تعبدون) أى ان صح أنكم تخصونه بالعبادة وتقرون انه تعالى هو المنعم لا غير فان الشكر رأس العبادات (انما حرم عليكم الميتة) أى أكلها والانتفاع بها وهى التى ماتت على غير ذكاة أما السمك والجراد فهما خارجان عنهما باستثناء الشرع كخروج الطحال من الدم (والدم ولحم الخنزير) أى جميع أجزائه وانما خص اللحم لانه المقصود بالأكل (وما أهل به لغير الله) فما موصول وبه نائب الفاعل والباء بمعنى فى مع حذف مضاف والمعنى وما صيح فى ذبحه لغير الله والكفار يرفعون الصوت لآلهتهم عند الذبح وقال الربيع ابن أنس وابن زيد والمعنى وما ذكر عليه غير اسم الله وعلى هذا فغير الله نائب الفاعل واللام صلة قال العلماء لو أن مسلما ذبح ذبيحة وقصد بذبحها التقرب الى غير الله صار مرتدا وذبيحته ذبيحة مرتد (فمن اضطر) أى أحوج الى أكل ما ذكر بأن أصابه جوع شديد ولم يجد حلالا يسد به الرمق أو أكره على تناول ذلك (غير باغ) أى غير طالب للذة (ولا عاد) أى متجاوز سد الجوعة كما نقل عن الحسن وقتادة والربيع ومجاهد وابن زيد وقيل غير باغ على الوالى ولا عاد على المسلمين بقطع الطريق وعلى هذا لا يباح للعاصى بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعى وقول أحمد رحمهما الله (فلا اثم عليه) فى أكل ما ذكر (ان الله غفور) لمن أكل فى حال الاضطرار (رحيم) حيث أباح فى تناول قدر الحاجة (ان الذين يكتمون

ما أنزل الله من الكتاب) المشتمل على الاحكام من المحللات والمحرمات وعلى نعت محمد صلى الله عليه وسلم (ويشترون به) أي بالكتمان (ثمنا قليلا) أي عوضا حقيرا (أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار) أي الا الحرام الذي هو سبب النار يوم القيامة (ولا يكلمهم الله) بكلام طيب (يوم القيامة ولا يزكيهم) أي لا يطهرهم من دنس الذنوب (ولهم عذاب أليم) يخلص ألمه الى قلوبهم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة) أي أولئك الكاتمون اختاروا ما يجب به النار على ما يجب به الجنة (فما أصبرهم على النار) أي فما أجرأهم على النار (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) أي ذلك الوعيد معلوم لهم بسبب ان الله نزل الكتاب بالصدق أو ذلك العذاب بسبب ان الله نزل الكتاب ببيان الحق وهم قد حرفوا تأويله (وان الذين اختلفوا في الكتاب) بأن آمنوا ببعض كتب الله تعالى وكفروا ببعضها (لفي شقاق بعيد) أي لفي خلاف بعيد عن الهدى (ليس البر أن تولوا وجوهكم) في الصلاة (قبل المشرق) أي جهة الكعبة (والمغرب) أي جهة بيت المقدس وقرأ حفص وحمزة بنصب البر على انه خبر مقدم (ولكن البر) ولكن الشخص البر (من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه) أي مع حب المال وهو أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر (ذوي القربى) أي القرابة (واليتامى) أي المحاويج منهم (والمساكين وابن السبيل) أي مار الطريق (والسائلين) أي الذين ألجأتهم الحاجة الى السؤال (وفي الرقاب) أي في المكاتبين وقيل في اشتراء الرقاب لاعتاقها (وأقام الصلاة) المفروضة منها (وآتى الزكاة) أي المفروضة (والموفون بعهدهم) عطف على من آمن (اذا عاهدوا) فيما بينهم وبين الله وفيما بينهم وبين الناس (والصابرين) مفعول لفعل محذوف كاذكر (في البأساء) أي الخوف والبلايا والشدائد (والضراء) أي الامراض والاوجاع والجوع (وحين البأس) أي وقت شدة القتال في سبيل الله (أولئك الذين صدقوا) في الدين وطلب البر (وأولئك هم المتقون) عن الكفر ﴿تنبيه﴾ قوله ليس البر هو اسم جامع لكل طاعة ثم قوله ولكن البر هو اسم فاعل والاصل برر بكسر الراء الاولى فلما أريد الادغام نقلت كسرة الراء الى الباء بعد سلب حركتها أو هو مصدر بمعنى اسم الفاعل الذي هو البار كما هو القراءة الشاذة واختلف في المخاطب بهذه الآية فقال بعضهم المراد مخاطبة اليهود لما شددوا في الثبات على التوجه جهة بيت المقدس فقال تعالى ليس البر هذه الطريقة ولكن البر من آمن بالله وقال بعضهم بل المراد مخاطبة المؤمنين لما ظنوا انهم قد نالوا البغية بالتوجه الى الكعبة من حيث كانوا يحبون ذلك فخوطبوا بهذا الكلام وقال بعضهم بل هو خطاب للكل وقال الله تعالى ان صفة البر لا تحصل بمجرد استقبال المشرق والمغرب بل البر لا يحصل الا عند مجموع أمور أحدها الايمان بالله فأهل الكتاب أخلوا بذلك فان اليهود قالوا بالتجسيم ووصفوا الله تعالى بالبخل وقالوا عزير بن الله وان النصارى قالوا المسيح بن الله وثانيها الايمان باليوم الآخر فاليهود أخلوا بهذا الايمان حيث قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة والنصارى أنكروا المعاد الجسماني وثالثها الايمان بالملائكة فاليهود أخلوا بذلك حيث أظهروا عداوة جبريل عليه السلام ورابعها الايمان بكتب الله فاليهود والنصارى قد أخلوا بذلك حيث لم يقبلوا القرآن وخامسها الايمان بالنبيين واليهود أخلوا بذلك حيث قتلوا الانبياء وطعنوا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وسادسها بذل الاموال على وفق أمر الله تعالى واليهود أخلوا بذلك لانهم يلقون الشبهات لطلب المال القليل وسابعها اقامة الصلوات والزكوات فاليهود كانوا يمنعون الناس منهما وثامنها الوفاء بالعهد واليهود نقضوا العهد (يا أيها

الذين آمنوا كتب عليكم القصاص) أى فرض عليكم المماثلة وصفا وفعلا (فى القتلى) أى بسبب قتل القتلى عند مطالبة الولى بالقصاص (الحر بالحر) أى الحر يقتل بقتل الحر لا بقتل العبد (والعبد بالعبد) وبالحر من باب أولى (والانثى بالانثى) وبينت الاحاديث انه يقتل أحد النوعين الذكر والانثى بالآخر ويعتبر ان لا يفضل القاتل القتيل بالدين والاصلية والحرية (فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان) أى فمن سهل له من أولياء الدم من أخيه الذى هو القاتل شئ من المال فعلى ولى الدم مطالبة ذلك المال من ذلك القاتل من غير تشديد بالمطالبة وعلى القاتل أداء الدية الى ولى الدم من غير مماطلة وبخس بل على بشر وطلاقة وقول جميل ومعنى هذه الآية ان الله تعالى حث الاولياء اذا دعوا الى الصلح من الدم على الدية كلها أو بعضها ان يرضوا به ويعفوا عن القود (ذلك) أى الحكم من جواز القصاص والعفو عنه على الدية (تخفيف) فى حقكم (من ربكم ورحمة) للقاتل من القتل لان العفو وأخذ الدية محرمان على اليهود بل فرض عليهم القصاص وحده والقصاص والدية محرمان على النصارى بل فرض عليهم العفو على الاطلاق وفى ذلك تضييق على كل من الوارث والقاتل وهذه الأمة مخيرة بين الثلاث القصاص والدية والعفو تيسيرا عليهم (فمن اعتدى) أى جاوز الحد (بعد ذلك) أى بعد بيان كيفية القصاص والدية (فله عذاب أليم) أى شديد الالم فى الآخرة (ولكم فى القصاص حياة) أى ولكم فى مشروعية القصاص حياة لان من أراد قتل الشخص اذا علم القصاص ارتدع عن القتل فيتسبب لحياة نفسين ولان الجماعة يقتلون بالواحد فتنتشر الفتنة بينهم فاذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سببا لحياتهم (يا أولى الالباب) أى ذوى العقول الخالية من الهوى (لعلكم تتقون) أى لكى تتقوا المساهلة فى أمره وترك المحافظة عليه (كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف) أى فرض عليكم الوصية للوالدين والاولاد كما قاله عبد الرحمن بن زيد أو الرحم غير الوالدين كما قاله ابن عباس ومجاهد بالعدل بحسب استحقاقهم فلا يفضل الغنى ولا يتجاوز الثلث اذا ظهرت على أحدكم امارات الموت كالمرض المخوف ان ترك مالا فالاصم انهم كانوا يوصون للابعدين طلبا للفخر والشرف ويتركون الاقارب فى الفقر والمسكنة فأوجب الله تعالى فى أول الاسلام الوصية لهؤلاء منعا للقوم عما كانوا اعتادوه (حقا على المتقين) أى حق ذلك حقا على الموحدين (فمن بدله) أى الوصية من وصى وشاهد اما بانكار الوصية من أصلها أو بالنقص فيها أو بتبديل صفتها أو غير ذلك (بعدما سمعه) أى بعد علم الوصية (فانما اثمه) أى التبديل (على الذين يبدلونه) أى الوصية لا على الميت لانهم خانوا وخالفوا حكم الشرع (ان الله سميع) لوصية الميت (عليم) بالمبدل فيجازى الميت بالخير والمبدل بالشر (فمن خاف من موص) قرأ شعبة وحمزة والكسائى بفتح الواو وتشديد الصاد أى من علم من ميت (جنفا) أى ميلا عن الحق بالخطأ فى الوصية (أو اثما) أى عمدا فى الميل فى الوصية (فأصلح بينهم) أى فعل ما فيه الصلاح بين الوصى والموصى لهم برده الى الثلث والعدل (فلا اثم عليه) أى على من علم ذلك فى هذا الصلح وان كان فيه تبديل لانه تبديل باطل بحق بخلاف الاول (ان الله غفور) للميت ان جار وأخطأ وللوصى (رحيم) للوصى حيث رخص عليه الرد الى الثلث والعدل ومعنى الآية ان الميت اذا أخطأ فى وصيته أو جار فيها متعمدا فلا اثم على من علم ذلك ان يغيره ويرده الى الصلاح بعد موته وهذا قول ابن عباس وقتادة والربيع (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) من الانبياء عليهم الصلاة والسلام

والأمم من لدن آدم عليه السلام (لعلكم تتقون) أي تتقون الله بصومكم وترككم للشهوات فالرغبة في المطعوم والمنكوح أشد من الرغبة في غيرهما والاتقاء عنهما أشق فإذا سهل عليكم اتقاء الله بتركهما كان اتقاء الله بترك غيرهما أسهل وأخف أو المعنى لعلكم تتقون ترك المحافظة على الصوم بسبب عظم درجاته (أياما معدودات) أي في أيام مقدرات بعدد معلوم ثلاثين يوما وهي رمضان (فمن كان منكم مريضا) مرضا يضره الصوم ولو في أثناء اليوم (أو على سفر) أي مستقرا على سفر قصر (فعدة من أيام أخر) أي فعليه ان أفطر صوم عدة أيام المرض والسفر أي بقدر ما أفطر من رمضان ولو مفرقا وعن أبي عبيدة بن الجراح انه قال ان الله تعالى لم يرخص لكم في فطره وهو يريد ان يشق عليكم في قضائه ان شئت فواتر وان شئت ففرق وروي ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم علي أيام من رمضان أفيجزيني أن أقضيها متفرقة فقال له أرأيت لو كان عليك دين فقضيته الدرهم والدرهمين أما كان يجزيك قال نعم قال فالله أحق أن يعفو ويصفح وعن عائشة ان حمزة الاسلمي سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هل أصوم على السفر فقال صلى الله عليه وسلم صم ان شئت وافطر ان شئت وروى الشافعي ان عطاء قال لابن عباس اقصر الى عرفة فقال لا فقال الى مر الظهران فقال لا ولكن اقصر الى جدة وعسفان والطائف قال مالك بين مكة وجدة وعسفان أربعة برد (وعلى الذين يطيقونه) أي وعلى المطيقين للصيام ان أفطروا (فدية طعام مسكين) أي قدر ما يأكله في يوم وهو مد من غالب قوت بلده وقرأ نافع وابن عامر باضافة فدية وجمع مساكين قال ابن عمر وسلمة بن الاكوع وغيرهما ان هذه الآية منسوخة وذلك انهم كانوا في صدر الاسلام مخيرين بين الصيام والفدية وانما خيرهم الله تعالى بينهما لانهم كانوا لم يتعودوا الصيام فاشتد عليهم فرخص الله لهم في الافطار وقيل ان هذه الآية نزلت في حق الشيخ الهرم والمعنى وعلى الذين يقدرون على الصوم مع المشقة فدية (فمن تطوع خيرا) كأن زاد في الفدية على القدر الواجب أو صام مع اخراج الفدية (فهو) التطوع (خير له) بالثواب (وأن تصوموا) أيها المرخصون لكم في الافطار من المرضى والمسافرين والذين يقدرون على الصوم مع المشقة (خير لكم ان كنتم تعلمون) ما في الصوم من الفضيلة ومن المعاني المورثة للتقوى وبراءة الذمة فإن العبادة كلما كانت أشق كانت أكثر ثوابا (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) أي ان جبريل نزل بالقرآن جملة واحدة في ليلة القدر وكانت ليلة أربع وعشرين من رمضان من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا فأملاه جبريل على السفرة فكتبوه في صحف وكانت تلك الصحف في محل من تلك السماء يسمى بيت العزة ثم نزل جبريل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوما في ثلاث وعشرين سنة مدة النبوة بحسب الحاجة يوما بيوم آية وآيتين وثلاثا وسورة (هدى للناس) أي بيانا للناس من الضلالة (وبينات من الهدى) أي واضحات من أمر الدين فالهدى الاول محمول على أصول الدين والهدى الثاني على فروع الدين (والفرقان) أي من الفرق بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أي من شهد منكم أول الشهر في الحضر فليصم كل الشهر وشهود الشهر اما بالرؤية واما بالسماع فاذا رأى انسان هلال رمضان وقد انفرد بتلك الرؤية ورد الامام شهادته لزمه أن يصوم لانه قد حصل شهود الشهر في حقه فوجب عليه الصوم واذا شهد عدلان على رؤية الهلال حكم به في الصوم والفطر جميعا واذا شهد عدل واحد على رؤية هلال شوال لا يحكم به أما اذا شهد على هلال رمضان فيحكم به احتياطا لأمر الصوم أي يقبل قول الواحد في اثبات العبادة ولا يقبل في الخروج منها الا قول الاثنين لكي يصوموا ولا يفطروا احتياطا (ومن كان

مريضا) فى شهر رمضان وان كان مقيما (أو على سفر) أى متلبسا بالسفر وقت طلوع الفجر وان كان صحيحا (فعدة) أى فعليه عدة (من أيام أخر) أى فليصم منها بقدر ما أفطر (يريد الله بكم اليسر) أى رخصة الافطار فى السفر (ولا يريد بكم العسر) أى لم يرد أن يوجد لكم العسر فى الصوم فى السفر (ولتكملوا العدة) أى لكى تصوموا فى الحضر عدة ما أفطرتم فى السفر وقرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الكاف وتشديد الميم (ولتكبروا الله) عند انقضاء الصوم (على ما هداكم) الى هذه الطاعة قال ابن عباس حق على المسلمين اذا رأوا هلال شوال أن يكبروا وقال الشافعى وأحب اظهار التكبير فى العيدين وبه قال مالك وأحمد واسحاق وأبو يوسف ومحمد (ولعلكم تشكرون) الله على رخصته قال الفراء قوله تعالى ولتكملوا العدة علة للأمر بمراعاة العدة وقوله تعالى ولتكبروا الله علة ما علمكم الله من كيفية القضاء وقوله تعالى ولعلكم تشكرون علة التسهيل (واذا سألك عبادى عنى) أى عن قربى وبعدى (فانى قريب) أى فقل لهم يا أشرف الخلق أنى قريب منهم بالعلم والاجابة (أجيب دعوة الداع اذا دعان) قيل المراد من الدعاء التوبة عن الذنوب لان التائب يدعو الله تعالى عند التوبة واجابة الدعاء هو قبول التوبة وقيل المراد من الدعاء العبادة قال صلى الله عليه وسلم الدعاء هو العبادة ومما يدل على ذلك قوله تعالى وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين وقرأ أبو عمرو وقالون عن نافع الداعى اذا دعانى باثبات الياء فيهما فى الوصل والباقون بحذفها على الوصل فى الاولى وعلى التخفيف فى الثانية (فليستجيبوا لى) أى فلينقادوا لى وليستسلموا لى (وليؤمنوا بى) وهذا الترتيب يدل على ان العبد لا يصل الى نور الايمان وقوته الا بتقدم الطاعات والعبادات (لعلهم يرشدون) أى يهتدون لمصالح دينهم ودنياهم اذا استجابوا لى وآمنوا بى وسبب نزول هذه الآية قيل ان أعرابيا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أقريب ربنا فندعوه سرا أم بعيد فندعوه جهرا فأنزل الله تعالى هذه الآية وروى عن قتادة وغيره ان الصحابة قالوا كيف ندعو ربنا يا نبى الله أى أبالمناجاة أو بالمناداة فأنزل الله هذه الآية وقال عطاء وغيره انهم سألوا فى أى ساعة ندعو الله فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال الحسن سأل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا أين ربنا وقال ابن عباس ان يهود أهل المدينة قالوا يا محمد كيف يسمع ربك دعاءنا فنزلت هذه الآية (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) أى المجامعة مع نسائكم قال المفسرون كان فى أول شريعة محمد صلى الله عليه وسلم اذا أفطر الصائم حل له الاكل والشرب والوقاع بشرط أن لا ينام ولا يصلى العشاء الاخيرة فاذا فعل أحدهما بأن نام أو صلى العشاء حرم عليه هذه الاشياء الى الليلة القابلة فواقع عمر بن الخطاب أهله بعد صلاة العشاء فلما اغتسل أخذ يبكى ويلوم نفسه فأتى النبى صلى الله عليه وسلم واعتذر اليه فقام رجال واعترفوا بالجماع بعد العشاء فنزلت هذه الآية ناسخة لتلك الشريعة (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) هذا مبين لسبب احلال الوقاع وهو صعوبة اجتنابهن وستر أحدهما الآخر عن الفجور (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أى تظلمونها لانكم تسرون بالمعصية فى الجماع بعد صلاة العتمة والاكل بعد النوم (فتاب عليكم) أى قبل توبتكم (وعفا عنكم) أى محا ذنوبكم ولم يعاقبكم فى الخيانة (فالآن) أى حين أحل الله لكم (باشروهن) أى جامعوهن (وابتغوا ما كتب الله لكم) أى اطلبوا ما وضع الله لكم بالنكاح من التناسل وقصد العفة أى لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها وقيل هذا نهى عن العزل قال الشافعى لا يعزل الرجل

عن الحرة الا باذنها ولا بأس أن يعزل عن الأمة وقيل معنى ذلك ابتغوا هذه المباشرة من الزوجة والمملوكة فان ذلك هو الذى كتب الله لكم أى قسم الله لكم (وكلوا واشربوا) من حين يدخل الليل (حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود) أى حتى يتبين لكم بياض النهار من سواد الليل حال كون الخيط الابيض بعضا (من الفجر) الصادق وسمى الصبح الصادق فجرا لانه يتفجر منه النور (ثم أتموا الصيام الى الليل) أى الى دخوله بغروب الشمس نزلت هذه الآية فى شأن صرمة بن مالك بن عدى وذلك انه كان يعمل فى أرض له وهو صائم فلما أمسى رجع الى أهله فقال هل عندك طعام فقالت لا وأخذت تصنع له طعاما فأخذه النوم من التعب فأيقظته فكره ان يأكل خوفا من الله فأصبح صائما مجهودا فى عمله فلم ينتصف النهار حتى غشى عليه فلما أفاق أتى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما وقع فأنزل الله هذه الآية (ولا تباشروهن) أى لا تجامعوهن ليلا ونهارا (وأنتم عاكفون) أى ماكثون (فى المساجد) بنية الاعتكاف للتقرب الى الله تعالى (تلك) أى المباشرة (حدود الله) أى معصية الله (فلا تقربوها) أى فلا تقربوا المعصية واتركوا مباشرة النساء ليلا ونهارا حتى تفرغوا من الاعتكاف (كذلك) أى هكذا (يبين الله آياته) أى أمره ونهيه (للناس) أو المعنى كما بين الله ما أمركم به ونهاكم عنه كذلك يبين سائر أدلته على دينه (لعلهم يتقون) أى لكى يتقوا معصية الله نزلت هذه الآية فى حق نفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وعمار بن ياسر وغيرهما فكانوا معتكفين فى المسجد فيأتون الى أهاليهم اذا احتاجوا ويجامعون نساءهم ويغتسلون فيرجعون الى المسجد فنهاهم الله عن ذلك (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) أى لا يأخذ بعضكم مال بعض بالطريق الحرام شرعا (وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم) أى ولا تدلوا بالاموال الى الحكام لتأخذوا جملة من أموال الناس متلبسين بالاثم أى بالحلف الكاذب (وأنتم تعلمون) أنكم مبطلون فالاقدام على القبيح مع العلم بقبحه أقبح وصاحبه بالتوبيخ أحق روى ان عبدان بن الاشوع الحضرمى ادعى على امرئ القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس فهم بالحلف فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية فارتدع عن اليمين وأقر بالحق وسلم الارض الى عبدان فنزلت هذه الآية وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال اختصم رجلان الى النبى صلى الله عليه وسلم عالم بالخصومة وجاهل بها فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم للعالم فقال من قضى عليه يا رسول الله والذى لا اله الا هو انى محق فقال ان شئت أعاوده فعاوده فقضى للعالم فقال المقضى عليه مثل ما قال أولا ثم عاوده ثالثا ثم قال صلى الله عليه وسلم من اقتطع حق امرئ مسلم بخصومته فانما اقتطع قطعة من النار فقال العالم المقضى له يا رسول الله ان الحق حقه فقال صلى الله عليه وسلم من اقتطع بخصومته وجدله حق غيره فليتبوأ مقعده من النار ومعنى اقتطع أى أخذ وسأل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يمتلئ نورا ثم لا يزال ينقص حتى يعود دقيقا كما بدأ ولا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزل قوله تعالى (يسألونك عن الاهلة) أى عن فائدة اختلاف الاهلة بالزيادة والنقصان لماذا (قل) يا أشرف الخلق (هى مواقيت للناس والحج) أى هى علامات لاغراض الناس الدينية والدنيوية وللحج كعدة نسائهم وأيام حيضهن ومدة حملهن وصيامهم وافطارهم وقضاء دينهم وأوقات زرعهم ومتاجرهم ودخول وقت الحج وخروجه ثم نزل فى شأن نفر من

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كنانة وخزاعة كانوا يدخلون بيوتهم في الاحرام من خلفها أو من سطحها كما فعلوا في الجاهلية قوله تعالى (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) في الاحرام (ولكن البر من اتقى) محارمه تعالى كالصيد وتوكل على الله تعالى في جميع أموره (وأتوا البيوت) أي ادخلوها (من أبوابها) في الاحرام كغيره (واتقوا الله) في تغيير الاحكام أو في جميع أموركم (لعلكم تفلحون) لكي تفوزوا بالخير في الدين والدنيا أو لكي تنجوا من السخط والعذاب (وقاتلوا) أي جاهدوا (في سبيل الله) أي في طاعته وطلب رضوانه في الحل والحرم (الذين يقاتلونكم) أي يبدؤنكم بالقتال من الكفار (ولا تعتدوا) عليهم بابتداء القتال في الحرم (ان الله لا يحب المعتدين) أي لا يريد الخير للمتجاوزين الحد (واقتلوهم) ان بدؤكم (حيث ثقفتموهم) أي وجدتموهم في الحل والحرم (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أي من مكة (والفتنة أشد من القتل) أي والمحنة التي يفتتن بها الانسان كالاخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وبقاء تألم النفس بها وقيل وشركهم بالله وعبادة الاوثان في الحرم وصدهم لكم عنه أشر من قتلكم اياهم فيه (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) أي لا تبدؤهم بالقتل في الحرم (حتى يقاتلوكم فيه) أي الحرم بالابتداء (فان قاتلوكم) فيه بالابتداء (فاقتلوهم) فيه ولا تبالوا بقتالهم فيه لانهم الذين هتكوا حرمته فاستحقوا أشد العذاب قرأ حمزة والكسائي ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فيه فان قتلوكم كله بغير ألف (كذلك) أي مثل هذا الجزاء الواقع منكم بالقتل والاخراج (جزاء الكافرين) يفعل بهم مثل ما فعلوا (فان انتهوا) عن الكفر (فان الله غفور) لهم ما قد سلف (رحيم) بهم (وقاتلوهم) بالابتداء منهم في الحل والحرم (حتى لا تكون فتنة) أي كي لا توجد فتنة عن دينكم أي وقد كانت فتنتهم انهم كانوا يؤذون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بمكة حتى ذهبوا الى الحبشة ثم واظبوا على ذلك الايذاء حتى ذهبوا الى المدينة وكان غرضهم من اثارة تلك الفتنة ان يتركوا دينهم ويرجعوا كفارا فأنزل الله تعالى هذه الآية والمعنى قاتلوهم حتى تعلوا عليهم فلا يفتنوكم عن دينكم فلا تقعوا في الشرك (ويكون الدين) أي وكي يوجد الاسلام والعبادة (لله) وحده لا يعبدون في الحرم سواه (فان انتهوا) عن قتالكم في الحرم (فلا عدوان) أي فلا سبيل لكم بالقتل (الا على الظالمين) أي المبتدئين بالقتل أو المعنى فان انتهوا عن الامر الذي يوجب قتالهم وهو اما كفرهم أو قتالهم فلا قتل الا على الذين لا ينتهون عن الكفر فانهم باصرارهم على كفرهم ظالمون لانفسهم (الشهر الحرام) الذي دخلت يا محمد فيه لقضاء العمرة وهو ذو القعدة من السنة السابعة مقابل (بالشهر الحرام) الذي صدوك عن دخول مكة وهو ذو القعدة من السنة السادسة أي من استحل دمكم من المشركين في الشهر الحرام فاستحلوه فيه (والحرمات) أي الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الاحرام (قصاص) أي يجري فيها بدل (فمن اعتدى عليكم) بالقتال في الحرم أو الاحرام أو الشهر الحرام (فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) أي فجازوه بمثل ما اعتدى عليكم به (واتقوا الله) أي اخشوه بالابتداء (واعلموا أن الله مع المتقين) بالنصرة والحفظ (وأنفقوا في سبيل الله) أي في طاعة الله لقضاء العمرة (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) أي ولا تلقوا أنفسكم الى الهلاك بمنع النفقة في سبيل الله أو بالاسراف في النفقة أو بتضييع وجه المعاش (وأحسنوا) في الانفاق على من تلزمكم مؤنته بأن يكون ذلك الانفاق وسطا فلا تسرفوا ولا تقتروا ويقال وأحسنوا الظن في الله (ان الله يحب المحسنين) أي يريد بهم الخير ويثيبهم نزلت الآيات من قوله تعالى وقاتلوا في سبيل الله الى

ههنا في حق المحرمين مع النبي صلى الله عليه وسلم لقضاء العمرة بعد عام الحديبية لانهم خافوا ان يقاتلهم الكفار في الحرم والاحرام والشهر الحرام وكرهوا ذلك لان القتال في ذلك الوقت كان محرما في تلك الاحوال الثلاثة (وأتموا الحج والعمرة لله) أي افعلوا الحج والعمرة على نعت التمام بأركانهما وشروطهما لله بأن تخلصهما للعبادة ولا تخالطهما بشيء من التجارة والاغراض الدنيوية (فان أحصرتم) أي منعتم عن اتمامهما بعدو (فما استيسر من الهدى) أي فعليكم اذا أردتم التحلل ما تيسر من الهدى من بدنة أو بقرة أو شاة لترك الحرم واذبحوها حيث أحصرتم في حل أو حرم (ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله) أي وقت مجيء ذبحه وهو مكان الاحصار عند الشافعي لكن يندب ارساله الى الحرم خروجا من خلاف أبي حنيفة فاذا ذبحتم فاحلقوا ويجب نية التحلل عند الذبح والحلق وبهما يحصل الخروج من النسك قال الشافعي كل ما وجب على المحرم في ماله لا يجزئ الا في الحرم لمساكين أهله الا في نوعين أحدهما من ساق هديا فعطب في طريقه فيذبحه ويخلي بينه وبين المساكين وثانيهما دم المحصر بالعدو فانه يذبح حيث حبس لان هذا الدم انما وجب لازالة الخوف وزوال الخوف انما يحصل اذا قدر عليه حيث أحصر (فمن كان منكم مريضا) في بدنه محتاجا الى المداواة واستعمال الطيب واللباس (أو كان به أذى من رأسه) أي في ألم رأسه بسبب القمل والصيبان أو بسبب الصداع أو كان عنده خوف من حدوث مرض أو ألم واحتاج الى الحلق أبيح له ذلك بشرط بذل الفدية كما قال تعالى (ففدية) أي فعليه فدية (من صيام) في ثلاثة أيام (أو صدقة) بثلاثة آصع من غالب قوت مكة على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع (أو نسك) أي ذبح شاة (فاذا أمنتم) من العدو (فمن تمتع بالعمرة الى الحج) أي فمن تلذذ بمحظورات الاحرام كالطيب واللباس والنساء بسبب اتيانه بالعمرة الى الاحرام بالحج (فما استيسر من الهدى) أي فعليه ما تيسر من الدم للجبران بخمسة شروط الاول أن يقدم العمرة على الحج الثاني أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج الثالث أن يحج في هذه السنة الرابع أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام الخامس أن يحرم بالحج من جوف مكة بعد الفراغ من العمرة ووقت وجوب هذا الدم بعدما أحرم بالحج ويستحب أن يذبح يوم النحر ويجوز تقديم الذبح على الاحرام بالحج بعد الفراغ من العمرة لان دم التمتع عندنا دم جبران كسائر دماء الجبرانات وعند أبي حنيفة هو دم نسك كدم الاضحية فيختص بيوم النحر فلا يجوز عنده الذبح قبله (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج) أي فمن لم يجد الهدى لفقده أو فقد ثمنه فعليه صيام ثلاثة أيام في حال اشتغاله باحرام الحج أي في أيام الاشتغال بأعمال الحج بعد الاحرام وقبل التحلل (وسبعة اذا رجعتم) الى أهليكم ووطنكم مكة أو غيرها وقرأ ابن أبي عبلة سبعة بالنصب عطفا على محل ثلاثة أيام (تلك عشرة كاملة) في البدل عن الهدى قائمة مقامه (ذلك) أي لزوم الهدى وبدله على المتمتع (لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عند الشافعي ومن كان مسكنه وراء الميقات عند أبي حنيفة وأهل الحل عند طاوس وغير أهل مكة عند مالك (واتقوا الله) فيما فرض عليكم (واعلموا أن الله شديد العقاب) لمن تهاون بحدوده (الحج أشهر معلومات) أي أشهر الحج معروفات بين الناس وهي شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذي الحجة الى طلوع فجر يوم النحر عند الشافعي (فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) أي فمن أوجب الحج على نفسه بالاحرام فيهن فلا جماع ولا خروج عن حدود الشرع بارتكاب المحظورات ولا خصام مع الخدم والرفقة وغيرهما في أيام الحج وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فلا رفث ولا فسوق بالرفع والتنوين ولا جدال

بالنصب

بالنصب والباقون قرؤا الكل بالنصب والمعنى على هـذا الا يكون رفث ولا فسوق ولا خلاف فى الحج وذلك ان قريشا كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام فرتفع الخلاف بأن أمروا بأن يقفوا بعرفات كسائر العرب واستدل على ان المنهى عنه هو الرفث والفسوق دون الجدال بقوله صلى الله عليه وسلم من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج كهيئته يوم ولدته أمه فانه صلى الله عليه وسلم لم يذكر الجدال (وما تفعلوا من خير) كصدقة وكترك المنهى (يعلمه الله) أى يقبله ويجزى به خير جزاء (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) أى تزودوا من التقوى لمعادكم فانها خير زاد وهى فعل الواجبات وترك المحظورات ويقال وتزودوا ما تعيشون به لسفركم فى الدنيا فان خير الزاد ما تكفون به وجوهكم عن السؤال وأنفسكم عن الظلم (واتقون يا أولى الالباب) أى ذوى العقول (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) أى ليس عليكم حرج فى أن تطلبوا رزقا من ربكم بالتجارة فى الحج (فاذا أفضتم) أى رجعتم (من عرفات فاذكروا الله) بالتلبية والتسبيح والتحميد والتهليل (عند المشعر الحرام) وهو جبل يقف عليه الامام ويسمى قزح وهو آخر حد المزدلفة وقال بعضهم المشعر الحرام هو المزدلفة لان الذكر المأمور به عنده يحصل عقب الافاضة من عرفات وما ذاك الا بالمبيت بالمزدلفة (واذكروه) أى الله (كما هداكم) أى لاجل هدايته اياكم لمعالم دينه (وان كنتم من قبله لمن الضالين) أى وانكم كنتم من قبل الهدى لمن الجاهلين بالايمان والطاعة (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) أى ثم ارجعوا من المزدلفة الى منى قبل طلوع الشمس للرمى والنحر كما رجع منها ابراهيم واسمعيل فى ذلك الوقت على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وكان العرب الذين وقفوا بالمزدلفة يرجعون الى منى بعد طلوع الشمس وهذا كما اختاره القفال (واستغفروا الله) باللسان مع التوبة بالقلب وهو أن يندم على كل تقصير منه فى طاعة الله ويعزم على أن لا يقصر فيما بعد ويقصد بذلك تحصيل مرضاة الله تعالى (ان الله غفور) لذنوب المستغفر (رحيم) أى منعم عليه (فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم) وكان العرب بعد الفراغ من الحج يقفون بمنى بين المسجد والجبل فيبالغون فى الثناء على آبائهم فى ذكر مناقبهم وفضائلهم فقال الله تعالى هذه الآية فالمعنى فاذا فرغتم من عبادتكم المتعلقة بالحج كأن رميتم جمرة العقبة وطفتم واستقررتم بمنى فابذلوا جهدكم فى الثناء على الله وذكر نعمائه كما بذلتم جهدكم فى الثناء على آبائكم فى الجاهلية (أو أشد ذكرا) أى بل أكثر ذكرا من ذكر آبائكم لان صفات الكمال لله تعالى غير متناهية (فمن الناس) أى المشركين أو المؤمنين (من يقول) فى الموقف (ربنا آتنا) أى اعطنا (فى الدنيا) ابلا وبقرا وغنما وعبيدا أو اماء ومالا (وماله فى الآخرة من خلاق) أى من نصيب فى الجنة بحجه (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة) أى علما وعبادة وعصمة من الذنوب وشهادة وغنيمة وصحة وكفافا وتوفيقا للخير (وفى الآخرة حسنة) أى جنة ونعيمها (وقنا عذاب النار) أى ادفع عنا العذاب (أولئك) أى أهل هذه الصفة (لهم نصيب) أى حظ وافر فى الجنة (مما كسبوا) أى من حجهم (والله سريع الحساب) أى سريع القبول لدعاء عباده والاجابة لهم وعاجلة سؤالات السائلين (واذكروا الله) أى بالتكبير والتهليل والتمجيد (فى أيام معدودات) أى فى أيام التشريق الثلاثة (فمن تعجل) برجوعه الى أهله (فى يومين) بعد يوم النحر (فلا اثم عليه) بتعجيله (ومن تأخر) الى اليوم الثالث حتى رمى فيه قبل الزوال أو بعده (فلا اثم عليه) بتأخره فهم مخيرون فى ذلك (لمن اتقى) أى ونفى الاثم لمن اتقى الله فى حجه لانه المنتفع بحجه دون من سواه (واتقوا الله) أى احذروا الاخلال بما ذكر من الاحكام (واعلموا أنكم اليه

تحشرون) أي الجزاء على أعمالكم بعد البعث (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) أي ومن الناس من يعظم في قلبك كلامه عندما يتكلم لطلب مصالح الدنيا وهو الاخنس بن شريق الثقفي واسمه أبي كان منافقا حسن العلانية خبيث الباطن (ويشهد الله على ما في قلبه) فان الاخنس هذا أقبل الى النبي صلى الله عليه وسلم وأظهر الاسلام ويحلف بالله انه يحبه ويتابعه في السر ويحتمل انه يقول فالله يشهد بأن الأمر كما قلت فهذا استشهاد بالله وليس بيمين وقرأ ابن محيصن يشهد الله بفتح الياء والهاء والمعنى يعلم الله من قلبه خلاف ما أظهره (وهو ألد الخصام) قال قتادة شديد القسوة في معصية الله جدل بالباطل عالم اللسان جاهل العمل وقال السدي أعوج الخصام (واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها) أي واذا انصرف من عندك اجتهد في ايقاع القتال بأن يوقع الاختلاف بين الناس ويفرق كلمتهم ويؤدي الى انه يتبرأ بعضهم من بعض فينقطع الارحام ويسفك الدماء (ويهلك الحرث) أي الزرع بالاحراق (والنسل) أي الحيوان بالقتل فان الاخنس لما انصرف من بدر مر ببني زهرة وكان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلا فأحرق زرعهم وأهلك مواشيهم (والله لا يحب الفساد) أي لا يرضى به (واذا قيل له) أي لذلك الناس (اتق الله) في فعلك (أخذته العزة بالاثم) أي لزمه التكبر الحاصل بالاثم الذي في قلبه فان التكبر انما حصل بسبب ما في قلبه من الكفر والجهل وعدم النظر في الدلائل (فحسبه جهنم) أي كافيه جهنم جزاء له وعذابا (ولبئس المهاد) أي لبئس المستقر هي (ومن الناس من يشري) اي يشتري (نفسه) بماله (ابتغاء مرضاة الله) روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في صهيب بن سنان مولى عبد الله بن جدعان وفي عمار بن ياسر وفي سمية أمه وفي ياسر أبيه وفي بلال مولى أبي بكر وفي خباب بن الارت وفي أبي ذر وفي عابس مولى حويطب أخذهم المشركون فعذبوهم فأما صهيب فقال لاهل مكة اني شيخ كبير ولي مال ومتاع وانا أعطيكم مالي ومتاعي واشتري منكم ديني فرضوا منه بذلك وخلوا سبيله فانصرف الى المدينة فنزلت هذه الآية وعند دخول صهيب المدينة لقيه أبو بكر رضي الله عنه فقال ربح بيعك يا أبا يحيى فقال وما ذاك فقال أنزل الله فيك قرآنا وقرأ عليه هذه الآية وأما خباب بن الارت وأبو ذر فقد فرا وأتيا المدينة وأما سمية فربطت بين بعيرين ثم قتلت وقتل ياسر وأما الباقون فأعطوا بسبب العذاب بعض ما أراد المشركون فتركوا (والله رؤف بالعباد) الذين قتلوا في مكة أبي عمار وأمه وغيرهما لانه تعالى أرشدهم لما فيه رضاه (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) نزلت هذه الآية في شأن طائفة من مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه وذلك لانهم حين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم أقاموا بعده على تعظيم شرائع موسى فعظموا السبت وكرهوا لحوم الابل وألبانها وكانوا يقولون ترك هذه الاشياء مباح في الاسلام وواجب في التوراة فنحن نتركها احتياطا فكره الله تعالى ذلك منهم وأمرهم أن يدخلوا في السلم كافة ولا يتمسكوا بشيء من أحكام التوراة اعتقادا له وعملا به لانها صارت منسوخة (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أي لا تتبعوا الطرق تزيين الشيطان بتفريق الاحكام بالعمل ببعضها الموافق لشريعة موسى وعدم العمل بالبعض الآخر المخالف لها (انه لكم عدو مبين) اي ظاهر العداوة (فان زللتم) اي ان انصرفتم عن الطريق الذي أمرتم به (من بعد ما جاءتكم البينات) أي الدلائل العقلية والنقلية كالمعجزة الدالة على الصدق وكالبيان الحاصل بالقرآن والسنة (فاعلموا أن الله عزيز) أي قوي بالنقمة لمن لا يتابع رسوله فلا يمنعه مانع عنكم ولا يفوته ما يريده منكم (حكيم) أي عالم بعواقب الامور (هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) أي ما ينظر أهل

مكة الا أن يأتيهم الله بلا كيف يوم القيامة والملائكة فى ظلل من الغمام فقوله فى ظلل من الغمام والملائكة مقدم ومؤخر فنزول الغمام علامة لظهور أشد الاهوال فى القيامة قال تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (وقضى الأمر) اى تم فصل القضاء بين الخلائق وأخذ الحقوق لاربابها وانزال كل أحد من المكلفين منزلته فى الجنة والنار (والى الله ترجع الامور) أى ان الله تعالى ملك عباده فى الدنيا كثيرا من أمور خلقه فاذا صاروا الى الآخرة فلا مالك للحكم فى العباد سواه كما قال تعالى والامر يومئذ لله قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ترجع بالبناء للمجهول على معنى ترد وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى ترجع بالبناء للفاعل أى تصير كقوله تعالى ألا الى الله تصير الامور وقال فخر الدين محمد الرازى والاوضح عندى أن قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة انما نزلت فى حق اليهود والمعنى يا أيها الذين آمنوا بالكتاب المتقدم أكملوا طاعتكم فى الايمان بأن تؤمنوا بجميع أنبياء الله وكتبه فادخلوا بايمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبكتابه فى الاسلام عن التمام ولا تتبعوا الشبهات التى تتمسكون بها فى بقاء تلك الشريعة وعلى هذا التقدير فقوله تعالى فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم يكون خطابا مع اليهود وحينئذ يكون قوله تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة حكاية عن اليهود والمعنى انهم لا يقبلون دينك الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة ألا ترى انهم فعلوا مع موسى مثل ذلك فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة واذا كان هذا حكاية عن حال اليهود لم يمتنع اجراء الآية على ظاهرها وذلك لان اليهود كانوا على مذهب التشبيه وكانوا يجوزون على الله المجىء والذهاب وكانوا يقولون انه تعالى تجلى لموسى عليه السلام على الطور فى ظلل من الغمام وطلبوا مثل ذلك فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا التقدير يكون هذا الكلام حكاية عن معتقد اليهود القائلين بالتشبيه فلا يحتاج حينئذ الى التأويل ولا الى حمل اللفظ على المجاز وذكر الله تعالى بعد ذلك ما يجرى مجرى التهديد بقوله تعالى والى الله ترجع الامور (سل بنى اسرائيل) قل يا أشرف الخلق لأولاد يعقوب الحاضرين منهم توبيخا (كم آتيناهم من آية بينة) أى معجزات موسى عليه السلام كفلق البحر وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى ونتق الجبل وتكليم الله تعالى لموسى عليه السلام من السحاب وانزال التوراة عليهم فبدلوا مقتضاها وهو الايمان بها بالكفر فاستوجبوا العقاب من الله تعالى فانكم لو زللتم عن آيات الله تعالى لوقعتم فى العذاب كما وقع لاسلافكم أو المعنى سل يا أشرف الخلق هؤلاء الحاضرين من بنى اسرائيل تنبيها لهم على ضلالتهم كم آتيناهم من حجة بينة لمحمد صلى الله عليه وسلم يعلم بها صدقه وصحة شريعته وكفروا بها (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته) أى ومن يغير آيات الله الباهرة الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالكفر من بعد ما عرفها أو المعنى ومن يغير دين الله وكتابه بالكفر من بعد ما جاء محمد به (فان الله شديد العقاب) لمن كفر به (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) أى حسن ما فى الحياة الدنيا من سعة المعيشة لكفار مكة أبى جهل ورؤساء قريش (ويسخرون من الذين آمنوا) أى يسخرون على فقراء المؤمنين كعبد الله بن مسعود وعمار وخباب وسالم مولى أبى حذيفة وعامر بن فهيرة وأبى عبيدة بن الجراح وسلمان وبلال وصهيب بضيق المعيشة (والذين اتقوا) عن الدنيا الشاغلة عن الله تعالى (فوقهم يوم القيامة) لان المؤمنين فى عليين والكافرين فى سجين ولانهم فى أوج الكرامة وهم فى حضيض المذلة ولان سخرية المؤمنين بالكفار يوم القيامة فوق سخرية الكافرين بالمؤمنين فى الدنيا (والله يرزق من يشاء) فى الدنيا من كافر ومؤمن (بغير حساب)

اى بغير تكلف من المرزوق ومن حيث لا يحتسب وقد أغنى الله المؤمنين بما أفاء عليهم من أموال صناديد
قريش ورؤساء اليهود حتى ملكوا كنوز كسرى وقيصر (كان الناس أمة واحدة) قائمة على الحق
ثم اختلفوا بسبب الحسد والتنازع فى طلب الدنيا فان الناس وهو آدم وأولاده من الذكور والاناث كانوا
أمة واحدة على الحق ثم اختلفوا بعد ذلك (فبعث الله النبيين مبشرين) بالجنة لمن آمن بالله (ومنذرين)
بالنار لمن لم يؤمن بالله (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) أى ليحكم
الكتاب فى الحق الذى اختلف الناس فى ذلك الحق فالكتاب حاكم والمختلف فيه وهو الحق محكوم عليه
(وما اختلف فيه) أى الحق (الا الذين أوتوه) اى أعطوا الكتاب مع أن المقصود من انزال الكتاب
أن لا يختلفوا وان يرفعوا المنازعة فى الدين (من بعد ما جاءتهم البينات) اى الدلائل العقلية التى نصبها
الله تعالى على اثبات الاصول التى لا يمكن القول بالنبوة الا بعد ثبوتها (بغيا بينهم) اى حسدا منهم اى
أن الدلائل اما سمعية واما عقلية أما السمعية فقد حصلت بايتاء الكتاب وأما العقلية فقد حصلت بالبينات
المتقدمة على ايتاء الكتاب فبعد ذلك لم يبق فى العدول عن الحق علة فلو حصل العدول لم يكن ذلك
لا بحسب الحسد والحرص على طلب الدنيا (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه) أى
فهدى الله الذين آمنوا للحق الذى اختلف فيه من اختلف بعلمه وبارادته و بكرامته قال ابن زيد اختلفوا فى
القبلة فصلت اليهود الى بيت المقدس والنصارى الى المشرق فهدانا الله للكعبة واختلفوا فى الصيام فهدانا
الله لشهر رمضان واختلفوا فى ابراهيم فقالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا فقلنا انه
كان حنيفا مسلما واختلفوا فى عيسى فاليهود فرطوا حيث أنكروا نبوته ورسالته والنصارى فرطوا
حيث جعلوه الها وقلنا قولا عدلا وهو انه عبد الله ورسوله (والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم)
أى طريق حق لا يضل سالكه ويقال والله يثبت من يشاء على دين قائم يرضيه (أم حسبتم أن تدخلوا
الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين
آمنوا معه متى نصر الله) قال ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة اشتد الضرر عليهم
لانهم خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم فى أيدى المشركين وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى
الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية تطييبا لقلوبهم وقال قتادة والسدى نزلت فى غزوة الخندق
حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والحزن وقيل نزلت فى حرب أحد لما قال عبد الله بن أبى لاصحاب
محمد صلى الله عليه وسلم الى متى تقتلون أنفسكم وترجون الباطل ولو كان محمد نبيا لما سلط الله عليكم الاسر
والقتل ومعنى الآية أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة بمجرد الايمان بى وتصديق رسولى دون أن
تعبدوا الله بكل ما كلفكم به وابتلاكم بالصبر عليه ودون أن ينالكم أذى الكفار والفقر ومقاساة الاهوال
فى مجاهدة العدو كما كان كذلك من قبلكم من المؤمنين وهو المراد من قوله تعالى ولما يأتكم مثل الذين خلوا
من قبلكم أى والحال لم يأتكم شبه محنة المؤمنين الذين مضوا من قبلكم ثم بين الله ذلك الشبه مستهم
البأساء والضراء فالبأساء تضييق جهات الخير والمنفعة والضراء انفتاح جهات الشر والآفات والآلام
ومعنى زلزلوا أى حركوا بأنواع البلايا والرزايا ومعنى حتى يقول الرسول لان الرسل عليهم السلام يكونون
فى غاية الثبات والصبر وضبط النفس عند نزول البلاء فاذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك هو الغاية
القصوى فى الشدة فلما بلغت بهم الشدة الى هذه الدرجة العظيمة قيل لهم (ألا ان نصر الله قريب) اجابة لهم
من الله أو من قوم منهم والاحسن أن يقال فالذين آمنوا قالوا متى نصر الله ثم رسولهم قال ألا ان نصر الله

قريب روى الكلبي عن ابن عباس أن الآية نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخا كبيرا هرما وهو الذي قتل يوم أحد وعنده مال عظيم فقال ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت هذه الآية (يسألونك ماذا ينفقون) أي أي شيء مصرف المال (قل ما أنفقتم من خير) أي مال (فللوالدين والاقربين واليتامى) أي المحتاجين منهم (والمساكين وابن السبيل) فالانفاق على الوالدين واجب عند عجزهما عن الكسب والملك والانفاق على الاقربين وهم الأولاد وأولاد الاولاد قد يلزم عند فقد الملك فحينئذ الواجب فيما ذكر قدر الكفاية وقد يكون على صلة الرحم والانفاق على اليتامى والمساكين والمارين في السبيل اما من جهة الزكاة أو من جهة صدقة التطوع فالمراد بهذه الآية من أحب التقرب الى الله تعالى في باب النفقة فالاولى له أن ينفقه في هذه الجهات فيقدم الاولى فالاولى في صدقة التطوع (وما تفعلوا من خير) أي من سائر وجوه البر والطاعة (فان الله به عليم) أي فيجازيكم عليه ويوفي ثوابه (كتب عليكم القتال) أي فرض عليكم قتال الكفرة في أوقات النفير العام مع النبي صلى الله عليه وسلم (وهو كره لكم) أي والحال أن القتال مكروه لكم طبعا للمشقة على النفس (وعسى أن تكرهوا شيأ) كالجهاد في سبيل الله (وهو خير لكم) لما تصيبون الشهادة والغنيمة والأجر (وعسى أن تحبوا شيأ) كالجلوس عن الجهاد (وهو شر لكم) لانكم لا تصيبون الشهادة ولا الغنيمة ولا الأجر (والله يعلم) أن الجهاد خير لكم فلذلك يأمركم به (وأنتم لا تعلمون) ذلك ولذلك تكرهونه أو المعنى والله يعلم ما هو خير وشر لكم وأنتم لا تعلمونهما فلا تتبعوا في ذلك رأيكم وامتثلوا بأمره تعالى نزلت تلك الآية في حق سعد بن أبي وقاص والمقداد بن الاسود وأصحابهما (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) روى أكثر المفسرين عن ابن عباس أنه قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش الاسدي وهو ابن عمته قبل قتال بدر بشهرين وبعد سبعة عشر شهرا من مجيئه المدينة في ثمانية رهط وكتب له كتابا وعهدا ودفعه اليه وأمره أن يفتحه بعد منزلتين ويقرأه على أصحابه ويعمل بما فيه فاذا فيه أما بعد فسر على بركة الله تعالى بمن اتبعك حتى تنزل بطن نخل فترصد بها عير قريش لعلك أن تأتينا منه بخير فقال عبد الله سمعا وطاعة لأمره فقال لاصحابه من أحب منكم الشهادة فلينطلق معي فاني ماض لامره ومن أحب التخلف فليتخلف فمضى حتى بلغ بطن نخل بين مكة والطائف فمر عليهم عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه فلما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حلقوا رأس واحد منهم وأوهموا بذلك انهم قوم عمار ثم أتى واقد بن عبد الله الحنظلي وهو أحد من كان مع عبد الله بن جحش ورمى عمرو بن الحضرمي فقتله وأسروا اثنين وساقوا العير بما فيه من تجارة الطائف حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فضجت قريش وقالوا قد استحل محمد الشهر الحرام شهرا يأمن فيه الخائف فيسفك فيه الدماء والمسلمون أيضا قد تعجبوا من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم اني ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام وقال عبد الله بن جحش يا رسول الله انا قتلنا ابن الحضرمي ثم أمسينا فنظرنا الى هلال رجب فلا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والاسارى فنزلت هذه الآية فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة وعلى هذا التقدير فالاظهر أن هذا السؤال انما صدر عن المسلمين (قل) في جوابهم (قتال فيه) اي الشهر الحرام وهو رجب (كبير) اي عظيم وزرا وقد تم الكلام ههنا والوقف عنا تام (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله) اي ولكن منع الناس عن دين الله وطاعته وكفر بالله ومنع الناس عن مكة واخراج أهله وهم النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون

من مكة أعظم وزرا عند الله من قتل عمرو بن الحضرمي في رجب خطأ مع أنه يجوز أن يكون ذلك القتل
واقعا في جمادى الآخرة (والفتنة) اى ما فعلوا الفتنة عن دين المسلمين تارة بالقاء الشبهة في قلوبهم وتارة
بالتعذيب كفعلهم ببلال وصهيب وعمار بن ياسر (أكبر من القتل) اى أفظع من قتل عمرو بن
الحضرمي روى أنه لما نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن جحش الى مؤمني مكة اذا عيركم المشركون
بالقتال في الشهر الحرام فعيروهم بالكفر واخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ومنع المؤمنين
عن البيت الحرام (ولا يزالون) اى أهل مكة الكفرة (يقاتلونكم) أيها المؤمنون (حتى يردوكم عن
دينكم) اى كي يردوكم عن دينكم الحق الى دينهم الباطل (ان استطاعوا) وهذا استبعاد لاستطاعتهم
واشارة الى ثبات المسلمين في دينهم (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر) بأن لم يرجع الى الاسلام
(فأولئك) المصرون على الارتداد الى حين الموت (حبطت أعمالهم) الحسنة التي عملوها في حالة الاسلام
(في الدنيا والآخرة) محبوط الاعمال في الدنيا فهو انه يقتل عند الظفر به ويقاتل الى أن يظفر به
ولا يستحق من المؤمنين نصرا ولا ثناء حسنا وتبين زوجته منه ولا يستحق الميراث من كل أحد وحبوط
أعمالهم في الآخرة ان الردة تبطل استحقاقهم للثواب الذي استحقوه بأعمالهم السالفة أما لو رجع المرتد الى
الاسلام عادت اليه أعماله الصالحة مجردة عن الثواب فلا يكلف باعادتها وهذا هو المعتمد في مذهب الشافعي
(وأولئك أصحاب النار) اى ملازموها (هم فيها خالدون) أى مقيمون لا يخرجون ولا يموتون
(وروى) أن عبد الله بن جحش قال يا رسول الله هب انه لا عقاب علينا فيما فعلنا فهل نطمع منه أجرا
وثوابا فنزلت هذه الآية (ان الذين آمنوا) بالله ورسوله (والذين هاجروا) اى فارقوا أوطانهم
وعشائرهم من مكة الى المدينة (وجاهدوا) اى بذلوا جهدهم في قتل العدو كقتل عمرو بن الحضرمي
الكافر (في سبيل الله) اى لاعلاء دين الله (أولئك يرجون رحمة الله) اى يطمعون في ثواب الله
أو ينالون جنة الله (والله غفور رحيم) فيحقق لهم رجاءهم اذا ماتوا على الايمان والعمل الصالح
(يسألونك عن الخمر والميسر) اى عن تناولهما (قل فيهما) اى في تعاطيهما (اثم كبير)
اى عظيم بعد التحريم لما يحصل بسببهما من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش واتلاف للاموال ولأن
الخمر مسلبة للعقول التي هي قطب الدين والدنيا وقرأ حمزة والكسائي كثير بالثاء المثلثة (ومنافع للناس)
قبل التحريم بالتجارة فيها وباللذة والفرح وتصفية اللون وحمل البخيل على الكرم وزوال الهم وهضم
الطعام وتقوية الباءة وتشجيع الجبان في شرب الخمر واصابة المال بلا كد في القمار أى المغالبة بأخذ
المال في أنواع اللعب (واثمهما) بعد التحريم (أكبر من نفعهما) قبل التحريم وقرئ أقرب من
نفعهما قال المفسرون نزلت في الخمر أربع آيات نزل بمكة قوله تعالى ومن ثمرات النخيل والاعناب
تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا وكان المسلمون يشربونها وهي حلال لهم ثم ان عمر ومعاذا ونفرا من
الصحابة منهم سيدنا حمزة بن عبد المطلب وبعض الانصار قالوا يا رسول الله افتنا في الخمر فانها مذهبة
للعقل مسلبة للمال فنزل فيها قوله تعالى قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس فشربها قوم وتركها آخرون
ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا وسكروا فقام بعضهم يصلي اماما فقرأ قل يا أيها الكافرون
أعبد ما تعبدون بحذف لا فنزلت لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى فقل من شربها ثم اجتمع قوم من الانصار
وفيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا الاشعار حتى أنشد سعد شعرا فيه هجاء للانصار
فضربه أنصاري بلحي بعير فشجه شجة موضحة فشكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر اللهم بين

لنا في الخمر بيانا شافيا فنزل انما الخمر والميسر الى قوله فهل أنتم منتهون فقال عمر انتهينا يارب (ويسألونك ماذا ينفقون) أي أي قدر ينفقونه نزلت هذه الآية في شأن عمرو بن الجموح سأل النبي صلى الله عليه وسلم ماذا نتصدق من أموالنا وقيل السائل معاذ بن جبل وثعلبة وقال الرازي كان الناس لما رأوا الله ورسوله يحضان على الانفاق و يدلان على عظيم ثوابه سألوا عن مقدار ما كلفوا به هل هو كل المال أو بعضه فأعلمهم الله تعالى أن العفو أي الفاضل عن الكفاية مقبول (قل العفو) اي ما سهل مما يكون فاضلا عن حاجة الانسان في نفسه وعياله ومن تلزمه مؤنتهم (كذلك) اي كما بين الله لكم قدر المنفق وحكم الخمر والميسر بأن فيهما منافع في الدنيا ومضار في الآخرة (يبين الله لكم الآيات) الدالة على الاحكام الشرعية (لعلكم تتفكرون في الدنيا) أنها فانية (والآخرة) أنها باقية فاذا تفكرتم في أحوال الدنيا والآخرة علمتم انه لابد من ترجيح الآخرة على الدنيا (ويسألونك عن اليتامى) كان أهل الجاهلية قد اعتادوا الانتفاع بأموال اليتامى وربما تزوجوا باليتيمة طمعا في مالها ثم ان الله تعالى أنزل قوله ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وقوله ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن فعند ذلك ترك القوم مخالطة اليتامى والمقاربة من أموالهم والقيام بأمورهم فاختلت مصالح اليتامى وساءت معيشتهم فثقل ذلك على الناس فقال عبد الله بن رواحة وقيل ثابت بن رفاعة الانصاري يارسول الله ما كلنا منازل تسكنها الايتام ولا كلنا يجد طعاما وشرابا يردهما لليتيم فهل يجوز مخالطة اليتامى بالطعام والشراب والمسكن أم لا فنزلت هذه الآية (قل اصلاح لهم خير) أي قل يا أشرف الخلق اصلاح أموالهم من غير أخذ أجرة خير لكم من ترك مخالطتهم وأعظم أجرا لكم (وان تخالطوهم فاخوانكم) أي وان تخالطوهم بما لا يتضمن افساد أموالهم فذلك جائز لانهم اخوانكم في الدين (والله يعلم المفسد من المصلح) أي يعرف المفسد لاموالهم بالمخالطة من المصلح لها وقيل يعلم ضمائر من أراد الافساد والطمع في أموالهم بالنكاح ممن أراد الاصلاح (ولو شاء الله لأعنتكم) أي لكلفكم ما يشتد عليكم أو لضيق الامر عليكم في مخالطتهم (ان الله عزيز) أي غالب على أمره قوي بالنقمة لمفسد مال اليتيم (حكيم) يحكم بما تقتضيه الحكمة الداعية الى بناء التكليف على أساس طاقة البشر (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) أي ولا تتزوجوا المشركات بالله الى أن يؤمن بالله بأن يقررن بالشهادة و يلتزمن أحكام الاسلام هذا مقصور على غير الكتابيات لما روي عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا وروي عبد الرحمن بن عوف انه صلى الله عليه وسلم قال في حق المجوس سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم وسبب نزول هذه الآية ما روي ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي الى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين سرا فعند قدومه جاءته امرأة مشركة اسمها عناق فالتمست الخلوة فقال ويحك ان الاسلام حال بيني وبينك فقالت هل لك أن تتزوج بي فقال نعم ثم وعدها أن يأذن الرسول صلى الله عليه وسلم فلما انصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفه ما جرى في أمر عناق وسأله هل يحل له التزوج بها فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) أي لنكاح أمة مؤمنة خير من نكاح مشركة ولو أعجبتكم تلك المشركة بحسنها أو بمالها أو بحريتها أو بنسبها قال السدي نزلت هذه الآية في حق عبد الله بن رواحة كان له أمة فأعتقها وتزوج بها فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا أتنكح أمة وعرضوا عليه حرة مشركة فأنزل الله تعالى تلك الآية (ولا تنكحوا المشركين

حتى يؤمنوا) أي ولا تزوجوا الكفار ولو كانوا أهل كتاب المؤمنات حتى يؤمنوا (ولعبد مؤمن خير من مشرك) أي تزويجكم لعبد مؤمن خير من تزويجكم لمشرك (ولو أعجبكم) ذلك المشرك لماله وجماله وقوته وحريته (أولئك) المشركات والمشركون (يدعون الى النار) أي الى ما يؤدي الى النار فان الزوجية مظنة المحبة وذلك يوجب الموافقة في الاغراض وربما يؤدي ذلك الى انتقال الدين بسبب موافقة المحبوب (والله يدعوا الى الجنة والمغفرة) بتبيان هذه الاحكام من الاباحة والتحريم فان من تمسك بها استحق الجنة والمغفرة (باذنه) أي بتيسيره تعالى وتوفيقه للعمل الذي يستحق به الجنة والمغفرة وقرأ الحسن والمغفرة باذنه بالرفع أي والمغفرة حاصلة بتيسير الله تعالى (ويبين آياته) أي أمره ونهيه في التزوج والتزويج (للناس لعلهم يتذكرون) قبح المنهي عنه وحسن المدعو اليه (ويسألونك عن المحيض) أي الحيض والسائل عن ذلك ثابت الدحداح الانصاري وقيل عباد بن بشر وأسيد بن الحضير لان أهل الجاهلية كانوا اذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فرش ولم يساكنوها في بيت كفعل اليهود والمجوس وأما النصارى كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض (قل) يا أشرف الخلق (هو) أي الحيض (أذى) أي قذر لرائحته المنكرة التي فيه واللون الفاسد وللحدة القوية التي فيه كما قال صلى الله عليه وسلم دم الحيض هو الاسود المحتدم أي المحترق من شدة حرارته (فاعتزلوا النساء في المحيض) أي في موضع الحيض (ولا تقربوهن) أي لا تجامعوهن (حتى يطهرن) وهذا تأكيد لحكم الاعتزال قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص ويعقوب الحضرمي حتى يطهرن بسكون الطاء وضم الهاء يعني حتى يزول عنهن الدم وقرأ شعبة وحمزة والكسائي بتشديد الطاء والهاء يعني يغتسلن (فاذا تطهرن) أي اغتسلن أو تيممن عند تعذر استعمال الماء (فأتوهن من حيث أمركم الله) أي فجامعوهن في موضع أمركم الله به وهو القبل وقال الاصم والزجاج أي فأتوهن من حيث يحل لكم غشيانهن وذلك بأن لا يكن صائمات ولا معتكفات ولا محرمات بالنسك وفهم من هذا الشرط انه يشترط بعد انقطاع الحيض الاغتسال لانه قد صار المجموع غاية وذلك بمنزلة قولك لا تكلم فلانا حتى يدخل الدار فاذا طابت نفسه بعد الدخول فكلمه فانه يجب أن يتعلق اباحة كلامه بالامرين جميعا واتفق مالك والاوزاعي والثوري والشافعي انه اذا انقطع حيض المرأة لا يحل للزوج مجامعتها الا بعد أن تغتسل من الحيض والمشهور عن أبي حنيفة انها ان رأت الطهر دون عشرة أيام لم يقربها زوجها وان رأته لعشرة أيام جاز أن يقربها قبل الاغتسال (ان الله يحب التوابين) بالندم على ما مضى من الذنب والترك في الحاضر والعزم على أن لا يفعل مثله في المستقبل (ويحب المتطهرين) أي المتنزهين عن المعاصي من اتيان النساء في زمان الحيض والاتيان في الادبار وقيل يحب المستنجين بالماء (نساؤكم حرث لكم) أي فروج نسائكم مزرعة لاولادكم (فأتوا حرثكم) أي مزرعتكم (أنى شئتم) أي من أي جهة شئتم أي فالمراد من هذه الآية ان الرجل مخير بين أن يأتي زوجته من قبلها في قبلها وبين أن يأتيها من دبرها في قبلها لان سبب نزول هذه الآية ما روي ان اليهود قالوا من جامع امرأته في قبلها من دبرها كان ولدها أحول مخبلا وزعموا أن ذلك في التوراة فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كذبت اليهود (وقدموا لانفسكم) من الاعمال الصالحة كالتسمية عند الجماع وطلب الولد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قال بسم الله عند الجماع فأتاه ولد فله حسنات بعدد أنفاس ذلك الولد وعدد عقبه الى يوم القيامة أي قدموا ما يدخر لكم من الثواب ولا تكونوا في قيد قضاء الشهوة (واتقوا الله) في أدبار النساء

ومجامعتهن فى الحيض (واعلموا أنكم ملاقوه) أى الله بالبعث فتزودوا ماتنتفعون به فانه تعالى يجزيكم بأعمالكم (وبشر المؤمنين) خاصة بالثواب والكرامة (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) أى ولا تجعلوا ذكر الله مانعا بسبب أيمانكم من أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس قال ابن عباس ارجعوا الى ماهو خير لكم وكفروا أيمانكم نزلت هذه الآية فى شأن عبد الله بن رواحة فانه حلف بالله أن لا يحسن الى اخته وختنه أى زوج اخته بشير بن النعمان ولا يكلمهما ولا يصلح بينهما فكان اذا قيل له فى الصلح يقول قد حلفت بالله ان لا أفعل فلا يحل لى أن لا أبر فى يمينى (والله سميع) بيمينكم بترك الاحسان (عليم) بنياتكم وبكفارة اليمين (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) قال الشافعى رضى الله عنه ان اللغو قول العرب لا والله وبلى والله فى الشراء والبيع وغير ذلك من مايؤكدون به كلامهم ولا يخطر ببالهم الحلف ولو قيل لواحد منهم سمعتك اليوم تحلف فى المسجد الحرام ألف مرة لأنكر ذلك ولعله قال لا والله ألف مرة وقال أبو حنيفة ان اللغو هو أن يحلف على شئ يعتقد انه كان ثم بان أنه لم يكن فالشافعى لا يوجب الكفارة فى المسئلة الاولى ويوجبها فى الثانية وأبو حنيفة يحكم بالضد من ذلك (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) أى قصدته من الايمان بجد وربطت به لحنثتم فاذا حلف على شئ بالجد فى انه كان حاصلا ثم ظهر انه لم يحصل فقد قصد بذلك اليمين تصديق قول نفسه وربط قلبه بذلك فلم يكن ذلك لغوا بل كان حاصلا بكسب القلب (والله غفور) حيث لم يؤاخذكم باللغو مع كونه ناشئا من عدم الاحتياط (حليم) حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجد (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر) أى للذين يحلفون أن لا يجامعوهن مطلقا أو مدة تزيد على أربعة أشهر انتظار أربعة أشهر (فان فاؤا) أى رجعوا عن اليمين بالحنث بأن جامعوا قبل أربعة أشهر (فان الله غفور) ليمينهم ان تابوا بفعل الكفارة (رحيم) حيث بين كفارتهم (وان عزموا الطلاق) أى ان حققوا الطلاق وبروا أيمانهم (فان الله سميع) ليمينهم (عليم) بعزمهم فليس لهم بعد التربص الا الفيئة أو الطلاق فان بر المولى يمينه وترك مجامعة امرأته حتى تجاوز أربعة أشهر بانت منه امرأته بتطليقة واحدة وان جامعها قبل ذلك فعليه كفارة اليمين كما قاله ابن عباس (والمطلقات) أى ذوات الاقراء من الحرائر المدخول بهن (يتربصن بأنفسهن) فى العدة (ثلاثة قروء) فلا تتوقف العدة على ضرب قاض (ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن) من الحبل والحيض معا وذلك لان المرأة لها اغراض كثيرة فى كتمانهما فاذا كتمت الحبل قصرت عدتها فتزوج بسرعة وربما كرهت مراجعة الزوج وأحبت التزوج بزوج آخر أو أحبت ان يلتحق ولدها بالزوج الثانى فلهذه الاغراض تكتم الحبل واذا كتمت الحيض فقد تحب تطويل عدتها لكى يراجعها الزوج الاول وقد تحب تقصير عدتها لتبطل رجعته ولا يتم لها ذلك الا بكتمان بعض الحيض فى بعض الاوقات (ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر) فلا يجترئن على ذلك الكتمان وهذا الشرط للتغليظ حتى لو لم يكن مؤمنات كان عليهن العدة أيضا (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك) أى أزواج المطلقات أحق برجعتهن فى مدة ذلك التربص (ان أرادوا) أى البعولة بالرجعة (اصلاحا) والسبب فى هذه الآية ان فى الجاهلية كانوا يراجعون المطلقات ويريدون بذلك الاضرار بهن ليطلقوهن بعد الرجعة حتى تحتاج المرأة الى ان تعتد عدة حادثة فنهوا عن ذلك (ولهن) عليهم من الحقوق (مثل الذى) لهم (عليهن) من الحقوق (بالمعروف) شرعا فى حسن المعاشرة (وللرجال عليهن درجة) أى فضيلة فى الحق لان حقوقهم عليهن

فى أنفسهن وحقوقهن عليهم فى المهر والنفقة (والله عزيز) يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه
(حكيم) فيما حكم بين الزوجين (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) أى ذلك الطلاق
الذى حكمنا فيه بثبوت الرجعة للزوج هو أن يوجد مرتان فالواجب بعدها بين المرتين اما امساك بمعروف
أى رجعة بحسن عشرة ولطف معاملة لا على قصد اضرار أو تسريح أى ارسال بترك المراجعة حتى تنقضى
العدة وتحصل البينونة باحسان أى بغير ذكرسوء بعد المفارقة و بأداء جميع حقوقها المالية وهذه الآية
متناولة لجميع الاحوال لان الزوج بعد الطلقة الثانية اما أن يراجعها وهو المراد بقوله تعالى فامساك بمعروف
أو يتركها حتى تبين بانقضاء العدة وهو المراد بقوله تعالى أو تسريح باحسان أو يطلقها ثالثة وهو المراد
بقوله تعالى فان طلقها فلا تحل له من بعد فكانت الآية مشتملة على بيان كل الاقسام ولو جعلنا التسريح
طلقة ثالثة لكان قوله تعالى فان طلقها طلقة رابعة فانه غير جائز وسبب نزول هذه الآية أن امرأة شكت
الى عائشة رضى الله عنها بأن زوجها يطلقها و يراجعها كثيرا (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن
شيأ) أى ومن جملة الاحسان انه اذا طلقها لا يأخذ منها شيأ من الذى أعطاها من المهر والثياب وسائر
ما تفضل به عليها لانه استمتع بها فى مقابلة ما أعطاها (الا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله) أى أن لا يراعيا
مواجب أحكام الزوجية وقرأ حمزة يخافا بضم الياء (فان خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما
فيما افتدت به) أى فلا حرج على الزوج فى أخذ ما افتدت الزوجة به نفسها من المال ليطلقها ولا
عليها فى اعطائها اياه بطيبة نفسها نزلت هذه الآية فى شأن ثابت بن قيس بن شماس وفى شأن جميلة بنت
عبد الله بن أبى اشترت نفسها من زوجها بمهرها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت خذ منها
ما أعطيتها وخل سبيلها ففعل فكان ذلك أول خلع فى الاسلام وفى سنن أبى داود ان المرأة كانت حفصة
بنت سهل الانصارية * تنبيه يجوز أن يكون أول الآية وهو قوله تعالى ولا يحل لكم أن تأخذوا خطابا
للازواج وآخرها وهو قوله تعالى فان خفتم خطابا للائمة والحكام وذلك غير غريب فى القرآن ويجوز
أن يكون الخطاب كله للائمة والحكام لانهم الذين يأمرون بالاخذ والاعطاء عند الترافع اليهم فكأنهم
هم الآخذون والمؤتون ثم الخوف المذكور فى هذه الآية يمكن حمله على الخوف المعروف وهو الاشفاق مما
يكره وقوعه ويمكن حمله على الظن كما قرئ قراءة شاذة الا أن يظنا والخوف اما أن يكون من قبل المرأة فقط
أو من قبل الزوج فقط أو من قبلهما معا أو لا يحصل الخوف من قبل واحد منهما فان كان الخوف من قبل
المرأة بأن تكون ناشزة مبغضة للزوج فيحل له أخذ المال منها وان كان من قبل الزوج فقط بأن يضربها
ويؤذيها حتى تلتزم الفداء فهذا المال حرام كما كان الخوف حاصلا من قبلهما معا فذلك المال حرام أيضا
وان لم يحصل الخوف من قبل واحد منهما فقال أكثر المجتهدين ان هذا الخلع جائز والمال المأخوذ حلال
وقال قوم انه حرام (تلك) أى ما تقدم ذكره من أحكام الطلاق والرجعة والخلع (حدود الله) أى أحكام
الله بين المرأة والزوج (فلا تعتدوها) أى فلا تجاوزوا عنها (ومن يتعد حدود الله) أى ومن
يتجاوز أحكام الله الى ما نهى الله عنه له (فأولئك هم الظالمون) أى الضارون لانفسهم بتعريضها
لسخط الله تعالى وعقابه (فان طلقها) بعد الطلقتين (فلا تحل له من بعد) أى من بعد التطليقة
الثالثة (حتى تنكح زوجا غيره) أى المطلق مذهب جمهور المجتهدين ان المطلقة بالثلاث لا تحل لذلك الزوج
الا بخمس شرائط تعتد منه وتعقد للثانى و يطؤها ثم يطلقها ثم تعتد منه وقال سعيد بن جبير وسعيد
ابن المسيب تحل بمجرد العقد روى أن تميمة بنت عبد الرحمن القرظى كانت تحت رفاعة بن وهب بن عتيك

القرظى

القرظى فطلقها ثلاثا فتزوجت بعبد الرحمن بن الزبير القرظى بفتح الزاى وكسر الباء فأتت النبى صلى الله عليه وسلم وقالت كنت تحت رفاعة فطلقنى فبت طلاقى فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير وانما معه مثل هدبة الثوب وانه أراد أن يطلقنى قبل أن يمسنى أفأرجع الى ابن عمى فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتريدين أن ترجعى الى رفاعة لا حتى تذوقى عسيلته و يذوق عسيلتك والعسيلة مجاز عن قليل الجماع اذ يكفى قليل انتشار وفى قصة عبد الرحمن بن الزبير نزل قوله تعالى فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره والحكمة فى التحليل الردع عن المسارعة الى الطلاق والعود الى المطلقة ثلاثا (فان طلقها) أى طلق الزوج الثانى المطلقة ثلاثا (فلا جناح عليهما) أى المرأة والزوج الاول (أن يتراجعا) بنكاح جديد ومهر (ان ظنا أن يقيما حدود الله) أى أحكام الله فيما بين المرأة والزوج (وتلك) أى الاحكام (حدود الله) أى فرائض الله (يبينها لقوم يعلمون) انه من الله و يصدقون بذلك (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) أى آخر عدتهن ولم تنقض (فأمسكوهن بمعروف) أى فراجعوهن بغير ضرار بل بحسن الصحبة والمعاشرة (أو سرحوهن بمعروف) أى أو خلوهن حتى ينقضى أجلهن بغير تطويل (ولا تمسكوهن ضرارا) أى لا تراجعوهن بسوء العشرة وتضييق النفقة (لتعتدوا) أى لتظلموهن بالالجاء الى الافتداء ولتطيلوا عليهن العدة نزلت هذه الآية فى رجل من الانصار يدعى ثابت بن يسار طلق امرأته حتى اذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها بقصد مضارتها حتى تبقى فى العدة تسعة أشهر أو أكثر (ومن يفعل ذلك) أى الامساك المؤدى الى الظلم (فقد ظلم نفسه) أى أضر بنفسه بتعريضها الى عذاب الله (ولا تتخذوا آيات الله) أى أمر الله ونهيه (هزوا) بأن تعرضوا عنها (واذكروا نعمة الله عليكم) حيث هداكم الى ما فيه سعادتكم الدينية والدنيوية أى فاشكروها واحفظوها (وما أنزل) الله (عليكم من الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى السنة (يعظكم به) أى يأمركم وينهاكم بما أنزل عليكم (واتقوا الله) فى أوامره كلها ولا تخالفوه فى نواهيه (واعلموا أن الله بكل شئ عليم) فلا يخفى عليه شئ مما تأتون وتذرون (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) والخطاب اما للازواج والمعنى حينئذ واذا طلقتم النساء فانقضت عدتهن فلا تمنعوهن من أن ينكحن من يريدون ان يتزوجوهن فان الازواج قد يعضلون مطلقاتهم أن يتزوجن ظلما واما للاولياء فنسبة الطلاق اليهم باعتبار تسببهم فيه كما يقع كثيرا أن الولى يطلب من الزوج طلاقها والمعنى حينئذ واذا خلصتم النساء من أزواجهن بتطليقهن فانقضت عدتهن فلا تمنعوهن من ان ينكحن الرجال الذين كانوا أزواجا لهن روى أن معقل ابن يسار زوج أخته جميلة عبد الله بن عاصم فطلقها وتركها حتى انقضت عدتها ثم ندم فجاء يخطبها لنفسه و رضيت المرأة بذلك فقال لها معقل انه طلقك ثم تريدين مراجعته وجهى من وجهك حرام ان راجعته فأنزل الله تعالى هذه الآية فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم معقل وتلا عليه هذه الآية فقال معقل رغم أنفى لامر ربى اللهم رضيت وسلمت لامرك ثم أنكح أخته زوجها الاول عبد الله بن عاصم (اذا تراضوا بينهم) أى بأن يرضى كل واحد منهما ما لزمه فى هذا العقد لصاحبه (بالمعروف) أى بالجميل عند الشرع المستحسن عند الناس (ذلك) أى تفصيل الاحكام (يوعظ به) أى يأمر به (من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) لانه المتعظ (ذلكم) أى العمل بالوعظ (أزكى لكم) أى أصلح وأنفع لكم (وأطهر) للقلوب من العداوة والتهمة بسبب المحبة بينهما (والله يعلم) ما فيه صلاح أموركم (وأنتم لا تعلمون) ذلك فدعوا رأيكم

(والوالدات) ولو مطلقات (يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) من الابوين
وليس فيما دون ذلك حد وانما هو على مقدار اصلاح المولود وما يعيش به (وعلى المولود له) أى على
الأب (رزقهن) أى نفقتهن (وكسوتهن) لاجل الارضاع اذا كن مطلقات من الاب طلاقا بائنا
لعدم بقاء علقة النكاح الموجبة لذلك فلو لم ترضعهم الوالدات لم يجب فان كن زوجات أو رجعيات فالرزق
والكسوة لحق الزوجية ولهن أجرة الرضاع ان امتنعن منه وطلبن ما ذكر (بالمعروف) أى بغير
اسراف وتقتير (لا تكلف نفس) بالنفقة على الرضاع (الا وسعها) أى الا بقدر ما أعطاها الله من
المال (لا تضار والدة بولدها) أى بأخذ ولدها منها بعدما رضيت بما أعطى غيرها على الرضاع مع شدة
محبتها له (ولا مولود له) أى لا يضار أب (بولده) بطرح الولد عليه بعدما عرف أمه ولا يقبل ثدى غيرها مع
ان الاب لا يمتنع عليهما من الرزق والكسوة (وعلى الوارث مثل ذلك) أى على الصبي نفسه الذى هو
وارث أبيه المتوفى مثل ما على الاب من النفقة والكسوة فانه ان كان له مال وجب أجر الرضاعة فى ماله وان
لم يكن له مال أجبرت أمه على الرضاعة ولا يجبر على نفقة الصبي الا الوالدان وهو قول مالك والشافعي وقيل
المراد من الوارث الباقى من الابوين أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا
واجعلهما الوارث منا (فان أرادا) أى الوالدان (فصالا) أى فطام الصبي عن اللبن قبل تمام
الحولين (عن تراض) أى باتفاق (منهما) لا من أحدهما فقط (وتشاور) أى تدقيق النظر
فيما يصلح الولد (فلا جناح عليهما) فى ذلك وكما يجوز النقص عن الحولين عند اتفاق الابوين عليه
كذلك تجوز الزيادة عليهما باتفاقهما (وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم) أى ان أردتم ان تطلبوا
مراضع لاولادكم (فلا جناح عليكم) فى الاسترضاع (اذا سلمتم) الى المراضع (ما آتيتم) أى
ما آتيتموهن اياه أى ما أردتم ايتاءه لهن من الأجرة وقرأ ابن كثير وحده ما أتيتم مقصورة الالف أى ما أتيتم
به أى ما أردتم اتيانه (بالمعروف) أى بالموافقة وليس تسليم الاجرة شرطا لصحة الاجارة بل لتكون
المرضعة طيبة النفس راضية فيصير ذلك سببا لصلاح حال الصبي وللاحتياط فى مصالحه (واتقوا الله) فى
الضرار والمخالفة (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) فيجازيكم على ذلك (والذين يتوفون منكم ويذرون
أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) أى والذين تقبض أرواحهم من رجالكم ويتركون
أزواجا ينتظرن بعدهم بأنفسهن فى العدة أربعة أشهر وعشرة أيام وهذه العدة سببها الوفاة عند
الأكثرين لا العلم بالوفاة كما قال به بعضهم فلو انقضت المدة أو أكثرها ثم بلغ المرأة خبر وفاة زوجها وجب
أن تعتد بما انقضى والدليل على ذلك ان الصغيرة التى لا علم لها يكفى فى انقضاء عدتها انقضاء هذه المدة
(فاذا بلغن أجلهن) أى انقضت عدتهن (فلا جناح عليكم) يا أولياء الميت فى تركهن (فيما فعلن
فى أنفسهن) من التزين وغيره من كل ما حرم عليهن فى زمن العدة لاجل وجوب الاحداد عليهن
(بالمعروف) أى بما يحسن عقلا وشرعا وقيل المخاطب بهذا الخطاب جميع المسلمين وذلك لانهن ان
تزوجن فى مدة العدة وجب على كل واحد منعهن عن ذلك ان قدر على المنع فان عجز وجب عليه أن
يستعين بالسلطان (والله بما تعملون) من الخير والشر (خبير) فيجازيكم عليه (ولا جناح عليكم
فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم) أى ولا حرج عليكم فيما طلبتم النكاح من
النساء المعتدات للوفاة والطلاق الثلاث بطريق التعريض وهو ذكر كلام محتمل مؤكد بدلالة الحال
على المقصود كأن يقول ان جمع الله بيننا بالحلال يعجبنى ذلك أو فيما أضمرتم فى قلوبكم من قصد نكاحهن

(علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا الا أن تقولوا قولا معروفا) أى انما أباح لكم التعريض لعلمه بأنكم لا تصبرون على السكوت عنهن لأن شهوة النفس اذا حصلت فى باب النكاح لا يكاد يخلو ذلك المشتهى من العزم والتمنى وبأنه لا بد من كونكم ستذكرونهن بالخطبة فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن بذكر الجماع وهو كما قال ابن عباس بأن لا يصف الخاطب نفسه لها بكثرة الجماع كأن يقول لها آتيك الاربعة والخمسة الا أن تساررونهن بالقول غير المنكر شرعا كأن يعدها الخاطب فى السر بالاحسان اليها والاهتمام بشأنها والتكفل بمصالحها حتى يصير ذكر هذه الاشياء الجميلة مؤكدا لذلك التعريض (ولا تعزموا) أى لا تحققوا (عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) أى حتى تبلغ العدة المفروضة آخرها وصارت منقضية (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم) من العزم على ما نهيتم عنه (فاحذروه) بالاجتناب عن العزم على ذلك (واعلموا أن الله غفور) لمن يقلع عن عزمه خشية منه تعالى (حليم) لا يعاجلكم بالعقوبة عن ذنوبكم (لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة) وقرأ حمزة والكسائى تماسوهن بضم التاء وبالالف بعد الميم أى لا ثقل عليكم بلزوم المهر ان طلقتم النساء ما لم تجامعوهن أو ما لم تبينوا لهن مهرا فلا تعطوهن المهر (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) أى اعطوهن متعة الطلاق جبرا لايحاش الطلاق على الغنى قدر ماله وامكانه وعلى ضيق الرزق قدر ماله وطاقته تمتيعا بالوجه الذى تستحسنه الشريعة والمروءة واجبا على المؤمنين الذين يحسنون الى أنفسهم بالمسارعة الى طاعة الله تعالى لان المتعة بدل المهر نزلت هذه الآية فى شأن رجل من الانصار تزوج امرأة ولم يسم لها صداقا ثم طلقها قبل أن يمسها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أمتعها قال لم يكن عندى شىء قال متعها بقلنسوتك (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) أى تجامعوهن (وقد فرضتم لهن فريضة) أى وقد بينتم مهورهن (فنصف ما فرضتم) أى فنصف ما بينتم ساقط (الا أن يعفون) أى الا أن تسهل الزوجات بابراء حقها فيسقط كل المهر (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) أى أو يسهل الزوج ببعث كل الصداق فيثبت الكل اليها (وأن تعفوا أقرب للتقوى) أى عفو بعضكم أيها الرجال والنساء أقرب للالفة وطيب النفس من عدم العفو الذى فيه التنصيف (ولا تنسوا الفضل بينكم) أى ولا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض بأن يسلم الزوج المهر اليها بالكلية أو تترك المرأة المهر بالكلية (ان الله بما تعملون) من الفضل والاحسان (بصير) لا يضيع فضلكم واحسانكم بل يجازيكم عليه (حافظوا على الصلوات) الخمس بأدائها فى أوقاتها كاملة الاركان والشروط وهذه المحافظة تكون بين العبد والرب كأنه قيل له احفظ الصلاة يحفظك الاله الذى أمرك بالصلاة وتكون بين المصلى والصلاة فكأنه قيل احفظ الصلاة حتى تحفظك الصلاة (والصلاة الوسطى) أى الفضلى قيل هى صلاة الصبح وهو قول على وعمر وابن عباس وجابر وأبى أمامة الباهلى وهم من الصحابة وطاوس وعطاء وعكرمة ومجاهد وهم من التابعين وهو مذهب الشافعى فان أولها يقع فى الظلام فأشبهت صلاة الليل وآخرها يقع فى الضوء فأشبهت صلاة النهار ولأنها منفردة فى وقت واحد لا تجمع بين غيرها ولانها مشهودة لانها تؤدى بحضرة ملائكة الليل وملائكة النهار وقيل هى صلاة العصر وهو مروى عن على وابن مسعود وابن عباس وأبى هريرة فانها متوسطة بين صلاة شفع وصلاة وتر ولان وقت صلاة العصر أخفى الاوقات فلا يظهر دخول وقتها الا بنظر دقيق وتأمل عظيم فى حال الظل فلما كانت معرفته أشق كانت الفضيلة فيها أكثر وقال بعض الفقهاء العصر وسط ولكن ليس هى

المذكورة فى القرآن فههنا صلاتان وسطيان الصبح والعصر أحدهما ثبت بالقرآن والآخر بالسنة كما ان الحرم حرمان حرم مكة بالقرآن وحرم المدينة بالسنة واختار جمع من العلماء انها احدى الصلوات الخمس لا بعينها فابهمها الله تعالى تحريضا للعباد فى المحافظة على أداء جميعها كما أخفى ليلة القدر فى شهر رمضان وأخفى ساعة اجابة الدعوة فى يوم الجمعة وأخفى اسمه الاعظم فى جميع الاسماء ليحافظوا على جميعها وأخفى وقت الموت فى الاوقات ليكون المكلف خائفا من الموت فى كل الاوقات فيكون آتيا بالتوبة فى كل الاوقات (وقوموا لله) فى الصلاة (قانتين) أى ذاكرين داعين مواظبين على خدمة الله تعالى (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) أى فان خفتم من عدو وغيره فصلوا مشاة على أرجلكم بالايماء فى الركوع والسجود أو راكبين على الدواب حيثما توجهتم والخوف الذى يفيد هذه الرخصة اما أن يكون فى القتال أو فى غير القتال فالخوف فى القتال اما أن يكون فى قتال واجب أو مباح فالقتال الواجب هو كما قتال مع الكفار وهو الاصل فى صلاة الخوف ويلتحق به قتال أهل البغى وكما اذا قصد الكافر نفسه فانه يجب الدفع عنه لئلا يكون اخلالا بحق الاسلام وقد جوز الشافعى أداء الصلاة حال المسايفة والقتال المباح هو أن يدفع الانسان عن نفسه وعن كل حيوان محترم فيجوز فى ذلك هذه الصلاة أما اذا قصده انسان بأخذ المال فالاصح انه تجوز هذه الصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم من قتل دون ماله فهو شهيد فالدفع عن المال كالدفع عن النفس وقيل لا تجوز لان حرمة الروح أعظم والخوف الحاصل فى غير القتال كالهارب من الحرق والغرق والسبع والمطالب بالدين اذا كان معسرا خائفا من الحبس عاجزا عن بينة الاعسار فلهم أن يصلوا هذه الصلاة (فاذا أمنتم) بزوال الخوف الذى هو سبب الرخصة (فاذكروا الله) أى فافعلوا الصلاة (كما علمكم) بقوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين لان سبب الرخصة اذا زال عاد الوجوب فيه والصلاة قد تسمى ذكرا كما فى قوله تعالى فاسعوا الى ذكر الله (مالم تكونوا تعلمون) قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فما مفعول لعلمكم ان جعلت ما الاولى مصدرية أما ان جعلت موصولة فما هذه بدل من الاولى أو من العائد المحذوف (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجهم متاعا الى الحول غير اخراج) اى والذين يقربون من الوفاة من رجالكم ويتركون أزواجا عليهم أن يوصوا وصية لزوجاتهم فى أموالهم بثلاثة أشياء النفقة والكسوة والسكنى الى تمام الحول من موتهم غير مخرجات من مساكنهن وقرأ ابن كثير ونافع والكسائى وأبو بكر عن عاصم وصية بالرفع اى عليهم وصية أو المعنى والذين يقبضون من رجالكم ويتركون أزواجا بعد الموت وصية من الله لازواجهم فوصية مبتدأ ولازواجهم خبر اى أمره وتكليفه لهن (فان خرجن) عن منزل الازواج باختيارهن قبل الحول (فلا جناح عليكم) يا أولياء الميت (فيما فعلن فى أنفسهن من معروف) اى غير منكر فى الشرع اى فلا جناح على ورثة الميت فى قطع النفقة والكسوة عنهن اذا خرجن من بيت زوجهن بما فعلن فى أنفسهن من معروف من التزين ومن الاقدام على النكاح أو المعنى لا جناح عليكم فى ترك منعهن من الخروج لان مقامها حولا فى بيت زوجها ليس بواجب عليها فى الذى فعلن فى أنفسهن من معروف من تزين وتشوف للتزويج (والله عزيز) اى غالب على أمره يعاقب من خالفه (حكيم) يراعى فى أحكامه مصالح عباده واختيار جمهور المفسرين ان هذه الآية منسوخة قالوا كان الحكم فى ابتداء الاسلام انه اذا مات الرجل لم يكن لامرأته من ميراثه شئ الا النفقة والسكنى سنة ولكنها كانت مخيرة بين أن تعتد فى بيت الزوج وأن تخرج

منه قبل الحول لكن متى خرجت سقطت نفقتها فهذه الوصية صارت مفسرة بالنفقة والكسوة والسكنى الى الحول فثبت ان هذه الآية توجب أمرين النفقة والسكنى من مال الزوج سنة والاعتداد سنة لان وجوب السكنى والنفقة من مال الميت سنة توجب المنع من التزوج بزوج آخر في هذه السنة ثم ان الله تعالى نسخ هذين الحكمين وقد دل القرآن على ثبوت الميراث لها بتعيين الربع أو الثمن ودلت السنة على انه لا وصية لوارث فصار مجموع القرآن والسنة ناسخا للوصية للزوجة بالنفقة والسكنى في الحول ووجوب العدة في الحول منسوخ بقوله تعالى يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا (وللمطلقات متاع) أى متعة (بالمعروف) اى بقدر حال الزوجين ومايليق بهما (حقا على المتقين) قال الشافعي رحمه الله لكل مطلقة متعة الا المطلقة التى فرض لها مهر ولم يوجد في حقها المسيس روى أنه لما نزل قوله تعالى ومتعوهن الى قوله تعالى حقا على المحسنين قال رجل من المسلمين ان أردت فعلت وان لم أرد لم افعل فقال تعالى وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين اى على كل من كان متقيا عن الكفر (كذلك) اى مثل ذلك البيان الواضح (يبين الله لكم آياته) هذا وعد من الله تعالى بانه سيبين لعباده من الاحكام مايحتاجون اليه معاشا ومعادا (لعلكم تعقلون) اى لكى تفهموا مافيها وتعملوا بموجبها ثم ذكر خبر غزاة بنى اسرائيل فقال (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) أى ألم يصل علمك الى الذين خرجوا من منازلهم لقتال عدوهم وهم ثمانية آلاف أو أربعة آلاف أو أربعون ألفا كل ذلك عن ابن عباس على اختلاف الرواة فجبنوا عن القتال مخافة القتل فأماتهم الله مكانهم ثم أحياهم بعد ثمانية أيام قال ابن عباس رضى الله عنهما ان ملكا من ملوك بنى اسرائيل أمر عسكره بالقتال فخافوا القتال وقالوا لملكهم ان الارض التى نذهب اليها فيها الوباء فنحن لا نذهب اليها حتى يزول ذلك الوباء فأماتهم الله تعالى باسرهم وبقوا ثمانية أيام حتى انتفخوا وبلغ بنى اسرائيل موتهم فخرجوا لدفنهم فعجزوا من كثرتهم فحظروا عليهم حظائر فأحياهم الله بعد الثمانية وبقى فيهم شئ من ذلك النتن وبقى ذلك فى أولادهم الى هذا اليوم (ان الله لذو فضل على الناس) أى على أولئك القوم بسبب انه أحياهم ومكنهم من التوبة وعلى العرب الذين أنكروا المعاد الذين تمسكوا بقول اليهود فى كثير من الامور فيرجعون من الانكار الى الاقرار بالبعث بسبب أخبار اليهود لهم بهذه الواقعة (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) فضله تعالى كما ينبغى أما الكفار فلم يشكروا وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية شكره وهذه القصة تدل على أن الحذر من الموت لا يفيد فهذه القصة تشجع الانسان على الاقدام على طاعة الله تعالى كيف كان وتزيل عن قلبه الخوف من الموت فكان ذكر هذه القصة فضلا واحسانا من الله تعالى على عبيده لان ذكر هذه القصة سبب لبعد العبد عن المعصية وقربه من الطاعة ثم قال الله لهم بعدما أحياهم (وقاتلوا فى سبيل الله) اى فى طاعة الله مع عدوكم وسميت العبادات سبيلا الى الله تعالى من حيث ان الانسان يسلكها ويتوصل الى الله بها ومعلوم أن الجهاد تقوية للدين فكان طاعة فلا شك أن المجاهد مقاتل فى سبيل الله (واعلموا أن الله سميع) لكلامكم فى ترغيب الغير فى الجهاد وفى تنفير الغير عنه (عليم) بما فى صدوركم من البواعث والاغراض وان ذلك الجهاد لغرض الدين أو لغرض الدنيا (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) قرأ أبو عمرو ونافع وحمزة والكسائى فيضاعفه بالالف والرفع وقرأ عاصم فيضاعفه بالالف والنصب وقرأ ابن كثير فيضعفه بالتشديد والرفع بلا ألف وقرأ ابن عامر فيضعفه بالتشديد والنصب والمعنى من ذا الذى يعامل الله

بانفاق ماله في طاعته سواء كان الانفاق واجبا أو متطوعا به معاملة جامعة للحلال الذي لا يختلط بالحرام والقلوص الخالص من المن والاذى وبنية التقرب الى الله تعالى لا لرياء وسمعة فيضاعف الله جزاءه له في الدنيا والآخرة أضعافا كثيرة لا يعلمها الا الله تعالى وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من لم يكن عنده ما يتصدق به فليلعن اليهود فانه له صدقة وروى أنه لما نزلت هذه الآية قالت اليهود ان الله فقير ونحن أغنياء فهو يطلب منا القرض (والله يقبض ويبسط) أى يقبض الرزق عمن يشاء ولو أمسكه عن الانفاق ويبسطه على من يشاء ولو أنفق منه كثيرا أو المعنى والله يقبض بعض القلوب حتى لا تقدم على هذه الطاعة ويبسط بعضها حتى يقدم على هذه الطاعة (واليه ترجعون) فلا مدبر ولا حاكم سواه قال ابن عباس نزلت هذه الآية في شأن أبي الدحداح رجل من الانصار قال يا رسول الله ان لي حديقتين فان تصدقت باحداهما فهل لي مثلاها في الجنة قال نعم قال وأم الدحداح معي قال نعم قال والصبية معي قال نعم فتصدق بأفضل حديقتيه وكانت تسمى الجنينية فرجع أبو الدحداح الى أهله وكانوا في الحديقة التي تصدق بها فقال على باب الحديقة وذكر ذلك لامرأته فقالت أم الدحداح بارك الله لك في ما اشتريت فخرجوا منها وسلموها فكان صلى الله عليه وسلم يقول كم من نخلة رداح تدلى عروقها في الجنة لابي الدحداح (ألم تر الى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا) أى ألم تخبر يا أشرف الخلق عن قصة الرؤساء من بني اسرائيل من بعد وفاة موسى حين قالوا لنبيهم شمويل كما قاله وهب بن منبه أو سمعون أو يوشع بن نون كما قاله قتادة أو حزقيل كما حكاه الكرماني أو اسماويل بن حلقا واسم أمه حسنة كما قاله مجاهد وسبب سؤال بني اسرائيل نبيهم ذلك أنه لما مات موسى وعظمت الخطايا سلط الله عليهم قوم جالوت وكانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وغلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيرا من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاما وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ولم يكن لهم حينئذ نبي يدبر أمرهم وكان سبط النبوة قد هلكوا فلم يبق منهم الا امرأة حبلى فحبسوها في بيت فولدت غلاما فلما كبر كفله شيخ من علمائهم في بيت المقدس فلما بلغ الغلام أتاه جبريل فقال له اذهب الى قومك فبلغهم رسالة ربك فان الله قد بعثك فيهم نبيا فلما أتاهم كذبوه وقالوا استعجلت بالنبوة فان كنت صادقا فابعث لنا ملكا الجيش (نقاتل) بأمره مع عدونا (في سبيل الله) أى في طاعة الله وانما كان صلاح أمر بني اسرائيل بالاجتماع على الملوك وبطاعة الملوك أنبياءهم فكان الملك هو الذي يسير بالجموع والنبي هو الذي يقيم أمره ويشير عليه برشده (قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا) أى قال نبيهم هل قاربتم أن لا تقاتلوا عدوكم ان فرض عليكم القتال مع ذلك الملك (قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) أى أى شئ ثبت لنا في ترك القتال الذي في طاعة الله والحال انه قد أبعد بعضنا من المنازل والاولاد والقائلون لنبيهم عاذ كركانوا في ديارهم فسأل الله تعالى ذلك النبي فأوجب عليهم القتال وعينه لهم ملكا ليقاتل بهم (فلما كتب) أى أوجب (عليهم القتال تولوا) أى أعرضوا عن قتال عدوهم لما شاهدوا كثرة العدو وشوكته (الا قليلا منهم) ثلاثمائة وثلاثة عشر على عدد أهل بدر (والله عليم بالظالمين) أى هو عالم عن ظلم نفسه حين خالف ما أمر به ولم يف بما قبل من ربه (وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم) أى لاجل سؤالكم (طالوت ملكا) أى لما سأل الله تعالى أن يبين لهم ملكا أرسل الله له عصا وقرنا فيه دهن القدس وقيل له ان صاحبك الذي يكون ملكا هو من يكون

طوله

To: www.al-mostafa.com

طوله طول هذه العصا وانظر الى القرن الذى فيه الدهن فاذا دخل عليك رجل فانتشر الدهن فى القرن فهو ملك بنى اسرائيل فادهن رأسه بالدهن وملكه عليهم واسمه طالوت فدخل عليه رجل فانتشر الدهن فى القرن فقام شمويل فقاسه بالعصا فكان على طولها وقال له قرب رأسك فقربه فدهنه النبي بدهن القدس وقال له أنت ملك بنى اسرائيل الذى أمرنى الله أن أملكك عليهم فقال طالوت أما علمت أن سبطى أدنى من سبط ملوك بنى اسرائيل قال بلى فقال شمويل الله يؤتى ملكه من يشاء كما قال الله تعالى (قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) أى قالوا من أين يكون له الملك علينا والحال نحن أولى بالملك منه وليس له سعة المال لينفق على الجيش وانما قالوا ذلك لانه كان فى بنى اسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة فكان سبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنه موسى وهرون عليهما السلام وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنه داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحدهما وانما كان من سبط بنيامين بن يعقوب فلما قال لهم نبيهم ذلك أنكروا وقالوا هو دباغ أو راع أو سقاء يستقى الماء على حمار له وانما نزع الملك والنبوة منهم لانهم عملوا ذنبا عظيما كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق جهارا فغضب الله عليهم بنزع ذلك منهم وكانوا يسمون سبط الاثم (قال) أى نبيهم (ان الله اصطفاه) أى اختاره بالملك (عليكم وزاده بسطة) أى سعة (فى العلم) أى علم الحرب وعلم الديانات حتى قيل انه نبى أوحى اليه (والجسم) بالقوة على مبارزة العدو وبالجمال وبطول القامة فانه أطول من غيره برأسه ومنكبيه فكان أعلم بنى اسرائيل يومئذ وأجملهم وأتمهم خلقا (والله يؤتى ملكه من يشاء) فى الدنيا (والله واسع) بالعطية (عليم) بمن يليق بالملك (وقال لهم نبيهم) لما قالوا ليس ملكه من الله بل أنت ملكته علينا (ان آية ملكه) أى ان علامة صحة ملكه من الله (أن يأتيكم التابوت) أى الصندوق الذى أخذ منكم وهو صندوق التوراة وكانوا يعرفونه وكان قد رفعه الله تعالى بعد وفاة موسى عليه السلام لسخطه على بنى اسرائيل لما عصوا وفسدوا فلما طلب القوم من نبيهم آية تدل على ملك طالوت قال نبى ذلك القوم ان آية ملك طالوت أن يأتيكم التابوت من السماء الى الارض والملائكة يحفظونه فأتاهم والقوم ينظرون اليه حتى نزل عند طالوت (فيه سكينة من ربكم) أى كان فى التابوت بشارات من كتب الله تعالى المنزلة على موسى وهرون ومن بعدهما من الانبياء عليهم السلام بأن الله ينصر طالوت وجنوده ويزيل عنهم الخوف من العدو (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) وهى رضاض الالواح وعصا موسى وثيابه ونعلاه وشئ من التوراة ورداء هرون وعمامته (تحمله الملائكة) أى تسوقه الملائكة اليكم (ان فى ذلك) أى فى رد التابوت اليكم (لآية لكم) أى علامة لكم دالة على ان ملكه من الله (ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين بتمليكه عليكم أو المعنى ان فى هذه الآية من نقل القصة معجزة باهرة دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بهذه التفاصيل من غير سماع من البشر ان كنتم ممن يؤمن بدلالة المعجزة على صدق مدعى النبوة والرسالة فلما رد اليهم التابوت قبلوا وخرجوا معه وهم ثمانون ألفا من الشبان الفارغين من جميع الاشغال (فلما فصل طالوت) أى خرج من بيت المقدس (بالجنود) أى بالجيش التى اختارها وكان الوقت قيظا وسلك بهم فى أرض قفرة فأصابهم حر وعطش شديد فطلبوا منه الماء (قال ان الله مبتليكم بنهر) أى مختبركم بنهر جار ليظهر منكم المطيع والعاصى وهو بين الاردن وفلسطين أى والمقصود من هذا الابتلاء أن يميز الصديق عن الزنديق والموافق عن المخالف (فمن شرب منه) أى

من ماء النهر (فليس مني) أي من أتباعي المؤمنين فلا يكون مأذونا في هذا القتال (ومن لم يطعمه) أي من لم يذقه (فانه مني الا من اغترف غرفة بيده) فانه مني و يكون أهلا لهذا القتال قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو غرفة بفتح الغين وكذلك يعقوب وخلف وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بالضم فالغرفة بالضم اسم الشيء القليل الذي يحصل في الكف والغرفة بالفتح الفعل وهو الاغتراف مرة واحدة فكانت تكفيهم هذه الغرفة لشربهم ودوابهم وحملهم (فشربوا منه) أي فلما وصلوا الى النهر وقعوا فيه وشربوا منه بالكرع بالفم كيف شاروا (الا قليلا منهم) ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلا فلم يشربوا الا قليلا وهو الغرفة روي أن من اغترف غرفة كما أمر الله قوي قلبه وصح ايمانه وعبر النهر سالما وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه ودوابه وخدمه وحمله مع نفسه اما لانه كان مأذونا في أخذ ذلك المقدار واما لان الله تعالى يجعل البركة في ذلك الماء حتى يكفي لكل هؤلاء وذلك معجزة لنبي ذلك الزمان وأما الذين شربوا منه وخالفوا أمر الله تعالى فقد اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وبقوا على شط النهر وجبنوا عن لقاء العدو (فلما جاوزه) أي النهر (هو) أي طالوت (والذين آمنوا معه) وهم أولئك القليل (قالوا) أي بعض من معه من المؤمنين لبعض (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أي بمحاربتهم وكانوا مائة ألف رجل شاكي السلاح (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله) أي ملاقو ثواب الله بسبب هذه الطاعة (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) أي كم من جماعة قليلة من المؤمنين غلبت جماعة كثيرة من الكافرين بنصر الله (والله مع الصابرين) أي معين الصابرين في الحرب بالنصرة يحتمل أن يقال المؤمنون الذين عبروا النهر كانوا فريقين بعضهم ممن يحب الحياة ويكره الموت فيخاف ويجزع ومنهم من كان شجاعا قوي القلب لا يبالي بالموت في طاعة الله تعالى فالاول هم الذين قالوا لا طاقة لنا اليوم والثاني هم الذين أجابوا بقولهم كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ويحتمل أن يقال القسم الاول من المؤمنين لما شاهدوا قلة عسكرهم قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده فلابد أن نوطن على القتل لانه لا سبيل الى الفرار من أمر الله والقسم الثاني قالوا لا نوطن أنفسنا بل نرجو من الله الفتح والظفر فكان غرض الاولين الترغيب في الشهادة والفوز بالجنة وغرض الفريق الثاني الترغيب في طلب الفتح والنصرة (ولما برزوا) أي ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين وصافوا (لجالوت) اسم ملك من ملوك الكنعانيين بالشام (وجنوده قالوا) جميعا متضرعين الى الله تعالى مستعينين به تعالى (ربنا أفرغ علينا صبرا) على مشاهدة المخاوف والامور الهائلة (وثبت أقدامنا) في مداحض القتال بكمال القوة عند المقارعة وعدم التزلزل وقت المقاومة (وانصرنا على القوم الكافرين) بقهرهم وهزمهم (فهزموهم باذن الله) أي كسروهم بنصرة الله اجابة لدعائهم (وقتل داود جالوت) قال ابن عباس رضي الله عنهما ان داود عليه السلام كان راعيا وله سبعة اخوة مع طالوت فلما أبطأ خبر اخوته على أبيهم أيشا أرسل ابنه داود اليهم ليأتيه بخبرهم فأتاهم وهم في المصاف وبادر جالوت الجبار وهو من قوم عاد الى البراز فلم يخرج اليه أحد فقال يا بني اسرائيل لو كنتم على حق لبارزني بعضكم فقال داود لاخوته أما فيكم من يخرج الى هذا الاقلف فسكتوا فذهب الى ناحية من الصف ليس فيها اخوته فمر به طالوت وهو يحرض الناس فقال له داود ما تصنعون بمن يقتل هذا الاقلف فقال طالوت أنكحه ابنتي وأعطيه نصف ملكي فقال داود فأنا خارج اليه وكان عادته أن يقاتل بالمقلاع الذئب والاسد في الرعي وكان طالوت عارفا بجلادته فلما هم داود بأن يخرج الى جالوت مر بثلاثة أحجار فقلن يا داود خذنا معك ففينا ميتة

جالوت

جالوت فلما خرج الى جالوت الكافر رماه فأصابه فى صدره ونفذ الحجر فيه وقتل بعده ثلاثين رجلا فهزم الله تعالى جنود جالوت وخر جالوت قتيلا فأخذه داود يجره حتى ألقاه بين يدى طالوت ففرح بنو اسرائيل وانصرفوا الى البلاد سالمين غانمين فجاء داود الى طالوت وقال انجزنى ماوعدتنى فزوجه ابنته وأعطاه نصف الملك كما وعده فمكث معه كذلك أربعين سنة فمات طالوت وأتى بنو اسرائيل بداود وأعطوه خزائن طالوت واستقل داود بالملك سبع سنين ثم انتقل الى رحمة الله تعالى كما قال تعالى (وآتاه الله الملك) أى الكامل سبع سنين بعد موت طالوت أى ملك بنى اسرائيل فى مشارق الارض المقدسة ومغاربها (والحكمة) أى النبوة بعد موت شمويل وكان موته قبل موت طالوت ولم يجتمع فى بنى اسرائيل الملك والنبوة لاحد قبله الا له بل كان الملك فى سبط والنبوة فى سبط آخر ومع ذلك جمع الله تعالى له ولابنه سليمان بين الملك والنبوة (وعلمه مما يشاء) كصنعة الدروع من الحديد وكان يلين فى يده وينسجه وفهم كلام الطير والنمل وكيفية القضاء ومايتعلق بمصالح الدنيا ومعرفة الالحان الطيبة ولم يعط الله تعالى احدا من خلقه مثل صوته كان اذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها وتظله الطير ويركد الماء الجارى ويسكن الريح (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) بأهلها قال ابن عباس ولولا دفع الله بجنود المسلمين لغلب المشركون على الارض فقتلوا المؤمنين وخربوا المساجد والبلاد وقيل المعنى ولولا دفع الله بالمؤمنين والابرار عن الكفار والفجار لفسدت الارض بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالصالح عن الفاجر روى أحمد بن حنبل عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليندفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض (ولكن الله ذو فضل على العالمين) كافة بسبب ذلك الدفع (تلك) أى القصص بأخبار الأمم الماضية (آيات الله) المنزلة من عنده تعالى (نتلوها عليك) أى بواسطة جبريل (بالحق) أى ملتبسة باليقين الذى لا يشك فيه أحد من أهل الكتاب لما يجدونها موافقة لما فى كتبهم (وانك لمن المرسلين) الى الجن والانس كافة بشهادة اخبارك عن الامم الماضية من غير مطالعة كتاب ولا اجتماع على أحد يخبرك بذلك (تلك الرسل) أى جماعة الرسل (فضلنا بعضهم على بعض) فى مراتب الكمال بأن خصصناه بمنقبة ليست لغيره (منهم من كلم الله) بلا واسطة وهو موسى حيث كلمه ليلة الحيرة وهى تحيره فى معرفة طريقه من سيره من مدين الى مصر وفى الطور ومحمد حيث كلمه ليلة المعراج (ورفع بعضهم درجات) أى فضائل وهو ابراهيم لانه تعالى اتخذه خليلا ولم يؤت أحدا مثله هذه الفضيلة وادريس فانه تعالى رفعه مكانا عليا وداود فانه تعالى جمع له الملك والنبوة ولم يحصل هذا لغيره وسليمان فانه تعالى سخر له الانس والجن والطير والريح ولم يكن هذا حاصلا لابيه داود عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم فانه تعالى خصه بأنه مبعوث الى الجن والانس وبأن شرعه ناسخ لكل الشرائع (وآتينا عيسى بن مريم البينات) أى العجائب من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص والاخبار بالمغيبات (وأيدناه بروح القدس) أى أعناه بجبريل فى أول أمره وفى وسطه وفى آخره وهو نفخ جبريل فى عيسى وتعليمه العلوم وحفظه من الاعداء واعانته ورفعه الى السماء حين أرادت اليهود قتله (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات) أى الذين جاؤا من بعد الرسل من الامم المختلفة بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقة على كلمة الحق (ولكن اختلفوا) فى الدين (فمنهم من آمن) بما جاء به أولئك الرسل من كل كتاب وعملوا به (ومنهم من كفر) بذلك فان اختلافهم فى الدين يدعوهم الى المقاتلة (ولو شاء الله ما اقتتلوا) وهذا

التكرير ليس للتأكيد بل للتنبيه على ان اختلافهم ذلك ليس موجبا لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم بل الله تعالى مختار فى ذلك حتى لو شاء بعد ذلك عدم اقتتالهم ما اقتتلوا (ولكن الله يفعل ما يريد) فيوفق من يشاء ويخذل من يشاء لا اعتراض عليه فى فعله (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم) أى تصدقوا بشئ مما أعطيناكم من الاموال فى طاعة الله (من قبل أن يأتى يوم لا بيع) أى فداء (فيه ولا خلة) أى مودة (ولا شفاعة) للكافرين وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالفتح فى بيع وخلة وشفاعة والباقون جميعا بالرفع (والكافرون هم الظالمون) حيث تركوا تقديم الخيرات ليوم حاجتهم وأنتم أيها الحاضرون لا تقتدوا بهم ولكن قدموا الانفسكم ما تجعلونه يوم القيامة فدية لانفسكم من عذاب الله تعالى وقيل المعنى والتاركون للزكاة هم الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعقاب (الله لا اله) أى لا معبود بحق موجود (الا هو الحى) أى الباقى الذى لا سبيل عليه للموت والفناء (القيوم) أى دائم القيام بتدبير الخلق وحفظه فى الايجاد والأرزاق (لا تأخذه سنة) أى نعاس (ولا نوم) ثقيل فيشغله عن تدبيره وأمره أى لا يأخذه نعاس فضلا عن أن يأخذه نوم (له ما فى السموات وما فى الارض) وهذا رد على المشركين العابدين لبعض الكواكب التى فى السماء وللاصنام التى فى الارض أى فلا تصلح أن تكون معبودة لانها مملوكة لله مخلوقة له (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) أى لا يشفع عنده أحد من أهل السموات والارض يوم القيامة الا بأمره وهذا رد على المشركين حيث زعموا ان الاصنام تشفع لهم فانه تعالى لا يأذن فى الشفاعة لغير المطيعين (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى يعلم ما قبلهم وما بعدهم أو ما فعلوه من خير وشر وما يفعلونه بعد ذلك (ولا يحيطون بشئ من علمه) أى بقليل من معلوماته (الا بما شاء) أن يعلموه أى ان أحدا لا يحيط بمعلومات الله تعالى الا ما شاء هو أن يعلمهم أو المعنى انهم لا يعلمون الغيب الا عند اطلاع الله بعض أنبيائه على بعض الغيب (وسع كرسيه السموات والارض) فالكرسى جسم عظيم تحت العرش وفوق السماء السابعة وهو أوسع من السموات والارض (ولا يؤوده حفظهما) أى لا يثقل عليه تعالى حفظ السموات والارض بغير الملائكة (وهو العلى) أى المتعالى بذاته عن الاشباه والانظار (العظيم) أى الذى يستحقر كل ما سواه بالنسبة اليه فهو تعالى أعلى وأعظم من كل شئ * روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ما قرئت هذه الآية فى دار الا هجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة وعن على أنه قال سمعت نبيكم على أعواد المنبر وهو يقول من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة الا الموت أى فاذا مات دخل الجنة ولا يواظب عليها الا صديق أو عابد ومن قرأها اذا أخذ مضجعه أمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والابيات التى حوله (لا اكراه فى الدين) أى لا اكراه على الدخول فى دين الله (قد تبين الرشد من الغى) أى قد تميز الحق من الباطل والايمان من الكفر والهدى من الضلالة بكثرة الدلائل وروى انه كان لابى الحصين الانصارى من بنى سالم بن عوف ابنان قد تنصرا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فخلى سبيلهما ثم نزل فى شأن منذر بن ساوى التميمى قوله تعالى (فمن يكفر بالطاغوت) أى بالشيطان و بكل ما عبد من دون الله (و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) أى فقد تمسك بالعقدة المحكمة لا انقطاع لها أى فقد أخذ بالثقة لا انقطاع لصاحبها عن نعيم الجنة ولا زوال عن الجنة ولا هلاك بالبقاء فى النار (والله سميع) لقول من يتكلم بالشهادتين وقول من يتكلم بالكفر

عليم

(عليم) بما فى قلب المؤمن من الاعتقاد الطاهر وما فى قلب الكافر من الاعتقاد الخبيث أو يقال والله سميع عليم لدعائك يا محمد بحرصك على اسلام أهل الكتاب وذلك لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب اسلام أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا حول المدينة وكان يسأل الله تعالى ذلك سرا وعلانية (الله ولى الذين آمنوا) أى الله ناصر الذين آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه (يخرجهم) بلطفه وتوفيقه (من الظلمات) أى الكفر (الى النور) أى الايمان (والذين كفروا) ككعب بن الاشرف وأصحابه (أولياؤهم الطاغوت) أى الشياطين وسائر المضلين عن طريق الحق (يخرجونهم) بالوساوس وغيرها من طرق الاضلال (من النور) الفطرى أى الذى جبل عليه الناس كافة أو من نور البينات التى يشاهدونها من جهة النبى صلى الله عليه وسلم (الى الظلمات) أى ظلمات الكفر والانهماك فى الضلال (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى ماكثون أبدا (ألم تر) أى ألم تنظر (الى) هذا الطاغوت كيف تصدى لاضلال الناس واخراجهم من النور الى الظلمات (الذى حاج ابراهيم فى ربه) أى الى قصة الذى خاصم ابراهيم فى دين رب ابراهيم وهو نمروذ بن كنعان (أن آتاه الله الملك) أى فطغى وادعى الربوبية فحاج لأن أعطاه الله الملك (اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت) أى يخلق الحياة والموت فى الاجساد وقرأ حمزة ربى بسكون الياء وهذه المحاجة مع ابراهيم بعد القائه فى النار وخروجه منها سالما وذلك ان الناس قحطوا على عهد نمروذ وكان الناس يمتارون من عنده فكان اذا أتاه الرجل فى طلب الطعام سأله من ربك فان قال أنت باع منه الطعام فأتاه ابراهيم فقال له من ربك فقال له ذلك (قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم) له ائتنى ببيان ذلك فدعا نمروذ برجلين من السجن فقتل واحدا وترك واحدا قال هذا بيان ذلك قال ابراهيم (فان الله يأتى بالشمس من المشرق) فى كل يوم (فأت بها من المغرب) ولو يوما واحدا ان كنت صادقا فيما تدعيه من الربوبية (فبهت الذى كفر) أى سكت بغير حجة أى فبقى مغلوبا بالايجد للحجة مقالا ولا للمسئلة جوابا (والله لا يهدى القوم الظالمين) بالكفر الى طريق الجنة (أو كالذى) أى أرأيت مثل الذى (مر على قرية) هى بيت المقدس كما أخرجه ابن جرير عن وهب عن قتادة والضحاك وعكرمة والربيع أو القرية التى أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت كما نقل عن ابن زيد أى قد رأيت الذى مر على قرية كيف هداه الله وأخرجه من ظلمة الاشتباه الى نور العيان والمار هو عزير بن شرخيا كما روى عن على بن أبى طالب وعن عبد الله بن سلام وعن ابن عباس (وهى خاوية على عروشها) أى ساقطة على سقوفها بأن سقطت السقوف أولا ثم الابنية (قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها) أى كيف يحيى الله أهل هذه القرية بعد موتهم تعجبا من قدرة الله تعالى على أحيائها (فأماته الله) مكانه فكان ميتا (مائة عام ثم بعثه) أى أحياه فى آخر النهار (قال) تعالى له (كم لبثت) أى مكثت هنا يا عزير بعد الموت والقائل هو الله تعالى أو ملك مأمور بذلك القول من قبله تعالى (قال لبثت يوما) ثم نظر الى الشمس وقد بقى منها شئ فقال (أو بعض يوم قال) أى الله له أو الملك (بل لبثت) ميتا (مائة عام فانظر الى طعامك) أى التين والعنب (وشرابك) أى العصير (لم يتسنه) أى لم يتغير ولم ينتصب فى هذه المدة المتطاولة فكان التين والعنب كأنه قد قطف من ساعته والعصير كأنه قد عصر من ساعته واللبن قد حلب من ساعته (وانظر الى حمارك) كيف تقطعت أوصاله وكيف تلوح عظامه بيضاء فعلنا ذلك الاحياء لتعاين ما استبعدته من الاحياء بعد دهر طويل (ولنجعلك آية للناس) أى لكى نجعلك علامة للناس

فى احياء الموتى انهم يحيون على ماعوتون لانه مات شابا وبعث شابا وعبرة للناس لانه كان ابن أربعين سنة وابنه ابن مائة وعشرين سنة (وانظر الى العظام) أى عظام الحمار (كيف ننشزها) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالراء أى كيف نحييها ونخلقها وقرأ حمزة والكسائى ننشزها بالزاى المنقوطة أى كيف نرفع بعضها على بعض (ثم نكسوها لحما) أى ننبت عليها العصب والعروق واللحم والجلد والشعر ونجعل فيه الروح بعد ذلك (فلما تبين له) وقوع ما كان يستبعد وقوعه (قال أعلم أن الله على كل شئ) من الحياة والموت (قدير) روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى سبب نزول هذه الآية قال ان بختنصر البابلى غزا بنى اسرائيل وهو فى ستمائة ألف راية فسبى من بنى اسرائيل الكثير ومنهم عزير وكان من علمائهم فجاء بهم الى بابل فدخل عزير تلك القرية التى انهدمت حيطانها ونزل تحت شجرة وهو على حمار فربط حماره وطاف فى القرية فلم ير فيها أحدا فعجب من ذلك وقال أنى يحيى هذه الله بعد موتها وذلك على سبيل الاستبعاد بحسب العادة لا على سبيل الشك فى قدرة الله وكانت الاشجار مثمرة فتناول من الفاكهة التين والعنب وشرب من عصير العنب وجعل فضل الفاكهة فى سلة وفضل العصير فى زق ونام فأماته الله تعالى فى منامه مائة عام وهو شاب ثم أعمى عن موته أيضا الانس والسباع والطير ثم أحياه الله تعالى بعد مائة ونودى من السماء ياعزير كم لبثت بعد الموت فقال يوما فأبصر من الشمس بقية فقال أو بعض يوم فقال الله تعالى بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك من التين والعنب وشرابك من العصير لم يتغير طعمها فنظر فاذا التين والعنب كما شاهدهما ثم قال تعالى وانظر الى حمارك فنظر فاذا هو عظام بيض تلوح وقد تفرقت أوصاله وسمع صوتا أيتها العظام البالية انى جاعل فيك روحا فانضم أجزاء العظام بعضها الى بعض ثم التصق كل عضو بما يليق به الى مكانه ثم جاء الرأس الى مكانه ثم العصب والعروق ثم أنبت طراء اللحم عليه ثم انبسط الجلد عليه ثم خرجت الشعور من الجلد ثم نفخ فيه الروح فاذا هو قائم ينهق فخر عزير ساجدا وقال أعلم أن الله على كل شئ قدير ثم انه دخل بيت المقدس لما روى انه لما مضى من وقت موته سبعون سنة سلط الله ملكا من ملوك فارس فسار بجنوده حتى أتى بيت المقدس فعمروه وصار أحسن مما كان ورد الله تعالى من بقى من بنى اسرائيل الى بيت المقدس ونواحيه فعمروها ثلاثين سنة وكثروا كأحسن ما كانوا وأعمى الله العيون عن العزير هذه المدة فلم يره أحد فلما مضت المائة أحيا الله تعالى منه عينيه وسائر جسده ميت ثم أحيا الله تعالى جسده وهو ينظر ثم نظر الى حماره كما سبق فلما دخل بيت المقدس قال القوم حدثنا آباؤنا أن عزير بن شرخيا مات ببابل وقد كان بختنصر قتل فى بيت المقدس أربعين ألفا من قرأ التوراة وكان فيهم عزير والقوم ما عرفوا انه يقرأ التوراة فلما أتاهم بعد مائة عام جدد لهم التوراة وأملاها عليهم عن ظهر قلبه لم يخرم منها حرفا وكانت التوراة قد دفنت فى موضع فأخرجت وعورضت بما أملاه فما اختلفا فى حرف فعند ذلك قالوا عزير ابن الله (و) ألم تر (اذ قال ابراهيم) هذا دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين واخراجهم من الظلمات الى النور (رب أرنى كيف تحيى الموتى) قال الحسن والضحاك وقتادة وعطاء وابن جريج انه رأى جيفة مطروحة فى شط النهر فاذا مد البحر أكل منها دواب البحر واذا جزر البحر جاءت السباع فأكلت واذا ذهبت السباع جاءت الطيور فأكلت وطارت فقال ابراهيم رب أرنى كيف تجمع أجزاء الحيوان من بطون السباع والطيور ودواب البحر (قال) تعالى (أولم تؤمن) أى أتسأل ولم توقن بقدرى على الاحياء (قال بلى) أنا موقن بذلك (ولكن ليطمئن قلبى) أى ولكن سألت ما سألت لتسكن حرارة قلبى وأعلم

بأني خليلك مستجاب الدعوة والمطلوب من السؤال أن يصير العلم بالاستدلال ضروريا (قال فخذ أربعة من الطير) أشتاتا وزاوديكا وطاوساو رألا وهو فرخ النعام كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس من طريق الضحاك أو طاوساوديكا وحمامة وغرنوقا وهو الكركي كما أخرجه عنه من طريق حنش (فصرهن) قرأه حمزة بكسر الصاد والباقون بضمها وتخفيف الراء أي قطعهن واملهن (اليك) فقطع ابراهيم أعضاءها ولحومها وريشها ودماءها وخلط بعضها ببعض (ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ) أي ثم ضع على كل جبل من أربعة أجبل منهن جزأهن أي على حسب الطيور الأربعة وعلى حسب الجهات الاربعة أيضا (ثم ادعهن) باسمائهن أي قل لهن تعالين يا وزويا ديك ويا طاوس ويارأل باذن الله تعالى (يأتينك سعيا) أي مشيا مسرعا ولم تأت طائرة ليتحقق أن أرجلها سليمة في هذه الحالة (واعلم أن الله عزيز) أي غالب على جميع الممكنات (حكيم) أي عليم بعواقب الامور وغايات الاشياء روى انه صلى الله عليه وسلم أمر بذبحها ونتف ريشها وتقطيعها جزأ جزأ وخلط دمائها ولحومها وأن يمسك رؤسها بيده ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال على كل جبل ربعا من كل طائر ثم يصيح بها تعالين باذن الله تعالى ثم أخذ كل جزء يطير الى الآخر حتى تكاملت الجثث ثم أقبلت كل جثة الى رأسها سعيا على أرجلها وانضم كل رأس الى جثته وصار الكل احياء باذن الله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل) أي صفة صدقات الذين ينفقون أموالهم في دين الله كصفة حبة أخرجت سبع سنابل أو المعنى مثل الذين ينفقون أموالهم في وجوه الخيرات من الواجب والنفل كمثل زارع حبة أخرجت ساقا تشعب منه سبع شعب في كل واحدة منها سنبلة (في كل سنبلة مائة حبة) كما يشاهد ذلك في الذرة والدخن بل فيهما أكثر من ذلك (والله يضاعف) فوق ذلك (لمن يشاء) على حسب حال المنفق من اخلاصه وتعبه ولذلك تفاوتت مراتب الاعمال في مقادير الثواب (والله واسع) أي لا يضيق عليه ما يتفضل به من التضعيف (عليم) بنية المنفق وبمن يستحق المضاعفة (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) والمن هو الاعتداد بالنعمة واستعظامها على المنفق عليه والاذى بأن يؤذي المنفق عليه بالقول أو العبوس في وجهه أو الدعاء عليه وقيل المراد هو المن على الله وهو العجب والاذى لصاحب النفقة (لهم أجرهم) أي ثواب انفاقهم (عند ربهم) في الجنة (ولا خوف عليهم) أي فلا يخافون فقد أجورهم ولا يخافون العذاب البتة (ولا هم يحزنون) على ما خلفوا من خلفهم نزلت هذه الآية في حق عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف أما عثمان فجهز جيش العسرة في غزوة تبوك بألف بعير باقتابها وألف دينار فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه يقول يارب عثمان رضيت عنه فارض عنه وأما عبد الرحمن بن عوف فانه تصدق بنصف ماله أربعة آلاف دينار وقال كان عندي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي وعيالي أربعة آلاف وأخرجت أربعة آلاف لربي عز وجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت والمعنى الذين يعينون المجاهدين في سبيل الله بالانفاق عليهم في حوائجهم ومؤنتهم ولم يخطر ببالهم شيء من المن والاذى (قول معروف) أي كلام جميل يرد به السائل من غير اعطاء شيء (ومغفرة) من المسؤل عن بذاءة لسان الفقير (خير) للسائل (من صدقة يتبعها أذى) لكونها مشوبة بضرر التعبير له بالسؤال (والله غني) عن صدقة العباد فانما أمركم بالصدقة ليثيبكم عليها (حليم) اذ لم يعجل بالعقوبة على من يمن ويؤذي بصدقته (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم) أي أجر صدقاتكم (بالمن والاذى)

قال ابن عباس أي بالمن على الله معناه العجب بسبب صدقتكم وبالاذى للسائل وقال الباقون بالمن على الفقير وبالاذى للفقير (كالذى) أى كابطال اجر نفقة الذى (ينفق ماله رئاء الناس) أى سمعة الناس ولطلب المدحة والشهرة (و) كالذى (لا يؤمن بالله واليوم الآخر) وهو المنافق فان المنافق والمرائى يأتيان بالصدقة لا لوجه الله تعالى ومن يقرن الصدقة بالمن والاذى فقد أتى بتلك الصدقة لا لوجه الله أيضا اذ لو كان غرضه من تلك الصدقة مرضاة الله تعالى لما من على الفقير ولا آذاه فالمقصود من الابطال الاتيان بالانفاق باطلا لان المقصود الاتيان به صحيحا ثم احباطه بسبب المن والاذى والاوجه كما قال بعضهم اذا فعل ذلك فله أجر الصدقة ولكن ذهبت مضاعفته وعليه الوزر بالمن (فمثله) أى فحالة المرائى فى الانفاق (كمثل صفوان) وقيل الضمير عائد على المنافق فيكون المعنى ان الله تعالى شبه المان والمؤذى بالمنافق ثم شبه المنافق بالحجر الكبير الاملس (عليه تراب) أى شئ من التراب (فأصابه وابل) أى مطر شديد (فتركه صلدا) أى فجعل المطر ذلك الحجر أملس نقيا من التراب (لا يقدرون على شئ مما كسبوا) أى لا يقدرون على ثواب شئ فى الآخرة مما أنفقوا فى الدنيا رئاء أو المعنى لا يجد المان والمؤذى ثواب صدقته كما لا يوجد على الصفوان التراب بعد ما أصابه المطر الشديد (والله لا يهدى القوم الكافرين) الى الخير والرشاد وفى هذه الآية تعريض بأن كلا من الرياء والمن والاذى على الانفاق من خصائص الكفار فلابد للمؤمنين أن يجتنبوها (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل) أى مثل أموال الذين ينفقون أموالهم طلب رضاء الله تعالى ويقينا من قلوبهم بالثواب من الله تعالى وتصديقا بوعده يعلمون أن ما انفقوا خير لهم مما تركوا كمثل بستان فى مكان مرتفع مستو أصابه مطر شديد كثير (فآتت أكلها ضعفين) أى فأخرجت ثمرها مضاعفا مثلى ما يثمر غيرها بسبب الوابل فتحمل من الريع فى سنة ما يحمل غيرها فى سنتين (فان لم يصبها وابل فطل) أى رش مثل الرذاذ يكفيها لجودتها ولطافة هوائها والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله تعالى لا تضيع بحال وان كانت تتفاوت باعتبار ما يقارنها من الاحوال (والله بما تعملون) عملا ظاهرا أو قلبيا (بصير) لا يخفى عليه شئ منه (أيود أحدكم) اى أيحب حبا شديدا أو يتمنى (أن تكون له جنة) أى بستان (من نخيل وأعناب تجرى من تحتها) أى تطرد (الانهار) من تحت شجر تلك الجنة ومساكنها (له فيها من كل الثمرات) أى لذلك الاحد حال كونه فى الجنة رزق من كل الثمرات (وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء) أى وقد أصابه كبر السن فلا يقدر على الكسب والحال ان له أولادا صغارا لا يقدرون على الكسب (فأصابها) أى الجنة (اعصار) أى ريح ترتفع الى السماء كأنها عمود (فيه نار فاحترقت) أى تلك الجنة والمقصود من هذا المثل بيان انه يحصل فى قلب هذا الانسان من الغم والحسرة والحيرة ما لا يعلمه الا الله فكذلك من أتى بالاعمال الحسنة الا انه لا يقصد بها وجه الله بل يقرن بها أمورا تخرجها عن كونها موجبة للثواب لحين يقدم يوم القيامة وهو حينئذ فى غاية الحاجة ونهاية العجز عن الاكتساب عظمت حسرته وتناهت حيرته (كذلك) أى مثل هذا البيان فى أمر النفقة المقبولة وغيرها (يبين الله لكم الآيات) أى الدلائل فى سائر أمور الدين (لعلكم تتفكرون) اى لكى تتفكروا فى أمثال القرآن (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) أى زكوا من جياد ما جمعتم من الذهب والفضة وعروض التجارة والمواشى (ومما أخرجنا لكم من الارض) من الحبوب والثمار والمعادن (ولا تيمموا الخبيث) اى ولا تقصدوا الردئ من أموالكم (منه تنفقون ولستم بآخذيه) فقوله منه استفهام على سبيل الانكار وهو متعلق

بالفعل

بالفعل بعده والمعنى أمن الخبيث تنفقون فى الزكاة والحال انكم لستم قابلى الخبيث اذا كان لكم حق على صاحبكم (الا أن تغمضوا فيه) أى الا بأن تساهلوا فى الخبيث وتتركوا بعض حقكم كذلك لا يقبل الله الردئ منكم (واعلموا أن الله غنى) عن انفاقكم وانما يأمركم به لمنفعتكم (حميد) أى مستحق للحمد على نعمه العظام وقيل حامد بقبول الجيد والاثابة عليه (الشيطان يعدكم الفقر) أى ابليس يخوفكم بالفقر عند الصدقة ويقول لكم امسكوا أموالكم فانكم اذا تصدقتم صرتم فقراء أو المعنى النفس الامارة بالسوء توسوس لكم بالفقر (ويأمركم بالفحشاء) أى بالبخل ومنع الزكاة والصدقة (والله يعدكم) بسبب الانفاق (مغفرة منه) عز وجل (وفضلا) اى خلفا فى الدنيا وثوابا فى الآخرة (والله واسع) بالمغفرة للذنوب وباغنائكم واخلاف ما تنفقونه (عليم) بنياتكم وصدقاتكم (يؤتى الحكمة من يشاء) فالحكمة هى العلم النافع وفعل الصواب فقيل فى حد الحكمة هى التخلق باخلاق الله بقدر الطاقة البشرية كقوله صلى الله عليه وسلم تخلقوا بأخلاق الله تعالى (ومن يؤت الحكمة) أى اصابة القول والفعل والرأى (فقد أوتى خيرا كثيرا) أى أعطى خير الدارين (وما يذكر) أى ما يتفكر فى الحكمة (الا أولوا الالباب) أى الا أصحاب العقول السليمة من الركون الى متابعة الهوى (وما أنفقتم من نفقة) أى أى نفقة كانت فى حق أو باطل فى سر أو علانية قليلة أو كثيرة (أو نذرتم من نذر) أى أى نذر كان فى طاعة أو معصية بشرط أو بغير شرط متعلق بالمال أو بالافعال كالصيام (فان الله يعلمه) أى ما أنفقتموه فيجازيكم عليه (وما للظالمين) بالانفاق والنذر فى المعاصى أو بمنع الزكاة وعدم الوفاء بالنذور أو بالانفاق بالخبيث أو بالرياء والمن والاذى (من أنصار) أى أعوان ينصرونهم من عقاب الله (ان تبدوا الصدقات فنعما هى) أى ان تظهروا الصدقات فنعم شيأ اظهارها بعد ان لم يكن رياء وسمعة (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) أى أفضل من ابدائها وايتائها الاغنياء روى انهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل صدقة السر أفضل أم صدقة العلانية فنزلت هذه الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا (ويكفر عنكم من سيآتكم) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر نكفر بالنون ورفع الراء وقرأ نافع وحمزة والكسائى بالنون والجزم أى ونكفر عنكم شيأ من ذنوبكم بقدر صدقاتكم وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم يكفر بالياء والرفع والمعنى يكفر الله أو يكفر الاخفاء وقرئ قراءة شاذة تكفر بالتاء وبالرفع والجزم والفاعل راجع للصدقات وقرأ الحسن بالتاء والنصب باضمار أن (والله بما تعملون) من الصدقة فى السر والعلانية (خبير) لا يخفى عليه شئ منه (ليس عليك هداهم) أى ليس عليك هدى من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل أن يدخلوا فى الاسلام فتصدق عليهم لوجه الله ولا توقف ذلك على اسلامهم (ولكن الله يهدى من يشاء) هدايته الى الدخول فى الاسلام روى أن نتيلة أم أسماء بنت أبى بكر وجدتها وهما مشركتان جاءتا أسماء تسألانها شيأ فقالت لا أعطيكما حتى أستأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكما لستما على دينى فسألته عن الصدقة على الكفار فقالت هل يجوز لنا يا رسول الله ان نتصدق على ذوى قرابتنا من غير أهل ديننا فأنزل الله هذه الآية فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتصدق عليهما (وما تنفقوا من خير فلانفسكم) أى وكل نفقة تنفقونها من نفقات الخير ولو على كافر فانما هو يحصل لانفسكم ثوابه فلا يضركم كفرهم (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) أى ولستم فى صدقتكم على أقاربكم من المشركين تقصدون الا وجه الله فقد علم الله

هذا من قلوبكم فأنفقوا عليهم اذا كنتم تبتغون بذلك وجه الله فى صلة رحم وسد خلة مضطر وليس عليكم اهتداؤهم حتى يمنعكم ذلك من الانفاق عليهم (وما تنفقوا من خير) أى من مال على الفقراء (يوف اليكم) أى يوفى اليكم ثواب ذلك فى الآخرة (وأنتم لا تظلمون) أى لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيأ (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الارض) أى ذلك الانفاق المحثوث عليه للفقراء الذين حبسوا أنفسهم ووقفوها على الجهاد لان الجهاد كان واجبا فى ذلك الزمان نزلت هذه الآية فى حق فقراء المهاجرين من قريش وكانوا نحو أربعمائة وهم أصحاب الصفة لم يكن لهم مسكن ولا عشائر بالمدينة وكانوا ملازمين المسجد ويتعلمون القرآن ويصومون ويخرجون فى كل غزوة ولا يستطيعون سفرا فى الارض ثم عدم الاستطاعة للسير اما لاشتغالهم بصلاح الدين وبأمر الجهاد فذلك يمنعهم من الاشتغال بالكسب والتجارة واما لخوفهم من الاعداء كما قاله قتادة وابن زيد لان الكفار كانوا مجتمعين حول المدينة وكانوا متى وجدوهم قتلوهم فذلك يمنعهم من السفر واما لمرضهم بالجروح كما قاله سعيد بن المسيب ولعجزهم لفقرهم كما قاله ابن عباس وذلك يمنعهم من السفر فحث الله عليهم الناس فكان من عنده فضل أتاهم به اذا أمسى (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) أى يظنهم من لم يختبر أمرهم أغنياء لاظهارهم التجمل وتركهم المسئلة (تعرفهم) أيها المخاطب (بسيماهم) أى بعلامتهم من الهيبة ووقع فى قلوب الخلق وآثار الخشوع فى الصلاة فكل من رآهم تواضع لهم روى انهم كانوا يقومون الليل للتهجد ويحتطبون بالنهار للتعفف (لا يسألون الناس الحافا) أى لا سؤال لهم أصلا فلا يقع منهم الحاف أى كثرة التلطف وملازمة المسؤل اى انهم سكتوا عن السؤال لكنهم لا يضمون الى ذلك السكوت من رثاثة الحال واظهار الانكسار ما يقوم مقام السؤال على سبيل الالحاف بل يزينون انفسهم عند الناس ويتجملون بهذا الخلق ويجعلون فقرهم وحاجتهم بحيث لا يطلع عليه الا الخالق والمراد بقوله تعالى لا يسألون الناس الحافا التنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس الحافا عن ابن مسعود رضى الله عنه ان الله يحب العفيف المتعفف ويبغض الفاحش البذئ السآل الملحف الذى ان أعطى كثيرا أفرط فى المدح وان أعطى قليلا أفرط فى الذم (وما تنفقوا من خير) أى من مال (فان الله به عليم) فيجازيكم على ذلك أحسن جزاء وهذا يجرى مجرى ما اذا قال السلطان العظيم لعبده الذى استحسن خدمته ما يكفيك بأن يكون على شاهدا بكيفية طاعتك وحسن خدمتك فان هذا أعظم وقعا مما اذا قال له ان أجرك واصل اليك (الذين ينفقون أموالهم) فى الصدقة (بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم) فى الجنة (ولا خوف عليهم) بالدوام (ولا هم يحزنون) اذا حزن غيرهم *قيل لما نزل قوله تعالى للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله بعث عبد الرحمن بن عوف الى أصحاب الصفة بدنانير وبعث على رضى الله بوسق من تمر ليلا فنزلت هذه الآية وقال ابن عباس ان عليا رضى الله عنه ما ملك غير أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية فقال صلى الله عليه وسلم ما حملك على هذا فقال أن أستوجب ما وعدنى ربى فقال لك ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل نزلت فى شأن أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة فى السر وعشرة فى العلانية وأخرج ابن المنذر عن ابن المسيب انها نزلت فى عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وقال الاوزاعى نزلت فى الذين يربطون الخيل للجهاد وينفقون عليها (الذين يأكلون الربا) أى يأخذونه استحلالا (لا يقومون) من قبورهم اذا بعثوا (الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) أى

الاقياما كقيام الذى يتخبطه الشيطان من اصابة الشيطان بالجنون فى الدنيا أى ان آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا وذلك كالعلامة المخصوصة بآكل الربا فيعرفه أهل الموقف بتلك العلامة انه آكل الربا فى الدنيا فعلى هذا معنى الآية انهم يقومون مجانين كمن أصابه الشيطان بالجنون (ذلك) أى كون التخبل علامة آكل الربا فى الآخرة (بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا) أى انما الزيادة فى البيع كالزيادة فى الربا أى لك العذاب بسبب انهم نظموا الربا والبيع فى سلك واحد لافضائهما الى الربح فاستحلوه استحلاله وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين كما يجوز بيع ماقيمته درهم بدرهمين بل جعلوا الربا أصلا فى الحل وقاسوا به البيع مع وضوح الفرق بينهما فان أحد الدرهمين فى الاول ضائع حتما وفى الثانى منجبر بمساس الحاجة الى السلعة أو بتوقع رواجها (وأحل الله البيع وحرم الربا) أى أحل الله لكم الارباح فى التجارة بالبيع والشراء وحرم الربا الذى هو زيادة فى المال لاجل تأخير الاجل (فمن جاءه موعظة) أى زجر وتخويف عن الربا (من ربه فانتهى) أى امتنع عن أخذه (فله ما سلف) قال السدى أى له ما أكل من الربا وليس عليه رد ما سلف فأما مالم يقبض بعد النهى فلا يجوز له أخذه وانما له رأس ماله فقط (وأمره الى الله) أى يجازيه على انتهائه عن أخذه ان كان عن قبول الموعظة وصدق النية (ومن عاد) الى تحليل الربا بعد التحريم (فاولئك أصحاب النار) أى ملازموها (هم فيها خالدون) أى ماكثون أبدا (يمحق الله الربا) أى يهلك المال الذى دخل فيه فى الدنيا والآخرة قال ابن عباس ان الله تعالى لا يقبل منه صدقة ولا جهادا ولا حجا ولا صلة رحم (ويربى الصدقات) أى يبارك فى المال الذى أخرجت منه فى الدنيا والآخرة وفى الحديث ان الملك ينادى كل يوم اللهم يسر لكل منفق خلفا ولممسك تلفا (والله لا يحب كل كفار) أى جاحد بتحريم الربا (أثيم) أى فاجر بأخذه مع اعتقاد التحريم (ان الذين آمنوا) بالله ورسله وكتبه وبتحريم الربا (وعملوا الصالحات) أى فيما بينهم وبين ربهم وتركوا الربا (وأقاموا الصلاة) أى أتموا الصلوات الخمس بما يجب فيها (وآتوا الزكاة) أى اعطوا زكاة أموالهم (لهم أجرهم عند ربهم) فى الجنة (ولا خوف عليهم) من مكروه آت (ولا هم يحزنون) على محبوب فات (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى قوا أنفسكم عقابه (وذروا ما بقى من الربا) أى اتركوا طلب ما بقى مما زاد على رؤس أموالكم (ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين بقلوبكم فى تحريم الربا (فان لم تفعلوا) ما أمرتم به بأن لم تتركوا الربا (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أى فاستعدوا العذاب من الله فى الآخرة بالنار ولعذاب من رسوله فى الدنيا بالسيف (وان تبتم) من معاملة الربا (فلكم رؤس أموالكم) أى أصولها دون الزيادة (لا تظلمون) الغريم بطلب الزيادة على رأس المال (ولا تظلمون) أى بنقصان رأس المال وبالمطل (وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة) أى وان وقع غريم من غرمائكم ذو حالة يتعسر فيها وجود المال فيجب عليكم امهاله الى وقت يسار وسعة (وأن تصدقوا خير لكم) أى تصدقكم على المعسر برؤس أموالكم خير لكم من الاخذ والتأخير لانه حصل لكم الثناء الجميل فى الدنيا والثواب الجزيل فى الآخرة (ان كنتم تعلمون) فضل التصدق على الانظار والقبض (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) أى الى حسابه لاعمالكم وهو يوم القيامة (ثم توفى كل نفس ما كسبت) أى ثم توفر فيه كل نفس برة وفاجرة جزاء ما عملت من خير أو شر (وهم لا يظلمون) بنقص حسنة أو زيادة سيئة (يا أيها الذين آمنوا) بالله والرسول (اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه) أى اذا داين بعضكم بعضا وعامله نسيئة معطيا أو آخذا الى وقت معلوم بالايام أو الاشهر ونحوهما مما يرفع الجهالة لا بالحصاد

ونحوه مما لا يرفعها فاكتبوا الدين بأجله لانه أوثق وأرفع للنزاع والاكثرون على ان هذه الكتابة أمر استحباب فان ترك فلا بأس وهو أمر تعليم ترجع فائدته الى منافع الخلق فى دنياهم فلا يثاب عليه المكلف الا ان قصد الامتثال قال المفسرون المراد بالمداينة السلم فالله تعالى لما منع الربا فى الآية المتقدمة أذن فى السلم فى جميع هذه الآية مع ان جميع المنافع المطلوبة من الربا حاصلة فى السلم ولهذا قال بعض العلماء لا لذة ولا منفعة يوصل اليها بالطريق الحرام الا وضع الله تعالى لتحصيل مثل تلك اللذة طريقا حلالا وسبيلا مشروعا والقرض غير الدين لان القرض أن يقرض الانسان دراهم أو دنانير أو حبا أو تمرا أو ما أشبه ذلك ويسترد مثله ولا يجوز فيه الاجل والدين يجوز فيه ذلك فذكر الاجل فى القرض ان كان لغرض المقرض أفسده والا فلا يفسده ولا يجب الوفاء به لكنه يستحب قال ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى السلف لان النبى صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهم يسلفون فى التمر السنتين والثلاث فقال صلى الله عليه وسلم من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم الى أجل معلوم وقال أكثر المفسرين ان البياعات على أربعة أوجه أحدها بيع العين بالعين وذلك ليس بمداينة البتة والثانى بيع الدين بالدين وهو باطل فلا يكون داخلا تحت هذه الآية وبيع العين بالدين وهو ما اذا باع شيأ بثمن مؤجل وبيع الدين بالعين وهو المسمى بالسلم وكلاهما داخلان تحت هذه الآية (وليكتب بينكم) أى بين الدائن والمديون (كاتب بالعدل) أى بحيث لا يزيد فى المال والاجل ولا ينقص فى ذلك (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب) أى ولا يمتنع أحد من ان يكتب كتاب الدين بين الدائن والمديون على طريقة ما علمه الله كتابة الوثائق فليكتب تلك الكتابة التى علمه الله اياها (وليملل الذى عليه الحق) أى وليمل المديون على الكاتب ما عليه من الدين لانه المشهود عليه فلابد أن يكون هو المقر (وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيأ) أى وليخش المديون ربه بأن يقر بمبلغ المال الذى عليه ولا ينقص مما عليه من الدين شيأ فى القاء الالفاظ على الكاتب (فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه) أى فان كان المديون ناقص العقل مبذرا أو عاجزا عن املاء الالفاظ للكاتب لصغر أو كبر مضعف للعقل أو لا يحسن الاملاء بنفسه على الكاتب لخرس أو جهل باللغة أو بما عليه فليقر على الكاتب ولى كل واحد من هؤلاء الثلاثة والمراد بالولى هو الولى لغة وهو من له ولاية عليه بأى طريق كان كوصى وقيم ومترجم (بالعدل) أى بالصدق من غير زيادة ونقص (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) أى وأشهدوا على الدين شاهدين من الرجال البالغين الاحرار المسلمين وعند شريح وابن سيرين وأحمد تجوز شهادة العبيد وأجاز أبو حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض (فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان) أى فان لم يكن الشاهدان رجلين بأن لم يقصد اشهادهما فرجل وامرأتان كائنون (ممن ترضون) لدينه وعدالته (من الشهداء) يشهدون وهذا تفسير للخبر (أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى) قرأ حمزة ان تضل بكسر ان وتذكر بالرفع والتشديد وقرأ نافع وعاصم والكسائى فتذكر بالتشديد والنصب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف والنصب أما سائر القراء فقرؤا بنصب أن على حذف لام التعليل أى انما اشترط التعدد فى النساء لاجل أن تنسى احدى المرأتين الشهادة لنقص عقلهن فتذكر احداهما الذاكرة للشهادة المرأة الاخرى الناسية لها (ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا) أى ولا يمتنع الشهداء اذا دعوا الى تحمل الشهادة وأدائها عند الحكام فيحرم الامتناع عليهم لان تحمل الشهادة فرض كفاية مطلقا والاداء كذلك ان زاد

المتحملون على من يثبت بهما الحق والا فرض عين (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله) أى ولا تملوا ان تكتبوا الدين لكثرة وقوع المداينة على أى حال كان الدين قليلا أو كبيرا وعلى أى حال كان الكتاب مختصرا أو مشبعا حال كون الدين مستقرا فى ذمة المديون الى وقت حوله الذى أقر به المديون أى فاكتبوا الدين بصفة أجله ولا تهملوا الاجل فى الكتابة وقوله تعالى ولا تسأموا معطوف على قوله تعالى فاكتبوه (ذلكم) أى الكتابة للدين (أقسط عند الله) أى أعدل فى حكم الله (وأقوم للشهادة) أى أثبت للشاهد بالشهادة اذا نسى (وأدنى أن لا ترتابوا) أى وأقرب الى انتفاء شككم فى قدر الدين وأجله (الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم) قرأ عاصم تجارة بالنصب على أنه خبر تكون والباقون بالرفع على انه اسم تكون والخبر تديرونها والا اما استثناء متصل راجع الى قوله تعالى اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه والتقدير اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه الا ان يكون الاجل قريبا وهو المراد من التجارة الحاضرة واما استثناء منقطع فالتقدير لكنه اذا كانت تجارتكم ومداينتكم تجارة حالة تتعاطونها يدا بيد أو التقدير لكن اذا كانت تجارة حاضرة مقبوضة بينكم ولا أجل فيها (فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) أى ليس عليكم مضرة فى ترك الكتابة فى المداينة الحاضرة كأن باع ثوبا بدرهم فى الذمة بشرط ان يؤدى الدرهم فى هذه الساعة أى لا بأس بعدم الكتابة فى ذلك لبعده عن التنازع والنسيان (وأشهدوا اذا تبايعتم) بالاجل (ولا يضار كاتب) بالكتابة (ولا شهيد) بالشهادة وهذا اما مبنى للفاعل فيكون نهيا للكاتب والشهيد عن اضرار من له الحق وهو قول أكثر المفسرين والحسن وطاوس وقتادة ويدل على ذلك قراءة عمر رضى الله عنه ولا يضارر بالاظهار والكسر واختار الزجاج هذا القول لقوله تعالى وان تفعلوا فانه فسوق بكم وذلك لان اسم الفسق بمن يحرف الكتابة وبمن يمتنع عن الشهادة حتى يبطل الحق بالكلية ولانه تعالى قال فيمن يمتنع عن الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والاثم والفاسق متقاربان واما مبنى للمفعول فيكون نهيا لصاحب الحق عن اضرار الكاتب والشهيد كأن يكلفهما ما لا يليق فى الكتابة والشهادة ولا يعطى الكاتب جعله ولا الشهيد مؤنة مجيئه حيث كان فان لهما طلب الجعل ولا يكلفان الكتابة والشهادة مجانا وهو قول ابن مسعود وعطاء ومجاهد ويدل على ذلك قراءة ابن عباس ولا يضارر بالاظهار والفتح وهذا لو كان نهيا للكاتب والشهيد لقيل وان تفعلا فانه فسوق بكما ولان دلالة الكلام من أول الآيات انما هو فى المكتوب له والمشهود له واذا كان هذا النهى متوجها للذين يقدمون على المداينة فالمنهيون عن اضرارهم (وان تفعلوا) ما نهيتم عنه من الضرر (فانه فسوق بكم) أى فان فعلكم ذلك معصية منكم وخروج عن طاعة الله (واتقوا الله) فيما حذر منه وهو هنا المضارة أو المعنى اتقوا الله فى جميع أوامره ونواهيه (ويعلمكم الله) ما يكون ارشادا واحتياطا فى أمر الدنيا كما يعلمكم ما يكون ارشادا فى أمر الدين (والله بكل شئ) من مصالح الدنيا والآخرة (عليم) فلا يخفى عليه حالكم (وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة) قرأ ابن كثير وأبو عمرو فرهن بضم الراء والهاء أو سكونه والباقون فرهان بكسر الراء وفتح الهاء مع المد وعلى بمعنى فى أو بمعنى الى أى وان كنتم مسافرين أو متوجهين الى السفر ولم تجدوا كاتبا أو آلة الكتابة فى المداينة فرهن مقبوضة بدل من الشاهدين أو يقال فى الوثيقة رهان مقبوضة (فان أمن بعضكم) أى الدائن (بعضا) أى المديون بالدين بلا رهن لحسن ظنه به (فليؤد الذى اؤتمن) بالدين (أمانته) أى حق صاحبه (وليتق الله ربه) أى وليخش المديون ربه

في اداء الدين عند حلول الاجل من غير مماطلة ولا انكار بل يعامل الدائن معاملة حسنة كما أحسن ظنه فيه (ولا تكتموا الشهادة) عند الحكام بانكار العلم بتلك الواقعة أو بالامتناع من أداء الشهادة عند الحاجة الى اقامتها (ومن يكتمها) أي الشهادة (فانه آثم قلبه) أي فاجر قلبه (والله بما تعملون) من كتمان الشهادة واقامتها ومن الخيانة في الامانة وعدمها (عليم) فيجازيكم على ذلك ان خيرا فخير وان شرا فشر (لله ما في السموات وما في الارض) ملكا وملكا من الخلق والعجائب يأمر عباده بما يشاء (وان تبدوا ما في أنفسكم) من العزم على السوء بأن تظهروه للناس بالقول أو بالفعل (أو تخفوه) بأن تكتموه منهم (يحاسبكم به الله) يوم القيامة فالخواطر الحاصلة في القلب على قسمين ما وطن الانسان نفسه عليه و يعزم على ادخاله في الوجود وما لا يكون كذلك بل تكون أمورا خاطرة بالبال مع ان الانسان يكرهها ولكنه لا يمكنه دفعها عن النفس فالقسم الاول يكون مؤاخذا به والثاني لا يكون مؤاخذا به (فيغفر) بفضله (لمن يشاء) مغفرته (و يعذب) بعدله (من يشاء) تعذيبه وقد يغفر لمن يشاء الذنب العظيم وقد يعذب من يشاء على الذنب الحقير لا يسئل عما يفعل قرأ عاصم وابن عامر فيغفر و يعذب بالرفع والباقون بالجزم (والله على كل شيء) من المغفرة والعذاب (قدير آمن الرسول) أي صدق محمد صلى الله عليه وسلم (بما أنزل اليه من ربه) أي من القرآن قال الزجاج لما ذكر الله تعالى في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصوم والحج وذكر الطلاق والايلاء والحيض والجهاد وقصص الانبياء ختم السورة بذكر تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بجميع ذلك انتهى (والمؤمنون كل) أي كل واحد منهم (آمن بالله) أي بوجوده و بصفاته و بأفعاله و بأحكامه و بأسمائه (وملائكته) أي بوجودها بأنهم معصومون مطهرون يخافون ربهم من فوقهم وانهم وسائط بين الله و بين البشر وان كتب الله المنزلة انما وصلت الى الانبياء بواسطة الملائكة (وكتبه) وقرأ حمزة والكسائي بكسر الكاف وفتح التاء مع المد بأن يعلم أن هذه الكتب وحي من الله تعالى الى رسله وانها ليست من باب الكهانة ولا من باب السحر ولا من باب القاء الشياطين والارواح الخبيثة و بأن يعلم ان الوحي بهذه الكتب فالله تعالى لم يمكن أحدا من الشياطين من القاء شيء من ضلالاتهم في أثناء هذا الوحي الطاهر و بأن يعلم أن هذا القرآن لم يغير ولم يحرف فمن قال ان ترتيب القرآن على هذا الوجه شيء فعله عثمان رضي الله عنه فقد أخرج القرآن عن كونه حجة وهو قول فاسد و بأن يعلم أن القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه وأن محكمه يكشف عن متشابهه (ورسله) بأن يعلم كونهم معصومين من الذنوب و بأن يعلم أن النبي أفضل ممن ليس بنبي وان الرسل أفضل من الملائكة وأن يعلم أن بعضهم أفضل من البعض (لا نفرق بين أحد من رسله) أي يقول المؤمنون لا نكفر بأحد من رسله بل نؤمن بصحة رسالة كل واحد منهم (وقالوا) أيضا (سمعنا) قول ربنا (وأطعنا) أمر ربنا (غفرانك) أي نسألك غفرانك من ذنوبنا (ربنا واليك المصير) أي المرجع بعد الموت (لا يكلف الله نفسا) من الطاعة (الا وسعها) أي طاقتها (لها ما كسبت) أي ثوابه من الخير (وعليها ما اكتسبت) أي وزره من الشر فان قلنا ان هذا من كلام المؤمنين فوجه النظم انهم لما قالوا سمعنا وأطعنا فكأنهم قالوا كيف لا نسمع ولا نطيع وأنه تعالى لا يكلفنا الا ما في وسعنا وطاقتنا فاذا كان هو تعالى بحكم الرحمة الالهية لا يطالبنا الا بالشيء السهل الهين فكذلك نحن بحكم العبودية وجب أن نكون سامعين مطيعين وان قلنا أن هذا من كلام الله تعالى فوجه النظم انهم لما قالوا سمعنا وأطعنا ثم قالوا بعده غفرانك ربنا

دل ذلك على ان قولهم غفرانك طلب للمغفرة عما يصدر عنهم من وجوه التقصير منهم على سبيل العمد فلما كان قولهم غفرانك طلبا للمغفرة من ذلك التقصير فلا شك فى ان الله تعالى خفف عنهم ذلك وقال لا يكلف الله نفسا الا وسعها والمعنى انكم اذا سمعتم واطعتم ولم تتعمدوا التقصير فلو وقع منكم نوع تقصير على سبيل السهو والغفلة فلا تكونوا خائفين منه فان الله تعالى لا يكلف نفسا الا وسعها وبالجملة فهذا اجابة لهم من الله فى دعائهم بقولهم غفرانك ربنا اه (ربنا لا تؤاخذنا) أى يا ربنا لا تعاقبنا (ان نسينا) طاعتك (أو أخطأنا) فى أمرك (ربنا ولا تحمل علينا اصرا) أى تكليفا بالامور الشاقة (كما حملته على الذين من قبلنا) من بنى اسرائيل أى لا تشدد علينا فى التكاليف كما شددت على من قبلنا من اليهود قال المفسرون ان الله تعالى فرض عليهم خمسين صلاة فى اليوم والليلة وأمرهم بأداء ربع أموالهم فى الزكاة ومن أصاب ثوبه نجاسة أمر بقطعها وكانوا اذا نسوا شيأ عجلت لهم العقوبة فى الدنيا وكانوا اذا أتوا بخطيئة حرم عليهم من الطعام بعض ما كان حلالا لهم (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة) أى قوة (لنا به) من البلاء والعقوبة أى ولا تحمل علينا أيضا ما لا راحة لنا فيها من الاستكراه (واعف عنا) أى امح آثار ذنوبنا (واغفر لنا) أى استرعيوبنا ولا تفضحنا بين عبادك (وارحمنا) أى تعطف بنا وتفضل علينا (أنت مولانا) أى أنت سيدنا وناصرنا ونحن عبيدك ويقال واعف عنا من المسخ كما مسخت قوم عيسى واغفر لنا من الخسف كما خسفت بقارون وارحمنا من القذف كما قذفت قوم لوط فلما دعوا بهذا الدعاء رفع الله عنهم ذنوب حديث النفس والنسيان والخطأ والاستكراه وعفى عنهم من الخسف والمسخ والقذف (فانصرنا على القوم الكافرين) أى انصرنا عليهم فى محاربتنا معهم وفى مناظرتنا بالحجة معهم وفى اعلاء دولة الاسلام على دولتهم ولما مدح الله تعالى المتقين فى أول السورة بين فى آخر السورة انهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وهذا هو المراد بقوله تعالى هنالك الذين يؤمنون بالغيب ثم قال ههنا وقالوا سمعنا وأطعنا وهو المراد بقوله تعالى هنالك ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ثم قال ههنا غفرانك ربنا واليك المصير وهو المراد بقوله تعالى هنالك وبالآخرة هم يوقنون ثم حكى الله تعالى عنهم ههنا كيفية تضرعهم الى ربهم فى قولهم ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا الى آخر السورة وهو المراد بقوله تعالى ثم أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها

﴿سورة آل عمران مدنية آياتها مائتان وكلماتها ثلاثة آلاف وأربعمائة وستون نوحروفها أربعة عشر ألفا وخمسمائة وخمس وعشرون﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم الم الله لا اله الا هو الحى) أى الذى لا يموت ولا يزول (القيوم) أى القائم بذاته والقائم بتدبير خلقه قال الكلبى والربيع بن أنس ومحمد بن اسحق نزلت هذه الآيات فى شأن وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكبا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا المسجد حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم وثلاثة منهم كانوا أكابر القوم أحدهم أميرهم واسمه عبد المسيح والثانى مشيرهم ووزيرهم واسمه الايهم والثالث حبرهم يقال له أبو حارثة بن علقمة فكلم الايهم وعبد المسيح فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم اسلما قالا قد أسلمنا قبلك فقال كذبتما يمنعكما من الاسلام ثلاثة أشياء اثباتكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير قالوا ان لم يكن عيسى ولد الله

فمن أبوه وخاصموه صلى الله عليه وسلم فى عيسى فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم ألستم تعلمون انه لا يكون ولد الا وهو يشبه أباه قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وان عيسى يأتى عليه الفناء قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شئ يحفظه ويرزقه قالوا بلى قال فهل يملك عيسى من ذلك شيأ قالوا لا قال ألستم تعلمون ان الله لا يخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء قالوا بلى قال فهل يعلم عيسى من ذلك الا ما علمه الله قالوا لا قال فان ربنا صور عيسى فى الرحم كيف يشاء فهل تعلمون ذلك قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته امه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يطعم ويشرب ويحدث قالوا بلى قال وكيف يكون هذا كما زعمتم فسكتوا فأنزل الله تعالى من ابتداء السورة الى آية المباهلة تثبيتا لما احتج به النبى عليهم (نزل عليك الكتاب) أى القرآن وقرئ قراءة شاذة بتخفيف نزل ورفع الكتاب (بالحق) أى بالعدل فى أحكامه أو بالصدق فى أخباره وفى وعده ووعيده أو بالحجج المحققة انه من عند الله تعالى أو بالقول الفصل وليس بالهزل ولا بالمعانى الفاسدة المتناقضة (مصدقا لما بين يديه) أى لما تقدمه من الكتب السالفة فى الدعوة الى الايمان والتوحيد وتنزيه الله تعالى عما لا يليق بشأنه تعالى وفى الامر بالعدل والاحسان وفى أنباء الانبياء والامم الخالية وفى بعض الشرائع (وأنزل التوراة) جملة على موسى ابن عمران (والانجيل) جملة على عيسى بن مريم (من قبل) أى من قبل تنزيل القرآن (هدى للناس) أى حال كونهما هاديين من الضلالة أو انزل هذه الكتب الثلاثة لهداية الناس (وأنزل الفرقان) قيل المراد به الزبور فانه مشتمل على المواعظ الداعية الى الخير الزاجرة عن الشر الفارقة بين الحق والباطل ثم المختار عند الفخر الرازى أن المراد من الفرقان هو المعجزات التى قرنها الله تعالى بانزال هذه الكتب الثلاثة لانه لما أظهر الله تعالى تلك المعجزات على وفق دعوى الرسل حصلت المفارقة بين دعوى الصادق ودعوى الكاذب فالمعجزة هى الفرقان (ان الذين كفروا بآيات الله) أى القرآن وغيره كوفد بنى نجران ونحوهم بأن كذبوا بالآيات الناطقة بالتوحيد والتنزيه المبشرة بنزول القرآن ومبعث النبى صلى الله عليه وسلم (لهم عذاب شديد) بسبب كفرهم بها (والله عزيز) اى غالب لا يغلب (ذو انتقام) اى عقوبة عظيمة فالعزيز اشارة الى القدرة التامة على العقاب وذو الانتقام اشارة الى كونه فاعلا للعقاب فالاول صفة الذات والثانى صفة الفعل (ان الله لا يخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء) قصيرا أو طويلا حسنا أو قبيحا ذكرا أو انثى سعيدا اوشقيا وهذه الآية واردة فى الرد على النصارى وذلك أن النصارى ادعوا الهية عيسى بأمرين بالعلم والقدرة فان عيسى كان يخبر عن الغيوب فيقول لهذا أنت أكلت فى دارك كذا وصنعت فى دارك كذا وكان يحيى الموتى ويبرئ الاكمه والابرص ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا ثم انه تعالى استدل على بطلان قولهم فى الهية عيسى وفى التثليث بقوله تعالى الحى القيوم فالاله يجب أن يكون حيا قيوما وعيسى لم يكن كذلك فيلزم القطع بأنه لم يكن الها ولما قالوا ان عيسى أخبر عن الغيوب فوجب أن يكون الها فرد الله عليهم بقوله ان الله لا يخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء والمعنى لا يلزم من كونه عالما ببعض المغيبات أن يكون الها لاحتمال انه علم ذلك بتعليم الله تعالى له ذلك ولما قالوا ان عيسى كان يحيى الموتى فوجب أن يكون الها فرد الله عليهم بقوله هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء والمعنى ان حصول الاحياء على وفق قوله عليه السلام فى بعض الصور لا يدل على كونه الها لاحتمال أن الله تعالى

أكرمه بذلك الاحياء اظهار المعجزته واكرامه له ولما قالوا يا أيها المسلمون أنتم توافقوننا على أن عيسى لم يكن له أب من البشر فوجب أن يكون ابنا لله فأجاب الله تعالى عن ذلك أيضا بقوله تعالى هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء فان هذا التصوير لما كان من الله تعالى فان شاء صوره من نطفة الأب وان شاء صوره ابتداء من غير أب ولما قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم ألست تقول ان عيسى روح الله وكلمته فهذا يدل على انه ابن الله فأجاب الله عن ذلك بأن هذا اللفظ من باب المتشابهات فوجب رده الى التأويل وذلك هو المراد بقوله تعالى هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فظهر بذلك المذكور أن قوله تعالى الحي القيوم اشارة الى أن عيسى ليس باله ولا ابن الاله وأما قوله تعالى ان الله لا يخفى عليه شئ فهو جواب عن الشبهة المتعلقة بالعلم وقوله تعالى هو الذي يصوركم في الارحام جواب عن تمسكهم بقدرة عيسى على الاحياء ونحوه لانه لو قدر على الاحياء لقدر على الاماتة ولو قدر على الاماتة لأمات اليهود الذين قتلوه على زعم النصارى فثبت أن حصول الاحياء في بعض الصور لا يدل على كونه الها وهو جواب أيضا عن تمسكهم بأن من لم يكن له أب من البشر وجب أن يكون ابنا لله فكأنه تعالى يقول كيف يكون عيسى ولدا لله وقد صوره في الرحم والمصور لا يكون أبا للمصور وأما قوله تعالى هو الذي أنزل عليك الكتاب الى آخر الآيات فهو جواب عن تمسكهم بما ورد في القرآن أن عيسى روح الله وكلمته ثم انه تعالى لما أجاب عن شبهتهم أعاد كلمة التوحيد زجرا لسائر النصارى عن قولهم بالتثليث فقال (لا اله الا هو العزيز الحكيم) فالعزيز اشارة الى كمال القدرة والحكيم اشارة الى كمال العلم وهذا تثبيت لما تقدم من أن علم عيسى ببعض الغيوب وقدرته على الاحياء في بعض الصور لا يكفي في كونه الها فان الاله لابد وان يكون كامل القدرة وهو العزيز وكامل العلم وهو الحكيم (هو الذي أنزل عليك الكتاب) أى القرآن (منه آيات محكمات) أى محكمة العبارة محفوظة من الاحتمال قطعية الدلالة على المعنى المراد (هن أم الكتاب) أى أصل في الكتاب وعمدة ترد اليها آيات متشابهات ومثال المتشابه قوله تعالى واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فظاهر هذا الكلام انهم يؤمرون بأن يفسقوا والمحكم قوله تعالى ان الله لا يأمر بالفحشاء رادا على الكفار فيما حكى عنهم واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها والآية المتشابهة قوله تعالى نسوا الله فنسيهم والآية المحكمة قوله تعالى وما كان ربك نسيا (وأخر متشابهات) أى وآيات أخر محتملات لمعان متشابهة لا يتضح مقصودها لاجمال أو مخالفة ظاهرة الا بنظر دقيق وتأمل أنيق (فأما الذين في قلوبهم زيغ) أى ميل عن الحق الى الاهواء الباطلة (فيتبعون ما تشابه منه) أى فيتعلقون بظاهر المتشابه من الكتاب (ابتغاء الفتنة) أى طلب الفتنة في الدين وهي الضلال عنه فانهم متى أوقعوا تلك المتشابهات في الدين صار بعضهم مخالفا لبعض وذلك يفضي الى الهرج والتقاتل (وابتغاء تأويله) اى وطلب تأويل المتشابه على ما ليس في كتاب الله عليه دليل ولا بيان والمنصف يحمل الامر في الآيات على أقسام ثلاثة أحدها ما يتأكد ظاهرها بالدلائل العقلية فذلك هو المحكم حقا وثانيها الذي قامت الدلائل القاطعة على امتناع ظواهرها فذلك هو الذي يحكم فيه بأن مراد الله تعالى غير ظاهره وثالثها الذي لا يوجد مثل هذه الدلائل على طرفي ثبوته وانتفائه فيكون من حقه التوقف فيه ويكون ذلك متشابها بمعنى ان الامر اشتبه فيه ولم يتميز أحد الجانبين عن الآخر الا ان الظن الراجح حاصل في اجرائها على ظواهرها (وما يعلم تأويله الا الله) أى وما يعلم تأويل المتشابه حقيقة الا الله وحده ونقل عن ابن

عباس رضي الله عنهما انه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه تفسير لا يمكن لاحد جهله وتفسير
تعرفه العرب بألسنتها وتفسير يعرفه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله تعالى (والراسخون في العلم يقولون
آمنا به) أي بالكتاب (كل) أي كل واحد من المحكم والمتشابه (من عند ربنا) والراسخ في العلم
هو الذي عرف ذات الله وصفاته بالدلائل اليقينية القطعية وعرف أن القرآن كلام الله تعالى بالدلائل
اليقينية وعرف أنه تعالى لا يتكلم بالباطل والعبث فاذا رأى شيئاً متشابها ودل الدليل القطعي على ان
الظاهر ليس مراد الله تعالى علم حينئذ قطعا ان مراد الله شيء آخر سوى ما دل عليه ظاهره ثم فوض تعيين
ذلك المراد الى علمه تعالى وقطع بأن ذلك المعنى على أي شيء كان فهو الحق والصواب لانه علم أن ذلك
المتشابه لابد وأن يكون له معنى صحيح عند الله تعالى (وما يذكر الا أولوا الالباب) أي وما يتعظ بما في
القرآن الا ذوو العقول الكاملة الخالصة عن الركون الى الاهواء الزائغة وهذا مدح للراسخين بجودة الذهن
وحسن النظر وهذه الآية دالة على علو شأن المتكلمين الذين يبحثون عن الدلائل العقلية ويتوسلون بها
الى معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ولا يفسرون القرآن الا بما يطابق دلائل العقول ويوافق اللغة
والاعراب ومن تكلم في القرآن من غير أن يكون متبحرا في علم الاصول وفي علم اللغة والنحو كان في غاية
البعد عن الله تعالى ولما آمن الراسخون في العلم بكل ما أنزل الله تعالى من المحكمات والمتشابهات
تضرعوا الى الله تعالى بقولهم (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا) أي لا تمل قلوبنا عن دينك بعد
اذ هديتنا الى دينك أو يقال يا ربنا لا تجعل قلوبنا مائلة الى الباطل بعد أن تجعلها مائلة الى الحق (وهب لنا
من لدنك رحمة) أي نور الايمان والتوحيد والمعرفة في القلب ونور الطاعة والعبودية والخدمة في
الاعضاء وسهولة أسباب المعيشة من الامن والصحة والكفاية في الدنيا وسهولة سكرات الموت عند الموت
وسهولة السؤال والظلمة في القبر وغفران السيآت وترجيح الحسنات في القيامة (انك أنت الوهاب)
لكل مطلوب فان هذا الذي طلبته منك في هذا الدعاء عظيم بالنسبة الي لكنه حقير بالنسبة الى كمال
كرمك وغاية جودك ورحمتك وكان صلى الله عليه وسلم يقول يا مقلب القلوب والابصار ثبت قلبي على
دينك (ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه) أي يا ربنا انك تجمع الناس للجزاء في يوم لا شك في
وقوعه مجازيا فيه أحسن الجزاء (ان الله لا يخلف الميعاد) أي الوعد وهذا من بقية كلام الراسخين في
العلم وذلك لانهم لما طلبوا من ربهم أن يصونهم عن الزيغ وأن يخصهم بالهداية وأنواع الرحمة فكأنهم
قالوا ليس غرضنا من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا فانها منقرضة وانما غرضنا الاعظم منه ما يتعلق
بالآخرة فانا نعلم انك يا الهنا جامع الناس للجزاء في يوم القيامة ونعلم ان وعدك بالجزاء والحساب والميزان
والصراط والجنة والنار لا يكون خلف فمن زاغ قلبه بقي هناك في العذاب أبد الآباد ومن أعطيته الهداية
والرحمة بقي هناك في السعادة والكرامة أبد الآباد (ان الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم
ولا أولادهم) أي ان الذين كفروا ككعب بن الاشرف وأصحابه وأبي جهل وأصحابه لن تنفعهم كثرة
أموالهم وكثرة أولادهم (من الله) أي من عذاب الله أو عند الله (شيأ) وقيل ان المراد بهؤلاء وفد
نجران وذلك لأن أبا حارثة بن علقمة قال لاخيه كرز اني لاعلم أن محمدا رسول الله حقا وهو النبي الذي كنا
ننتظره ولكنني ان أظهرت ايماني بمحمد أخذ ملوك الروم مني ما أعطوني من المال الكثير والجاه فالله
تعالى بين ان أموالهم وأولادهم لا تدفع عنهم عذاب الله في الدنيا والآخرة ثم ان اللفظ عام وخصوص
السبب لا يمنع عموم اللفظ (وأولئك) المتصفون بالكفر (هم وقود النار) أي حطب النار الذي

تسعرنه (كدأب آل فرعون) أى شأن هؤلاء فى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم كشأن آل فرعون فى التكذيب بموسى (والذين من قبلهم) أى من مكذبى الرسل كقوم هود وقوم صالح (كذبوا بآياتنا) وهى المعجزات ومتى كذبوا بها فقد كذبوا بالانبياء بلاشك (فأخذهم الله بذنوبهم) أى عاقبهم الله بتكذيبهم المعجزات الدالة على صدق الرسل وانما استعمل الاخذ فى العقاب لان من ينزل به العقاب يصير كالمأسور المأخوذ الذى لا يقدر على التخلص (والله شديد العقاب) وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما غزا قريشا فى بدر ورجع الى المدينة جمع يهود بنى قينقاع فى سوق بنى قينقاع وقال يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا يوم بدر فقد عرفتم انى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم فقالوا يا محمد لا تغرنك نفسك ان قتلت نفرا من قريش أغمارا لا يعرفون القتال لو قتلتنا لعرفت فأنزل الله تعالى قوله هذا (قل للذين كفروا) هم يهود بنى قينقاع (ستغلبون) عن قريب فى الدنيا وقد صدق الله تعالى وعده بقتل بنى قريظة فقد قتل منهم النبي صلى الله عليه وسلم فى يوم واحد ستمائة جمعهم فى سوق بنى قينقاع وأمر السياف بضرب أعناقهم وأمر بحفر حفيرة ورميهم فيها وباجلاء بنى النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على أهلها وبالاسر على بعض كل (وتحشرون) فى الآخرة (الى جهنم) دلت الآية على حصول البعث فى يوم القيامة والنشر والحشر وعلى أن مرد الكافرين النار (وبئس المهاد) أى الفراش جهنم وقرأ حمزة والكسائى بالغيبة فى الفعلين أى بلغهم أنهم سيغلبون ويحشرون والباقون بالخطاب أى قل لهم فى خطابك اياهم ستغلبون وتحشرون والفرق بينهما انه على الخطاب يكون الاخبار بمعنى كلام الله تعالى وعلى الغيبة يكون بلفظه (قد كان لكم) أيها اليهود (آية) أى علامة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم (فى فئتين) أى فرقتين (التقتا) بالقتال يوم بدر (فئة تقاتل فى سبيل الله) أى فى طاعة الله وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا بين كل أربعة منهم بعير ومعهم من الدروع ستة ومن السيوف ثمانية ومن الخيل فرسان للمقداد بن عمرو ولمرثد بن أبى مرثد (وأخرى كافرة) أى وجماعة أخرى كافرة بالله والرسول وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا وفيهم أبو سفيان وأبو جهل وقادوا مائة فرس وكانت معهم من الابل سبعمائة وأهل الخيل كلهم كانوا دارعين وكان فى الرجال دروع سوى ذلك (يرونهم مثليهم رأى العين) أى يرى المشركون المؤمنين مثلى عدد المشركين قريبا من ألفين أو مثلى عدد المسلمين ستمائة ونيفا وعشرين رأيا ظاهرا معاينا بالعين فى ذلك أنه تعالى كثر المسلمين فى أعين المشركين مع قلتهم ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم قال ابن عباس يرون أنفسهم مثلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ نافع وابان عن عاصم من السبعة ويعقوب ترونهم بالخطاب والمعنى ترون أيها اليهود المشركين مثلى المؤمنين فى القوة والشوكة ومع ذلك غلبهم المؤمنون مع قلتهم جدا فيكون هذا أبلغ فى اكرام المؤمنين وعناية الله بهم (والله يؤيد) أى يقوى (بنصره من يشاء) ولو بدون الاسباب العادية (ان فى ذلك) أى فى نصرة الله لمحمد يوم بدر ويقال أى فى رؤية القليل كثيرا ثم غلبة القليل العديم العدة على الكثير الشاكى السلاح (لعبرة) أى لعظة عظيمة (لاولى الابصار) أى لذوى العقول ووجه نظم هذه الآية ان الآية المتقدمة وهى قوله تعالى ستغلبون نزلت فى شأن اليهود وان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعاهم الى الاسلام أظهروا التمرد وقالوا لسنا أمثال قريش فى الضعف وقلة المعرفة بالقتال بل معنا من الشوكة والمعرفة بالقتال ما يغلب كل من ينازعنا فالله تعالى قال لهم انكم وان كنتم أقوياء وأرباب

العدة والعدة فانكم ستغلبون ثم ذكر الله تعالى ما يجرى مجرى الدلالة على صحة ذلك القول فقال قد كان لكم آية فى فئتين التقتا * ثم قيل روينا ان أبا حارثة ابن علقمة النصرانى اعترف لاخيه بانه يعرف صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله الا انه لا يقر بذلك خوفا من أن يأخذ منه ملوك الروم المال والجاه وأيضا روينا أنه صلى الله عليه وسلم لما دعا اليهود الى الاسلام بعد غزوة بدر أظهروا من أنفسهم القوة والشدة والاستظهار بالمال والسلاح فبين الله تعالى ان هذه الاشياء وغيرها من متاع الدنيا زائلة وان الآخرة خير وأبقى فقال (زين للناس حب الشهوات) أى الاشياء المشتهيات (من النساء) وانما قدمهن على الكل لان الالتذاذ بهن أكثر والاستئناس بهن أتم (والبنين) ولما كان حب الولد الذكر أكثر من حب الانثى خصه الله تعالى بالذكر ووجه التمتع بهم من حيث السرور بهم وغير ذلك (والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة) والقنطار بلسان الروم ملء مسك ثور من ذهب أو فضة والقنطار واحد والقناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة ومعنى القناطير المقنطرة أى الاموال المجموعة أو الاموال المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير وانما كانا محبوبين لانهما جعلا ثمن جميع الاشياء فمالكهما كالمالك لجميع الاشياء (والخيل المسومة) أى المطهمة الحسان بأن تكون غرا محجلة (والانعام) وهى الابل والبقر والغنم (والحرث) أى المزروع (ذلك) أى جميع ما سبق (متاع الحياة الدنيا) أى منفعة للناس فى الدنيا ثم تفنى (والله عنده حسن المآب) أى المرجع فى الآخرة وهو الجنة (قل) يا أشرف الخلق للكفار أو الناس عامة وهو أمر للنبى صلى الله عليه وسلم بتفصيل ما أجمل أولا فى قوله تعالى والله عنده حسن المآب (أؤنبئكم بخير من ذلكم) أى زينة الدنيا (للذين اتقوا) أى تبتلوا الى الله تعالى وأعرضوا عما سواه فلا تشغلهم الزينة عن طاعة الله تعالى (عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار) أى عند ربهم بساتين تطرد من تحت شجرها ومساكنها أنهار الخمر والعسل واللبن والماء (خالدين فيها) أى مقيمين فى الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها (وأزواج مطهرة) أى مهذبة من الحيض والنفاس والبصاق والمنى وتشويه الخلقة وسوء العشرة والاخلاق الذميمة (ورضوان من الله) ورضا ربهم أكبر مما هم فيه من النعيم (والله بصير بالعباد) أى بأحوال الذين اتقوا ثم وصفهم بقوله (الذين يقولون) فى الدنيا (ربنا اننا آمنا) بك وبرسولك (فاغفر لنا ذنوبنا) أى استرها وتجاوز عنا (وقنا عذاب النار) أى ادفع عنا ذلك (الصابرين) على أداء فرائض الله واجتناب معاصيه وعلى المرازى (والصادقين) فى ايمانهم وأقوالهم ونياتهم (والقانتين) أى المواظبين على العبادات (والمنفقين) أموالهم فى سبيل الله (والمستغفرين بالاسحار) أى فى أواخر الليل بأى صيغة كانت وقيل أى المصلين التطوع فيها وأعظم الطاعات قدرا أمران أحدهما الخدمة بالمال واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم الشفقة على خلق الله والاشارة بقوله تعالى هنا والمنفقين وثانيهما الخدمة بالنفس واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم التعظيم لامر الله والاشارة بقوله تعالى هنا والمستغفرين بالاسحار (شهد الله) أى بين للخلق بالدلائل السمعية والآيات العقلية (أنه لا اله) أى لا مستحقا للعبودية موجود (الا هو والملائكة وأولوا العلم) وهم الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة لان الشهادة انما تكون مقبولة اذا كان الاخبار مقرونا بالعلم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا علمت مثل الشمس فاشهد وهذا يدل على أن الدرجة العالية والمرتبة الشريفة ليست الا للعلماء الاصول فشهادة الله تعالى على توحيده هو أنه خلق الدلائل الدالة على توحيده وشهادة الملائكة وأولى العلم هى اقرارهم بتوحيده تعالى

(قائما بالقسط) أى مقيما للعدل فى جميع أموره وهذا بيان لكماله تعالى فى أفعاله بعد بيان كماله فى ذاته (لااله الا هو العزيز الحكيم) فالعزة فى الملك تلائم الوحدانية والحكمة فى الصنع تلائم القيام بالقسط قال الكلبى قدم حبران من أحبار الشام على النبى صلى الله عليه وسلم فقالا له أنت محمد قال نعم قالا له وأنت أحمد قال أنا محمد وأحمد قالا فانا نسألك عن شئ فان أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك فقال لهما سلا قالا أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله عز وجل فأنزل الله تعالى هذه الآية فأسلم الرجلان وفى المدارك من قرأها عند منامه وقال بعدها أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهى عنده وديعة يقول الله يوم القيامة ان لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة (ان الدين عند الله الاسلام) فلا دين مرضيا لله تعالى سوى الاسلام الذى هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة التى عليها الرسل عليهم السلام نزلت هذه الآية لما ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية وادعت النصارى أنه لا دين أفضل من النصرانية فرد الله عليهم ذلك وقال ان الدين عند الله الاسلام وقرأ الكسائى بفتح همزة ان وهو اما بدل من أنه بدل كل من كل ان فسر الاسلام بالتوحيد نفسه أى بالايمان بكونه تعالى واحدا أو بدل كل من بعض ان فسر الاسلام بالشريعة فانها تشتمل على التوحيد والعدل ونحوهما أو معطوف على أنه بحذف حرف العطف أو مبنى على ان شهد واقع على ان الدين اما باجرائه على التعليل والتقدير شهد الله لاجل أنه لا اله الا هو ان الدين الآية أو باجرائه على قراءة ابن عباس وهو بكسره على جعل جملة انه اعتراضا وعلى ايقاع شهد على ان الدين من باب تقديم وتأخير والتقدير شهد الله ان الدين عند الله الاسلام وشهد بذلك الملائكة والنبيون والمؤمنون أو بأجراء شهد مجرى قال مع جعل ان الدين معمولا للحكيم باسقاط الجار أى الحكيم بأن الدين أما جعله بدل اشتمال من أنه فمتنع بذلك التفسير لانه صار البدل أشمل من المبدل منه ولان شرط بدل الاشتمال أن يكون المخاطب منتظرا للبدل عند سماع المبدل منه وهنا ليس كذلك ولا سيما ان هنا فصلا بين البدل والمبدل منه بأجنبى (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) أى اعطوا التوراة والانجيل من اليهود والنصارى فى دين الاسلام وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا نحن أحق بالنبوة من قريش لانهم أميون ونحن أهل الكتاب (الا من بعد ما جاءهم العلم) أى الدلائل التى لو نظروا فيها لحصل لهم العلم (بغيا بينهم) أى لاجل الحسد الكائن بينهم وطلب الرياسة لا لشبهة وخفاء فى الامر (ومن يكفر بآيات الله) الناطقة بأن الدين عند الله هو الاسلام بأن لم يعمل بمقتضاها (فان الله سريع الحساب) أى فان الله يجازيه على كفره عن قريب فانه يأتى حسابه عن قريب (فان حاجوك) أى خاصمك اليهود والنصارى فى ان الدين عند الله الاسلام بعد قيام الحجة عليهم (فقل أسلمت وجهى) أى أخلصت نفسى أو عملى (لله) لا أشرك به فى ذلك غيره (ومن اتبعن) عطف على التاء فى أسلمت أى وأسلم من اتبعن أو مفعول معه (وقل للذين أوتوا الكتاب) أى اليهود والنصارى (والاميين) أى الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب (أأسلمتم) أى فهل أسلمتم بعد أن أتاكم من البينات ما يوجب الاسلام أم أنتم على الكفر روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا أسلمنا فقال صلى الله عليه وسلم لليهود أتشهدون ان عيسى كلمة الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله وقال صلى الله عليه وسلم للنصارى أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله فقالوا معاذ الله أن يكون عيسى عبدا (فان أسلموا) كما أسلمتم (فقد اهتدوا) للفوز والنجاة فى الآخرة (وان تولوا) عن الاسلام والاتباع لدينك لم يضروك

شيأ (فانما عليك البلاغ) أى ابلاغ الادلة واظهار الحجة فاذا بلغت ماجاء بك عن الله فقد أديت ماعليك وليس عليك قبولهم (والله بصير بالعباد) أى عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن فيجازى كلا منهم بعمله (ان الذين يكفرون بآيات الله) أى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم (ويقتلون النبيين بغير حق) أى بلاجرم (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) أى فاعلمهم بعذاب وجيع خالص وجعه الى قلوبهم روى عن أبى عبيدة بن الجراح انه قال قلت يارسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر ثم قرأ هذه الآية ثم قال يا أبا عبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عباد بنى اسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار فى ذلك اليوم قال الحسن هذه الآية تدل على ان القائم بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر عند الخوف تلى منزلته فى العظم منزلة الانبياء وروى أن رجلا قام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أى الجهاد أفضل فقال صلى الله عليه وسلم أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر (أولئك) المتصفون بالصفات القبيحة (الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) أى بطلت محاسن أعمالهم فى الدارين أما بطلانها فى الدنيا فابدال المدح بالذم والثناء باللعن وبما ينزل بهم من القتل والسبى وأخذ المال منهم غنيمة والاسترقاق لهم الى غير ذلك من الذل الظاهر فيهم وأما بطلانها فى الآخرة فبازالة الثواب الى العقاب (ومالهم من ناصرين) من عذاب الله فى احدى الدارين (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) أى حظا من علم التوراة وهم العلماء منهم النعمان بن عمرو والحرث بن زيد كما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس (يدعون الى كتاب الله) أى التوراة (ليحكم) أى كتاب الله (بينهم) وقرئ ليحكم على البناء للمفعول (ثم يتولى فريق منهم) أى يعرض طائفة منهم بنو قريظة والنضير من أهل خيبر عن الحكم (وهم معرضون) أى مكذبون بذلك روى عن ابن عباس ان رجلا وامرأة من اليهود زنيا فى خيبر وكانا ذوى شرف وكان فى كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم فرجعوا فى أمرهما الى النبى صلى الله عليه وسلم رجاء أن يكون عنده رخصة فى ترك الرجم فحكم عليهما بالرجم فقال له النعمان بن أوفى وعدى بن عمرو جرت علينا يا محمد ليس عليهما الرجم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبينكم التوراة فان فيها الرجم فمن أعلمكم بالتوراة قالوا عبد الله بن صور يا الفدكى فأتوا به وأحضروا التوراة فقال له اقرأ فلما أتى على آية الرجم وضع كفه عليها وقرأ ما بعدها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن سلام قد جاوز موضعها يارسول الله فرفع كفه عنها ثم قرأ على رسول الله وعلى اليهود ان المحصن والمحصنة اذا زنيا وقامت عليهما البينة رجما وان كانت حبلى تتربص حتى تضع مافى بطنها فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باليهوديين فرجما فغضبت اليهود لذلك غضبا شديدا وانصرفوا فأنزل الله تعالى هذه الآية (ذلك) أى التولى والاعراض (بأنهم قالوا لن تمسنا النار) أى لن تصيبنا فى الآخرة (الا أياما معدودات) أى سبعة أيام (وغرهم فى دينهم) أى فى ثباتهم على دينهم اليهودية (ما كانوا يفترون) من قولهم ذلك وما أشبهه (فكيف) صنعهم (اذا جمعناهم ليوم لاريب فيه) أى فى يوم لاشك فى مجيئه (ووفيت كل نفس) برة وفاجرة (ما كسبت) أى جزاء ما عملت من ثواب أو عقاب (وهم لا يظلمون) فلا ينقص احد من ثواب الطاعات ولا يزاد على عقاب السيآت (قل اللهم مالك الملك) روى أن النبى صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم فقال

المنافقون منهم عبد الله بن أبي بن سلول واليهود هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم أولم يكف
محمدا مكة والمدينة حتى يطمع في ملك فارس والروم فنزلت هذه الآية وروى انه صلى الله عليه وسلم لما خط
الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرون خرج من بطن الخندق صخرة
كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان الى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره فذهب اليه فجاء
رسول الله وأخذ المعول من سلمان فلما ضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها أى المدينة
كأنه مصباح في جوف ليل مظلم فكبر وكبر المسلمون وقال صلى الله عليه وسلم أضاءت لى منها قصور الحيرة
كأنها أنياب الكلاب ثم ضرب الثانية فقال أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ثم ضرب الثالثة
فقال أضاءت لى منها قصور صنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة على كلها فابشروا فقال المنافقون
ألا تعجبون من نبيكم يعدكم الباطل ويخبركم انه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وانها تفتح
لكم وأنتم انما تحفرون الخندق من الخوف فنزلت هذه الآية وروى انها نزلت في شأن قريش لقولهم
لرسول الله صلى الله عليه وسلم كسرى ينام على فرش الديباج فان كنت نبيا فأين ملكك (تؤتى الملك)
أى تعطى الملك في الدنيا (من تشاء) من خلقك (وتنزع الملك ممن تشاء) منهم اما بالموت وازالة العقل
أو ازالة القوى والحواس أو بورود التلف على الاموال أو بسلب الملك (وتعز من تشاء) بالايمان والحق
وبالاموال الكثيرة من الناطق والصامت وبالقاء الهيبة في قلوب الخلق (وتذل من تشاء) بالكفر
والباطل (بيدك الخير) أى بقدرتك العز والذل والغنيمة والنصرة (انك على كل شئ) من ذلك (قدير
تولج الليل) أى تدخل بعض الليل (في النهار) فيكون النهار أطول من الليل (وتولج النهار في الليل)
أى تدخل بعض النهار في الليل فيكون الليل أطول من النهار (وتخرج الحى من الميت) أى تخرج
النسمة من النطفة والدجاجة من البيضة والسنبلة من الحبة والطيب من الخبيث كالتوبة من الذنب
والمؤمن من الكافر كسيدنا عكرمة من أبي جهل فالمسلم حى الفؤاد والكافر ميت الفؤاد (وتخرج الميت من
الحى) أى تخرج النطفة من الانسان والبيضة من الطير والحب اليابس من النبات الحى والخبيث من
الطيب كالعجب من العبادة والكافر من المؤمن ككنعان من سيدنا نوح عليه السلام (وترزق من تشاء
بغير حساب) أى بلا تكلف ولا تضييق قال أبو العباس المقرى ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة
أوجه بمعنى التعب قال تعالى وترزق من تشاء بغير حساب وبمعنى العدد قال تعالى انما يوفى الصابرون
أجرهم بغير حساب وبمعنى المطالبة قال تعالى فامنن أو أمسك بغير حساب (لا يتخذ المؤمنون
الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى لا يوال المؤمنون الكافرين لا استقلالا ولا اشتراكا مع المؤمنين
وانما الجائز لهم قصر الموالاة والمحبة على المؤمنين بأن يوالى بعضهم بعضا فقط واعلم أن كون المؤمن مواليا
للكافر يحتمل ثلاثة أوجه أحدها أن يكون راضيا بكفره ويتولاه لاجله وهذا ممنوع لان الرضا بالكفر كفر
وثانيها المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر وذلك غير ممنوع * وثالثها الركون الى الكفار والمعونة
والنصرة اما بسبب القرابة أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل فهذا لا يوجب الكفر الا انه منهى عنه
لان الموالاة بهذا المعنى قد تجره الى استحسان طريقته والرضا بدينه وذلك يخرجه عن الاسلام فهذا هو الذى
هدد الله فيه بقوله (ومن يفعل ذلك) أى الموالاة مع الكافرين بالاستقلال أو بالاشتراك مع المؤمنين
(فليس) أى الموالى (من الله في شئ) أى ليس من ولاية الله في شئ يطلق عليه اسم الولاية (الا أن تتقوا
منهم تقاة) أى لا تتخذوا الكافرين أولياء ظاهرا أو باطنا في حال من الاحوال الا حال اتقائكم من جهتهم

اتقياء والمعنى ان الله نهى المؤمنين عن مداهنة الكفار الا أن يكون الكفار غالبين أو يكون المؤمن فى قوم كفار فيداهنهم بلسانه مطمئنا قلبه بالايمان دفعا عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما أو غير ذلك من المحرمات ومن غير أن يظهر الكفار على عورة المسلمين والتقية لا تكون الا مع خوف القتل مع صحة النية روى عن الحسن أنه قال التقية جائزة للمؤمنين الى يوم القيامة لان دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الامكان قال الحسن أخذ مسيلمة الكذاب رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لاحدهما أتشهد أن محمدا رسول الله قال نعم نعم نعم فقال أفتشهد أنى رسول الله قال نعم فتركه ودعا الآخر فقال أتشهد أن محمدا رسول الله قال نعم قال أفتشهد أنى رسول الله فقال انى أصم ثلاثا فقدمه وقتله فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيئا له واما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه (ويحذركم الله نفسه) أى ذاته المقدسة فى التقية عن دم الحرام وفرج الحرام ومال الحرام وشرب الخمر وشهادة الزور والشرك بالله (والى الله المصير) أى المرجع فاحذروه ولا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه والمعنى ان الله يحذركم عقابه عند مصيركم الى الله (قل ان تخفوا ما فى صدوركم) أى ما فى قلوبكم من البغض والعداوة لمحمد صلى الله عليه وسلم (أو تبدوه) أى تظهروه بالشتم له والطعن والحرب (يعلمه الله) أى يحفظه الله عليكم فيجازيكم به (ويعلم ما فى السموات وما فى الارض) من الخير والشر والسر والعلانية (والله على كل شئ) من أهل السموات والارض وثوابهم وعقابهم (قدير) نزلت هذه الآية فى حق المنافقين واليهود (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) أى مكتوبا فى ديوانها (وما عملت من سوء) أى من قبيح تجده مكتوبا فى ديوانها (تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) أى والذى عملته نفس من سوء تتمنى تباعد ما بين النفس وبين السوء مكانا بعيدا كما بين المشرق والمغرب لو أن بينها وبينه أجلا طويلا من مطلع الشمس الى مغربها لفرحت بذلك (ويحذركم الله نفسه) عند المعصية ذكر الله تعالى هذا أولا للمنع من موالاة الكافرين وثانيا للحث على عمل الخير والمنع من عمل الشر (والله رؤف بالعباد) أى المؤمنين أى كما هو منتقم من الفساق فهو رؤف بالمطيعين والمحسنين (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى) أى فاتبعوا دينى فانكم اذا اتبعتم دينى فقد أطعتم الله فالله تعالى يحب كل من أطاعه (يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) أى ان اتبعتم شريعتى يرض الله عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما سلف من ذنوبكم (والله غفور رحيم) لمن يتحبب اليه بطاعته نزلت هذه الآية فى حق اليهود لقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه وقال الضحاك عن ابن عباس وقف النبى صلى الله عليه وسلم على قريش وهم فى المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا فى آذانها الشنوف وهم يسجدون لها فقال يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم ابراهيم واسمعيل فقالت قريش انما نعبدها حبا لله ليقربونا الى الله زلفى فنزلت هذه الآية وقيل ان نصارى نجران قالوا انما نعظم المسيح حبا لله فنزلت هذه الآية ولما نزلت قال عبد الله بن أبى لاصحابه ان محمدا يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى المسيح وقالت اليهود يريد محمد أن نتخذه ربا حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حنانا فأنزل الله بسبب قولهم قوله تعالى (قل أطيعوا الله والرسول) أى فى جميع الاوامر والنواهى أى انما أوجب الله عليكم متابعتى لا كما تقول النصارى فى عيسى بل لكونى رسولا من عند الله (فان تولوا) أى أعرضوا عن طاعتهما (فان الله لا يحب الكافرين) أى اليهود والمنافقين الذين ألقوا شبهة فى الدين فلما نزلت هذه الآية قالت اليهود نحن على دين آدم مسلمين

فأنزل الله قوله تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم) اسمعيل واسحق والانبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم (وآل عمران) موسى وهارون وقيل عيسى وأمه حكاه الكرماني ورجحه ابن عساكر والسهيلي (على العالمين) أي على أهل زمان كل واحد منهم بالاسلام وبالخصال الحميدة (ذرية بعضها من بعض) أي اصطفى الآلين حال كونهم ذرية متسلسلة متشعبة البعض من البعض في النسب (والله سميع) لاقوال العباد (عليم) بضمائرهم وأفعالهم وانما يصطفى من خلقه من يعلم استقامته قولا وفعلا ويقال والله سميع لمقالة اليهود نحن من ولد ابراهيم ومن آل عمران فنحن أبناء الله وأحباؤه وعلى دينه ولمقالة النصارى المسيح ابن الله عليم بعقوبتهم واذكر يا محمد (اذ قالت امرأت عمران) حنة بنت فاقوذا أم مريم حين شاخت وكانت يوما في ظل شجرة فرأت طائرا يطعم فرخانه فتحركت نفسها للولد فدعت ربها أن يهب لها ولدا فحملت بمريم ومات عمران فلما عرفت بالحمل قالت يا (رب اني نذرت) أن أجعل (لك ما في بطني محررا) أي عتيقا من أمر الدنيا لطاعة الله ومخلصا للعبادة وخادما لمن يدرس الكتاب ويعلم في مسجد بيت المقدس (فتقبل مني) أي خذ مني ما نذرته على وجه الرضا (انك أنت السميع) لتضرعي ودعائي وندائي (العليم) بما في ضميري وقلبي ونيتي (فلما وضعتها) أي ولدت المنذورة التي في بطنها (قالت رب اني وضعتها) أي ما في بطني (أنثى والله أعلم بما وضعت) قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وضعت بضم التاء على حكاية كلامها وانما قالت ذلك للاعتذار ولازالة الشبهة التي في قولها اني وضعتها أنثى فانها خافت ان يظن بذلك القول أنها تخبر الله تعالى وقرأ الباقون بسكون التاء أي انه تعالى قال والله أعلم بما وضعت تعظيما لولدها وتجهيلا لها بقدر ذلك الولد والمعنى والله أعلم بأن الذي ولدته وان كان أنثى أحسن وأفضل من الذكر وهي غافلة عن ذلك فلذلك تحسرت وقرأ ابن عباس والله أعلم بما وضعت على خطاب الله لها أي انك لا تعلمين قدر هذا الموهوب والله هو العالم بما فيه من العجائب والآيات ثم قال تعالى حكاية عن قولها (وليس الذكر كالانثى) أي وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالانثى التي هي موهوبة لله وهذا الكلام يدل على ان حنة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه ويحتمل أن هذه الجملة محض كلامه تعالى والمعنى ليس الذكر الذي طلبته كالانثى التي ولدتها بل هي خير منه وان لم تصلح للسدانة فان فيها سرا يا آخر لا يوجد في الذكر (واني سميتها) أي هذه البنت (مريم) أرادت حنة بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالى أن يعصمها من آفات الدين والدنيا فان مريم في لغتهم العابدة في لغة العرب (واني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أي واني ألجئ مريم وذريتها الى رحمتك وعصمتك وألصق نفسها وأولادها بفضلك ورحمتك من الشيطان اللعين (فتقبلها ربها بقبول حسن) بأن اختص الله تعالى مريم باقامتها مقام الذكر في النذر ولم تقبل أنثى قبلها أو بأن أخذها الله من أمها عقب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة روي أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها الى المسجد ووضعتها عند الاحبار أبناء هرون وقالت خذوا هذه النذيرة فتنافسوا فيها لانها كانت بنت امامهم الاعظم في العلم والصلاح فقال زكريا أنا احق بها لان خالتها عندي فقالت الاحبار لا تقل ذلك فانها لو تركت لاحق الناس بها لتركت لامها التي ولدتها ولكنا نقترع عليها فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين الى نهر جار في حلب يقال له قرمق فألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون التوراة بها على أن كل من ارتفع قلمه فهو الراجح وعلى كل قلم اسم صاحبه ثم ألقوا أقلامهم ثلاث مرات ففي كل مرة

يرتفع قلم زكريا فوق الماء ورسب أقلامهم فأخذها زكريا (وأنبتها نباتا حسنا) أى رباها الله بما يصلحها فى جميع أحوالها وغذاها بالسنين والشهور والايام غذاء حسنا (وكفلها زكريا) أى جعله الله مربيا لها وضامنا لمصالحها وقائما بتدبير أمورها ولما أخذها بنى لها غرفة فى المسجد وجعل بابها فى وسطه لا يرقى اليه الا بالسلم ولا يصعد اليها غيره وكان اذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب وكان يأتيها بأكلها وشربها ودهنها (كلما دخل عليها زكريا) وهو من ذرية سليمان بن داود (المحراب) أى الغرفة (وجد عندها رزقا) أى فاكهة الشتاء فى الصيف مثل القصب وفاكهة الصيف فى الشتاء مثل العنب ولم ترضع ثديا قط بل يأتيها رزقها من الجنة (قال يامريم أنى لك هذا) أى من أين لك هذا الرزق الآتى فى غير حينه الذى لا يشبه أرزاق الدنيا والابواب مغلقة عليك (قالت هو من عند الله) أتانى به جبريل من الجنة فتكلمت وهى صغيرة فى المهد كما تكلم ولدها عيسى عليه السلام وهو صغير فى المهد (ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) أى بغير تقدير لكثرة الرزق أو من غير مسئلة فى حينه وفى غير حينه (هنالك) أى فى ذلك المكان الذى كان قاعدا فيه عند مريم وشاهد تلك الكرامات أو فى ذلك الوقت الذى رأى فيه خوارق العادات عندها (دعا زكريا ربه قال) فى مناجاته فى جوف الليل (رب هب لى من لدنك ذرية طيبة) أى رب اعطنى من محض قدرتك من غير وسط معتاد ولدا مباركا تقيا صالحا رضيا كهبتك لحنة العجوز العاقر مريم (انك سميع الدعاء) أى مجيب الدعاء (فنادته الملائكة) أى جبريل كما أخرجه ابن جرير عن السدى (وهو قائم يصلى فى المحراب) أى فى الموضع العالى الشريف فى المسجد (أن الله يبشرك) بولد يسمى (بيحيى) قرأ ابن عامر وحمزة ان بكسر الهمزة والباقون بالفتح (مصدقا بكلمة من الله) أى بعيسى بن مريم بمعنى كونه كلمة من الله كونه مخلوقا بلا أب قال ابن عباس ان يحيى كان أكبر سنا من عيسى بستة أشهر وكان يحيى أول من آمن وصدق بانه كلمة الله ثم قتل يحيى قبل رفع عيسى بمدة يسيرة (وسيدا) أى رئيسا للمؤمنين فى العلم والحلم والعبادة والورع قال ابن عباس أى حليما عن الجهل وقال مجاهد أى كريما على الله (وحصورا) أى مانعا من النساء للعفة والزهد لا للعجز (ونبيا من الصالحين) أى من المرسلين (قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر) أى قال زكريا لجبريل يا سيدى من أين يكون لى ولد وقد أدركنى كبر السن (وامرأتى عاقر) أى عقيم لا تلد قال ابن عباس كان زكريا يوم بشر بالولد ابن مائة وعشرين سنة وكانت امرأته ايشاع بنت فاقوذ بنت تسعين وثمان (قال) اى جبريل (كذلك) أى الامر كما قلت لك من خلق ولد منكما أنتما على حال كما من الكبر (الله يفعل ما يشاء) من الافاعيل الخارقة للعادة (قال) أى زكريا (رب اجعل لى آية) أى علامة فى حبل امرأتى (قال) أى الله تعالى (آيتك) اى علامتك فى حبل امرأتك (أن لا تكلم الناس) أى أن لا تقدر على تكليمهم من غير خرس (ثلاثة أيام) متوالية بلياليها (الا رمزا) أى الا تحريكا بالشفتين والحاجبين والعينين واليدين (واذكر ربك) باللسان والقلب فى مدة الحبسة عن كلام الدنيا مع الخلق شكر الله تعالى على هذه النعمة (كثيرا) أى ذكرا كثيرا على كل حال (وسبح بالعشى والابكار) أى صل عشيا وغدوة كما كنت تصلى (و) اذكر (اذ قالت الملائكة) أى وجبريل لمريم مشافهة (يامريم ان الله اصطفاك) بتفرغك لعبادته وتخصيصك بأنواع اللطف والهداية والعصمة والكفاية فى أمر المعيشة وسماع كلام جبريل شفاها (وطهرك) من المعصية ومسيس الرجال ومن الافعال الذميمة ومن مقالة اليهود وتهمتهم ويقال أنجاك من القتل (واصطفاك على نساء العالمين)

بولادة عيسى من غير أب ونطقه حال انفصاله من مريم حتى شهد ببراءتها عن التهمة روى انه صلى الله عليه وسلم قال حسبك من نساء العالمين أربع مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة عليهن السلام (يامريم اقنتي لربك) أي دومي على طاعته بأنواع الطاعات شكرا لذلك ويقال اطيلي القيام في الصلاة شكرا لربك (واسجدي) أي صلي منفردة (واركعي مع الراكعين) أي صلي مع أهل الصلاة في بيت المقدس فان اقتداء النساء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل من الاقتداء بالنساء قال المفسرون لما ذكرت الملائكة هذه الكلمات على مريم شفاها قامت مريم في الصلاة حتى ورمت قدماها وسال الدم والقيح من قدميها (ذلك) الذي مضى ذكره من حديث حنة ومريم وزكريا (من أنباء الغيب) أي من اخبار الغائب عنك يا محمد (نوحيه اليك) اي نرسل جبريل بالقاء الغائب اليك (وما كنت لديهم) اى عند الذين تنازعوا في تربية مريم (اذ يلقون أقلامهم) التي كانوا يكتبون بها الكتب في جرى الماء ليعلموا (أيهم يكفل مريم) أي اى أحدهم يربي مريم وكان القراع على أن كل من جرى قلمه على عكس جرى الماء فالحق معه (وما كنت لديهم اذ يختصمون) أي وما كنت هنالك اذ يتقارعون على تربية مريم واذ يختصمون بسببها (اذ قالت الملائكة) أي جبريل (يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه) أي بولد يكون مخلوقا بكلمة من الله أي من غير واسطة الاسباب العادية فان غير عيسى من كل علوق وان وجد بكلمة كن لكنه بواسطة أب (اسمه) أي الولد (المسيح) سمى بالمسيح لانه يسيح في البلدا ولانه ماسح بيده ذا عاهة الابرء من مرضه (عيسى بن مريم) وانما نسبه الله تعالى الى الام اعلاما لها بأنه محدث بغير الاب فكان ذلك سببا لزيادة فضله وعلو درجته (وجيها) أي ذا جاه وشرف (في الدنيا) بالنبوة وباحياء الموتى وبابراء الاكمه والابرص بسبب دعائه (والآخرة) بجعله شفيع أمته وبقبول شفاعته فيهم وبعلو درجته عند الله تعالى (ومن المقربين) الى الله في جنة عدن وهذا الوصف كالتنبيه على ان عيسى سيرفع الى السماء وتصاحبه الملائكة (ويكلم الناس في المهد) أي في حجر أمه وهو ابن أربعين يوما بقوله اني عبد الله (وكهلا) أي بعد ثلاثين سنة أي ان عيسى يكلم الناس مرة واحدة في حجر أمه لاظهار طهارة أمه من الفاحشة ثم عند الكهولة يتكلم بالنبوة (ومن الصالحين) أي من المرسلين (قالت رب أنى يكون لي ولد) أي قالت مريم لجبريل ياسيدي من أين يكون لي ولد (ولم يمسسني بشر) بالحلال ولا بالحرام لان المحررة لا تتزوج أبدا كالذكر المحرر (قال) أي جبريل (كذلك) أي الامر كما قلت لك من خلق ولد منك بلا أب (الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا) أي اذا أراد خلق شيء (فانما يقول له كن) لاغير (فيكون) من غير ريث فنفخ جبريل في جيب درعها فوصل نفسه الى فرجها فدخل رحمها فحملت منه (ويعلمه الكتاب) قرأ نافع وعاصم يعلمه بالياء معطوف على الحال وهي قوله وجيها فكأن جبريل قال وجيها ومعلما أو على يبشرك والباقون ونعلمه بالنون معمول لقول محذوف من كلام الملك تقديره وجيها ومقولا فيه نعلمه أو ان الله يبشرك بعيسى ويقول نعلمه كتب الانبياء والكتابة أي الخط (والحكمة) أي العلم المقترن بالعمل وتهذيب الاخلاق (والتوراة والانجيل) وخصا بالذكر لفضلهما (و) نبعثه (رسولا الى بني اسرائيل) أي كلهم وقيل هو معطوف على الاحوال السابقة كأنه قيل حال كونه وجيها ورسولا وقرئ ورسول بالجر عطفا على كلمة والمعتمد عند الجمهور ان عيسى انما نبئ على رأس الاربعين وأنه عاش في الارض قبل رفعه مائة وعشرين سنة وهو آخر أنبياء بني اسرائيل كما ان أولهم يوسف بن يعقوب (أني قد جئتكم) بفتح الهمزة مجرور بالباء المقدرة التي للملابسة

المتعلقة بمحذوف حال من رسول المقدر لما فيه من معنى النطق والتقدير فلما جاءهم قال لهم انى رسول الله فيكم ملتبسا بانى قد جئتكم (بآية) أى بعلامة على صدقى فى الرسالة (من ربكم) قالوا وما هى قال هى (أنى أخلق) أى أصور (لكم من الطين كهيئة الطير) أى شيأ مثل صورة الطير (فأنفخ فيه) أى فى فم ذلك المماثل لهيئة الطير (فيكون) أى فيصير (طيرا) حيا يطير بين السماء والارض (باذن الله) أى بأمره تعالى فطلبوه بخلق الخفاش لانه أكمل الطير خلقا وأبلغ دلالة على القدرة لان له نابا واسنانا ويضحك كما يضحك الانسان ويطير بغير ريش ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وانما يرى فى ساعتين ساعة بعد المغرب وساعة بعد طلوع الفجر والانثى منه لها ثدى وتحيض وتطهر وتلد فلما صور لهم خفاشا فقالوا هذا سحر فهل عندك غيره قال نعم (وأبرئ الاكمه) بالدعاء أى وأصحح الذى ولد أعمى أو الممسوح العينين (والابرص) وهو الذى فى جلده بياض شديد فلما فعل ذلك قالوا هذا سحر فهل عندك غيره قال نعم (واحيى الموتى باذن الله) أى بالاسم الاعظم وهو ياحى ياقيوم فأحيا أربعة أنفس أحيا عازرا بعد موته بثلاثة أيام حتى عاش وولد له وأحيا ابن العجوز وهو ميت محمول على السرير فنزل عن سريره حيا ورجع الى أهله وعاش وولد له وأحيا بنت العاشر أى الذى يأخذ العشور من الناس بعد يوم من موتها فعاشت وولد لها فقالوا لعيسى انك تحيي من كان قريب العهد من الموت فلعلهم لم يموتوا حقيقة بل أصابهم سكتة فأحيا الناسام بن نوح وهو قد مضى من موته أكثر من أربعة آلاف سنة فقام على قبره فدعا الله باسمه الاعظم فقام من قبره وقال للقوم صدقوه فانه نبى الله ومات فى الحال فآمن به بعضهم وكذبه آخرون فقالوا هذا سحر فهل عندك غيره قال نعم (وأنبئكم بما تأكلون) غدوة وعشية (وما تدخرون) أى ترفعون من غداء لعشاء ومن عشاء لغداء (فى بيوتكم) مما لم أعاينه (ان فى ذلك) أى فى ما قلت لكم من هذه الخمسة (لآية) أى لمعجزة قوية دالة على صحة رسالتى دلالة واضحة (لكم ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين انتفعتم بها (ومصدقا لما بين يدى) أى لما قبلى (من التوراة) وبين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة وخمس وسبعون سنة ومصدقا معطوف على رسولا وجئتكم (ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم) فى شريعة موسى عليه السلام من الشحوم والثروب للبقر والغنم ولحوم الابل ومما لا صيصية له من السمك والطير ومن العمل فى يوم السبت وهذا لا يقدح فى كونه مصدقا للتوراة لان النسخ تخصيص فى الازمان (وجئتكم بآية من ربكم) شاهدة على صحة رسالتى وقرئ بآيات (فاتقوا الله) فى عدم قبولها (وأطيعون) فيما آمركم به وأنهاكم عنه عن الله تعالى (ان الله ربى وربكم) وانما أظهر سيدنا عيسى الخضوع وأقر بالعبودية لكيلا يتقولوا عليه الباطل فيقولوا انه اله وابن اله لان أقراره بالعبودية لله يمنع مما تدعيه جهال النصارى عليه (فاعبدوه) أى لازموا طاعته التى هى الاتيان بالاوامر والانتهاء عن المناهى أى لما كان الله تعالى رب الخلائق باسرهم وجب على الكل ان يعبدوه وقوله تعالى ان الله ربى وربكم اشارة الى ان استكمال القوة النظرية بالتوحيد وقوله فاعبدوه اشارة الى أن استكمال القوة العملية بالطاعة (هذا) أى الجمع بين التوحيد والعبادة (صراط مستقيم) أى دين قائم برضاه الله تعالى وهو الاسلام ونظير ذلك قوله صلى الله عليه وسلم قل آمنت بالله ثم استقم لرجل قال يارسول الله مرنى بأمر فى الاسلام لا أسأل عنه أحدا بعدك (فلما أحس عيسى منهم الكفر) أى فلما سمع عيسى باذنه من بنى اسرائيل تكرار الكفر وطلبوا قتله لانهم كانوا عارفين بأنه هو المسيح المبشر به فى التوراة وانه ينسخ دينهم (قال) لاصفياء أصحابه (من أنصارى

الى الله) أى من أنصارى حال التجائى الى الله و يقال من أعوانى مع الله على أعدائه (قال الحواريون) أى القصارون أى الذين يبيضون الثياب (نحن أنصار الله) أى نحن أعوانك مع الله على أعدائه قيل كانوا تسعة وعشرين معى منهم قطرس ويعقوب ولحيس وايدارانيس وقيلس وابن تلماو متنا وبوقاس ويعقوب بن حليفا وبداوسيس وقياسا وبودس وكدمابوطا وسرجس وهو الذى ألقى عليه شبهه أخرج ذلك ابن جرير عن ابن اسحق وقيل كان الحواريون اثنى عشر رجلا آمنوا بعيسى عليه السلام واتبعوه وكانوا اذا جاعوا قالوا جعنا يا روح الله فيضرب بيده الارض فيخرج منها لكل واحد رغيفان واذا عطشوا قالوا عطشنا فيضرب بيده الارض فيخرج منها الماء فيشربون فقالوا من أفضل منا قال عليه السلام أفضل منكم من يعمل بيده و يأكل من كسبه فصاروا يغسلون الثياب بالاجرة فسموا حواريين أى ان اليهود لما طلبوا عيسى عليه السلام للقتل وكان هو فى الهرب عنهم قال لاولئك الاثنى عشر من الحواريين أيكم يحب أن يكون رفيقى فى الجنة على أن يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى فأجابه الى ذلك بعضهم (آمنا بالله) فهذا استئناف يجرى مجرى العلة لما قبله والمعنى يجب علينا أن نكون من أنصار الله لاجل اننا آمنا بالله فان الايمان بالله يوجب نصرة دين الله والذب عن أولياء الله والمحاربة مع أعدائه (واشهد) ياسيدنا عيسى (بأنا مسلمون) أى مقرون بالعبادة والتوحيد لله وذلك اقرار منهم بأن دينهم الاسلام وأنه دين كل الانبياء صلوات الله عليهم واشهاد لله أيضا على أنفسهم بذلك فلما أشهدوا عيسى على ايمانهم واسلامهم تضرعوا الى الله تعالى وقالوا (ربنا آمنا بما أنزلت) من الكتاب أى الانجيل (واتبعنا الرسول) أى دين رسول الله عيسى (فاكتبنا مع الشاهدين) أى اكتبنا فى جملة من شهد لك بالتوحيد ولانبيائك بالتصديق وقال ابن عباس فاكتبنا فى زمرة الانبياء لان كل نبى شاهد لقومه أو فاكتبنا مع محمد وأمته لانهم هم المخصوصون بأداء الشهادة (ومكروا) أى أراد اليهود قتل عيسى (ومكر الله) أى أراد الله قتل صاحبهم تطيانوس وقيل مكرهم بعيسى همهم بقتله ومكر الله تعالى بهم رفع عيسى الى السماء وذلك أن يهودا ملك اليهود أراد قتل عيسى عليه السلام وكان جبريل لا يفارقه ساعة فأمره جبريل أن يدخل بيتا فيه روزنة فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل من تلك الروزنة وكان قد ألقى شبهه على غيره فأخذ وصلب (والله خير الماكرين) أى أقوى المريدين و يقال أفضل الصانعين روى عن ابن عباس ان ملك بنى اسرائيل اسمه يهودا لما قصد قتل عيسى أمره جبريل ان يدخل بيتا فيه روزنة فرفعه جبريل من تلك الروزنة الى السماء فقال الملك لرجل خبيث منهم يقال له ططيانوس ادخل عليه فاقتله فدخل البيت فلم يرعيسى فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه فخرج يخبرهم انه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه ثم قالوا وجهه يشبه وجه عيسى و بدنه يشبه بدن صاحبنا فان كان هذا عيسى فأين صاحبنا وان كان هذا صاحبنا فأين عيسى فوقع بينهم قتال عظيم (اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك) أى مستوفى أجلك المسمى وعاصمك من أن يقتلك الكفار (ورافعك الى) من الارض الى محل كرامتى والى محل ثوابك (ومطهرك من الذين كفروا) بك أى منجوك منهم (وجاعل الذين اتبعوك) أى الذين آمنوا بأنك عبد الله ورسوله والذين صدقوا بنبوتك وادعوا محبتك كالنصارى (فوق الذين كفروا) بك وهم اليهود بالحجة والسيف والقهر والسلطان والاستعلاء والنصرة (الى يوم القيامة) فان ملك اليهود قد ذهب فلم تبق لهم قلعة ولا سلطان ولا شوكة فى جميع الارض بل يكونون مقهورين أين ما كانوا بالذلة والمسكنة وملك النصارى باق قائم الى قريب من قيام الساعة فانا نرى أن دولة النصارى فى الدنيا أعظم

وأقوى من أمر اليهود وذكر محمد بن اسحق ان اليهود عذبوا الحواريين بعد رفع عيسى عليه السلام الى السماء فشمسوهم وعذبوهم فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيته ثم بعث الى الحواريين فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه السلام فأخبروه فتابعهم على دينهم وأنزل المصلوب فغيبه وأخذ الخشبة فأكرمها وصانها ثم غزا بني اسرائيل وقتل منهم خلقا عظيما ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم وكان اسم هذا الملك طباريس وهو قد صار نصرانيا الا انه لم يظهر ذلك ثم جاء بعده ملك آخر يقال له ملطيس وغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى عليه السلام بمقدار أربعين سنة ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجرا على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير الى الحجاز فهذا كله مما جازاهم الله تعالى على تكذيب المسيح وقصد قتله (ثم الى مرجعكم) بالموت والخطاب لعيسى ومن آمن معه ومن كفر به (فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) أى تخاصمون فى الدين (فأما الذين كفروا) بالله ورسوله (فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا) بالقتل والسبي والجزية والذلة (والآخرة) بالنار (ومالهم من ناصرين) أى مانعين من عذاب الله فى الدنيا والآخرة (وأما الذين آمنوا) بالله والكتاب وبنبوة عيسى وبنبوة محمد (وعملوا الصالحات) فيما بينهم وبين ربهم (فيوفيهم أجورهم) أى فيوفرهم أجور أعمالهم فى الجنة (والله لا يحب الظالمين) أى لا يريد ايصال الخير الى المشركين وقرأ حفص عن عاصم فيوفيهم بالياء والفاعل راجع الى الله والباقون بالنون (ذلك) أى خبر عيسى (نتلوه عليك) أى ننزل عليك جبريل به (من الآيات) أى من آيات القرآن أومن العلامات الدالة على ثبوت رسالتك (والذكر الحكيم) أى الذى ينطق بالحكمة أو المحكم فان القرآن ممنوع من تطرق الخلل اليه * وروى انه حضر وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له ماشأنك تذكر صاحبنا وتسبه فقال من هو قالوا عيسى قال وما أقول قالوا تقول انه عبد قال أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت انسانا قط من غير أب ومن لا أب له فهو ابن الله ثم خرجوا من عنده صلى الله عليه وسلم فجاءه جبريل فقال قل لهم اذا أتوك (ان مثل عيسى عند الله) أى ان صفة تخلق عيسى فى تقدير الله وحكمه بلا أب (كمثل آدم) أى كصفة قالب آدم (خلقه من تراب) بلا أب وأم (ثم قال له) أى لآدم (كن فيكون) أى نفخ فيه الروح وكذلك عيسى قال له كن من غير أب فكان ولدا بلا أب فاذا كان آدم كذلك ولم يكن ابنا لله فكذلك عيسى فمن لم يقر بأن الله خلق عيسى من غير أب مع اقراره بخلق آدم بغير أب وأم فهو خارج عن طور العقلاء وأيضا اذا جاز أن يخلق الله آدم من التراب فجواز خلق الله تعالى عيسى من دم مريم من باب أولى فان هذا أقرب الى العقل من تولد الحيوان من الدم الذى يجتمع فى رحم الام أقرب من تولده من التراب اليابس (الحق) أى الذى أنزلت عليك من خبر عيسى انه لم يكن الله ولا ولده ولا شريكه هو (من ربك) والباطل من النصارى واليهود فالنصارى قالوا ان مريم ولدت الها واليهود رموا مريم بالافك ونسبوها الى يوسف النجار (فلا تكن من الممترين) أى من الشاكين فيما بينت لك من تخليق عيسى بلا أب والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تحريكا له لزيادة ثباته على اليقين ولكل سامع لينزع عما يورث الامتراء ثم ذكر الله تعالى خصومة وفد بني نجران مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما بين لهم ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم فقالوا ليس كما تقول ان عيسى لم يكن الله ولا ولده ولا شريكه فقال الله تعالى (فمن حاجك) أى خاصمك من نصارى نجران (فيه) أى فى شأن عيسى (من بعد ما جاءك من العلم) أى من الدلائل الموجبة للعلم بأن عيسى عبد الله ورسوله (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا) أى نخرج

بأنفسنا (وأنفسكم) أى اخرجوا بأنفسكم (ثم نبتهل) أى نجتهد فى الدعاء ونخلصه أو نلاعن بيننا وبينكم (فنجعل لعنة الله) فيما بيننا (على الكاذبين) على الله فى حق عيسى وهم من يقولون ان عيسى بن الله أو انه اله * روى انه صلى الله عليه وسلم لما ذكر الدلائل على نصارى نجران ثم انهم أصروا على جهلهم فقال صلى الله عليه وسلم ان الله أمرنى ان لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم فقالوا يا أبا القاسم حتى نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك غدا فلما رجعوا الى قومهم قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم يا عبد المسيح ماترى فقال والله لقد عرفتم يامعشر النصارى ان محمدا نبى مرسل ولقد جاءكم بالكلام الحق فى أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لتهلكن فان أبيتم الا الاقامة على دينكم والاصرار على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خرج من بيته الى المسجد وعليه مرط من شعر أسود محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها رضى الله عنهم أجمعين وهو يقول لهؤلاء الاربعة اذا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران يامعشر النصارى انى لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى ان يزيل جبلا من مكانه لازاله فلا تبتهلوا فتهلكوا ثم قالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وان نثبت على ديننا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فان أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين فأبوا فقال فانى أناجزكم القتال فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على ان لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا على ان نؤدى اليك فى كل عام ألفى حلة ألفا فى صفر وألفا فى رجب وثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح فصالحهم رسول الله على ذلك (ان هذا) الذى ذكرت من الدلائل التى دلت على ان عيسى لم يكن الله ولا ولده ولا شريكه ومن الدعاء الى المباهلة مع وفد بنى نجران (لهو القصص الحق) دون أكاذيب النصارى (ومامن اله الا الله) بلا شريك ولا ولد ولا زوجة (وان الله لهو العزيز) أى الغالب الذى لا يمنع القادر على جميع المقدورات (الحكيم) أى العالم بجميع المعلومات وبجميع عواقب الامور فذكر العزيز الحكيم ههنا اشارة الى الجواب عن النصارى فى الشبهتين لعيسى القدرة على الاحياء ونحوه وأخبار الغيوب (فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين) أى فان أبوا عن قبول الحق وأعرضوا عما وصفت من ان الله هو الواحد وانه يجب أن يكون غالبا قادرا على جميع المقدورات عالما بالنهايات محيطا بالمعلومات مع اعترافهم بأن عيسى لم يكن كذلك ومع قولهم ان اليهود قتلوه فاعلم أن اباءهم واعراضهم ليس الا على سبيل العناد فاقطع كلامك عنهم وفوض أمرهم الى الله فان الله عليم بفساد المفسدين مطلع على ما فى قلوبهم من الاغراض الفاسدة قادر على مجازاتهم (قل يا أهل الكتاب) نزلت هذه الآية فى شأن نصارى بنى نجران كما قاله ابن عباس وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم لما ذكر على نصارى نجران أنواع الدلائل أولا ثم دعاهم الى المباهلة ثانيا فخافوا وقبلوا الصغار بأداء الجزية وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا على ايمانهم فعدل الى رعاية الانصاف وترك المجادلة فكأنه تعالى قال يا محمد اترك ذلك المنهج من الكلام واعدل الى منهج آخر يشهد كل عقل سليم وطبع مستقيم انه كلام مبنى على الانصاف وترك الجدال وقل يا أهل الكتاب أى يامعشر النصارى (تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) أى هلموا الى كلمة فيها انصاف من بعضنا لبعض لا ميل فيها لاحد على صاحبه وقيل نزلت فى حق يهود المدينة وقيل نزلت فى شأن الفريقين وذلك لما قدم وفد نجران المدينة والتقوا مع اليهود واختصموا فى دين ابراهيم فزعمت النصارى انه كان نصرانيا وأنهم

على دينه وأولى الناس به وقالت اليهود بل كان يهوديا ونحن على دينه وأولى الناس به فقال النبي صلى الله عليه وسلم كلا الفريقين بريء من ابراهيم ودينه بل كان ابراهيم حنيفا مسلما وأنا على دينه فاتبعوا دينه الاسلام فقالت اليهود يا محمد ماتريد الا ان نتخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى وقالت النصارى يا محمد ماتريد الا ان نقول فيك ماقالت اليهود في عزير فأنزل الله تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أي يا معشر اليهود والنصارى هلموا الى قصة عادلة مستقيمة بيننا وبينكم لا يختلف فيها الرسل والكتب فاذا آمنا نحن وأنتم بها كنا على السواء والاستقامة ثم فسر الكلمة بقوله (أن لا نعبد الا الله) أي أن نوحده بالعبادة ونخصه بها (ولا نشرك به شيأ) أي ولا نجعل غيره شريكا له في استحقاق العبادة ولا نعتقده أهلا لان يعبد (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) أي لا يطيع أحدنا أحدا من الرؤساء في معصية الله تعالى وفيما أحدثوا من التحريم والتحليل ولا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله لانهما بشران مثلنا (فان تولوا) أي أبوا الا الاصرار على الشرك (فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) أي فأظهر أنت والمؤمنون بأنكم على هذا الدين وقولوا اعترفوا بأنا مقرون بالتوحيد والعبادة لله تعالى دونكم فقد لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا بذلك وبأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام (يا أهل الكتاب) أي يا معشر اليهود والنصارى (لم تحاجون في ابراهيم) أي لم تخاصمون في دين ابراهيم ولم تدعون ان ابراهيم عليه السلام كان منكم (وما أنزلت التوراة) على موسى (والانجيل) على عيسى (الا من بعده) أي من بعد ابراهيم بزمن طويل اذ كان بين ابراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفا سنة وبعد نزول التوراة حدثت اليهودية وبعد نزول الانجيل حدثت النصرانية (أفلا تعقلون) أي أتدعون ان ابراهيم منكم فلا تعقلون بطلان ادعائكم (ها أنتم هؤلاء حاججتم) أي ها أنتم يا هؤلاء اليهود والنصارى خاصمتم (فيما لكم به علم) في كتابكم ان ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا وان محمدا نبي مرسل وهو موجود في كتابكم بنعته فأنكرتم ذلك (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) في كتابكم لانه ليس لدين ابراهيم ذكر في كتابكم أصلا ولم تدعون ان شريعة ابراهيم مخالفة لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم (والله يعلم) كيف كانت حال هذه الشرائع في المخالفة والموافقة (وأنتم لا تعلمون) كيفية تلك الاحوال ثم بين الله تعالى ذلك مفصلا وكذبهم فيما ادعوه من موافقة ابراهيم لهما فقال (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا) أي ليس ابراهيم على دين اليهود ولا على دين النصارى (ولكن كان حنيفا) أي مائلا عن الاديان الباطلة كلها (مسلما) أي على ملة التوحيد لا على ملة الاسلام الحادثة (وما كان من المشركين) وهذا تعريض بكون اليهود والنصارى مشركين بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله ورد على المشركين في ادعائهم انهم على ملة ابراهيم عليه السلام (ان أولى الناس بابراهيم) أي ان أقرب الناس الى دين ابراهيم وأخصهم به (للذين اتبعوه) في زمانه (وهذا النبي) محمد (والذين آمنوا) بمحمد فهم الذين يليق أن يقولوا نحن على دينه لان غالب شرع محمد موافق لشرع ابراهيم أي ان حق الناس بدين ابراهيم فريقان أحدهما من اتبعه من أمته وثانيهما النبي وسائر المؤمنين من أصحابه صلى الله عليه وسلم (والله ولي المؤمنين) أي ناصرهم وحافظهم ومكرمهم ثم ذكر دعوة كعب بن الاشرف وأصحابه لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ وحذيفة وعمار بعد يوم أحد الى دينهم اليهودية عن دين الاسلام فقال (ودت طائفة) أي تمنت (من أهل الكتاب لو يضلونكم) أي ان يضلونكم عن دينكم الاسلام (وما يضلون) عن دين الله (الا أنفسهم) لان

المؤمنين لا يقبلون قولهم فيحصل عليهم الاثم بتمنيهم اضلال المؤمنين وهم صاروا خائبين حيث اعتقدوا شيأ ولاح لهم أن الامر بخلاف ماتصوروه (ومايشعرون) ا هذا نصرهم لان العذاب يضاعف لهم بسبب ضلالهم وتمنى اضلال المسلمين (يا أهل الكتاب لما تكفرون بآيات الله) وهى الواردة فى التوراة والانجيل من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والاخبار بأن الدين هو الاسلام و بأن ابراهيم كان حنيفا مسلما (وأنتم تشهدون) صحتها اذا خلا بعضكم مع بعض وتنكرون اشتمال التوراة والانجيل على الآيات الدالة على نبوة محمد عند حضور عوامكم وعند حضور المسلمين أو المعنى لم تكفرون بالقرآن فانكم تنكرون عند العوام كونه معجزا وأنتم تشهدون بقلوبكم وعقولكم كونه معجزا (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) أى لما تخلطون المنزل من التوراة بالمحرف من عندكم كما نقل عن الحسن وابن زين أو لم تشككون للناس باظهار الاسلام بالتواضع أول النهار ثم الرجوع عنه فى آخر النهار كما نقل عن ابن عباس وقتادة وقرئ تلبسون بتشديد الباء وقرأ يحيى بن وثاب يلبسون بفتح الياء أى تكتسون الحق مع الباطل (وتكتمون الحق) أى الآيات الموجودة فى التوراة الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تعلمون) انكم انما تفعلون ذلك عنادا وحسدا وتعلمون أن عقاب من يفعل مثل هذه الافعال عظيم أى أنتم أرباب العلم والمعرفة (وقالت طائفة من أهل الكتاب) هم اثنا عشر حبرا من أحبار يهود خيبر لسفلتهم منهم عبد الله بن الصيف وعدى بن زيد والحرث وكعب وأصحابه من الرؤسا (آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا) بمحمد أى آمنوا ببعض القرآن أى بالقبلة التى صلى اليها محمد وأصحابه (وجه النهار) اى أوله وهو صلاة الفجر (واكفروا) بالقبلة الاخرى التى صلوا اليها (آخره) صلاة الظهر فانه صلى الله عليه وسلم كان يصلى الى بيت المقدس بعد ان قدم المدينة ففرح اليهود بذلك وطمعوا أن يكون منهم فلما حوله الله تعالى الى الكعبة عند صلاة الظهر شق ذلك على اليهود فقال كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف لاصحابهما آمنوا بالذى أنزل على محمد فى شأن القبلة وصلوا اليها أول النهار ثم ارجعوا الى قبلتكم وصلوا الى الصخرة آخر النهار (لعلهم) أى أصحابه العوام (يرجعون) عن دينه وقبلته (ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم) أى ولا تأتوا بذلك الايمان الا لاجل من تبع دينكم فان مقصود كل واحد حفظ أتباعه على متابعته أى غرضهم بالاتيان بذلك التلبيس ابقاء أتباعهم على دينهم أو المعنى لا تصدقوا بالنبوة الا من وافق دينكم اليهودية وقبلتكم بيت المقدس فأما من جاء بتغيير شئ من أحكام التوراة فلا تصدقوه (قل ان الهدى هدى الله) أى ان الدين دين الله وهو الاسلام والقبلة قبلة الله هى الكعبة (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم) وهذا من جملة كلام الله تعالى فلا تنكروا يا معشر اليهود أن يعطى أحد سواكم من الدين والقبلة مثل ما أعطيتموه أو ان يحاجج المسلمون اياكم بذلك عند ربكم ان لم تقبلوا ذلك منهم وقرأ ابن كثير أأن يؤتى بهمزتين مع قصر الاولى و تسهيل الثانية على الاستفهام الذى للانكار والتوبيخ والمعنى آمن أجل أن يؤتى أحد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع ينكرون اتباعه وهذا الوجه مروى عن مجاهد وعيسى بن عمر وغاية ما فى هذا الباب انه يفتقر فى هذا التأويل الى اضمار مادة الانكار لان عليه دليلا وهو قوله تعالى ان الهدى هدى الله فانه لما كان الهدى هدى الله كان له تعالى أن يؤتيه من يشاء من عباده ومتى كان الامر كذلك لزم ترك الانكار (قل ان الفضل) بالرسالة والنبوة والاسلام وقبلة ابراهيم (بيد الله) فانه مالك له (يؤتيه من يشاء) أى يعطيه محمدا وأصحابه والله تعالى حكى عن اليهود أمرين أحدهما انهم آمنوا وجه النهار وكفروا آخره ليصير ذلك

شبهة للمسلمين في صحة الاسلام فأجاب الله عن ذلك بقوله قل ان الهدى هدى الله أي ان مع كمال هداية الله وقوة بيانه لا يكون لهذه الشبهة الركيكة قوة ولا أثر وثانيهما انهم استنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا من الكتاب والحكم والنبوة ثم أجاب الله عن ذلك بقوله قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء (والله واسع) أي كامل القدرة فيقدر أن يتفضل على أي عبد شاء بأي تفضل شاء (عليم) أي كامل العلم فلا يكون شيء من أفعاله الا على وجه الحكمة والصواب (يختص برحمته) التي بلغت في الشرف وعلو المرتبة الى أن تكون أعلى وأجل من أن تقاس من النبوة والرسالة والدين (من يشاء) محمدا وأصحابه (والله ذو الفضل العظيم) فلا نهاية لمراتب اعزاز الله واكرامه لعباده (ومن أهل الكتاب) أي اليهود (من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك) بغير تعب كعبد الله بن سلام وأصحابه (ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك) بل يستحله (الا مادمت عليه قائما) أي مطالبا مخاصما ككعب بن الاشرف وأصحابه قال ابن عباس أودع رجل قرشي عبد الله بن سلام ألفا ومائتي أوقية من ذهب فأداه اليه وأودع قرشي آخر فنحاص بن عازوراء فخانه فنزلت هذه الآية ﴿تنبيه﴾ معنى الباء الصاق الامانة كما أن معنى على في قولك أمنته على كذا استعلاء الامانة فمن ائتمن على شيء فقد صار ذلك الشيء في معنى الملتصق به وصار المودع كالمستعلي على تلك الامانة (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل) أي ذلك الاستحلال والخيانة مستحق بسبب انهم يقولون ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل أي قدرة على المطالبة والالزام فانهم قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه والخلق لنا عبيد فلا سبيل لاحد علينا اذا أكلنا أموال عبيدنا أو المعنى ليس علينا في أخذ أموال العرب سبيل أي اثم فانهم قالوا أموال العرب حلال لنا لانهم ليسوا على ديننا ولا حرمة لهم في كتابنا وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أي انهم قالوا ان جواز الخيانة مع المخالف مذكور في التوراة وكانوا كاذبين في ذلك وعالمين بكونهم كاذبين فيه ومن كان كذلك كانت خيانته أعظم وجرمه أفحش (بلى) على اليهود في العرب سبيل وهذا رد على اليهود ولكن (من أوفى بعهده) فيما بينه وبين الله أو بينه وبين الناس (واتقى) عن نقض العهد بالخيانة وترك الامانة (فان الله يحب المتقين) وهذه الآية دالة على تعظيم أمر الوفاء بالعهد وذلك لان الطاعات محصورة في أمرين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معا لان ذلك سبب لمنفعة الخلق فهو شفقة على خلق الله وذلك أمر الله فالوفاء بالعهد تعظيم لامر الله ثم الوفاء كما يكون في حق الغير يكون في حق النفس فالوافي بعهد النفس هو الآتي بالطاعات والتارك للمحرمات (ان الذين يشترون بعهد الله) أي من جميع ما أمر الله به وعما يلزم الشخص نفسه (وأيمانهم) وهي الحلف التي يؤكد بها الانسان خبره من وعد أو وعيد أو انكار أو اثبات (ثمنا قليلا) من الدنيا (أولئك) الموصوفون بتلك الصفات القبيحة (لا خلاق) أي لا نصيب (لهم في) خير (الآخرة) ونعيمها (ولا يكلمهم الله) أي يشتد غضب الله عليهم (ولا ينظر اليهم) بالاحسان والرحمة (يوم القيامة ولا يزكيهم) أي لا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة (ولهم عذاب أليم) أي وجيع يخلص وجعه الى قلوبهم نزلت هذه الآية في حق عبدان بن الاشوع وامرئ القيس اختصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض فتوجهت اليمين على امرئ القيس فقال انظرني الى الغد ثم جاء في الغد وأقر له بالارض وقيل نزلت في شأن الاشعث بن قيس كان بينه وبين رجل خصومة في أرض وبئر اختصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال للرجل أقم بينتك فقال ليس لي بينة فقال

للاشعث

للاشعث فعليك باليمين فهم الاشعث باليمين فأنزل الله تعالى هذه الآية فنكل الاشعث عن اليمين ورد الارض الى الخصم واعترف بالحق وهذا قول ابن جريج وقيل نزلت فى شأن كعب بن الاشرف ويحيى بن أخطب وأبى رافع وابابة بن أبى الحقيق بدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة وأخذوا الرشوة على ذلك وحلفوا بأنه من عند الله لئلا يفوتهم الرشاء كما قاله عكرمة أو كتبوا بأيديهم كتابا فى ادعائهم أنه ليس علينا فى الاميين سبيل وحلفوا أنه من عند الله كما قاله الحسن وهذه الآية دلت على انها نزلت فى أقوام حلفوا بالايمان الكاذبة فتحمل على جميع الروايات (وان منهم) أى من اليهود (لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب) أى طائفة يحرفون اللفظة الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة حركات الاعراب تحريفا يتغير به المعنى وهم كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف وحيى بن أخطب وأبى ياسر وشعبة بن عمير (لتحسبوه) وقرئ شاذة بالياء (من الكتاب) أى لكى يظننه السفلة أو المسلمون ان المحرف من التوراة (وماهو من الكتاب) اى والحال ان المحرف ليس من التوراة فى نفس الامر وفى اعتقادهم (ويقولون هو) أى المحرف (من عند الله) اى موجود فى كتب سائر الانبياء مثل اشعياء وأرخياء وحيقوق (وماهو من عند الله) فالاحبار الجاهلون بالتوراة نسبوا ذلك المحرف الى انه من التوراة والاذكياء زعموا أنه موجود فى كتب سائر الانبياء الذين جاؤا بعد موسى عليهم السلام وعلم من هذا التفسير المغايرة بين اللفظين فانه ليس كل مالم يكن فى الكتاب لم يكن من عند الله فان الحكم الشرعى قد ثبت تارة بالكتاب وتارة بالسنة وتارة بالاجماع وتارة بالقياس والكل من عند الله (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) اى يتعمدون ذلك الكذب مع العلم وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الاشرف وغيروا التوراة وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذت قريظة ما كتبوا فخلطوه بالكتاب الذى عندهم (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله) أى ما أمكن وما صح لاحد من الانبياء كعيسى ومحمد ان يعطيه الله الكتاب اى التوراة أو القرآن والفهم لذلك الكتاب والنبوة ثم يقول ذلك البشر المشرف بالصفات الثلاثة للناس كونوا عبادا كائنين لى متجاوزين الله اشراكا أو افرادا قال مقاتل والضحاك نزلت هذه الآية فى شأن نصارى نجران حيث يقولون ان عيسى عليه السلام أمرنا ان نتخذه ربا وقال ابن عباس لما قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله نزلت هذه الآية وقال أيضا فى مقالتهم نحن على دين ابراهيم وأمرنا هو بهذا الدين وقال ابن عباس وعطاء ان أبا رافع القرظى من اليهود ورئيس وفد نجران من النصارى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا فقال صلى الله عليه وسلم معاذ الله أن نعبد غير الله أو ان نأمر بغير عبادة الله فما بذلك بعثنى الله ولا بذلك أمرنى فنزلت هذه الآية وقيل قال رجل يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك فقال صلى الله عليه وسلم لا ينبغى لاحد ان يسجد لاحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لاهله فنزلت هذه الآية (ولكن كونوا ربانيين) أى ولكن يقول ذلك البشر الذى رفعه الله الى أعلا المراتب كونوا علماء عاملين (بما كنتم تعلمون الكتاب) قرأ عبد الله بن كثير وأبو عمرو ونافع بفتح التاء وسكون العين والباقون بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مشددة اى تعلمون الناس من الكتاب (وبما كنتم تدرسون) اى وبسبب كونكم تقرؤن من الكتاب (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) قرأ عاصم وحمزة وابن عامر يأمركم بفتح الراء والفاعل ضمير يعود على البشر

ولا مزيدة لتأكيد معنى النفي اى ما كان لبشر أن يجعله الله نبيا ثم يأمر الناس بعبادة نفسه أو باتخاذ
الملائكة والنبيين أربابا وقرأ الباقون برفع الراء على سبيل الاستئناف كما يدل على ذلك ماروى عن
ابن مسعود أنه قرأ ولن يأمركم والفاعل حينئذ ضمير يعود على الله كما قاله الزجاج والى محمد كما قاله ابن
جريج أوالى عيسى أوالى كل نبي من الانبياء كما قيل بكل أى ولا يأمركم يامعشر قريش واليهود
والنصارى بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا كما اتخذت الصابئة وقريش الملائكة واليهود عزيرا
والنصارى المسيح (أيأمركم بالكفر) أى كيف أمركم ذلك البشر والله تعالى بالكفر (بعد اذ
أنتم مسلمون) وهذا استفهام انكارى وهو خطاب للمؤمنين على طريق التعجب من حال غيرهم ويقال
بعد اذ أمركم بالاسلام (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة) أى أعطيناكم
قرأ نافع آتيناكم بالنون على التفخيم (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) وقرأ
الجمهور لما بفتح اللام وقرأ حمزة بكسر اللام وقرأ سعيد بن جبير لما مشددة أما القراءة بالفتح فلما وجهان
ماهو اسم موصول مرفوع بالابتداء وخبره قوله لتؤمنن به واماهو متضمن لمعنى الشرط فاللام فى قوله
لتؤمنن به هى المتلقية للقسم أما اللام فى لما هى لام تحذف تارة وتذكر أخرى ولا يتفاوت المعنى وهذا
اختيار سيبويه والمازنى والزجاج وقال أبو السعود واللام فى لما موطئة للقسم لان أخذ الميثاق بمعنى
الاستحلاف وما تحتمل الشرطية ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية وأما القراءة
بكسر اللام فلأنها للتعليل وما اما مصدرية أو موصول وأما قراءة لما بالتشديد فماهى بمعنى حين أو لمن أجل
ما على ان أصله لمن ما وأما معنى واذ أخذ الله فقال ابن جرير الطبرى واذكروا يا أهل الكتاب اذ أخذ الله
ميثاق النبيين وقال الزجاج واذكر يا محمد فى القرآن اذ أخذ الله ميثاق النبيين والمقصود بهذه الآية
ان الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين خاصة قبل ان يبلغوا كتاب الله و رسالاته الى عباده ان يصدق
بعضهم بعضا وأخذ العهد على كل نبي أن يؤمن بمن يأتى بعده من الانبياء وينصره ان أدركه وان لم يدركه
ان يأمر قومه بنصرته ان أدركوه فأخذ الميثاق من موسى ان يؤمن بعيسى ومن عيسى ان يؤمن بمحمد
صلى الله عليه وسلم وهذا قول سعيد بن جبير والحسن وطاوس وقيل انما أخذ الله الميثاق من النبيين فى
أمر محمد صلى الله عليه وسلم بان يبين بعضهم لبعض صفة محمد وفضله وهو قول على وابن عباس وقتادة
والسدى وقال على بن أبى طالب مابعث الله نبيا آدم فمن بعده الا أخذ عليه العهد فى أمر محمد صلى الله
عليه وسلم وأخذ هو العهد على قومه ليؤمنن به ولئن بعث وهم احياء لينصرنه وقيل ان المراد من الآية
ان الانبياء عليهم السلام كانوا يأخذون الميثاق على أممهم بانه اذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم يؤمنون به
وينصرونه وهذا قول كثير من المفسرين والمراد من قوله ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم هو محمد صلى
الله عليه وسلم والمراد بكونه مصدقا لما معهم هو ان كيفية أحواله مذكورة فى التوراة والانجيل فلما ظهر
على أحوال مطابقة لما كان مذكورا فى تلك الكتب كان نفس مجيئه تصديقا لما كان معهم (قال) الله
تعالى لهم (أأقررتم) بالايمان به والنصرة له (وأخذتم على ذلكم اصرى) أى قبلتم على ماقلت
عهدى (قالوا) أى النبيون (أقررنا) بذلك (قال) الله تعالى (فاشهدوا وأنا معكم من
الشاهدين) أى فليشهد بعضكم على بعض بالاقرار وأنا على اقراركم واشهاد بعضكم بعضا من
الشاهدين (فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) أى من أعرض عن الايمان بهذا الرسول
وبنصرته بعد ما تقدم من هذه الدلائل كان من الخارجين عن الايمان (أفغير دين الله يبغون وله

أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون) والوجه فى هذه الآية ان هذا الميثاق لما كان مذكورا فى كتبهم وهم كانوا عارفين بذلك فقد كانوا عالمين بصدق محمد صلى الله عليه وسلم فى النبوة فلم يبق لكفرهم سبب الا مجرد العداوة والحسد فصاروا كابليس الذى دعاه الحسد الى الكفر فأعلمهم الله انهم متى كانوا كذلك كانوا طالبين دينا غير دين الله ومعبودا سوى الله تعالى ثم بين ان الاعراض عن حكم الله تعالى مما لا يليق بالعقلاء فقال وله أسلم من فى السموات والارض أى لجلال الله تعالى لا لغيره انقاد فى طرفى وجوده وعدمه لان كل ماسوى الله ممكن لذاته وكل ممكن لذاته لا يوجد الا بايجاده ولا يعدم الا باعدامه سواء كان عقلا أو نفسا أو روحا أو جسما أو جوهرا أو عرضا أو فاعلا أو فعلا ونظير هذه الآية فى الدلالة على هذا المعنى قوله تعالى ولله يسجد من فى السموات والارض فالمسلمون الصالحون ينقادون لله طوعا فيما يتعلق بالدين وينقادون له كرها فيما يخالف طباعهم من الفقر والمرض والموت وما أشبه ذلك أما الكافرون فهم منقادون لله تعالى كرها على كل حال لانهم لا ينقادون فيما يتعلق بالدين ويخضعون له تعالى فى غير ذلك كرها لانه لا يمكنهم دفع قضائه تعالى وقدره وأيضا كل الخلق منقادون لالهيته تعالى طوعا بدليل قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ومنقادون لتكاليفه تعالى وايجاده للآلام كرها ثم الهمزة للاستفهام التوبيخى وموضعها لفظة يبغون والتقدير أيبغون غير دين الله لان الاستفهام انما يكون عن الافعال الحوادث وقرأ حفص عن عاصم يبغون ويرجعون بالياء على الغيبة فيهما اى انما ذكر الله تعالى حكاية اخذ الميثاق حتى يبين ان اليهود والنصارى يلزمهم الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فلما أصروا على كفرهم قال تعالى على جهة الاستنكار أفغير دين الله يبغون وقرأ أبو عمرو تبغون بالتاء خطابا باليهود وغيرهم من الكفار ويرجعون بالياء ليرجع الى جميع المكلفين المذكورين فى قوله تعالى وله أسلم من السموات والارض وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب فيهما لان ماقبلهما خطاب كقوله تعالى أأقررتم وأخذتم وأيضا فلا يبعد أن يقال للمسلم والكافر أفغير دين الله تبغون مع علمكم بانه أسلم له تعالى من فى السموات والارض وان مرجعكم اليه وهو كقوله تعالى وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ولما ذكر الله تعالى فى الآية المتقدمة أنه انما أخذ الميثاق على الانبياء فى تصديق الرسول الذى يأتى مصدقا لما معهم بين الله تعالى من صفة محمد صلى الله عليه وسلم كونه مصدقا لما معهم فقال (قل آمنا بالله وما أنزل علينا) وهو القرآن (وما أنزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط) من الصحف والمراد بالاسباط احفاد يعقوب وأبناؤه الاثنا عشر (وما أوتى موسى وعيسى) من التوراة والانجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيديهما (والنبيون من ربهم) من الكتب والمعجزات (لا نفرق بين أحد منهم) أى نقر بأنهم كانوا باسرهم على دين واحد فى الدعوة الى الله وفى الانقياد لتكاليف الله ولا نكفر بأحد منهم كما فعل اليهود والنصارى (ونحن له مسلمون) أى مستسلمون لامر الله بالرضا وترك المخالفة لا للسمعة ورياء وطلب مال وتلك صفة المؤمنين بالله والكافرون يوصفون بالمحاربة لله ولما قال تعالى ونحن له مسلمون بين أن الدين ليس الا الاسلام فقال (ومن يبتغ غير الاسلام) أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله (دينا فلم يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) بحرمان الثواب وحصول العقاب ولحوق التأسف على ما فاته فى الدنيا من العمل الصالح وعلى ما تحمله من التعب فى الدنيا فى تقرير الدين الباطل ولفظ دينا اما مفعول وغير الاسلام حال منه مقدم عليه أو تمييز أو بدل من غير (كيف يهدى الله قوما كفروا) أى كيف يخلق الله فيهم المعرفة والهداية وهم قصدوا تحصيل الكفر (بعد ايمانهم)

بالقلب (وشهدوا) أي والحال هم قد أقروا باللسان (أن الرسول) محمدا صلى الله عليه وسلم (حق وجاءهم البينات) أي الحجج الظاهرة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم (والله لا يهدي القوم الظالمين) أي الكافرين الأصليين والمرتدين وهذه الآية نزلت في شأن الذين ارتدوا ولحقوا بمكة وهم اثناعشر رجلا منهم أبو عامر الراهب والحارث بن سويد بن الصامت ووضوح بن الاسلت وطعيمة بن بيرق كما أخرجه عكرمة وابن العساكر (أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) فان لعنة الله هي الابعاد من الجنة وانزال العقوبة واللعنة من الملائكة والناس هي بالقول وكل ذلك مستحق لهم بسبب كفرهم فصلح أن يكون جزاء لذلك وجميع الخلق يلعنون المبطل والكافر ولكنه يعتقد في نفسه انه ليس بمبطل ولا بكافر فاذا لعن الكافر وهو في علم الله كافر فقد لعن نفسه وان كان لا يعلم ذلك (خالدين فيها) أي اللعنة فلا تزال تلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم في النار فلا يخلو شيء من أحوالهم من أن يلعنهم لاعن من هؤلاء (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) أي لا يؤخر عذابهم من وقت الى وقت (الا الذين تابوا) من الكفر (من بعد ذلك) أي الارتداد (وأصلحوا) باطنهم وظاهرهم بالعمل الصالح (فان الله غفور) لقبائحهم في الدنيا بالستر (رحيم) في الآخرة بالعفو نزلت هذه الآية في شأن الحرث بن سويد وهو رجل من الانصار فانه لما لحق بمكة مرتدا ندم على ردته فأرسل الى قومه بالمدينة ان يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم هل لي من توبة ففعلوا فأنزل الله هذه الآية فبعث بها اليه أخوه الجلاس مع رجل من قومه فأقبل الى المدينة وتاب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل الرسول توبته وحسن اسلامه (ان الذين كفروا) بالله (بعد ايمانهم) بالله (ثم ازدادوا كفرا) أي ثم أصروا على الكفر (لن تقبل توبتهم) ما أقاموا على ذلك قال القاضي والقفال وابن الانباري لما قدم الله تعالى ذكر من كفر بعد الايمان وبين انه أهل اللعنة الا أن يتوب ذكر في هذه الآية انه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فانها تصير غير مقبولة وكأنها لم تكن والتقدير الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم فان كانوا كذلك ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم (وأولئك هم الضالون) على سبيل الكمال عن الهدى (ان الذين كفروا) بالله والرسول (وماتوا وهم كفار) بالله والرسول (فلن يقبل من أحدهم ملء الارض) أي مقدار ما يملؤ الارض مشرقها ومغربها (ذهبا ولو افتدى به) قال الزجاج ان الواو للعطف والتقدير لو تقرب الى الله في الدنيا بملء الارض ذهبا لم ينفعه ذلك مع كفره ولو افتدى من العذاب في الآخرة بملء الارض ذهبا لم يقبل منه أو المراد بالواو التعميم في الاحوال كأنه قيل لن يقبل من الكافر في جميع الاحوال في الآخرة ولو في حال افتدائه نفسه في الآخرة (أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين) في دفع العذاب عنهم أو في تخفيفه (لن تنالوا البر) أي الثواب والجنة أو لن تبلغوا الى التوكل والتقوى (حتى تنفقوا مما تحبون) من أموالكم وعملكم وجاهكم في معاونة الناس وبدنكم في طاعة الله ومهجتكم في سبيله (وما تنفقوا من شيء) تريدون به وجه الله أو مدحة الناس (فان الله به عليم) هذا تعليل للجواب المحذوف أي فيجازيكم بحسبه جيدا كان أورديا فانه تعالى عالم بكل شيء تنفقونه من ذاته وصفاته علما كاملا بحيث لا يخفى عليه شيء (كل الطعام) أي كل طعام حلال على محمد وأمته (كان حلا لبني اسرائيل) أي كان حلالا أكله على أولاد يعقوب (الا ما حرم اسرائيل) أي يعقوب (على نفسه) بالنذر (من قبل أن تنزل التوراة) على موسى وذلك بعد ابراهيم بألف سنة * روى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان يعقوب مرض مرضا

To: www.al-mostafa.com

شديدا فنذر لئن عافاه الله ليحرمن أحب الطعام والشراب عليه وكان أحب الطعام اليه لحوم الابل وأحب الشراب اليه ألبانها قال الاصم لعل نفسه كانت مائلة الى أكل تلك الانواع فامتنع من أكلها قهرا للنفس وطلبا لمرضاة الله تعالى كما يفعله كثير من الزهاد فعبر عن ذلك الامتناع بالتحريم وروى ان اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم انك تدعى انك على ملة ابراهيم فكيف تأكل لحوم الابل وألبانها مع ان ذلك حرام فى دين ابراهيم فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم بأن قال ان ذلك كان حلالا لابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب عليهم السلام الا أن يعقوب حرمه على نفسه بسبب من الاسباب وبقيت تلك الحرمة فى أولاده أى فالحرمة عليهم ناشئة من نذره أيضا فأنكر اليهود ذلك فأمرهم الرسول عليه السلام باحضار التوراة وباستخراج آية منها تدل على ان لحوم الابل وألبانها كانت محرمة على ابراهيم عليه السلام فعجزوا عن ذلك فظهر انهم كانوا كاذبين فى ادعاء حرمة هذه الاشياء على ابراهيم عليه السلام كما قال تعالى (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) فى دعواكم بأن التحريم قديم قال تعالى (فمن افترى) أى اختلف (على الله الكذب) بادعاء انه تعالى حرم ذلك قبل نزول التوراة على بنى اسرائيل وعلى من قبلهم من الامم (من بعد ذلك) أى من بعد ظهور الحجة بأن التحريم انما كان من جهة يعقوب لا على عهد ابراهيم (فأولئك) المصرون على الافتراء بعد ما ظهرت حقيقة الحال (هم الظالمون) المستحقون لعذاب الله (قل صدق الله) فى أن سائر الاطعمة كانت محللة لبنى اسرائيل وانها انما حرمت على اليهود جزاء على قبائح أفعالهم (فاتبعوا ملة ابراهيم) أى ملة الاسلام التى هى فى الاصل ملة ابراهيم لانها ملة محمد صلى الله عليه وسلم (حنيفا) أى مائلا عن الاديان الزائغة كلها (وما كان من المشركين) فى أمر من أمور دينه فانه لم يدع مع الله الها آخر ولم يعبد سواه كما فعله العرب من عبادة الاوثان أو كما فعله اليهود فى ادعاء ان عزيرا ابن الله وكما فعله النصارى فى ادعاء ان المسيح ابن الله * ولما حول صلى الله عليه وسلم القبلة الى الكعبة طعن اليهود فى نبوته وقالوا ان بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال لانه وضع قبل الكعبة وتحويل القبلة منه الى الكعبة باطل فأجاب الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى (ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة) أى ان أول بيت بنى لعبادات الناس للبيت الذى هو ببكة سميت مكة بكة لانه يبك بعضهم بعضا أى يزدحمون فى الطواف وروى انه صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع للناس فقال المسجد الحرام ثم بيت المقدس وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة أى ان آدم بنى الكعبة ثم بنى الاقصى وبين بنائهما أربعون سنة (مباركا) أى ذا بركة مما يجلب المغفرة والرحمة (وهدى للعالمين) أى قبلة لكل نبى ورسول وصديق ومؤمن يهتدون بذلك البيت الى جهة صلاتهم وذلك لان تكليف الصلاة كان لازما فى دين جميع الانبياء عليهم السلام بدليل قوله تعالى أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا فدلت الآية على ان جميع الانبياء عليهم السلام كانوا يسجدون لله والسجدة لابد لها من قبلة فلو كانت قبلة شيث وادريس ونوح عليهم السلام موضعا آخر سوى الكعبة لبطل قوله تعالى ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة فوجب أن يقال ان قبلة أولئك الانبياء المتقدمين هى الكعبة فدل هذا على ان هذه الجهة كانت أبدا مشرفة مكرمة (فيه آيات بينات) أى علامات واضحة كانحراف الطيور عن موازاة البيت فلا تعلوا فوقه بل اذا قابل هواءه وهو فى الجو انحرف عنه يمينا أو شمالا ولا يستطيع أن يقطع هواءه الا اذا حصل له مرض فيدخل

بهواء للتداوى ومخالطة ضوارى السباع الصيود فى الحرم من غير تعرض لها واهلاك أصحاب الفيل لما قصدوا تخريبه (مقام ابراهيم) وفيه دلالة على قدرة الله تعالى ونبوة ابراهيم لان تأثير قدميه فى الصخرة الصماء وغوصهما فيها الى الكعبين والانة بعض الصخرة دون بعض وابقاءه ألوف سنة معجزة عظيمة (ومن دخله) أى الحرم (كان آمنا) أى ان من دخله للنسك تقربا الى الله تعالى كان آمنا من النار يوم القيامة وان الله أودع فى قلوب الخلق الشفقة على كل من التجأ اليه (ولله على الناس حج البيت) أى قصده للزيارة على وجه مخصوص (من استطاع اليه) أى حج البيت (سبيلا) أى بلاغا بوجود الزاد والراحة والنفقة للعيال الى الرجوع (ومن كفر) أى جحد فرض الحج (فان الله غنى عن العالمين) أى عن ايمانهم وحجهم قال الضحاك لما نزلت آية الحج جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الاديان الستة المسلمين والنصارى واليهود والصابئين والمجوس والمشركين فخطبهم وقال ان الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا فآمن به المسلمون وكفرت به الملل الخمس وقالوا لا نؤمن به ولا نصلى اليه ولا نحجه فأنزل الله تعالى قوله ومن كفر فان الله غنى عن العالمين أى ومن ترك اعتقاد وجوب الحج فان الله غنى عنه (قل يا أهل الكتاب) أى اليهود والنصارى (لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون) أى لم تكفرون بآيات الله التى دلتكم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره والحال أن الله شهيد على أعمالكم ومجازيكم عليها وهذه الحال توجب أن لا تجترؤا على الكفر بآياته (قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن) أى لم تصرفون عن دينه الحق الموصل الى السعادة الابدية وهو ملة الاسلام من آمن بالله وبمحمد وبالقرآن باضلالكم لضعفة المسلمين (تبغونها عوجا) أى تطلبون للسبيل زيغا لاتكم قلتم النسخ يدل على البداء وقولكم وردفى التوراة ان شريعة موسى باقية الى الابد (وأنتم شهداء) ان فى التوراة ان دين الله هو الاسلام لا يقبل غيره (وما الله بغافل عما تعملون) فانهم كانوا يظهرون الكفر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما كانوا يظهرون القاء الشبه فى قلوب المسلمين بل كانوا يحتالون فى ذلك بوجوه الحيل نزلت هذه الآية فى الذين دعوا عمارا وأصحابه الى دينهم اليهودية (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) هم شاس بن قيس وعمرو بن شاس وأوس بن قبطى وجبار بن صخر (يردوكم) أى يصيروكم (بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) أى كيف يوجد منكم الكفر والحال أن القرآن الذى فيه بيان الحق من الباطل يتلى عليكم على لسان نبيكم غضة طرية ومعكم رسول الله الذى يبين الحق ويدفع الشبه روى أن شاشا بن قيس اليهود كان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد فاتفق انه مر على نفر من الانصار الاوس والخزرج وهم فى مجلس يتحدثون وقد زال ما كان بينهم فى الجاهلية من العداوة ببركة الاسلام فشق ذلك على اليهود فجلس اليهم وذكرهم ما كان بينهم من الحروب قبل ذلك فى بغاث وهو موضع فى المدينة وكان يوم بغاث يوما اقتتل فيه الاوس والخزرج قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم بمائة وعشرين سنة وكان الظفر فيه للاوس وقرأ عليهم بعض ما قيل فى تلك الحروب من الاشعار فتنازع القوم وتغاضبوا وقالوا السلاح السلاح فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم فوصل الخبر الى النبى صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين والانصار وقال أترجعون الى أحوال الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالاسلام وألف بين قلوبكم فعرف القوم ان ذلك كان من عمل الشيطان ومن كيد ذلك اليهود فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كان يوم أقبح

أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم قال الامام الواحدى اصطفوا للقتال فنزلت الآية الى قوله تعالى لعلكم تهتدون فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقرأهن و رفع صوته فلما سمعوا صوت النبي صلى الله عليه وسلم أنصتوا له وجعلوا يستمعون له فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون (ومن يعتصم بالله) أى من يستمسك بكتاب الله وهو القرآن (فقد هدى) أى فقد حصل له الهدى (الى صراط مستقيم) أى الى طريق موصل الى المطلوب قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى حق معاذ وأصحابه ثم نزل فى أوس وخزرج لخصومة كانت بينهم فى الاسلام افتخر فيهم ثعلبة بن غنم وأسعد بن زراره بالقتل والغارة فى الجاهلية (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) أى كما يجب ان يتقى وهو استفراغ الوسع فى القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم كما فى قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم ويقال أطيعوا الله كما ينبغى (ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) لفظ النهى واقع على الموت والمقصود الامر بالاقامة على الاسلام أى دوموا على الاسلام الى الموت وذلك لانه لما كان يمكنهم الثبات على الاسلام حتى اذا أتاهم الموت وهم على الاسلام صار الموت على الاسلام بمنزلة ما قد دخل فى وسعهم (واعتصموا بحبل الله) أى بدينه وهو دين الاسلام أو بكتابه وهو القرآن (جميعا) أى مجتمعين فى الاعتصام لقوله صلى الله عليه وسلم القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدى الى صراط مستقيم (ولا تفرقوا) عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم لان الحق لا يكون الا واحدا وما عداه يكون ضلالا (واذكروا نعمة الله عليكم) نعمة دنيوية وأخروية (اذ كنتم) فى الجاهلية (أعداء) يبغض بعضكم بعضا ويحارب بعضكم بعضا (فألف بين قلوبكم) أى قذف الله فيها المحبة بتوفيقكم للاسلام (فأصبحتم بنعمته) أى فصرتم بدينه الاسلام (اخوانا) فى الدين (وكنتم على شفا حفرة من النار) أى على طرفها أى وكنتم قريبين من الوقوع فى نار جهنم لكفركم اذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها فليس بين الحياة والموت المستلزم للوقوع فى الحفرة الا ما بين طرف الشئ الذى هو مثل الحياة و بين ذلك الشئ الذى هو مثل الموت (فأنقذكم منها) أى فأنجاكم من تلك الحفرة بأن هداكم للاسلام (كذلك) أى مثل البيان المذكور (يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) أى لكى تهتدوا من الضلالة (ولتكن منكم أمة) أى ولتوجد منكم جماعة يقتدى بها فرق الناس (يدعون) الناس (الى الخير) فأفضل الدعوة هى دعوة الى اثبات ذات الله وصفاته وتقديسه عن مشابهة الممكنات (ويأمرون بالمعروف) والامر بالمعروف تابع للمأمور به ان كان واجبا فواجب وان كان مندوبا فمندوب (وينهون عن المنكر) فالنهى عن الحرام واجب كله لان تركه واجب وهذه الامور من فروض الكفايات لأنها لا تليق الا من العالم بالحال وسياسة الناس حتى لا يوقع المأمور أو المنهى فى زيادة الفجور فان الجاهل ربما دعا الى الباطل وأمر بالمنكر ونهى عن المعروف وقد يغلظ فى موضع اللين ويلين فى موضع الغلظة (وأولئك هم المفلحون) أى المختصون بكمال الفلاح روى انه صلى الله عليه وسلم قال من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) أى تفرقوا بالعداوة واختلفوا فى الدين أو تفرقوا بأبدانهم بأن صار كل واحد من أولئك الاحبار رئيسا فى بلد ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعى انه على الحق وان صاحبه على الباطل قال الفخر الرازى انك اذا أنصفت علمت ان أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة فنسأل الله العفو والرحمة (من بعد

ما جاءهم البينات) أي الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه واتحاد الكلمة (وأولئك) الذين تفرقوا (لهم عذاب عظيم) في الآخرة بسبب تفرقهم (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) أي يوم تظهر بهجة السرور على قوم وسموا ببياض الوجه والصحيفة واشراق البشرة وسعي النور أمامه وبيمينه ويوم تظهر كآبة الخوف والحزن على قوم وسموا بسواد اللون والصحيفة واحاطة الظلمة بهم من كل جانب وقرئ تبياض وسواد (فأما الذين اسودت وجوههم) فيلقون في النار وتقول لهم الزبانية (أكفرتم بعد ايمانكم) أي بعد ما ظهر لكم ما يوجب الايمان وهو الدلائل التي نصبها الله تعالى على التوحيد والنبوة وقال عكرمة والاصم والزجاج أي أكفرتم يا أهل الكتاب بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بعد ايمانكم به قبل مبعثه (فذوقوا العذاب) والامر بذوق العذاب على طريق الاهانة (بما كنتم تكفرون) أي بسبب كفركم (وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله) أي في جنة الله وعبر عنها بالرحمة تنبيها على ان المؤمن وان استغرق عمره في طاعة الله تعالى فانه لا يدخل الجنة الا برحمته تعالى وقرئ ابياضت كما قرئ اسوادت (هم فيها خالدون) أي لا يظعنون عنها ولا يموتون (تلك) أي الآيات المشتملة على تنعيم الابرار وتعذيب الكفار (آيات الله) أي دلائل الله (نتلوها عليك بالحق) أي بالمعنى الحق أو متلبسة بالعدل من اجزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه (وما الله يريد ظلما للعالمين) أي ما يريد الله فردا من افراد الظلم لفرد من أفراد العالمين في وقت من الاوقات فضلا عن ان يفعله وأما ظلم بعضهم بعضا فواقع كثير او كل واقع فهو بارادته تعالى (ولله ما في السموات وما في الارض) ملكا وخلقا احياء واماتة واثابة وتعذيبا (والى الله) أي الى حكمه (ترجع الامور) فيجازي كلا منهم (كنتم خير أمة اخرجت للناس) أي أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وفصل بينها وبين غيرها (تأمرون بالمعروف) أي بالتوحيد واتباع محمد صلى الله عليه وسلم (وتنهون عن المنكر) أي عن الشرك ومخالفة الرسول (وتؤمنون بالله) ايمانا متعلقا بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء وقال قتادة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يؤمر نبي قبله بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم في الاسلام فهم خير أمة للناس (ولو آمن أهل الكتاب) أي اليهود والنصارى ايمانا كاملا كايمانكم (لكان) أي ذلك الايمان (خيرا لهم) فانهم آثروا دينهم على دين الاسلام حبا للرياسة واستتباع العوام ولو آمنوا لحصلت لهم هذه الزيادة في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة فكان ذلك خيرا لهم مما قنعوا به (منهم المؤمنون) كعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود والنجاشي ورهطه من النصارى (وأكثرهم الفاسقون) في أديانهم فيكونون مردودين عند الطوائف كلهم لان المسلمين لا يقبلونهم لكفرهم والكفار لا يقبلونهم لكونهم فاسقين فيما بينهم فليسوا ممن يجب الاقتداء بهم البتة عند أحد من العقلاء (لن يضروكم الا أذى) أي لن يضركم اليهود ضررا البتة الا ضررا يسيرا وهو أذى أي ليس على المسلمين من اليهود ضرر وانما منتهى أمرهم أن يؤذوكم باللسان اما بالطعن في محمد وعيسى عليهما السلام وأما باظهار كلمة الكفر كقولهم عزير بن الله واما بتحريف نصوص التوراة واما بالقاء الشبه في الاسماع واما بتخويف الضعفة من المسلمين (وان يقاتلوكم يولوكم الادبار) أي ينهزموا من غير ان يضروكم بقتل أو أسر (ثم لا ينصرون) أي ثم أخبركم انهم بعد صيرورتهم منهزمين لا يحصل لهم شوكة ولا قوة ولا يجدون النصرة قط بل يبقون في الذلة أبدا كما قال تعالى (ضربت عليهم الذلة) أي جعلت عليهم الذلة بأن يحاربوا ويقتلوا وتغنم أموالهم وتسبى ذراريهم وتملك أراضيهم (أينما ثقفوا) أي صودفوا فلا

يقدرون

يقدرون أن يقوموا مع المؤمنين الا أن يعتصموا (بحبل من الله وحبل من الناس) أى المؤمنين فالامان الحاصل للذمى قسمان أحدهما الذى نص الله عليه وهو أخذ الجزية وثانيهما الذى فوض الله الى رأى الامام فيزيد فيه تارة وينقص بحسب الاجتهاد فالاول هو المسمى بحبل الله والثانى هو المسمى بحبل المؤمنين (وباؤا بغضب من الله) أى داموا فى غضب الله أو استوجبوا لعنة الله (وضربت عليهم المسكنة) أى جعل عليهم زى الفقر واليهود فى غالب الاحوال مساكين تحت أيدى المسلمين والنصارى (ذلك) أى لزوم الذلة والمسكنة والمكث فى اللعنة (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) الناطقة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم حتى يحرفونها وبسائر الآيات القرآنية (ويقتلون الانبياء بغير حق) أى بلا جرم فان الذين قتلوا الانبياء أسلافهم وهؤلاء المتأخرون كانوا راضين بفعل أسلافهم فنسب اليهم كما ان التحريف من أفعال أحبارهم ينسب الى كل من يتبعهم (ذلك) أى الكفر والقتل (بما عصوا) فى السبت (وكانوا يعتدون) أى يتجاوزون حدود الله باستحلال المحارم قال أرباب المعاملات مع الله من ابتلى بترك الآداب وقع فى ترك السنن ومن ابتلى بترك السنن وقع فى ترك الفريضة ومن ابتلى فى ترك الفريضة وقع فى استحقار الشريعة ومن ابتلى بذلك وقع فى الكفر (ليسوا) أى جميع أهل الكتاب (سواء) أى فليس من آمن منهم كمن لم يؤمن (من أهل الكتاب أمة قائمة) أى جماعة عدل مهتدية بتوحيد الله وهم عبد الله ابن سلام وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد ومن أسلم معهم من اليهود كما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال هم عبد الله بن سلام وأخوه ثعلبة بن سلام وسعية وميس وأسيد وأسد هما ابنا كعب قال ابن عباس رضى الله عنهما لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قالت احبار اليهود ما آمن بمحمد الا اشرارنا ولولا ذلك ماتركوا دين آبائهم فأنزل الله تعالى هذه الآية (يتلون آيات الله آناء الليل) أى يقرؤن القرآن ساعات الليل (وهم يسجدون) أى يصلون التهجد فى الليل وهذا كلام مستقل والصلاة تسمى سجودا (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات) أى يبادرون مع كمال الرغبة فى فعل أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية (وأولئك) الموصوفون بالصفات السبعة (من الصالحين) أى من جملة الذين صلحت أحوالهم عند الله واستحقوا رضاه وثناه وقال ابن عباس أى من صالحى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويقال مع صالحى أمة محمد فى الجنة مع أبى بكر وأصحابه واعلم ان اليهود كانوا أيضا يقومون فى الليالى للتهجد وقراءة التوراة فلما مدح الله المؤمنين منهم بالتهجد وقراءة القرآن أردف ذلك بقوله يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات فالايمان بالله يستلزم الايمان بجميع أنبيائه ورسله وكتبه والايمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من المعاصى فايمان اليهود بالله مع قولهم عزير بن الله وكفرهم ببعض الكتب والرسل ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته وعدم الاحتراز عن معاصى الله واضلال الناس وصدهم عن سبيل الله ومبادرتهم الى الشرور واعلم ان كمال الانسان فى ان يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل وأفضل الاعمال الصلاة وأفضل الاذكار ذكر الله وأفضل المعارف معرفة المبدأ ومعرفة المعاد فقوله تعالى يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون اشارة الى الاعمال الصالحة الصادرة عنهم وقوله تعالى يؤمنون بالله واليوم الآخر اشارة الى فضل المعارف الحاصلة فى قلوبهم فكان هذا اشارة الى كمال حالهم فى القوة العملية وفى القوة النظرية وذلك أكمل أحوال الانسان وهى المرتبة التى هى آخر درجات الانسانية وأول درجات الملكية واعلم ان الغاية القصوى

فى الكمال أن يكون تاما وفوق التمام فكون الانسان تاماليس الا فى كمال قوته العملية وقوته النظرية وكونه فوق التمام ان يسعى فى تكميل الناقصين وذلك بطريقين اما بارشادهم الى ماينبغي أو بمنعهم عما لا ينبغي ثم الوصف بالصلاح غاية المدح ويدل عليه القرآن والعقل فان الصلاح ضد الفساد وكل مالا ينبغي فهو فساد سواء كان فى العقائد أو فى الاعمال فاذا حصل كل ماينبغي فقد حصل الصلاح فكان الصلاح دالا على أكمل الدرجات ثم انه تعالى لماذكر هذه الصفات الثمانية قال (ومايفعلوا من خير فلن يكفروه) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بالياء فى الفعلين لان الكلام متصل بما قبله من ذكر مؤمنى أهل الكتاب فان جهال اليهود لما قالوا لعبد الله بن سلام وأصحابه انكم خسرتم بسبب هذا الايمان قال تعالى ومايفعلوا أى عبد الله بن سلام وأصحابه من خير عما ذكر و يقال من احسان الى محمد وأصحابه فلن يكفروه أى لن ينسى ثوابه بل يثابوا وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب لجميع المؤمنين الذين من جملتهم هؤلاء أى وماتفعلوا معاشر المؤمنين من خير فلن تمنعوا ثوابه وجزاءه بل تجازوا عليه (والله عليم بالمتقين) وهذا بشارة لهم بجزيل الثواب ودلالة على انه لا يفوز عنده تعالى الا أهل التقوى (ان الذين كفروا لن تغنى عنهم) أى لن تدفع عنهم (أموالهم ولا أولادهم من الله) أى من عذابه (شيأ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) انما خص الله تعالى الاموال والاولاد بالذكر لان أنفع الجمادات هو الاموال وأنفع الحيوانات هو الولد ثم بين تعالى ان الكافر لا ينتفع بهما البتة فى الآخرة وذلك يدل على عدم انتفاعه بسائر الاشياء بطريق الاولى (مثل ماينفقون) أى الكفار (فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر) أى برد مهلك أو حر محرق (أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصى (فاهلكته) والمعنى مثل الكفر فى اهلاك ماينفقون كمثل الريح المهلكة للزرع أو مثل الكافر الذى أنفق أمواله فى الخيرات نحو بناء الرباطات والقناطر والاحسان الى الضعفاء والايتام والارامل وكان ذلك المنفق يرجو من ذلك الانفاق خيرا كثيرا فاذا قدم الآخرة رأى كفره مبطلا لآثار الخيرات فكان كمن زرع زرعا وتوقع منه نفع كثير فأصابته ريح فأحرقته فلا يبقى معه الا الحزن والاسف هذا اذا أنفقوا الاموال فى وجوه الخيرات أما اذا أنفقوها فيما ظنوه انه من الخيرات وهو من المعاصى مثل انفاق الاموال فى ايذاء رسول الله وفى قتل المسلمين وتخريب ديارهم ففيه أشد تأثير افى ابطال آثار أعمال البر (وماظلمهم الله) حيث لم يقبل نفقاتهم (ولكن أنفسهم يظلمون) حيث أتوا بالنفقات مقرونة بالوجوه المانعة من كونها مقبولة لله (يا أيها الذين آمنوا) نزلت هذه الآية فى شأن رجال من المؤمنين يشاورون اليهود فى أمورهم لما كان بينهم من الرضاع والحلف ظنا منهم انهم ينصحون لهم فى أسباب المعاش فنهاهم الله تعالى بهذه الآية عنه كما قاله ابن عباس أو فى رجال من المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوال المنافقين فيفشون اليهم الاسرار و يطلعونهم على الاحوال فالله تعالى منعهم عن ذلك كما قاله مجاهد وقال الله تعالى (لا تتخذوا بطانة) أى خاصة تباطنون فى الامور (من دونكم) أى من غير أهل ملتكم من الكفار والمنافقين (لا يألونكم خبالا) أى لا يتركون جهدكم فى مضرتكم وفسادكم (ودواما عنتم) أى أحبوا أن يضروكم فى دينكم ودنياكم أشد الضرر أى فان الكفار لا يقصرون لكم فى افساد دينكم فان عجزوا عنه أحبوا بقلوبهم القاءكم فى أشد أنواع الضرر (قد بدت البغضاء من أفواههم) أى قد ظهرت البغضاء فى كلامهم بالطعن وغيره مما يدل على نفاقهم و بأنهم يظهرون تكذيب نبيكم وكتابكم و ينسبونكم الى الجهل والحمق (وماتخفى صدورهم) من الحقد

(أكبر) مما يظهر على ألسنتهم (قد بينا لكم الآيات) أى علامة الحسد والعداوة (ان كنتم تعقلون) الفرق بين ما يستحقه العدو والولى (ها أنتم أولاء) أى أنبهكم أنتم يامعشر المؤمنين المخطئين فى موالاتهم (تحبونهم) بسبب ما بينكم وبينهم من الرضاعة والمصاهرة وبسبب انهم أظهروا لكم الايمان وانهم يظهرون لكم محبة رسول الله (ولا يحبونكم) بسبب المخالفة فى الدين وبسبب أن الكفر مستقر فى باطنهم ولانهم يعلمون انكم تحبون الرسول (وتؤمنون بالكتاب كله) وهم لا يؤمنون به وهم مع ايمانكم بكتبهم يبغضونكم فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشئ من كتابكم (واذا لقوكم) أى منافقوا اليهود (قالوا) نفاقا (آمنا) بمحمد فان نعته فى كتابنا (واذا خلوا) أى رجع بعضهم الى بعض (عضوا عليكم الانامل من الغيظ) أى عضوا الاجل غمهم منكم أطراف الاصابع من شدة الغضب أى فاذا رجعوا الى بعضهم أظهروا شدة العداوة على المؤمنين حتى تبلغ تلك الشدة الى عض الانامل كما يفعل ذلك أحدنا اذا اشتد غيظه ولما كثر هذا الفعل من الغضبان صار ذلك كناية عن الغضب حتى يقال فى الغضبان انه يعض يده غيظا وان لم يكن هناك عض (قل موتوا بغيظكم) وهذا دعاء عليهم بازدياد ما يوجب هذا الغيظ وهو قوة الاسلام ودعاء عليهم بالموت قبل بلوغ ما يتمنون وليس أمرا بالاقامة على الغيظ فان الغيظ كفر والامر بالكفر غير جائز ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى قل موتوا بغيظكم انه تعالى أمر رسوله بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله اياه انهم يهلكون غيظا باعزاز الاسلام واذلالهم به كأنه قيل حدث نفسك بذلك (ان الله عليم بذات الصدور) أى انه تعالى عالم بكل ما يحصل فى قلوبكم من الخواطر والبواعث والصوارف (ان تمسسكم حسنة تسؤهم) أى ان تصبكم منفعة الدنيا تحزنهم وذلك كصحة البدن وحصول الخصب والفوز بالغنيمة والاستيلاء على الاعداء وحصول المحبة بين الأحباب (وان تصبكم سيئة) أى مضرة كمرض وفقر وانهزام من عدو وقتل ونهب وغارة وحصول التفرقة بين الاقارب (يفرحوا) أى اليهود والمنافقون (بها) فانهم متناهون فى عداوتكم فاجتنبوهم (وان تصبروا) على طاعة الله وعلى ما ينالكم فيها من شدة وغم (وتتقوا) كل ما نهاكم عنه وتتوكلوا فى أموركم على الله (لا يضركم كيدهم) أى حيلتهم التى دبروها لاجلكم (شيأ) من الضرر لان كل من صبر على أداء أوامر الله تعالى واتقى كل ما نهى الله عنه كان فى حفظ الله فلا يضره حيل المحتالين قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ولا يضركم بفتح الياء وكسر الضاد وسكون الراء والباقون لا يضركم بضم الضاد والراء المشددة على الجزم بسكون مقدر للاتباع وروى المفضل عن عاصم لا يضركم بفتح الراء للتخفيف (ان الله بما يعملون محيط) بالياء باتفاق القراء العشرة أى انه عالم بما يعملون فى معاداتكم فيعاقبهم عليه وفى قراءة شاذة بالتاء والمعنى انه تعالى عالم بما تعملون من الصبر والتقوى فيفعل بكم ما أنتم مستحقون له (واذ غدوت من أهلك) أى واذكر يا أشرف الخلق لاصحابك وقت خروجك من عند أهلك أى من حجرة عائشة الى أحد ليتذكروا ما وقع فى ذلك الوقت من الاحوال الناشئة من عدم الصبر فيعلموا انهم لو لزموا الصبر والتقوى لا يضرهم كيد الكفرة روى انه صلى الله عليه وسلم ذهب من منزل عائشة فى المدينة فمشى على رجله الى أحد بعد صلاة الجمعة فى نصف شوال وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت وجعل يصف أصحابه للقتال وكانوا ألفا أو أقل وكان الكفار ثلاثة آلاف وجعل صلى الله عليه وسلم ظهره وظهر عسكره الى أحد وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال ادفعوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من ورائنا وقال لاصحابه اثبتوا فى هذا المقام فاذا عاينوكم ولوكم الادبار فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من

هذا المقام فلما التقى الفريقان انهزم عبد الله بن أبي مع ثلاثمائة من المنافقين فبقي من عسكر المسلمين سبعمائة ثم قواهم الله حتى هزموا المشركين ثم طلبوا المدبرين وتركوا ذلك المقام واشتغلوا بطلب الغنائم وخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزع الله الرعب من قلوب المشركين فكر عليهم المشركون وتفرق المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشج وجه الرسول وكسرت رباعيته وشلت يد طلحة ولم يبق معه صلى الله عليه وسلم الا أبو بكر وعلي والعباس وطلحة وسعد ووقعت الصيحة في العسكر ان محمدا قد قتل وكان رجل يكنى أبا سفيان من الانصار نادى الانصار وقال هذا رسول الله فرجع اليه المهاجرون والانصار وكان قد قتل منهم سبعون وكثر فيهم الجراح وكل ذلك يؤكد قوله تعالى وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيأ والظفر انما حصل ببركة طاعتهم لله ولرسوله والالم يقوموا مع عدوهم (تبوأ المؤمنين مقاعد للقتال) أي تنزل المؤمنين بأحد أمكنة لقتال عدوهم (والله سميع) لاقوالكم (عليم) بضمائركم ونياتكم فان النبي صلى الله عليه وسلم شاور أصحابه في ذلك الحرب فمنهم من قال له أقم بالمدينة وهو عبد الله بن أبي وأكثر الانصار ومنهم من قال له اخرج اليهم وكان لكل أحد غرض (اذ همت طائفتان منكم) بنو حارثة من الاوس وبنو سلمة من الخزرج وهما جناحا العسكر (أن تفشلا) أي بأن تجبنا عن قتال العدو يوم أحد وترجعا روى انه صلى الله عليه وسلم خرج مع تسعمائة وخمسين ووعدهم النصر ان صبروا فلما بلغوا عند جبل أحد انعزل ابن أبي المنافق مع ثلاثمائة من أصحابه المنافقين وقال يا قوم لأي شيء نقتل أنفسنا وأولادنا فتبعهم عمرو بن حزم الانصاري وأبو جابر السلمي وقالا أسألكم بالله في حفظ نبيكم وأنفسكم أي فانكم لو رجعتم فاتتكم نصرة نبيكم وفاتتكم وقاية أنفسكم من العذاب لتخلفكم عن نبيكم فقال عبد الله بن أبي لو نعلم قتالا لا تبعناكم فهم الطائفتان باتباع عبد الله بن أبي فعصمهم الله فثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى (والله وليهما) اى عاصمهما عن اتباع تلك الخطوة (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) في جميع أمورهم فانه حسبهم ولما حكى الله عن الطائفتين انهما هما بالجبن والضعف أيد ذلك بقصة بدر فان المسلمين كانوا في غاية الفقر والضعف والكفار كانوا في غاية الشدة والقوة ولكن لما كان الله ناصرالهم قهروا أعداءهم وفازوا بمطلوبهم وقال تعالى (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) بقلة العدد وضعف الحال وقلة السلاح والمال وعدم القدرة على مقاومة العدو فان المسلمين كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا وما كان فيهم الا فرس واحد والكفار كانوا قريبين من ألف مقاتل ومعهم مائة فرس مع الاسلحة الكثيرة والعدة الكاملة (فاتقوا الله) في أمر الحرب ولا تخالفوا الامير الذي معكم (لعلكم تشكرون) لكي تشكرون نعمته تعالى ونصرته (اذ تقول للمؤمنين) فاذا اما منصوب بنصركم ويكون هذا الوعد حصل يوم بدر وهذه الجملة من تمام قصة بدر وهو قول أكثر المفسرين واما بدل من قوله اذ همت أو بدل ثان من قوله تعالى واذ غدوت ويكون هذا الوعد حصل يوم أحد وهذه الجملة من تمام قصة أحد فيكون قوله ولقد نصركم الله معترضا بين الكلامين وهو مروي عن ابن عباس والكلبي والواقدي ومقاتل ومحمد بن اسحق (ألن يكفيكم) مع عدوكم (أن يمدكم ربكم) أي ينصركم (بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) من السماء قرأ ابن عامر منزلين مشددا الزاي مفتوحة والباقون بفتح الزاي مخففة وقرئ قراءة شاذة باسم الفاعل من الصيغتين أي منزلين النصر (بلى) يكفيكم (ان تصبروا) مع نبيكم في الحرب (وتتقوا) معصية الله ومخالفة نبيه صلى الله عليه وسلم (ويأتوكم) اى يأتيكم المشركون (من فورهم هذا) أي من ساعتهم هذه

من

من جهة مكة (عددكم ربكم) أي ينصركم على عدوكم (بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بكسر الواو أي معلمين أنفسهم أو خيلهم والباقون بفتح الواو أي معلمين بالصوف الابيض في نواصي الدواب واذنابها أو مجز وزة اذنابهم أو مرسلين (وما جعله الله) أي ما جعل الله الامداد (الا بشرى لكم) بأنكم تنصرون (ولتطمئن قلوبكم به) أي بالمدد وفي ذكر الامداد مطلوب بان ادخال السرور في قلوبهم وحصول الطمأنينة على ان اعانة الله معهم (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) لا من العدة والعدد ولا من عند الملائكة (ليقطع طرفا من الذين كفروا) واللام متعلق بقوله وما النصر والمعنى والمقصود من نصركم ان يهلك الله طائفة من كفار مكة بقتل وأسر (أو يكبتهم) أو يهزمهم ويخزيهم (فينقلبوا خائبين) أي يرجعوا منقطعي الآمال غير فائزين بمطلوبهم بشيء (ليس لك من الامر شيء) وهذه الآية نزلت في قصة أحد لمنعه صلى الله عليه وسلم من الدعاء عليهم لما روي ان عتبة بن أبي وقاص شجه وكسر رباعيته وهي السن التي بين الثنية والناب ثم أراد ان يدعو عليهم فنزلت هذه الآية ولما روى سالم بن عبد الله بن عمران النبي صلى الله عليه وسلم لعن أقواما فقال اللهم العن أبا سفيان اللهم العن الحرث بن هشام اللهم العن صفوان بن أمية فنزل قوله تعالى أو يتوب عليهم فتاب الله على هؤلاء وحسن اسلامهم ولما حصل له صلى الله عليه وسلم من الهم بأنه رأى حمزة بن عبد المطلب ورأى ما فعلوا به من المثلة وقال لامثلن منهم بثلاثين فنزلت هذه الآية ومات في ذلك اليوم من المسلمين سبعون وأسر عشرون ومات من الكفار ستة عشر وروى علي بن عباس ان هذه الآية نزلت بسبب أنه صلى الله عليه وسلم أراد ان يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره والذين انهزموا يوم أحد فمنعه الله من ذلك وانما نص الله تعالى على المنع تقوية لعصمته (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) وهذان اما معطوفان على الامر والمعنى ليس لك يا أشرف الخلق من شأن هذه الحادثة شيء ومن التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء لانه ليس لك من مصالح عبادي شيء الا ما أوحي اليك وليس لك من سؤال اهلاكهم شيء لانه تعالى أعلم بالمصالح فربما تاب الله عليهم أو معطوفان على شيء أي ليس لك من أمرهم شيء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم وقيل المراد بالامر ضد النهي والمعنى ليس لك من أمر خلقي شيء أو من توبتهم أو من تعذيبهم شيء الا اذا كان على وفق أمري والمقصود من الآية منعه صلى الله عليه وسلم من كل فعل وقول الا ما كان باذنه وأمره وهذا هو الارشاد الى أكمل درجات العبودية (فانهم ظالمون) أي بالمعاصي وهذه جملة مستقلة لكن المقصود من ذكرها تعليل لحسن التعذيب والمعنى أو يعذبهم فانه تعالى ان عذبهم انما يعذبهم لانهم ظالمون والمراد بالعذاب اما عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة فعلم ذلك مفوض الى الله (ولله ما في السموات وما في الارض) ملكا وخلقا (يغفر لمن يشاء) مغفرته (ويعذب من يشاء) تعذيبه وتقديم المغفرة على التعذيب للاعلام بأن رحمته تعالى سبقت غضبه وبأن الرحمة من مقتضيات الذات دون الغضب فانه من مقتضيات سيآت العصاة (والله غفور رحيم) والمغفرة والرحمة على سبيل الاحسان أما التعذيب فعلى سبيل العدل لان الطاعة لا توجب الثواب والمعصية لا توجب العقاب بل الكل من الله بحكم الهيته وقهره وارادته (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا) على الدرهم (مضاعفة) في الاجل وكان الرجل في الجاهلية اذا كان له على انسان مائة درهم الى أجل فاذا جاء الاجل ولم يكن المديون واجدا لذلك المال قال زد في المال حتى أزيد في الاجل فربما جعله مائتين ثم اذا حل الاجل الثاني فعل في مثل ذلك ثم الى آجال كثيرة فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو

المراد من قوله أضعافا مضاعفة وقرأ ابن كثير وابن عامر بتشديد العين بلا ألف قبلها وقال القفال يحتمل ان تكون هذه الآية متصلة بما تقدم من جهة ان المشركين انما أنفقوا على ذلك العساكر أموالا جمعوها بسبب الربا فلعل ذلك يصير داعيا للمسلمين الى الاقدام على الربا حتى يجمعوا المال و ينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم فلهذا نهاهم الله عن ذلك (واتقوا الله) فيما نهيتم عنه من أخذ الربا وغيره (لعلكم تفلحون) أى لكى تنجوا من العذاب والسخط (واتقوا النار) بأن تجتنبوا ما يوجبها وهو استحلال ما حرم من الربا وغيره (التى أعدت للكافرين) وكان أبو حنيفة يقول هذه الآية أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ان لم يتقوه فى اجتناب محارمه وفى الآية *(تنبيه)* على ان النار بالذات للكفار و بالعرض للعصاة (وأطيعوا الله) فيما يأمركم به و ينهاكم عنه من أخذ الربا وغيره (والرسول لعلكم ترحمون) الذى يبلغكم أوامر الله ونواهيه فان طاعة الرسول طاعة الله (وسارعوا) قرأ نافع وابن عامر بغير واو أى بادروا واقبلوا وقرئ شاذة وسابقوا (الى مغفرة من ربكم) أى الى الاسلام كما قاله ابن عباس والى أداء الفرائض كما قاله على بن أبى طالب والصلوات الخمس والى الاخلاص كما قاله عثمان بن عفان والى الجهاد كما قاله الضحاك ومحمد بن اسحق والى التكبيرة الاولى كما قاله سعيد بن جبير والى جميع الطاعات كما قاله عكرمة والى التوبة من الربا والذنوب كما قاله الاصم وابن عباس (وجنة) أى فكما تجب المسارعة الى المغفرة فكذلك تجب المسارعة الى الجنة فمعنى الغفران ازالة العقاب ومعنى الجنة ايصال الثواب فلابد للمكلف من تحصيل الامرين (عرضها السموات والارض) أى عرضها مثل عرض السموات والارض لو جعلت السموات والارض طبقا طبقا بحيث يكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحا مؤلفا من أجزاء لا تتجزئ ثم وصل البعض بالبعض طبقا واحدا لكان ذلك مثل عرض الجنة وهذا غاية فى السعة لا يعلمها الا الله تعالى (اعدت) أى هيئت الجنة (للمتقين) ثم ذكر الله تعالى صفات المتقين فقال (الذين ينفقون) أموالهم فى سبيل الله تعالى (فى السراء والضراء) أى فى حال الغنى والفقر أو فى سرور وحزن أو على وفق طبعهم وعلى خلافه كما يحكى عن بعض السلف انه ربما تصدق ببصلة وعن عائشة رضى الله عنها انها تصدقت بحبة عنب (والكاظمين الغيظ) أى الكافين غيظهم قال صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمنا وايمانا وقال صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه زوجه الله من الحور العين حيث يشاء وقال صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة لكنه الذى يملك نفسه عند الغضب (والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) ومحبة الله للعبد أعظم درجات الثواب روى عن عيسى بن مريم انه قال ليس الاحسان أن تحسن الى من أحسن اليك ذلك مكافأة انما الاحسان ان تحسن الى من أساء اليك واعلم ان الاحسان الى الغير اما أن يكون بايصال النفع اليه أو بدفع الضرر عنه أما ايصال النفع اليه فيدخل فيه انفاق العلم بان يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين و يدخل فيه انفاق المال فى وجوه الخيرات والعبادات وأما دفع الضرر عن الغير فهو اما فى الدنيا بان لا يشتغل بمقابلة تلك الاساءة باساءة اخرى فهذا داخل فى كظم الغيظ واما فى الآخرة بأن يبرئ ذمة الغير عن المطالبات فهذا داخل فى العفو عن الناس فهذه الآية دالة على جميع جهات الاحسان الى الغير (والذين اذا فعلوا فاحشة) أى معصية (أو ظلموا أنفسهم) بان أتوا ذنبا أى ذنب كان (ذكروا الله) أى خافوا الله قال بعضهم لما وصف الله تعالى الجنة بأنها معدة للمتقين بين ان المتقين قسمان أحدهما الذين أقبلوا على الطاعات وهم الذين وصفهم

الله

الله بالانفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس وثانيهما الذين أذنبوا ثم تابوا وعلى هذا فالاسم الموصول معطوف على الموصول قبله وقيل لما ندب الله تعالى فى الآية الاولى الى الاحسان الى الغير ندب فى هذه الآية الى الاحسان الى النفس وعلى هذا فالاسم الموصول معطوف على المحسنين روى ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى رجلين انصارى وثقفى والرسول صلى الله عليه وسلم كان قد آخى بينهما وكانا لا يفترقان فى أحوالهما فخرج الثقفى مع الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرعة فى السفر وخلف الانصارى على أهله يتعاهدهم فكان يفعل ذلك ثم قام الى امرأته ليقبلها فوضعت كفها على وجهها فندم الرجل فلما وافى الثقفى مع الرسول صلى الله عليه وسلم لم ير الانصارى وكان قد هام فى الجبال للتوبة فلما عرف الرسول صلى الله عليه وسلم سكت حتى نزلت هذه الآية وقال عطاء نزلت فى شأن أبى سعيد نبهان التمار فانه أتته امرأة حسناء تطلب منه تمرا بالشراء فقال لها هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه فذهب بها الى بيته فضمها الى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك فنزلت هذه الآية (فاستغفروا الذنوبهم) أى أتوا بالتوبة على الوجه الصحيح لاجل ذنوبهم وهو الندم على فعل ما مضى مع العزم على ترك مثله فى المستقبل فهذا هو حقيقة التوبة فأما الاستغفار باللسان فذلك لا أثر له فى ازالة الذنب بل يجب اظهار هذا الاستغفار لازالة التهمة ولاظهار انقطاعه الى الله تعالى وقوله فاستغفروا معطوف على جواب اذا (ومن يغفر الذنوب الا الله) أى لا يغفر ذنوب التائب أحد الا الله (ولم يصروا على ما فعلوا) من الذنوب بأن أقلعوا عنها فى الحال وهذا معطوف على قوله فاستغفروا (وهم يعلمون) ان الذين فعلوه معصية الله وهذه الجملة حال من فاعل يصروا (أولئك) الذين خافوا الله وتابوا من ذنوبهم (جزاؤهم مغفرة من ربهم) لذنوبهم (وجنات) أى بساتين (تجرى من تحتها الانهار) أى من تحت شجرها ومساكنها أنهار الخمر والماء والعسل واللبن (خالدين فيها) أى دائمين فى الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها (ونعم أجر العاملين) أى نعم ثواب التائبين المغفرة والجنات (قد خلت من قبلكم سنن) أى قد مضت من قبل زمانكم سنن الله تعالى فى الامم السالفة المكذبة للرسل باهلاكهم ان لم يتوبوا وبالمغفرة ان تابوا فرغب الله تعالى امة محمد صلى الله عليه وسلم فى تأمل أحوال هؤلاء الماضين ليصير ذلك داعيا لهم الى الايمان بالله ورسله والاعراض عن الرياسة فى الدنيا وطلب الجاه (فسيروا فى الارض فانظروا) أى تعرفوا أيها المؤمنون أحوال الامم السالفة بسير أو غيره ثم تفكروا فيها للتسلى والاتعاظ (كيف كان عاقبة المكذبين) أى كيف صار آخر أمر المكذبين بالرسل الذين لم يتوبوا من تكذيبهم (هذا) القرآن (بيان) بالحلال والحرام (للناس) عامة (وهدى) من الضلالة (وموعظة للمتقين) فالحاصل ان البيان جنس تحته نوعان أحدهما الكلام الهادى الى ما ينبغى فى الدين وهو الهدى والثانى الكلام الزاجر عما لا ينبغى فى الدين وهو الموعظة وانما خصص الله المتقين بالهدى والموعظة لانهم المنتفعون بهما دون غيرهم (ولا تهنوا) أى لا تضعفوا عن الجهاد مع عدوكم (ولا تحزنوا) على ما فاتكم من الغنائم يوم أحد ولا على ما أصابكم من القتل والجراحة وكان قد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن جحش بن عمة النبى صلى الله عليه وسلم وعثمان بن شماس وسعد مولى عتبة ومن الانصار سبعون رجلا رضى الله عنهم أجمعين (وأنتم الاعلون) أى والحال انكم فى آخر الامر الغالبون بالنصرة لكم دون عدوكم فان مصير أمرهم الى الدمار حسب ما شاهدتم من أحوال أسلافهم

(ان كنتم مؤمنين) وهذا اما منصب بالنهى أو بوعد النصر والغلبة أى ان كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا فان الايمان يوجب قوة القلب والثقة بصنع الله تعالى وقلة المبالاة بالاعداء أو ان كنتم مؤمنين فانتم الاعلون فان الايمان يقتضى العلو بلا شك (ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) أى ان أصابكم جرح يوم أحد فقد أصاب أهل مكة يوم بدر جرح مثل ما أصابكم يوم أحد ثم لم يضعف ذلك قلوبهم فانتم أحق بان لا تضعفوا وقيل ان المعنى ان نالكم يوم أحد قرح وانهزام فقد نال الكفار فى ذلك اليوم مثل ذلك فان المسلمين نالوا من الكفار قبل ان يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلوا منهم نيفا وعشرين رجلا منهم صاحب لوائهم وجرحوا عددا كثيرا وعقروا عامة خيلهم بالنبل وقد كانت الهزيمة عليهم فى أول النهار (وتلك الايام) أى أيام الدنيا (نداولها بين الناس) لا يدوم مسارها ولا مضارها فيوم يحصل فيه السرور للمؤمنين والغم للاعداء ويوم آخر بالعكس وليس المراد من هذه المداولة ان الله تعالى تارة ينصر المؤمنين والاخرى ينصر الكافرين وذلك لان نصرة الله منصب شريف فلا يليق بالكافر بل المراد من هذه المداولة انه تارة يشدد المحنة على الكفار وأخرى على المؤمنين ولو شدد المحنة على الكفار فى جميع الاوقات وازالها عن المؤمنين فى جميع الاوقات لحصل العلم الاضطرارى بأن الايمان حق وما سواه باطل ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب وأيضا ان المؤمن قد يقدم على بعض المعاصى فيشدد الله المحنة عليه فى الدنيا تأديبا له وأما تشديد المحنة على الكافر فانه غضب من الله عليه وأيضا ان لذات الدنيا وآلامها غير باقية وانما السعادات المستمرة فى دار الآخرة وروى ان أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد ثم قال أين ابن أبى كبشة أين ابن أبى قحافة أين ابن الخطاب فقال عمر هذا رسول الله وهذا أبو بكر وها أنا عمر فقال أبو سفيان يوم بيوم والايام دول والحرب سجال فقال عمر لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار فقال ان كان الامر كما تزعمون فقد خبنا اذا وخسرنا (وليعلم الله الذين آمنوا) واللام متعلقة بفعل مضمر والتقدير وفعلنا هذه المداولة لكى يرى الله الذين اخلصوا فى ايمانهم مميزين من المنافقين اذا أصابتهم المشقة كما وقع فى أحد (ويتخذ منكم شهداء) أى يكرم الله من يشاء منكم بالشهادة وهم شهداء أحد (والله لا يحب الظالمين) أى المشركين وانما يظفرهم فى بعض الاحيان استدراجا لهم وابتلاء للمؤمنين (وليمحص الله الذين آمنوا) أى ليطهرهم من ذنوبهم بما يصيبهم فى الجهاد ان كانت الغلبة للكافرين على المؤمنين (ويمحق الكافرين) أى يهلكهم فى الحرب ان كانت الغلبة للمؤمنين على الكافرين (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) والخطاب للذين انهزموا يوم أحد أى أظننتم ان تدخلوا الجنة وتفوزوا بنعيمها والحال انه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أى الجمع بينهما أى لا تحسبوا ذلك والحال ان الله تعالى لم ير المجاهدين منكم فى سبيل الله يوم أحد والصابرين على قتال عدوهم مع نبيهم (ولقد كنتم تمنون الموت) بالشهادة فى الحرب (من قبل أن تلقوه) أى الموت يوم أحد حيث قلتم ليت لنا يوما كيوم بدر لننال ما نال شهداؤه من الكرامة وكانوا اقسد ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فى الخروج ثم ظهر منهم خلاف ذلك (فقد رأيتموه) أى ان كنتم صادقين فى تمنيكم الحرب فقد رأيتم الموت بمشاهدة أسبابه يوم أحد (وأنتم تنظرون) الى سيوف الكفار حين قتل امامكم من قتل من اخوانكم فلم انهزمتم منهم ولم تثبتوا مع نبيكم (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) أى قد مضت من قبل محمد أمثاله من رسل الله تعالى قال ابن عباس ومجاهد والضحاك لما نزل النبى صلى الله عليه وسلم بأحد أمر الرماة أن يلزموا أصل الجبل ثم قتل على طلحة صاحب

لواء الكفار وشد الزبير والمقداد على المشركين فانهزم الكفار ثم بادر قوم من الرماة الى الغنيمة وكان خالد بن الوليد صاحب ميمنة الكفار فلما رأى تفرق الرماة حمل على المسلمين فهزمهم وفرق جمعهم ورمى عبد الله بن قمئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه وأقبل يريد قتله فذب عنه مصعب ابن عمير وهو صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وأحد فقتله ابن قمئة فظن انه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد قتلت محمدا وصرخ صارخ ألا ان محمدا قد قتل ففشا في الناس خبر قتله فهنالك قال بعض المسلمين ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان وبعض الصحابة جلسوا وألقوا بأيديهم وقال قوم من المنافقين لو كان محمد نبينا لما قتل وان كان قد قتل فارجعوا الى دينكم الاول فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك يا قوم ان كان محمد قد قتل فان رب محمد حي لا يموت وما تصنعون في الحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه ثم قال اللهم اني أعتذر اليك مما يقول هؤلاء المسلمون وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء المنافقون ثم سل سيفه فقاتل حتى قتل رحمه الله تعالى ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق الى الصخرة وهو يدعو الناس ويقول الي عباد الله فأول من عرفه صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك وقال عرفت عينيه تحت المغفر تزهران فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين ابشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار الى أن امسك فانحازت اليه طائفة من أصحابه فلامهم على هزيمتهم فقالوا يا نبي الله فديناك بآبائنا وامهاتنا أتانا الخبر بأنك قد قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين فأنزل الله تعالى هذه الآية (أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم) أي أصرتم كفارا بعد ايمانكم ان مات محمد أو قتل كغيره من الرسل فتخالفوا سنن اتباع الانبياء قبلكم في ثباتهم على ملل أنبيائهم بعد موتهم أي لا ينبغي منكم الارتداد حينئذ لان محمدا صلى الله عليه وسلم مبلغ لا معبود وقد بلغكم والمعبود باق فلا وجه لرجوعكم عن الدين الحق لو مات من بلغكم اياه (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيأ) أي ومن يرجع الى دينه الاول وهو الشرك فلن ينقص الله رجوعه شيأ وانما اهلك نفسه باقباله على العذاب (وسيجزي الله الشاكرين) أي الثابتين على دين الاسلام الذي هو أجل نعمة وأعز معروف كأنس بن النضر وأمثاله (وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله) أي بارادة الله وقضائه (كتابا مؤجلا) أي كتب الله الموت كتابا موقتا كتابة أجله ورزقه سواء لا يسبق أحدهما الآخر وهذا اعلام بأن الحذر لا يدفع القدر وان أحدا لا يموت قبل الاجل واذا جاء الاجل لا يندفع الموت بشيء فلا فائدة في الجبن والخوف (ومن يرد) بعمله (ثواب الدنيا) أي منفعة الدنيا (نؤته منها) أي نعطه من الدنيا ما يريده مما نشاء ان نعطيه اياه وماله في الآخرة من نصيب (ومن يرد) بعمله (ثواب الآخرة) أي منفعة الآخرة (نؤته منها) أي نعطه من الآخرة ما يريده مما نشاء من الاضعاف حسب ما جرى به الوعد الكريم (وسنجزي الشاكرين) أي نعمة الاسلام الثابتين عليه الصارفين لما آتاهم الله تعالى من القوى الى ما خلق لاجله من طاعة الله تعالى فاعلم ان الذين حضروا يوم أحد كانوا فريقين منهم من يريد الدنيا كالذين تركوا المركز طلبا للغنيمة والثناء وهؤلاء لابد وأن ينهزموا ومنهم من يريد الآخرة كالذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى قتلوا والذين حضروا والذين لابد وان لا ينهزموا واعلم ان هذه الآية وان وردت في الجهاد خاصة لكنها عامة في جميع الاعمال وذلك لان المؤثر في جلب الثواب والعقاب الدواعي والمقصود لا ظواهر الاعمال كما في قوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات فان من وضع الجبهة على الارض في صلاة الظهر والشمس قدامه فان قصد بذلك السجود عبادة الله تعالى كان ذلك

من أعظم دعائم الاسلام وان قصد به عبادة الشمس كان ذلك أعظم من دعائم الكفر (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله) قرأ ابن كثير كائن بألف بعد الكاف بعدها همزة مكسورة والباقون بهمزة بعد الكاف بعدها ياء مشددة وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وقتل مبنيا للمفعول وقتادة كذلك الا انه شدد التاء وباقي السبعة قاتل وضمير الفعل يعود على المبتداء والجملة خبر المبتداء وجملة معه ربيون من المبتدا والخبر في محل نصب على الحال من ضمير الفعل وكثير صفة لربيون والمعنى على القراءة الاولى وكثير من الانبياء قتلوا وبعدهم الذين بقوا من جماعتهم فما وهنوا أي ضعفوا في دينهم بل استمروا على جهاد عدوهم ونصرة دينهم فكان ينبغي ان يكون حالكم يا أمة محمد هكذا قال سعيد بن جبير ما سمعنا بنبي قتل في القتال وقال الحسن البصري وجماعة من العظماء لم يقتل نبي في حرب قط والمعنى على القراءة المشهورة وكثير من نبي قاتل لاعلاء كلمة الله وأعزاز دينه كائنا معه في القتال جماعات كثيرة من أصحابه فأصابهم من عدوهم قرح فما وهنوا أي جبنوا الان الذي أصابهم اغا هو في طاعة الله واقامة دينه ونصرة رسوله فكذلك ينبغي أن تفعلوا مثل ذلك يا أمة محمد (وما ضعفوا) أي عجزوا عن قتال عدوهم (وما استكانوا) أي ذلوا لعدوهم كما فعلتم حين قيل قتل نبيكم وأردتم ان تعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الامان من أبي سفيان (والله يحب الصابرين) على تحمل الشدائد في طريق الله أي يكرمهم ويعظمهم (وما كان قولهم) بعد ما قتل نبيهم (الا أن قالوا) هذا الدعاء وقولهم بالنصب خبر لكان واسمها ان وما بعدها (ربنا اغفر لنا ذنوبنا) الصغائر والكبائر (واسرافنا) أي افراطنا (في أمرنا) باتيان الذنوب العظيمة الكبيرة (وثبت أقدامنا) بازالة الخوف عن القلوب وازالة الخواطر الفاسدة عن الصدور (وانصرنا على القوم الكافرين) وهذا تأديب من الله تعالى في كيفية الطلب بالادعية عند النوائب والمحن سواء كان في الجهاد أو غيره (فآتاهم الله ثواب الدنيا) بالنصرة والغنيمة وقهر العدو والثناء الجميل وانشراح الصدر بنور الايمان وزوال ظلمات الشبهات وكفارة المعاصي والسيآت (وحسن ثواب الآخرة) أي حكم الله لهم بحصول الجنة وما فيها من المنافع واللذات وأنواع السرور والتعظيم في الآخرة (والله يحب المحسنين) أي المعترفين بكونهم مسيئين فلما اعترفوا بذلك سماهم الله محسنين كأن الله تعالى يقول لهم اذا اعترفتم باساءتكم وعجزكم فأنا أصفكم بالاحسان وأجعلكم أحباء لنفسي حتى تعلموا انه لا سبيل للعبد الى الوصول الى حضرة الله الا باظهار الذلة والمسكنة والعجز (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا) أي المنافقين في قولهم للمؤمنين المنهزمين ارجعوا الى دينكم واخوانكم ولو كان محمد نبيا ما قتل (يردوكم على أعقابكم) أي يرجعوكم الى دينكم الاول قال علي والمراد بالذين كفروا المنافقون كما تقدم وقال السدي وغيره المراد بهم أبو سفيان بن حرب لانه شجرة الفتن وكبير القوم في ذلك اليوم ومعنى الآية حينئذ ان تخضعوا لابي سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم الى دينهم وقيل المراد عبد الله بن أبي وأتباعه من المنافقين لانهم قالوا لو كان محمد رسول الله ما وقعت له هذه الواقعة فارجعوا الى دينكم الذي كنتم فيه وقال ابن عباس والمراد بهم اليهود كعب وأصحابه والمراد بالذين آمنوا حذيفة وعمار (فتنقلبوا خاسرين) أي فترجعوا مغبونين في الدارين بالانقياد للعدو والتذلل له وبالحرمان عن الثواب المؤبد والوقوع في العقاب المخلد (بل الله مولاكم) أي ناصركم (وهو خير الناصرين) أي أقواهم بالنصرة فلا ينبغي أن تطيعوا الكفار لينصروكم لانهم عاجزون (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب) أي سنقذف في قلوب كفار مكة

المخافة منكم حتى انهزموا وذلك ان الكفار لما هزموا المسلمين فى أحد أوقع الله الرعب فى قلوبهم فتركوهم وفروا منهم من غير سبب حتى روى ان أباسفيان صعد الجبل وقال أين ابن أبى كبشة وأين ابن أبى قحافة وأين ابن الخطاب فأجابه عمر ودارت كلمات بينهما وماتجاسر أبوسفيان على النزول من الجبل والذهاب اليهم (بما أشركوا بالله مالم ينزل به) أى بعبادته (سلطانا) أى كتابا ولارسولا (ومأواهم النار) أى مسكنهم فى الآخرة النار (وبئس مثوى الظالمين) أى وبئس مقر الكافرين النار (ولقد صدقكم الله وعده) يوم أحد نزلت هذه الآية لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة وقد أصابهم ما أصابهم بأحد قال ناس من أصحابه من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فأنزل الله تعالى هذه الآية (اذ تحسونهم) أى تقتلونهم قتلا كثيرا فى أول الحرب (باذنه) أى بعلمه ونصرته (حتى اذا فشلتم) أى الى ان ضعفتم فى الرأى أوالى حين ملتم الى الغنيمة (وتنازعتم فى الامر) أى اختلفتم فى أمر الحرب أوفى امتثال أمر النبى صلى الله عليه وسلم وذلك لانه صلى الله عليه وسلم أمر الرماة بأن لايبرحوا عن مكانهم البتة وجعل أميرهم عبدالله بن جبير فلما ظهر المشركون أقبل الرماة عليهم بالرمى الكثير حتى انهزم المشركون ثم ان الرماة رأوا نساء المشركين صعدن الجبل وكشفن عن سوقهن بحيث بدت خلاخيلهن فقالوا الغنيمة الغنيمة فقال عبدالله عهد الرسول الينا أن لانبرح عن هذا المكان فأبوا عليه وذهبوا الى طلب الغنيمة وبقى عبدالله مع طائفة قليلة دون العشرة الى أن قتلهم المشركون (وعصيتم) أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالاقامة فى أصل الجبل وتركتم المركز لاجل تحصيل الغنيمة (من بعد ماأراكم ماتحبون) أى من بعد أراكم النبى صلى الله عليه وسلم النصرة والغنيمة (منكم) أى من الرماة (من يريد الدنيا) بجهاده وهم الذين تركوا المركز لاجل الغنيمة (ومنكم) أى من الرماة (من يريد الآخرة) بجهاده وهم الذين ثبتوا مكانهم حتى قتلوا وهم عبدالله بن جبير وأصحابه (ثم صرفكم عنهم) أى ثم رد الله المسلمين عن الكفار وألقى الهزيمة عليهم وسلط الكفار عليهم (ليبتليكم) أى ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا الى الله وتستغفروه فيما خالفتم فيه أمره وملتم فيه الى الغنيمة (ولقد عفا عنكم) لما علم من ندمكم على المخالفة وتفضلا منه تعالى (والله ذوفضل على المؤمنين) حيث لم يستأصل الرماة (اذ تصعدون) أى تذهبون فى الارض (ولاتلوون على أحد) أى ولا تلتفتون الى أحد من شدة الهرب (والرسول يدعوكم فى أخراكم) أى وهو واقف فى آخركم وكان يقول الى عباد الله الى عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة (فأثابكم غما بغم) أى جازاكم الله غما حصل لكم بسبب الانهزام وقتل الاحباب وفوت الغنائم بغم حصل للرسول بسبب عصيانكم أمره (لكيلا تحزنوا على مافاتكم) من الغنيمة (ولاما أصابكم) من القتل والجراحة قال أبوالسعود أى لتتمرنوا على الصبر فى الشدائد فلا تحزنوا على نفع فات أوضر آت (والله خبير بما تعملون) أى عالم بأعمالكم ومقاصدكم قادر على مجازاتها ان خيرا فخير وان شرا فشر (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة) من العدو (نعاسا يغشى طائفة منكم) أى يأخذ النعاس المهاجرين وعامة الانصار (وطائفة) وهم المنافقون عبدالله بن أبى ومعتب بن قشير وأصحابهما (قد أهمتهم أنفسهم) أى أوقعتهم فى الهموم لان أسباب الخوف وهى قصد العدو كانت حاصلة لهم والدافع لذلك وهو الوثوق بوعد الله ورسوله غير معتبر عندهم لانهم كانوا مكذبين بالرسول فى قلوبهم فلذلك عظم الخوف فى قلوبهم (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) أى كانوا يقولون فى أنفسهم لو كان محمد محقا فى دعواه لما سلط الكفار عليه وهذا ظن

فاسدوا الله تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لا اعتراض لاحد عليه فان النبوة خلعة من الله تعالى يشرف عبده بها وليس يجب فى العقل ان الله تعالى اذا شرف عبده بخلعة أن يشرفه بخلعة أخرى بل له الامر والنهى كيف شاء بحكم الالهية (يقولون هل لنا من الامر من شئ) أى هل لنا من النصر الذى وعدنا به محمد نصيب قط وهذا الكلام ان كان قائله من المنافقين كعبد الله بن أبى فانما قاله طعنا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفى الاسلام وان كان من المؤمنين المحقين كان غرضه منه اظهار الشفقة أنه متى يكون الفرج ومن أين يكون تحصل النصرة (قل ان الامر) أى التدبير (كله لله) فانه تعالى قد دبر الامر كما جرى فى سابق قضائه فلا مرد له (يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك) أى يقولون فيما بينهم بطريق الخفية مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الانكار والتكذيب مخافة القتل (يقولون) أى معتب بن قشير وعبد الله بن أبى (لو كان لنا من الامر شئ ماقتلنا ههنا) أى لو كان لنا من التدبير والرأى شئ ماقتل من قتل منا فى هذه المعركة وماغلبنا (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم) أى قل ياأشرف الخلق لهم لو جلستم فى بيوتكم فى المدينة لخرج منكم من كتب الله عليهم القتل الى مصارعهم أى أماكنهم التى ماتوا فيها عند أحد حتى يوجد ماعلم الله أنه يوجد فان الحذر لا يدفع القدر والتدبير لا يقاوم التقدير فالذين قدر الله عليهم القتل لابد وان يقتلوا لان الله تعالى لما أخبر أنه يقتل فلو لم يقتل لانقلب علمه جهلا وذلك محال (و) فرض الله عليكم القتال ولم ينصركم يوم أحد (ليبتلى الله مافى صدوركم) أى ليعاملكم معاملة من يختبر مافى قلوبكم من الاخلاص والنفاق وليظهر مافيها من السرائر وفى المثل المشهور لا تكرهوا الفتن فانها حصاد المنافقين (وليمحص مافى قلوبكم) أى يخلصها من الوساوس (والله عليم بذات الصدور) أى بما فى القلوب من الخير والشر (ان الذين تولوا منكم) أى انهزموا يوم أحد وهم عثمان بن عفان ورافع بن المعلى وخارجة ابن زيد (يوم التقى الجمعان) جمع محمد صلى الله عليه وسلم وجمع أبى سفيان (انما استزلهم الشيطان) أى أزلهم الشيطان بوسوسته أن محمدا قتل (ببعض ما كسبوا) أى بشؤم بعض ما كسبوا من الذنوب بترك المركز وبالحرص على الغنيمة أو على الحياة (ولقد عفا الله عنهم) لتوبتهم واعتذارهم (ان الله غفور) لمن تاب (حليم) أى لا يعجل لهم بالعقوبة وأما الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر رجلا سبعة من المهاجرين أبو بكر وعلى وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام وسبعة من الانصار الحباب بن المنذر وأبو دجانة وعاصم بن ثابت والحرث بن الصمت وسهل بن حنيف وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ (ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا) أى فى نفس الامر وهم المنافقون عبد الله بن أبى وأصحابه (وقالوا لاخوانهم) أى لاجل اخوانهم فى النسب أو فى الكفر والنفاق (اذا ضربوا فى الارض) أى سافروا فيها للتجارة أو غيرها فماتوا (أو كانوا غزى) فقتلوا (لو كانوا عندنا) أى مقيمين فى المدينة (ماماتوا) فى سفرهم (وماقتلوا) فى غزواتهم (ليجعل الله ذلك) أى ظنهم ان اخوانهم لو لم يسافروا ولم يحضروا القتال لعاشوا (حسرة) أى حزنا (فى قلوبهم) واللام لام العاقبة أى انهم قالوا ذلك لاجل اقواء قلوب المسلمين ليضيق صدرهم وليتخلفوا عن القتال فلما كان المؤمنون لم يلتفتوا الى قولهم فيضيع سعيهم ويبطل كيدهم فتحصل الندامة فى قلوبهم (والله يحيى ويميت) فمن قدر له البقاء لم يقتل فى الجهاد ومن قدر له الموت لم يبق وان لم يجاهد فانه تعالى قد يحيى المسافر والغازى مع اقتحامهما

لموارد الخوف ويميت القاعد عن القتال والمقيم مع حيازتهما الاسباب السلامة (والله بما تعملون بصير) فيجازيهم على قولهم واعتقادهم ويجازيكم أن تماثلوهم فى ذلك (ولئن قتلتم فى سبيل الله) أى فى الجهاد (أو متم) فى سفركم للغزو ومع الكفار أو فى بيوتكم وكنتم مخلصين من النفاق (لمغفرة من الله) لذنوبكم (ورحمة) منه لكم (خير مما تجمعون) أى مما تجمعونه أنتم لو لم تموتوا من الاموال التى تعد خيرات وقرأ حفص عن عاصم بالغيبة أى خير مما يجمعه هؤلاء الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم قال الفخر الرازى والاصوب عندى ان اللام فى ولئن للتأكيد فيكون المعنى ان وجب ان تموتوا أو تقتلوا فى سفركم وغزوكم فكذلك يجب أن تفوزوا بالمغفرة والرحمة فلماذا تحترزون عن الموت والقتل بل ذلك مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون لان الموت الذى يستحق الثواب العظيم كان خيرا من الموت من غير فائدة (ولئن متم) فى حضر أو سفر (أو قتلتم) فى الجهاد أو غيره (لالى الله تحشرون) لجميع العالمين يوقفون فى عرصة القيامة وبساط العدل فيجتمع المظلوم مع الظالم والمقتول مع القاتل والله تعالى يحكم بين عبيده بالعدل واعلم أن الله تعالى رغب المجاهدين فى الآية الاولى بالمغفرة والرحمة وفى هذه الآية بالحشر الى الله زيادة فى اعلاء الدرجات يروى ان عيسى بن مريم مر بأقوام نحفت أبدانهم واصفرت وجوههم ورأى عليهم آثار العبادة فقال ماذا تطلبون فقالوا نخشى عذاب الله فقال هو أكرم من أن لا يخلصكم من عذابه ثم مر بأقوام آخرين فرأى عليهم تلك الآثار فسألهم فقالوا نطلب الجنة والرحمة فقال هو أكرم من ان يمنعكم رحمته ثم مر بقوم ثالث ورأى آثار العبودية عليهم أكثر فسألهم فقالوا نعبده لانه الهنا ونحن عبيده لا لرغبة ولا لرهبة فقال أنتم العبيد المخلصون والمتعبدون المحقون فقوله تعالى لمغفرة من الله اشارة الى من يعبده خوفا من عقابه وقوله ورحمة اشارة الى من يعبده لطلب ثوابه وقوله تعالى لالى الله تحشرون اشارة الى من يعبد الله لمجرد الربوبية والعبودية وهذا أعلا المقامات وأبعد النهايات فى العبودية فى علو الدرجة فهؤلاء الذين بذلوا أنفسهم وأبدانهم فى طاعة الله ومجاهدة عدوه يكون حشرهم اليه واستئناسهم بكرمه وتمتعهم بشروق نور ربوبيته (فبما رحمة) فما استفهام للتعجب تقديره فبأى رحمة (من الله لنت لهم) وذلك لانه لما كانت جنايتهم عظيمة ثم انه صلى الله عليه وسلم لم يظهر تغليظا فى القول البتة علموا ان هذا لا يتأتى الا بتأييد ربانى فكان ذلك موضع التعجب من كمال ذلك التأييد (ولو كنت فظا) باللسان (غليظ القلب) أى قاسيه (لانفضوا من حولك) أى لتفرقوا من عندك ولم يسكنوا اليك ولو انفضوا من حولك فات المقصود من الرسالة (فاعف عنهم) فيما يتعلق بحقوقك (واستغفر لهم) من الله تعالى فيما يتعلق بحقوقه تعالى اتماما للشفقة عليهم واكمالا للبر بهم (وشاورهم فى الامر) فان المشاورة تقتضى شدة محبتهم له صلى الله عليه وسلم لانها تدل على رفعة درجتهم فترك المشاورة معهم اهانة لهم قال صلى الله عليه وسلم ما شاور قوم قط الا هدوا الارشد أمورهم (فاذا عزمت) عقب المشاورة على شئ (فتوكل على الله) فى امضاء أمرك على ما هو أصلح وليس التوكل اهمال التدبير بالكلية والالكان الامر بالمشاورة منافيا للامر بالتوكل بل التوكل هو ان يراعى الانسان الاسباب الظاهرة ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول بقلبه على عصمة الله واعانته (ان الله يحب المتوكلين) عليه تعالى فينصرهم ويرشدهم الى ما فيه خير لهم وصلاح (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) أى ان ينصركم كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم (وان يخذلكم) أى يترك الله نصرتكم كيوم أحد (فمن ذا الذى ينصركم من بعده) أى فلا أحد ينصركم على عدوكم من بعد خذلانه تعالى

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) بالنصرة وغيرها (وما كان لنبي أن يغل) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بفتح الياء وضم الغين أي وما جاز لنبي ان يخون أمته في الغنائم قال الكلبي ومقاتل نزلت هذه الآية حين ترك الرماة المركز يوم أحد طلبا للغنيمة وقالوا نخشى ان يقول النبي صلى الله عليه وسلم من أخذ شيأ فهو له وان لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر فقال صلى الله عليه وسلم لهم ألم أعهد اليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري فقالوا تركنا بقية اخواننا وقوفا فقال صلى الله عليه وسلم ظننتم انا نغل فلا نقسم لكم فنزلت هذه الآية وقرأ الباقون من السبعة يغل بضم الياء وفتح الغين أي وما جاز لنبي ان يخان لان الوحي كان يأتيه حالا فحالا فمن خانه فربما نزل الوحي فيه فيحصل له مع عذاب الآخرة فضيحة الدنيا ولان الخيانة في حقه صلى الله عليه وسلم أفحش لانه أفضل البشر ولان المسلمين في ذلك الوقت كانوا في غاية الفقر كما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وقعت في يده يوم حنين غنائم هوازن غل رجل بمخيط فنزلت هذه الآية (ومن يغلل يأت بما غل) أي يأت بالذي غله بعينه يحمله على عنقه (يوم القيامة ثم توفى كل نفس) أي تعطى وافيا (ما كسبت) أي جزاء ما عملت من الغلول وغيره (وهم) أي كل نفس (لا يظلمون) بزيادة عقاب أو بنقص ثواب لانه تعالى عادل في حكمه (أفمن اتبع رضوان الله) أي أمن اتقى فاتبع رضوان الله بالايمان به والعمل بطاعته (كمن باء بسخط من الله) أي كمن استحق سخطا من الله بالكفر به والاشتغال بمعصيته (ومأواه) أي الغال أومن استوجب سخط الله (جهنم وبئس المصير) جهنم (هم درجات عند الله) أي الفريقان مختلفون في درجات الثواب والعقاب في حكم الله وعلمه باختلاف مراتب الطاعات والمعاصي (والله بصير بما يعملون) أي بأعمالهم ودرجاتها فيجازيهم بحسبها (لقد من الله على المؤمنين) أي لقد أحسن اليهم (اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) أي بعث آدميا ولد في بلدهم ونشأ فيما بينهم وهم كانوا عارفين بأحواله من أول العمر الى آخره أنه ملازم الصدق والامانة وهو صار شرفا للعرب وفخرا لهم وذلك لان الافتخار بابراهيم عليه السلام كان مشتركا فيه بين اليهود والنصارى والعرب ثم ان اليهود يفتخرون بموسى والتوراة والنصارى يفتخرون بعيسى والانجيل فما كان للعرب ما يقابل ذلك فلما بعث الله محمدا وأنزل القرآن صار شرف العرب بذلك زائدا على شرف جميع الأمم فهذا وجه الفائدة في قوله تعالى من أنفسهم (يتلو عليهم آياته) أي القرآن أي يبلغ الوحي من عند الله الى الخلق بالامر والنهي (ويزكيهم) أي يطهرهم بالتوحيد من الشرك وبأخذ الزكاة من الذنوب ويكمل نظرهم بحصول المعارف الآلهية (ويعلمهم الكتاب) أي ظواهر الشريعة أو يعرفهم التأويل (والحكمة) أي محاسن الشريعة وأسرارها وعللها (وان كانوا من قبل) أي والحال انهم كانوا من قبل بعثته صلى الله عليه وسلم (لفي ضلال مبين) أو المعنى وما كانوا من قبل مجيء محمد والقرآن الا في ضلال بين وذلك لان دين العرب قبل ذلك كان أرذل الاديان وهو عبادة الاوثان وأخلاقهم أرذل الاخلاق وهو الغارة والنهب والقتل وأكل الاطعمة الرديئة ثم لما بعث الله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم اليهم انتقلوا ببركته من تلك الدرجة التي هي أخس الدرجات الى أحسنها وصاروا أفضل الأمم في العلم والزهد والعبادة وعدم الالتفات الى الدنيا وطيباتها ولا شك ان هذا أعظم المنة (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا) أي أقلتم متعجبين من أين أصابنا هذا ونحن ننصر الاسلام الذي هو دين الحق ومعنا الرسول وهم ينصرون دين الشرك بالله فكيف صاروا منصورين علينا وقد تقدم الوعد بالنصر حين أصابكم من المشركين نصف ما قد أصابهم منكم قبل ذلك وذلك لان المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد

سبعين وقتل المسلمون منهم يوم بدر سبعين وأسروا سبعين والاسير فى حكم المقتول لان الآسر يقتل أسيره ان أراد (قل هو) أى حصول هذا الامر (من عند أنفسكم) أى بشؤم معصيتكم بترككم المركز وحرصكم على الغنيمة (ان الله على كل شئ قدير) فانه قادر على نصركم لو ثبتم وصبرتم كما هو قادر على التخلية بينكم وبين عدوكم اذا خالفتم وعصيتم (وما أصابكم) فى أحد من القتل والجراحة (يوم التقى الجمعان) جمع محمد وجمع أبى سفيان (فباذن الله) أى فهو بقضائه وارادته (وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم) أى وليظهر الله للناس الثابتين على الايمان والذين أظهروا النفاق والامتناع من الجهاد مع وجود الطلب وهم عبد الله بن أبى وأصحابه حيث رجعوا يوم أحد الى المدينة قال لهم عبد الله بن جبير أو عبد الله ابن عمرو بن حرام والد جابر بن عبد الله الانصارى اذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عند حضور العدو (تعالوا) الى أحد (قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا) أى كونوا اما من رجال الدين أو من رجال الدنيا فان كان فى قلبكم حب الدين والاسلام فقاتلوا لهما فى طاعة الله وان لم تكونوا كذلك فقاتلوا وادفعوا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم وبلدكم (قالوا لو نعلم قتالا) أى لو نحسن قتالا ونقدر عليه (لاتبعناكم) الى أحد (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) أى هم للكفر يوم اذ قالوا ما قالوا أقرب منهم للايمان فانهم كانوا قبل هذه الواقعة يظهرون الايمان من أنفسهم وما ظهرت منهم امارة تدل على كفرهم فلما رجعوا عن عسكر المسلمين تباعدوا بذلك عن أن يظن بهم كونهم مؤمنين وأيضا قولهم ذلك يدل على كفرهم لانه اما على السخرية بالمسلمين واما على عدم الوثوق بقول النبى صلى الله عليه وسلم وكل واحد منهما كفر (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم) فانهم أظهروا أمرين ليس فى قلوبهم واحد منهما أحدهما عدم العلم بالقتال والآخر الاتباع على تقدير العلم به وقد كذبوا فيهما فانهم عالمون بالقتال غير ناوين للاتباع بل كانوا مصرين على الانخزال عازمين على الارتداد (والله أعلم بما يكتمون) أى يعلم من تفاصيل تلك الاحوال ما لا يعلمه غيره (الذين قالوا) أى الذين نافقوا وهم عبد الله بن أبى وأصحابه (لاخوانهم) أى لاجل اخوانهم وهم من قتل يوم أحد من جنسهم أو أقاربهم (و) قد (قعدوا) عن القتال بالانخزال (لو أطاعونا) أى فيما أمرناهم به ووافقونا فى ذلك (ما قتلوا) كما لم نقتل (قل) للمنافقين (فادرؤا) أى ادفعوا (عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) فى أن القعود ينجى منه وروى انه أنزل الله بهم الموت فمات منهم يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقا من غير قتال ومن غير خروج لاظهار كذبهم (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) نزلت هذه الآية فى حق قتلى أحد وكانوا سبعين رجلا أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شهاب وعبد الله بن جحش وباقيهم من الانصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وأما شهداء بدر فنزلت فيهم آية البقرة ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله الآية (بل) هم (أحياء عند ربهم يرزقون) التحف من الجنة روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى صفة الشهداء ان أرواحهم فى أجواف طير خضر وانها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتسرح حيث شاءت وتأوى الى قناديل من ذهب تحت العرش وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أبشرك أن أباك حيث أصيب بأحد أحياه الله ثم قال ما تريد يا عبد الله بن عمرو أن أفعل بك فقال يا رب أحب أن تردنى الى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى (فرحين بما آتاهم الله من فضله) وهو شرف الشهادة والقرب من الله والتمتع بالنعيم المخلد عاجلا (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى ان الشهداء يقول بعضهم لبعض تركنا اخواننا فلانا

وفلانا فى صف المقاتلة مع الكفار فيقتلون ان شاء الله فيصيبون من الرزق والكرامة ما أصبنا أى يفرحون بحسن حال اخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا بدوام انتفاء الخوف والحزن وبلحوقهم بهم لان الله بشرهم بذلك (يستبشرون بنعمة من الله) أى بثواب أعمالهم من الله (وفضل) أى زيادة عظيمة من الكرامة (وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) من الشهداء وغيرهم (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح) فى أحد منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والزبير وسعد وطلحة وابن عوف وابن مسعود وحذيفة بن اليمانى وأبو عبيدة بن الجراح وجابر بن عبد الله (للذين أحسنوا منهم) فى طاعة الرسول فى ذلك الوقت (واتقوا) فى التخلف عن الرسول (أجر عظيم) روى أن اباسفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وقالوا انا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم الا القليل فلم تركناهم بل الواجب أن نرجع ونستأصلهم فهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يرهب الكفار ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة فندب أصحابه الى الخروج فى طلب أبى سفيان وقال لا أريد أن يخرج الآن معى الا من كان معى فى القتال بالامس فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم مع قوم من أصحابه قيل كانوا سبعين رجلا حتى بلغوا حمراء الاسد وهى من المدينة على ثمانية أميال على يسار الطريق لمن أراد ذا الحليفة وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الاجر فألقى الله تعالى الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا فنزلت هذه الآية (الذين قال لهم الناس) وهو أعرابى من خزاعة أو جماعة راكبون من عبد القيس أو نعيم بن مسعود الاشجعى (ان الناس) أى أبا سفيان وأصحابه (قد جمعوا لكم) فى اللطيمة وهى سوق فى قرب مكة (فاخشوهم) بالخروج اليهم روى ان أباسفيان لما عزم على أن ينصرف من المدينة الى مكة نادى يا محمد موعدنا موسم بدر ان شئت فقال صلى الله عليه وسلم لعمر قل بيننا وبينك ذلك ان شاء الله تعالى فلما حضر الاجل خرج أبو سفيان مع قومه حتى نزل بمر الظهران فألقى الله الرعب فى قلبه وبدا له ان يرجع فمر به ركب من بنى عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب ان ثبطوا المسلمين وقيل لقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فقال يا نعيم انى واعدت محمدا ان نلتقى بموسم بدر وان هذا عام جدب وقد بدا لى أن أرجع ولكن ان خرج محمد ولم أخرج زاد بذلك جراءة فاذهب الى المدينة فثبطهم ولك عندى عشرة من الابل فخرج نعيم حتى أتى المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبى سفيان فقال لهم أين تريدون فقالوا واعدنا أباسفيان بموسم بدر ان نقتتل فيها فقال لهم ما هذا بالرأى أتوكم فى دياركم وقتلوا أكثركم فان ذهبتم اليهم لم يرجع منكم أحد فوقع هذا الكلام فى قلوب بعضهم فكره الخروج فلما عرف الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قال والذى نفس محمد بيده لاخرجن اليهم ولو لم يخرج معى أحد فخرج فى سبعين راكبا وباقى الجماعة مشون وفيهم ابن مسعود فذهبوا وكلهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل الى ان وصلوا الى بدر وكانت موضع سوق لهم يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ينتظر أباسفيان ثمان ليال ولم يلق أحدا من المشركين ووافقوا السوق وباعوا ما كان معهم من التجارات واشتروا أدما وزبيبا وربحوا فى الدرهم درهمين وانصرفوا الى المدينة سالمين غانمين كما قال تعالى (فزادهم ايمانا) أى زادهم هذا الكلام المخوف جراءة بالخروج اليهم وعزما متأكدا على محاربة الكفار وعلى طاعة الرسول (وقالوا حسبنا الله) أى كافينا الله وثقتنا به (ونعم الوكيل) أى الكفيل بالنصرة والكافى (فانقلبوا بنعمة من الله) أى فخرجوا الى بدر فرجعوا من بدر ملتبسين بسلامة وثواب من الله (وفضل) أى ربح فى التجارة (لم يمسسهم)

أى لم يصبهم فى الذهاب والمجىء (سوء) أى قتل ولا جراح (واتبعوا رضوان الله) فى طاعة رسوله (والله ذو فضل عظيم) يدفع العدو عنهم و يعطيهم ثواب الغزو و يرضى عنهم (انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) قرأ ابن عباس وابن مسعود يخوفكم أولياءه وقرأ أبى بن كعب يخوفكم بأوليائه أى ذلكم المثبط الشيطان يخوفكم أيها المؤمنون المشركين أباسفيان وأصحابه وقال الحسن والسدى معنى هذه الآية الشيطان يخوف أولياءه الذين يطيعونه و يختارون أمره وهم المنافقون ليقعدوا عن قتال المشركين فاما أولياء الله فانهم لا يخافون الكفار اذا خوفهم الشيطان ولا ينقادون لامره (فلا تخافوهم) أى أولياء الشيطان بالخروج اليهم (وخافون) فى مخالفة أمرى بالجلوس (ان كنتم مؤمنين) فان الايمان يقتضى تقديم خوف الله على خوف الناس و يستلزم عدم الخوف من شر الشيطان وأوليائه (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) قرأ نافع يحزنك بضم الياء وكسر الزاى فى جميع مافى القرآن الا قوله تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر فى سورة الانبياء فانه فتح الياء وضم الزاى كباقى القراء فى جميع مافى القرآن (انهم لن يضروا الله شيأ) اختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآية فقيل انها نزلت فى شأن كفار قريش والله تعالى جعل رسوله آمنا من شرهم والمعنى لا يحزنك من يسارع فى الكفر بنصرته بأن يقصد جمع العساكر بمحاربتك وابطال هذا الدين وازالة هذه الشريعة وهذا المقصود لا يحصل لهم بل يضمحل أمرهم وتزول شوكتهم و يعظم أمرك و يعلو شأنك فانهم لن يضروا الله شيأ بهذا الصنيع وانما يضرون أنفسهم وقيل نزلت فى شأن المنافقين انهم كانوا يخوفون المؤمنين بسبب وقعة أحد و يؤيسونهم من النصر والظفر وقيل نزلت فى شأن رؤساء اليهود كعب بن الاشرف وأصحابه الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم لمتاع الدنيا (يريد الله) بذلك (أن لا يجعل لهم حظا) من الثواب (فى الآخرة) أى الجنة (ولهم عذاب عظيم) فى النار (ان الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيأ ولهم عذاب أليم) قال ابن عباس هم المنافقون اختاروا الكفر على الايمان فانهم متى كانوا مع المؤمنين أظهروا الايمان فاذا خلوا الى شياطينهم كفروا وتركوا الايمان فكان ذلك كأنهم اشتروا الكفر بالايمان و يمكن حمل هذه الآية على اليهود ومعنى اشتراء الكفر بالايمان منهم انهم كانوا يعرفون النبى صلى الله عليه وسلم و يؤمنون به قبل مبعثه و يستنصرون به على أعدائهم فلما بعث كفروا به وتركوا ما كانوا عليه فكأنهم أعطوا الايمان وأخذوا الكفر بدلا عنه كما يفعل المشترى من اعطاء شىء وأخذ غيره بدلا عنه (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم) أى نمهل لهم بتطويل الاعمار (خير لانفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما) أى ذنبا فى الدنيا ودركات فى الآخرة (ولهم عذاب مهين) يهانون به يوما فيوما وساعة بعد ساعة قال الفخر الرازى بين الله تعالى فى هذه الآية ان بقاء هؤلاء المتخلفين عن القتال ليس خيرا من قتل أولئك الذين قتلوا فى أحد لان هذا البقاء صار وسيلة الى الخزى فى الدنيا والعقاب الدائم فى القيامة وقتل أولئك الذين قتلوا فى أحد صار وسيلة الى الثناء الجميل فى الدنيا والثواب الجزيل فى الآخرة فترغيب أولئك المثبطين فى مثل هذه الحياة وتنفيرهم عن مثل ذلك القتل لا يقبله الا جاهل قرأ ابن كثير وأبو عمرو فى الاربعة ولا تحسبن الذين كفروا ولا تحسبن الذين يبخلون لا تحسبن الذين يفرحون فلا تحسبنهم بالتاء وضم الباء فى قوله تعالى تحسبنهم وقرأ نافع وابن عامر بالياء الا قوله فلا تحسبنهم فانه بالتاء وقراءة حمزة كلها بالتاء وقيل نزلت الآية من قوله ولا يحزنك الى ههنا فى حق مشركى أهل مكة يوم أحد (ما كان الله ليذر المؤمنين) أى ليترك المخلصين (على ما أنتم عليه) أيها

الناس من اختلاط المنافقين بالمخلصين واظهارهم انهم من أهل الايمان (حتى يميز الخبيث) أى المنافق (من الطيب) أى المؤمن بالقاء المحن والمصائب والقتل والهزيمة فمن كان مؤمنا ثبت على ايمانه وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم ومن كان منافقا اظهر نفاقه وكفره أو بالقرائن فان المسلمين كانوا يفرحون بنصرة الاسلام وقوته والمنافقين كانوا يغتمون بذلك (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) أى ان عادة الله جارية بانه لا يطلع عوام الناس على غيبه بل لا سبيل لكم الى معرفة ذلك الامتياز الا بالامتحانات من التكاليف الشاقة كبذل الاموال والانفس فى سبيل الله فأما معرفة ذلك على سبيل الاطلاع من الغيب فهو من خواص الانبياء فلهذا قال تعالى (ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء) نخصهم باعلامهم أن هذا مؤمن وهذا منافق أو المعنى فيمتحن خلقه بالشرائع على أيديهم حتى يتميز الفريقان بالامتحان أو المعنى وما كان الله ليجعلكم كلكم عالمين بالغيب من حيث يعلم الرسول حتى تصيروا مستغنين عن الرسول بل الله يخص من يشاء من عباده بالرسالة ثم يكلف الباقين طاعة هؤلاء الرسل (فآمنوا بالله ورسله) أى لما طعن المنافقون فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بوقوع الحوادث المكروهة فى أحد بين الله تعالى انه كان فيها مصالح منها تمييز الخبيث من الطيب ولم يبق بعد جواب هذه الشبهة الا أن تؤمنوا بالله ورسله (وان تؤمنوا) حق الايمان (وتتقوا) أى الكفر والنفاق (فلكم أجر عظيم) أى ثواب وافر فى الجنة (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم) أى لا يتوهمن هؤلاء البخلاء ببذل المال فى الجهاد ان بخلهم هو خير لهم بل هو شر لهم لانه يبقى عقاب بخلهم عليهم (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) أى سيجعل ذلك المال طوقا من النار فى عنقهم وقيل ان المراد البخل بالعلم وذلك لان اليهود كانوا يكتمون نعت محمد صلى الله عليه وسلم فكان ذلك الكتمان بخلا وحينئذ كان معنى سيطوقون ان الله تعالى يجعل فى رقابهم طوقا من نار قال صلى الله عليه وسلم من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من النار يوم القيامة والمعنى انهم عوقبوا فى أفواههم وألسنتهم بهذا اللجام لانهم لم ينطقوا بأفواههم وألسنتهم بما يدل على الحق (ولله ميراث السموات والارض) أى له تعالى ما يتوارثه أهلهما من مال وغيره (والله بما تعملون) من البخل والسخاء (خبير) فيجازيكم عليه أو فيجازيهم عليه (لقد سمع الله قول الذين قالوا) أى فنحاص بن عاذوراء كما قاله ابن عباس والسدى أو حيى بن أحطب كما قاله قتادة أو كعب بن الاشرف كما نقله ابن عساكر روى أنه صلى الله عليه وسلم كتب مع أبى بكر الى يهود بنى قينقاع يدعوهم الى الاسلام والى اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا فقال فنحاص اليهودى ان الله فقير حتى سألنا القرض فلطمه أبو بكر فى وجهه وقال لولا الذى بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكر ما قاله فنزلت هذه الآية تصديقا لابى بكر رضى الله عنه والجمع حينئذ مع كون القائل واحدا لرضا الباقين بذلك (ان الله فقير) محتاج يطلب منا القرض (ونحن أغنياء) ولا نحتاج الى قرضه (سنكتب ما قالوا) أى من العظيمة الشنعاء فى صحائف الحفظة ليقرؤا ذلك يوم القيامة أو سنحفظه ونثبته فى علمنا لا ننساه ولا نهمله أو المراد سنكتب عنهم هذا الجهل فى القرآن حتى يعلم الخلق الى يوم القيامة شدة جهلهم وطعنهم فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بكل ما قدروا عليه (وقتلهم الانبياء بغير حق) فى اعتقادهم كما فى نفس الامر أى نكتب عليهم رضاهم بقتل آبائهم الانبياء بغير جرم أو المعنى سنحفظ عن الفريقين معا أقوالهم وأفعالهم (ونقول) عند الموت أو عند الحشر أو عند قراءة الكتاب أو عند

الالقاء فى النار ويحتمل أن يكون هذا القول كناية عن حصول الوعيد وان لم يكن هناك قول وقرأ حمزة سيكتب بالياء وضمها على لفظ مالم يسم فاعله وقتلهم برفع اللام ويقول بالياء والباقون بالنون ونصب اللام من قتلهم وقرأ الحسن والاعرج سيكتب بالياء وبالبناء للفاعل (ذوقوا عذاب الحريق) أى المحرق (ذلك) أى هذا العذاب المحرق (بما قدمت أيديكم) أى بسبب ما اقترفتموه من التفوه بتلك العظيمة وغيره من المعاصى (وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى والامر انه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم (الذين قالوا) نصب على الذم أو جر نعت للذين الاول أى لقد سمع الله قول الذين قالوا قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى حق كعب بن الاشرف وكعب بن أسد ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوت وفنحاص بن عاذوراء وحيى بن أخطب وغيرهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد تزعم أنك رسول الله وانه تعالى أنزل عليك كتابا وقد عهد الله الينا فى التوراة ان لانؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ويكون لها دوى خفيف تنزل من السماء فان جئتنا بهذا صدقناك فنزلت هذه الآية (ان الله عهد الينا) أى أمرنا فى الكتاب (أن لانؤمن لرسول) أى ان لانصدق أحدا بالرسالة (حتى يأتينا بقربان تأكله النار) ما كان عليه أمر أنبياء بنى اسرائيل حيث كان يقرب بالقربان من النعم أومن الصدقات غير الحيوان فيقوم النبى فى البيت ويناجى ربه وبنو اسرائيل واقفون حول البيت فتنزل نار بيضاء أى لادخان لها ولها دوى فتأكل القربان أى تحرقه وهذا من أباطيلهم فان أكل النار القربان لم يوجب الايمان الا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات سواء وقد تقدمت المعجزات الكثيرة لمحمد صلى الله عليه وسلم وطلبهم لهذا المعجز وقع على سبيل التعنت لا على سبيل الاسترشاد ولذلك رد الله عليهم بقوله (قل) يا أشرف الخلق (قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات) أى بالمعجزات الواضحة (وبالذى قلتم) وهو القربان الذى تأكله النار (فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين) فى مقالتكم انكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه فان زكريا ويحيى وعيسى وغيرهم من الانبياء عليهم السلام قد جاؤكم بما قلتم فى معجزات أخر فمالكم لم تؤمنوا لهم حتى اجترأتم على قتلهم (فان كذبوك) فى أصل النبوة والشريعة فتسل (فقد كذب رسل من قبلك جاؤا بالبينات) أى المعجزات (والزبر) أى الصحف كصحف ابراهيم وموسى (والكتاب المنير) أى الواضح وهو التوراة والانجيل والزبور وقرأ ابن عامر وبالزبر باعادة الباء كقراءة ابن عباس دلالة على المغايرة وقرأ هشام وبالكتاب باعادة الباء والباقون بغير الباء فيهما (كل نفس ذائقة الموت) أى كل حيوان حاضر فى دار التكليف يذوق الموت وروى عن الحسن انه قرأ ذائقة الموت بالتنوين ونصب الموت وقرأ الاعمش بطرح التنوين مع نصب الموت (وانما توفون أجوركم يوم القيامة) أى وانما تعطون أجزية أعمالكم على التمام يوم قيامكم من القبور وفى لفظ التوفية اشارة الى ان بعض أجورهم يصل اليهم قبله كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران (فمن زحزح) أى أبعد (عن النار) بالتوحيد والعمل الصالح (وأدخل الجنة فقد فاز) أى نال غاية مقصوده وقال النبى صلى الله عليه وسلم من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى الى الناس ما يحب ان يؤتى اليه (وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) أى ليس ما فى الدنيا من النعيم الا كمتاع البيت فى بقائه مثل الخزف والزجاجة وغير ذلك أى ان العيش فى هذه الدنيا يغر الانسان بما يمنيه من طول البقاء وسينقطع عن قريب فوصفت بأنها متاع الغرور ولانها تغر ببذل المحبوب

وتخييل للانسان انه يدوم وليس بدائم قال بعضهم الدنيا ظاهرها مطية السرور وباطنها مطية الشرور وقال سعيد بن جبير ان هذا في حق من آثر الدنيا على الآخرة وأما من طلب الآخرة بها فانها نعم المتاع (لتبلون في أموالكم وأنفسكم) أي والله لتختبرن في ذهاب أموالكم بالمهلكات كالغرق والحرق وبالتكاليف كالزكاة والجهاد وفي ما يصيب أنفسكم من البلايا كالامراض والاوجاع والقتل والضرب ومن التكاليف كالصلاة والجهاد والصبر فيهما (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا اذى كثيرا) أي ولتسمعن من اليهود والنصارى ومشركي العرب أنواع الايذاء من الطعن في الدين الحنيف والقدح في أحكام الشرع الشريف وصد من أراد أن يؤمن وتخطيئة من آمن وما كان من كعب بن الاشرف واضرابه من هجاء المؤمنين وتشبيب نسائهم وتحريض المشركين على مضادة رسول صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك مما لا خير فيه (وان تصبروا) على تلك البلوى وأذى الكفار وتستعملوا احتمال المكروه ومداراة الكفار في كثير من الاحوال (وتتقوا) أي تحترزوا عما لا ينبغي وعن المداهنة مع الكفار وعن السكوت عن اظهار الانكار (فان ذلك) أي الصبر والتقوى (من عزم الامور) أي من حزم أمور المؤمنين وخيرها ومن صواب التدبير أو المعنى فان ذلك مما قد عزم عليكم فيه أي ألزمتم الاخذ به ومما يجب ان يعزم عليه كل أحد لانه حميد العاقبة (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) أي واذكر وقت أخذه تعالى العهد على علماء اليهود والنصارى لتذكرن الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة والانجيل للناس ولا تلقوا فيها التأويلات الفاسدة والباطلة قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وأبو عمرو بالغيبة في الفعلين والباقون بالخطاب فيهما (فنبذوه) أي طرحوا الميثاق (وراء ظهورهم) أي فلم يعملوا به (واشتروا به) أي الكتاب (ثمنا قليلا) أي شيأ تافها من الدنيا أي أخفوا الحق ليتوسلوا به الى وجدان شيء من الدنيا (فبئس ما يشترون) أي بئس شيأ يشترونه ذلك الثمن فكل من لم يبين الذي للناس وكتم شيأ منه لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب قلوبهم أو لجر منفعة أو لخوف أو لبخل للعلم دخل تحت هذا الوعيد قال صلى الله عليه وسلم من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار وعن محمد بن كعب قال لا يحل لاحد من العلماء ان يسكت على علمه ولا يحل للجاهل ان يسكت على جهله حتى يسأل وكان قتادة يقول طوبى لعالم ناطق ولمستمع واع هذا علم علما فبذله وهذا سمع خيرا فوعاه (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا) أي بما فعلوا من تحريف نصوص التوراة وتفسيرها بتفسيرات باطلة (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) أي يحبون أن يوصفوا بالدين والفضل والعفاف والصدق (فلا تحسبنهم بمفازة) أي بمباعدة (من العذاب) وقيل نزلت هذه الآية في شأن المنافقين فانهم يفرحون بما أتوا من اظهار الايمان للمسلمين على سبيل النفاق من حيث انهم كانوا يتوصلوا بذلك الى تحصيل مصالحهم في الدنيا ثم كانوا يتوقعون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يحمدهم على الايمان الذي لم يكن موجودا في قلوبهم ولا شك ان هذه الآية واردة في الكفار والمنافقين الذين أمر الله رسوله بالصبر على أذاهم فان أكثر المنافقين كانوا من اليهود والاولى اجراء الموصول على العموم فيشتمل على كل من يأتي بشيء من الحسنات فيفرح به فرح أعجاب ويود أن يمدحه الناس بما هو عار منه من سداد السيرة واستقامة الطريقة والزهد والاقبال على طاعة الله وقرأ حمزة وعاصم والكسائي تحسبن وتحسبنهم بالتاء الفوقية وكلاهما بفتح الباء والتقدير لا تحسبن يا محمد وأيها السامع أو كلاهما بضم الباء والخطاب للمؤمنين والمفعول الاول الذين يفرحون والثاني بمفازة وقوله

تعالى فلا تحسبنهم تأكيد والفاء مقحمة وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بالياء التحتية وكلاهما بفتح الباء والفاعل للرسول وبضمها والفاعل من يتأتى منه الحسبان أو بفتح الباء في الاول وضمها في الثاني وهو قراءة أبي عمرو والفاعل هو الموصول والمفعول الاول محذوف والتقدير ولا يحسبن الذين يفرحون أنفسهم بمفازة من العذاب ويجوز أن يحمل الفعل الاول على حذف المفعولين معا اختصار الدلالة مفعولي الفعل الثاني عليهما أي لا يحسبن هؤلاء أنفسهم فائزين أو على ان الفعل الاول مسند للرسول أو لكل حاسب ومفعوله الاول الموصول والثاني محذوف لدلالة مفعول الفعل الثاني عليه والفعل الثاني مسند الى ضمير الموصول والفاء للعطف لظهور تفرع عدم حسبانهم على عدم حسبانه صلى الله عليه وسلم ومفعولاه ما بعده (ولهم عذاب أليم) أي وجيع في الآخرة (ولله ملك السموات والارض) أي له تعالى السلطان القاهر فيهما بحيث يتصرف فيهما وفيما فيهما كيفما يشاء ايجادا واعداما احياء واماتة تعذيبا واثابة وهو تعالى يملك ما فيهما من خزائن المطر والنبات والرزق (والله على كل شيء قدير) فلا يشذ من ملكوته شيء من الاشياء وكل ما سواه تعالى مقدور له تعالى (ان في خلق السموات والارض) أي في انشائهما على ما هما عليه في ذواتهما وصفاتهما (واختلاف الليل والنهار) أي في تعاقبهما في وجه الارض وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها الناشئين من حركات السموات وسكون الارض أو في تفاوتهما بازديادهما وانتقاصهما باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا وبعدا بحسب الازمنة أو في اختلافهما بحسب الامكنة (لآيات) كثيرة عظيمة دالة على وحدانيته تعالى وقدرته تعالى (لاولي الالباب) أي لذوي العقول المتفكرين في بدائع صنائع الملك الخلاق المتدبرين في حكمه المودعة في الانفس والآفاق وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل مستلق على فراشه اذ رفع رأسه فنظر الى النجوم والى السماء وقال أشهد أن لك ربا وخالقا اللهم اغفر لي فنظر الله اليه فغفر له وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا عبادة كالتفكر وحكي أن الرجل من بني اسرائيل كان اذا عبد الله ثلاثين سنة أظلته سحابة فعبد في تلك المدة فتى من فتيانهم فما أظلته سحابة فقالت له أمه لعل فرطة صدرت منك في مدتك فقال ما أذكر قالت لعلك نظرت مرة الى السماء ولم تعتبر قال نعم قالت فما أوتيت الا من ذلك (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) أي الذين لا يغفلون عن الله تعالى في جميع أوقاتهم لاطمئنان قلوبهم بذكره تعالى واستغراق سرائرهم في مراقبته لما أيقنوا بان كل ما سواه فائض منه وعائد اليه فلا يشاهدون حالا من الاحوال في أنفسهم ولا في الآفاق الا وهم يعاينون في ذلك شأنا من شؤنه تعالى فالمراد ذكره تعالى مطلقا سواء كان ذلك من حيث الذات أو من حيث الصفات والافعال وسواء قارنه الذكر اللساني أولا وتخصيص الاحوال المذكورة بالذكر ليس لتخصيص الذكر بها بل لانها الاحوال المعتادة التي لا يخلو عنها الانسان غالبا والمراد تعميم الذكر للاوقات قال النبي صلى الله عليه وسلم من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله (ويتفكرون في خلق السموات والارض) وعلى وفق هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق أي لان الاستدلال بالخلق على الخالق لا يمكن وقوعه على نعت المماثلة وانما يمكن وقوعه على نعت المخالفة فاذا نستدل بحدوث هذه المحسوسات على قدم خالقها وبكميتها وكيفيتها وشكلها على براءة خالقها عن الكمية والكيفية والشكل وقوله صلى الله عليه وسلم من عرف نفسه عرف ربه معناه من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم ومن عرف نفسه بالامكان عرف ربه بالوجوب ومن عرف نفسه بالحاجة عرف ربه بالاستغناء فكان التفكر في

الخلق ممكنا من هذا الوجه أما التفكر فى الخالق فهو غير ممكن البتة فاذا لا يتصور حقيقته الا بالسلوب فنقول انه ليس بجوهر ولا عرض ولا مركب ولا فى الجهة ولا شك أن حقيقته المخصوصة مغايرة لهذه السلوب وتلك الحقيقة المخصوصة لا سبيل للعقل الى معرفتها فيصير العقل كالواله فلهذا السبب نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التفكر فى الله وأمر بالتفكر فى المخلوقات فلهذه الدقيقة أمر الله فى هذه الآية بذكره ولم يأمر بالتفكر فيه بل أمر بالتفكر فى مخلوقاته قال بعض العلماء الفكرة تذهب الغفلة وتجلب للقلب الخشية كما ينبت الماء الزرع وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا تفضلونى على يونس بن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الارض أى وذلك لان عمله هو التفكر فى معرفة الله لانه لا يقدر أحد أن يعمل بجوارحه مثل عمل أهل الارض وانما هو عمل القلب واعلم أن دلائل التوحيد محصورة فى قسمين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس ولا شك أن دلائل الآفاق أعظم وأعجب فلو أن الانسان نظر الى ورقة صغيرة من أوراق شجرة رأى فى تلك الورقة عرقا واحدا ممتدا فى وسطها ثم يتشعب من ذلك العرق عروق كثيرة الى الجانبين ثم يتشعب منها عروق دقيقة ولا يزال يتشعب من كل عرق عروق أخر حتى تصير فى الدقة بحيث لا يراها البصر وعند هذا يعلم أن للخالق فى تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حكما بالغة وأسرارا عجيبة ولو أراد الانسان أن يعرف كيفية خلقة الورقة لعجز فاذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقة تلك الورقة الصغيرة فاذا قاس تلك الورقة الى السموات مع ما فيها من الشمس والقمر والنجوم والى الارض مع ما فيها من البحار والجبال والمعادن والنبات والحيوان عرف أن تلك الورقة بالنسبة الى هذه الاشياء كالعدم فاذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشئ الحقير عرف انه لا سبيل له الى الاطلاع على عجائب حكمة الله تعالى فى خلق السموات والارض واذا عرف بهذا البرهان قصور عقله لم يبق معه الا الاعتراف بأن الخالق أجل من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين بل يسلم أن فى كل ما خلقه الله تعالى حكما بالغة وأسرارا عظيمة ولا سبيل له الى معرفتها فعند هذا يقول (ربنا ما خلقت هذا) أى المخلوق العجيب (باطلا) أى بغير حكمة بل خلقته بحكمة عظيمة وهى أن تجعلها مساكن للمكلفين الذين اشتغلوا بطاعتك وتحرزوا عن معصيتك ومدارا لمعايش العباد ومنارا يرشدهم الى معرفة أحوال المبدأ والمعاد (سبحانك) وهذا اقرار بعجز العقول عن الاحاطة بآثار حكمة الله تعالى فى خلق السموات والارض أى ان الخلق اذا تفكروا فى هذه الاجسام العظيمة لم يعرفوا منها الا هذا القدر وهو ان خالقها ما خلقها باطلا بل خلقها لحكم عجيبة وأسرار عظيمة وان كانت العقول قاصرة عن معرفتها (فقنا عذاب النار) أى ادفع عنا عذاب النار لانه جزاء من عصى ولم يطع اعلم انه تعالى لما حكى عن هؤلاء العباد المخلصين ان ألسنتهم مستغرقة بذكر الله تعالى وأبدانهم فى طاعة الله وقلوبهم فى التفكر فى دلائل عظمة الله ذكر انهم مع هذه الطاعة يطلبون من الله أن يقيهم عذاب النار لانه يجوز على الله تعذيبهم لانه لا يقبح من الله شئ أصلا (ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته) أى أهنته (وما للظالمين) أى الكافرين (من أنصار) يمنعونهم من عذاب الله تعالى (ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان ان آمنوا بربكم) أى سمعنا نداء مناد وهو كما قال محمد بن كعب القرآن المجيد يدعو الناس الى الايمان أى آمنوا بمتولى أموركم (فآمنا) أى فامتثلنا بأمره وأجبنا نداءه (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) أى كبائرنا (وكفر عنا سيآتنا) أى صغائرنا وقيل المراد بالاول ما يزول بالتوبة وبالثانى ما تكفره الطاعة العظيمة وقيل المراد بالاول ما أتى به الانسان مع العلم بكونه معصية وبالثانى ما أتى به الانسان مع جهله بذلك (وتوفنا

مع الابرار) أى على مثل أعمالهم لنكون فى درجاتهم يوم القيامة أو المعنى توفنا على الايمان واجعلنا مع أرواح النبيين والصالحين (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) والجار والمجرور متعلق بوعدتنا أى وعدتنا على تصديق رسلك أو بمحذوف وقع صفة لمصدر مؤكد محذوف أى وعدتنا وعدا كائنا على ألسنة رسلك وقيل والمعنى وفقنا للاعمال التى نصير بها أهلا لوعدك من الثواب واعصمنا من الاعمال التى نصير بها أهلا للعقاب والخزى (ولا تخزنا) أى لا تفضحنا (يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد) وهذا يدل على أن المقتضى لحصول منافع الآخرة هو الوعد لا الاستحقاق وفى الآثار عن جعفر الصادق من حزبه أمر فقال ربنا خمس مرات أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد واستدل بهذه الآية (فاستجاب لهم ربهم) فيما سألوه من غفران الذنوب واعطاء الثواب (أنى لا أضيع عمل عامل منكم) وقرأ الجمهور بفتح الهمزة وقرأ أبى بأنى بالباء التى للسببية وقرأ عيسى بن عمر بكسر الهمزة والمعنى انى لا أبطل ثواب عمل عامل منكم والمراد حصلت اجابة دعائكم فى كل ما طلبتموه (من ذكر أو أنثى) فلا تفاوت فى الاجابة وفى الثواب بين الذكر والانثى اذا كانا فى التمسك بالطاعة على السوية (بعضكم من بعض) أى بعضكم كبعض فى الثواب عن الطاعة والعقاب على المعصية (فالذين هاجروا) أى اختاروا المهاجرة من أوطانهم فى خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم (وأخرجوا من ديارهم) أى ألجأهم الكفار الى الخروج من منازلهم التى ولدوا فيها (وأوذوا فى سبيلى) أى بسبب طاعتى ومن أجل دينى (وقاتلوا وقتلوا) قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو وقاتلوا بالألف وقتلوا بالمخففة والمعنى قاتلوا العدو ومعه صلى الله عليه وسلم حتى قتلوا فى الجهاد وقرأ ابن كثير وابن عامر وقاتلوا بالألف وقتلوا مشددة لتكرر القتل فيهم وقيل معناه قطعوا وقرأ حمزة والكسائى وقتلوا بغير ألف أولا وقاتلوا بالألف ثانيا أى قتلوا وقد قاتلوا (لأكفرن عنهم سيآتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب) أى ان الله تعالى وعد من فعل ذلك بأمور ثلاثة أولها محو السيآت وغفران الذنوب وذلك هو الذى طلبوه بقولهم فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وثانيها اعطاء الثواب العظيم وهو دخول الجنان وهو الذى طلبوه بقولهم وآتنا ما وعدتنا على رسلك وثالثها كون الثواب مقرونا بالتعظيم وهو المشار اليه بقوله تعالى من عند الله وهو الذى طلبوه بقولهم ولا تخزنا يوم القيامة وقوله تعالى ثوابا مصدر مؤكد لمعنى ما قبله لان معنى مجموع قوله تعالى لأكفرن ولأدخلنهم لاثيبنهم فكأنه قيل لاثيبنهم اثابة من عند الله وقوله تعالى والله عنده حسن الثواب تأكيد لكون الثواب فى غاية الشرف روى ان أم سلمة قالت يارسول الله انى لم أسمع ذكر النساء فى الهجرة فنزل قوله تعالى فاستجاب لهم ربهم الى هنا ولما قال بعض المؤمنين ان أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن فى الجهد نزل قوله تعالى (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد) أى لا تنظر الى ما عليه الكفرة من السعة ووفور الحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى منهم من التبسط فى المكاسب والمتاجر والمزارع (متاع قليل) أى ذلك الذى ترى من الخير منفعة يسيرة فى الدنيا لا قدر لها فى مقابلة ما أعد الله للمؤمنين من الثواب قال صلى الله عليه وسلم ما الدنيا فى الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع رواه مسلم (ثم مأواهم) أى مصيرهم (جهنم وبئس المهاد) أى بئس ما مهد والانفسهم جهنم (لكن الذين اتقوا ربهم) من الشرك والمعاصى وان أخذوا فى التجارة (لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) فلا يضرهم ذلك الكسب (نزلا من عند الله) أى حال كون الجنات عطاء واكراما من الله لهم كما تعد

الضيافة للضيف اكراما (وماعندالله) من الثواب الدائم (خير للابرار) أى للموحدين عما يتقلب فيه الفجار فى الدنيامن المتاع القليل السريع الزوال (وان من أهل الكتاب لمن يومن بالله وما أنزل اليكم) أى القرآن (وما أنزل اليهم) أى التوراة والانجيل قال ابن عباس وجابر وقتادة نزلت هذه الآية فى شأن أصحمة النجاشى حين مات وأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم بموته فقال النبي لأصحابه أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم فخرج الى البقيع وكشف الله له الى أرض الحبشة فابصر سرير النجاشى فصلى عليه واستغفر له فقال المنافقون انظروا الى هذا يصلى على علج حبشى نصرانى لم يره قط وليس على دينه وقال ابن جريج وابن زيد نزلت فى حق عبدالله بن سلام وأصحابه وقال عطاء نزلت فى حق أربعين رجلا من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى فأسلموا وقال مجاهد نزلت فى حق مؤمنى أهل الكتاب كلهم (خاشعين لله) أى متواضعين لله فى الطاعة (لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا) أى لا يكتمون أمر الرسول ونعته كما يفعله غيرهم من أهل الكتاب لغرض المأكل والرياسة (أولئك) أى المتصفون بصفات حميدة (لهم أجرهم عند ربهم) فى الجنة (ان الله سريع الحساب) أى سريع لايصال الاجر الموعود اليهم من غير حاجة الى تأمل لكونه عالما بجميع الاشياء فيعلم مالكل واحد من الثواب والعقاب (يا أيها الذين آمنوا اصبروا) على مشقة الاستدلال فى معرفة التوحيد والنبوة والمعاد وعلى مشقة استنباط الجواب عن شبهات نحو الفلاسفة وعلى مشقة أداء الواجبات والمندوبات وعلى مشقة الاحتراز عن المنهيات وعلى شدائد الدنيا من المرض والفقر والخوف (وصابروا) على تحمل المكاره الواقعة بينكم وبين غيركم فيدخل فيه تحمل الاخلاق الرديئة من أهل البيت والاقارب والجيران وترك الانتقام عن أساء والعفو عمن ظلم والايثار على الغير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد والمصابرة مع المبطلين وحل شبههم (ورابطوا) أى جاهدوا القوى التى هى مصادر الافعال الذميمة من الشهوة والغضب والحرص أو المعنى انتظروا الصلاة بعد الصلاة (واتقوا الله) فى مخالفة أمره وبتقوى الله يحصل دفع القوى الداعية الى القبائح والمنكرات (لعلكم تفلحون) أى كى تنتظموا فى زمرة الفائزين بكل مطلوب الناجين من كل كروب فظهر ان هذه الآية مشتملة على علوم الاصول والفروع وعلى الحكم والاسرار

﴿سورة النساء مدنية وآياتها مائة وست وسبعون وكلماتها ثلاثة آلاف وخمس وأربعون وحروفها ستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفا﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم) بالتناسل (من نفس واحدة) أبيكم آدم (وخلق منها) أى من نفس آدم (زوجها) أمكم حواء روى أنه تعالى لما خلق آدم وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم فبينما هو بين النائم واليقظان خلق حواء من ضلع من اضلاعه اليسرى فلما انتبه وجدها عنده وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان المرأة خلقت من ضلع أعوج فان ذهبت تقيمها كسرتها وان تركتها وفيها عوج استمتعت بها (وبث منهما) أى نشر من تلك النفس وزوجها بطريق التوالد (رجالا كثيرا ونساء) كثيرة روى بن جرير عن ابن اسحق ان بنى آدم لصلبه أربعون فى عشرين بطنا بقيما حفظ من ذكورهم قابيل وهابيل وابا ذوشبوبه وهند ومرانيس ولحور وسندو بارق وشيث ومن نسائهم أقليمة وأشوف وجزورة وعزورا قال ابن عساكر وقد روى ان من بنى آدم لصلبه عبد المغيث

وتوأمته أمة المغيث و وداوسواعاو يغوث و يعوق ونسراو جميع أنساب بنى آدم ترجع الى شيث وسائر أولاده انقرضت أنسابهم من الطوفان (واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام) قرأ عاصم وحمزة والكسائى تساءلون بالتخفيف والباقون بالتشديد وقرأ حمزة وحده والارحام بجر الميم والتقدير واتقوا الله الذى تساءلون به وبالارحام لان العادة جرت فى العرب بأن أحدهم قد يستعطف غيره بالرحم فيقول أسألك بالله والرحم وربما أفرد ذلك فقال أسألك بالرحم وأما قراءة الارحام بالنصب فمعناه واتقوا الله بالتزام طاعته واجتناب معاصيه واتقوا الارحام بوصلها وعدم قطعها فيما يتصل بالبر والاحسان والاعطاء أو يقال والزموا الارحام وصلوها وقد دلت الآية على جواز المسئلة فيما بيننا بالله كقوله بالله أسألك روى مجاهد عن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سألكم بالله فاعطوه (ان الله كان عليكم رقيبا) أى حافظا مطلعا على جميع ما يصدر عنكم من الافعال والاقوال وعلى ما فى ضمائركم من النيات مريدا لمجازاتكم على ذلك (وآتوا اليتامى) الذين بلغوا (أموالهم) التى عندكم وقال أبو السعود أى لاتتعرضوا الاموال اليتامى بسوء حتى تأتيهم وتصل اليهم سالمة سواء أريد باليتامى الصغار أوما يعم الصغار والكبار (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب) أى لا تستبدلوا الحرام الذى هو مال اليتامى بالحلال الذى هو مالكم الذى أبيح لكم من المكاسب بأن تتركوا أموالكم وتأكلوا أموالهم (ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم) أى لا تأكلوا أموالهم مضمومة الى أموالكم حتى لا تفرقوا بين أموالهم وأموالكم فى حل الانتفاع بها فلا يحل لكم من أموالهم ما زاد على قدر الاقل من أجرتكم ونفقتكم (انه) أى وأكل مال اليتيم (كان حوبا كبيرا) أى ذنبا عظيما عند الله نزلت هذه الآية فى رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ طلب المال فمنعه عمه فترافعا الى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فلما سمعها العم قال أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير ودفع ماله اليه (وان خفتم) يا أولياء اليتامى (أن لا تقسطوا) أى ان لا تعدلوا (فى اليتامى) اذا نكحتموهن (فانكحوا) غيرهن من الغرائب روى عن عروة أنه قال قلت لعائشة ما معنى قوله تعالى وان خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى قالت يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى جمالها ومالها ويريد أن ينكحها بأدنى من صداقها ثم اذا تزوج بها عاملها معاملة رديئة لعلمه بأنه ليس لها من يذب عنها فنهوا عن نكاحهن الا أن يقسطوا فى اكمال الصداق وأمروا أن ينكحوا ما سواهن وقال الحسن كان الرجل من أهل المدينة تكون عنده الايتام وفيهن من يحل له نكاحها فيتزوجها لاجل مالها وهى لا تعجبه وانما تزوجها كراهة أن يدخل غريب فيشاركه فى مالها ثم يسيء صحبتها ويتربص بها الى أن تموت فيرثها فعاب الله عليهم ذلك وأنزل هذه الاية وروى عن عكرمة أنه قال كان الرجل عنده نسوة وايتام فاذا أنفق مال نفسه على النسوة ولم يبق له مال وصار محتاجا أخذ فى انفاق أموال اليتامى عليهن فقيل لهم لا تزيدوا على أربع فانهم كانوا يتزوجون من النساء ما شاؤا تسعا أو عشرا وكان تحت قيس بن الحرث ثمان نسوة فحرم الله عليهم ما فوق الاربع أى وان خفتم أن لا تعدلوا فى حق اليتامى اذا تزوجتم بهن باساءة العشرة أو بنقص الصداق فانكحوا (ما طاب لكم من النساء) أى فتزوجوا من استطابتها نفوسكم ومالت اليها قلوبكم من الاجنبيات (مثنى وثلاث ورباع) ولا تزيدوا على أربع (فان خفتم أن لا تعدلوا) بين هذه الاعداد فى القسم والنفقة كما لم تعدلوا فيما فوق هذه الاعداد وكما لم تعدلوا فى حق اليتامى (فواحدة) أى فالزموا أو فاختاروا واحدة وذروا الجمع وقرئ فواحدة بالرفع أى فكفت

واحدة أو بحسبكم واحدة (أو ما ملكت أيمانكم) أى من السرارى فانه لا قسمة لهن عليكم (ذلك أدنى أن لا تعولوا) أى اختيار الحرة الواحدة أو التسرى أقرب الى أن لا تميلوا ميلا محظورا بالنسبة الى ما عداهما والامر يدور مع عدم الجور لا مع تحقق العدل (وآتوا النساء) اللاتى أمرتم بنكاحهن (صدقاتهن) أى مهورهن (نحلة) أى فريضة من الله تعالى كما قاله ابن عباس وقتادة وابن جريج وابن زيد وانما فسر والنحلة بالفريضة لان النحلة فى اللغة معناها الديانة والملة والشرعة والمذهب فقوله تعالى وآتوا النساء صدقاتهن نحلة أى أعطوهن مهورهن لانها شرع بعقود ين ومذهب وما هو كذلك فهو فريضة وانتصاب نحلة على أنها مفعول له أو حال من الصدقات (فان طبن لكم عن شئ منه نفسا) أى فان وهبن لكم شيأ من الصداق بطيبة نفس من غير أن يكون السبب فيه مشكاسة أخلاقكم معهن أو سوء معاشرتكم معهن (فكلوه) أى فخذوا ذلك الشئ وتصرفوا فيه (هنيأ) أى حلالا بلا اثم (مريئا) أى بلا ملامة وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كتب الى قضاته أن النساء يعطين رغبة ورهبة فأيما امرأة أعطته ثم أرادت أن ترجع فذلك لها (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) أى ويا أيها الاولياء لا تؤتوا المبذرين من اليتامى الذين يكونون تحت ولايتكم أموالهم التى فى أيديكم التى جعل الله الاموال معاشكم أى لا يحصل معاشكم الا بهذا المال مخافة أن يضيعوها وأضاف الله المال الى الاولياء من حيث انهم ملكوا التصرف فيه لا لانهم ملكوا المال ويكفى حسن الاضافة أدنى سبب (وارزقوهم فيها) أى انفقوا عليهم (واكسوهم) وانما قال الله فيها ولم يقل منها لئلا يكون ذلك أمرا بجعل بعض أموالهم رزقا لهم بل أمرهم بأن يجعلوا أموالهم مكانا لرزقهم وكسوتهم بأن يتجروا فيها ويثمروها فيجعلوا أرزاقهم من الارباح لا من أصول المال (وقولوا لهم قولا معروفا) أى جميلا وهو كل ما سكنت اليه النفس من قول لحسنه شرعا أو عقلا كأن يقول الولى للصبى مالك عندى وأنا خازن له فاذا رشدت سلمت اليك أموالك (وابتلوا اليتامى) أى واختبروا من لا يتبين منهم السفه قبل البلوغ فى دينهم وتصرفهم فى أموالهم بما يليق بحالهم بأن تجربوا ولد التاجر بالبيع والشراء والمماكسة فيهما وولد الزراع بالزراعة والنفقة على القوام بها والانثى فيما يتعلق بالغزل والقطن وصون الاطعمة عن الهرة ونحوها وحفظ متاع البيت وولد الأمير ونحوه بالانفاق مدة فى خبز وماء ولحم ونحوها قال أبو حنيفة رضى الله عنه تصرفات الصبى العاقل المميز باذن الولى صحيحة لان قوله تعالى وابتلوا اليتامى أمر للاولياء بأن يأذنوا لهم فى البيع والشراء قبل البلوغ وذلك يقتضى صحة تصرفاتهم وقال الشافعى ولا يصح عقد الصبى المميز بل يمتحن فى المماكسة فاذا أراد العقد عقد الولى لانه لا يجوز دفع المال اليه حال الصغر فثبت عدم جواز تصرفه حال الصغر (حتى اذا بلغوا النكاح) أى اذا بلغوا مبلغ الرجل الذى يلزمه الحدود وذلك بأن يحتلموا وانما سمى الاحتلام ببلوغ النكاح لانه انزال الماء الدافق الذى يكون فى الجماع (فان آنستم) أى عرفتم (منهم رشدا) أى اهتداء الى وجوه التصرفات من غير تبذير وعجز عن خديعة الغير (فادفعوا اليهم أموالهم) التى عندكم من غير تأخر عن حد البلوغ وقرئ رشدا بفتحتين ورشدا بضمتين وعند الشافعى يعتبر مع مصلح المال صلاح فى الدين بأن لا يرتكب كبيرة ولا يصر على صغيرة وعند أبى حنيفة هو غير معتبر وفائدة هذا الخلاف أن الشافعى يرى الحجر على الفاسق وأبا حنيفة لا يراه (ولا تأكلوها) أى أموال اليتامى أيها الاولياء (اسرافا وبدارا) أى مسرفين بغير حق ومبادرين الى انفاقها (أن يكبروا) أى مخافة كبرهم فيمنعوكم عن ذلك وتقولون ننفق كما نشتهى

قبل أن يكبر اليتامى فينزعوها من أيدينا (ومن كان) من الاولياء والاوصياء (غنيا) عن مال اليتيم (فليستعفف) أى فليتنزه عن أكلها وليقنع بما آتاه الله تعالى من الرزق اشفاقا على اليتيم وابقاء على ماله (ومن كان) من الاولياء والاوصياء (فقيرا) محتاجا (فليأكل بالمعروف) أى بقدر أجرة خدمته لليتيم وعمله فى مال اليتيم ويقال فليأكل بالمعروف أى بالقرض ثم اذا أيسر قضاه وان مات ولم يقدر على القضاء فلا شئ عليه وهذا قول سعيد بن جبير ومجاهد وأبى العالية وهذا القرض فى أصول الاموال أما نحو ألبان المواشى واستخدام العبيد وركوب الدواب فباح لنحو الوصى اذا كان غير مضر بالمال وهذا قول أبى العالية وغيره (فاذا دفعتم اليهم) أى اليتامى (أموالهم) بعد البلوغ والرشد (فأشهدوا) ندبا (عليهم) عند الدفع فان الاشهاد أبعد من الخصومة ولو ادعى الوصى بعد بلوغ اليتيم انه قد دفع المال اليه أو قال أنفقت عليه فى صغره فقال مالك والشافعى لا يصدق وقال أبو حنيفة يصدق مع اليمين وقال الشافعى القيم غير مؤتمن من جهة اليتيم وانما هو مؤتمن من جهة الشرع (وكفى بالله حسيبا) أى شهيدا روى ان رفاعة مات وترك ابنه ثابتا وهو صغير فجاء عمه الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال ابن أخى يتيم فى حجرى فما يحل لى من ماله ومتى أدفع اليه ماله فأنزل الله قوله تعالى وابتلوا اليتامى الى هنا (للرجال نصيب) أى للاولاد والاقرباء الذكور صغارا أو كبارا حظ (مما ترك الوالدان والاقربون) المتوارثون منهم (وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون) أى المتوفون (مما قل منه) أى مما تركوه (أو كثر) وأتى بهذه الجملة لتحقيق ان لكل من الفريقين حقا من كل ما جل ودق ولدفع توهم اختصاص بعض الاموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرجال (نصيبا مفروضا) أى أعنى نصيبا مقدرا مقطوعا بتسليمه اليهم فالوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه بالاعراض وهذا ابطال لحكم الجاهلية فانهم لا يورثون النساء والاطفال ويقولون انما يرث من طاعن بالرماح واذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة وذكر الله فى هذه الآية ان الارث أمر مشترك فيه بين الرجال والنساء ثم ذكر التفصيل فى قوله تعالى يوصيكم الله فى أولادكم (واذا حضر القسمة) أى قسمة التركة (أولوا القربى) أى قرابة الميت الذى ليس بوارث (واليتامى) أى يتامى المؤمنين (والمساكين) أى مساكين المؤمنين من الاجانب (فارزقوهم منه) أى اعطوهم من المال المقسوم شيأ قبل القسمة (وقولوا لهم قولا معروفا) وهذا الاعطاء مندوب اذا كانت الورثة كبارا أما اذا كانوا صغارا فليس على الولى الا القول المعروف كأن يقول انى لا أملك هذا المال انما هو لهؤلاء الضعفاء الذين لا يعقلون وان يكبروا فسيعرفون حقكم أو يقول سأوصيهم ليعطوك شيأ (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم) أى وليخف الذين يحضرون المريض على أولاد المريض ان تركوا بعد موتهم أولادا صغارا خافوا عليهم الضياع وهذا خطاب مع الذين يجلسون عند المريض فيقولون ان ذريتك لا يغنون عنك من الله شيأ فأوص بمالك لفلان وفلان ولا يزالون يأمرونه بالوصية الى الاجانب الى ان لا يبقى من ماله للورثة شئ أصلا وحاصل الكلام انك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك فلا ترضى لأخيك المسلم عن أنس قال قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يؤمن العبد حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه (فليتقوا الله) فى أمر اليتامى (وليقولوا قولا سديدا) أى عدلا اذا أرادوا بعث غيرهم على فعل بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لاولادهم بالشفقة والتأديب ويخاطبونهم بقولهم يا ولدى يابنى وبأن يقولوا للمريض اذا أردت الوصية فلا تسرف فى وصيتك ولا تجحف بأولادك ويذكروه التوبة وكلمة الشهادة وبأن يلطف الورثة

القول للحاضرين الذين لا يرثون حال قسمة الميراث (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) أى على وجه الغصب (انما يأكلون فى بطونهم نارا) أى حراما يؤدى الى النار أو يقال يجعل الله فى بطونهم نارا يوم القيامة بأن يخلق الله لهم نارا يأكلونها فى بطونهم (وسيصلون سعيرا) أى سيدخلون نارا وقودا لا يعرف غاية شدتها الا الله تعالى قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وسيصلون بضم الياء والباقون بالفتح وقرئ شاذة بضم الياء وتشديد اللام نزلت هذه الآية فى شأن حنظلة بن شمردل وقيل فى شأن رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد ولى مال يتيم وكان اليتيم ابن أخيه فأكله (يوصيكم الله فى أولادكم) أى يبين الله لكم فى ميراث أولادكم بعد موتكم * روى عطاء قال استشهد سعد بن الربيع وترك ابنتين وامرأة وأخا فأخذ الاخ المال كله فأتت المرأة وقالت يارسول الله هاتان ابنتا سعد وان سعدا قتل وان عمهما أخذ مالهما فقال صلى الله عليه وسلم ارجعى فلعل الله سيقضى فيه ثم انها عادت بعد مدة وبكت فنزلت هذه الآية فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمهما وقال اعط ابنتى سعد الثلثين وأمهما الثمن ومابقى فهو لك فهذا أول ميراث قسم فى الاسلام (للذكر مثل حظ الانثيين) أى فاذا خلف الميت ذكرا واحدا وأنثى واحدة فللذكر سهمان وللانثى سهم واذا كان الوارث جماعة من الذكور وجماعة من الاناث كان لكل ذكر سهمان ولكل أنثى سهم واذا كان مع الاولاد أبوان وأحد الزوجين فالباقى بعد سهام الابوين وأحد الزوجين بين الاولاد للذكر مثل حظ الانثيين (فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك) أى فان كانت بنات الصلب نساء خلصا بنتين أو أكثر فلتلك النساء ثلثا ماترك المتوفى (وان كانت) أى الوارثة بنتا (واحدة فلها النصف) وقرأ نافع واحدة بالرفع فكان تامة (ولابويه) أى الميت (لكل واحد منهما السدس مماترك) أى الميت (ان كان له ولد) ذكر أو أنثى أى فان كان مع الابوين ولد ذكر فأكثر أو بنتان فأكثر فلكل واحد من الاب والام السدس وان كان معها بنت فلها النصف وللام السدس وللاب السدس بحكم هذه الآية والسدس الباقى للاب أيضا بحكم التعصيب (فان لم يكن له) أى الميت (ولد وورثه أبواه فلامه الثلث) وذلك فرض لها والباقى للاب فيأخذ السدس بالفريضة والنصف بالتعصيب واذا انفرد أخذ كل المال كما هو شأن العصبة واذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين فللام ثلث مايبقى بعد فرضه والباقى للاب خلافا لابن عباس فان للام ثلث الكل عنده ووافقه ابن سيرين فى الزوجة وخالفه فى الزوج لان الثلث فيه يفضى الى كون نصيب الانثى مثل نصيب الذكرين (فان كان له) أى الميت (اخوة) اثنان فصاعدا من جهة الابوين أو من جهة أحدهما ذكورا أو اناثا وارثون أو محجوبون بالاب (فلامه السدس) والباقى للاب ولاشئ للاخوة وأما السدس الذى حجبوها عنه فهو للاب عند وجوده ولهم عند عدمه (من بعد وصية) أى هذه الانصباء للورثة من بعد اخراج وصية (يوصى بها أودين) وذلك لان أول مايخرج من التركة الدين حتى لو استغرق الدين كل مال الميت لم يكن للورثة فيه حق فأما اذا لم يكن دين أو كان الا انه قضى وفضل بعده شئ فان أوصى الميت بوصية أخرجت من ثلث مافضل ثم قسم الباقى ميراثا على فرائض الله تعالى قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم يوصى بفتح الصاد وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائى بكسر الصاد (آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا) والمعنى ان قسمة الله لهذه المواريث أولى من القسمة التى تميل اليها طباعكم (فريضة من الله) أى فرض ذلك فريضة وهذا اشارة الى وجوب الانقياد لهذه القسمة التى قدرها الشرع وقضى بها (ان الله كان عليما) أى بالمصالح والرتب (حكيما) فى كل ماقضى وقدر قال ابن عباس ان الله ليشفع

المؤمن

المؤمنين بعضهم فى بعض فأطوعكم لله تعالى من الابناء والآباء أرفعكم درجة فى الجنة وان كان الوالد أرفع درجة فى الجنة من ولده رفع الله اليه ولده بمسئلته ليقر بذلك عينه وان كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله اليه والديه ولذا قال تعالى لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا لان أحد المتوالدين لايعرف أن انتفاعه فى الجنة بهذا أكثر أم بذلك (ولكم نصف ماترك أزواجكم) من المال (ان لم يكن لهن ولد) ذكر أو أنثى منكم أو من غيركم والباقى لورثتهن (فان كان لهن ولد) وارث واحد أو متعدد (فلكم الربع مما تركن) من المال والباقى لباقى الورثة (من بعد وصية) أى هذه الانصباء انما تدفع الى هؤلاء اذا فضل عن وصية (يوصين بها أودين) أى أو من بعد قضاء دين عليهن (ولهن الربع مما تركتم) من المال (ان لم يكن لكم ولد) ذكر أو أنثى منهن أو من غيرهن والباقى لبقية ورثتكم من أصحاب الفروض والعصبات أوذوى الارحام أو لبيت المال ان لم يكن لكم وارث آخر أصلا (فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم) من المال والباقى للباقين (من بعد وصية توصون بها أودين) أى أو من بعد قضاء دين عليكم من المال (وان كان رجل) أى ميت (يورث كلالة) أى لاولد له ولاوالد (أوامرأة) أى أو كانت امرأة تورث كلالة (وله) أى الميت (أخ أو أخت) من أمه فقط (فلكل واحد منهما) أى الاخ والاخت (السدس) من غير تفضيل للذكر على الانثى لان الادلاء الى الميت بمحض الانوثة (فان كانوا) أى من يرث من الاخوة من الام (أكثر من ذلك) أى من الواحد (فهم) أى الزائد على الواحد كيفما كانوا (شركاء فى الثلث) فالذكر والانثى فيه سواء والباقى لبقية الورثة من أصحاب الفروض والعصبات (من بعد وصية يوصى بها أودين غير مضار) للورثة بأن يوصى بأكثر من الثلث أو يقر بكل ماله أو ببعضه لاجنبى أو يقر على نفسه بدين لاحقيقة له أو يقر بأن الدين الذى له على الغير قد وصل اليه أو يبيع شيأ بثمن بخس أو يشترى شيأ بثمن غال أو يوصى بالثلث لغرض تنقيص حقوق الورثة (وصية من الله) أى فريضة من الله عليكم فى قسمة المواريث وقيل المعنى وصية من الله بالاولاد وان لايدعهم عالة يتكففون وجوه الناس بسبب الاسراف فى الوصية وينصر هذا الوجه قراءة الحسن غير مضار وصية بالاضافة (والله عليم) بمن جار أو عدل فى وصيته (حليم) على الجائر لايعاجله بالعقوبة فلا يغتر بالامهال (تلك) أى شؤون الايتام وأحكام الانكحة وأحوال المواريث (حدود الله) أى أحكام الله (ومن يطع الله ورسوله) فى جميع الاوامر والنواهى (يدخله جنات) نصب على الظرفية عند الجمهور وعلى المفعولية عند الاخفش (تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) حال من الهاء فى يدخله وهى عائدة على من وهو مفرد فى اللفظ جمع فى المعنى فلهذا صح الوجهان (وذلك) أى دخول الجنات على وجه الخلود (الفوز العظيم) الذى لافوز وراءه (ومن يعص الله ورسوله) ولو فى بعض الاوامر والنواهى (ويتعد حدوده) أى يتجاوز أحكامه بالجور وقال الكلبى أى ومن يكفر بقسمة الله المواريث ويتعد حدوده استحلالا وقال عكرمة عن ابن عباس من لم يرض بقسم الله تعالى ويتعد ما قال الله تعالى (يدخله نارا) أى عظيمة هائلة (خالدا فيها وله عذاب مهين) أى وله مع عذاب الحريق الجسمانى عذاب شديد روحانى وقرأ نافع وابن عامر ندخله بنون العظمة فى الموضعين والباقون بالياء (واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) أى اللاتى يفعلن الزنا كائنات من أزواجكم المحصنات فاطلبوا أن يشهد عليهن بفعله أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم وقرئ بالفاحشة (فان شهدوا) عليهن بذلك كما ينبغى (فأمسكوهن فى

البيوت) أى تخلدوهن محبوسات فى بيوتكم (حتى يتوفاهن الموت) أى الى ان يأخذهن الموت و يستوفى أرواحهن (أو يجعل الله لهن سبيلا) أى أو الى أن يشرع لهن حكما خاصا بهن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا الثيب ترجم و البكر تجلد وتنفى (واللذان يأتيانها منكم) أى البكران اللذان يأتيان الفاحشة من أحراركم (فآذوهما) بالتهديد والتعيير كأن يقال بئس مافعلتما وقد تعرضتما لعقاب الله وسخطه وأخرجتما أنفسكما عن اسم العدالة و يخوفا بالرفع الى الامام و بالحد وقرأ ابن كثير واللذان بتشديد النون (فان تابا) عما فعلا من الفاحشة بعذر واجر الاذية (وأصلحا) أعمالهما فيما بينهما و بين الله (فأعرضوا عنهما) أى اتركوا ايذاءهما (ان الله كان توابا) أى كثير القبول للتوبة ممن تاب (رحيما) أى واسع الرحمة وقد نسخ الايذاء باللسان للفتى والفتاة بجلد مائة وقال أبو مسلم الاصفهانى والمراد بقوله تعالى واللاتى يأتين الفاحشة السحاقات وحدهن الحبس الى الموت أو الى ان يسهل الله لها اقتضاء الشهوة بطريق النكاح والمراد بقوله تعالى واللذان يأتيانها منكم أهل اللواط وحدهما الاذى بالقول والفعل (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة) أى انما التوبة التى يجب على الله قبولها وجوب الكرم والفضل لا وجوب الاستحقاق للذين يعملون المعصية مع عدم علمه بانها معصية لكن يمكنه تحصيل العلم بانها معصية (ثم يتوبون من قريب) أى من زمان قريب وهو ماقبل معاينة سبب الموت وأهواله (فأولئك يتوب الله عليهم) أى يتجاوز الله عنهم (وكان الله عليما) بانه انما أتى بتلك المعصية لاستيلاء الشهوة والجهالة عليه (حكيما) بأن العبد لما كان من صفته ذلك ثم تاب قبل سوق الروح فانه يجب فى الكرم والاحسان قبول توبته (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن) أى وليس قبول التوبة للذين يعملون الذنوب الى حضور موتهم أى علامات قربه وقولهم حينئذ انى تبت الآن ولذلك لم ينفع ايمان فرعون حين أدركه الغرق روى أبو أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر أى مالم تردد الروح فى حلقه وقال عطاء ولو قبل موته بفواق الناقة وعن الحسن ان ابليس قال حين أهبط الى الارض وعزتك لا أفارق ابن آدم مادامت روحه فى جسده فقال الله وعزتى لا أغلق عليه باب التوبة مالم يغرغر (ولا الذين يموتون وهم كفار) أى وليس قبول التوبة للذين يموتون على الكفر اذا تابوا فى الآخرة عند معاينة العذاب (أولئك) أى الكفار (أعتدنا لهم عذابا أليما) بيان لكونهم مختصين بسبب كفرهم بمزيد العقوبة والاذلال نزلت هذه الآية فى حق طعمة وأصحابه الذين ارتدوا قاله ابن عباس (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء) أى عين النساء (كرها) أى لا يحل لكم ان تأخذوهن بطريق الارث وهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه نزلت هذه الآية فى حق أهل المدينة كانوا فى الجاهلية وفى أول الاسلام اذا مات الرجل وكانت له زوجة جاء ابنه من غيرها أو بعض أقاربه فالقى ثوبه على المرأة وقال ورثت امرأته كما ورثت ماله فصار أحق بها من سائر الناس ومن نفسها فان شاء تزوجها بغير صداق وان شاء زوجها من انسان آخر وأخذ صداقها ولم يعطها منه شيأ فأنزل الله تعالى هذه الآية قرأ حمزة والكسائى كرها بضم الكاف هنا وكذا فى التوبة وفى الاحقاف وقرأ عاصم وابن ذكوان عن ابن عامر فى الاحقاف بالضم والباقون بالفتح وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالفتح فى جميع ذلك قال الفراء الكره بالفتح الاكراه وبالضم المشقة فما أكره عليه فهو كره بالفتح وما كان من قبل نفسه فهو كره بالضم (ولا تعضلوهن) أى وكذلك لا يحل لكم بعد التزوج بهن الحبس والتضييق (لتذهبوا

ببعض

بعض ما آتيتموهن) من المهر (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بفتح الياء والباقون بالكسر أى ببينة القبح من النشوز وشكاسة الخلق وايذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة ويدل عليه قراءة أبى بن كعب الا أن يفحشن عليكم والمعنى لا يحل لكم ان تضيقوا الامر عليهن لعلة من العلل الا لاتيانهن بالنشوز فان السبب حينئذ يكون من جهتهن فقد عذرتم فى طلب الخلع (وعاشروهن بالمعروف) أى النصفة فى المبيت والنفقة والاجمال فى القول (فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) أى فان كرهتم صحبتهن فأمسكوهن بالمعروف ولا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك فقد قربت كراهتكم شيأ أى صحبة معهن مع كون الله جعل فى صحبتهن خيرا كثيرا كحصول ولد فتنقلب الكراهة محبة وكاستحقاق الثواب الجزيل فى العقبى والثناء الجميل فى الدنيا للانفاق عليهن والاحسان اليهن على خلاف الطبع (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج) أى وان أردتم تزوج امرأة ترغبون فيها بدل امرأة تنفرون عنها بأن أردتم ان تطلقوها (وآتيتم احداهن قنطارا) أى وقد أعطيتم احدى الزوجات التى تريدون أن تطلقوها مالا كثيرا من الصداق (فلا تأخذوا منه) أى من ذلك القنطار (شيأ) أى يسيرا أى ان كان سوء العشرة من قبل الزوج كره له أن يأخذ شيأ من مهرها ثم ان وقعت المخالعة ملك الزوج بذل الخلع وان كان من قبل المرأة فيحل أخذ بدل الخلع (أتأخذونه) أى المهر (بهتانا) أى ظلما (واثما مبينا) أى حراما بينا أى ان أخذ المال طعن فى ذاتها وأخذ لمالها فهو بهتان من وجه وظلم من وجه آخر فكان ذلك معصية عظيمة من أمهات الكبائر روى ان الرجل اذا مال الى التزوج بامرأة أخرى رمى زوجته نفسه بالفاحشة حتى يلجئها الى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه الى تزوج المرأة التى يريدها (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض) أى ولاى وجه تأخذون المهر وقد اجتمعتم فى لحاف واحد فانها قد بذلت نفسها لك وجعلت ذاتها لذتك وتمتعك وحصلت الالفة التامة بينكما فكيف يليق بالعاقل ان يسترد منها شيأ فهذا لا يليق بمن له طبع سليم وذوق مستقيم (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) قال ابن عباس ومجاهد وهو كلمة النكاح المعقودة على الصداق وتلك الكلمة كلمة تستحل بها فروج النساء قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله وهذا الاسناد مجاز عقلى من الاسناد للسبب لان الآخذ للعهد حقيقة هو الله لكن بولغ فيه حتى جعل كأنهن الآخذات له أى وقد أخذ الله عليكم العهد بسببهن (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف) أى لا تنكحوا التى نكحها آباؤكم من النساء فانه موجب للعقاب الا ما قد مضى قبل نزول آية التحريم فانه معفو عنه ويقال ولا تنكحوا نكاح آبائكم فان أنكحتهم كانت بغير ولى وشهود وكانت موقتة وعلى سبيل القهر وهذا الوجه منقول عن محمد بن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية وقيل المعنى لا تزوجوا امرأة وطئها آباؤكم بالزنا الا ما قد سلف من الاب فى الجاهلية من الزنا بامرأة فانه يجوز للابن تزوجها كما نقل هذا المعنى عن ابن زيد وكما قال أبو حنيفة يحرم على الرجل ان يتزوج بمزنية أبيه لهذه الآية وقال الشافعى لا يحرم (انه) أى نكاح نساء الآباء (كان فاحشة) أى قبيحا لان زوجة الاب تشبه الام فكانت مباشرتها من أفحش الفواحش (ومقتا) أى ممقوتا عند ذوى المروآت من الجاهلية وغيرهم وكانت العرب تقول لولد الرجل من امرأة أبيه مقتى (وساء سبيلا) أى بئس مسلكا نزلت هذه الآية فى حق محصن بن قيس الانصارى واعلم ان مراتب القبح ثلاثة القبح فى العقول وفى الشرائع

وفى العادات فقوله تعالى انه كان فاحشة اشارة الى القبح العقلى وقوله تعالى ومقتا اشارة الى القبح الشرعى وقوله وساء سبيلا اشارة الى القبح العادى ومتى اجتمعت فيه هذه الوجوه فقد بلغ الغاية فى القبح (حرمت عليكم امهاتكم) من النسب (وبناتكم) من النسب (وأخواتكم) من النسب من أى وجه يكن (وعماتكم) أى اخوات آبائكم (وخالاتكم) أى اخوات أمهاتكم (وبنات الاخ) من النسب من أى وجه يكن (وبنات الاخت) من النسب من أى وجه يكن (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم) فى الحولين خمس رضعات متفرقات عند الشافعى وابن حنبل وقال أبو حنيفة ومالك يحصل التحريم بمصة واحدة وفاقا للاوزاعى ولسفيان الثورى وعبد الله بن المبارك كقول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب (وأخواتكم من الرضاعة) وهى من أرضعتها أمك أو ارتضعت بلبن أبيك أو ولدتها مرضعتك أو ولدها الفحل (وأمهات نسائكم) من نسب أو رضاع سواء دخل بزوجته أم لا (وربائبكم اللاتى فى حجوركم) أى وبنات نسائكم اللاتى ربيتم فى بيوتكم (من نسائكم اللاتى دخلتم بهن) اى جامعتموهن سواء كان ذلك بعقد صحيح أو فاسد (فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) فى نكاح الربائب بعد طلاق أمها أو موتها (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) أى ونساء أبنائكم الذين من أولاد فراشكم دون نساء أولاد الادعياء قال الشافعى لا يجوز للاب أن يتزوج بجارية ابنه لانها حليلته وقال أبو حنيفة يجوز واتفقوا على أن حرمة التزوج بحليلة الابن تحصل بنفس العقد كما أن حرمة التزوج بحليلة الأب تحصل بذلك (وأن تجمعوا بين الأختين) بالنكاح وبالوطء فى ملك اليمين لا فى نفس ملك اليمين قال الشافعى نكاح الاخت فى عدة الأخت البائن جائز لانه لم يوجد الجمع وقال أبو حنيفة لا يجوز (الا ما قد سلف) أى قد مضى فى الجاهلية فانه مغفور لكم (ان الله كان غفورا) فيما كان منكم فى الجاهلية (رحيما) أى فيما يكون منكم فى الاسلام اذا تبتم (والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم) أى وحرم عليكم نكاح ذوات الازواج كائنات من جميع النساء الا ما ملكت أيمانكم من السبايا فانهن حلال لكم بعدما استبرأتم أرحامهن بحيضة وان كان أزواجهن فى دار الحرب واختلف القراء فى كلمة المحصنات سواء كانت معرفة بال أم نكرة فقرأ الجمهور بفتح الصاد والكسائى بكسرها فى جميع القرآن الا التى فى هذه الآية فانهم أجمعوا فيها على الفتح والمعنى أحصنهن الأزواج بالتزوج أى أعفوهن عن الوقوع فى الحرام والاولياء أعفوهن عن افساد بالتزويج وهن يحصن أزواجهن عن الزنا ويحصن فروجهن عن غير أزواجهن بعفافهن (كتاب الله عليكم) أى كتب عليكم تحريم ما تقدم ذكره من المحرمات كتابا من الله أو المعنى الزموا كتاب الله (وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم وأحل لكم بالبناء للمفعول عطفا على قوله حرمت عليكم والباقون وأحل بالبناء للفاعل عطفا على كتاب الله أى كتب الله عليكم تحريم هذه الاشياء وأحل لكم ما وراءها ومحل أن تبتغوا رفع على البدل من ما على القراءة الاولى ونصب على القراءة الثانية وقوله محصنين حال وقيل خبر كان الناقصة والمعنى وأحل لكم ما سوى المحرمات المعدودة أن تطلبوا النساء بصرف أموالكم فى المهور أو الاثمان على طريق النكاح الى الأربع أو التسرى للاماء حال كونكم متعففين عن الزنا وغير زانين وهذا تكرير للتأكيد وقيل المعنى كونوا مع النساء متزوجين أو متسرين (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) أى فاى فعل استنفعتم به من جهة المنكوحات من جماع أو عقد فاعطوهن مهورهن لاجله بالتمام ان استنفعتم بالدخول ولو مرة وبالنصف ان استنفعتم بعقد النكاح (فريضة) أى حال كون أجورهن مفروضة

من

من الله عليكم (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به) أى لا اثم عليكم فى ان تهب المرأة للزوج مهرها أو يهب الزوج للمرأة المطلقة قبل الدخول تمام المهر أو فيما تراضيا به من نفقة ونحوها (من بعد الفريضة) أى من بعد ذكر المقدار المعين (ان الله كان عليما) بمصالح العباد (حكيما) فلا يشرع الاحكام الا على وفق الحكمة وذلك يوجب التسليم لأوامره والانقياد لاحكامه (ومن لم يستطع منكم) أيها الاحرار (طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات) أى الحرائر (فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) أى من امائكم المؤمنات فقوله تعالى أن ينكح اما مفعول لطولا واما بدل منه واما مفعول ليستطع وطولا مصدر مؤكد له لانه بمعناه اذ الاستطاعة هى الطول أى الفضل والزيادة فى المال أو تمييز أى ومن لم يستطع منكم زيادة فى المال يبلغ بها نكاح الحرائر فلينكح الاماء أو المعنى ومن لم يستطع منكم استطاعة نكاحهن أو المعنى ومن لم يستطع منكم من جهة سعة المال لا من جهة الطبيعة نكاح الحرة فلينكح الأمة لانها فى العادة تخفيف مهورها ونفقتها لاشتغالها بخدمة السيد بخلاف الحرة الفقيرة ويقال للمرأة الحديثة السن فتاة وللغلام فتى والامة تسمى فتاة سواء كانت عجوزا أم شابة لانها كالشابة فى انها لا توقر توقير الكبير وقال مجاهد وسعيد والحسن ومالك والشافعى لا يجوز التزوج بالامة الكتابية سواء كان الزوج حرا أو عبدا وقال أبو حنيفة يجوز (والله أعلم بايمانكم) أى انه تعالى أعلم منكم بمراتبكم فى الايمان فرب أمة يفوق ايمانها ايمان الحرائر فاعملوا على الظاهر فى الايمان فانكم مكلفون بظواهر الامور والله يتولى السرائر والحقائق (بعضكم من بعض) أى كلكم مشتركون فى الايمان وهو أعظم الفضائل فاذا حصل الاشتراك فى ذلك كان التفاوت فيما وراءه غير معتبر روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاث من أمر الجاهلية الطعن فى الانساب والفخر بالاحساب والاستسقاء بالانواء (فانكحوهن باذن أهلهن) أى سيدهن (وآتوهن أجورهن بالمعروف) أى اعطوهن مهورهن على العادة الجميلة عند المطالبة من غير مطل (محصنات) أى عفائف عن الزنا وهى حال من مفعول فانكحوهن (غير مسافحات) أى غير مؤجرات نفسها مع أى رجل أرادها (ولا متخذات أخدان) أى غير متخذات أخلاء معينين يزنون بها سرا (فاذا أحصن) أى زوجن وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر بالبناء للفاعل أى أسلمن كما قاله عمر وبن مسعود والشعبى والنخعى والسدى (فان أتين بفاحشة) أى فان فعلن زنا (فعليهن نصف ما على المحصنات) أى فثابت عليهن شرعا نصف ما على الحرائر الابكار (من العذاب) أى الحد فيجلدون خمسين ويغربن نصف سنة كما هو كذلك قبل الاحصان وهذه الآية بيان عدم تفاوت حدهن بالاحصان كتفاوت حد الحرائر فتخفيف الحد للرق (ذلك) أى نكاح الاماء حلال (لمن خشى العنت منكم) أى الضرر الشديد فى العزوبة بالشبق الشديد فانه قد يحمل على الزنا وقد يؤدى بالانسان الى الامراض الشديدة (وأن تصبروا) عن نكاح الاماء (خير لكم) لما فى نكاحهن من تعريض الولد للرق (والله غفور رحيم) بأباحته لكم فى نكاح الاماء وان كان يؤدى الى ارقاق الولد مع أن هذا يقتضى المنع منه لاحتياجكم اليه فكان ذلك من باب المغفرة والرحمة (يريد الله ليبين لكم) ما هو خفى عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم (ويهديكم سنن الذين من قبلكم) أى يرشدكم طرائق الانبياء والصالحين لتقتدوا بهم فكل ما بين الله تحريمه وتحليله لنا من النساء كان الحكم كذلك فى جميع الشرائع والملل (ويتوب عليكم) اذا تبتم اليه تعالى عما يقع منكم من التقصير فى مراعاة الشرائع (والله عليم) بأحوالكم (حكيم) فى كل ما يفعله بكم ويحكم عليكم (والله يريد أن يتوب عليكم) أى أن يتجاوز

عنكم حين حرم عليكم الزنا ونكاح الاخوات من الاب (ويريد الذين يتبعون الشهوات) فى نكاح الاخوات من الاب وهم اليهود وفى الزنا وهم الفجرة (أن تميلوا ميلا عظيما) بموافقتهم على استحلال المحرمات فى قول اليهود ان نكاح الاخوات من الأب حلال فى كتابنا وعلى اتباع الشهوات فان الزانى يحب ان يشركه فى الزنا غيره ليتفرق اللوم عليه وعلى غيره (يريد الله أن يخفف عنكم) فى جميع أحكام الشرع كاباحة نكاح الامة عند الضرورة (وخلق الانسان ضعيفا) أى عاجزا عن مخالفة هواه غير قادر على مقابلة دواعيه حيث لا يصبر عن النساء وعن اتباع الشهوات ولا يستخدم قواه فى مشاق الطاعات ولذلك خفف الله تكليفه وقرأ ابن عباس وخلق الانسان على البناء للفاعل والضمير لله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) أى بما يخالف الشرع كالغصب والسرقة والخيانة والقمار وعقود الربا وشهادة الزور والحلف الكاذب وجحد الحق (الا أن تكون تجارة عن تراض منكم) قرأ عاصم وحمزة والكسائى تجارة بالنصب أى لا يأكل بعضكم أموال بعض بغير طريق شرعى بل كلوا بان تكون الأموال تجارة صادرة عن تراض منكم والباقون بالرفع أى لكن بأن توجد تجارة عن طيب نفس (ولا تقتلوا أنفسكم) أى لا تفعلوا ما تستحقون به القتل من قتل المؤمن بغير حق والردة والزنا بعد الاحصان (ان الله كان بكم رحيما) حيث نهاكم عن كل ما تستوجبون به مشقة (ومن يفعل ذلك) أى ما نهى عنه من قتل النفس وغيره من المحرمات (عدوانا) أى افراطا فى مجاوزة حد الحلال (وظلما) أى اتيانا بما لا يستحقه (فسوف نصليه) أى ندخله (نارا) هائلة شديدة العذاب (وكان ذلك) أى أصلاؤه النار (على الله يسيرا) أى هينا (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) فى هذه السورة (نكفر عنكم سيآتكم) أى صغائركم من جماعة الى جماعة ومن جمعة الى جمعة ومن شهر رمضان الى شهر رمضان (وندخلكم) فى الآخرة (مدخلا كريما) قرأ نافع بفتح الميم والباقون بالضم أى موضعا حسنا وهو الجنة (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) قال ابن عباس لا يتمنى الرجل مال غيره ودابته وامرأته ولا شيأ من الذى ثبت له كالجاه وغير ذلك مما يجرى فيه التنافس وذلك هو الحسد المذموم لان ذلك التفضيل قسمة من الله تعالى صادرة من حكمة وتدبير لائق بأحوال العباد متفرع على العلم بجلائل شؤنهم ودقائقها واسألوا الله من فضله وقولوا اللهم ارزقنا مثله أو خيرا منه مع التفويض ويقال نزلت هذه الآية فى حق أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم لقولها للنبى ليت الله كتب علينا ما كتب على الرجال لكى نؤجر كما يؤجر الرجال فنهى الله عن ذلك وقال ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم أى الرجال على بعض أى النساء من الجماعة والجمعة والجهاد والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم بين الله تعالى ثواب الرجال والنساء باكتسابهم فقال (للرجال نصيب) أى ثواب (مما اكتسبوا) أى الخير كالجهاد والنفقة على النساء (وللنساء نصيب) أى ثواب (مما اكتسبن) من الخير فى بيوتهن كحفظ فروجهن وطاعة الله وأزواجهن وقيامهن بمصالح البيت من الطبخ والخبز وحفظ الثياب ومصالح المعاش وكالطلق والارضاع (واسألوا الله) قرأ ابن كثير والكسائى وسلوا الله بغير همز (من فضله) أى واسألوا الله ما احتجتم اليه يعطكم من خزائنه التى لا تنفد قال الفخر الرازى قوله تعالى واسألوا الله من فضله تنبيه على ان الانسان لا يجوز له ان يعين شيأ فى الطلب والدعاء ولكن يطلب من فضل الله ما يكون سببا لصلاحه فى دينه ودنياه على سبيل الاطلاق اه وقد جاء فى الحديث لا يتمنين أحدكم مال أخيه ولكن ليقل اللهم ارزقنى اللهم

اعطني مثله وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سلوا الله من فضله فانه يحب أن يسئل وأفضل العبادة انتظار الفرج (ان الله كان بكل شئ عليما) ولذلك جعل الناس على طبقات فرفع بعضهم على بعض درجات أى فانه تعالى هو العالم بما يكون صلاحا للسائلين فليقتصر السائل على المجمل وليحترز في دعائه عن التعيين فربما كان ذلك محض المفسدة والضرر (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والاقربون) أى ولكل تركة جعلنا ورثة متفاوتة في الدرجة يلونها ويحرزون منها انصباءهم بحسب استحقاقهم ومما ترك بيان لكل (والذين عقدت أيمانكم) أى ومما ترك الزوج والزوجة فالنكاح يسمى عقدا وهذا قول أبي مسلم الاصفهاني ويصح أن تكون جملة جعلنا موالى صفة لكل والضمير الراجع اليه محذوف والكلام مبتدأ وخبر والمعنى حينئذ ولكل قوم جعلناهم وراثا نصيب معين مغاير لنصيب قوم آخرين مما ترك المورثون (فآتوهم نصيبهم) من الميراث قيل ان هذه الآية نزلت في شأن أبي بكر الصديق لانه حلف ان لا ينفق على ابنه عبد الرحمن ولا يورثه شيأ من ماله فلما أسلم عبد الرحمن أمر الله أبابكر أن يؤتيه نصيبه وقيل المراد من قوله تعالى والذين عقدت أيمانكم الحلفاء وبقوله فآتوهم نصيبهم النصرة والنصيحة والمصافاة في العشرة وحينئذ فقوله والذين مبتدأ متضمن المعنى الشرط ولذلك صدر الخبر بالفاء أو منصوب بمضمر يفسره قوله فآتوهم وعلى هذه الوجوه فهذه الآية غير منسوخة بخلاف مالو حمل قوله الذين عقدت أيمانكم على الحلفاء في الجاهلية وقوله فآتوهم نصيبهم على الميراث وهو السدس فهذه الآية حينئذ منسوخة بقوله تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله وبقوله تعالى يوصيكم الله وكذا لو حمل قوله الذين عقدت أيمانكم على الابناء الادعياء أو على من واخاه النبي صلى الله عليه وسلم لرجل آخر فانه واخا بين كل رجلين من أصحابه صلى الله عليه وسلم (ان الله كان على كل شئ) من أعمالكم (شهيدا) أى مطلعا (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) أى الرجال مسلطون على أدب النساء بسبب تفضيل الله تعالى اياهم عليهن بكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأى ومزيد القوة في الاعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والامامة والولاية واقامة الشعائر والشهادة في جميع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة وغير ذلك وبسبب انفاقهم من أموالهم للمهر والنفقة (فالصالحات) أى المحسنات الى أزواجهن (قانتات) أى مطيعات لازواجهن (حافظات للغيب) أى لما يجب عليهن حفظه في حال غيبة أزواجهن من الفروج والاموال (بما حفظ الله) أى بالذى حفظه الله لهن أى فان حفظ حقوق الزوج في مقابلة ما حفظ الله حقوقهن على أزواجهن حيث أمرهم بالعدل عليهن وامساكهن بالمعروف واعطائهن أجورهن أو المعنى بحفظ الله اياهن بالامر بحفظ الغيب والتوفيق له وقرئ بما حفظ الله بالنصب على حذف المضاف أى بسبب حفظهن حدود الله وأوامره (واللاتي تخافون نشوزهن) أى والنساء اللاتي تظنون عصيانهن لكم (فعظوهن) أى فانصحوهن بالترغيب والترهيب (واهجروهن في المضاجع) أى حولوا عنهن وجوهكم في المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحاف ان علم النشوز ولم ينفعهن النصيحة (واضربوهن) ان لم يجع الهجران ضربا غير مبرح ولا شائن والاولى ترك الضرب فان ضرب فالواجب أن يكون الضرب بحيث لا يكون مفضيا الى الهلاك بأن يكون مفرقا على البدن بأن لا يكون في موضع واحد وان لا يوالى به وان يتقى الوجه وان يكون بمنديل ملفوف (فان أطعنكم) أى رجعن عن النشوز الى الطاعة عند هذا التأديب (فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى فلا تطلبوا عليهن

طريقا في الحب ولا في الاذية واكتفوا بظاهر حال المرأة ولا تفتشوا عما في قلبها من الحب والبغض (ان الله كان عليا كبيرا) أى ان الله تعالى مع علوه وكبريائه لا يكلفكم ما لا تطيقون فكذلك لا تكلفوهن ما لا طاقة لهن من المحبة وأنه تعالى مع ذلك يتجاوز عن سيآتكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند اطاعتهن لكم (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) أى وان علمتم أيها المؤمنون مخالفة بين الرجل والمرأة ولم تدروا من أيهما فابعثوا الى الزوجين لاصلاح الحال بينهما حكما أى رجلا وسطا صالحا للاصلاح من أهله أى الزوج وحكما آخر على صفة الأول من أهلها لان أقاربهما أعرف بحالهما من الاجانب وأشد طلبا للاصلاح فان كانا أجنبيين جاز فيستكشف كل واحد منهما حقيقة حال الزوجين ثم يجتمع الحكمان فيفعلان ما هو الصواب من جمعهما أو ايقاع طلاق أو خلع (ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما) فالضمير الاول اما عائد على الحكمين أو الزوجين والضمير الثاني كذلك فالوجوه أربعة والمعنى ان كانت نية الحكمين قطعا للخصومة أوقع الله الموافقة بين الزوجين (ان الله كان عليما) بموافقة الحكمين ومخالفتهما (خبيرا) بفعل المرأة والرجل قال ابن عباس نزلت الآية من قوله تعالى الرجال قوامون على النساء الى ههنا في شأن بنت محمد بن سلمة بلطمة لطمها زوجها سعد بن الربيع لعصيانها في المضاجع فطلبت من النبي صلى الله عليه وسلم قصاصها من زوجها فنهاها الله عن ذلك (واعبدوا الله) بقلوبكم وجوارحكم (ولا تشركوا به شيأ) أى شركا جليا وخفيا وهذا أمر بالاخلاص في العبادة (وبالوالدين احسانا) أى أحسنوا بهما احسانا بالقيام بخدمتهما وبالسعي في تحصيل مطالبهما والانفاق عليهما وبعدم رفع الصوت عليهما وعدم تخشين الكلام معهما وعدم شهر السلاح عليهما وعدم قتلهما ولو كانا كافرين لانه صلى الله عليه وسلم نهى حنظلة عن قتل أبيه أبي عامر الراهب وكان مشركا وعن أبي سعيد الخدري ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن استأذنه في الجهاد فقال صلى الله عليه وسلم هل لك أحد باليمن فقال أبواي فقال أبواك اذنا لك فقال لا فقال فارجع فاستأذنهما فان اذنا لك فجاهد والا فبرهما (وبذي القربى) أى صلوا بصاحب القرابة من أخ أو عم أو خال أو نحو ذلك (واليتامى) أى أحسنوا اليهم بالرفق بهم وبمسح رأسهم وبتربيتهم وحفظ أموالهم (والمساكين) أى أحسنوا اليهم بالصدقة أو بالرد الجميل (والجار ذي القربى) أى الذي قرب جواره أو الذي له مع الجوار اتصال بالنسب وقرئ بالنصب على الاختصاص تعظيما لحقه لان له ثلاثة حقوق حق القرابة وحق الجوار وحق الاسلام كما قرئ والصلاة الوسطى نصبا على الاختصاص (والجار الجنب) أى الذي بعد جواره أو الذي لا قرابة له فله حقان حق الاسلام وحق الجوار (والصاحب بالجنب) وهو اما رفيق في سفر أو جار ملاصق أو شريك في تعلم أو حرفة أو قاعد بجنبك في مسجد أو مجلس وقيل هي المرأة فانها تكون معك وتضجع الى جنبك (وابن السبيل) أى المسافر المنقطع عن بلده بالسفر أو الضيف أى أحسنوا له بالاكرام وله ثلاثة أيام حق وما فوق ذلك صدقة (وما ملكت أيمانكم) أى أحسنوا الى الخدم من العبيد والاماء (ان الله لا يحب من كان مختالا) أى متكبرا عن أقاربه الفقراء وجيرانه الضعفاء وأصحابه ولا يحسن عشرتهم (فخورا) على الناس بما أعطاه الله تعالى من العلم وغيره (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) من العلم بما في كتابهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم والاظهر أن الموصول منصوب على الذم أو مرفوع على الذم أى هم الذين ويجوز أن يكون بدلا من قوله من كان مختالا وان يكون مبتدا

خبره محذوف تقديره احقاء بكل ملامة أو كافرون نزلت هذه الآية في حق كدوم بن زيد وأسامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع ومحرى بن عمرو وحيي بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت حين أمروا رجالا من الانصار بترك النفقة على من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خوف الفقر عليهم أخرجه ابن جرير عن ابن عباس (وأعتدنا للكافرين) أي لليهود (عذابا مهينا) أي فمن كان شأنه كذلك فهو كافر بنعمة الله ومن كان كافرا بنعمته فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والاخفاء وفي الحديث الذي رواه أحمد انه صلى الله عليه وسلم قال اذا أنعم الله على عبده نعمة أحب ان يظهر أثرها عليه (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) والموصول اما معطوف على الموصول الاول واما معطوف على قوله تعالى للكافرين قال الواحدي نزلت هذه الآية في شأن المنافقين وقيل نزلت في مشركي مكة المنفقين على عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ومن يكن الشيطان له قرينا) أي ومن يكن الشيطان معينا لاصحاب هذه الافعال في الدنيا (فساء قرينا) أي فبئس الصاحب له في النار هو فان الله تعالى يقرن مع كل كافر شيطانا في سلسلة في النار ثم بين الله تعالى سوء اختيارهم في ترك الايمان فقال (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) أي وأي ضرر عليهم في الايمان والانفاق ابتغاء لوجه الله (وكان الله بهم) وباحوالهم المخفية (عليما) فانه تعالى عالم ببواطن الامور فان القصد الى الرياء انما يكون باطنا غير ظاهر (ان الله لا يظلم مثقال ذرة) أي ان الله لا يظلم أحدا وزن نملة حمراء صغيرة أي لا يظلم قليلا ولا كثيرا (وان تك حسنة يضاعفها) قرأ نافع وابن كثير حسنة بالرفع والمعنى وان حدثت حسنة والباقون بالنصب والمعنى وان تكن زنة الذرة حسنة وقرأ ابن كثير وابن عامر يضعفها بالتشديد من غير ألف أي فيكون التضعيف للثواب الى مقدار لا يعلمه الا الله تعالى روي عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال يؤتى بالعبد يوم القيامة وينادي مناد على رؤس الاولين والآخرين هذا فلان بن فلان من كان له عليه حق فليأت الى حقه ثم يقال له اعط هؤلاء حقوقهم فيقول يارب من أين وقد ذهبت الدنيا فيقول الله للملائكة انظروا في أعماله الصالحة فاعطوهم منها فان بقي مثقال ذرة من حسنة ضعفها الله تعالى لعبده وأدخله الجنة بفضله ورحمته وقال أبو عثمان النهدي بلغني عن أبي هريرة انه قال ان الله ليعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة فقدر الله أن ذهبت الى مكة حاجا أو معتمرا فلقيته فقلت بلغني عنك انك تقول ان الله يعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة قال أبو هريرة لم أقل ذلك ولكن قلت ان الحسنة تضاعف بألفي ألف ضعف وتلا قوله تعالى (ويؤت) أي يعط الله صاحب الحسنة (من لدنه) أي من عنده تعالى (أجرا عظيما) فلا يقدر أحد قدره * روي أن عمر كان جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم اذ ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت ثناياه فقال عمر يارسول الله بأبي أنت وأمي ما الذي أضحكك قال رجلان من أمتي جثيا بين يدي الله عز وجل فقال أحدهما يارب خذلي مظلمتي من هذا فقال الله تعالى رد على أخيك مظلمته فقال يارب لم يبق لي من حسناتي شيء فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شيء فقال يارب فليحمل عني من أوزاري ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال ان ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس الى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فيقول الله تبارك وتعالى للمتظلم ارفع بصرك فانظر في الجنان فقال يارب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لاي نبي هذا أو لاي صديق أو لاي شهيد هذا فيقول الله تعالى لمن أعطى الثمن قال يارب ومن يملك ذلك قال أنت تملكه قال بماذا يارب قال بعفوك عن أخيك قال يارب قد عفوت

عنه فيقول الله تعالى خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال صلى الله عليه وسلم فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة (فكيف) يصنع الكفار يوم القيامة (اذا جئنا من كل أمة) أي قوم (بشهيد) أي بنبي يشهد على قبح أعمالهم (وجئنا بك) يا أشرف الخلق (على هؤلاء) الشهداء وهم الرسل (شهيدا) فتشهد على صدقهم لعلمك بعقائدهم ويقال وجئنا بك لامتك مزكيا معدلا لان أمته صلى الله عليه وسلم يشهدون للانبياء على قومهم اذا جحدوا بالبلاغ (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض ولا يكتمون الله حديثا) أي يوم مجيء ذلك يتمنى الذين كفروا بالله وعصوا أمر الرسول ان يدفنوا فتسوى بهم الارض كما تسوى بالموتى ويقال يتمنون ان يصيروا ترابا مع البهائم لعظم هول ذلك اليوم ولا يقدرون ان يكتموا من الله حديثا بأن يقولوا والله ربنا ما كنا مشركين أي انهم يريدون الكتمان أولا لما علموا ان الله لم يغفر شركا فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين رجاء غفران الله لهم لكنهم تشهد عليهم الاعضاء والزمان والمكان فلم يستطيعوا الكتمان فهنالك يودون انهم كانوا ترابا ولم يكتموا الله حديثا (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا الا عابري سبيل) أي لا تقيموا الصلاة حال كونكم سكارى من الشراب الى ان تعلموا قبل الشروع فيها ما تقولونه ولا تقيموها حال كونكم جنبا الا حال كونكم مسافرين وقيل ان الا بمعنى غير وهو صفة لجنبا والمعنى لا تقيموها حال كونكم جنبا غير مسافرين وسيأتي حكم المسافرين (حتى تغتسلوا) من الجنابة (وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) والمعنى وان كنتم مرضى مرضا يمنع من استعمال الماء أو مسافرين طال السفر أو قصر أو أحدثتم بخروج الخارج من أحد السبيلين أو تلاقى بشرتكم مع بشرة النساء فلم تجدوا ماء تتطهرون به للصلاة بعد الطلب فاقصدوا أرضا لا سبخة فيها (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) الى المرفقين بضربتين (ان الله كان عفوا غفورا) وهذا كناية عن الترخيص والتيسير لان من كان عادته انه يعفو عن المذنبين فبان يرخص للعاجزين كان أولى (ألم تر) أي تنظر (الى الذين أوتوا نصيبا) أي حظا يسيرا (من الكتاب) أي من علم التوراة (يشترون الضلالة) أي يؤثرون تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ليأخذوا الرشا على ذلك ويحصل لهم الرياسة كما قاله الزجاج (ويريدون أن تضلوا السبيل) أي ويتوصلون الى اضلال المؤمنين والتلبيس عليهم لكي يخرجوا عن الاسلام (والله أعلم بأعدائكم) أي هو سبحانه وتعالى أعلم بكنه ما في قلوبهم من العداوة والبغضاء (وكفى بالله وليا) أي متصرفا في جميع أموركم (وكفى بالله نصيرا) في كل مواطن فثقوا به وقال ابن عباس نزلت هذه الآية في شأن اليسع ورافع بن حرملة حبرين من اليهود دعوا رئيس المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه الى دينهما ثم نزل في مالك بن الصيف وأصحابه قوله تعالى (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين) أي من اليهود قوم يغيرون الكلم التي أنزل الله في التوراة عن مواضعه التي وضعه الله تعالى فيها كتحريفهم في نعت النبي أسمر ربعة فوضعوا مكانه آدم طوال وتحريفهم الرجم فوضعوا بدله الجلد ويقولون في الظاهر اذا أمرهم النبي عليه السلام سمعنا قولك وفي أنفسهم وعصينا أمرك ويقولون في اثناء مخاطبة النبي عليه السلام كلاما ذا وجهين وهو محتمل للخير والشر مظهرين المدح ومضمرين الشتم وهو واسمع منا غير مسمع مكروها والمراد واسمع منا حال كونك غير مسمع كلاما أصلا لصمم أو موت وهو دعاء منهم على

الرسول صلى الله عليه وسلم بذهاب السمع أو غير مسمع جوابا يوافقك فكأنك ما سمعت شيأ يقولون للنبي اسمع و يقولون في أنفسهم لا سمعت فقوله غير مسمع معناه غير سامع و يقولون في أثناء خطابهم له صلى الله عليه وسلم راعنا وهي كلمة ذات وجهين محتمل للخير اذا حملت على معنى اصرف سمعك الى كلامنا وانصت لحديثنا وتفهم وللشر اذا حملت على السب بالرعونة أو على أنهم يريدون أنك يا محمد كنت ترعى أغناما لنا فانهم يفتلون الحق فيجعلونه باطلا لان راعنا من المراعاة فيجعلونه من الرعونة وكانوا يقولون لاصحابهم انما نشتمه ولا يعرف ولو كان نبيا لعرف ذلك فأطلعه الله تعالى على خبيث ضمائرهم وعلى ما في قلوبهم من العداوة والبغضاء أي يقولون ذلك لصرف الكلام عن سمعه وللقدح في دين الاسلام بالاستهزاء والسخرية (ولو أنهم قالوا) باللسان أو بالحال عند سماع شيء من أوامر الله تعالى ونواهيه (سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا) بدل ذلك (لكان) قولهم ذلك (خيرا لهم) عند الله (وأقوم) أي أصوب (ولكن لعنهم الله بكفرهم) أي أبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم بذلك (فلا يؤمنون) بعد ذلك (الا قليلا) أي الا ايمانا قليلا غير نافع وهو الايمان بالله والتوراة وموسى وكفروا بسائر الانبياء أو الا زمانا قليلا وهو زمان الاحتضار فلا ينفعهم الايمان و بعضهم جعل قليلا مستثنى من الهاء في لعنهم أي الا نفرا قليلا فلا يلعنهم الله لانهم لم يفعلوا ذلك بل كانوا مؤمنين كعبد الله بن سلام وأصحابه (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا) أي بالقرآن (مصدقا لما معكم) أي موافقا للتوراة في القصص والمواعيد والدعوة الى التوحيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش (من قبل أن نطمس وجوها) أي نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم (فنردها على أدبارها) أي فنجعلها على هيئة أقفائها (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) فهم ملعونون بكل لسان وضمير الغائب راجع الى الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات فلما لعنهم الله ذكرهم بعبارة الغيبة (وكان أمر الله) بايقاع شيء ما (مفعولا) أي نافذا وهذا اخبار عن جريان عادة الله في الانبياء المتقدمين أنه تعالى مهما أخبرهم بانزال العذاب على الكفار فعل ذلك لا محالة (ان الله لا يغفر أن يشرك) أي لا يغفر الكفر لمن اتصف (به) بلا توبة وايمان (ويغفر ما دون ذلك) أي الشرك في القبح من المعاصي صغيرة كانت أو كبيرة من غير توبة عنها (لمن يشاء) روى عن ابن عباس أنه قال لما قتل وحشي حمزة يوم أحد وكانوا قد وعدوه بالاعتاق ان هو فعل ذلك ثم انهم ما وفوا له بذلك فعند ذلك ندم هو وأصحابه فكتبوا الى النبي صلى الله عليه وسلم بذنبهم وأنه لا يمنعهم عن الدخول الى الاسلام الا قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله الها آخر فقالوا قد ارتكبنا كل ما في هذه الآية فنزل قوله تعالى الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فقالوا هذا شرط شديد نخاف أن لا نقوم به فنزل قوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء فقالوا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته تعالى فنزل قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله فدخلوا عند ذلك في الاسلام (ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما) أي فقد فعل ذنبا غير مغفور (ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم) أي يمدحونها قال قتادة والضحاك والسدي هم اليهود أخرجه ابن جرير وذلك لما هدد الله تعالى اليهود بقوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به فعند هذا قالوا لسنا من المشركين بل نحن من خواص الله تعالى وهذا استفهام تعجيب وهو أمر المخاطب على التعجب أي انظر اليهم فتعجب من ادعائهم انهم أزكياء عند الله تعالى مع ما هم عليه من الكفر والاثم العظيم وفي هذه الآية تحذير من اعجاب المرء بنفسه وعمله (بل الله يزكي من يشاء) عطف

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) وهذه الآية مشتملة على أصول الشريعة الاربع الكتاب والسنة والاجماع والقياس فالكتاب يدل على أمر الله ثم نعلم منه أمر الرسول لامحالة والسنة تدل على أمر الرسول ثم نعلم منه أمر الله لامحالة فثبت أن قوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول يدل على وجوب متابعة الكتاب والسنة والمراد بأولي الامر جميع العلماء من أهل العقد والحل وأمراء الحق وولاة العدل وأما أمراء الجور فبمعزل من استحقاق وجوب الطاعة لهم قال سعيد بن جبير نزلت هذه الآية في حق عبد الله بن حذافة السهمي اذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم أميرا على سرية وعن ابن عباس أنها نزلت في شأن خالد بن الوليد بعثه النبي صلى الله عليه وسلم أميرا على سرية وفيها عمار بن ياسر فجرى بينهما اختلاف في شيء فنزلت هذه الآية وأمر بطاعة أولي الامر فحينئذ فالمراد بهم أمراء السرايا قال بعضهم طاعة الله ورسوله واجبة قطعا وطاعة أهل الاجماع واجبة قطعا وأما طاعة الامراء والسلاطين فالاكثر انها تكون محرمة لانهم لا يأمرون الا بالظلم وقد تكون واجبة بحسب الظن الضعيف فحينئذ يحمل أولوا الامر على الاجماع وأيضا ان أعمال الامراء والسلاطين موقوفة على فتاوى العلماء والعلماء في الحقيقة أمراء الامراء فهؤلاء أولوا الامر (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) أي فان اختلفتم أيها المجتهدون في شيء حكمه غير مذكور في الكتاب والسنة والاجماع فردوه الى واقعة تشبهه في الصورة والصفة وهذا المعنى يؤكد بالخبر والاثر أما الخبر فهو انهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قبلة الصائم فقال صلى الله عليه وسلم أرأيت لو تمضمضت والمعنى أخبرني هل تبطل المضمضة الصوم أم لا أي فكما أن المضمضة مقدمة للاكل فكذا القبلة مقدمة للجماع فاذا كانت المضمضة لم تفسد الصيام فكذلك القبلة ولما سألته صلى الله عليه وسلم الخثعمية عن الحج عن أبيها فقال صلى الله عليه وسلم أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته هل يجزئ فقالت نعم قال صلى الله عليه وسلم فدين الله أحق بالقضاء وأما الاثر فما روي عن عمر رضي الله عنه انه قال أعرف الاشباه والنظائر وقس الامور برأيك فدل مجموع ما ذكر على أن قوله تعالى فردوه أمر برد الشيء الى شبيهه وهذا هو الذي يسميه الشافعي رحمه الله تعالى قياس الاشباه ويسميه أكثر الفقهاء قياس الطرد (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) وهذا محمول على التهديد فان الايمان بهما يوجب ذلك (ذلك) أي الذي أمرتكم به في هذه الآيات (خير) لكم (وأحسن تأويلا) أي عاقبة لكم (ألم تر الى الذين يزعمون) أي يدعون (أنهم آمنوا بما أنزل اليك) وهو القرآن (وما أنزل من قبلك) وهو التوراة (يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت) أي كثير الطغيان (وقد أمروا أن يكفروا به) أي والحال انهم قد أمروا في القرآن أن يتبرؤا من الطاغوت (ويريد الشيطان) بالتحاكم اليه (أن يضلهم ضلالا بعيدا) عن الحق والهدى قال كثير من المفسرين خاصم رجل من المنافقين يقال له بشر رجلا من اليهود فقال اليهودي بيني وبينك أبو القاسم وقال المنافق بيني وبينك كعب بن الاشرف وسبب ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي بالحق ولا يلتفت الى الرشوة واليهودي كان محقا وان كعبا شديد الرغبة في الرشوة والمنافق كان مبطلا وأصر اليهودي على قوله بذلك فذهبا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحكم لليهودي على المنافق فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال لا أرضى انطلق بنا الى أبي بكر فأتياه فحكم لليهودي فلم يرض المنافق وقال بيني وبينك عمر فذهبا اليه فأخبره اليهودي بأن الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر حكما على المنافق فلم يرض بحكمهما فقال للمنافق أهكذا فقال نعم قال اصبرا ان لي حاجة أدخل بيتي فأقضيها وأخرج اليكما فدخل وأخذ سيفه ثم خرج اليهما فضرب به عنق المنافق حتى برد أي

مات

مات وقال هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله وهرب اليهودي فجاء أهل المنافق فشكوا عمر الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأل صلى الله عليه وسلم عمر عن قصته فقال انه رد حكمك يارسول الله فجاء جبريل عليه السلام في الحال ونزلت هذه الآية وقال جبريل ان عمر هو الفاروق فرق بين الحق والباطل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر أنت الفاروق وعلى هذا القول الطاغوت هو كعب بن الاشرف سمي بذلك لشبهه بالشيطان في فرط طغيانه (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله) أي أقبلوا الى القرآن الذي فيه الحكم (والى الرسول) الذي تجب طاعته ليحكم بينكم (رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) أي أبصرت المنافقين يعرضون عنك الى غيرك اعراضا بالكلية (فكيف اذا أصابتهم مصيبة) أي كيف يكون حالهم وقت اصابة المصيبة اياهم بقتل عمر صاحبهم بظهور نفاقهم (بما قدمت أيديهم) أي بسبب ما عملوا من التحاكم الى الطاغوت والاعراض عن حكمك (ثم جاؤك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا) أي ثم جاءك أهل المنافق مطالبين عمر بدمه وقد أهدره الله تعالى ويحلفون بالله كذبا للاعتذار فقالوا ما أراد صاحبنا المقتول بالتحاكم الى عمر الا أن يصلح ويجعل الاتفاق بينه وبين خصمه ويأمر كل واحد من الخصمين بتقريب مراده من مراد صاحبه حتى يحصل بينهما الموافقة وأنت يارسول الله لا تحكم الا بالحق المر ولا يقدر أحد على رفع الصوت عندك (أولئك) أي المنافقون (الذين يعلم الله ما في قلوبهم) من النفاق والغيظ والعداوة (فأعرض عنهم) أي لا تقبل منهم ذلك العذر ولا تظهر لهم انك عالم بكنه ما في بواطنهم فان من هتك ستر عدوه فربما يجرئه ذلك على أن لا يبالي باظهار العداوة فيزداد الشر واذا تركه على حاله بقي في وجل فيقل الشر (وعظهم) أي ازجرهم عن النفاق والكيد والحسد والكذب وخوفهم بعذاب الآخرة (وقل لهم في أنفسهم) أي خاليا بهم ليس معهم غيرهم لان النصيحة على الملأ تقريع وفي السر محض المنفعة (قولا بليغا) أي مؤثرا وهو التخويف بعقاب الدنيا بأن يقول لهم ان ما في قلوبكم من النفاق والكيد معلوم عند الله ولا فرق بينكم وبين سائر الكفار وانما رفع الله السيف عنكم لانكم أظهرتم الايمان فان واظبتم على هذه الافعال القبيحة ظهر لكل الناس بقاؤكم على الكفر وحينئذ يلزمكم السيف (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) أي وما أرسلنا من رسول الا ليؤمر الناس بطاعته بتوفيقنا واعانتنا فطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله تعالى وهذه الآية دالة على انه لا رسول الا ومعه شريعة ليكون مطاعا في تلك الشريعة ومتبوعا فيها ودالة على ان الانبياء معصومون عن المعاصي والذنوب ودالة على انه لا يوجد شئ من الخير والشر والكفر والايمان والطاعة والعصيان الا بارادة الله تعالى (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم) بترك طاعتك (جاؤك) وبالغوا في التضرع اليك لينصبوك شفيعا لهم (فاستغفروا الله) أي أظهروا الندم على ما فعلوه وتابوا عنه (واستغفر لهم الرسول) بأن يسأل الله أن يغفر الذنوب لهم عند توبتهم (لوجدوا الله توابا) أي يقبل توبتهم (رحيما) أي يرحم تضرعهم ولا يرد استغفارهم والفائدة في العدول في قوله تعالى واستغفر لهم الرسول عن لفظ الخطاب الى لفظ المغايبة اجلال شأن رسول الله فان شأنه ان يستغفر لمن عظم ذنبه وانهم اذ اجاؤه فقد جاؤا من خصه الله تعالى برسالته وأكرمه بوحيه وجعله سفيرا بينه وبين خلقه وذلك مثل قول الامير حكم الامير بكذا بدل قوله حكمت بكذا (فلا وربك) لا مزيدة لتأكيد معنى القسم كما زيدت في لئلا يعلم لتأكيد وجوب العلم أو مفيدة لنفي أمر سبق والتقدير ليس الامر كما يزعمون من انهم آمنوا وهم يخالفون حكمك فوربك (لا يؤمنون حتى يحكموك) أي حتى يجعلوك حاكما (فيما شجر بينهم) أي فيما

اختلف بينهم من الامور فتقضي بينهم (ثم لا يجدوا في أنفسهم) أي صدورهم (حرجا) أي ضيقا (مما قضيت ويسلموا تسليما) أي وينقادوا لك انقيادا تاما بظواهرهم قال عطاء ومجاهد والشعبي ان هذه الآية نازلة في قصة اليهودي والمنافق فهذه الآية متصلة بما قبلها وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال نزلت في الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة اختصما في ماء فقضى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم) أي ولو أوجبنا عليهم قتل أنفسهم أو الخروج عن أوطانهم في توبتهم كتوبة بني اسرائيل ما فعلوا أحد الامرين بطيبة النفس الا القليل منهم وهم المخلصون من المؤمنين والمعنى أنا لو شددنا التكليف على الناس لما فعله الا الاقلون وحينئذ يظهر كفرهم وعنادهم بل اكتفينا منهم في توبتهم بالتسليم لحكمك فليقبلوه بالاخلاص حتى ينالوا خير الدارين روي ان ثابت بن قيس بن شماس الانصاري ناظر يهوديا فقال اليهودي ان موسى أمرنا بقتل أنفسنا فقبلنا ذلك وان محمدا يأمركم بالقتال فتكرهونه فقال يا أنت لو ان محمدا أمرني بقتل نفسي لفعلت ذلك وروي ان ابن مسعود وعمار بن ياسر قالا مثل ذلك فنزلت هذه الآية وعن عمر بن الخطاب انه قال والله لو أمرنا ربنا بقتل أنفسنا لفعلنا والحمد لله الذي لم يأمرنا بذلك قال صلى الله عليه وسلم وأشار الى عبد الله بن رواحة لو أن الله كتب ذلك لكان هذا في أولئك القليل أخرجه ابن أبي حاتم (ولو أنهم) أي المنافقين (فعلوا ما يوعظون به) أي ما يكلفون به (لكان) أي فعلهم ذلك (خيرا لهم) أي لحصل لهم خير الدنيا والآخرة (وأشد تثبيتا) لهم على الايمان وسميت أوامر الله مواعظ لاقترانها بالوعد والترغيب (واذا) لو فعلوا ما أمروا به (لآتيناهم من لدنا) أي لاعطيناهم من عندنا (أجرا عظيما) أي ثوابا وافرا في الجنة وكيف لا يكون عظيما وقد قال صلى الله عليه وسلم فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (ولهديناهم صراطا مستقيما) أي طريقا من عرصة القيامة الى الجنة وحمل لفظ الصراط في هذا الموضع على هذا المعنى أولى لانه تعالى ذكره بعد ذكر الاجر والدين الحق مقدم على الاجر والطريق من عرصة القيامة الى الجنة انما يحتاج اليه بعد استحقاق الاجر (ومن يطع الله) بأن يعرف انه اله ويقر بجلاله وعزته واستغنائه عمن سواه (والرسول) أي بان ينقاد انقيادا تاما لجميع الاوامر والنواهي (فأولئك) أي المطيعون (مع الذين أنعم الله عليهم) أي فانهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخرين وان بعد المكان لان الحجاب اذا زال شاهد بعضهم بعضا واذا أرادوا الزيادة والتلاقي قدروا على الوصول اليهم بسهولة (من النبيين) محمد صلى الله عليه وسلم وغيره (والصديقين) أي السابقين الى تصديق الرسل فصاروا في ذلك قدوة لسائر الناس وهم أفاضل أصحاب الانبياء عليهم الصلاة والسلام (والشهداء) أي الذين يشهدون بصحة دين الله تعالى تارة بالحجة والبيان وأخرى بالسيف والسنان فالشهداء هم القائمون بالقسط وأما كون الانسان مقتول الكافر فليس فيه زيادة شرف لان هذا القتل قد يحصل في الفساق ومن لا منزلة له عند الله والمؤمنون قد يقولون اللهم ارزقنا الشهادة فلو كانت الشهادة عبارة عن قتل الكافر اياه لكانوا قد طلبوا من الله ذلك القتل فانه غير جائز لان طلب صدور ذلك القتل من الكافر كفر فكيف يجوز ان يطلب من الله ما هو كفر (والصالحين) في الاعتقاد والعمل فان الجهل فساد في الاعتقاد والمعصية فساد في العمل وهم الصارفون أعمارهم في طاعة الله وأموالهم في مرضاته وكل من كان اعتقاده صوابا وعمله غير معصية فهو صالح ثم ان الصالح قد يكون بحيث يشهد لدين الله بأنه هو الحق وان ما سواه هو الباطل وهذه

الشهادة تارة تكون بالحجة والدليل وأخرى بالسيف وقد يكون الصالح غير موصوف بكونه قائماً بهذه الشهادة فثبت ان كل من كان شهيدا كان صالحا ولا عكس فالشهيد أشرف أنواع الصالح ثم الشهيد قد يكون صديقا وقد لا ومعنى الصديق هو الذي كان أسبق ايمانا من غيره وكان ايمانه قدوة لغيره فثبت ان كل من كان صديقا كان شهيدا ولا عكس فثبت ان أفضل الخلق الانبياء وبعدهم الصديقون وبعدهم من ليس له درجة الا محض درجة الشهادة وبعدهم من ليس له الا محض درجة الصلاح (وحسن أولئك رفيقا) أى ما أحسن أولئك المذكورين صاحبا فى الجنة وحسن لها حكم نعم والمخصوص بالمدح محذوف تقديره وحسن أولئك من جهة الرفيق الممدوحون (ذلك) أى مرافقة هؤلاء المنعم عليهم هو (الفضل من الله) وما سواه ليس بشئ (وكفى بالله عليما) بجزاء من أطاعه وبمقادير الفضل واستحقاق أهله روى جمع من المفسرين أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله قليل الصبر عنه فأتاه يوما وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن فى وجهه فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاله فقال يارسول الله مابى وجع غير انى اذا لم أرك اشتقت اليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك فذكرت الآخرة فخفت ان لا أراك هناك لانى ان دخلت الجنة فانت تكون فى درجات النبيين وأنا فى درجات العبيد فلا أراك وان أنا لم أدخل الجنة فحينئذ لا أراك أبدا فنزلت هذه الآية وقال الشعبى جاء رجل من الانصار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال ما يبكيك يافلان فقال يارسول الله بالله الذى لا اله الا هو لأنت أحب الى من نفسى وأهلى ومالى وولدى ولانى لاذكرك وأنا فى أهلى فيأخذنى مثل الجنون حتى أراك وذكرت موتى وانك ترفع مع النبيين وانى ان أدخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك فلم يرد النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) أى خذوا سلاحكم واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسكم (فانفروا ثبات) أى انهضوا الى قتال عدوكم واخرجوا للحرب جماعات متفرقة سرية بعد سرية (أو انفروا جميعا) أى مجتمعين كوكبة واحدة (وان منكم لمن ليبطئن) أى وان من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن يتثاقلن وليتخلفن عن القتال وهم ضعفة المؤمنين والمنافقون (فان أصابتكم) يامعشر المجاهدين (مصيبة) كقتل وهزيمة وجهد من العيش (قال) أى من يبطئ فرحا شديدا بتخلفه وحامدا لرأيه (قد أنعم الله على) بالقعود (اذ لم أكن معهم شهيدا) أى حاضرا فى المعركة فيصيبنى ما أصابهم (ولئن أصابكم فضل) كفتح وغنيمة (من الله ليقولن) أى من يبطئ ندامة على قعوده (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) وهذه الجملة اعتراض بين الفعل ومفعوله والمراد التعجب كأنه تعالى يقول انظروا الى ما يقول هذا المنافق كأنه ليس بينكم أيها المؤمنون وبين المنافق صلة فى الدين ومعرفة فى الصحبة ولا مخالطة أصلا (ياليتنى كنت) غازيا (معهم فأفوز فوزا عظيما) أى فاصيب غنائم كثيرة وآخذ حظا وافرا وقيل الجملة التشبيهية حال من ضمير ليقولن أى ليقولن مشبها بمن لا معرفة بينكم وبينه وقيل هى داخلة فى المقول أى ليقولن المثبط للمثبطين من المنافقين وضعفة المؤمنين كأن لم تكن بينكم وبين محمد معرفة فى الصحبة حيث لم يستصحبكم فى الغزو حتى تفوزوا بما فاز محمد ياليتنى كنت معهم وغرض المثبط القاء العداوة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم (فليقاتل فى سبيل الله) أى لاعلاء دين الله (الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) وهم المنافقون الذين تخلفوا عن أحد فأمروا ان يغيروا ما بهم من النفاق ويخلصوا الايمان بالله ورسوله ويجاهدوا فى سبيل الله فلم تدخل الباء الا على المتروك لان المنافقين تاركون

للآخرة آخذون للدنيا أى فليقاتل الذين يختارون الحياة الدنيا على الآخرة وعلى هذا فلابد من حذف تقديره آمنوا ثم قاتلوا أو المراد بالذين يشرون هم المؤمنون الذين تخلفوا عن الجهاد وعلى هذا فيشرون بمعنى يبيعون أى فليقاتل فى طاعة الله الذين يبيعون الدنيا بالآخرة أى يختارون الآخرة على الدنيا (ومن يقاتل فى سبيل الله) أى فى طاعة الله (فيقتل) أى يمت شهيدا (أو يغلب) أى يظفر على العدو (فسوف نؤتيه) أى نعطيه فى كلا الوجهين (أجرا عظيما) وهو المنفعة الخالصة الدائمة المقرونة بالتعظيم واذا كان الاجر حاصلا على كلا التقديرين لم يكن عمل أشرف من الجهاد (ومالكم لا تقاتلون) أى أى شئ لكم يا معشر المؤمنين غير مقاتلين مع أهل مكة أى لا عذر لكم فى ترك المقاتلة (فى سبيل الله) أى لاجل طاعة الله (والمستضعفين) أى ولاجل المستضعفين (من الرجال والنساء والولدان) أى الصبيان وقيل المراد بالولدان العبيد والاماء أى وهم قوم من المسلمين الذين بقوا بمكة وعجزوا عن الهجرة الى المدينة وكانوا يلقون من كفار مكة أذى شديدا قال ابن عباس كنت أنا وأمى من المستضعفين من النساء والولدان (الذين يقولون) فى مكة (ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) وهى مكة وكون أهلها موصوفين بالظلم لانهم كانوا مشركين وكانوا يؤذون المسلمين ويوصلون اليهم أنواع المكاره (واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) أى ول علينا واليا من المؤمنين يقوم بمصالحنا ويحفظ علينا ديننا وانصرنا على أعدائنا برجل يمنعنا من الظالمين فأجاب الله دعاءهم واستنقذهم من أيدى الكفار لان النبى صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة جعل عتاب بن أسيد أميرا لهم وكان الولى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والنصير عتاب بن أسيد وكان ابن ثمانية عشر سنة فكان ينصر المظلومين على الظالمين وينصف الضعيف من القوى والذليل من العزيز (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله) أى لغرض نصرة دين الله واعلاء كلمته (والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) أى فى سبيل غير رضا الله (فقاتلوا أولياء الشيطان) أى جند الشيطان (ان كيد الشيطان) أى ان صنع الشيطان فى فساد الحال على جهة الحيلة (كان ضعيفا) لان الله ينصر أولياءه والشيطان ينصر أولياءه ولا شك ان نصرة الشيطان لاوليائه أضعف من نصرة الله لاوليائه ألا ترى ان أهل الخير والدين يبقى ذكرهم الجميل على وجه الدهر وان كانوا حال حياتهم فى غاية الفقر واما الملوك والجبابرة فاذا ماتوا انقرض أثرهم ولا يبقى فى الدنيا رسمهم (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) نزلت هذه الآية فى جماعة من الصحابة عبد الرحمن بن عوف الزهرى وسعد بن أبى وقاص الزهرى وقدامة بن مظعون الجمحى ومقداد بن الاسود الكندى وطلحة بن عبد الله التيمى كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم بمكة قبل ان يهاجروا الى المدينة ويلقون من المشركين أذى شديدا فيشكون ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون ائذن لنا فى قتالهم ويقول لهم رسول الله كفوا أيديكم عن القتل والضرب فانى لم أومر بقتالهم واشتغلوا باقامة دينكم من الصلاة الخمس وزكاة أموالكم فلما هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وأمروا بقتالهم فى وقعة بدر كرهه بعضهم لا شكا فى الدين بل نفورا عن الاخطار بالارواح وخوفا من الموت بموجب الجبلة البشرية وذلك قوله تعالى (فلما كتب) أى فرض (عليهم القتال) أى الجهاد فى سبيل الله (اذا فريق منهم) كطلحة بن عبد الله التيمى (يخشون الناس) أى أهل مكة (كخشية الله) أى كخوفهم من الله (أو أشد خشية) أى بل أكثر خوفا لما كان من طبع البشر من الجبن لا للاعتقاد ثم تابوا وأهل الايمان يتفاضلون

فيه (وقالوا) خوفا من الموت لا لكراهتهم أمر الله بالقتال وهذا عطف على جواب لما وهو اذا فانها لجائية مكانية (ربنا لما كتبت علينا القتال) في هذا الوقت (لولا أخرتنا الى أجل قريب) أي هلا عافيتنا من بلاء القتال الى موتنا بآجالنا وهذا القول استزادة في مدة الكف ويجوز أن يكون هذا مما نطقت به ألسنة حالهم من غير أن يتفوهوا به صريحا (قل) جوابا لهذا السؤال عن حكمة فرض القتال عليهم من غير توبيخ لانه لا للاعتراض لحكمه تعالى وترغيبا فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقي (متاع الدنيا) أي منفعة الدنيا (قليل) لانه سريع التقضي وشيك الانصرام وان أخرتم الى ذلك الاجل (والآخرة) أي ثواب الآخرة لاسيما المنوط بالقتال (خير لمن اتقى) الكفر والفواحش لان نعم الآخرة كثيرة ومؤبدة وصافية عن كدورات القلوب ويقينية بخلاف نعم الدنيا فانها مشكوكة عاقبتها في اليوم الثاني ومشوبة بالمكاره (ولا تظلمون فتيلا) وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالغيبة والباقون بالخطاب أي لا تنقصون من أجور أعمالكم قدر خيط في شق النواة أو المعنى لا ينقصون من ثواب حسناتهم أدنى شئ (أينما تكونوا) في الحضر والسفر في البر أو البحر (يدرككم الموت) الذي تكرهون القتال لاجله زعما منكم انه من محاله (ولو كنتم في بروج مشيدة) أي حصون مرتفعة قوية بالجص (وان تصبهم) أي اليهود والمنافقين (حسنة) أي خصب ورخص السعر وتتابع الامطار (يقولوا هذه من عند الله) قال المفسرون كانت المدينة مملوءة من النعم وقت مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ظهر عناد اليهود والمنافقين على دعائه اياهم الى الايمان أمسك الله عنهم بعض الامساك كما جرت عادته تعالى في جميع الامم فعند هذا قالوا ما رأينا أعظم شؤما من هذا الرجل نقصت ثمارنا ومزارعنا وغلت أسعارنا منذ قدم (وان تصبهم سيئة) أي جدوبة وشدة وغلاء سعر (يقولوا هذه من عندك) أي هذه من شؤم محمد وأصحابه أي وان تصبهم نعمة نسبوها الى الله تعالى وان تصبهم بلية أضافوها اليك كما حكى الله عن قوم موسى بقوله تعالى وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه وعن قوم صالح بقوله تعالى قالوا اطيرنا بك وبمن معك (قل) لهم ردا لزعمهم الباطل وارشادا لهم الى الحق (كل من عند الله) أي كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى خلقا وايجادا من غير أن يكون لي مدخل في وقوع شئ منهما بوجه من الوجوه كما تزعمون بل وقوع الاولى منه تعالى بالذات تفضلا ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة (فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) أي وحيث كان الامر كذلك فأي شئ حصل لهؤلاء المنافقين واليهود حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا حديثا من الاحاديث أصلا فقالوا ما قالوا اذ لو فهموا شيأ من ذلك لفهموا ان الكل من عند الله تعالى فالنعمة منه تعالى بطريق التفضل والبلية منه تعالى بطريق العقوبة على ذنوب العباد عدلا منه تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله) أي ما أصابك أيها الانسان من نعمة من النعم فهي منه تعالى بالذات تفضلا واحسانا من غير استيجاب لها من قبلك (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) أي أي شئ أصابك من بلية من البلايا فهي منها بسبب اقترافها المعاصي الموجبة لها وعن عائشة رضي الله عنها ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله الا بذنب وما يعفوا الله عنه أكثر (وأرسلناك للناس رسولا) أي ليس لك الا الرسالة والتبليغ وقد فعلت ذلك وما قصرت (وكفى بالله شهيدا) على جدك وعدم تقصيرك في اداء الرسالة وتبليغ الوحي فاما حصول الهداية فليس اليك بل الى الله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وهذه الآية تدل على انه لا طاعة الا لله البتة لان طاعة الرسول لا تكون الا طاعة

لله وقال الشافعي رضي الله عنه وهذه الآية تدل على ان كل تكليف كلف الله به عباده في باب الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر الابواب في القرآن ولم يكن ذلك التكليف مبينا في القرآن فحينئذ لاسبيل لنا الى القيام بتلك التكاليف الا ببيان الرسول واذا كان الامر كذلك لزم القول بأن طاعة الرسول عين طاعة الله قال مقاتل ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله فقال المنافقون لقد قارب هذا الرجل الشرك وهو ينهى ان نعبد غير الله ويريد ان نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى فأنزل الله هذه الآية (ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) وجواب الشرط محذوف والمذكور تعليل له أي ومن أعرض بقلبه عن حكمك يامحمد فأعرض عنه أو المعنى ومن أعرض عن طاعة الله بظاهرهم فلا ينبغي ان تغتم بسبب ذلك الاعراض وان تحزن فما أرسلناك لتحفظ الناس عن المعاصي أو المعنى فما أرسلناك لتشتغل بزجرهم عن ذلك التولي ثم نسخ هذا بآية الجهاد فالله تعالى ذكر هذا الكلام تسلية له صلى الله عليه وسلم عن الحزن فانه صلى الله عليه وسلم كان يشتد حزنه بسبب كفرهم واعراضهم (ويقولون طاعة) أي يقول المنافقون عبد الله بن أبي وأصحابه اذا أمرتهم بشيء شأننا طاعة أومنا طاعة أو أمرك يامحمد طاعة مرعا شئت نفعله (فاذا برزوا من عندك) أي خرجوا من مجلسك (بيت طائفة منهم غير الذي تقول) أي تفكر ليلا فريق من المنافقين وهم رؤساؤهم غير الذي تأمر وتكلموا فيما بينهم بعصيانك وتوافقوا عليه (والله يكتب ما يبيتون) أي ينزل اليك ما يتدبرونه ليلا في جملة ما نوحي اليك فيطلعك على أسرارهم أو يثبت ذلك في صحائف أعمالهم ليجازوا به (فأعرض عنهم) أي لاتهتك سترهم ولا تفضحهم الى أن يستقيم أمر الاسلام (وتوكل على الله) في شأنهم فان الله يكفيك شرهم وينتقم منهم (وكفى بالله وكيلا) أي مفوضا اليه لمن توكل عليه (أفلا يتدبرون القرآن) أي أيعرضون عن القرآن فلا يتأملون فيه ليعلموا كونه من عند الله تعالى بمشاهدة مافيه من الشواهد التي من جملتها هذا الوحي الناطق بنفاقهم (ولو كان) أي القرآن (من عند غير الله) كما يزعمون (لوجدوا فيه) أي القرآن (اختلافا كثيرا) بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع اذ لاعلم بالامور الغيبية ماضية كانت أو مستقبلة لغيره تعالى وحيث كانت كلها مطابقة للواقع تعين كونه من عنده تعالى (واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به) أي واذا جاء المنافقين خبر بأمر من الامور سواء كان من باب الامن أو من باب الخوف أفشوه وكان ذلك سبب الضرر لان هذه الارجافات لاتنفك عن الكذب الكثيرة ولان العداوة الشديدة صارت قائمة بين المسلمين والكفار وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث السرايا فاذا غلبوا أو غلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم ثم يتحدثون به قبل ان يحدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضعفون به قلوب المؤمنين فأنزل الله هذه الآية (ولوردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أي ولوردوا الخبر الذي تحدثوا به الى الرسول والى ذوي العقل والرأي من المؤمنين وهم كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بان لم يحدثوا به حتى يكون هؤلاء هم الذين يظهرونه لعلم ذلك الخبر من يستخرجونه من جهة هؤلاء أي ولو أن هؤلاء المنافقين المذيعين ردوا أمر الامن والخوف الى الرسول والى أولي الامر وطلبوا معرفة الحال فيه من جهتهم لعلمه هؤلاء المنافقون المذيعون من جانب الرسول ومن جانب أولي الامر (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال القرآن (لاتبعتم الشيطان) وكفرتم بالله (الا قليلا) منكم فان ذلك القليل بتقدير عدم بعثة محمد صلى الله

عليه

عليه وسلم وعدم انزال القرآن ما كان يتبع الشيطان وما كان يكفر بالله وهم مثل قس بن ساعدة وورقة ابن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل واضرابهم (فقاتل فى سبيل الله) أى فى طاعة الله قيل وهذا متصل بقوله تعالى وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله وقيل هذا معطوف على قوله تعالى فقاتلوا أولياء الشيطان (لا تكلف الا نفسك) أى الا فعل نفسك فلا يضرك مخالفتهم فتقدم أنت الى الجهاد وان لم يساعدك أحد فان الله ناصرك واعلم أن الجهاد فى حق غير الرسول من فروض الكفايات فما لم يغلب على الظن انه يفيد لم يجب بخلاف الرسول صلى الله عليه وسلم فانه على ثقة من النصر والظفر (وحرض المؤمنين) أى على الخروج معك بذلا للنصيحة فانهم آثمو بالتخلف لان القتال كان مفروضا عليهم اذ ذاك فان فرضه فى السنة الثانية وهذه القضية فى الرابعة كما روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى فى ذى القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس الى الخروج فكرهه بعضهم فنزلت هذه الآية (عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) أى ان يمنع صولة كفار مكة وعسى وعد من الله تعالى واجب الانجاز (والله أشد بأسا) أى قوة من قريش (وأشد تنكيلا) أى تعذيبا (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) أى من ثوابها ويندرج فيها الدعاء للمسلم فانه شفاعة الى الله تعالى (ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) أى نصيب من وزرها مساو لها فى المقدار والغرض من هذه الآية بيان انه صلى الله عليه وسلم لما حرضهم على الجهاد فقد استحق بذلك التحريض أجرا عظيما ولو لم يقبلوا أمره صلى الله عليه وسلم لم يرجع اليه من عصيانهم شئ من الوزر وذلك لانه صلى الله عليه وسلم بذل الجهد فى ترغيبهم فى الطاعة ولم يرغبهم فى المعصية البتة فلا يرجع اليه من طاعتهم أجر ولا يرجع اليه من معصيتهم وزر (وكان الله على كل شئ مقيتا) أى قادرا على ايصال الجزاء الى الشافع مثل ما يوصله الى المشفوع فيه وحافظا للاشياء شاهدا عليها فهو عالم بأن الشافع يشفع فى حق أو فى باطل فيجازى كلا بما علم منه (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) أى اذا سلم عليكم فردوا على المسلم ردا أحسن من ابتدائه أو أجيبوا التحية بمثلها ومنتهى الامر فى السلام ان يقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته بدليل ان هذا القدر هو الوارد فى التشهد فالاحسن هو ان المسلم اذا قال السلام عليك زيد فى جوابه الرحمة وان ذكر السلام والرحمة فى الابتداء زيد فى جوابه البركة وان ذكر الثلاثة فى الابتداء اعيدت فى الجواب ورد الجواب واجب على الفور وهو فرض على الكفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين والاولى للكل ان يذكروا الجواب اظهارا للاكرام ومبالغة فيه وترك الجواب اهانة والاهانة ضرر والضرر حرام واذا استقبلك واحد فقل سلام عليكم واقصد الرجل والملكين فانك اذا سلمت عليهما ردا السلام عليك ومن سلم الملك عليه فقد سلم من عذاب الله وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لا تبدأ اليهود بالسلام واذا بدأك فقل وعليك وعن أبى حنيفة انه قال لا يبدأ اليهود بالسلام فى كتاب ولا فى غيره وعن أبى يوسف قال لا تسلم عليهم ولا تصافحهم واذا دخلت عليهم فقل السلام على من اتبع الهدى ورخص بعض العلماء فى ابتداء السلام عليهم اذا دعت الى ذلك حاجة وأما اذا سلموا علينا فقال أكثر العلماء ينبغى ان يقال وعليك ثم ههنا تفريع وهو أنا اذا قلنا لهم وعليكم السلام فهل يجوز ذكر الرحمة فقال الحسن يجوز ان يقال للكافر وعليكم السلام لكن لا يقال ورحمة الله لانها استغفار وعن الشعبى انه قال لنصرانى وعليكم السلام ورحمة الله فقيل له فى ذلك فقال أليس فى رحمة الله يعيش وقيل التحية بالاحسن عند كون المسلم مسلما ورد مثلها عند

كونه كافرا والمقصود من هذه الآية الوعيد فان الواحد من جنس الكفار قد يسلم على الرجل المسلم ثم ان ذلك المسلم يتفحص عن حاله بل ربما قتله طمعا منه فى سلبه فالله تعالى زجر عن ذلك فقال اياكم أن تتعرضوا له بالقتل (ان الله كان على كل شئ حسيبا) أى محاسبا على كل أعمالكم وكافيا فى ايصال جزاء أعمالكم اليكم فكونوا على حذر من مخالفة هذا التكليف وهذا يدل على شدة الاعتناء بحفظ الدماء (الله لا اله الا هو) مبتدأ وخبر قال بعضهم كأنه تعالى يقول من سلم عليكم فاقبلوا سلامه وأكرموه بناء على الظاهر فان البواطن انما يعرفها الله الذى لا اله الا هو وانما ينكشف بواطن الخلق للخلق فى يوم القيامة (ليجمعنكم الى يوم القيامة) أى والله ليحشرنكم من قبوركم الى حساب يوم القيامة (لا ريب فيه) أى فى يوم القيامة (ومن أصدق من الله حديثا) وهذا استفهام على سبيل الانكار والمقصود منه بيان انه يجب كونه تعالى صادقا وان الكذب والخلف فى قوله تعالى محال (فما لكم فى المنافقين فئتين) أى ما لكم يا معشر المؤمنين صرتم فى أمر المنافقين فرقتين وهو استفهام على سبيل الانكار أى لم تختلفون فى كفرهم مع ان دلائل كفرهم ونفاقهم ظاهرة جلية فليس لكم ان تختلفوا فى كفرهم بل يجب ان تقطعوا به نزلت هذه الآية فى عشرة نفر قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم مسلمين فأقاموا بالمدينة ما شاء الله ثم قالوا يا رسول الله نريد ان نخرج الى الصحراء فأذن لنا فيه فأذن لهم فلما خرجوا لم يزالوا راحوا مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين فتكلم المؤمنون فيهم فقال بعضهم لو كانوا مسلمين مثلنا لبقوا معنا وصبروا كما صبرنا وقال قوم هم مسلمون وليس لنا ان ننسبهم الى الكفر الى أن يظهر أمرهم فبين الله تعالى نفاقهم فى هذه الآية (والله أركسهم) أى ردهم الى أحكام الكفار من الذل والسبى والقتل (بما كسبوا) من اظهار الكفر بعدما كانوا على النفاق وذلك أن المنافق ما دام يكون متمسكا فى الظاهر بالشهادتين لم يكن لنا سبيل الى قتله فاذا أظهر الكفر فحينئذ يجرى الله تعالى عليه أحكام الكفار (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) عن الايمان (ومن يضلل الله) عن دينه (فلن تجد له سبيلا) الى ادخاله فى الايمان (ودوا لو تكفرون كما كفروا) أى تمنوا كفركم بمحمد والقرآن كفرا مثل كفرهم (فتكونون) أنتم وهم (سواء) فى الكفر (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله) أى اذا كان غاية مودتهم كفركم فلا توالوهم حتى ينتقلوا من أعمال الكفار الى أعمال المسلمين لاجل أمر الله تعالى اعلم أن الهجرة تارة تحصل بالانتقال من دار الكفر الى دار الايمان وأخرى تحصل بالانتقال عن أعمال الكفار الى أعمال المسلمين قال صلى الله عليه وسلم المهاجر من هجر ما نهى الله عنه وقال المحققون الهجرة فى سبيل الله عبارة عن ترك منهيات الله وفعل مأموراته وذلك يشمل مهاجرة دار الكفر ومهاجرة شعار الكفر وانما قيد الله تعالى الهجرة بكونها فى سبيل الله لاخراج الهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام ومن شعار الكفر الى شعار الاسلام لغرض من اغراض الدنيا فانما المعتبر وقوع تلك الهجرة لاجل أمر الله تعالى (فان تولوا) أى أعرضوا عن الايمان والهجرة ولزموا مواضعهم خارجا عن المدينة (فخذوهم) أى فأسروهم اذا قدرتم عليهم (واقتلوهم حيث وجدتموهم) أى فى الحل والحرم فان حكمهم حكم سائر المشركين أسرا وقتلا (ولا تتخذوا منهم) فى هذه الحالة (وليا) يتولى شيأ من مهماتكم (ولا نصيرا) ينصركم على أعدائكم (الا الذين يصلون) أى ينتهون (الى قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى الا من دخل فى عهد من كان داخلا فى عهدكم فهم أيضا داخلون فى عهدكم أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى حق هلال بن عويمر الاسلمى وسراقة بن مالك المدلجى وبنى خزيمة بن عامر بن عبد مناف وفى هذه الآية

بشارة

بشارة عظيمة لاهل الايمان لانه تعالى لما رفع السيف عمن التجأ الى من التجأ الى المسلمين فبأن يرفع العذاب في الآخرة عمن التجأ الى محبة الله ومحبة رسوله كان أولى (أو) الا الذين (جاؤكم حصرت) أى ضاقت (صدورهم) عن المقاتلة فلا يريدون (أن يقاتلوكم) لانكم مسلمون وللعهد (أو) لا يريدون أن (يقاتلوا قومهم) لانهم أقاربهم فهم لا عليكم ولا لكم أى لما أمر الله بأخذ الكفار وقتلهم استثنى من المأمور فريقين أحدهما من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين والآخر من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين (ولو شاء الله لسلطهم عليكم) ببسط صدورهم وتقوية قلوبهم وازالة الرعب عنها والمعنى أن ضيق صدورهم عن قتالكم انما هو بقذف الله الرعب في قلوبهم ولو قوى قلوبهم على قتال المسلمين لتسلطوا عليهم والمقصود من هذا الكلام ان الله تعالى من على المسلمين بكف بأس المعاهدين (فلقاتلوكم) وهذا في الحقيقة جواب لو وماقبله توطئة له وأعيدت اللام توكيدا (فان اعتزلوكم) أى تركوكم (فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم) أى الانقياد للصلح والامان (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أى طريقا بالاسر أو بالقتل (ستجدون) عن قريب (آخرين) أى قوما من المنافقين غير من سبق وهم قوم من أسد وغطفان كانوا مقيمين حول المدينة فاذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا وقالوا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انا على دينكم ليأمنوا من قتال المسلمين واذا رجعوا الى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا من قومهم حتى كان الرجل منهم يقول له قومه بماذا أسلمت فيقول آمنت بهذا القرد وبهذا العقرب والخنفساء كما قال تعالى (يريدون أن يأمنوكم) أى يأمنوا من قتالكم باظهار الاسلام عندكم (ويأمنوا قومهم) أى من بأسهم باظهار الكفر اذا رجعوا اليهم (كلما ردوا الى الفتنة) أى كلما دعوا الى قتال المسلمين (أركسوا فيها) أى قلبوا في الفتنة أقبح قلب وكانوا فيها شرا من كل عدو شرير أى كلما دعاهم قومهم الى الكفر وقتال المسلمين رجعوا اليه وهذا استعارة لشدة اصرارهم على الكفر وعداوة المسلمين لان من وقع في شيء منكوسا يتعذر خروجه منه (فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى فان لم يتركوا قتالكم ولم يطلبوا الصلح منكم ولم يكفوا أيديهم عن قتالكم فخذوهم أى أسروهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم أى وجدتموهم في الحل والحرم (وأولئكم) أى أهل هذه الصفة (جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) أى جعلنا لكم على جواز قتل هؤلاء حجة واضحة وهى ظهور عداوتهم وانكشاف حالهم في الكفر والغدر واضرارهم بأهل الاسلام أو جعلنا لكم عليهم تسلطا ظاهرا حيث أذنا لكم في أخذهم وقتلهم (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ) أى ليس لمؤمن أن يقتل مؤمنا البتة الا عند الخطأ وهو ما اذا رأى عليه شعار الكفار أو وجده في عسكرهم فظنه مشركا فههنا يجوز قتله ولا شك أن هذا خطأ فانه ظن أنه كافر مع أنه غير كافر روى أن عياش ابن أبي ربيعة أسلم في مكة وهاجر الى المدينة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم اليها وتحصن في أطم من أطامها خوفا من قومه فاقسمت أمه لا تأكل ولا تشرب ولا تجلس تحت سقف حتى يرجع فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن زيد بن أبي أنيسة فأتياه فقال أبو جهل أليس ان محمدا يأمرك ببر الام فانصرف وأحسن الى أمك وأنت على دينك فرجع الى مكة فلما دنوا من مكة قيدا يديه ورجليه وجلده كل واحد منهما مائة جلدة فلما دخل على أمه حلفت لا يزول عنه القيد حتى يرجع الى دينه الاول فتركوه موثوقا مطروحا في الشمس ماشاء الله فحعل بلسانه فأتاه الحرث بن زيد فقال ياعياش ان كان دينك الاول هدى فقد تركته وان كان ضلالا فقد دخلت الآن فيه فغضب عياش

من مقالته وقال والله لا ألقاك خاليا أبدا الا قتلتك ثم هاجر بعد ذلك وأسلم الحرث بعد ذلك وهاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيه عياش فى ظهر قباء خاليا ولم يشعر باسلامه فقتله فلما أخبره الناس بأنه كان مسلما ندم على فعله وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قتلته ولم أشعر باسلامه فنزلت هذه الآية (ومن قتل مؤمنا خطأ) بأن يقصد رمى المشرك فأصاب مسلما أو يظن الشخص مشركا فقتله فبان مسلما أو يضرب المسلم بضربة لا تقتل غالبا فيموت منها فالاول خطأ فى الفعل والثانى خطأ فى القصد والثالث خطأ فى القتل وان كان عمدا فى الضرب ولذلك سمى شبه العمد (فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله) أى فعليه اعتاق نسمة محكوم باسلامها وان كانت صغيرة ودية مؤداة الى ورثة المقتول يقتسمونها كسائر المواريث (الا أن يصدقوا) أى الا أن يعفوا أهل المقتول عن الدية ويتركوها وسمى العفو عنها صدقة حثا عليه وتنبيها على فضله وفى الحديث كل معروف صدقة (فان كان) أى المقتول خطأ (من قوم عدو لكم) أى من سكان دار الحرب (وهو مؤمن) ولم يعلم القاتل بكونه مؤمنا (فتحرير رقبة مؤمنة) أى فما اجب على القاتل بسبب قتله الواقع على سبيل الخطأ هو تحرير الرقبة وأما الدية فلا تجب اذ لا وراثة بين المقتول وبين أهله لانهم محاربون كالحرث بن زيد فانه من قوم محاربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأما الكفارة فانها حق الله تعالى ليقوم المعتوق به مقام المقتول فى المواظبة على العبادات (وان كان) أى المقتول خطأ (من قوم) كفرة (بينكم وبينهم ميثاق) أى عهد مؤقت أو مؤبد (فدية) أى فعلى قاتله دية (مسلمة الى أهله) أى المقتول وهى ثلث دية المؤمن ان كان نصرانيا أو يهوديا تحل منا كحته وثلثا عشرها ان كان مجوسيا أو كتابيا لا تحل منا كحته (وتحرير رقبة مؤمنة) على القاتل (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) أى فمن كان فقيرا فعليه ذلك الصيام بدلا عن الرقبة وقال مسروق بدلا عن مجموع الكفارة والدية والتتابع واجب حتى لو أفطر يوما وجب الاستئناف الا أن يكون الفطر بحيض أو نفاس (توبة من الله) أى شرع ذلك تجاوزا من الله على تقصيره فى ترك الاحتياط لانه لو بالغ فى الاحتياط لم يصدر عنه ذلك الفعل (وكان الله عليما) بأن القاتل لم يتعمد (حكيما) فى أنه تعالى ما يؤاخذه بذلك الخطأ (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) روى ان مقيس بن ضبابة الكنانى كان قد أسلم هو وأخوه هشام فوجد مقيس أخاه هشاما قتيلا فى بنى النجار فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر له القصة فأرسل رسول الله معه زبير بن عياض الفهرى وكان من أصحاب بدر الى بنى النجار يأمرهم بتسليم القاتل الى مقيس ليقتص منه ان علموه وبأداء الدية ان لم يعلموه فقالوا سمعا وطاعة فأتوه بمائة من الابل فانصرفا راجعين الى المدينة حتى اذا كانا ببعض الطريق تغفل مقيس الكنانى رسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الفهرى فرماه بصخرة فشدخه ثم ركب بعيرا من الابل واستاق بقيتها راجعا الى مكة كافرا فنزلت هذه الآية وهو الذى استثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح عن أمنه فقتل وهو متعلق باستار الكعبة (خالدا فيها) حال مقدرة من فاعل فعل مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل فجزاؤه أن يدخل جهنم خالدا فيها (وغضب الله عليه) أى انتقم منه عطف على مقدر كأنه قيل بطريق الاستئناف حكم الله بأن جزاءه ذلك وغضب عليه (ولعنه) أى أبعده عن الرحمة بجعل جزائه ما ذكر (وأعد له) فى جهنم (عذابا عظيما) لا يقادر قدره وقال ابن عباس ومن يقتل مؤمنا رسول سيدنا رسول الله متعمدا بقتله أى بأن يقصد قتله بالسبب الذى يعلم افضاءه الى الموت سواء كان ذلك جارحا أو لم يكن فجزاؤه جهنم بقتله عامدا عالما بكونه مؤمنا خالدا فيها بشركه وارتداده وغضب الله عليه بأخذه الدية ولعنه بقتله غير قاتل أخيه وأعد له عذابا

عظيما

عظيما أى شديدا بجرائه على الله (يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله) أى سافرتم فى الغزو (فتبينوا) أى تحققوا حتى يتبين لكم المؤمن من الكافر قرأ حمزة والكسائى هنا فى الموضعين وفى الحجرات فتثبتوا أى اطلبوا التثبت والمراد فى الآية فتأنوا واتركوا العجلة واحتاطوا (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام) أى لا تقولوا بغير تأمل لمن حياكم بتحية الاسلام أو لمن ألقى اليكم الانقياد بقول لا اله الا الله محمد رسول الله (لست مؤمنا) فتقتلونه (تبتغون عرض الحياة الدنيا) أى حال كونكم طالبين لماله الذى هو سريع النفاد (فعند الله مغانم كثيرة) أى ثواب كثير (كذلك كنتم من قبل) أى مثل ذلك الذى ألقى اليكم السلام كنتم أنتم أيضا فى أول اسلامكم لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من تحية الاسلام ونحوها (فمن الله عليكم) بأن قبل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم (فتبينوا) أى اذا كان الامر كذلك أى فقيسوا حاله بحالكم وافعلوا به مافعل بكم فى أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال من غير وقوف على تواطىء الظاهر والباطن (ان الله كان بما تعملون) من الاعمال الظاهرة والخفية (خبيرا) فيجازيكم بحسبها ان خيرا فخير وان شرا فشر فلا تتهاونوا فى القتل واحتاطوا فيه نزلت هذه الآية فى شأن مرداس بن نهيك رجل من أهل فدك وكان قد أسلم هو ولم يسلم غيره من قومه فذهبت سرية رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قومه مع أميرهم غالب بن فضالة فهربوا وبقى مرداس لثقته باسلامه فلما رأى الخيل ألجأ غنمه الى عاقول من الجبل فلما تلاحقوا وكبروا كبر ونزل وقال لا اله الا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجدا شديدا وقال قتلتموه ارادة مامعه فقال أسامة انه قال بلسانه دون قلبه فقال صلى الله عليه وسلم هلا شققت عن قلبه ثم قرأ هذه الآية على أسامة فقال يارسول الله استغفر لى فقال فكيف وقد تلا لا اله الا الله قال أسامة فما زال صلى الله عليه وسلم يعيدها حتى وددت انى لم أكن أسلمت الا يومئذ ثم استغفر لى ثلاث مرات وقال أعتق رقبة (لا يستوى القاعدون) الذين أذن لهم فى القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم الذين هم (من المؤمنين غير أولى الضرر) من مرض أو عاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها وفى معناه العجز عن الاهبة قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم بالرفع بدل من القاعدون ونافع وابن عامر والكسائى والباقون بالنصب على الحال من القاعدون والاعمش بالجر على الصفة للمؤمنين (والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) قال ابن عباس أى لا يستوى القاعدون عن بدر والخارجون اليها (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين) أولى الضرر (درجة) أى فضيلة فى الآخرة لان المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية واولو الضرر كانت لهم نية ولم يباشروا الجهاد فنزلوا عن المجاهدين درجة (وكلا) من المجاهدين والقاعدين (وعد الله الحسنى) أى الجنة بايمانهم (وفضل الله المجاهدين) فى سبيل الله (على القاعدين) الذين لا عذر لهم ولا ضرر (أجرا عظيما درجات منه) أى من الله تعالى (ومغفرة) للذنوب (ورحمة) من العذاب (وكان الله غفورا) لمن خرج الى الجهاد (رحيما) لمن مات على التوبة وقيل هذا التفضيل بين المجاهدين والقاعدين غير أولى الضرر فقط وذلك اما التنزيل الاختلاف بين التفضيلين منزلة الاختلاف الذاتى كأنه قيل فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة لا يقادر قدرها ولا يبلغ كنهها واما للاختلاف بالذات بين التفضيلين على ان المراد بالتفضيل الاول ما أعطاهم الله تعالى عاجلا فى الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل الحقيق بكونه درجة

واحدة و بالتفضيل الثانى ما أنعم به فى الآخرة من الدرجات العالية كأنه قيل وفضلهم عليهم فى الدنيا درجة واحدة وفى الآخرة درجات لا تحصى أما أولو الضرر فهم مساوون للمجاهدين و يدل على المساواة النقل والعقل أما النقل فقوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون وذكر بعض المفسرين فى تفسير ذلك ان من صار هرما كتب الله له أجر ما كان يعمله قبل هرمه غير منقوص من ذلك شيأ وأما العقل فالمقصود من جميع الطاعات استنارة القلب بنور معرفة الله تعالى فان حصل الاستواء فيه للمجاهد والقاعد فقد حصل الاستواء فى الثواب وان كان القاعد أكثر حظا من هذا الاستغراق كان هو أكثر ثوابا وقال بعضهم والمراد بقوله وفضل الله المجاهدين لدفع التكرار هو من كان مجاهدا فى كل الامور بالظاهر والقلب وهو أشرف أنواع المجاهدة وحاصل هذا الجهاد صرف القلب من الالتفات الى غير الله الى الاستغراق فى طاعة الله ولما كان هذا المقام أعلى جعل فضيلته درجات (ان الذين توفاهم الملائكة) أى ملك الموت وأعوانه وهم ستة ثلاثة منهم يلون قبض أرواح المؤمنين وثلاثة يلون قبض أرواح الكفار (ظالمى أنفسهم) بترك الهجرة واختيار مجاورة الكفرة الموجبة للاخلال بأمور الدين فان هذه الآية نزلت فى ناس من مكة قد أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة فقتلوا يوم بدر مع الكفار منهم على بن أمية بن خلف والحرث بن زمعة وقيس بن الوليد ابن المغيرة وأبا العاص بن منبه بن الحجاج وأبا قيس بن الفاكه (قالوا) أى الملائكة لهم حين القبض (فيم كنتم) أى فى أى شئ كنتم من أمر دينكم أى أكنتم فى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أم كنتم مشركين أو فيم كنتم فى حرب محمد أو فى حرب أعدائه (قالوا) معتذرين اعتذارا غير صحيح (كنا مستضعفين فى الارض) أى كنا مقهورين فى أرض مكة فى أيدى الكفار (قالوا) أى الملائكة لهم توبيخا مع ضرب وجوههم وأدبارهم (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) أى انكم كنتم قادرين على الخروج من مكة الى بعض البلاد التى لا تمنعون فيها من اظهار دينكم فبقيتم بين الكفار وقال ابن عباس أى ألم تكن المدينة آمنة فتهاجروا اليها (فأولئك مأواهم) فى الآخرة (جهنم) كما أن مأواهم فى الدنيا دار الكفر لتركهم الفريضة فأواهم مبتدأ وجهنم خبره والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر ان وقوله تعالى قالوا فيم كنتم حال من الملائكة أو هو الخبر والعائد منه محذوف أى قالوا لهم (وساءت مصيرا) أى بئس مصيرهم جهنم (الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) أى الصبيان أو المماليك (لا يستطيعون حيلة) أى لا يقدرون على حيلة الخروج ولا نفقة أو كان بهم مرض أو كانوا تحت قهر قاهر يمنعهم من تلك المهاجرة (ولا يهتدون سبيلا) أى لا يعرفون طريقا ولا يجدون من يدلهم على الطريق كعياش بن أبى ربيعة وسلمة بن هشام وسيدنا عبد الله بن عباس وأمه اسمها لبابة كما قال كنت أنا وأمى ممن عفا الله عنه بهذه الآية (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) وذكر العفو بكلمة عسى لا بالكلمة الدالة على القطع لأن الانسان لشدة نفرته عن مفارقة الوطن ربما ظن نفسه عاجزا عنها مع انه لا يكون كذلك فى الحقيقة فكانت الحاجة الى العفو شديدة فى هذا المقام (وكان الله عفوا) لما كان منهم (غفورا) لمن تاب منهم (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا وسعة) فى المعيشة أى ومن يهاجر فى طاعة الله الى بلد آخر يجد فى أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سببا لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه فى بلدته الاصلية وذلك لان من ذهب الى بلدة أجنبية فاذا استقام أمره فى تلك البلدة ووصل ذلك الخبر الى أهل بلدته خجلوا من سوء معاملتهم معه ورغمت أنوفهم بسبب ذلك (ومن يخرج من

بيته

بيته مهاجرا الى الله ورسوله) أى الى موضع أمر الله ورسوله (ثم يدركه الموت) قبل أن يصل الى المقصود وان كان خارج بابه (فقد وقع أجره على الله) أى فقد وجب أجر هجرته عند الله بايجابه على نفسه بحكم الوعد والتفضل والكرم لا بحكم الاستحقاق الذى لو لم يفعل لخرج عن الالهية (وكان الله غفورا) لما كان منه من القعود الى وقت الخروج (رحيما) باكمال أجر الهجرة فكذلك كل من قصد فعل طاعة ولم يقدر على اتمامها كتب الله له ثوابها كاملا روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه قوله تعالى ان الذين توفاهم الملائكة الى آخر الآيات بعث بها الى مكة فتليت على المسلمين الذين كانوا فيها اذ ذاك فسمعها رجل من بنى ليث شيخ مريض كبير يقال له جندع بن ضمرة فقال لبنيه احملونى فانى لست من المستضعفين وانى لاهتدى الطريق والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير متوجها الى المدينة فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك عليه رسولك فمات فبلغ خبره أصحاب رسول الله فقالوا لو وفى بالمدينة لكان أتم أجرا وضحك المشركون وقالوا ما أدرك ما طلب فأنزل الله تعالى قوله تعالى ومن يخرج من بيته الآية قالوا كل هجرة فى غرض دينى من طلب علم أو حج أو جهاد أو نحو ذلك فهى هجرة الى الله تعالى والى رسوله صلى الله عليه وسلم (واذا ضربتم فى الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) أى اذا سافرتم أى مسافرة كانت فليس عليكم مأثم فى أن تردوا الصلاة من أربع ركعات الى ركعتين اذا كان السفر طويلا لغير معصية وهو عند الشافعى ومالك أربعة برد وهى مرحلتان وعند أبى حنيفة ثلاثة أيام بلياليهن وروى عن عمر انه قال يقصر فى يوم تام وبه قال الزهرى والاوزاعى وقال أنس بن مالك المعتبر خمس فراسخ (ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) أى ان خفتم أن يتعرضوا لكم بما تكرهونه من القتال وغيره وقال ابن عباس أى ان علمتم أن يقتلوكم فى الصلاة وهذا الشرط بيان للواقع اذ ذاك وهو ان غالب أسفار نبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم تخل من خوف العدو لكثرة المشركين وأهل الحرب اذ ذاك فحينئذ لا يشترط الخوف بل للمسافر القصر مع الأمن لما فى الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم سافر بين مكة والمدينة لا يخاف الا الله عز وجل فكان يصلى ركعتين قال يعلى بن أمية قلت لعمر انما قال الله تعالى ان خفتم وقد أمن الناس قال عمر قد عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته رواه مسلم (ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) أى ان العداوة الحاصلة بينكم وبين الكافرين قديمة والآن قد أظهرتم خلافهم فى الدين وازدادت عداوتهم وبسبب شدة العداوة قصدوا اتلافكم ان قدروا فان طالت صلاتكم فربما وجدوا الفرصة فى قتلكم فعلى هذا رخصت لكم فى قصر الصلاة (واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك) أى اذا كنت يا أشرف الخلق مع المؤمنين فى خوفهم فأردت أن تقيم بهم الصلاة فاجعلهم طائفتين فلتقم منهم طائفة معك فصل بهم ولتقف الطائفة الاخرى بازاء العدو ليحرسوكم منهم (وليأخذوا) أى الطائفة الذين يصلون معك (أسلحتهم) من التى لا تشغلهم عن الصلاة كالسيف والخنجر فان ذلك أقرب الى الاحتياط وأمنع للعدو من الاقدام عليهم (فاذا سجدوا) أى القائمون معك أتموا صلاتهم بعد نية المفارقة (فليكونوا من ورائكم) أى فلينصرفوا من ورائكم الى مصاف أصحابهم بازاء العدو للحراسة ثم يبقى الامام قائما فى الركعة الثانية (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك) فى الركعة الثانية ثم يجلس الامام فى التشهد الى أن يصلوا ركعة ثانية ثم يسلم الامام بهم وهذا قول سهل بن أبى حثمة ومذهب الشافعى (وليأخذوا) أى هذه الطائفة (حذرهم) من العدو

(وأسلحتهم) معهم وانما ذكر الحذر هنا لان العدو لم يتنبه للمسلمين فى أول الصلاة بل يظنون كونهم قائمين لاجل المحاربة فاذا قاموا فى الركعة الثانية ظهر للكفار كونهم فى الصلاة فحينئذ ينتهزون الفرصة فى الهجوم عليهم فخص الله تعالى هذا الوضع بزيادة الحذر من الكفار (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) أى تمنوا انسيانكم عن الاسلحة وما تستمتع بها فى الحرب اذا قمتم الى الصلاة فينالوا منكم غرة وينتهزوا فرصة فيشدوا عليكم شدة واحدة فى الصلاة (ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) أى لا وزر عليكم فى وضع الاسلحة ان تعذر حملها اما لثقلها بسبب مطر أو مرض أو لايذاء من فى الجنب (وخذوا حذركم) أى احترزوا من العدو ما استطعتم لئلا يهجموا عليكم وهذه الآية تدل على وجوب الحذر عن جميع المضار المظنونة وبهذا الطريق كان الاقدام على العلاج بالدواء والاحتراز عن الوباء وعن الجلوس تحت الجدار المائل واجبا والله أعلم (ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا) فى الدنيا بأن يخذلهم وينصركم عليهم فاهتموا بأموركم ولا تهملوا فى مباشرة الاسباب كى يحل بهم عذابه تعالى بأيديكم بالقتل والاسر والنهب (فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة) أى فاذا فرغتم من صلاة الخوف فداوموا على ذكر الله فى جميع الاحوال حتى فى حال المسابقة والقتال فان ما أنتم عليه من الخوف والحذر مع العدو جدير بالمواظبة على ذكر الله والتضرع اليه فاذا سكنت قلوبكم من الخوف فأدوا الصلاة التى دخل وقتها حينئذ على الحالة التى كنتم تعرفونها ولا تغيروا شيأ من أحوالها وهيآتها وقيل معنى الآية فاذا أردتم أداء الصلاة فصلوا قياما حال اشتغالكم بالمسابقة والمقارعة وقعودا جاثين على الركب حال اشتغالكم بالمراماة وعلى جنوبكم حال ما تكثر الجراحات فيكم فتسقطون على الارض فاذا زال الخوف عنكم بانقضاء الحرب فاقضوا ما صليتم فى تلك الاحوال وهذا ظاهر على مذهب الشافعى من ايجاب الصلاة على المحارب فى حال المسابقة اذا حضر وقتها واذا اطمأنوا فعليهم القضاء وقال ابن عباس أى فاذا فرغتم من صلاة الخوف فصلوا لله قياما للصحيح وقعودا للمريض وعلى الجنوب للجريح والمريض فاذا ذهب منكم الخوف ورجعتم الى منازلكم فأتموا الصلاة أربعا (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) أى فرضا موقتا (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم) أى لا تعجزوا ولا تتوانوا فى طلب الكفار بالقتال نزلت هذه الآية فى شأن بدر الصغرى وذلك لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم طائفة فى طلب أبى سفيان وأصحابه فشكوا الجراحات حين رجعوا من أحد (ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون) أى ان كنتم تتوجعون بالجراح فانهم يتوجعون بالجراح لحصول الالم قدر مشترك بينكم وبينهم فلم يصير خوف الالم مانعا لهم عن قتالكم فكيف صار مانعا لكم عن قتالهم (وترجون من الله ما لا يرجون) أى وأنتم ترجون من الله ثوابه وتخافون عذابه لانكم تعبدون الله تعالى والمشركون يعبدون الأصنام فلا يصح منهم أن يرجوا منها ثوابا أو يخافوا منها عقابا فيجب أن تكونوا أرغب منهم فى الحرب وأصبر عليها وقرأ الاعرج أن تكونوا بفتح الهمزة أى لان تكونوا (وكان الله عليما حكيما) أى لا يكلفكم شيأ الا ما هو عالم بانه سبب لصلاحكم فى دينكم ودنياكم (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس) أى بين طعمة وزيد بن سمين (بما أراك الله) أى بما علمك الله فى القرآن وسمى العلم الذى بمعنى الاعتقاد بالرؤية لان العلم اليقينى المبرأ عن الريب يكون جاريا مجرى الرؤية فى القوة والظهور وكان عمر يقول لا يقولن أحدكم قضيت بما أرانى الله تعالى فان الله تعالى لم يجعل ذلك الا لنبيه وأما الرأى منا يكون ظنا لا علما نزلت هذه الآية

فى شأن رجل من الانصار يقال له طعمة بن ابيرق من بنى ظفر سرق درعا من جاره قتادة بن النعمان وهى فى جراب دقيق فصار الدقيق يتناثر من خرق فيه فخبأها عند زيد بن سمين اليهودى فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى الى منزل اليهودى فأخذوها فقال دفعها الى طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر انطلقوا بنا الى رسول الله نشهد أن اليهود هو السارق لئلا نفتضح بل عزموا على الحلف فذهبوا وشهدوا ازورا ولم يظهر له صلى الله عليه وسلم قادح فيهم فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب اليهودى أو بقطع يده لثبوت المال عنده فأعلمه الله الحال بالوحى فهم أن يقضى على طعمة فهرب الى مكة وارتد ونقب حائطا ليسرق متاع أهله فوقع عليه فقتله ومات مرتدا فى مكة (ولا تكن) يا أشرف الخلق (للخائنين) أى لاجل المنافقين وللذب عنهم وهم طعمة وقومه بنو ابيرق بشر و بشير ومبشر كما أخرجه الترمذى من حديث قتادة بن النعمان (خصيما) أى مخاصما لمن كان بريئا عن الذنب وهو اليهودى (واستغفر الله) من همك بضرب اليهودى زيد بن سمين تعويلا على شهادتهم لانهم كانوا فى الظاهر مسلمين فاستغفاره صلى الله عليه وسلم بسبب ذلك الهم بالحكم الذى لو وقع لكان خطأ فى نفسه وان كان معذورا عند الله فيه فأمره صلى الله عليه وسلم بالاستغفار لهذا القدر فان حسنات الابرار سيآت المقربين (ان الله كان غفورا رحيما) أى مبالغا فى المغفرة والرحمة لمن يستغفره (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) طعمة ومن عاونه من قومه ممن علم كونه سارقا (ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما) فان طعمة خان فى الدرع واثم فى نسبة اليهودى الى تلك السرقة وطلب من النبى صلى الله عليه وسلم ان يدفع السرقة عنه ويلحقه باليهودى وهذا يبطل رسالة الرسول ومن حاول ابطاله ذلك واظهار كذبه فهو كافر وقيل اذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم ان لها اخوات وروى عن عمر انه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكى وتقول هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه فقال عمر كذبت ان الله لا يؤاخذ عبده فى أول الأمر (يستخفون من الناس) أى يستترون منهم حياء وخوفا من ضرر (ولا يستخفون من الله) أى ولا يستحيون منه تعالى ولا يخافون من عذابه تعالى (وهو معهم) بعلمه ورؤيته وقدرته (اذ يبيتون) أى يقدرون فى اذهانهم (ما لا يرضى) أى الله (من القول) وهو أن طعمة قال ارمى اليهودى بأنه هو الذى سرق الدرع وأحلف انى لم أسرقها فيقبل الرسول يمينى لانى على دينه ولا يقبل يمين اليهودى (وكان الله بما يعملون محيطا) لا يعزب عنه تعالى شئ ولا يفوت (ها أنتم هؤلاء) أى أنتم يا قوم طعمة (جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا) أى هبوا انكم خاصمتم عن طعمة وأمثاله فى الدنيا وقرأ عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب عنه بالافراد (فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة) عند تعذيبهم (أم من يكون عليهم وكيلا) أى أم من الذى يكون محافظا لهم من عذاب الله (ومن يعمل سوءا) أى قبيحا يحزن به غيره كما فعل طعمة من سرقة الدرع لقتادة ومن رمى اليهود بالسرقة (أو يظلم نفسه) كالحلف الكاذب (ثم يستغفر الله) بالتوبة الصادقة (يجد الله غفورا) لذنوبه (رحيما) حيث قبل توبته (ومن يكسب اثما) أى ذنبا (فانما يكسبه على نفسه) فلا يتعدى ضرره الى غيره فليتحرز عن اقبال نفسه للعقاب عاجلا وآجلا والكسب عبارة عما يفيد جر منفعة أو دفع مضرة ولذلك لم يجز وصف الله تعالى بذلك (وكان الله عليما) بما فى قلب عبده عند اقدامه على التوبة (حكيما) تقتضى حكمته ان يتجاوز عن التائب وان لا يحمل نفسا وازرة وزر نفس أخرى (ومن يكسب خطيئة) أى صغيرة أو قاصرة على الفاعل أو ما لا ينبغى فعله بالعمد أو بالخطأ (أو اثما) أى كبيرة أو ما يتعدى الى الغير كالظلم والقتل أو ما يحصل

بالعمد (ثم يرم به) أى يقذف بذلك الذنب (بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا) أى فقد أوجب على
نفسه عقوبة بهتان عظيم وعقوبة ذنب بين فالبهتان أن ترمى أخاك بأمر منكر وهو برىء منه فصاحب
البهتان مذموم فى الدنيا أشد الذم ومعاقب فى الآخرة أشد العقاب فقوله تعالى بهتانا اشارة الى الذم العظيم
فى الدنيا وقوله تعالى اثما مبينا اشارة الى العقاب العظيم فى الآخرة (ولولا فضل الله عليك) باعلامك
ماهم عليه بالوحى (ورحمته) بتنبيهك على الحق أو المعنى لولا ان الله خصك بالفضل وهو النبوة وبالرحمة
وهى العصمة (لهمت طائفة منهم أن يضلوك) أى لارادت طائفة من قوم طعمة ان يلقوك فى الحكم
الباطل وذلك لان قوم طعمة قد عرفوا انه سارق ثم سألوا النبى أن يجادل عنه ويبرئه عن السرقة وينسب
تلك السرقة الى اليهود (وما يضلون الا أنفسهم) بسبب تعاونهم على الاثم والعدوان وشهادتهم بالزور
والبهتان (وما يضرونك من شئ) أى انهم وان سعوا فى القائك فى الباطل فأنت ماوقعت فيه لانه
تعالى عاصمك ولانك بنيت الامر على ظاهر الحال وأنت ما أمرت الا ببناء الاحكام على الظواهر
(وأنزل الله عليك الكتاب) أى القرآن (والحكمة) أى علم الشرائع (وعلمك مالم تكن تعلم) من
امور الدين واسرار الكتاب والحكمة واخبار الاولين وحيل المنافقين (وكان فضل الله عليك عظيما)
وهذا من أعظم الدلائل على ان العلم أشرف المناقب والفضائل مع ان الله تعالى ما أعطى الخلق من العلم
الا القليل (لاخير فى كثير من نجواهم الا) فى نجوى (من أمر بصدقة) واجبة أومندوبة (أو
معروف) وهو أصناف أعمال البر كالقرض واغاثة الملهوف (أو اصلاح بين الناس) عند وقوع المعاداة
بينهم من غير مجاوزة حدود الشرع فى ذلك وذلك كما قال النبى صلى الله عليه وسلم كلام ابن آدم كله
عليه لاله الا ما كان من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله (ومن يفعل ذلك) أى هذا المذكور من
الصدقة وفنون الجميل والاصلاح أو ذلك الامر بهذه الاقسام الثلاثة كأنه قيل ومن يأمر بذلك ويجوز ان
يراد بالفعل الامر فعبر عن الامر بالفعل لان الامر فعل من الافعال أى ومن يأمر بذلك (ابتغاء مرضاة
الله) أى طلب رضوان الله (فسوف نؤتيه أجرا عظيما) أما اذا أتى بذلك للرياء والسمعة صار من أعظم
المفاسد وهذه الآية من أقوى الدلائل على ان المطلوب من الاعمال الظاهرة رعاية أحوال القلب فى
اخلاص النية وتصفية القلب عن داعية الالتفات الى غرض سوى طلب رضوان الله وقرأ أبو عمرو وحمزة
يؤتيه بالياء مناسبة للغيب فى قوله ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله والباقون بنون العظمة مناسبة لقوله
تعالى الآتى نوله ونصله (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله
ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) روى ان طعمة بن ابيرق لما رأى ان الله تعالى هتك ستره وبرأ
اليهودى عن تهمة السرقة ارتد وذهب الى مكة ونقب جدار انسان لاجل السرقة فتهدم الجدار عليه فمات
فنزلت هذه الآية ومعناها ومن يخالف الرسول فى الحكم من بعد ماظهر له بالدليل صحة دين الاسلام
ويتبع دينا غير دين الموحدين نتركه الى ما اختار لنفسه ونخله الى ما اعتمد عليه فى الدنيا وندخله جهنم فى
الآخرة وبئس مصيره جهنم وذلك ان طعمة قد تبين له بما أوحى الله تعالى من أمره من انه سارق مادله ذلك
على صحة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فعادى الرسول وأظهر الشقاق وترك دين الاسلام واتبع
دين عبادة الاصنام (ان الله لا يغفر أن يشرك به) اذا مات على الشرك (ويغفر مادون ذلك) أى
الشرك (لمن يشاء) سواء حصلت التوبة أو لم تحصل روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان شيخا من
العرب جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى شيخ منهمك فى الذنوب الا انى لم أشرك

بالله

بالله شيأ منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه وليا ولم أواقع المعاصي جراءة على الله تعالى وما توهمت طرفة عين اني أعجز الله هربا واني لنادم تائب مستغفر فما ترى حالي عند الله تعالى فنزلت هذه الآية (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) عن الحق فان الشرك أعظم أنواع الضلالة أما من لم يشرك بالله لم يكن ضلاله بعيدا فلا يصير محروما عن الرحمة ثم بين الله تعالى كون الشرك ضلالا بعيدا فقال (ان يدعون من دونه الا اناثا) أي ما يعبد المشركون من أهل مكة الا أوثانا يسمونها باسم الاناث كقولهم اللات والعزى ومناة واللات تأنيث الله والعزى تأنيث العزيز ومناة تأنيث المنان أو لانهم كانوا يزينونها على هيآت النسوان وقرأت عائشة رضي الله عنها الا أوثانا وابن عباس الا أثنا جمع وثن مثل أسد وأسد والهمزة بدل من الواو المضمومة (وان يدعون الا شيطانا مريدا لعنه الله) أي وما يعبدون الا شيطانا شديد البعد عن الطاعة طرده الله من كل خير لان ابليس هو الذي أمرهم بعبادة الاوثان فكانت طاعته في ذلك عبادة له (وقال) أي الشيطان عند ذلك (لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) أي لاجعلن لي من عبادك حظا مقدرا معينا وهم الذين يتبعون خطوات ابليس ويقبلون وساوسه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من كل ألف واحد لله وسائره للناس ولابليس (ولاضلنهم) عن الهدى (ولامنينهم) أي ألقين في قلوبهم الاماني وهي تورث شيئين الحرص والامل وهما يستلزمان أكثر الاخلاق الذميمة ويلازمان للانسان قال صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويشب ومعه اثنان الحرص والامل اه فالحرص يستلزم ركوب الاهوال فاذا اشتد حرصه على الشيء فقد لا يقدر على تحصيله الا بمعصية الله وايذاء الخلق واذا طال أمله نسي الآخرة وصار غريقا في الدنيا فلا يكاد يقدم على التوبة ولا يكاد يؤثر فيه الوعظ فيصير قلبه كالحجارة أو أشد قسوة (ولآمرنهم) بالتبتيك أي شق آذان الناقة (فليبتكن آذان الانعام) فان العرب كانوا يشقون آذان الناقة اذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا حرموا على أنفسهم الانتفاع بها (ولآمرنهم) بالتغيير (فليغيرن خلق الله) صورة أو صفة كاخصاء العبيد وفقء العيون وقطع الآذان والوشم والوشر ووصل الشعر فان المرأة تتوصل بهذه الافعال الى الزنا وكانت العرب اذا بلغت ابل أحدهم ألفا عوروا عين فحلها ويدخل في هذه الآية التخنث والسحاقات لان التخنث عبارة عن ذكر يشبه الانثى والسحق عبارة عن انثى تشبه الذكر وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقا لكن الفقهاء رخصوا في البهائم للحاجة فيجوز في المأكول الصغير ويحرم في غيره (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله) بأن فعل ما أمره الشيطان به وترك ما أمره الرحمن به (فقد خسر خسرانا مبينا) أي بتضييع أصل ماله وهو الدين الفطري كما قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة أي دين الاسلام ولكن أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه وذلك لان طاعة الله تفيد المنافع العظيمة الدائمة وطاعة الشيطان تفيد المنافع القليلة المنقطعة ويعقبها العذاب الاليم (يعدهم ويمنيهم) بأن يلقي الشيطان في قلوبهم انه سيطول أعمارهم وينالون من الدنيا مالهم ومقاصدهم ويقع في قلوبهم ان الدنيا دول فربما تيسرت لهم كما تيسرت لغيرهم وأيضا ان الشيطان يعدهم بأنه لا قيامة ولا جزاء فاجتهدوا في استيفاء اللذات الدنيوية (وما يعدهم الشيطان الا غرورا) وهو ان يظن الانسان بالشيء انه نافع ولذيذ ثم يتبين اشتماله على أعظم الآلام والمضار وجميع أحوال الدنيا كذلك (أولئك) أي أولياء الشيطان وهم الكفار (مأواهم جهنم ولا يجدون عنها) أي جهنم (محيصا) أي معدلا ومهربا (والذين آمنوا) أي أقروا بالايمان (وعملوا الصالحات) أي الطاعات تصديقا لاقرارهم (سندخلهم جنات تجري من تحتها

الانهار خالدين فيها) أي ماكثين في الجنة مكثا طويلا لا يخرجون منها (أبدا وعد الله حقا) أي وعدهم الله بذلك الادخال وعدا لا خلف فيه وحق ذلك حقا فالاول مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره (ومن أصدق من الله قيلا) أي لا أحد أصدق من الله وعدا وهذا توكيد ثالث وفائدة هذه التوكيدات معارضة لمواعيد الشيطان الكاذبة وترغيب للعباد في تحصيل ما وعده الله (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب) أي ليس الثواب الذي تقدم الوعد به في قوله تعالى سندخلهم جنات بأمانيكم يا معشر المؤمنين ان يغفر لكم وان ارتكبتم الكبائر أي فانكم تمنيتم ان لا تؤاخذوا بسوء بعد الايمان ولا أماني اليهود والنصارى فانهم قالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه فلا يعذبنا وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة وليس الامر كذلك فانه تعالى يخص بالعفو أو الرحمة من يشاء أي ليس يستحق ذلك الثواب بالاماني وانما يستحق بالايمان والعمل الصالح (من يعمل سوأ يجز به) فالمؤمن يجزى عند عدم التوبة اما في الدنيا بالمصيبة أو بعد الموت قبل دخول الجنة أو بانحطاط ثواب طاعته بمقدار عقاب تلك المعصية والكافر يجزى في الدنيا بالمحن والبلاء وفي الآخرة دائما روى أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر الصديق كيف الصلاح بعد هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض أليس يصيبك الاذى أي من البلاء والحزن قال بلى يارسول الله قال فهو ما تجزون وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلا قرأ هذه الآية فقال أنجزى بكل ما نعمل لقد هلكنا فبلغ كلامه النبي صلى الله عليه وسلم فقال يجزى المؤمن في الدنيا بمصيبته في جسده وما يؤذيه وعن أبي هريرة قال لما نزلت هذه الآية بكينا وحزنا وقلنا يارسول الله ما أبقت هذه الآية لنا شيأ فقال صلى الله عليه وسلم ابشروا فانه لا يصيب أحدا منكم مصيبة في الدنيا الا جعلها الله له كفارة حتى الشوكة التي تقع في قدمه (ولا يجد له من دون الله) أي مجاوزا عن حفظ الله ونصرته (وليا) أي حافظا يحفظه (ولا نصيرا) ينصره فشفاعة الانبياء والملائكة في حق العصاة انما تكون باذن الله تعالى واذا كان الامر كذلك فلا ولي لاحد ولا نصير لاحد الا الله تعالى (ومن يعمل من الصالحات) أي من يعمل بعض الصالحات كائنا (من ذكر أو أنثى وهو مومن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) أي ولا ينقصون قدر منبت النواة من ثواب أعمالهم فاذا لم ينقص الله الثواب فجدير أن لا يزيد في العقاب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم يدخلون الجنة بالبناء للمفعول وكذلك في سورة مريم وفي حم المومن قال مسروق لما نزل قوله تعالى من يعمل سوء يجز به قال أهل الكتاب للمسلمين نحن وأنتم سواء فنزلت هذه الآية (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله) أي لا أحد أحسن دينا ممن عرف ربه بقلبه وأقر بربوبيته وبعبوديته نفسه (وهو محسن) أي والحال أنه آت بالحسنات تارك للسيآت (واتبع ملة ابراهيم حنيفا) حال للمتبوع أو للتابع وانما عاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الخلق الى دين ابراهيم لانه اشتهر عند كل الخلق أن ابراهيم ما كان يدعو الا الى الله تعالى وشرعه مقبول عند الكل لان العرب لا يفتخرون بشئ كافتخارهم بالانتساب الى ابراهيم وأما اليهود والنصارى فلا شك في كونهم مفتخرين به (واتخذ الله ابراهيم خليلا) روى ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان يسمى أبا الضيفان وكان منزله على ظهر الطريق يضيف من مر به من الناس فأصاب الناس أزمة فاجتمعوا في بابه فحشروا الى بابه يطلبون الطعام وكانت الميرة له كل سنة من صديق له بمصر فبعث غلمانه بالابل الى الخليل الذي بمصر فقال خليله لغلمانه لو كان ابراهيم يطلب الميرة لنفسه لفعلت ولكن يريدها للاضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس من الشدة

فرجع

فرجع غلمانه فمروا ببطحاء أى بأرض ذات حصى فلؤامنها الغرائر حياء من الناس حيث كانت ابلهم فارغة وجاؤا بها الى منزل ابراهيم وألقوها فيه وتفرقوا وأخبره أحدهم القصة فاغتم لذلك غما شديدا فغلبه عيناه وعمدت سارة الى الغرائر ففتحتها فاذا فيها أجود حوارى بضم الحاء المهملة وتشديد الواو وفتح الراء وهو الدقيق الذى نخل مرة بعد أخرى فأمرت الخبازين فخبزوا فأطعمت الناس فاستيقظ ابراهيم فوجد رائحة الخبز فقال من أين هذا الكرم فقالت سارة من خليلك المصرى فقال بل من عند خليلى الله عز وجل فسماه الله تعالى خليلا وقال شهر بن حوشب هبط ملك فى صورة رجل وذكر اسم الله بصوت رخيم شجى فقال ابراهيم عليه السلام اذكره مرة أخرى فقال لا أذكره مجانا فقال لك مالى كله فذكره الملك بصوت أشجى من الاول فقال اذكره مرة ثالثة ولك أولادى فقال الملك ابشر فانى ملك لا أحتاج الى مالك وولدك وانما كان المقصود امتحانك فلما بذل المال والاولاد على سماع ذكر الله حقا أتخذه الله خليلا (ولله ما فى السموات وما فى الارض) يختار منهما ما يشاء لمن يشاء (وكان الله بكل شئ) من أهل السموات والارض (محيطا) بالقدرة والعلم (ويستفتونك فى النساء) أى يسألك يا أشرف الخلق جماعة من الصحابة عن أحوال كثيرة مما يتعلق بحق النساء فالذى بين الله حكمه فيما سبق فى أول هذه السورة أحال بيان الحكم فى ذلك والذى لم يبين حكمه بين هنا وذلك قوله تعالى (قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم) أى قل يا أشرف الخلق لهم الله تعالى قد بين لكم أحوال النساء والمتلو (فى الكتاب) فى أول هذه السورة قد بين لكم (فى يتامى النساء) أى فى شأنهن فما معطوف على المبتدا وهذا متعلق بيتلى وذلك المتلو فى الكتاب هو قوله تعالى وان خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى (اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن) أى اللاتى لا تعطونهن ما وجب لهن من الميراث أو الصداق وذلك لانهم يورثون الرجال دون النساء والكبار دون الصغار (وترغبون أن تنكحوهن) وهذا يحتمل الرغبة والنفرة فان حمل على الرغبة كان المعنى وترغبون فى أن تنكحوهن لمالهن وجمالهن بأقل من صداقهن وان حمل على النفرة كان المعنى وترغبون عن أن تنكحوهن لدمامتهن وتمسكوهن رغبة فى مالهن وهذه الجملة معطوف على الصلة عطف المثبتة على المنفية ويجوز أن تكون حالا من فاعل تؤتونهن والتأويل وأنتم ترغبون وهذا اذا أريد بقوله تعالى ما كتب لهن صداقهن روى مسلم عن عائشة قالت هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى جمالها ومالها ويريد أن ينكحها وينقص صداقها عن عادة نسائها فنهوا عن نكاحهن الا أن يقسطوا لهن فى اكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن قالت عائشة فاستفتى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ويستفتونك فى النساء الى قوله تعالى وترغبون أن تنكحوهن فبين الله لهم أن اليتيمة اذا كانت ذات جمال ومال رغبوا فى نكاحها ولم يلحقوها بعاداتها فى اكمال الصداق واذا كانت مرغوبا عنها فى قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها قال تعالى فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها اذا رغبوا فيها الا أن يعطوها حقها الاوفى من الصداق ويقسطوا لها (والمستضعفين من الولدان) معطوف على يتامى النساء وقد كانوا فى الجاهلية لا يورثون الاطفال ولا النساء الذى تلى فى حقهم قوله تعالى يوصيكم الله فى أولادكم وروى أن عيينة بن حصن الفزارى جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنا بأنك تعطى الابنة النصف والاخت النصف وانما كانوا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة فقال صلى الله عليه وسلم (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) عطف على المستضعفين وتقديره الآية وما يتلى عليكم فى الكتاب يفتيكم فى يتامى النساء وفى المستضعفين وفى أن تقوموا لليتامى بالقسط والذى تلى فى

حقهم قوله تعالى ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم (وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما) أى يجازيكم عليه ولا يضيع عند الله منه شئ (وان امرأة خافت من بعلها نشوزا) أى اظهارا لخشونة فى القول أو الفعل أو فيهما (أو اعراضا) أى سكوتا عن الخير والشر (فلا جناح عليهما) حينئذ فى (أن يصلحا بينهما صلحا) بان بذلت المرأة كل الصداق أو بعضه للزوج أو أسقطت عنه مؤنة النفقة أو القسم وكان غرضها من ذلك أن لا يطلقها زوجها وهذا من جملة ما أخبر الله تعالى أنه يفتيهم به فى النساء مما لم يتقدم ذكره فى هذه السورة روى سعيد بن جبير عن ابن عباس ان الآية نزلت فى ابن أبى السائب كانت له زوجة وله منها أولاد وكانت شيخة فهم بطلاقها فقالت لا تطلقنى ودعنى اشتغل بمصالح أولادى وأقسم فى كل شهر ليالى قليلة فقال الزوج ان كان الامر كذلك فهو أصلح لى فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية قرأ عاصم وحمزة والكسائى يصلحا بضم الياء وسكون الصاد والباقون يصالحا بفتح الياء والصاد المشددة الممدودة قالوا معناه يتوافقا وهو أليق بهذا الموضع (والصلح خير) أى والصلح بين الزوجين خير من سوء العشرة أو من الفرقة أو من الخصومة أو هو خير من الخيور (وأحضرت الانفس الشح) أى جعل الشح حاضرا للانفس لا يغيب عنها ولا ينفك عنها أبدا فالمرأة تبخل ببذل حقها لزوجها وطمعها يجرها الى ان ترضى والرجل يبخل بأن يقضى عمره معها مع دمامة وجهها وكبر سنها وعدم حصول اللذة بمعاشرتها (وان تحسنوا) بالاقامة على نسائكم وان كرهتموهن بأن تسووا بين الشابة والعجوز فى القسمة والنفقة (وتتقوا) ما يؤدى الى الاذى والخصومة (فان الله كان بما تعملون) من الاحسان والتقوى (خبيرا) وهو يثيبكم عليه وروى ان هذه الآية نزلت فى عمرة بنت محمد بن مسلمة وزوجها سعد بن الربيع تزوجها وهى شابة فلما علاها الكبر تزوج شابة وآثرها عليها وجفاها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكت اليه ذلك (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) أى لن تقدروا على التسوية بينهن فى ميل الطباع واذا لم تقدروا عليه لم تكونوا مكلفين به (ولو حرصتم) أى جهدتم على اقامة العدل فى الحب (فلا تميلوا كل الميل) الى التى تحبونها فى القسم والنفقة أى انكم لستم منهيين عن حصول التفاوت فى الميل القلبى لان ذلك خارج عن وسعكم ولكنكم منهيون عن اظهار ذلك التفاوت فى القول والفعل (فتذروها كالمعلقة) أى فتبقى الاخرى لا أيما ولا ذات بعل كما ان الشئ المعلق لا يكون على الارض ولا على السماء وفى قراءة أبى فتذروها كالمسجونة (وان تصلحوا) ما مضى من ميلكم وتتداركوه بالتوبة (وتتقوا) فى المستقبل عن مثله غفر الله لكم ذلك (فان الله كان غفورا رحيما) فيغفر ما حصل فى القلب من الميل الى بعضهن دون البعض ويتفضل عليكم برحمته (وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته) أى وان رغبا فى المفارقة بأن لم يتفقا بصلح أو غيره يغن الله كلا واحد منهما عن صاحبه بزوج خير من زوجه الاول يعيش أهنأ من عيشه الاول من غناه تعالى وقدرته (وكان الله واسعا) أى فى العلم والقدرة والرحمة والفضل والجود (حكيما) أى متقنا فى أفعاله وأحكامه (ولله ما فى السموات وما فى الارض) من الموجودات من الخلائق والخزائن فيهما (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) أى ولقد أمرنا اليهود والنصارى ومن قبلهم من الامم وأمرناكم يا أمة محمد فى كتابكم بطاعة الله وهى وصية الله فى الاولين والآخرين فهى شريعة عامة لجميع الامم لم يلحقها نسخ (وان تكفروا فان لله ما فى السموات وما فى الارض وكان الله غنيا حميدا) أى وقلنا لهم ولكم وان تكفروا فاعلموا ان لله ما فى سمواته وما فى أرضه من أصناف المخلوقات

من يعبده وكان مع ذلك غنيا عن خلقهم وعن عبادتهم ومستحقا لان يحمد لكثرة نعمه وان لم يحمده أحد منهم فهو تعالى فى ذاته محمود سواء حمدوه أولم يحمدوه فلا يتضرر بكفرهم ومعاصيهم كما لا ينتفع بشكرهم وتقواهم وانما وصاهم بالتقوى لرحمته لا لحاجته فهو منزه عن طاعات المطيعين وعن ذنوب المذنبين فلا يزداد جلاله بالطاعات ولا ينقص بالمعاصي والسيآت (ولله ما فى السموات وما فى الارض) من الخلائق قاطبة مفتقرون اليه فى الوجود وسائر النعم المتفرعة عليه لا يستغنون عن فيضه طرفة عين فحقه أن يطاع ولا يعصى ويتقى عقابه ويرجى ثوابه (وكفى بالله وكيلا) فى تدبير أمور الكل وكل الامور فلابد من أن يتوكل عليه لا على أحد سواه (ان يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) أى ان يشأ أفناءكم بالكلية وايجاد قوم آخرين يشتغلون بعبوديته وتعظيمه يفنكم بالمرة ويوجد مكانكم قوما خيرا منكم وأطوع لله (وكان الله على ذلك) أى اهلاككم وتخليق غيركم (قديرا) أى ان ابقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان انما هو لكمال غناه عن طاعتكم ولعدم تعلق ارادته باستئصالكم لا لعجزه تعالى عن ذلك (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) أى من كان يريد بعمله منفعة الدنيا فلا يقتصر عليه وليطلب الثوابين فعند الله ثواب الدارين وقال الفخر الرازى تقرير الكلام فعند الله ثواب الدنيا والآخرة له ان أراده الله تعالى وعلى هذا التقدير يتعلق الجزاء بالشرط وقال ابن عباس من كان يريد منفعة الدنيا بعمله الذى افترضه الله عليه فليعمل لله فان ثواب الدنيا والآخرة بيد الله أى فان العاقل يطلب ثواب الآخرة حتى يحصل له ذلك ويحصل له ثواب الدنيا على سبيل التبع (وكان الله سميعا بصيرا) أى عالما بجميع المسموعات والمبصرات (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله) أى كونوا مبالغين فى اختيار العدل وفى الاحتراز عن الجور تقيمون شهاداتكم لوجه الله كما أمرتم باقامتها (ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين) أى ولو كانت الشهادة وبالا على أنفسكم أو آبائكم أو أقاربكم (ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) أى ان يكن المشهود عليه غنيا أو فقيرا فلا تكتموا الشهادة اما لطلب رضا الغني أو للترحم على الفقير فالله أولى بأمورهما ومصالحهما وفى قراءة أبي فالله أولى بهم وهو اما راجع الى قوله أو الوالدين والاقربين أو راجع الى جنس الغني وجنس الفقير وقرأ عبد الله ان يكن غني أو فقير على كان التامة (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أى لاجل أن تعدلوا والمعنى اتركوا متابعة الهوى حتى تصيروا موصوفين بصفة العدل (وان تلووا) بواوين على قراءة الجمهور أى وان تحرفوا ألسنتكم عن شهادة الحق وقرأ ابن عامر وحمزة وان تلوا بضم اللام وحذف الواو الاولى أى ان تموا الشهادة وتقبلوا عليها (أو تعرضوا) عن اداء الشهادة أصلا (فان الله كان بما تعملون خبيرا) فيجازى المحسن المقبل والمسيء المعرض نزلت هذه الآية فى مقيس بن حبابة كانت عنده شهادة على أبيه (يا أيها الذين آمنوا) فى الماضي والحاضر (آمنوا) فى المستقبل (بالله ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (والكتاب الذى نزل على رسوله) وهو القرآن (والكتاب الذى أنزل من قبل) أى قبل القرآن أو المعنى يا أيها الذين آمنوا على سبيل التقليد آمنوا على سبيل الاستدلال أو يا أيها الذين آمنوا بحسب الاستدلالات الجملية آمنوا بحسب الدلائل التفصيلية وهذا خطاب لكافة المسلمين وقيل هو خطاب لمؤمني أهل الكتاب لما ان عبد الله بن سلام وابن أخته سلامة وابن أخيه سلمة وأسد وأسيد ابني كعب وثعلبة بن قيس ويامين بن يامين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يا رسول الله انا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل فقال صلى الله عليه وسلم بل

آمنوا بالله ورسوله محمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله فقالوا لا نفعل فنزلت هذه الآية فآمنوا كلهم (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) أي ومن يكفر بواحد من ذلك المذكور (فقد ضل ضلالا بعيدا) بحيث يعسر العود من الضلال الى سواء الطريق (ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا) أي ان الذين يتكرر منهم الكفر بعد الايمان مرات ثم ماتوا على الكفر أو المعنى ان الذين أظهروا الاسلام ثم كفروا بكون باطنهم على خلاف ظاهرهم ثم آمنوا بألسنتهم فكلما لقوا جمعا من المسلمين قالوا انا مؤمنون وانما أظهروا الايمان لتجرى عليهم أحكام المؤمنين ثم كفروا فاذا دخلوا على شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن ثم ازدادوا كفرا باجتهادهم في استخراج أنواع المكر في حق المسلمين وبموتهم على الكفر (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) فان كل من كان كثير الانتقال من الاسلام الى الكفر لم يكن للاسلام في قلبه عظم فلا يتوب عن الكفر حتى يموت عليه (بشر المنافقين) أي أنذرهم (بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أي فان المنافقين يوالون اليهود ويقول بعض المنافقين لبعض لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود فيقولون ان العزة لهم (أيبتغون) اى أيطلب المنافقون (عندهم العزة) أي عند اليهود القوة (فان العزة لله جميعا) أي أن القدرة الكاملة لله وكل من سواه فباقداره صار قادرا وباعزازه صار عزيزا فالعزة الحاصلة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لم تحصل الا من الله تعالى فكان الامر عند التحقيق ان العزة جميعا لله (وقد نزل عليكم) يامعشر المنافقين (في الكتاب) أي القرآن في سورة الانعام قبل هذا بمكة (أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزئ بها) أي أنه اذا سمعتم آيات الله مكفورا بها ومستهزأ بها (فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) أي الكفر والاستهزاء وذلك قوله تعالى واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم الآية وهذا نزل بمكة لان المشركين كانوا يخوضون في القرآن ويستهزؤن به في مجالستهم ثم ان أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين والقاعدون معهم والموافقون لهم على ذلك الكلام المنافقون فقال تعالى مخاطبا للمنافقين قد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزئ بها أي اذا سمعتم آيات الله حال ما يكفر بها ويستهزئ بها (انكم اذا مثلهم) أي انكم أيها المنافقون مثل أولئك الاحبار في الكفر قال أهل العلم هذا يدل على أنه من رضى بالكفر فهو كافر ومن رضى بمنكر يراه وخالط أهله وان لم يباشر كان في الاثم بمنزلة المباشر أما اذا كان ساخطا لقولهم وانما جلس على سبيل التقية والخوف فالامر ليس كذلك فالمنافقون الذين كانوا يجالسون اليهود وكانوا يطعنون في الرسول والقرآن هم كافرون مثل أولئك اليهود أما المسلمون الذين كانوا بمكة يجالسون الكفار الذين كانوا يطعنون في القرآن فانهم كانوا باقين على الايمان فهم كانوا يجالسون الكفار عند الضرورة بخلاف المنافقين فانهم كانوا يجالسون اليهود مع الاختيار (ان الله جامع المنافقين) أي منافقي أهل المدينة عبد الله بن أبي وأصحابه (والكافرين) أي كفار أهل مكة أبي جهل وأصحابه وكفار أهل المدينة كعب وأصحابه (في جهنم جميعا) أي كما انهم اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله في الدنيا فكذلك يجتمعون في عذاب جهنم يوم القيامة (الذين يتربصون بكم) أي ان المنافقين ينتظرون أمركم وما يحدث لكم من خير أو شر (فان كان لكم فتح من الله) أي ظهور على اليهود (قالوا) أي المنافقون للمؤمنين (ألم نكن معكم) أي مظاهرين لكم فاعطونا قسما من الغنيمة (وان كان للكافرين) أي اليهود (نصيب) أي ظفر على المسلمين (قالوا) أي المنافقون لليهود (ألم نستحوذ عليكم) أي

ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم ثم لم نفعل شيأ من ذلك (ونمنعكم من المؤمنين) بأن ثبطناهم عنكم والا لكنتم نهبة للنوائب فهاتوا لنا نصيبا مما أصبتم وقيل ان أولئك الكفار كانوا اقدموا بالدخول فى الاسلام والمنافقون حذروهم عن ذلك واطمعوهم انه سيضعف أمر محمد وسيقوى أمركم فاذا اتفقت لهم صولة على المسلمين قال المنافقون للكفار ألسنا غلبنا كم على رأيكم فى الدخول فى الاسلام ومنعنا كم منه وقلنا لكم سيضعف أمر محمد ويقوى أمركم فلما شاهدتم صدق قولنا فادفعوا الينا نصيبا مما وجدتم (فالله يحكم بينكم) أى بين المؤمنين والمنافقين (يوم القيامة) أى فان الله تعالى ماوضع السيف فى الدنيا عن المنافقين بل أخر عقابهم الى يوم القيامة وأجرى عليهم حكم الاسلام فى الدنيا (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) أى بالشرع فان شريعة الاسلام ظاهرة الى يوم القيامة ويتفرع على ذلك مسائل من أحكام الفقه منها ان الكافر لا يرث من المسلم ومنها ان الكافر اذا استولى على مال المسلم وأحرزه فى دار الحرب لم يملكه ومنها ان الكافر ليس له ان يشترى عبدا مسلما ومنها ان المسلم لا يقتل بالذمى بدلالة هذه الآية وقيل المعنى ليس لاحد من الكافرين ان يغلب المسلمين بالحجة وان يمحو دولة المؤمنين بالكلية وقال ابن عباس ولن يجعل الله لليهود على المؤمنين دولة دائما (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) أى يفعلون ما يفعل المخادع من اظهار الايمان وابطال الكفر ليدفعوا عنهم أحكامه تعالى الدنيوية والله فاعل بهم ما يفعل الغالب فى الخداع حيث تركهم فى الدنيا وأعد لهم فى الآخرة الدرك الاسفل من النار قال جرير نزلت هذه الآية فى حق عبد الله بن أبى وأبى عامر بن النعمان وقال الزجاج أى يخادعون رسول الله فيبطنون له الكفر ويظهرون له الايمان والله مجازيهم بالعقاب على خداعهم وقال ابن عباس انه تعالى خادعهم فى الآخرة عند الصراط وذلك انه تعالى يعطيهم نورا كما يعطى المؤمنين فاذا وصلوا الى الصراط انطفأ نورهم ويبقوا فى الظلمة ويبقى نور المؤمنين فينادون المؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم ويقول المؤمنون ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ودليل ذلك قوله تعالى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون (واذا قاموا الى الصلاة) أى أتوا الى الصلاة مع المؤمنين (قاموا كسالى) أى متثاقلين متباطئين لانهم لا يرجون بها ثوابا ولا يخافون من تركها عقابا (يراؤن الناس) ليحسبوهم مؤمنين فانهم لا يقومون اليها الا لاجل الرياء والسمعة لا لاجل الدين (ولا يذكرون الله الا قليلا) أى لا يصلون الا بمرأى من الناس واذا لم يكن معهم أحد لم يصلوا ولا يذكرون الله الا باللسان فقط (مذبذبين بين ذلك) أى مترددين بين كفر السر وايمان العلانية (لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء) أى ليسوا مع المؤمنين فى السر فيجب لهم ما يجب للمؤمنين وليسوا مع اليهود فى العلانية فيجب عليهم ما يجب على اليهود (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) موصلا الى الصواب (يا أيها الذين آمنوا) بالسر والعلانية (لا تتخذوا الكافرين) أى المجاهدين بالكفر (أولياء من دون المؤمنين) المخلصين (أتريدون) يا معشر المؤمنين الخلص (أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) أى أتريدون بذلك ان تجعلوا لاهل دين الله وهم الرسول وأمته حجة بينة على كونكم منافقين فان موالاتهم أوضح أدلة النفاق وقيل المعنى يا أيها الذين آمنوا بالعلانية عبد الله بن أبى وأصحابه لا تتخذوا اليهود أولياء فى التعذر من دون المخلصين أتريدون يا معشر المنافقين ان تجعلوا لرسول الله عليكم عذرا بينا بالقتل أو المعنى أتريدون ان تجعلوا لله عليكم فى عقابكم حجة بسبب موالاتكم لليهود (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار) وهو الطبقة التى فى قعر جهنم لانهم

أخبث الكفر حيث ضموا الى الكفر الاستهزاء بالاسلام وأهله وخداعهم ولانهم لما أظهروا الاسلام عكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين ثم يخبرون الكفار بذلك فكانت المحنة تتضاعف من هؤلاء المنافقين لهذه الاسباب جعل الله عذابهم أزيد من عذاب الكفار الخلص (ولن تجد لهم) أى المنافقين (نصيرا) يخلصهم من عذاب الله ثم استثنى الله من الضمير المجرور أو من الضمير المستكن فى خبران بقوله (الا الذين تابوا) عن النفاق والقبيح (وأصلحوا) أى أقدموا على الحسن (واعتصموا بالله) بأن يكون غرضهم من التوبة واصلاح الاعمال طلب مرضاة الله تعالى لا طلب مصلحة الوقت (وأخلصوا دينهم لله) بأن يكون ذلك الغرض خالصا لا يمتزج به غرض آخر (فأولئك) المتصفون بهذه الشروط الاربعة من المنافقين (مع المؤمنين) أى المخلصين الذين لم يصدر عنهم نفاق أصلا منذ آمنوا أى معهم فى الدرجات العالية من الجنة (وسوف يؤت الله المؤمنين) أى يعطى الله الخلص (أجرا عظيما) أى ثوابا وافرا فى الجنة (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم) فما استفهامية مفيدة للنفى أى أيعذبكم الله لاجل التشفى من الغيظ أم لطلب النفع أم لدفع الضرر كما هو شأن الملوك وكل ذلك محال فى حقه تعالى واغا التعذيب أمر يقتضيه كفركم فاذا ازال ذلك بالايمان والشكر انتفى التعذيب وتقديم الشكر على الايمان لان الانسان اذا نظر فى نفسه رأى النعمة العظيمة حاصلة فى تخليقها وترتيبها فيشكر شكرا مجملا ثم اذا تم النظر فى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكرا مفصلا فكان ذلك الشكر المجمل مقدما على الايمان (وكان الله شاكرا) أى مثيبا على الشكر (عليما) أى بجميع الجزئيات فلا يقع الغلط له تعالى البتة فيوصل الثواب الى الشاكر والعقاب الى المعرض (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم) أى لا يحب الله تعالى ان يجهر أحد بالسوء كائنا من القول الا جهر من ظلم فهو غير مسخوط عنده تعالى وذلك بأن يقول سرق فلان مالى أو غصبنى أو سبنى أو قذفنى و يدعو عليه دعاء جائزا بأن يكون بقدر ظلمه فلا يدعو عليه بخراب دياره لاجل أخذ ماله منه ولا يسب والده وان كان هو فعل كذلك ولا يدعو عليه لاجل ذلك بالهلاك بل يقول اللهم خلص حقى منه أو اللهم جازه أو كافئه ولا يجوز ان يدعو عليه بسوء الخاتمة أو الفتنة فى الدين فالدعاء بغير قدر ما ظلم به حرام كالدعاء بمستحيل عادة أو عقلا ومثل المظلوم ما اذا أريد اجتماع على شخص فيجب على من علم عيوبه بذل النصيحة له وان لم يستشره لان الدين النصيحة فيذكر له ما يندفع به فان زاد حرم الزائد فالله تعالى لا يحب اظهار القبائح الا فى حق من عظم ضرره وكثر مكره فعند ذلك يجوز اظهار فضائحه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم اذكروا الفاسق بما فيه كى تحذره الناس وقرأ الضحاك وزيد بن أسلم وسعيد بن جبير الا من ظلم بالبناء للفاعل والمعنى لكن من ظلم فاتركوه وقال الفراء والزجاج لكن من ظلم نفسه فانه يجهر بالسوء من القول و يفعل ما لا يحبه الله تعالى هذا ان جعل الاستثناء كلاما منقطعا عما قبله أما ان جعل متصلا فيكون التقدير الا من ظلم فانه يجوز الجهر بالسوء من القول معه (وكان الله سميعا) لقول الظالم والمظلوم ولفعلهما (عليما) لفعل الظالم والمظلوم ولقولهما فليتق الله ولا يقل الا الحق ولا يقذف بسوء لمستور فانه يصير عاصيا لله بذلك وهو تعالى سميع لما يقوله عليم بما يضمره (ان تبدوا خيرا أو تخفوه) فى ايصال النفع الى الخلق (أو تعفوا عن سوء) كأن تدفعوا الضرر عنهم (فان الله كان عفوا) عن المذنبين مع قدرته على الانتقام فعليكم ان تقتدوا بسنة الله تعالى كما قاله الحسن (قديرا) أى فهو أقدر على عفو ذنوبك منك على عفو ذنوب من ظلمك كما قاله الكلبى وقيل المعنى ان الله كان عفوا لمن عفا وهو المظلوم قديرا على ايصال الثواب اليه وعقوبة الظالم

وقوله

وقوله تعالى فان الله الآية تعليل لجواب الشرط المقدر والتقدير فذلك أولى لكم من تركه لان الله الخ أعلم أن مواضع الخيرات على كثرتها محصورة فى أمرين صدق مع الحق وخلق مع الخلق فالذى يتعلق بالخلق محصور فى قسمين ايصال نفع اليهم وهو المشار اليه بقوله تعالى ان تبدوا خيرا أو تخفوه ودفع ضرر عنهم وهو المشار اليه بقوله تعالى أو تعفوا عن سوء فدخل فى هذين القسمين جميع أنواع الخير وأعمال البر (ان الذين يكفرون بالله ورسله) كاليهود فانهم آمنوا بموسى والتوراة وعزير وكفروا بعيسى والانجيل ومحمد والقرآن وكالنصارى فانهم آمنوا بعيسى والانجيل وكفروا بمحمد والقرآن (ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله) بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) أى نؤمن ببعض الانبياء ونكفر ببعض (ويريدون) بقولهم ذلك (أن يتخذوا بين ذلك) أى بين الايمان بالكل أو الكفر بالكل (سبيلا) أى دينا وسطا وهو الايمان بالبعض دون البعض (أولئك) الموصوفون بالصفات القبيحة (هم الكافرون حقا) أى كفرا كاملا ثابتا يقينا لانه تعالى قد أمرهم بالايمان بجميع الانبياء عليه الصلاة والسلام وما من نبى من الانبياء الا وقد أخبر قومه بحقيقة دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فمن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل وبالله تعالى (وأعتدنا للكافرين) اليهود وغيرهم (عذابا مهينا) أى شديدا يهانون به (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم) فى الايمان به (أولئك سوف يؤتيهم أجورهم) وقرأ عاصم فى رواية حفص بالياء والضمير راجع الى اسم الله والباقون بالنون (وكان الله غفورا) لما فرط منهم (رحيما) أى مبالغا فى الرحمة عليهم بتضعيف حسناتهم (يسألك) يا أشرف الخلق (أهل الكتاب) أى أحبار اليهود (أن تنزل عليهم كتابا من السماء) روى ان كعبا وأصحابه وفنحاص قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت رسولا من عند الله فأتنا بكتاب من السماء جملة كما جاء موسى بالالواح أى فلا تبال يا أشرف الخلق بسؤالهم فانه عادتهم (فقد سألوا) أى اليهود (موسى أكبر من ذلك) أى أعظم مما سألوك (فقالوا أرنا الله جهرة) أى أرناه نره معاينة (فأخذتهم الصاعقة) أى فأحرقتهم النار التى جاءت من السماء (بظلمهم) وهو سؤالهم لما يستحيل وقوعه فى ذلك الوقت (ثم اتخذوا العجل) أى عبدوه (من بعد ما جاءتهم البينات) أى الصاعقة واحياؤهم بعد موتهم ومعجزات موسى التى أظهرها لفرعون من العصا واليد البيضاء وفلق البحر وغيرها (فعفونا عن ذلك) أى تركنا عبدة العجل ولم نستأصلهم (وآتينا موسى سلطانا مبينا) أى قهرا ظاهرا عليهم فانه أمرهم بقتل أنفسهم توبة من عبادة العجل فبادروا الى الامتثال فقتل منهم سبعون ألفا فى يوم واحد (ورفعنا فوقهم الطور ميثاقهم) أى بسبب ميثاقهم على ان لا يرجعوا عن الدين ليخافوا فلا ينقضوه فانهم هموا بنقضه (وقلنا) على لسان موسى أو على لسان يوشع (لهم ادخلوا الباب) أى باب بيت المقدس أو أريحا (سجدا) أى مطأطئين الرؤس (وقلنا لهم) على لسان داود (لا تعدوا) أى لا تظلموا باصطياد الحيتان (فى السبت وأخذنا منهم) على الامتثال بما كلفوه (ميثاقا غليظا) أى مؤكدا وقال ابن عباس وهو ميثاق وليق فى محمد صلى الله عليه وسلم (فبما نقضهم) فما مقحمة والباء للسببية متعلقة بمحذوف أى فلعناهم بسبب نقضهم (ميثاقهم وكفرهم بآيات الله) أى بالمعجزات فمن أنكر معجزة رسول واحد فقد أنكر جميع معجزات الرسل (وقتلهم الانبياء بغير حق) أى بلا جرم فانهم معصومون من كل نقيصة لا يتوجه عليه حق (وقولهم قلوبنا غلف) أى أوعية للعلم فلا حاجة بنا الى علم سوى ما عندنا فكذبوا الانبياء بهذا القول أو المعنى قلوبنا فى أغطية جبلية فهى لا تفقه ما تقولون

(بل طبع الله عليها بكفرهم) أى بل أحدث الله عليها صورة مانعة عن وصول الحق اليها أو بل ختم الله على قلوبهم بكفرهم (فلا يؤمنون) أى اليهود (الا قليلا) أى الا فريقا منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه أو فلا يؤمنون أى المطبوع على قلوبهم الا ايمانا قليلا وهو الايمان بموسى والتوراة بحسب زعمهم فان من يكفر برسول واحد وبمعجزة واحدة لايمكنه الايمان بأحد من الرسل البتة (وبكفرهم) لانكارهم قدرة الله تعالى على خلق الولد من دون الاب (وقولهم على مريم بهتانا عظيما) أى نسبتهم مريم الى الزنا بعد ماظهر منهما من الكرامات الدالة على براءتهما من كل عيب فانهما ملازمة للعبادة بأنواع الطاعات وعيسى تكلم حال كونه طفلا منفصلا عن أمه (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم) وصلبناه (رسول الله) أى فى زعم عيسى نفسه وان وصفهم له بوصف الرسالة استهزاء به أو ان الله وضع الذكر الحسن بقوله رسول الله مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم فانهم قالوا هو ساحر ابن ساحرة أو ان الله وصف له من عند الله تعالى مدحا له وتنزيها له عن مقالتهم الذى لايليق به قال الله تعالى ابطالا لافتخارهم بقتل النبي والاستهزاء به (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) قال كثير من المتكلمين ان اليهود لما قصدوا قتله رفعه الله تعالى الى السماء فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامهم لما انهم اجتمعوا على قتله لان المسيح من سبوه وسبوا أمه قردة وخنازير بدعائه عليهم فأخذوا انسانا يقال له ططيانوس اليهودي وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس انه المسيح والناس ما كانوا يعرفونه الا بالاسم لانه كان قليل المخالطة للناس ثم ان تواتر النصارى ينتهى الى أقوام قليلين لايبعد اتفاقهم على الكذب وقال الضحاك لما أرادوا قتل عيسى اجتمع الحواريون فى غرفة وهم اثنا عشر رجلا فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبر ابليس جميع اليهود فركب أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين أيكم يخرج ويقتل ويكون معى فى الجنة فقال رجل يقال له سرجس أنا يانبي الله فألقى اليه مدرعته من صوف وعمامته من صوف وناوله عكازه وألقى الله عليه شبه عيسى فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه وأما المسيح فكساه الله تعالى الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فصار مع الملائكة (وان الذين اختلفوا فيه) أى فى شأن عيسى (لفى شك منه) أى من قتله (مالهم به) أى بقتله (من علم الا اتباع الظن) أى لكنهم يتبعون الظن فان فسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذى تسكن اليه النفس فالاستثناء متصل أى لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود انه كان كاذبا فقتلناه حقا وقال بعضهم الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا فليس هذا المقتول بعيسى وقال آخرون بل هو هو وقال بعضهم ان كان هذا عيسى فأين صاحبنا وان كان هذا صاحبنا فأين عيسى (وما قتلوه يقينا) أى قتلا يقينا كما قالوا انا قتلنا المسيح (بل رفعه الله اليه) أى الى موضع لايجرى فيه حكم غير الله تعالى ولا يصل اليه حكم آدمى وذلك الموضع هو السماء الثالثة (وكان الله عزيزا) أى كامل القدرة (حكيما) أى كامل العلم فرفع عيسى من الارض الى السماء لا تعذر فيه بالنسبة الى قدرة الله تعالى وحكمته (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته) أى وما من اليهود والنصارى أحد الا ليؤمنن بعيسى قبل أن تزهق روحه بأنه عبد الله ورسوله فلا ينفعه ايمان لانقطاع وقت التكليف كما نقل عن محمد بن على بن أبى طالب من الحنيفة أن اليهود اذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودبره وقالوا ياعدو الله أتاك عيسى نبيا فكذبت به فيقول آمنت بأنه عبد الله ورسوله ويقال للنصرانى أتاك عيسى نبيا فزعمت انه هو الله وابن الله فيقول آمنت انه عبد الله وابنه فأهل الكتاب

يؤمنون

يؤمنون به ولكن لاينفعهم ذلك الايمان (ويوم القيامة يكون) أى عيسى عليه السلام (عليهم) أى أهل الكتاب (شهيدا) فيشهد على اليهود انهم كذبوه وطعنوا فيه وعلى النصارى انهم أشركوا به وكل نبي شاهد على أمته (فبظلم من الذين هادوا) أى فبسبب ظلم عظيم من الذين تابوا من عبادة العجل (حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) فان اليهود كانوا كلما فعلوا معصية من المعاصي يحرم عليهم نوع من الطيبات التى كانت محللة لهم ولمن قبلهم عقوبة لهم (و بصدهم عن سبيل الله كثيرا) أى و بمنعهم عن دين الله ناسا كثيرا (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) فان الربا كان محرما عليهم كما هو محرم علينا (وأكلهم أموال الناس بالباطل) أى بطريق الرشوة (وأعتدنا للكافرين منهم) أى هيأنا للمصرين على الكفر من اليهود (عذابا أليما) سيذوقونه فى الآخرة كما ذاقوا فى الدنيا عقوبة التحريم (لكن الراسخون فى العلم منهم) أى لكن المتمكنون فى علم التوراة من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (والمؤمنون) منهم ومن المهاجرين والانصار (يؤمنون بما أنزل اليك) وهو القرآن (وما أنزل من قبلك) على سائر الانبياء من الكتب (والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) أى وأعنى المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة فالمقيمين نصب على المدح لبيان فضل الصلاة وجاء فى مصحف عبد الله بن مسعود والمقيمون الصلاة بالواو وهى قراءة مالك بن دينار والجحدرى وعيسى الثقفى وابن جبير وعاصم عن الاعمش وعمرو بن عبيد (والمؤمنون بالله واليوم الآخر) قال أبو السعود والمراد بالكل مؤمنوا أهل الكتاب (أولئك) أى المتصفون بتلك الصفات الجميلة من أهل الكتاب (سنؤتيهم أجرا عظيما) وجملة هذه خبر اسم الاشارة والجملة من المبتدا والخبر خبر قوله تعالى والراسخون وما عطف عليه والسين لتأكيد الوعد (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) أى بعد نوح (و) كما (أوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق) ابنى ابراهيم (ويعقوب) ابن اسحق (والاسباط) أى أولاد يعقوب الاثنى عشر فمنهم يوسف نبي رسول باتفاق وفى البقية خلاف (وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا) أى وكما أعطينا أباه (داود زبورا) وكان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الاحكام وانما هى حكم ومواعظ وتسبيح وتقديس وتحميد وتمجيد وثناء على الله تعالى وكان داود عليه السلام يخرج الى البرية فيقوم ويقرأ الزبور وتقوم علماء بنى اسرائيل خلفه ويقوم الناس خلف العلماء وتقوم الجن خلف الناس والشياطين خلف الجن وتجىء الدواب التى فى الجبال فيقمن بين يديه وترفرف الطيور على رؤس الناس وهم يستمعون لقراءة داود ويتعجبون منها فلما قارف الخطيئة زال عنه ذلك (و) كما أرسلنا (رسلا قد قصصناهم عليك) أى سميناهم لك فى القرآن وعرفناك أخبارهم وما حصل لهم من قومهم (من قبل) أى من قبل هذه السورة أو هذه الآية أو قبل هذا اليوم (و رسلا لم نقصصهم عليك) أى لم نسمهم لك ولم نعرفك أخبارهم والمعنى انا أوحينا اليك ايحاء مثل ما أوحينا الى نوح ومثل ما أوحينا الى ابراهيم ومن بعده وآتيناك الفرقان ايتاء مثل ما آتينا داود زبورا وأرسلناك رسولا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا آخرين لم نقصصهم عليك من غير تفاوت بينك وبينهم فى حقيقة الايحاء وأصل الارسال فما للكفرة يسألونك شيأ لم يعطه أحد من هؤلاء الرسل عليهم السلام (وكلم الله موسى تكليما) أى كلمه على التدريج شيأ فشيأ بحسب المصالح بغير واسطة ملك أى أزال الله تعالى عنه الحجاب حتى سمع المعنى القائم بذاته تعالى لا أنه تعالى أحدث ذلك لانه تعالى يتكلم أبدا والمعنى انه تعالى بعث هؤلاء الانبياء والرسل وخص موسى عليه السلام بالتكلم معه ولم يلزم من تخصيص موسى بهذا التشريف الطعن فى نبوة سائر الانبياء عليهم السلام

فكذلك لم يلزم من تخصيص موسى بانزال التوراة عليه دفعة واحدة طعن فيمن أنزل الله عليه الكتاب متفرقا وقد فضل الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم باعطائه مثل ما أعطى كل واحد منهم وقرأ ابراهيم ويحيى بن وثاب وكلم الله بالنصب (رسلا) منصوب على المدح أو باضمار أرسلنا أو على الحال الموطئة لما بعدها أو على البدلية من رسلا الاول (مبشرين) لاهل الطاعة بالجنة (ومنذرين) للعصاة بالنار (لئلا يكون للناس على الله حجة) أى معذرة يعتذرون بها (بعد الرسل) أى بعد ارسال الرسل وانزال الكتب والمعنى لئلا يحتج الناس يوم القيامة على الله فى ترك التوحيد والطاعة بعدم الرسل فيقولوا لم لم ترسل الينا رسولا ولم لم تنزل علينا كتابا فان الله لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسل وان قبول المعذرة عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده وهى بمنزلة الحجة التى لا مرد لها ولة تعالى أن يفعل ما يشاء كيف يشاء (وكان الله عزيزا) لا يغالب فى أمر من أموره (حكيما) فى أفعاله فاختلاف الكتب فى كيفية النزول وتغايرها فى بعض الشرائع والاحكام انما هو لتفاوت طبقات الامم فى الاحوال التى عليها يدور فلك التكليف فكلفهم الله بما يليق بشأنهم (لكن الله يشهد بما أنزل اليك) بتخفيف النون ورفع الجلالة وبالبناء للفاعل أى لكن الله يشهد لك بحقية ما أنزل اليك من القرآن الناطق بنبوتك روى انه لما نزل قوله تعالى انا أوحينا اليك قال اليهود نحن لا نشهد لك بذلك فنزل لكن الله يشهد والمعنى أن اليهود وان شهدوا بأن القرآن لم ينزل عليك يا محمد من السماء لكن الله يشهد بأنه أنزل عليك وشهادة الله انما عرفت بسبب انه أنزل عليه صلى الله عليه وسلم هذا القرآن البالغ فى الفصاحة فى اللفظ والشرف فى المعنى الى حيث عجز الاولون والآخرون عن معارضته فكان ذلك معجزا واظهار المعجزة شهادة بكون المدعى بالرسالة صادقا ولما كانت شهادته تعالى عرفت بواسطة انزال القرآن فقال لكن الله يشهد بما أنزل اليك أى يشهد لك بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذى أنزله اليك (أنزله بعلمه) بأنه فى غاية الحسن ونهاية الكمال وهذا مثل ما يقال فى الرجل المشهور بكمال الفضل والعلم اذا صنف كتابا واستقصى فى تحريره انه انما صنف هذا بكمال علمه وفضله أى انه اتخذ جملة علومه آلة ووسيلة الى تصنيف هذا الكتاب فيدل ذلك القول على وصف ذلك التصنيف بغاية الجودة ونهاية الحسن فكذا ههنا (والملائكة يشهدون) بصدقه وانما تعرف شهادة الملائكة له صلى الله عليه وسلم بذلك لان ظهور المعجز على يده صلى الله عليه وسلم يدل على انه تعالى شهد له بالنبوة واذا شهد الله له بذلك فقد شهدت الملائكة بذلك بلا شك لانه ثبت فى القرآن انهم لا يسبقونه تعالى بالقول والمعنى يا محمد ان كذبك هؤلاء اليهود فلا تبال بهم فان الله تعالى وهو اله العالمين يصدقك فى ذلك وملائكة السموات السبع والعرش والكرسى يصدقونك فى ذلك ومن صدقه الله والملائكة أجمعون لم يلتفت الى تكذيب أخس الناس (وكفى بالله شهيدا) على صحة نبوتك وان لم يشهد غيره (ان الذين كفروا) بما أنزل الله وشهد به (وصدوا عن سبيل الله) أى دين الاسلام من أراد سلوكه وهم اليهود حيث قالوا ما نعرف صفة محمد فى كتابنا وقالوا لو كان رسولا لاتى بكتابه دفعة واحدة من السماء وقالوا ان الله ذكر فى التوراة أن شرع موسى لا تنسخ الى يوم القيامة وقالوا ان الانبياء لا يكونون الا من ولد هرون وداود (قد ضلوا ضلالا بعيدا) عن الحق والصواب لان أشد الناس ضلالا من كان ضالا ويعتقد فى نفسه انه محق ثم يتوسل بذلك الضلال الى اكتساب المال والجاه ثم يبذل غاية فى طاقته فى القاء غيره فى مثل ذلك الضلال (ان الذين كفروا وظلموا) محمدا بكتمان ذكر بعثته وعوامهم بالقاء الشبهات فى قلوبهم وماتوا على الشرك (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا) الى الجنة يوم القيامة (الا طريق

بجهنم

جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك) أى جعلهم خالدين فى جهنم (على الله يسيرا) أى لا يعتذر عليه شئ فكان ايصال الألم اليهم شيأ بعد شئ الى غير النهاية يسيرا عليه وان كان معتذرا على غيره (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم) أى يا أهل مكة قد جاءكم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن أو متكلما بالدعوة الى عبادة الله والاعراض عن غيره من عند ربكم (فآمنوا خيرا لكم) أى فآمنوا بالرسول يكن ذلك الايمان خيرا لكم مما أنتم فيه أى يكن أحمد عاقبة من الكفر (وان تكفروا فان لله ما فى السموات والارض) أى وان تكفروا بالرسول فان الله غنى عن ايمانكم لا يتضرر بكفركم ولا ينتفع بايمانكم لانه مالك السموات والارض وخالقهما ومن كان كذلك كان قادرا على انزال العذاب الشديد عليكم لو كفرتم أو فمن كان كذلك فله عبيد يعبدونه و ينقادون لامره وحكمه أو فمن كان لم يكن محتاجا الى شئ (وكان الله عليما) لا يخفى عليه من أعمال عباده المؤمنين والكافرين شئ (حكيما) لا يضيع عمل عامل منهم ولا يسوى بين المؤمن والكافر والمحسن والمسئ (يا أهل الكتاب) أى الانجيل من النصارى (لا تغلوا فى دينكم) أى لا تبالغوا فى تعظيم عيسى فانه ليس بحق كما أن اليهود بالغوا فى طعنه حيث قالوا انه ابن زانية وكلا طرفى قصدهم ذميم (ولا تقولوا على الله الا الحق) أى لا تصفوه بما يستحيل اتصافه تعالى به من الاتحاد والحلول فى بدن الانسان أو روحه واتخاذ الزوجة والولد بل نزهوه عن هذه الاحوال فان نصارى أهل نجران أربعة أنواع ملكانية وهم الذين قالوا عيسى والرب شريكان ومرقوسية وهم الذين قالوا ثالث ثلاثة ومار يعقوبية وهم الذين قالوا عيسى هو الله ونسطورية وهم الذين قالوا عيسى ابن الله فانزل الله فيهم هذه الآيات (انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله) فالمسيح مبتدا وعيسى بدل منه أو عطف بيان له وابن مريم صفة له و رسول الله خبر المبتدا (وكلمته) أى مكون بأمره من غير واسطة أب ولا نطفة (ألقاها الى مريم) أى أوصل الكلمة اليها بنفخ جبريل (وروح منه) أى وروح صادر من أمر الله فصار ولدا بلا أب وقد جرت عادة الناس أنهم اذا وصفوا شيأ بغاية الطهارة والنظافة قالوا أنه روح فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وانما تكون من نفخة جبريل وصف بأنه روح وقوله تعالى منه متعلق بمحذوف وقع صفة لروح أى كائنة من عند الله و جعلت منه تعالى وان كانت بنفخ جبريل لكون النفخ بأمره تعالى ومن ابتدائية لا كما زعمت النصارى من أنها تبعيضية حكى أن طبيبا حاذقا نصرانيا جاء للرشيد فناظر على بن الحسين المروزى ذات يوم فقال له ان فى كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله وتلا هذه الآية فقرأ المروزى وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه فقال اذا يلزم أن يكون جميع تلك الاشياء جزءا منه تعالى فانقطع النصرانى فأسلم وفرح الرشيد فرحا شديدا وأعطى للمروزى عطاء عظيما (فآمنوا بالله) واعتقدوا الوهيته وحده (ورسله) أجمعين وصفوهم بالرسالة ولا تصفوا واحدا منهم بالالوهية (ولا تقولوا ثلاثة) أى الآلهة ثلاثة الله والمسيح ومريم ولا تقولوا ان الله واحد بالجوهر ثلاثة بالاقانيم (انتهوا خيرا لكم) أى انتهوا عن مقالتكم بالتثليث يكن ذلك الانتهاء خيرا لكم (انما الله اله واحد) أى منفرد فى الوهيته (سبحانه أن يكون له ولد) أى أسبحه تسبيحا من أن يكون له ولدا وسبحوه تسبيحا من ذلك وقرأ الحسن ان يكون بكسر الهمزة و رفع الفعل أى سبحانه ما يكون له ولد (له ما فى السموات وما فى الارض) فمن كان مالكا لهما وما فيهما كان مالكا لعيسى ومريم واذا كانا ملوكين له فكيف يتوهم كونهما له ولدا وزوجة (وكفى بالله وكيلا) أى ربا للخلق فانه كاف فى تدبير المخلوقات وفى حفظ المحدثات فلا حاجة معه الى اثبات اله آخر (لن يستنكف

المسيح أن يكون عبد الله) أى لن يترفع عن أن يكون عبد الله تعالى أى مقرا بالعبودية لله مستمرا على عبادته وطاعته روى أن وفد نجران قالوا يا محمد انك تعيب صاحبنا فتقول أنه عبد الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم انه ليس بعار على عيسى أن يكون عبد الله قالوا بلى فنزلت لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله وقرأ على بن أبي طالب رضي الله عنه عبيد الله بصيغة التصغير (ولا الملائكة المقربون) أى ولا يستنكف الملائكة المقربون كحملة العرش أن يقروا بالعبودية لله أى لن يستنكف المسيح عن عبادة الله تعالى بسبب أنه قادر على الاتيان بخوارق العادات من الاحياء والابراء وعالم بالمغيبات مخبر عنها ومتاز عن سائر أفراد البشر بالولادة من غير أب و بالرفع الى السماء فان الملائكة المقربين أعلى حالا منه فى العلم بالمغيبات لانهم مطلعون على اللوح المحفوظ وأعلى حالا منه فى القدرة لان أربعة منهم حملوا العرش على عظمته وأنهم مخلوقون من غير أب وأم ومقارهم السموات العلى ولا خلاف لاحد فى علو درجتهم من هذه الحالات وانما الخلاف فى علوها من حيث كثرة الثواب على الطاعات ثم ان الملائكة مع كمال حالهم فى العلوم والقدرة لن يستنكفوا عن عبودية الله فكيف يستنكف المسيح عن عبوديته بسبب هذا القدر القليل الذى كان معه من العلم والقدرة (ومن يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم اليه جميعا) أى ومن يترفع عن طاعته تعالى و يعد نفسه كبيرا أى يعتقدها كذلك فان الله يجمع المترفعين والمعتقدين أنفسهم كبيرة ومقابليهم وهم غيرهم اليه تعالى يوم القيامة حيث لا يملكون لانفسهم شيأ فيجازيهم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) من غير أن ينقص منها شيأ أصلا (ويزيدهم من فضله) بتضعيفها اضعافا كثيرة و باعطاء مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر أى على وجه التفصيل وانما يخطر نعيم الجنان على قلوبنا وتسمعه من السنة على وجه الاجمال (وأما الذين استنكفوا) عن عبادته تعالى (واستكبروا) أى عدوا أنفسهم كبيرة (فيعذبهم عذابا أليما) بما وجدوا من لذاذة الترفع والتكبر (ولا يجدون لهم من دون الله وليا) يلى مصالحهم (ولا نصيرا) ينجيهم من عذاب الله (يا أيها الناس قد جاءكم برهان) أى رسول (من ربكم) وهو محمد صلى الله عليه وسلم وانما سماه برهانا لان حرفته اقامة البرهان على تحقيق الحق وابطال الباطل (وأنزلنا اليكم نورا مبينا) أى نيرا بنفسه منورا لغيره وهو القرآن وذلك بواسطة انزاله على الرسول وسماه نورا لانه سبب لوقوع نور الايمان فى القلب أى فنهم من آمن ومنهم من كفر (فأما الذين آمنوا بالله) فى ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه (واعتصموا به) أى بالله فى أن يثبتهم على الايمان و يصونهم عن نزغ الشيطان (فسيدخلهم فى رحمة منه) وهى الجنة ومنفعتها (وفضل) أى احسان زائد كالنظر الى وجهه الكريم والتعظيم وغير ذلك من مواهب الجنة (و يهديهم اليه صراطا مستقيما) وهو الاسلام والطاعة والسعادة الروحانية والجار والمجرور فى محل نصب حال من صراطا والضمير المجرور عائد على الله بتقدير مضاف أى الى ثوابه (يستفتونك) أى يسألونك يا محمد عن الكلالة روى الشيخان عن جابر بن عبد الله قال مرضت فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يعودانى ماشيين فأغمى على فتوضأ النبي صلى الله عليه وسلم ثم صب على من وضوئه فأفقت فاذا النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله كيف أصنع فى مالى كيف أقضى فى مالى فلم يرد على شيأ حتى نزلت آية الميراث يستفتونك الآيات و روى الطبرى عن قتادة أن الصحابة أهمهم شأن الكلالة فسألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآيات (قل الله يفتيكم فى الكلالة) وهو اسم يقع على الوارث وعلى الموروث فان وقع على

الوارث

أو وارث فهو من سوى الوالد والولد وان وقع على المورث فهو الذى مات ولا يرثه أحد من الوالدين ولا أحد من الاولاد (ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك) أى ان مات امرؤ غير ذى ولد و والد وله أخت شقيقة أومن الأب فللاخت نصف ماترك بالفرض والباقى للعصبة أولها بالرد ان لم يكن له عصبة (وهو) أى المرء الكلالة (يرثها) أى يرث أخته جميع ماتركت ان فرض موتها مع بقائه (ان لم يكن لها ولد) ذكر أو أنثى فان كان لها أولد ولد ذكر فلاشئ له أو لها أو ولد أنثى فله أولها الباقى من نصيبها (فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) أى فان كان من يرث بالاخوة أختان شقيقتان أومن أب فصاعدا فلهما ولا كثر الثلثان مما ترك الميت من المال (وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين) أى وان كان من يرث بطريق الاخوة أخوة مختلطة رجالا أشقاء أومن أب ونساء شقيقات أولاب فللذكر منهم مثل نصيب الانثيين يقتسمون التركة على طريقة التعصيب (يبين الله لكم قسمة الميراث (أن تضلوا) أى لكيلا تخطئوا فى قسمة الميراث وقيل المعنى يبين الله ضلالكم لتعلموا أن غير هذا البيان ضلال فتجتنبوه (والله بكل شئ) من الاشياء المتعلقة بمحياكم وبمماتكم (عليم) أى مبالغ فى العلم فيبين لكم مافيه مصلحتكم ومنفعتكم

﴿سورة المائدة مدنية مائة وعشرون آية﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) وهى جميع ما ألزمه الله تعالى عباده من التكاليف والاحكام الدينية ومايعقدونه فيما بينهم من عقود الامانات والمعاملات ونحوهما مما يجب الوفاء به أو يحسن دينا (أحلت لكم بهيمة الانعام) أى أحل لكم أكل البهيمة من الانعام وهى الازواج الثمانية المعدودة فى سورة الانعام وقيل المعنى أحلت لكم ماماثل الانعام ويدانيها من جنس البهائم فى الاجترار وعدم الانياب وذلك كالظباء وبقر الوحش ونحوهما من صيد البرية كحمر الوحش فأضيفت البهيمة الى الانعام لحصول المشابهة أى أحلت لكم البهيمة الشبيهة بالانعام وقيل المعنى أحلت لكم أجنة الانعام وهذان القولان مرويان عن ابن عباس وهذا الثالث مروى أيضا عن ابن عمر وهذا الوجه يدل على صحة مذهب الشافعى فى أن الجنين مذكى بذكاة الام (الا مايتلى عليكم) فى هذه السورة (غير محلى الصيد وأنتم حرم) أى الا ان كانت الانعام ميتة أوموقوذة أومتردية أونطيحة أوافترسها السبع أوذبحت على غير اسم الله فهى محرمة والا أن تحلوا الصيد فى حال احرامكم أوفى حال كونكم فى الحرم فانه لايحل لكم ذلك (ان الله يحكم مايريد) من التحليل وغيره لااعتراض عليه ولا معقب لحكمه فوجب التكليف والحكم هو ارادته لامراعاة المصالح (يا أيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا) أى يا أيها الذين آمنوا أقروا بالايمان لاتحلوا معالم دين الله أى لاتهاونوا شيأ من فرائضه تعالى ولا تحلوا الشهر الحرام ذا القعدة وذا الحجة والمحرم ورجب بالقتال فيه والغارة قال أبو السعود والمراد بالشهر الحرام شهر الحج وقال عكرمة هو ذو القعدة واختار ابن جرير أنه رجب لانه أكمل الاشهر الاربعة ولا تحلوا الهدى بالغصب أو بالمنع عن بلوغ محله وهو ما أهدى الى بيت الله من ابل أو بقر أوشاة ولا تحلوا ذوات القلائد من الهدى وهو البدن ولا تحلوا قوما قاصدين زيارة المسجد الحرام بصدهم عن ذلك بأى وجه كان وقرأ عبد الله ولا آمى البيت الحرام بالاضافة حال كونهم مبتغين فضلا من ربهم بالتجارة المباحة أو المعنى

طالبين ثوابا من ربهم ورضوانا وقرأ حميد بن قيس الاعرج تبتغون بالتاء على خطاب المؤمنين فالجملة حينئذ حال من الضمير فى لا تحلوا واضافة الرب الى ضمير الامين للاشارة الى اقتصار التشريف عليهم (واذا حللتم فاصطادوا) والامر للاباحة أى واذا خرجتم من الاحرام والحرم فلا جناح عليكم فى اصطياد حيوان البرية (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) أى ولا يحملنكم بغضكم لقوم من أهل مكة بمنعهم اياكم عن المسجد الحرام أى عن العمرة عام الحديبية على ظلمكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفى من البغض وقرأ أبو عمرو وابن كثير ان صدوكم بكسر الهمزة على أنه شرط معترض أغنى عن جوابه لا يجرمنكم والمعنى ان وقع صد مثل ذلك الصد الذى وقع عام الحديبية وهى سنة ست على أن نزول هذه الآية عام الفتح وهو سنة ثمان غير مجمع عليه (وتعاونوا على البر والتقوى) أى على متابعة الامر ومجانبة الهوى (ولا تعاونوا على الاثم) أى المعصية للتشفى (والعدوان) أى التعدى فى حدود الله للانتقام (واتقوا الله) فى جميع الامور ولا تستحلوا شيأ من محارمه (ان الله شديد العقاب) لمن لا يتقيه فلا يطيق أحد عقابه (حرمت عليكم الميتة) أى حرم عليكم أكل ما فارقته الروح من غير ذبح شرعى وكان أهل الجاهلية يقولون انكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله واعلم أن تحريم الميتة موافق لما فى العقول لان الدم جوهر لطيف جدا فاذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدم فى عروقه وتعفن وفسد وحصل من أكله مضار عظيمة (والدم) أى السائل منه لخروج الكبد والطحال وكان أهل الجاهلية يملؤن الامعاء من الدم بصبه فيها ويشوونه ويطعمونه الضيف (ولحم الخنزير) قال أهل العلم الغذاء يصير جزأ من جوهر المغتذى فلا بد ان يحصل للمغتذى أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلا فى الغذاء والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة فى المشتهيات فحرم أكله على الانسان لئلا يتكيف بتلك الكيفية ولذلك أن الفرنج لما واظبوا على أكل لحم الخنزير أورثهم الحرص العظيم والرغبة الشديدة فى المشتهيات وأورثهم عدم الغيرة فان الخنزير يرى الذكر من الخنازير ينزو على الانثى التى هى له ولا يتعرض له لعدم الغيرة وأما الشاة فانها حيوان فى غاية السلامة فكأنها ذات عارية عن جميع الاخلاق فلذلك لا يحصل للانسان بسبب أكل لحمها كيفية أجنبية عن أحوال الانسان (وما أهل لغير الله به) أى وما رفع الصوت لغير الله عند ذبحه وكانوا يقولون عند الذبح باسم اللات والعزى (والمنخنقة) أى التى ماتت بانعصار الحلق فالمنخنقة على وجوه منها ان أهل الجاهلية كانوا يخنقون الشاة فاذا ماتت أكلوها ومنها ما يختنق بحبل الصائد ومنها ما يدخل رأسها بين عودين فى شجرة فتختنق فتموت (والموقوذة) أى المضروبة الى أن ماتت ويدخل فى الموقوذة ما رمى بالبندق فمات وهى فى معنى الميتة وفى معنى المنخنقة لانها ماتت ولم يسل دمها (والمتردية) أى الساقطة من علو الى سفل فماتت ويدخل فيها ما اذا أصابه سهم وهو فى الجبل فسقط عن الارض فانه يحرم أكله لانه لا يعلم هل مات بالتردى أو بالسهم ولو رمى صيدا فى الهواء بسهم فأصابه فان سقط على الارض ومات حل لان الوقوع على الارض من ضرورته وان سقط على شجر أو جبل ثم تردى منه فمات لم يحل لانه من المتردية الا أن يكون السهم ذبحه فى الهواء فيحل كيفما وقع لان الذبح قد حصل قبل التردية (والنطيحة) أى التى ماتت بنطح شاة أخرى وانما دخلت الهاء فى النطيحة لانها صفة لمؤنث غير مذكور وهو الشاة كما تقول رأيت قتيلة بنى فلان بالهاء لانك ان لم تدخل الهاء لم يعرف المقتول أرجل هو أم امرأة بخلاف ما اذا ذكر الموصوف فانه تحذف الهاء حينئذ كقولهم كف

خضيب

خضيب ولحية دهين وعين كحيل وخصت الشاة لانها من أعم ما يأكله الناس والكلام يمشي على الاغلب ويكون المراد الكل (وما أكل السبع) منه فمات وهي فريسة السبع قال قتادة كان أهل الجاهلية اذا جرح السبع شيأ فقتله وأكل بعضه أكلوا ما بقي فحرمه الله تعالى (الا ما ذكيتم) أي الا ما أدركتم ذكاته وقد بقيت فيه حياة مستقرة من هذه الاشياء الخمسة وذلك بحيث يتحرك بالاختيار والا فلا يحل بتذكية لان موته حينئذ يحال على السبب المتقدم على التذكية من الخنق وأكل السبع وغيرهما (وما ذبح على النصب) أي على اعتقاد تعظيم النصب وقال ابن جريج النصب ليس بأصنام فان الاصنام أحجار مصورة منقوشة وهذه النصب أحجار كانوا ينصبونها حول الكعبة وكانوا يذبحون عندها للاصنام وكانوا يلطخونها بتلك الدماء ويضعون اللحوم عليها ويعدون ذلك الذبح قربة فقال المسلمون يارسول الله كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم فنحن أحق أن نعظمه وكان النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكره فأنزل الله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها (وأن تستقسموا بالازلام) أي وحرم عليكم طلب معرفة ما قسم لكم من الخير والشر بواسطة ضرب القداح وذلك أنهم اذا قصدوا سفرا أوغزوا أو تجارة أونكاحا أوأمرا آخر من معاظم الامور ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها أمرني ربي وعلى الثاني نهاني ربي والثالث خال عن الكتابة فان خرج الامر أقدم على الفعل وان خرج النهي أمسك وان خرج الغفل أعاد العمل مرة أخرى (ذلكم) أي الاستقسام بالازلام (فسق) أي خروج عن الطاعة لانه طلب لمعرفة الغيب وذلك حرام وروى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من تكهن أو استقسم أو تطير طيرة ترده عن سفره لم ينظر الى الدرجات العلى من الجنة يوم القيامة وذلك ضلال باعتقاد أنه طريق الى الدخول في علم الغيب وافتراء على الله تعالى ان كان مرادهم بربي هو الله تعالى وقال قوم آخرون انهم كانوا يحملون تلك الازلام عند الاصنام ويعتقدون أن ما يخرج من الامر والنهي على تلك الازلام فبارشاد الاصنام واعانتهم فلهذا السبب كان ذلك فسقا أي شركا وجهالة وهذا القول أولى وأقرب كما قاله الفخر (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) أي هذا الزمان انقطع رجاء كفار مكة من ابطال أمر دينكم (فلا تخشوهم) أي فلا تخافوا المشركين في خلافكم اياهم في الشرائع والاديان فاني أنعمت عليكم بالدولة القاهرة والقوة العظيمة وصاروا مقهورين لكم ذليلين عندكم (واخشون) أي ومحضوا الخشية لي وحدي في ترك اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ودينه (اليوم أكملت لكم دينكم) بالنصر والاظهار على الاديان كلها والحكم ببقائه الى يوم القيامة (وأتممت عليكم نعمتي) بفتح مكة ودخولها آمنين وبانفراد المسلمين بالبلد الحرام واجلاء المشركين عنه حتى حج المسلمون لا يخالطهم المشركون (ورضيت لكم الاسلام دينا) أي اخترته لكم من بين الاديان وهو الدين المرضي عند الله تعالى لا غير (فمن اضطر) الى تناول شيء من هذه المحرمات (في مخمصة) أي مجاعة يخاف معها الموت (غير متجانف لاثم) أي غير متعمد لاثم بان يأكلها فوق الشبع تلذذا كما قاله أهل العراق أو بان يكون عاصيا بسفره كما قاله أهل الحجاز (فان الله غفور) لمن أكل المحرم عندما اضطر الى أكله (رحيم) بعباده حيث أحل لهم ذلك المحرم عند احتياجهم الى أكله (يسألونك ماذا أحل لهم) من الصيد والسائلون عاصم بن عدي وسعد بن خيثمة وعويمر بن ساعدة كذا قاله عكرمة كما أخرجه ابن جرير وقال ابن عباس والسائل بذلك زيد بن مهلهل الطائي وعدي بن حاتم الطائي وكانا صيادين وكذا قال سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم (قل أحل لكم الطيبات) وهو أي كل ما يشتهي

عند أهل المروءة والاخلاق الجميلة مالم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه عما لم يرد نص بتحريمه من كتاب أو سنة أو اجماع أو قياس مجتهد (وما علمتم من الجوارح) أى وأحل لكم صيد ما علمتموه من الكواسب من سباع البهائم والطير كالكلب والباز (مكلبين) أى معلمين الجوارح الصيد (تعلمونهن) حال ثانية من ضمير علمتم والمقصود من التكرار المبالغة فى اشتراط التعليم وان يكون من يعلم الجوارح نحريرا فى علمه موصوفا بالتأديب (مما علمكم الله) من طرق التعليم ومن الحيل فى الاصطياد (فكلوا مما أمسكن عليكم) أى كلوا بعض ما أمسكنه لكم وهو الذى لم يأكلن منه * روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعدى بن حاتم اذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله فان أدركته ولم يقتل فاذبح واذكر اسم الله عليه وان أدركته وقد قتل ولم يؤكل فكل فقد أمسك عليك وان وجدته قد أكل فلا تطعم منه شيأ فانما أمسك على نفسه (واذكروا اسم الله عليه) أى سموا على ما علمتم من الجوارح عند ارساله على الصيد كما قال صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم اذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل أو سموا على ما أمسكن عند ذبحه وقيل المعنى سموا على أكل الصيد * روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن أبى سلمة سم الله وكل مما يليك (واتقوا الله) أى واحذروا مخالفة أمر الله فى تحليل ما أحله وتحريم ما حرمه (ان الله سريع الحساب) فانه تعالى يؤاخذكم سريعا فى كل ما جل ودق (اليوم أحل لكم الطيبات) أى المستلذات المشتهيات لاهل المروءة والاخلاق الجميلة (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) فيحل لنا أكل ذبائح من تمسكوا بالتوراة والانجيل اذا حلت المناكحة بيننا وبينهم فحل الذبيحة تابع لحل المناكحة ولو ذبح يهودى أو نصرانى على اسم غير الله تعالى كالنصرانى يذبح على اسم المسيح لم تحل ذبيحته بخلاف من تمسكوا بغير التوراة والانجيل كصحف ابراهيم فلا تحل ذبائحهم واتفق العلماء على ان المجوس قد سن بهم سنة أهل الكتاب فى أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم وروى عن ابن المسيب انه قال اذا كان المسلم مريضا فأمر المجوسى ان يذكر الله ويذبح فلا بأس وقال أبو ثور وان أمره بذلك فى الصحة فلا بأس (وطعامكم حل لهم) فيحل لكم ان تطعموهم من طعامكم وتبيعوه منهم (والمحصنات) أى الحرائر العفائف (من المؤمنات) أى حل لكم وذكرهن للحمل على ما هو الاولى لا لنفى ما عداهن فان نكاح الاماء المسلمات صحيح بالاتفاق وكذا نكاح غير العفائف وأما الاماء الكتابيات فهن كالمسلمات عند أبى حنيفة خلافا للشافعى (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أى هن حل لكم أيضا وان كن حربيات قال الكثير من الفقهاء انما يحل نكاح الكتابية التى دانت بالتوراة والانجيل قبل نزول القرآن فمن دان بذلك الكتاب بعد نزول القرآن خرج عن حكم الكتاب وهذا مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه وأما أهل المذاهب الثلاثة فلم يقولوا بهذا التفصيل بل أطلقوا القول بحل أكل ذبائح أهل الكتاب وحل التزوج من نسائهم ولو دخلوا فى دين أهل الكتاب بعد نسخه (اذا آتيتموهن أجورهن) وتقييد التحليل باعطاء المهور يدل على تأكد وجوبها وعلى ان الاكمل بيانها لا هو شرط لصحة العقد اذ لا تتوقف على دفع المهر ولا على التزامه ومن تزوج امرأة وعزم على ان لا يعطيها صداقها كان فى صورة الزانى وتسمية المهر بالاجر يدل على ان أقل الصداق لا يتقدر كما أن أقل الاجر لا يتقدر فى الاجارات (محصنين) أى متزوجين (غير مسافحين) أى غير معلنين بالزنا (ولا متخذى أخدان) أى ولا مسرين بالزنا عن لها حليل (ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله) أى ومن يكفر بشرائع الله وبتكاليفه فقد بطل ثواب عمله الصالح سواء عاد الى الاسلام أولا (وهو فى

الآخرة

الآخرة من الخاسرين) اذا لم يعد الى الايمان بما نزل فى القرآن حتى يموت على الكفر أما اذا عاد الى الايمان بذلك قبل الموت فان عمله لا يبطل فلا يجب اعادة صلاة وحج قد أتاهما قبل الردة (يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة) أى اذا أردتم الاشتغال باقامة الصلاة وأنتم على غير وضوء (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق) فان صب الماء على المرفق حتى سال الماء الى الكف فلا يجوز لانه تعالى جعل المرافق غاية الغسل فجعله مبدأ الغسل خلاف الآية كذا قال بعضهم وقال جمهور الفقهاء ان ذلك لا يخل بصحة الوضوء الا أنه يكون تركا للسنة (وامسحوا برؤسكم) قيل الباء فارقة بين حمل المسح بالكل والبعض كما فى قولك مسحت المنديل ومسحت يدى بالمنديل فقولك مسحت المنديل لا يصدق الا عند مسحه بالكلية وقولك مسحت بالمنديل يكفى فى صدقه مسح اليدين بجزء من أجزاء ذلك المنديل وتحقيق هذه الباء انها تدل على تضمين الفعل معنى الالصاق فكأنه قيل وألصقوا المسح برؤسكم وذلك لا يقتضى الاستيعاب (وأرجلكم الى الكعبين) قرأ ابن كثير وحمزة وأبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر عنه بالجر وقرأ نافع وابن عامر وعاصم فى رواية حفص عنه بالنصب اما القراءة بالجر فهى معطوفة على الرؤس فكما يجب المسح فى الرؤس كذلك فى الارجل وانما عطفت الارجل على الممسوح للتنبيه على الاسراف فى استعمال الماء فيها لانها موضع صب الماء كثيرا والمراد غسلها أو مجرورة بحرف جر محذوف متعلق بفعل محذوف تقديره وافعلوا بارجلكم غسلا وحذف حرف الجر وابقاء الجر جائز ولا يجوز هذا الكسر على الجوار على انه منصوب فى المعنى عطف على المغسول لانه معدود فى اللحن الذى قد يحمل لاجل الضرورة فى الشعر ويجب تنزيه كلام الله عنه ولانه يرجع اليه عند حصول الامن من الالتباس كما فى قول الشاعر * كبير اناس فى بجاد مزمل * وفى هذه الآية لا يحصل الامن من الالتباس ولانه انما يكون بدون حرف العطف وأما القراءة بالنصب فهى اما معطوفة على الرؤس لانه فى محل النصب والعطف على الظاهر وعلى المحل جائز كما هو مذهب مشهور للنحاة واما معطوفة على وجوهكم فظهر انه يجوز أن يكون عامل النصب فى قوله تعالى وأرجلكم هو قوله تعالى وامسحوا وقوله تعالى فاغسلوا فاذا اجتمع العاملان على معمول واحد كان الاولى اعمال الاقرب حتى ان بعضهم لا يجوز ان يكون العامل فاغسلوا لما يلزم عليه من الفصل بين المتعاطفين بجملة مبينة حكما جديدا ليس فيها تأكيد للاول وليست هى اعتراضية فوجب أن يكون عامل النصب فى قوله وأرجلكم هو قوله وامسحوا فقد دلت هذه الآية على وجوب مسح الارجل لكن الاخبار الكثيرة وردت بايجاب الغسل وهو مشتمل على المسح ولا ينعكس فكان الغسل أقرب الى الاحتياط فوجب الرجوع اليه ويجب القطع بان غسل الرجل يقوم مقام مسحها وأيضا ان غرض الرجلين محدود الى الكعبين والتحديد انما جاء فى الغسل لا فى المسح وهذا جواب لقولهم ولا يجوز دفع وجوب مسح الرجل بالاخبار لانها باسرها من باب الآحاد ونسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز (وان كنتم جنبا فاطهروا) أى فاغتسلوا ولحصول الجنابة سببان نزول المنى والتقاء الختانين فختان الرجل هو الموضع الذى يقطع منه جلدة القلفة وشفر المرأة محيطات بثلاثة أشياء ثقبة فى أسفل الفرج وهى مدخل الذكر ومخرج الحيض والولد وثقبة أخرى فوق هذه مثل أحليل للذكر وهى مخرج البول لا غير وموضع ختانها هو فوق ثقبة البول وهناك جلدة قائمة مثل عرف الديك وقطع هذه الجلدة هو ختانها فاذا غابت الحشفة حاذى ختانها ختانه (وان كنتم مرضى) مرضا يضره الماء كجراحة أو جدرى (أو على سفر) أى مستقرين عليه (أو جاء أحد منكم من الغائط) أى الموضع الذى

يقضي فيه حاجة الانسان التي لابد منها (أولامستم النساء) بذكر أو غيره (فلم تجدوا) يامعشر المسافرين والمحدثين حدثا أصغر أو أكبر (ماء) بعد طلبه (فتيمموا صعيدا طيبا) أى فاقصدوا ترابا نظيفا (فامسحوا بوجوهكم) بالضربة الاولى (وأيديكم) بالضربة الثانية (منه) أى التراب (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج) أى ضيق بما فرض عليكم من الطهارة للصلاة (ولكن يريد ليطهركم) أى ليطهر قلوبكم عن صفة التمرد عن طاعة الله تعالى لان الكفر و المعاصي نجاسات للارواح وذلك لانه تعالى لما أمر العبد بايصال الماء الى هذه الاعضاء المخصوصة وكانت طاهرة لم يعرف العبد فى هذا التكليف فائدة معقولة فلما انقاد لهذا التكليف كان ذلك الانقياد لمحض اظهار العبودية فأزال هذا الانقياد عن قلبه آثار التمرد فكان ذلك طهارة (وليتم نعمته عليكم) ببيان كيفية الطهارة وهى نعمة الدين بعد ذكر نعمة الدنيا وهى اباحة الطيبات من المطاعم والمناكح أو بالترخص فى التيمم والتخفيف فى حال السفر والمرض فاستدلوا بذلك على انه تعالى يخفف عنكم يوم القيامة بأن يعفو عن ذنوبكم ويتجاوز عن سيآتكم (لعلكم تشكرون) نعمته (واذكروا نعمة الله عليكم) أى تأملوا فى جنس نعم الله عليكم وهو اعطاء نعمة الحياة والصحة والعقل والهداية والصون عن الآفات والايصال الى جميع الخيرات فى الدنيا والآخرة فجنس نعمة الله جنس لايقدر عليه غير الله فتى كانت النعمة على هذا الوجه كان وجوب الاشتغال بشكرها أتم (وميثاقه الذى واثقكم به) بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذ قلتم سمعنا وأطعنا) وهو المواثيق التى جرت بين رسول الله والمسلمين فى أن يكونوا على السمع والطاعة فى المحبوب والمكروه مثل مبايعته صلى الله عليه وسلم مع الانصار فى أول الامر ليلة العقبة ومبايعته صلى الله عليه وسلم مع عامة المؤمنين بيعة الرضوان تحت الشجرة فى الحديبية وغيرهما وقال السدى المراد بالميثاق الدلائل العقلية والشرعية التى نصبها الله تعالى على التوحيد والشرائع وهو اختيار أكثر المتكلمين (واتقوا الله) فى نسيان نعمته ونقض ميثاقه (ان الله عليم بذات الصدور) فلا تعزموا بقلوبكم على نقض تلك العهود فانه ان خطر ببالكم فالله يعلم ذلك وكفى بالله مجازيا (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله) بأن تقوموا لله بالحق فى كل مايلزمكم القيام به من العمل بطاعته واجتناب نواهيه (شهداء بالقسط) فلا تشهدوا بأمر مخالف للواقع بل اشهدوا بما فى نفس الامر والتكاليف محصورة فى نوعين تعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله فقوله تعالى كونوا قوامين اشارة الى النوع الاول وهو حقوق الله وقوله تعالى شهداء بالقسط اشارة الى الثانى وهو حقوق الخلق (ولايجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا) أى لايحملنكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم وتجاوزوا الحد فيهم بل اعدلوا فيهم وان أساؤا عليكم والمعنى ان الله تعالى أمر جميع الخلق بأن لايعاملوا أحدا الا على سبيل الانصاف وترك الاعتساف (اعدلوا) فى عدوكم ووليكم (هو) أى العدل (أقرب للتقوى) أى الى الاتقاء من معاصى الله تعالى أو الى الاتقاء من عذاب الله (واتقوا الله) فيما أمركم ونهاكم (ان الله خبير بما تعملون) فلا يخفى عليه شئ من أحوالكم فيجازيكم على ذلك (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بالعدل والتقوى (لهم مغفرة) أى اسقاط السيآت (وأجر عظيم) وهو ايصال الثواب وجملة قوله لهم مغفرة بيان للوعد لامحل لها فكأنه قيل وأى شئ وعده فقال المجيب لهم مغفرة وأجر عظيم (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) أى ملازموها وهذه الجملة مستأنفة أتى بها جمعا بين الترغيب والترهيب ايفاء لحق الدعوة بالتبشير والانذار (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم اذهم قوم

أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله) أى كونوا مواظبين على طاعة الله تعالى ولا تخافوا أحدا فى اقامة طاعات الله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وسبب نزول هذه الآية وجهان الاول انها نزلت فى واقعة عامة وذلك ان المشركين فى أول الامر وهو فى ضعف المسلمين يريدون ايقاع البلاء والقتل والنهب بالمسلمين والله تعالى كان يمنعهم عن مطلوبهم الى ان قوى الاسلام وعظمت شوكة المسلمين الثانى انها نزلت فى واقعة خاصة وفى هذا ثلاثة أوجه * الاول انها نزلت فى شأن يهود من بنى قريظة أو بنى النضير وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى دخلوا عليهم وقد كانوا عاهدوا النبى على ترك القتال وعلى ان يعينوه فى الديات فطلب منهم مالا قرضا لدية رجلين مسلمين أو معاهدين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ يحسبهما مشركين أو حربيين فقالوا اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد ثم هموا بالفتك برسول الله و بأصحابه فجاء عمرو بن جحاش برحى عظيمة ليطرحها عليه صلى الله عليه وسلم عواتقهم فأمسك الله تعالى يده فنزل جبريل عليه صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك فقام فى الحال مع أصحابه وخرجوا الى المدينة * والثانى عن قتادة انها نزلت فى قوم من العرب وهم بنو ثعلبة و بنو محارب أرادوا الفتك به صلى الله عليه وسلم وهو فى غزوته فأرسلوا له أعرابيا ليقتله ببطن نخل وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلا وتفرق أصحابه عنه يستظلون فى شجرة العضاة وعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه بشجرة فجاء أعرابى وسل سيف رسول الله ثم أقبل عليه وقال يا محمد من يمنعك منى قال صلى الله عليه وسلم الله قالها ثلاثا فاسقطه جبريل من يده فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم وقال من يمنعك منى فقال لا أحد ثم صاح رسول الله بأصحابه فأخبرهم ولم يعاقبه وفى رواية ان أعرابيا قال أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله وعلى هذين القولين فالمراد من قوله تعالى اذكروا نعمة الله عليكم تذكير نعمة الله عليهم بدفع الشر عن نبيهم فانه لو حصل ذلك لكان من أعظم المحن * والثالث انها نزلت فى شأن المشركين انهم رأوا رسول الله وأصحابه بعسفان فى غزوة ذى أغمار وهى غزوة ذات الرقاع وهى السابعة من مغازيه صلى الله عليه وسلم وذلك ان المسلمين قاموا الى صلاة الظهر بالجماعة فلما صلوا ندم المشركون فى عدم اكبابهم عليهم وقالوا ليتنا أوقعنا بهم فى أثناء صلاتهم فقيل لهم ان للمسلمين بعد هذه الصلاة صلاة هى أحب اليهم من أبنائهم وآبائهم فهموا بأن يوقعوا بهم اذا قاموا الى صلاة العصر فرد الله تعالى كيدهم بأن أنزل جبريل بصلاة الخوف (ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل) أى اقرارهم ان لا يعبدوا الا الله ولا يشركوا به شيأ (وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا) وهو المسند اليه أمور القوم وتدبير مصالحهم * روى ان بنى اسرائيل لما استقروا بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالسير الى أريحاء أرض الشام وقد سكنها الجبابرة الكنعانيون وقال لهم انى كتبتها لكم دارا فاخرجوا اليها وجاهدوا من فيها وانى ناصركم وكان بنو اسرائيل اثنى عشر سبطا فاختار الله تعالى من كل سبط رجلا يكون نقيبا لهم وحاكما فيهم والنقباء الاثنى عشر كما قال ابن اسحق هم شموع وشوقط وكالب و بعورك ويوشع ويعلى وكرابيل وكدى وعمايل وستور ويحيى وآل ثم ان هؤلاء النقباء بعثوا الى مدينة الجبارين الذى أمر موسى عليه السلام بالقتال معهم ليقفوا على أحوالهم ويرجعوا بذلك الى نبيهم موسى عليه السلام فلما ذهبوا اليهم رأوا أجراما عظيمة وقوة وشوكة فهابوهم ورجعوا فحدثوا قومهم وقد نهاهم موسى عليه السلام ان يحدثوهم فنكثوا الميثاق الا كالب و يوشع وهما اللذان قال الله تعالى فى حقهما قال رجلان من الذين يخافون الآية (وقال الله) لهؤلاء النقباء (انى

معكم) بالعلم والقدرة فأسمع كلامكم وأرى أفعالكم وأعلم ضمائركم وأقدر على ايصال الجزاء اليكم (لئن أقمتم الصلاة) أى التى فرضت عليكم (وآتيتم الزكاة) أى زكاة أموالكم (وآمنتم برسلى) أى بجميعهم (وعزرتموهم) أى نصرتموهم بالسيف على الاعداء (وأقرضتم الله قرضا حسنا) أى صادقا من قلوبكم والمراد بهذا الاقراض الصدقات المندوبة وخصها بالذكر تنبيها على شرفها وعلو مرتبتها (لأكفرن عنكم سيآتكم) وهذا اشارة الى ازالة العقاب (ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار) وهذا اشارة الى ايصال الثواب (فمن كفر بعد ذلك) أى بعد أخذ الميثاق (منكم فقد ضل سواء السبيل) أى أخطأ الطريق المستقيم الذى هو الدين الذى شرعه الله تعالى لهم (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم) أى بسبب نقضهم ميثاقهم بتكذيب الرسل وقتل الانبياء وكتمان صفة محمد صلى الله عليه وسلم لعناهم أخرجناهم من رحمتنا (وجعلنا قلوبهم قاسية) أى منصرفة عن الانقياد للدلائل وقرأ حمزة والكسائى قسية بغير ألف بعد القاف وتشديد الياء أى رديئة يابسة بلا نور (يحرفون الكلم عن مواضعه) يغيرون نعت محمد صلى الله عليه وسلم وحكم الرجم بعد بيانه فى التوراة (ونسوا حظا مما ذكروا به) أى تركوا بعضا مما أمروا به فى كتابهم وهو الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم (ولا تزال) يا أشرف الخلق (تطلع على خائنة منهم) أى تظهر على خيانة صادرة من بنى قريظة (الا قليلا منهم) وهم الذين آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه أو الذين بقوا على الكفر لكنهم بقوا على العهد ولم يخونوا فيه (فاعف عنهم) أى لا تعاقبهم (واصفح) أى أعرض عن صغائر زلاتهم ماداموا باقين على العهد (ان الله يحب المحسنين) الى الناس قال ابن عباس اذا عفوت فأنت محسن واذا كنت محسنا فقد أحبك الله (ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم) فى الانجيل باتباع محمد وبيان صفته وان لا يعبدوا الا الله ولا يشركوا به شيأ كما أخذنا الميثاق على بنى اسرائيل اليهود (فنسوا حظا مما ذكروا به) أى تركوا نصيبا عظيما مما أمروا به فى الانجيل من الايمان ونقضوا الميثاق (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) أى ألصقنا بين نصارى أهل نجران العداوة بالقتل والبغضاء فى القلب بعد ان جعلناهم فرقا أربعة نسطورية والملكانية واليعقوبية والمرقوسية فان بعضهم يكفر بعضا الى يوم القيامة (وسوف ينبئهم الله) أى يخبرهم فى الآخرة (بما كانوا يصنعون) من المخالفة والخيانة والكتمان فيجازيهم عليه (يا أهل الكتاب) أى يا معشر اليهود والنصارى (قد جاءكم رسولنا) محمد أفضل الخلق (يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) أى تكتمون من التوراة والانجيل كنعت محمد وآية الرجم فى التوراة وبشارة عيسى بأحمد فى الانجيل (ويعفوا عن كثير) أى لا يظهر كثيرا مما تكتمونه اذا لم تدع حاجة دينية الى اظهاره (قد جاءكم من الله نور) أى رسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم (وكتاب مبين) وهو القرآن لما فيه ابانة ما خفى على الناس من الحق (يهدى به) أى بذلك الكتاب (الله من اتبع رضوانه) وهو من كان مطلوبه من طلب الدين اتباع الدين الذى يرتضيه الله تعالى (سبل السلام) أى الى طرق السلامة من العذاب وهو دين الاسلام وهذا منصوب بنزع الخافض لان يهدى يتعدى الى الثانى بالى أو باللام (ويخرجهم من الظلمات) أى ظلمات فنون الكفر (الى النور) أى نور الايمان (باذنه) أى بتوفيقه والباء تتعلق باتبع ولا يجوز أن تتعلق بيهدى ولا بيخرج اذ لا معنى لها حينئذ فدلت الآية على انه لا يتبع رضوان الله الا من أراد الله منه ذلك (ويهديهم الى صراط مستقيم) أى يثبتهم على ذلك الدين بعد اجابة دعوة الرسول (لقد كفر الذين قالوا)

وهم نصارى نجران (ان الله هو المسيح ابن مريم) وهذه المقالة لليعقوبية فانهم قالوا ان الله قد يحل في بدن انسان معين أو في روحه وقيل لم يصرح به أحد منهم ولكن مذهبهم يؤدي اليه حيث اعتقدوا اتصاف عيسى بصفاته الخاصة أي بأنه يخلق ويحيي ويميت ويدبر أمر العالم (قل) لهم يا أكرم الخلق (فمن يملك من الله شيأ) أي فمن الذي يقدر على دفع شيء من أفعال الله تعالى ومنع شيء من مراده (ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الارض جميعا) أي ان عيسى مماثل لمن في الارض في الصورة والخلقة والجسمية والتركيب وتغيير الصفات والاحوال فلما سلمتم كونه تعالى خالقا للكل مدبرا للكل وجب أن يكون أيضا خالقا لعيسى (ولله ملك السموات والارض وما بينهما يخلق ما يشاء) فتارة يخلق من غير أصل كخلق السموات والارض وتارة أخرى يخلق من أصل كخلق ما بينهما فينشئ من أصل ليس من جنسه كخلق آدم وكثير من الحيوانات ومن أصل من جنسه اما من ذكر وحده كخلق حواء أو من أنثى وحدها كخلق عيسى عليه السلام أو منهما كخلق سائر الناس ويخلق بلا توسط شيء من المخلوقات كخلق عامة المخلوقات وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر كخلق الطير على يد عيسى عليه السلام معجزة له وكاحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص على يده أيضا فيجب أن ينسب كله اليه تعالى لا الى من أجرى ذلك على يده (والله على كل شيء قدير) واظهار الاسم الجليل للتعليل وتقوية استقلال الجملة (وقالت اليهود) أي يهود أهل المدينة (والنصارى) أي نصارى أهل نجران (نحن أبناء الله وأحباؤه) أي ان اليهود لما زعموا أن عزيرا ابن الله والنصارى زعموا أن المسيح ابن الله ثم زعموا أن عزيرا والمسيح كانا منهم صار ذلك كأنهم قالوا نحن أبناء الله كما يقول أقارب الملوك عند المفاخرة نحن الملوك فالمراد بأبناء الله خاصته وقال ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا جماعة من اليهود الى دين الاسلام وخوفهم بعقاب الله تعالى فقالوا كيف تخوفنا بعقاب الله ونحن أبناء الله واحباؤه والذي قال تلك الكلمة من اليهود نعمان وبحري وشاس (قل) لهم يا أكرم الخلق الزاما وتبكيتا (فلم يعذبكم بذنوبكم) أي ان صح ما زعمتم فلاي شيء يعذبكم في الدنيا بالقتل والاسر والمسخ وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم في الآخرة بالنار أياما بعدد أيام عبادتكم العجل ولو كان الامر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم ما وقع فأنتم كاذبون لان الاب لا يعذب ولده والحبيب لا يعذب حبيبه (بل أنتم بشر ممن خلق) أي لستم كذلك بل أنتم بشر من جنس من خلقه الله تعالى من غير مزية لكم عليهم (يغفر لمن يشاء) ان يغفر له من أولئك المخلوقين وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله وتابوا من اليهودية والنصرانية (ويعذب من يشاء) ان يعذبه منهم وهم الذين كفروا به تعالى وبرسله وماتوا على اليهودية والنصرانية (ولله ملك السموات والارض وما بينهما) فمن كان ملكه هكذا وقدرته هكذا فكيف يستحق البشر الضعيف عليه تعالى حقا واجبا (واليه المصير) في الآخرة فيجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته (يا أهل الكتاب) أي يا أهل التوراة والانجيل (قد جاءكم رسولنا) محمد صلى الله عليه وسلم (يبين لكم) أي مبينا لكم الشرائع (على فترة من الرسل) أي على حين انقطاع من الانبياء فروى عن سلمان انه قال فترة ما بين عيسى ومحمد ستمائة سنة أخرجه البخاري وكان بينهما أربعة من الانبياء ثلاثة من بني اسرائيل كما قال تعالى اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث وواحد من العرب وهو خالد بن سنان وقال في حقه نبينا صلى الله عليه وسلم نبي ضيعه قومه (أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) أي انما بعثنا اليكم الرسول في وقت فترة من ارسال الرسل كراهة أن تقولوا اذا سئلتم عن أعمالكم يوم القيامة ما جاءنا بشير بالجنة ولا نذير بالنار وقد انطمست آثار الشرائع السابقة وانقطعت

أخبارها فلا تعتذروا بذلك (فقد جاءكم بشير) كامل البشارة (ونذير) كامل النذارة (والله على كل شيء قدير) فكان قادرا على الارسال تترى كما أرسل الرسل بين موسى وعيسى وكان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألف نبي (واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء) لانه لم يبعث في أمة ما بعث في بني اسرائيل من الانبياء فمنهم السبعون الذين اختارهم موسى من قومه فانطلقوا معه الى الجبل ومنهم أولاد يعقوب فانهم كانوا على قول الاكثرين أنبياء (وجعلكم ملوكا) فقد تكاثر فيهم الملوك ثم ان أقارب الملوك يقولون عند المفاخرة نحن الملوك قال السدي أي وجعلكم أحرارا تملكون أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم وقيل كل من كان مستقلا بأمر نفسه ومعيشته ولم يكن محتاجا في مصالحه الى أحد فهو ملك وقال الضحاك كانت منازلهم واسعة وفيها مياه جارية وكانت لهم أموال كثيرة فمن كان كذلك كان ملكا وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كان بنو اسرائيل اذا كان لاحدهم خادم وامرأة ودابة يكتب ملكا وقال قتادة سموا ملوكا لانهم كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن قبلهم خدم وعن عبد الله بن عمرو بن العاص من كان له امرأة يأوي اليها ومسكن يسكنه فهو غني ثم ان كان له خادم بعد ذلك فهو من الملوك (وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) من فلق البحر واغراق العدو وايراث أموالهم وانزال المن والسلوى واخراج المياه العذبة من الحجر وتظليل الغمام فان ذلك لم يوجد في غير بني اسرائيل (يا قوم ادخلوا الارض المقدسة) أي المباركة (التي كتب الله لكم) أي وهبها الله لكم ميراثا من أبيكم ابراهيم عليه السلام روي أن سيدنا ابراهيم عليه السلام لما صعد جبل لبنان قال له الله تعالى انظر فما أدركه بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك وكان بنو اسرائيل يسمون أرض الشام أرض الموعد قال ابن عباس والارض هي الطور وما حوله (ولا ترتدوا على أدباركم) أي لا ترجعوا الى خلفكم أي الى مصر خوف العدو (فتنقلبوا خاسرين) في الدين والدنيا لانهم صاروا شاكين في صدق موسى عليه السلام فيصيروا كافرين بالالهية والنبوة فان موسى قد أخبر ان الله تعالى جعل تلك الارض لهم فكان ذلك وعدا بأن الله تعالى ينصرهم على العدو ولان الله تعالى منعهم عن المن والسلوى ثم بعث موسى عليه السلام اثني عشر نقيبا ليتجسسوا لهم عن أحوال تلك الاراضي فلما دخلوا تلك البلاد رأوا أجساما عظيمة هائلة ثم انصرفوا الى موسى عليه السلام فاخبروه بالواقعة فأمرهم أن يكتموا ما شاهدوه فلم يقبلوا قوله الا رجلان منهم وهما يوشع وكالب فانهما سهلا الامر وقالا هي بلاد طيبة كثيرة النعم وقلوب القوم الذين فيها ضعيفة وان كانت أجسامهم عظيمة وأما العشرة من النقباء فقد أوقعوا الجبن في قلوب الناس حتى أظهروا الامتناع من غزوهم ورفعوا أصواتهم بالبكاء (قالوا يا موسى ان فيها) أي في الطور أو أريحا أو دمشق وفلسطين كما روي كل واحد من هذه الثلاثة عن ابن عباس (قوما جبارين) أي طوالا عظماء أقوياء فلا تصل أيدي قوم موسى اليهم فسموهم جبارين لهذا المعنى (وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها) من غير صنع منا فانه لا طاقة لنا باخراجهم منها (فان يخرجوا منها) بسبب ليس منا (فانا داخلون) قالوا هذا على سبيل الاستبعاد (قال رجلان من الذين يخافون) أي يخافون الله تعالى في مخالفة أمره ونهيه (أنعم الله عليهما) بالهداية والثقة بعون الله والاعتماد على نصرة الله وهما يوشع بن نون وهو الذي نبئ بعد موسى وهو ابن أخت موسى وكالب بن يوفنا ختن موسى وهو بفتح اللام وكسرها وقيل هما رجلان من الجبابرة أسلما واجتمعا موسى والموصول عبارة عن الجبابرة واليهم يعود العائد المحذوف والتقدير قال رجلان من

الجبارة الذين يخافهم بنوا اسرائيل وهما رجلان منهم أنعم الله عليهما بالايمان فآمنا و يشهد لهذا الوجه قراءة من قرأ يخافون على صيغة المبنى للمفعول (أدخلوا عليهم الباب) أى باب بلدهم أى باغتوهم وضاغتوهم فى المضيق وامنعوهم من البروز الى الصحراء لئلا يجدوا للحرب مجالا (فاذا دخلتموه) أى باب بلدهم (فانكم غالبون) من غير حاجة الى القتال فأنا شاهدنا ان قلوبهم ضعيفة وان كانت أجسامهم عظيمة وانما جزم هذان الرجلان بالغلبة لانهما كانا جازمين بنبوة موسى فلما أخبرهم موسى بأن الله تعالى أمرهم بالدخول فى تلك الارض قطعا بأن النصرة لهم والغلبة حاصلة فى جهتهم (وعلى الله فتوكلوا) فى حصول هذا النصر لكم بعد ترتيب الاسباب ولا تعتمدوا عليها فانها غير مؤثرة (ان كنتم مؤمنين) بصحة نبوة موسى ومقرين بوجود الاله القادر مصدقين لوعده (قالوا ياموسى انا لن ندخلها) أى أرض الجبارين (أبدا ماداموا فيها) أى أرضهم (فاذهب أنت وربك) انما قالوا هذه المقالة على وجه التمرد عن الطاعة أى على وجه مخالفة أمر الله فهم فسقة (فقاتلا) هم (انا ههنا قاعدون) عن القتال (قال) عليه السلام لما رأى منهم عنادا على طريق الحزن والشكوى الى الله تعالى (رب انى لا أملك الا نفسى وأخى) هرون أى لا أملك التصرف ولا ينفذ أمرى الا فى نفسى وأخى وانما قال ذلك تقليلا لمن يوافقه و يجوز أن يكون المعنى الا نفسى ومن يواخينى فى الدين (فافرق بيننا و بين القوم الفاسقين) أى احكم لنا بما نستحقه واحكم على القوم الخارجين عن طاعتك بما يستحقونه وهو فى معنى الدعاء عليهم (قال) الله ياموسى (فانها) أى الارض المقدسة (محرمة عليهم) أى ممنوع عليهم من الدخول فيها (أربعين سنة يتيهون فى الارض) أى يتحيرون فى البرية وكان طول البرية تسعين فرسخا وقد تاهوا فى تسعة فراسخ عرضا فى ثلاثين فرسخا طولا وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام بى حلفت لاحرمن عليهم دخول الارض المقدسة غير عبدى يوشع وكالب ولا تيهنهم فى هذه البرية أربعين سنة مكان كل يوم من الايام التى تجسسوا سنة أى كانت مدة غيبة النقباء للتجسس أربعين يوما ولالقين جيفهم فى هذه القفار أى ومات أولئك العصاة فيها وأهلك النقباء العشرة فيها بعقوبات غليظة وأما بنوهم الذين لم يعملوا الشر فيدخلون تلك الارض المقدسة اهـ قال ابن عباس وكلهم ستمائة ألف مقاتل وكانوا يسيرون كل يوم جادين فاذا أمسوا كانوا فى الموضع الذى ارتحلوا عنه وكان الغمام يظلهم من الشمس وكان عمود نور يطلع بالليل فيضىء لهم وكان طعامهم المن والسلوى وماؤهم من الحجر الذى يحملون ولا تطول شعورهم وهذه الانعامات عليهم مع انهم معاقبون لما ان عقابهم كان بطريق التأديب وروى ان موسى وهرون كانا معهم ولكن كان ذلك لهما راحة وسلامة كالنار لابراهيم وللملائكة العذاب عليهم السلام وزيادة فى درجتهما وعقوبة لهم ومشاهدتهم لهما حال العقوبة أبلغ (فلا تأس) أى لا تحزن (على القوم الفاسقين) قال مقاتل ان موسى لما دعا عليهم أخبره الله تعالى باحوال التيه ثم ان موسى عليه السلام أخبر قومه بذلك فقالوا له لم دعوت علينا وندم موسى على ما عمل فأوحى الله اليه لا تأس على القوم الفاسقين فانهم أحقاء بذلك لفسقهم (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق) أى أذكر يا أكرم الخلق لقومك واخبرهم خبر ابنى آدم قابيل وهابيل ملتبسا بالصدق ليعتبروا به وهذه القصة دالة على ان كل ذى نعمة محسود فلما كانت نعم الله على سيدنا محمد أعظم النعم كان أهل الكتاب استخرجوا أنواع المكر فى حقه صلى الله عليه وسلم حسدا منهم فكان ذكر هذه القصة تسلية من الله تعالى لرسوله قال محمد بن اسحق ان آدم كان يغشى حواء فى الجنة قبل ان يصيب الخطيئة فحملت بقابيل واخته فلم تجد عليهما وحما ولا وصبا ولا طلقا ولم ترد

ماوقت الولادة فلما هبطا الى الارض تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم وقال بعضهم غشي آدم حواء بعد مهبطهما الى الارض بمائة سنة فولدت له قابيل وأقليما في بطن ثم هابيل ولبودا في بطن فان حواء كانت تلد لآدم في كل بطن غلاما وجارية الاشيثا فانها وضعته مفرداء وضاعن هابيل وجملة أولاد آدم تسعة وثلاثون في عشرين بطنا أولهم قابيل وتوأمته أقليما وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أم المغيث ويتزوج كل من الذكور غير توأمته وأمر الله آدم ان يزوج قابيل لبودا اخت هابيل وينكح هابيل أقليما اخت قابيل وهي أحسن من لبودا فذكر ذلك آدم فرضي هابيل وسخط قابيل وقال هي اختي وأنا أحق بها ونحن من أولاد الجنة وهما من أولاد الارض فقال له آدم انها لا تحل لك فأبى ان يقبل ذلك وقال ان الله لم يأمرك بهذا وانما هو من رأيك فقال لهما آدم قربا لله قربانا فايكما تقبل قربانه فهو أحق باقليما وكانت القرابين اذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها وان لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكلته الطير والسباع فخرجا من عند آدم ليقربا القربان وكان قابيل قرب صبرة من قمح ردىء وهابيل قرب كبشا أحسن وقصد بذلك رضا الله تعالى فوضعا قربانهما على جبل ثم دعا آدم فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل وقيل رفع الى الجنة فلم يزل يرعى فيها الى ان فدى به اسماعيل عليه السلام (اذقربا) أي كل منهما (قربانا) وهو اسم لما يتقرب به الى الله تعالى من ذبيحة أوصدقة (فتقبل من أحدهما) وهو هابيل (ولم يتقبل من الآخر) وهو قابيل فاضمر لاخيه الحسد الى ان أتى آدم مكة لزيارة البيت وغاب فأتى قابيل لهابيل وهو في غنمه (قال) لهابيل (لاقتلنك) فقال هابيل ولم تقتلني قال قابيل لان الله تقبل قربانك ورد قرباني وتريد ان تنكح اختي الحسناء وأنكح أختك الذميمة فيتحدث الناس بأنك خير مني ويفتخر ولدك على ولدي ف(قال) هابيل وماذنبي (انما يتقبل الله من المتقين) أي ان حصول التقوى شرط في قبول القربان (لئن بسطت الى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لاقتلك) أي والله لئن باشرت قتلي حسبما أوعدتني به وتحقق ذلك منك ما أنا بفاعل مثله لك في وقت من الاوقات (اني أخاف الله رب العالمين) في قتلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمحمد بن مسلمة ألق كمك على وجهك وكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل (اني أريد أن تبوء باثمي واثمك) أي ان تحمل اثم قتلي واثمك الذي كان منك قبل قتلي كما قاله ابن عباس وابن مسعود والحسن وقتادة رضي الله عنهم (فتكون من أصحاب النار) أي فتصير من أهل النار (وذلك جزاء الظالمين) روى ان الظالم اذا لم يجد يوم القيامة مايرضي خصمه أخذ من سيآت المظلوم وحمل على الظالم (فطوعت له) أي سهلت (نفسه قتل أخيه فقتله) قال ابن جريج لما قصد قابيل قتل هابيل لم يدر كيف يقتله فتمثل له ابليس وقد أخذ طيرا فوضع رأسه على حجر ثم رضخه بحجر آخر وقابيل ينظر اليه فعلم منه القتل فوضع قابيل رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم صابر روى عن عمرو بن خير الشعباني قال كنت مع كعب الاحبار على جبل دير مران فرأى لمعة حمراء سائلة في الجبل فقال ههنا قتل ابن آدم أخاه وهذا أثر دمه جعله الله آية للعالمين (فأصبح) أي صار (من الخاسرين) بقتله دينا ودنيا لانه أسخط والديه وبقي مذموما الى يوم القيامة ولان له عقابا عظيما في الآخرة ولما قتل قابيل هابيل تركه بالعراء ولم يدر مايصنع به لانه أول ميت من بني آدم على وجه الارض فقصدته السباع لتأكله فحمله قابيل على ظهره في جراب أربعين يوما وقيل سنة (فبعث الله غرابا يبحث في الارض) أي يحفر الحفيرة بمنقاره ورجليه بعد قتل صاحبه ثم ألقاه فيها وأثار التراب عليه فتعلم قابيل ذلك من الغراب (ليريه كيف يواري

سوأة

سوأة أخيه) واللام امامتعلقة ببعث حتما والضمير المستكن عائد الى الله تعالى أو متعلقة بيبحث أو ببعث والضمير راجع للغراب وكيف حال من ضمير يوارى العائد الى قابيل كالضميرين البارزين وهو معمول ليوارى وجملته معلقة الرؤية البصرية أو العرفانية المتعدية لمفعول قبل تعديتها بهمزة النقل وبعده لاثنين وحينئذ فكيف فى محل المفعول الثانى سادة مسده والمراد بالسوءة الجسد لقبحه بعد موته (قال) أى قابيل (ياويلتا) أى ياهلاكى تعال وهى كلمة تستعمل عند وقوع الداهية العظيمة ولفظها لفظ النداء كأن الويل غير حاضر له فناداه ليحضره أى أيها الويل احضر فهذا أوان حضورك (أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى) أى فأغطى جسد أخى بالتراب أى لما قتل قابيل أخاه تركه بالعراء استخفافا به ولما رأى الغراب يدفن غرابا ميتا رق قلبه وقال ان هذا الغراب لما قتل ذلك الآخر أخفاه تحت الارض أفأكون أقل شفقة من هذا الغراب (فأصبح من النادمين) على حمله لهابيل على ظهره سنة لانه لم يعلم الدفن الا من الغراب وعلى قتله لانه لم ينتفع بقتله ولانه سخط عليه بسببه أبواه واخوته فكان ندمه لاجل هذه الاسباب لا لكونه معصية وعلى استخفافه بهابيل بعد قتله لتركه فى العراء فلما رأى ان الغراب دفن غرابا ميتا ندم على قساوة قلبه وقال هذا أخى لحمه مختلط بلحمى ودمه مختلط بدمى فاذا ظهرت الشفقة من الغراب على غراب ولم تظهر منى على أخى كنت دون الغراب فى الرحمة والاخلاق الحميدة فكان ندمه لهذه الاسباب لا لاجل الخوف من الله تعالى فلا ينفعه ذلك الندم قيل لما قتل قابيل هابيل هرب الى عدن من أرض اليمن فأتاه ابليس وقال انما أكلت النار قربان هابيل لانه كان يخدم النار ويعبدها فان عبدتها أيضا حصل مقصودك فبنى بيت نار فعبدها وهو أول من عبد النار وروى انه لما قتله اسود جسده وكان أبيض فسأله آدم عن أخيه فقال ما كنت عليه وكيلا قال بل قتلته ولذلك اسود جسدك ومكث آدم بعده مائة سنة لم يضحك قط (من أجل ذلك) أى المذكور من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب القتل الحرام وهى حصول خسارة الدين والدنيا وحصول الندم والحسرة والحزن فى القلب والجار والمجرور متعلق بكتبنا وهو ابتداء كلام فلا يوقف على اسم الاشارة فالوقف على قوله تعالى من النادمين تام هذا عند جمهور المفسرين وأصحاب المعانى ويروى عن نافع انه كان يقف على اسم الاشارة ويجعله من تمام الكلام الاول فحينئذ الجار والمجرور متعلق بما قبله واسم الاشارة عائد على القتل أى من أجل ان قابيل قتل هابيل ولم يواره بالتراب (كتبنا) أى أوجبنا فى التوراة (على بنى اسرائيل أنه) أى الشأن (من قتل نفسا) واحدة من بنى آدم (بغير نفس) أى بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص (أوفساد فى الارض) أى أو بغير فساد يوجب اهدار الدم من كفر أو زنا أو قطع طريق وقرأ الحسن بنصب فساد باضمار فعل أى أو عمل فسادا (فكأنما قتل الناس جميعا) فى تعظيم أمر القتل العمد العدوان كما ان قتل كل الخلق أمر مستعظم عند كل أحد فالمقصود مشاركة الامرين فى الاستعظام وكيف لا يكون مستعظما وقد قال تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس) أى ومن خلص نفسا واحدة من المهلكات كالحرق والغرق والجوع المفرط والبرد والحر المفرطين قال ابن عباس أى وجبت له الجنة بعفو نفس كما لو عفا الناس (جميعا ولقد جاءتهم) أى بنى اسرائيل (رسلنا بالبينات) أى المعجزات (ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك فى الارض) أى بعد مجىء الرسل وبعد ما كتبنا عليهم تحريم القتل (لمسرفون) فى القتل لا يبالون بعظمته فانهم كانوا أشد الناس جراءة على القتل حتى كانوا

يقتلون الانبياء (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) أى انما جزاء الذين يخالفون أحكام الله وأحكام رسوله أوانما مكافأة الذين يحاربون أولياء الله وأولياء رسوله وهم المسلمون (ويسعون فى الارض فسادا) أى يعملون فى الارض مفسدين بالمعاصى وهو القتل وأخذ المال ظلما (أن يقتلوا واحدا بعد واحد ان قتلوا (أو يصلبوا) ثلاثة أيام بعد القتل والصلاة عليهم وقيل يصلبون احياء ثم يزج بطنهم برمح حتى يموتوا ان جمعوا بين أخذ المال والقتل (أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف) أى تقطع مختلفة بأن تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ان اقتصروا على أخذ المال من مسلم أوذمى وكان المقدار بحيث لوقسم عليهم أصاب كلا منهم نصاب السرقة (أو ينفوا من الارض) ان أخافوا السبل قال أبو حنيفة النفى من الارض هو الحبس وهو اختيار أكثر أهل اللغة قالوا وان المحبوس قد يسمى منفيا من الارض لانه لا ينتفع بشئ من طيبات الدنيا ولذاتها ولا يرى أحدا من أحبابه فصار منفيا عن جميع اللذات والشهوات والطيبات فكان كالمنفى فى الحقيقة وقال الشافعى هذا النفى محمول على وجهين الاول ان هؤلاء المحاربين اذا قتلوا وأخذوا المال فالامام ان أخذهم أقام عليهم الحدوان لم يأخذهم طلبهم أبدا فكونهم خائفين من الامام هاربين من بلد الى بلد هو المراد من النفى والثانى القوم الذين يحضرون الواقعة ويكثرون جمع هؤلاء المحاربين ويخيفون المسلمين ولكنهم ماقتلوا وما أخذوا المال فان الامام يأخذهم ويعزرهم ويحبسهم فالمراد بنفيهم عن الارض هو هذا الحبس لا غير قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى قوم هلال بن عويمر لانهم قتلوا قوما من بنى كنانة أرادوا الهجرة الى رسول الله ليسلموا فقتلوهم وأخذوا ما كان معهم من السلب وقيل نزلت فى قوم من عرينة وكانوا ثمانية نزلوا المدينة مظهرين للاسلام فرضت أبدانهم واصفرت ألوانهم فبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ابل الصدقة ليشربوا من أبوالها وألبانها فيه فلما شربوا وصحوا قتلوا الراعى مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه يسار النوبى وساقوا الابل وكانت خمسة عشر فبعث النبى صلى الله عليه وسلم عشرين فارسا أميرهم كرز بن جابر الفهرى فى طلبهم فجئ بهم وأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم بأن أحمى مسامير الحديد وكحل بها أعينهم حتى ذهب ضوءها وتركوا فى الحرة حتى ماتوا (ذلك) أى الحد (لهم خزى) أى هوان وفضيحة (فى الدنيا) اذا لم تحصل التوبة أما عند حصول التوبة فان هذا الحد لا يكون على جهة الاستخفاف بل يكون على جهة الامتحان (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) أى أشد مما يكون فى الدنيا لمن لم يتب (الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) أى ان ما يتعلق من تلك الاحكام بحقوق الله تعالى يسقط بعد هذه التوبة وما يتعلق منها بحقوق الآدميين لا يسقط فهؤلاء المحاربون ان قتلوا انسانا ثم تابوا قبل القدرة عليهم كان ولى الدم على حقه فى القصاص والعفو الا انه يزول وجوب القصاص بسبب هذه التوبة لا جوازه قصاصا وان أخذوا مالا وجب عليهم رده ولم يكن عليهم قطع اليد والرجل وان جمعوا بين القتل وأخذ المال فيسقط وجوب القتل ويجوز استيفاؤه ويجب ضمان المال وعن على رضى الله عنه ان الحرث بن بدر جاءه تائبا بعدما كان يقطع الطريق فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة أما اذا تاب القاطع بعد القدرة فالتوبة لا تنفعه وتقام الحدود عليه وقال الشافعى رحمه الله ويحتمل ان يسقط كل حد لله بالتوبة لان ماعزا المارجم أظهر توبته فلما تمموا رجمه ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هلا تركتموه وذلك يدل على ان التوبة تسقط عن المكلف كل ما يتعلق بحق الله تعالى وهذا التفصيل انما يكون للمسلم أما ان كان القاطع كافرا سقطت عنه الحدود مطلقا لان توبته تدرأ عنه العقوبة

قبل القدرة و بعدها (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) بترك المنهيات (وابتغوا اليه الوسيلة) بفعل المأمورات (وجاهدوا في سبيله) أي في سبيل عبوديته وطريق الاخلاص في معرفته وخدمته (لعلكم تفلحون) بنيل مرضاته والفوز بكراماته اعلم ان مجامع التكليف محصورة في نوعين أحدهما ترك المنهيات وهو المشار اليه بقوله تعالى اتقوا الله وثانيهما فعل المأمورات وهو المشار اليه بقوله تعالى وابتغوا اليه الوسيلة والمراد بطلب الوسيلة اليه تعالى هو تحصيل مرضاته وذلك بالعبادات والطاعات ولما أمر الله تعالى بترك ما لا ينبغي وبفعل ما ينبغي وكان الانقياد لذلك من أشق الاشياء على النفس وأشدها ثقلا على الطبع لان النفس لا تدعو الا الى المشتهاة واللذات المحسوسة أردف ذلك التكليف بقوله وجاهدوا في سبيله أي بمحاربة أعدائه البارزة والكامنة ثم ان من يعبد الله تعالى فريقان منهم من يعبد الله لا لغرض سوى الله وهو المشار اليه بقوله تعالى وجاهدوا في سبيله ومنهم من يعبده للثواب مثلا وهو المشار اليه بقوله لعلكم تفلحون أي تفوزون بالمحبوب وتخلصون عن المكروه (ان الذين كفروا لو أن لهم) أي لو ثبت ان لكل واحد منهم (ما في الارض جميعا) أي من أصناف أموالها وسائر منافعها قاطبة (ومثله معه ليفتدوا به) أي ليجعلوا كلا منهما فدية لانفسهم (من عذاب يوم القيامة) أي من العذاب الواقع يومئذ (ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) تصريح بعدم قبول الفداء وتصوير للزوم العذاب فلا سبيل لهم الى الخلاص منه وعن النبي صلى الله عليه وسلم يقال للكافر يوم القيامة أرأيت لو كان لك ملء الارض ذهبا أكنت تفتدي به فيقول نعم فيقال له قد سئلت أيسر من ذلك فأبيت (يريدون أن يخرجوا من النار) بتحويل حال الى حال وقيل يتمنون الخروج اذا رفعهم لهب النار الى فوق ويقصدونه وقيل يكادون يخرجون منها لقوة النار ودفعها لهم وقيل يريدون الخروج بقلوبهم كما قرأ بعضهم ان يخرجوا بالبناء للمفعول (وما هم بخارجين منها ولهم) أي الكافرين خاصة دون عصاة المؤمنين (عذاب مقيم) أي دائم لا ينقطع تارة بالبرد وتارة بالحر وتارة بغيرهما (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) أي أيمانهما من الكوع كما يدل عليه قراءة ابن مسعود رضي الله عنه والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم لانه صلى الله عليه وسلم أتى بسارق وهو طعمة فأمر بقطع يمينه من الرسغ (جزاء بما كسبا) أي لجزاء فعلهما (نكالا) أي للاهانة والذم (من الله) لجزاء مفعول من أجله وعامله فاقطعوا ونكالا مفعول من أجله وعامله جزاء على طريقة الاحوال المتداخلة كما تقول ضربت ابني تأديبا له احسانا اليه فالتأديب علة للضرب والاحسان علة للتأديب (والله عزيز) في انتقامه (حكيم) في شرائعه وتكاليفه (فمن تاب) الى الله تعالى (من بعد ظلمه) أي سرقته (وأصلح) بأن يتوب بنية صالحة صادقة وعزيمة صحيحة خالية عن سائر الاغراض (فان الله يتوب عليه) أي يقبل توبته تفضلا منه واحسانا لا وجوبا عليه (ان الله غفور رحيم) فلا يعذبه في الآخرة ولا يسقط عنه القطع بالتوبة بل يقطع على سبيل الامتحان عند الجمهور وقيل يسقط بها الحد وقال الشافعي ان عفا المستحق عنه قبل الرفع الى الامام سقط القطع (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض) والمالك له أن يتصرف في ملكه كيف شاء (يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير) فيقدر على التصرف الكلي فيهما وفيما فيهما بحسب ما تقتضيه مشيئته تعالى ونحن نعتقد ان المغفرة تابعة للمشيئة في حق غير التائب (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) أي لا تبال بمسارعة المنافقين في الكفر وذلك بسبب احتيالهم في استخراج وجوه المكر في

حق المسلمين وفي مبالغتهم في موالاة المشركين فاني ناصرك عليهم وكافيك شرهم وقرأ نافع يحزنك بضم الياء وكسر الزاي وقرئ يسرعون من أسرع والباء متعلقة بقالوا لا بأفواههم قال ابن عباس نزلت هذه الآية في حق عبد الله بن أبي وأصحابه وقيل نزلت في عبد الله بن صوريا (ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) أي ان هؤلاء القوم من اليهود لهم صفتان سماع الكذب في دين الله وفي طعن محمد صلى الله عليه وسلم من أحبارهم ونقله الى عوامهم وسماع الحق منك ونقله لأحبارهم ليحرفوه أي فيكونوا وسائط بينك وبين قوم آخرين والوسائط هم يهود بني قريظة كعب وأصحابه والقوم الآخرون هم يهود خيبر فهم لا يقربون مجلسه صلى الله عليه وسلم لبغضهما اياه وتكبرهم (يحرفون الكلم من بعد مواضعه) أي يضع هؤلاء الاحبار الجلد مكان الرجم والطعن في محمد مكان المدح في التوراة (يقولون) أي المحرفون وهم القوم الآخرون للسماعين لهم عند القائهم اليهم أقاويلهم الباطلة مشيرين الى كلامهم الباطل (ان أوتيتم) من جهة محمد (هذا) المحرف من جلد المحصن (فخذوه) أي فاقبلوا منه (وان لم تؤتوه فاحذروا) ولا تقبلوا منه قال المفسرون ان رجلا وامرأة من أشراف أهل خيبر زنيا وهما محصنان وكان حد الزنا في التوراة الرجم فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما فأرسلوهما مع قوم منهم الى بني قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حكمه في الزانيين وقالوا ان أمركم بالجلد وتسويد الوجه فاقبلوا وان أمركم بالرجم فاحذروا ولا تقبلوا فلما سألوا رسول الله عن ذلك نزل جبريل بالرجم فأبوا أن يأخذوا به فقال له جبريل عليه السلام اجعل بينك وبينهم ابن صوريا فقال الرسول هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا قالوا نعم فقال هو أي رجل فيكم فقالوا هو أعلم يهودي على وجه الارض بما في التوراة فقال فأرسلوا اليه فأتاهم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أنت ابن صوريا قال نعم قال وأنت أعلم اليهود قال كذلك يزعمون فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم أترضون به حكما قالوا نعم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذي لا اله الا هو الذي فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذي نزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن قال ابن صوريا نعم فوثب عليه سفلة اليهود فقال خفت ان كذبت أن ينزل علينا العذاب ثم سأل رسول الله عن أشياء كان يعرفها من علاماته فأجابه عنها فقال ابن صوريا أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله النبي الامي العربي الذي بشر به المرسلون ثم أمر رسول الله بالزانيين فرجما عند باب مسجده (ومن يرد الله فتنته) أي ضلالته وكفره (فلن تملك) أي تستطيع (له من الله شيئا) على دفعها (أولئك) أي اليهود والمنافقون (الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) أي من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهماكهم فيهما (لهم في الدنيا خزي) أي ذل بالفضيحة للمنافقين بظهور نفاقهم بين المسلمين وخوفهم من قتل المسلمين اياهم والجزية والافتضاح لليهود بظهور كذبهم في كتمان التوراة (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) وهو الخلود في النار (سماعون للكذب) الذي كانوا ينسبونه الى التوراة (أكالون للسحت) أي الحرام الذي يصل اليهم من الرشوة في الحكم ومهر البغي وعسيب الفحل وكسب الحجام وثمن الكلب وثمن الخمر وثمن الميتة وحلوان الكاهن والاستئجار في المعصية روى ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس وأبي هريرة ومجاهد (فان جاؤك) متحاكمين اليك فيما شجر بينهم من الخصومات (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) ومذهب الشافعي أنه يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بين أهل الذمة اذا تحاكموا اليه لان في أمضاء

حكم الاسلام عليهم ذلا لهم فأما المعاهدون الذين لهم مع المسلمين عهد الى مدة فليس بواجب على الحاكم أن
يحكم بينهم بل يتخير فى ذلك وهذا التخيير الذى فى هذه الآية مخصوص بالمعاهدين ولو ترافع الينا ذميان فى
شرب خمر لم نحدهما وان رضيا بحكمنا لانهما لا يعتقدان تحريمها ولو ترافع الينا مسلم وذمى وجب الحكم
بينهما اجماعا وكذا الذمى مع المعاهدين (وان تعرض عنهم فلن يضروك شيأ) أى فانهم كانوا
لا يتحاكمون اليه صلى الله عليه وسلم الا لطلب الاخف فاذا أعرض عنهم وأبى الحكومة لهم شق عليهم
اعراضه عنهم وصاروا أعداء له فلا تضره عداوتهم له فان الله يعصمه من الناس (وان حكمت فاحكم بينهم
بالقسط) أى بالعدل الذى أمرت به (ان الله يحب المقسطين) أى يثيب العادلين فى الحكم (وكيف
يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك) استفهام تعجيب من الله لنبيه من
تحكيمهم اياه صلى الله عليه وسلم لمن لا يؤمنون به وبكتابه والحال أن الحكم منصوص عليه فى كتابهم
الذى يدعون الايمان به وتنبيه على أنهم ماقصدوا بالتحكيم معرفة الحق واقامة الشرع وانما طلبوا به
ماهو أهون عليهم وان لم يكن ذلك حكم الله على زعمهم ثم يعرضون عن حكمه صلى الله عليه وسلم الموافق
لكتابهم من بعد التحكيم والرضا بحكمه صلى الله عليه وسلم فقوله تعالى وعندهم التوراة حال من فاعل
يحكمونك وقوله تعالى فيها حكم الله حال من التوراة وقوله تعالى ثم يتولوا معطوف على يحكمونك
(وما أولئك) أى البعداء من الله (بالمؤمنين) بالتوراة وان كانوا يظهرون الايمان بها ولا بك ولا
معتقدين فى صحة حكمك وان طلبوا الحكم منك وذلك دليل على أنه لا ايمان لهم بشئ وأن مقصودهم
تحصيل منافع الدنيا فقط (انا أنزلنا التوراة فيها هدى) أى بيان الاحكام والشرائع والتكاليف
(ونور) أى بيان للتوحيد والنبوة والمعاد (يحكم بها) أى التوراة (النبيون الذين أسلموا) أى
انقادوا لحكم التوراة فان من الانبياء من لم تكن شريعته شريعة التوراة والذين كانوا منقادين لحكم
التوراة هم الذين كانوا من مبعث موسى الى مبعث عيسى عليهما السلام وبينهما ألف نبى وكلهم بعثوا
باقامة التوراة حتى يحدوا حدودها ويقوموا بفرائضها ويحلوا حلالها ويحرموا حرامها وقال الحسن
والزهرى وعكرمة وقتادة والسدى يحتمل أن يكون المراد بالنبيين الذين أسلموا هو سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم لانه حكم على اليهوديين بالرجم وكان هذا حكم التوراة وانما ذكر بلفظ الجمع تعظيما له ولانه
قد اجتمع فيه من خصال الخير ما كان حاصلا لاكثر الانبياء وقال ابن الانبارى هذا رد على اليهود
والنصارى لان بعضهم كانوا يقولون الانبياء كلهم يهود أو نصارى فرد الله عليهم بذلك أى فان الانبياء
ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية بل كانوا مسلمين أى منقادين لتكاليف الله تعالى وفى ذلك تنبيه
على قبح طريقة هؤلاء اليهود المتأخرين فان غرضهم من ادعاء الحكم بالتوراة أخذ الرشوة واستتباع
العوام وتعريض بهم بأنهم بعدوا عن الاسلام الذى هو دين الانبياء عليهم السلام (للذين هادوا)
متعلق بيحكم أى يحكمون بها فيما بين اليهود (والربانيون والاحبار) أى ويحكم بها العلماء المجتهدون
لدين انسلخوا عن الدنيا وسائر العلماء من ولد هرون الذين التزموا طريقة النبيين (بما استحفظوا) أى
بسبب الذى استحفظوا من جهة النبيين (من كتاب الله) وهو التوراة فان الانبياء سألوا الربانيين
والاحبار أن يحفظوا التوراة من التغيير والتبديل وذلك منهم عليهم السلام استخلاف لهم فى اجراء
أحكامها من غير اخلال بشئ منها (وكانوا عليه) أى ذلك الكتاب (شهداء) أى كان هؤلاء النبيون
والربانيون والاحبار شهداء على أن كل ما فى التوراة حق وصدق وأنه من عند الله حقا كانوا يمضون

أحكام التوراة ويحفظونها عن التحريف والتغيير (فلا تخشوا الناس) أيها اليهود (واخشون) أى اياكم وأن تحرفوا كتابى للخوف من الناس والملوك والاشراف فتسقطوا عنهم الحدود الواجبة عليهم وتستخرجوا الحيل فى سقوط تكاليف الله تعالى عنهم فلا تكونوا خائفين من الناس بل كونوا خائفين منى ومن عقابى فى كتمان الاحكام ونعوت محمد صلى الله عليه وسلم (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) أى ولا تستبدلوا بآياتى التى فى التوراة عرضا قليلا من الدنيا أى كما نهيتكم عن تغيير أحكامى لاجل الخوف فكذلك أنهاكم عن التغيير والتبديل لاجل الطمع فى المال والجاه وأخذ الرشوة فان كل متاع الدنيا قليل (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال ابن عباس ومن لم يبين ما بين الله فى التوراة من نعت محمد وآية الرجم فأولئك هم الكافرون بالله والرسول والكتاب وقال عكرمة أى ومن لم يحكم بما أنزل الله منكرا له بقلبه وجاحدا له بلسانه فقد كفر أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه ذلك الا أنه حكم بضده فهو ظالم فاسق لتركه حكم الله تعالى (وكتبنا عليهم فيها) أى فرضنا على بنى اسرائيل فى التوراة (أن النفس) مقتولة (بالنفس والعين) مفقوءة (بالعين والانف) مجدوع (بالانف والأذن) مقطوعة (بالاذن والسن) مقلوعة (بالسن والجروح قصاص) أى ذات قصاص اذا كانت بحيث تعرف المساواة كالشفتين والذكر والانثيين والقدمين واليدين فأما مالا يمكن القصاص فيه من رض فى لحم أو كسر فى عظم أو جراحة فى بطن يخاف منه التلف ففيه ارش وحكومة قرأ الكسائى العين والانف والاذن والسن والجروح كلها بالرفع وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بنصب غير الجروح فانه بالرفع وقرأ نافع وعاصم وحمزة بنصب الكل وخبر الجميع قصاص (فمن تصدق به) أى بالقصاص من المستحقين (فهو) أى التصدق (كفارة له) أى للمتصدق يكفر الله تعالى بها ذنوبه أى اذا عفا المجروح أو ولى المقتول كان ذلك العفو كفارة للعافى كما قال صلى الله عليه وسلم أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان اذا خرج من بيته تصدق بعرضه على الناس وروى عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تصدق من جسده بشئ كفر الله تعالى عنه بقدره من ذنوبه وقيل ان المجنى عليه اذا عفا عن الجانى صار ذلك العفو كفارة للجانى وسقط عنه ما لزمه فلا يؤاخذه الله تعالى بعد ذلك العفو وأما المجنى عليه الذى عفا فاجره على الله تعالى ثم القاتل يتعلق به ثلاثة حقوق حق لله تعالى وحق للمقتول وحق للولى فاذا اسلم القاتل نفسه طوعا واختيارا الى الولى ندما على ما فعل خوفا من الله تعالى وتوبة نصوحا سقط حق الله تعالى بالتوبة وحق الاولياء بالاستيفاء أو الصلح أو العفو وبقى حق للمقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب ويصلح بينه وبينه ولو سلم القاتل نفسه اختيارا من غير ندم وتوبة أو لم يمكن من نفسه بل قتل كرها فيسقط حق الوارث فقط ويبقى حق الله تعالى لانه لا يسقطه الا التوبة ويبقى حق المقتول أيضا ويطالبه به فى الآخرة لان القاتل لم يسلم نفسه تائبا ولم يصل منه للمقتول شئ (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) بالتقصير فى حق النفس لابقاء النفس فى العقاب الشديد والتدين بترك حكم الله نهاية الظلم وهو الكفر لانكار نعمة الله تعالى وجحدها (وقفينا على آثارهم) أى أتبعنا على آثار النبيين الذين يحكمون بالتوراة (بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه) أى لما قبل عيسى مما أتى به موسى (من التوراة) ومعنى كون عيسى مصدقا للتوراة أنه أقر بأنه كتاب منزل من عند الله تعالى وأقر بأنه كان حقا واجب العمل به قبل ورود النسخ (وآتيناه الانجيل فيه هدى) لاشتماله على الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه وبراءة الله تعالى عن الزوجة

والولدوا لمثل والضد وعلى النبوة وعلى المعاد (ونور) لانه بيان للاحكام الشرعية ولتفاصيل التكاليف (ومصدقا لما بين يديه) أى لما قبل الانجيل (من التوراة) وهذا المنصوب معطوف على محل فيه هدى وهو النصب على الحال أى موافقا لما فى التوراة من أصول الدين ومن بعض الشرائع ومن كون الانجيل مبشرا بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم (وهدى) لاشتماله على البشارة بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم فهو سبب لاهتداء الناس الى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهذه المسئلة أشد المسائل احتياجا الى البيان فالانجيل يدل دلالة ظاهرة عليها لكثرة المنازعة بين المسلمين واليهود والنصارى فى ذلك (وموعظة للمتقين) لاشتماله على النصائح والزواجر وانما خص الموعظة بالمتقين لانهم الذين ينتفعون بها (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) من الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومن الاحكام التى لم تنسخ بالقرآن فان الحكم بالاحكام المنسوخة ليس حكما بما أنزل الله فيه بل هو تعطيل له اذ هو شاهد بنسخها لان شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة شهادة بنسخها وقرأ حمزة وليحكم بكسر اللام ونصب الفعل بأن مضمرة بعد لام كى وهو متعلق بمقدر أى وآتيناه الانجيل ليحكم وابه وقرأ الباقون وليحكم بسكون اللام وجزم الفعل بلام الامر (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) أى الخارجون عن الايمان ان كان مستهينا به وعن طاعة الله ان كان لاتباع الشهوات (وأنزلنا اليك الكتاب) أى القرآن (بالحق) أى ملتبسا بالصدق والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالا من الكتاب أو من فاعل أنزلنا ومن الكاف فى اليك (مصدقا لما بين يديه) أى لما تقدمه (من الكتاب) أى من كل كتاب نزل من السماء سوى القرآن (ومهيمنا عليه) أى شاهدا على الكتب كلها لان القرآن هو الذى لا ينسخ ولا يتطرق اليه التبديل والتحريف واذا كان كذلك كانت شهادة القرآن على سائر الكتب صدق باقية وقرأ ابن محيصن ومجاهد مهيمنا بفتح الميم الثانية فان القرآن يصان عن التحريف والتبديل والحافظ هو الله تعالى (فاحكم بينهم) أى بين جميع أهل الكتاب اذا ترافعوا اليك (بما أنزل الله) فان ما أنزل الله اليك وهو القرآن مشتمل على جميع الاحكام الشرعية (ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) وعن متعلقة بلا تتبع على تضمين معنى تتزح ونحوه أى لا تنحرف عما جاءك من الحق متبعا أهواءهم (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) أى لكل واحد من الامم الثلاثة أمة موسى وأمة عيسى وأمة محمد جعلنا منكم أيها الامم شريعة وهى العبادة التى أمر الله بها عباده ومنهاجا أى طريقا واضحا يؤدى الى الشريعة فالتوراة شريعة للامة التى كانت من مبعث موسى الى مبعث عيسى والانجيل شريعة من مبعث عيسى الى مبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن شريعة للموجودين من سائر المخلوقات فى زمنه صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة ليس الا والدين واحد وهو التوحيد (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) أى جماعة متفقة على شريعة واحدة فى جميع الاعصار من غير اختلاف ولا نسخ ولا تحويل أو المعنى لجعلكم ذوى أمة واحدة أى دين واحد (ولكن ليبلوكم فيما آتاكم) أى ولكن لم يشأ الله أن يجعلكم أمة واحدة بل شاء أن يختبركم فيما أعطاكم من الشرائع المختلفة المناسبة للازمنة والجماعة هل تعملون بها منقادين لله معتقدين أن اختلافها مبنى على الحكم اللطيفة والمصالح النافعة لكم أم تتبعون الهوى وتقصرون فى العمل (فاستبقوا الخيرات) أى اذا كان الامر كما ذكر فسارعوا يا أمة محمد الى ما هو خير لكم فى الدارين وابتدروه انتهازا للفرصة وحيازة لفضل السبق (الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) فى الدنيا من أمر

الدين أى فيخبركم بما لا تشكون فيه من الجزاء الفاصل بين المحق والمبطل والموفى والمقصر فى العمل فان الامر سوف يرجع الى ما يحصل معه اليقين وذلك عند مجازاة المحسن باحسانه والمسيء باساءته (وأن احكم بينهم) أى بين أهل الكتاب اذا تحاكموا اليك (بما أنزل الله) وهذه الجملة معطوفة على الكتاب أى أنزلنا اليك الكتاب والحكم بينهم وذكر انزال الحكم لتأكيد وجوب امتثال الامر أو على قوله بالحق أى أنزلنا اليك الكتاب بالحق وبالحكم وذكر انزال الامر بالحكم بعد الامر الصريح به تأكيد للامر وتفريش لما بعده ولان الآيتين حكمان أمر الله بهما جميعا لانهم احتكموا اليه صلى الله عليه وسلم فى زنا المحصن ثم احتكموا فى قتيل كان فيهم (ولا تتبع أهواءهم) فى عدم قتل الشريف بالوضيع وعدم قتل الرجل بالمرأة (واحذرهم أن يفتنوك) أى يميلوك (عن بعض ما أنزل الله اليك) ويردوك الى أهوائهم وكان بنو النضير اذا قتلوا من قريظة أدوا اليهم نصف الدية واذا قتل بنو قريظة من بنى النضير أدوا اليهم الدية كاملة ويقتلون النفسين بالنفس ويفقؤن العينين بالعين فغير واحكم الله الذى أنزله فى التوراة فما لهم يخالفون قال ابن عباس ان كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس قال بعضهم لبعض اذهبوا بنا الى محمد لعلنا نفتنه أى نصرفه عن دينه فأتوه صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم قد عرفت انا أحبار اليهود وانا ان اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم وان بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم اليك فاقض لنا عليهم نؤمن بك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية فقوله تعالى أن يفتنوك بدل اشتمال من المفعول أى واحذرهم فتنتهم أو مضاف اليه لمفعول من أجله أى احذرهم مخافة أن يفتنوك أى يصرفوك عن الحق ويلقوك فى الباطل (فان تولوا) أى أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى وأرادوا غيره (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أى أن يبتليهم بجزاء بعض ذنوبهم فى الدنيا وهو أن يسلطك عليهم ويعذبهم فى الدنيا بالقتل والجلاء والسبى فالقوم جوزوا فى الدنيا ببعض ذنوبهم وذلك كاف فى اهلاكهم (وان كثيرا من الناس) أهل الكتاب وغيرهم (لفاسقون) أى خارجون عن دائرة الطاعات ومعادن السعادات (أفحكم الجاهلية يبغون) قرأ ابن عامر تبغون بالتاء على الخطاب وقرأ السلمى برفع حكم على انه مبتدأ وقرأ قتادة أبحكم بالباء الجارة بدل الفاء وقرىء فحكم بفتح الفاء والكاف أى أفيطلبون حاكما كحكام الجاهلية وهى اما الملة الجاهلية التى هى متابعة الهوى الموجبة للمداهنة فى الاحكام واما أهل الجاهلية قال مقاتل كانت بين قريظة والنضير دماء قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فلما بعث وهاجر الى المدينة تحاكموا اليه فقالت بنو قريظة بنو النضير اخواننا أبونا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد فان قتل بنو النضير منا قتيلا اعطونا سبعين وسقا من تمر وان قتلنا منهم واحدا أخذوا منا مائة وأربعين وسقا من تمر وأروش جراحاتنا على النصف من أروش جراحاتهم فاقض بيننا وبينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا أحكم أن دم القرظى كدم النضيرى ليس لاحدهما فضل على الآخر فى دم ولا عقل ولا جراحة فغضب بنو النضير وقالوا لا نرضى بحكمك فانك عدو لنا فأنزل الله تعالى هذه الآية (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) فانهم هم الذين يعرفون انه لا أحد أعدل من الله حكما ولا أحسن منه بيانا (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) أى لا تعتمدوا على الاستنصار بهم ولا تعاشروهم معاشرة الاحباب روى ان عبادة بن الصامت جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبرأ عنده من موالاة اليهود فقال عبد الله بن أبى رئيس المنافقين لكنى لا أتبرأ منهم لانى أخاف الدوائر فنزلت هذه الآية وقال السدى لما كانت واقعة أحد اشتد الامر على طائفة

من الناس وتخوفوا ان تدال عليهم الكفار فقال رجل من المسلمين أنا ألحق بفلان اليهودي وآخذ منه امانا
انى أخاف أن تدال علينا اليهود وقال رجل آخر أنا ألحق بفلان النصرانى من أهل الشام وآخذ منه أمانا
فأنزل الله هذه الآية وقال عكرمة نزلت فى أبى لبابة بن المنذر بعثه النبى صلى الله عليه وسلم الى بنى قريظة
حين حاصرهم فاستشاروه فى النزول وقالوا ماذا يصنع بنا اذا نزلنا فجعل أصبعه فى حلقه أى انه يقتلكم
(بعضهم أولياء بعض) أى بعض كل فريق من ذينك الفريقين أولياء بعض آخر من ذلك الفريق
لا من الفريق الآخر (ومن يتولهم منكم) يامعشر المؤمنين (فانه منهم) أى فهو من أهل دينهم فانه
لا يوالى أحدا أحد الا وهو عنه راض فاذا رضى عنه رضى دينه فصار من أهل دينه وهذا على سبيل
المبالغة فى الزجر عن اظهار صور الموالاة لهم وان لم تكن موالاة فى الحقيقة أولان الموالين كانوا منافقين
(ان الله لا يهدى القوم الظالمين) بموالاة الكفار روى عن أبى موسى الاشعرى انه قال قلت لعمر بن
الخطاب ان لى كاتبا نصرانيا فقال مالك قاتلك الله الا اتخذت حنيفا أما سمعت قول الله تعالى يا أيها
الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء قلت له دينه ولى كتابته فقال لا أكرمهم اذ اهانهم الله
ولا أعزهم اذ اذلهم الله ولا أدنيهم اذ ابعدهم الله قلت لا يتم أمر البصرة الا به فقال مات النصرانى والسلام
والمعنى اجعله فى ظنك انه قد مات فما تعمل بعد موته أى فاعمله الآن ميتا واستغن عنه بغيره (فترى الذين
فى قلوبهم مرض) بالنفاق ورخاوة العقل فى الدين كعبدالله بن أبى وأصحابه (يسارعون فيهم) أى
فى موادة يهود بنى قينقاع ونصارى نجران لانهم كانوا أهل ثروة يقرضونهم ويعينونهم على مهماتهم
(يقولون) معتذرين عنها الى المؤمنين (نخشى) أى نخاف خوفا شديدا (أن تصيبنا دائرة) من دوائر
الدهر كالهزيمة والحوادث المخوفة وتكون الدولة للكفار وتقال الدائرة فى المكروه كالجدب والقحط وتقال
الدولة فى المحبوب وقال الزجاج أى نخشى أن لا يتم الامر لمحمد فيدور الامر كما كان قبل ذلك (فعسى الله
أن يأتى بالفتح) لرسول الله على أعدائه وللمسلمين على أعدائهم وباظهار الدين (أو أمر من عنده) بقطع
أصل اليهود أو باخراجهم عن بلادهم وعسى بمنزلة الوعد وهو من الله تعالى واجب (فيصبحوا على
ما أسروا فى أنفسهم نادمين) أى فيصير هؤلاء المنافقون نادمين على ما حدثوا به أنفسهم من ان الدولة
أى الغلبة لاعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم كانوا يشكون فى أمر الرسول ويقولون لا نظن
انه يتم له أمره (ويقول الذين آمنوا) قرأه عاصم وحمزة والكسائى بالرفع مع اثبات الواو كما فى مصاحف
أهل العراق على الاستئناف وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالرفع مع حذف الواو كما فى مصاحف
أهل الحجاز والشام على أن الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا فى جواب سؤال نشأ من قوله تعالى فعسى
الله أن يأتى بالفتح كأن القائل يقول فماذا يقول المؤمنون حينئذ فقيل يقول الذين آمنوا الخ وقرأ
أبو عمرو بالنصب مع الواو عطفا على يصبحوا لا على يأتى لان ذلك القول انما يصدر عن المؤمنين عند ظهور
ندامة المنافقين لا عند اتيان الفتح فقط والمعنى يقول المؤمنون مخاطبين لليهود مشيرين الى المنافقين الذين
كانوا يوالونهم ويرجون دولتهم عند مشاهدتهم لانعكاس رجائهم تعريضا بالمخاطبين (أهؤلاء الذين
أقسموا بالله جهد أيمانهم) أى غاية ايمانهم (انهم لمعكم) بالمعونة فان المنافقين حلفوا لليهود
بالمعاضدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله وان قوتلتم لننصرنكم أو المعنى يقول المؤمنون بعضهم لبعض
مشيرين للمنافقين متعجبين من حالهم متبجحين بما من الله عليهم من اخلاص الايمان عند مشاهدتهم
لاظهارهم الميل الى موالاة اليهود والنصارى انهم كانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم انهم معنا فى ديننا فى

السر ومن أنصارنا فالآن كيف صاروا موالين لأعدائنا محبين للاختلاط بهم والاعتضاد بهم وهذا نسب لقراءة الرفع مع اثبات الواو على الاستئناف أما المعنى الاول فهو أنسب لقراءة النصب ولقراءة الرفع مع حذف الواو ولقراءة الرفع مع الواو بجعل عطف جملة على جملة والله أعلم (حبطت أعمالهم) أى بطل ما أظهروه من الايمان و بطل كل خير عملوه لاجل انهم الآن أظهروا موالاة اليهود والنصارى (فأصبحوا خاسرين) فى الدنيا والآخرة فاستحقوا اللعن فى الدنيا والعقاب فى الآخرة (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) قرأ ابن عامر ونافع يرتدد بدالين من غير ادغام وهذا من الكائنات التى أخبر عنها القرآن قبل وقوعها روى انه ارتد عن الاسلام احدى عشر فرقة ثلاثة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الاولى بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار ويلقب بالاسود كان له حمار يقول له قف فيقف وسر فيسير وكانت نساء أصحابه يتعطرون بروث حماره وكان كاهنا ادعى النبوة فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى معاذ بن جبل والى سادات اليمن وأمرهم بالنهوض الى حراب الاسود فقتله فيروز الديلمى على فراشه والثانية بنو حنيفة باليمامة ورئيسهم مسيلمة الكذاب ادعى النبوة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما توفى بعث أبو بكر خالد بن الوليد فى جيش كبير وقتل على يد وحشى الذى قتل حمزة رضى الله عنه والثالثة بنو أسد ورئيسهم طليحة بن خويلد ادعى النبوة فبعث أبو بكر خالدا فهزمهم وأفلت طليحة فهرب نحو الشام ثم أسلم أيام عمر وحسن اسلامه وسبع فى عهد أبى بكر الاولى فزارة قوم عيينة بن حصن والثانية غطفان قوم قرة بن سلمة القشيرى والثالثة بنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل والرابعة بنو يربوع قوم مالك بن نويرة والخامسة بعض تميم قوم سجاح بنت المنذر وهى ادعت النبوة وزوجت نفسها لمسيلمة الكذاب والسادسة كندة قوم الاشعث بن قيس والسابعة بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد فكفى الله أمرهم على يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه وفرقة واحدة فى عهد عمر وهى غسان قوم جبلة بن الايهم وذلك ان جبلة أسلم على يد عمر وكان يطوف فوطئ رجل طرف ردائه فغضب فلطمه فاشتكى الرجل الى عمر فقضى له بالقصاص عليه الا ان يعفو عنه فقال أنا أشتريها بألف فأبى الرجل فلم يزل يزيد فى الفداء الى ان بلغ عشرة آلاف فأبى الرجل الا القصاص فاستنظر عمر فأنظره فهرب جبلة الى الروم وارتد والمراد بقوم يحبهم ويحبونه كما قال على بن أبى طالب والحسن وقتادة والضحاك وابن جريج هم أبو بكر وأصحابه لانهم الذين قاتلوا أهل الردة ومعنى يحبهم أى يلهمهم الطاعة ويثيبهم عليها ومعنى ويحبونه أى يطيعون لاوامره تعالى ونواهيه (أذلة على المؤمنين) أى عاطفين عليهم (أعزة على الكافرين) أى شداد عليهم كما قال صلى الله عليه وسلم ارحم أمتى بأمتى أبو بكر وكان أبو بكر فى أول الامر حين كان رسول الله فى مكة يذب عنه ويلازمه ويخدمه ولا يبالى بأحد من جبابرة الكفار وشياطينهم وفى وقت خلافته كان يبعث العسكر الى المرتدين والى مانعى الزكاة حتى انهزموا وجعل الله ذلك مبدأ لدولة الاسلام (يجاهدون فى سبيل الله) أى لنصرة دين الله (ولا يخافون لومة لائم) فالواو للحال أى بخلاف المنافقين فانهم كانوا يراقبون الكفار ويخافون لومهم فمن كان قويا فى الدين فلا يخاف فى نصرة دين الله بيده ولسانه لومة لائم وهذا الجهاد مشترك فيه بين أبى بكر وعلى الا ان حظ أبى بكر فى الجهاد أتم لان مجاهدة أبى بكر مع الكفار فى أول البعث وفى ذلك الوقت كان الاسلام فى غاية الضعف والكفر فى غاية القوة وكان يجاهد الكفار ويذب عن رسول الله بغاية وسعه وأما على فانه كان جهاده فى بدر وأحد وفى ذلك الوقت كان الاسلام قويا وكانت العساكر مجتمعة فثبت ان جهاد أبى

بكر كان أكمل من جهاد على لوجهين لتقدمه على جهاد على فى الزمان ولانه كان وقت ضعف الاسلام (ذلك) أى وصف القوم بالمحبة والشفقة والقوة والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة الواحدة (فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع) أى كامل القدرة فلا يعجز عن هذا الموعود (عليم) أى كامل العلم فيمتنع دخول الخلق فى أخباره ومواعيده (انما وليكم الله) أى انما ناصركم ومؤنسكم الله (ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) أى منقادون لجميع أوامر الله ونواهيه قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى عبادة بن الصامت حين تبرأ من موالاة اليهود وقال أنا برىء الى الله من حلف قريظة والنضير وأتولى الله ورسوله والمؤمنين وقال جابر بن عبد الله نزلت فى عبد الله بن سلام وذلك انه جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ان قومنا قريظة والنضير قد هجرونا وأقسموا ان لا يجالسونا ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل فنزلت هذه الآية فقرأها النبي عليه فقال رضينا بالله ورسوله وبالمؤمنين أولياء والمراد بالمؤمنين المذكورين عامة المؤمنين والمراد بذكر هذه الصفات تمييز المؤمنين عن المنافقين وقيل المراد أبو بكر وقيل على لما روى ان عبد الله بن سلام قال لما نزلت هذه الآية قلت يارسول الله أنا رأيت عليا تصدق بخاتمه على محتاج وهو راكع فنحن نتولاه (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) أى ومن يتخذهم أولياء فى النصرة فانهم جند الله وجند الله هم الغالبون على أعدائهم بالحجة فانها مستمرة أبدا أما بالصولة والدولة فقد يغلبون (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا) أى سخرية (ولعبا) أى ضحكة (من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أى اليهود والنصارى (والكفار) أى المشركين كعبدة الاوثان (أولياء) فى العون والمعنى ان القوم لما اتخذوا دينكم هزوا وسخرية فلا تتخذوهم أحبابا وأنصارا فان ذلك كالامر الخارج عن العقل والمروءة * روى ان رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرا الايمان ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية وقرأ أبو عمرو والكسائى والكفار بالجر ويعضده قراءة أبى ومن الكفار وقراءة عبد الله ومن الذين أشركوا فهم من جملة المستهزئين أيضا بخلاف قراءة الباقين بالنصب فلا يفيد انهم منهم وانما يستفاد ذلك من آية أخرى (واتقوا الله) فى موالاتهم (ان كنتم مؤمنين) أى حقا فان قضية الايمان توجب الاتقاء بلاشك (و) أولئك الذين اتخذوا دين المسلمين هزوا ولعبا هم الذين (اذا ناديتم الى الصلاة) بالاذان والاقامة (اتخذوها) أى الصلاة والمناداة (هزوا ولعبا) أى لما اعتدوا انه ليس فيها فائدة ومنفعة فى الدين والدنيا قالوا انها لعب روى الطبرانى ان نصرانيا بالمدينة كان اذا سمع المؤذن يقول أشهد ان محمدا رسول الله قال أحرق الله الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطاير شرره فى البيت فأحرقه وأهله وقيل كان المنافقون من اليهود يتضاحكون عند القيام الى الصلاة تنفيرا للناس عنها وقيل ان الكفار والمنافقين كانوا اذا سمعوا الاذان دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا يا محمد لقد ابتدعت شيأ لم يسمع بمثله فيما مضى فان كنت نبيا فقد خالفت الانبياء قبلك فمن أين لك صياح كصياح العير فما أقبح هذا الصوت وهذا الامر فأنزل الله ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله الآية وأنزل واذا ناديتم الى الصلاة الآية وقد دلت هذه الآية على ثبوت الاذان بنص الكتاب العزيز لا بمنام الصحابة وحده وجملة واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها من الشرط والجواب صلة ثانية للموصول المجرور عن البيانية وفى الحقيقة ان قوله اتخذوها معطوف على أوتوا وان قوله اذا ناديتم ظرف له كأنه قيل ومن الذين اتخذوها هزوا ولعبا وقت أذانكم والله أعلم (ذلك) أى الاستهزاء

المذكور (بأنهم قوم لا يعقلون) أى لو كان لهم عقل كامل لعلموا ان خدمة الخالق المنعم بغاية التعظيم لا تكون مهزوءبها فانه أحسن أعمال العباد وأشرف أفعالهم ولذلك قال بعض الحكماء أشرف الحركات الصلاة وأنفع السكنات الصيام (قل) يا أشرف الخلق لليهود (يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله) أى ما تكرهون من أحوالنا الا الايمان بالله (وما أنزل الينا) أى بالقرآن (وما أنزل من قبل) أى بما أنزل من قبل انزال القرآن من التوراة والانجيل وسائر الكتب الالهية (وأن أكثركم فاسقون) وقرأ الجمهور أن بفتح الهمزة أى وما تكرهون من أوصافنا الا ايماننا بما ذكر واعتقادنا بأن أكثركم خارجون عن الايمان بما ذكر فان الكفر بالقرآن مستلزم للكفر بما يصدقه بلا شك وقرأ نعيم ابن ميسرة ان بالكسر على الاستئناف (قل هل أنبئكم بشر من ذلك) أى بما قلتم لمحمد وأصحابه روى انه أتى نفر من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن دينه فقال صلى الله عليه وسلم نؤمن بالله وما أنزل الينا الى قوله ونحن له مسلمون فحين سمعوا منه صلى الله عليه وسلم ذكر عيسى عليه السلام قالوا لا نعلم شرا من دينكم فنزلت هذه الآية أى هل أخبركم بما هو شر مما تعتقدونه شرا (مثوبة) أى عقوبة (عند الله) فمثوبة تمييز لشر بمعنى عقوبة للتهكم (من لعنه الله) فمن موصولة بدل من شر أى من أبعده الله من رحمته (وغضب عليه) أى سخط عليهم بانهماكهم بعد سنوح البينات (وجعل منهم القردة) فى زمن داود عليه السلام وهم أصحاب السبت (والخنازير) فى زمن عيسى عليه السلام بعد أكلهم من المائدة فكفروا وروى أيضا ان المسخين كانا فى أصحاب السبت لان شبانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير (وعبد الطاغوت) أى من أطاع أحدا فى معصية الله كالكهنة وهو معطوف على صلة من كقراءة أبى وعبدوا الطاغوت كما أفصح على ذلك قراءة ابن مسعود ومن عبدوا الطاغوت وكقراءة الاعمش والنخعى وعبد مبنيا للمفعول وكذا على قراءة عبد بفتح العين وضم الباء على وزن كرم أى صار الطاغوت معبودا من دون الله تعالى ورفع الطاغوت على هاتين القراءتين فالراجع الى الموصول محذوف فيهما أى عبد الطاغوت فيهم أو بينهم وقرأ حمزة وعبد الطاغوت بفتح العين وضم الباء ونصب الدال وجر الطاغوت وهو مفرد يراد به الكثرة أى بالغ الغاية فى طاعة الشيطان وهو معطوف على القردة كقراءة عابد الطاغوت وعابدى وعبادة وعبيد وعبد بضمتين وعبدة بوزن كفرة وعبد بفتحتين جمع عابد كخدم جمع خادم وقرئ وعبد الطاغوت بجر عبد عطفا على من بناء على انه مجرور على انه بدل من شر والسبعية اثنتان أولاهما عبد الطاغوت على ان عبد فعل ماض مبنى للفاعل وفيه ضمير عائد على من وهذه قراءة غير حمزة وثانيهما قراءته وغيرهما قراآت شاذة (أولئك) الملعونون الممسوخون (شر مكانا) من المؤمنين لان مكانهم سقر ولا مكان أشد شرا منه أو المعنى أولئك الملعونون المغضوب عليهم المجعول منهم القردة والخنازير العابدون الطاغوت شر مكانا من غيرهم من الكفرة الذين لم يجمعوا بين هذه الخصال الذميمة (وأضل عن سواء السبيل) أى أكثر ضلالا عن الطريق المستقيم قال المفسرون لما نزلت هذه الآية عير المسلمون أهل الكتاب وقالوا يا اخوان القردة والخنازير فينكسون رؤسهم (واذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) نزلت هذه الآية فى ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظهرون له الايمان نفاقا فأخبره الله تعالى بشأنهم أنهم يخرجون من مجلسك ملتبسين بالكفر كما دخلوا لم يتعلق بقلبهم شئ مما سمعوا منك من نصائحك (والله أعلم بما كانوا يكتمون) من الكفر وغرضهم من هذا النفاق المبالغة فيما فى قلوبهم من الجد فى المكر

بالمسلمين

بالمسلمين والعداوة لهم (وترى كثيرا منهم) أى اليهود (يسارعون فى الاثم) أى الكذب وكلمة الشرك (والعدوان) أى الظلم على الناس (وأكلهم السحت) أى الحرام كالرشا (لبئس ما كانوا يعملون) أى لبئس شيأ كانوا يعملونه عملهم هذا (لولا) أى هلا (ينهاهم الربانيون) أى العباد (والاحبار) أى العلماء (عن قولهم الاثم وأكلهم السحت) مع علمهم بقبحهما ومشاهدتهم لمباشرتهم لهما (لبئس ما كانوا يصنعون) أى لبئس شيأ كانوا يصنعونه تركهم للنهى عن ذلك والصنع أقوى من العمل لان العمل انما يسمى صناعة اذا صار راسخا فجعل جرم العاملين ذنبا غير راسخ وذنب التاركين للنهى عن المنكر ذنبا راسخا ولذلك ذم بهذا خواصهم ولان ترك الانكار على المعصية أقبح من مواقعة المعصية لان النفس تلتذ بها لانها مرض الروح وهو صعب شديد لا يكاد يزول ولا كذلك ترك الانكار عليها فيدخل فى هذا الذم كل من كان قادرا على النهى عن المنكر من العلماء وغيرهم وتركه ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما هذه الآية أشد آية فى القرآن وقال الضحاك ما فى القرآن آية أخوف عندى منها والله أعلم (وقالت اليهود) قال ابن عباس وعكرمة والضحاك ان الله تعالى قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا فلما بعث الله محمدا وكذبوا به ضيق الله عليهم المعيشة فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء وأخرج الطبرانى عن ابن عباس أنه قال النباش بن قيس (يد الله مغلولة) أى مقبوضة عن العطاء على جهة الصفة بالبخل (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) وهذه الكلمات دعاء عليهم والمعنى أنه تعالى يعلمنا أن ندعو عليهم بهذا الدعاء كما علمنا الاستثناء فى قوله تعالى لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين وكما علمنا الدعاء على المنافقين فى قوله تعالى فزادهم الله مرضا وعلى أبى لهب فى قوله تعالى تبت يدا أبى لهب فحينئذ يكون المعنى دعاء عليهم بالبخل ومن ثم كانوا أبخل خلق الله تعالى وبغل الايدى حقيقة بأن يغلوا فى الدنيا أسارى وتشد أيديهم الى أعناقهم فى نار جهنم ويسحبوا الى النار بأغلالها وقوله ولعنوا بما قالوا أى عذبوا فى الدنيا بالجزية وفى الآخرة بالنار بسبب قولهم ذلك (بل يداه مبسوطتان) عطف على مقدر أى ليس الامر على ما وصفتموه تعالى به من البخل بل هو تعالى جواد كريم على سبيل الكمال فان من أعطى بيديه من الانسان فقد أعطى على أكمل الوجوه فتثنية اليد مبالغة فى الوصف بالجود وأيضا ان المراد بالتثنية المبالغة فى وصف النعمة فالمعنى ان نعمة الله متتابعة ليست كما ادعى من أنها مقبوضة ممتنعة وقيل التثنية للتنبيه على منحه تعالى لنعمتى الدنيا والآخرة وقيل على اعطائه اكراما وعلى اعطائه استدراجا فقيل نعمتاه تعالى نعمة الدين ونعمة الدنيا أو نعمة الباطن ونعمة الظاهر أو نعمة النفع ونعمة الدفع أو نعمة الشدة ونعمة الرخاء (ينفق كيف يشاء) أى يرزق خلقه كائنا على أى حال يشاء ان شاء قتر وان شاء وسع (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا) أى والله ليزيدن القرآن علماء اليهود غلوا فى الانكار وشدة فى الكفر اذ كلما نزلت آية كفروا بها كما ان الطعام الصالح للاصحاء يزيد المرضى مرضا (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) فكل فرقة من اليهود تخالف الاخرى فلا يكاد تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم فان اليهود فرق فان بعضهم جبرية وبعضهم قدرية وبعضهم مرجئة وبعضهم مشبهة وكذا النصارى فرق كالملكانية والنسطورية واليعقوبية والماردانية (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) أى كلما هموا بمحاربة أحد رجعوا خائبين مقهورين وقد أتاهم الاسلام وهم فى ملك المجوس فانهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله عليهم بخت نصر ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس الرومى ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ثم أفسدوا فسلط الله

عليهم المسلمين وكلما أرادوا محاربة النبي صلى الله عليه وسلم ورتبوا أسبابها وركبوا في ذلك متن كل صعب ردهم الله تعالى وقهرهم وذلك لعدم ائتلافهم (ويسعون في الارض فسادا) أي ويجتهدون في الكيد للاسلام وأهله وإثارة الفتنة بينهم وفي تعويق الناس عن محمد صلى الله عليه وسلم (والله لا يحب المفسدين) أي والله يعاقب المفسدين في الارض كاليهود وغيرهم (ولو أن أهل الكتاب) أي ان اليهود والنصارى (آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به (واتقوا) مخالفة كتابهم (لكفرنا عنهم سيآتهم ولادخلناهم جنات النعيم) فالكتابي لا يدخل الجنة ولا يرفع عنه العقاب مالم يسلم والاسلام يجب ماقبله (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) أي أقاموا أحكامهما وحدودهما (وما أنزل اليهم من ربهم) من الكتب ككتاب شعيا وكتاب حيقوق وكتاب دانيال وكتاب أرمياء وزبور داود لانهم مكلفون بالايمان بجميعها فكأنها أنزلت اليهم وأيضا في هذه الكتب ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فيكون المراد باقامة هذه الكتب الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بما أنزل اليهم من ربهم القرآن لانهم مأمورون بالايمان به فكأنه نزل اليهم من ربهم (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وهذه مبالغة في السعة والخصب لا ان هناك فوقا وتحتا والمعنى لأكلوا أكلا متصلا كثيرا وقيل من نزول القطر ومن حصول النبات وقيل من الاشجار المثمرة ومن الزروع المغلة وقيل المراد أن يرزقهم الله الجنان اليانعة الثمار فيجتنون ماتهدل من رؤس الشجر ويلتقطون ماتساقط على الارض من تحت أرجلهم هذا في القائلين يد الله مغلولة الذين ضيق عليهم عقوبة لهم (منهم) أي من أهل الكتاب (أمة مقتصدة) أي طائفة معتدلة وهم المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وبحيرا الراهب وأصحابه والنجاشي وأصحابه وسلمان الفارسي وأصحابه (وكثير منهم ساء مايعملون) من العناد وتحريف الحق والافراط في العداوة وكتمان صفة محمد ككعب بن الاشرف وكعب بن أسد ومالك بن الصيف وسعيد بن عمرو وأبي ياسر وجدي بن أخطب (ياأيها الرسول) أي يا محمد (بلغ ما أنزل اليك من ربك) من غير مبالاة باليهود والنصارى. ومن غير خوف من أن ينالك مكروه أبدا (وان لم تفعل) ما أمرت به من تبليغ جميع ما أنزل اليك من الاحكام وما يتعلق بها (فما بلغت رسالته) أي رسالة ربك وقرأ ابن عامر ونافع وشعبة رسالاته بجمع تأنيث سالم وقرئ فما بلغت رسالاتي وهذا تنبيه على غاية التهديد (والله يعصمك من الناس) أي الكفار أي يؤمنك من مكر اليهود والنصارى من قتلهم وعن أنس رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرسه سعد وحذيفة حتى نزلت هذه الآية فأخرج رأسه من قبة آدم وقال انصرفوا ياأيها الناس فقد عصمني الله من الناس (ان الله لا يهدي القوم الكافرين) أي انه تعالى لا يمكنهم مما يريدون بك من القتل روى أنه صلى الله عليه وسلم نزل تحت شجرة في بعض أسفاره وعلق سيفه عليها فأتاه أعرابي وهو نائم فأخذ سيفه واخترطه وقال يا محمد من يمنعك مني فقال الله فرعدت يد الاعرابي وسقط السيف من يده وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء) من الدين ولا في أيديكم من الصواب (حتى تقيموا التوراة والانجيل) أي تحافظوا على مافيهما من دلائل رسالة الرسول وشواهد نبوته فان اقامتهما انما تكون بذلك وأما مراعاة أحكامهما المنسوخة فليست من اقامتهما في شيء (وما أنزل اليكم من ربكم) أي حتى تراعوا على ما في القرآن بالايمان به فان اقامة الجميع لا تحصل بغير ذلك (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك) وهو القرآن (طغيانا) أي تماديا في الجحود (وكفرا) أي ثباتا على الكفر (فلا تأس على القوم الكافرين) أي لا تتأسف

عليهم بسبب زيادة طغيانهم وكفرهم ولا بسبب نزول اللعن والعذاب عليهم (ان الذين آمنوا) ايمانا حقا بموسى وبجملة الانبياء والكتب وماتوا على ذلك فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (والذين هادوا) أى دخلوا فى اليهودية (والصابئون) هم قوم من النصارى وهم ألين قولا من النصارى (والنصارى من آمن) من هؤلاء الثلاثة (بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) أى خالصا فيما بينه وبين ربه وتاب اليهودى من اليهودية والصابئ من الصابئة والنصارى من النصرانية (فلا خوف عليهم) اذا ذبح الموت (ولا هم يحزنون) اذا أطبقت النار فقوله والذين هادوا مبتدأ فالواو لعطف الجمل أو للاستئناف وقوله والصابئون عطف على هذا المبتدا كقوله والنصارى وقوله فلا خوف عليهم الخ خبر عن هذه المبتدآت الثلاثة وقوله من آمن بدل بعض من هذه الثلاثة فهو مخصص فالاخبار عن اليهود ومن بعدهم بما ذكر بشرط الايمان بما ذكر وقوله ان الذين خبران محذوف دل عليه المذكور من خبر هذه الثلاثة وقرئ والصابئين وقرئ يا أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون وهم من صبوا الى اتباع الهوى والشهوات فى دينهم (لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) أى بالله لقد أخذنا ميثاقهم بالتوحيد وسائر الاحكام المكتوبة عليهم فى التوراة (وأرسلنا اليهم رسلا) ذوى عدد كثير ليقرروهم على مراعاة حقوق الميثاق (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم) أى كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما لا تحبه أنفسهم المنهمكة فى الغى من الشرائع ومشاق التكليف عصوه وعادوه (فريقا كذبوا) أى فريقا من الرسل كذبوهم كعيسى وموسى ومحمد صلوات الله عليهم (وفريقا) منهم (يقتلون) كزكريا ويحيى عليهما السلام وقصدوا أيضا قتل عيسى وان كان الله منعهم عن مرادهم وهم يزعمون انهم قتلوه فذكر التكذيب بلفظ الماضى اشارة مع معاملتهم مع موسى عليه السلام فانهم كذبوه فى كل مقام وتمردوا على أوامره لانه قد انقضى من ذلك الزمان أدوار كثيرة وذكر القتل بلفظ المضارع اشارة الى معاملتهم مع زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام لكون ذلك الزمان قريبا فكان كالحاضر ومحافظة للفاصلة (وحسبوا أن لا تكون فتنة) أى ظن بنو اسرائيل أن لا توجد بلاء وعذاب بقتل الانبياء وتكذيبهم لانهم كانوا يعتقدون أن كل رسول جاءهم بشرع آخر غير شرعهم يجب عليهم تكذيبه وقتله لانهم اعتقدوا أن النسخ ممتنع على شرع موسى وكانوا يعتقدون أن نبوة اسلافهم تدفع عنهم العقاب الذى يستحقونه بسبب ذلك القتل والتكذيب (فعموا) عن الهدى (وصموا) عن الحق فخالفوا أحكام التوراة فقتلوا اشعياء أو حبسوا أرمياء عليهما السلام فسلط الله تعالى عليهم بخت نصر عامل لهراسب على بابل فاستولى على بيت المقدس فقتل من أهله أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية الى أرضه فبقوا هنالك دهرا طويلا على أقصى الذل الى أن أحدثوا توبة صحيحة (ثم تاب الله عليهم) حين تابوا فوجه الله تعالى ملكا عظيما من ملوك فارس الى بيت المقدس ليعمره ونجى بقايا بنى اسرائيل من أسر بخت نصر وردهم الى وطنهم وتراجع من تفرق منهم فى الاكناف فعمروه ثلاثين سنة فكثروا وكانوا كاحسن ما كانوا عليه وقيل لما ورث بهمن الملك من جده ألقى الله تعالى فى قلبه شفقة عليهم فردهم الى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من اتباع بخت نصر فقامت فيهم الانبياء فرجعوا الى أحسن ما كانوا عليه من الحال (ثم عموا وصموا كثير منهم) فعادوا الى الفساد واجترأوا على قتل زكريا ويحيى وقصدوا قتل عيسى فبعث الله تعالى عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه خيدرود ففعل بهم ما فعل قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم فقالوا دم

To: www.al-mostafa.com

قربان لم يقبل منا فقال ماصدقونى فقتل عليه ألوفا منهم ثم قال ان لم تصدقونى ماتركت منكم أحدا فقالوا
أنه دم يحيى عليه السلام فقال بمثل هذا ينتقم الله تعالى منكم ثم قال يا يحيى قد علم ربى وربك ما أصاب
قومك من أجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل أن لا أبقى أحدا منهم فهدأ (والله بصير بما يعملون) أى
وان دق فيجازيهم به وفق أعمالهم (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) قيل هم الملكانية
والمار يعقوبية منهم القائلون بالاتحاد وقيل هم اليعقوبية خاصة لانهم يقولون ان مريم ولدت الها ولعل
معنى هذا المذهب انهم يقولون ان الله تعالى حل فى ذات عيسى واتحد بذات عيسى (وقال المسيح) أى
والحال قد قال المسيح مخاطبا لهم (يابنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم) أى وحدوا الله فى العبادة
خالقى وخالقكم (انه) أى الشأن (من يشرك بالله) شيأ فى عبادته أو فيما يختص به من صفات
الالوهية (فقد حرم الله عليه الجنة) أى فقد منعه الله من دخولها (ومأواه النار) فانها هى المعدة
للمشركين (وما للظالمين من أنصار) أى وما لهم من أحد ينصرهم بانقاذهم من النار امابطريق المبالغة
أو بطريق الشفاعة فقوله تعالى انه من يشرك الى الآية وارد من جهته تعالى لتأكيد مقالة عيسى عليه
السلام ولتقرير مضمونها (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) وهم النسطورية والمرقوسية وفى
تفسير قولهم طريقان الاولى قال بعض المفسرين انهم أرادوا بذلك ان الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة فمعنى
ثالث ثلاثة أى أحد ثلاثة آلهة فكل واحد من هؤلاء اله لانهم يقولون ان الالهية مشتركة بين هؤلاء
الثلاثة قال الواحدى ولا يكفر من يقول ان الله ثالث ثلاثة اذا لم يرد به ثالث ثلاثة آلهة فانه ما من شيئين
الا والله ثالثهما بالعلم اه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لابى بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما والثانى
حكى المتكلمون عن النصارى أنهم يقولون أن الاله جوهر واحد مركب من ثلاثة أقانيم أب وابن وروح
قدس فهذه الثلاثة اله واحد كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة وعنوا بالأب
الذات وبالابن الكلمة وبالروح الحياة وقالوا ان الكلمة التى هى كلام الله اختلطت بجسد عيسى
اختلاط الماء باللبن واختلاط الماء بالخمر وزعموا أن الاب اله والابن اله والروح اله والكل اله واحد
(وما من اله الا اله واحد) أى وما فى الوجود من هذه الحقيقة الافرد واحد أو المعنى وما من اله لاهل
السموات والارض الا اله لا ولد له ولا شريك له فهو اله واحد بالذات منزه عن شائبة التعدد بوجه من الوجوه
(وان لم ينتهوا عما يقولون) أى من هاتين المقالتين وما قرب منهما (ليمسن الذين كفروا منهم) أى
ليصيبن الذين أقاموا على هذا الدين (عذاب أليم) أى شديد الالم (أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه)
أى الا ينتهون عن تلك العقائد الزائغة والاقاويل الباطلة فلا يتوبون الى الله عن تلك المقالة والعقيدة
ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول أو المعنى أيسمعون هذه الشهادات المكررة
والتشديدات المقررة فلا يتوبون عقب سماع تلك القوارع الهائلة (والله غفور) لمن تاب وآمن
(رحيم) لمن مات على التوبة (ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل) أى ما هو الا رسول
من جنس الرسل الذين مضوا من قبله جاء بآيات من الله كما أتوا بامثالها فليس باله كالرسل الخالية قبله
فانهم لم يكونوا آلهة فان كان الله أبرأ الاكمه والابرص وأحيا الموتى على يد عيسى عليه السلام فقد فلق
البحر وأحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى عليه السلام وهو أعجب منه وان كان الله خلقه من غير
أب فقد خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب منه (وأمه صديقة) أى وما أمه الا صديقة أى تلازم
الصدق وتصدق الانبياء وتبالغ فى بعدها عن المعاصى وفى اقامة مراسم العبودية كسائر النساء اللاتى

يلازمن الاتصاف بذلك فما رتبة عيسى الارتبة نبي ومارتبة أمه الارتبة صحابي فمن أين لكم أن تصفوهما بما لا يوصف به سائر الانبياء وخواص الناس فان أعظم صفات عيسى عليه السلام الرسالة وأكمل صفات أمه الصديقية وذلك لا يستلزم لهما الالوهية (كانا يأكلان الطعام) كسائر افراد البشر (انظر) يا أشرف الخلق (كيف نبين لهم الآيات) أى العلامات بأن عيسى ومريم لم يكونا بالهين و ببطلان ماتقولوا عليهما (ثم انظر أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن استماع الآيات وعن التأمل فيها فالله بين لهم الآيات بيانا عجبا واعراضهم عنها أعجب منها (قل أتعبدون من دون الله) أى غيره (مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا) وهو عيسى عليه السلام فان مذهب النصارى أن اليهود صلبوه ومزقوا أضلاعه ولما عطش وطلب الماء منهم صبوا الخل فى منخريه ومن كان فى الضعف هكذا كيف يعقل أن يكون الها ولو كان كذلك لامتنع كونه مشغولا بعبادة الله تعالى ومن كان كذلك كان محتاجا اليه فى تحصيل المنافع ودفع المضار ومن كان كذلك كيف يقدر على ايصال المنافع الى العباد ودفع المضار عنهم واذا كان كذلك كان عبدا كسائر العبيد (والله هو السميع العليم) والمراد من هذه الجملة التهديد أى سميع بكفرهم ولمقالتهم فى عيسى وامه عليم بضمائرهم و بعقو بتهم (قل يا أهل الكتاب) أى يامعشر اليهود والنصارى (لا تغلوا فى دينكم غير الحق) أى لا تجاوزوا الحد فى دينكم تجاوزا باطلا فان الغلو فى الدين نوعان غلو حق وهو ان يجتهد فى تحصيل حججه وتقريرها كما يفعله المتكلمون وغلو باطل وهو ان يتكلف فى تقرير الشبه و يتجاوز الحق و يعرض عن الادلة وذلك الغلو هو رفع النصارى لعيسى فقالوا انه اله وخفض اليهود له فقالوا انه ابن زنا وانه كذاب (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) أى لا تتبعوا مذاهب قوم قد ضلوا من قبلكم عن التوراة والانجيل (وأضلوا كثيرا) من الناس بتماديهم فى الباطل (وضلوا عن سواء السبيل) أى عن الدين الحق وعن القرآن بسبب اعتقادهم فى ذلك الاضلال انه ارشاد الى الحق (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل) أى لعن الله تعالى اليهود فى الزبور والنصارى فى الانجيل (على لسان داود وعيسى بن مريم) فاليهود لعنوا على لسان داود والنصارى لعنوا على لسان عيسى و الفريقان من بنى اسرائيل وهم أصحاب السبت وأصحاب المائدة أما أصحاب السبت فهم قوم داود وذلك ان أهل ايلة لما اعتدوا فى السبت بأخذ الحيتان دعا عليهم داود عليه السلام وقال اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخهم الله قردة وأما أصحاب المائدة فانهم لما أكلوا من المائدة وادخروا ولم يؤمنوا قال عيسى عليه السلام اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين والعنهم كما لعنت أصحاب السبت فمسخوا قردة وخنازير وكانوا خمسة آلاف ليس فيهم امرأة ولا صبى (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أى ذلك اللعن الفظيع بسبب عصيانهم ومبالغتهم فى العصيان (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) أى كانوا لا يمتنعون عن معاودة منكر فعلوه ولا يتركونه ولا يصدر من بعضهم نهى لبعض عن منكر أرادوا فعله روى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من رضى عمل قوم فهو منهم ومن كثر سواد قوم فهو منهم (لبئس ما كانوا يفعلون) أى أقسم لبئس ما كانوا يفعلونه فعلهم هذا وهو ترك الاصرار على منكر فعلوه وترك النهى عنه (ترى كثيرا منهم) أى تبصر كثيرا من أهل الكتاب ككعب بن الاشرف وأصحابه (يتولون الذين كفروا) أى يصادقون كفار أهل مكة أبا سفيان وأصحابه بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أى فان كعبا واضرابه خرجوا الى مشركى مكة ليتفقوا على محاربة النبي صلى الله عليه وسلم (لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم) أى لبئس شيأ

قدموا من موالاتهم لعبدة الاوثان لزاد معادهم موجب سخطه تعالى عليهم (وفى العذاب هم خالدون) أى وخلودهم أبد الآبدين فى عذاب جهنم وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها فهى من جملة المخصوص بالذم (ولو كانوا) أى أهل الكتاب الذين يوالون المشركين (يؤمنون بالله والنبى) أى نبيهم وهو موسى (وما أنزل اليه) من التوراة كما يدعون (ما اتخذوهم) أى ما اتخذ اليهود المشركين (أولياء) لان تحريم ذلك متأكد فى التوراة فى شرع موسى عليه السلام فلما فعلوا ذلك ظهر انه ليس مرادهم تقرير دين موسى بل مرادهم الرياسة فيسعون فى تحصيله بأى طريق قدروا عليه، فلهذا وصفهم الله تعالى بالفسق فقال (ولكن كثيرا منهم فاسقون) أى خارجون عن الدين والايمان بالله ونبيهم وكتابهم أما البعض منهم فقد آمن وفى هذه الآية وجه آخر ذكره القفال وهو أن يكون المعنى ولو كان هؤلاء المتولون من المشركين يؤمنون بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ما اتخذهم هؤلاء اليهود أولياء وهذا الوجه حسن ليس فى الكلام ما يدفعه (لتجدن) يا أكرم الخلق (أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) من أهل مكة لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم وانهماكهم فى اتباع الهوى وقربهم الى التقليد وبعدهم عن التحقيق وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما خلا يهودى بمسلم الا هما بقتله وقد قال بعضهم مذهب اليهود انه يجب عليهم ايصال الشر الى من خالفهم فى الدين بأى طريق كان فان قدروا على القتل فذاك والا فبغصب المال أو بالسرقة أو بنوع من الحيلة وأما النصارى فليس مذهبهم ذلك بل الايذاء حرام فى دينهم فهذا وجه التفاوت وذكر الله تعالى ان النصارى ألين عريكة من اليهود وأقرب الى المسلمين منهم (ولتجدن) يا أشرف الخلق (أقربهم) أى الناس (مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) انما أسند تسميتهم نصارى اليهم دون تسمية اليهود للاشعار بقرب مودتهم حيث يدعون انهم أنصار الله وأوداء أهل الحق وان لم يظهر واعتقاد حقية الاسلام فتسميتهم نصارى ليست حقيقة بخلاف تسمية اليهود يهودا فانها حقيقة سواء سموا بذلك لكونهم أولاد يهود بن يعقوب أو لكونهم تابوا عن عبادة العجل أو لتحركهم فى دراستهم (ذلك) أى كونهم أقرب مودة للمؤمنين (بأن منهم) أى بسبب انهم (قسيسين) أى علماء (ورهبانا) أى عبادا أصحاب الصوامع (وأنهم لا يستكبرون) عن قبول الحق اذا فهموه كما استكبر اليهود والمشركون من أهل مكة (و) انهم (اذا سمعوا) أى القسيسون والرهبان الذين آمنوا منهم (ما أنزل الى الرسول) محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن (ترى أعينهم تفيض من الدمع) أى تمتلئ من الدمع حتى تفيض أى تسيل (مما عرفوا من الحق) أى من نعت محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابهم أو مما عرفوا بعض الحق الذى هو القرآن روى ان قريشا تشاورت ان يفتنوا المؤمنين عن دينهم فوثب كل قبيلة على من آمن منهم فآذوهم وعذبوهم ومنع الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بعمه أبى طالب فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل باصحابه أمرهم بالخروج الى أرض الحبشة وقال ان بها ملكا صالحا لا يظلم ولا يظلم عنده أحد فاخرجوا اليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجا فخرج اليها سرا أحد عشر رجلا وأربع نسوة منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة ومصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الاسد وزوجته ام سلمة بنت أمية وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى وحاطب بن عمرو وسهيل بن بيضاء فخرجوا الى البحر وأخذوا سفينة بنصف دينار وذلك فى رجب فى السنة الخامسة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج بعدهم

جعفر

جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون فكان جميع من هاجر الى أرض الحبشة اثنين وثمانين رجلا سوى النساء والصبيان فلما كانت وقعة بدر وقتل الله فيها صناديد الكفار قال كفار قريش ان ثاركم بأرض الحبشة فاهدوا الى النجاشي واسمه أصحمة وابعثوا اليه رجلين من ذوي رأيكم لعله يعطيكم من عنده فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة بهدايا الى النجاشي وبطارقته ليردهم اليهم فدخلا اليه فقالا له أيها الملك انه قد خرج فينا رجل زعم انه نبي وهو قد بعث اليك برهط من أصحابه ليفسدوا عليك قومك فأحببنا ان نخبرك خبرهم وان قومنا يسألونك ان تردهم اليهم فقال حتى نسألهم فأمر بهم فأحضروا فلما أتوا باب النجاشي قالوا يستأذن أولياء الله فقال ائذنوا لهم فرحبا بأولياء الله فلما دخلوا عليه سلموا فقال الرهط من المشركين أيها الملك ألا ترى انهم لم يحيوك بتحيتك التي تحيا بها فقال لهم الملك ما منعكم ان تحيوني بتحيتي قالوا انا حييناك بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة فقال لهم النجاشي ما يقول صاحبكم في عيسى وامه فقال جعفر بن أبي طالب يقول هو عبد الله ورسوله وكلمة الله وروح منه ألقاها الى مريم العذراء ويقول في مريم انها العذراء البتول فأخذ النجاشي عودا من الارض وقال والله ما زاد صاحبكم على ما قال عيسى قدر هذا العود فكره المشركون قوله وتغيرت وجوههم فقال هل تعرفون شيأ مما أنزل على صاحبكم قالوا نعم قال اقرأوا فقرأ جعفر سورة مريم وهناك قسيسون ورهابين وسائر النصارى فعرفوا ما قرأ فانحدرت دموعهم وما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر الطيار من القراءة فقال النجاشي لجعفر وأصحابه اذهبوا فأنتم بأرضي آمنون فرجع عمرو ومن معه خائبين وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار وخير جوار الى ان علا أمر رسول الله وقهر أعداءه في سنة ست من الهجرة وكتب رسول الله الى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري ليزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت قد هاجرت اليه مع زوجها ومات عنها فأرسل النجاشي اليها جارية اسمها ابرهة تخبرها بخطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسرت أم حبيبة بذلك وأذنت لخالد بن سعيد ان يزوجها فانفذ النجاشي اليها أربعمائة دينار صداقها على يد ابرهة وقالت ابرهة قد صدقت بمحمد وآمنت به وحاجتي اليك أن تقرئيه مني السلام قالت نعم وقالت فخرجنا الى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلت عليه فقرأت عليه السلام من ابرهة جارية الملك فرد الرسول عليها السلام ووافى جعفر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر ومع جعفر سبعون رجلا عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستون رجلا من الحبشة وثمانية نفر من رهبان الشام بحيرا الراهب وأصحابه ابرهة وأشرف وادريس وتميم وتمام ودريد وايمن وكلهم من أصحاب النجاشي فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة يس الى آخرها فبكوا وآمنوا وأسلموا وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام (يقولون ربنا آمنا) بما سمعنا مما أنزل على رسولك وشهدنا انه حق (فاكتبنا مع الشاهدين) أي فاجعلنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا فلما لامهم قومهم بالاسلام فقالوا تحقيقا لايمانهم (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وجملة قوله تعالى لا نؤمن حال من الضمير في لنا وجملة لا نطمع حال ثانية منه بتقدير مبتدأ أي أي شيء حصل لنا غير مؤمنين بالله وبما جاءنا من القرآن والرسول ونحن نطمع في صحبة الصالحين ويجوز ان يكون قوله ونطمع حالا من الضمير في لا نؤمن على معنى انهم أنكروا على أنفسهم عدم ايمانهم مع انهم يطمعون في صحبة المؤمنين (فأثابهم الله بما قالوا) أي جعل الله ثوابهم على قولهم ربنا آمنا مع اخلاص النية ومعرفة الحق أو بسبب ما سألوا

بقولهم فاكتبنا مع الشاهدين كما رواه عطاء عن ابن عباس وقرئ فآتاهم الله (جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك) أى الجنات (جزاء المحسنين) بالايمان أو المعنى جزاء الذين اعتادوا الاحسان فى الامور روى ان هذه الآيات الاربع نزلت فى النجاشى وأصحابه (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) أى ملازمون لها لا ينفكون عنها دون غيرهم من عصاة المؤمنين وان كثرت كبائرهم (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) أى لا تعتقدوا تحريم ما أحل الله لكم ولا تظهروا باللسان تحريمه ولا تجتنبوا عنها الطيبات اجتنابا شبيه الاجتناب من المحرمات ولا تلتزموا تحريم الطيبات بنذر أو يمين (ولا تعتدوا) أى لا تسرفوا فى تناول الطيبات ولا تتجاوزوا أمر الله بقطع المذاكير (ان الله لا يحب المعتدين) من الحلال الى الحرام كالمثلة فمن اعتقد تحريم شئ أحله الله فقد كفرا ما ترك لذات الدنيا والتفرغ بعبادة الله تعالى من غير اضرار بالنفس ولا تفويت حق الغير فضيلة مأمور بها نزلت هذه الآية فى عشرة نفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وهم أبو بكر الصديق وعمر وعلى وعبد الله بن مسعود وعثمان بن مظعون الجمحى ومقداد بن الاسود الكندى وسالم مولى أبى حذيفة وسلمان الفارسى وأبو ذر الغفارى وعمار بن ياسر وذلك لما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة لاصحابه يوما فبالغ الكلام فى الانذار فبكوا واجتمع هؤلاء العشرة فى بيت عثمان بن مظعون وتشاوروا واتفقوا على عزمهم ان يرفضوا الدنيا ويحرموا على أنفسهم المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة وأن يصوموا النهار ويقوموا الليل وأن لا يناموا على الفرش ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ويسيحوا فى الارض فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم انى لم أومر بذلك ثم قال صلى الله عليه وسلم ان لانفسكم عليكم حقا فصوموا وافطروا وقوموا وناموا فانى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى * وروى ان عثمان بن مظعون أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ائذن لى فى الاختصاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس منا من خصى ولا من اختصى ان خصاء أمتى الصيام فقال يارسول الله ائذن لى بالسياحة فقال ان سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله قال يارسول الله ائذن لى فى الترهب قال ان ترهب أمتى الجلوس فى المساجد لانتظار الصلاة (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) أى كلوا بعض رزقكم من الله الذى يكون حلالا مستلذا واصرفوا البقية الى الصدقات والخيرات (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) فى تحريم ما أحل الله لكم وفى المثلة (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) قد تقدم ان قوما من الصحابة حرموا على أنفسهم المطاعم والملابس واختاروا الرهبانية وحلفوا على ذلك على ظن انه قربة فلما نهاهم الله تعالى عنها قالوا يارسول الله فكيف نصنع بأيماننا فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان) أى بتعقيدكم الايمان بالقصد اذا حنثتم قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم عقدتم بتشديد القاف وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم عقدتم بتخفيف القاف وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر عاقدتم بالالف والتخفيف (فكفارته) أى فكفارة نكث الايمان التى ليست بلغو (اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم) فى قدر الطعام وهو ثلثا من لكل مسكين فان الانسان قد يكون قليل الاكل جدا يكفيه الرغيف الواحد وقد يكون كثير الاكل فلا يكفيه المنوان والمتوسط الغالب يكفيه من الخبز ما يقرب من المنى فثلثا منى من الحنطة اذا جعل دقيقا أو خبزا فانه يصير قريبا من المنى وذلك كاف فى قوت اليوم الواحد (أو كسوتهم) بأقل ما يطلق عليه اسم الكسوة كازار أو رداء أو قميص أو سراويل أو عمامة لكل

مسكين

مسكين ثوب واحد (أو تحرير رقبة) وتقديم الاطعام على العتق لان المقصود تنبيه على ان هذه الكفارة وجبت على التخيير بين هذه الثلاثة ولان الاطعام أسهل لكون الطعام أعم وجودا ولان الاطعام أفضل لان الحر الفقير قد لا يجد الطعام أما العبد فانه يجب على مولاه اطعامه وكسوته (فمن لم يجد) واحدا من هذه الثلاثة (فصيام ثلاثة أيام) ولو متفرقة لما روى ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم على أيام من رمضان أفأقضيها متفرقات فقال صلى الله عليه وسلم أرأيت لو كان عليك دين فقضيت الدرهم فالدرهم أما كان يجزيك قال بلى قال فالله أحق ان يعفو ويصفح والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (ذلك) المذكور (كفارة أيمانكم اذا حلفتم) وحنثتم (واحفظوا أيمانكم) أى قللوا الايمان وضنوا بها (كذلك) أى مثل ذلك التبيين لحكم الايمان (يبين الله لكم آياته) أى اعلام شريعته (لعلكم تشكرون) نعمته فيما يعلمكم (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر) أى المسكر (والميسر) أى القمار (والانصاب) أى الاصنام التى نصبها المشركون ويعبدونها (والازلام) سهام مكتوب عليها خير وشر (رجس) أى قذر تعاف عنه العقول (من عمل الشيطان) أى من الامور التى يزينها للنفس (فاجتنبوه) أى الرجس (لعلكم تفلحون) أى لكى تنجوا من العذاب (انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر) اذ اصرتم نشاوى كما فعل الانصارى الذى شج رأس سعد بن أبى وقاص بلحى الجمل (والميسر) اذا ذهب مالكم (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) لان شرب الخمر يورث اللذة الجسمانية والنفس اذا استغرقت فيها غفلت عن ذكر الله وعن الصلاة ولان الشخص اذا كان غالبا فى القمار صار استغراقه فى لذة الغلبة مانعا من ان يخطر بباله شئ سواه (فهل أنتم منتهون) أى قد بينت لكم مفاسد الخمر والميسر فهل تنتهون عنهما أم أنتم مقيمون عليهما كأنكم لم توعظوا بهذه المواعظ (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فى أمرهما بالاجتناب عن الخمر والميسر (واحذروا) عن مخالفتهما فى التكاليف (فان توليتم) أى أعرضتم عن طاعتهما وعن الاحتراز عن مخالفتهما (فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) أى فالحجة قامت عليكم والعلل انقطعت لان الرسول قد خرج عن عهدة التبليغ كمال الخروج وما بقى بعد ذلك الا العقاب وهذا تهديد شديد (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح) أى اثم (فيما طعموا) من الخمر ومن مال اللعب بالملاهى (اذا ما اتقوا) أن يكون فى ذلك شئ من المحرمات أى اذا عملوا الاتقاء (وآمنوا وعملوا الصالحات) أى واستمروا على الايمان والاعمال الصالحة (ثم اتقوا) ما حرم عليهم بعد ذلك (وآمنوا) بتحريمه (ثم اتقوا) أى استمروا على اتقاء المعاصى (وأحسنوا) أى اتجروا الاعمال الجميلة واشتغلوا بها (والله يحب المحسنين) روى انه لما نزلت آية تحريم الخمر قالت الصحابة ان اخواننا كانوا قد شربوا الخمر يوم أحد ثم قتلوا فكيف حالهم فنزلت هذه الآية وروى أبو بكر الاصم انه لما نزل تحريم الخمر قال أبو بكر يارسول الله كيف باخواننا الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وفعلوا القمار وكيف بالغائبين عنا فى البلدان لا يشعرون ان الله حرم الخمر وهم يطعمونها فأنزل الله هذه الآيات (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله) أى ليختبرن الله طاعتكم من معصيتكم (بشئ من الصيد) أى من صيد البر (تناله أيديكم ورماحكم) قال مقاتل بن حيان ابتلاهم الله بصيد البر وهم محرمون عام الحديبية حتى كانت الوحش والطير تغشاهم فى رحالهم فيقدرون على أخذ الطير بالايدى والوحش بالرماح وما رأوا مثل ذلك قط فنهاهم الله عنها ابتلاء (ليعلم الله من يخافه بالغيب) أى ليعاملكم معاملة من يطلب أن يعلم من يخافه حال كون الله تعالى غير مرئى له غائبا عن رؤيته أو يخافه باخلاص

القلب فيترك الصيد (فمن اعتدى) بالتعرض للصيد (بعد ذلك) أى بعد بيان ان ما وقع من الصيد ابتلاء من عند الله تعالى لتمييز المطيع من العاصي (فله عذاب أليم) وهو العذاب فى الآخرة والتعزير فى الدنيا قال ابن عباس هذا العذاب هو ان يضرب بطنه وظهره ضربا وجيعا وينزع ثيابه ولما قتل أبو اليسر ابن عمرو صيدا متعمدا بقتله ناسيا الاحرامه أنزل الله تعالى قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) أى محرمون أو داخلون فى الحرم (ومن قتله) أى الصيد (منكم متعمدا) أى بقتله مع نسيان الاحرام كما قاله مجاهد والحسن (فجزاء مثل ما قتل من النعم) أى شبهه فى الخلقة والتقييد بالتعمد لان الآية نزلت فى المتعمد حيث قتل أبو اليسر حمار وحش وهو محرم عمدا ولان الاصل فعل المتعمد والخطأ ملحق بالعمد فيستوى فى محظورات الاحرام العمد والخطأ فى جزاء الاتلافات (يحكم به) أى بمثل ما قتل (ذوا عدل منكم) أى رجلان صالحان من أهل دينكم فقيهان عدلان فينظران الى أشبه الاشياء بالمقتول من النعم فيحكمان به قال ميمون بن مهران جاء أعرابى الى أبى بكر رضى الله عنه فقال انى أصبت من الصيد كذا وكذا فسأل أبو بكر رضى الله عنه أبى بن كعب فقال الاعرابى أتيتك أسألك وأنت تسأل غيرك فقال أبو بكر رضى الله عنه وما أنكرت من ذلك قال الله تعالى يحكم به ذوا عدل منكم فشاورت صاحبى فاذا اتفقنا على شئ أمرناك به وعن قبيصة بن جابر انه حين كان محرما ضرب ظبيا فمات فسأل عمر بن الخطاب وكان بجنبه عبد الرحمن بن عوف فقال عمر لعبد الرحمن ماترى قال عليه شاة قال وأنا أرى ذلك فقال اذهب فاهد شاة قال قبيصة فخرجت الى صاحبى وقلت له ان أمير المؤمنين لم يدر ما يقول حتى سأل غيره قال ففاجأنى عمر وعلانى بالدرة وقال أتقتل فى الحرم وتسفه الحكم قال الله تعالى يحكم به ذوا عدل منكم فأنا عمر وهذا عبد الرحمن بن عوف وقد حكم ابن عباس وعمر وغيرهما بشاة فى الحمام وهو كل ما عب وهدر من الطير كالقمرى والدبسى (هديا بالغ الكعبة) فهديا منصوب على التمييز والمعنى يحكمان بالمثل هديا يساق الى الكعبة أى الى أرض الحرم فينحر هناك (أو كفارة طعام مساكين) فقوله كفارة عطف على قوله فجزاء أى فعليه جزاء أو كفارة الخ أو عطف على محل قوله من النعم وقوله طعام مساكين عطف بيان لان الطعام هو الكفارة (أو عدل ذلك) أى أو مثل ذلك الطعام (صياما) فقوله أو عدل عطف على طعام الخ كأنه قيل فعليه جزاء مماثل للمقتول هو من النعم أو طعام مساكين أو صيام أيام بعددهم فحينئذ تكون المماثلة وصفا لازما للجزاء يقدر به الهدى والطعام والصيام أما الاولان فبلا واسطة وأما الثالث فبواسطة الثالث فيختار الجانى كلا من هذه الثلاثة (ليذوق وبال أمره) أى جزاء ذنبه والوبال فى اللغة الثقل وانما سمى الله ذلك وبالا لان أحد هذه الثلاثة ثقيل على الطبع لان فى الجزاء بالمثل والاطعام تنقيص المال وفى الصوم انهاك البدن والمعنى انه تعالى أوجب على قاتل الصيد أحد هذه الاشياء التى كل واحد منها ثقيل على الطبع حتى يحترز عن قتل الصيد فى الحرم وفى حال الاحرام (عفا الله عما سلف) أى لم يؤاخذ الله بقتل الصيد قبل هذا النهى والتحريم لان قتله اذ ذاك مباح (ومن عاد) الى قتل الصيد بعد النهى عنه (فينتقم الله منه) أى فهو ينتقم الله منه فى الآخرة مع لزوم الكفارة (والله عزيز) أى غالب لا يغالب (ذو انتقام) أى ذو عقوبة شديدة (أحل لكم صيد البحر وطعامه) أى أحل لكم أيها الناس صيد جميع المياه العذبة والملحة بحرا كان أو نهرا أو غديرا أى اصطياد صيد الماء والانتفاع به بأكله ولاجل عظامه واسنانه وأحل لكم طعام البحر أى أكله فالصيد كما قاله أبو بكر الصديق رضى الله عنه ما صيد بالحيلة حال حياته والطعام ما يوجد

عما لفظه البحر أو نضب عنه الماء من غير معالجة فى أخذه قال الشافعى رحمه الله السمكة الطافية فى البحر محللة والسمك عنده مالا يعيش الا فى الماء ولو كان على صورة غير المأكول من حيوان البر كالآدمى والكلب والخنزير فهذا كله حلال عنده بخلاف مايعيش فى الماء والبر كالسرطان والضفدع والتمساح والسلحفاة وطير الماء وحجة الشافعى القرآن والخبر أما القرآن فهو قوله تعالى أحل لكم صيد البحر وطعامه فما يمكن أكله يكون طعاما فيحل وأما الخبر فقوله صلى الله عليه وسلم فى حق البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته نزلت هذه الآية فى قوم من بنى مدلج كانوا أهل صيد البحر سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن طعام البحر وعما حسر البحر عنه ومعنى قوله وطعامه أى ما حسر عنه البحر وألقاه (متاعا لكم وللسيارة) أى احل لكم ذلك لاجل انتفاعكم وللمسافرين منكم يتزودونه قديدا فالطرى للمقيم والمالح للمسافر (وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما) أى محرمين أو فى الحرم فمذهب أبى حنيفة يحل للمحرم أكل ماصاده الحلال وان صاده لاجله اذا لم يشر اليه ولم يدل عليه وكذا ماذبحه قبل احرامه لان الخطاب للمحرمين فكأنه قيل وحرم عليكم ماصدتم فى البر فيخرج منه مصيد غيرهم وعند مالك والشافعى وأحمد لا يباح ماصيد له فان لحم الصيد عندهم مباح للمحرم بشرط ان لا يصطاده المحرم ولا يصطاد له والحجة فيه ماروى أبو داود فى سننه عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول صيد البر لكم حلال مالم تصيدوه أو يصطاد لكم (واتقوا الله الذى اليه تحشرون) لا الى غيرهم حتى يتوهم الخلاص من أخذه تعالى بالالتجاء الى غيره فاخشوه تعالى فى جميع المعاصى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) أى صير الله الكعبة سببا لحصول الخيرات فى الدنيا والآخرة وخلق الدواعى فى قلوب الناس لتعظيمها حتى صار أهل الدنيا يأتون اليها من كل فج عميق لاجل التجارة فصار ذلك سببا لاسباغ النعم على أهل مكة وكان العرب يتقاتلون و يغيرون الا فى الحرم فكان أهل الحرم آمنين على أنفسهم وعلى أموالهم وجعل الله فى الكعبة الطاعات الشريفة والمناسك العظيمة وهى سبب لحط الخطيآت و رفع الدرجات وكثرة الكرامات وصار أهل مكة بسبب الكعبة أهل الله وخاصته وسادة الخلق الى يوم القيامة وكل أحد يعظمهم (والشهر الحرام) أى وجعل الله الشهر الحرام سببا لقوام معيشتهم فان العرب كان يقتل بعضهم بعضا فى سائر الاشهر ويغير بعضهم على بعض فاذا دخل الشهر الحرام الذى هو ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب زال الخوف وقدروا على الاسفار والتجارات وصاروا آمنين على أنفسهم وأموالهم (والهدى) أى وجعل الهدى سببا لقيام الناس وهو مايهدى الى البيت ويذبح هناك و يفرق لحمه على الفقراء فيكون ذلك نسكا للمهدى وقواما لمعيشة الفقراء (والقلائد) أى وجعل الله الاشخاص الذين يتقلدون بلحاء شجر الحرم سببا لامنهم من العدو فانهم كانوا اذا رأوا شخصا جعل فى عنقه تلك القلادة عرفوا انه راجع من الحرم فلا يتعرضون له (ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض) أى ذلك التدبير اللطيف من الجعل المذكور لاجل ان تتفكروا فيه انه تدبير لطيف فتعلموا ان الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض فان جعل ذلك لاجل جلب المصالح لكم ودفع المضار عنكم قبل الوقوع دليل على علمه بما هو فى الوجود وما هو كائن ثم اذا عرفتم ذلك عرفتم ان علمه تعالى صفة قديمة واجبة الوجود فوجب كونه متعلقا بجميع المعلومات فلذلك قال تعالى (وأن الله بكل شئ عليم) فلا يخرج شئ عن علمه المحيط (اعلموا أن الله شديد العقاب) لما ذكر الله تعالى أنواع الرحمة ذكر بعده شدة عذابه تعالى لان الايمان لا يتم الا بالرجاء والخوف كما قال صلى الله عليه وسلم لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا ثم ذكر عقبه مايدل

على الرحمة لالة على انها أغلب فقال (وأن الله غفور رحيم) وهذا تنبيه على دقيقة وهي ان ابتداء الايجاد كان لاجل الرحمة والظاهر ان الختم لا يكون الا على الرحمة (ما على الرسول الا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) أي ان الرسول كان مكلفا بالتبليغ فلما بلغ خرج عن عهدة التكليف وبقي الامر من جانبكم وقد قامت عليكم الحجة فلا عذر لكم من بعد في التفريط وأنا عالم بما تبدون وبما تكتمون فان خالفتم فاعلموا ان الله شديد العقاب فيؤاخذكم بذلك نقيرا وقطميرا وان أطعتم فاعلموا ان الله غفور رحيم (قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) فان المحمود القليل من الاعمال والاموال خير من المذموم الكثير منهما والخطاب لكل معتبر قيل نزلت هذه الآية في رجل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان الخمر كانت تجارتي واني اعتقدت من بيعها مالا فهل ينفعني من ذلك المال ان عملت فيه بطاعة الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم ان أنفقته في حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل جناح بعوضة ان الله لا يقبل الا الطيب (فاتقوا الله) بأن تتحروا وتتركوا الخبيث من الاعمال والاموال ظاهرا وباطنا ولا تحتالوا في تركه بالتأويل (يا أولي الالباب) أي أصحاب العقول السليمة (لعلكم تفلحون) أي لعلكم تصيرون فائزين بالمطالب الدنيوية والدينية العاجلة والآجلة (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم) أي ان تظهر لكم تلك الاشياء تحزنكم والمعنى اتركوا الامور على ظواهرها ولا تسألوا عن أحوال مخفية ان تبد لكم تسؤكم وما بلغه الرسول اليكم فكونوا منقادين له وما لم يبلغه اليكم فلا تسألوا عنه فان خضتم فيما لا يكلف عليكم فربما جاءكم بسبب ذلك الخوض ما يشق عليكم روى أنس أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فأكثروا المسألة فقام على المنبر فقال سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء ما دمت في مقامي هذا الا حدثتكم به فقام عبد الله بن حذافة السهمي وكان يطعن في نسبه فقال يا نبي الله من أبي فقال أبوك حذافة بن قيس وقام آخر فقال يا رسول الله أين أبي فقال في النار وقال سراقة بن مالك أو عكاشة بن محصن يا رسول الله الحج علينا في كل عام فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أعاد مرتين أو ثلاثة فقال صلى الله عليه وسلم ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم ولو تركتم لكفرتم فاتركوني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم فاذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ولما اشتد غضب الرسول صلى الله عليه وسلم قام عمر وقال رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا نعوذ بالله من الفتن انا حديث عهد بجاهلية فاعف عنا يا رسول الله فسكن غضبه صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية (وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أي وان تسألوا عن أشياء مست حاجتكم الى التفسير في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ينزل جبريل بالقرآن ويظهرها حينئذ فالسؤال على قسمين سؤال عن شيء لم يجز ذكره في الكتاب والسنة بوجه من الوجوه فهذا السؤال منهي عنه بقوله تعالى لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم وسؤال عن شيء نزل به القرآن لكن السامع لم يفهمه كما ينبغي فههنا السؤال واجب وهو المراد بقوله تعالى وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم فالضمير في عنها راجع الى أشياء أخر كقوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين فالمراد بالانسان آدم عليه السلام والمراد بالضمير ابن آدم لان آدم لم يجعل نطفة في قرار مكين (عفا الله عنها) أي أمسك الله عن أشياء أي عن ذكرها ولم يكلف فيها بشيء وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق أي خففت عنكم باسقاطها أو المعنى عفا الله عما سلف من مسائلكم التي تغضب رسول

الله

الله صلى الله عليه وسلم فلا تعودوا لمثلها (والله غفور) لمن تاب (حليم) عن جهلكم (قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) أى قد سأل أشياء قوم من قبلكم ثم صاروا كافرين بها فان قوم صالح سألوا الناقة ثم عقروها وقوم موسى قالوا أرنا الله جهرة فصار ذلك وبالا عليهم وبنى اسرائيل قالوا النبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ثم كفروا وقوم عيسى سألوا المائدة ثم كفروا بها والمعنى ان قوم محمد صلى الله عليه وسلم فى السؤال عن أحوال الاشياء متشابهون لاولئك المتقدمين فى سؤال ذوات تلك الاشياء فى كون كل واحد من السؤالين فضولا وخوضا فيما لا فائدة فيه فان المتقدمين انما سألوا من الله اخراج الناقة من الصخرة وأنزل المائدة من السماء فهم سألوا نفس الشىء وأما أصحاب محمد فهم سألوا عن صفات الاشياء فلما اختلف السؤالان فى النوع اختلفت العبارة لكن يشتركان فى وصف واحد وهو خوض فى الفضول وشروع فيما لا حاجة اليه وفى ذلك خطر المفسدة (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) أى ما أمر الله بذلك فالبحيرة هى الناقة التى تنتج خمسة أبطن فى آخرها ذكر فتشق اذنها ولا تذبح ولا تركب ولا تحلب ولا تطرد عن ماء ومرعى ولا يجز لها وبر ولا يحمل على ظهرها بل تسيب لآلهتهم والسائبة هى البعير المسيبة وكان الرجل اذا شفى من مرض أو قدم من سفر أو نذر نذرا أو شكر نعمة سيب بعيرا وجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها والوصيلة فهى الشاة الموصلة وذلك أن الشاة اذا ولدت سبعة أبطن عمدوا الى البطن السابع فاذا كان ذكرا ذبحوه فأكله الرجال والنساء جميعا وان كان أنثى لم تنتفع النساء منها بشىء حتى تموت فاذا ماتت كان الرجال والنساء يأكلونها جميعا وان كان ذكرا وأنثى قيل وصلت أخاها فيترك مع أخوتها فلا يذبحان وكان للرجال دون النساء حتى يموتا فاذا ماتا اشترك فى أكلهما الرجال والنساء والحام هو الفحل اذا ركب ولد ولده قيل حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ومرعى الى أن يموت فحينئذ تأكله الرجال والنساء (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) أى ان رؤساءهم عمرو بن لحى وأصحابه يختلقون على الله الكذب ويقولون أمرنا الله بهذا (وأكثرهم) أى الاتباع (لا يعقلون) ان ذلك افتراء باطل قال المفسرون ان عمرو بن لحى الخزاعى كان قد ملك مكة وكان أول من غير دين اسمعيل فاتخذ الاصنام ونصب الاوثان وشرع البحيرة والسائبة والوصيلة والحام قال النبي صلى الله عليه وسلم فلقد رأيته فى النار يؤذى أهل النار بريح قصبه أى معاه (واذا قيل لهم) أى للاكثر الذى هم الاتباع (تعالوا الى ما أنزل الله) من الكتاب المبين للحلال والحرام (والى الرسول) الذى أنزل الكتاب عليه لتميزوا الحرام من الحلال (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) من الدين (أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيأ ولا يهتدون) والواو واو الحال دخلت عليها همزة الانكار والتقدير أكافيهم دين آبائهم وقد كان آباؤهم لا يعلمون شيأ من الدين ولا يهتدون للصواب ولسنة النبي فكيف يقتدون بهم (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) أى احفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصى والاصرار على الذنوب (لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) أى لا يضركم ضلالة من ضل اذا اهتديتم الى الايمان وبينتم ضلالتهم كما قاله ابن عباس وقال عبد الله بن المبارك والمعنى عليكم أهل دينكم ولا يضركم من ضل من الكفار وهذا كقوله تعالى فاقتلوا أنفسكم أى أهل دينكم فقوله تعالى عليكم أنفسكم أى أقبلوا على أهل دينكم وذلك بأن يعظ بعضكم بعضا ويرغب بعضكم بعضا فى الخيرات وينفره عن القبائح والسيآت وهذه الآية أوكد آية فى وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر قوله لا يضركم اما مجزوم على أنه جواب للامر وهو عليكم أو نهى مؤكد له وانما ضمت الراء اتباعا للضمة

الضاد المتصلة اليهما من الراء المدغمة فان الاصل لا يضرركم ويؤيده قراءة يضركم بفتح الراء وهو مجزوم وانما فتحت الراء لاجل الخفة وقراءة من قرأ لا يضركم بسكون الراء مع كسر الضاد وضمها من ضار يضير و يضور واما مرفوع على أنه كلام مستأنف فى موضع التعليل لما قبله و يعضده قراءة من قرأ لا يضيركم بالرفع و بالياء بعد الضاد أى ليس يضركم ضلال من ضل اذا كنتم ثابتين فى دينكم (الى الله مرجعكم جميعا أى رجوعكم ورجوع من خالفكم يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم تعملون) فى الدنيا من الخير والشر فيجازيكم عليه (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) أى شهادة ما بينكم من التنازع (اذا حضر أحدكم الموت) أى اذا ظهر لاحدكم أمارات وقوع الموت (حين الوصية) وهذا بدل من قوله اذا حضر لان زمان حضور الموت هو زمان حضور الوصية فعرف ذلك الزمان بهذين الامرين الواقعين فيه أى الشهادة المحتاج اليها عند مشارفة الموت (اثنان ذوا عدل منكم) أى من أهل دينكم يا معشر المؤمنين (أو آخران من غيركم) أى غير عادلين من غير أهل دينكم (ان أنتم ضربتم) أى سافرتم (فى الارض) فالعدلان المسلمان صالحان للشهادة فى الحضر والسفر وشهادة غير المسلمين لا تجوز الا فى السفر (فأصابتكم مصيبة الموت) أى فحضرت عندكم علامات نزول الموت وهذا بيان محل جواز الاستشهاد بغير المسلمين (تحبسونهما من بعد الصلاة) أى تقفونهما للتحليف من بعد صلاة العصر كما استحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها جميع أهل الاديان يعظمون هذا الوقت و يذكرون الله فيه ويحترزون عن الحلف الكاذب (فيقسمان) أى يحلفان (بالله ان ارتبتم) أى ان شككتم فى شأن آخرين بقولهما والله (لا نشترى به) أى بالقسم بالله (ثمنا) أى عوضا يسيرا من الدنيا أى لا نأخذ لانفسنا بدلا من القسم بالله عوضا من الدنيا (ولو كان ذا قربى) أى ولو كان ذلك العوض اليسير حباة ذا قربى منا أى لا نحلف بالله كاذبين لاجل المال (ولا نكتم شهادة الله) أى لا نكتم الشهادة التى أمرنا الله تعالى باقامتها واظهارها (انا اذا لمن الآثمين) أى انا ان كتمناها حينئذ لكنا من العاصين (فان عثر على انهما استحقا اثما) أى فان حصل الاطلاع بعد ما حلف الوصيان عن أنهما استحقا حنثا فى اليمين بكذب فى قول وخيانة فى مال (فآخران يقومان مقامهما) أى مقام الشاهدين اللذين هما من غير ملتهما (من الذين استحق عليهم الاوليان) أى باليمين و بالمال أو الاقربان الى الميت الوارثان له والاوليان اما بدل من آخران أو من الضمير الذى فى يقومان أو صفة لآخران عند الاخفش لان النكرة اذا تقدم ذكرها ثم أعيد عليها الذكر صارت معرفة أو خبر لمبتدأ محذوف وهذا على القراءة المشهورة للجمهور وهو استحق بضم التاء وكسر الحاء بالبناء للمجهول وانما وصف الورثة بكونهم استحق عليهم لانه لما أخذ مالهم فقد استحق عليهم مالهم أو لكونهم جنى عليهم أما على قراءة حفص وحده وهى استحق بفتح التاء والحاء بالبناء للفاعل فقوله الاوليان فاعل له والمعنى ان الوصيين اللذين ظهرت خيانتهما هما أولى من غيرهما بسبب ان الميت عينهما للوصاية ولما خاناه فى مال الورثة صح أن يقال ان الورثة قد استحق عليهم الاوليان أى خان فى مالهم الاوليان بالوصية (فيقسمان) أى هذان الآخران (بالله) بقولهما (لشهادتنا أحق من شهادتهما) أى والله ليمين المسلمين أصدق وأحق بالقبول من يمين النصرانيين (وما اعتدينا) أى ما تجاوزنا الحق فيما ادعينا وفى طلب المال وفى نسبتهما الى الخيانة (انا اذا لمن الظالمين) أى انا ان اعتدينا فى ذلك لكنا من الظالمين أنفسهم باقبالها لسخط الله تعالى وعذابه واتفق المفسرون على ان سبب نزول هذه الآيات ان تميما بن أوس الدارى وعدى بن بداء وكانا نصرانيين ومعهما

بديل بن أبي مارية مولى عمرو بن العاص وكان مسلما مهاجرا خرجوا الى الشام للتجارة فلما قدموا الشام
مرض بديل فكتب كتابا فيه نسخة جميع ما معه وألقاه فيما بين الاقمشة ولم يخبر صاحبيه بذلك ثم أوصى
اليهما وأمرهما ان يدفعا متاعه الى أهله ومات بديل فأخذا من متاعه اناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال
منقوشا بالذهب ولما رجعا دفعا باقي المتاع الى أهله ففتشوا فوجدوا الصحيفة وفيها ذكر الاناء فقالوا لتميم
وعدى أين الاناء فقالا لا ندرى والذى دفع الينا دفعناه اليكم فرفعوا الواقعة الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فأنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا الآية ولما نزلت هذه الآية صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
العصر ودعا تميما وعديا فاستحلفهما عند المنبر ولما حلفا خلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما ولما
طالت المدة أظهرا الاناء فبلغ ذلك بنى سهم فطالبوهما فقالا كنا قد اشتريناه منه فقالوا ألم نقل لكم
هل باع صاحبنا شيأ فقلتما لا فقالا لم يكن عندنا بينة فكرهنا ان نقر لكم فكتمنا لذلك فرفعوا القصة الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى قوله فان عثر الآية فقام عمرو بن العاص والمطلب أبو رفيعة
السهميان فحلفا بالله بعد العصر فدفع الرسول صلى الله عليه وسلم الاناء اليهما والى أولياء الميت وكان تميم
الدارى يقول بعد اسلامه صدق الله ورسوله أنا أخذت الاناء فأتوب الى الله تعالى (ذلك أدنى أن يأتوا
بالشهادة على وجهها) أى ذلك الطريق الذى بيناه أقرب الى ان يؤدى الشهود الشهادة على طريقها
الذى تحملوها عليه من غير تحريف ولا خيانة خوفا من العذاب الاخروى (أو يخافوا أن ترد أيمان
بعد أيمانهم) أى أو أقرب الى ان يخافوا ان ترد ايمانهم بعد ايمان المدعين لانقلاب الدعوى بأن صار
المدعى عليه مدعيا للملك وصار المدعى مدعى عليه فلذا لزمته اليمين والمعنى أو لم يخافوا عذاب الآخرة بسبب
اليمين الكاذبة بل يأتوا الشهادة على غير وجهها ولكنهم يخافون الافتضاح على رؤس الاشهاد بابطال
ايمانهم والعمل بايمان الورثة فينزجروا عن الخيانة المؤدية اليه فأى الخوفين وقع حصل المقصود الذى هو
الاتيان بالشهادة على وجهها (واتقوا الله) فى ان تخونوا فى الامانات (واسمعوا) مواعظ الله أى اعملوا
بها وأطيعوا الله فيها (والله لا يهدى القوم الفاسقين) أى الخارجين عن الطاعة الى ما ينفعهم فى
الآخرة (يوم يجمع الله الرسل) وهو يوم القيامة فيوم بدل اشتمال من مفعول اتقوا أو ظرف ليهدى
والمعنى لا يهديهم الى الجنة (فيقول) لهم مشيرا الى خروجهم عن عهدة الرسالة (ماذا أجبتم) أى أى
اجابة أجابكم بها أممكم حين دعوتموهم فى دار الدنيا الى توحيدى وطاعتى أهى اجابة قبول أو اجابة رد
(قالوا) تفويضا للامر الى العدل الحكيم العالم وعلما منهم ان الادب فى السكوت والتفويض وان قولهم
لا يفيد خيرا ولا يدفع شرا (لا علم لنا) أى لانك تعلم ما أظهروا وما اضمروا ونحن لا نعلم الا ما أظهروا فانا
فعلمك فيهم أنفذ من علمنا ولان الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن وهو معتبر فى الدنيا لان الاحكام فى
الدنيا مبنية على الظن واما الاحكام فى الآخرة فهى مبنية على حقائق الاشياء وبواطن الامور ولا عبرة
بالظن فى القيامة فلهذا السبب قالوا لا علم لنا (انك أنت علام الغيوب) أى فانك تعلم ما أجابوا وأظهروا
لنا وما لم نعلمه مما أضمروه فى قلوبهم وقرئ شاذا علام الغيوب بالنصب اما على الاختصاص أو على
النداء أو على انه بدل من اسم ان والكلام قد تم بقوله تعالى انك أنت أى أنت متصف بصفاتك السنية (اذ
قال الله) بدل من يوم يجمع الله ويجوز ان يكون موضع اذ رفعا بالابتداء على معنى ذلك اذ قال الله (يا عيسى
ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس) أى اذكر انعامى عليكما اذ طهرت أمك
واصطفيتها على نساء العالمين وقويتك بجبريل لتثبيت الحجة (تكلم الناس فى المهد) أى طفلا بقولك

انى عبد الله الآية (وكهلا) أى اذا أنزله الله تعالى الى الارض أنزله وهو فى صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة وهو الكهل فيقول لهم انى عبد الله كما قال فى المهد (واذ علمتك الكتاب) أى الكتابة وهى الخط (والحكمة) أى العلوم النظرية والعلوم العملية (والتوراة والانجيل) وذكر الكتابين اشارة الى الاسرار التى لا يطلع عليها أحد الا أكابر الانبياء عليهم السلام فان الاطلاع على أسرار الكتب الالهية لا يحصل الا لمن صار ربانيا فى أصناف العلوم الشرعية والعقلية الظاهرة التى يبحث عنها العلماء (واذ تخلق من الطين كهيئة الطير) أى تصور منه هيئة مماثلة لهيئة الطير (باذنى) أى بأمرى (فتنفخ فيها) أى فى الهيئة المصورة فالضمير راجع للكاف وهى دالة على الهيئة التى هى مثل هيئة الطير (فتكون طيرا باذنى) أى فتصير تلك المصورة خفاشا تطير بين السماء والارض بارادتى (وتبرئ الاكمه) أى الاعمى المطموس البصر (والابرص باذنى) أى بأمرى وارادتى وقدرتى (واذ تخرج الموتى) من قبورهم احياء (باذنى) أى بفعلى ذلك عند دعائك وعند قولك للميت اخرج باذن الله من قبرك (واذ كففت بنى اسرائيل عنك) أى منعت اليهود الذين أرادوا قتلك عن مطلوبهم بك (اذ جئتهم بالبينات) بما ذكر وما لم يذكر كالاخبار بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ونحو ذلك فأل للجنس (فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين) قرأ حمزة والكسائى هنا وفى هود والصف ويونس ساحر بالالف أى ما هذا الرجل وهو عيسى الا ساحر ظاهر وقرأ ابن عامر وعاصم فى يونس فقط بالالف والباقون سحر بكسر السين وسكون الحاء أى ما هذا الذى جاء به عيسى من الخوارق أو ما هذا أى عيسى الا سحر مبين وهذا على سبيل المبالغة أو على حذف مضاف روى ان عيسى عليه السلام لما أظهر هذه المعجزات العجيبة قصد اليهود قتله فخلصه الله تعالى منهم حيث رفعه الى السماء (واذ أوحيت الى الحواريين) أى الانصار أى ألهمت القصارين وهم اثنا عشر رجلا فى قلوبهم وأمرتهم فى الانجيل على لسانك (أن آمنوا بى وبرسولى) والمعنى أى آمنوا بوحدانيتى فى الالوهية وبرسالة رسولى عيسى (قالوا آمنا) بوحدانيته تعالى وبرسالة رسوله (واشهد) أنت يا عيسى (بأننا مسلمون) أى مخلصون فى ايماننا (اذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك) قرأ الجمهور بالياء على الغيبة أى هل يفعل ربك والمقصود من هذا السؤال تقرير ان ذلك المطلوب فى غاية الظهور كمن يأخذ بيد ضعيف ويقول هل يقدر السلطان على اشباع هذا ويكون غرضه منه ان ذلك أمر جلى لا يجوز لعاقل ان يشك فيه فكذا ههنا وقرأ الكسائى تستطيع بتاء الخطاب لعيسى وربك بالنصب على التعظيم وبادغام اللام فى التاء وهذه القراءة مروية عن على وابن عباس وعن عائشة أى هل تستطيع ان تسأل ربك (أن ينزل علينا مائدة من السماء قال) عيسى لشمعون قل لهم (اتقوا الله) فى اقتراح معجزة لم يسبق لها مثال بعد تقدم معجزات كثيرة (ان كنتم مؤمنين) بكونه تعالى قادرا على انزال المائدة فلعلكم تتركون شكرها فيعذبكم فقال لهم ذلك شمعون (قالوا نريد أن نأكل منها) أكل تبرك أو أكل حاجة وتمتع (وتطمئن قلوبنا) بكمال قدرته تعالى لحصول علم المشاهدة مع علم الاستدلال (ونعلم أن قد صدقتنا) أى ونعلم علما يقينيا أنه قد صدقتنا فى دعوى النبوة وان الله يجيب دعوتنا وفى قولك انا اذا صمنا ثلاثين يوما لا نسأل الله تعالى الا أعطانا (ونكون عليها من الشاهدين) لله بكمال القدرة ولك بالنبوة وهذه معجزة سماوية وهى أعظم وأعجب فاذا شاهدناها كنا عليها من الشاهدين نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بنى اسرائيل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقينا ويؤمن بسببها كفارهم (قال عيسى

ابن

ابن مريم) أى لما رأى ان لهم غرضا صحيحا فى ذلك فقام واغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين فطأطأ رأسه وغض بصره وقال (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة) أى طعاما (من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا) أى نتخذ اليوم الذى تنزل فيه المائدة عيدا نعظمه نحن ومن يأتى بعدنا ونزلت يوم الاحد فاتخذه النصارى عيدا وانما أسند العيد الى المائدة لان شرف اليوم مستعار من شرفها والمعنى يكون يوم نزولها عيد الاهل زماننا ولمن بعدها لكى نعبدك فيها (وآية منك) أى دلالة على وحدانيتك وكمال قدرتك وصحة نبوة رسولك (وارزقنا) أى اعطنا ما سألناك (وأنت خير الرازقين قال الله انى منزلها) أى المائدة (عليكم) وقرأ ابن عامر وعاصم ونافع منزلها بالتشديد والباقون بالتخفيف (فمن يكفر بعد) أى بعد نزولها (منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه) أى انى أعذب من يكفر تعذيبا لا أعذب مثل ذلك التعذيب (أحدا من العالمين) روى ان عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفا ثم قال اللهم انزل علينا الخ فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وأخرى تحتها وهم ينظرون اليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة وقال لهم ليقم أحسنكم عملا يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها فقال شمعون رأس الحواريين أنت أولى بذلك فقام عيسى وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية بلا شوك ولا فلوس تسيل دسما وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان ما خلا الكراث واذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون ياروح الله من طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة فقال ليس منهما ولكنه شئ اخترعه الله بالقدرة العالية كلوا ما سألتم وأشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله فقال الحواريون لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال ياسمكة احيى باذن الله فاضطربت ثم قال لها عودى كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة ثم عصوا وقالوا بعد النزول والأكل هذا سحر مبين فمسخ الله منهم ثلثمائة وثلاثين رجلا باتوا ليلتهم مع نسائهم ثم أصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات ويأكلون العذرة فى الحشوش ولما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيبكون ويشيرون برؤسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا (واذ قال الله) يوم القيامة (ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس) فى الدنيا (اتخذونى وأمى الهين من دون الله) أى غيره أراد الله تعالى بهذا السؤال ان يقر عيسى على نفسه بالعبودية فيسمع قومه ويظهر كذبهم عليه انه أمرهم بذلك فذكر هذا السؤال مع علمه تعالى ان عيسى لم يقل ذلك انما للتوبيخ قومه (قال) أى عيسى وهو يرعد (سبحانك) أى انزهك تنزيها لائقا بك من ان أقول ذلك (ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) أى ما كان ينبغى ان أقول ما ليس بجائز لى (ان كنت قلته) لهم (فقد علمته) وهذا مبالغة فى الأدب وفى اظهار الذل فى حضرة ذى الجلال وتفويض الأمور بالكلية الى الكبير المتعالى (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) أى تعلم ما عندى ومعلومى ولا أعلم ما عندك ومعلومك (انك أنت علام الغيوب) عن العباد (ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم) وان مفسرة للهاء الراجع للقول المأمور به والمعنى ما قلت لهم فى الدنيا الا قولا أمرتنى به وذلك القول هو ان أقول لهم اعبدوا الله ربى وربكم (وكنت عليهم شهيدا) على ما يفعلون (ما دمت فيهم) أى مدة دوامى فيما بينهم (فلما توفيتنى) أى رفعتنى من بينهم الى السماء (كنت

أنت الرقيب عليهم) أى الحافظ لاعمالهم المراقب لاحوالهم (وأنت على كل شئ شهيد) وعالم بصير (ان تعذبهم فانهم عبادك) وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك (وان تغفر لهم فانك أنت العزيز) أى القادر على ماتريد (الحكيم) فى كل ماتفعل لااعتراض لاحد عليك فان عذبت فعدل وان غفرت ففضل وعدم غفران الشرك انما هو بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ومقصود عيسى عليه السلام من هذا الكلام تفويض الامور كلها الى الله وترك الاعتراض عليه بالكلية لانه يجوز فى مذهبنا من الله تعالى ان يدخل الكفار الجنة وان يدخل العباد النار لان الملك ملكه ولا اعتراض لاحد عليه (قال الله هذا) أى يوم القيامة (يوم ينفع الصادقين صدقهم) فى الدنيا فى امور الدين قرأ الجمهور يوم بالرفع وقرأ نافع يوم بالنصب أى هذا القول واقع يوم الخ (لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم) أى عن الصادقين بطاعتهم له (ورضوا عنه) بالثواب والكرامة (ذلك) الرضوان (الفوز العظيم) فالجنة بما فيها بالنسبة الى رضوان الله كالعدم بالنسبة الى الوجود وكيف لا والجنة مرغوب الشهوة والرضوان صفة الحق وأى مناسبة بينهما (لله ملك السموات والارض وما فيهن وهو على كل شئ قدير) أى ان كل ماسوى الله تعالى من الكائنات والاجساد والارواح ممكن لذاته موجود بايجاده واذا كان الله موجدا كان مالكا له واذا كان مالكا له كان له تعالى أن يتصرف فى الكل بالامر والنهى والثواب والعقاب كيف أراد فصح التكليف على أى وجه أراده الله تعالى ولما كان الله مالك الملك فله بحكم المالكية ان ينسخ شرع موسى و يضع موضعه شرع محمد فبطل قول اليهود بعدم نسخ شرع موسى ثم ان عيسى ومريم داخلان فيما سوى الله فهو كائن بتكوين الله تعالى وثبت كونهما عبدين لله مخلوقين له فظهر بهذا التقرير ان هذه الآية برهان قاطع فى صحة جميع العلوم التى اشتملت هذه السورة عليها

(سورة الانعام مكية الاست آيات فانها مدنيات وهى قوله قل تعالى الى آخر الآيات الثلاث وهو لعلكم تتقون وقوله تعالى وما قدروا الله الى قوله تعالى وكنتم عن آياته تستكبرون وهى مائة وخمس وستون آية وعدد كلماتها ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة وعدد حروفها اثنا عشر ألفا وأربعمائة واثنان وعشرون حرفا)

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى خلق السموات والارض و جعل الظلمات والنور) والمدح أعم من الحمد لان المدح للعاقل ولغير العاقل فكما يمدح العاقل على أنواع فضائله كذلك يمدح اللؤلؤ لحسن شكله والياقوت على نهاية صفائه وصقالته والحمد لا يحصل الا للفاعل المختار على مايصدر منه من الاحسان والحمد أعم من الشكر لان الحمد تعظيم الفاعل لاجل ماصدر عنه من الانعام واصلا اليك أو الى غيرك والشكر تعظيمه لاجل انعام وصل اليك وحصل عندك والمقصود من هذه الآية ذكر الدلالة على وجود الصانع والفرق بين الجعل والخلق ان كلا منهما هو الانشاء والابداع الا ان الخلق مختص بالانشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية والجعل عام له كما فى هذه الآية الكريمة وللتشريعى أيضا كما فى قوله تعالى ماجعل الله من بحيرة الآية وجمع الظلمات دون النور لكثرة محالها اذ مامن جرم الا وله ظل والظل هو الظلمة بخلاف النور فانه من جنس واحد وهو النار وهذا اذا حملا على الكيفيتين المحسوستين بحس البصر وان حمل النور على نور الاسلام والايمان واليقين والنبوة والظلمات على ظلمة الشرك

والكفر

والكفر والنفاق فنقول لان الحق واحد والباطل كثير وتقديم الظلمات على النور لان الظلمة عدم النور عن الجسم الذى يقبله وعدم المحدثات متقدم على وجودها (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أى يشركون به غيره وهذه الجملة اما معطوفة على قوله الحمد لله والباء متعلقة بكفروا فيكون يعدلون من العدول ولا مفعول له والمعنى ان الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه لانه تعالى ما خلقه الا نعمة ثم الذين كفروا بربهم يعدلون عنه فيكفرون بنعمته أو متعلقة بيعدلون وهو من العدول ويوضع الرب موضع الضمير العائد اليه تعالى والمعنى انه مختص باستحقاق الحمد والعبادة باعتبار ذاته وباعتبار شؤنه العظيمة الخاصة به ثم هؤلاء الكفرة يسوون به غيره فى العبادة التى هى أقصى غايات الشكر الذى رأسه الحمد واما معطوف على قوله خلق السموات والباء متعلقة بيعدلون وقدمت لاجل الفاصلة وهى اما بمعنى عن ويعدلون من العدول والمعنى ان الله تعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه ثم الذين كفروا يعدلون عن ربهم الى غيره أو للتعدية ويعدلون من العدل وهو التسوية والمعنى انه تعالى خلق هذه الاشياء العظيمة الذى لا يقدر عليها أحد سواه ثم انهم يعدلون به جمادا لا يقدر على شىء أصلا فيكون المفعول محذوفا وكلمة ثم لاستبعاد الشرك بعد وضوح آيات قدرته تعالى (هو الذى خلقكم من طين) أى ان الله خلق جميع الانسان من آدم وآدم كان مخلوقا من طين فلهذا السبب قال هو الذى خلقكم من طين أى من جميع أنواعه فلذلك اختلفت ألوان بنى آدم وعجنت طينتهم بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت اخلاقهم وأيضا ان الانسان مخلوق من المنى والمنى انما يتولد من الاغذية وهى اما حيوانية أو نباتية فحال الحيوانية كالحال فى كيفية تولد الانسان فبقى أن تكون الاغذية نباتية فثبت ان الانسان مخلوق من الاغذية النباتية ولا شك أنها متولدة من الطين فثبت ان كل انسان متولد من الطين وقال المهدوى ان الانسان مخلوق ابتداء من طين لخبر ما من مولود يولد الا ويذر على النطفة من تراب حفرته وأيا ما كان الانسان ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث ما لا يخفى فان من قدر على احياء ما لم يشم رائحة الحياة قط كان على احياء ما فارقها مدة أظهر قدرة (ثم قضى أجلا) أى خصص الله موت كل واحد بوقت معين وذلك التخصيص تعلق مشيئته تعالى بايقاع ذلك الموت فى ذلك الوقت (وأجل مسمى) أى حد معين لبعثكم جميعا من البرزخ (عنده) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الله تعالى قضى لكل أحد أجلين أجلا من مولده الى موته وأجلا من موته الى مبعثه فان كان برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث فى أجل العمر وان كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث وقال حكماء الاسلام ان لكل انسان أجلين أحدهما الآجال الطبيعية والثانى الآجال الاخترامية فالآجال الطبيعية هى التى لو بقى ذلك المزاج مصونا من الاعراض الخارجية لانتهت مدة بقائه الى الوقت الفلانى والآجال الاخترامية هى التى تحصل بسبب من الاسباب الخارجية كالغرق والحرق ولدغ الحشرات وغيرها من الامور المعضلة (ثم أنتم تمترون) أى ثم بعد ظهور مثل هذه الحجة الباهرة أنتم أيها الكفار تنكرون صحة التوحيد للصانع أو ثم بعد مشاهدتكم فى أنفسكم من الشواهد ما يقطع الشك بالكلية أنتم أيها الكفار تستبعدون وقوع البعث ومن قدر على الابتداء فهو على الاعادة أقدر فالآية الاولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث (وهو الله فى السموات وفى الارض) أى وهو الذى اتصف بالخلق هو المعبود فى السموات والارض والمتصرف فيهما (يعلم سركم) فى القلوب من الدواعى والصوارف (وجهركم) فى الجوارح من الاعمال (ويعلم ما تكسبون) أى مكتسبكم أى ما تستحقون على فعلكم من الثواب والعقاب (وما تأتيهم من آية من

آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) أى ما يظهر للكفار من آية من الآيات التكوينية التى يجب فيها
النظر التى من جملتها جلائل شؤونه الدالة على وحدانيته تعالى الا كانوا معرضين عن تأمل تلك الدلائل
تاركين للنظر المؤدى الى الايمان بكونها وهذه الآية تدل على ان التقليد باطل والتأمل فى الدلائل واجب
ولولا ذلك لما ذم الله المعرضين عن التفكر فى الدلائل أو المعنى ما ينزل الى أهل مكة آية من الآيات القرآنية
الا كانوا مكذبين بتلك الآية ومن الاولى مزيدة لاستغراق الجنس الذى يقع فى النفى والثانية للتبعيض
وهى مع مجرورها صفة لآية (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) أى فقد كذب أهل مكة بالمعجزات كانشقاق
القمر بمكة وانفلاقه فلقتين وذهبت فلقة وبقيت فلقة أو بالقرآن أو بمحمد صلى الله عليه وسلم (فسوف
يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) أى سوف يأتيهم أخبار كونهم مستهزئين بذلك الحق يوم بدر و يوم
أحد ويوم الاحزاب (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن) أى ألم يعرف أهل مكة بمعاينة الآثار فى
أسفارهم للتجارة الى الشام فى الصيف والى اليمن فى الشتاء وبسماع الاخبار كم أمة أهلكنا من قبل زمان
أهل مكة كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وغيرهم (مكناهم فى الارض ما لم نمكن
لكم) أى أعطينا أولئك الجماعة من البسطة فى الأجساد والامتداد فى الاعمار والسعة فى الاموال
والاستظهار بأسباب الدنيا ما لم نعطكم يا أهل مكة (وأرسلنا السماء) أى المطر (عليهم مدرارا) أى
متتابعا كلما احتاجوا اليه (وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم) أى من تحت بساتينهم وزروعهم وشجرهم
(فأهلكناهم بذنوبهم) بتكذيبهم الانبياء وبكونهم باعوا الدين بالدنيا (وأنشأنا من بعدهم قرنا
آخرين) أى أحدثنا من بعد اهلاك كل قرن قرنا آخرين بدلا من الهالكين وهذا تنبيه على ان
اهلاك الامم الكثيرة لم ينقص من ملكه شيأ ولا يتعاظم على الله هلاكهم وخلو بلاده منهم فانه تعالى
قادر على ان ينشئ مكانهم قوما آخرين يعمر بهم بلاده (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم
لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) أى ولو نزل الكتاب من السماء دفعة واحدة عليك يا أشرف
الخلق كما سألك عبد الله بن أبى أمية المخزومى وأصحابه فى صحيفة واحدة فرأوه عيانا ولمسوه لطعنوا فيه
وحملوه على انه مخرقة وقالوا انه سحر وقال ابن اسحق والقائلون بالاقوال الآتية زمعة بن الاسود والنضر بن
الحرث بن كلدة وعبدة بن عبد يغوث وأبى بن خلف والعاص بن وائل كما أخرجه ابن أبى حاتم (وقالوا لولا
أنزل عليه ملك) أى هلا أنزل على محمد ملك يخبرنا بصدقه فى دعوى النبوة ويشهد له بما يقول والمعنى ان
منكرى النبوات يقولون لو بعث الله الى الخلق رسولا لوجب ان يكون ذلك الرسول واحدا من الملائكة
لان علومهم أكثر وقدرتهم أشد ومهابتهم أعظم وامتيازهم عن الخلق أكمل ووقوع الشبهات فى
نبوتهم أقل فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجهين الاول قوله تعالى (ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر)
أى لفرغ من هلاكهم أى لو أنزل الملك على هؤلاء الكفار فربما لم يؤمنوا واذا لم يؤمنوا وجب اهلاكهم
بعذاب الاستئصال فحينئذ ما أنزل الله تعالى الملك اليهم لئلا يستحقوا هذا العذاب وأيضا انهم اذا شاهدوا
الملك زهقت روحهم من هول ما يشاهدون وذلك ان الآدمى اذا رأى الملك فاما ان يراه على صورته الاصلية
أو على صورة البشر فان رآه على صورته الاصلية لم يبق الآدمى حيا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما
رأى جبريل على صورته الاصلية غشى عليه وان جميع الرسل عاينوا الملائكة فى صورة البشر كأضياف
ابراهيم وأضياف لوط وخصم داود وغير ذلك وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى القدسية
فما ظنك بمن عداهم من العوام وأيضا اذا رأوه زال الاختيار الذى هو قاعدة التكليف فيجب اهلاكهم

وذلك مخل بصحة التكليف وان رآه على صورة البشر فلا يتفاوت الحال سواء كان هو فى نفسه ملكا أو بشرا وأيضا ان انزال الملك يقوى الشبهات لان كل معجزة ظهرت عليه ردوها وقالوا هذا فعل الملك فعلته باختيارك وقدرتك ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القوة والعلم لفعلنا مثل ما فعلته (ثم لا ينظرون) أى لا يمهلون بعد نزول الملك طرفة عين وكلمة ثم للتنبيه على ان عدم الانظار أشد من قضاء الامر لان مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة وأشق والثانى قوله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) أى ولو جعلنا الرسول ملكا لجعلنا الملك على صورة الرجل لان البشر لا يستطيعون ان ينظروا الى الملائكة فى صورهم التى خلقوا عليها ولو نظر الى الملك ناظر من الآدمى لصعق عند رؤيته (وللبسنا عليهم ما يلبسون) أى ولو صورنا الملك رجلا لصار فعلنا نظير فعلهم فى التلبيس وانما كان ذلك تلبيسا لان الناس يظنون انه بشر مع انه ليس بشرا وانما كان فعلهم تلبيسا لانهم يقولون لقومهم انه بشر مثلكم والبشر لا يكون رسولا من عند الله تعالى واذا كان الامر كذلك لم يفدهم طلب نزول الملك لانه لو نزل لهم الملك لنزل على صورة رجل لعدم استطاعتهم لمعاينة هيكله ولان الجنس الى الجنس أميل فيه ولو اله ما أنت الا بشر مثلنا ويقولوا انا لا نرضى برسالة هذا الشخص فيعود سؤالهم ويستمرون يطلبون الملك فلا تنقطع شبهتهم فنزول الملك لا يفيدهم شيأ بل يزدادون فى الحيرة والاشتباه وأيضا ان طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر وربما لا يعذرونهم فى الاقدام على المعاصى (ولقد استهزئ برسل من قبلك) أى وبالله لقد استهزئ برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك وهذه الآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى تخفيف لضيق قلب رسول الله عند سماعه من القوم الذين قالوا ان رسول الله يجب أن يكون ملكا من الملائكة ووعيد أيضا لاهل مكة (فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) أى فدار وأحاط بالذين سخروا من أولئك الرسل عليهم السلام العذاب الذى يستهزؤن به وينكرونه فان الكفار كانوا يستهزؤن بالعذاب الذى كان يخوفهم الرسول بنزوله أو المعنى فأحاط عن استهزأ بالشرائع من الرسل عقوبة استهزائهم بالرسول المندرج فى جملة الرسل (قل) يا أكرم الرسل لاهل مكة (سيروا فى الارض) أى قل لهم لا تغتروا بما وجدتم من الدنيا وطيباتها ووصلتم اليه من لذاتها وشهواتها بل سيروا فى الارض لتعرفوا صحة ما أخبركم الرسول عنه من نزول العذاب على الذين كذبوا الرسل فى الازمنة السالفة (ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى ثم تفكروا فى انهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال فانكم عند السير فى الارض والسفر فى البلاد لا بد وان تشاهدوا تلك الآثار فيكمل الاعتبار ويقوى الاستبصار (قل) يا أشرف الخلق لاهل مكة (لمن ما فى السموات والارض) أى لمن الكائنات جميعا خلقا وملكا وتصرفا فان أجابوك فذاك والا (قل لله) لانه لا جواب غيره (كتب على نفسه الرحمة) أى أوجب على نفسه ايجاب الفضل والكرم والرحمة لامة محمد صلى الله عليه وسلم بتأخير العذاب وقبول التوبة (ليجمعنكم الى يوم القيامة) أى والله ليجمعنكم فى القبور محشورين الى يوم القيامة فيجازيكم على شرككم وسائر معاصيكم أو ليجمعنكم الى المحشر فى يوم القيامة فان الجمع يكون الى المكان لا الى الزمان (لا ريب فيه) أى فى الجمع (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) أى ان ابطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك فى التقليد وترك النظر أدى بهم الى الاصرار على الكفر والامتناع من الايمان وان سبق قضاء الله بالخسران هو الذى حملهم على الامتناع من الايمان بحيث لا سبيل لهم اليه أصلا (وله ما سكن فى الليل والنهار) أى له تعالى كل ما حصل فى الزمان سواء كان متحركا أو ساكنا (وهو السميع العليم) فيسمع

نداء المحتاجين ويعلم حاجات المضطرين (قل أغير الله أتخذ وليا) أى قل يا أشرف الخلق أغير الله أجعله معبودا (فاطر السموات والارض) وعن ابن عباس قال ما عرفت فاطر السموات حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما انى فطرتها أى ابتدأتها وقرئ فاطر السموات بالجر صفة لله أو بدل منه بدل المطابق وبالرفع على اضمار هو والنصب على المدح وقرأ الزهرى فطر السموات (وهو يطعم ولا يطعم) أى وهو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد ويقال ولا يعان على الترزيق (قل) يا أكرم الخلق لكفار مكة (انى أمرت) أى من حضرة الله تعالى (أن أكون أول من أسلم) فانه صلى الله عليه وسلم سابق أمته فى الاسلام وقيل لى يا محمد (ولا تكونن من المشركين) أى فى أمر من أمور الدين (قل انى أخاف ان عصيت ربى) بمخالفة أمره ونهيه أى عصيان كان (عذاب يوم عظيم) أى عذابا عظيما فى يوم عظيم وهو يوم القيامة (من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه) قرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائى يصرف بفتح الياء وكسر الراء والمفعول محذوف والتقدير من يصرف ربى عنه يومئذ العذاب فقد أنعم عليه والباقون يصرف بالبناء للمفعول والمعنى أى شخص يصرف العذاب عنه ذلك اليوم العظيم فقد أدخله الله الجنة (وذلك الفوز المبين) أى وذلك الرحمة هو الفوز الظاهر وهو الظفر بالمطلوب (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) أى وان يصبك الله ببلية أيها الانسان كمرض وفقر ونحو ذلك فلا رافع له الا هو وحده (وان يمسسك بخير) أى وان ينزل الله بك خيرا من صحة وغنى ونحو ذلك فلا راد له غيره (فهو على كل شئ قدير) روى عن ابن عباس انه قال أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ثم أردفنى خلفه ثم سار بى ميلا ثم التفت الى فقال يا غلام فقلت لبيك يا رسول الله فقال احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده امامك تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة واذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله فقد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله عليك ما قدروا واعلم فان استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم أن النصر مع الصبر وان مع الكرب فرجا وان مع العسر يسرا (وهو القاهر فوق عباده) بالقدرة والقوة وهذا اشارة الى كمال القدرة (وهو الحكيم الخبير) فان أفعاله تعالى محكمة آمنة من وجوه الخلل والفساد وانه تعالى عالم بما يصح أن يخبر به وهذا اشارة الى كمال العلم اه روى ابن عباس أن رؤساء أهل مكة قالوا يا محمد ما وجد الله غيرك رسولا وما نرى أحدا يصدقك وقد سألنا اليهود والنصارى عنك فزعموا انه لا ذكر لك عندهم بالنبوة فأرنا من يشهد لك بالنبوة فأنزل الله تعالى قوله هذا (قل) يا أشرف الخلق لهم (أى شئ أكبر شهادة) من الله كى يقروا بالنبوة وان أكبر الاشياء شهادة هو الله تعالى فان اعترفوا بذلك فذاك والا (قل الله شهيد بينى وبينكم) بأنى رسوله وهذا القرآن كلامه وهو معجز لانكم فصحاء بلغاء وقد عجزتم عن معارضته فاذا كان معجزا كان اظهار الله اياه على وفق دعواى شهادة من الله على كونى صادقا فى دعواى (وأوحى الى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) أى أنزل الله الى جبريل بهذا القرآن لاخوفكم يا أهل مكة بالقرآن ولاخوف به من بلغ اليه القرآن من الثقلين ممن يأتى بعدى الى يوم القيامة (أئنكم) يا أهل مكة (لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) وهى الاصنام التى كنتم تعبدونها وتقولون انها بنات الله فان شهدوا على ذلك (قل) لهم (لا أشهد) أى بما تذكرونه من اثبات الشركاء (قل انما هو اله واحد) أى بل انما أشهد أن الله لا اله الا هو (واننى برئ مما تشركون) أى من اشراككم بالله تعالى

في العبادة الاصنام قال العلماء المستحب لمن أسلم ابتداء أن يأتي بالشهادتين و يتبرأ من كل دين سوى دين الاسلام ونص الشافعي على استحباب ضم التبري الى الشهادة لان الله تعالى لما صرح بالتوحيد قال وانني بريء مما تشركون (الذين آتيناهم الكتاب) وهم علماء اليهود والنصارى الذى كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم (يعرفونه) أي يعرفون محمدا من جهة الكتابين بصفته المذكورة فيهما (كما يعرفون أبناءهم) بصفاتهم فانهم كذبوا في قولهم انالا نعرف محمدا لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر ان الله أنزل على نبيه بمكة هذه الآية فكيف هذه المعرفة قال عبد الله بن سلام يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ولانا أشد معرفة بمحمد مني بابني فقال عمر كيف ذلك فقال أشهد انه رسول الله حقا ولا أدري ما تصنع النساء (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) ومعنى هذا الخسران كما قاله جمهور المفسرين ان الله تعالى جعل لكل انسان منزلا في الجنة ومنزلا في النار فاذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة ولاهل النار منازل أهل الجنة في النار (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أي لا أحد أجرأ ممن اختلق على الله كذبا كقول كفار مكة هذه الاصنام شركاء الله والله تعالى أمرنا بعبادتها وقولهم ان الملائكة بنات الله ثم قولهم أمرنا الله بتحريم البحائر والسوائب وكقول اليهود والنصارى حصل في التوراة والانجيل ان هاتين الشريعتين لا يتطرق اليهما النسخ ولا يجيء بعدهما نبي (أو كذب بآياته) أي قدح في معجزات محمد صلى الله عليه وسلم وأنكر كون القرآن معجزة قاهرة بينة (انه لا يفلح الظالمون) أي لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا والآخرة بل يبقون في الحرمان والخذلان (ويوم نحشرهم جميعا) أي كافة الناس وهو يوم القيامة (ثم نقول للذين أشركوا) خاصة على رؤس الاشهاد للتوبيخ (أين شركاؤكم) أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء الله تعالى (الذين كنتم تزعمون) أي تزعمونهم شركاء وانها شفعاء لكم عند الله قال ابن عباس وكل زعم في كتاب الله كذب (ثم لم تكن فتنتهم) أي افتتانهم بالاوثان (الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) أي لم تكن عاقبة افتتانهم بشركهم الابراء ثم منه بحلفهم انهم ما كانوا مشركين ومثاله أن ترى انسانا يحب غاويا مذموم الطريقة فاذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه قرأ ابن عامر وابن كثير وحفص عن عاصم ثم لم تكن بالتاء الفوقية وفتنتهم بالرفع وقرأ حمزة والكسائي لم يكن بالياء التحتية وفتنتهم بالنصب وقرأ حمزة والكسائي ربنا بنصبه على النداء أو المدح والباقون بالكسر (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) بانكار صدور الاشراك عنهم في الدنيا (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أي وكيف زال عنهم افتراؤهم بعبادة الاصنام فلم تغن عنهم شيأ وذلك انهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها لهم (ومنهم من يستمع اليك) أي وبعض من أهل مكة من يستمع الى كلامك حين تتلوا القرآن (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) أي وقد ألقينا على قلوبهم أغطية كثيرة كراهة ان يفقهوا ما يستمعونه من القرآن وفي آذانهم صمما وثقلا مانعا من سماعه فمحل ان يفقهوه مفعول معه بحذف المضاف أو مفعول لفعل مقدر أي منعناهم ان يفقهوه مجموع القدرة على الايمان مع الداعي اليه يوجب الفعل فالكفر من الله تعالى وتكون تلك الداعية الجازة الى الكفر كنانا للقلب عن الايمان ووقرا للسمع عن استماع دلائل الايمان (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أي وان يشاهدوا كل آية من الآيات القرآنية بسماعها كفروا بكل واحدة منها لاجل ان الله تعالى جعل على قلوبهم أكنة (حتى اذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا) أي بلغوا بتكذيبهم الآيات

الى انهم اذا جاؤا اليك يجادلونك (ان هذا الا أساطير الاولين) أى ما هذا الذى يقول محمد الا خرافات الاولين وكذبهم أى ان هذا الكلام من جنس سائر الحكايات المكتوبة للاولين واذا كان هذا كذلك فلا يكون معجزا خارقا للعادة وجملة قوله تعالى يقول الذين كفروا تفسير لقوله يجادلونك أى ينا كرونك قال ابن عباس رضى الله عنهما حضر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو سفيان بن حرب و الوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأبى ابنا خلف والحرث بن عامر وأبو جهل واستمعوا الى القرآن فقالوا للنضر وكان كثير الاخبار للقرون الماضية يا أبا قتيبة ما يقول محمد قال ما أدرى ما يقول لكنى أراه يحرك شفتيه و يتكلم بأساطير الاولين كالذى كنت أحدثكم به عن اخبار القرون الاولى فقال أبو سفيان انى أرى بعض ما يقول حقا فقال أبو جهل كلا أى لا تقر بشئ من هذا فأنزل الله تعالى هذه الآية (وهم ينهون عنه) وأولئك الكفار ينهون الناس عن استماع القرآن لئلا يقفوا على حقيقته فيؤمنوا به (وينأون عنه) أى و يتباعدون عنه بأنفسهم تأكيدا لنهيهم (وان يهلكون الا أنفسهم) أى وما يهلكون بما فعلوا من النهى والنأى الا أنفسهم باقبالها الا أشد العذاب (وما يشعرون) انهم يهلكون أنفسهم و يذهبونها الى النار بما يفعلون من الكفر والمعصية (ولو ترى اذ وقفوا على النار) أى ولو تبصر حالهم حين يوقفون على النار وهم يعاينونها لرأيت سوء حالهم أو المعنى ولو تبصرهم حين يحبسون فوق النار على الصراط وهى تحتهم لرأيت سوء منقلبهم أو المعنى ولو صرفت فكرك الصحيح لان تتدبر حالهم حين يدخلونها لازددت يقينا وقرئ اذ وقفوا بالبناء للفاعل أى ولو تراهم حين يكونون فى جوف النار وتكون النار محيطة بهم و يكونون غائصين فيها لعرفوا مقدار عذابها والاصح على هذا التقدير ان يقال وقفوا على النار لانها دركات وطبقات بعضها فوق بعض فيصح هناك معنى الاستعلاء (فقالوا يا ليتنا نرد) الى الدنيا لنؤمن (ولا نكذب بآيات ربنا) أى بآياته الناطقة بأحوال النار وأهوالها الآمرة باتقائها (ونكون من المؤمنين) بها كى لا نرى هذا الموقف قرأ ابن عامر وأبو بكر برفع نكذب ونصب نكون أى ولا يكون منا تكذيب مع كوننا من المؤمنين وقرأ حمزة وحفص عن عاصم بنصبهما والتقدير يا ليتنا نرد وانتفاء تكذيب بآيات ربنا وكون من المؤمنين فهذه الاشياء الثلاثة متمناة بقيد الاجتماع وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير والكسائى برفعهما واتفقوا على الرفع فى قوله نرد والمعنى انهم تمنوا الرد الى دار الدنيا وعدم تكذيبهم بآيات ربهم وكونهم من المؤمنين أو المعنى يا ليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين فيكون تمنى الرد مقيدا بهاتين الحالتين (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) أى ليس التمنى الواقع منهم لاجل كونهم راغبين فى الايمان بل لانه ظهر لهم فى موقفهم ما كانوا يخفونه فى الدنيا من تكذيبهم بالنار فان التكذيب بالشئ اخفاء له بلا شك أى فلخوفهم منها ومن العقاب الذى عاينوه قالوا ما قالوا (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) أى ولو ردهم الله تعالى من موقفهم ذلك الى الدنيا كما سألوا وغاب عنهم ما شاهدوه من الاهوال لم يحصل منهم فعل الايمان وترك التكذيب بل كانوا يستمرون على الكفر والتكذيب (وانهم لكاذبون) فى تمنيهم و وعدهم بفعل الايمان وترك التكذيب فان دينهم الكذب لانه قد جرى عليهم قضاء الله تعالى فى الازل بالشرك (وقالوا) أى كفار مكة (ان هى الا حياتنا الدنيا) أى ما حياتنا الا حياتنا الدنيا التى نحن فيها (وما نحن بمبعوثين) بعد ان فارقنا هذه الحيات وليس لنا بعد هذه الحياة ثواب وعقاب (ولو ترى اذ وقفوا على ربهم) أى حبسوا عند ربهم لاجل السؤال كما يوقف العبد الجانى بين يدى سيده للعقاب لرأيت أمرا عظيما أو المعنى وقفوا على جزاء

ربهم أى على ما وعدهم ربهم من عذاب الكافرين وثواب المؤمنين وعلى ما أخبرهم به من أمر الآخرة (قال أليس هذا) أى البعث بعد الموت والثواب والعقاب (بالحق قالوا بلى وربنا) انه لحق وذلك اقرار مؤكد باليمين لانجلاء الامر غاية الانجلاء وهم يطمعون فى نفع ذلك الاقرار وينكرون الاشراك فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين (قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم وجحدكم فى الدنيا بالبعث بعد الموت (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) أى أنكروا البعث والقيامة (حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة) أى انهم كذبوا الى ان ظهرت القيامة باغتة فلا يعلم أحد متى يكون مجيئها وفى أى وقت يكون حصولها (قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) أى يا ندامتنا على تفريطنا فى تحصيل الزاد للساعة فى الدنيا (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) أى والحال انهم يحملون ثقل ذنوبهم عليهم أى انهم يقاسون عذاب ذنوبهم مقاساة ثقل ذلك عليهم فلا يفارقهم ذنوبهم وقال قتادة والسدى ان المؤمن اذا خرج من قبره استقبله شئ هو أحسن الاشياء صورة وأطيبها ريحا ويقول أنا عملك الصالح طال ما ركبتك فى الدنيا فاركبنى فذلك قوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا أى ركبانا وان الكافر اذا خرج من قبره استقبله شئ هو أقبح الاشياء صورة وأخبثها ريحا فيقول أنا عملك الفاسد طال ما ركبتنى فى الدنيا فأنا أركبك اليوم فذلك قوله تعالى وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم (ألا ساء ما يزرون) أى بئس شيأ يحملونه آثامهم (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو) أى وما اللذات والمستحسنات الحاصلة فى هذه الدنيا الا فرح يشغل النفس عما تنتفع به وباطل يصرف النفس عن الجد فى الامور الى الهزل (وللدار الآخرة) أى الجنة أو التمسك بعمل الآخرة أو نعيم الآخرة (خير للذين يتقون) من المعاصى والكبائر وقرأ ابن عامر ولدار الآخرة باضافة دار الى الآخرة (أفلا تعقلون) وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب أى قل لهم ألا تتفكرون أيها المخاطبون فلا تعقلون ان الدنيا فانية والآخرة باقية وقرأ الباقون بالياء على الغيبة أى أيغفل الذين يتقون فلا يعقلون ان الدار الآخرة خير لهم من هذه الدار فيعملون لما ينالون به الدرجة الرفيعة والنعيم الدائم فلا يفترون فى طلب ما يوصل الى ذلك (قد نعلم انه ليحزنك الذين يقولون) انهم لا يؤمنون بك ولا يقبلون دينك وشريعتك أو يقول انك ساحر وشاعر وكاهن ومجنون قرأ نافع ليحزنك بضم الياء وكسر الزاى والباقون بفتح الياء وضم الزى (فانهم لا يكذبونك) قرأ نافع والكسائى بسكون الكاف والباقون بفتحها وتشديد الذال أى لا يجدونك كاذبا لانهم يعرفونك بالصدق والامانة ولا ينسبونك الى الكذب بالاعتقاد واللسان (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أى ولكن يجحدون صحة نبوتك ورسالتك أو المعنى انهم يقولون فى كل معجزة انها سحر وينكرون دلالة المعجزة على الصدق على الاطلاق أو المعنى ان القوم ما كذبوك وانما كذبونى لانك رسولى كقول السيد لعبده وقد أهانه بعض الناس أيها العبد انه ما أهانك وانما أهاننى والمقصود تعظيم الشأن لا نفى الاهانة عن العبد ونظيره قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله * روى ان الحرث بن عامر من من قريش قال يا محمد والله ما كذبتنا قط ولكنا ان اتبعناك نتخطف من أرضنا فنحن لا نؤمن بك لهذا السبب * وروى ان الاخنس بن شريق قال لابى جهل يا أبا الحكم اخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس عندنا أحد غيرنا فقال له والله ان محمدا الصادق وما كذب قط ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا السائر قريش فنزلت هذه الآية وعن على بن أبى طالب ان أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم انا لا نكذبك فانك عندنا لصادق ولكنا نكذب ما جئتنا به فنزلت هذه

الآية (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) أى ولقد كذب الرسل قومهم كما كذبك قومك فصبروا على تكذيبهم وايذائهم لهم حتى أتاهم النصر بهلاك قومهم فاصبر يا أشرف الخلق كما صبروا تظفر كما ظفروا بل أنت أولى بالتزام الصبر لانك مبعوث الى جميع العالمين (ولا مبدل لكلمات الله) بالنصرة فان وعد الله اياك بالنصر حق وصدق ولا يمكن تطرق الخلف والتبديل اليه (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) أى خبرهم فى القرآن كيف كذبهم قومهم وكيف أنجيناهم ودمرنا قومهم (وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الارض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية) أى وان كان شق عليك اعراضهم عن الايمان بما جئت به من القرآن وأحببت ان تجيبهم الى ما سألوه فان قدرت ان تتخذ منفذا تنفذ فيه الى جوف الارض أو مصعدا ترتقى فيه الى السماء فتأتيهم بآية مما اقترحوه عليك من تحت الارض أو من فوق السماء فلتفعل وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أتى النبى صلى الله عليه وسلم فى نفر من قريش فقالوا يا محمد ائتنا بآية من عند الله كما كانت الانبياء تفعل فانا نصدق بك فأبى الله ان يأتيهم بآية مما اقترحوه فأعرضوا عنه صلى الله عليه وسلم فشق ذلك عليه لشدة حرصه على ايمان قومه فنزلت هذه الآية والمقصود من هذا الكلام ان يقطع الرسول طمعه عن ايمانهم وان لا يتأذى بسبب اعراضهم عن الايمان واقبالهم على الكفر وهذا دليل على مبالغة حرصه صلى الله عليه وسلم على اسلام قومه الى حيث لو قدر على ان يأتى بآية من تحت الارض أو من فوق السماء لفعل رجاء لايمانهم (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أى ولو شاء الله تعالى جمعهم على الهدى لجمعهم عليه بأن يوفقهم للايمان فيؤمنوا معكم ولكن لم يشأ لعدم صرف اختيارهم الى جانب الهدى مع تمكنهم التام منه فى مشاهدتهم للآيات الداعية اليه (فلا تكونن من الجاهلين) أى فلا تكونن بالميل الى اتيان اقتراحاتهم من الجاهلين بعدم تعلق مشيئته تعالى بايمانهم لعدم توجههم اليه لخروج الايمان عن الحكمة المؤسسة على الاختيار أو المعنى ولا تجزع على اعراضهم عنك ولا يشتد تحزنك على تكذيبهم بك فان فعلت ذلك فتقارب حالك من حال الجاهلين الذين لا صبر لهم (انما يستجيب الذين يسمعون) أى انما يقبل دعوتك الى الايمان الذين يسمعون ما يلقى اليهم سماع تفهم وانما يطيعك من يعقلون الموعظة دون الموتى الذين هؤلاء منهم (والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون) أى والموتى يبعثهم الله بعد الموت ثم يوقفون بين يديه للحساب والجزاء فالله تعالى هو القادر على احياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الايمان وأنت لا تقدر عليه (وقالوا) أى كفار مكة حرث بن عامر وأصحابه وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأمية وأبى ابنا خلف والنضر بن الحرث (لولا نزل عليه آية من ربه) أى هلا أنزل على محمد من ربه معجزة دالة على نبوته مثل فلق البحر واظلال الجبل واحياء الموتى وانزال الملائكة واسقاط السماء كسفا (قل) لهم يا أكرم الرسل (ان الله قادر على أن ينزل آية) أى ان يوجد خوارق للعادة كما طلبوا (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى لا يدرون ان فى تنزيلها قلعا لاساس التكليف المبنى على قاعدة الاختيار وان الله تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من المعجزات القاهرة فان لم يؤمنوا عند ظهورها لاستحقوا عذاب الاستئصال ولم يبق لهم عذر ولا علة كما هو سنة الله فاقتضت رحمة الله صونهم عن هذا البلاء فما أعطاهم هذا المطلوب رحمة منه تعالى عليهم وان كانوا لا يعلمون كيفية هذه الرحمة (وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) أى وما من دابة تمشى فى الارض أو تسبح فى الماء ولا طائر من الطيور يطير فى ناحية من نواحى الجو

الا

الاطوائف أمثالكم فى ابتغاء الرزق وتوقى المهالك وفى أنها تعرف ربها وتوحده وفى أنها يفهم بعضها عن بعض وفى أنها تبعث بعد الموت للحساب روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من قتل عصفورا عبثا جاء يوم القيامة يعج الى الله يقول يارب ان هذا قتلنى عبثا لم ينتفع بى ولم يدعنى آكل من خشاش الأرض وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقتص للجماء من القرناء والمقصود من هذه الآية الدلالة على كمال قدرته تعالى وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه تعالى قادر على أن ينزل آية (مافرطنا فى الكتاب من شئ) أى ماتركنا فى القرآن شيأ من الاشياء المهمة أى أن القرآن واف ببيان جميع الاحكام فليس لله على الخلق بعد ذلك تكليف آخر وان القرآن دل على أن الاجماع وخبر الواحد والقياس حجة فى الشريعة فكل مادل عليه أحد هذه الاصول الثلاثة كان ذلك فى الحقيقة موجودا فى القرآن روى أن ابن مسعود كان يقول مالى لا ألعن من لعنه الله فى كتابه فقرأت امرأة جميع القرآن فأتته فقالت يا ابن أم عبد تلوت البارحة مابين الدفتين فلم أجد فيه لعن الواشمة والمستوشمة فقال لو تلوته لوجدته قال الله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وان مما آتانا به رسول الله أنه قال لعن الله الواشمة والمستوشمة وذكر أن الشافعى كان جالسا فى المسجد الحرام فقال لا تسألونى عن شئ الا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى فقال رجل ماتقول فى المحرم اذا قتل الزنبور فقال لاشئ عليه فقال أين هذا من كتاب الله فقال قال الله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وقال صلى الله عليه وسلم عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى وقال عمر رضى الله عنه للمحرم قتل الزنبور وروى أن أبا العسيف قال للنبى صلى الله عليه وسلم اقض بيننا بكتاب الله فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لاقضين بينكما بكتاب الله ثم قضى بالجلد والتغريب على العسيف وبالرجم على المرأة وهذا يدل على أن كل ماحكم به النبى صلى الله عليه وسلم هو عين كتاب الله لانه ليس فى نص الكتاب ذكر الجلد والتغريب (ثم الى ربهم يحشرون) فان الله تعالى يحشر الدواب والطيور يوم القيامة بمجرد الارادة ومقتضى الالهية وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من القرناء قال المفسرون انه تعالى بعد توفير العوض عليها يجعلها ترابا وعند هذا يقول الكافر ياليتنى كنت ترابا (والذين كذبوا بآياتنا) التى هى من القرآن (صم) لايسمعونها سمع تدبر وفهم فلذلك يسمونها أساطير الاولين (وبكم) لايقدرون على أن ينطقوا بالحق ولذلك لايستجيبون دعوة الرسول بها (فى الظلمات) أى فى ضلالات الكفر والجهل والعناد فلا يهتدون سبيلا (من يشأ الله يضلله) أى من يشاء الله اضلاله يخلق الله الضلال فيه ويميته على الكفر فيضل يوم القيامة عن طريق الجنة وعن وجدان الثواب (ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) أى ومن يشاء أن يجعله على طريق يرضاه وهو الاسلام يجعله عليه ويهديه اليه ويميته عليه فلا يضل من مشى اليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين) أى قل يا أكرم الرسل لكفار مكة يا أهل مكة اخبرونى ان أتاكم عذاب الله فى الدنيا كالغرق أو الخسف أو المسخ أو نحو ذلك أو أتاكم العذاب عند قيام الساعة أترجعون الى غير الله فى دفع ذلك البلاء أو ترجعون فيه الى الله تعالى ان كنتم صادقين فى ان أصنامكم آلهة فأجيبوا سؤالى أو المعنى ان كنتم قوما صادقين فأخبرونى أالها غير الله تدعون الخ (بل اياه تدعون فيكشف ماتدعون اليه ان شاء) أى انكم لاترجعون فى طلب دفع البلية الا الى الله تعالى فيكشف الضر الذى من أجله دعوتم بمحض مشيئته (وتنسون ماتشركون) أى

وتتركون الاصنام ولا تدعونهم لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع (ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء) أى وبالله لقد أرسلنا الى أمم كثيرة كائنة من زمان قبل زمانك رسلا فخالفوهم فعاقبناهم بشدة الفقر والخوف من بعضهم والامراض والاوجاع (لعلهم يتضرعون) أى لكى يدعوا الله تعالى فى كشفها بالتذلل ويتوبوا اليه من كفرهم ومعاصيهم (فلولا) أى فهلا (اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) من الكفر والمعاصى أى فلم يؤمنوا حين جاءهم عذابنا ولكن ظهر منهم الكفر ووسوس لهم الشيطان ان حال الدنيا هكذا تكون شدة ثم نعمة فلم يخطر ببالهم ان ما أصابهم من الشدائد ما أصابهم الا لاجل عملهم الفاسد (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ) أى فلما انهمكوا فى المعاصى وتركوا ما وعظوا به من الشدائد فتحنا عليهم فنون النعماء على منهاج الاستدراج (حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) أى حتى اذا اطمأنوا بما فتح لهم وبطروا بان ظنوا ان الذى نزل بهم من الشدائد ليس على سبيل الانتقام من الله وان تلك الخيرات باستحقاقهم نزل بهم عذابنا فجأة ليكون عليهم أشد وقعا (فاذا هم مبلسون) أى متحزنون غاية الحزن منقطع رجاؤهم من كل خير (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى قطع غاية المشركين أى استؤصلوا بالهلاك بسبب ظلمهم باقامة المعاصى مقام الطاعات (والحمد لله رب العالمين) على استئصالهم بالنكال فان اهلاك الكفار والعصاة من حيث انه تخليص لاهل الارض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة مستحقة للحمد (قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به) أى قل يا أكرم الخلق لاهل مكة يا أهل مكة اخبرونى ان أزال الله سمعكم وأبصاركم وعقولكم أى فرد من الآلهة الثابتة بزعمكم غير الله يأتيكم بذلك الذى أزيل (انظر) يا أكرم الرسل (كيف نصرف الآيات) أى كيف نكررها متغيرة من نوع الى نوع آخر فتارة بترتيب المقدمات العقلية وتارة بطريق الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين فكل واحد يقوى ما قبله فى الايصال الى المطلوب (ثم هم يصدفون) أى يعرضون عن تلك الآيات وثم لاستبعاد اعراضهم عنها بعد ذكرها على الوجوه المختلفة (قل أرأيتكم) أى أخبرونى يا أهل مكة (ان أتاكم عذاب الله) أى عذابه الخاص بكم (بغتة) أى فجأة بأن يجيئهم من غير سبق علامة تدلهم على مجئ ذلك العذاب (أو جهرة) بأن يجيئهم مع سبق علامة تدل عليه فالعذاب وقع بهم وقد عرفوه حتى لو أمكنهم الاحتراز عنه لتحرزوا منه (هل يهلك الا القوم الظالمون) أى هل يهلك بذلك العذاب غيركم ممن لا يستحقه (وما نرسل المرسلين الا مبشرين) بالثواب على الطاعات (ومنذرين) بالعقاب على المعاصى ولا قدرة لهم على اظهار المعجزات بل ذلك مفوض الى مشيئة الله تعالى (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى فمن قبل قول المرسلين وأتى بعمل القلب الذى هو الايمان وبعمل الجسد الذى هو الاصلاح فلا خوف عليهم من العذاب الذى أنذروه دنيويا كان أو أخرويا ولا هم يحزنون بفوات ما بشروا به من الثواب العاجل والآجل (والذين كذبوا بآياتنا) وهى ما ينطق به الرسل عند التبشير والانذار ويبلغونه الى الأمم (يمسهم العذاب) أى يصيبهم العذاب الذى أنذروه (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم وخروجهم عن الطاعة (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا ما يوحى الى) واعلم أن الكفار طلبوا من رسول الله ان يوسع خيرات الدنيا وان يخبر عما يقع فى المستقبل من المصالح والمضار وطعنوا فيه فى أكل

الطعام والمشي في السوق وفي تزوجه للنساء فأمر الله تعالى أن ينفي عن نفسه أمورا ثلاثة تواضعا لله
تعالى واعترافا له بالعبودية وان يقول لهم انما بعثت مبشرا ومنذرا ولا أدعي كوني موصوفا بالقدرة اللائقة
بالله تعالى وان خزائن الله مفوضة الى أتصرف فيها كيف ما أشاء وأعطيكم منها ما تريدون ولا أدعي كوني
موصوفا بعلم الله تعالى فاخبركم بما تريدون ولا أدعي انى ملك حتى تكلفوني من الخوارق للعادات
مالا يطيق به البشر وحتى تعدوا عدم اتصافي بصفات الملائكة قادحا في أمري فتنكرون قولي
وتجحدون أمري وما أخبركم من غيب الا بوحي من الله أنزله على (قل) لهم (هل يستوي الاعمى
والبصير) أى هل يكونان سواء من غير مزية فان قالوا انهم كابروا الحس وان قالوا لا قيل فمن تبع هذه
الآيات الجليات فهو البصير ومن أعرض فهو الاعمى (أفلا تتفكرون) أى ألا تسمعون هذا الكلام
الحق فلا تتفكرون فيه نزلت هذه الآية من قوله قل لا أقول لكم في أبي جهل وأصحابه الحرث وعيينة
(وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون) أى وأنذر
يا أشرف الرسل بما أوحي اليك من يجوزون الحشر ويرجى منهم التأثر بالتخويف غير منصورين بقريب
ولا مشفوعا لهم من جهة أنصارهم على زعمهم من غير الله تعالى سواء كانوا جازمين بأصل الحشر كالمؤمنين
العاصين وأهل الكتاب المترددين في شفاعة آبائهم الانبياء وبعض المشركين المعترفين بالبعث المترددين
في شفاعة الاصنام أومترددين في أصل الحشر وفي شفاعة الآباء والاصنام معا كبعض الكفرة الذين يعلم
من حالهم انهم اذا سمعوا بحديث البعث يخافون أن يكون حقا فيه لكي ينتهوا عن الكفر والمعاصي
واما المنكرون للحشر بالكلية والقائلون به القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الاصنام فهم خارجون
عن أمر بانذارهم (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) أى الذين يعبدون ربهم بالصلاة
الخمس أو يذكرون ربهم طرفي النهار (يريدون وجهه) أى يريدون بذلك محبة الله تعالى ورضاه أى
مخلصين في ذلك روى انه جاء الاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزارى وعباس بن مرداس
وهم من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم جالسا مع ناس من ضعفاء المؤمنين كعمار بن ياسر
وصهيب وبلال وخباب وابن مسعود وسلمان الفارسي ومهجع وعامر بن فهيرة فلما رأوهم
حوله حقروهم وقالوا يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس وأبعدت عنك هؤلاء ورائحة جبابهم
لجالسناك وأخذنا عنك فقال النبي ما أنا بطارد المؤمنين قالوا فانا نحب ان تجعل لنا منك مجلسا تعرف به
العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء الاعبد فاذا نحن جئناك فاقمهم عنا فاذا
نحن فرغنا فاقعد معهم ان شئت قال نعم قالوا فاكتب لنا عليك بذلك كتابا فأتى بالصحيفة ودعا عليا ليكتب
فنزل جبريل بهذه الآية فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيفة وقال مجاهد قالت قريش لولا بلال
وابن أم عبد لبايعنا محمدا فأنزل الله تعالى هذه الآية وروى أن ناسا من الفقراء كانوا مع النبي صلى الله عليه
وسلم فقال ناس من الاشراف له صلى الله عليه وسلم اذا صلينا فأخر هؤلاء فليصلوا خلفنا فنزلت هذه الآية
(ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) أى ما عليك
من حساب رزق هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي شيء فتملهم وتبعدهم ولا من حساب رزقك عليهم
شيء وانما الرازق لهم ولك هو الله تعالى فدعهم يكونوا عندك ولا تطردهم فتكون من الظالمين لنفسك
بهذا الطرد ولهم لانهم استحقوا مزيد التقريب وقيل ان الكفار طعنوا في ايمان أولئك الفقراء وقالوا
يا محمد انهم انما اجتمعوا عندك وقبلوا دينك لانهم يجدون بهذا السبب مأكولا وملبوسا عندك والا فهم

فارغون عن دينك فقال الله تعالى ان كان الامر كما يقولون فما يلزمك الا اعتبار الظاهر وان كان لهم باطن غير مرضي عند الله فحسابهم عليه لازم لهم لا يتعدى اليك كما أن حسابك عليك لا يتعدى اليهم (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) أى ومثل ذلك الفتون المتقدم فتنا بعض هذه الامة ببعض وكل أحد مبتلى بضده فأولئك الكفار الرؤساء الاغنياء كانوا يحسدون فقراء الصحابة على كونهم سابقين فى الاسلام مسارعين الى قبوله فقالوا لو دخلنا فى الاسلام لوجب علينا أن ننقاد لهؤلاء الفقراء المساكين وان نعترف لهم بالتبعية فامتنعوا من الدخول فى الاسلام لذلك واعترضوا على الله فى جعل أولئك الفقراء رؤساء فى الدين وأما فقراء الصحابة فكانوا يرون أولئك الكفار فى الراحات والمسرات والطيبات والخصب والسعة فكانوا يقولون كيف حصلت هذه الاحوال لهؤلاء الكفار وبالجملة فصفات الكمال مختلفة متفاوتة محجوبة لذاتها موزعة على الخلق فلا تجتمع فى انسان واحد البتة فكل أحد يحسد صاحبه على ما أتاه الله من صفات الكمال (ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) بالايمان بالله ومتابعة الرسول وغرضهم بذلك انكار وقوع المن رأسا وهذه اللام لام كى والتقدير ومثل ذلك الفتون فتنا ليقولوا هذه المقالة امتحانا منا وقيل انها لام الصيرورة والمعنى وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليصبروا أو ليشكروا فكان عاقبة أمرهم ان قالوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا قال تعالى ردا عليهم (أليس الله بأعلم بالشاكرين) لنعمه حتى تستبعدوا انعامه عليهم وفى هذا الاستفهام التقريرى اشارة الى أن الضعفاء عارفون بحق نعم الله تعالى فى تنزيل القرآن وفى التوفيق للايمان شاكرون له تعالى على ذلك وتعريض بان القائلين بتلك المقالة بمعزل من ذلك كله (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) قيل نزلت هذه الآية فى أهل الصفة الذين سأل المشركون رسول الله عليه السلام طردهم فأكرمهم الله تعالى بهذا الاكرام فان الله تعالى نهى رسوله أولا عن ابعادهم ثم أمره بتبشيرهم بالسلامة عن كل مكروه فى الدنيا والرحمة فى الآخرة (كتب ربكم على نفسه الرحمة) أى أوجب على ذاته المقدسة الرحمة بطريق الفضل والكرم تبشيرا لهم بسعة رحمته تعالى وبنيل المطالب (أنه من عمل منكم سوأ) أى ذنبا (بجهالة) بتعمد بسبب الشهوة وكان جاهلا بمقدار ما يستحقه من العقاب وما يفوته من الثواب (ثم تاب من بعده) أى ندم من بعد عمل المعصية (وأصلح) عمله بالتوبة منه تداركا وعزما على أن لا يعود اليه أبدا (فأنه) أى الله (غفور) بسبب ازالة العقاب (رحيم) بسبب ايصال الثواب الذى هو النهاية فى الرحمة (وكذلك نفصل الآيات) أى كما فصلنا لك فى هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد والنبوة والقضاء والقدر فكذلك نفصل لك حججنا فى تقرير كل حق ينكره أهل الباطل (ولتستبين سبيل المجرمين) قرأ نافع لتستبين بالتاء خطاب للنبي وسبيل بالنصب أى ولتستوضح أنت يا محمد سبيل المشركين فتعاملهم بما يليق بهم وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم ليستبين بالياء وسبيل بالرفع والباقون بالتاء وسبيل بالرفع وقوله وليستبين عطف على المعنى كأنه قيل ليظهر الحق وليتضح سبيلهم نفعل ما نفعل من التفصيل (قل) يا أشرف الخلق للمصرين على الشرك (انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) أى انى نهيت فى القرآن عن عبادة ما تعبدونه من دون الله وهو الاصنام (قل لا أتبع أهواءكم) فى عبادة الاحجار وهى أخس مرتبة من الانسان بكثير فانهم كانوا ينحتون تلك الاصنام وانما يعبدونها بناء على محض الهواء لا على سبيل الحجة فان اشتغال الاشرف بعبادة الاخس أمر يدفعه صريح العقل (قد ضللت اذا) اى ان اتبعت أهواءكم (وما أنا من المهتدين) أى ما أنا فى شئ من الهدى حين أكون فى عدادهم (قل انى على بينة) أى حجة

واضحة تفصل بين الحق والباطل وهي الوحي (من ربي) في انه لا معبود سواه (وكذبتم به) أي بربي حيث أشركتم به غيره (ما عندي ما تستعجلون به) أي من العذاب أي ليس أمره بمفوض الى فما الاولى نافية وما الثانية موصولة وسبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم بسبب هذا الشرك وكان النضر بن الحرث وأصحابه يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد ان كنتم صادقين بطريق الاستهزاء أو بطريق الالزام على زعمهم فقال تعالى قل يا أشرف الخلق ليس ما تستعجلونه من العذاب الموعود في القرآن وتجعلون تأخره ذريعة الى تكذيبه في حكمي وقدرتي حتى أجيء به وأظهر لكم صدقه (ان الحكم الا لله) أي ما الحكم في نزول العذاب تعجيلا وتأخيرا الا لله (يقص الحق) قرأ ابن كثير ونافع وعاصم يقص بالصاد المشددة وضم القاف أي ينبئ الحق ويقول الحق لان كل ما أخبر الله به فهو حق وقرأ الباقون يقض بسكون القاف وكسر الضاد بغير ياء لسقوطها في اللفظ أي يقضي القضاء الحق أو يصنع الحق لان كل شيء صنعه الله فهو حق (وهو خير الفاصلين) أي أفضل القاضين (قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الامر بيني وبينكم) أي قل يا أكرم الرسل لو ان في قدرتي ما تطلبون به قبل وقته من العذاب الذي ورد به الوعيد بأن يكون أمره مفوضا الى من الله تعالى لفصل ما بيني وبينكم بأن نزل عليكم ذلك عقب استعجالكم بقولكم متى هذا الوعد واسترحت (والله أعلم بالظالمين) أي أعلم بحال المشركين وبأنهم مستحقون للامهال بطريق الاستدراج فوقع بالنضر بن الحرث العذاب الذي سأل فقتل صبرا يوم بدر (وعنده مفاتح الغيب) أي علم الغيب لان المفاتيح هي التي يتوصل بها الى ما في الخزائن فمن علم كيف يفتح بها ويتوصل بها الى ما فيها فهو عالم أو المعنى وعنده تعالى خاصة خزائن الغيب أي قدرة كاملة على كل الممكنات من المطر والنبات والثمار ونزول العذاب (لا يعلمها الا هو) أي لا يعلم مفاتح الغيب بنزول العذاب الذي تستعجلون به الا هو فالعذاب ليس مقدورا لي حتى أعجله لكم ولا معلوما لي حتى أخبركم بوقت نزوله بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلما (ويعلم ما في البر والبحر) من الموجودات مفصلة على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثر افرادها وانما قدم ذكر البر لان الانسان قد شاهد أحوال البر وكثرة ما فيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال والحيوان والنبات والمعادن وأما البحر فانما أخر ذكره لان احاطة العقل بأحواله أقل لكن الحس يدل على ان عجائب البحر أكثر وأجناس المخلوقات أعجب وان طول البحر وعرضه أعظم (وما تسقط من ورقة) من الشجر والنجم (الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) أي وما حبة ملقاة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس من كل شيء الا في علم الله تعالى فاذا سمع الانسان ان الحبة الصغيرة الملقاة في مواضع متسعة يبقى أكبر الاجسام مخفيا فيها وان الماء والنابت والحي وخلافها لا تخرج عن علم الله تعالى صارت هذه الامثلة منبهة على معنى قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو وقيل والمراد بالكتاب المبين هو اللوح المحفوظ انما كتب هذه الاحوال في اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى في المعلومات فيكون في ذلك عبرة تامة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ لانهم يقابلون به ما يحدث في صحيفة هذا العالم فيجدونه موافقا له (وهو الذي يتوفاكم بالليل) أي ينيمكم في الليل وانما صح اطلاق لفظ الوفاة على النوم لان ظاهر الجسد صار معطلا عن بعض الاعمال عند النوم كما ان جملة البدن صارت معطلة عن كل الاعمال عند الموت فحصل بين النوم والموت مشابهة من هذا الاعتبار (ويعلم ما جرحتم بالنهار) أي يعلم ما كسبتم من أعمال الجوارح في النهار (ثم يبعثكم فيه) أي يوقظكم في

النهار (ليقضى أجل مسمى) أى لكى يتم أجل معين عند الله لكل فرد فرد بحيث لا يكاد يتجاوز أحد ماعين له طرفة عين (ثم اليه مرجعكم) أى رجوعكم بالموت (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) أى يخبركم بمجازاة أعمالكم التى كنتم تعملونها فى الليل والنهار من الخير والشر (وهو القاهر فوق عباده) أى وهو الغالب المتصرف فى أمور عباده يفعل بهم مايشاء ايجادا واعداما واحياء واماتة واثابة وتعذيبا الى غير ذلك فالممكنات كلها مقهورة تحت قهر الله تعالى مسخرة تحت تسخير الله تعالى (ويرسل عليكم حفظة) أى ملائكة يحفظون أعمالكم ويكتبونها فى صحائف تقرأ عليكم يوم القيامة على رؤس الاشهاد (حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) أى حتى اذا انتهت مدة أحدكم وانتهى حفظ الحفظة وجاء أسباب الموت قبضه ملك الموت وأعوانه (وهم) أى هؤلاء الرسل (لا يفرطون) أى لا يؤخرون الميت طرفة عين وقرئ بسكون الفاء أى لا يجاوزون ما حد لهم بزيادة أو نقصان (ثم ردوا الى الله) أى ثم رد جميع البشر بعد البعث بالحشر الى حكم الله وجزائه فى موقف الحساب وقيل المعنى ثم يرد أولئك الملائكة فانهم يموتون كما يموت بنو آدم (مولاهم الحق) أى مالكهم الذى لا يقضى الا بالعدل (ألا له الحكم) يومئذ صورة ومعنى (وهو أسرع الحاسبين) يحاسب جميع الخلائق فى أقصر زمان لا يشغله كلام عن كلام ولا حساب عن حساب وفى الحديث ان الله تعالى يحاسب الكل فى مقدار حلب شاة أى وذلك لانه تعالى لا يحتاج الى فكر وعد (قل) يا أكرم الخلق لكفار مكة (من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) أى من شدائدهما الهائلة التى تبطل الحواس وتدهش العقول (تدعونه) والضمير عائد الى من وهذه الجملة فى محل نصب على الحال اما من مفعول ينجيكم أى من ينجيكم منها داعين اياه واما من فاعله أى من ينجيكم منها مدعوا من جهتكم (تضرعا وخفية) أى تدعونه دعاء اعلان واخفاء أو تدعونه متضرعين ومخلصين بقلوبكم قائلين (لئن أنجيتنا من هذه) أى الاهوال والشدائد (لنكونن من الشاكرين) أى من المؤمنين المداومين على الشكر لاجل هذه النعمة وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر خفية بكسر الخاء والباقون بالضم وعلى هذا الاختلاف فى سورة الاعراف وقرأ الاعمش وخيفة بكسر الخاء فبعده الياء الساكنة من الخوف أى مستكينا أو دعاء خوف والآية تدل على ان الانسان يأتى عند حصول الشدائد بأمور أحدها الدعاء وثانيها التضرع وثالثها الاخلاص بالقلب وهو المراد من قوله وخيفة ورابعها التزام الشدائد بالشكر وهو المراد من قوله لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين وقرأ عاصم وحمزة والكسائى لئن أنجانا على المغايبة وينجيكم بالتشديد فى الموضعين والباقون لئن أنجيتنا على الخطاب وينجيكم بالتشديد والتخفيف وحجة من قرأ على المغايبة ان ماقبل لفظ أنجانا وهو تدعونه وما بعده وهو قل الله ينجيكم منها مذكور بلفظ المغايبة ولا يحتاج فى هذه القراءة على اضمار نحو تقولون فالاضمار خلاف الاصل وحجة من قرأ على المخاطبة قوله تعالى فى آية أخرى لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (قل الله ينجيكم منها) أى الله وحده ينجيكم من شدائد البر والبحر (ومن كل كرب) أى غم سوى ذلك (ثم أنتم) يا أهل مكة بعد ما تشاهدون هذه النعم الجليلة (تشركون) بعبادته تعالى غيره الذى عرفتم انه لا يضر ولا ينفع ولا تفون بعهدكم (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) كالمطر كما فعل بقوم نوح والحجارة كما رمى بها أصحاب الفيل وقوم لوط والصيحة أى صرخة جبريل التى صرخها على ثمود قوم صالح والريح كما فى قوم هود (أو من تحت أرجلكم) كالرجفة وغرق فرعون وخسف قارون (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) أى يخلط أمركم خلط اضطراب

فيجعلكم

وجعلكم فرقا مختلفين على أهواء شتى كل فرقة متابعة لامام فاذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضا (انظر كيف نصرف الآيات) أى نكررها متغيرة من حال الى حال (لعلهم يفقهون) أى كى يقفوا على جلية الامر فيرجعوا عما هم عليه من العناد (وكذب به قومك وهو الحق) أى وكذبوا بالعذاب والحال انه الواقع لا بدوان ينزل بهم أو المعنى وكذب قريش بالقرآن وهو الكتاب الصادق فى كل ما نطق به وفى كونه منزلا من عند الله (قل لست عليكم بوكيل) أى قل يا أكرم الرسل لهؤلاء المكذبين لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم واعراضكم عن قبول الدلائل انما أنا منذر والله هو المجازى لكم بأعمالكم (لكل نبأ مستقر) أى لكل خبر يخبره الله تعالى وقت يحصل فيه من غير تأخير أو المعنى لكل قول من الله من الوعد والوعيد استقرار وحقيقة منه ما يكون فى الدنيا ومنه ما يكون فى الآخرة (وسوف تعلمون) أى ولا بد ان يعلموا ان الامر كما أخبر الله تعالى عنه عند ظهوره (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) أى واذا رأيت أيها السامع الذين يستهزؤن بآياتنا فاترك مجالسهم كى يشرعوا فى حديثهم فى غير آياتنا أى فى غير الاستهزاء بالقرآن ونقل الواحدى ان المشركين كانوا اذا جالسوا المؤمنين وقعوا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن فشتموا واستهزؤا فأمرهم الله بترك مجالسة المشركين (واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) أى وان يشغلك الشيطان فتنسى النهى فتجالسهم فلا تقعد معهم بعد تذكر النهى (وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ ولكن ذكرى لعلهم يتقون) قال ابن عباس قال المسلمون لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا عنهم لما قدرنا على ان نجلس فى المسجد الحرام وأن نطوف بالبيت فنزلت هذه الآية أى ما على الذين يتقون قبائح أعمال الخائضين مما يحاسبون عليه من آثامهم شئ ولكن تذكرة لهم عما هم عليه من القبائح بما أمكن من التذكير لعلهم يجتنبون الخوض حياء أو نحوه وقوله تعالى ذكرى معطوف على محل شئ وهو رفع على انه مبتدأ مؤخر أو اسم ما ومن مزيدة للاستغراق ومن حسابهم حال من شئ (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا) أى أعرض عن الذين نصروا الدين ليتوسلوا به الى أخذ المناصب والرياسة وغلبة الخصم وجمع الاموال ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تقم لهم فى نظرك وزنا وانما نصروا الدين للدنيا لاجل انهم غرتهم الحياة الدنيا أى اطمأنوا بها فلأجل استيلاء حب الدنيا على قلوبهم اعرضوا عن حقيقة الدين واقتصروا على تزيين الظواهر ليتوسلوا بها الى حطام الدنيا واذا تأملت فى حال أكثر الخلق وجدتهم موصوفين بهذه الصفة وداخلين تحت هذه الحالة والله أعلم والمحقق فى الدين هو الذى ينصر الدين لاجل انه قام الدليل على انه صواب (وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت) أى ذكرهم بمقتضى الدين مخافة احتباسهم فى نار جهنم بسبب جنايتهم لعلهم يخافون (ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع) أى ليس للنفس من غير الله ناصر ولا شفيع يمنع عنها العذاب (وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) أى وان تفد تلك النفس بكل فداء لا يقبل منها حتى لو جعلت الدنيا بأسرها فدية من عذاب الله لم تنفع (أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أى أولئك المتخذون دينهم لعبا ولهوا المغترون بالحياة الدنيا هم الذين حبسوا فى جهنم بما كسبوا فى الدنيا لهم شراب من ماء مغلى يتجرجر فى بطونهم وتتقطع به امعاؤهم وعذاب أليم بنار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم المستمر فى الدنيا (قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله) أى قل يا أكرم الرسل لهؤلاء المشركين الذين دعوك الى دين آبائهم كعيينة وأصحابه أنعبد متجاوزين

عبادة الله الجامع لجميع صفات الالوهية مالا يقدر على نفعنا فى الدنيا والآخرة ان عبدناه ولا على ضرنا فيهما اذا تركناه ونرد الى الشرك بعد اذ هدانا الله الى الاسلام وأنقذنا من الشرك وانما يقال لكل من أعرض عن الحق الى الباطل انه رجع الى خلف ورجع على عقبيه لان الاصل فى الانسان هو الجهل ثم اذا تكامل حصل له العلم فاذا رجع من العلم الى الجهل مرة أخرى فكأنه رجع الى أول مرة (كالذى استهوته الشياطين فى الارض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا) أى فيكون مثلنا كالذى استزلته الشياطين من الموضع العالى الى الوهدة السافلة العميقة فى قعر الارض تائها عن الجادة لا يدرى ما يصنع وللنازل الى الوهدة المظلمة عينيه وأصحابه رفقة وهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يدعونه الى الطريق المستقيم يقولون ائتنا الى الجادة والغيلان ينزلونه الى السافلة المظلمة فبقى متحيرا أين يذهب وهذا المثل فى غاية الحسن وذلك لان الذى يهوى من المكان العالى الى الوهدة العميقة يهوى اليها مع الاستدارة على نفسه كما ان الحجر حال نزوله من الاعلى الى الاسفل ينزل على الاستدارة وذلك يدل على كمال التردد والتحير فعند نزوله لا يعرف انه يسقط على موضع يكثر بلاؤه بسبب سقوطه أو يقل فاذا اعتبرت مجموع هذه الاحوال علمت انك لا تجد مثالا للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال (قل ان هدى الله) الذى هدانا اليه وهو الاسلام (هو الهدى) الكامل النافع الشريف وما عداه ضلال محض وغى بحت (وأمرنا لنسلم لرب العالمين وأن أقيموا الصلاة واتقوه) أى قل وأمرنا بأن نخلص العبادة لرب العالمين لانه المستحق للعبادة وقل أقيموا الصلاة واتقوا الله تعالى فى مخالفة أمره والمقصود من ذكر هذين النوعين من الخطاب تنبيه على الفرق بين حالتى الكفر والايمان فان الكافر بعيد غائب والمؤمن قريب حاضر فيخاطب الكافر بخطاب الغائبين لانه كالاجنبى الغائب فيقال له وأمرنا لنسلم لرب العالمين واذا أسلم وآمن صار كالقريب الحاضر فيخاطب بخطاب الحاضرين ويقال له وأقيموا الصلاة واتقوه (وهو الذى اليه تحشرون) أى تجمعون يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم (وهو الذى خلق السموات والارض) وما فيهما (بالحق) أى قائما بالحق لا عابثا (ويوم يقول كن فيكون قوله الحق) أى وأمره المتعلق بكل شئ يريد خلقه حين تعلقه به هو المعروف بالحقية والمراد من هذا الامر التنبيه على نفاذ قدرته ومشيئته فى تكوين الكائنات وهذا بيان ان خلقه تعالى للسموات والارض ليس مما يتوقف على مادة ولا مدة بل يتم بمحض الامر التكوينى من غير توقف على شئ آخر أصلا والمراد بالقول كلمة كن تمثيل لان سرعة قدرته تعالى أقل زمنا من زمن النطق بكن (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) انما أخبر الله عن ملكه يومئذ لانه لا منازع له يومئذ فان الملوك اعترفوا بأن الملك لله الواحد القهار والصور قرن ينفخ فيه اسرافيل نفختين نفخة الصعق أى الموت ونفخة البعث للحساب (عالم الغيب والشهادة) أى عالم ما غاب عن العباد وما علمه العباد وقوله تعالى وله الملك يدل على كمال القدرة وقوله عالم الغيب والشهادة يدل على كمال العلم (وهو الحكيم الخبير) فالحكيم هو المصيب فى أفعاله والخبير هو العالم بحقائق الاشياء من غير اشتباه (واذ قال ابراهيم لأبيه آزر) وهو فى التوراة تارح فلأبى ابراهيم اسمان آزر وتارح بن ناحور واعلم ان جميع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم مطهر من عبادة الاصنام ما دام النور المحمدى فى أصلابهم أما بعد انتقاله منهم فتجوز عليهم عبادة الاصنام وغيرها من سائر أنواع الكفر (أتتخذ أصناما آلهة) أى أتجعل لنفسك أصناما آلهة فتعبد أصناما شتى صغيرا وكبيرا ذكرا وأنثى (انى أراك وقومك فى ضلال مبين) أى انى أراك يا أبت وقومك فى ضلال عن الحق بين فى الاتفاق على عبادة الاصنام (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض

وليكون

وليكون من الموقنين) أى كما أرينا ابراهيم البصيرة فى دينه والحق فى خلاف ما كان قومه عليه من عبادة الاصنام نريه ملكوت السموات والارض من وقت طفوليته ليراها فيتوسل بها الى معرفة جلال الله تعالى وقدسه وعلوه وعظمته وليصير زمان بلوغه من البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى لان مخلوقات الله وان كانت متناهية فى الذوات والصفات فهى غير متناهية من جهات دلالتها على الذوات والصفات كما نقل عن امام الحرمين أنه يقول معلومات الله تعالى غير متناهية ومعلوماته فى كل واحد من تلك المعلومات غير متناهية أيضا وذلك لان الجوهر الفرد يمكن وقوعه فى احيان لانهاية لها على البدل ويمكن اتصافه بصفات لانهاية لها على البدل وكل تلك الاحوال التقديرية دالة على حكمة الله وقدرته واذا كان الجوهر الفرد وهو الجزء الذى لا يتجزأ كذلك فكيف القول فى ملكوت الله تعالى فثبت ان دلالة ملك الله تعالى على سمات عظمته وعزته غير متناهية وحصول المعلومات التى لانهاية لها دفعة واحدة فى عقول الخلق محال فحينئذ لا طريق الى تحصيل تلك المعارف الا بان يحصل بعضها عقب بعض وهذا هو المراد من قول المحققين السفر الى الله له نهاية وأما السفر فى الله فانه لا نهاية له والله أعلم (فلما جن) أى أظلم (عليه الليل) فى السرب (رأى كوكبا) وهى الزهرة وهى فى السماء الثالثة (قال هذا ربى) مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الاصنام والكواكب (فلما أفل) أى غرب (قال لا أحب الآفلين) أى لا أحب الارباب المتنقلين من مكان الى مكان المتغيرين من حال الى حال المحتجبين بالاستتار (فلما رأى القمر بازغا) أى مبتدئا فى الطلوع اثر غروب الكوكب (قال هذا ربى) هذا أكبر من الاول حكاية لقول الخصم الذين يعبدون الكواكب (فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى) الى حضرة الحق (لأكونن من القوم الضالين) فان شيأ مما رأيته لا يليق بالربوبية (فلما رأى الشمس بازغة) أى مبتدئة فى الطلوع (قال هذا ربى هذا أكبر) من الاول والثانى (فلما أفلت) أى هى (قال) مخاطبا للكل صادعا بالحق بينهم (يا قوم انى برىء مما تشركون) بالله من الاجرام المحدثة المحتاجة الى محدث اعلم أن أكثر المفسرين ذكروا أن ملك ذلك الزمان وهو نمروذ بن كنعان رأى رؤيا كأن كوكبا قد طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء وعبرها المعبرون بأنه يولد غلام ينازعه فى ملكه فأمر ذلك الملك بذبح كل غلام يولد فى هذه السنة فحبلت أم ابراهيم به وما أظهرت حبلها للناس فلما جاءها الطلق ذهبت الى كهف ووضعت ابراهيم فيه وسدت الباب بحجر فجاء جبريل عليه السلام ووضع أصبعه فى فمه فخرج منه رزقه وكان يتعهده جبريل عليه السلام فكانت الام تأتيه أحيانا وترضعه وبقى على هذه الصفة حتى كبر وعقل وعرف ان له ربا فسأل الام فقال لها من ربى فقالت أنا فقال ومن ربك قالت أبوك فلما أتاه أبوه آزر فقال يا أبتا من ربى قال أمك قال فمن رب أمى قال أنا قال فمن ربك قال ملك البلد نمروذ فعرف ابراهيم جهلهما بربهما فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فنظر من باب ذلك الغار ليرى شيأ يستدل به على وجود الرب تعالى فرأى النجم الذى هو أضوأ النجوم فى السماء فقال هذا ربى الى آخر القصة ولما تبرأ ابراهيم من المشركين توجه الى منشئ هذه المصنوعات فقال (انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض) أى انى وجهت طاعتى وصرفت وجه قلبى للذى أخرج السموات والارض الى الوجود (حنيفا) أى مائلا عن كل معبود دون الله تعالى (وما أنا من المشركين) فى شىء من الافعال والاقوال (وحاجه قومه) أى خاصموه فى آلهتهم وخوفوه بها روى أنه لما شب ابراهيم جعل آزر يصنع الاصنام ويعطيها له ليبيعها فيذهب بها وينادى من يشترى ما يضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد فاذا بارت عليه ذهب بها الى نهر وضرب فيه رؤسها وقال

لها اشر بى استهزاء بقومه حتى فشا فيهم استهزاؤه بها فقالوا له احذر الاصنام فانا نخاف أن تمسك بخبل أو جنون بعيبك اياها فذلك قوله تعالى وحاجه قومه (قال) أى ابراهيم لهم (أتحاجونى فى الله) أى أتخاصموننى فى وحدانية الله (وقد هدان) لدينه فكيف ألتفت الى حجتكم العليلة وكلماتكم الباطلة (ولا أخاف ما تشركون به) من الاصنام لان الخوف انما يحصل عن يقدر على النفع والضر والاصنام جمادات لا قدرة لها على النفع والضر فكيف يحصل الخوف منها (الا أن يشاء ربى شيأ) أى لا أخاف معبوداتكم فى وقت قط لانها لا تقدر على منفعة ولا مضرة الا أن يشاء ربى شيأ من المكروه يصيبنى من جهتها كأن يحييها ويمكنها من ايصال المنفعة والمضرة الى أو من نزع المعرفة من قلبى فأخاف مما تخافون (وسع ربى كل شىء علما) فانه علام الغيوب فلا يفعل الا الصلاح والحكمة فبتقدير أن يحدث من مكاره الدنيا فذلك لانه تعالى عرف وجه الصلاح والخير فيه لا لاجل انه عقوبة على الطعن فى الهية الاصنام (أفلا تتذكرون) ان نفى الشركاء عن الله تعالى لا يوجب نزول العذاب واثبات التوحيد له تعالى لا يوجب استحقاق العقاب أو المعنى أتعرضون عن التأمل فى أن آلهتكم جمادات لا تضر ولا تنفع فلا تتذكرون أنها غير قادرة ولا تتعظون فيما أقول لكم من النهى (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا) أى وكيف أخاف الاصنام التى لا قدرة لها على النفع والضر وأنتم لا تخافون من الله اشراككم بالله ما يمتنع حصول الحجة فيه أو ما لم يرد الامر به أى وكيف أخاف أنا ما ليس فى حيز الخوف أصلا وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخوفات وهو اشراككم بالله الذى لا يماثل ذاته وصفاته شىء فى الارض ولا فى السماء ما هو من جملة مخلوقاته (فأى الفريقين أحق بالأمن) أى ما لكم تنكرون على الامن فى موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الامن فى موضع الخوف فأى الفريقين من الموحدين والمشركين أحق بالامن من معبود أحد الفريقين (ان كنتم تعلمون) من أحق بذلك فأخبرونى فلم يجيبوا فأجاب الله ما سأل عنهم فقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن) أى الفريق الذين آمنوا ولم يخلطوا ايمانهم بشرك بأن لم يثبتوا لله شريكا فى المعبودية أولئك لهم الامن من العذاب (وهم مهتدون) الى الصواب ومن عداهم فى ضلال ظاهر والله تعالى شرط فى الايمان الموجب للامن عدم الظلم أى عدم النفاق بالايمان وأما الفاسق فهو مؤمن فوعيد الفاسق من أهل الصلاة يحتمل أن يعذبه الله وأن يعفو عنه فالامن زائل والخوف حاصل فلم يلزم من عدم الامن القطع بحصول العذاب والله أعلم (وتلك) أى ما احتج به ابراهيم على قومه (حجتنا آتيناها) أى ألهمناها (ابراهيم على قومه) متعلق بحجتنا (نرفع درجات من نشاء) قرأ عاصم وحمزة والكسائى بغير اضافة أى نرفع من نشاء رفعه فى رتب عظيمة عالية من العلم والحكمة والمنزلة وقرأ الباقون بالاضافة (ان ربك) يا أكرم الرسل (حكيم) فى كل ما فعل من رفع وخفض (عليم) بحال من يرفعه أى ان الله يرفع درجات من يشاء بمقتضى حكمته وعلمه فان أفعاله تعالى منزهة عن العبث (ووهبنا له) أى لابراهيم لصلبه (اسحق ويعقوب) من اسحق (كلا هدينا) أى كل واحد من ابراهيم واسحق ويعقوب أرشدنا الى النبوة والرسالة (ونوحا هدينا من قبل) أى من قبل ابراهيم (ومن ذريته) أى وهدينا من ذرية نوح (داود وسليمان وأيوب) هو ابن أموص من أسباط عيص بن اسحق (ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين) أى ونجزى المحسنين المذكورين جزاء كائنا مثل ذلك الجزاء على احسانهم وهو الاتيان بالاعمال الحسنة على حسنها الوصفى المقارن لحسنها الذاتى وقد فسره النبى صلى

الله عليه وسلم بقوله الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (وزكريا) ابن أذن (ويحيى) ابنه (وعيسى) بن مريم بنت عمران (والياس) بن ياسين بن فنحاص بن عيزار بن هرون بن عمران (كل) أى كل واحد من أولئك المذكورين (من الصالحين) أى من الكاملين فى الصلاح وهو الاتيان بما ينبغى والتحرز عما لا ينبغى (واسمعيل) بن ابراهيم (واليسع) بن أخطوب ابن العجوز قرأ حمزة والكسائى والليسع بتشديد اللام وسكون الياء والباقون واليسع بلام واحدة ساكنة وبفتح الياء (ويونس) بن متى (ولوطا) بن هاران أخى ابراهيم (وكلا) من هؤلاء الانبياء (فضلنا على العالمين) فهم يفضلون على الملائكة والاولياء واعلم أن الله تعالى خص كل طائفة من الانبياء بنوع من الكرامة والفضل فمنهم أصول الانبياء واليهم يرجع حسبهم جميعا وهم نوح وابراهيم واسحق ويعقوب ثم المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق بعد النبوة الملك والسلطان والقدرة وقد أعطى الله داود وسليمان من هذا الباب نصيبا عظيما ثم المرتبة الثالثة البلاء الشديد والمحنة العظيمة وقد خص الله أيوب بهذه الخاصية والمرتبة الرابعة من كان مستجمعا لهاتين الحالتين وهو يوسف فانه نال البلاء الكثير فى أول الامر ثم أعطاه الله النبوة مع ملك مصر والمرتبة الخامسة من فضائل الانبياء قوة المعجزات وكثرة البراهين والمهابة العظيمة والصولة الشديدة وذلك فى حق موسى وهرون والمرتبة السادسة الزهد الشديد والاعراض عن الدنيا وترك مخالطة الخلق وذلك كما فى حق زكريا ويحيى وعيسى والياس ولهذا السبب وصفهم الله بانهم من الصالحين ثم ذكر الله بعد هؤلاء من لم يبق له فيما بين الخلق اتباع وهم اسماعيل واليسع ويونس ولوط والله أعلم (ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم) وهذا اما عطف على كلا فالعامل فيه فضلنا ومن تبعيضية أو على نوحا فالعامل فيه هدينا ومن ابتدائية والمفعول محذوف أى وهدينا بالنبوة والاسلام من آبائهم جماعات كثيرة آدم وشيث وادريس وهود وصالح ومن ذرياتهم جماعات كثيرة وأولاد يعقوب ومن اخوانهم جماعات اخوة يوسف (واجتبيناهم) أى اصطفيناهم بالنبوة والرسالة (وهديناهم الى صراط مستقيم) أى الى معرفة التوحيد وتنزيه الله تعالى عن الشرك (ذلك) أى معرفة الله بوحدانيته (هدى الله) أى دين الله فان الايمان لا يحصل الا بخلق الله تعالى (يهدى به من يشاء من عباده) وهم المستعدون للهداية فى الارشاد (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) أى ولو أشرك هؤلاء الانبياء لحبط عنهم مع فضلهم وعلو درجاتهم أعمالهم المرضية وعباداتهم الصالحة فكيف بمن عداهم والمقصود من هذا الكلام تقرير التوحيد وابطال طريقة الشرك (أولئك) أى الانبياء الثمانية عشر (الذين آتيناهم الكتاب) أى أعطيناهم فهما تاما لما فى الكتاب وعلما محيطا بأسراره (والحكم) فان الله تعالى جعلهم حكاما على الناس نافذى الحكم فيهم بحسب الظاهر (والنبوة) فيقدرون بها على التصرف فى ظواهر الخلق كالسلاطين وفى بواطنهم وأرواحهم كالعلماء (فان يكفر بها) أى بهذه الثلاثة (هؤلاء) أى كفار قريش (فقد وكلنا بها) أى وفقنا للايمان بها والقيام بحقوقها (قوما ليسوا بها بكافرين) أى بجاحدين فى وقت من الاوقات وهم الانصار وأهل المدينة (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) أى أولئك الذين قصصناهم من النبيين هداهم الله بالاخلاق الحسنى فبأخلاقهم الشريفة اقتده واستدل بهذه الآية بعض العلماء على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الانبياء وذلك لان جميع الصفات الحميدة كانت متفرقة فيهم فأمر الله تعالى رسوله سيدنا محمدا صلى الله عليه

وسلم أن يقتدي بهم بأسرهم في جميع صفات الكمال التي كانت متفرقة فيهم فيلزم انه صلى الله عليه وسلم حصلها ومتى كان الامر كذلك وجب ان يقال انه صلى الله عليه وسلم أفضل منهم بكليتهم فكان نوح صاحب تحمل الاذى من قومه وكان ابراهيم صاحب كرم وبذل مجاهدة في الله تعالى وكان اسحق و يعقوب صاحبي صبر على البلاء والمحن وكان داود وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة وكان أيوب صاحب صبر على البلاء وكان يوسف جامعا بين الصبر والشكر وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة وكان زكريا ويحيي وعيسى والياس من أصحاب الزهد في الدنيا وكان اسماعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع (قل) يا أشرف الخلق لأهل مكة (لا أسألكم عليه) أى القرآن (أجرا) من جهتكم (ان هو الا ذكرى للعالمين) أى ما القرآن الا عظة للجن والانس من جهته تعالى (وما قدروا الله حق قدره) أى ما عرفوه تعالى حق معرفته في اللطف بعباده والرحمة عليهم ولم يراعوا حقوقه تعالى في ذلك (اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ) روى ان مالك ابن الصيف وهو من أحبار اليهود ورؤسائهم جاء في مكة يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم وكان رجلا سمينا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها ان الله تعالى يبغض الحبر السمين فقال نعم وكان يحب اخفاء ذلك لكن أقر لاقسام النبي عليه فقال له النبي أنت حبر سمين وقد سمنت من الاشياء التي تطعمك اليهود فضحك القوم فغضب مالك بن الصيف ثم التفت الى عمر فقال ما أنزل الله على بشر من شئ فقال أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى فقال والله ما أنزل الله على بشر من شئ فلما سمع قومه تلك المقالة قالوا ويلك ما هذا الذى بلغنا عنك أليس الله أنزل التوراة على موسى فلم قلت هذا قال أغضبني محمد فقلته فقالوا وأنت اذا غضبت تقول على الله غير الحق فعزلوه من الحبرية وعن رياستهم لاجل هذا الكلام وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف (قل) لهم (من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس) أى حال كون الكتاب ظاهرا جليا في نفسه وهاديا للناس من الضلالة (تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) أى تضعون الكتاب في ورقات مفرقة فجعلوه أجزاء نحو نيف وثمانين جزء وفعلوا ذلك ليتمكنوا من اخفاء من أرادوا اخفاءه فيجعلون ما يريدون اخفاءه على حدة ليتمكنوا من اخفائه قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة في الافعال الثلاثة والباقون بتاء الخطاب (وعلمتم) أيها اليهود من الاحكام وغيرها (ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) من قبل نزول التوراة وقيل المراد من قوله تعالى وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ان التوراة كانت مشتملة على البشارة بمقدم محمد واليهود قبل مقدمه صلى الله عليه وسلم كانوا يقرؤن تلك الآيات وما كانوا يفهمون معانيها فلما بعث الله محمدا ظهر ان المراد من تلك الآيات هو مبعثه صلى الله عليه وسلم (قل الله) أى قل يا أكرم الرسل المنزل لهذا الكتاب هو الله تعالى (ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) أى ثم اتركهم في باطلهم الذى يخوضون فيه يسخرون فانك اذا أقمت الحجة لم يبق عليك من أمرهم شئ البتة (وهذا كتاب أنزلناه) أى وهذا القرآن كتاب أنزلناه بالوحي على لسان جبريل (مبارك) أى كثير خيره دائم منفعته يبشر بالمغفرة ويزجر عن المعصية (مصدق الذى بين يديه) أى موافق للكتب التي قبله في التوحيد وتنزيه الله والدلالة على البشارة والنذارة (ولتنذر أم القرى) قرأ شعبة لينذر على الغيبة أى لينذر الكتاب والباقون ولتنذر بالخطاب أى ولتنذر يا أكرم الرسل أهل مكة سميت أم القرى لانها قبلة أهل الدنيا ولانها موضع الحج وهى من أصول عبادات أهل الدنيا فيجتمع الخلق اليها كما يجتمع الاولاد الى الام فلما اجتمع أهل الدنيا فيها بسبب الحج فيلزم ان يحصل فيها أنواع التجارات

وهى من أصول المعيشة فلهـذا السبب سميت مكة أم القرى (ومن حولها) أى من أهل جميع بلاد العالم (والذين يؤمنون بالآخرة) أى بالوعد والوعيد والثواب والعقاب (يؤمنون به) أى بالكتاب (وهم على صلاتهم يحافظون) فإن الايمان بالآخرة يحمل على الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك يحمل على المحافظة على الصلاة وتخصيصها بالذكر لانها أشرف العبادات بعد الايمان بالله فلم يقع اسم الايمان على شىء من العبادات الظاهرة الا على الصلاة قال تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم أى صلاتكم ولم يقع اسم الكفر على شىء من المعاصى الا على ترك الصلاة قال صلى الله عليه وسلم من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) نزل هذا فى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة وفى الاسود العنسى صاحب صنعاء فانهما كانا يدعيان النبوة والرسالة من عند الله تعالى على سبيل الكذب (أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شىء) روى ان عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نزل قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين أملاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما بلغ قوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر عجب عبد الله من تفصيل خلق الانسان فقال فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا انزلت الآية اكتبها كذلك فشك عبد الله وقال ان كان محمد صادقا فقد أوحى الى مثل ما أوحى اليه فارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين ثم رجع بعد ذلك الى الاسلام فأسلم قبل فتح مكة حين نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) كما ادعى النضر بن الحرث معارضة القرآن فانه قال فى شأن القرآن انه من أساطير الاولين وكل أحد يمكنه الاتيان بمثله وقال لو نشاء لقلنا مثل هذا قال العلماء وقد دخل فى حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذبا فى ذلك الزمان وبعده لان خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم (ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) أى ولو ترى يا أشرف الخلق الظالمين وقت كونهم فى شدائد الموت فى الدنيا والملائكة باسطوا أيديهم لقبض أرواحهم قائلين لهم أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد وخلصوها من هذه الآلام هذا الوقت تجزون العذاب الذى يقع به الهوان الشديد بسبب الافتراء على الله والتكبر على آيات الله لرأيت أمرا فظيعا أو المعنى ولو ترى الظالمين اذا صاروا الى أنواع الشدائد والتعذيبات فى الآخرة فادخلوا جهنم والملائكة باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب مبكتين لهم قائلين أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب الشديد هذا الوقت تجزون العذاب المشتمل لاهانة بسبب كونكم قائلين قولا غير الحق وكونكم مستكبرين عن الايمان بآيات الله لرأيت أمرا عظيما (ولقد جئتمونا) للحساب (فرادى) عن الاهل والمال والجاه (كما خلقناكم أول مرة) أى مشبهين ابتداء خلقكم حفاة عراة غرلا بهما أى ليس معهم شىء (وتركتم) بغير اختياركم (ما خولناكم) أى أعطيناكم من الاموال (وراء ظهوركم) فى الدنيا اما اذا صرف الاموال الى الجهات الموجبة لتعظيم أمر الله وللشفقة على خلق الله فما تركها وراء ظهره بل قدمها تلقاء وجهه (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) أى وما نرى معكم أصنامكم التى زعمتم انها شركاء الله فى استحقاق عبادتكم (لقد تقطع بينكم) قرأ نافع وحفص عن عاصم والكسائى بالنصب أى لقد تقطع الشركة بينكم والباقون بالرفع أى لقد تقطع وصلكم فالبين اسم يستعمل للوصل والفراق فهو مشترك بينهما كالجون للاسود والابيض (وضل) أى ضاع (عنكم ما كنتم تزعمون) ان الاصنام شفعاؤكم (ان الله

فالق الحب) أى شاق جميع الحبوب من الحنطة وغيرها (والنوى) وهى التى فى داخل الثمار أى فاذا وقعت الحبة أو النواة فى الارض الرطبة ثم مر عليها مدة أظهر الله تعالى فى تلك الحبة أو النواة من أعلاها شقا ومن أسفلها شقا آخر فيخرج من الحبة ورق أخضر ومن النواة شجرة صاعدة فى الهواء ويخرج منها عروق هابطة فى الارض (يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى) أى يخرج من النطفة بشرا حيا ومن البيضة فروخا حية ومن الحب اليابس نباتا غضا ومن الكافر مؤمنا ومن العاصى مطيعا وبالعكس (ذلكم الله فأنى تؤفكون) أى ذلكم الله المدبر الخالق النافع الضار المحيي المميت فمن أين تكذبون فى اثبات القول بعبادة الاصنام وقيل المراد الانكار على تكذيبهم بالحشر والنشر فالمعنى انكم لما شاهدتم أنه تعالى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ثم شاهدتم أنه تعالى أخرج البدن الحى من النطفة الميتة مرة واحدة فكيف تستبعدون أن يخرج البدن الحى من ميت التراب الرميم مرة أخرى (فالق الاصباح) أى فالق ظلمة الاصباح بنور الاصباح وذلك لان الافق من الجانب الغربى والشمالى والجنوبى مملوء من الظلمة وانما ظهر النور فى الجانب الشرقى فكأن الافق كان بحرا مملوأ من الظلمة ثم انه تعالى شق ذلك البحر المظلم بأن أجرى جدولا من النور فيه (وجعل الليل سكنا) أى يستريح فيه الخلق من التعب الحاصل فى النهار قرأ عاصم وحمزة والكسائى على صيغة الماضى والباقون على صيغة اسم الفاعل (والشمس والقمر حسبانا) أى قدر الله تعالى حركة بمقدار معين من السرعة والبطء بحيث تتم الدورة فى سنة وقدر حركة القمر بحيث يتم الدورة فى شهر وبهذه المقادير تنتظم مصالح العالم فى الفصول الاربعة وبسببها يحصل ما يحتاج اليه من نضج الثمار وحصول الغلات (ذلك تقدير العزيز العليم) أى حصول هذه الاحوال لا يمكن الا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات وبعلم نافذ فى جميع المعلومات من الكليات والجزئيات فليس حصول حركات اجرام الافلاك بصفاتها المخصوصة بالطبع وانما هو بتخصيص الفاعل المختار (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) أى وهو الذى خلق لكم النجوم لاهتدائكم بها فى مشتبهات الطرق اذا سافرتم فى بر أو بحر ولاستدلالكم بها على معرفة القبلة وعلى معرفة أوقات الصلاة (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) أى قد بينا العلامات الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا لقوم يتأملون فيستدلون بالمحسوس على المعقول وينتقلون من الشاهد الى الغائب أى فان هذه النجوم كما يستدل بها على الطرقات فى ظلمات البر والبحر فكذلك يستدل بها على معرفة الصانع الحكيم وكمال قدرته وعلمه (وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة) أى الذى خلقكم مع كثرتكم من نفس آدم عليه السلام (فمستقر ومستودع) قرأ ابن كثير وأبو عمرو فمستقر بكسر القاف والباقون بفتحها وأما مستودع فهو بفتح الدال لا غير فالمعنى على الاول فمنكم مستقر ومنكم شىء مودع فى الصلب وهو النطفة وعلى الثانى فلكم مكان استقرار وهو الارحام ومكان استيداع وهو نفس الاصلاب والفرق بين المستقر والمستودع ان المستقر ما لم يكن على قرب الزوال والمستودع ما كان على قرب الزوال فان النطفة تبقى فى صلب الاب زمانا قصيرا والجنين يبقى فى رحم الام زمانا طويلا ولما كان المكث فى بطن الام أكثر من المكث فى صلب الاب حمل المستقر على الرحم والمستودع على الصلب وقيل ان المستقر صلب الاب والمستودع رحم الام لان النطفة حصلت فى صلب الاب قبل حصولها فى رحم الام فحصول النطفة فى الرحم من فعل الرجل مشبه بالوديعة وحصولها فى الصلب لا من جهة الغير وقال أبو مسلم الاصبهانى أن تقدير الآية هو الذى

أنشأكم من نفس واحدة فمنكم ذكر ومنكم أنثى وانما عبر عن الذكر بالمستقر لان النطفة انما تنشأ فى صلبه وتستقر فيه وانما عبر عن الانثى بالمستودع لان رحمها شبيه بالمستودع لتلك النطفة (قد فصلنا الآيات) أى قد بينا العلامات الدالة على قدرتنا من تفاصيل خلق البشر (لقوم يفقهون) أى يدققون النظر فان انشاء الانس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف صنعة وان الاستدلال بالانفس أدق من الاستدلال بالنجوم فى الآفاق لظهورها (وهو الذى أنزل من السماء ماء) أى وهو الله الذى خلق هذه الاجسام فى السماء ثم ينزلها الى السحاب ثم من السحاب الى الارض (فأخرجنا به) أى بسبب الماء (نبات كل شئ) من الاشياء التى تنمو من أنواع النجم والشجر (فأخرجنا منه) أى النبات (خضرا) أى زرعا والمراد من هذا الخضر العود الاخضر الذى يخرج أولا فى القمح والشعير والذرة والارز ويكون السنبل فى أعلاه (نخرج منه) أى من ذلك الخضر (حبا متراكبا) بعضه على بعض فى سنبلة واحدة (ومن النخل من طلعها) أى كيزانها قبل أن ينشق عن الاغريض (قنوان) أى عراجين تدلت من الطلع (دانية) أى قريبة من القاطف يناله القائم والقاعد (وجنات من أعناب) قرأ عاصم بالرفع وهى قراءة على أى ومن الكرم جنات من اعناب والباقون بالنصب والتقدير وأخرجنا بالماء بساتين من أعناب (والزيتون والرمان) أى شجرهما والاحسن أن ينتصبا على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم (مشتبها وغير متشابه) أى ان هذه الفواكه قد تكون متشابهة فى اللون والشكل مع أنها تكون مختلفة فى الطعم واللذة وقد تكون مختلفة فى اللون والشكل مع أنها تكون متشابهة فى الطعم واللذة وأيضا بعض حبات العنقود من العنب متشابهة و بعضها غير متشابه فانك اذا أخذت العنقود ترى جميع حباته نضيجة حلوة طيبة الا حبات مخصوصة منها بقيت على أول حالها من الخضرة والحموضة والعفوصة (انظروا) أيها المخاطبون نظر اعتبار (الى ثمره) أى ثمر كل واحد مما ذكر قرأ حمزة والكسائى بضم الثاء والميم وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم والباقون بفتح الثاء والميم (اذا أثمر) أى اذا خرج ثمره فتجده ضئيلا لا يكاد ينتفع به (و ينعه) أى وانظروا الى حال نضجه وكماله فتجده وقد صار قويا جامعا للمنافع جمة (ان فى ذلكم) أى فى اختلاف الالوان وهو ما أمر بالنظر اليه (لآيات) أى عظيمة دالة على وجود القادر الحكيم و وحدته (لقوم يؤمنون) أى لمن سبق فى حقه قضاء الله بالايمان فأما من سبق له قضاء الله بالكفر لم ينتفع بهذه الدلالة البتة أصلا (وجعلوا لله شركاء الجن) أى قال المجوس ان الله تعالى وابليس اخوان شريكان فالله تعالى خالق الناس والدواب والانعام وابليس خالق السباع والحيات والعقارب وقالوا كل ما فى هذا العالم من الخيرات فهو من يزدان وجميع ما فيه من الشرور فهو من أهرمن وهو المسمى بابليس فى شرعنا (وخلقهم) أى وقد علموا أن الله خلقهم فان أكثر المجوس معترفون بأن ابليس ليس بقديم بل هو حادث وانما كان ابليس أصلا لجميع الشرور والآفات والمفاسد والقبائح وقد سلموا أن اله العالم هو الخالق لما هو أصل الشرور والقبائح والمفاسد ثم ان فى المجوس من يقول أنه تعالى تفكر فى مملكة نفسه واستعظمها فحصل نوع من العجب فنشأ الشيطان عن ذلك العجب ومنهم من يقول شك فى قدرة نفسه فنشأ من شكه الشيطان فهؤلاء معترفون بأن أهرمن محدث وان محدثه هو الله تعالى فقوله تعالى وخلقهم اشارة الى هذا المعنى والضمير عائد الى الجن (وخرقوا له بنين و بنات بغير علم) قرأ نافع خرقوا بتشديد الراء والجمهور بتخفيفها وقرأ ابن عباس بالحاء المهملة والفاء وتخفيف الراء وابن عمر كذلك الا أنه شدد الراء أى كذبوا فى الله حيث

وصفوا لله تعالى بثبوت البنين والبنات مصاحبين لجهل حقيقة ماوصفوه فالذين أثبتوا البنين النصارى وقوم من اليهود حيث قال النصارى المسيح ابن الله واليهود عزير بن الله والذين أثبتوا البنات العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله فلو عرفوا أن الاله يجب أن يكون واجب الوجود لذاته لامتنعوا أن يثبتوا له تعالى البنين والبنات فان الولد دال على كونه منفصلا من جزء من أجزاء الوالد وذلك انما يكون فى مركب يمكن انفصال بعض أجزائه وذلك فى حق الفرد الواجب لذاته محال فمن عرف حقيقة الاله استحال أن يقول له تعالى ولد (سبحانه) نزه الله ذاته بنفسه عما لا يليق به (وتعالى) أى تقدس (عما يصفون) بأن له تعالى شريكا وولدا فالتسبيح يرجع الى قول المسبح والتعالى يرجع الى صفته الذاتية التى حصلت له تعالى سواء سبحه تعالى مسبح أم لا (بديع السموات والارض) والمعنى أن الله تعالى أخرج عيسى الى الوجود من غير سبق الاب والنطفة كما انه تعالى خلق السموات والارض من غير سبق مادة ومدة فلو لزم من مجرد كونه تعالى مبدعا لاحداث عيسى كونه تعالى والداله عليه السلام لزم من كونه تعالى مبدعا للسموات والارض كونه تعالى والدالهما وذلك باطل بالاتفاق فثبت أن مجرد كونه تعالى مبدعا لعيسى لا يقتضى كونه والداله (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة) أى من أين يكون له تعالى ولد والحال ليس له زوجة أى لان الولد لا يصح الا ممن كانت له زوجة وشهوة وينفصل عنه جزء ويحتبس ذلك الجزء فى باطن تلك الزوجة وهذه الاحوال انما تثبت فى حق الجسم الذى يصح عليه الاجتماع والافتراق والحركة والسكون والشهوة واللذة وكل ذلك محال على خالق العالم (وخلق كل شئ) أى من أين يكون له ولد والحال أنه تعالى خلق جميع الاشياء فان تحصيل الولد بطريق الولادة انما يصح فى حق من لا يقدر على التكوين دفعة واحدة فمن كان قادرا على تكوين كل المحدثات فاذا أراد احداث شئ قال له كن فيكون ومن كان صفته هكذا امتنع منه احداث شخص بطريق الولادة (وهو بكل شئ عليم) أى فان علم الله ان فى تحصيل الولد نفعاله تعالى وكمالا وجب حصول الولد قبل ذلك وهذا يوجب كون ذلك الولد أزليا وهو محال وان علم انه ليس له تعالى فى تحصيل الولد ازدياد مرتبة فى الالهية ولا كمال حال فيها وجب ان لا يحدثه البتة فى وقت من الاوقات وأيضا الولد المعتاد انما يحدث بقضاء الشهوة وهو يوجب اللذة وهى مطلوبة لذاتها فوجب ان يعلم الله ان تحصيل تلك اللذة يدعوه الى تحصيلها قبل ذلك الوقت فوجب ان يحصل تلك اللذة فى الازل فلزم كون الولد أزليا وذلك محال فثبت عدم صحة الولد عليه تعالى (ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شئ فاعبدوه) واسم الاشارة راجع الى الاله الموصوف بما تقدم من الصفات واسم الجلالة خبر أول ربكم خبر ثان لا اله الا هو خبر ثالث خالق كل شئ خبر رابع والفاء فى قوله فاعبدوه لمجرد السببية من غير عطف أى ثبت ان اله العالم فرد صمد منزه عن الشريك والنظير والضد والاولاد وذلك الجامع لهذه الصفات العظيمة هو الله المستحق للعبادة مالك أمركم لا شريك له فى ذلك خالق ما كان وما يكون فاعبدوه ولا تعبدوا أحدا غيره وللعلماء فى اثبات التوحيد طرق كثيرة ومن جملتها هذه الطريقة وتقريرها من وجوه الاول ان يقال الصانع الواحد كاف فى كونه الها للعالم ومدبرا له وما زاد على الواحد فالقول فيه متكافئ لانه لم يدل الدليل على ثبوته لانه يلزم اما اثبات آلهة لا نهاية لها وهو محال أو اثبات عدد معين مع انه ليس ذلك العدد أولى من سائر الاعداد وهو محال أيضا واذا كان القسمان باطلين لم يبق الا القول بالتوحيد والثانى ان يقال ان الاله القادر على كل الممكنات العالم بكل المعلومات كاف فى تدبير العالم فلو قدرنا الها ثانيا فاما ان يكون فاعلا أولا فان كان

فاعلا صار مانعا للآخر عن تحصيل مقدوره وذلك يوجب كون كل واحد منهما سببا لعجز الآخر وهو محال وان لم يكن فاعلا كان ناقصا معطلا وذلك لا يصلح للالهية والثالث ان يقال ان الاله الواحد لابد وان يكون كاملا فى صفات الالهية فلو فرضنا الها ثانيا فاما ان يكون مشاركا للاول فى جميع صفات الكمال أولا فان كان مشاركا فى ذلك فاما ان يكون متميزا عن الاول أولا فان لم يكن متميزا عنه بأمر من الامور لم يحصل الاثنينية وان امتاز بصفات الكمال لم يكن جميع صفات مشتركا فيه بينهما وان امتاز بغير صفات الكمال فذلك نقصان فثبت بهذه الوجوه الثلاثة ان الاله الواحد كاف فى تدبير العالم وايجاده وأن الزائد يجب نفيه (وهو على كل شئ وكيل) أى حافظ فيجب ان يعلم كل مكلف انه لا حافظ الا الله ولا مصلح للمهمات الا الله فحينئذ ينقطع طمعه عن كل ما سواه ولا يرجع فى مهم من المهمات الا اليه ويقال أى كفيل بأرزاق خلقه (لا تدركه الابصار) أى لا تراه الابصار فى الدنيا هو تعالى يراه المؤمنون فى الآخرة لقوله صلى الله عليه وسلم ستروين ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون فى رؤيته فالتشبيه واقع فى تشبيه الرؤية بالرؤية فى الوضوح لا فى تشبيه المرئى بالمرئى واتفق الجمهور انه صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فقال الحسنى هى الجنة والزيادة النظر الى وجه الله وروى ان الصحابة اختلفوا فى ان النبى صلى الله عليه وسلم هل رأى الله تعالى ليلة المعراج أولا ولم يكفر بعضهم بعضا بهذا السبب وما نسبه الى الضلالة وهذا يدل على انهم كانوا مجمعين على انه لا امتناع عقلا فى رؤية الله تعالى وقيل المعنى لا تحيط به تعالى الابصار فى الدنيا ولا فى الآخرة لعدم انحصاره (وهو يدرك الابصار) أى والله تعالى مدرك لحقيقة الابصار (وهو اللطيف) فيلطف عن أن تدركه الابصار (الخبير) أى العالم بكل لطيف فلا يلطف شئ عن ادراكه وقيل انه تعالى لطيف بعباده حيث يثنى عليهم عند الطاعة ويأمرهم بالتوبة عند المعصية ولا يقطع عنهم كثرة رحمته سواء كانوا مطيعين أو عصاة وقيل انه تعالى لطيف بهم حيث لا يأمرهم فوق طاقتهم وينعم عليهم بما هو فوق استحقاقهم (قد جاءكم بصائر من ربكم) أى جاءكم آيات القرآن كائنة من ربكم وسميت تلك الآيات بصائر لانها أسباب لحصول الانوار للقلوب قوله تعالى قد جاءكم الآية استئناف وارد على لسان النبى صلى الله عليه وسلم (فمن أبصر فلنفسه) أى فمن اهتدى بآيات القرآن فآمن فنفع اهتدائه لنفسه (ومن عمى فعليها) أى ومن ضل عنها بأن كفر بها فضرر ضلالته وكفره على نفسه (وما أنا عليكم بحفيظ) أى لاعمالكم وانما أنا منذر والله تعالى هو الذى يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها (وكذلك نصرف الآيات) أى مثل ذلك الاتيان البديع نأتى بالآيات متواترة حالا بعد حال لتلزمهم الحجة (وليقولوا دارست) قرأه ابن كثير وأبو عمرو بالالف وفتح التاء أى ليقول بعضهم أى ذاكرت يا محمد أهل الاخبار الماضية فيزداد كفرا على كفر وتثبيتا لبعضهم فيزداد ايمانا على ايمان وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يظهر آيات القرآن نجما نجما والكفار كانوا يقولون ان محمدا يضم هذه الآيات بعضها الى بعض يتفكر فيها ويصلحها آية فآية ثم يظهرها ولو كان هذا بوحى نازل اليه من السماء فلم يأت بهذا القرآن دفعة واحدة كما ان موسى عليه السلام أتى بالتوراة دفعة واحدة أى فان تكرير هذه الآيات حالا بعد حال هى التى أوقعت الشك للقوم فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم انما أتى بهذا القرآن على سبيل المدارسة مع التفكر والمذاكرة مع أقوام آخرين وقرأ ابن عامر درست بفتح السين وسكون التاء أى هذه الاخبار التى تلوتها علينا قديمة قد انمحت وتكررت على الاسماع كقولهم أساطير الاولين وقرأ الباقون درست بدون الالف وسكون السين وفتح التاء أى حفظت وأتقنت بالدرس أخبار

الاولين كقولهم أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا (ولنبينه) أى الآيات (لقوم يعلمون) وهم أولياء الله الذين هداهم الى سبيل الرشاد (اتبع ما أوحى اليك من ربك) أى الزم العمل بما أنزل اليك من ربك ولا يصرفك ذلك القول سببا الفتور فى تبليغ الرسالة والدعوة (لا اله الا هو) يجب طاعته ولا يجوز الاعراض عن تكاليفه (وأعرض عن المشركين) أى اترك فى الحال مقابلتهم فيما يأتونه من سفه واعدل الى الطريق الذى يكون أقرب الى القبول وأبعد عن التغليظ والتنفير (ولو شاء الله) عدم اشراكهم (ما أشركوا) أى لا تلتفت يا أشرف الخلق الى سفاهات هؤلاء الكفار الذين قالوا انما جمعت هذا القرآن من مذاكرة الناس ولا يثقلن عليك كفرهم فانا لو أردنا ازالة الكفر عنهم لقدرنا ولكنا تركناهم مع كفرهم فلا ينبغى ان تشغل قلبك بكلماتهم (وما جعلناك عليهم حفيظا) أى رقيبا من جهتنا تحفظ أعمالهم عليهم (وما أنت عليهم بوكيل) أى وما أنت يا أكرم الرسل حافظ عليهم من جهتهم فتدبر مصالحهم وتقوم بأمورهم وتكفل أرزاقهم (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) أى ولا تسبوا أيها المؤمنون من يعبدون الاصنام من حيث عبادتهم لآلهتهم كأن تقولوا تبا لكم ولما تعبدون الاصنام مثلا فيسبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاوزا عن الحق الى الباطل بجهالة منهم بما يجب عليهم فان الصحابة متى شتموهم كانوا يشتمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فالله تعالى أجرى شتم الرسول مجرى شتم الله تعالى لان الكفار كانوا مقرين بالله تعالى وكانوا يقولون انما حسنت عبادة الاصنام لتصير شفعاء لهم عند الله تعالى أو المعنى ولا تسبوا الاصنام الذين كان المشركون يعبدونهم فيسبوا الله للظلم بغير علم لانهم جهلة بالله تعالى لان بعضهم كان قائلا بالدهر ونفى الصانع قال قتادة كان المؤمنون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله فانهم قوم جهلة لا علم لهم بالله عز وجل اه وانما نهوا عن سب الاصنام وان كان مباحا لما ينشأ عن ذلك من المفاسد وهو سب الله وسب رسوله فظاهر الآية كان نهيا عن سب الاصنام وحقيقتها النهى عن سب الله تعالى لانه سبب لذلك وفى ذلك دلالة على ان الطاعة اذا أدت الى معصية راجحة وجب تركها فان ما يؤدى الى الشر شر (كذلك) أى مثل تزيين عبادة الاصنام للمشركين (زينا لكل أمة) أى لامم الكفرة (عملهم) أى شرهم وفسادهم باحداث ما يحملهم عليه فان المعاصى سموم قاتلة قد برزت فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة وكذا الطاعات فانها مع كونها أحسن الاحاسن قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وفى هذه الآية دلالة على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا لا يحسن من الله تعالى خلق الكفر وتزيينه (ثم الى ربهم مرجعهم) بالبعث بعد الموت (فينبئهم بما كانوا يعملون) فى الدنيا على الاستمرار من السيئات المزينة لهم فأعمال الكفرة قد برزت لهم فى هذه النشأة بصورة مزينة يستحسنها الغواة ويستحبها الطغاة وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة فعند ذلك يعرفون ان أعمالهم ماذا فعبر عن اظهارها بصورها الحقيقية بالاخبار بها لما ان كلا منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أى أقسم كفار مكة بالله غاية ايمانهم (لئن جاءتهم آية) أى معجزة كما طلبوا (ليؤمنن بها) أى قالوا لسيدنا رسول الله ان هذا القرآن كيفما كان أمره فليس من جنس المعجزات البتة ولو انك يا محمد جئتنا بمعجزة قاهرة لآمنا بك وحلفوا على ذلك وقال محمد بن كعب القرظى قالت قريش يا محمد انك تخبرنا ان موسى ضرب الحجر بالعصا فانفجر الماء وان عيسى أحيى الميت وان صالحا أخرج الناقة من الجبل فأتنا بآية لنصدقك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الذى تحبون

فقالوا ان تجعل لنا الصفا ذهبا وحلفوا لئن فعل ليتبعونه أجمعون فقام صلى الله عليه وسلم يدعو فجاءه جبريل فقال ان شئت كان ذلك ولئن كان فلم يصدقوك ليعذبنهم الله وان تركتهم تاب الله على بعضهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يتوب على بعضهم فأنزل الله تعالى هذه الآية (قل انما الآيات عند الله) أي انه تعالى هو المختص بالقدرة على أمثال هذه الآيات دون غيره (وما يشعركم) أي أي شيء يعلمكم أيها المؤمنون بأيمانهم أي لا تعلمون ذلك (أنها اذا جاءت لا يؤمنون) قرأ ابن كثير وأبو عمرو انها بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بالفتح فهي بمعنى لعل ويقوى هذا الوجه قراءة أبي لعلها اذا جاءتهم لا يؤمنون (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) أي وما يشعركم انا نقلب أفئدتهم عن ادراك الحق فلا يفهمونه ونقلب أبصارهم عن اجتلاء الحق فلا يبصرونه (كما لم يؤمنوا به) أي بما جاء صلى الله عليه وسلم من الآيات (أول مرة) أي فلا يؤمنون عند نزول مقترحهم لو نزل كما لم يؤمنوا عند نزول الآيات السابقة على اقتراحهم كانشقاق القمر (ونذرهم في طغيانهم يعمهون) أي نتركهم في ضلالهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة) كما طلبوا فشهدوا على ما أنكروا (وكلمهم الموتى) من القبور كما طلبوا بأن محمدا رسول الله والقرآن كلام الله (وحشرنا عليهم كل شيء قبلا) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بضمتين أي وجمعنا على المستهزئين زيادة على ما اقترحوه كل شيء من أصناف المخلوقات كالسباع والطيور كفلاء بصدق محمد صلى الله عليه وسلم أو المعنى وحشرنا عليهم كل شيء نوعا نوعا من سائر المخلوقات وقرأ نافع وابن عامر قبلا بكسر القاف وفتح الباء أي حال كون الكفار معاينين للاصناف (ما كانوا ليؤمنوا) بمحمد والقرآن (الا أن يشاء الله) ايمانهم أي ولو أظهر الله جميع تلك الاشياء العجيبة الغريبة لهؤلاء الكفار فانهم لا يؤمنون في حال من الاحوال الداعية الى الايمان الا في حال مشيئته تعالى لايمانهم (ولكن أكثرهم يجهلون) أي ان الكفار لو أتوا بكل آية لم يؤمنوا ولكن أكثر المسلمين يجهلون عدم ايمانهم عند مجيء الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لايمانهم فيتمنون مجيئها طمعا فيما لا يكون قال ابن عباس المستهزؤن بالقرآن كانوا خمسة الوليد بن المغيرة المخزومي والعاصي بن وائل السهمي والاسود بن عبد يغوث الزهري والاسود بن المطلب والحرث بن حنظلة ثم انهم أتوا الرسول صلى الله عليه وسلم في رهط من أهل مكة وقالوا له أرنا الملائكة يشهدوا بأنك رسول الله أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم أحق ما تقوله أم باطل أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا أي كفيلا على صحة ما تدعيه فنزلت هذه الآية (وكذلك) أي كما جعلنا المستهزئين عدوا لك (جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن) أي جعلنا لكل نبي تقدمك عدوا مردة من الانس والجن فشياطين الانس أشد تمردا من شياطين الجن لان شيطان الجن اذا عجز عن اغواء المؤمن الصالح استعان على اغوائه بشيطان الانس ليفتنه واضافة شياطين بمعنى من البيانية وهي بدل من عدوا وهو مفعول أول قدم على الثاني مسارعة الى بيان العداوة (يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) أي يلقي شياطين الجن الى شياطين الانس تزيين القول بالباطل لكي يغروا به الانس (ولو شاء ربك) عدم تزيين القول لاجل الغرور (ما فعلوه) أي تزيين القول المتعلق بأمرك خاصة (فذرهم وما يفترون) أي اترك الكفرة المستهزئين وافتراءهم بأنواع المكايد فان لهم في ذلك عقوبات شديدة ولك عواقب حميدة (ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) أي ولكي تميل الى هذا الزخرف قلوب الذين لا يؤمنون بالبعث بعد الموت (وليرضوه) أي هذا الزخرف لانفسهم (وليقترفوا ما هم مقترفون) أي وليكتسبوا بسبب ارتضائهم له ما هم مكتسبون من

الآثام فيعاقبوا عليها (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا) أي قل لهم أأميل الى زخارف الشياطين فأطلب حكما غير الله يحكم بيننا والحال انه تعالى هو الذي أنزل اليكم القرآن وأنتم أمة أمية لا تدرون ما تأتون وما تذرون مبينا فيه الحق والباطل فلم يبق في أمور الدين شيء من الابهام فأي حاجة بعد ذلك الى الحكم وهو والحاكم عند أهل اللغة واحد لكن بعض أهل التأويل قال الحكم أكمل من الحاكم لان الحكم لا يحكم الا بالحق والحاكم قد يجور ولان الحكم من تكرر منه الحكم والحاكم يصدق بمرة (والذين آتيناهم الكتاب) أي التوراة والانجيل والزبور (يعلمون أنه) أي القرآن (منزل من ربك) ملتبسا (بالحق) قرأ ابن عامر وحفص منزل بتشديد الزاي والباقون بسكون النون (فلا تكونن من الممترين) أي من الشاكين في ان علماء أهل الكتاب يعلمون ان هذا القرآن حق وانه منزل من عند الله (وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا) أي كفى القرآن من جهة صدقه في اخباره ومن جهة عدله في أحكامه وكفى في بيان ما يحتاج المكلفون اليه الى قيام القيامة علما وعملا وفي كونه معجزة دالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم قرأ عاصم وحمزة والكسائي كلمة على التوحيد دون ألف والباقون بألف على الجمع وترسم بالتاء المجرورة على كل من قراءة الجمع وقراءة الافراد وكذا كل موضع اختلف فيه القراء جمعا وافرادا (لا مبدل لكلماته) أي لا أحد يبدل شيأ من القرآن بما هو أصدق وأعدل ولا بما هو مثله (وهو السميع العليم) بالمقال والاعمال (وان تطع أكثر من في الارض) أي وان تطع يا أشرف الخلق كفار الناس فيما يعتقدونه من احقاق الباطل وابطال الحق (يضلوك عن سبيل الله) أي عن الطريق الموصل الى الله (ان يتبعون الا الظن) أي ما يتبعون في اثبات مذهبهم الا رجوعهم الى تقليد أسلافهم وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم على آثارهم مقتدون (وان هم الا يخرصون) أي يكذبون فان رؤساء أهل مكة منهم أبو الاحوص مالك بن عوف الجشمي وبديل بن ورقاء الخزاعي وجليس ابن ورقاء الخزاعي قالوا للمؤمنين ان ما ذبح الله خير مما تذبحون أنتم بسكاكينكم وروي أن المشركين قالوا للنبي اخبرنا عن الشاة اذا ماتت من قتلها فقال الله قتلها قالوا أنت تزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتلها الكلب والصقر حلال وما قتله الله حرام (ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أي فان هؤلاء الكفار كاذبون في ادعاء اليقين والله عالم بكونهم متحيرين في سبيل الضلال تائهين في أودية الجهل أي فانك اذا عرفت ذلك ففوض أمرهم الى خالقهم لانه عالم بالمهتدي والضلال فيجازي كل واحد بما يليق بعمله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين) وهذا أمر متفرع من النهي عن اتباع المضلين وذلك انهم كانوا يقولون للمسلمين انكم تزعمون انكم تعبدون الله فما قتله الله أحق ان تأكلوه مما قتلتموه أنتم فقال الله للمسلمين ان كنتم متحققين بالايمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهو المذكى ببسم الله خاصة لا مما ذكر عليه اسم غيره فقط أو مع اسمه تعالى أو مات حتف أنفه (وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم) أي وأي سبب حاصل لكم في أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وان تأكلوا من غيره والحال انه قد بين لكم ما حرم عليكم بقوله تعالى قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه فهذه وان كانت متأخرة في التلاوة فلا يمنع ان يكون هو المراد لان التأخر في هذا قليل وأيضا التأخر في التلاوة لا يوجب التأخر في النزول أو بقوله تعالى في أول سورة المائدة حرمت عليكم الميتة الآية لان الله تعالى علم ان سورة المائدة متقدمة على سورة الانعام في الترتيب لا في النزول (الا ما اضطررتم اليه) أي الا ما دعتكم الضرورة الى أكله بسبب شدة المجاعة

عما حرم عليكم فهو حلال لكم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ببناء فصل وحرم للمفعول ونافع وحفص عن عاصم ببنائهما للفاعل وحمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم ببناء الفعل الاول للفاعل وبناء الثانى للمفعول (وان كثيرا) من الذين يناظرونكم فى احلال الميتة ويقولون لما حل ما تذبحونه أنتم فبأن يحل ما يذبحه الله أولى وهم أبو الاحوص وأصحابه أو عمن اتخذ البحائر والسوائب وهو عمرو بن لحى فمن دونه من اضرابه فانه أول من غير دين اسماعيل (ليضلون) قرأ عاصم وحمزة والكسائى بضم الياء والباقون بفتحها (بأهوائهم) أى بسبب اتباعهم شهواتهم (بغير علم) أى ملتبسين بغير علم مأخوذ من الشريعة (ان ربك هو أعلم بالمعتدين) أى الذين تجاوزوا الحق الى الباطل (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) أى اتركوا الاعلان بالزنا والاستسرار به وأهل الجاهلية يعتقدون حل السر منه وقال ابن الانبارى أى وذروا الاثم من جميع جهاته (ان الذين يكسبون الاثم) فى الدنيا (سيجزون) فى الآخرة (بما كانوا يقترفون) أى يكسبون ان لم يتوبوا وأراد الله عقابهم أما اذا تاب المذنب من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب واذا لم يتب فهو فى مشيئة الله ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه بفضله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) وهو الميتة وما ذبح على ذكر الاصنام (وانه) أى الاكل مما لم يذكر اسم الله بغير ضرورة أو ان ما ذكر عليه اسم غير الله (لفسق) أى خروج عما يحل وأجمع العلماء على ان أكل ذبيحة المسلم التى ترك التسمية عليها لا يفسق وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ذكر الله مع المسلم سواء قال أو لم يقل ويحمل هذا الذكر على ذكر القلب (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم) أى ان ابليس وجنوده وسوسوا الى المشركين أو المعنى ان مردة المجوس من أهل فارس كتبوا الى مشركى قريش وذلك لما نزل تحريم الميتة سمعه المجوس فكتبوا الى قريش ان محمدا وأصحابه يزعمون انهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون ان ما يذبحونه حلال وما يذبحه الله حرام فوقع فى نفس ناس من المسلمين من ذلك شىء فأنزل الله تعالى هذه الآية (ليجادلوكم) فى أكل الميتة (وان أطعتموهم) فى استحلال الميتة (انكم لمشركون) قال الزجاج وهذا دليل على ان كل من أحل شيأ مما حرم الله تعالى أو حرم شيأ مما أحل الله تعالى فهو مشرك وانما سمى مشركا لانه أثبت حاكما سوى الله تعالى وهذا هو الشرك (أومن كان ميتا فأحييناه) أى أو من كان كافرا فهديناه الى الايمان (وجعلنا له نورا) عظيما وهو نور الوحى الالهى (يمشى به) أى بسببه (فى الناس) أى فيما بين الناس آمنا من جهتهم (كمن مثله) أى صفته (فى الظلمات) أى ظلمات الكفر والطغيان وعمى البصيرة (ليس بخارج منها) أى من تلك الظلمات فاذا دام الكافر فى ظلمات الجهل والاخلاق الذميمة صارت تلك الظلمات كالصفة الذاتية يعسر ازالتها عنه وانما جعل الكفر موتا لانه جهل والجهل يوجب الحيرة فهو كالموت الذى يوجب السكون والكافر ميتا لانه لا يهتدى الى شىء كالجاهل (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) أى مثل تزيين المؤمنين بالايمان والنور زين من جهة الله بطريق الخلق ومن جهة الشياطين بطريق الزخرفة للكافرين ما استمروا على عمله قال زيد بن أسلم والضحاك نزلت هذه الآية فى عمر بن الخطاب وأبى جهل وقال عكرمة نزلت فى عمار بن ياسر وأبى جهل وقال ابن عباس ان أبا جهل رمى النبى صلى الله عليه وسلم بفرث فأخبر بذلك حمزة عند قدومه من صيد والقوس بيده وهو لم يؤمن يومئذ فعمد الى أبى جهل وجعل يضرب رأسه بالقوس فقال له أبو جهل وقد تضرع اليه يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا فقال حمزة أنتم أسفه الناس تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله فأسلم حمزة

يومئذ فنزلت هذه الآية (وكذلك) أي وكما جعلنا في مكة صناديدها رؤساء ليمكروا فيها (جعلنا في كل قرية) من سائر القرى (أكابر مجرميها) وأكابر مفعول ثان ومجرميها مفعول أول والظرف لغو وهو متعلق بنفس الفعل قبله أي جعلنا في كل بلدة فساقها عظماءه (ليمكروا فيها) أي ليفعلوا المكر فيها وهذا دليل على ان الخير والشر بارادة الله وانما جعل المجرمين أكابر لانهم أقدر على الغدر والمكر وترويج الباطل على الناس من غيرهم وانما حصل ذلك لاجل رياستهم وذلك سنة الله انه جعل في كل قرية اتباع الرسل ضعفاءهم وجعل فساقهم أكابرهم وقال مجاهد جلس على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر يصرفون الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم و يقولون لكل من يقدم هو كذاب ساحر كاهن فكان هذا مكرهم (وما يمكرون الا بأنفسهم) أي وما يجيء شر مكرهم الا بهم (وما يشعرون) بذلك أصلا بل يزعمون انهم يمكرون بغيرهم (واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) أي واذا جاءت مشركي العرب الوليد بن المغيرة وعبد ياليل وأبا مسعود الثقفي آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وتخبرهم بضيعهم قالوا لن نصدقك حتى يوحى الينا و يأتينا جبريل فيخبرنا انك رسول الله وانك صادق قال تعالى رداعليهم (الله أعلم حيث يجعل رسالته) أي الله أعلم من يليق بارسال جبريل اليه لامر من الامور وهذا اعلام بأنهم لايستحقون ذلك التشريف وهذا المعنى قول الحسن ومنقول عن ابن عباس وقيل معنى الآية واذا جاءتهم آية على صدق النبي صلى الله عليه وسلم قالوا لن نؤمن برسالته أصلا حتى نؤتى نحن من الوحي والنبوة مثل ايتاء رسل الله قال تعالى انه تعالى يعلم من يستحق الرسالة فيشرفه بها و يعلم من لا يستحقها وأنتم لستم أهلا لها ولان النبوة لاتحصل لمن يطلبها خصوصا لمن عنده حسد ومكر وغدر وقرأ حفص وابن كثير رسالته على التوحيد والباقون على الجمع و يستجاب الدعاء بين هاتين الجلالتين وهذا دعاء عظيم يدعى به بينهما وهو اللهم من الذي دعاك فلم تجبه ومن الذي استجارك فلم تجره ومن الذي سألك فلم تعطه ومن الذي استعان بك فلم تعنه ومن الذي توكل عليك فلم تكفه ياغوثاه ياغوثاه بك أستغيث أغثني يامغيث واهدني هداية من عندك واقض حوائجنا واشف مرضانا واقض ديوننا واغفر لنا ولآبائنا ولامهاتنا بحق القرآن العظيم والرسول الكريم برحمتك يا أرحم الراحمين (سيصيب الذين أجرموا) أي أشركوا وليدا أو أصحابه بقولهم لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله (صغار) أي حقارة (عند الله) أي في الآخرة فلا حاكم فيها ينفذ حكمه سواه (وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) أي بسبب مكرهم بقولهم ذلك وحسدهم للنبي وتكذيبهم له (فمن يرد الله أن يهديه) أي يرشده لدينه (يشرح صدره) أي قلبه (للاسلام) أي لقبول الاسلام (ومن يرد أن يضله) أي يتركه كافرا (يجعل صدره) أي قلبه (ضيقا) كضيق الزج في الرمح قرأه ابن كثير ساكنة الياء والباقون مشددة الياء مكسورة (حرجا) قرأه نافع وأبو بكر عن عاصم بكسر الراء أي شديد الضيق والباقون بفتحها أي مثل المواضع الكثيرة الاشجار المشتبكة التي لا طريق فيها فلا يصل اليها راعية ولا وحشية (كأنما يصعد في السماء) أي كأنه يكلف الصعود الى السماء قرأه ابن كثير ساكنة الصاد وقرأه أبو بكر عن عاصم بتشديد الصاد و بالالف والباقون بتشديد الصاد والعين بغير ألف ومعنى الآية فمن يرد الله ان يهديه قوى في قلبه ما يدعوه الى الايمان بأن اعتقد ان نفعه زائد وخيره راجح و ربحه ظاهر فمال طبعه اليه وقويت رغبته في حصوله وحصل في القلب استعداد شديد لتحصيله ومن يرد أن يضله ألقى في قلبه ما يصرفه عن الايمان و يدعوه الى الكفر بأن اعتقد ان شر

الايمان زائد وضرره راجح فعظمت النفرة عنه فان الكافر اذا دعي الى الاسلام شق عليه جدا كأنه قد كلف ان يصعد الى السماء ولا يقدر على ذلك أو المعنى كان قلب الكافر يصعد الى السماء تكبرا عن قبول الاسلام (كذلك) أى مثل جعل الله صدرهم ضيقا (يجعل الله الرجس) أى يسلط الله الشيطان (على الذين لا يؤمنون) أى فى قلوبهم (وهذا) أى كون الفعل متوقفا على الداعى الحاصل من الله تعالى (صراط ربك) أى لان العلم بذلك يؤدى الى العلم بتوحيد الله (مستقيما) فكل فعل العباد بقضاء الله تعالى وقدره (قد فصلنا الآيات) أى قد ذكرنا فاصلا فاصلا بحيث لا يختلط واحد منها بالآخرة (لقوم يذكرون) فيعلمون ان كل ما يحدث من الحوادث خيرا كان أو شرا بقضاء الله تعالى لانه لا يترجح أحد طرفى الممكن على الآخر الا لمرجح وهو الله تعالى (لهم دار السلام) أى للمتذكرين دار الله المنزه عن النقائص وهى الجنة (عند ربهم) أى انها معدة عنده تعالى موصوفة بالشرف الى حيث لا يعرف كنهها غيره تعالى (وهو وليهم) أى متكفل لهم بجميع مصالحهم فى الدين والدنيا (بما كانوا يعملون) أى بسبب أعمالهم الصالحة (ويوم يحشرهم جميعا) قلنا (يا معشر الجن) وقرأ حفص بالياء أى يوم يحشر الله الخلق جميعا يقول يا جماعة الشياطين (قد استكثرتم من الانس) أى قد أكثرتم من اغواء الانس (وقال أولياؤهم من الانس) أى وقال الذين أطاعوا الشياطين الذين هم الانس (ربنا استمتع بعضنا ببعض) فاستمتاع الانس بالشياطين هو أن الشياطين كانوا يدلون الانس على أنواع الشهوات واللذات والطيبات ويسهلون تلك الامور عليهم واستمتاع الشياطين بالانس هو ان الانس كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به وينقادون لحكمهم (وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) أى أدركنا وقت موتنا الذى عينته لنا (قال) تعالى (النار مثواكم) أى منزلكم يا جماعة الجن والانس (خالدين فيها) أى فى النار منذ تبعثون (الا ما شاء الله) من مقدار حشرهم من قبورهم ومن مقدار محاسبتهم (ان ربك حكيم عليم) أى فيما يفعله من ثواب وعقاب وسائر وجوه المجازاة (وكذلك) أى مثل تمكين الشياطين من اضلال الانس (نولى بعض الظالمين) من الانس (بعضا) آخر منهم (بما كانوا يكسبون) أى بسبب كون ذلك البعض مكتسبا للظلم قال على رضى الله عنه لا يصلح للناس الا أمير عادل أو جائر فانكروا قوله أو جائر فقال نعم يؤمن السبيل ويمكن من اقامة الصلوات وحج البيت وروى عن ابن عباس انه قال ان الله تعالى اذا أراد بقوم خيرا ولى أمرهم خيارهم واذا أراد بقوم شرا ولى أمرهم شرارهم وروى أن أبا ذر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الامارة فقال له انك ضعيف وانها امانة وهى فى القيامة خزى وندامة الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) والصحيح ان الرسل انما كانت من الانس خاصة وقد قام الاجماع على ان النبي صلى الله عليه وسلم مرسل للانس والجن والمراد برسل الجن هم الذين سمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم ثم ولوا الى قومهم منذرين فالمراد بالرسل ما يعم رسل الرسل فالله تعالى انما بكت الكفار بهذه الآية لانه تعالى أزال العذر وأزاح العلة بسبب انه تعالى أرسل الرسل الى الكل مبشرين ومنذرين فاذا وصلت البشارة والنذارة الى الكل بهذا الطريق فقد حصل ما هو المقصود من ازاحة العذر وازالة العلة (يقصون عليكم آياتي) أى يتلونها عليكم مع التوضيح (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أى ويخوفونكم لقاء عذابي فى يومكم هذا وهو يوم الحشر الذى عاينوا فيه ما أعد لهم من فانين العقوبات الهائلة (قالوا) عند ذلك التوبيخ الشديد (شهدنا على أنفسنا) ان الرسل أتونا قد

بلغوا الرسالة وأنذرونا عذاب يومنا هذا واغاوقعوا فى ذلك الكفر بسبب انهم (غرتهم الحياة الدنيا) أى اغتروا من الدنيا بما فى الزهرة والنعيم (وشهدوا) فى الآخرة (على أنفسهم أنهم كانوا) فى الدنيا (كافرين) فهم وان بالغوا فى عداوة الانبياء والطعن فى شرائعهم ومعجزاتهم أقروا على أنفسهم بالكفر فى عاقبة أمرهم (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) أى شهادتهم على أنفسهم بالكفر ثابت لانتفاء كون ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم فعلوه قبل ان ينبهوا على بطلانه برسول وكتاب أو المعنى ارسال الرسل ثابت لان الشأن لم يكن ربك مهلك أهل القرى ملتبسين بظلم وهم غافلون عن تبليغ الرسل وعن أمرهم ونهيهم (ولكل درجات مما عملوا) أى ولكل عامل من الجن والانس مراتب من أعمالهم صالحة كانت أو سيئة (وما ربك بغافل عما يعملون) أى فلا يترك شيأ عما يستحق كل عامل من الفريقين من الجزاء فيجزى كلا بما يليق به من ثواب أو عقاب وقرأ ابن عامر وحده تعملون على الخطاب (وربك الغنى ذو الرحمة) أى ان تخصيص الله المطيعين بالثواب والمذنبين بالعذاب ليس لاجل انه تعالى محتاج الى طاعة المطيعين أو ناقص بمعصية المذنبين فانه تعالى غنى لذاته عن جميع العالمين ومع كونه تعالى غنيا فان رحمته عامة كاملة ومن رحمته تعالى على الخلق ترتيب الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ومن رحمته تعالى ارسال الرسل وعدم استئصالهم بالهلاك بذنوبهم فى وقت واحد (ان يشأ يذهبكم) أيها العصاة (ويستخلف من بعدكم مايشاء) أى ويوجد من بعد اذهابكم خلقا آخر مخالفا للجن والانس فتخصيص الرحمة بهؤلاء ليس لاجل انه لا يمكنه اظهار رحمته الا بخلق هؤلاء (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أى وينشئ الله انشاء كائنا كانشائكم من نسل قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم فى العصيان أى فكما ان الله تعالى قادر على تصوير هذه الاجسام بهذه الصورة الخاصة كذلك قادر على تصويرهم بصورة مخالفة لها (انما توعدون) من مجىء الساعة (لآت) أى لواقع لابد لانهم كانوا ينكرون القيامة وكل ما تعلق بالوعد من الثواب والعقاب فهو آت لامحالة (وما أنتم بمعجزين) أى لستم بخارجين عن قدرتنا وحكمنا (قل) يا أشرف الخلق لكفار قريش (ياقوم اعملوا على مكانتكم) أى على أقصى امكانكم واستطاعتكم واثبتوا على حالتكم من الكفر والعداوة (انى عامل) بما أمرت به من الثبات على حالتى من الاسلام والمصابرة (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) أى فسوف تعرفون أى أحد الفريقين له العاقبة المحمودة وهى الاستراحة واطمئنان الخاطر أنحن أم أنتم وذلك حاصلة فى الجنة وقرأ حمزة والكسائى من يكون بالياء (انه) أى الشأن (لايفلح الظالمون) أى لايفوز الكافرون بمطالبهم البتة فلا ينجون من عذاب الله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) أى عين كفار مكة لله مما خلقه من الحرث والانعام وكذا من الثمار وسائر أموالهم نصيبا يصرفونه الى الضيفان والمساكين ونصيبا من ذلك لآلهتهم وينفقونه على سدنتها ويذبحون ذبائح عندها فقالوا هذا لله بكذبهم فى جهة انه تعالى يستحق ذلك من جهتهم لا فى وجه التقرب به اليه وهذا لآلهتنا ثم ان رأوا ما عينوه لله أزكى بدلوه بما لآلهتهم فاعطوا نصيب الله اسدنة الاصنام وان رأوا مالآلهتهم أزكى تركوه لها فلم يصرفوه للمساكين بل يصرفون للسدنة وكان اذا أصابهم قحط استعانوا بما جعلوه لله وأكلوا منه ووفروا ماجعلوه لآلهتهم ولم يأكلوا منه فاذا هلك ما جعلوه لها أخذوا بدله مما جعلوه لله ولا يفعلون كذلك فيما جعلوه لها وان سقط مما جعلوه لله فى نصيب الاوثان تركوه وقالوا ان الله غنى

عن هذا وان سقط مما جعلوه للاوثان فى نصيب الله أخذوه وردوه الى نصيب الصنم وقالوا انه فقير
(ساء ما يحكمون) أى بئس الذى يحكمون حكمهم من انهم رجحوا جانب الاصنام على جانب الله ومن انهم
جعلوا شيأ لغير الله تعالى مع ان الله تعالى الخالق للجميع ومن انهم أحدثوا الحكم من قبل أنفسهم ولم
يشهد بصحته عقل ولا شرع (وكذلك) أى مثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك فى قسمة الاموال بين
الله والآلهة (زين لكثير من المشركين قتل أولادهم) بوأد بناتهم ونحر ذكورهم (شركاؤهم) أى
أولياؤهم من الشياطين ومن السدنة فقرأ العامة زين مبنيا للفاعل وقتل نصبا على المفعولية وأولادهم
خفضا بالاضافة وشركاؤهم رفعا على الفاعل أى وهكذا زين لهم شياطينهم مثل أولادهم فأمروا بأن يأدوا
بناتهم خشية الفقر والسبي وبأن ينحروا ذكورهم لآلهتهم فكان الرجل فى الجاهلية يقوم فيحلف
بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب لينحرن عبد الله وقرأ ابن عامر وحده
زين مبنيا للمفعول وقتل رفعا على الفاعلية وأولادهم نصبا على المفعولية وشركائهم خفضا على اضافة المصدر
الى فاعله أى زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم وهذه القراءة متواترة صحيحة فقد قرأ ابن عامر
على ابى الدرداء وواثلة ابن الاسقع وفضالة بن عبيد ومعاوية بن أبى سفيان والمغيرة المخزومى وقرأ أيضا على
عثمان وولد هو فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليردوهم) أى يهلكوهم بالاغواء (وليلبسوا عليهم
دينهم) أى وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين اسمعيل عليه السلام أى ليدخلوا عليهم الشك فى
دينهم لانهم كانوا على دين اسمعيل فهذا الذى أتاهم بهذه الاوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين
الحق واللام للتعليل ان كان التزيين من الشياطين وللعاقبة ان كان من السدنة (ولو شاء الله ما فعلوه)
أى ما فعل كثير من المشركين قتل الاولاد بدفن البنات فى حياتها وبنحر الاولاد الذكور للاصنام (فذرهم
وما يفترون) أى فاتركهم وكذبهم فى قولهم ان الله يأمرهم بقتل أولادهم فان فيما شاء الله تعالى حكما
بالغة وذلك دليل على أن كل ما فعله المشركون فهو بمشيئة الله تعالى (وقالوا) أى المشركون الذين
قسموا نصيب آلهتهم أقساما ثلاثة (هذه) أى التى جعلناها للآلهة (أنعام وحرث) أى زروع
(حجر) أى محرمة (لا يطعمها الا من نشاء) أى لا يأكل هذه الانعام والحرث الا خدمة الاوثان
والرجال دون النساء (بزعمهم) أى قالوا ذاكر ملتبسين بكذبهم ومن غير حجة (و) هذه (أنعام
حرمت ظهورها) وهى البحائر والسوائب والحوامى والوصائل (و) هذه (أنعام لا يذكرون اسم الله
عليها) اذا ركبت واذا حملت واذا ذبحت ونسبوا ذلك التقسيم الى الله تعالى (افتراء عليه) وهذا اما
مفعول له وعامله قالوا أو حال من ضميره أو مصدر مؤكد له لان قولهم ذلك هو الافتراء (سيجزيهم بما
كانوا يفترون) أى ان الله سيكافئهم بسبب تقولهم عليه (وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة
لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء) أى ما ولد من البحائر والسوائب حيا حلال
للذكور خاصة ومحرم على جنس أزواجنا وهى الاناث وما ولد منها ميتا أكله الرجال والنساء جميعا
(سيجزيهم وصفهم) أى سيوصل الله لهم جزاء ذنبهم وهو وصفهم بالتحليل والتحريم فالواصف بذلك عمرو
ابن لحى وقد رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى جهنم يجر قصبه من دبره وكان يعلمهم تحريم الانعام (انه
حكيم) فى التحليل والتحريم (عليم) فى وصفهم بذلك (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) بالوأد للبنات
وبالنحر للذكور (سفها بغير علم) وهم ربيعة ومضر وأمثالهم من العرب وبنو كنانة لا يفعلون ذلك
وسبب هذا الخسران لان الولد نعمة عظيمة من الله على العبد فاذا سعى فى ابطاله استحق الذم العظيم فى

الدنيا لان الناس يقولون قتل ولده خوفا من أن يأكل طعامه والعقاب العظيم فى الآخرة وسببه خفة العقل لان قتل الولد انما يكون للخوف من الفقر والقتل أعظم ضررا منه والقتل ناجز والفقر موهوم وهذه السفاهة انما نشأت من الجهل الذى هو أعظم المنكرات وقرأ أبو عمرو وابن عامر بتشديد التاء (وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) فان تحريم الحلال من أعظم أنواع الحماقة لانه يمنع نفسه تلك المنافع ويستحق بسبب ذلك المنع أعظم أنواع العقاب وان الجراءة على الله أعظم الذنوب وهم قد ضلوا عن الرشد فى مصالح الدين ومنافع الدنيا ولم يحصل لهم الاهتداء قط (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات) أى وهو الذى خلق بساتين مرفوعات على ما يحملها من العروش والساق وملقيات على وجه الارض ويقال معروشات أى وهو ما غرسه الناس فى البساتين وغير معروشات وهو ما أنبته الله فى الجبال والبرارى (و) أنشأ (النخل والزرع) أى جميع الحبوب التى يقتات بها (مختلفا أكله) أى مختلف المأكول من كل منهما فى الهيئة والطعم (والزيتون والرمان) أى أنشأ شجرهما (متشابها وغير متشابه) فى اللون أو الطعم (كلوا من ثمره) أى ثمر كل واحد من ذلك (اذا أثمر) ولو قبل النضج وقرأ حمزة والكسائى برفع الثاء والميم من ثمره (وآتوا حقه يوم حصاده) وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وعاصم بفتح الحاء أى اعزموا على ايتاء الزكاة لكل من الزروع والثمار يوم الحصاد ولا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الايتاء وانما يجب اخراج الزكاة بعد التصفية والجفاف والامر بايتائها يوم الحصاد لئلا يؤخر عن وقت امكان الاداء وليعلم أن وجوبها بالادراك ولو فى البعض لا بالتصفية والمعنى وآتوا حق كل وجب يوم الحصاد بعد التصفية وفائدة ذكر الحصاد أن الحق لا يجب بنفس الزرع وادراكه وانما يجب يوم حصاده وحصوله فى يد مالكه لا فيما يتلف من الزرع قبل حصوله فى يد مالكه وهذا يقتضى وجوب الزكاة فى الثمار كما قاله أبو حنيفة وتقتضى ثبوت حق فى القليل والكثير فالعشر واجب فى القليل والكثير كما قاله أبو حنيفة (ولا تسرفوا) أى لا تجاوزوا الحد فى الاعطاء والبخل حتى تمنعوا الواجب من الصدقة وتعطوا كله وروى أن ثابت بن قيس بن شماس عمد الى خمسمائة نخلة فجذها ثم قسمها فى يوم واحد ولم يدخل منها الى منزله شيأ فأنزل الله هذه الآية ولا تسرفوا وقد جاء فى الخبر ابدأ بنفسك ثم بمن تعول (انه لا يحب المسرفين) فكل مكلف لا يحبه الله تعالى فهو من أهل النار (و) أنشأ (من الانعام حمولة) أى ما يحمل الاثقال (وفرشا) أى ما يفرش للذبح أو ما ينسج من وبره وصوفه وشعره للفرش (كلوا مما رزقكم الله) أى كلوا بعض ما رزقكم الله وهو ما أحل الله لكم من الحرث والانعام (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى ولا تسلكوا الطريق الذى يسوله لكم الشيطان بتحريم الحرث والانعام (انه) أى الشيطان (لكم عدو مبين) أى ظاهر العداوة فقد أخرج آدم من الجنة وقال لأحتنكن ذريته الا قليلا (ثمانية أزواج) أى أصناف أربعة ذكور من كل من الابل والبقر والغنم وأربعة أناث كذلك وهذا بدل من حمولة وفرشا (من الضأن اثنين) بدل من ثمانية أزواج أى أنشأ من الضأن زوجين الكبش والنعجة (ومن المعز اثنين) أى وأنشأ من المعز زوجين التيس والعنز (قل) لهم اظهارا لانقطاعهم عن الجواب (آلذكرين) من ذينك النوعين وهما الكبش والتيس (حرم) أى الله تعالى كما تزعمون أنه هو المحرم (أم الانثيين) وهما النعجة والعنز (أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) أى أم ما حملت عليه أناث النوعين حرم الله تعالى ذكرا كان أو أنثى (نبئونى بعلم) أى اخبرونى بعلم ناشئ عن طريق الاخبار من الله بأنه حرم ما ذكر (ان كنتم

صادقين)

صادقين) فى دعواكم ان الله حرم بحيرة أوسائبة أو وصيلة أوحاما (ومن الابل اثنين) أى وانشأ من الابل
اثنين الجمل والناقة (ومن البقر اثنين) ذكرا وأنثى (قل آلذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه
أرحام الانثيين) من ذينك النوعين (أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا) أى بل أكنتم حاضرين
حين أمركم الله بهذا التحريم والمراد هل شاهدتم الله حرم هذا ان كنتم لا تؤمنون برسول فانكم لا تقرون
بنبوة أحد من الانبياء فكيف تثبتون هذه الاحكام وتنسبوها الى الله تعالى (فمن أظلم ممن افترى على
الله كذبا) أى لا أحد أظلم ممن تعمد على الله كذبا بنسبة التحريم اليه قال المحققون اذا ثبت ان من افترى
على الله الكذب فى تحريم مباح استحق هذا الوعيد الشديد فمن افترى على الله الكذب فى مسائل
التوحيد ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد كان وعيده أشد وأشق (ليضل
الناس) عن دين الله (بغير علم) حال من فاعل يضل أى ملتبسا بغير علم بما يؤدى بهم اليه أو حال من
فاعل افترى أى افترى عليه تعالى جاهلا بصدور التحريم عنه تعالى أى فمن افترى عليه تعالى جاهلا بصدور
التحريم عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه كان أظلم الظالمين فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم انه
لم يصدر عنه (ان الله لا يهدى القوم الظالمين) أى لا يهدى أولئك المشركين أى لا ينقلهم من ظلمات
الكفر الى نور الايمان (قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه) أى قل يا أشرف الخلق لهؤلاء
الجهلة الذين يحكمون بالحلال والحرام من عند أنفسهم لا أجد فى القرآن طعاما محرما من المطاعم التى
حرمتموها على آكل يأكله من ذكر أو أنثى (الا ان يكون ميتة) قرأ ابن كثير وحمزة تكون بالتأنيث ميتة
بالنصب على تقدير الا ان تكون المحرم ميتة وقرأ ابن عامر تكون بالتأنيث ميتة بالرفع على معنى الا أن
توجد ميتة أو الا ان تكون هناك ميتة وقرأ الباقون يكون بالتذكير ميتة بالنصب أى الا ان يكون ذلك
المحرم ميتة وعلى قراءة ابن عامر يكون ما بعد هذا معطوفا على أن يكون الواقعة مستثناة أى الا حدوث ميتة
(أو دما مسفوحا) أى جاريا كالدماء التى فى العروق لا كالطحال والكبد (أو لحم خنزير فانه) أى الخنزير
(رجس) أى نجس فكل نجس يحرم أكله (أو فسقا) أى ذبيحة خارجة عن الحلال (أهل لغير الله به) أى
ذبح على اسم الاصنام (فمن اضطر) أى فمن أصابه الضرورة الداعية الى أكل الميتة (غير باغ) فى ذلك
على مضطر مثله (ولا عاد) أى متجاوز قدر الضرورة وهو الذى يسد الرمق (فان ربك غفور رحيم) أى
فلا يؤاخذ ربك بالاكل من ذلك لانه مبالغ فى المغفرة والرحمة (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) أى
وحرمنا على اليهود كل ذى مخلب وبرثن (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) وهو شحم الكرش
والكلى (الا ما حملت ظهورهما) أى الا الشحم الذى حملته ظهورهما (أو الحوايا) أى أو الا الشحم الذى
حملته المباعر (أو ما اختلط بعظم) أى أو الا شحما مختلطا بعظم مثل شحم الالية فانه متصل بالعصعص
فتلخص أن الذى حرم عليهم من الشحوم هو شحم الكرش والكلى وان ما عدا ذلك حلال لهم (ذلك
جزيناهم ببغيهم) أى ذلك التحريم عاقبناهم بسبب ظلمهم وهو قتلهم الانبياء وأخذهم الربا وأكلهم
أموال الناس بالباطل (وانا لصادقون) فى الاخبار عن تخصيصهم بهذا التحريم بسبب بغيهم وهم
كاذبون فى قولهم حرم ذلك اسرائيل على نفسه بلا ذنب منا فنحن مقتدون به (فان كذبوك) أى فان
كذبك اليهود فى الحكم المذكور أو كذبك المشركون فى ادعاء النبوة والرسالة وفى تبليغ هذه الاحكام
(فقل) لهم (ربكم ذو رحمة واسعة) فلذلك لا يعجل عليكم بالعقوبة على تكذيبكم فلا تغتروا بذلك فانه
امهال لا اهمال (ولا يرد بأسه) أى عقابه اذا جاء وقته (عن القوم المجرمين) الذين كذبوك فيما

تقول وقيل المعنى ذو رحمة واسعة للطيعين وذو بأس شديد للمجرمين (سيقول الذين أشركوا) عنادا لا اعتذارا عن ارتكاب هذه القبائح (لو شاء الله) عدم اشراكنا وعدم تحريمنا (ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ) ففعلنا حق مرضي عند الله تعالى ولولا انه تعالى رضي مانحن فيه لحال بيننا وبينه (كذلك كذب الذين من قبلهم) أي مثل ما كذبك هؤلاء في أن الله منع من الشرك ولم يحرم ماحرموه كذب كفار الامم الماضية أنبياءهم فكل من كذب نبيا قال الكل بمشيئة الله تعالى فهذا الذي أنافيه من الكفر انما حصل بمشيئة الله تعالى فلم يمنعني منه وفي قراءة بتخفيف كذب أي مثل كذبهم في قولهم ان مافعلوه حق مرضي عند الله تعالى كذب من قبلهم في ذلك (حتى ذاقوا بأسنا) أي عذابنا الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم الرسل وبكذبهم في قولهم ان الله أمرنا بالشرك (قل) لهؤلاء المشركين (هل عندكم من علم) أي بيان على ماتقولون من تحريم ماحرمتم ومن ان الله راض بشرككم (فتخرجوه) أي فتظهروه (لنا) كما بينا لكم خطأ قولكم وفعلكم (ان تتبعون الا الظن) أي ماتتبعون فيما أنتم عليه الا الظن الباطل الذي لا يغني من الحق شيأ (وان أنتم الا تخرصون) أي وما أنتم في ذلك الا تكذبون على الله تعالى (قل فلله الحجة البالغة) أي قل لهم ان لم تكن لكم حجة فلله الحجة الواضحة التي تقطع عذر المحجوج وتزيل الشك عن من نظر فيها وهي انزال الكتب وارسال الرسل (فلو شاء) هدايتكم جميعا الى الحجة البالغة (لهداكم أجمعين) ولكن لم يشأ هداية الكل بل هداية البعض (قل) يا أكرم الرسل لهم (هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا) أي احضروا قدوتكم الذين ينصرون قولكم ان الله حرم الذي حرمتموه (فان شهدوا) بعد حضورهم بأن الله حرم ذلك (فلا تشهد معهم) أي فلا تصدقهم فيما يقولون بل بين لهم فساده لان السكوت قد يشعر بالرضا (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون) أي ان وقع منهم شهادة فانما هي باتباع الهوى فلا تتبع أنت أهواءهم فهم كذبوا القرآن ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت ويجعلون لله تعالى عديلا (قل) يا أكرم الرسل لمن سألك أي شئ حرم الله وهم مالك بن عوف وأصحابه (تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم) في الكتاب الذي أنزل على (أن) مفسرة لفعل التلاوة (لا تشركوا به) أي بربكم (شيأ) من الاشراك (وبالوالدين) أي واحسنوا بهما (احسانا) ولم يقل ولا تسيئوا الوالدين لان مجرد ترك الاساءة اليهما غير كاف في قضاء حقوقهما (ولا تقتلوا أولادكم من املاق) أي من خوف الفقر وكانوا يدفنون البنات احياء فبعضهم للغيرة وبعضهم لخوف الفقر وهذا هو السبب الغالب فبين تعالى فساد هذه العلة بقوله (نحن نرزقكم واياهم) أي أولادكم (ولا تقربوا الفواحش) أي الزنا (ماظهر منها ومابطن) أي مايفعل منها علانية في الحوانيت كما هو دأب اراذلهم ومايفعل سرا باتخاذ الاخدان كما هو عادة اشرافهم وجمع الفواحش للنهي عن أنواعها ولذلك ذكر ما أبدل عنها بدل اشتمال وتوسيط النهي عن الزنا بين النهي عن قتل الاولاد والنهي عن القتل مطلقا لانه في حكم قتل الاولاد فان أولاد الزنا في حكم الاموات وقد قال صلى الله عليه وسلم في حق العزل ذاك وأد خفي (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله) قتلها بكونها معصومة بالاسلام أو بالعهد (الا بالحق) أي الا قتلا ملتبسا بالحق وهو ان يكون القتل للقصاص أو للردة أو للزنا بشرطه (ذلكم) أي التكاليف الخمسة (وصاكم به) أي أمركم به ربكم أمرا مؤكدا (لعلكم تعقلون) أي لكي تعقلوا فوائد هذه التكاليف في الدين والدنيا (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن) أي الا بالخصلة التي هي أحسن لليتيم كحفظه وتحصيل الربح به (حتى يبلغ أشده) أي قوته

مع الرشد ومبدؤه من البلوغ وانتهاؤه الى الثلاثة والثلاثين (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) أى أتموا الكيل بالمكيال والوزن بالميزان بالعدل من غير نقصان من المعطى ومن غير طلب الزيادة من صاحب الحق (لا نكلف نفسا) عند الكيل والوزن (الا وسعها) أى الا طاقتها فى الايفاء والعدل فان الواجب فى ايفاء الكيل والوزن هو القدر الممكن فى ايفائهما أما التحقيق فغير واجب (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) أى ولو كان القول على ذى قرابة منكم فاذا دعا شخص الى الدين وأقام الدليل عليه ذكر الدليل ملخصا عن الزيادة بألفاظ معتادة واذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فلا ينقص عن القدر الواجب ولا يزيد فى الايذاء والايحاش واذا حكى الحكايات فلا يزيد فيها ولا ينقص عنها واذا بلغ الرسالات عن الناس فيجب ان يؤديها من غير زيادة ولا نقصان واذا حكم فيجب أن يحكم بالعدل وان يسوى فى القول بين القريب والبعيد وذلك لطلب رضا الله تعالى (وبعهد الله أوفوا) أى أتموا ما عهدتم الله عليه من الايمان والنذور وغيرهما (ذلكم) أى التكاليف الاربعة (وصاكم به) أى أمركم به أمرا مؤكدا (لعلكم تذكرون) ولما كانت التكاليف الخمسة فى الآية الاولى أمورا ظاهرة مما يجب تفهمها ختمت بقوله تعالى لعلكم تعقلون ولما كانت هذه التكاليف الاربعة غامضة لا بد فيها من الاجتهاد فى الفكر حتى يقف على موضع الاعتدال ختمت بقوله تعالى لعلكم تذكرون وحاصل ما ذكر فى هاتين الآيتين من المحرمات تسعة أشياء خمسة بصيغ النهى وأربعة بصيغ الامر وتؤول الاوامر بالنهى لاجل التناسب وهذه الاحكام لا تختلف باختلاف الأمم والاعمار (وأن هذا) أى الذى بينه الرسول صلى الله عليه وسلم من دين الاسلام (صراطى) أى دينى (مستقيما) أى لا اعوجاج فيه قرأ ابن عامر وأن هذا بفتح الهمزة وسكون النون فأصلها وانه هذا فالهاء ضمير الشأن والحديث وهو اسم ان والجملة التى بعده خبره وقرأ حمزة والكسائى وان بكسر الهمزة وتشديد النون فالتقدير اتل ما حرم واتل ان هذا بمعنى أقل وقرأ الباقون بفتح الهمزة وتشديد النون والتقدير واتل عليكم ان هذا صراطى مستقيما (فاتبعوه) أى هذا الصراط (ولا تتبعوا السبل) المخالفة لدين الاسلام (فتفرق بكم عن سبيله) أى فتميل بكم هذه السبل عن سبيل الله الذى لا عوج فيه وهو دين الاسلام وعن ابن مسعود قال خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعوا اليها (ذلكم) أى اتباع دين الله (وصاكم به) فى الكتاب (لعلكم تتقون) اتباع سبل الكفر والضلالات (ثم آتينا موسى الكتاب) أى ثم بعد تعديد المحرمات وغيرها من الاحكام انى أخبركم انا أعطينا موسى التوراة (تماما) أى لاجل تمام نعمتنا (على الذى أحسن) أى على من أحسن العمل بأحكامه كما يدل عليه قراءة عبد الله على الذين أحسنوا وقرأ يحيى بن يعمر بالرفع بحذف المبتدأ أى على الذى هو أحسن دينا كقراءة من قرأ مثلا ما بعوضة بالرفع (وتفصيلا لكل شئ) أى ولبيان كل ما يحتاج اليه فى الدين فيدخل فى ذلك بيان نبوة سيدنا محمد ودينه (وهدى) من الضلالة (ورحمة) من العذاب (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) أى لكى يؤمن بنوا اسرائيل بلقاء ما وعدهم الله به من ثواب وعقاب (وهذا) أى الذى تلوت عليكم (كتاب) أى قرآن (أنزلناه) اليكم بلسانكم (مبارك) أى كثير المنافع دينا ودنيا لا يتطرق اليه النسخ (فاتبعوه) أى فاتبعوا يا أهل مكة ما فيه من الاوامر والنواهى والاحكام (واتقوا لعلكم ترحمون) أى اتقوا مخالفته على رجاء الرحمة (أن تقولوا) أى أنزلناه كراهة أن تقولوا يوم القيامة (انما أنزل الكتاب)

وهو التوراة والانجيل (على طائفتين من قبلنا) وهم اليهود والنصارى (وان كنا عن دراستهم لغافلين) أى وانه كنا عن قراءتهم لجاهلين فلا ندرى ما فى كتابهم اذ لم يكن بلغتنا والمراد بهذه الآيات اثبات الحجة على أهل مكة بانزال القرآن على سيدنا محمد كى لا يقولوا يوم القيامة ان التوراة والانجيل أنزلا على اليهود والنصارى ولا نعلم ما فيهما فقطع الله عذرهم بانزال القرآن عليهم بلغتهم (أو تقولوا) أى لا عذر لكم فى القيامة بقولكم (لو أنا أنزل علينا الكتاب) كما أنزل على اليهود والنصارى (لكنا أهدى منهم) أى أصوب دينا منهم وأسرع اجابة للرسول منهم (فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) أى لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم قرآن من ربكم فانه بيان فيما يعلم سمعا وهو هدى فيما يعلم سمعا وعقلا وهو نعمة فى الدين (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) أى لا أحد أجرأ على الله ممن كذب بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ومال عن ذلك (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) أى شدته (بما كانوا يصدفون) أى بسبب اعراضهم (هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة) أى ما ينتظر أهل مكة الا أحد هذه الامور الثلاثة أى فلا يؤمنون بك الا اذا جاءهم أحد هذه الامور وقرأ حمزة والكسائى على التذكير (أو يأتى ربك) أى بحسب ما اقترحوا بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا وهم كانوا كفارا واعتقاد الكافر ليس بحجة وقيل المراد بالملائكة ملائكة الموت لقبض أرواحهم وباتيان الله تعالى اتيان كل آياته بمعنى آيات القيامة كلها وقيل المعنى أو يأتى ربك يوم القيامة بلا كيف (أو يأتى بعض آيات ربك) أى بعض علامات ربك الدالة على قرب الساعة وهى عشرة وهى العلامات الكبرى وهى الدجال والدابة وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب والدخان وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ونار تخرج من عدن تسوق الناس الى المحشر (يوم يأتى بعض آيات ربك) وهو طلوع الشمس من مغربها (لا ينفع نفسا) كافرة (ايمانها لم تكن آمنت من قبل) أى قبل اتيان بعض الآيات (أو) نفسا مؤمنة عاصية توبتها لم تكن (كسبت فى ايمانها خيرا) لحكم الايمان والعمل الصالح حين طلوع الشمس من المغرب حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة وذلك لا يفيد شيئا أما من كان يومئذ مؤمنا مذنبا فتاب أو صغيرا أو مولودا بعد ذلك فانه ينفع توبتهم وايمانهم وعملهم كما قاله ابن عباس وروى عن ابن عباس أنه قال لا تزال الشمس تجرى من مطلعها الى مغربها حتى يأتى الوقت الذى جعله الله غاية لتوبة عباده فتستأذن الشمس من أين تطلع ويستأذن القمر من أين يطلع فلا يؤذن لهما فيحبسان مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر فلا يعرف مقدار حبسهما الا قليل من الناس وهم أهل الاوراد وحملة القرآن فينادى بعضهم بعضا فيجتمعون فى مساجدهم بالتضرع والبكاء والصراخ بقية تلك الليلة فبينما الناس كذلك اذ نادى مناد الا ان باب التوبة قد أغلق والشمس والقمر قد طلعا من مغاربهما ويتصايح أهل الدنيا وتذهل الامهات عن أولادها وتضع كل ذات حمل حملها فأما الصالحون والابرار فانهم ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب لهم عبادة وأما الفاسقون والفجار فلا ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب عليهم حسرة قال عمر بن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وما باب التوبة يا رسول الله فقال يا عمر خلق الله بابا للتوبة بجهة المغرب فهو من أبواب الجنة له مصراعان من ذهب مكللان بالدر والجواهر ما بين المصراع الى المصراع مسيرة أربعين عاما للراكب المسرع فذلك الباب مفتوح منذ خلقه الله تعالى الى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغاربهما ولم يتب عبد من عباد الله توبة نصوحا من لدن آدم الى ذلك اليوم الا ولجت تلك التوبة فى ذلك

الباب قال أبي بن كعب يارسول الله فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك وكيف بالناس والدنيا فقال يا أبي
إن الشمس والقمر يكسيا بعد ذلك ضوء النار ثم يطلعان على الناس ويغربان كما كانا قبل ذلك وأما الناس
بعد ذلك فيلحون على الدنيا ويعمرونها ويجرون فيها الانهار ويغرسون فيها الاشجار ويبنون فيها
البنيان ثم تمكث الدنيا بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة السنة منها بقدر شهر والشهر
بقدر جمعة والجمعة بقدر يوم واليوم بقدر ساعة ويتمتع المؤمنون بعد ذلك أربعين سنة لا يتمنون شيأ الا
أعطوه حتى تتم أربعون سنة بعد الدابة ثم يعود فيهم الموت ويسرع فلا يبقى مؤمن ويبقى الكفار يتهارجون
في الطرق كالبهائم حتى ينكح الرجل المرأة في وسط الطريق يقوم واحد عنها وينزل واحد وأفضلهم من
يقول لو تنحيتم عن الطريق لكان أحسن وروى عن أنس أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
صبيحة تطلع الشمس من مغربها يصير في هذه الامة قردة وخنازير وتطوى الدواوين وتجف الاقلام
لا يزاد في حسنة ولا ينقص من حسنة ولا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا
(قل انتظروا) ما تنتظرونه من اتيان أحد الامور الثلاثة (انا منتظرون) لذلك لنشاهد ما يحل بكم من سوء
العاقبة والمراد بهذا ان المشركين انما يعملون قدر مدة الدنيا فاذا ماتوا وظهرت الآيات لم ينفعهم الايمان
وحلت بهم العقوبة اللازمة أبدا (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) أي أحزابا في الضلالة (لست منهم في
شيء) أي لست من البحث في تفريقهم فأنت منهم برىء وهم منك برآء ولست من قتالهم في هذا الوقت في شيء
(انما أمرهم الى الله) أي يدبره كيف يشاء يؤاخذهم في الدنيا متى شاء ويأمرهم بقتالهم اذا أراد (ثم ينبئهم
بما كانوا يفعلون) أي ثم يظهر الله لهم يوم القيامة على رؤس الاشهاد ويعلمهم أي شيء شنيع كانوا
يفعلونه في الدنيا ويرتب عليه ما يليق به الجزاء والمراد بهؤلاء المغرقين الخوارج كما أخرجه ابن أبي حاتم
من حديث أبي امامة وهم أصحاب البدع والاهواء كما أخرجه الطبراني من حديث عائشة وقال قتادة هم
اليهود والنصارى كما أخرجه عبد الرزاق وكما أخرج ابن أبي حاتم عن السدي وقال النبي صلى الله عليه وسلم
افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة كلهم في الهاوية الا واحدة وافترقت النصارى اثنتين وسبعين
فرقة كلهم في الهاوية الا واحدة واستثناء الواحد من فرق اهل الكتابين انما هو باعتبار ما قبل النسخ
وأما بعده فالكل في الهاوية وان اختلفت أسباب دخولهم وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين
فرقة كلهم في الهاوية الا واحدة رواه أبو داود والترمذي والحاكم وقرأ حمزة والكسائي فارقوا بالالف
أي باينوا بأن تركوا بعض دين آبائهم والباقون فرقوا بالتشديد أي اختلفوا في دينهم كما اختلف
المشركون بعضهم يعبدون الملائكة ويزعمون أنهم بنات الله وبعضهم يعبدون الاصنام ويقولون
هؤلاء شفعاؤنا عند الله وبعضهم يعبدون الكواكب (من جاء بالحسنة) أي من جاء يوم القيامة
بالاعمال الحسنة من المؤمنين (فله عشر أمثالها) أي فله جزاء عشر أمثالها وهذا أقل ما وعد من
الاضعاف فالمراد بالعشرة الاضعاف مطلقا لا التحديد وقد جاء الوعد بسبعين وبسبعمائة وبغير حساب
ولذلك قيل المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر في العدد الخاص (ومن جاء بالسيئة) أي بالاعمال
السيئة (فلا يجزى الا مثلها) أي الاجزاء السيئة الواحدة ان جوزى (وهم لا يظلمون) أي
لا ينقصون من ثواب طاعتهم ولا يزادون في عقاب سيآتهم (قل) يا أشرف الخلق للمشركين الذين يدعون
انهم على ملة ابراهيم من أهل مكة واليهود والنصارى (انني هداني ربي الى صراط مستقيم) أي أرشدني
ربي بالوحي وبما نصب من الآيات التكوينية في الانفس وفي السموات والارض الى طريق حق (دينا

قيما) أى لاعوج فيه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح القاف وكسر الياء مشددة والباقون بكسر القاف وفتح الياء مخففة وهو مصدر كالصغر والكبر والحول والشبع أى دينا ذا قيم أى صدق (ملة ابراهيم حنيفا) أى مائلا عن الضلالة الى الاستقامة (وما كان من المشركين) وقوله تعالى دينا بدل من محل صراط لان محله النصب على انه مفعول ثان أو مفعول لفعل مقدر والتقدير الزموا دينا وقوله تعالى ملة ابراهيم عطف بيان لدينا وحنيفا حال من ابراهيم وكذا وما كان فهو عطف حال على أخرى (قل ان صلاتى) أى الصلوات الخمس (ونسكى) أى ذبيحتى وجمع بين الصلاة والذبح كما فى قوله تعالى فصل لربك وانحر أو المعنى وكل ما تقربت به الى الله تعالى فان معنى الناسك من صفا نفسه من دنس الآثام (ومحياى ومماتى) أى وما أنا عليه فى حياتى وما أكون عليه عند موتى من الايمان والطاعة (لله رب العالمين) أى ان صلاتى وسائر عباداتى وحياتى ومماتى كلها واقعة بخلق الله تعالى وتقديره وقضائه وحكمه (لا شريك له) فى الخلق والتقدير (وبذلك) أى وبهذا التوحيد (أمرت وأنا أول المسلمين) أى المستسلمين لقضاء الله وقدره فانه صلى الله عليه وسلم أول من أجاب ببلى يوم العهد لسؤال الله تعالى ألست بربكم أو المعنى وأنا أول المنقادين لله من أهل ملتى وهذا بيان لمسارعته صلى الله عليه وسلم الى الامتثال بامر الله (قل) يا أشرف الرسل للكفار الذين قالوا لك ارجع الى ديننا (أغير الله أبغى ربا) أى أأعبد ربا غير الله (وهو رب كل شئ) أى والحال ان الله رب كل شئ مع ان الذين اتخذوا ربا غير الله أقروا بان الله خالق الاشياء كما قال تعالى قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون وأصناف المشركين أربعة عبدة الاصنام فهم معترفون بأن الله هو الخالق للسموات والارض وللاصنام بأسرها وعبدة الكواكب فهم معترفون بان الله خالقها والقائلون بيزدان وأهرمن فهم معترفون بأن الشيطان محدث وان محدثه هو الله والقائلون بأن المسيح ابن الله والملائكة بناته فهم معترفون بان الله خالق الكل واذا ثبت هذا فنقول العقل الخالص يشهد بانه لا يجوز جعل المربوب شريكا للرب وجعل المخلوق شريكا للخالق (ولا تكسب كل نفس) ذنبا (الا عليها) أى الا حالة كونه مستعليا عليها بالمضرة أو حالة كونه مكتوبا عليها لا على غيرها (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى ولا تحمل نفس آثمة ولا غير آثمة اثم نفس أخرى فلا تحمل نفس طائعة أو عاصية ذنب غيرها وانما قيد فى الآيات بالوازرة موافقة لسبب النزول وهو ان الوليد بن المغيرة كان يقول للمؤمنين اتبعوا سبيلى أحمل عنكم أوزاركم (ثم الى ربكم) أى الى مالك أموركم (مرجعكم) أى رجوعكم يوم القيامة (فينبئكم) يومئذ (بما كنتم فيه تختلفون) من الاديان فى الدنيا (وهو الذى جعلكم خلائف الارض) أى جعلكم يخلف بعضكم بعضا فى الارض (ورفع بعضكم) فى الشرف والرزق (فوق بعض درجات) كثيرة متفاوتة فجعل الله منهم الحسن والقبيح والغنى والفقير والشريف والوضيع والعالم والجاهل والقوى والضعيف واظهار هذا التفاوت ليس لاجل العجز والجهل والبخل فانه تعالى منزه عن ذلك وانما هو لاجل الامتحان وهو المراد من قوله (ليبلوكم فيما آتاكم) أى ليعاملكم معاملة المختبر فيما أعطاكم من الجاه والمال والفقر أيكم يشكر وأيكم يصبر وهو أعلم بأحوال عباده منهم والمراد من الابتلاء هو التكليف ثم ان المكلف اما أن يكون مقصرا فيما كلف به أو موفرا فيه فان كان مقصرا كان نصيبه من التخويف قوله تعالى (ان ربك سريع العقاب) لمن كفر به ولا يشكره ووصف العقاب بالسرعة لان ما هو آت قريب وان كان المكلف موفرا فى الطاعات كان نصيبه من الترغيب قوله تعالى (وانه لغفور رحيم) لمن راعى حقوق ما أعطاه الله تعالى كما ينبغى عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال أنزلت على سورة الانعام جملة واحدة يتبعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الانعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الانعام يوما وليلة

﴿سورة الاعراف مكية وآياتها مائتان وست آيات وكلماتها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون كلمة وحروفها أربعة عشر ألفا وثلاثمائة وعشرة أحرف﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم المص) قيل هي حروف مقطعة استأثر الله بعلمها وهي سره تعالى في كتابه العزيز (كتاب) أي هذا قرآن (أنزل اليك) أي ان الملك انتقل به من العلو الى أسفل (فلا يكن في صدرك حرج منه) أي فلا يكن فيك شك من هذا الكتاب في كونه كتابا منزلا اليك من عنده تعالى أو المعنى لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغ هذا الكتاب مخافة أن تقصر في القيام بحقه أو مخافة أن يكذبوك (لتنذر به) أي بهذا الكتاب الكافرين (وذكرى للمؤمنين) فان النفوس البشرية على قسمين نفوس جاهلة غريقة في طلب اللذات والشهوات ونفوس شريفة مشرقة بالانوار الالهية فبعثة الرسل في حق القسم الاول تخويف وفي حق القسم الثاني تنبيه (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم) أي من كتابه وسنة رسوله (ولا تتبعوا من دونه) أي من غير ربكم (أولياء) من الشياطين والكهان فيحملوكم على البدع والاهواء وقيل الضمير للموصول مع حذف المضاف في أولياء أي ولا تتبعوا من دون ما أنزل أباطيل أولياء وقرأ مالك بن دينار ولا تبتغوا (قليلا ما تذكرون) أي تذكرا قليلا أو زمانا قليلا تذكرون وما مزيدة للتوكيد قرأ ابن عامر يتذكرون بالياء والتاء وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالتاء وتخفيف الذال والباقون بالتاء وتشديد الذال (وكم من قرية أهلكناها) أي كثير من أهل قرية أردنا اهلاكها (فجاءها) أي جاء أهلها (بأسنا) أي عذابنا (بياتا) أي نائمين في الليل كما في قوم لوط (أوهم قائلون) أي نائمون في نصف النهار أو مستريحون فيه من غير نوم كما في قوم شعيب والمعنى جاءهم العذاب على حين غفلة منهم من غير تقدم امارة تدلهم على نزول ذلك العذاب فكأنه قيل للكفار لا تغتروا بأسباب الامن والراحة والفراغ فان عذاب الله اذا وقع وقع دفعة من غير سبق امارة فلا تغتروا بأحوالكم (فما كان دعواهم) أي استغاثتهم بربهم واعترافهم بالجناية (اذ جاءهم بأسنا) أي عذابنا في الدنيا (الا أن قالوا انا كنا ظالمين) فأقروا على أنفسهم بالشرك والاساءة حيث لم يتبعوا ما أنزل اليهم من ربهم وذلك حين لم ينفعهم الاعتراف والندامة والمختار عند النحويين أن يكون محل أن قالوا رفعا بكان ودعواهم نصبا بدليل تذكير كان كقوله تعالى فما كان جواب قومه الا أن قالوا وقوله تعالى فكان عاقبتهما أنهما في النار وقوله تعالى وما كان حجتهم الا أن قالوا (فلنسألن الذين أرسل اليهم) أي فلنسألن في موقف الحساب الامم قاطبة قائلين ماذا أجبتم المرسلين (ولنسألن المرسلين) قائلين ماذا أجبتم وذلك للرد على الكفار اذا أنكروا التبليغ بقولهم ما جاءنا من بشير ولا نذير فاذا أثبت الرسل انهم لم يصدر منهم تقصير البتة فيتضاعف اكرام الله تعالى في حق الرسل لظهور براءتهم عن جميع موجبات التقصير و يتضاعف أسباب الخزي والاهانة في حق الكفار لما ثبت أن جميع التقصير كان منهم (فلنقصن عليهم) أي المرسلين والامم لما سكتوا عن الجواب (بعلم) أي فلنخبرنهم بما فعلوا اخبارا ناشئا عن علم منا (وما كنا غائبين) عنهم في حال من الاحوال فيخفى علينا شيء من أحوالهم (والوزن) أي وزن

الاعمال (يومئذ) أى كائن يوم اذ يسأل الله الامم والرسل (الحق) أى العدل أو المعنى والوزن يوم اذ يكون السؤال والقص هو الحق فالحق اما صفة للوزن أو خبر له ويومئذ اما ظرف له أو خبر له (فمن ثقلت موازينه) بسبب ثقل الحسنات فى الميزان (فأولئك هم المفلحون) أى الفائزون بالنجاة والثواب (ومن خفت موازينه) بسبب خفة الحسنات فى الميزان أو بسبب الاعمال التى لا اعتداد بها فى الوزن (فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) أى فأولئك الموصوفون بخفة الموازين الذين خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم بآياتنا والفائدة فى وضع ذلك الميزان ان يظهر ذلك الرجحان لاهل القيامة فان كان ظهور الرجحان فى طرف الحسنات ازداد سروره بسبب ظهور فضله وكمال درجته لاهل القيامة وان كان بالضد فيزداد حزنه وخوفه فى موقف القيامة ثم اختلفوا فى كيفية ذلك الرجحان فبعضهم قال يظهر هناك نور فى رجحان الحسنات وظلمة فى رجحان السيآت وآخرون قالوا بل يظهر رجحان فى الكفة قال العلماء الناس فى الآخرة ثلاث طبقات متقون لا كبائر لهم وكفار ومخلطون وهم الذين يأتون بالكبائر فأما المتقون فان حسناتهم توضع فى الكفة النيرة وصغائرهم لا يجعل الله لها وزنا بل تكفر صغائرهم باجتنابهم الكبائر وتثقل الكفة النيرة ويؤمر بهم الى الجنة ويثاب كل واحد منهم بقدر حسناته وأما الكافر فانه يوضع كفره فى الكفة المظلمة ولا توجد له حسنة توضع فى الكفة الاخرى فتبقى فارغة فيأمر الله تعالى بهم الى النار ويعذب كل واحد منهم بقدر أوزاره وأما الذين خلطوا فحسناتهم توضع فى الكفة النيرة وسيآتهم فى الكفة المظلمة فيكون لكبائرهم ثقل فان كانت الحسنات أثقل ولو بصوابة دخل الجنة وان كانت السيآت أثقل ولو بصوابة دخل النار الا أن يعفو الله وان تساويا كان من أصحاب الاعراف هذا ان كانت الكبائر فيما بينه وبين الله واما ان كان عليه تبعات وكان له حسنات كثيرة جدا فانه يؤخذ من حسناته فيرد على المظلوم وان لم يكن له حسنات أخذ من سيآت المظلوم فيحمل على الظالم من أوزار من ظلمه ثم يعذب على الجميع (ولقد مكناكم فى الارض) أى جعلنا لكم يا بنى آدم فيها مكانا وأقدرناكم على التصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) أى وجوه المنافع وهى على قسمين ما يحصل بخلق الله تعالى ابتداء مثل خلق الثمار وغيرها وما يحصل بالاكتساب وكلاهما بفضل الله وتمكينه فيكون الكل انعاما من الله تعالى وكثرة الانعام توجب الطاعة (قليلا ما تشكرون) تلك النعمة ونعم الله على الانسان كثيرة فلا انسان الا ويشكر الله تعالى فى بعض الاوقات على نعمه وانما التفاوت فى ان بعضهم يكون كثير الشكر وبعضهم يكون قليل الشكر (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) أى خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ثم صورناه أحسن تصوير وتحسن هذه الكناية لان آدم أصل البشر (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) سجود تعظيم (فسجدوا) أى الملائكة بعد الامر (الا ابليس) فانه أبو الجن كان مفردا مستورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه فى قوله تعالى للملائكة الخ (لم يكن من الساجدين) لآدم (قال) تعالى لابليس (ما منعك أن لا تسجد) أى ما صرفك الى أن لا تسجد كما قال القاضى ذكر الله المنع وأراد الداعى فكأنه تعالى قال ما دعاك الى أن لا تسجد لآدم لان مخالفة أمر الله تعالى حالة عظيمة يتعجب منها ويسأل عن الداعى اليها (اذ أمرتك) والمشهور أن كلمة لا لتأكيد معنى النفى فى منعك والاستفهام للتوبيخ ولاظهار كفر ابليس واذ منصوب بتسجد أى ما منعك من السجود فى وقت أمرى اياك به (قال) ابليس (أنا خير منه) أى انما لم أسجد لآدم لانى خير منه (خلقتنى من نار) فهى أغلب أجزائى (وخلقته من طين) أى وهو أغلب أجزائه فالنار أفضل من الطين لان

النار

النار مشرقة علوية لطيفة يابسة مجاورة لجواهر السموات والطين مظلم سفلى كثيف بعيد عن مجاورة السموات والمخلوق من الافضل أفضل وقد أخطأ ابليس طريق الصواب لان النار فيها الخفة والارتفاع والاضطراب وأما الطين فشأنه الرزانة والحلم والتثبت وأيضا فالطين سبب الحياة من انبات النبات والنار سبب الهلاك الاشياء والطين سبب جمع الاشياء والنار سبب تفريقها (قال) تعالى (فاهبط منها) أى من الجنة وكانوا فى جنة عدن رفيها خلق آدم أو أخرج من زمرة الملائكة المعززين (فما يكون لك) أى فما ينبغى لك (أن تتكبر فيها) أى فى الجنة أو فى زمرة الملائكة (فاخرج انك من الصاغرين) أى من الاذلاء (قال أنظرنى) أى لا تمتنى (الى يوم يبعثون) أى آدم وذريته وهو وقت النفخة الثانية وأراد ابليس ان يأخذ ثاره منهم باغوائهم وان ينجو من الموت لاستحالته بعد البعث ولانه قد تم عند النفخة الاولى (قال) تعالى (انك من المنظرين) أى من المؤجلين الى النفخة الاولى فيموت كغيره (قال) ابليس (فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم) أى فبسبب اغوائك اياى لاجلهم أقسم بعزتك لاقعدن لآدم وذريته دينك الموصل الى الجنة وهو دين الاسلام (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم) أى فأشككهم فى صحة البعث والقيامة والحساب وألقى اليهم ان الدنيا قديمة لا تفنى (وعن أيمانهم وعن شمائلهم) أى افترهم عن الحسنات وأقوى دواعيهم فى السيآت ونقل عن شقيق انه قال ما من صباح الا ويأتينى الشيطان من الجهات الاربع فيقول من قدامى لا تخف فان الله غفور رحيم فأقرأ وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ومن خلفى يخوفنى من وقوع أولادى فى الفقر فأقرأ وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويأتينى بالثناء من قبل يمينى فأقرأ والعاقبة للمتقين ويأتينى بالترغيب فى الشهوات من قبل شمالى فأقرأ وحيل بينهم وبين ما يشتهون والحاصل ان الشيطان لا يترك جهة من جهات الوسوسة الا ويلقيها فى القلب وروى ان الشيطان لما قال هذا الكلام رقت قلوب الملائكة على البشر فقالوا يا الهنا كيف يتخلص الانسان من الشيطان مع كونه مستوليا عليه من هذه الجهات الاربع فأوحى الله تعالى اليهم انه بقى للانسان جهتان الفوق والتحت فاذا رفع يديه الى فوق فى الدعاء على سبيل الخضوع أو وضع جبهته على الارض على سبيل الخشوع غفرت له ذنب سبعين سنة (ولا تجد أكثرهم شاكرين) أى مطيعين واغا قال هذا لانه رأى منهم ان مبدأ الشر متعدد ومبدأ الخير واحد وذلك انه حصل للنفس قوة واحدة تدعو النفس الى عبادة الله تعالى وطلب السعادات الروحانية وهى العقل وتسع عشرة قوة تدعوها الى اللذات الجسمانية والطيبات الشهوانية فخمسة منها هى الحواس الظاهرة وخمسة أخرى هى الحواس الباطنة واثنان الشهوة والغضب وسبعة هى القوى الكامنة وهى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة ولا شك ان استيلاء تسع عشرة قوة أكمل من استيلاء القوة الواحدة فيلزم القطع بأن أكثر الخلق يكون طالبين لهذه اللذات البدنية معرضين عن معرفة الحق ومحبته (قال اخرج منها) أى من الجنة ومن صورة الملائكة (مذءوما) أى محقورا (مدحورا) أى مبعدا من كل خير (لمن تبعك منهم) أى ولد آدم (لاملأن جهنم منكم) أى منك ومنهم (أجمعين) ففى اللام ومن فى قوله تعالى لمن تبعك وجهان فالاظهر ان اللام لام التوطئة لقسم محذوف ومن شرطية فى محل رفع مبتدأ ولاملأن جواب القسم المدلول عليه بلام التوطئة وجواب الشرط محذوف لسد جواب القسم مسده والوجه الثانى ان اللام لام الابتداء ومن موصولة وتبعك صلتها وهى فى محل رفع مبتدأ ولاملأن جواب قسم محذوف وذلك القسم وجوابه فى محل رفع خبر المبتدا

والتقدير للذى تبعك منهم والله لأملأن جهنم منكم والعائد من الجملة القسمية الواقعة خبرا عن المبتدأ متضمن فى قوله منكم لانه لما اجتمع ضمير غيبة وخطاب غلب الخطاب وروى عصمة عن عاصم لمن تبعك بكسر اللام على انه خبر لاملأن والمعنى لمن تبعك هذا الوعيد وهذه الآية تدل على ان جميع أصحاب البدع والضلالات يدخلون جهنم لان كلهم متابعون لابليس والله أعلم (و يا آدم اسكن) هذه القصة معطوفة على قوله تعالى للملائكة اسجدوا أى وقلنا لآدم يا آدم اسكن أو معطوفة على اخرج أى وقال يا آدم اسكن بعد ان أهبط ابليس وأخرجه من الجنة (أنت وزوجك الجنة) قال ابن اسحق خلقت حواء قبل دخول آدم الجنة والمعنى أى ادخل فيها وقال ابن عباس وغيره خلقت فى الجنة بعد دخول آدم فيها لانه لما أسكن الجنة مشى فيها مستوحشا فلما نام خلقت من ضلعه القصرى من شقه الايسر ليأنس بها والمعنى أنزل فى الجنة (فكلا من حيث شئتما) أى فكلا من ثمار الجنة فى أى مكان شئتما الاكل فيه وفى أى وقت شئتما (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) أى فتصيرا من الضارين لانفسكما (فوسوس لهما الشيطان) أى ففعل ابليس الوسوسة لاجلهما (ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما) أى ليظهر لهما ماستر عنهما بلباس النور أو بثياب الجنة من عورتهما فاللام اما للعاقبة لان ابليس لم يقصد بالوسوسة ظهور عورتهما وانما كان قصده ان يحملهما على المعصية فقط أو للعلة فظهور العورة كناية عن زوال الجاه فان غرضه من القاء تلك الوسوسة الى آدم ذهاب منصبه وروى ان ابليس بعدما صار ملعونا مطرودا من الجنة رأى آدم وحواء فى طيب عيش ونعمة ورأى نفسه فى مذلة ونقمة فحسدهما فهو أول حاسد ثم أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لهما فمنعه الخزنة فجلس على باب الجنة ثلاثمائة سنة من سنى الدنيا وهى بقدر ثلاث ساعات من ساعات الآخرة فلقى آدم مرارا كثيرة ورغبه فى أكل الشجرة بطرق كثيرة فلاجل المداومة على هذا التمويه أثر كلامه فى آدم عليه السلام (وقال) أى ابليس لآدم وحواء (مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة) أى عن الاكل منها (الا أن تكونا ملكين) أى الا كراهة ان تكونا كملكين فى عدم الشهوة وفى القدرة على الطيران والتشكل وفى قراءة شاذة ملكين بكسر اللام (أو تكونا من الخالدين) أى الذين لايموتون ولا يخرجون من الجنة أصلا (وقاسمهما) أى حلف لهما (انى لكما لمن الناصحين) فى حلفى لكما (فدلاهما بغرور) أى فخدعهما بزخرف من القول الباطل حتى أكلا قليلا قصدا الى معرفة طعم ذلك الثمر لغلبة الشهوة لا لكونهما قاصدين قول ابليس (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما) أى فلما تناولا من ثمر تلك الشجرة يسيرا لمعرفة طعمه ظهر لكل منهما قبل نفسه وقبل صاحبه ودبره وزال عنهما ثوبهما وزال النور عنهما (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أى وجعلا يلزقان على عورتهما من ورق التين للاستحياء (وناداهما ربهما) يا آدم ويا حواء (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) أى عن الاكل من ثمر هذه الشجرة (و) ألم (أقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين) أى ظاهر العداوة حيث أبى السجود كما حكى الله تعالى هذا القول فى سورة طه بقوله فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك الآية روى انه تعالى قال لآدم ألم يكن فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة فقال بلى وعزتك ولكن ماظننت ان أحدا من خلقك يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لاهبطنك الى الارض ثم لاتنال العيش الا كدا فأهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد ودرس وذرى وعجن وخبز (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) أى ضررناها بمخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك من أكل الشجرة التى نهيتنا عن الاكل منها وانما اعترف آدم بكونه ظالما لانه ترك الاولى فان

هذا الذنب صدر عنه قبل النبوة بطريق النسيان ولان القصد بذلك القول هضم النفس ونهج الطاعة على الوجه الأكمل (وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) أي من المغبونين بالعقوبة (قال) تعالى (اهبطوا) يا آدم وحواء وابليس الى الارض فهبط آدم بسرنديب جبل فى الهند وحواء بجدة وابليس بالابلة بضم الهمزة والموحدة وبتشديد اللام جبل بقرب البصرة (بعضكم لبعض عدو) فالعداوة ثابتة بين آدم وابليس وذرية كل منهما (ولكم فى الارض مستقر) أي مكان عيش وقبر (ومتاع) أي انتفاع (الى حين) أي الى انقضاء آجالكم (قال) تعالى (فيها) أي الارض (تحيون) أي تعيشون مدة حياتكم (وفيها تموتون) وتدفنون (ومنها تخرجون) الى البعث للجزاء قرأ حمزة والكسائي تخرجون بفتح التاء وضم الراء وكذلك فى الروم والزخرف والجاثية وقرأ ابن عامر هنا وفى الزخرف كذلك وفى الروم والجاثية بضم التاء وفتح الراء والباقون بضم التاء فى الجميع (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا) أي قد خلقنا لكم بأسباب نازلة من السماء لباسين من قطن وغيره لباسا يغطى عوراتكم من العرى ولباسا يزينكم فان الزينة غرض صحيح وروى ان العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال فى النهار والنساء فى الليل ويقولون لانطوف بثياب عصينا الله تعالى فنزلت هذه الآية تذكيرا ببعض النعم لاجل امتثال أمر الله تعالى بالحذر من قبول وسوسة الشيطان فى قوله تعالى لا يفتننكم الشيطان والمقصود من ذكر قصص الانبياء حصول العبرة لمن يسمعها (ولباس التقوى ذلك خير) وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بنصب لباس عطفا على لباسا أي وأنزلنا عليكم لباس التقوى وهو الايمان كما قاله قتادة والسدى وابن جريج أو العمل الصالح كما قاله ابن عباس أو السمت الحسن كما قاله عثمان بن عفان أو خشية الله كما قاله ابن الزبير أو الحياء كما قاله معبد والحسن ذلك أي اللباس الثالث خير لصاحبه من اللباسين الاولين لانه يستر من فضائح الآخرة وقرأ الباقون ولباس التقوى بالرفع على الابتداء وخبره ذلك خير والمعنى واللباس الناشئ عن التقوى وهو اللباس الاول أو هو الملبوسات المعدة لاجل اقامة نحو الصلاة ذلك خير لانه لبس المتواضع (ذلك) أي انزال اللباس (من آيات الله) الدالة على قدرته وعظيم فضله وعميم رحمته على عباده (لعلهم يذكرون) أي فيعرفون عظيم النعمة فى ذلك اللباس (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) أي لا يخرجنكم الشيطان عن طاعتى بفتنته فتمنعوا من دخول الجنة اخراجا مثل اخراجه أبويكم من الجنة بفتنته بأمره لهما بمخالفة أمرى فيمنعا من سكنى الجنة (ينزع عنهما لباسهما) بغروره وكان اللباس من ثياب الجنة أو من نور (ليريهما سوآتهما) أي ليرى آدم سوأة حواء وترى هى سوأة آدم (انه) أي الشيطان (يراكم هو وقبيله) أي أصحابه أو من كان من نسله (من حيث لا ترونهم) اذا كانوا على صورهم الاصلية لكن قد يكونون مرئيين فى بعض الاحيان لبعض الناس دون بعض وقال مجاهد قال ابليس جعل لنا أربع نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا فتى (انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) أي انا صيرنا الشياطين قرناء للذين لا يؤمنون بمحمد والقرآن مسلطين عليهم (واذا فعلوا) أي العرب (فاحشة) كعبادة الاصنام وكشف العورة فى الطواف (قالوا) جوابا للناهى عنها معللين بفعل الفاحشة بأمرين (وجدنا عليها) أي على هذه الاشياء (آباءنا) فاعتقدنا انها طاعات واقتدينا بهم فيها (والله أمرنا بها) فان أجدادنا انما كانوا يفعلونها بأمر الله تعالى بها (قل) لهم يا أكرم الرسل (ان الله لا يأمر بالفحشاء) فان عادته تعالى جارية على الامر بمحاسن الاعمال

والحث على نفائس الخصال (أتقولون على الله مالا تعلمون) أى انكم ما سمعتم كلام الله مشافهة ولا أخذتموه عن الانبياء لانكم تنكرون نبوة الانبياء فكيف تقولون على الله مالا تعلمون (قل أمر ربى بالقسط) أى بالتوحيد بلا اله الا الله (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) أى واستقبلوا بوجوهكم القبلة عند كل صلاة (وادعوه) أى اعبدوا الله باتيان أعمال الصلاة (مخلصين له الدين) أى الطاعة (كما بدأكم تعودون) أى كما أوجدكم الله بعد العدم يعيدكم بعده احياء يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) أى ثبت الضلالة عليهم فى الازل والجملتان الفعليتان فى محل نصب على الحال من فاعل بدأكم وفريقا الثانى منصوب بفعل مقدر موافق فى المعنى مذكور المفسر أى بدأكم حال كونه تعالى هاديا فريقا للايمان ومضلا فريقا ويجوز ان تكون الجملتان الفعليتان فى محل نصب على النعت لفريقا وفريقا وهذان على الحال من فاعل تعودون والعائد على المنعوت محذوف أى فريقا هداهم الله وفريقا حق عليهم الضلالة ويؤيد هذا الاعراب قراءة أبى بن كعب تعودون فريقين فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة (انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) فقبلوا ما دعوهم اليه ولم يتأملوا فى التمييز بين الحق والباطل (ويحسبون) أى يظن أهل الضلالة (أنهم مهتدون) بدين الله ودلت هذه الآية على ان كل من شرع فى باطل فهو مستحق للذم سواء حسب كونه هدى أو لم يحسب ذلك (يابنى آدم خذوا زينتكم) أى البسوا ثيابكم التى تستر عوراتكم (عند كل مسجد) أى عند كل وقت طواف وصلاة (وكلوا) من اللحم والدسم (واشربوا) من اللبن (ولا تسرفوا) بالتعدى الى الحرام أو بتحريم الحلال أو بالافراط فى الطعام (انه لا يحب المسرفين) أى انه تعالى لا يرتضى فعلهم قال ابن عباس ان أهل الجاهلية من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل وكانوا اذا وصلوا الى مسجد منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة وقالوا لا نطوف فى ثياب أصبنا فيها الذنوب ومنهم من يقول نفعل ذلك تفاؤلا حتى نتعرى عن الذنوب كما تعرينا عن الثياب وكانت المرأة منهم تتخذ سترا تعلقه على حقويها لتستتر به عن قريش فانهم كانوا لا يفعلون ذلك وكانت بنو عامر لا يأكلون فى أيام حجهم من الطعام الا قوتا ولا يأكلون لحما ولا دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون يارسول الله نحن احق ان نفعل ذلك فانزل الله تعالى هذه الآية (قل) يا أشرف الخلق لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة والذين يحرمون على أنفسهم فى أيام الحج اللحم والدسم (من حرم زينة الله) من الثياب (التى أخرج) الزينة (لعباده) من النبات كالقطن والكتان ومن الحيوان كالحرير والصوف ومن المعادن كالدروع (و) من حرم (الطيبات من الرزق) أى المستلذات من المآكل والمشارب (قل هى) أى الزينة والطيبات ثابتة (للذين آمنوا) بطريق الاصالة (فى الحياة الدنيا) غير خالصة لهم لانه يشركهم فيها المشركون (خالصة) لهم (يوم القيامة) أى لا يشاركهم فيها غيرهم قرأ نافع خالصة بالرفع على انه خبر بعد خبر أو خبر المبتدا محذوف أى وهى خالصة والباقون بالنصب حال من الضمير المستكن فى الخبر (كذلك نفصل الآيات) أى مثل هذا التبيين نبين سائر الاحكام (لقوم يعلمون) ان الله واحد لا شريك له فأحلوا حلاله وحرموا حرامه (قل) للمشركين الذين يتجردون من ثيابهم فى الطواف والذين يحرمون أكل الطيبات (انما حرم ربى الفواحش) أى الزنا (ما ظهر منها وما بطن) أى جهرها وسرها (والاثم) أى شرب الخمر (والبغى) أى الظلم على الناس (بغير الحق) فالقتل والقهر بالحق فليس بغيا (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) أى وان تسووا بالله فى العبادة معبودا ليس على نبوته

بحجة (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) بالالحاد فى صفاته والافتراء عليه من التحريم والتحليل فالجنايات محصورة فى خمسة أنواع أحدها الجنايات على الانساب وهى المرادة بالفواحش وثانيها الجنايات على العقول وهى المشار اليها بالاثم وثالثها الجنايات على النفوس والاموال والاعراض واليها الاشارة بالبغى ورابعها الجنايات على الاديان وهى من وجهين اما الطعن فى توحيد الله تعالى واليه الاشارة بقوله تعالى وان تشركوا بالله واما القول فى دين الله من غير معرفة واليه الاشارة بقوله تعالى وان تقولوا على الله مالا تعلمون وهذه الاشياء الخمسة أصول الجنايات واما غيرها فهى كالفروع (ولكل أمة) كذبت رسولها (أجل) أى وقت معين لهلاكها (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أى فاذا جاء وقت هلاكهم لا يتركون بعد الاجل طرفة عين ولا يهلكون قبل الاجل طرفة عين فالجزاء مجموع الامرين لا كل واحد على حدته والمعنى ان الوقت المحدود لا يتغير (يابنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى يابنى آدم ان يأتكم رسول من جنسكم بنى آدم يبين لكم أحكامى وشرائعى فمن اتقى كل منهى واتقى تكذيبه وأصلح عمله بأن يأتى كل أمره فلا يخاف فى الآخرة من العذاب ولا يحزن على ما فاته فى الدنيا أما حزنه على عقاب الآخرة فيرتفع بما حصل له من زوال الخوف (والذين كذبوا بآياتنا) التى يجىء بها رسولنا (واستكبروا عنها) أى امتنعوا من قبولها (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لا يموتون ولا يخرجون اما الفاسق من أهل الصلاة فلا يبقى مخلدا فى النار لانه ليس موصوفا بذلك التكذيب والاستكبار (فمن أظلم) أى أعظم ظلما (ممن افترى على الله كذبا) أى كاثبات الشريك والولد اليه تعالى واضافة الاحكام الباطلة اليه تعالى (أو كذب بآياته) كانكار كون القرآن كتابا نازلا من عند الله تعالى وانكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (أولئك ينالهم) فى الدنيا (نصيبهم من الكتاب) أى مما كتب لهم من الارزاق والاعمار (حتى اذا جاءتهم رسلنا) أى ملك الموت وأعوانه (يتوفونهم) أى حال كونهم قابضين أرواحهم (قالوا) لهم (اينما كنتم تدعون من دون الله) أى أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا ادعوها لتدفع عنكم ما نزل بكم (قالوا ضلوا) أى غابوا (عنا) أى لا ندرى مكانهم (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أى وأقروا عند الموت بأنهم كانوا فى الدنيا عابدين لما لا يستحق العبادة أصلا ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى والله ربنا ما كنا مشركين لانه من طوائف مختلفة أو فى أوقات مختلفة (قال) تعالى يوم القيامة (ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار) أى ادخلوا فى النار فيما بين الامم الكافرين الذين تقدم زمانهم زمانكم من هذين النوعين (كلما دخلت أمة) أى أهل دين فى النار (لعنت أختها) فى الدين وهى التى تلبست بذلك الدين قبلها فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود والنصارى النصارى والصابئون الصابئين والمجوس المجوس (حتى اذا اداركوا) أى اجتمعوا (فيها) أى النار (جميعا) وادرك بعضهم بعضا واستقر معه (قالت أخراهم لأولاهم) أى قال آخر كل أمة لاولها (ربنا هؤلاء) أى الاولون (أضلونا) عن دينك باخفاء الدلائل الباطلة (فآتهم عذابا ضعفا من النار) أى عذبهم مثل عذابنا مرتين (قال) تعالى لهم (لكل) منهم ومنكم (ضعف) فكل ألم يحصل له يعقبه ألم آخر الى غير نهاية فالآلام متزايدة من غير نهاية اما القادة فلكفرهم واضلالهم واما الاتباع فلكفرهم وتقليدهم (ولكن لا تعلمون) قرأه أبو بكر عن عاصم بالغيبة أى ولكن لا يعلم كل فريق مقدار عذاب للفريق الآخر

والباقون بالتاء على الخطاب ولكن لاتعلمون أيها السائلون مالكل فريق منكم من العذاب أو المعنى ولكن لاتعلمون يا أهل الدنيا مقدار ذلك (وقالت أولاهم لاخراهم) مخاطبة لها حين سمعوا جواب الله تعالى لهم (فما كان لكم علينا من فضل) فى الدنيا أى انا وايا كم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب لانكم كفرتم اختيارا لا انا حملنا كم على الكفر اجبارا فلا يكون عذابنا ضعفا (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) أى تقولون وتعملون فى الدنيا وهذا يحتمل ان يكون من كلام القادة للاتباع وان يكون من قول الله تعالى للجميع (ان الذين كذبوا بآياتنا) أى بالدلائل الدالة على أصول الدين (واستكبروا عنها) أى ترفعوا عن الايمان بها (لا تفتح لهم أبواب السماء) أى لا تفتح لاعمالهم ولا لدعائهم ولا لشئ مما يريدون به طاعة الله ولا لارواحهم (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) أى كما يستحيل دخول المذكور من الابل فى خرق الابرة يستحيل دخول الكفار الجنة ويقال حتى يدخل القلس الغليظ وهو الحبل الذى تشد به السفينة فى خرق الابرة وكل ثقب ضيق فهو سم (وكذلك نجزى المجرمين) أى ونجزى المشركين جزاء مثل جزاء المكذبين المستكبرين من عدم فتح أبواب السماء وعدم دخولهم الجنة وانما يدخلون النار بهذه الصفات (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) أى للذين كذبوا واستكبروا من جهنم فراش من تحتهم ومن فوقهم أغطية وهذه الآية اخبار عن احاطة النار بهم من كل جانب فلهم منها غطاء ووطاء وفراش ولحاف ﴿تنبيه﴾ تنوين غواش عوض من الياء المحذوفة على الصحيح فان الاعلال بالحذف مقدم على منع الصرف فاصله غواشى بتنوين الصرف فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت فاجتمع ساكنان الياء والتنوين فحذفت الياء ثم لوحظ كونه على صيغة مفاعل فى الاصل فحذف تنوين الصرف فخيف من رجوع الياء فيحصل الثقل فأتى بالتنوين عوضا عنها فغواش المنون ممنوع من الصرف لان تنوينه تنوين عوض كما علمت وتنوين الصرف قد حذف وانما كان الراجح تقديم الاعلال لان سببه ظاهر وهو الثقل وسبب منع الصرف خفى وهو مشابهة الفعل (وكذلك نجزى الظالمين) أى كالجزاء المذكور للمكذبين المستكبرين نجزى الكافرين (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا الا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من شرائع دينه وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه فى ذلك وتجنبوا ما نهاهم عنه لا نكلف نفسا الا ما يسهل تحليها من الاعمال وما يدخل فى قدرتها ولا ضيق فيه عليها وقوله تعالى لا نكلف نفسا الا وسعها اعتراض وقع بين المبتدا والخبر والتقدير والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون وانما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدا والخبر لانه من جنس ما قبله فانه بيان ان ذلك العمل غير خارج عن قدرتهم وتنبيه على ان الجنة مع عظم قدرها يتوصل اليها بالعمل السهل من غير تحمل الصعب (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) أى صفينا طباعهم من الاحقاد التى كانت لبعضهم على بعض فى دار الدنيا ودرجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقصان فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى ان صاحب الدرجة النازلة لا يحسد صاحب الدرجة الكاملة (تجرى من تحتهم الانهار) أى تجرى فى الآخرة من تحت سررهم أنهار الخمر والماء والعسل واللبن زيادة فى لذتهم وسرورهم (وقالوا) اذا بلغوا الى منازلهم أو الى عين الحيوان (الحمد لله الذى هدانا لهذا) أى للعمل الذى ثوابه هذا المنزل وهذه العين التى تجرى من تحتنا (وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) أى لولا هداية الله لنا موجودة ما اهتدينا الى الايمان والعمل الصالح قرأ ابن عامر ما كنا بغير واو كما فى مصاحف أهل الشام وذلك لانه

جار مجرى التفسير لقوله هدانا لهذا فلما كان أحدهما عين الآخر وجب حذف الحرف العاطف (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) هذا اقسام من أهل الجنة قالوا ذلك حين رأوا ما وعدهم الرسل عيانا تبجحا بما نالوه أى والله لقد جاءت رسل ربنا فى الدنيا بالحق أى ما أخبرونا به فى الدنيا من الثواب صدق فقد حصل لنا عيانا (ونودوا) أى نادتهم الملائكة عند رؤيتهم الجنة من مكان بعيد (أن تلكم الجنة) أى تلك الجنة التى وعدتكم الرسل بها فى الدنيا فان مفسرة لما فى النداء وكذا فى سائر المواضع الخمسة (أورثتموها بما كنتم تعملون) أى أعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة فى الدنيا فالجنة ومنازلها لا تنال الا برحمة الله تعالى فاذا دخلوها بأعمالهم فقد ورثوها برحمته ودخلوها برحمته اذ أعمالهم رحمة منه لهم وتفضل منه عليهم (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) تبجحا بحالهم وتنديما لأصحاب النار وذلك بعد استقرارهم فى محالهم (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا) على ألسنة رسله من الثواب على الايمان به وبرسله وعلى طاعته (حقا فهل وجدتم) يا أهل النار (ما وعد ربكم) من العذاب على الكفر (حقا قالوا) أى أهل النار مجيبين لأهل الجنة (نعم) قرأ الكسائى نعم بكسر العين فى كل القرآن (فأذن مؤذن) قيل هو اسرافيل وقيل جبريل (بينهم) أى نادى مناد أسمع الفريقين (أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله) أى يمنعون الناس من قبول الدين الحق تارة بالزجر والقهر وأخرى بسائر الحيل قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم أن لعنة بتخفيف ان ورفع لعنة والباقون بالتشديد وبالنصب (ويبغونها عوجا) أى يطلبون السبيل معوجة بالقاء الشكوك فى دلائل الدين الحق (وهم بالآخرة) أى بالبعث بعد الموت (كافرون) أى جاحدون (وبينهما) أى بين الجنة والنار أو بين أهلهما (حجاب) أى سور (وعلى الاعراف) أى أعالى ذلك السور المضروب بين الجنة والنار (رجال) قيل هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم وقيل هم قوم قتلوا فى سبيل الله وهم عصاة لآبائهم وقيل هم قوم كان فيهم عجب وقيل هم قوم كان عليهم دين فهذه الاقوال تدل على أن أصحاب الاعراف أقوام يكونون فى الدرجة النازلة من أهل الثواب وقيل انهم الاشراف من أهل الثواب قيل انهم الانبياء وانما أجلسهم الله على ذلك المكان العالى تمييزا لهم على سائر أهل القيامة وقيل انهم الشهداء وهم شهداء الله على أهل الايمان والطاعة وعلى أهل الكفر والمعصية فهم يعرفون أن أهل الثواب وصلوا الى الدرجات وأهل العقاب وصلوا الى الدركات كما قال تعالى (يعرفون كلا) من أهل الجنة وأهل النار زيادة على معرفتهم بكونهم فى الجنة وكونهم فى النار (بسيماهم) أى بعلامتهم التى أعلمهم الله تعالى بها كبياض الوجه وسواده وقيل ان أصحاب الاعراف كانوا يعرفون المؤمنين فى الدنيا بظهور علامات الايمان والطاعات عليهم ويعرفون الكافرين فى الدنيا أيضا بظهور علامات الكفر والفسق عليهم فاذا شاهدوا أولئك الاقوام فى محفل القيامة ميزوا البعض عن البعض بتلك العلامات التى شاهدوها عليهم فى الدنيا (ونادوا) أى رجال الاعراف (أصحاب الجنة) أى حين رأوهم (أن سلام عليكم) يا أهل الجنة وهذا بطريق التحية والدعاء أو بطريق الاخبار بنجاتهم من المكاره (لم يدخلوها) حال من فاعل نادوا (وهم يطمعون) حال من فاعل يدخلوها أى لم يدخل رجال الاعراف الجنة وهم فى وقت عدم الدخول طامعون وقيل قوله لم يدخلوها مستأنف لانه جواب سؤال سائل عن رجال الاعراف فقال ما صنع بهم فقيل لم يدخلوها ولكنهم يطمعون فى دخولها وقال مجاهد أصحاب الاعراف قوم صالحون فقهاء علماء فعلى هذا القول انما يكون لبثهم على الاعراف على سبيل النزهة وليرى غيرهم شرفهم وفضلهم والمراد من هذا الطمع طمع يقين أى

وهم يعلمون انهم سيدخلون الجنة (واذا صرفت أبصارهم) أى رجال الاعراف بغير قصد (تلقاء أصحاب النار) أى الى جهتهم (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) أى كلما وقعت أبصار أصحاب الاعراف على أهل النار تضرعوا الى الله تعالى فى أن لا يجعلهم من زمرتهم والمقصود من جميع هذه الآيات التخويف عن التقليد الردئ (ونادى أصحاب الاعراف رجالا) كانوا عظماء فى الدنيا من أهل النار (يعرفونهم بسيماهم قالوا) أى أصحاب الاعراف لهم وهم فى النار يا وليد بن المغيرة ويا أبا جهل بن هشام ويا أمية بن خلف ويا ابن خلف الجمحى ويا أسود بن عبد المطلب ويا سائر الرؤساء (ما أغنى عنكم جمعكم) أى أى شئ دفع عنكم جمعكم فى الدنيا من المال والخدم والاتباع (وما كنتم تستكبرون) عن قبول الحق وعلى الناس المحقين وقرئ تستكثرون أى من الاموال والجنود ثم زادوا على هذا التبكيب بقولهم (أهؤلاء) الضعفاء الذين عذبتموهم فى الدنيا كصهيب وبلال وسلمان وخباب وعمار وأشباههم (الذين أقسمتم) أى حلفتم فى الدنيا يا معشر الكفار (لا ينالهم الله برحمة) أى لا يدخلهم الله الجنة وقد دخلوا الجنة على رغم أنوفكم وقد قيل للذين أقسمتم على عدم دخولهم الجنة (ادخلوا الجنة) بفضل الله فهذا من بقية كلام أصحاب الاعراف فهو خبر ثان عن اسم الاشارة أى أهؤلاء قد قيل لهم ادخلوا الجنة فظهر كذبكم فى أقسامكم ويدل على ذلك قراءتان شاذتان ادخلوا بالبناء للمفعول ودخلوا وعلى هاتين القراءتين تقع هذه الجملة خبرا والتقدير دخلوا الجنة مقولا فى حقهم (لا خوف عليكم) من العذاب (ولا أنتم تحزنون) وقيل ان أصحاب الاعراف لما قالوا لاهل النار ما قالوا قال لهم أهل النار ان دخل هؤلاء فأنتم لم تدخلوا الجنة فلما عيروهم بذلك قيل لاهل الاعراف ادخلوا الجنة وقيل يقال لاصحاب الاعراف ادخلوا الجنة الخ بعد أن حبسوا وشاهدوا أحوال الفريقين وقالوا لهم ما قالوا وعلى هذا فالمراد بأصحاب الاعراف المقصرون فى العمل (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا) أى ألقوا (علينا من الماء أو مما رزقكم الله) من ثمار الجنة وهذا الكلام يدل على حصول العطش الشديد والجوع الشديد لهم وعن أبى الدرداء ان الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يزداد عذابهم فيستغيثون فيغاثون بضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ثم يستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة ثم يذكرون الشراب ويستغيثون فيدفع اليهم الحميم والصديد فيقطع ما فى بطونهم ويستغيثون الى أهل الجنة كما فى هذه الآية ويقولون لمالك ليقض علينا ربك فيجيبهم بعد ألف عام ويقولون ربنا أخرجنا منها فيجيبهم بقوله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون فعند ذلك ييأسون من كل خير ويأخذون فى الزفير والشهيق (قالوا) أى أهل الجنة (ان الله حرمهما على الكافرين) أى منعهم من طعام الجنة وشرابها قال ابن عباس رضى الله عنهما لما صار أصحاب الاعراف الى الجنة طمع أهل النار بالفرج بعد اليأس فقالوا يا رب ان لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فيأذن لهم فينظرون الى قراباتهم فى الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم وينظر أهل الجنة الى قراباتهم من أهل النار فلم يعرفوهم لسواد وجوههم فتنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم فينادى الرجل أباه وأخاه فيقول يا أبى ويا أخى قد احترقت بشدة حرجهنم أفض على من الماء فيقال لهم أجيبوهم فيقولون ان الله حرمهما على الكافرين (الذين اتخذوا دينهم لهوا) أى باطلا (ولعبا) أى فرحا فاللهو صرف الهم الى ما لا يحسن ان يصرف اليه واللعب طلب الفرح بما لا يحسن ان يطلب به (وغرتهم الحياة الدنيا) أى شغلتهم بالطمع فى طول العمر وحسن العيش وكثرة المال وقوة الجاه ونيل الشهوات (فاليوم) أى

يوم

يوم القيامة (ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) أى نتركهم فى عذابهم تركا مثل تركهم العمل للقاء يومهم هذا أو المعنى نعاملهم معاملة من نسى فنتركهم فى النار لانهم أعرضوا بآياتنا والمراد من هذا النسيان انه تعالى لا يجيب دعاءهم ولا يرحمهم (وما كانوا بآياتنا يجحدون) أى ولكونهم منكرين بآياتنا انها من عندنا وذلك يدل على ان حب الدنيا مبدأ كل آفة وقد يؤدى الى الضلال والكفر (ولقد جئناهم) أى هؤلاء الكفار (بكتاب) أى بقرآن أنزلناه عليك يا أكرم الرسل (فصلناه على علم) أى ميزناه مشتملا على علم كثير وفصل كثير مختلف وقد نظم بعضهم الانواع التسعة فى قوله

حلال حرام محكم متشابه * بشير نذير قصة عظة مثل

وقرأ الجحدرى وابن محيص بالضاد المعجمة أى فضلناه على غيره من الكتب السماوية عالمين بفضله (هدى ورحمة) أى هاديا من الضلالة الى الرشد وذا رحمة (لقوم يؤمنون) به (هل ينظرون الا تأويله) أى ما ينتظر أهل مكة اذ لا يؤمنون الا عاقبة ما وعدوا به فى القرآن من حلول العذاب بهم يوم القيامة (يوم يأتى تأويله) أى يوم يأتى عاقبة ما وعد لهم فى القرآن وهو يوم القيامة (يقول الذين نسوه) أى أعرضوا عنه (من قبل) أى من قبل اتيان ما يؤول اليه أمره وهو صدقه بما أخبر به والمعنى ان هؤلاء الذين تركوا الايمان بالقرآن فى الدنيا يقولون يوم القيامة (قد جاءت رسل ربنا بالحق) وكذبناهم أى انهم أقروا يوم القيامة بان ما جاءت به الرسل من ثبوت البعث والنشر والحشر والقيامة والثواب والعقاب كل ذلك كان حقا (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) من العذاب اليوم (أو نرد) الى الدنيا (فنعمل غير الذى كنا نعمل) أى لما رأوا أنفسهم فى العذاب قالوا الا طريق لنا الى الخلاص مما نحن فيه من العذاب الشديد الا أحد هذين الامرين وهو أن يشفع لنا شفيع فلأجل تلك الشفاعة يزول هذا العذاب أو أن يردنا الله تعالى الى الدنيا حتى نوحد الله تعالى بدلا عن الكفر ونطيعه بدلا عن المعصية وقرئ شاذا بنصب نرد اما عطفا على يشفعوا فالمسؤول أن يكون لهم شفعاء لاحد الامرين اما الدفع العذاب أو للرد الى الدنيا واما بناء على ان أو بمعنى الى أى فالمطلوب أن يكون لهم شفعاء للرد الى الدنيا فقط وقرئ شاذة برفع فنعمل أى فنحن نعمل فى الدنيا غير ما كنا نعمل فيها (قد خسروا أنفسهم) بذهاب الجنة ولزوم النار (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى وذهب عنهم دعوى نفع الشريك فانهم كانوا يدعون ان الاصنام التى كانوا يعبدونها شركاء الله تعالى وشفعاؤهم عنده يوم القيامة (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) والمقصود من هذا الكلام انه تعالى وان كان قادرا على ايجاد جميع الاشياء دفعة واحدة لكنه جعل لكل شئ حدا محدودا ووقتا مقدرا فلا يدخله فى الوجود الا على ذلك الوجه فهو تعالى وان كان قادرا على ايصال الثواب الى المطيعين فى الحال وعلى ايصال العقاب الى المذنبين فى الحال الا انه يؤخرهما الى أجل معلوم مقدر فهذا التأخير ليس لاجل انه تعالى أهمل العباد بل لانه تعالى خص كل شئ بوقت معين لسابق مشيئته وهذا معنى قول المفسرين من انه تعالى انما خلق العالم فى ستة أيام ليعلم عباده الرفق فى الامور والصبر فيها ولاجل ان لا يحمل المكلف تأخر الثواب والعقاب على ترك العمل (ثم استوى على العرش) أى حصل له تعالى تدبير المخلوقات على ما أراد أى بعد ان خلق السموات والارض استوى على عرش الملك والجلال وصح ان يقال انه تعالى انما استوى على ملكه بعد خلق السموات والارض بمعنى انه انما ظهر تصرفه فى هذه الاشياء وتدبيره لها بعد خلق السموات والارض وذلك لان العرش فى كلامهم هو السرير الذى يجلس عليه الملوك ثم جعل العرش كناية عن نفس الملك

يقال ثل عرش السلطان أى انتقض ملكه وفسد واذا استقام له ملكه واطرد أمره وحكمه قالوا استوى على عرشه واستقر على سرير ملكه هذا ما قاله القفال ونظير هذا قولهم للرجل الطويل فلان طويل النجاد وللرجل الذى يكثر الضيافة فلان كثير الرماد وللرجل الشيخ فلان اشتعل رأسه شيبا وليس المراد فى شىء من هذه الالفاظ اجراؤها على ظواهرها وانما المراد منها تعريف المقصود على سبيل الكناية فكذا هنا فالمراد بذكر الاستواء على العرش هو نفاذ القدرة وجريان المشيئة والواجب علينا ان نقطع بكونه تعالى منزها عن المكان والجهة ولا نخوض فى تأويل هذه الآية على التفصيل بل نفوض علمها الى الله تعالى (يغشى الليل النهار) أى يأتى بالليل على النهار فيغطيه واللفظ يحتمل العكس أيضا وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم فى رواية حفص يغشى بتخفيف الشين وهكذا فى الرعد وقرأ حمزة والكسائى وعاصم برواية أبى بكر بالتشديد وكذا فى الرعد وقرأ حميد بن قيس يغشى الليل النهار بفتح ياء يغشى ونصب الليل ورفع النهار أى يدرك النهار الليل (يطلبه حثيثا) أى يطلب كل من الليل والنهار الآخر طلبا سريعا فأخبر الله تعالى بما فى تعاقب الليل والنهار من المنافع العظيمة والفوائد الجليلة فان بتعاقبهما يتم أمر الحياة وتكمل المنفعة والمصلحة (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) أى مذللات لطلوع وغروب ومسير ورجوع بأذنه وقرأ ابن عامر برفع الاربعة على الابتداء والخبر والباقون بنصب الثلاثة عطفا على السموات ونصب مسخرات على الحال من هذه الثلاثة (ألا له الخلق) أى المخلوقات (والامر) أى التصرف فى الكائنات وفى هذه الآية رد على من يقول من أهل الضلال ان للشمس والقمر والكواكب تأثيرات فى هذا العالم (تبارك الله رب العالمين) أى كثر خير الله مالك العالمين وتعالى بالوحدانية فى الالوهية (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) أى متذللين ومسرين والتضرع اظهار ذل النفس قال الشيخ محمد بن عيسى الحكيم الترمذى ان كان خائفا على نفسه من الرياء فالاولى اخفاء العمل صونا لعمله عن البطلان وان كان قد بلغ فى الصفاء وقوة اليقين الى حيث صار آمنا عن شائبة الرياء كان الاولى فى حقه الاظهار لتحصل فائدة الاقتداء به (انه لا يحب المعتدين) أى المجاوزين بترك هذين الامرين التضرع والاخفاء أى انه تعالى لا يثيبه البتة ولا يحسن اليه وعن النبى صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء ان يقول اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل ثم قرأ انه لا يحب المعتدين (ولا تفسدوا فى الارض) أى كافساد النفوس بالقتل وقطع الاعضاء وافساد الاموال بنحو الغصب وافساد الاديان بالكفر والبدعة وافساد الانساب بسبب الاقدام على نحو الزنا وبسبب القذف وافساد العقول بنحو تناول المسكرات (بعد اصلاحها) بسبب ارسال الانبياء وانزال الكتب وقيل بعد اصلاح الله تعالى اياها بالمطر والخصب فان الله تعالى يمسك المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم (وادعوه خوفا وطمعا) أى ذوى خوف نظرا الى قصور أعمالكم وعدم استحقاقكم مطلوبكم وذوى طمع نظرا الى سعة رحمته ووفور فضله واحسانه وهذه الآية بيان فائدة الدعاء ومنفعته ففائدة الدعاء أحد هذين الامرين أما الآية الاولى فهى بيان شرط صحة الدعاء وهى لا بد أن يكون الدعاء مقرونا بالتضرع وبالاخفاء والداعى لا يكون داعيا الا اذا كان خائفا من وقوع التقصير فى بعض الشرائط المعتبرة فى قبول ذلك الدعاء وطامعا فى حصول تلك الشرائط باسرها ومعنى قوله تعالى خوفا وطمعا أى حال كونكم جامعين فى نفوسكم بين الخوف والرجاء فى كل أعمالكم فلا تقطعوا انكم أديتم حق ربكم وان اجتهدتم (ان رحمة الله قريب من المحسنين) بالقول والفعل ومن

الاحسان ان يكون الدعاء مقرونا بالخوف والطمع وكل من حصل له الاقرار والمعرفة كان من المحسنين كالصبي اذا بلغ وقت الضحوة وآمن بالله ورسوله واليوم الآخر ومات قبل الوصول الى الظهر وكصاحب الكبيرة من أهل الصلاة (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) أي قدام المطر قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح على لفظ الواحد والباقون الرياح على الجمع قرأ عاصم بشرا بضم الباء الموحدة وسكون الشين جمع بشير أي مبشرات وقرئ بفتح الباء بمعنى باشرات وقرأ حمزة والكسائي نشرا بالنون المفتوحة وبسكون الشين بمعنى ناشرة للسحاب أو بمعنى منشورة فكأن الرياح كانت مطوية فأرسلها الله منشورة بعد انطوائها وهي كناية عن اتساعها وقرأ ابن عامر بضم النون واسكان الشين وقرأ الباقون بضم النون والشين جمع نشور مثل رسل ورسول أي مفرقة من كل جانب أو طيبة لينة تنشر السحاب والريح هواء متحرك عنة ويسرة وهي أربعة الصبا وهي الشرقية فتحرك السحاب والدبور وهي الغربية تفرقه والشمال التي تهب من تحت القطب الشمالي تجمعه والجنوب وهي التي تكثر ارسال المطر وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور والجنوب من ريح الجنة (حتى اذا أقلت سحابا ثقالا) أي حتى اذا رفعت هذه الرياح سحابا ثقيلا بالماء (سقناه) أي السحاب (لبلد ميت) أي الى مكان لا نبات فيه لعدم الماء (فأنزلنا به) أي في ذلك البلد (الماء فأخرجنا به) أي بذلك الماء أو في ذلك البلد (من كل الثمرات) فالله تعالى انما يخلق الثمرات بواسطة الماء وقال أكثر المتكلمين ان الثمار غير متولدة من الماء بل الله تعالى اجرى عادته بخلق النبات ابتداء عقب اختلاط الماء بالتراب (كذلك نخرج الموتى) أي كما يخلق الله النبات بواسطة الامطار فكذلك يحيي الله الموتى بواسطة مطر ينزله على تلك الاجسام الرميمة وروى انه تعالى يمطر على اجساد الموتى فيما بين النفختين مطرا كالمني أربعين يوما وانهم يصيرون عند ذلك أحياء وقيل المعنى انه تعالى كما أحيا هذا البلد بعد خرابه فأنبت فيه الشجر وجعل فيه الثمر فكذلك يحيي الموتى ويخرجهم من الاجداث بعد ان كانوا أمواتا والمقصود من هذا الكلام اقامة الدلالة على ان البعث والقيامة حق (لعلكم تذكرون) أي لكي تعتبروا أيها المنكرون للبعث وتتذكروا ان القادر على احياء هذه الارض بالاشجار المزينة بالازهار والثمار بعد موتها قادر على ان يحيي الاجساد بعد موتها (والبلد الطيب) أي المكان الذي ليس بسبخة (يخرج نباته باذن ربه) أي بارادة ربه وتيسيره كذلك المؤمن يؤدي ما أمر الله طوعا بطيبة النفس (والذي خبث) أي المكان السبخة (لا يخرج) أي نباته (الا نكدا) أي بتعب وكذلك المنافق لا يؤدي ما أمر الله الا كرها بغير طيبة النفس وقيل المراد ان الارض السبخة يقل نفعها ومع ذلك ان صاحبها لا يتركها بل يتعب نفسه في اصلاحها طمعا منه في تحصيل ما يليق بها من المنفعة فالطلب للنفع العظيم في الدار الآخرة بالمشقة في أداء الطاعات أولى من طلب هذا النفع اليسير بالمشقة العظيمة (كذلك) أي مثل ذلك التصريف (نصرف الآيات) أي نكررها (لقوم يشكرون) نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها (لقد ارسلنا نوحا الى قومه) واسم نوح عبد الغفار وهو ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وسمي نوحا اما لدعوته على قومه بالهلاك أو لمراجعته ربه في شأن ولده كنعان أو لانه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فأوحى الله اليه اعبتني أم عبت الكلب فكثر نوحه على نفسه لذلك (فقال يا قوم اعبدوا الله) أي اعبدوه وحده (ما لكم من اله) أي من مستحق للعبادة (غيره) قرأ الكسائي بالجر على انه نعت لاله باعتبار لفظه والباقون بالرفع صفة له باعتبار محله الذي هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية وقرئ بالنصب على الاستثناء

يعني مالكم من اله الا اياه (اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أي اني أعلم ان العذاب ينزل بكم اما في الدنيا أو في الآخرة ان لم يقبلوا ذلك الدين (قال الملأ من قومه) أي قال الكبراء الذين جعلوا أنفسهم أضداد الانبياء (انا لنراك) يانوح (في ضلال مبين) في المسائل الاربع وهي التكليف والتوحيد والنبوة والمعاد (قال ياقوم ليس بي ضلالة) أي ليس بي نوع من أنواع الضلالة البتة (ولكني رسول اليكم) (من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي) قرأ أبو عمرو بسكون الباء (وأنصح لكم) فتبليغ الرسالة هو ان يعرفهم أنواع تكاليف الله وأقسام أوامره ونواهيه والنصيحة هي ان يرغبهم في الطاعات ويحذرهم عن المعاصي بأبلغ الوجوه (وأعلم من الله مالا تعلمون) أي انكم ان عصيتم أمره عاقبكم في الدنيا بالطوفان وفي الآخرة بعقاب شديد خارج عما تتصوره عقولهم (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم) أي أ استبعدتم وعجبتم من ان جاءكم وحي من مالك اموركم على لسان رجل من جنسكم أي فانهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة (لينذركم) أي لاجل ان يخوفكم عاقبة الكفر والمعاصي (ولتتقوا) عبادة غير الله (ولعلكم ترحمون) أي ولكي ترحموا فلا تعذبوا وهذا الترتيب في غاية الحسن فان المقصود من البعثة الانذار والمقصود من الانذار التقوى عن كل مالا ينبغي والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة (فكذبوه) أي نوحا في ادعاء النبوة وتبليغ التكاليف من الله وأصروا على ذلك التكذيب تلك المدة المتطاولة (فأنجيناه والذين معه في الفلك) من الغرق والعذاب وكان من صحبوه في الفلك أربعين رجلا وأربعين امرأة روي ان نوحا عليه السلام صنع السفينة بنفسه في عامين وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين وسمكها ثلاثين وجعل لها ثلاث بطون فحمل في أسفلها الدواب والوحوش وفي وسطها الانس وفي أعلاها الطير وركبها في عاشر رجب ونزل منها في عاشر المحرم (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) أي برسولنا نوح بالطوفان (انهم كانوا قوما عمين) عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد (والى عاد أخاهم) أي وأرسلنا الى عاد الاولى واحدا منهم في النسب لا في الدين (هودا) أما عاد الثانية وهم ثمود فقوم صالح وبينهما مائة سنة (قال ياقوم اعبدوا الله) وحده (مالكم من اله غيره أفلا تتقون) أي أتغفلون فلا تتقون عذاب الله تعالى فانكم تعرفون ان قوم نوح لما لم يتقوا الله ولم يطيعوه نزل بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خبره في الدنيا (قال الملأ) أي الرؤساء (الذين كفروا من قومه) وانما قال هنا الذين كفروا من قومه لان الملأ من قوم هود كان فيهم من آمن ومن كفر فمن آمن منهم مرثد بن أسعد أسلم وكان يكتم ايمانه بخلاف الملأ من قوم نوح فكلهم أجمعوا على ذلك الجواب فلم يكن أحد منهم مؤمنا في أول دعائهم الى الايمان (انا لنراك في سفاهة) أي انا نتيقنك ياهود متمكنا في خفة عقل حيث فارقت دين آبائك فان هودا نهاهم عن عبادة الاصنام ونسب من عبدها الى السفه وهو قلة العقل (وانا لنظنك من الكاذبين) في ادعاء الرسالة (قال ياقوم ليس بي سفاهة) أي ليس بي شيء مما تنسبوني اليه (ولكني رسول من رب العالمين) أي فانه بي غاية من الرشد والصدق (أبلغكم رسالات ربي) بالامر والنهي (وانا لكم ناصح) أي أحذركم من عذاب الله وادعوكم الى الايمان والتوبة (أمين) أي موثوق على رسالة ربي وهذا رد لقولهم وانا لنظنك من الكاذبين فكأن هودا قال لهم كنت قبل هذه الدعوى أمينا فيكم ماوجدتم مني غدرا ولا مكرا ولا كذبا واعترفتم لي بكوني أمينا فكيف تنسبونني الآن الى الكذب (أوعجبتم أن جاءكم ذكر) أي أكذبتم وعجبتم من ان جاءكم نبوة (من ربكم على رجل منكم) أي

على لسان آدمي مثلكم (لينذركم) أى ليحذركم عاقبة ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) بأن أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وما يتصل بها من المنافع والمصالح أو جعلكم ملوكا فى الارض فان شداد بن عاد ممن ملك معمورة الارض من رمل عالج الى شحر عمان (وزادكم فى الخلق) أى فى الناس (بسطة) وهى مقدار ما تبلغه يد الانسان ففضلوا على أهل زمانهم بهذا القدر أو المراد انهم متشاركون فى القوة والشدة ولان بعضهم يكون ناصرا للبعض الآخر وزال العداوة والخصومة من بينهم فلما خصهم الله تعالى بهذه الانواع فصح ان يقال انهم زادوا فى الخلق بسطة قرأ نافع والبزى وشعبة والكسائى بالصاد وأبو عمرو وهشام وقنبل وحفص وخلف بالسين وابن ذكوان وخلاد بهما (فاذكروا آلاء الله) أى نعماء الله عليكم واعملوا عملا يليق بتلك الانعامات (لعلكم تفلحون) أى لكى تنجوا من المكروب وتفوزوا بالمطلوب (قالوا) مجيبين عن تلك النصائح العظيمة (أجئتنا) ياهود (لنعبد الله وحده) أى لنخصه بالعبادة (ونذر) أى نترك (ما كان يعبد آباؤنا) من الاصنام (فأتنا بما تعدنا) أى بما تهددنا من العذاب بقولك أفلا تتقون (ان كنت من الصادقين) فى أخبارك بنزول العذاب وغرضهم بذلك القول اذ لم يأتهم هود بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذبا (قال) أى هود (قد وقع عليكم من ربكم رجس) أى رين على قلوبكم عقوبة منه لكم بالخذلان لالفكم الكفر (وغضب) أى عذاب (أتجادلونني فى أسماء) عارية عن المسمى (سميتموها) أى سميتم بها (أنتم وآباؤكم) أصناما فانهم سموا الاصنام بالآلهة مع ان معنى الالوهية فيها معدوم (ما نزل الله بها) أى بعبادتها (من سلطان) أى برهان لان المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل وان الاصنام لو استحقت العبادة كان استحقاقها بجعله تعالى اما بانزال آية أو نصب دليل وقوله تعالى ما نزل الله بها من سلطان عبارة عن خلو مذاهبهم عن الحجة والبينة (فانتظروا) ما يحصل لكم من عبادة هذه الاصنام وهو ما تطلبونه بقولكم فأتنا بما تعدنا (انى معكم من المنتظرين) لما يحل بكم (فأنجيناه) أى هودا (والذين معه) فى الدين (برحمة) عظيمة (منا) أى من جهتنا (وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) أى استأصلنا الذين كذبوا برسولنا هود (وما كانوا مؤمنين) أى ما أبقينا أحدا من الذين لا يؤمنون فلو علم الله انهم سيؤمنون لابقاهم وقصتهم ان عادا قوم كانوا باليمن بالاحقاف وكانوا قد تبسطوا فى البلاد ما بين عمان الى حضرموت وكانت لهم أصنام ثلاثة يعبدونها سموا أحدها صودا والآخر صداء والآخر هباء فبعث الله تعالى اليهم هودا وكان من أفضلهم حسبا فكذبوه فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا وكان الناس اذا نزل بهم بلاء طلبوا من الله الفرج عند البيت الحرام وأهل مكة اذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام وسيدهم معاوية بن بكر فلما توجهوا الى البيت الحرام وهم سبعون رجلا من أماثلهم منهم قيل بن عنز ومرثد بن سعد نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم قينتا معاوية اسم احداهما وردة والاخرى جرادة فلما رأى معاوية ذهولهم باللهو عما قدموا له أحزنه ذلك وقال قد هلك أخوالى وأصهارى واستحيى ان يكلمهم خشية ان يظنوا به ثقل مقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به لا يدرون من قاله وهو قول هؤلاء الثلاثة

ألا يا قيل ويحك قم فهينم * لعل الله يسقينا غماما
فيسقى أرض عاد ان عادا * قد أمسوا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلاما

ومعنى فهيم أى أخف الدعاء والغمام هنا المطر فلما غنتا به زجحهم ذلك وقالوا ان قومكم يتغوثون من البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال لهم مرثد بن سعد والله لا تسقون بدعائكم ولكن ان أطعتم نبيكم وتبتم الى الله تعالى سقاكم وأظهر اسلامه فقالوا لمعاوية احبس عنا مرثدا لا يقدمن معنا مكة فانه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة فقال قيل اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاث بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لنفسك ولقومك فقال اخترت السوداء فانها أكثرهن ماء فخرجت على عاد من واد لهم يسمى وادى المغيث فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم وهى باردة ذات صوت شديد لا مطر فيها وكانت ابتداء مجيئها فى صبيحة الاربعاء فى الحادى والعشرين من شوال فى آخر الشتاء وسخرت عليهم سبع ليال وثمانية أيام فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه فأتوا مكة فعبدوا الله فيها الى ان ماتوا وروى عن على رضى الله عنه أن قبر هود بحضرموت فى كثيب أحمر (والى ثمود أخاهم) أى وأرسلنا الى ثمود أخاهم فى النسب لا فى الدين (صالحا) وثمود قبيلة أخرى من العرب سموا باسم أبيهم الاكبر وهو ثمود بن غابر بن ارم بن سام بن نوح وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام الى واد القرى (قال يا قوم اعبدوا الله) وحده (مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة) أى شاهدة بنبوتى وهى الناقة (من ربكم) خلقها بلا واسطة (هذه ناقة الله لكم آية) أى علامة على رسالة الله واضافة الناقة الى الله لتعظيمها وتخصيصها كما يقال بيت الله أو لانها لا مالك لها غير الله أو لانها حجة الله على القوم ووجه كونها آية انه خرجها من الجبل لا من ذكر وأنثى ولكمال خلقتها من غير تدريج وناقة الله عطف بيان لهذه أو مبتدأ ثان ولكم خبر عامل فى آية فى نصبها على الحال ويجوز أن يكون عامل الحال معنى التنبيه أو معنى الاشارة وجملة قوله هذه ناقة الله لكم آية فى محل رفع بدل من قوله بينة لانها مفسرة لها وجاز ابدال جملة من مفرد لانها فى معناه (فذروها) أى فاتركوها (تأكل فى أرض الله) فى الحجر أى الناقة ناقة الله والارض أرض الله فاتركوها تأكل فى أرض ربها ما تأكل فليس لكم ان تحولوا بينها وبينها فليست الارض لكم ولا ما فيها من النبات من أنباتكم (ولا تمسوها بسوء) أى ولا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوا منها شيأ من أنواع الاذى اكراما لآية الله تعالى (فيأخذكم عذاب أليم) أى بسبب اذاها (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) أى فلما أهلك الله عادا عمر ثمود بلادها وخلفوهم فى الارض وكثروا وعمروا اعمارا طوالا (وبوأكم فى الارض) أى أنزلكم فى أرض الحجر بين الحجاز والشام (تتخذون من سهولها قصورا) أى تبنون من سهولة الارض قصورا بما تعملون منها من الرهص واللبن والآجر للصيف وسميت القصور بذلك لقصور الفقراء عن تحصيلها وحبسهم عن نيلها (وتنحتون الجبال بيوتا) أى وتنقبون فى الجبال بيوتا للشتاء وذلك لطول أعمارهم فان السقوف والابنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم فكان عمر واحد منهم ثلاث مائة سنة الى ألف سنة كقوم هود (فاذكروا آلاء الله) أى نعمة الله عليكم بعقولكم فانكم متنعمون مترفهون (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) أى ولا تعملوا فى الارض شيأ من أنواع الفساد (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم) أى قال الجماعة الذين تكبروا عن الايمان بصالح للمساكين الذين آمنوا به فقوله تعالى لمن آمن منهم بدل من الموصول باعادة العامل بدل الكل وضمير منهم راجع لقومه أى قالوا للمؤمنين الذين استرذلوهم بطريق

الاستهزاء بهم (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) اليكم (قالوا انا بما أرسل به مؤمنون) أى نحن مصدقون بما جاء به صالح (قال الذين استكبروا) عن امتثال أمر ربهم وهو الذى أوصله الله اليهم على لسان صالح بقوله فذروها تأكل فى أرض الله (انا بالذى آمنتم به كافرون فعقروا الناقة) أى قتلها قدار بن سالف بأمرهم فى يوم الاربعاء فقال لهم صالح ان آية العذاب ان تصبحوا غدا صفرا ثم أن تصبحوا فى يوم الجمعة حمرا ثم أن تصبحوا يوم السبت سودا ثم يصبحكم العذاب يوم الاحد (وعتوا عن أمر ربهم) أى ارتفعوا فابوا عن قبول أمر ربهم الذى أمرهم صالح (وقالوا) استهزاء (ياصالح ائتنا بما تعدنا) أى من العذاب (ان كنت من المرسلين) فانهم كذبوا صالحا فى قوله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة من الارض والصيحة من السماء (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى فصاروا فى بلدهم خامدين موتى لا يتحركون والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب من غير اضطراب ولا حركة روى أنه تعالى لما أهلك عادا قام ثمود مقامهم وطال عمرهم وكثر تنعمهم ثم عصوا الله وعبدوا الاصنام فبعث الله اليهم صالحا وكان منهم فطالبوه بالمعجزة فقال ماتريدون فقالوا تخرج معنا فى عيدنا ونخرج أصنامنا فتسأل الهك ونسأل أصنامنا فاذا ظهر أثر دعائك اتبعناك وان ظهر أثر دعائنا اتبعتنا فخرج معهم ودعوا أوثانهم فلم تجبهم ثم قال سيدهم جندع بن عمرو لصالح عليه السلام وأشار الى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يقال لتلك الصخرة كاثبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة كبيرة جوفاء وبراء فان فعلت ذلك صدقناك فأخذ صالح عليهم المواثيق أنه ان فعل ذلك آمنوا فقبلوا فصلى ركعتين ودعا الله تعالى فتمخضت تلك الصخرة كما تتمخض الحامل ثم انفرجت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء وكانت فى غاية الكبر ثم نتجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به فنهاهم ذؤاب بن عمرو والحباب صاحبا أوثانهم ورباب بن صمعر كاهنهم فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترده غبا فاذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها ثم تفرج بين رجليها فيحلبون ماشاؤا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت اذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادى فيهرب منها أنعامهم واذا وقع البرد تشتت ببطن الوادى فتهرب مواشيهم فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان عنيزة وصدقة لما أضرت به من مواشيهم فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه فرقى ولدها جبلا مسمى بقارة فرغا ثلاثا وقال صالح عليه السلام لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفتحت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح تصبحون غدا وجوهكم مصفرة وبعد غد وجوهكم محمرة واليوم الثالث وجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين ولما كان اليوم الرابع واشتد الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالانطاع فأتتهم صيحة من السماء ورجفة من الارض فتقطعت قلوبهم وهلكوا (فتولى عنهم) أى خرج صالح من بينهم قبل موتهم (وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم) أى بالترغيب والترهيب وبذلت فيكم وسعى ولكن لم تقبلوا منى ذلك كما قال (ولكن لا تحبون الناصحين) أى لم تطيعوا الناصحين بل استمروا على عداوتهم وروى أن صالحا خرج فى مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكى فالتفت فرأى الدخان ساطعا فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفا وخمسمائة دار (ولوطا) أى وأرسلنا لوطا ابن هاران الى قومه أى فأرسله الله تعالى الى أهل سذوم وهى بلد بحمص (اذ قال لقومه) أى وقت قوله لهم فارساله اليهم لم يكن فى أول وصوله

اليهم (أتأتون الفاحشة) أى أتفعلون اللواطة (ماسبقكم بها) أى بهذه الفاحشة (من أحد من العالمين) قال محمد بن اسحق كانت لهم ثمار وقرى لم يكن فى الارض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم فعرض لهم ابليس فى صورة شيخ ان فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فأبوا فألح عليهم فقصدوهم فاصابوا غلمانا حسانا فاستحكم فيهم ذلك (انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) أى انكم لتأتون أدبار الرجال لمجرد الشهوة لا للولد ولا للالفة متجاوزين فروج النساء اللاتى هن محال الاشتهاء وقرأ نافع وحفص عن عاصم انكم بهمزة واحدة مكسورة على الخبر المستأنف وهو بيان لتلك الفاحشة وقرأ ابن كثير بهمزتين بدون ألف بينهما وبتسهيل الثانية وأبو عمرو كذلك لكنه ادخل الالف بينهما وهشام بتحقيق الهمزتين بينهما مد والباقون بتحقيقهما من غير مد بينهما على الاصل وهذا الاستفهام معناه الانكار (بل أنتم قوم مسرفون) أى مجاوزون الحلال الى الحرام وأنتم قوم عادتكم الزيادة فى كل عمل (وما كان جواب قومه الا أن قالوا) أى ما كان جوابا من جهة قومه شئ من الاشياء فى المرة الاخيرة من مرات المحاورة بينه وبينهم الا قولهم لبعضهم الآخرين المباشرين لتلك الامور معرضين عن مخاطبة لوط عليه السلام (أخرجوهم) أى لوطا وابنتيه زعوراو ريثا (من قريتكم) سذوم (انهم أناس يتطهرون) أى يتنزهون عن أدبار الرجال قالوا ذلك على سبيل السخرية بلوط وأهله وعلى سبيل الافتخار بما هم فيه (فأنجيناه) أى لوطا (وأهله) وهم بنتاه (الا امرأته) الكافرة واسمها واهلة (كانت من الغابرين) أى الباقين فى ديارهم فهلكت فى العذاب مع الهالكين فيها لانها تسر الكفر موالية لاهل سذوم وأما لوط فخرج مع بنتيه من أرضهم وطوى الله له الارض فى وقته حتى نجا ووصل الى ابراهيم وهو فى فلسطين (وأمطرنا عليهم مطرا) أى وأرسلنا عليهم ارسال المطر آجرا محرقا معجونا بالكبريت والنار قال مجاهد نزل جبريل عليه السلام وأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها الى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم أتبعوا بالحجارة وقيل المعنى وأنزلنا على الخارج من المداين الخمسة حجارة من السماء معلمة عليها اسم من يرمى بها وروى أن تاجرا منهم كان فى الحرم فوقف الحجر له أربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه (فانظر كيف عاقبة المجرمين) أى فانظر يا من يتأتى منه النظر كيف أمطر الله حجارة من طين مطبوخ بالنار متتابع فى النزول على من يعمل ذلك العمل المخصوص وكيف أسقط مدائنهم مقلوبة الى الارض (والى مدين أخاهم) أى وأرسلنا الى أولاد مدين ابن ابراهيم عليه السلام أخاهم فى النسب لا فى الدين (شعيبا) ابن ميكيل وقيل شعيب ابن ثويب بن مدين بن ابراهيم (قال) لقومه وهم أهل كفر وبخس للمكيال والميزان (ياقوم اعبدوا الله) وحده (مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة) أى معجزة (من ربكم) دالة على رسالة الله وعلى صدق ما جئت به ومن معجزات شعيب أنه دفع عصاه الى موسى وتلك العصا حاربت التنين وأنه قال لموسى ان هذه الاغنام تلد ولادا فيها سواد فى أوائلها وبياض فى أواخرها وقد وهبتها منك فكان الامر كما أخبر عنه وأنه وقع على يده عصا آدم عليه السلام فان جميع ذلك كان قبل استنباء موسى عليه السلام وقيل ان المراد بالبينة نفس شعيب عليه السلام (فأوفوا الكيل والميزان) أى أتموا كيل المكيال ووزن الميزان (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) أى ولا تنقصوا حقوق الناس بجميع الوجوه كالغصب والسرقة وأخذ الرشوة وقطع الطريق وانتزاع الاموال بطريق الحيل وقيل كانوا مكاسين لا يدعون شيأ الا مكسوه كما يفعل أمراء الجور (ولا تفسدوا فى الارض) بالمعاصى (بعد اصلاحها) بعد أن أصلحها

الله بتكثير النعم فيها قال ابن عباس كانت الارض قبل أن يبعث الله شعيبا رسولا تعمل فيها المعاصي وتستحل فيها المحارم وتسفك فيها الدماء فذلك فسادها فلما بعث الله شعيبا ودعاهم الى الله صلحت الارض وكل نبي يبعث الى قومه فهو صلاحهم وحاصل هذه التكاليف الخمسة يرجع الى أصلين أحدهما التعظيم لامر الله ويدخل فيه الاقرار بالتوحيد والنبوة وثانيهما الشفقة على خلق الله ويدخل فيه ترك البخس وترك الافساد (ذلكم) أي هذه الامور الخمسة (خير لكم) مما أنتم فيه في طلب المال لان الناس اذا علموا منكم الوفاء والصدق والامانة رغبوا في المعاملات معكم فكثرت أموالكم (ان كنتم مؤمنين) أي مصدقين لي في قولي هذا (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) أي ولا تجلسوا على كل طريق فيه ممر الناس تهددون من مر بكم من الغرباء فكانوا قطاع طريق وكانوا مكاسين (وتصدون عن سبيل الله من آمن به) أي وتصرفون عن دين الله من آمن بالله (وتبغونها عوجا) أي وتطلبون سبيل الله معوجة بالقاء الشكوك والشبهات فكانوا يجلسون على الطرق ويقولون لمن يريد شعيبا انه كذاب ارجع لا يفتنك عن دينك فان آمنت به قتلناك وجملة الافعال الثلاثة التي هي توعدون وتصدون وتبغون أحوال أي لا تقعدوا موعدين وصادين وباغين (واذكروا) نعمة الله عليكم (اذ كنتم قليلا) بالعدد (فكثركم) بالعدد قيل ان مدين بن ابراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله تعالى في نسلهما بالبركة فكثروا (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) أي كيف صار آخر أمر المشركين قبلكم بالهلاك بتكذيبهم رسلهم (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به) من الشرائع والاحكام (وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا) أي فانتظروا أيها المؤمنون والكافرون (حتى يحكم الله بيننا) جميعا من مؤمن وكافر باعلاء درجات المؤمنين وباظهار هوان الكافرين (وهو خير الحاكمين) أي انه تعالى حاكم عادل منزه عن الجور (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) أي قال الجماعة الذين أنفوا من قبول قوله وبالغوا في العتو (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) والظرف متعلق بالاخراج لا بالايمان أي والله لنخرجنك واتباعك من مدين (أو لتعودن في ملتنا) أي أو لتصيرن الى ملتنا (قال أولو كنا كارهين) أي قال شعيب أتصيروننا في ملتكم وان كنا كارهين للدخول فيها (قد افترينا على الله كذبا) عظيما حيث نزعم ان لله تعالى ندا (ان عدنا) أي ان دخلنا (في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها) أي من ملتكم (وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا) أي وما يجوز لنا أن ندخل في ملتكم الا أن يأمر الله بالدخول فيها وهيهات ذلك (وسع ربنا كل شيء علما) أي ربما كان في علمه تعالى حصول بقائنا في هذه القرية من غير أن نعود الى ملتكم بل الله يجعلكم مقهورين تحت أمرنا ذليلين خاضعين تحت حكمنا (على الله توكلنا) أي في أن يثبتنا على ما نحن عليه من الايمان (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) أي يا ربنا احكم بيننا بالعدل (وأنت خير الفاتحين) أي الحاكمين أو المعنى اظهر أمرنا حتى ينفتح ما بيننا وبينهم بأن تنزل عليهم عذابا يتميز به المحق من المبطل (وقال الملأ الذين كفروا من قومه) أي وقال الرؤساء من قوم شعيب للسفلة (لئن اتبعتم شعيبا) في دينه (انكم اذا لخاسرون) في الدين وفي الدنيا لانه يمنعكم من أخذ الزيادة من أموال الناس وعند هذا المقال كمل حالهم في الضلال والاضلال فاستحقوا الاهلاك (فأخذتهم الرجفة) أي الزلزلة الشديدة المهلكة (فأصبحوا في دارهم جاثمين) أي فصاروا في مساكنهم خامدين ساكنين بلا حياة (الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) أي الذين كذبوا شعيبا استؤصلوا بالمرة وصاروا كأنهم لم يقيموا في قريتهم أصلا أي

عوقبوا بقولهم لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا وصاروا هم المخرجين من القرية اخراجا لا دخول بعده أبدا (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) دينا ودنيا دون الذين اتبعوه فانهم الرابحون فى الدارين (فتولى عنهم) أى خرج شعيب من بينهم قبل الهلاك وقال الكلبي ولم يعذب قوم نبي حتى أخرج من بينهم (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى) بالامر والنهى (ونصحت لكم) أى حذرتكم من عذاب الله ودعوتكم الى الايمان والتوبة وانما اشتد حزنه على قومه لانهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منهم الاستجابة للايمان فلما ان نزل بهم ذلك الهلاك العظيم بوجود علاماته كحبس الريح عنهم سبعة أيام حصل فى قلبه الحزن من جهة القرابة والمجاورة وطول الألفة ثم عزى نفسه وقال (فكيف آسى) أى أحزن حزنا شديدا (على قوم كافرين) لانهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بسبب اصرارهم على الكفر وقيل قال شعيب ذلك اعتذارا من عدم شدة حزنه عليهم والمعنى لقد أعذرت اليكم فى الابلاغ والنصيحة عما حل بكم فلم تسمعوا قولى ولم تقبلوا نصيحتى فكيف آسى عليكم والمراد انهم ليسوا مستحقين بأن يأسى الانسان عليهم وقرأ يحيى بن وثاب فكيف آسى بامالتين (وما أرسلنا فى قرية من نبي) فكذبه أهلها (الا أخذنا أهلها) أى عاقبناهم (بالبأساء) أى الشدة فى أحوالهم كالخوف وضيق العيش (والضراء) أى الامراض والاوجاع (لعلهم يضرعون) أى كى يتذللوا وينقادوا والله تعالى (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أى ثم أعطيناهم السعة والصحة بدل ما كانوا فيه من البلاء والمرض لان ورود النعمة فى المال والبدن يدعو الى الاشتغال بالشكر (حتى عفوا) أى كثروا فى أنفسهم وأموالهم (وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء) كما أصابنا وهذه عادة الزمان فى أهله فمرة يحصل فيهم الشدة والنكد ومرة يحصل لهم الرخاء والراحة فصبروا على دينهم فنحن مثلهم نقتدى بهم وليست عقوبة من الله بسبب ما نحن عليه من الدين والعمل فلما لم ينقادوا بالشدة و بالرخاء ولم ينتفعوا بذلك الامهال أخذهم الله بغتة أينما كانوا كما قال تعالى (فأخذناهم) بعد ذلك (بغتة) أى فجاءة بالعذاب (وهم لا يشعرون) أى وقت نزول العذاب ولا يخطرون ببالهم شيأ من المكاره (ولو ان أهل القرى) الذين أهلكناهم (آمنوا) بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر (واتقوا) ما نهى الله عنه (لفتحنا عليهم بركات من السماء) بالمطر (والارض) بالنبات والثمار والمواشي وحصول الامن والسلامة وقرأ ابن عامر لفتحنا بتشديد التاء للتكثير (ولكن كذبوا) ذلك ولم يتقوا ما حرمه الله (فأخذناهم) بالجدوبة والعذاب (بما كانوا يكسبون) من الكفر والمعاصى (أفأمن أهل القرى) أى أبعد ذلك أمن أهل القرى (أن يأتيهم بأسنا) أى عذابنا (بياتا) أي ليلا (وهم نائمون) أى غافلون عن ذلك (أو أمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى) أى نهارا (وهم يلعبون) أى يشتغلون بما ينفعهم وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بسكون الواو (أفأمنوا مكر الله) أى عذاب الله (فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) وهم الذين لا يعرفون ربهم لغفلتهم فلا يخافونه وسمى العذاب مكرا لنزوله بهم من حيث لا يشعرون (أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) قرأ الجمهور يهد بالياء من تحت أى أولم يتبين للذين يرثون أرض مكة من المتقدمين ويسكنونها من بعد هلاك أهلها تعذيبنا اياهم بسبب ذنوبهم لو شئنا ذلك كما عذبنا من قبلهم وفاعل يهد مصدر مؤول من ان وما فى خبرها ان نزل يهد منزلة اللازم والا فمفعوله محذوف والتقدير أولم يوضح للوارثين أرض مكة من بعد هلاك أهلها عاقبة أمرهم ان الشأن لو نشاء الاصابة أصبناهم بجزاء ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وأهلكنا الوارثين

كما أهلكنا المورثين (ونطبع على قلوبهم) أى ان لم نهلكهم بالعقاب نطبع على قلوبهم (فهم لايسمعون) أى لايقبلون موعظة من أخبار الامم المهلكة والمراد اما الاهلاك واما الطبع على القلب لان الاهلاك لايجتمع مع الطبع على القلب فاذا أهلك شخص يستحيل ان يطبع على قلبه وانما يحصل الطبع حال استمراره على الكفر فهو يكفر أولاثم يصير مطبوعا عليه فى الكفر ولم يكن هذا التقرير منافيا لصحة عطف قوله ونطبع على أصبناهم (تلك القرى) وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب (نقص عليك) يا أكرم الرسل (من أنبائها) كيف أهلكت وانما خص الله انباء هذه القرى لانهم اغتروا بطول الامهال مع كثرة النعم فتوهموا انهم على الحق فذكرها الله تعالى تنبيها لقوم محمد صلى الله عليه وسلم ليحترزوا عن مثل تلك الاعمال (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) أى وبالله لقد جاء كل أمة من تلك الأمم المهلكة أنبياؤهم الذين أرسلوا اليهم بالمعجزات الواضحة الدالة على صحة رسالتهم الموجبة للايمان (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) أى فبعد رؤية المعجزات ما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بالشرائع التى كذبوها قبل رؤية تلك المعجزات والمعنى كانت كل أمة من أولئك الامم فى زمن الجاهلية يتسامعون بكلمة التوحيد من بقايا من قبلهم فيكذبونها ثم كانت حالهم بعد مجىء نبيهم الذى أرسل اليهم كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم أحد (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) أى مثل ذلك الذى طبع الله على قلوب كفار الامم الخالية يطبع على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم ان لايؤمنوا أبدا (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) أى وما وجدنا أكثر الناس على ايمان كما قاله ابن مسعود أو على عهد أول وهو الذى عاهدهم الله وهم فى صلب آدم حيث قال ألست بربكم قالوا بلى فلما أقروا بربوبية الله تعالى فى علم الذر ثم خالفوا ذلك فى هذا العالم صار كأنه ما كان لهم عهد (وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) أى وان الشأن والحديث وجدنا أكثر الامم فى عالم الشهادة خارجين عن الطاعة صارفين عن الدين (ثم بعثنا من بعدهم) أى من بعد انقضاء الرسل المذكورين أو من بعد هلاك الامم المحكية (موسى بآياتنا) التسع الدالة على صدقه (الى فرعون) واسمه قابوس وقيل اسمه الوليد بن مصعب بن ريان وكان ملكه أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة ولم ير فى تلك المدة مكروها قط من وجع أو حمى أو جوع ولو حصل له ذلك لما ادعى الربوبية (وملئه) أى عظماء قومه (فظلموا بها) أى بتلك الآيات أى وضعوا الانكار فى موضع الاقرار ووضعوا الكفر فى موضع الايمان وذلك ظلم منهم على تلك الآيات الظاهرة (فانظر) أيها المخاطب بعين عقلك (كيف كان عاقبة المفسدين) وكيف فعلنا بهم (وقال موسى يافرعون انى رسول) اليك والى قومك (من رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق) وقرأ نافع على بتشديد الياء فحقيق مبتدأ وخبره ما دخلت عليه ان أى واجب على ترك القول على الله الا بالحق والباقون عند اللام والمعنى أنا ثابت بان أقول على الله الا الصدق وقرأ أبى بان لا أقول بالباء وقرأ عبد الله والاعمش ان لا أقول بدون حرف جر (قد جئتكم ببينة) أى معجزة شاهدة على رسالتى (من ربكم فارسل معى بنى اسرائيل) أى خلهم حتى يذهبوا معى الى الارض المقدسة التى هى وطن آبائهم مع أموالهم فكان فرعون عاملهم معاملة العبيد فى الاستخدام (قال) أى فرعون (ان كنت جئت بآية فأت بها) أى ان كنت جئت بآية من عند من أرسلك فاحضرها عندى ليثبت صدقك (ان كنت من الصادقين) فى دعواك انك رسول (فألقى) موسى (عصاه فاذا هى ثعبان) أى حية ضخمة صفراء ذكر (مبين) أى ظاهر لا يشك فى كونه ثعبانا روى أنه لما ألقاها صارت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل على

الارض والاسفل على سور القصر ثم توجه نحو فرعون ليبتلعه فوثب فرعون عن سريره هاربا وأحدث وانهزم الناس من دحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بنى اسرائيل فأخذه فعاد عصى (ونزع يده) أى أخرجها من طوق قميصه (فاذا هى بيضاء) بياضا نورانيا غلب شعاعه شعاع الشمس (للناظرين قال الملأ من قوم فرعون) أى الرؤساء منهم وهم أصحاب مشورته (ان هذا) أى موسى (لساحر عليم) أى حاذق بالسحر فانهم قالوا ذلك مع فرعون على سبيل التشاور (يريد أن يخرجكم من أرضكم) أى من أرض مصر (فماذا تأمرون) قالوا لفرعون خدمه ولا كابر فان الاتباع يفوضون الامر والنهى الى المخدوم والمتبوع أولا ثم يذكرون ما حضر فى خواطرهم من المصلحة بقولهم ارجه وأخاه قال تعالى (قالوا أرجه) فيه ست قراآت ثلاثة باثبات الهمزة التى بعد الجيم وهى كسر الهاء من غير اشباع لابن ذكوان عن ابن عامر وضمها كذلك لابى عمرو وباشباع حتى يتولد من الضمة واو على الاصل لابن كثير وهشام عن ابن عامر وثلاثة بحذف الهمزة وهى سكون الهاء وصلا ووقفا لعاصم وحمزة وكسر الهاء من غير اشباع لقالون وبه حتى يتولد منها ياء لنافع والكسائى وورش أى أخر أمر موسى ولا تعجل فى أمره بحكم والمراد انهم حاولوا معارضة معجزته بسحرهم ليكون ذلك أقوى فى ابطال قول موسى (وأخاه) هرون (وأرسل فى المدائن حاشرين) ى وأرسل فى مدائن صعيد مصر شرطا يحشرون اليك ما فيها من السحرة وكان رؤساء السحرة ومهرتهم فى أقصى مدائن الصعيد (يأتوك بكل ساحر عليم) أى ماهر فى السحر وقرأ حمزة والكسائى سحار كما اتفقوا عليه فى سورة الشعراء (وجاء السحرة فرعون) بعدما أرسل الشرط فى طلبهم (قالوا ان لنا لاجرا) على الغلبة قرأ نافع وابن كثير وحفص عن عاصم ان بهمزة واحدة والباقون بهمزتين وأدخل أبو عمرو الالف بينهما (ان كنا نحن الغالبين) لموسى (قال نعم) وقرأ الكسائى بكسر العين (وانكم لمن المقربين) أى نعم لكم الاجر ولكم المنزلة الرفيعة عندى زيادة على الاجر أى فانى لا أقتصر بكم على الثواب بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة انى أجعلكم من المقربين الىّ بالمنزلة (قالوا ياموسى اما أن تلقى) عصاك أولا (واما أن نكون نحن الملقين) ما معنا من الحبال والعصى أولا فلما راعوا حسن الادب حيث قدموا ذكر موسى عليه السلام رزقهم الايمان ببركة رعاية هذا الادب (قال) موسى مريدا لابطال ما أتوا به من السحر وازراء شأنهم (ألقوا) ما تلقون (فلما ألقوا) عصيا وحبالا (سحروا أعين الناس) أى صرفوها عن ادراك حقيقتها فتخيلوا أحوالا عجيبة مع ان الامر فى الحقيقة ما كان على وفق ما تخيلوه قيل انهم أتوا بالحبال والعصى ولطخوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا الزئبق فى دواخل تلك العصى فلما أثر تسخين الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض وكانت كثيرة جدا فالناس تخيلوا انها تتحرك وتلتوى باختيارها وقدرتها (واسترهبوهم) أى بالغوا فى تخويف عظيم للعوام من حركات تلك الحبال والعصى وخاف موسى ان يتفرقوا قبل ظهور معجزته فكان خوفه لاجل فزع الناس واضطرابهم عارا أو من أمر تلك الحيات وليس خوفه لاجل سحرهم لانه كان على ثقة من الله تعالى انهم لم يغلبوه وهو غالبهم (وجاؤا بسحر عظيم) فى باب السحر وعند السحرة وان كان حقيرا فى نفسه قيل كانت الحبال والعصى حمل ثلاثمائة بعير وذلك انهم ألقوا حبالا غلاظا وأخشابا طوالا فاذا هى حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا وكانت سعة الارض ميلا فى ميل فصارت كلها حيات (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك) ولما ألقى موسى العصا صارت حية عظيمة حتى سدت الافق ثم فتحت فكها فكان

ما بين فكيها ثمانين ذراعا وابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم فلما أخذها موسى صارت عصا كما كانت من غير تفاوت في الجسم أصلا كما قال تعالى (فاذا هي تلقف) أي تلقم (ما يأفكون) أي الذي يقلبونه عن الحق الى الباطل (فوقع الحق) أي فظهر الحق مع موسى (وبطل ما كانوا يعملون) أي واضمحل ما عملوه من السحر وسبب هذا الظهور ان السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا فلما فقدت ثبت ان ذلك حصل بخلق الله تعالى لا لاجل السحر (فغلبوا) أي فرعون وقومه (هنالك) أي في المكان الذي وقع فيه سحرهم (وانقلبوا صاغرين) أي صاروا اذليلين مبهوتين (وألقي السحرة ساجدين) أي خروا سجدا لله تعالى أي في سرعة سجودهم كأنهم ألقوا قال ابن زيد كان اجتماعهم بالاسكندرية وبلغ ذنب الحية وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا ذلك الجمع ففزعوا ووقع الزحام فمات منهم خمسة وعشرون ألفا ثم أخذها موسى فصارت في يده عصى كما كانت فلما رأى السحرة ذلك عرفوا انه ليس بسحر فعند ذلك خروا ساجدين (قالوا آمنا برب العالمين) قال فرعون اياي تعنون قالوا لا بل (رب موسى وهارون) ولما ظفروا بالمعرفة سجدوا لله تعالى في الحال وجعلوا ذلك السجود شكرا لله تعالى على الفوز بالايمان والمعرفة وعلامة على انقلابهم من الكفر الى الايمان واظهارا للخضوع والتذلل لله تعالى فكأنهم جعلوا ذلك السجود الواحد علامة على هذه الامور الثلاثة على سبيل الجمع وأولئك القوم كانوا عالمين بحقيقة السحر فلما وجدوا معجزة موسى خارجة عن حد السحر علموا انها أمر الهي فاستدلوا بها على ان موسى نبي صادق من عند الله تعالى فلاجل كمالهم في علم السحر انتقلوا من الكفر الى الايمان فاذا كان حال علم السحر كذلك فما ظنك بكمال حال الانسان في علم التوحيد (قال فرعون آمنتم به) أي برب موسى وهرون واختلف القراء في هذا الحرف هنا وفي طه وفي الشعراء فان القراء في ذلك على أربع مراتب الاولى قراءة الاخوين وأبي بكر عن عاصم وهي تحقيق الهمزتين في السور الثلاث من غير ادخال ألف بينهما وهو استفهام انكار وأما الالف الثالثة فالكل يقرؤنها كذلك وهي فاء الكلمة يجب قلبها ألفا لسكونها بعد همزة مفتوحة وأما الاولى فمحققة ليس الا والثانية قراءة حفص وهي آمنتم بهمزة واحدة بعدها ألف والثالثة قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر والبزي عن ابن كثير وهي تحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين بين والرابعة قراءة قنبل عن ابن كثير فقرأ في هذه السورة حال الابتداء أأمنتم بهمزتين أولاهما محققة والثانية مسهلة بين بين وألف بعدها كقراءة البزي وحاصل الوصل يقرأ قال فرعون وامنتم بابدال الاولى واوا وتسهيل الثانية بين بين وألف بعدها وقرأ في سورة طه كقراءة حفص وفي سورة الشعراء كقراءة البزي (قبل أن آذن لكم) أي بغير أن آذن لكم (ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) أي ان ايمان هؤلاء حيلة احتلتموها مع مواطأة موسى في مصر قبل ان تخرجوا الى الميعاد وان غرضهم بذلك اخراج القوم من مصر وابطال ملكهم وهاتان شبهتان ألقاهما فرعون الى اسماع عوام القبط ليمنعهم بهما عن الايمان بنبوة موسى عليه السلام (فسوف تعلمون) ما أفعل بكم (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أي من كل شق طرفا (ثم لأصلبنكم) أي أعاقبكم ممدودة أيديكم لتصير على هيئة الصليب أو حتى يتقاطر صليبكم وهو الدهن الذي فيكم (أجمعين قالوا) أي السحرة (انا الى ربنا منقلبون) أي راجعون بالموت بلا شك سواء كان بقتلك أولا فيحكم بيننا وبينك وانا الى رحمة ربنا راغبون (وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) أي ما تعيب علينا الا ايماننا بآيات ربنا أوما لنا عندك

ذنب تعذبنا عليه الا الايمان بآيات ربنا حين جاءتنا (ربنا أفرغ علينا صبرا) أى صب علينا صبرا كاملا تاما عند القطع والصلب لكى لا نرجع كفارا (وتوفنا مسلمين) أى مخلصين على دين موسى قيل فعل فرعون ما توعدهم به وقيل لم يقع من فرعون ذلك بل استجاب الله تعالى لهم الدعاء فى قولهم وتوفنا مسلمين لانهم سألوه تعالى أن يكون توفيهم من جهته تعالى لا بقتل فرعون (وقال الملأ من قوم فرعون) له لما خلى سبيل موسى (أتذر موسى وقومه) من بنى اسرائيل (ليفسدوا فى الارض) أى ليفسدوا على الناس فى أرض مصر بتغيير دينهم واعلم أن فرعون بعد وقوع هذه الواقعة كان كلما رأى موسى خافه أشد الخوف فلهذا السبب لم يتعرض له الا أن قومه لم يعرفوا ذلك فحملوه على أخذه وحبسه (ويذرك وآلهتك) أى معبوداتك بكسر اللام جمع اله وقرأ ابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأنس وعلى بن أبى طالب والاهتك بفتح اللام ومده أى وعبادتك وقرأ العامة بنصب يذرك عطف على يفسدوا أو جواب الاستفهام بالواو وقرأ الحسن ونعيم بن ميسرة بالرفع عطفا على أتذر أو استئنافا أو حالا وقرئ بالسكون (قال) فرعون لما لم يقدر على موسى أن يفعل معه مكروها لخوفه منه (سنقتل أبناءهم) أى أبناء بنى اسرائيل ومن آمن بموسى صغارا كما قتلناهم أول مرة وقرأ نافع وابن كثير سنقتل بفتح النون وسكون القاف والباقون بضم النون وفتح القاف وتشديد التاء (ونستحيي نساءهم) أى ونتركهن أحياء للخدمة (وانا فوقهم قاهرون) كما كنا وهم مقهورون تحت أيدينا وانما نترك موسى وقومه من غير حبس لعدم التفاتنا اليهم لا للعجز ولا للخوف واختلف المفسرون فمنهم من قال كان فرعون يفعل ذلك ومنهم من قال لا يفعل ذلك لعدم قدرته لقوله تعالى أنتما ومن اتبعكما الغالبون (قال موسى لقومه) بنى اسرائيل حين تضجروا من قول فرعون على سبيل التسلية لهم (استعينوا بالله) على فرعون وقومه (واصبروا) على ما سمعتم من أقاويله الباطلة (ان الارض) أى أرض مصر (لله يورثها من يشاء من عباده) وقرأ الحسن يورثها بفتح الواو وتشديد الراء المكسورة للتكثير وقرئ يورثها بفتح الراء مبنيا للمفعول (والعاقبة) أى الجنة أو فتح البلاد والنصر على الاعداء (للمتقين) أى الذين أنتم منهم فمن اتقى الله تعالى فالله يعينه فى الدنيا والآخرة وقرأ ابن مسعود بنصب العاقبة عطفا على الارض فالاسم معطوف على الاسم والخبر على الخبر فهو من عطف المفردات (قالوا) أى بنو اسرائيل لموسى لما سمعوا تهديد فرعون بالقتل للابناء مرة ثانية (أوذينا) من جهة فرعون (من قبل أن تأتينا) بالرسالة (ومن بعد ما جئتنا) رسولا قالوا ذلك استكشافا لكيفية وعد موسى اياهم بزوال تلك المضار هل هو فى الحال أولا لا كراهة لمجىء موسى بالرسالة (قال) أى موسى مسليا لهم حين رأى شدة جزعهم بما شاهدوه من فعل فرعون (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) الذى توعدكم باعادة قتله (ويستخلفكم فى الارض) أى يجعلكم خلفاء فى أرض مصر بعد هلاك أهلها (فينظر كيف تعملون) أى فيرى سبحانه وتعالى كيف تعملون فى طاعته وهذا حث لهم على التمسك بطاعة الله تعالى فالله تعالى يرى وقوع ذلك منكم لان الله تعالى لا يجازى عباده على ما يعلمه منهم فى الازل وانما يجازيهم على ما يقع منهم (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) أى باحتباس المطر وبالجوع (ونقص من الثمرات) أى ذهاب الثمرات باصابة العاهات (لعلهم يذكرون) أى كى يقفوا على أن ذلك لاجل معاصيهم وينزجروا عما هم عليه من العتو والعناد (فاذا جاءتهم الحسنة) أى الخصب والسعة فى الرزق والسلامة (قالوا لنا هذه) أى نحن مستحقون من كثرة نعمنا على العادة التى جرت (وان تصبهم سيئة) أى جدب وشدة وبلاء (يطيروا) أى يتشاءموا (بموسى ومن

معه)

معه) من المؤمنين أي يقولوا انما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه (ألا انما طائرهم) أي حظهم (عند الله) أي كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله تعالى وبتقديره وقيل المعنى انما جاءهم الشر بقضاء الله تعالى وحكمه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتفاءل ولا يتطير وأصل الفال الكلمة الحسنة كانت العرب مذهبها في الفال والطيرة واحدا فأثبت النبي صلى الله عليه وسلم الفال وأبطل الطيرة (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن ما يصيبهم من الله تعالى (وقالوا) أي آل فرعون وهم القبط لموسى عليه السلام (مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) أي أي شيء تظهره لدينا من علامة من عند ربك لتصرفنا عما نحن عليه من الدين بذلك الشيء فما نحن لك بمصدقين بالرسالة وكان موسى رجلا حديدا فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله له فقال تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) أي الماء من السماء فدخل بيوت القبط وقاموا في الماء الى تراقيهم ودام ذلك عليهم سبعة أيام من سبت الى سبت ولم يدخل ذلك الماء بيوت بني اسرائيل مع انها كانت في خلال بيوت القبط فاستغاثوا بفرعون فأرسل الى موسى فقال اكشف عنا العذاب فقد صارت مصر بحرا واحدا فان كشفت هذا العذاب آمنا بك فأزال الله عنهم المطر وأرسل الرياح فجففت الارض وخرج من النبات مالم يروا مثله قط فقالوا هذا الذي جزعنا منه خير لنا لكنا لم نشعر فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني اسرائيل فنكثوا العهد (و) أقاموا شهرا في عافية فأرسل الله تعالى عليهم (الجراد) فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم ففزعوا الى موسى فدعا موسى عليه السلام فأرسل الله تعالى ريحا فألقته في البحر بعدما أقام عليهم سبعة أيام من سبت الى سبت فنظر أهل مصر الى ما بقي من زرعهم فقالوا هذا الذي بقي يكفينا ولا نؤمن بك (و) أقاموا شهرا في عافية فأرسل الله عليهم (القمل) أي الجراد الصغير بلا أجنحة من سبت الى سبت فلم يبق في أرضهم عود أخضر الا أكله فصاحوا ودعا موسى فأرسل الله عليه ريحا حارة فأحرقته وألقته في البحر وقرأ الحسن والقمل بفتح القاف وسكون الميم وهو المعروف وعن سعيد بن جبير كان الى جنبهم كثيب أعفر فضربه موسى بعصاه فصار قملا فأخذت في ابشارهم واشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم فصرخوا وفزعوا الى موسى فدعا فرفع الله عنهم القمل وقالوا قد تيقنا اليوم انك ساحر حيث جعلت الرمل دواب وعزة فرعون لا نؤمن بك أبدا (و) أقاموا شهرا في عافية فأرسل الله تعالى عليهم (الضفادع) فخرج من البحر مثل الليل الدامس ووقع في الثياب والاطعمة فكان الرجل منهم يسقط وعلى رأسه ذراع من الضفادع فصرخوا الى موسى وحلفوا لئن رفعت عنا هذا العذاب لنؤمن بك فدعا الله تعالى فأمات الضفادع وأرسل عليها المطر فاحتملها الى البحر بعدما أقامت عليهم سبعة أيام من سبت الى سبت ثم أظهروا الكفر (و) أقاموا شهرا في عافية فأرسل الله عليهم (الدم) فصارت مياه قليبهم وأنهارهم دما فلم يقدروا على الماء العذب حتى بلغ منهم الجهد وبنو اسرائيل يجدون الماء العذب الطيب وكان فرعون وأشراف قومه يركبون الى أنهار بني اسرائيل فجعل يدخل الرجل منهم النهر فاذا اغترف الماء صار في يده دما ومكثوا سبعة أيام في ذلك لا يشربون الا الدم فقال فرعون لموسى عليه السلام لئن رفعت عنا العذاب لنصدقن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل مع أموالهم (آيات مفصلات) أي مبينات لا يخفى على كل عاقل ان هذه الخمسة من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره ومفرقات بعضها من بعض بزمان لامتحان أحوالهم أيقبلون الحجة أو يستمرون على التقليد وكان كل عذاب يبقى عليهم أسبوعا من سبت الى سبت وبين كل عذابين شهر (فاستكبروا) عن الايمان بها وعن عبادة الله (وكانوا قوما مجرمين) أي مصرين على الذنب (ولما وقع عليهم الرجز) أي كلما نزل عليهم

العذاب من الانواع الخمسة (قالوا) فى كل مرة (ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) أى بما أعلمك به وهو كشف العذاب عنا ان آمنا أو المعنى أقسمنا بعهد الله عندك وهو النبوة (لئن كشفت عنا الرجز) أى لئن رفعت عنا العذاب الذى نزل علينا (لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل) أى مع أموالهم (فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل) أى حد معين (هم بالغوه) لا بد وهو وقت اهلاكهم بالغرق فى اليم (اذا هم ينكثون) أى فلما رفعنا عنهم العذاب فاجئوا نكث العهد من غير تأمل وتوقف ثم عند حلول ذلك الاجل لا نزيل عنهم العذاب بل نهلكهم به (فانتقمنا منهم) أى فلما بلغوا الاجل الموقت أهلكناهم (فأغرقناهم فى اليم) أى البحر الملح والفاء تفسيرية (بأنهم كذبوا بآياتنا) التسع الدالة على صدق رسولنا (وكانوا عنها) أى تلك الآيات (غافلين) أى معرضين غير ملتفتين اليها (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) بقتل أبنائهم وأخذ الجزية منهم واستعمالهم فى الاعمال الشاقة وهم بنو اسرائيل (مشارق الارض) أى أرض الشام ومصر (ومغاربها) (التى باركنا فيها) بالخصب وسعة الارزاق وبالنيل (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل) أى ومضى وعده تعالى عليهم (بما صبروا) أى بسبب صبرهم على الشدائد فمن قابل البلاء بالصبر وانتظار النصر ضمن الله له الفرج ومن قابله بالجزع وكله الله اليه (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه) ففرعون اسم كان ويصنع خبر لكان مقدم أى وخربنا الذى كان فرعون يصنعه من المدائن والقصور (وما كانوا يعرشون) أى يرفعون من الشجر والكروم أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان وقرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون بكسرها (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) مع السلامة بأن فلق الله البحر عند ضرب موسى البحر بالعصا روى ان موسى عبر بهم يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون وصامه شكرا لله تعالى (فأتوا) أى فمروا (على قوم يعكفون على أصنام لهم) أى يواظبون على عبادة أصنام لهم وكانت تماثيل على صور البقر وهم من الكنعانيين الذين أمر موسى بقتالهم وقرأ حمزة والكسائى بكسر الكاف والباقون بالضم (قالوا) عند ما شاهدوا أحوالهم (ياموسى اجعل لنا الها) أى عين لنا تماثيل نتقرب بعبادتها الى الله تعالى (كما لهم آلهة) يعبدونها (قال) موسى (انكم قوم تجهلون) فلا جهل أعظم مما ظهر منهم فانهم قالوا ذلك بعد ما شاهدوا المعجزة العظمى (ان هؤلاء) أى القوم الذين يعبدون تلك التماثيل (متبر ما هم فيه) أى مهلك ما هم فيه من الدين أى ان الله يهدم دينهم عن قريب ويحطم أصنامهم (وباطل ما كانوا يعملون) من عبادتها أى فلا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا دفع ضرر (قال) موسى (أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين) أى أأطلب لكم غير الله معبودا والحال انه تعالى وحده فضلكم على عالمى زمانكم بالاسلام أو فضلكم على العالمين بتخصيصكم بنعم لم يعطها غيركم كالتخصيص بتلك الآيات القاهرات فانه لم يحصل مثلها لاحد من العالمين وان كان غيرهم فضلهم بسائر الخصال مثاله رجل تعلم علما واحدا وآخر تعلم علوما كثيرة سوى ذلك العلم فصاحب العلم الواحد مفضل على صاحب العلوم الكثيرة بذلك الواحد وفى الحقيقة ان صاحب العلوم الكثيرة مفضل على صاحب العلم الواحد والمعنى أآمركم ان تعبدوا ربا يتخذ ويطلب بل الاله هو الذى يكون قادرا على الايجاد واعطاء الحياة وجميع النعم (واذ أنجيناكم من آل فرعون) أى واذكروا وقت انجائنا اياكم من فرعون وقومه باهلاكهم بالكلية وقرأ ابن عامر أنجاكم بحذف الياء والنون (يسومونكم سوء العذاب) أى يعطونكم أشد العذاب

(يقتلون

يقتلون أبناءكم) صغارا (ويستحيون نساءكم) أي يستخدمون نساءكم كبارا (وفي ذلكم) أي الانجاء (بلاء من ربكم عظيم) أي نعمة عظيمة من ربكم ويقال وفي ذلكم العذاب بلية عظيمة من ربكم (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) روى ان موسى وهو بمصر وعد بني اسرائيل اذا أهلك الله تعالى عدوهم فرعون أن يأتيهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما أهلك الله تعالى فرعون سأل موسى ربه ان ينزل عليه الكتاب الذي وعد به بني اسرائيل فأمره ان يصوم ثلاثين يوما فصامها وهي شهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله ان يصوم عشر ذي الحجة وقال له أما علمت ان خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك فكانت فتنة بني اسرائيل في تلك العشر التي زادها الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام (وقال موسى لاخيه هرون) عند ذهابه الى الجبل للمناداة (اخلفني) أي كن خليفتي (في قومي) وراقبهم فيما يأتون وما يذرون (وأصلح) أمور بني اسرائيل وأمرهم بعبادة الله تعالى وهي صلاحهم (ولا تتبع سبيل المفسدين) أي ومن دعاك منهم الى طريق المفسدين بالمعاصي فلا توافقه (ولما جاء موسى لميقاتنا) أي لميعادنا في مدين في يوم الخميس يوم عرفة فكلمه الله تعالى فيه من غير واسطة وأعطاه التوراة صبيحة يوم الجمعة يوم النحر (وكلمه ربه) أي أزال الحجاب بين موسى وبين كلامه فسمعه من كل جهة (قال رب أرني أنظر اليك) أي أرني ذاتك بأن تمكنني من رؤيتك فأراك (قال) تعالى له (لن تراني) أي لن تقدر ان تراني في الدنيا يا موسى (ولكن انظر الى الجبل) في مدين (فان استقر مكانه فسوف تراني) أي فان استقر الجبل مكانه لرؤيتي فلعلك تراني والرؤية متأخرة عن النظر لانه تقليب الحدقة السليمة جهة المرئي التماسا لرؤيته والرؤية الادراك بالباصرة بعد النظر (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) أي فلما ظهرت عظمته تعالى لجبل زبير جعله مكسورا وقيل ان جبل زبير أعظم جبل في مدين فانه صار ستة أجبل فوقع ثلاثة منها بالمدينة وهي أحد وورقان ورضوى ووقع ثلاثة بمكة وهي ثور وثبير وحراء أي أمر الله تعالى ملائكة السماء السابعة بحمل عرشه فلما بدا نور العرش انصدع الجبل من عظمة الله تعالى وقرأ حمزة والكسائي دكاء بالمد أي مستويا بالارض وقرأ ابن وثاب دكا بضم الدال وبالقصر جمع دكاء أي قطعا (وخر موسى صعقا) أي مغشيا عليه من هول ما رآه من النور (فلما أفاق) من غشيته (قال سبحانك) أي تنزيها لك عن ان ترى في الدنيا (تبت اليك) من الجراءة على السؤال بغير اذن منك (وأنا أول المؤمنين) أي المقرين بأنك لا ترى في الدنيا لكل الانبياء وقد ثبتت الرؤية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء على الصحيح أو يقال وأنا أول المؤمنين بأنه لا يجوز السؤال منك الا باذنك (قال) تعالى له (ياموسى اني أصطفيتك) أي فضلتك (على الناس) أي بني اسرائيل (برسالاتي) أي بكتب التوراة وقرأ نافع وابن كثير برسالتي بالافراد أي تبليغ رسالتي (وبكلامي) أي وبتكلمي معك بغير واسطة (فخذ ما آتيتك) أي فاعمل ما أعطيتك من الرسالة أي الوحي (وكن من الشاكرين) أي واشتغل بشكر الفوز بهذه النعمة وهو القيام بلوازمها علما وعملا ولا يضق قلبك بسبب منعك الرؤية (وكتبنا له في الالواح) أي وكتبنا لموسى في ألواح التوراة (من كل شئ) يحتاج اليه موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام والمحاسن والقبائح (موعظة وتفصيلا لكل شئ) بدل من قوله تعالى من كل شئ باعتبار محله وهو النصب أي كتبنا له كل شئ من المواعظ التي توجب الرغبة في الطاعة والنفرة عن

المعصية ومن شرح أقسام الاحكام (خذها) أى فقلنا اعمل بهذه الاشياء (بقوة) أى بجدونية صادقة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى التوراة أى يعملوا بحكمها ويؤمنوا بمتشابهها وقال بعضهم الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح وأحسن هذه الثلاثة الواجبات والمندوبات (سأريكم دار الفاسقين) أى سأدخلكم الشام بطريق الايراث وأريكم منازل الكافرين الذين كانوا متوطنين فيها من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها فلا تفسقوا مثل فسقهم وقرئ سأورثكم بالثاء المثلثة (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق) أى سأزيل الذين يتكبرون فى الارض بالدين الباطل عن ابطال آياتى باهلاكهم على يد موسى وان اجتهدوا كما اجتهد فرعون فى ابطال ما رآه من الآيات فلا يقدرون على منع موسى من تبليغها ولا على منع المؤمنين من الايمان بها أى واغاير بنو اسرائيل دار الفاسقين بعد هلاكهم (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى وان يشاهدوا كل معجزة كفروا بكل واحدة منها (وان يروا سبيل الرشد) أى الدين الحق والخير (لا يتخذوه سبيلا) أى لا يسلكوا سبيله وقرأ حمزة والكسائى الرشد بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين وروى عن ابن عامر بضمتين وقال أبو عمرو بن العلاء الرشد بضم وسكون الصلاح فى النظر وبفتحتين الاستقامة فى الدين (وان يروا سبيل الغى) أى الضلال (يتخذوه سبيلا) أى يختارونه مسلكا لانفسهم (ذلك) أى تكبرهم وعدم ايمانهم بشئ من الآيات واعراضهم عن سبيل الرشد واقبالهم التام الى سبيل الغى (بأنهم كذبوا بآياتنا) أى حاصل بسبب انهم كذبوا بكتابنا الدال على بطلان اتصافهم بالقبائح (وكانوا عنها غافلين) أى وكانوا جاحدين بها (والذين كذبوا بآياتنا) أى بكتابنا (ولقاء الآخرة) أى وبلقائهم الآخرة التى هى موعد الجزاء (حبطت أعمالهم) أى حسناتهم التى لا تتوقف على نية كصلة الارحام واغاثة الملهوفين وان نفعتهم فى تخفيف العذاب لكن التخفيف لا يقال له ثواب (هل يجزون الا ما كانوا يعملون) أى ما يجزون فى الآخرة الا على ما كانوا يعملون فى الدنيا من الكفر والمعاصى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا) أى صاغ موسى السامرى المنافق وهو من بنى اسرائيل من بعد انطلاق سيدنا موسى عليه السلام الى الجبل عجلا من ذهب (جسدا) آتى بهذا البدل لدفع توهم انه صورة عجل منقوشة على حائط مثلا (له خوار) أى صوت وقرأ على رضى الله عنه جؤار بالجيم والهمزة أى صياح قيل ان بنى اسرائيل كان لهم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحلى فلما أغرق الله القبط بقيت تلك الحلى فى أيدى بنى اسرائيل وصارت ملكا لهم فجمع السامرى تلك الحلى وكان رجلا مطاعا فيهم صائغا فصاغ السامرى عجلا وأخذ كفا من تراب حافر فرس جبريل عليه السلام فألقاه فى جوف ذلك العجل فانقلب لحما ودما وظهر منه الخوار مرة واحدة فقال السامرى هذا الهكم واله موسى (ألم يروا) أى ألم يعلم قوم موسى (أنه) أى العجل (لا يكلمهم) بشئ (ولا يهديهم سبيلا) بوجه من الوجوه (اتخذوه) أى عبدوه (وكانوا ظالمين) لانفسهم حيث أعرضوا عن عبادة الله تعالى واشتغلوا بعبادة العجل (ولما سقط فى أيديهم) أى لما اشتد ندمهم على عبادة العجل وسقط مبنى للمجهول وأصل الكلام سقطت أفواههم على أيديهم ففى بمعنى على وذلك من شدة الندم فان العادة ان الانسان اذا ندم بقلبه على شئ عض بفمه على أصابعه فسقوط الافواه على الأيدى لازم للندم فاطلق اسم اللازم وأريد الملزوم على سبيل الكناية (ورأوا أنهم قد ضلوا) أى تبينوا ضلالهم تبيينا كأنهم أبصروه بعيونهم بحيث تيقنوا ضلالهم بعبادة العجل (قالوا) أى قال بعضهم لبعض

(لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) فيعذبنا (لنكونن من الخاسرين) بالعقوبة وقرأ حمزة والكسائى بتاء الخطاب فى الفعلين حكاية لدعائهم وبنصب ربنا على النداء (ولما رجع موسى الى قومه) من مناجاته (غضبان) على قومه لاجل عبادتهم العجل (أسفا) أى حزينا لان الله تعالى فتنهم (قال بئسما خلفتمونى من بعدى) أى بئسما قمتم مقامى وكنتم خلفائى من بعد انطلاقى الى الجبل وهذا الخطاب اما لعبدة العجل من السامرى من أشياعه أى بئسما خلفتمونى حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله تعالى واما لهرون والمؤمنين معه أى بئسما خلفتمونى حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم هذه (أعجلتم أمر ربكم) أى أعجلتم وعد ربكم من الاربعين فلم تصبروا له وذلك أنهم قدروا ان موسى لما لم يأت على رأس الثلاثين ليلة فقد مات فانهم عدوا عشرين يوما بلياليها أربعين (وألقى الالواح) أى وضع ألواح التوراة فى موضع ليتفرغ لما قصده مكالمة قومه فلما فرغ عاد اليها فأخذها بعينها (وأخذ برأس أخيه) أى بشعر رأس هرون (يجره اليه) أى الى نفسه لا على سبيل الاهانة بل ليستكشف منه كيفية تلك الواقعة (قال) هرون (ابن أم) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم بكسر الميم هنا وفى طه والباقون بفتحها فى السورتين (ان القوم استضعفونى) أى وجدونى ضعيفا (وكادوا يقتلوننى) لانى نهيتهم عن عبادة العجل (فلا تشمت بى الاعداء) أى فلا يسر الاعداء أصحاب العجل بما تفعل بى من المكروه (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) أى ولا تظن أنى واحد من الذين عبدوا العجل مع براءتى منهم وانما قال هرون تلك المقالة لانه يخاف أن يتوهم جهال بنى اسرائيل أن موسى عليه السلام غضبان عليه كما انه غضبان على عبدة العجل (قال) موسى (رب اغفر لى) فيما أقدمت على أخى هرون من هذا الغضب (ولأخى) فى تركه التشديد على عبدة العجل (وأدخلنا فى رحمتك) أى جنتك بمزيد الانعام بعد غفران ما سلف منا (وأنت أرحم الراحمين) فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا (ان الذين اتخذوا العجل) أى عبدوه واستمروا على عبادته كالسامرى وأشياعه (سينالهم غضب) عظيم كائن (من ربهم) فى الآخرة (وذلة فى الحياة الدنيا) وهى الاغتراب والمسكنة المنتظمة لهم ولاولادهم جميعا والذلة التى اختص بها السامرى هو الانفراد عن الناس والابتلاء بلامساس ويروى أن بقايا هم اليوم يقولون ذلك واذا مس أحدهم أحد غيرهم حما جميعا فى الوقت (وكذلك نجزى المفترين) أى الكاذبين على الله والمعنى أن كل مفتر فى دين الله فجزاؤه غضب الله والذلة فى الدنيا قال مالك بن أنس ما من مبتدع الا ويجد فوق رأسه ذلة لان المبتدع مفتر فى دين الله (والذين عملوا السيآت) أى التى من جملتها عبادة العجل (ثم تابوا) عن تلك السيآت (من بعدها) أى من بعد عملها (وآمنوا) ايمانا صحيحا بالله تعالى بأن صدقوا بأنه تعالى لا اله غيره ولم يصروا على ما فعلوا كالطائفة الاولى (ان ربك) أى يا أفضل الخلق (من بعدها) أى من بعد تلك التوبة المقرونة بالايمان (لغفور) للذنوب وان عظمت وكثرت (رحيم) أى مبالغ فى افاضة فنون الرحمة الدنيوية والاخروية أى من أتى بجميع السيآت ثم تاب فان الله يغفر هاله وهذا من أعظم ما يفيده البشارة للمذنبين (ولما سكت) أى زال (عن موسى الغضب) باعتذار أخيه وتوبة القوم وقرئ سكن بالنون وأسكت بالتاء مع الهمزة على أن الفاعل هو الله تعالى أو أخوه (أخذ الالواح وفى نسختها) أى وفى المكتوب فيها من اللوح المحفوظ (هدى) أى بيان للحق (ورحمة) للخلق بارشادهم الى ما فيه الخير والصلاح (للذين هم لربهم يرهبون) اللام الاولى متعلق بمحذوف هو صفة لرحمة والثانية لتقوية

عمل الفعل المؤخر (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) روى أن موسى اختار من اثنى عشر
سبطا ستة فصاروا اثنين وسبعين فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاجروا فقال ان لمن قعد منكم مثل
أجر من خرج فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين وأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم
فخرج بهم الى طور سيناء فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجدا فسمعوه
تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه ثم انكشف الغمام فأقبلوا الى موسى وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله
جهرة أي لن نصدقك في أن الآمر بما سمعناه من الامر بقتل أنفسهم هو الله تعالى حتى نراه فأخذتهم رجفة
الجبل فماتوا يوما وليلة * تنبيه * اختار يتعدى الى اثنين ثانيهما مجرور بمن ثم يحذف حرف الجر ويوصل
الفعل الى المجرور وسبعين مفعول أول (فلما أخذتهم الرجفة) أي الزلزلة الشديدة (قال) موسى
(رب لو شئت أهلكتهم من قبل) أي من قبل خروجهم الى الميقات (واياي) معهم قاله تسليما
لقضاء الله تعالى أي انا كنا مستحقين للاهلاك ولم يكن من موانعه الا عدم مشيئتك اياه (أتهلكنا بما
فعل السفهاء منا) أي ظن موسى انما أهلكهم الله بعبادة قومهم العجل وقال هذا على طريق السؤال
وقال المبرد هو استفهام استعطاف أي لا تهلكنا بسبب فعل عباد العجل (ان هي الا فتنتك) أي
ما الفتنة التي وقع فيها السفهاء الا محنتك بأن أوجدت في العجل خوارا فزاغوا به وأسمعتهم كلامك فافتتنوا
بذلك حتى طمعوا فيما فوق ذلك (تضل بها) أي بتلك الفتنة (من تشاء) اضلاله فلا يهتدي الى
التثبت (وتهدي من تشاء) هدايته الى الحق فلا يتزلزل في أمثالها فيقوى بها ايمانه (أنت ولينا) أي
أنت القائم بأمورنا الدنيوية والاخروية (فاغفر لنا) ما قارفناه من المعاصي (وارحمنا) بافاضة آثار
الرحمة الدنيوية والاخروية علينا (وأنت خير الغافرين) لانك تغفر ذنوب عبادك لا لغرض بل
لمحض الفضل والكرم أما غيرك فانما يتجاوز عن الذنب اما طلبا للثواب الجزيل أو للثناء الجميل أو دفعا
للرقة الخسيسة عن القلب (واكتب لنا) أي اثبت لنا (في هذه الدنيا حسنة) أي نعمة وطاعة
(وفي الآخرة) أي واكتب لنا في الآخرة حسنة وهي الجنة (انا هدنا اليك) أي رجعنا عما صنعنا من
المعصية التي جئناك للاعتذار عنها (قال) تعالى (عذابي أصيب به من أشاء) وليس لاحد على اعتراض
لان الكل ملكي وقرأ الحسن من أساء فعل ماض من الاساءة واختار الشافعي هذه القراءة (ورحمتي
وسعت كل شيء) أي ان رحمته في الدنيا عمت الكل وأما في الآخرة فرحمته مختصة بالمؤمنين كما أشار
تعالى اليه بقوله تعالى (فسأكتبها) أي فسأثبتها في الآخرة (للذين يتقون) أي الكفر والمعاصي
(ويؤتون الزكاة) أي يعطون زكاة أموالهم (والذين هم بآياتنا) أي دلائل وحدانيتنا وقدرتنا
(يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الامي) أي الذي لم يمارس القراءة والكتابة ومع ذلك قد جمع علوم
الاولين والآخرين (الذي يجدونه) أي يلقون اسمه ونعته (مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل)
الذين تعبد بهما بنو اسرائيل (يأمرهم بالمعروف) أي بالتوحيد وبمكارم الاخلاق وبر الوالدين وصلة
الارحام (وينهاهم عن المنكر) أي عبادة الاوثان والقول في صفات الله بغير علم والكفر بما أنزل الله
على النبيين وقطع الرحم وعقوق الوالدين (ويحل لهم الطيبات) أي الاشياء المستطابة بحسب الطبع
فكل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع فهو حلال الا لدليل منفصل (ويحرم عليهم الخبائث) أي
كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس فكل ما يستخبثه الطبع حرام الا لدليل منفصل وعلى هذا فرع
الشافعي تحريم بيع الكلب لانه روى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الكلب خبيث

وخبيث ثمنه وإذا ثبت أن ثمنه خبيث ثبت أن يكون حراما والخمر محرمة لانها رجس والرجس خبيث باطباق أهل اللغة عليه والخبيث حرام (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) أي يخفف عنهم ثقلهم والشدائد التي كانت في عباداتهم كقطع أثر البول من الجلد والثوب وإحراق الغنائم وتحريم السبت وقتل النفس في التوبة وتعيين القصاص في العمد والخطأ وقطع الأعضاء الخاطئة وعن عطاء كانت بنو اسرائيل اذا قاموا الى الصلاة لبسوا المسوح وغلوا أيديهم الى أعناقهم تواضعا لله تعالى فعلى هذا القول الأغلال غير مستعارة أي وكانت هذه الأثقال في شريعة موسى عليه السلام فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السهلة السمحة وقرأ ابن عامر وحده آصارهم على الجمع (فالذين آمنوا به) أي بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه (وعزروه) أي أعانوه بمنع أعدائه منه (ونصروه) على أعدائه في الدين بالسيف (واتبعوا النور الذي أنزل معه) أي واتبعوا القرآن الذي أنزل مع نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فان نبوته ظهرت مع ظهور القرآن وعبر عنه بالنور الدال على كونه مظهر الحقائق (أولئك هم المفلحون) أي الفائزون بالمطلوب في الدنيا والآخرة الناجون من السخط والعذاب لا غيرهم من الأمم (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض) الذي (لا اله الا هو يحيي ويميت) واعلم أن هذه الدعوى وهي دعوى رسول الله لا تظهر فائدتها الا بتقرير أصول ثلاثة أولها اثبات أن للعالم الها حيا عالما قادرا والذي يدل عليه ما في قوله تعالى الذي له ملك السموات والأرض لانه بتقدير عدم حصول مؤثر للعالم في وجوده أو بتقدير كون المؤثر موجبا بالذات لا فاعلا بالاختيار لم يصح القول ببعثة الأنبياء عليهم السلام وثانيها اثبات أن اله العالم واحد منزه عن الشريك والضد والند واليه الاشارة بقوله تعالى لا اله الا هو لانه اذا لم يثبت كون الاله تعالى واحدا لم يكن ارسال الرسل وانزال الكتب جائزا لانه بتقدير كون الالهين للعالم يجوز أن يكون الانسان الذي يدعوه رسول أحدهما مخلوقا للاله الثاني فايجاب الطاعة على الاله الذي لم يخلقه ظلم وباطل وثالثها اثبات انه تعالى قادر على الحشر والنشر والبعث والقيامة واليه الاشارة بقوله تعالى يحيي ويميت لانه تعالى لما أحيا أولا ثبت كونه تعالى قادرا على الاحياء ثانيا ويكون قادرا على ايصال الجزاء لانه بتقدير عدم ثبوت الاعادة كان الاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية عبثا ولغوا ولما ثبت القول بصحة هذه الأصول الثلاثة ثبت أنه يصح من الله تعالى ارسال الرسل ومطالبة الخلق بالتكاليف لان الخلق كلهم عبيده تعالى ولذلك قال تعالى (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته) واعلم أن هذا اشارة الى المعجزات الدالة على كون محمد نبيا حقا ومعجزات رسول الله كانت على نوعين الأول المعجزات التي ظهرت في ذاته المباركة وأجلها أنه صلى الله عليه وسلم كان رجلا أميا لم يتعلم من أستاذ ولم يطالع كتابا ولم يتفق له مجالسة أحد من العلماء ومع ذلك فتح الله عليه باب العلم وأظهر عليه القرآن المشتمل على علوم الأولين والآخرين فظهور هذه العلوم العظيمة على من كان صفته أميا من أعظم المعجزات والثاني المعجزات التي ظهرت من خارج ذاته مثل انشقاق القمر ونبوع الماء من بين أصابعه وهي تسمى بكلمات الله تعالى لانها لما كانت أمورا غريبة خارقة للعادة تسمى بكلمات الله كما أن عيسى عليه السلام لما كان حدوثه أمرا غريبا مخالفا للمعتاد سماه الله تعالى كلمة وقال ابن عباس ومعنى كلماته بالجمع كتابه وهو القرآن وان قرئ وكلمته بالافراد كان معناه عيسى وهذا تنبيه على ان من لم يؤمن به لم يعتد بايمانه وتعريض باليهود ولما ثبت بالدلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ذكر الله الطريق

الذى به يمكن معرفة شرعه بالتفصيل وهو الرجوع الى أقواله وأفعاله فقال (واتبعوه) أى فى كل ما يأتى وما يذر من أمور الدين (لعلكم تهتدون) أى وجاء لاهتدائكم الى المطلوب (ومن قوم موسى أمة) أى جماعة (يهدون بالحق) أى يدعون الناس الى الهداية بالحق (وبه) أى بالحق (يعدلون) فى الاحكام الجارية فيما بينهم فقيل هم اليهود الذين كانوا فى زمان الرسول وأسلموا مثل عبد الله بن سلام وابن صوريا وقيل انهم قوم مشوا على الدين الحق الذى جاء به موسى ودعوا الناس اليه وصانوه عن التحريف فى زمن تفرق بنى اسرائيل واحداثهم البدع وقال السدى وجماعة من المفسرين ان بنى اسرائيل لما كفروا وقتلوا الانبياء بقى سبط من جملة الاثنى عشر فما صنعوا وسألوا الله تعالى أن ينقذهم منهم ففتح الله لهم نفقا فى الارض فساروا فيه سنة ونصفا حتى خرجوا من وراء الصين عند مطلع الشمس على نهر رمل يسمى أردن وهم اليوم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما) أى فرقنا بنى اسرائيل اثنتى عشرة فرقة لانهم كانوا من اثنى عشر رجلا من أولاد يعقوب وميزنا بعضهم من بعض أسباطا قائم مقام قبيلة وهو تمييز أو بدل من اثنتى عشرة وأمما بدل من أسباطا أى وصيرناهم أمما لان كل سبط كان أمة عظيمة (وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه) حين استولى عليه العطش فى التيه الذى وقعوا فيه بسوء صنيعهم باستسقاء موسى لهم (أن اضرب بعصاك الحجر) الذى معك (فانبجست) أى فضرب فانفجرت (منه اثنتا عشرة عينا) بعدد الاسباط (قد علم كل أناس) أى كل سبط (مشربهم) أى عينهم الخاصة بهم (وظللنا عليهم الغمام) فى التيه من حر الشمس تسير الغمام بسيرهم وتسكن باقامتهم وتضىء لهم فى الليل مثل السراج (وأنزلنا عليهم المن) وهو شىء حلو كان ينزل عليهم مثل الثلج من الفجر الى طلوع الشمس ويأخذ كل انسان صاعا (والسلوى) أى الطير السمانى بتخفيف الميم وبالقصر وتسوقه الريح الجنوب عليهم فيذبح كل واحد منهم ما يكفيه وهو يموت اذا سمع صوت الرعد فيلهمه الله تعالى أن يسكن جزائر البحر التى لا يكون فيها مطر ولا رعد الى انقضاء أوانهما فيخرج من الجزائر وينتشر فى الارض وخاصيته ان أكل لحمه يلين القلوب القاسية (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أى وقلنا لهم كلوا من مستلذاته من المن والسلوى والمعنى قصر أنفسهم على ذلك المطعوم وعلى ترك غيره فامتنعوا من ذلك وسئموا وسألوا غير ذلك (وما ظلمونا) بمقابلة تلك النعم بالكفران (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بمخالفتهم ما أمروا به (واذ قيل لهم) أى اذكر يا أكرم الرسل لبنى اسرائيل وقت قوله تعالى لاسلافهم (اسكنوا هذه القرية) أى قرية الجبارين قوم من بقية عاد رئيسهم عوج بن عنق أى قال الله تعالى على لسان موسى لهم اذا خرجتم من التيه اسكنوا بيت المقدس أو قال لهم على لسان يوشع بعد خروجهم من التيه اسكنوا أريحاء (وكلوا منها) أى القرية (حيث شئتم) ومتى شئتم (وقولوا حطة) أى أمرك حطة لذنوبنا (وادخلوا الباب) أى باب القرية وقيل باب القبة التى كانوا يصلون اليها (سجدا) شكرا على اخراجهم من التيه (نغفر لكم خطيئاتكم) وقرأ نافع وابن عامر تغفر بالتاء المضمومة وقرأ نافع خطيئاتكم بجمع السلامة وابن عامر خطيئتكم على التوحيد والباقون نغفر بنون مفتوحة وأبو عمرو خطايا كم بجمع التكسير والباقون خطيئاتكم بجمع السلامة وفى قراءة يغفر بالياء فعلى هذا لا يقرأ خطايا بالافراد وعلى التاء لا يقرأ خطايا (سنزيد المحسنين) بالطاعة فى احسانهم (فبدل الذين ظلموا منهم) وهم أصحاب الخطيئة (قولا غير الذى قيل لهم) أى غير الذى أمر لهم بالذى أمروا من التوبة فقالوا مكان حطة حنطة وروى انهم داخلون زاحفين على ادبارهم استخفافا بأمر الله

تعالى

تعالى واستهزاء بموسى (فأرسلنا عليهم) عقب ما فعلوا من غير تأخير (رجزا من السماء) أى عذابا كائنا منها وهو الطاعون (بما كانوا يظلمون) أنفسهم لانهم خرجوا عن طاعة الله تعالى روى انه مات منهم فى ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) أى واسأل يا أشرف الخلق اليهود المعاصرين لك سؤال تقريع عن خبر أهل المدينة التى كانت قريبة من بحر القلزم وهى ايلة قرية بين مدين والطور وقيل هى قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينونا وسبب نزول هذه الآيات ان اليهود قالوا لم يصدر من بنى اسرائيل كفر ولا مخالفة للرب فأمره الله تعالى أن يسألهم عن حال أهل هذه القرية فى زمن داود عليه السلام تقريعا فانهم يعتقدون انه لا يعلمه أحد غيرهم فذكر الله لهم قصة أهل تلك المدينة فبهتوا وظهر كذبهم (اذ يعدون فى السبت) أى يجاوزون حد الله تعالى بأخذ الحيتان يوم السبت وقد نهوا عنه (اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم) أى يوم تعظيمهم لامر السبت بالتجرد للعبادة (شرعا) أى ظاهرة على وجه الماء قريبة من الساحل (ويوم لا يسبتون) وقرئ شاذة بضم الباء وقرأ على رضى الله عنه بضم الياء من الرباعى وعن الحسن بالبناء للمفعول أى لا يدخلون فى السبت (لا تأتيهم) قال ابن عباس ومجاهد ان اليهود أمروا باليوم الذى أمرتم به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله به وحرم عليهم الصيد فيه وأمروا بتعظيمه فاذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون اليها فى البحر فاذا انقضى السبت ذهبت وما تعود الا فى السبت المقبل (كذلك) أى مثل ذلك البلاء (نبلوهم) أى نعاملهم معاملة من يختبرهم (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم (واذ قالت أمة منهم) أى جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب فى موعظة أولئك الصيادين حتى أيسوا من قبولهم لاقوام آخرين لا يقلعون عن وعظهم رجاء للنفع وطمعا فى فائدة الانذار (لم تعظون قوما الله مهلكهم) أى مخزيهم فى الدنيا (أو معذبهم عذابا شديدا) فى الآخرة لعدم اقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق (قالوا) أى الواعظون (معذرة) قرأه حفص عن عاصم بالنصب أى وعظناهم لاجل المعذرة والباقون بالرفع أى موعظتنا معذرة (الى ربكم) لئلا ننسب الى نوع تفريط فى النهى عن المنكر (ولعلهم يتقون) أى ورجاء لان يتقوا بعض التقاة (فلما نسوا ما ذكروا به) أى فلما تركوا ما وعظوا به بحيث لم يخطر ببالهم شئ من تلك المواعظ أصلا (أنجينا الذين ينهون عن السوء) أى عن أخذ الحيتان يوم السبت وهم الفريقان المذكوران (وأخذنا الذين ظلموا) بأخذ الحيتان ذلك اليوم (بعذاب بئيس) أى شديد وقرأ أبو بكر بيئس على وزن ضيغم وابن عامر بئس بوزن حذر (بما كانوا يفسقون) أى أخذناهم بالعذاب بسبب الفسق الذى هو الخروج عن الطاعة وهو الظلم فالباآن متعلقان بأخذنا (فلما عتوا عما نهوا عنه) أى فلما أبوا عن ترك ما نهوا عنه (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أذلاء بعداء عن الناس (واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم) أى يذيقهم (سوء العذاب) أى واذكر يا أكرم الرسل اذ اعلم الله أسلاف اليهود على ألسنة أنبيائهم ان لم يؤمنوا بأنبيائهم ان يسلط عليهم من يقاتلهم الى ان يسلموا أو يعطوا الجزية وهو محمد صلى الله عليه وسلم وأمته (ان ربك لسريع العقاب) اذا جاء وقته لمن عصاه فيعاقبهم فى الدنيا أما قبل مجىء وقت العذاب فهو شديد الحلم (وانه لغفور رحيم) لمن تاب من الكفر واليهودية ودخل فى دين الاسلام (وقطعناهم فى الارض أمما) أى فرقنا اليهود الذين كانوا قبل زمن النبى صلى الله عليه وسلم فى الارض فرقا كثيرة حتى لا تكون لهم شوكة فلا يوجد بلد الا وفيه طائفة منهم (منهم الصالحون) وهم الذين آمنوا بالمدينة ومن يسير بسيرتهم أو الذين وراء

نهر الرمل (ومنهم دون ذلك) أى ومنهم من ثبت على اليهودية وخرج من الصلاح (وبلوناهم بالحسنات) أى بالنعم والخصب والعافية (والسيئات) أى بالجدوبة والشدائد (لعلهم يرجعون) أى لكى يرجعوا عن معصيتهم الى طاعة ربهم فان كل واحد من الحسنات والسيئات يدعوا الى الطاعة بالترغيب والترهيب (فخلف من بعدهم خلف) أى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم بدل سوء (ورثوا الكتاب) أى أخذوا التوراة من اسلافهم (يأخذون عرض هذا الادنى) أى متاع الدنيا على تحريف الكلام فى صفة محمد صلى الله عليه وسلم وفى الاحكام وهم يستحقرون ذلك الذنب (ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) أى ويقولون لا يؤاخذنا الله تعالى وان يأتهم متاع مثل ما أتاهم أمس يأخذوه لحرصهم على الدنيا ولا يستحيون منه أو المعنى انهم يتمنون المغفرة من الله تعالى والحال انهم مصرون على الذنب غير تائبين عنه (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق) أى ألم يؤخذ عليهم ميثاق كائن فى التوراة ان لا يقولوا على الله الا الصدق وقد منعوا فيها عن تحريف الكتاب وتغيير الشرائع لاجل أخذ الرشوة والتمنى ففيه افتراء على الله تعالى ففيها من ارتكب ذنبا عظيما فانه لا يغفر له الا بالتوبة وان لا يقولوا عطف بيان للميثاق (ودرسوا ما فيه) أى ذكروا ما فى الكتاب لانهم قرؤه أو ذكروا ما أخذ عليهم لذلك وهذا عطف على ورثوا أو على ألم يؤخذ فان المقصود من الاستفهام التقريرى اثبات ما بعد النفى والمعنى قد أخذ عليهم الميثاق ودرسوا ما فى ذلك الميثاق (والدار الآخرة) أى الجنة (خير للذين يتقون) عقاب الله من تلك الرشوة الخبيثة (أفلا تعقلون) ان الدنيا فانية والآخرة باقية وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب التفاتا اليهم ويكون المراد اعلاما بتناهى الغضب وتشديد التوبيخ أو يكون خطابا لهذه الامة أى أفلا تعقلون حالهم والباقون بالياء على الغيبة مراعاة لها فى الضمائر السابقة (والذين يمسكون) قرأه أبو بكر عن عاصم بسكون الميم والباقون بفتحها وتشديد السين (بالكتاب) أى والذين يعملون بما فى الكتاب (وأقاموا الصلاة) وانما أفردت بالذكر لانها أعظم العبادات بعد الايمان (انا لا نضيع أجر المصلحين) وهذه الجملة خبر للموصول والربط حاصل بلفظ المصلحين لانه قائم مقام الضمير لا سيما فيه الالف واللام فانها تكفى فى الربط عند الكوفيين وقيل الخبر محذوف والتقدير مثابون بقوله تعالى انا لا نضيع اعتراض وهذه الآية نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) أى واذكر يا أشرف الخلق اذ قلعنا الجبل الذى سمع موسى عليه كلام ربه وأعطى الالواح وجعلناه فوق رؤسهم كأنه سقيفة (وظنوا انه واقع بهم) ان لم يقبلوا أحكام التوراة (خذوا ما آتيناكم بقوة) أى وقلنا لهم اعملوا بما أعطيناكم بجد على احتمال تكاليفه (واذكروا ما فيه) من الثواب والعقاب ويقال احفظوا ما فيه من الامر والنهى ويقال اعملوا بما فيه من الحلال والحرام (لعلكم تتقون) أى راجين ان تنتظموا فى سلك المتقين (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) وقرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر على الجمع والباقون على التوحيد أى واذكر يا أكرم الخلق لليهود حين أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم (وأشهدهم على أنفسهم) قائلا (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) وذكر هذه الآية يجرى مجرى تقرير الحجة على جميع المكلفين والمقصود من ذكرها هنا الاحتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العام المنتظم للناس كافة ومنعهم عن التقليد وحثهم على الاستدلال وفى تفسير هذه الآية طريقان طريق السلف وطريق الخلف فطريق السلف ان الله تعالى لما خلق آدم أخرج أولا ذرية آدم كالذر من ظهره أى من مسام شعر ظهره اذ تحت كل شعرة

ثقبة دقيقة يقال لها سم مثل سم الخياط فى النفوذ فتخرج الذرة الضعيفة منها كما يخرج الصئبان من العرق السائل ثم أخرج من هذا الذر الذى أخرجه من آدم ذريته ذرا ثم أخرج من الذر الآخر ذريته ذرا ثم أخرج من الذر الآخر ذريته ذرا وهكذا الى آخر النوع الانسانى والحصر الجميع قدام آدم ونظر لهم بعينه وخلق الله تعالى فيهم العقل والفهم والنطق وجعل الذر المسلم أبيض والكافر أسود وخاطب الجميع بقوله تعالى ألست بربكم فقال الجميع بلى أى أنت ربنا ثم أعاد الجميع الى ظهر آدم و يجب اعتقاد اخراج الذرية من ظهر آدم كما شاء الله ومعنى قوله تعالى وأشهدهم على أنفسهم الخ أى استنطقهم بربوبيته تعالى فاقروا بذلك وقال الحكيم الترمذى ان الله تعالى تجلى للكفار بالهيبة فقالوا بلى مخافة منه تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم وتجلى للمؤمنين بالرحمة فقالوا بلى مطيعين مختارين فنفعهم ايمانهم وطريق الخلف ان الله تعالى أخرج الذرية وهم الاولاد من اصلاب آبائهم وذلك لاخراج انهم كانوا نطفة فأخرجها الله تعالى فى أرحام الامهات وجعلها علقة ثم مضغة ثم جعلهم بشرا سويا وخلقا كاملا ثم أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته وعجائب خلقه وغرائب صنعه فبالاشهاد صاروا كأنهم قالوا بلى وان لم يكن هناك قول باللسان فمحصل هذه الطريقة انه لا اخراج ولا قول ولا شهادة بالفعل وانما هذا كله على سبيل المجاز التمثيلى فشبه حال النوع الانسانى بعد وجوده بالفعل بصفات التكليف من حيث نصب الادلة له الدالة على ربوبية الله المقتضية لان ينطق ويقر بمقتضاها بأخذ الميثاق عليه بالفعل بالاقرار بما ذكر وحينئذ فمعنى قوله تعالى وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم أى ونصب الله لهم دلائل ربوبيته وركب فى عقولهم ما يدعوهم الى الاقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم ألست بربكم قالوا بلى فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه منزلة الاشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل والله أعلم بحقيقة الحال (أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل) وقرأ أبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاء وفى قوله تعالى شهدنا قولان فقيل انه من كلام الملائكة وذلك لانهم لما قالوا بلى قال الله تعالى للملائكة اشهدوا فقالوا اشهدنا عليهم لئلا يقولوا ما أقررنا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة أو شهدنا عليهم كراهة ان يقولوا وقيل انه من بقية كلام الذرية أى وأشهدهم على أنفسهم بكذا وكذا لئلا يقولوا يوم القيامة عند ظهور الامر انا كنا عن وحدانية الربوبية لا نعرفه أو كراهية ان يقولوا ذلك وعلى هذا التقدير فلا يجوز الوقف عند قوله شهدنا ولا يحسن على بلى وقوله أو تقولوا معطوف على ان يقولوا والمعنى ان المقصود من هذا الاشهاد لئلا يقول الكفار انما أشركنا لان آباءنا أشركوا من قبل زماننا فقلدناهم فى ذلك الشرك وقال الخلف معنى هذه الآية انا نصبنا هذه الدلائل وأظهرناها للعقول كراهة ان يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين فما نبهنا عليه منبه أو كراهة ان يقولوا انما أشركنا على سبيل التقليد لاسلافنا لان نصب الادلة على التوحيد قائم معهم فلا عذر لهم فى الاعراض عنه والاقبال على الاقتداء بالآباء كما قالوا (وكنا ذرية من بعدهم) لا نقدر على الاستدلال بالدليل (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) من آبائنا المضلين فالمؤاخذة انما هى عليهم والمعنى لا يمكنهم الاحتجاج بذلك لانه قامت الحجة عليهم يوم القيامة لاخبار الرسل اياهم بذلك الميثاق فى الدنيا فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمتهم الحجة ولا تسقط الحجة بنسيانهم بعد اخبار الرسل (وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) أى مثل ما بينا خبر الميثاق فى هذه الآية نبين سائر الآيات ليتدبروها فيرجعوا الى الحق ويعرضوا عن الباطل (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من

الغاوين) أى واتل يا أكرم الخلق على اليهود خبر الذى آتيناه علوم الكتب القديمة والتصرف بالاسم الاعظم وهو أحد علماء بنى اسرائيل فكان يدعو به حيث شاء فيجاب بعين ما طاب فى الحال وكان بحيث اذا نظر رأى العرش وكان فى مجلسه اثناعشر ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه ثم صار بحيث كان أول من صنف كتابا بان ليس للعالم صانع وهذا معنى فانسلخ منها أى انسلخ من تلك الآيات انسلاخ الحية من جلدها بان كفر بها فأدركه الشيطان فصار من زمرة الضالين قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد رحمهم الله تعالى نزلت هذه الآية فى بلعم بن باعوراء وذلك لان موسى عليه السلام قصد بلده الذى هو فيه وغزا أهله وكانوا كفارا فطلبوا منه ان يدعو على موسى عليه السلام وقومه وكان مجاب الدعوة وعنده اسم الله الاعظم فامتنع منه فما زالوا يطلبونه منه حتى دعا عليه فاستجيب له ووقع موسى وبنو اسرائيل فى التيه بدعائه فقال موسى يارب بأى ذنب وقعنا فى التيه فقال بدعاء بلعم فقال كما سمعت دعاءه على فاسمع دعائى عليه ثم دعا موسى عليه ان ينزع منه اسم الله الاعظم والايمان فسلخه الله مما كان عليه ونزع منه المعرفة فخرجت من صدره كحمامة بيضاء (ولو شئنا لرفعناه بها) أى ولو شئنا رفعه لرفعناه للعمل بتلك الآيات فكان يرفع منزلته بواسطة تلك الاعمال الصالحة (ولكنه أخلد الى الارض) أى مال الى الدنيا فأثر الدنيا الدنية على المنازل السنية (واتبع هواه) فى ايثار الدنيا معرضا عن تلك الآيات الجليلة (فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) أى صفة بلعم كصفتى الكلب فى حالتى التعب والراحة فهذا الكلب ان شددت عليه لهث وان تركته أيضا لهث لاجل ان ذلك الفعل القبيح طبيعة أصلية له فكذلك هذا الحريص الضال ان وعظته فهو ضال وان لم تعظه فهو ضال لاجل ان ذلك الضلال طبيعة ذاتية له واللهث ادلاع اللسان بالتنفس الشديد أى فالكلب دائم اللهث سواء أزعجته بالطرد العنيف أو تركته على حاله بخلاف سائر الحيوانات فانها لا تحتاج الى التنفس الشديد الا عند التعب (ذلك) أى المثل السيئ (مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) وهم اليهود حيث أوتوا فى التوراة ما أوتوا من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وبشروا الناس باقتراب مبعثه فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة (فاقصص القصص) أى فاقصص يا أكرم الرسل على قومك قصص الذين كذبوا أنبياءهم (لعلهم يتفكرون) أى يتعظون (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها (وأنفسهم كانوا يظلمون) معطوف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة أى الذين جمعوا بين التكذيب فى آيات الله وظلم أنفسهم خاصة وقرأ الجحدرى ساء مثل القوم (من يهدى الله فهو المهتدى) أى من يخلق الله فيه الاهتداء فهو المهتدى لدينه باثبات الياء وصلا ووقفا عند جميع القراء لثبوتها فى الرسم بخلاف ما فى الكهف والاسراء (ومن يضلل) أى بان لم يخلق فيه الاهتداء بل خلق فيه الضلالة لصرف اختياره جهتها (فأولئك) الموصوفون بالضلالة (هم الخاسرون) أى الكاملون فى الخسران فى الدنيا والآخرة فالهداية والضلالة من جهة الله تعالى وانما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية فى حصول الاهتداء من غير تأثير لها فيه سوى كونها داعيا الى صرف العبد اختياره جهة تحصيله كسائر أفعال العباد (ولقد ذرأنا) أى خلقنا (لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها) بسبب امتناعهم عن صرفها الى تحصيل الفهم فلهم وصف أو حال من كثيرا وقلوب فاعل به (ولهم أعين لا يبصرون بها) شيأ من المبصرات ابصار اعتبار (ولهم آذان لا يسمعون بها) أى شيأ من المسموعات سماع تأمل فلا يفهمون بقلوبهم ولا يبصرون بأعينهم ولا يسمعون بآذانهم ما يرجع الى مصالح الدين

(اولئك)

(أولئك) أى الموصوفون بالاوصاف المذكورة (كالانعام) فى انتفاء الشعور (بل هم أضل) من الانعام لانها تعرف صاحبها وتطيعه وهؤلاء الكفار لا يعرفون ربهم ولا يطيعونه وفى الخبر كل شئ أطوع لله من ابن آدم (أولئك هم الغافلون) عما أعد الله لاوليائه من الثواب ولاعدائه من العقاب (ولله الاسماء الحسنى) أى الاسماء التى هى أحسن الاسماء وأجلها لدلالتها على أحسن المعانى وأشرفها (فادعوه بها) أى فسموه بتلك الاسماء (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) أى واجتنبوا الذين يميلون فى شأن أسماء الله تعالى عن الحق الى الباطل اما بأن يسموه تعالى بما لا اذن فيه من كتاب وسنة أو بما يوهم معنى فاسد فلا يجوز أن يقال لله تعالى يا سخى ولا يا عاقل ولا يا طبيب ولا يا فقيه ولا يجوز أن يقال لله تعالى يا نجى يا أبا المكارم يا أبيض الوجه لان أسماء الله تعالى توقيفية أى تعليمية من الشرع لا اصطلاحية وقوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها يدل على أن الانسان لا يدعو ربه الا بتلك الاسماء الحسنى وهذه الدعوة لا تتأتى الا اذا عرف معانى تلك الاسماء وعرف بالدليل ان له الها وربا خالقا موصوفا بتلك الصفات الشريفة فاذا عرف بالدليل ذلك فحينئذ يحسن أن يدعو ربه بتلك الاسماء والصفات ثم ان لتلك الدعوة شرائط كثيرة منها أن يستحضر الامرين عزة الربوبية وذلة العبودية فهنالك يحسن ذلك الدعاء ويعظم موقع ذلك الذكر وقرأ حمزة يلحدون بفتح الياء والحاء ووافقه عاصم والكسائى فى النحل (سيجزون) فى الآخرة (ما كانوا يعملون) وهذا تهديد لمن الحد فى أسماء الله تعالى (وممن خلقنا أمة) أى طائفة كثيرة (يهدون بالحق) أى يهدون الناس ملتبسين بالحق ويدلونهم على الاستقامة (وبه يعدلون) أى وبالحق يحكمون فى الحكومات الجارية فيما بينهم ولا يجورون فيها (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) أى والذين كذبوا بآياتنا التى هى معيار الحق وهو القرآن سنقربهم الى ما يهلكهم ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم وذلك لانهم كلما أتوا بجرم فتح الله عليهم بابا من أبواب النعمة والخير فى الدنيا فيزدادون بطرا وانهماكا فى الفساد ويتدرجون فى المعاصى بسبب ترادف تلك النعم ثم يأخذهم الله تعالى دفعة واحدة على غرتهم أغفل ما يكون (وأملى لهم) أى أمهلهم وأطيل مدة أعمارهم (ان كيدى متين) أى ان استدراجى قوى لا يدافع بقوة ولا بحيلة وسمى العذاب كيدا لانه ظاهره احسان ولطف وباطنه خذلان وقهر (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة) أى أكذبوا بآياتنا ولم يتفكروا والبس بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم حالة قليلة من الجنون والتعبير عنه صلى الله عليه وسلم بصاحبهم للاعلام بان طول مصاحبتهم له صلى الله عليه وسلم مما يطلعهم على نزاهته صلى الله عليه وسلم عن شائبة جنون فما نافية اسمها جنة وخبرها بصاحبهم والجملة فى محل نصب معمولة ليتفكروا (ان هو الا نذير مبين) أى ما هو الا رسول مخوف مظهر لهم فى التخويف بلغة يعلمونها (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شئ) أى أكذبوا بها ولم ينظروا نظر تأمل فيما يدل عليه السموات والارض من عظم الملك وكمال القدرة وفى ما خلق الله فيهما من جليل ودقيق ليدلهم ذلك على العلم بوحدانية الله تعالى وبسائر شؤنه التى ينطق بها تلك الآيات فيؤمنوا بها فان كل فرد من أفراد الاكوان دليل لائح على الصانع المجيد وسبيل واضح الى التوحيد (وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) أى وفى أن الشأن عسى أن يكون أجلهم قد اقترب أى لعلهم يموتون عن قريب فمالهم لا يسارعون الى التدبر فى الآيات التكوينية الشاهدة عما كذبوه من الآيات القرآنية فيهلكوا على الكفر ويصيروا الى النار (فبأى حديث بعده يؤمنون) أى فبأى كتاب بعد القرآن يؤمنون اذا لم يؤمنوا به أى لانهم اذا لم

يؤمنوا بهذا القرآن مع ما فيه من هذه التنبيهات الظاهرة فكيف يرضى منهم الايمان بغيره (من يضلل الله فلا هادي له) فان اعراضهم عن الايمان لاضلال الله اياهم (ويذرهم في طغيانهم) أي ضلالهم (يعمهون) أي يتحيرون وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ونذرهم بالنون والرفع على طريقة الالتفات وأبو عمرو بالياء والرفع وحمزة والكسائي بالياء والجزم وقد روى الجزم بالنون عن نافع وأبي عمرو في الشواذ (يسألونك) يا أشرف الخلق سؤال استهزاء (عن الساعة) أي عن وقت القيامة منهم حمل بن أبي قشير وشمويل بن زيد والساعة من الاسماء الغالبة كالنجم للثريا وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة على حين غفلة من الخلق أولان حساب الخلق يقضى فيها في ساعة واحدة أولانها مع طولها في نفسها كساعة واحدة عند الخلق (أيان مرساها) أي متى حصولها (قل انما علمها عند ربي) أي انه تعالى قد انفرد به بحيث لم يخبر به أحدا من ملك مقرب أو نبي مرسل (لا يجليها لوقتها) أي لا يظهر أمرها الذي تسألونني عنه في وقتها المعين (الا هو) أي لا يقدر على اظهار وقتها المعين بالاعلام الا هو (ثقلت في السموات والارض) أي ثقل تحصيل العلم بوقتها المعين على أهل السموات والارض فلم يعلم أحد من الملائكة المقربين والانبياء المرسلين متى وقوعها (لا تأتيكم الا بغتة) أي فجأة على غفلة قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الساعة تفجأ الناس فالرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته والرجل يقوم بسلعته في سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه (يسألونك كأنك حفي عنها) أي يسألونك عن كنه ثقل الساعة مشبها حالك عندهم بحال من هو بالغ في العلم بها وحقيقة الكلام كأنك مبالغ في السؤال عنها فان ذلك في حكم المبالغة في العلم بها (قل انما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي لا يعلمون السبب الذي لاجله أخفيت معرفة وقتها المعين عن الخلق (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله) أي أنا لا أدعي علم الغيب ان أنا الا نذير وبشير ونظيره قوله تعالى في سورة يونس ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله لكل أمة أجل وقيل ان أهل مكة قالوا يا محمد ألا أخبرك ربك بالرخص والغلاء حتى نشتري فنربح وبالارض التي تجدب لنرتحل الى الارض الخصبة فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق جاءت ريح في الطريق ففرت الدواب منها فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بموت رفاعة بالمدينة وكان فيه غيظ للمنافقين وقال صلى الله عليه وسلم انظروا أين ناقتي فقال عبد الله بن أبي مع قومه ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت الرجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقته فقال صلى الله عليه وسلم ان ناسا من المنافقين قالوا كيت وكيت وكيت وناقتي في هذا الشعب قد تعلق زمامها بشجرة فوجدوها على ما قال فأنزل الله تعالى قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله أي ان يفعل بي من النفع والضر (ولو كنت أعلم الغيب) أي جلب منافع الدنيا ودفع مضراتها (لاستكثرت من الخير) أي لحصلت كثيرا من الخير بترتيب الاسباب (وما مسني السوء) لاحترازي عنه باجتناب الاسباب (ان أنا الا نذير) من النار (وبشير) بالجنة (لقوم يؤمنون) بالجنة والنار (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) هو آدم عليه السلام (وجعل منها زوجها) حواء خلقها الله من ضلع آدم من غير أذى (ليسكن اليها) أي ليستأنس بها (فلما تغشاها) أي جامعها (حملت حملا خفيفا) في مبادي الامر (فمرت به) أي فاستمرت بالحمل على سبيل الخفة وكانت تقوم وتقعد وتمشي من غير ثقل (فلما أثقلت) أي صارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها (دعوا الله ربهما) أي آدم وحواء (لئن آتيتنا صالحا) أي ولدا سويا مثلنا (لنكونن من الشاكرين)

لنعمائك (فلما آتاهما صالحا) أى ولدا آدميا مستوى الاعضاء خاليا عن العوج والعرج (جعلا له) تعالى (شركاء فيما آتاهما) أى فى تسميته ما آتاهما من الولد قيل لما آتاهما ذلك الولد السوى الصالح عزما على أن يجعلاه وقفا على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الاطلاق ثم بدا لهما فى ذلك فتارة كانوا ينتفعون به فى مصالح الدنيا ومنافعها وتارة كانوا يأمرونه بخدمة الله وطاعته وهذا العمل وان كان مناقربة وطاعة الا ان حسنات الابرار سيآت المقربين وقيل لما ثقل الولد فى بطنها أتاها ابليس فى صورة رجل وقال ماهذا يا حواء انى أخاف ان يكون كلبا أو بهيمة وما يدريك من أين يخرج أمن دبرك فيقتلك أو ينشق بطنك فخافت حواء وذكرت ذلك لآدم عليه السلام فلم يزالا فى هم من ذلك ثم أتاها وقال ان سألت الله ان يجعله صالحا سويا مثلك ويسهل خروجه من بطنك تسميه عبد الحرث وكان اسم ابليس فى الملائكة الحرث فسآدم وحواء سميا ذلك الولد بعبد الحرث تنبيها على انه انما سلم من الآفات ببركة دعاء هذا الشخص المسمى بالحرث فلما حصل الاشتراك فى لفظ العبد لا جرم صار آدم عليه السلام معاتبا فى هذا العمل بسبب الاشتراك الحاصل فى مجرد لفظ العبد وهذا لا يقدح فى كون الولد عبد الله من جهة كونه مملوكه ومخلوقه الا انا قد ذكرنا ان حسنات الابرار سيآت المقربين (فتعالى الله عما يشركون) قيل ان المشركين كانوا يقولون ان آدم عليه السلام كان يعبد الاصنام ويرجع فى طلب الخير ودفع الشر اليها فذكر تعالى قصة آدم وحواء وذكر انه تعالى لو آتاهما ولدا سويا صالحا لاستقلوا بشكر تلك النعمة ثم قال تعالى فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فقوله تعالى جعلا له شركاء ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الانكار والتبعيد والتقدير فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ثم قال تعالى فتعالى الله عما يشركون أى تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه الى آدم (أيشركون) بالله تعالى فى العبادة (مالا يخلق شيأ) ومن حق المعبود ان يكون خالقا للعابد والعبد غير خالق لافعاله لان من كان خالقا كان الها فلو كان العبد خالقا لافعال نفسه كان الها ولما كان ذلك باطلا علمنا ان العبد غير خالق لافعال نفسه (وهم) أى الاصنام (يخلقون) فهى منحوتة أو المعنى والكافرون مخلوقون فلو تفكروا فى ذلك لآمنوا ولا يشركون بالخالق شيأ (ولا يستطيعون) أى الاصنام (لهم) أى لعبدتهم (نصرا ولا أنفسهم ينصرون) أى ان الاصنام لا تنصر من أطاعها ولا تدفع عن أنفسها مكروها فان من أراد كسرها لم تقدر على دفعه عنها والمعبود يجب ان يكون قادرا على ايصال النفع ودفع الضرر وهذه الاصنام ليست كذلك فكيف يليق بالعاقل عبادتها (وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم) أى وان تدعوا يا معشر الكفار الاصنام الى ان يهدوكم الى الحق لا يجيبوكم كما يجيبكم الله (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) أى مستو عليكم فى عدم الافادة دعاؤكم لهم وسكوتكم فلا يتغير حالكم فى الحالين كما لا يتغير حالهم عن حكم الجمادية (ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) أى ان الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الاصنام وتسمونهم آلهة مماثلة لكم من حيث انها مملوكة لله تعالى مسخرة لامره عاجزة عن النفع والضر (فادعوهم) فى جلب نفع أو كشف ضر (فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين) فى ادعاء انها آلهة ومستحقة للعبادة (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها) أى بل ألهم أيد يأخذون بها ما يريدون أخذه (أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) وقد قرئ ان الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم على اعمال ان النافية عمل ما الحجازية أى ما الذى تدعون من دونه تعالى عبادا أمثالكم بل أدنى منكم فيكون قوله تعالى ألهم أرجل الخ تقرير

لنفي المماثلة باثبات النقصان (قل ادعوا شركاءكم) قال الحسن ان مشركي أهل مكة كانوا يخوفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بآلهتهم فقال الله تعالى له قل يا أكرم الرسل لهم ادعوا آلهتكم واستعينوا بهم في عداوتي (ثم كيدون) أي اعملوا أنتم وآلهتكم في هلاكي وبالغوا في تهيئة ما تقدرون عليه من مكر (فلا تنظرون) أي اعجلوا أنتم وآلهتكم في كيدي ولا تؤجلون فاني لا أبالي بكم وبآلهتكم لاعتمادي على حفظ الله تعالى (ان وليي الله الذي نزل الكتاب) أي ان ناصري هو الله الذي أنزل الكتاب المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة (وهو يتولى الصالحين) أي ينصرهم فلا تضرهم عداوة من عاداهم وروي ان عمر بن عبد العزيز ما كان يدخر لاولاده شيأ فقيل له في ذلك فقال ولدي اما ان يكون من الصالحين أو من المجرمين فان كان من الصالحين فوليه الله ومن كان الله له وليا فلا حاجة له الى مالي وان كان من المجرمين فقد قال تعالى فلن أكون ظهيرا للمجرمين ومن رده الله لم اشتغل باصلاح مهماته (والذين تدعون من دونه) أي والذين تعبدونهم من دون الله تعالى من الاصنام (لا يستطيعون نصركم) في أمر من الامور (ولا أنفسهم ينصرون) أي يمنعون عما يراد بهم فكيف أبالي بهم (وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا) أي وان تدعوا أيها المشركون تلك الاوثان الى أن يهدوكم الى ما تحصلون به مقاصدكم لا يجيبوا دعاءكم فضلا عن المساعدة لانهم أموات غير احياء (وتراهم ينظرون اليك) أي وترى يا أشرف الخلق الاصنام يشبهون الناظرين اليك لانهم مصورون بالعين والانف والاذن (وهم لا يبصرون) أي والحال انهم غير قادرين على الابصار لانهم أموات غير احياء (خذ العفو) أي اقبل الميسور من أخلاق الناس من غير تجسس لئلا تتولد العداوة أو المعنى خذ ما تيسر من المال فما أتوك به فخذه ولا تسأل عما وراء ذلك (وأمر بالعرف) أي بالظاهر الدين الحق (وأعرض عن الجاهلين) من غير مماراة ولا مكافأة قال عكرمة لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما هذا قال يا محمد ان ربك يقول هو ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك قال أهل العلم تفسير جبريل مطابق للفظ الآية لانك لو وصلت من قطعك فقد عفوت عنه واذا أتيت من حرمك فقد أتيت بالمعروف واذا عفوت عمن ظلمك فقد أعرضت عن الجاهلين (واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله) أي ان يصيبنك وسوسة من الشيطان فالتجئ اليه تعالى في دفعه عنك (انه سميع عليم) أي انه تعالى سميع باستعاذتك بلسانك (عليم) بما في ضميرك من استحضار معاني الاستعاذة فالقول اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والاثر وروي أنه لما نزلت تلك الآية الكريمة قال صلى الله عليه وسلم كيف يارب والغضب متحقق فنزل قوله تعالى واما ينزغنك من الشيطان نزغ (ان الذين اتقوا) أي اتصفوا بوقاية أنفسهم عما يضرها (اذا مسهم طائف من الشيطان) أي اذا أصابهم وسوسة من الشيطان وغضب (تذكروا) ما أمرهم الله به من ترك امضاء الغضب ومن أن الانسان اذا أمضى الغضب كان شريكا للسباع المؤذية والحيات القاتلة وان تركه واختار العفو كان شريكا لاكابر الانبياء والاولياء ومن أنه ربما انقلب ذلك الضعيف قويا قادرا على الغضب فحينئذ ينتقم منه على اسوأ الوجوه أما اذا عفا كان ذلك احسانا منه الى ذلك الضعيف (فاذا هم مبصرون) أي اذا حضرت هذه التذكرات في عقولهم ففي الحال يحصل الخلاص من وسوسة الشيطان ويحصل الانكشاف فينتهون عن المعصية (واخوانهم يمدونهم في الغي) أي واخوان الشياطين من الكفار يقوون الشياطين في الضلال وذلك لان شياطين الانس اخوان لشياطين الجن فشياطين الانس يضلون الناس فيكون ذلك تقوية منهم لشياطين الجن على الاضلال (ثم لا يقصرون) أي لا ينكف

المغاوون

الغاوون عن الضلال والمغوون عن الاضلال (واذا لم تأتهم) أى أهل مكة (بآية) كما طلبوا (قالوا لولا اجتبيتها) أى هلا جمعتها من تلقاء نفسك تقولا فانهم يزعمون ان سائر الآيات كذلك أو هلا اقترحتها على الهك ان كنت صادقا فى ان الله يقبل دعاءك و يجيب التماسك وعند هذا أمر الله رسوله أن يذكر الجواب الشافى بقوله تعالى (قل انما أتبع ما يوحى الى من ربى) أى ليس لى أن أقترح على ربى فى أمر من الامور وانما انتظر الوحى فكل شئ أكرمنى به قلته والا فالواجب السكوت وترك الاقتراح فعدم الاتيان بالمعجزات التى اقترحوها لا يقدح فى الغرض لان ظهور القرآن على وفق دعواه صلى الله عليه وسلم معجزة باهرة فاذا ظهرت هذه المعجزة الواحدة كانت كافية فى تصحيح النبوة فكان طلب الزيادة من باب التعنت فذكر الله تعالى فى وصف القرآن ثلاثة بقوله تعالى (هذا) أى القرآن (بصائر من ربكم) أى بمنزلة البصائر للقلوب فيه تبصر الحق وتدرك الصواب (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) بالقرآن فالقرآن فى حق أصحاب عين اليقين وهم من بلغوا الغاية فى معارف التوحيد بصائر وفى حق أصحاب علم اليقين وهم الذين وصلوا الى درجات المستدلين هدى وفى حق عامة المؤمنين رحمة (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وهذا خطاب مع الكفار عند قراءة الرسول عليهم القرآن فى مسلك الاحتجاج بكونه معجزا على صدق نبوته فانهم قالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فأمروا بالاستماع حتى يمكنهم الوقوف على ما فى القرآن ولذا قال تعالى (لعلكم ترحمون) أى لعلكم تطلعون على ما فى القرآن من دلائل الاعجاز فتؤمنوا بالرسول فتصير وا مرحومين (واذكر ربك فى نفسك) أى اذكر ربك عارفا بمعانى الاذكار التى تقولها بلسانك مستحضرا الصفات الكمال والعز والعلو والجلال والعظمة وذلك لان الذكر باللسان اذا كان عاريا عن الذكر بالقلب كان عديم الفائدة (تضرعا وخيفة) أى متضرعا وخائفا اما فى تقصير الأعمال أو فى الخاتمة أو فى أنه كيف يقابل نعمة الله التى لا حصر لها بالطاعة الناقصة والاذكار القاصرة (ودون الجهر من القول) أى متوسطا بين الجهر والمخافتة بأن يذكر الشخص ربه على وجه يسمع نفسه (بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) والمعنى أن قوله تعالى بالغدو والآصال دل على أنه يجب أن يكون الذكر حاصلا فى كل الاوقات وقوله تعالى ولا تكن من الغافلين يدل على أن الذكر القلبى يجب أن يكون دائما وأن لا يغفل الانسان لحظة واحدة عن استحضار جلال الله بقدر الطاقة البشرية وتحقيق القول أن بين الروح والبدن علاقة عجيبة لان كل أثر حصل فى جوهر الروح نزل منه الى البدن وكل حالة حصلت فى البدن صعدت منه نتائج الى الروح ألا ترى ان الانسان اذا تخيل الشئ الحامض ضرس سنه واذا تخيل حالة مكروهة وغضب سخن بدنه فهذه آثار تنزل من الروح الى البدن واعلم أن قوله تعالى واذكر ربك فى نفسك وان كان ظاهره خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم الا أنه عام فى حق كل المكلفين ولكل أحد درجة مخصوصة بحسب استعداد جوهر نفسه الناطقة (ان الذين عند ربك) أى ان الملائكة مع غاية طهارتهم و براءتهم عن بواعث الشهوة والغضب وحوادث الحقد والحسد (لا يستكبرون عن عبادته) بل يؤدونها حسب ما أمروا به (ويسبحونه) أى ينزهونه تعالى عن كل سوء (وله يسجدون) أى لا يسجدون لغير الله تعالى فالتسبيح يرجع الى المعارف والعلوم والسجود يرجع الى أعمال الجوارح وهذا الترتيب يدل على أن الاصل فى العبودية أعمال القلوب و يتفرع عليها أعمال الجوارح والله أعلم

﴿سورة الانفال مدنية غير قوله تعالى يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين

فانها نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال وآياتها ست وسبعون وكلماتها ألف
ومائة وثلاثون وحروفها خمسة آلاف ومائتان وأربع وتسعون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم يسألونك عن الانفال) أى يسألك يا أشرف الخلق أصحابك منهم سعد بن أبى وقاص أو قرابتك عن الغنائم يوم بدر وسميت الغنائم أنفالا لان المسلمين فضلوا بها على سائر الامم الذين لم تحل لهم الغنائم ولانها عطية من الله تعالى زائدة على الثواب الاخروى للجهاد (قل الانفال لله والرسول) أى قل يا أشرف الخلق حكم الانفال يوم بدر مختص به تعالى يقسمها الرسول صلى الله عليه وسلم كيف أمر به من غير أن يدخل فيه رأى أحد (فاتقوا الله) فى أخذ الغنائم واتركوا المنازعة فيها (وأصلحوا ذات بينكم) أى اصلحوا الحال فيما بينكم بترك النزاع وتسليم أمر الغنائم الى الله ورسوله (وأطيعوا الله ورسوله) فى أمر الصلح وارضوا بما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان كنتم مؤمنين) فالايمان لا يتم حصوله الا بالتزام هذه الطاعة فاحذروا الخروج عنها (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أى انما الكاملون فى الايمان فزعت قلوبهم لمجرد ذكر الله من غير أن يذكر هناك ما يوجب الفزع من صفاته وأفعاله استعظاما له تعالى وقال أصحاب الحقائق الخوف على قسمين خوف العقاب وخوف العظمة والجلال أما خوف العقاب فهو للعصاة وأما خوف الجلال والعظمة فهو لا يزول عن قلب أحد من المحققين سواء كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا وكل من كان أعرف بجلال الله كان هذا الخوف فى قلبه أكمل (واذا تليت عليهم آياته) أى الله التى هو القرآن (زادتهم ايمانا) أى يقينا بقول الله (وعلى ربهم يتوكلون) أى ويعتمدون بالكلية على فضل الله وينقطعون بالكلية عما سوى الله (الذين يقيمون الصلاة) أى يتمون الصلاة الخمس بحقوقها (ومما رزقناهم ينفقون) أى ويؤدون زكاة أموالهم (أولئك) أى الموصوفون بالصفات الخمس (هم المؤمنون حقا) أى ايمانا حقا لانهم حققوا ايمانهم بضم الاعمال القلبية والقالبية اليه (لهم درجات عند ربهم) فمراتب السعادات الحاصلة فى الجنة كثيرة ومختلفة (ومغفرة) بأن يتجاوز الله عن سيآتهم وقال العارفون هى ازالة الظلمات الحاصلة بسبب الاشتغال بغير الله (ورزق كريم) قال هشام ابن عروة هو ما أعد الله لهم فى الجنة من لذيذ المآكل والمشارب وهناء العيش (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون) أى انهم رضوا بهذا الحكم فى الانفال وان كانوا كارهين له كما أخرجك ربك من المدينة بسبب حق يظهر وهو علو كلمة الاسلام والنصر على أعداء الله والحال أن فريقا من المؤمنين لكارهون الخروج للقتال لقلة العدد أو المعنى الانفال ثابتة لله ثبوتا بالحق كاخراجك من بيتك بالمدينة بالحق أى بالوحى وذلك ان عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها اربعون راكبا منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام فاخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم فلما خرجوا وبلغوا وادى دقران وهو قريب من الصفراء نزل عليه صلى الله عليه وسلم جبريل فقال يا محمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبى أصحابه فقال ما تقولون ان القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب اليكم أم النفير وهو اسم عسكر مجتمع فقالوا بل العير أحب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم فقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل أى بجميع أهل مكة ومضى الى بدر فقالوا يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو فغضب رسول الله صلى الله عليه

وسلم

وسلم فقام عند ذلك أبو بكر وعمر فأحسنا فى القول ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فامض فوالله لو سرت الى عدن ما تخلف عنك رجل من الانصار ثم قال مقداد ابن عمرو يارسول الله امض كما أمرك الله فانا معك حيث ما أحببت لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال أشيروا على أيها الناس فقال سعد بن معاذ امض يارسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وانا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد ثم قال صلى الله عليه وسلم سيروا على بركة الله وابشروا فان الله قد وعدنى احدى الطائفتين والله لكأنى الآن انظر الى مصارع القوم (يجادلونك فى الحق) تلقى النفير (بعد ما تبين) أى بعد اعلامك انهم ينصرون أينما توجهوا وجدالهم هو قولهم ما كان خروجنا الا للعير وهلا ذكرت لنا القتال لنتأهب له وكان ذلك لكراهتهم القتال (كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون) أى مشبهين بالذين يساقون بالعنف الى القتل والحال أنهم ينظرون الى أسباب الموت (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم) أى واذكروا وقت أن يعدكم الله بأن احدى الطائفتين العير أو العسكر مختصة بكم تسلطون عليها تسلط الملاك وتتصرفون فيهم كيف شئتم (وتودون) أى وتحبون (أن غير ذات الشوكة) أى القوة (تكون لكم) وهو العير اذ لم يكن فيها الا أربعون فارسا ورئيسهم أبو سفيان وذات الشوكة وهى العسكر وهم ألف مقاتل ورئيسهم أبو جهل (ويريد الله أن يحق الحق) أى يثبت النصر على الاعداء (بكلماته) أى بأسباب النصر من أوامره تعالى للملائكة بالامداد (ويقطع دابر الكافرين) والمعنى أنتم تريدون سفساف الامور وهو العير للفوز بالمال والله تعالى يريد معاليها بأن تتوجهوا الى النفير لما فيه من اعلاء الدين الحق واستئصال الكافرين (ليحق الحق) أى ليظهر الشريعة ويقوى الدين (ويبطل الباطل) أى وليظهر بطلان الباطل بتقوية رؤساء الحق وقهر رؤساء الباطل (ولو كره المجرمون) أى المشركون ذلك الاظهار (اذ تستغيثون ربكم) أى تطلبون منه الغوث كأن يقولوا ربنا انصرنا على عدوك ياغياث المستغيثين أغثنا أى فرج عنا قال ابن عباس حدثنى عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم ألف والى أصحابه وهم ثلثمائة ونيف استقبل القبلة ومد يديه وهو يقول اللهم انجز لى ما وعدتنى اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الارض ولم يزل كذلك حتى سقط رداؤه ورده أبو بكر ثم التزمه ثم قال كفاك يا نبى الله مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك فنزلت هذه الآية واذ تستغيثون بدل من اذ يعدكم معمول لعامله ويجوز أن يكون العامل فى اذ هو قوله تعالى ويبطل الباطل (فاستجاب لكم أنى ممدكم) أى معينكم (بألف من الملائكة مردفين) وقرأ عيسى بن عمر ويروى أيضا عن أبى عمرو انى بكسر الهمزة على اضمار القول أو على اجراء استجاب مجرى قال والعامة على فتح الهمزة بتقدير حرف الجر وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ويروى عن قنبل أيضا مردفين بفتح الدال أى ان الله أردف المسلمين بهم وأيدهم بهم بمعنى ان الملائكة كانوا مقدمة الجيش أو ساقتهم والباقون بكسرها أى متتابعين يأتى بعضهم اثر بعض وروى أنه نزل جبريل بخمسمائة وقاتل بها فى يمين العسكر وفيه أبو بكر ونزل ميكائيل بخمسمائة قاتل بها فى يسار الجيش وفيه على (وما جعله الله الا بشرى) أى وما جعل أمدادكم بانزال الملائكة

عياناالاللبشرى لكم بانكم تنصرون (ولتطمئن به) أى بالأمداد (قلوبكم) كما كانت السكينة لبنى اسرائيل كذلك (وما النصر الامن عند الله) لامن عند غيره أى ان الله ينصركم أيها المؤمنون فثقوا بنصره ولاتتكلوا على قوتكم (ان الله عزيز) أى قاهر لايقهر (حكيم) فيما ينزل من النصرة فيضعها فى موضعها (اذيغشيكم النعاس أمنة منه) أى يجعل الله النعاس مغطيا لكم آمنا من خوف العدو من الله تعالى واذ بدل ثان من اذ يعدكم قال الزجاج محلها نصب على الظرفية والمعنى وما جعله الله الا بشرى فى ذلك الوقت قرأ العامة يغشيكم بضم الياء وفتح الغين وتشديد الشين وقرأ نافع بضم الياء وسكون الغين والفاعل فى الوجهين هو الله تعالى وقرأ أبو عمرو وابن كثير يغشاكم بفتح الياء والشين وسكون الغين والنعاس فاعل أى اذ يلقى عليكم النوم الخفيف أمانا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم وحصول النوم لهم فى وقت الخوف الشديد يدل على زوال الخوف (وينزل عليكم من السماء ماء) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون (ليطهركم به) من الاحداث وفى الخبران المشركين سبقوا الى موضع الماء وطمعوا لهذا السبب أن تكون لهم الغلبة وعطش المؤمنون وخافوا من أن يأتيهم العدو فى تلك الحالة وأكثرهم احتلموا وموضعهم كان رملا تغوص فيه الارجل ويرتفع منه الغبار الكثير وكان الخوف فى قلوبهم شديدا بسبب كثرة العدو وكثرة آلتهم فلما أنزل الله ذلك المطر صار ذلك دليلا على حصول النصرة وعظمت النعمة به (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أى وسوسته روى أنهم لما ناموا واحتلم أكثرهم تمثل لهم ابليس وقال أنتم تزعمون انكم على الحق وأنتم تصلون على الجنابة وقد عطشتم ولو كنتم على الحق لماغلبوكم على الماء فأنزل الله تعالى المطر حتى جرى الوادى واتخذ المسلمون حيضانا واغتسلوا وتلبد الرمل حتى ثبتت عليه الاقدام (وليربط على قلوبكم) أى ليحفظ قلوبكم بالصبر (ويثبت به) أى الماء (الاقدام) على الرمل فقدروا على المشى عليه كيف أرادوا (اذيوحى ربك الى الملائكة أنى معكم) فانه تعالى أوحى الى الملائكة انى مع المؤمنين (فثبتوا الذين آمنوا) أى فانصروهم وبشروهم بالنصرة وقد روى أنه كان الملك يتشبه بالرجل الذى يعرفونه بوجهه فيأتى ويقول انى سمعت المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن ويمشى بين الصفين فيقول ابشروا فان الله تعالى ناصركم (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) أى المخافة من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه (فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان) أى فاضربوا رؤسهم واضربوا أطراف الاصابع اى اضربوهم فى جميع الاعضاء من أعاليها الى أسافلها كيف شئتم لان الله تعالى ذكر الاشرف والاخس فهو اشارة الى كل الاعضاء (ذلك) أى لقاؤهم الخزى من الوجوه الكثيرة (بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى خالفوهما فى الاوامر والنواهى (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) أى ومن يخالفهما فان الله يعاقبه فى القيامة وهو شديد العقاب فالذى نزل بهم فى ذلك اليوم قليل بالنسبة لما أعده الله لهم من العقاب فى القيامة (ذلكم) أى الامر ذلكم فالخطاب للكفرة (فذوقوه) فى الدنيا (وأن للكافرين عذاب النار) والمعنى حكم الله ذلكم من أن ثبوت هذا العقاب لكم عاجلا وثبوت عذاب النار لكم آجلا (ياأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) أى مثل الزاحفين على أدبارهم فى بطء السير لاجتماعهم (فلا تولوهم الادبار) أى لاتجعلوا ظهوركم مما يليهم بل قابلوهم وقاتلوهم مع قلتكم (ومن يولهم يومئذ) أى يوم اللقاء (دبره الامتحرفا لقتال) بأن يخيل عدوه أنه منهزم ثم ينعطف عليه (أومتحيزا الى فئة) أى منضما الى جماعة أخرى من المؤمنين لينضم اليهم ثم يقاتل معهم العدو (فقد باء) أى رجع

(بغضب

(بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) والفرار من الزحف من أكبر الكبائر اذا لم يزد العدد على الضعف (فلم تقتلوهم) أنتم بقوتكم (ولكن الله قتلهم) لتسليطكم عليهم والقاء الرعب فى قلوبهم أى فلم تؤثر قوتكم فى قتلهم ولكن التأثير لله (ومارميت) يا أكرم الرسل (اذ رميت) أى ومارميت فى الحقيقة وقت رميت التراب الى وجوه المشركين (ولكن الله رمى) أى أوصل رميك اليهم روى أنه لما طلعت قريش من العقنقل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم انى أسألك ماوعدتنى فنزل اليه جبريل وقال له خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله تعالى عنه اعطنى قبضة من التراب من حصباء الوادى فرمى بها فى وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك الا شغل بعينيه فانهزموا وردفهم المسلمون يقتلونهم و يأسرونهم وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى ولكن الله قتلهم ولكن الله رمى بكسر النون مخففة ورفع اسم الجلالة (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) أى ولينعم الله عليهم من رمى التراب نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة والثواب وهذا معطوف على قوله تعالى ولكن الله رمى (ان الله سميع) لاستغاثتهم (عليم) بأحوال قلوبهم الداعية الى الاجابة (ذلكم) أى الامر ذلكم أى البلاء الحسن (وأن الله موهن كيد الكافرين) معطوف على ذلكم وقرأ حفص عن عاصم موهن كيد بالاضافة وسكون الواو وقرأ ابن عامر والكوفيون بعدم الاضافة ونافع وابن كثير وأبو عمرو كذلك لكن مع فتح الواو وتشديد الهاء أى والامر ان الله مضعف صنيع الكافرين (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنتهوا فهو خير لكم وان تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيأ ولو كثرت) قال الحسن ومجاهد والسدى وهذا خطاب للكفار على سبيل التهكم بهم وقال السدى ان المشركين لما أرادوا الخروج الى بدر أخذوا أستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين واهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين والمعنى ان تستنصروا أيها الكفار لاعلى الجندين فقد جاءكم النصر لاعلاهما وقد زعمتم انكم الاعلى فالتهكم فى المجىء أو فقد جاءكم الهزيمة فالتهكم فى نفس الفتح وان تنتهوا عن قتال الرسول وعداوته وتكذيبه فهو خير لكم فى الدين بالخلاص من العقاب والفوز بالثواب وفى الدنيا بالخلاص من القتل والاسر والنهب وان تعودوا الى القتال نعد الى تسليط المسلمين على قتلكم ولن تدفع عنكم جماعتكم شيأ من الضرر ولو كثرت وقيل هذا خطاب للمؤمنين والمعنى ان تستنصروا أيها المؤمنون فقد جاءكم النصر وان تنتهوا عن المنازعة فى أمر الانفال وعن طلب الفداء على الاسرى فهو خير لكم وان تعودوا الى تلك المنازعة نعد الى ترك نصرتكم ثم لاتنفعكم كثرتكم (وأن الله مع المؤمنين) قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأن بفتح الهمزة وهو خبر مبتدأ محذوف أى والامر ان الله مع الكاملين فى الايمان (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و رسوله) فى الاجابة الى الجهاد والى ترك المال اذ أمر بتركه (ولا تولوا عنه) أى ولا تعرضوا عن الرسول أى عن قبول قوله وعن معونته فى الجهاد (وأنتم تسمعون) دعاءه الى الجهاد (ولا تكونوا كالذين قالوا) بألسنتهم (سمعنا وهم لايسمعون) أى انا قبلنا تكاليف الله تعالى والحال انهم بقلوبهم لا يقبلونها (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) أى ان شر كل حيوان فى حكم الله تعالى من لا يسمع الحق ولا ينطق به ولا يفقد أمر الله تعالى قال ابن عباس هم نفر من بنى عبد الدار بن قصى كانوا يقولون نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقتلوا جميعا يوم بدر وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم الا رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة (ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم) أى لو حصل

في بني عبد الدار خيرا لاسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تفهم (ولو أسمعهم) بعد أن علم انه لا خير فيهم (لتولوا) عنها ولم ينتفعوا بها (وهم معرضون) أي والحال انهم مكذبون بها قيل ان الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحيي لهم قصي بن كلاب وغيره من أمواتهم ليخبروهم بصحة نبوته صلى الله عليه وسلم فبين الله تعالى انه لو علم فيهم خيرا وهو انتفاعهم بقول هؤلاء الاموات لاحياهم الله تعالى حتى يسمعوا كلامهم ولكنه تعالى علم منهم انهم لا يقولون احي لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن بك الا على سبيل العناد والتعنت وانه لو أسمعهم الله كلام قصي وغيره لتولوا عن قبول الحق على أدبارهم ولاعرضوا عما سمعوه بقلوبهم (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) أي اجيبوا الله والرسول بحسن الطاعة اذا دعاكم الرسول الى ما فيه سبب حياتكم الابدية من الايمان أو القرآن أو الجهاد وروى أبو هريرة رضي الله ان النبي صلى الله عليه وسلم مر على باب أبي ابن كعب وهو في الصلاة فدعاه فعجل في صلاته ثم جاء فقال صلى الله عليه وسلم له ما منعك عن اجابتي قال كنت في الصلاة قال ألم تخبر فيما أوحي الى استجيبوا لله وللرسول فقال لا جرم لا تدعوني الا أجيبك (واعلموا) يا معشر المؤمنين (أن الله يحول بين المرء وقلبه) أي يحول بين المرء وبين ما يريده بقلبه فان الاجل يحول دون الامل فكأنه تعالى قال بادروا الى الاعمال الصالحة ولا تعتمدوا على ما يقع في قلوبكم من توقع طول البقاء فان ذلك غير موثوق به وقال مجاهد المراد من القلب هنا العقل أي فان الله يحول بين المرء وعقله والمعنى فبادروا الى الاعمال وأنتم تعقلون فانكم لا تأمنون زوال العقل والله يحول بين المرء الكافر وطاعته ويحول بين المرء المطيع ومعصيته والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ان يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ولا يستطيع المرء ان يؤمن ولا ان يكفر الا باذنه تعالى (وأنه) أي واعلموا أن الشان (اليه) أي الله تعالى (تحشرون) في الآخرة فيجزيكم بحسب مراتب أعمالكم فسارعوا الى طاعة الله ورسوله (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أي واحذروا فتنة ان نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة بل تتعدى اليكم جميعا وتصل الى الصالح والطالح وحذر تلك الفتنة بالنهي عن المنكر فالواجب على كل من رآه ان يزيله اذا كان قادرا على ذلك فاذا سكت عليه فكلهم عصاة هذا بفعله وهذا برضاه وقد جعل الله تعالى الراضي بمنزلة العامل فانتظم في العقوبة وعلامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي فلا يتحقق كون الانسان كارها له الا اذا تألم لفقد ماله أو ولده فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار (واعلموا أن الله شديد العقاب) ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه والمعنى الزموا الاستقامة خوفا من عذاب الله تعالى (واذكروا) يا معشر المهاجرين (اذ أنتم قليل) في العدد في أول الاسلام (مستضعفون في الارض) أي مقهورون في أرض مكة (تخافون أن يتخطفكم الناس) تخافون اذا خرجتم من البلدان تأخذكم مشركوا العرب بسرعة لشدة عداوتهم لكم ولقربهم منكم (فآواكم) أي نقلكم الى المدينة فصرتم آمنين من كفار مكة (وأيدكم بنصره) أي قواكم بنصرته يوم بدر (ورزقكم من الطيبات) أي من الغنائم وهي كانت محرمة على من كان قبل هذه الامة (لعلكم تشكرون) هذه النعم العظيمة (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) في الدين وفي الاشارة الى بني قريظة ان لا تنزلوا على حكم سعد بن معاذ (وتخونوا أماناتكم) فيما بينكم (وأنتم تعلمون) ان ما وقع منكم خيانة روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود

بني

To: www.al-mostafa.com

بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار فسألوه صلى الله عليه وسلم الصلح كما صالح بنى النضير على ان يسيروا الى اخوانهم فى أذرعات واريحا من الشام فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يعطيهم ذلك الا ان ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة وهو رفاعة بن عبد المنذر نستشيره فى أمرنا وكان مناصحا لهم لان ماله وعياله عندهم فأرسله اليهم فقالوا يا أبا لبابة ماترى لنا أننزل على حكم سعد بن معاذ فينا فأشار أبو لبابة بيده الى حلقه أى حكم سعد هو القتل فلا تفعلوا فكان ذلك منه خيانة لله ورسوله (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى محنة من الله تعالى ليبلوكم فيهم فلا يحملنكم حبهم على الخيانة كأبى لبابة لانه يشغل القلب بالدنيا ويصيره حجابا عن خدمة المولى (وأن الله عنده أجر عظيم) فان سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا لانها أعظم فى الشرف وفى المدة لانها تبقى (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) أى نجاة مما تخافون فى الدارين (ويكفر عنكم سيآتكم) أى يسترها فى الدنيا (ويغفر لكم) أى يزلها فى الآخرة (والله ذو الفضل العظيم) على عباده بالمغفرة والجنة (واذ يمكر بك الذين كفروا) أى واذكر يا أشرف الخلق وقت احتيالهم بك فى ايصال الضرر والهلاك (ليثبتوك) أى ليسجنوك أو ليثبتوك بالوثاق كما قرئ ليقيدوك (أو يقتلوك) بسيوفهم (أو يخرجوك) من مكة (ويمكرون) أى يريدون هلاكك يا أكرم الرسل (ويمكر الله) أى يرد مكرهم عليهم وذلك بأن أخرجهم الى بدر وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا ما لقوا (والله خير الماكرين) أى أقواهم فكل مكر يبطل فى مقابلة فعل الله تعالى قال المفسرون ان مشركى قريش عرفوا لما أسلمت الانصار أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر فاجتمع نفر من كبار قريش فى دار الندوة أى فى الدار التى يقع فيها الاجتماع للتحدث ورؤسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان وطعيمة بن عدى وجبير بن مطعم والحرث بن عامر والنضر بن الحرث وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الاسود وحكيم بن حزام وأبو جهل وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ودخل عليهم ابليس فى صورة شيخ وقال أنا من أهل نجد وتشاور وافى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمرو بن هشام قيدوه وسدوا باب البيت غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء فقال ابليس لا مصلحة فيه لانه يغضب له قومه فتسفك فيه الدماء فقال أبو البخترى بن هشام أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه لكم فقال ابليس لا مصلحة فيه لانه يجمع طائفة على نفسه ويقاتلكم بهم وقال أبو جهل الرأى ان نجمع من كل قبيلة رجلا فيضربوه بأسيافهم ضربة واحدة فاذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على محاربة قريش كلها فيرضون بأخذ الدية فقال ابليس هذا هو الرأى الصواب فأوحى الله تعالى الى نبيه بذلك وأمره ان لا يبيت فى مضجعه وأذن له فى الهجرة الى المدينة وأمر عليا ان يبيت فى مضجعه وقال له تسج ببردتى فانه لن يخلص اليك أمر تكرهه وهم المشركون بالولوج عليه صلى الله عليه وسلم فصاحت امرأة من الدار فقال بعضهم لبعض والله انها السبة فى العرب ان يتحدثوا عنا انا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمتنا وباتوا مترصدين على الباب ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب وأخذ الله تعالى أبصارهم عنه فأخذ قبضة من تراب ونثره على رؤسهم كلهم ومضى هو وأبو بكر الى الغار فلما أصبحوا ساروا الى مضجعه صلى الله عليه وسلم فأبصروا عليا فقالوا له وأين صاحبك فقال لا أدرى فاقتصوا أثره فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم تنسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثا من الليالى ثم قدم المدينة (واذا تتلى عليهم آياتنا) أى القرآن (قالوا قد سمعنا)

ماقال محمد صلى الله عليه وسلم (لونشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين) أى ماهذا القرآن
الا ما كتب الاولون من القصص روى أن النضر بن الحرث خرج الى الحيرة بلدة بقرب الكوفة تاجرا
واشترى أحاديث كليلة ودمنة وكان يقعد مع المستهزئين وهو منهم فيقرأ عليهم أساطير الاولين كالفرس
والروم وكان يزعم انها مثل ما يذكره محمد من قصص الاولين واسناد القول الى الكل مع أن القائل هو
النضر لما انه كان رئيسهم وقاضيهم وهو الذى يقولون بقوله ويأخذون برأيه (واذقالوا اللهم ان كان
هذا) أى الذى يقوله محمد صلى الله عليه وسلم (هو الحق) بالنصب خبر كان ودخلت هو للفصل (من
عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) عقوبة على انكارنا (أوائتنا بعذاب أليم) غير الحجارة قاله
النضر استهزاء وقد أسره المقداد يوم بدر فقتله النبي صلى الله عليه وسلم أوقاله أبو جهل وقد ذبحه ابن مسعود
يوم بدر (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) أى لا يفعل الله بهؤلاء الكفار عذاب الاستئصال مادام
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حاضرا معهم تعظيما له وأيضا ان عادة الله مع جميع الانبياء المتقدمين لم
يعذب أهل قرية الا بعد أن يخرج رسولهم منها كما كان فى حق هود وصالح ولوط (وما كان الله معذبهم
وهم يستغفرون) أى وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون لانه صلى الله عليه
وسلم لما خرج من مكة بقى فيها من لم يستطع الهجرة من مكة من المسلمين (ومالهم أن لا يعذبهم الله وهم
يصدون عن المسجد الحرام) أى ولا مانع من اهلاك الله لهم بعد ماخرجت من بينهم وحالهم يمنعونك
والمسلمين عن الطواف ببيت الله يوم الحديبية (وما كانوا أولياءه) أى والحال انهم ما كانوا أولياء
المسجد وهذا رد لقولهم نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء (ان أولياؤه الا المتقون)
أى ما أولياء المسجد الا الذين يتحرزون عن المنكرات كما كانوا يفعلونه عند البيت من المكاء والتصدية
ومن كانت هذه حاله لم يكن وليا للمسجد الحرام بل هم أهل لان يقتلوا بالسيف ويحاربوا (ولكن أكثرهم
لا يعلمون) انه لا ولاية لهم عليه (وما كان صلاتهم) أى عبادتهم (عند البيت الا مكاء) أى صفيرا
(وتصدية) أى تصفيقا أى ما كان شئ مما يعدونه عبادة الا هذين الفعلين قال ابن عباس كانت قريش
يطوفون بالبيت عراة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون بأحدى اليدين بالاخرى (فذوقوا
العذاب) أى عذاب السيف يوم بدر (بما كنتم تكفرون) بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم (ان
الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) أى عن دينه قال مقاتل والكلبى نزلت هذه الآية
فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا من كبار قريش أبى جهل وأصحابه يطعم كل واحد منهم كل يوم
يوم عشر جزر وقال سعيد بن جبير ومجاهد نزلت فى ابى سفيان وكان استأجر ليوم أحد ألفين من الاحابيش
سوى من استجاش من العرب وانفق فيهم أربعين أوقية والاوقية اثنان وأربعون مثقالا وأخرج ابن اسحق
عن مشايخه انها نزلت فى أبى سفيان ومن كان له فى العير من قريش تجارة (فسينفقونها) أى أموالهم
(ثم تكون) أى الاموال (عليهم حسرة) أى ندامة لفواتها وفوات قصدهم من نصرتهم على محمد (ثم
يغلبون) آخر الامر (والذين كفروا) أى أصروا على الكفر أبو جهل وأصحابه (الى جهنم يحشرون)
أى يساقون يوم القيامة (ليميز الله الخبيث من الطيب) أى ليميز الله الفريق الخبيث من الكفار من
الفريق الطيب من المؤمنين واللام متعلقة بيحشرون أو بيغلبون أو المعنى ليميز الله نفقة الكافر على عداوة
محمد من نفقة المؤمن فى جهاد الكفار كانفاق أبى بكر وعثمان فى نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وقرأ حمزة
والكسائى ليميز بضم الياء الاولى وفتح الميم وتشديد الياء المكسورة (ويجعل الخبيث بعضه على بعض)

أى ويجعل الفريق الخبيث بعضه على بعض (فيركمه) أى فيجمعه (جميعا) لفرط ازدحامهم (فيجعله) أى يطرحه (فى جهنم) وقيل المعنى يضم الله تعالى تلك الاموال الخبيثة بعضها الى بعض فيلقيها فى جهنم ويعذبهم بها (أولئك) أى الذين كفروا (هم الخاسرون) أى الكاملون فى الغبن (قل للذين كفروا) أبى سفيان وأصحابه أى قل يا أشرف الخلق لاجلهم (ان ينتهوا) عن الكفر وعداوة الرسول صلى الله عليه وسلم (يغفر لهم ما قد سلف) من الذنوب قال صلى الله عليه وسلم الاسلام يجب ما قبله (وان يعودوا) الى الكفر ومعاداة النبي صلى الله عليه وسلم أى وان يرتدوا عن الاسلام بعد دخولهم فيه ويرجعوا الى الكفر وقتال النبي ننتقم منه بالعذاب (فقد مضت سنة الاولين) أى لانه قد سبقت سيرة الاولين الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتدمير كما جرى على أهل بدر (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) أى قاتلوا كفار أهل مكة لئلا توجد فتنة حتى يخرج المسلمون الى الحبشة وتوامرت قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم حين بايعت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة وليكون الدين كله لله فى أرض مكة وما حولها الا يعبد غيره (فان انتهوا) عن الكفر وسائر المعاصى بالتوبة والايمان (فان الله بما يعملون بصير) أى عالم لا يخفى عليه شئ يوصل اليهم ثوابهم (وان تولوا) عن التوبة والايمان (فاعلموا) يا معشر المؤمنين (أن الله مولاكم) أى حافظكم ورافع البلاء عنكم (نعم المولى) أى الولى بالحفظ (ونعم النصير) لا يغلب من نصره وكل من كان فى حماية الله تعالى كان آمنا من الآفات مصونا عن المخوفات والمعنى وان تولوا عن الايمان فلا تخشوا بأسهم لان الله مولاكم (واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه) أى واعلموا يا معشر المؤمنين أن الذى أصبتموه كائنا من شئ قليلا كان أو كثيرا فواجب ان لله خمسه بمعنى انه تعالى أمر بقسمته على هؤلاء الخمسة فذكر الله للتعظيم وقوله ان لله خمسه خبر مبتدا محذوف أى فكون خمسه لله واجب وهذه الجملة خبر لان (وللرسول) أما بعد وفاته فيصرف سهمه الى مصالح المسلمين عند الشافعى وقال أبو حنيفة سهمه ساقط بسبب موته وقال مالك هو مفوض الى رأى الامام (ولذى القربى) أى ولقرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم وبنى المطلب دون من عداهم من أغنيائهم وفقرائهم يقسم الخمس بينهم للذكر مثل حظ الانثيين (واليتامى) أى الذين مات آباؤهم وهم فقراء غير يتامى بنى عبد المطلب (والمساكين) أى ذوى الحاجة من المسلمين (وابن السبيل) أى المحتاج فى سفره ولا معصية بسفره (ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا) محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات والملائكة والفتح (يوم الفرقان) أى يوم بدر سمى به لفرقه بين الحق والباطل وهو منصوب بأنزلنا أو بآمنتم (يوم التقى الجمعان) أى الفريقان من المسلمين والكافرين وهو بدل من يوم الفرقان أو منصوب بالفرقان والمعنى ان كنتم آمنتم بالله وبالمنزل على محمد يوم بدر فاعلموا أن خمس الغنيمة مصروف الى هذه الوجوه الخمسة فاقطعوا اطماعكم عنه واقنعوا بالاخماس الاربعة (والله على كل شئ قدير) يقدر على نصر القليل على الكثير (اذ أنتم بالعدوة الدنيا) وهو بدل ثان من يوم الفرقان أى اذ أنتم كائنون فى شط الوادى القربى من المدينة (وهم بالعدوة القصوى) أى المشركون فى شفير الوادى البعدى منها (والركب أسفل منكم) أى العير التى خرجوا لها التى يقودها أبو سفيان وأصحابه كائنون بمكان أسفل منكم على ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر (ولو تواعدتم) أنتم وأهل مكة على القتال (لاختلفتم فى الميعاد) أى لخالف بعضكم بعضا فى الميعاد هيبة منهم لكثرتهم وقلتكم (ولكن) جمع الله بينكم على هذا الحال بغير ميعاد (ليقضى الله

أمرا كان مفعولا) أي ليمضي أمرا كان مفعولا في علمه وهو النصرة والغنيمة للنبي وأصحابه والهزيمة والقتل لأبي جهل وأصحابه ويكون استيلاء المؤمنين على المشركين معجزة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) وهو بدل من ليقضي أي ليموت من مات عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن بينة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة أو ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بينة (وإن الله لسميع) لدعائكم (عليم) بحاجتكم وضعفكم فأصلح مهمكم (إذ يريكهم الله في منامك) قبل يوم بدر (قليلا) مع كثرتهم فأخبر بذلك أصحابه فقالوا رؤيا النبي حق فصار ذلك تشجيعا للمؤمنين (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) أي ولو أراك الله المشركين كثيرا لذكرته للقوم ولو سمعوا ذلك لجبنوا (ولتنازعتم في الأمر) أي لاختلفتم في أمر القتال ولتفرقت آراؤكم في في الفرار والثبات (ولكن الله سلم) أي سلمكم من المخالفة فيما بينكم (انه عليم بذات الصدور) أي بالخطرات التي تقع في القلوب من الصبر والجزع والجراءة والجبن ولذلك دبر ما دبر (وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا) أي وإذ يبصركم أيها المؤمنون إياهم قليلا حتى قال ابن مسعود لمن في جنبه أتراهم سبعين فقال أراهم مائة وهم في نفس الأمر ألف تصديقا لرؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم ولتزداد جراءة المؤمنين عليهم (ويقللكم في أعينهم) حتى قال أبو جهل إنما أصحاب محمد أكلة جزور أي قليل يشبعهم جزور واحد فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال وقلل الله عدد المؤمنين في أعين المشركين قبل التحام الحرب لئلا يبالغ الكفار في تحصيل الاستعداد والحذر فيصير ذلك سببا لانكسارهم فلما التحم القتال أرى الكفار المسلمين مثلي الكفار وكانوا ألفا فقدروا المسلمين قدر ألفين ليهابوا وتضعف قلوبهم (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) أي ليصير ذلك سببا لاستيلاء المؤمنين عليهم (وإلى الله ترجع الأمور) بالبناء للمفعول أي ترد وللفاعل أي تصير ويصرف الله الأمور كلها كيفما يريد ولا تجري على ما يظنه العبيد (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) أي إذا حاربتم جماعة من الكفرة فجدوا في المحاربة ولا تنهزموا (واذكروا الله كثيرا) بالقلب واللسان في أثناء القتال ومن الذكر ما يقع حال القتال من التكبير (لعلكم تفلحون) أي تفوزون بمرامكم من النصرة والمثوبة (وأطيعوا الله ورسوله) في أمر القتال وغيره (ولا تنازعوا) أي لا تختلفوا في أمر الحرب (فتفشلوا) أي فتجبنوا (وتذهب ريحكم) أي شدتكم (واصبروا) على شدائد الحرب (إن الله مع الصابرين) بالنصرة والكلاءة (ولا تكونوا) في الاستكبار والفخر (كالذين خرجوا من ديارهم) مكة لحماية العير (بطرا) أي شديد المرح (ورئاء الناس) أي ولثناء الناس عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك أن قريشا خرجوا من مكة لحفظ العير فلما بلغوا جحفة أتاهم رسول أبي سفيان وقال ارجعوا إلى مكة فقد سلمت عيركم فأبوا إلا إظهار آثار الجلادة وأيضا لما وردوا الجحفة بعث الخفاف الكناني إلى أبي جهل وهو صديق له بهدايا مع ابن له فلما أتاه قال إن أبي يقول لك إن شئت أن أمدك بالرجال أمددتك وإن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي فعلت فقال أبو جهل قل لأبيك جزاك الله خيرا إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله من طاقة وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة والله ما نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرا فنشرب فيها الخمور وتعزف علينا القيان وننحر الجزور في بدر فيثني الناس علينا بالشجاعة والسماحة وقد بدلهم الله شرب الخمور بشرب كأس الموت وبدل ضرب الجواري على نحو الدفوف بنوح النائحات وبدل نحر الجزور بنحر رقابهم حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون واعلم أن النعم إذا كثرت من الله تعالى على

العبد فان صرفها الى مرضاته تعالى وعرف انها من الله تعالى فذلك هو الشكر واما ان توسل بها الى المفاخرة على الاقران والمغالبة بالكثرة على أهل الزمان فذلك هو البطر (ويصدون عن سبيل الله) أى ويمنعون الناس من الدخول فى دين الله وهذا معطوف على بطرا وانما ذكر البطر والرياء بصيغة الاسم والصد بصيغة الفعل لان أبا جهل ورهطه كانوا مجبولين على المفاخرة والرياء واما صدهم عن سبيل الله فانما حصل فى الزمان الذى ادعى سيدنا محمد النبوة (والله بما يعملون محيط) أى والله عالم بما فى دواخل القلوب وهذا كالتهديد عن التصنع فان الاشارة ربما أظهر من نفسه ان الحامل له الى ذلك الفعل طلب مرضاة الله تعالى مع انه لا يكون الامر فى الحقيقة كذلك (واذ زين لهم الشيطان أعمالهم) أى واذكر وقت تزيين الشيطان أعمالهم فى معاداة المؤمنين وخروجهم من مكة فان المشركين حين أرادوا المسير الى بدر خافوا من بنى بكر بن كنانة لانهم كانوا اقتلوا منهم واحدا فلم يأمنوا ان يأتوهم من ورائهم فتصور لهم ابليس بصورة سراقة بن مالك بن جعشم وهو من بنى بكر بن كنانة وكان من أشرافهم فى جند من الشياطين ومعه راية (وقال لا غالب لكم اليوم من الناس) أى لا غالب عليكم اليوم من بنى كنانة ومن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه (وانى جار لكم) أى حافظكم من مضرتهم (فلما تراءت الفئتان) أى التقى الجمعان جمع المؤمنين وجمع الكافرين بحيث رأت كل واحدة الآخرى ورأى ابليس نزول الملائكة من السماء (نكص على عقبيه) أى رجع الى خلفه هاربا (وقال انى برىء منكم) فكان ابليس فى صف المشركين وهو آخذ بيد الحرث بن هشام فقال له الحرث الى أين أتترك نصرتنا فى هذه الحالة قال ابليس (انى أرى ما لا ترون) وأرى جبريل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وفى يده اللجام يقود الفرس ولم تروه ودفع ابليس فى صدر الحرث و(انى أخاف الله) ان يهلكنى بتسليط الملائكة على وقيل لما رأى ابليس الملائكة ينزلون من السماء خاف ان يكون الوقت الذى أنظر اليه قد حضر فقال ما قال اشفاقا على نفسه (والله شديد العقاب) قاله الشيطان بسط العذره وحينئذ فهو تعليل أو هو مستأنف من محض كلامه تعالى تهديدا لابليس (اذ يقول المنافقون) وهم قوم من الاوس والخزرج (والذين فى قلوبهم مرض) أى شك وهم قوم من قريش أسلموا ولم يقو اسلامهم فى قلوبهم ولم يهاجروا منهم عتبة بن ربيعة وقيس بن الوليد وأبو قيس بن الفاكه والحرث بن زمعة وعدى بن أمية والعاص ابن منبه والعامل فى اذ زين أو اذكر مقدرا (غر هؤلاء) أى محمدا وأصحابه (دينهم) فانهم خرجوا وهم ثلاث مائة وثلاثة عشر يقاتلون ألف رجل وما ذاك الا انهم اعتمدوا على دينهم وقال هؤلاء لما خرج قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم نخرج مع قومنا فان كان محمد فى كثرة خرجنا اليه وان كان فى قلة أقمنا فى قومنا فلما اخرجوا مع قريش ورأوا قلة المسلمين وكثرة الكفار رجعوا للكفر وقالوا ذلك القول وقتلوا جميعا مع المشركين يوم بدر ولم يحضره منافق فى بدر مع النبى صلى الله عليه وسلم الا واحد وهو عبد الله بن أبى (ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم) أى ومن يعول على احسان الله ويثق بفضله ويسلم أمره الى الله فان الله حافظه وناصره لانه عزيز لا يغلبه شىء حكيم يوصل العذاب الى أعدائه والرحمة الى أوليائه (ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) أى ولو رأيت يا أشرف الخلق الكفرة حين يتوفاهم الملائكة فى بدر (يضربون وجوههم وأدبارهم و) يقولون لهم (ذوقوا عذاب الحريق) أى النار لانه كان مع الملائكة مقامع وكلما ضربوا بها التهبت النار منها فى الاجزاء وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا فظيعا لا يكاد يوصف (ذلك) العذاب (بما قدمت أيديكم) أى بسبب ما عملت أيديكم من الكفر والمعاصى

(وأن الله ليس بظلام للعبيد) أي والامر انه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من جهتهم (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم) أي عادة كفار قريش فيما فعلوه من الكفر وما فعل بهم من العذاب كعادة آل فرعون وقوم نوح وعاد واضرابهم من الكفر والعناد في ذلك (كفروا بآيات الله) أي انكروا الدلائل الالهية وهذه الجملة تفسير لدأب كفار قريش (فأخذهم الله بذنوبهم) أي بسبب ذنوبهم (ان الله قوي) بالاخذ (شديد العقاب) أي اذا عاقب (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) أي تعذيب الكفرة بما قدمت أيديهم بسبب ان الله لم يكن مغير النعمة أنعم بها عليهم كالعقل وازالة الموانع حتى يغيروا أحوالهم فاذا صرفوا تلك النعمة الى الفسق والكفر فقد غيروا نعمة الله تعالى على أنفسهم فاستحقوا تبديل النعم بالنقم والمنح بالمحن (وأن الله سميع عليم) أي وبسبب انه تعالى يسمع ويعلم جميع ما يأتون وما يذرون (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم) أي حتى يغيروا ما بأنفسهم تغييرا كائنا كتغيير الأمم الماضية (كذبوا بآيات ربهم) أي كذب آل فرعون ومن قبلهم بأنه تعالى رباهم وأنعم عليهم فأنكروا دلائل التربية والاحسان مع كثرتها وتواليها عليهم كما كذب أهل مكة ذلك (فأهلكناهم بذنوبهم) أي أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ كذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف (وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين) أي وكل من الفرق المكذبة كانوا ظالمين لانفسهم بالكفر والمعصية ولانبيائهم بالتكذيب ولسائر الناس بالايذاء والايحاش فالله تعالى انما أهلكهم بسبب ظلمهم اللهم اهلك الظالمين وطهر وجه الارض منهم فلا يقدر أحد على دفعهم الا أنت فادفع ياقهار ياجبار يامنتقم (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) أي ان شر الخلق في حكم الله وعلمه الذين أصروا على الكفر فهم لا يرجى منهم ايمان (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة) أي من مرات المعاهدة قال ابن عباس هم قريظة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عاهد يهود بني قريظة ان لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه فنقضوا العهد وأعانوا عليه مشركي مكة بالسلاح في يوم بدر ثم قالوا انسينا وأخطأنا ثم عاهدهم مرة ثانية فنقضوا العهد أيضا وساعدوا معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وانطلق كعب بن الاشرف الى مكة فحالفهم على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهم لا يتقون) عن نقض العهد (فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) أي ان تظفرن هؤلاء الكفار الذين ينقضون العهد في أثناء الحرب فافعل بهم فعلا من القتل والتعذيب يفرق بسببهم من خلفهم من أهل مكة واليمن أي اذا فعلت بقريظة العقوبة فرقت شمل قريش اذ يخافون منك ان تفعل بهم مثل ما فعلت بحلفائهم وهم قريظة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يفرقهم في ذلك الوقت تفريقا عنيفا موجبا للاضطراب (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) أي وان تعلمن من قوم من المعاهدين نقض عهد بامارات ظاهرة فاطرح اليهم عهدهم على طريق ظاهر مستو بأن تعلمهم قبل حربك اياهم انك قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء ولا تبادرهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك (ان الله لا يحب الخائنين) في العهود والحاصل ان ظهرت الخيانة بامارات ظاهرة من غير أمر مستفيض وجب على الامام ان ينبذ اليهم العهد ويعلمهم بالحرب وذلك كما في قريظة فانهم عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين الى مظاهرتهم عليه صلى الله عليه وسلم وأما اذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به

فلا حاجة للامام الى نبذ العهد واعلامهم بالحرب بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم باهل مكة فانهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعتوهم فى ذمة النبي صلى الله عليه وسلم وصل اليهم جيش النبي صلى الله عليه وسلم عمر الظهران وذلك على أربع فراسخ من مكة (ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا) قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم بالياء التحتية أى ولا يحسبن الذين كفروا من قريش أنفسهم فاتوا من عذابنا بهربهم يوم بدر وقرأ الباقون بالتاء الفوقانية على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم أى ولا تحسبن يا أشرف الخلق الذين كفروا والذين خلصوا منك فى بدر فائتين من عذابنا (انهم لا يعجزون) أى انهم بهذا الفرار لا يعجزون الله من الانتقام منهم اما بالقتل فى الدنيا واما بعذاب النار فى الآخرة وقرأ ابن عامر أنهم بفتح الهمزة على التعليل (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) قيل انه لما اتفق لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى قصة بدر انهم قصدوا الكفار بلا آلة أمرهم الله تعالى ان لا يعودوا لمثله فقال وأعدوا الخ أى هيئوا لحراب الكفار ما استطعتم من كل ما يتقوى به فى الحرب من كل ما هو آلة للجهاد ومن الخيل المربوط سواء كان من الفحول أو من الاناث وروى انه كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وأناث الخيل عند البيات والغارات (ترهبون به) أى بذلك الاعداد وقرئ تخزون (عدو الله وعدوكم) وهم كفار مكة (وآخرين من دونهم) أى من غير كفار مكة من الكفرة (لا تعلمونهم) على ما هم عليه من العداوة أى فان تكثير آلات الجهاد كما يرهب الاعداء الذين نعلم كونهم أعداء كذلك يرهب الاعداء الذى لا نعلم انهم أعداء سواء كانوا مسلمين أو كفارا (الله يعلمهم) لا غيره (وما تنفقوا من شئ) قل أو جل (فى سبيل الله) أى فى طاعة الله فى الجهاد وفى سائر وجوه الخيرات (يوف اليكم) أى لا يضيع الله فى الآخرة أجره ويعجل عوضه فى الدنيا (وأنتم لا تظلمون) أى لا تنقصون من الاجر (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) أى وان مال الكفار للصلح بوقوع الرهبة فى قلوبهم بمشاهدة ما بكم من الاستعداد فاقبله وقرأ أبو بكر عن عاصم للسلم بكسر السين وقرئ فاجنح بضم النون (وتوكل على الله) أى فوض الامر فيما عقدته معهم الى الله ليكون عونا لك على السلامة ولكى ينصرك عليهم اذا نقضوا العهد (انه) تعالى (هو السميع) لما يقولون فى خلواتهم من مقالات الخداع (العليم) بنياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه ويرد كيدهم فى نحرهم (وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله) أى وان يريدوا الكفار باظهار الصلح خديعتك لتكف عنهم فاعلم ان الله كافيك من شرورهم وناصرك عليهم (هو الذى أيدك بنصره) أى قواك بنصره فى سائر أيامك (وبالمؤمنين) من المهاجرين والانصار (وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) أى ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث الى قوم تكبرهم شديد حتى لو لطم رجل من قبيلة لطمة قاتل عنه قبيلته حتى يدركوا ثاره ثم انهم انقلبوا عن تلك الحالة حتى قاتل الرجل أخاه وأباه وابنه واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا وأيضا كانت الخصومة بين الاوس والخزرج شديدة والمحاربة دائمة ثم زالت الضغائن وحصلت الالفة فازالة تلك العداوة الشديدة وتبديلها بالمحبة القوية مما لا يقدر عليها الا الله تعالى وصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (انه) تعالى (عزيز) أى قاهر يقلب القلوب من العداوة الى الصداقة (حكيم) أى يفعل ما يفعله مطابقا للمصلحة (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) أى كفاك الله وكفى اتباعك ناصرا أو المعنى كفاك الله والمؤمنون وهذه الآية نزلت فى البيداء فى غزوة بدر قبل القتال فالمراد بالمؤمنين هنا أهل غزوة بدر وهم المهاجرون

والانصار وقيل نزلت في اسلام عمر بن الخطاب قال سعيد بن جبير أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر رضي الله عنه فنزلت هذه الآية فعلى هذا القول تكون الآية مكية كتبت في سورة مدنية بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال) أي بالغ في حثهم عليه (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) أي ان يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى يغلبوا مائتين (وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) وانما وجب هذا الحكم عند حصول الشروط منها ان يكون المؤمن شديد الاعضاء قويا جلدا ومنها ان يكون قوي القلب شديد البأس شجاعا غير جبان ومنها ان يكون غير متحرف الالقتال أو متحيزا الى فئة فعند حصول هذه الشروط وجب على الواحد ان يثبت للعشرة (بأنهم قوم لا يفقهون) متعلق بيغلبوا في الموضعين أي بسبب انهم قوم جهلة بالله تعالى وباليوم الآخر لا يقاتلون امتثالا بأمر الله تعالى واعلاء لكلمته وابتغاء لمرضاته وانما يقاتلون للحمية الجاهلية واثارة العدوان وهم يعتمدون على قوتهم والمسلمون يستعينون بربهم بالتضرع ومن كان كذلك كان النصر أليق به (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) في البدن أو في معرفة القتال لا في الدين (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله) أي بارادته وهذه الآية دلت على ان ذلك الشرط مفقود في حق هذه الجماعة فلم يثبت ذلك الحكم وعلى هذا التقدير لم يحصل النسخ البتة فقد أنكر أبو مسلم الاصفهاني النسخ (والله مع الصابرين) أي ان العشرين ان قدروا على مصابرة المائتين بقي ذلك الحكم وان لم يقدروا على مصابرتهم فالحكم المذكور هناك زائل وهذا يدل على صحة مذهب أبي مسلم (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض) أي ما ينبغي لنبي ان يكون له أسرى من الكفار حتى يقوى ويغلب بل اللائق قتلهم (تريدون) أيها المؤمنون (عرض الدنيا) أي متاع الدنيا الذي هو الفداء (والله يريد الآخرة) أي انما يرضى الله ما يفضي الى السعادات الاخروية المصونة عن الزوال (والله عزيز) يغلب أولياءه على أعدائه (حكيم) يعلم ما يليق بكل حال كما أمر بالاثخان ونهى عن أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بين أخذ الفداء وبين المن لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) أي لولا انه تعالى حكم في الازل بالعفو عن هذه الواقعة لاصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب شديد (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) أي قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم حال كونه حلالا مستلذا روي انهم أمسكوا عن الغنائم في بدر ولم يمدوا أيديهم اليها فنزلت هذه الآية (واتقوا الله) في مخالفة أمره ونهيه في المستقبل (ان الله غفور رحيم) في الحالة الماضية من استباحة الفداء قبل ورود الاذن من الله تعالى فيه (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الاسرى) قرأ أبو عمرو من الاسارى بضم الهمزة وفتح السين بعدها ألف وبالامالة أي من الذين اسرتموهم وأخذتم منهم الفداء (ان يعلم الله في قلوبكم خيرا) أي ايمانا وعزما على طاعة الله ورسوله في جميع التكاليف وتوبة عن الكفر وجميع المعاصي (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء (ويغفر لكم) ما سلف منكم قبل الايمان (والله غفور) لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه (رحيم) بأهل طاعته روي أن العباس كان أسيرا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس فكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لمن خرجوا من مكة الى بدر فلم تبلغه النوبة حتى أسر وأخذ ذلك العشرون منه فقال العباس كنت مسلما الا أنهم أكرهوني فقال صلى الله عليه وسلم ان يكن ما تذكره حقا فالله يجزيك فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا قال العباس

فكلمت رسول الله أن يرد ذلك الذهب علي فقال صلى الله عليه وسلم أما شيء خرجت به تستعين به علينا فلا قال العباس وكلفني الرسول فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية وفداء نوفل بن الحرث فقال العباس يا محمد تركتني أتكفف قريشا ما بقيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أين الذهب الذي دفعته الى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها ما أدري ما يصيبني في وجهي هذا فان حدث بي حادث فهذا المال لك ولعبد الله ولعبيد الله والفضل وقثم فقال العباس وما يدريك يا ابن أخي قال صلى الله عليه وسلم أخبرني به ربي قال العباس أنا أشهد أنك صادق أشهد أن لا اله الا الله وانك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد الا الله ولقد دفعته اليها في سواد الليل ولقد كنت مرتابا في أمرك فأما اذ أخبرتني بذلك فلا ريب وأمر ابني أخيه عقيلا ونوفل بن الحرث فأسلما قال العباس فأبدلني الله خيرا مما أخذ مني ولي الآن عشرون عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألفا وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربي وروي أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مال البحرين ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ منه ما قدر على حمله وكان يقول هذا خير مما أخذ مني وأنا أرجو المغفرة (وان يريدوا) أي الأسرى (خيانتك) أي بنقض العهد فاعلم أنه سيمكنك منهم فانه صلى الله عليه وسلم كلما أطلقهم من الأسر عهد معهم أن لا يعودوا الى محاربته صلى الله عليه وسلم والى معاهدة المشركين بالعون عليه صلى الله عليه وسلم (فقد خانوا الله من قبل) أي من قبل هذا بما أقدموا عليه من محاربة الرسول يوم بدر (فأمكن منهم) أي أقدر المؤمنين عليهم قتلا وأسرا في بدر (والله عليم) أي ببواطنهم (حكيم) يفعل كل ما يفعله حسب ما تقتضيه حكمته البالغة (ان الذين آمنوا) بمحمد والقرآن (وهاجروا) من مكة الى المدينة حبا لله تعالى ولرسوله (وجاهدوا بأموالهم) بأن صرفوها الى السلاح وأنفقوها على المحاويج (وأنفسهم) بمباشرة القتال وبالخوض في المهالك (في سبيل الله) أي في طاعة الله (والذين آووا) أي أنزلوا المهاجرين منازلهم (ونصروا) لهم على أعدائهم يوم بدر (أولئك) أي الموصوفون بما ذكر (بعضهم أولياء بعض) أي يكونون يدا واحدة على الأعداء ويكون حب كل واحد للآخر جاريا مجرى حبه لنفسه (والذين آمنوا) بمحمد والقرآن (ولم يهاجروا) من مكة الى المدينة (ما لكم من ولايتهم) أي من تعظيمهم (من شيء حتى يهاجروا) فلو هاجروا لحصل الاكرام والاجلال وقرأ حمزة من ولايتهم بكسر الواو والباقون بالفتح (وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) أي ان قطع التعظيم بين تلك الطائفة ليس كما في حق الكفار بل هؤلاء لو استعانوا كم في الدين على المشركين فواجب عليكم أن تعاونوهم عليهم الا على قوم منهم بينكم معاهدة فانه لا يجوز لكم نقض عهدهم بنصرهم عليهم اذ الميثاق مانع من ذلك (والله بما تعملون بصير) فلا تخالفوا أمره كي لا يحل بكم عقابه (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) أي في النصرة فان كفار قريش كانوا في غاية العداوة لليهود فلما ظهرت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم تعاونوا على ايذائه ومحاربته والمشركون واليهود والنصارى لما اشتركوا في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم صارت هذه الجهة سببا لانضمام بعضهم الى بعض وقرب بعضهم من بعض وتلك العداوة لمحض الحسد لا لأجل الدين لان كل واحد منهم كان في نهاية الانكار لدين صاحبه (الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير) أي ان لم تفعلوا ما أمرتكم به من التواصل بين المسلمين ومن قطع المحبة بينهم وبين الكفار تحصل فتنة في الارض ومفسدة عظيمة فان

المسلمين لو اختلطوا بالكفار فى زمان ضعف المسلمين وقلة عددهم وزمان قوة الكفار وكثرة عددهم فربما صارت تلك المخالطة سببا لالتحاق المسلم بالكفار وان المسلمين لو كانوا متفرقين لم يظهر منهم جمع عظيم فيصير ذلك سببا لجراءة الكفار عليهم (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) فالله تعالى ذكرهم أولا لتبيين حكمهم وهو اكرام بعضهم بعضا ثم ذكرهم ههنا البيان تعظيم شأنهم وعلو درجتهم وأثنى عليهم من ثلاثة أوجه وهى وصفهم بكونهم محقين فى طريق الدين لان من لم يكن محقا فى دينه لم يفارق الاهل والوطن ولم يبذل النفس والمال ولم يكن فى هذه الاحوال من المتسارعين (لهم مغفرة) تامة عن جميع الذنوب والتبعات (ورزق كريم) ثواب حسن فى الجنة (والذين آمنوا من بعد) أى بعد الهجرة الاولى وهؤلاء هم التابعون باحسان (وهاجروا) من مكة الى المدينة بعد المهاجرين الاولين (وجاهدوا معكم) فى بعض مغازيكم (فأولئك منكم) أى من جملتكم أيها المهاجرون والانصار فى السر والعلانية (وأولوا الارحام) أى ذوو القرابات (بعضهم أولى ببعض) آخر منهم فى التوارث من الاجانب (فى كتاب الله) أى فى حكم الله الذى بينه فى كتابه بالسهام المذكورة فى سورة النساء (ان الله بكل شئ عليم) فالعالم بجميع المعلومات لا يحكم الا بالصواب

﴿سورة التوبة مدنية وقد قيل الا الآيتين آخرها فانهما مكيتان وآياتها مائة وثلاثون وعدد كلماتها ألفان وأربعمائة وسبع وتسعون وحروفها عشرة آلاف وثمانمائة وسبعة وثمانون والصحيح ان التسمية لم تكتب لان جبريل عليه السلام ما نزل بها فى هذه السورة قاله القشيرى﴾

(براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) أى هذه براءة من جهة الله تعالى ورسوله واصلة الى الذين عاهدتم من المشركين فان الله قد أذن فى معاهدة المشركين فاتفق المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاهدوهم ثم ان المشركين نقضوا العهد فأوجب الله النبذ اليهم فخوطب المسلمون بما يحذرهم من ذلك وقيل اعلموا أن الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم من المشركين (فسيحوا فى الارض أربعة أشهر) أى سيروا أيها المشركون كيف شئتم آمنين من القتل والقتال فى هذه المدة من يوم النحر روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يحج سنة تسع فقيل له ان المشركين يحضرون ويطوفون بالبيت عراة فقال لا احب أن أحج حتى لا يكون ذلك فبعث أبا بكر تلك السنة أميرا على الموسم ليقيم للناس الحج وبعث معه أربعين آية من صدر براءة ليقرأها على أهل الموسم ثم بعث بعده عليا على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة ان قد برئت ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فسار أبو بكر أميرا على الحاج وعلى ابن أبى طالب يؤذن ببراءة فلما كان قبل يوم التروية بيوم قام أبو بكر رضى الله عنه فخطب الناس وحدثهم عن مناسكهم وأقام للناس الحج والعرب فى تلك السنة على معاهدهم التى كانوا عليها فى الجاهلية من أمر الحج حتى اذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب رضى الله عنه فأذن فى الناس بالذى أمر به وقرأ عليهم أول سورة براءة وقال على بعثت بأربع لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد فهو الى مدته ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ولا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ولا يجتمع المشركون والمسلمون

بعد

بعد عامهم هذا فى الحج فقال المشركون لعلى عند ذلك أبلغ ابن عمك انا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وانه ليس بيننا وبينه عهد الا طعن بالرماح وضرب بالسيوف ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع (واعلموا أنكم غير معجزى الله) أى واعلموا يا معشر الكفار ان هذا الامهال ليس لعجز بل للطف ليتوب من تاب أى اعلموا انى أمهلتكم وأطلقت لكم فافعلوا كل ما أمكنكم فعله من اعداد الآلات وتحصيل الاسباب فانكم لا تعجزون الله بل الله يعجزكم (وأن الله مخزى الكافرين) أى مذلهم فى الدنيا بالقتل والاسر وبالآخرة بالعذاب (وأذان من الله ورسوله الى الناس) أى وهذا اعلام صادر من الله ورسوله واصل الى الناس (يوم الحج الاكبر) وهو يوم العيد لان فيه تمام معظم أفعال الحج ولان الاعلام كان فيه (أن الله برىء من المشركين) الناقضين للعهد (ورسوله) بالرفع باتفاق السبعة فهو معطوف على الضمير المستتر فى برىء (فان تبتم) من الشرك (فهو خير لكم) أى فالتوب خير لكم فى الدارين لا شر (وان توليتم) أى أعرضتم عن المتاب من الشرك (فاعلموا) يامعشر المشركين (أنكم غير معجزى الله) أى غير فائتين من عذاب الله فان الله قادر على انزال أشد العذاب بهم (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) أى اخبرهم بالقتل بعد أربعة أشهر فالبشارة على سبيل الاستهزاء كما يقال اكرامهم الشتم وتحيتهم الضرب (الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيأ) من شروط الميثاق ولم يضروكم قط وقرىء بالضاد المعجمة أى لم ينقضوا عهدكم شيأ من النقض (ولم يظاهروا) أى لم يعاونوا (عليكم أحدا) من أعدائكم (فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم) الى وقت أجلهم تسعة أشهر والمعنى لا تمهلوا الناكثين للعهد فوق أربعة أشهر لكن الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين فى المسارعة الى قتالهم بل أتموا اليهم عهدهم ولا تجعلوا الوافين كالغادرين وهم بنو ضمرة حى من كنانة أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم باتمام عهدهم الى مدتهم وكان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر فانهم ماغدروا من هذين الوجهين (ان الله يحب المتقين) عن نقض العهد فان مراعاة حقوق العهد من باب التقوى وان التسوية بين الوافى والغادر منافية لذلك وان كان المعاهد مشركا (فاذا انسلخ الاشهر الحرم) أى فاذا خرج الاشهر التى حرم الله القتل والقتال فيها وهى من يوم النحر الى العاشر من ربيع الآخر (فاقتلوا المشركين) الناكثين خاصة (حيث وجدتموهم) أى فى حل أو حرم أو فى شهر حرام أو غيره (وخذوهم) أى اوسروهم (واحصروهم) أى امنعوهم من اتيان المسجد الحرام ومن التقلب فى البلاد (واقعدوا لهم) أى لاجلهم خاصة (كل مرصد) أى فى كل ممر يسلكونه لئلا ينبسطوا فى البلاد (فان تابوا) من الشرك وآمنوا بالله (وأقاموا الصلاة) أى أقروا بالصلوات الخمس (وآتوا الزكاة) أى أقروا باداء الزكاة (فخلوا سبيلهم) أى فاتركوهم ولا تتعرضوا لهم بشىء من ماذكر (ان الله غفور رحيم) لمن تاب من الكفر والغدر (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) أى وان سألك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم ان تأمنه بعد انقضاء مدة السياحة فأمنه حتى يسمع قراءتك لكلام الله ويطلع على حقيقة ماتدعوا اليه ونقل عن ابن عباس انه قال ان رجلا من المشركين قال لعلى بن أبى طالب ان أردنا أن نأتى الرسول بعد انقضاء هذا الاجل لسماع كلام الله أو لحاجة أخرى فهل نقتل فقال على لا فان الله تعالى قال وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله (ثم ابلغه مأمنه) أى ثم أوصله الى ديار قومه التى يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم ثم بعد ذلك يجوز قتالهم وقتلهم (ذلك) أى اعطاء الامان (بأنهم قوم لا يعلمون) أى بسبب انهم قوم لا يفقهون ما الايمان وما حقيقة ما تدعوهم

اليه فلابدمن اعطاء الامان حتى يفهموا الحق ولا يبقى معهم معذرة أصلا (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) أى لا ينبغى أن يبقى للمشركين عهد عند الله وعند رسوله وهم ينقضون العهد (الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) أى لكن الذين عاهدتم من المشركين عند قرب أرض الحرم يوم الحديبية وهم المستثنون من قبل هذا الاستثناء فقد استثنوا فى قوله تعالى سابقا الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيأ الخ وهم بنو كنانة و بنو ضمرة فتربصوا أمرهم ولا تقتلوهم (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) أى فأى زمان استقاموا لكم على العهد فاستقيموا لهم على مثله أو المعنى فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم (ان الله يحب المتقين) عن نقض العهد وقد استقام صلى الله عليه وسلم على عهدهم حتى نقضوه باعانتهم بنى بكر وهم كنانة حلفاؤهم على خزاعة حلفائه صلى الله عليه وسلم روى انه عدت بنى بكر على بنى خزاعة فى حال غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاونتهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشده

لاهم انى ناشد محمدا * حلف أبينا وأبيك الأتلدا
ان قريشا اخلفوك الموعدا * ونقضوا ذمامك المؤكدا
هم بيتونا بالحطيم هجدا * وقتلونا ركعا وسجدا

فقال صلى الله عليه وسلم لانصرت ان لم أنصركم (كيف وان يظهروا عليكم) أى وحالهم انهم ان يقدروا عليكم (لا يرقبوا فيكم) أى لا يحفظوا فيكم (الا) أى قرابة (ولا ذمة) أى عهدا والمعنى كيف لا تقتلوهم وهم ان يغلبوكم لا يحفظوا فى شأنكم قرابة ولا ضمانا بل يؤذوكم ما استطاعوا (يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم) أى تنكر قلوبهم ما يفيد كلامهم أى فانهم يقولون بألسنتهم كلاما حلوا طيبا والذى فى قلوبهم بخلاف ذلك فانهم لا يضمرون الا الشر والايذاء ان قدروا عليه (وأكثرهم فاسقون) أى ناقضون للعهد مذمومون عند جميع الناس وفى جميع الاديان (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) أى تركوا آيات الله الآمرة بالاستقامة فى كل أمر وأخذوا بدلها شيأ يسيرا من الدنيا لاجل تحصيل الشهوات وذلك ان أباسفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم وحملتهم تلك الاكلة على نقض العهد فنقضوا العهد الذى كان بينهم بسبب تلك الاكلة (فصدوا عن سبيله) أى عن دينه أو عن سبيل البيت الحرام حيث كانوا يصدون الحجاج والعمار عنه (انهم ساء ما كانوا يعملون) أى ساء هم الذى كانوا يعملونه ما مضى من صدهم عن سبيل الله وما معه (لا يرقبون) أى لا يحفظون (فى مؤمن الا) أى قرابة (ولا ذمة) كرر ذلك مع ابدال الضمير بمؤمن لان الاول وقع جوابا لقوله تعالى وان يظهروا والثانى وقع خبرا عن تقبيح حالهم أو هذا خاص بالذين اشتروا والذى جمعهم أبوسفيان وأطعمهم وأشباههم من اليهود وغيرهم (وأولئك هم المعتدون) أى المجاوزون فى الظلم والشرارة (فان تابوا) من مساوى أعمالهم (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) أى أقروا بحكمهما وعزموا على اقامتهما (فاخوانكم) أى فهم اخوانكم (فى الدين) أى لهم ما لكم وعليهم ما عليكم فعاملوهم معاملة الاخوان (ونفصل الآيات لقوم يعلمون) أى نبين الآيات لقوم يعلمون ما فيها من الاحكام (وان نكثوا أيمانهم) أى عهودهم التى بينكم وبينهم (من بعد عهدهم) أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحدا من أعدائكم (وطعنوا فى دينكم) أى عابوا دينكم بالتكذيب وتقبيح الاحكام (فقاتلوا أئمة الكفر) أى قاتلوا الكفار بأسرهم فانهم صاروا بذلك ذوى تقدم فى الكفر احقاء بالقتل والقتال (انهم لا أيمان لهم) أى

انهم

انهم لاعهود لهم على الحقيقة لانهم لايعدون نقضها محذورا وهم لما لم يفوا بها صارت ايمانهم كأنها ليست بايمان وان أجروها على ألسنتهم وقرأ ابن عامر لا ايمان لهم بكسر الهمزة أى لا تعطوهم أمانا بعد ذلك أبدا فيكون الايمان مصدرا بمعنى اعطاء الامان فهو ضد الاخافة (لعلهم ينتهون) أى ليكن غرضكم فى مقاتلتهم سببا فى انتهائهم عما هم عليه من الكفر والطعن فى دينكم والمعاونة عليكم (ألا) أى هلا (تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) بعد عهد الحديبية باعانة بنى بكر على خزاعة (وهموا باخراج الرسول) أى باخراجه من مكة لكن لم يخرجوه بل خرج باختياره باذن الله فى الهجرة أو من المدينة لقصد قتله (وهم بدؤكم أول مرة) بالقتال يوم بدر لانهم حين سلم العير قالوا لا ننصرف حتى نستأصل محمدا ومن معه أو بدؤا بقتال خزاعة حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم لان اعانة بنى بكر عليهم بالسلاح قتال معهم فالاعانة على القتال تسمى قتالا (أتخشونهم) أى أتخافون أيها المؤمنون ان ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا قتالهم (فالله أحق أن تخشوه) فى ترك أمره (ان كنتم مؤمنين) ودلت هذه الآية على ان المؤمن ينبغى ان يخشى ربه وأن لا يخشى أحدا سواه (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) بالقتل تارة والاسر أخرى واغتنام الاموال ثالثا (ويخزهم) حيث شاهدوا أنفسهم مقهورين فى أيدى المؤمنين ذليلين (وينصركم عليهم) أى يجعلكم جميعا غالبين عليهم أجمعين فانكم تنتفعون بهذا النصر (ويشف صدور قوم مؤمنين) ممن لم يشهد القتال وهم خزاعة بطون من اليمن وسبا قدموا مكة فاسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرا فبعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون اليه فقال ابشروا فان الفرج قريب وكان شفاء صدورهم من زحمة الانتظار فانه الموت الاحمر (ويذهب غيظ قلوبهم) من بنى بكر فان من طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه كان سروره أعظم (ويتوب الله على من يشاء) من بعض أهل مكة كابى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو فهم أسلموا يوم فتح مكة وحسن اسلامهم (والله عليم) بكل ما يفعل فى ملكه (حكيم) أى مصيب فى أفعاله وأحكامه (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أى بل أحسبتم ان يترككم الله بدون تكليفكم بالقتال الذى سئمتموه والحال انه لم يصدر الجهاد عنكم خاليا عن النفاق والرياء والتودد الى الكفار وابطال ما يخالف طريقة الدين والمقصود من هذه الآية بيان ان المكلف فى هذه الواقعة لا يتخلص عن العتاب الا عند حصول أمرين الاول ان يصدر الجهاد عنهم والثانى ان يأتى بالجهاد مع الاخلاص فان المجاهد قد يجاهد وباطنه خلاف ظاهره وهو الذى يتخذ الوليجة من دون الله ورسوله والمؤمنين المخلصين أى وهو الذى يطلع الكافر على الاسرار الخفية والمقصود بيان انه ليس الغرض من ايجاب القتال نفس القتال فقط بل الغرض ان يؤتى به لانقياد أمر الله تعالى وحكمه ليظهر به بذل النفس والمال فى طلب رضوان تعالى فحينئذ يحصل به الانتفاع (والله خبير بما تعملون) من موالاة المشركين وغيرها فيجازيكم عليه فيجب على الانسان ان يبالغ فى أمر النية ورعاية القلب (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) أى ما صح للمشركين ان يعمروا المسجد الحرام بدخوله والقعود فيه وخدمته وقرأ ابن كثير وأبو عمرو مسجد الله على الواحد والباقون مساجد على الجمع وانما جمع المسجد الحرام لانه قبلة المساجد كلها وامامها ثم شهادتهم على أنفسهم بالكفر انهم أقروا بعبادة الاوثان وتكذيب القرآن وانكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وان أبوا ان يقولوا نحن كفار (أولئك) الذين يدعون عمارة المسجد الحرام وما يضاهيها من أعمال البر مع ما بهم من الكفر (حبطت

أعمالهم) التي يفتخرون بها عما قارنها من الكفر فصارت هباء منثورا (وفي النار هم خالدون) لكفرهم قال ابن عباس رضي الله عنهما لما أسر العباس يوم بدر أقبل عليه المسلمون فعيروه بكفره بالله وقطيعة الرحم وأغلظ علي عليه القول فقال العباس تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا فقال له علي ألكم محاسن قال نعم نحن أفضل منكم انا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة أي نخدمها ونسقي الحجيج ونفك العاني أي الاسير فنزلت هذه الآية (انما يعمر مساجد الله) أي انما يصح ان يعمر المساجد عمارة يعتد بها (من آمن بالله) لان المساجد موضع يعبدون الله فيه فمن لم يكن مؤمنا بالله لا يبني موضعا يعبد الله فيه (واليوم الآخر) لان الاشتغال بعبادة الله لا تفيد الا في القيامة فمن أنكر القيامة لم يعبد الله ومن لم يعبد الله لم يبن بناء لعبادة الله تعالى (وأقام الصلاة) فان المقصود الاعظم من بناء المساجد اقامة الصلوات (وآتى الزكاة) وانما اعتبر اقامة الصلاة وايتاء الزكاة في عمارة المسجد لان الانسان اذا كان مقيما للصلاة فانه يحضر في المسجد فتحصل عمارة المسجد بذلك المسجد واذا كان مؤتيا للزكاة فانه يحضر في المسجد طوائف الفقراء والمساكين لطلب أخذ الزكاة فتحصل عمارة المسجد بذلك الحضور (ولم يخش الا الله) في باب الدين بأن لا يختار على رضا الله تعالى رضا غيره (فعسى أولئك) المنعوتون بتلك النعوت الجميلة (أن يكونوا من المهتدين) الى مطالبهم من الجنة وما فيها وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال من ألف المسجد ألفه الله تعالى وعنه صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالايمان (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله) أي في طاعة الله يوم بدر أي أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام في الفضيلة وعلو الدرجة كمن آمن بالله الخ ويقوي هذا التأويل قراءة عبد الله بن الزبير سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام قال ابن عباس ان عليا لما أغلظ الكلام على العباس قال العباس ان كنتم سبقتمونا بالاسلام والهجرة والجهاد فلقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج فنزلت هذه الآية (لا يستوون) أي الفريقان (عند الله) في الفضل (والله لا يهدي القوم الظالمين) لانفسهم فانهم خلقوا للايمان وهم رضوا بالكفر (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) أي الذين جمعوا بين هذه الصفات الثلاثة أعلى رتبة وأكثر كرامة عند الله ممن لم يجمع بينها (وأولئك) المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة (هم الفائزون) بسعادة الدنيا والآخرة (يبشرهم) أي هؤلاء المؤمنين المهاجرين المجاهدين (ربهم برحمة منه ورضوان) أي بمنفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم من قبل الله تعالى وذلك هو حد الثواب (وجنات لهم فيها نعيم) أي منافع خالصة عن المكدرات (مقيم) أي دائمة غير منقطعة (خالدين فيها) أي الجنات (أبدا) أي لا يخرجون منها (ان الله عنده أجر عظيم) لما وصف الله المؤمنين بثلاث صفات الايمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث وبدأ بالرحمة التي هي النجاة من النيران في مقابلة الايمان وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الاحسان في مقابلة ترك الاوطان ثم ثلث بالجنات التي هي المنافع العظيمة في مقابلة الجهاد الذي فيه بذل الانفس والاموال وانما خصوا بالاجر العظيم لان ايمانهم أعظم الايمان (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء) أي بطانة تفشون اليهم أسراركم (ان استحبوا الكفر) أي اختاروه (على الايمان ومن يتولهم منكم) في الدين (فأولئك) المتولون (هم الظالمون) أي فهو مشرك مثلهم لانه رضي بشركهم والرضا بالكفر كفر كما ان الرضا بالفسق فسق قيل

ان

ان الله تعالى لما أمر المؤمنين بالتبرى عن المشركين قالوا كيف تمكن المقاطعة التامة بين الرجل وابنه وأمه وأخيه فذكر الله تعالى ان الانقطاع عن الآباء والاولاد والاخوان واجب بسبب الكفر (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) أى أهلكم الادنون الذين تعاشرونهم وقرأ أبو بكر عن عاصم وعشيراتكم بالجمع (وأموال اقترفتموها) أى أكتسبتموها (وتجارة) أى أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح (تخشون كسادها) أى عدم رواجها (ومساكن ترضونها) أى منازل تعجبكم الاقامة فيها (أحب اليكم من الله ورسوله) بالحب الاختيارى (وجهاد فى سبيله) أى طاعته (فتربصوا) نزلت هذه الآية لما قال جماعة من المؤمنين يارسول الله كيف يمكن البراءة منهم بالكلية وان هذه البراءة توجب انقطاعنا عن آبائنا واخواننا وعشيرتنا وذهاب تجارتنا وهلاك أموالنا وخراب ديارنا فبين الله تعالى انه يجب تحمل جميع هذه المضار الدنيوية ليبقى الدين سليما وذكر انه ان كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة فى سبيل الله فتربصوا عما تحبون (حتى يأتى الله بأمره) وهى عقوبة عاجلة أو آجلة (والله لا يهدى القوم الفاسقين) أى الخارجين عن طاعته الى معصيته (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة) وهى مشاهد الحروب كوقعات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة (ويوم حنين) أى واذكروا يوم قتالكم هوازن فى حنين فهوازن قبيلة حليمة السعدية وحنين واد بينه وبين مكة ثمانية عشر ميلا وذلك لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وقد بقيت أيام من شهر رمضان خرج فى شوال فى تلك السنة وهو سنة ثمان متوجها الى حنين لقتال هوازن وثقيف (اذ أعجبتكم كثرتكم) وهم اثنا عشر ألفا عشرة من المهاجرين والانصار الذين فتحوا مكة وألفان من الطلقاء وهم الاسراء الذين أخذوا يوم فتح مكة وأطلقوا وهم أسلموا بعد فتحها فى هذه المدة اليسيرة وبنو هوازن وثقيف أربعة آلاف ومعهم أمداد سائر العرب فلما التقوا قال رجل من المسلمين اسمه سلمة بن سلامة الانصارى لن نغلب اليوم من قلة أى من أجلها افتخارا بكثرتهم أى نحن كثيرون ولا نغلب فأحزنت هذه الكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم (فلم تغن عنكم شيأ) أى فلم تعطكم تلك الكثرة ما تدفعون به حاجتكم شيأ من الدفع أى فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين (وضاقت عليكم الارض بما رحبت) أى انكم لشدة الخوف ضاقت عليكم الارض فلم تجدوا فيها موضعا يصلح لفراركم عن عدوكم (ثم وليتم مدبرين) أى منهزمين من الله وقال البراء بن عازب كانت هوازن رماة فلما حملنا عليهم انكشفوا وأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام وانكشف المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق معه صلى الله عليه وسلم الا عمه العباس وهو آخذ بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن الحرث وهو آخذ بركابه وهو صلى الله عليه وسلم يركض بغلته الشهباء نحو الكفار لا يبالى وهو يقول أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب ثم قال للعباس ناد المهاجرين والانصار وكان العباس رجلا صيتا فجعل ينادى يا عباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة فجاء المسلمون حين سمعوا صوته عنقا واحدا وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده كفا من الحصى فرماهم بها وقال شاهت الوجوه فمازال أمرهم مدبرا وحدهم كليلا حتى هزمهم الله تعالى ولم يبق منهم يومئذ أحد الا وقد امتلأت عيناه من ذلك التراب فذلك قوله تعالى (ثم أنزل الله سكينته) أى رحمته التى يحصل بها سكون وثبات وأمن (على رسوله وعلى المؤمنين) واعلم انه لما شق الاعراض عن مخالطة الآباء والابناء والاخوان والازواج وعن الاموال والمساكين على القلوب مشقة عظيمة ذكر الله تعالى ما يدل على ان من ترك الدنيا لاجل الدين فانه

يوصله الى مطلوبه من الدنيا أيضا وضرب الله تعالى لهذا مثلا وذلك ان عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في واقعة حنين كانوا في غاية الكثرة والقوة فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين ثم في حال الانهزام لما تضرعوا الى الله قواهم به حتى هزموا عسكر الكفار وذلك يدل على ان الانسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا أتاه الدين والدنيا على أحسن الوجوه فكان ذكر هذا تسلية لأولئك الذين أمرهم الله بمقاطعة الآباء والأبناء والاموال والمساكن لاجل مصلحة الدين وعدا لهم على سبيل الرمز بأنهم ان فعلوا ذلك فالله تعالى يوصلهم الى أقاربهم وأموالهم على أحسن الوجوه (وأنزل) من السماء (جنودا لم تروها) أي بأبصاركم وهم الملائكة عليهم البياض على خيول بلق لتقوية قلوب المؤمنين بالقاء الخواطر الحسنة في قلوبهم والقاء الرعب في قلوب المشركين (وعذب الذين كفروا) بالقتل والاسر وهم قوم مالك بن عوف الدهماني وقوم كنانة بن عبد ياليل الثقفي (وذلك) التعذيب (جزاء الكافرين) في الدنيا لكفرهم (ثم يتوب الله من بعد ذلك) أي ماجرى عليهم من الخذلان (على من يشاء) ان يتوب عليه منهم أي يوفقه للاسلام (والله غفور) لمن تاب (رحيم) لمن آمن وعمل صالحا روى ان ناسا منهم جاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعوه على الاسلام وقالوا يارسول الله أنت خير الناس وابر الناس وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا فقال صلى الله عليه وسلم ان عندي ماترون ان خير القول أصدقه اختاروا اماذراريكم ونساؤكم واما أموالكم قالوا ما كنا نعدل بالاحساب شيأ وهي مفاخر آبائه من الذراري والنساء فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان هؤلاء جاؤنا مسلمين وانا خيرناهم بين الذراري والاموال فلم يعدلوا بالاحساب شيأ فمن كان بيده أسير وطابت نفسه ان يرده فشأنه أي فيلزم شأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيأ فنعطيه مكانه قالوا قد رضينا وسلمنا فقال صلى الله عليه وسلم انا لا ندري لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك الينا فرفعت اليه العرفاء انهم قد رضوا ولم تقع غنيمة أعظم من غنيمتهم فقد كان فيها من الابل اثنا عشر ألفا ومن الغنم مالا يحصى عددا ومن الاسرى ستة آلاف من نسائهم وصبيانهم وكان فيها غير ذلك (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) أي ذو نجس لان معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس (فلا يقربوا المسجد الحرام) أي جميع الحرم (بعد عامهم هذا) وهي السنة التي حصل فيها النداء بالبراءة من المشركين وهي السنة التاسعة من الهجرة ولما امتنع المشركون من دخول الحرم وكانوا يتجرون ويأتون مكة بالطعام وكانت معائش أهل مكة من التجارات خافوا الفقر وضيق العيش وذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله تعالى قوله (وان خفتم عيلة) أي فقرا بسبب منع الكفار (فسوف يغنيكم الله من فضله) أي عطائه من وجه آخر (ان شاء) فأرسل الله تعالى السماء عليهم مدرارا أغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم وأسلم أهل جدة وحنين وصنعاء وتبالة وجرش فحملوا الطعام الى مكة وكفاهم الله الحاجة عما كانوا يخافون الى مبايعة الكفار فأغناهم بالفيء والجزية (ان الله عليم) بأحوالكم وبمصالحكم (حكيم) فلا يعطي ولا يمنع الا عن حكمة وصواب ولما فرغ من الكلام على مشركي العرب بقوله تعالى براءة من الله الى هنا أخذ يتكلم على أهل الكتابين فقال (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) فاليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه والنصارى يعتقدون الحلول وهم يعتقدون بعثة الارواح دون الاجساد ويعتقدون أن أهل الجنة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون وهم يكذبون أكثر الانبياء (ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله) أي لا يعملون بما في التوراة والانجيل بل حرفوهما وأتوا بأحكام كثيرة

من قبل أنفسهم (ولا يدينون دين الحق) أى لا يعتقدون صحة دين الاسلام الذى هو الدين الحق (من الذين أوتوا الكتاب) التوراة والانجيل وهم اليهود والنصارى قال مجاهد نزلت هذه الآية حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك (حتى يعطوا الجزية) أى حتى يقبلوا ان يعطوا ما يعطى المعاهد على عهده (عن يد) أى عن غنى فلا تجب الجزية على الفقير العاجز أو عن انعام عليهم لان ترك أرواحهم عليهم بقبول الجزية منهم نعمة عظيمة (وهم صاغرون) أى أذلاء منقادون لحكم الاسلام (وقالت اليهود) سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف أو فنحاص بن عاز وراء (عزير ابن الله) وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الانبياء بعد موسى عليه السلام فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله عنهم التابوت الذى فيه التوراة وأنساهم التوراة ومحاها من قلوبهم فتضرع عزير الى الله تعالى ودعاه أن يرد اليه التوراة فبينما هو يصلى مبتهلا الى الله تعالى اذ نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت التوراة اليه فأعلم قومه وقال ياقوم قد آتانى الله التوراة وردها على فتعلموا منه عن ظهر لسانه ثم ان التابوت نزل بعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان يعلمهم عزير على ما فى التابوت فوجدوه مثله فقالوا ما جمع الله التوراة فى صدر عزير وهو غلام الا لانه ابنه (وقالت النصارى المسيح ابن الله) روى ان أتباع عيسى كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى عليه السلام احدى وثمانين سنة يصلون الى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع حرب بينهم وبين اليهود وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال بولص لليهود ان كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون ان دخلنا النار ودخلوا الجنة فانى سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ثم انه أتى الى النصارى فقالوا له من أنت قال أنا عدوكم بولص قد نوديت من السماء انه ليست لك توبة حتى تتنصر وقد تبت فأدخله النصارى الكنيسة ومكث سنة فى بيت فيها ولم يخرج منه حتى تعلم الانجيل ثم خرج وقال قد نوديت ان الله قد قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ثم انه عهد الى أربعة رجال اسم واحد نسطور والآخر يعقوب والآخر ملكان والآخر من أهل الروم فعلم نسطور ان عيسى ومريم والله آلهة ثلاثة وعلم يعقوب ان عيسى ليس بانسان وانه ابن الله وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال عيسى وعلم رجلا آخر من الروم وعلمه اللاهوت والناسوت وقال ما كان عيسى انسانا ولا جسما ولكنه الله ثم دعا كل واحد منهم فى الخلوة وقال له أنت خليفتى فادع الناس لما علمتك وأمره ان يذهب الى ناحية من البلاد ولقد رأيت عيسى فى المنام ورضى عنى وانى غدا أذبح نفسى لمرضاة عيسى ثم دخل المذبح فذبح نفسه فتفرقوا ودعوا الناس الى مذاهبهم واختلفوا ووقع القتال فكان ذلك سبب قولهم المسيح ابن الله (ذلك) أى ما صدر عنهم (قولهم بأفواههم) أى مجردا عن برهان وهو فارغ من معنى معتبر (يضاهئون) أى يشبهون فى الشناعة (قول الذين كفروا من قبل) أى من قبلهم أى يشابه قول اليهود والنصارى قول المشركين الملائكة بنات الله وقول أهل مكة اللات والعزى ومناة بنات الله كما قالت اليهود عزير ابن الله وكذلك قال بعض النصارى المسيح ابن الله وقال بعضهم شريكه وقال بعضهم هو الله وقال بعضهم ثالث ثلاثة (قاتلهم الله) دعاء عليهم بالاهلاك أو تعجب من شناعة قولهم (أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله ولدا وهذا التعجب راجع الى الخلق لان الله تعالى لا يتعجب من شىء (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) أى اتخذ اليهود

علماءهم من ولد هارون واتخذ النصارى علماءهم من أصحاب الصوامع أربابا من دون الله بان أطاعوهم فى تحريم ما أحله الله تعالى وتحليل ما حرمه أو بالسجود لهم (والمسيح ابن مريم) أى اتخذه النصارى ربا معبودا بعدما قالوا انه ابن الله (وما أمروا) أى والحال أن هؤلاء الكفار ما أمروا فى التوراة والانجيل (الا ليعبدوا الها واحدا) عظيم الشان هو الله تعالى (لا اله الا هو) صفة ثانية لالها (سبحانه عما يشركون) أى تنزه الله تعالى عن ان يكون له شريك فى التكليف وفى كونه معبودا ومسجودا وفى وجوب نهاية التعظيم والاجلال (يريدون) أى رؤساء اليهود والنصارى (أن يطفئوا نور الله) أى دلائل الله المنيرة الدالة على وحدانيته وتنزهه عن الشركاء والاولاد أى يريدون أن يردوا القرآن فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والاولاد ومن الشرائع من أمر الحل والحرمة (بأفواههم) أى بأقوالهم الباطلة (ويأبى الله) أى لا يريد (الا أن يتم نوره) باعلاء كلمة التوحيد واعزاز دين الاسلام (ولو كره الكافرون) وجواب لو محذوف أى ولو كره الكافرون تمام نوره لأتمه ولم يبال بكراهتهم (هو الذى أرسل رسوله) محمدا صلى الله عليه وسلم (بالهدى) أى ملتبسا بالقرآن (ودين الحق) أى دين الاسلام (ليظهره على الدين كله) أى ليعلى الله دين الاسلام على الاديان كلها وهو أن لا يعبد الله الا به فان المسلمين قد قهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب وغلبوا النصارى على بلاد الشام وما والاها الى ناحية الروم والغرب وغلبوا المجوس على ملكهم وغلبوا عباد الاصنام على كثير من بلادهم مما يلى الترك والهند فثبت ان الذى أخبر الله عنه فى هذه الآية قد حصل وكان ذلك اخبارا عن الغيب فكان معجزا وروى عن أبى هريرة أنه قال هذا وعد من الله بأنه تعالى يجعل الاسلام غالبا على جميع الاديان وتمام هذا انما يحصل عند خروج عيسى فلا يبقى أهل دين الا دخلوا فى الاسلام (ولو كره المشركون) ذلك الاظهار والوصف بالشرك بعد الوصف بالكفر للدلالة على انهم ضموا الكفر بالرسول الى الكفر بالله (يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار) أى علماء اليهود (والرهبان) أى علماء النصارى (ليأكلون أموال الناس بالباطل) أى ليأخذون الاموال من سفلتهم بطريق الرشوة فى تخفيف الاحكام والمسامحة فى الشرائع (ويصدون عن سبيل الله) أى لانهم يمنعون عن متابعة الاخيار من الخلق والعلماء فى ذلك الزمان فى المسلك المقرر فى التوراة والانجيل وفى زمان محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يبالغون فى المنع عن متابعته صلى الله عليه وسلم فى منهجه الصحيح بجميع وجوه المكر والخداع (والذين يكنزون الذهب والفضة) أى يجمعونهما (ولا ينفقونها فى سبيل الله) أى ولا يخرجون من جملة كل واحد منهما سواء كانت آنية أو دنانير ودراهم ما وجب اخراجه عن تلك الجملة من الزكاة والكفارات ونفقة الحج والجمعة ومما يجب اخراجه فى الدين والحقوق ونفقة الاهل والعيال وضمان المتلفات وأروش الجنايات (فبشرهم بعذاب أليم) أى فاخبرهم يا أشرف الخلق بعذاب أليم هو مذكور فى قوله تعالى (يوم يحمى عليها فى نار جهنم) أى يوم توقد على تلك الاموال التى هى الذهب والفضة نار ذات حر شديد فى نار جهنم (فتكوى بها) أى فتحرق بتلك الاموال (جباههم) أى جهة امامهم كلها (وجنوبهم) من اليمين واليسار (وظهورهم) يقال لهم (هذا) أى الكى (ما كنزتم) أى جزاء ما جمعتم من الاموال (لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى فذوقوا جزاء ما كنتم تمنعون حقوق الله تعالى فى أموالكم (ان عدة الشهور) القمرية التى تؤدى فيها الزكاة وعليها يدور ذلك الاحكام الشرعية (عند الله) أى فى حكمه (اثنا عشر شهرا) وأيام هذه الشهور ثلاثمائة وخمسة وخمسون يوما والسنة الشمسية ثلاثمائة

وخمسة وستون يوما وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام وربع يوم فسبب هذا النقصان تنتقل الشهور القمرية من فصل الى فصل آخر فيقع الصوم والحج تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف (فى كتاب الله) أى فى اللوح المحفوظ (يوم خلق السموات والارض) وهذه الظروف الثلاثة أبدل البعض من البعض والتقدير ان عدة الشهور اثنا عشر شهرا عند الله فى كتاب الله يوم خلق السموات أى منذ خلق الله الاجرام والازمنة أى ان ذلك العدد ثابت فى علم الله وفى كتاب الله من أول ما خلق الله تعالى العالم (منها) أى من تلك الشهور الاثنى عشر (أربعة حرم) هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب (ذلك) أى عدة الشهور (الدين القيم) أى الحساب الصحيح (فلا تظلموا فيهن) أى فى الاربعة الحرم (أنفسكم) باتيان المعاصى فانه أعظم وزرا كاتيانها فى الحرم وقال ابن عباس فلا تظلموا فى الشهور الاثنى عشر أنفسكم وذلك منع الانسان عن اتيان الفساد فى جميع العمر (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) أى قاتلوا المشركين باجمعكم مجتمعين على قتالهم فى جميع الاشهر كما انهم يقاتلونكم على هذه الصفة وكونوا عباد الله متوفقين فى مقاتلة الاعداء (واعلموا أن الله مع المتقين) أى مع أوليائه الذين يخشونه فى أداء الطاعات واجتناب المحرمات (انما النسىء) أى انما تأخير حرمة شهر الى شهر آخر (زيادة فى الكفر) لان ضم هذا العمل الى الانواع المتقدمة من الكفر زيادة فى الكفر (يضل به الذين كفروا) قرأ حفص وحمزة والكسائى يضل بالبناء للمفعول والباقون بفتح الياء على البناء للفاعل وقرأ أبو عمرو وفى رواية من طريق ابن مقسم ويعقوب من العشرة بضم الياء وكسر الضاد والمعنى حينئذ يضل بهذا التأخير الذين كفروا تابعيهم والآخذين بأقوالهم (يحلونه عاما) أى يحلون التأخير عاما وهو العام الذى يريدون أن يقاتلوا فى المحرم (ويحرمونه عاما) أى ويحرمون التأخير عاما آخر وهو العام الذى يتركون المحرم على تحريمه وسبب هذا التأخير ان العرب كانت تعظم الاشهر الاربعة وكان ذلك شريعة ثابتة من زمان ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة والحروب فشق عليهم ان يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية وقالوا ان توالت ثلاثة أشهر حرم لانصيب فيها شيأ لهلكنا كانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر فيحرمونه ويستحلون المحرم (ليواطؤا) أى ليوافقوا (عدة ما حرم الله) من الاشهر الاربعة (فيحلوا ما حرم الله) بخصوصه قال ابن عباس رضى الله عنهما انهم ما أحلوا شهرا من الحرام الا حرموا مكانه شهرا من الحلال ولم يحرموا شهرا من الحلال الا أحلوا مكانه شهرا من الحرام لاجل ان يكون عدد الاشهر الحرم أربعة مطابقة لما ذكره الله تعالى قال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان يقوم ويخطب فى الموسم ويقول ان صفر العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الاوتار ونزعوا الاسنة والازجة وان قال حلال عقدوا الاوتار وشدوا الازجة وأغاروا وقيل هو جنادة بن عوف الكنانى وكان مطاعا فى الجاهلية كان يقول على جمل فى الموسم بأعلى صوته ان آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ثم يقوم فى العام القابل فيقول ان آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه وقيل هو رجل من كنانة يقال له القلمس قال قائلهم ومنا ناسىء الشهر قلمس وعن ابن عباس رضى الله عنهما أول من سن النسىء عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف (زين لهم سوء أعمالهم) قال ابن عباس أى زين الشيطان لهم هذا العمل حتى حسبوا هذا القبيح حسنا (والله لا يهدى القوم الكافرين) أى لا يرشدهم الى دينه لما سبق لهم فى الازل انهم من أهل النار (يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض) أى أى شىء ثبت لكم من الاعذار حال

كونكم متثاقلين ومشتهين الاقامة فى أرضكم فى وقت قول الرسول لكم أخرجوا الى الغزو فى طاعة الله
روى ان هذه الآية نزلت فى غزوة تبوك مكان على طرف الشام بينه وبين المدينة أربع عشرة مرحلة ويقال
لها غزوة العسرة وغزوة الفاضحة وكانت فى رجب فى السنة التاسعة من الهجرة بعد رجوعه صلى الله عليه
وسلم من الطائف الى المدينة وسببها ما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ان هرقل جمع أهل الروم
وأهل الشام وانهم قدموا مقدماتهم الى البلقاء فأمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بالجهاد وبعث الى مكة
وقبائل العرب وحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله وهى آخر غزواته فجهز عثمان عشرة
آلاف وأنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الابل والخيل وهى تسعمائة بعير ومائة فرس وغير الزاد وما
يتعلق بذلك وأول من جاء بالنفقة أبو بكر فجاء بجميع ماله أربعة آلاف درهم وجاء عمر بنصف ماله وجاء
ابن عوف بمائة أوقية وجاء العباس بمال كثير وكذا طلحة والاغنياء وبعثت النساء بكل ما يقدرن
عليه من حليهن فلما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وهم ثلاثون ألفا وكانت الخيل عشرة
آلاف فرس خلف على المدينة محمد بن مسلمة الانصارى وتخلف عبد الله بن أبى ومن كان معه من المنافقين
بعد ان خرجوا الى ثنية الوداع وكان من تخلف عشر قبائل وانما تباطأ الناس فى خروجهم للقتال لشدة
الزمان فى القحط وضيق عيش ولبعد المسافة والحاجة الى الاستعداد الزائد على ما جرت به العادة فى سائر
الغزوات ولشدة الحر فى ذلك الوقت ولمهابة عسكر الروم ولادراك الثمار فى المدينة فى ذلك الوقت فاقتضى
اجتماع هذه الاسباب تثاقل الناس عن ذلك الغزو (أرضيتم بالحياة الدنيا) وغرورها (من الآخرة)
أى بدل نعيم الآخرة (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل) أى فما التمتع بلذائذ الدنيا فى مقابلة
نعيم الآخرة الا قليل لان سعادة الدنيا بالنسبة الى سعادة الآخرة كالقطرة فى البحر وترك الخير الكثير
لاجل السرور القليل سفه (الا تنفروا يعذبكم) الله (عذابا أليما) أى ان لم تخرجوا الى ما طلب الخروج
منكم اليه يهلككم الله بسبب فظيع هائل كقحط ونحوه (ويستبدل قوما غيركم) أى يأتى بعد
اهلاككم بدلكم بقوم مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا كأهل اليمن وأبناء فارس (ولا تضروه
شيأ) أى لا يضر الله جلوسكم شيأ لانه غنى عن العالمين أو لا يضر الرسول تثاقلكم فى نصرة دينه أصلا
لان الله عصمه من الناس (والله على كل شئ قدير) فيقدر على نصر نبيه ودينه ولو من غير واسطة (الا
تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله
معنا) أى ان لم تنصروا محمدا فسينصره الله الذى قد نصره حين لم يكن معه الا رجل واحد اذ جعله كفار مكة
مثل المضطر الى الخروج حيث أذن له صلى الله عليه وسلم فى الخروج حين هموا بقتله حال كونه أحد
اثنين والآخر أبو بكر الصديق اذ هما فى غار جبل ثور اذ يقول محمد صلى الله عليه وسلم لابى بكر الصديق
لا تحزن ان الله معيننا وكان الصديق قد حزن على رسول الله صلى الله عليه وسلم لا على نفسه فقال له
يا رسول الله اذا مت أنا فأنا رجل واحد واذا مت أنت هلكت الامة والدين روى ان قريشا ومن بمكة من
المشركين تعاقدوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره الله تعالى ان يخرج أول الليل الى الغار
وخرج هو وأبو بكر أول الليل الى الغار وأمر صلى الله عليه وسلم عليا ان يضطجع على فراشه ليمنع السواد
من طلبه حتى يبلغ الى ما أمر الله به فلما وصل الى الغار دخل أبو بكر فيه أولا يلتمس ما فيه فقال له النبى
صلى الله عليه وسلم مالك فقال بأبى أنت وأمى الغار مأوى السباع والهوام فان كان فيه شئ كان بى لا بك

وكان فى الغار جحر فوضع عقبه عليه لئلا يخرج ما يؤذى الرسول فلما طلب المشركون الاثر وقربوا بكى أبو بكر خوفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم لا تحزن ان الله معنا بنصره فجعل يمسح الدموع عن خده وروى لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا فى أسفله والعنكبوت نسجت عليه فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يرون أحدا (فأنزل الله سكينته) أى أمنته التى تسكن عندها القلوب (عليه) أى على صاحبه صلى الله عليه وسلم أبى بكر الصديق (وأيده) أى أعانه صلى الله عليه وسلم (بجنود لم تروها) وهم الملائكة النازلون يوم بدر والاحزاب وحنين وهذه الجملة معطوفة على جملة نصره الله (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) أى جعل الله يوم بدر كلمة الشرك سافلة حقيرة (وكلمة الله) أى قوله لا اله الا الله (هى العليا) أى الغالبة الظاهرة (والله عزيز) أى قاهر غالب (حكيم) أى لا يفعل الا الصواب (انفروا خفافا وثقالا) أى اخرجوا مع نبيكم الى غزوة تبوك خفافا فى الخروج لنشاطكم له وثقالا عنه لمشقته عليكم (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) أى جاهدوا فى طاعة الله بما أمكن لكم اما بكليهما أو بأحدهما (ذلكم) أى الجهاد (خير لكم) أى خير عظيم فى نفسه لكم (ان كنتم تعلمون) أن الجهاد خير فبادروا اليه (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك) أى لو كان ما دعوا اليه متاعا قريب المنال سهل المأخذ وسفرا متوسطا بين القريب والبعيد لاتبعوك فى الخروج الى تبوك طمعا فى تلك المنافع (ولكن بعدت عليهم الشقة) أى المسافة التى تقطع بمشقة فتخلفوا عن الجهاد بسبب انهم كانوا يستعظمون غزو الروم فكانوا كالآيسين من الفوز بالغنيمة (وسيحلفون) أى المتخلفون عن الغزو عند رجوعك من تبوك وهم عبد الله ابن أبى وجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهم قائلين (بالله لو استطعنا) بالزاد والراحلة (لخرجنا معكم) الى غزوة تبوك (يهلكون أنفسهم) بسبب الحلف الكاذب فان الايمان الكاذبة توجب الهلاك ولهذا قال صلى الله عليه وسلم اليمين الغموس تدع الديار بلاقع (والله يعلم انهم لكاذبون) فى ايمانهم لانهم كانوا مستطيعين الخروج (عفا الله عنك) يا أشرف الخلق ما وقع منك من ترك الاولى والاكمل (لم أذنت لهم) أى لاى سبب أذنت لهم فى التخلف (حتى يتبين لك الذين صدقوا) فى اعتذارهم بعدم الاستطاعة من جهة المال أو من جهة البدن (وتعلم الكاذبين) فى ذلك قال ابن عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت سورة براءة (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى ليس من عادة المؤمنين الخلص أن يستأذنوك فى أن يجاهدوا وفضلا عن أن يستأذنوك فى التخلف عنه وكان الاكابر من المهاجرين والانصار يقولون لا نستأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى الجهاد فان ربنا ندبنا اليه مرة بعد أخرى فأى فائدة فى الاستئذان ولنجاهدن معه بأموالنا وأنفسنا وكانوا بحيث لو أمرهم الرسول بالقعود لشق عليهم ذلك (والله عليم بالمتقين) الذين يسارعون الى طاعته (انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) أى انما يستأذنك يا أشرف الخلق فى التخلف عن الجهاد من غير عذر المنافقون فانهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا (وارتابت قلوبهم) أى شكت قلوبهم فى الدين (فهم فى ريبهم يترددون) أى فهم حال كونهم فى شكهم المستقر فى قلوبهم يتحيرون لا مع الكفار ولا مع المؤمنين (ولو أرادوا الخروج) الى الغزو معك (لاعدوا له) أى للخروج (عدة) أى أهبة من الزاد والراحلة والسلاح (ولكن كره الله انبعاثهم) أى ولكن لم يرض الله نهوضهم للخروج معك

(فثبطهم) أى حبسهم بالكسل (وقيل اقعدوا مع القاعدين) أى تخلفوا مع المتخلفين والقائل الشيطان بوسوسته أو بعضهم لبعض أو هو أمر النبي بذلك أمر توبيخ أو القاء الله تعالى كراهة الخروج فى قلوبهم فلا قول بالفعل لا من الله ولا من النبي (لو خرجوا فيكم) أى معكم (ما زادوكم الا خبالا) أى فسادا (ولا وضعوا خلالكم) أى ولسارعوا على الابل وسطكم ولاسرعوا بينكم بالنمائم (يبغونكم الفتنة) أى يطلبون لكم ما تفتتنون به بالقاء الرعب فى قلوبكم و بافساد نياتكم (وفيكم سماعون لهم) أى فيكم قوم ضعفة يسمعون للمنافقين (والله عليم بالظالمين) لانفسهم بسبب نفاقهم ولغيرهم بسبب أنهم سعوا فى القاء غيرهم فى وجوه الآفات (لقد ابتغوا الفتنة من قبل) أى من قبل واقعة تبوك كما فعل عبد الله بن أبي يوم أحد حيث انصرف مع أصحابه عن النبي صلى الله عليه وسلم (وقلبوا لك الامور) أى اجتهدوا فى الحيلة عليك وفى ابطال أمرك (حتى جاء الحق) أى استمر هؤلاء المنافقون على اثارة الفتنة وتنفير الناس عن قبول الدين حتى جاء النصر الالهى وكثر المؤمنون (وظهر أمر الله) أى غلب دينه بظهور الاسباب التى تقوى شرع محمد صلى الله عليه وسلم (وهم كارهون) أى والحال انهم كارهون لمجيء هذا الحق وظهور أمر الله (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) أى ومن المنافقين وهو الجد بن قيس من يقول للنبي صلى الله عليه وسلم ائذن لى فى القعود فى المدينة ولا توقعنى فى الاثم بأن لا تأذن لى فانك ان منعتنى من القعود وقعدت بغير اذنك وقعت فى الاثم وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تجهز الى غزوة تبوك قال للجد بن قيس يا أبا وهب هل لك فى جلاد بنى الاصفر أى فى جهاد ملوك الروم فقال الجد يا رسول الله قد علمت الانصار أنى مغرم بالنساء فلا تفتنى ببنات الاصفر وانى أخشى ان رأيتهن لا أصبر عنهن ولكنى أعينك بمال فاتركنى (ألا) أى تنبهوا (فى الفتنة سقطوا) أى انهم فى عين الفتنة وقعوا فان أعظم أنواع الفتنة الكفر بالله و رسوله والتمرد عن قبول التكليف وهم خائفون من نزول آيات فى بيان نفاقهم (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) أى جامعة لهم يوم القيامة من كل جانب وقيل ان أسباب تلك الاحاطة حاصلة فى الحال فكأنهم فى وسطها لانهم كانوا محرومين عن كل السعادات وانهم اشتهروا بين الناس بالنفاق والطعن فى الدين وقصد الرسول بكل سوء وكانوا يشاهدون ان دولة الاسلام أبدا فى الترقى وكانوا فى أشد الخوف على أنفسهم وأولادهم وأموالهم (ان تصبك حسنة تسؤهم) أى ان تصبك فى بعض الغزوات حسنة من ظفر أو غنيمة أو انقياد بعض ملوك الاطراف يحزنهم ذلك (وان تصبك) فى بعض الغزوات (مصيبة) أى شدة وان صغرت (يقولوا) متبجحين برأيهم (قد أخذنا أمرنا) أى حذرنا بالاعتزال عن المسلمين والتخلف عنهم والمداراة مع الكفرة (من قبل) أى من قبل هذه المصيبة (ويتولوا) عن مقام التحدث بذلك الى أهاليهم (وهم فرحون) بما أصابك من المصيبة و بسلامتهم منها (قل) يا أشرف الخلق للمنافقين بيانا لبطلان اعتقادهم (لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) أى لن يصيبنا خير ولا شر ولا رخاء ولا شدة ولا خوف ولا أمن الا وهو مقدر علينا مكتوب عند الله فاذا صرنا مغلوبين صرنا مستحقين للاجر العظيم وان صرنا غالبين صرنا مستحقين للثواب فى الآخرة وفزنا بالمال الكثير والثناء الجميل فى الدنيا (هو) أى الله (مولانا) يحسن منه التصرف فى العالم كيف يشاء فان أوصل الى بعض عبيده أنواعا من المصائب فانه يجب الرضا بها (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى فالواجب على المؤمن ان يفوض أمره الى الله وأن يرضى بفعله تعالى وأن يطمع من فضله تعالى ورحمته (قل) يا أشرف الخلق للمنافقين (هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين) أى ما تنتظرون بنا الا احدى

الحالتين الشريفتين النصر أو الشهادة وذلك لان المسلم اذا ذهب الى الغزو فان صار مغلوبا مقتولا فاز بالاسم الحسن فى الدنيا وهى الرجولية والشوكة وبالثواب العظيم الذى أعده الله للشهداء فى الآخرة وان صار غالبا فاز فى الدنيا بالمال الحلال والاسم الجميل وفى الآخرة بالثواب العظيم (ونحن نتربص بكم) احدى الحالتين الخسيستين اما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) كأن ينزل عليكم صاعقة من السماء كما نزلت على عاد وثمود (أو) بعذاب (بأيدينا) وهو القتل على الكفر أى ان المنافق اذا قعد فى بيته كان مذموما منسوبا الى الجبن وضعف القلب والرضا بأمر يشاركه فيه النسوان والصبيان والعاجزون ثم يكون أبدا خائفا على نفسه وولده وماله وان أذن الله فى قتله وقع فى القتل والاسر والنهب مع الذل وان مات انتقل الى العذاب الدائم فى الآخرة (فتربصوا) بنا احدى الحالتين الشريفتين (انا معكم متربصون) وقوعكم فى احدى الحالتين الخسيستين (قل) يا أشرف الخلق لهذا المنافق وأمثاله وهذه الآية نزلت فى الجد بن قيس حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم ائذن لى فى القعود وهذا مالى أعينك به (أنفقوا أموالكم (طوعا) أى من غير الزام من الله ورسوله (أو كرها) أى الزاما منهما وسمى الالزام اكراها لان الزام المنافقين بالانفاق كان شاقا عليهم كالاكراه وقرأ حمزة والكسائى هنا وفى النساء والاحقاف كرها بضم الكاف وقرأ عاصم وابن عامر فى الاحقاف بالضم من المشقة وفى النساء والتوبة بالفتح من الاكراه والباقون بفتح الكاف فى جميع ذلك (لن يتقبل منكم) والامر هنا بمعنى الخبر أى نفقتكم غير مقبولة سواء كانت طوعا أو كرها (انكم كنتم قوما فاسقين) أى منافقين فانهم كافرون فى الباطن (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى) أى لا يأتونها فى حال من الاحوال الا حال كونهم متثاقلين فان هذا المنافق ان كان فى جماعة صلى وان كان وحده لم يصل لانه لا يصلى طاعة لامر الله وانما يصلى خوفا من مذمة الناس (ولا ينفقون الا وهم كارهون) أى لا رغبة لهم فانهم لا ينفقون لغرض الطاعة بل رعاية للمصلحة الظاهرة حتى انهم كانوا يعدون الانفاق مغرما بينهم (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) والمراد بهذا الخطاب جميع المؤمنين والمعنى ولا تعجبوا بأموال المنافقين وأولادهم (انما يريد الله ليعذبهم بها) أى بالاموال والاولاد (فى الحياة الدنيا) وسبب كون المال والولد عذابا فى الدنيا هو ما يحصل من المتاعب والمشاق فى تحصيلهما فاذا حصلا ازداد التعب وتحمل المشاق فى حفظهما ويزداد الغم والخوف بسبب المصائب الواقعة فيهما وهم اعتقدوا أنه لا سعادة الا فى هذه الخيرات العاجلة فالمال والولد عذاب على المنافق فى الدنيا دون المؤمن لانه علم أنه يثاب بالمصائب الحاصلة له فى الدنيا (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) أى يريد الله أن تخرج أرواحهم والحال أنهم كافرون فيكون عذابهم فى الآخرة أشد العذاب (ويحلفون بالله انهم لمنكم) أى يحلف المنافقون للمؤمنين اذا جالسوهم أنهم على دينكم (وما هم منكم) أى ليسوا على دينكم (ولكنهم قوم يفرقون) أى يخافون القتل فأظهروا الايمان وأسروا النفاق (لو يجدون ملجأ) أى حرزا يلجئون اليه تحصنا منكم من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة (أو مغارات) أى كهوفا فى الجبل يخفون فيها أنفسهم (أو مدخلا) أى سربا تحت الارض كالآبار يندسون فيه (لولوا) أى لصرفوا وجوههم (اليه) أى الى أحد هذه الوجوه الثلاثة التى هى شر الامكنة (وهم يجمحون) أى يسرعون اسراعا لا يرد وجوههم شئ لشدة تأذيهم من الرسول ومن المسلمين (ومنهم) أى المنافقين أبى الاحوص وأصحابه (من يلمزك) أى من يعيبك سرا (فى الصدقات) قالوا لم يقسم بيننا بالسوية والله ما يعطيها

عمد الا من أحب ولا يؤثرها الاهواء فنزلت هذه الآية (فان أعطوا منها) أى الصدقات قدر ما يريدون
فى الكثرة (رضوا) بالقسمة (وان لم يعطوا منها) قدر ما يريدون (اذا هم يسخطون) أى يفاجئون
السخط فان رضاهم وسخطهم لطلب النصيب لا لاجل الدين (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله)
من الصدقات وطابت نفوسهم وان قل (وقالوا حسبنا الله) أى كفانا ذلك (سيؤتينا الله من فضله
ورسوله) أى سيغنينا الله من فضله برزقه فيعطينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما أعطانا اليوم
(انا الى الله) أى الى طاعته واحسانه (راغبون) لكان ذلك أعود عليهم ونقل أن عيسى عليه
السلام مر بقوم يذكرون الله تعالى فقال ما الذى يحملكم عليه قالوا الخوف من عقاب الله فقال أصبتم
ثم مر على قوم آخرين يذكرون الله تعالى فقال ما الذى يحملكم عليه فقالوا الرغبة فى الثواب فقال
أصبتم ومر على قوم ثالث مشتغلين بالذكر فسألهم فقالوا لا نذكره للخوف من العقاب ولا للرغبة فى الثواب
بل لاظهار ذلة العبودية وعزة الربوبية وتشريف القلب بمعرفته وتشريف اللسان بالالفاظ الدالة على
صفات قدسه وعزته فقال أنتم المحبون المحققون (انما الصدقات للفقراء والمساكين) أى انما الزكوات
مصروفة للفقراء وهم المحتاجون الذين لا يجدون شيأ ولا يسألون الناس وهم أهل صفة مسجد رسول الله
صلى الله عليه وسلم وكانوا نحو أربعمائة رجل لا منزل لهم والمساكين هم الطوافون الذين يسألون الناس كما
قاله ابن عباس ومن سأل وجد فكان المسكين أقل حاجة (والعاملين عليها) وهم السعاة لجباية الصدقة
وهؤلاء يعطون من الصدقات بقدر أجور أعمالهم وهو قول الشافعى وعبد الله بن عمر وابن زيد وقال مجاهد
والضحاك يعطون الثمن من الصدقات (والمؤلفة قلوبهم) وهم أصناف صنف دخلوا فى الاسلام
ونيتهم ضعيفة فيتألفون ليثبتوا وآخرون لهم شرف فى قومهم يطلب بتألفهم اسلام نظرائهم وأثبت الشافعى
والاصحاب سهم هذين الصنفين وصنف يراد بتألفهم ان يجاهدوا من يليهم من الكفار أو من مانعى الزكاة
ويقبضوا زكاتهم وهذان فى معنى الغزاة والعاملين وعلى هذا فيسقط سهم المؤلفة بالكلية لكن يجوز
صرفه اليهما كما أفتى به الماوردى (وفى الرقاب) أى وفى فك الرقاب فسهمهم موضوع فى المكاتبين
ليعتقوا به كما هو مذهب الشافعى والليث بن سعد أو موضوع لعتق الرقاب يشترى به عبيد فيعتقون كما هو
مذهب مالك وأحمد واسحق وقال الزهرى سهم الرقاب نصفان نصف للمكاتبين من المسلمين ونصف
يشترى به رقاب ممن صلوا وصاموا وقدم اسلامهم فيعتقون من الزكاة (والغارمين) أى المديونين فى
طاعة الله (وفى سبيل الله) ويجوز للغازى ان يأخذ من مال الزكاة وان كان غنيا كما هو مذهب
الشافعى ومالك واسحق وأبى عبيد وقال أبو حنيفة وصاحباه لا يعطى الغازى الا اذا كان محتاجا ونقل
القفال عن بعض الفقهاء انهم أجازوا صرف الصدقات الى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء
الحصون وعمارة المساجد لان قوله تعالى فى سبيل الله عام فى الكل (وابن السبيل) وهو الذى يريد
السفر فى غير معصية فيعجز عن بلوغ سفره الا بمعونة ويصرف مال الزكاة الى الاصناف الاربعة
الاول حتى يتصرفوا فيه كما شاؤا وفى الاربعة الاخيرة لا يصرف المال اليهم بل يصرف الى جهات
الحاجات المعتبرة فى الصفات التى لاجلها استحقوا سهم الزكاة ومذهب أبى حنيفة انه يجوز صرف
الصدقة الى بعض هؤلاء الاصناف فقط كما هو قول عمر وحذيفة وابن عباس وسعيد بن جبير وقال
الشافعى لا بد من صرفها الى الاصناف الثمانية كما هو قول عكرمة والزهرى وعمر بن عبد العزيز
(فريضة من الله) أى فرض الله الصدقات لهؤلاء فريضة والمقصود من هذا التأكيد تحريم اخراج

الزكاة عن هذه الاصناف (والله عليم) فيعلم بمقادير المصالح (حكيم) لا يشرع الا ما هو الاصوب الاصلح (ومنهم الذين يؤذون النبي و يقولون هو أذن) روى ان جماعة من المنافقين حذام بن خالد واياس بن قيس وسماك بن يزيد وعبيد بن مالك والجلاس بن سويد ووديعة بن ثابت ذكروا النبي صلى الله عليه وسلم بما لا ينبغي من القول ثم قالوا ان كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير وكان عندهم غلام يقال له عامر بن قيس ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره فدعاهم وسألهم فأنكروا وحلفوا ان عامرا كذاب وحلف عامر انهم كذبة فصدقهم النبي صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يدعو و يقول اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فأنزل الله هذه الآية ومقصود المنافقين بقولهم هو أذن انه صلى الله عليه وسلم ليس له ذكاء بل هو سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع (قل) يا أشرف الخلق لهؤلاء المنافقين (أذن خير لكم) قرأ عاصم في رواية الاعمش وعبد الرحمن عن أبي بكر عنه أذن خير برفع اى ان كان صلى الله عليه وسلم كما تقولون انه أذن فأذن يقبل منكم خير لكم من ان يكذبكم والباقون بالاضافة أى هو أذن خير لا أذن شر أى يصدقكم بالخير لا بالكذب ثم بين الله كونه صلى الله عليه وسلم اذن خير بقوله (يؤمن بالله) لما قام عنده من الادلة (و يؤمن للمؤمنين) أى و يرضى لهم و يصدقهم لما علم فيهم من الخلوص (ورحمة للذين آمنوا منكم) أى وهو رفيق بالذين أظهروا الايمان منكم حيث لا يكشف أسرارهم وقرأ حمزة ورحمة بالجر عطفا على خير وقرأ ابن عامر ورحمة بالنصب علة لمحذوف أى و يأذن لكم رحمة (والذين يؤذون رسول الله) بقولهم هو أذن ونحوه (لهم عذاب أليم) في الدنيا والآخرة (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) أى انهم حلفوا على انهم ما قالوا ما حكى عنهم ليرضوا المؤمنين بيمينهم (والله و رسوله أحق أن يرضوه) أى والحال انه تعالى و رسوله أحق بالارضاء منكم وكان من الواجب أن يرضوهما بالاخلاص والتوبة والمتابعة وايفاء حقوقه صلى الله عليه وسلم في باب الاجلال مشهدا ومغيبا لا باتيانهم بالايمان الفاجرة (ان كانوا مؤمنين) فليرضوا الله و رسوله بالطاعة فانهما أحق بالارضاء (ألم يعلموا) أى أولئك المنافقون جلاس وأصحابه (أنه) أى الشان (من يحادد الله) أى من يخالف الله (ورسوله فأن له نار جهنم) أى فحق أن له نار جهنم أى فكون نار جهنم له أمر ثابت (خالدا فيها ذلك) أى العذاب الخالد (الخزى العظيم) أى الندم الشديد وهي ثمرات نفاقهم (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم) أى يخاف المنافقون أن تنزل في شأنهم سورة تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم اذاعة ظاهرة فتنتشر فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجال فكأن السورة تخبرهم بها وهم كانوا اذا سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر كل شيء و يقول انه بطريق الوحي يكذبونه و يستهزؤن به (قل استهزؤا) أى افعلوا الاستهزاء بمحمد والقرآن (ان الله مخرج ما تحذرون) أى فان الله مظهر ما تحذرونه من انزال السورة (ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) قال الحسن وقتادة لما سار الرسول الى تبوك قال المنافقون بينهم أتراه يظهر على الشام و يأخذ حصونها وقصورها هيهات هيهات فعند رجوعه صلى الله عليه وسلم دعاهم وقال أنتم القائلون بكذا وكذا فقالوا ما كان ذلك بالجد في قلوبنا وانما كنا نتحدث ونضحك فيما بيننا (قل أبالله) أى بتكاليف الله (وآياته) أى و بالقرآن و بسائر ما يدل على الدين (و رسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (كنتم تستهزؤن لا تعتذروا) أى لا تذكروا هذا العذر في دفع هذا الجرم (قد كفرتم بعد ايمانكم) أى قد ظهر كفركم للمؤمنين بالطعن في الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ان كنتم عندهم مسلمين (ان نعف عن طائفة منكم نعذب

طائفة) قرأ عاصم نعف ونعذب بالنون مبنيا للفاعل وطائفة بالنصب والباقون يعف بالياء وتعذب بالتاء بالبناء للمفعول وطائفة بالرفع روى أن الطائفتين كانوا ثلاثة فالواحد طائفة وهو جهير بن حمير والاثنان طائفة وهما وديعة بن جذام وجد بن قيس فالذى عفى عنه جهير بن حمير لانه كان يضحك معهم ولم يستهزئ معهم فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه وقال اللهم انى لا أزال أسمع آية تقشعر منها الجلود وتخفق منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة فلم يعرف أحد من المسلمين مصرعه (بأنهم كانوا مجرمين) أى مستمرين على النفاق والاستهزاء فأوجب التعذيب (المنافقون) وكانوا ثلاثمائة (والمنافقات) وكن مائة وسبعين (بعضهم من بعض) أى متشابهون فى صفة النفاق والافعال الخبيثة (يأمرون) أى يأمر بعضهم بعضا (بالمنكر) أى بالكفر والمعاصى (وينهون عن المعروف) أى عن الايمان والطاعة (ويقبضون أيديهم) عن كل خير من زكاة وصدقة وانفاق فى سبيل الله (نسوا الله) أى تركوا أمر الله (فنسيهم) أى فجازاهم بتركهم من رحمته (ان المنافقين هم الفاسقون) أى الكاملون فى الفسق الذى هو الانسلاخ من كل خير (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار) أى المجاهرين بالكفر (نار جهنم خالدين فيها) فالنار المخلدة من أعظم العقوبات (هى حسبهم) أى تلك العقوبة كافية لهم ولا شئ أبلغ منها ولا يمكن الزيادة عليها (ولعنهم الله) أى أهانهم الله بالذم ملحقا بتلك العقوبة (ولهم عذاب مقيم) غير النار كالزمهرير وكمقاساة تعب النفاق فى الدنيا اذهم دائما فى حذر من أن يطلع المسلمون على نفاقهم (كالذين من قبلكم) أى فعلكم أيها المنافقون كفعل الكفار الذين كانوا قبلكم فى الامر بالمنكر والنهى عن المعروف وقبض الايدى عن الخيرات (كانوا أشد منكم قوة) فى الابدان (وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) أى فتمتعوا مدة بنصيبهم من لذات الدنيا (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) أى فأنتم أيها المنافقون استمتعتم بنصيبكم استمتاعا كاستمتاع الكفار الذين من قبلكم بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية (وخضتم كالذى خاضوا) أى وتلبستم بتكذيب الانبياء فى السر وبالمكر والغدر بهم كالتلبس الذى تلبسوا به من تكذيب أنبياء الله والغدر بهم (أولئك) الموصوفون بالافعال الذميمة (حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) أى بطلت حسناتهم بسبب الفقر والانتقال من العز الى الذل ومن القوة الى الضعف وبسبب الموت وفى الآخرة بسبب أنهم يعاقبون أشد العقاب (وأولئك هم الخاسرون) حيث أتعبوا أنفسهم فى الرد على الانبياء فما وجدوا منه الا فوات الخيرات فى الدنيا والآخرة والا حصول العقاب فى الدنيا والآخرة (ألم يأتهم) أى المنافقين (نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات) أى المنقلبات التى جعل الله عالى القرى سافلها (أتتهم رسلهم بالبينات) أى المعجزات فكذبوهم فجعل الله هلاكهم والله أهلك قوم نوح بالغرق وعادا قوم هود بارسال الريح العقيم وثمود قوم صالح بارسال الصيحة والصاعقة وقوم ابراهيم بالهدم وسلب النعمة عنهم وبتسليط البعوضة على دماغ نمروذ وقوم شعيب بالظلة أو بالرجفة وقوم لوط بالخسف وبجعل عالى أرضهم سافلها وبامطار الحجارة وانما ذكر الله تعالى هذه الطوائف الستة لان آثارهم باقية وبلادهم قريبة من بلاد العرب وهى الشام والعراق واليمن فكانوا يمرون عليها ويعرفون أخبار أهلها (فما كان الله ليظلمهم) بايصال العذاب اليهم لانهم استحقوه بسبب أفعالهم القبيحة (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفر وتكذيب الانبياء (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) بسبب المشاركة

فى

فى الاستدلال والتوفيق والهداية (يأمرون بالمعروف) أى بالايمان بالله ورسوله واتباع أمره (وينهون عن المنكر) أى الشرك والمعاصى (ويقيمون الصلاة) أى المفروضة باتمام الاركان والشروط (ويؤتون الزكاة) الواجبة عليهم (ويطيعون الله ورسوله) فى كل أمر ونهى فى السر والعلانية (أولئك) الموصوفون بهذه الصفات (سيرحمهم الله) أى يفيض عليهم آثار رحمته والسين للتوكيد والمبالغة (ان الله عزيز) أى لا يمنع من مراده فى عباده من رحمة أو عقوبة (حكيم) أى مدبر أمر عباده على ما يقتضيه العدل والصواب (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار) أى تجرى من تحت شجرها ومساكنها أنهار الخمر والماء والعسل واللبن (خالدين فيها ومساكن طيبة) وهى قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الاحمر (فى جنات عدن) وهى أبهى أماكن الجنات وأسناها وقال عبد الله بن عمران فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج وله خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حوراء لا يدخله الا نبى أو صديق أو شهيد (ورضوان من الله أكبر) مما هم فيه اذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة وروى انه تعالى يقول لاهل الجنة هل رضيتم فيقولون ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا وأى شئ أفضل من ذلك قال أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا وقرأ شعبة ورضوان بضم الراء والباقون بالكسر (ذلك) أى المذكور من الامور الثلاثة (هو الفوز العظيم) لا ما يطلبه المنافقون والكفار من التنعم بطيبات الدنيا (يا أيها النبى جاهد الكفار) أى المجاهرين بالسيف (والمنافقين) أى الساترين كفرهم بظهور الاسلام باظهار الحجة لا بالسيف لنطقهم بكلمتى الشهادة (واغلظ عليهم) أى أشدد على كلا الفريقين بالفعل والقول (ومأواهم جهنم وبئس المصير) هى وهذه الجملة مستأنفة لبيان عاقبة أمرهم (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر) بتوافقهم على فتك النبى صلى الله عليه وسلم وطعنهم على نبوته (وكفروا بعد اسلامهم) أى أظهروا الكفر وجاهروا بالحرب بعد ان أظهروا الاسلام (وهموا بما لم ينالوا) روى أن المنافقين هموا بقتله صلى الله عليه وسلم عند رجوعه من تبوك وهم خمسة عشر رجلا قد اتفقوا على أن يدفعوه صلى الله عليه وسلم عن راحلته ليقع فى الوادى فيموت فأخبره الله بما دبروه فلما وصل الى العقبة التى بين تبوك والمدينة نادى مناديه بأمره ان رسول الله يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد غيره واسلكوا يا معشر الجيش بطن الوادى فانه أسهل لكم وأوسع فسلك الناس بطن الوادى وسلك النبى العقبة وكان ذلك فى ليلة مظلمة فجاء المنافقون وتلثموا وسلكوا العقبة وكان النبى قد أمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام ناقته ويقودها وأمر حذيفة أن يسوقها من خلفها فبينما النبى يسير فى العقبة ازدحمه المنافقون فنفرت ناقته حتى سقط بعض متاعه فصرخ بهم فولوا مدبرين وعلموا انه اطلع على مكرهم فانحطوا من العقبة مسرعين الى بطن الوادى واختلطوا بالناس فصار حذيفة يضرب الناقة فقال له النبى هل عرفت أحدا منهم قال لا فانهم كانوا متلثمين والليلة مظلمة قال هل علمت مرادهم قال لا قال النبى انهم مكروا وأرادوا أن يسير وامعى فى العقبة فيزحمونى عنها وان الله أخبرنى بهم وبمكرهم فلما أصبح جمعهم وأخبرهم بما مكروا به فحلفوا بالله ما قالوا بتكذيب النبى ونسبه الى التصنع فى ادعاء الرسالة ولا أرادوا فتكه فأنزل الله تعالى هذه الآية (وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) أى وما أنكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ من الاشياء الا اغناء الله تعالى اياهم من فضله فان هؤلاء المنافقين كانوا قبل قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فى ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحرزون الغنيمة وبعد قدومه

أخذوا الغنائم وفازوا بالاموال و وجدوا الدولة وقتل الجلاس مولى فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألفا فاستغنى وذلك يوجب عليهم ان يكونوا محبين له صلى الله عليه وسلم مجتهدين فى بذل النفس والمال لاجله فعملوا بضد الواجب فوضعوا موضع شكره صلى الله عليه وسلم ان كرهوه وعابوه (فان يتوبوا) من النفاق كما وقع للجلاس بن سويد فانه تاب وحسنت توبته (يك) أى التوب (خيرا لهم) فى الدارين (وان يتولوا) أى يعرضوا عن التوبة (يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا) بقتلهم وسبى أولادهم وأزواجهم واغتنام أموالهم لانه لما ظهر كفرهم بين الناس صار وامثل أهل الحرب فيحل قتالهم (والآخرة) بالنار وغيرها من افانين العقاب (ومالهم فى الارض) مع سعتها (من ولى) أى حافظ (ولا نصير) ينقذهم من العذاب (ومنهم) أى المنافقين (من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا) باجرامهم على العهد (وهم معرضون) بقلوبهم عن أوامر الله تعالى (فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم) أى فأورثهم البخل نفاقا متمكنا فى قلوبهم أى فارتدوا عن الاسلام وصاروا منافقين (الى يوم يلقونه) أى الى يوم موتهم الذى يلقون فيه جزاء عملهم وهو يوم القيامة (بما أخلفوا الله ماوعدوه) أى بسبب اخلافهم الله الوعد من التصدق والصلاح (وبما كانوا يكذبون) أى وبسبب كونهم مستمرين على الكذب فى وعدهم روى أن ثعلبة بن حاطب كان صحيح الاسلام فى ابتداء أمره وصار منافقا فى آخر أمره وكان ملازما المسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقب بحمامة المسجد ثم رآه النبى صلى الله عليه وسلم يسرع الخروج من المسجد عقب الصلاة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك تفعل فعل المنافقين فقال انى افتقرت ولى ولامرأتى ثوب أجئ به للصلاة ثم اذهب فانزعه لتلبسه وتصلى به فجاء ثعلبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال صلى الله عليه وسلم ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ثم أتاه بعد ذلك فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال له رسول الله أمالك فى أسوة حسنة والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك وقال يارسول الله أدع الله أن يرزقنى مالا والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لاعطين كل ذى حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا من أوديتها فجعل يصلى الظهر والعصر مع رسول الله ويصلى فى غنمه باقى الصلوات ثم غت وكثرت فتباعد من المدينة حتى ترك الصلوات الا الجمعة ثم غت وكثرت حتى تباعد وترك الجمعة فاذا كان يوم الجمعة يتلقى الناس يسألهم عن الاخبار ثم سأل رسول الله عنه فأخبر بخبره فقال ياويح ثعلبة ثلاثا فنزل قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة فبعث صلى الله عليه وسلم اليه رجلين من بنى سليم ومن بنى جهينة وكتب لهما اسنان الصدقة وقال لهما مرا على ثعلبة بن حاطب فخذا صدقاته فأتياه وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما ماهذه الا الجزية أو أخت الجزية فلم يدفع الصدقة فأنزل الله تعالى هذه الآية فقيل له قد أنزل فيك كذا وكذا فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله أن يقبل صدقته فقال ان الله منعنى من قبول ذلك فجعل يحثو التراب على راسه فقال صلى الله عليه وسلم قد قلت لك فما أطعتنى فرجع الى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتى أبا بكر بصدقته فلم يقبلها اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ثم جاء بها الى عمر أيام خلافته فلم يقبلها فلما ولى عثمان أتاه بها فلم يقبلها وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان وانما امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ تلك الصدقة لان المقصود من الاخذ غير حاصل فى ثعلبة مع نفاقه لقوله تعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها (ألم يعلموا)

أى المنافقون (أن الله يعلم سرهم) وهو ما ينطوى عليه صدورهم (ونجواهم) وهو ما يفاوض به بعضهم بعضا فيما بينهم (وأن الله علام الغيوب) أى ما غاب عن الخلق (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم) أى ويطعنون على الذين لا يجدون الا طاقتهم (فيسخرون منهم) أى ويهزؤن بالفريق الاخير بقلة الصدقة (سخر الله منهم) وهذه الجملة خبر للموصول وقال الاصم أى قبل الله من هؤلاء المنافقين ما أظهروه من أعمال البر مع انه لا يثيبهم عليها فكان ذلك كالسخرية وقال ابن عباس فتح الله لهم فى الآخرة بابا الى الجنة (ولهم عذاب أليم) قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم ذات يوم وحث على أن يجمعوا الصدقات فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وجاء عمر بنحو ذلك وجاء عاصم بن عدى الانصارى بسبعين وسقا من تمر وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة وجاء أبو عقيل عبد الرحمن بن تيحان بصاع من تمر فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعه فى الصدقات فقال المنافقون على وجه الطعن ما جاؤا بصدقاتهم الا رياء وسمعة وأما أبو عقيل فانما جاء بصاع ليذكر مع سائر الاكابر والله غنى عن صاعه فأنزل الله تعالى هذه الآية (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) روى انه لما نزلت الآيات المتقدمة فى المنافقين وظهر نفاقهم للمؤمنين جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون وقالوا يا رسول الله استغفر لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سأستغفر لكم واشتغل بالاستغفار لهم فنزلت هذه الآية فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستغفار وهذا الامر تخيير له صلى الله عليه وسلم فى الاستغفار وتركه ومعناه اخبار باستواء الامرين أى ان شئت فاستغفر لهم وان شئت فلا تستغفر لهم فاستغفارك لهم وعدمه سواء (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة فى التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنها العدد بأسره فان عدة مراتبه سبعة آحاد عشرات مئين آحاد ألوف عشرات ألوف مئين ألوف آحاد ألوف الألوف والسبعون عند العرب غاية مستقصاة لانه عبارة عن جمع السبعة عشر مرات والسبعة عدد شريف لان عدد السموات والارض والبحار والاقاليم والنجوم والايام والاعضاء هو هذا العدد (ذلك) أى امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة فى الاستغفار (بأنهم كفروا بالله ورسوله) أى بسبب كفرهم لا لعدم الاعتداد بالاستغفار (والله لا يهدى القوم الفاسقين) أى فان تجاوزهم عن الحدود مانع من الهداية (فرح المخلفون) أى الذين تركهم النبى صلى الله عليه وسلم (بمقعدهم) أى فى المدينة (خلاف رسول الله) أى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سار الى تبوك للجهاد وأقاموا فى المدينة (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) فان فى المجاهدة اتلاف النفس والمال (وقالوا) لاخوانهم أو للمؤمنين تثبيطا لهم عن الجهاد ونهيا عن المعروف (لا تنفروا فى الحر) أى لا تخرجوا الى الجهاد فى الحر الشديد (قل) تجهيلا لهم (نار جهنم) التى ستدخلونها بما فعلتم (أشد حرا) مما تحذرون من الحر المعتاد وتحذرون الناس منه (لو كانوا يفقهون) ان بعد هذه الدار دارا أخرى وان بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) وهذا اخبار بأنه سيحصل لهم هذه الحالة وورد بصيغة الامر أى انهم وان فرحوا وضحكوا طول أعمارهم فى الدنيا فهو قليل بالنسبة الى بكائهم وحزنهم فى الآخرة لان الدنيا بأسرها قليلة وعقابهم فى الآخرة دائم لا ينقطع (جزاء بما كانوا يكسبون) فى الدنيا من النفاق (فان رجعك الله) من غزوة تبوك (الى طائفة منهم) أى المنافقين فى المدينة (فاستأذنوك للخروج) معك الى غزوة أخرى بعد غزوة تبوك

(فقل) لهم يا أشرف الخلق (لن تخرجوا معي أبدا) في سفر من الاسفار (ولن تقاتلوا معي عدوا) من الاعداء (انكم رضيتم بالقعود) عن الغزو (أول مرة) وهي غزوة تبوك (فاقعدوا) عن الجهاد (مع الخالفين) أي النساء والصبيان والرجال العاجزين (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) أي لا تقف عليه للدفن أو للدعاء فانه صلى الله عليه وسلم كان اذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له (انهم كفروا بالله ورسوله) أي لانهم استمروا على الكفر بالله ورسوله في السرمد حياتهم (وماتوا وهم فاسقون) أي متمردون في الكفر بالكذب والخداع والمكر عن ابن عباس رضي الله عنهما انه لما اشتكى عبد الله بن أبي بن سلول عاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلب منه أن يصلي عليه اذا مات و يقوم على قبره ثم انه أرسل الى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منه قميصه ليكفن فيه فأرسل اليه القميص الفوقاني فرده وطلب منه الذي يلي جلده ليكفن فيه فأرسله اليه فقال عمر رضي الله عنه لم تعطي قميصك للرجس النجس فقال صلى الله عليه وسلم ان قميصي لا يغني عنه من الله شيأ فلعل الله ان يدخل به ألفا في الاسلام وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله فانه رأسهم فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجوا أن ينفعه أسلم منهم يومئذ ألف فلما مات عبد الله جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه اسمه عبد الله فانه كان من فضلاء الصحابة وأصدقهم اسلاما وأكثرهم عبادة وأشرحهم صدرا يعرفه صلى الله عليه وسلم فقال لعبد الله صل عليه وادفنه فقال يا رسول الله ان لم تصل عليه لم يصل عليه مسلم فقام صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فقام عمر فحال بين رسول الله وبين القبلة لئلا يصلي عليه فنزلت هذه الآية فامتنع صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه وانما دفع القميص اليه تطييبا لقلب ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي وأكراما له لانه كان من الصالحين ولان العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ أسيرا ببدر لم يجدوا له قميصا وكان رجلا طويلا فكساه عبد الله بن أبي قميصه بأمره صلى الله عليه وسلم (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله) بتمتيعهم بالاموال والاولاد (أن يعذبهم بها في الدنيا) بمكابدتهم الشدائد في شأنها (وتزهق انفسهم وهم كافرون) أي فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها (واذا أنزلت سورة) من القرآن مشتملة على الامر (أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك) في التخلف عن الغزو (أولوا الطول منهم) أي ذووا السعة في المال والقدرة على الجهاد بالبدن من رؤساء المنافقين عبد الله بن أبي وجد بن قيس ومعتب بن قيس (وقالوا ذرنا) يا محمد (نكن مع القاعدين) أي من الضعفاء من الناس والساكنين في البلد بغير عذر (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) أي مع النساء اللاتي يلزمن البيوت (وطبع على قلوبهم) أي منعت من حصول الايمان (فهم) بسبب ذلك (لا يفقهون) أي لا يفهمون أسرار حكمة الله في الامر بالجهاد (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أي ان تخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو فقد توجه اليه من هو خير منهم وأخلص نية واعتقادا (وأولئك لهم الخيرات) أي منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة (وأولئك هم المفلحون) أي المتخلصون من السخط والعذاب (أعد الله لهم) أي هيأ لهم في الآخرة (جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها) أي مقيمين في الجنة (ذلك) أي نيل الكرامة العظمى (الفوز العظيم) الذي لا فوز وراءه (وجاء) اليك يا أشرف الخلق (المعذرون) أي الذين أتوا باعذار كاذبة وتكلفوا عذرا بباطل (من الاعراب) أي من بني غفار (ليؤذن لهم) بالتخلف عن غزوة تبوك فلم يعذرهم الله (وقعد) عن الجهاد بغير اذن (الذين كذبوا الله ورسوله) في ادعائهم الايمان وهم منافقوا

الاعراب الذين لم يجيئوا الى الرسول ولم يعتذروا (سيصيب الذين كفروا منهم) أى المعذرين لا من أسلم منهم (عذاب أليم) فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار (ليس الضعفاء) كالشيوخ (ولا على المرضى) من الشباب (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) فى الجهاد من الزاد والراحلة لفقرهم كمزينة وجهينة وبنى عذرة (حرج) أى اثم فى التخلف عن الجهاد (اذا نصحوا الله ورسوله) أى آمنوا بهما وأطاعوا الهما فى السر والعلن (ما على المحسنين من سبيل) أى ليس عليهم طريق الى ذمهم (والله غفور رحيم ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون) أى وليس على من أتوك يسألونك أن تحملهم الى غزوة تبوك ثم خرجوا من عندك يبكون لعدم وجدان ما ينفقون فى الجهاد سبيل فى لومهم ولذلك سموا البكائين وهم سبعة من الانصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن عنمة وعبد الله بن مغفل وعبد الله بن زيد فانهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغز معك فقال صلى الله عليه وسلم لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون فحمل العباس منهم اثنين وعثمان ثلاثة زيادة على الجيش الذى جهزه وهو ألف وحمل يامين بن عمرو النضرى اثنين (انما السبيل) بالمعاتبة (على الذين يستأذنونك) فى التخلف (وهم أغنياء) أى قادرون على أهبة الخروج معك (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) أى رضوا بالدناءة والانتظام فى جملة النساء (وطبع الله على قلوبهم فهم) لاجل ذلك الطبع (لا يعلمون) ما فى الجهاد من منافع الدين والدنيا (يعتذرون) أى هؤلاء المنافقون وهم بضع وثمانون رجلا (اليكم) فى التخلف (اذا رجعتم) من غزوة تبوك (اليهم) بالاعذار الباطلة (قل) يا أشرف الخلق لهم (لا تعتذروا) عما عندكم من المعاذير (لن نؤمن لكم) أى لن نصدقكم فيما تقولون من العلل أبدا (قد نبأنا الله من أخباركم) أى قد أعلمنا الله بعض أحوالكم مما فى ضمائركم من الخبث والنفاق والمكر (وسيرى الله عملكم ورسوله) أى وسيقع عملكم معلوما لله ولرسوله هل تبقون على نفاقكم أم تتوبون منه (ثم تردون) يوم القيامة (الى عالم الغيب والشهادة) للجزاء بما ظهر منكم من الاعمال (فينبئكم) عند وقوفكم بين يديه (بما كنتم تعملون) فى الدنيا أى فيجازيكم عليه (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم) أى اذا رجعتم اليهم من تبوك انهم معذورون فى التخلف (لتعرضوا عنهم) أى لتعرضوا عن ذمهم اعراض الصفح (فأعرضوا عنهم) اعراض المقت وترك الكلام قال مقاتل قال النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم (انهم رجس) أى ان خبث باطنهم رجس روحانى فكما يجب على الانسان الاحتراز عن الارجاس الجسمانية يجب الاحتراز عن الارجاس الروحانية حذرا من ان يميل طبع الانسان الى الاعمال القبيحة (ومأواهم جهنم) أى وكفتهم النار توبيخا فلا تتكلفوا أنتم فى ذلك (جزاء بما كانوا يكسبون) فى الدنيا من فنون السيآت (يحلفون لكم لترضوا عنهم) بالحلف وتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم (فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى فان رضيتم أيها المؤمنون عنهم بما حلفوا لكم فلا ينفعهم رضاكم لان الله ساخط عليهم ولا أثر لرضاكم لكون ارادتكم مخالفة لارادة الله تعالى وذلك لا يجوز (الاعراب) أى جنس أهل البدو (أشد كفرا ونفاقا) من أهل الحضر لتوحشهم واستيلاء الهواء الحار اليابس عليهم وبعدهم عن أهل العلم (وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) أى

أحق بان لا يعلموا مقادير التكاليف والاحكام (والله عليم) بما فى قلوب خلقه (حكيم) فيما فرض من فرائضه (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما) أى من الاعراب أسد وغطفان من يعتقد ان الذى ينفقه فى سبيل الله خسران لانه لا ينفق الا رياء وخوفا من المسلمين لا لوجه الله (ويتربص بكم الدوائر) أى ينتظران تقلب الامور عليكم بموت الرسول وان يعلو عليكم المشركون فيتخلص مما ابتلى به من الانفاق (عليهم دائرة السوء) أى عليهم يدور البلاء والحزن فلا يرون فى محمد صلى الله عليه وسلم ودينه الا ما يحزنهم (والله سميع) لقولهم عند الانفاق من كلام لا خير فيه (عليم) بنياتهم الفاسدة (ومن الاعراب) مزينة وجهينة وأسلم (من يؤمن بالله واليوم الآخر) فى السر والعلانية (ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) أى ويتخذ لنفسه ما ينفقه فى سبيل الله سببا لحصول القربات الى الله فى الدرجات وسببا لحصول دعوات الرسول فانه صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم (ألا) أى تنبهوا (انها) أى ان نفقتهم (قربة لهم) الى الله فى الدرجات (سيدخلهم الله فى رحمته) أى جنته وهذا تفسير للقربة ووعد لهم باحاطة رحمته الواسعة كما ان قوله تعالى والله سميع عليم تهديد للاولين عقب الدعاء عليهم والسين للدلالة على تحقق الوقوع (ان الله غفور) لسيآتهم (رحيم) بهم حيث وفقهم لهذه الطاعات وروى أبو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أسلم وغفار وشئ من جهينة ومزينة خير عند الله يوم القيامة من تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وغطفان (والسابقون الاولون) أى فى الهجرة والنصرة (من المهاجرين) هم الذين صلوا الى القبلتين وشهدوا بدرا كما قاله ابن عباس (والانصار) وهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الاولى وكانوا سبعة نفر والعقبة الثانية وكانوا اثنى عشر رجلا والعقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير (والذين اتبعوهم) أى الفريقين (باحسان) وهم الذين يذكرون المهاجرين والانصار بالجنة والرحمة والدعاء لهم ويذكرون محاسنهم (رضى الله عنهم) لاعمالهم وكثرة طاعاتهم (ورضوا عنه) لما أفاض عليهم من نعمه الجليلة فى الدنيا والآخرة والسابقون مبتدأ وخبره جملة رضى الله عنهم (وأعد لهم) فى الآخرة (جنات تجرى تحتها الانهار) وقرأ ابن كثير من تحتها بكلمة من كما فى سائر المواضع وعلى هذا لزم صلة الميم فى المواضع الثلاثة والباقون بغير كلمة من وفتح التاء (خالدين فيها أبدا) أى من غير انتهاء (ذلك) أى الرضوان والجنات (الفوز العظيم) أى النجاة الوافرة (وممن حولكم) أى حول بلدتكم (من الاعراب منافقون) وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار وكانوا نازلين حول المدينة (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) أى من أهل المدينة كعبد الله بن أبى وأصحابه من ثبتوا على النفاق ولم يتوبوا عنه (لا تعلمهم) أى لا تعلم نفاقهم مع قوة خاطرك وصفاء نفسك لشدة ابطان الكفر واظهار الاخلاص (نحن نعلمهم) أى نحن نعلم سرائرهم التى فى ضمائرهم (سنعذبهم مرتين) بعذاب الدنيا بجميع أقسامه وعذاب القبر (ثم يردون) فى الآخرة (الى عذاب عظيم) هو النار المؤبدة (وآخرون) أى ومن أهل المدينة قوم آخرون أبو لبابة مروان بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ووديعة ابن حزام (اعترفوا بذنوبهم) أى أقروا بذنوبهم وأظهروا الندامة على التخلف (خلطوا عملا صالحا) وهو خروجهم مع الرسول الى سائر الغزوات (وآخر سيئا) وهو تخلفهم عن غزوة تبوك أى خلطوا كل واحد من العمل الصالح العمل السيئ بالآخر (عسى الله أن يتوب عليهم) أى ثبت ان يقبل الله توبتهم (ان الله غفور رحيم) يتجاوز عن سيآت التائب ويتفضل عليه (خذ من أموالهم صدقة) أى لما أظهروا

التوبة عن تخلفهم عن غزوة تبوك وهم أقروا بان السبب المؤدى لذلك التخلف حبهم للاموال أمر الله رسوله ان يأخذ منهم الزكوات الواجبة عليهم فكأنه قيل لهم انما يظهر صحة قولكم فى ادعاء هذه التوبة لو أخرجتم الزكاة الواجبة بانشراح قلب لان الدعوى انما يشهد عليها الامتحان فعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان فان أدوا تلك الزكوات عن طيبة النفس ظهر كونهم صادقين فى تلك التوبة والا فهم كاذبون (تطهرهم) أى تطهرهم أنت أيها الآخذ بأخذها منهم عن نجاسة الذنوب (وتزكيهم بها) أى ترفعهم بتلك الصدقة حسناتهم الى مراتب المخلصين وتثنى عليهم عند اخراجها الى الفقراء وتجعل النقصان الحاصل بسبب اخراج قدر الزكاة سببا لزيادة البركة (وصل عليهم) أى ادع لهم قال الشافعى رضى الله عنه والسنة للامام اذا أخذ الصدقة ان يدعو للمتصدق ويقول آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت وجعله لك طهورا (ان صلاتك سكن لهم) أى ان دعاءك يوجب طمأنينة قلوبهم (والله سميع) لقولهم (عليم) بنياتهم قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم صلاتك على التوحيد والباقون صلواتك على الجمع (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) أى ألم يعلم أولئك التائبون قبل توبتهم وصدقتهم ان الله يقبل التوبة الصحيحة عن عباده المخلصين ويقبل الصدقات الصادرة عن خلوص النية (وأن الله هو التواب الرحيم) أى وألم يعلموا انه تعالى المنفرد ببلوغ الغاية القصوى من قبول التوبة وايصال الرحمة (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) أى وقل يا أشرف الخلق اعملوا ما تشاؤن من الاعمال فسيرى الله عملكم خيرا كان أو شرا ويراه رسوله باطلاع الله اياه على أعمالكم ويراه المؤمنون بقذف الله تعالى فى قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المفسدين فان لعملكم فى الدنيا حكما وفى الآخرة حكما أما حكمه فى الدنيا فانه يراه الله والرسول والمسلمون فان كان طاعة حصل منه الثناء العظيم فى الدنيا والثواب العظيم فى الآخرة وان كان معصية حصل منه الذم العظيم فى الدنيا والعقاب الشديد فى الآخرة وهذا ترغيب عظيم للمطيعين وترهيب عظيم للمذنبين وفى الخبر لو أن رجلا عمل فى صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله الى الناس كائنا ما كان (وستردون) بعد الموت (الى عالم الغيب والشهادة) والمراد من الرد تعريف عقاب الخزى والفضيحة (فينبئكم بما كنتم تعملون) فى الدنيا أى فيعرفكم أحوال أعمالكم من خير وشر فيجازيكم عليها لان المجازاة من الله تعالى فى الآخرة لا تحصل الا بعد التعريف ليعرف كل أحد ان الذى وصل اليه عدل لا ظلم (وآخرون مرجون) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم مرجؤن بهمزة مضمومة بعدها واو ساكنة والباقون مرجون بدون تلك الهمزة أى ومن أهل المدينة قوم من المتخلفين غير المعترفين مؤخرون عن قبول التوبة (لامر الله) أى لحكمه قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت هذه الآية فى كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية لم يسارعوا الى التوبة والاعتذار فنزل قوله تعالى وآخرون مرجون لامر الله فوقف الرسول أمرهم بعد نزول هذه الآية خمسين ليلة بقدر مدة التخلف اذ كانت غيبته صلى الله عليه وسلم عن المدينة خمسين ليلة ونهى الناس عن مجالستهم وأمرهم باعتزال نسائهم وارسالهن الى أهاليهن لانهم لما تمتعوا بالراحة فى المدينة مع تعب غيرهم فى السفر عوقبوا بهجرهم تلك المدة فلما مضى خمسون يوما نزلت توبتهم بقوله تعالى لقد تاب الله على النبى وبقوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت (اما يعذبهم واما يتوب عليهم) وهذه الجملة فى محل نصب على الحال أى ومنهم هؤلاء اما معذبين واما متوبا عليهم وهؤلاء القوم كانوا نادمين على تأخرهم

عن الغزو ولم يحكم الله بكونهم تائبين بل قال اما يعذبهم واما يتوب عليهم فلعلهم خافوا من أمر الرسول بايذائهم أو خافوا من الخجلة والفضيحة وعلى هذا التقدير فتوبتهم غير صحيحة فاستمر عدم قبول التوبة الى أن سهل أحوال الخلق فى قدحهم ومدحهم عندهم فعند ذلك ندموا على المعصية لنفس كونها معصية وعند ذلك صحت توبتهم وكلمة اما للشك بالنسبة لاعتقاد العباد والمراد منه ليكن أمرهم على الخوف والرجاء فجعل أناس يقولون هلكوا اذا لم ينزل الله لهم عذرا وأناس يقولون عسى الله أن يغفر لهم فالناس مختلفون فى شأنهم فصاروا عندهم مرجئين لامر الله تعالى (والله عليم) بما فى قلوب هؤلاء المؤمنين (حكيم) فيما يحكم فيهم وفيما يفعل بهم (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا) أى ومنهم الذين بنوا مسجدا وكانوا اثنى عشر رجلا من المنافقين لاضرار أهل مسجد قبا (وكفرا) أى ولتقوية الكفر بالطعن على النبى صلى الله عليه وسلم ودين الاسلام (وتفريقا بين المؤمنين) الذين كانوا يصلون فى مسجد قبا أى لكى يصلى طائفة من المؤمنين فى ذلك المسجد فيؤدى ذلك الى اختلاف الكلمة (وارصادا لمن حارب الله ورسوله) أى انتظارا لابى عامر الراهب الفاسق (من قبل) متعلق باتخذوا أى اتخذوا ذلك المسجد من قبل أن ينافق بالتخلف حيث كانوا بنوه قبل غزوة تبوك وكان أبو عامر قد تنصر فى الجاهلية وترهب أى لبس المسوح وطلب العلم فلما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة عاداه لانه زالت رياسته وقال للنبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم ولم يزل يقاتله صلى الله عليه وسلم الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن خرج هاربا الى الشام وأرسل الى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا الى مسجدا فانى ذاهب الى قيصر وآت من عنده بجند فأخرج محمدا وأصحابه من المدينة فبنوا هذا المسجد الى جنب مسجد قباء وانتظروا مجىء أبى عامر ليصلى بهم فى ذلك المسجد (وليحلفن ان أردنا الا الحسنى) أى قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أردنا ببنائه هذا المسجد الا الاحسان الى المؤمنين وهو الرفق بهم فى التوسعة على أهل الضعف والعلة والعجز عن الذهاب الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله يشهد انهم لكاذبون) فى حلفهم (لا تقم فيه أبدا) أى لا تصل فى ذلك المسجد أبدا روى لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك نزل بذى أوان وهو موضع قريب من المدينة فأتاه المنافقون وسألوه اتيان مسجدهم فنزلت عليه صلى الله عليه وسلم هذه الآية فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشيا فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه ففعلوا ذلك وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل ذلك الموضع مكان كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ومات أبو عامر الفاسق بالشام بقنسرين غريبا وحيدا (لمسجد أسس على التقوى) أى بنى أصله على طاعة الله تعالى وذكره (من أول يوم) من أيام تأسيسه فقد أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد قباء وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج صبيحة الجمعة فدخل المدينة (أحق أن تقوم فيه) أى أن تصلى فيه ذلك المسجد (فيه) أى فى هذا المسجد (رجال يحبون أن يتطهروا) من الاحداث والجنابات والنجاسات وسائر النجاسات وهم بنو عامر بن عوف الذين بنوه (والله يحب المطهرين) أى يرضى عنهم روى ابن خزيمة عن عويمر ابن ساعدة أنه صلى الله عليه وسلم أتاهم فى مسجد قباء فقال ان الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذى تطهرون به أى الذى تحصلون الطهارة بسببه قالوا والله يا رسول الله ما نعلم شيأ الا أنه كان لنا جيران من اليهود وكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما

غسلوا وفى حديث رواه البزار فقالوا فى جواب سؤاله لهم نتبع الحجارة بالماء فقال هو ذاك فعليكموه (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان) أى أبعدما علم حالهم من أسس بنيان دينه على قاعدة قوية هى الخوف من عقاب الله والرغبة فى ثوابه (خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار) أى أم من أسس بنيان دينه على طرف مسيل متصدع وهو كفر بالله واضرار بعباد الله (فانهار به فى نار جهنم) أى فسقط المسيل مصاحباله أى للمؤسس فى قعر نار جهنم أى مثل الضلال مثل شفا جرف هار من أودية جهنم فكان قريب السقوط ولكونه على طرف جهنم كان اذا انهار فانما ينهار فى قعر جهنم وقرأ نافع وابن عامر أسس مبنيا للمفعول وبنيانه بالرفع نائب الفاعل (والله لا يهدى القوم الظالمين) أى لا يغفر للمنافقين ولا ينجيهم (لا يزال بنياهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) أى لا يزال مسجدهم سبب شك فى الدين لان المنافقين عظم فرحهم ببناء مسجد الضرر فلما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتخريبه ثقل ذلك عليهم وازداد بغضهم له وازداد ارتيابهم فى نبوته وعظم خوفهم منه فى جميع الاوقات وصاروا مرتابين فى أن رسول الله هل يخلى سبيلهم أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم (الا أن تقطع قلوبهم) وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة بفتح التاء والطاء المشددة والباقون بضم التاء مبنى للمجهول وعن ابن كثير بفتح الطاء وسكون القاف على الخطاب وقلوبهم بالنصب أى الا أن تجعل قلوبهم قطعا بالسيف وقرأ الحسن ومجاهد وقتادة ويعقوب الى أن تقطع وأبو حيوة كذلك الا أنه قرأ بضم التاء وفتح القاف وكسر الطاء مشددة على الخطاب للرسول وقلوبهم بالنصب وفى قراءة عبد الله ولو قطعت قلوبهم بالبناء للمجهول وعن طلحة ولو قطعت قلوبهم على الخطاب والمعنى أن هذه الريبة باقية فى قلوبهم أبدا ويموتون على هذا النفاق والا بمعنى الى بدليل القراءة الشاذة (والله عليم) بأحوالهم (حكيم) فى الاحكام التى يحكم بها عليهم (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله) وهذا استئناف لبيان البيع الذى يستلزمه الشراء كأنه قيل كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة فقيل يقاتلو فى سبيل الله أى يبذلون أنفسهم وأموالهم فى طاعة الله والمؤمن متى قاتل فى سبيل الله حتى يقتله كافر وأنفق ماله فى سبيل الله فانه يأخذ من الله فى الآخرة الجنة جزاء لما فعل وهو تسليم المبيع من الانفس والاموال (فيقتلون ويقتلون) قرأ حمزة والكسائى بتقديم المبنى للمفعول على المبنى للفاعل والباقون بعكسه فمعنى تقديم الفاعل على المفعول أنهم يقتلون الكفار ولا يرجعون عنهم الى أن يصير وامقتولين وأما تقديم المفعول على الفاعل فالمعنى أن طائفة كبيرة من المسلمين وان صار وامقتولين لم يصر ذلك رادعا للباقين عن المقاتلة بل يبقون بعد ذلك مقاتلين مع الاعداء قاتلين لهم بقدر الامكان (وعدا عليه حقا) أى وعدهم الله وعدا ثابتا على الله (فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله) أى لا أحد أوفى بعهده من الله تعالى (فاستبشروا) أى فافرحوا غاية الفرح (ببيعكم الذى بايعتم به) أى بجهادكم الذى فزتم به بالجنة (وذلك) أى الجنة التى هى ثمن بذل الانفس والاموال (هو الفوز العظيم) أى فلا فوز أعظم منه (التائبون) وهو رفع على المدح أى هم التائبون من كل معصية كما يدل عليه قراءة عبد الله بن مسعود وأبى والاعمش التائبين بالياء الى قوله تعالى والحافظين اما نصبا على المدح أو جرا صفة للمؤمنين ويجوز أن يكون التائبون رفعا على البدل من الواو فى يقاتلون واعلم أن التوبة المقبولة انما تحصل باجتماع أربعة أمور أولها احتراق القلب عند صدور المعصية ثانيها الندم على ما مضى ثالثها العزم على الترك فى المستقبل ورابعها أن يكون الحامل له على

هذه الامور الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته فان كان غرضه منها دفع مذمة الناس وتحصيل مدحهم أولغرض آخر من الاغراض الدنيوية فليس بتائب ولا بد من رد المظالم الى أهلها ان كانت (العابدون) قال ابن عباس رضى الله عنهما الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم (الحامدون) أى الذين يقومون بحق شكر الله تعالى على نعمه دينا ودنيا ويجعلون اظهار ذلك عادة لهم (السائحون) أى الصائمون لقوله صلى الله عليه وسلم سياحة أمتى الصيام وقال عكرمة أى طلاب العلم فانهم ينتقلون من بلد الى بلد (الراكعون الساجدون) أى المصلون الصلوات الخمس (الآمرون بالمعروف) أى بالايمان والطاعة (والناهون عن المنكر) أى عن الشرك والمعاصى (والحافظون لحدود الله) أى لتكاليف الله المتعلقة بالعبادات وبالمعاملات (وبشر المؤمنين) الموصوفين بهذه الصفات بالجنة (ما كان للنبي) أى ما جاز لمحمد صلى الله عليه وسلم (والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) أى ذوى قرابات لهم (من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أى أهل النار بأن ماتوا على الكفر وسبب نزول هذه الآية استغفار ناس لآبائهم الذين ماتوا على الكفر روى عن على رضى الله عنه أنه قال سمعت رجلا يستغفر لابويه وهما مشركان فقلت أتستغفر لابويك وهما مشركان قال أليس قد استغفر ابراهيم لابيه فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل ما كان للنبي والذين آمنوا الآية فروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان المسلمون يستغفرون لآبائهم المشركين حتى نزلت هذه الآية فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لامواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للاحياء حتى يموتوا ثم أنزل الله (وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه) أى الا لاجل موعدة وعدها ابراهيم أباه بقوله لاستغفرن لك أى لاطلبن مغفرة لك بالتوفيق للايمان فانه يمحو ما قبله (فلما تبين له أنه عدو لله) أى انه مستمر على الكفر ومات عليه (تبرأ منه) أى ترك الاستغفار له أى ان ابراهيم استغفر لابيه ما كان حيا فلما مات أمسك عن الاستغفار له وروى ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال لما مرض أبو طالب أتاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال المسلمون هذا محمد يستغفر لعمه وقد استغفر ابراهيم لابيه فاستغفروا لقراباتهم من المشركين فأنزل الله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا الآية ثم أنزل وما كان استغفار ابراهيم الآية وروى ابن جرير عن عمرو بن دينار ان النبي صلى الله عليه وسلم قال استغفر ابراهيم لابيه وهو مشرك فلا أزال أستغفر لابي طالب حتى ينهاني عنه ربي فقال أصحابه لنستغفرن لآبائنا كما استغفر النبي لعمه فأنزل الله ما كان للنبي الآية الى قوله تعالى تبرأ منه فظهر بهذه الاخبار ان الآية نزلت فى استغفار المسلمين لاقاربهم المشركين لا فى حق أبي طالب لان هذه السورة كلها مدنية نزلت بعد تبوك وبينها وبين موت أبي طالب نحو اثنتى عشرة سنة وأيضا ان عم ابراهيم آزر كان يتخذ أصناما آلهة ولم ينقل عن أبي طالب انه اتخذ أصناما آلهة أو عبد حجرا أو نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن عبادة ربه وانما هو ترك النطق بالشهادتين لخوف مسبة لا للعناد للاسلام أو ترك بعض الواجبات ومع ذلك قلبه مشحون بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم ومثل هذا ناج فى الآخرة على مقتضى ديننا فلا يليق بالحكمة ولا بمحاسن الشريعة الغراء ولا بقواعد الائمة من أهل الكلام أن يكون هو وآزر عم ابراهيم فى مرتبة واحدة فان أبا طالب رباه صلى الله عليه وسلم صغيرا وآواه كبيرا ونصره وعزره ووقره وذب عنه ومدحه ووصى باتباعه وأما ما روى ان عليا ضحك على المنبر ثم قال ذكرت قول أبي طالب ظهر علينا وأنا أصلى ببطن نخلة فقال ماذا تصنعان فدعاه النبي الى الاسلام فقال ما بالذى تقول من بأس ولكن والله لا يعلونى استى أبدا

فهذا في أول الاسلام قبل ان تفرض الصلاة وقد أقر بأنه لا بأس بالتوحيد وا باؤه عن صلاة النفل لا يدل على اباثه عن التوحيد وليس في حديث عمرو بن دينار السابق دلالة قطعية على شركه وأما قوله صلى الله عليه وسلم استغفر ابراهيم لابيه وهو مشرك فلا أزال أستغفر لابي طالب فهذا يمكن ان يكون معناه أن ابراهيم استغفر لابيه مع شركه فكيف لا أستغفر أنا لابي طالب مع خطيئته دون الشرك فلا أزال أستغفر له حتى ينهاني عنه ربي ولم ينه صلى الله عليه وسلم بل نهى عن الاستغفار للمشركين لا لخصوص عمه كما صرح بهذا ما روى عن قتادة ان رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه عن الاستغفار لآبائهم فقال والله انى لاستغفرن لابي أي لعمي كما استغفر ابراهيم لابيه فأنزل الله ما كان للنبي والذين آمنوا الآية فقال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن لا أستغفر لمن كان كافرا فقوله صلى الله عليه وسلم انى لاستغفرن لابي ولم يقل أمرت أن لا أستغفر له بل قال لمن مات مشركا جواب لسؤال أصحابه مع اشارة خفية الى ان عمه لم يكن مشركا والله أعلم (ان ابراهيم لأواه) أي كثير الدعاء والتضرع (حليم) أي صبور على المحنة (وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) أي ما يجب ان يحترزوا عنه أي لما نزل المنع من الاستغفار للمشركين خاف المؤمنون من المؤاخذة بما صدر عنهم منه قبل المنع وقد مات قوم منهم قبل النهى من الاستغفار فوقع الخوف في قلوب المسلمين على من مات منهم انه كيف يكون حالهم فأزال الله تعالى ذلك الخوف عنهم بهذه الآية وبين انه تعالى لا يؤاخذهم بعمل الا بعد ان يبين لهم انه يجب عليهم ان يحترزوا عنه أي وما كان الله ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين بعد ان رزقكم الهداية ووفقكم للايمان به وبرسوله حتى يبين لكم بالوحي ما يجب الاحتراز عنه من محظورات الدين فلا تنزجروا عما نهيتم عنه (ان الله بكل شيء عليم) فيعلم حاجتهم الى بيان قبح ما لا يستقل العقل في معرفته فبين لهم ذلك (ان الله له ملك السموات والارض) من غير شريك له فيه (يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي) أي متولى الامور (ولا نصير) أي لما أمر الله بالبراءة من الكفار بين ان له ملك السموات والارض فاذا كان هو ناصرا لكم فهم لا يقدرون على اضراركم أي انكم ان صرتم محرومين عن معاونتهم فالاله الذي هو المالك للسموات والارض والمحيي والمميت ناصركم فلا يضركم ان ينقطعوا عنكم والواجب عليكم ان تنقادوا لحكم الله وتكليفه لكونه الهكم ولكونكم عبيده (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة) أي في الزمان الذي صعب الامر عليهم جدا في السفر الى تبوك وكانت لهم عسرة من الزاد وعسرة من الظهر وعسرة من الحر وعسرة من الماء فربما مص التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها حتى لا يبقى من التمرة الا النواة وكان معهم شيء من شعير مسوس فكان أحدهم اذا وضع اللقمة في فيه أخذ أنفه من نتن اللقمة وكان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم وكانوا قد خرجوا في قيظ شديد وأصابهم فيه عطش شديد حتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه ويشربه أي لقد عفى الله عن النبي في اذنه للمنافقين في التخلف عنه في غزوة تبوك وهو شيء صدر عنه من باب ترك الافضل لا انه ذنب يوجب عقابا وعفى الله على المهاجرين والانصار من الوساوس التي كانت تقع في قلوبهم في ساعة العسرة كما قال تعالى (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) أي من بعد ما قرب ان تميل قلوب بعضهم الى أن يفارق النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الغزو لحر شديد ولم ترد الميل عن الدين وربما وقع في قلوب بعضهم انا لا نقدر على قتال الروم وكيف لنا بالخلاص منها (ثم تاب عليهم) أي عفى الله عنهم ما وقع في قلوبهم من هذه الخواطر والوساوس النفسانية لما صبروا وندموا على ذلك الهم (انه بهم رؤف

رحيم) فلا يحملهم ما لا يطيقون من العبادة و يوصل اليهم المنافع (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أى وتاب الله على الثلاثة الذين أخروا فى قبول التوبة عن الطائفة الاولى ابن لبابة وأصحابه وهؤلاء الثلاثة كعب بن مالك الشاعر وهلال بن أمية الذى نزلت فيه آية اللعان ومرارة بن الربيع (حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت) أى أخر أمرهم الى ان ضاقت الارض عليهم مع سعتها بسبب مجانبة الاحباء ونظر الناس لهم بعين الاهانة لان النبى صلى الله عليه وسلم كان معرضا عنهم ومنع المؤمنين من مكالمتهم وأمرهم باعتزال أزواجهم و بقوا على هذه الحالة خمسين يوما (وضاقت عليهم أنفسهم) أى ضاقت قلوبهم اذا رجعوا الى أنفسهم لا يطمئنون بشئ بسبب تأخير أمرهم من قبول التوبة (وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه) أى علموا انه لا ملجأ لاحد من سخطه تعالى الا اليه بالتضرع (ثم تاب عليهم) أى ثم وفقهم للتوبة الصحيحة المقبولة (ليتوبوا) أى ليحصلوا التوبة (ان الله هو التواب الرحيم) ولما نزلت هذه الآية خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حجرته وهو عند أم سلمة فقال الله أكبر قد أنزل الله عذر أصحابنا فلما صلى الفجر ذكر ذلك لاصحابه وبشرهم بأن الله تاب عليهم فانطلقوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا عليهم ما نزل فيهم فقال كعب توبتى الى الله تعالى ان أخرج مالى صدقة فقال لا قلت فنصفه قال لا قلت فثلثه قال نعم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) فى مخالفة أمر الرسول (وكونوا مع الصادقين) أى مع الرسول وأصحابه فى الغزوات ولا تكونوا جالسين مع المنافقين فى البيوت وقرئ شاذة من الصادقين فعلى هذا فمعنى من أى كونوا ملازمين الصدق روى ان واحدا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال انى رجل أريد ان أومن بك الا انى أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب والناس يقولون انك تحرم هذه الاشياء ولا طاقة لى على تركها بأسرها فان قنعت منى بترك واحد منها آمنت بك فقال صلى الله عليه وسلم أترك الكذب فقبل ذلك ثم أسلم فلما خرج من عند النبى صلى الله عليه وسلم عرضوا عليه الخمر فقال ان شربت وسألنى الرسول عن شربها وكذبت فقد نقضت العهد وان صدقت أقام الحد على فتركها ثم عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه وكذا فى السرقة فتاب عن الكل فعاد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما أحسن ما فعلت لما منعتنى عن الكذب انسدت أبواب المعاصى على (ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب) أى ما جاز لاهل دار الهجرة ومن حولهم من سكان البوادى (أن يتخلفوا عن رسول الله) اذا دعاهم وأمرهم لانه تتعين الاجابة والطاعة لرسول الله وكذلك غيره من الولاة والائمة اذا ندبوا وعينوا (ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) أى ليس لهم ان يكرهوا لانفسهم ما يرضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه (ذلك) أى وجوب المتابعة لرسول الله (بأنهم لا يصيبهم ظمأ) أى شدة عطش (ولا نصب) أى تعب (ولا مخمصة) أى مجاعة شديدة يظهر بها ضمور البطن (فى سبيل الله) أى فى طريق دينه (ولا يطؤن) أى لا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم واخفاف بعيرهم (موطئا) أى دوسا (يغيظ الكفار) أى يغضبهم بذلك (ولا ينالون من عدو نيلا) أى شيأ من الأسر أو قتلا أو هزيمة (الا كتب لهم به) أى بكل واحد من الامور الخمسة (عمل صالح) مستوجب للثواب ومن قصد طاعة الله كان جميع حركاته وسكناته حسنات مكتوبة عند الله (ان الله لا يضيع أجر المحسنين) أى لا يترك ثوابهم (ولا ينفقون نفقة صغيرة) ولو تمرة أو علاقة سوط (ولا كبيرة) كما أنفق عثمان فى جيش العسرة (ولا يقطعون واديا) أى ولا يجاوزون مسلكا فى سيرهم (الا كتب لهم) أى الا كتب الله لهم ذلك الانفاق والسير فى الذهاب

والرجوع

والرجوع (ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) أى ليجزيهم الله على أحسن أعمالهم وهو الواجب والمندوب دون المباح أو ليجزيهم الله جزاء هو أحسن من أعمالهم وهو الثواب فالاحسن صفة عملهم على المعنى الاول وصفة الجزاء على الثانى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) أى ما استقام لهم ان ينفروا جميعا لنحو غزو وطلب علم فانه يخل بامر المعاش هذه الآية اما كلام لا تعلق له بالجهاد واما من بقية أحكام الجهاد (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) فعلى الاول يقال وما كان المؤمنون لينفروا كافة الى حضرة الرسول ليتفقهوا فى الدين بل ذلك غير واجب وغير جائز وليس حال النفقة كحال الجهاد معه صلى الله عليه وسلم الذى يجب أن يخرج فيه كل من لا عذر له فهلا نفر من كل فرقة من فرق الساكنين فى البلاد طائفة الى حضرة الرسول ليتفقهوا فى الدين ويعودوا الى أوطانهم فينذروا قومهم لكى يحذرون عقاب الله تعالى بامتثال أمره واجتناب نهيه وعلى هذا التقدير فكون المراد وجوب الخروج الى حضرة الرسول للتعلم لانه يحدث كل وقت تكليف جديد أما فى زماننا فقد صارت الشريعة مستقرة فاذا أمكنه تحصيل العلم فى الوطن لم يكن السفر واجبا وعلى الاحتمال الثانى يقال ان النبى لما بالغ فى الكشف عن عيوب المنافقين فى تخلفهم عن غزوة تبوك قال المسلمون والله لا نتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن سرية بعثها فلما قدم الرسول المدينة من تبوك وأرسل السرايا الى الكفار نفر المسلمون جميعا الى الغزو وتركوا النبى وحده فى المدينة فنزلت هذه الآية فالمعنى لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا جميعا ويتركوا النبى بل يجب أن ينقسموا قسمين طائفة تنفر الى الجهاد وقهر الكفار وطائفة تكون مع رسول الله لتعلم العلم والفقه فى الدين لان أحكام الشريعة كانت تتجدد شيأ بعد شئ والماكثون يحفظون ما تجدد فاذا قدم الغزاة علموا ما تجدد فى غيبتهم وبهذا الطريق يتم أمر الدين والمعنى فهلا نفر من كل فرقة من المقيمين مع رسول الله طائفة الى جهاد العدو ليتفقه المقيمون فى الدين بسبب ملازمتهم خدمة الرسول وليخبروا قومهم الخارجين الى الجهاد اذا رجع الخارجون من جهادهم اليهم بما حصلوا فى أيام غيبتهم من العلوم لكى يحذرون معاصى الله تعالى عند ذلك التعلم (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أى لما أمرهم الله بقتال المشركين كافة أرشدهم الى الطريق الاصوب الاصلح وهو ان يبدؤا بقتال الاقرب فالاقرب حتى يصلوا الى الأبعد فالابعد وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة فان أمر الدعوة وقع على هذا الترتيب فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل أولا قومه ثم انتقل منهم الى قتال سائر العرب ثم الى قتال أهل الكتاب وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك ثم انتقل الى غزو الروم والشام فكان فتحه فى زمن الصحابة ثم انهم انقلبوا الى العراق (وليجدوا فيكم غلظة) أى شدة عظيمة وشجاعة (واعلموا أن الله مع المتقين) أى معينهم بالنصرة على أعدائهم والمراد ان يكون الاقدام على الجهاد بسبب تقوى الله لا بسبب طلب المال والجاه (واذا ما أنزلت سورة) من سور القرآن والحال ان المنافقين ليسوا حاضرين مجلس نزولها وليس فى السورة فضيحة لهم (فمنهم من يقول) أى فمن المنافقين فريق يقول لاصحابه استهزاء بالقرآن والمؤمنين (أيكم زادته هذه) السورة (ايمانا) قال تعالى تعيينا لحالهم (فأما الذين آمنوا) بالله تعالى وبما جاء من عنده (فزادتهم) أى هذه السورة (ايمانا) بانضمام ايمانهم بما فيها بايمانهم السابق لانهم يقروا عند نزولها بانها حق من عند الله (وهم يستبشرون) بنزولها لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية (وأما الذين فى قلوبهم مرض) أى نفاق وسوء عقيدة (فزادتهم) أى هذه السورة (رجسا الى رجسهم) عقيدة باطلة

مضمومة الى عقيدتهم الباطلة فانهم كانوا مكذبين بالسورة النازلة قبل ذلك والآن صاروا مكذبين بهذه السورة الجديدة فقد انضم كفر الى كفروانهم كانوا فى العداوة والاستنباط وجوه المكر والآن ازدادت تلك الاخلاق الذميمة بسبب نزول هذه السورة الجديدة (وماتوا وهم كافرون) وهذه الحالة أقبح من الحالة الاولى فان الاولى ازدياد الرجاسة وهذه مداومة الكفر وموتهم عليه (أولا يرون) أى المنافقون فالاستفهام للتوبيخ وقرأ حمزة بالتاء على الخطاب للمؤمنين فالاستفهام للتعجيب أى ألا ينظرون ولا يرون (أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين) أى انهم يبتلون بأفانين البليات مرارا كثيرة من المرض والجوع ومن اظهار الفضيحة على نفاقهم وعلى تخلفهم من الغزو (ثم لا يتوبون) من نفاقهم (ولاهم يذكرون) بتلك الفتن الموجبة للتوبة وقوله تعالى ثم لا يتوبون ومابعده عطف على لا يرون داخل تحت الانكار والتوبيخ على قراءة الجمهور وعطف على يفتنون على قراءة حمزة (واذا ما أنزلت سورة) فيها بيان حالهم وكانوا حاضرين مجلس نزولها (نظر بعضهم الى بعض) أى تغامزوا بالعيون يدبرون الهرب ليتخلصوا عن تأذى سماعها يقولون بطريق الاشارة (هل يراكم من أحد) من المسلمين ان قمتم من المجلس (ثم انصرفوا) جميعا عن مجلس نزول الوحى خوفا من الافتضاح أو غير ذلك (صرف الله قلوبهم) عن الايمان وعن استماع القرآن (بانهم قوم لا يفقهون) لسوء الفهم وعدم التدبر (لقد جاءكم) أيها العرب (رسول) عظيم الشأن (من أنفسكم) أى من جنسكم بشر عربى قرشى مثلكم وقرئ بفتح الفاء أى من أشرفكم وأفضلكم قيل هذه قراءة فاطمة وعائشة رضى الله عنهما (عزيز عليه ماعنتم) أى شاق شديد على هذا الرسول ماعنتم فهو يخاف عليكم الوقوع فى العذاب (حريص عليكم) فى ايمانكم وصلاح حالكم فهو شديد الرغبة على ايصال الخيرات اليكم فى الدنيا والآخرة (بالمؤمنين) أى بجميعهم (رؤف رحيم) فهو تعالى شديد الرحمة بالطائعين منهم مريد الانعام على المذنبين (فان تولوا) أى فان أعرض هؤلاء المنافقون والكفار عن الايمان والتوبة وناصبوك للحرب (فقل حسبى الله) أى يكفينى الله فهو ثقتى (لا اله الا هو) أى لا حافظ ولا ناصر الا هو (عليه توكلت) أى وثقت (وهو رب العرش) أى السرير (العظيم) فان جعل صفة للرب فمعنى العظمة هى وجوب الوجود والتقدس عن الجسمية والاجزاء وكمال العلم والقدرة والتنزه عن ان يتمثل فى الاوهام وتصل اليه الافهام وان جعل صفة للعرش فمعنى العظمة كبر الجرم واتساع الجوانب ووجود العرش أمر مشهور والكفار سمعوه من اسلافهم أو من اليهود والنصارى

(سورة يونس مكية الا قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين فانها مدنية لانها نزلت فى اليهود مائة وتسع آيات وكلماتها ألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وحروفها سبعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفا)

(بسم الله الرحمن الرحيم الر تلك آيات الكتاب الحكيم) أى تلك الآيات الحاصلة فى سورة الر هى آيات ذلك الكتاب المحكم الذى لا يمحوه الماء ولا يغيره كرور الدهر (أكان للناس) أى لاهل مكة (عجبا أن أوحينا) أى ايحاؤنا (الى رجل منهم) أى من أهل مكة (أن أنذر الناس) أى انه أى الشأن قولنا أنذر الناس أى خوف جميع الناس كافة بالقرآن فان أهل مكة كانوا يقولون ان الله تعالى ما وجد رسولا الى خلقه الا يتيم أبى طالب (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) أى بان لهم منزلة

رفيعة عندربهم (قال الكافرون) أى المتعجبون (ان هذا الساحر مبين) قرابن كثير وعاصم وحمزة والكسائى بصيغة اسم الفاعل أى ان الكافرين لما جاءهم رسول منهم فأنذرهم وبشرهم قالوا متعجبين ان هذا الذى يدعى انه رسول وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ساحر ظاهر والباقون لسحر بكسر السين وسكون الحاء أى ان هذا القرآن لكذب ظاهر ووصف الكفار القرآن بكونه سحرا يدل على عظم القرآن عندهم من حيث تعذر عليهم فيه المعارضة فأرادوا بهذا الكلام ان القرآن كلام مزخرف حسن الظاهر ولكنه باطل فى الحقيقة وهذا ذم له أو أرادوا به انه لكمال فصاحته وتعذر مثله جار مجرى السحر وهذا مدح له وانما لم يؤمنوا به عنادا (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) أى مقدار ستة أيام معلومة (ثم استوى على العرش) وهو الجسم المحيط بسائر الاجسام والمعنى ثم تصرف الله فى ملكه وليس معناه انه تعالى خلق العرش بعد خلق السموات والارض لان تكوين العرش سابق على تخليق السموات والارضين بدليل قوله تعالى وكان عرشه على الماء بل المراد انه تعالى لما خلق السموات والارض واستدارت الافلاك والكواكب وجعل بسبب دورانها الفصول الاربعة ففى هذا الوقت قد حصل وجود هذه المخلوقات وهذا املاك الله تعالى وهذا انما حصل بعد تخليق السموات والارض فصح ادخال حرف يفيد التراخى على الاستواء على العرش والله أعلم بمراده (يدبر الامر) أى يقدر على الوجه الاكمل أمر ملكوت السموات والارض (ما من شفيع الا من بعد اذنه) أى ان الله تعالى ينفرد فى التدبير فان تدبيره تعالى للاشياء لا يكون بشفاعة شفيع ولا يستجرئ أحد ان يشفع اليه فى شئ الا بعد اذنه تعالى ولا يدخل أحد فى الوجود الا بعد ان قال تعالى له كن حتى كان (ذلكم الله ربكم فاعبدوه) فان العبادة لا تصلح الا له وهو المستحق لجميع العبادات لاجل انه هو المنعم بجميع النعم (أفلا تذكرون) فالتفكر فى مخلوقات الله تعالى واجب والاستدلال بها على عزته تعالى وعظمته وجلالته أعلى المراتب (اليه) تعالى (مرجعكم جميعا) بالبعث فلا حكم الا حكمه ولا نافذ الا أمره (وعد الله حقا) أى وعدكم الله بالرجوع اليه وعدا وحق ذلك الوعد حقا (انه يبدأ الخلق) ليأمرهم بالعبادة ثم يميتهم (ثم يعيده) من العدم بالبعث (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أى بعدلهم والمراد به هنا الايمان وهذا تنبيه على ان المقصود بالذات من الابدال والاعادة هو الاثابة وايصال الرحمة وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه اليهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم (والذين كفروا لهم شراب من حميم) أى ماء حار قد انتهى حره (وعذاب أليم) أى بالغ فى الايلام (بما كانوا يكفرون) أى بسبب كفرهم (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) أى الذى خلق الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور فما بالذات ضوء وما بالعرض نور فنور القمر مستفاد من الشمس (وقدره منازل) أى جعل للقمر وهيأ له منازل وهى ثمانية وعشرون منزلا وأسماؤها الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت فينزل القمر كل ليلة فى واحد منها على تقدير مستو من ليلة المستهل الى الثامنة والعشرين فاذا كان فى آخر منازله دق واستقوس ثم لا يرى ليلتين أو ليلة اذا نقص الشهر ويكون مقام الشمس فى كل منزلة منها ثلاثة عشر يوما (لتعلموا) باعتبار نزول كل منهما فى تلك المنازل (عدد السنين والحساب) أى حساب الاوقات فيمكنكم ترتيب مهمات المعاش من الزراعة والحراثة ومهمات الشتاء والصيف

(ماخلق الله ذلك) أى المذكور من الشمس والقمر على تلك الاحوال (الا بالحق) أى الاعلى وفق الحكمة ومطابقة المصلحة فى أمور المعاملات والعبادات (يفصل الآيات) أى يذكر هذه الدلائل الباهرة واحدا عقب آخر مع البيان (لقوم يعلمون) الحكمة فى ابداع الكائنات فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها من الوحدانية وكمال القدرة والعلم وفى قوله تعالى يفصل قراءتان قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم بالياء والباقون بالنون (ان فى اختلاف الليل والنهار) أى فى تعاقبهما أو فى تفاوتهما بازدياد وانتقاص أو فى تفاوتهما بحسب الامكنة فى الطول والقصر (وما خلق الله فى السموات والارض) من أنواع الموجودات (لآيات) دالة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته (لقوم يتقون) وخص الله تعالى العلامات بالمتقين لان الداعى الى التدبير والنظر انما هو تقوى الله تعالى والحذر من العاقبة (ان الذين لا يرجون لقاءنا) أى لا يطمعون فى ثوابنا لانهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر (ورضوا بالحياة الدنيا) أى استغرقوا فى طلب اللذات الجسمانية (واطمأنوا بها) أى سكنوا فى الاشتغال بطلب لذات الدنيا (والذين هم عن آياتنا) أى دلائل وحدانيتنا الظاهرة فى الاكوان (غافلون) أى لا يتفكرون فيها أصلا (أولئك) أى الموصوفون بتلك الصفات (مأواهم النار بما كانوا يكسبون) أى من الاعمال القلبية ومن أنواع المعاصى والسيآت (ان الذين آمنوا) أى شغلوا قلوبهم وأرواحهم بتحصيل المعرفة (وعملوا الصالحات) أى شغلوا جوارحهم بالخدمة فعينهم مشغولة بالاعتبار وأذنهم مشغولة بسماع كلام الله تعالى ولسانهم مشغول بذكر الله وجوارحهم مشغولة بنور طاعة الله (يهديهم ربهم بايمانهم) أى يهديهم الى الجنة ثوابا لهم على ايمانهم وأعمالهم الصالحة (تجرى من تحتهم الانهار فى جنات النعيم) أى انهم يكونون جالسين على سرر مرفوعة فى البساتين والانهار تجرى من بين أيديهم (دعواهم فيها سبحانك اللهم) أى اشتغال أهل الجنة بتقديس الله تعالى وتمجيده والثناء عليه لاجل ان سعادتهم فى هذا الذكر (وتحيتهم فيها سلام) أى تحية بعضهم لبعض تكون بالسلام وتحية الملائكة لهم بالسلام (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) أى ان أهل الجنة لما عاينوا ماهم فيه من السلامة عن الآفات والمخافات علموا أن كل هذه الاحوال السنية انما كانت باحسان الله تعالى عليهم فاشتغلوا بالثناء على الله فقالوا الحمد لله رب العالمين وانما وقع الختم على الحمد لان الاشتغال بشكر النعمة متأخر عن رؤية تلك النعمة والمعنى أنهم اذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله ووجدوا فيها النعم العظيمة وعرفوا أنه تعالى كان صادقا فى وعده اياهم بتلك النعم مجدوه تعالى ونعتوه بنعوت الجلال فقالوا سبحانك اللهم أى نسبحك عن الخلف فى الوعد والكذب فى القول وعما لا يليق بحضرة تلك العلية ولما حياهم الله والملائكة بالسلامة عن الآفات وبالفوز بأنواع الكرامات أثنوا عليه تعالى بصفات الاكرام (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم) أى ولو يعجل الله لهم العذاب عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم كشف الشدائد عند استعجالهم به لاميتوا وأهلكوا بالمرة وما أمهلوا طرفة عين وقرأ ابن عامر لقضى بفتح القاف والضاد وأجلهم بالنصب وقرأ عبد الله لقضينا اليهم أجلهم (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون) أى فنترك الذين لا يؤمنون بالبعث والجزاء مع تمردهم فى ضلالتهم يتحيرون فى شأنهم (واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه) وهذه الآية بيان ان الانسان قليل الصبر عند نزول البلاء قليل الشكر عند وجدان النعماء فاذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعا أو قاعدا أو قائما مجتهدا

فى ذلك الدعاء طالبا من الله تعالى ازالة تلك المحنة وتبديلها بالمنحة فاذا كشف الله تعالى عنه بالعافية أعرض عن الشكر ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الانعام وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره فالواجب على العاقل أن يكون صابرا عند نزول البلاء شاكرا عند الفوز بالنعماء وأن يكون كثير الدعاء والتضرع فى أوقات الراحة والرفاهية حتى يكون مجاب الدعوة فى وقت المحنة وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) أى هكذا زين لمن بذل العقل والفهم والحواس لاجل لذات الدنيا وهى خسيسة جدا فى مقابلة سعادات الدار الآخرة ما كانوا يعملون من الاعراض عن الذكر والدعاء والانهماك فى الشهوات والكاف مقحمة للدلالة على زيادة فخامة المشار اليه (ولقد أهلكنا القرون) أى الامم (من قبلكم) أى من قبل زمانكم يا أهل مكة مثل قوم نوح وعاد وأشباههم (لما ظلموا) أى حين فعلوا الظلم بالتكذيب (وجاءتهم رسلهم بالبينات) أى بالمعجزات الدالة على صدقهم (وما كانوا ليؤمنوا) أى وقد علم الله منهم أنهم يصرون على الكفر (كذلك) أى مثل ذلك الاهلاك الشديد الذى هو الاستئصال بالمرة (نجزى القوم المجرمين) أى نجزى كل طائفة مجرمين لاشتراكهم لاولئك المهلكين فى الجرائم التى هى تكذيب الرسول (ثم جعلناكم) يا أهل مكة (خلائف فى الارض من بعدهم) أى من بعد اهلاك أولئك القرون (لننظر كيف تعملون) أى لنعاملكم معاملة من يطلب العلم بما يكون منكم من خير أو شر فنجازيكم على حسب عملكم (واذا تتلى عليهم) أى أهل مكة الوليد بن المخزومى والعاص بن وائل السهمى والاسود بن المطلب والاسود بن عبد يغوث والحرث بن الحنظلة (آياتنا) الدالة على بطلان الشرك (بينات) أى ظاهرة فى دلالتها على وحدانيتنا وصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (قال الذين لا يرجون لقاءنا) أى لا يرجون فى لقائنا خيرا على طاعة لانهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت (ائت بقرآن غير هذا) أى بكتاب آخر على غير ترتيب هذا الكتاب (أو بدله) بأن تجعل مكان آية العذاب آية رحمة ومكان الحرام حلالا ومكان الذم مدحا وانما قالوا ذلك على سبيل السخرية كقولهم لو جئتنا بقرآن آخر أو بدلت هذا القرآن لآمنا بك أو على سبيل التجربة حتى أنه صلى الله عليه وسلم لو فعل ذلك علموا أنه كذاب فى قوله ان هذا القرآن ينزل عليه من عند الله (قل) لهم (ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى) أى ما يستقيم لى أن أغيره من قبل نفسى (ان أتبع الا ما يوحى الى) أى ما أتبع فى شئ مما أفعل وأترك الا ما يوحى الى فى القرآن من غير تغيير له فى شئ أصلا (انى أخاف ان عصيت ربى) بالاعراض عن اتباع الوحى (عذاب يوم عظيم) وهو يوم القيامة (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) أى قل يا أشرف الخلق للذين طلبوا منك تغيير القرآن لو شاء الله عدم تلاوتى للقرآن عليكم بأن لم ينزله على ولم يأمرنى بتلاوته ما تلوته عليكم وما أعلمكم به بواسطتى وقرأ الحسن ولا أدرؤكم به أى ولا أجعلكم بتلاوته عليكم خصماء تدرؤننى بالجدال وتكذبوننى وقرأ ابن عباس ولا أنذرتكم به وعن ابن كثير ولادراكم بلام التأكيد التى تقع فى جواب لو أى ولا علمكم به على لسان غيرى فانه حق لا محيص عنه ولو لم يرسلنى الله به لارسل غيرى به (فقد لبثت فيكم عمرا) أى فقد مكثت فيما بينكم مقدار أربعين سنة تحفظون أحوالى طرا (من قبله) أى قبل أن يوحى الى هذا القرآن لم آتكم بشئ (أفلا تعقلون) أى ألا تتدبرون فلا تعقلون ان القرآن ليس من تلقاء نفسى ووجه هذا الاحتجاج ان أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول عمره الى ذلك الوقت

وعلموا أحواله وانه كان أميا لم يطالع كتابا ولم يتلمذ لاستاذ ثم بعد أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب
المشتمل على نفائس العلوم وأخبار الماضين وفيه من الاحكام والآدب والفصاحة ما أعجز العلماء
والفصحاء عن معارضته وكل من له عقل سليم يعلم ان هذا القرآن لا يحصل الا بالوحي من الله تعالى (فمن
أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) أي اني لم أفتر على الله كذبا ولم أكذب عليه في قولي ان
هذا القرآن من عند الله ولو لم يكن من عند الله بحيث افتريته على الله لما كان في الدنيا أحد أظلم على نفسه
مني فاذا أنكرتم ذلك فقد كذبتم بآيات الله فثبت كونكم أظلم الناس على أنفسكم (انه لا يفلح المجرمون)
أي لا ينجو من عذاب الله المشركون (ويعبدون) أي هؤلاء المشركون (من دون الله ما لا يضرهم)
في الدنيا والآخرة (ولا ينفعهم) فيهما وهو الاصنام كان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة
يعبدون عزى ومناة وهبل وأسافا ونائلة (ويقولون هؤلاء) الاوثان (شفعاؤنا عند الله) أي فانهم
يزعمون أنها تشفع لهم في الدنيا في اصلاح معايشهم لانهم كانوا لا يعتقدون بعثا بعد الموت أو تشفع لهم في
الآخرة ان يبعثوا لانهم كانوا شاكين في البعث (قل) تبكيتا لهم (أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات
ولا في الارض) أي أتخبرون الله بالذي لم يعلمه الله وهو شفاعة الاصنام واذا لم يعلم الله شيأ استحال وجود
ذلك الشيء لانه تعالى لا يعزب عن علمه شيء (سبحانه وتعالى عما يشركون) أي عن شركائهم الذين
يعتقدونهم شفعاءهم عند الله وقرأ حمزة والكسائي تشركون بالتاء على الخطاب (وما كان الناس الا
أمة واحدة) أي كانوا على دين الاسلام من لدن آدم الى أن قتل قابيل هابيل (فاختلفوا) بأن كفر
بعضهم وثبت آخرون على دين الاسلام (ولولا كلمة سبقت من ربك) أي لولا انه تعالى أخبر بأنه يبقى
التكليف على عباده وان كانوا كافرين (لقضى بينهم) بتعجيل الحساب والعقاب لكفرهم لما كان ذلك
سببا لزوال التكاليف وكان ابقاؤه أصلح أخر الله العقاب الى الآخرة (فيما فيه يختلفون) أي في الدين الذي
اختلفوا بسببه (ويقولون) أي كفار مكة (لولا أنزل عليه) أي هلا أنزل على محمد عليه السلام (آية) أخرى
سوى القرآن (من ربه) دالة على صدق ما يقول كما كان لصالح من الناقة ولموسى من العصا (فقل) لهم
في الجواب (انما الغيب لله) أي ان ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم ايمانكم بنزوله هو من
الغيوب المختصة بالله تعالى لا علم لي عليه (فانتظروا) نزوله (اني معكم من المنتظرين) لما يفعل الله بكم
لاجترائكم على جحود الآيات القرآنية واقتراح غيرها (واذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم
اذا لهم مكر في آياتنا) أي ان مشركي أهل مكة عادتهم اللجاج والعناد لانه تعالى سلط عليهم القحط سبع
سنين حتى كادوا يهلكون فأنزل الله الامطار النافعة على أراضيهم حتى أخصبت البلاد وعاش الناس
بعد ذلك ثم انهم أضافوا تلك المنافع الجليلة الى الانواء والكواكب أو الاصنام واذا كان كذلك فبتقدير ان
يعطوا ما سألوا من انزال ما اقترحوه فانهم لا يؤمنون بل يبقون على كفرهم (قل الله أسرع مكرا) أي
ان هؤلاء الكفار لما قابلوا نعمة الله بالمكر فالله تعالى قابل مكرهم بمكر أشد من ذلك وهو اهلاكهم يوم
بدر وحصول الفضيحة والخزي في الدنيا وعذاب شديد يوم القيامة ومعنى الوصف بالاسرعية أنه تعالى
قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم والمكر من الله تعالى اما الاستدراج أو الجزاء على المكر أي اخفاء
الكيد (ان رسلنا) الذين يحفظون أعمالكم (يكتبون ما تمكرون) أي مكركم ويعرض عليكم ما في
بواطنكم الخبيث يوم القيامة (هو الذي يسيركم في البر) مشاة وركبانا (والبحر) وقرأ ابن عامر
ينشركم بنون ساكنة فشين معجمة مضمومة أي يبسطكم (حتى اذا كنتم في الفلك) أي السفن

(وجرين) أى السفن (بهم) أى بالذين فيها (بريح طيبة) موافقة للمقصود (وفرحوا بها) أى بتلك الريح فرحا تاما (جاءتها) أى تلقت تلك الريح الطيبة (ريح عاصف) أى شديد أزعجت سفينتهم (وجاءهم الموج) العظيم الذى أرجف قلوبهم (من كل مكان) أى ناحية (وظنوا أنهم أحيط بهم) أى ظنوا القرب من الهلاك (دعوا الله مخلصين له الدين) أى من غير أن يشركوا معه تعالى شيأ من آلهتهم أى وهم مقرون بواحدنية الله وربوبيته لاجل علمهم بأنه لا ينجيهم من ذلك الا الله تعالى فيكون ايمانهم جاريا مجرى الايمان الاضطرارى قائلين والله (لئن أنجيتنا من هذه) الشدائد (لنكونن من الشاكرين) لنعمك (فلما أنجاهم) من هذه البلية العظيمة (اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق) أى يترقون فى الفساد والجراءة على الله تعالى بالكفر والمعاصى (يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا) قرأ الاكثرون متاع بالرفع فبغيكم مبتدأ ومتاع خبره أو على أنفسكم خبره ومتاع خبر مبتدأ محذوف أى ان ظلم بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا وهى مدة حياتكم لا بقاء لها أو ان الظلم لبعضكم كائن عليكم فى الحقيقة لا على الذين تظلمون عليهم وهو منفعة سريعة الزوال وقرأ حفص عن عاصم بنصب متاع على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر أى تتمتعون متاع أو مصدر وقع موقع الحال أى متمتعين بالحياة الدنيا (ثم الينا مرجعكم) بعد الموت (فننبئكم بما كنتم تعملون) فى الدنيا من البغى أى قصد الاستعلاء بالظلم فنجازيكم على أعمالكم (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض) أى لانه اذا نزل المطر ينبت بسببه أنواع كثيرة من النبات وتكون تلك الانواع مختلطة (مما يأكل الناس والانعام) من البقول والزروع والحشيش (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) أى حتى اذا جعلت الارض آخذة لباسها من كل نبات (وازينت) بجميع الالوان الممكنة فى الزينة من حمرة وخضرة وصفرة وذهبية وبياض (وظن أهلها) أى أهل النبات الموجود فى الارض (أنهم قادرون عليها) أى على تحصيل ثماره وعلى حصاده (أتاها) أى نبات الارض (أمرنا) بهلاكها بنار أو برد أو ريح (ليلا أو نهارا فجعلناها) أى نبات الارض (حصيدا) أى شبيها بالمقلوع فلا شئ على الارض (كأن لم تغن بالامس) أى كأن تلك النباتات لم تكن قائمة على ظهر الارض فى الزمن الماضى والمعنى ان هذه الحياة الدنيا التى ينتفع بها المرء مثل النبات الذى لما عظم الرجاء فى الانتفاع به وقع اليأس منه بالهلاك والمتمسك بالدنيا اذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذتها (كذلك) أى مثل ذلك التفصيل (نفصل الآيات) أى نبين الآيات القرآنية فى فناء الدنيا (لقوم يتفكرون) ويقفون على معانيها (والله يدعو الى دار السلام) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مثلى ومثلكم شبه سيد بنى دارا ووضع مائدة وأرسل داعيا فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المائدة ورضى عنه السيد ومن لم يجب لم يدخل ولم يأكل ولم يرض عنه السيد فالله السيد والدار دار الاسلام والمائدة الجنة والداعى محمد صلى الله عليه وسلم وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من يوم تطلع فيه الشمس الا وبجنبيها ملكان يناديان بحيث يسمع كل الخلائق الا الثقلين أيها الناس هلموا الى ربكم والله يدعو الى دار السلام (ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم) أى الى اجابة تلك الدعوة (للذين أحسنوا) أى أتوا بالمأمور به واجتنبوا المنهيات (الحسنى وزيادة) أى نضرة الوجوه ورؤية الله تعالى وعن ابن عباس أن الحسنى هى الحسنة والزيادة عشر أمثالها وعن على الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة (ولا يرهق) أى لا يعلو (وجوههم

قتر) أي سواد (ولاذلة) أي أثر هوان (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أي دائمون بلا انتقال (والذين كسبوا السيآت) أي الكفر والمعاصي (جزاء سيئة بمثلها) من غير زيادة بعدل الله تعالى (وترهقهم ذلة) أي ويعلوا أنفسهم ذلة عظيمة (مالهم من الله من عاصم) أي مالهم عاصم من عذاب الله. (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) أي كأن الوجوه ألبست سوادا من الليل لفرط سوادها (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ويوم نحشرهم جميعا) أي نحشر الكل حال اجتماعهم لا يتخلف منهم أحد وهو يوم القيامة (ثم نقول للذين أشركوا) أي ثم نقول للمشركين من بينهم (مكانكم أنتم وشركاؤكم) أي الزموا أنتم ومن عبدتموه من دون الله مكانكم حتى تسئلوا وتنظروا ما يفعل بكم (فزيلنا بينهم) أي فباعدنا بين المشركين ومعبوداتهم بعد الجمع في الموقف وتبرء شركاؤهم منهم ومن عبادتهم (وقال شركاؤهم) لهؤلاء المشركين (ما كنتم إيانا تعبدون) بأمرنا وإرادتنا إنما كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم الذين أغووكم فإنها الآمرة لكم بالاشراك (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين) أي انا كنا عن عبادتكم لجاهلين لا نعلمها ولا نرضى بها (هنالك) أي في ذلك المقام أو في ذلك الوقت (تبلو كل نفس ما أسلفت) بالتاء فالباء على القراءة المشهورة أي تذوق كل نفس سعيدة أو شقية ما قدمت من عمل فتعلم نفعه وضره وقرأ حمزة والكسائي تتلو بتاءين أي تقرأ كل نفس في صحيفة أعمالها ما قدمت من خير أو شر أو تتبع ما أسلفت لان عملها هو الذي يهديها الى طريق الجنة أو الى طريق النار وقرأ عاصم نبلو كل نفس بالنون والباء ونصب كل أي نختبر كل نفس بسبب اختبار ما أسلفت من العمل أي نفعل بها فعل المختبر أو المعنى نصيب بالبلاء الذي هو العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر (وردوا الى الله مولاهم الحق) أي أعرض الذين أشركوا عن المولى الباطل ورجعوا الى المولى الحق وأقروا بالوهيته بعد ان كانوا في الدنيا يعبدون غيره وردوا الى حكمه (وضل عنهم) أي ضاع عنهم في الموقف (ما كانوا يفترون) أي يدعون ان معبوداتهم آلهة وانها تشفع لهم (قل) لاولئك المشركين (من يرزقكم من السماء والارض) أي رزقا مبتدأ منهما (أمن يملك السمع والابصار) أي بل من يستطيع خلق الاسماع والابصار ومن يحفظهما من الآفات وعن علي رضي الله تعالى عنه كان يقول سبحان من بصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم (ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) أي ومن يقدر أن يخرج الانسان من النطفة والطائر من البيضة وان يخرج النطفة من الانسان والبيضة من الطائر (ومن يدبر الامر) أي من يدبر أحوال العالم جميعا (فسيقولون الله) أي ان الرسول اذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال كانوا يعرفون الله وهم الذين قالوا في عبادتهم الاصنام أنها تقربنا الى الله وأنها تشفع عند الله وكانوا يعلمون أنها لا تنفع ولا تضر فعند ذلك قال الله تعالى لرسوله (فقل) عند ذلك تبكيتا لهم (أفلا تتقون) أي أتعلمون ذلك فلا تتقون ان تجعلوا هذه الاوثان شركاء لله في المعبودية مع اعترافكم بأن كل الخيرات في الدنيا والآخرة انما تحصل من رحمة الله وبان هذه الاوثان لا تنفع ولا تضر البتة (فذلكم الله) أي فمن هذه قدرته ورحمته هو الله (ربكم الحق) أي الثابت ربوبيته ثباتا لا ريب فيه (فماذا بعد الحق الا الضلال) أي ليس غير الحق الا الضلال أي فاذا ثبت ان عبادة الله حق ثبت ان عبادة غيره من الاصنام ضلال محض اذ لا واسطة بينهما (فأنى تصرفون) أي فكيف تعدلون من التوحيد الى الاشراك وعبادة الاصنام (كذلك) أي مثل صرفهم عن الحق بعد الاقرار به (حقت كلمة ربك) أي حكمه (على الذين فسقوا) أي خرجوا عن حد الصلاح (أنهم

لايؤمنون) بدل من كلمة بدل كل من كل (قل هل من شركائكم) أى هل من الاصنام التى أثبتم شركتها لله فى استحقاق العبادة (من يبدؤا الخلق) أى ينشئ المخلوقات من العدم (ثم يعيده) فى القيامة للجزاء ولما لم يقدروا على الجواب أمر الله رسوله ان ينوب عنهم فى الجواب فقال (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون) أى فكيف تقلبون من الحق الى الباطل (قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق) أى الى ما فيه صلاح أمركم فان أدنى مراتب المعبودية هداية المعبود لعابديه الى ذلك (قل الله يهدى للحق) دون غيره وذلك بنصب الادلة وارسال الرسل وانزال الكتب وبالتوفيق للنظر (أفمن يهدى الى الحق) وهو الله تعالى (أحق أن يتبع) أى حقيق ان يطاع ويعبد (أمن لا يهدى الا أن يهدى) أى أم من لا ينتقل الى مكان الا ان ينقل اليه لان الاصنام خالية عن الحياة والقدرة أو المعنى أمن لا يهتدى فى حال من الاحوال الا فى حال هدايته تعالى له وهذا حال أشراف شركائهم من الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام وقرأ ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع أم من لا يهدى بفتح الياء والهاء وتشديد الدال وقرأ عاصم وحفص بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال وقرأ حماد ويحيى بن آدم عن أبى بكر عن عاصم بكسر الياء والهاء وقرأ حمزة والكسائى يهدى ساكنة الهاء (فمالكم) أى أى شئ ثبت لكم فى اتخاذكم هؤلاء شركاء لله تعالى فانهم عاجزون عن هداية أنفسهم فكيف يمكن أن يهدوا غيرهم (كيف تحكمون) أى كيف تحكمون بالباطل وتجعلون لله شركاء (وما يتبع أكثرهم الا ظنا) أى ما يتبع أكثرهم فى معتقداتهم الا ظنا واهيا أما بعضهم فقد يتبعون العلم فيقفون على بطلان الشرك لكن لا يقبلون العلم عنادا وفى ذلك دليل على ان تحصيل العلم فى الاصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز (ان الظن لا يغنى من الحق) أى عن العلم (شيأ) من الاغناء فى العقائد (ان الله عليم بما يفعلون) من الاتباع للظنون الفاسدة والاعراض عن البراهين القاطعة (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أى وما صح ان يكون هذا القرآن المشحون بفنون الحجج الناطقة ببطلان الشرك وحقية التوحيد مفترى من الخلق (ولكن تصديق الذى بين يديه) أى ولكن كان القرآن تصديق الذى قبله من الكتب الالهية المنزلة على الانبياء قبله (وتفصيل الكتاب) أى وتفصيل جميع العلوم العقلى والنقلى الذى يمتنع حصوله فى سائر الكتب (لاريب فيه) أى منتفيا عنه الريب (من رب العالمين) أى كائنا من رب العالمين (أم يقولون افتراه) أى أيقرون بالقرآن بل يقول كفار مكة اختلق محمد صلى الله عليه وسلم القرآن من تلقاء نفسه (قل) لهم اظهارا للبطلان مقالتهم الفاسدة (فأتوا بسورة مثله) أى ان كان الامر كما تقولون فأتوا بسورة مثل القرآن فى الفصاحة وحسن الصياغة وقوة المعنى على وجه الافتراء فانكم مثلى فى العربية والفصاحة وأشد تمرنا منى فى النظم والعبارة (وادعوا) للمعاونة (من استطعتم) دعاءه (من دون الله) أى من سائر خلق الله (ان كنتم صادقين) فى انى افتريته (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) أى بل كذبوا بما لم يدرك علمهم به مسرعين فى ذلك من غير ان يتدبروا فيه ولم يبلغ اذهانهم معانيه الرائقة المنبئة عن علو شأنه (كذلك) أى مثل ذلك التكذيب من غير تدبر (كذب الذين من قبلهم) ما كذبوا من المعجزات التى ظهرت على أيدى أنبيائهم (فانظر) يا أشرف الخلق (كيف كان عاقبة الظالمين) فانهم طلبوا الدنيا وتركوا الآخرة فلما ماتوا فاتتهم الدنيا والآخرة فبقوا فى الخسار العظيم (ومنهم) أى ومن هؤلاء المكذبين (من يؤمن به) أى القرآن عند الاحاطة بعلمه أى اما يعتقد بحقية القرآن فقط بأن يصدق به فى نفسه ويعلم انه حق ولكن يعاندوا واما سيؤمن به

ويتوب عن الكفر (ومنهم من لا يؤمن به) أي بأن لا يصدق به في نفسه لفرط غباوته أو لسخافة عقله وعجزه عن تخليص علوم عن مخالطة الظنون أو بأن يموت على كفره وهم المستمرون على اتباع الظن من غير انقياد للحق (وربك أعلم بالمفسدين) أي بالمصرين على الكفر من المعاندين والشاكين (وان كذبوك) أي أصروا على تكذيبك بعد الزام الحجة بالتحدي (فقل) لهم (لي عملي) من الايمان وجزاء ثوابه (ولكم عملكم) من الشرك وجزاء عقابه (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون) أي لا تؤاخذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم (ومنهم) أي من هؤلاء المشركين (من يستمعون اليك) عند قراءتك القرآن وتعليمك الشرائع (أفأنت تسمع الصم) أي أأنت تقدر على اسماع الصم (ولو كانوا لا يعقلون) أي ولو انضم الى صممهم عدم عقلهم (ومنهم من ينظر اليك) أي من يعاين دلائل صدقك (أفأنت تهدي العمي) أي أعقب ذلك أنت تهديهم (ولو كانوا لا يبصرون) أي لا يستبصرون بقلوبهم ولا يعتبرون (ان الله لا يظلم الناس شيأ) أي بسلب حواسهم وعقولهم (ولكن الناس أنفسهم يظلمون) بافساد الحواس والعقول وتفويت منافعها عليها فان الفعل منسوب اليهم بسبب الكسب وان كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم وتقدير الشقاوة عليهم لا يكون ظلما منه تعالى لانه يتصرف في ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف في ملكه لا يكون ظالما (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار) أي وأنذر المشركين المنكرين للبعث يوم يحشرهم في الموقف مشبهين من لم يلبث في الدنيا ولم يتقلب في نعيمها الا مقدار ساعة من النهار فان عاقبة الكافر خالصة دائمة مقرونة بالاهانة ولذات الدنيا مع خساستها لم تكن خالصة بل كانت مخلوطة بالهموم الكثيرة وكانت تلك اللذات مغلوبة بالمؤلمات والآفات وكانت لم تحصل الا في بعض الاوقات أما آلام الآخرة فهي سرمدية لا تنقطع البتة ونسبة عمر جميع الدنيا الى الآخرة الابدية أقل من الجزء الذي لا يتجزأ بالنسبة الى ألف ألف عالم مثل العالم الموجود فمتى قوبلت الخيرات الحاصلة بسبب الحياة العاجلة بالآفات الحاصلة للكافر وجدت أقل من اللذة بالنسبة الى جميع العالم (يتعارفون بينهم) أي يوبخ بعضهم بعضا فيقول كل فريق للآخر أنت أضللتني يوم كذا وزينت لي الفعل الفلاني من القبائح (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) أي قد هلكوا بتكذيبهم بالبعث بعد الموت وضلوا وما كانوا عارفين لطريق النجاة وهذه شهادة من الله تعالى على خسرانهم (واما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فالينا مرجعهم) أي وان أريناك بعض العذاب الذي نعدهم به بان نعجله لهم في حياتك في الدنيا فتراه وان توفيناك قبل نزول العذاب بهم فانك ستراه في الآخرة لان العذاب لا يفوتهم بل ننزله بهم في الآخرة (ثم الله شهيد على ما يفعلون) أي ثم الله معاقب على ما تفعلون وقرئ ثمة أي هنالك (ولكل أمة) من الامم الماضية (رسول) يبعث اليهم بشريعة خاصة مناسبة لاحوالهم ليدعوهم الى الحق (فاذا جاء رسولهم) فبلغهم ما أرسل اليهم فكذبه بعضهم وصدقه بعضهم (قضي بينهم بالقسط) أي بالعدل أي فصل بينهم وحكم بهلاك المكذبين ونجاة الرسول ومن صدقه (وهم لا يظلمون) في ذلك القضاء بتعذيبهم لانه بجرمهم (ويقولون) أي قال كل أهل دين لرسولهم على وجه التكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبرهم من نزول العذاب للاعداء (متى هذا الوعد) الذي تعدنا بنزول العذاب (ان كنتم صادقين) في انه يأتينا (قل) يا أشرف الخلق لقومك الذين استعجلوا نزول العذاب على طريقة الاستهزاء به والانكار (لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا) أي لا أقدر على دفع ضر ولا جلب نفع لنفسي (الا ما شاء الله) أي

ولكن ماشاء الله من ذلك كائن (لكل أمة أجل) أى وقت معين خاص بهم (اذا جاء أجلهم) أى وقت هلاكهم (فلا يستأخرون) عن ذلك الاجل (ساعة) أى شيأ قليلا من الزمان (ولا يستقدمون) عليه (قل أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون) أى قل للذين يستعجلون العذاب اخبرونى عن عذاب الله ان أتاكم وقت اشتغالكم بالنوم أو عند اشتغالكم بمشاغلكم أى شئ تستعجلون من عذاب الله وليس شئ من العذاب يستعجله عاقل اذ العذاب كله مر المذاق موجب لنفار الطبع منه (أثم اذا ما وقع آمنتم به) أى أبعد ما وقع العذاب بكم حقيقة آمنتم به حين لا ينفعكم الايمان (آلآن) تؤمنون بالعذاب (وقد كنتم به) أى بالعذاب (تستعجلون) أى تكذبون فان استعجالهم كان على جهة التكذيب والانكار (ثم قيل) يوم القيامة على لسان ملائكة العذاب (للذين ظلموا) أى وضعوا الكفر والتكذيب موضع الايمان والتصديق (ذوقوا عذاب الخلد) أى عذاب المؤلم على الدوام (هل تجزون) فى الآخرة (الا بما كنتم تكسبون) فى الدنيا من أصناف الكفر والمعاصى وهذا استثناء مفرغ والجار والمجرور مفعول ثان لتجزون والاول قائم مقام الفاعل ﴿تنبيه﴾ أين ما ذكر الله تعالى العذاب ذكر هذه العلة كأن سائلا يقول يارب العزة أنت الغنى عن الكل فكيف يليق برحمتك هذا التشديد فهو تعالى يقول ما أنا عاملته بهذه المعاملة ابتداء بل هذا وصل اليه جزاء على عمله الباطل (ويستنبئونك) أى يستخبرونك يا أشرف الخلق والقائل حيى بن أحطب لما قدم مكة بطريق الاستهزاء والانكار (أحق هو) أى ما تعدنا من نزول العذاب علينا فى الدنيا وما تعدنا من البعث والقيامة (قل) لهم فى الجواب هذه الامور الثلاثة غير ملتفت الى استهزائهم (اى وربى) فاى من حروف الجواب بمعنى نعم فى القسم خاصة كما ان هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة (انه) أى العذاب الموعود (لحق) أى لثابت (وما أنتم بمعجزين) لمن وعدكم بالعذاب ان ينزله عليكم (ولو أن لكل نفس ظلمت) وهو لاحق بكم بالشرك أو غيره من أنواع الظلم ولو مرة (ما فى الارض) أى ما فى الدنيا من الاموال (لافتدت به) أى لفادت بها فى الدنيا نفسها من عذاب الله (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أى أخفوا الندامة على ترك الايمان حين عاينوا العذاب فلم يقدروا على ان ينطقوا بشئ لشدة الاهوال وفظاعة الحال (وقضى بينهم) أى بين الظالمين بالشرك وغيره (بالقسط) أى بالعدل (وهم) أى الظالمون (لا يظلمون) فيما فعل بهم من العذاب (ألا ان لله ما فى السموات والارض) أى ما وجد فيهما (ألا ان وعد الله حق) أى ان جميع ما وعد الله به ثابت لابد أن يقع ووعده تعالى مطابق للواقع (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى غافلون عن هذه الدلائل (هو يحيى ويميت) فى الدنيا (واليه ترجعون) بعد الموت للجزاء (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) أى قد جاءكم كتاب فيه بيان ما ينفع المكلف وما يضره ودواء القلوب وهدى الى الحق ورحمة للمؤمنين بانجائهم من الضلال الى نور الايمان وتخلصهم من دركات النيران الى درجات الجنان والحاصل ان الموعظة اشارة الى تطهير الظاهر عما لا ينبغى وهو الشريعة والشفاء اشارة الى تطهير الباطن عن العقائد الفاسدة والاخلاق الذميمة وهو الطريقة والهدى اشارة الى ظهور نور الحق فى قلوب الصديقين وهو الحقيقة والرحمة اشارة الى بلوغ الكمال (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) أى فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هى هى بل من حيث انها بفضل الله وبرحمة الله قال الصديقون من فرح بنعمة الله من حيث انها تلك النعمة فهو مشرك أما من فرح بنعمة الله من حيث انها من الله كان فرحه بالله وذلك غاية الكمال ونهاية السعادة

وقال أبو سعيد الخدري فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من أهله (هو) أى المذكور من فضل الله ورحمته (خير مما يجمعون) من الدنيا لان الآخرة أبقى وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب واما فليفرحوا فبالياء التحتية عند السبعة ولا يقرؤه بالتاء الفوقية الا يعقوب من العشرة كما هو مروى عن زيد بن ثابت والمعنى فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار (قل أرأيتم) أى أخبرونى (ما أنزل الله لكم من رزق) أى الذى خلقه الله لكم من حرث وانعام (فجعلتم منه حراما وحلالا) أى فحكمتم بأن بعض الرزق حرام و بعضه حلال مع كون كله حلالا (قل آلله أذن لكم) فقل تأكيد الامر بالاستخبار أى اخبرونى آلله أمركم بذلك الحكم فأنتم ممتثلون بأمره تعالى (أم على الله تفترون) أى أم لم يأذن لكم فى ذلك بل على الله تكذبون بنسبة ذلك اليه (وما ظن الذين يفترون على على الله الكذب يوم القيامة) أى أى شئ ظنهم يوم عرض الافعال والاقوال أيحسبون انهم لا يسئلون عن افترائهم أو لا يجازون عليه ولاجل ذلك يفعلون ما يفعلون كلا انهم لفى أشد العذاب لان معصيتهم أشد المعاصى (ان الله لذو فضل على الناس) باعطاء العقل وارسال الرسل وانزال الكتب وامهالهم على سوء أفعالهم (ولكن أكثرهم لا يشكرون) تلك النعم فلا يستعملون العقل فى التأمل فى دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبياء الله تعالى ولا ينتفعون باستماع كتب الله (وما تكون) يا أشرف الخلق (فى شأن) أى أمر من أمور الدنيا (وما تتلو منه) أى الشأن (من قرآن ولا تعملون من عمل) أى أى عمل كان (الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون) أى تشرعون (فيه) أى فى ذلك المذكور (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء) أى ولا يغيب عن علم ربك ما يساوى فى الثقل نملة صغيرة أو هباء فى دائرة الوجود وقرأ الكسائى بكسر الزاى (ولا أصغر من ذلك) أى الذرة (ولا أكبر الا فى كتاب مبين) أى فى لوح محفوظ وقرأ حمزة بالرفع على الابتداء والخبر والباقون بالنصب على ان لا نافية للجنس وما بعدها اسمها وخبرها (ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم) فى الدارين من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) من فوات مطلوب (الذين آمنوا) بكل ما جاء من عند الله تعالى (وكانوا يتقون) والتقوى هنا التجنب عن كل اثم والتنزه عن كل ما يشغل السر عن الله تعالى والتبتل اليه تعالى بالكلية وهذا تفسير للاولياء (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) فالبشرى فى الدنيا محبة الناس لهم وذكرهم اياهم بالثناء الحسن والرؤيا الصالحة و بشرى الملائكة لهم عند الموت وفى الآخرة تلقى الملائكة اياهم مبشرين بالفوز والكرامة و بياض الوجوه واعطاء الصحف باءيمانهم وما يقرؤن منها وغير ذلك من البشارات (لا تبديل لكلمات الله) أى لا خلف فى أقواله (ذلك) أى حصول البشرى لهم فى الدارين (هو الفوز العظيم) الذى لا فوز وراءه (ولا يحزنك قولهم) أى لا تحزن بما يتفوهون به فى شأنك مما لا خير فيه ولا تبال بتكذيبهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وابطال أمرك وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى (ان العزة لله جميعا) أى ان القوة جميعا لله فهو يعصمك منهم و ينصرك عليهم حتى تكون أقوى منهم (هو السميع العليم) أى يسمع ما يقولون فى حقك و يعلم ما يعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك (ألا ان لله من فى السموات ومن فى الارض) من الملائكة والثقلين واذا كان هؤلاء فى ملكه تعالى فالجمادات أحق أن لا تكون شركاء له تعالى (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) أى وما يتبع الذين يعبدون من دون الله آلهة شركاء فآلهة مفعول يدعون وشركاء مفعول يتبع (ان يتبعون الا الظن) أى ان المشركين ما اتبعوا شريك الله تعالى انما اتبعوا شيأ ظنوه شريكا لله تعالى (وان هم الا يخرصون) أى

ما

ماهم الا يكذبون فيما ينسبونه اليه تعالى و يقدرون ان معبوداتهم شركاء تقديرا باطلا (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) أى هو الذى صير لكم الليل مظلما لتستريحوا فيه من تعب النهار والنهار مضيئا لتهتدوا به فى حوائجكم بالابصار ولتتحركوا فيه لمعاشكم (ان فى ذلك) أى الجعل (لآيات) أى لعبرات (لقوم يسمعون) مواعظ القرآن فيعلمون بذلك ان الذى خلق هذه الاشياء كلها هو الله المنفرد بالوحدانية فى الوجود (قالوا) أى كفار مكة (اتخذ الله ولدا) أى الملائكة بنات الله (سبحانه) قال تعالى ذلك تنزيها لنفسه عما نسبوه اليه وتعجيبا من كلمتهم الحمقاء (هو الغنى) عن كل شئ فى كل شئ (له ما فى السموات وما فى الارض) من ناطق وصامت ملكا وخلقا (ان عندكم من سلطان بهذا) أى ما عندكم حجة بهذا القول الباطل (أتقولون على الله ما لا تعلمون) أى أتنسبون اليه تعالى ما لا يجوز نسبته اليه تعالى جهلا منكم (قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) أى لا يصلون الى مقاصدهم وكل من قال فى ذات الله تعالى وصفاته قولا بغير علم و بغير حجة بينة كان داخلا فى هذا الوعيد (متاع فى الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) أى حياتهم متاع قليل فى الدنيا ثم لا بد من الموت وعند الموت لا بد من الرجوع الى الله وعند هذا الرجوع لا بد وأن يذيقهم الله العذاب الشديد بسبب كونهم كافرين فأين هم من الفلاح (واتل عليهم) أى المشركين (نبأ نوح) أى خبره مع قومه الذين هم أشباه قومك فى العناد ليصير داعيا الى مفارقة الانكار للتوحيد والنبوة (اذ قال لقومه) وهم بنو قابيل (يا قوم ان كان كبر) أى ثقل (عليكم مقامى) أى مكثى فيكم مدة طويلة (وتذكيرى) أى وعظى اياكم (بآيات الله) أى بحجته (فعلى الله توكلت) أى فوضت أمرى الى الله (فأجمعوا أمركم) أى فاعزموا على أمركم الذى تريدون بى من السعى فى اهلاكى (وشركاءكم) أى وادعوا من يشارككم فى الدين والقول أو ادعوا أوثانكم التى سميتموها بالآلهة وتقدير ادعوا هو كما فى مصحف أبى ويصح أن يكون وشركاءكم مفعولا معه من الضمير فى فأجمعوا وقرأه الحسن وجماعة من القراء بالرفع عطفا عليه (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) أى خفيا وليكن ظاهرا (ثم اقضوا الى) أى أدوا الى ذلك الامر الذى تريدون بى ونفذوه الى (ولا تنظرون) أى لا تمهلون بعد اعلامكم اياى ما اتفقتم عليه (فان توليتم فما سألتكم من أجر) أى ان أعرضتم عن نصيحتى فلا ضير على لانى ما سألتكم عقابلة وعظى من أجر تؤدونه الى حتى يؤدى ذلك الى أعراضكم (ان أجرى الا على الله) أى ما ثوابى على التذكير الا عليه تعالى يثيبنى به آمنتم أو توليتم (وأمرت أن أكون من المسلمين) أى وانى مأمور بالاستسلام لكل ما يصل الى منكم لاجل هذه الدعوة (فكذبوه) أى استمروا على تكذيب نوح بعد ما بين لهم الحجة (فنجيناه ومن معه فى الفلك) أى السفينة من المسلمين من الغرق وكانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة (وجعلناهم) أى أصحاب نوح (خلائف) من الهالكين بالغرق فيسكنون فى الارض (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان (فانظر) يا أشرف الخلق (كيف كان عاقبة المنذرين) أى كيف صار آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا (ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم) كان منهم هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب (فجاؤهم بالبينات) أى فجاء كل رسول قومه المخصوصين به بالمعجزات الدالة على صدق ما قالوا (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) أى فما كانوا ليصدقوا بما كذبوا به من أصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم اليها من قبل مجئ رسلهم أى كانت حالهم بعد مجئ الرسل كحالهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم أحد (كذلك)

أى مثل ذلك الطبع (نطبع على قلوب المعتدين) أى المتجاوزين عن الحدود فى كل زمن (ثم بعثنا من بعدهم) أى من بعد أولئك الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه) أى وأشراف قومه (بآياتنا) أى التسع اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين وطمس الاموال (فاستكبروا) أى فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعهما أى ادعوا الكبر من غير استحقاق (وكانوا قوما مجرمين) أى ذوى آثام عظام فلذلك اجترؤا على الاستهانة برسالة الله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا) وهو العصا واليد البيضاء (قالوا) من فرط عنادهم (ان هذا) أى الذى جاء به موسى (لسحر مبين) أى ظاهر يعرفه كل أحد (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم) ما تقولون من أنه سحر (أسحر هذا) أى أسحر هذا الذى أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف (ولا يفلح الساحرون) أى والحال أنه لا يفلح فاعلوا السحر وهذه جملة حالية من الواو فى أتقولون (قالوا) لموسى وهارون عاجزين عن المحاجة (أجئتنا لتلفتنا) أى لتصرفنا (عما وجدنا عليه آباءنا) أى من عبادة الاصنام (وتكون لكما الكبرياء) أى الملك والعز (فى الارض) أى أرض مصر (وما نحن لكما بمؤمنين) أى بمصدقين (وقال فرعون) لملئه (ائتونى بكل ساحر عليم) بفنون السحر حاذق فيه وقرأ حمزة والكسائى سحار (فلما جاء السحرة) أى فأتوا بالسحرة قالوا لموسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) أى ما معكم من الحبال والعصى (فلما ألقوا) حبالهم وعصيهم واسترهبوا الناس (قال) لهم (موسى ما جئتم به السحر) أى الذى جئتم به هو السحر أى التمويه الذى يظهر بطلانه لا ما سماه فرعون وقومه سحرا فهو من آيات الله تعالى وقرأ أبو عمرو آلسحر بهمزة الاستفهام بابدال الهمزة الثانية ألفا ومدها مدا لازما أو بتسهيلها من غير قلب وعلى كليهما تجب الامالة فى موسى والمعنى الذى جئتم به أهو السحر أم لا وهو استفهام على وجه التحقير والتوبيخ (ان الله سيبطله) أى سيهلكه بالكلية ويظهر فضيحة صاحبه للناس والسين للتأكيد (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) أى لا يكمله (ويحق الله الحق) أى يظهره ويقويه (بكلماته) أى بوعده لموسى وقضائه (ولو كره المجرمون) ذلك (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) أى فما آمن من قوم موسى الا قليل منهم وهم بنو اسرائيل الذين كانوا بمصر من أولاد يعقوب وذلك أن موسى دعا الآباء الى دينه فلم يجيبوا خوفا من فرعون وأجابته طائفة من شبانهم مع الخوف (على خوف من فرعون وملئهم) أى مع خوف من فرعون لانه كان شديد البطش وخوف على رؤساء الذرية فان أشراف بنى اسرائيل كانوا يمنعون أولادهم من اجابة موسى خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم (أن يفتنهم) أى يصرفهم عن الايمان بتسليط أنواع العذاب عليهم (وان فرعون لعال فى الارض) أى لغالب فى أرض مصر (وانه لمن المسرفين) أى المجاوزين الحد بكثرة القتل والتعذيب لمن يخالفه فى أمر من الامور وبالكبر حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الانبياء (وقال موسى) لمن آمن به (ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا) ولا تخافوا أحدا غيره (ان كنتم مسلمين) أى منقادين لامره تعالى قال الفقهاء الشرط المتأخر يجب أن يكون متقدما مثاله قول الرجل لامرأته ان دخلت الدار فأنت طالق ان كلمت زيدا فمجموع قوله ان دخلت الدار فأنت طالق مشروط بقوله ان كلمت زيدا والمشروط متأخر عن الشرط فكأنه يقول لامرأته حال ما كلمت زيدا ان دخلت الدار فأنت طالق فلو حصل هذا التعليق قبل ان كلمت المرأة زيدا لم يقع الطلاق فقوله تعالى ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين يقتضى أن يكون كونهم مسلمين شرطا لان

يصير والمخاطبين بقوله تعالى ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا فكأنه تعالى يقول للمسلم حال اسلامه ان كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل والامر كذلك لان الاسلام هو الانقياد لتكاليف الله وترك التمرد والايمان هو معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد وماسواه محدث تحت تصرفه واذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره الى الله تعالى ويحصل فى القلب نور التوكل على الله تعالى (فقالوا) مجيبين له عليه السلام (على الله توكلنا) ولا نلتفت الى أحد سواه ثم دعوا ربهم قائلين (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أى لا تجعلنا مفتونين لهم أى لا تمكنهم من أن يحملونا بالقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق الذى قبلناه (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) أى خلصنا برحمتك من أيدى فرعون وقومه ومن سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) أى اجعلا بمصر بيوتا لقومكما ومرجعا ترجعون اليه للعبادة (واجعلوا بيوتكم قبلة) أى مصلى (وأقيموا الصلاة) فى بيوتكم أى ان موسى ومن معه كانوا فى أول أمرهم مأمورين بان يصلوا فى بيوتهم لئلا يظهروا على الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون فى أول الاسلام بمكة على هذه الحالة (وبشر المؤمنين) بالنصر فى الدنيا وبالجنة فى العقبى وخص الله تعالى موسى بالبشارة لانه الاصل فى الرسالة وهرون تبع له (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه) أى أشراف قومه (زينة) أى ما يتزين به من اللباس والمراكب ونحوها (وأموالا) كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما (فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) دعاء عليهم بلفظ الامر والمعنى ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك (ربنا اطمس على أموالهم) أى أهلكها قال ابن عباس بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وجعل سكرهم حجارة (واشدد على قلوبهم) أى اجعلها قاسية ومربوطة حتى لا تلين ولا تنشرح للايمان (فلا يؤمنوا) جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهى أو عطف على ليضلوا (حتى يروا العذاب الاليم) وانما دعا موسى عليهم بهذا الدعاء لما علم أن سابق قضاء الله وقدره فيهم انهم لا يؤمنون فوافق دعاء موسى ماقدر وقضى عليهم (قال) الله لموسى وهرون (قد أجيبت دعوتكما) فموسى كان يدعو وهرون كان يؤمن والتأمين دعاء وحصول المدعو به بعد أربعين سنة لان فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة (فاستقيما) أى فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزام الحجة ولا تستعجلا (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) بعادات الله تعالى فى تعليق الامور بالمصالح والحكم أى ولا تسلكا طريق الجاهلين الذين يظنون انه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا فى الحال والاستعجال وعدم الوثوق بوعد الله يصدران من الجهال (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) أى جعلناهم مجاوزين بحر السويس بأن جعلناه يبسا وحفظناهم حتى بلغوا الشط قال أهل التفسير اجتمع يعقوب وبنوه على يوسف وهم اثنان وتسعون وخرج بنوه مع موسى من مصر وهم ستمائة ألف وذلك لما أجاب الله دعاء موسى وهرون أمرهما بالخروج ببنى اسرائيل من مصر فخرجوا وقد كان فرعون غافلا عن ذلك فلما سمع بخروجهم خرج بجنوده فى طلبهم فلما أدركهم قالوا لموسى أين المخلص والبحر أمامنا والعدو وراءنا فأوحى الله اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقطعه موسى وبنو اسرائيل فلحقهم فرعون وكان على حصان أدهم وكان معه ثمانية آلاف حصان على لون حصان سوى سائر الالوان وكان يقدمهم جبريل على فرس أنثى وميكائيل يسوقهم حتى لا يشذ منهم أحد فدنا جبريل بفرسه فلما وجد الحصان ريح الانثى لم يتمالك فرعون من أمره شيأ فنزل البحر وتبعه جنوده حتى اذا اكتملوا جميعا فى البحر وهم أولهم

بالخروج انطبق البحر عليهم (فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا) أى مفرطين فى محبة قتلهم ومجاوزين الحد (حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه) أى بأن الشأن (لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) أى الذين أسلموا نفوسهم لله فقال له جبريل (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) أى آلآن تؤمن وتتوب وقد ضيعت التوبة فى وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية وقد كنت من الغالين فى الضلال والاضلال عن الايمان ولم يقبل ذلك من فرعون لانه انما آمن عند نزول العذاب وانما أقر بعزة الربوبية ووحدانية الله تعالى ولم يقر بنبوة موسى ولان ذلك الاقرار كان مبنيا على محض التقليد وهو كان دهريا منكرا لوجود الصانع وانما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها الى دفع تلك البلية الحاضرة (فاليوم ننجيك ببدنك) أى نلقيك على نجوة من الارض وهى المكان المرتفع بدرعك وكانت له درع من الذهب يعرف بها وقرئ ننحيك بالحاء أى نلقيك بناحية الساحل (لتكون لمن خلفك آية) أى لمن وراءك آية وهم بنو اسرائيل اذ قالوا ما مات فرعون وانما قالوا ذلك لعظمته عندهم ولما حصل فى قلوبهم من الرعب من أجله فأمر الله البحر فألقاه على الساحل أحمر قصيرا كأنه ثور فرآه بنو اسرائيل فعرفوه وقرئ لمن خلفك فعلا ماضيا أى لتكون لمن يأتى بعدك من الامم نكالا من الطغيان وقرئ لمن خلقك بالقاف أى لتكون لخالقك آية كسائر آياته فان أفراده تعالى اياك بالالقاء الى الساحل لابطال دعوى ألوهيتك لان الاله لا يموت (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) أى لا يتفكرون فيها (ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق) أى أسكناهم بعدما أنجيناهم وأهلكنا أعداءهم منزلا صالحا مرضيا وهو الشام ومصر فالشام بلاد البركة والخصب وأورثهم الله جميع ما كان تحت أيدى فرعون وقومه (ورزقناهم من الطيبات) أى اللذائذ (فما اختلفوا) فى أمر دينهم (حتى جاءهم العلم) أى حتى قرؤا التوراة فحينئذ تنبهوا للمسائل والمطالب ووقع الاختلاف بينهم (ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فيميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق) أى القرآن (من ربك) فيه خبر الاولين (فلا تكونن من الممترين) أى الشاكين (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) أنفسا وأعمالا وهذا كله خطاب للنبى ظاهرا والمراد به غيره ممن عنده شك ومثل هذا معتاد فان السلطان الكبير اذا كان له أمير وكان تحت رايته ذلك الامير جمع فاذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فانه يوجه الخطاب على ذلك الامير ليكون ذلك أقوى تأثيرا فى قلوبهم وقيل هذا الخطاب ليس مع الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك أن الناس فى زمانه كانوا فرقا ثلاثة المصدقون به والمكذبون له والمتوقفون فى أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال ان كنت أيها الانسان فى شك مما أنزلنا اليك من الهدى على لسان محمد فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وهم عبد الله بن سلام وعبد الله بن صوريا وتميم الدارى وكعب الاحبار لانهم هم الذين يوثق بخبرهم (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك) أى ثبت عليهم حكمه بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون فى النار (لا يؤمنون) أبدا اذ لا كذب فى كلامه (ولو جاءتهم كل آية) أى ولو جاءتهم الدلائل الذى لا حصر لها لان الدليل لا يهدى الا باعانة الله تعالى (حتى يروا العذاب الاليم) كدأب آل فرعون واشباههم (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) قال أبو مالك صاحب ابن عباس كل ما فى كتاب الله تعالى من ذكر لولا فمعناه هلا الا حرفين فلولا كانت قرية آمنت فمعناه

فما كانت قرية آمنت فلولا كان من القرون من قبلكم فعناه فما كان من القرون وتقدير الآية فما
كان أهل قرية آمنوا فنفعهم إيمانهم الاقوم يونس لما آمنوا أول مارأوا أمارة العذاب صرفنا عنهم
العذاب فى الحياة الدنيا (ومتعناهم) بمتاع الدنيا بعد صرف العذاب عنهم (الى حين) أى الى وقت انقضاء
آجالهم روى أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا
فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وكان يونس قال لهم ان أجلكم
أربعون ليلة فقالوا ان رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون ليلة ظهر فى السماء غيم
اسود هائل فظهر منه دخان شديد وهبط ذلك الدخان حتى وقع فى المدينة وسود سطوحهم فخرجوا
الى الصحراء وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها الى بعض وعلت الاصوات
وكثرت التضرعات وأظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك
اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن الفضل بن عباس انهم قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت
أعظم وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله وخرج يونس ينتظر العذاب فلم ير شيأ
فقيل له ارجع الى قومك قال وكيف أرجع اليهم فيجدونى كذابا وكان كل من كذب ولا بينة له قتل
فانصرف عنهم مغاضبا فالتقمه الحوت (ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا) أى مجتمعين على
الايمان لا يختلفون فيه لكنه لا يشاؤه (أفأنت تكره الناس) على مالم يشاء الله منهم (حتى يكونوا مؤمنين)
أى لا قدرة لك على التصرف فى أحد (وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله) أى وما يتأتى لنفس واحدة
أن يقع فيها الايمان فى وقت ما الا بارادة الله وبأقداره عليه (ويجعل الرجس) أى الكفر (على الذين
لا يعقلون) أى الذين لا يستعملون عقولهم بالنظر فى الدلائل والمضارع بمعنى الماضى وهو معطوف على
مقدر والتقدير فأذن الله لبعضهم فى الايمان وجعل الكفر لبعض آخر (قل انظروا ماذا فى السموات
والارض) أى قل يا أشرف الخلق مخاطبا لاهل مكة تفكروا وأى شئ بديع فى السموات والارض من
عجائب صنع الله الدالة على وحدته وكمال قدرته (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وما تنفع الدلائل
السماوية والارضية والرسل المنذرون عن قوم لا يؤمنون فى علم الله تعالى وحكمه (فهل ينتظرون الامثل
أيام الذين خلوا من قبلهم) أى فما ينتظر المشركون الا عذابا مثل عذاب الأمم الماضية من الكفار (قل
فانتظروا) نزول العذاب (انى معكم من المنتظرين) لذلك (ثم ننجى رسلنا) أى أهلكنا الامم ثم نجينا رسلنا
المرسلة اليهم (والذين آمنوا) لان العذاب لا ينزل الا على الكفار (كذلك) أى مثل ذلك الانجاء الذين
نجينا الرسل ومن آمن بهم (حقا علينا ننجى المؤمنين) بك يا أشرف الخلق من كل شدة وعذاب وجب
ذلك علينا وجوبا بحسب الوعد والحكم لا بحسب الاستحقاق لان العبد لا يستحق على خالقه شيأ (قل)
لجمهور المشركين (يا أيها الناس) أى أهل مكة (ان كنتم فى شك من دينى) الذى أدعوكم اليه أى
ان كنتم لا تعرفون دينى فانا أبينه لكم على سبيل التفصيل (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) فى
وقت من الاوقات (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) بقبض أرواحكم ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون
العذاب (وأمرت أن أكون من المؤمنين) بما دل عليه العقل ونطق به الوحى (وأن أقم وجهك
للدين) أى وأمرت بتوجيه العقل بالكلية الى طلب الدين وبالاستقامة فى الدين باداء الفرائض والانتهاء
عن القبائح وباستقبال القبلة فى الصلاة (حنيفا) أى مائلا الى الدين ميلا كليا معرضا عما سواه اعراضا
كليا فقوله وأمرت ان أكون من المؤمنين اشارة الى تحصيل أصل الايمان وقوله وأن أقم وجهك للدين

حنيفا اشارة الى الاستغراق فى نور الايمان (ولا تكونن من المشركين) أى وأمرت بأن لا ألتفت الى غير ذلك الدين فمن عرف مولاه والتفت بعد ذلك الى غيره كان ذلك الالتفات شركا وهذا هو الذى تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفى (ولا تدع من دون الله) أى لا تعبد من غير الله (مالا ينفعك ولا يضرك) فلا نافع الا الله ولا ضار الا الله ولا حكم الا لله ولا رجوع فى الدارين الا الى الله وهذه الجملة عطف على جملة الامر وهى أقم فتكون داخلة فى صلة أن المصدرية (فان فعلت فانك اذا من الظالمين) أى لو اشتغلت بطلب المنفعة والمضرة من غير الله فأنت من الواضعين للشئ فى غير موضعه وطلب الشبع من الاكل والرى من الشرب لا يقدح فى الاخلاص لان وجود الخبز وصفاته كلها بايجاد الله وطلب الانتفاع بشئ خلقه الله لذلك لا يكون منافيا للرجوع بالكلية الى الله الا أن شرط هذا الاخلاص أن لا يقع بصر عقله على شئ من هذه الموجودات الا ويشاهد بعين عقله أنها معدومة بذواتها موجودة بايجاد الله فحينئذ يرى ماسوى الله عدما محضا بحسب أنفسها ويرى نور وجوده تعالى وفيض احسانه عاليا على الكل (وان يمسسك الله بضر) أى ان يصبك بضر كمرض وفقر (فلا كاشف له) أى فلا رافع لذلك الضر (الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله) أى وان يرد أن يصيبك بخير فلا دافع لعطيته الذى أرادك به ولم يستثن الله تعالى مع الارادة لان ارادة الله تعالى قديمة لا تتغير بخلاف مس الضر فانه صفة فعل قال الرازى وتقديم الانسان فى اللفظ وهو المشار اليه بالخطاب دليل على أن المقصود هو الانسان اما سائر الخيرات فهى مخلوقة لاجله (يصيب به) أى يخص بالفضل الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير (من يشاء من عباده) ممن كان أهلا لذلك (وهو الغفور) أى البالغ الستر للذنوب (الرحيم) أى البالغ فى الاكرام (قل) مخاطبا لاولئك الكفرة لاجل أن تنقطع معذرتهم (يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الاحكام (فمن اهتدى) بالايمان به (فانما يهتدى لنفسه) أى فمنفعة اهتدائه لها خاصة (ومن ضل) بالاعراض عنه (فانما يضل عليها) أى فوبال الضلال مقصور على نفسه (وما أنا عليكم بوكيل) أى بحفيظ موكول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير فلا يجب على السعى فى ايصالكم الى الثواب وفى تخليصكم من العذاب (واتبع ما يوحى اليك) أى يؤمر لك فى القرآن من تبليغ الرسالة (واصبر) على ما يطرأ عليك من مشاق التبليغ (حتى يحكم الله) بالامر بالقتال (وهو خير الحاكمين) لحكم بالجهاد وبالجزية على أهل الكتاب وأنشد بعضهم فى الصبر شعرا فقال

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى * وأصبر حتى يحكم الله فى أمرى

سأصبر حتى يعلم الصبر اننى * صبرت على شئ أمر من الصبر

﴿سورة هود مكية مائة وثلاث وعشرون آية وألف وسبعمائة وخمسة وعشرون كلمة وستة آلاف وستمائة وخمسة أحرف﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم الر كتاب أحكمت آياته) أى نظمت نظما رصيفا متقنا (ثم فصلت) أى جعلت فصولا من دلائل التوحيد والنبوة والاحكام والمواعظ والقصص (من لدن حكيم خبير) صفة ثانية لكتاب أو صلة للفعلين كأنه تعالى يقول أحكمت آياته من عند حكيم أى واضع الشئ بالحكمة وفصلت آياته من عند خبير أى عالم بكيفيات الامور (أن لا تعبدوا الا الله) فان تفسيرية لفصلت فانها فى معنى القول (اننى لكم منه) أى من جهة الحكيم الخبير (نذير) بعذابه ان عبدتم غير الله تعالى (وبشير)

بثوابه ان عصيتم فى عبادته (وأن استغفروا ربكم) معطوف على أن لاتعبدوا (ثم توبوا اليه) أى اطلبوا من ربكم ستر ما سلف منكم من الشرك ثم أقبلوا اليه بالطاعة والاخلاص (يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى) أى يعشكم عيشا مرضيا الى وقت مقدر عند الله تعالى وهو آخر أعماركم فمن أخلص لله فى القول والعمل عاش فى أمن من العذاب وراحة عما يخشاه ومن اشتغل بمحبة الله كان انقطاعه عن الخلق أكمل وسروره أتم لانه آمن من زوال محبوبه ومن كان مشتغلا بحب غير الله كان أبدا فى ألم الخوف من فوات المحبوب (ويؤت) أى يعط فى الدنيا وفى الآخرة (كل ذى فضل) فى الاسلام والطاعة (فضله) أى ثوابه (وان تولوا) أى تعرضوا عما ألقى اليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة (فانى أخاف عليكم) بموجب الشفقة (عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة (الى الله مرجعكم) بالموت ثم البعث للجزاء (وهو على كل شئ قدير) فيقدر على تعذيبكم بافانين العذاب (ألا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم) أى تنبه ان الكفار يضمرون خلاف ما يظهرون ليستخفوا من الله تعالى حين يغطون رؤسهم بثيابهم للاستخفاء روى عن ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى الاخنس بن شريق وأصحابه من منافقى مكة وكان رجلا حلو المنطق حسن المنظر يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة ويضمر فى قلبه العداوة (يعلم ما يسرون) فى قلوبهم (وما يعلنون) بأفواههم (انه عليم بذات الصدور) أى انه تعالى مبالغ فى الاحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة فى صدورهم فلا فائدة لهم فى استخفائهم (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) أى غذاؤها اللائق بها روى أن موسى عليه السلام تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره الله تعالى ان يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرجت صخرة ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت صخرة ثالثة ثم ضربها بعصاه فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفى فيها شئ يجرى مجرى الغذاء لها ورفع الله الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول سبحان من يرانى ويسمع كلامى ويعرف مكانى ويذكرنى ولا ينسانى (ويعلم مستقرها) أى مكانها فى الارض قبل الموت وبعده (ومستودعها) أى موضعها قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة (كل) من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها وأحوالها (فى كتاب مبين) أى ثابت فى علم الله ومذكور فى اللوح المحفوظ (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) أى خلق السموات فى يومين والارض فى يومين وما عليها من أنواع الحيوانات والنبات وغير ذلك فى يومين (وكان عرشه) قبل خلقهما (على الماء) قال صلى الله عليه وسلم كان الله وما كان معه شئ ثم كان عرشه على الماء أى والعرش الذى هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله تعالى فوق سبع سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وذلك يدل على كمال قدرته تعالى (ليبلوكم) أى خلق السموات والارض وما فيهما ورتب فيهما جميع ما تحتاجون اليه من مبادى وجودكم وأسباب معايشكم وأودع فيهما ما تستدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يختبركم (أيكم أحسن عملا) أى أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فان لكل من القلب والقالب عملا مخصوصا به (ولئن قلت) يا أشرف الخلق لاهل مكة (انكم مبعوثون) أى محيون (من بعد الموت ليقولن الذين كفروا) منهم (ان هذا الا سحر مبين) أى ما هذا القول الا خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا واحرازهم الى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم وقرأ حمزة والكسائى الا ساحر أى كاذب وحينئذ فاسم الاشارة

عائد على النبي أو القرآن (ولئن أخرنا عنهم العذاب) الذى هددهم الرسول صلى الله عليه وسلم به (الى أمة معدودة) أى الى انقراض جماعة من الناس بعد هذا التهديد بالقول (ليقولن) بطريق الاستعجال استهزاء (ما يحبسه) أى أى شئ يمنع العذاب من المجئ الينا (ألا) أى تنبهوا (يوم يأتيهم) أى العذاب (ليس مصروفا عنهم) أى فلا يرفع رافع أبدا عذاب الآخرة ولا يدفع عنهم دافع عذاب الدنيا (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى أحاط بهم ذلك العذاب (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة) أى أعطيناه نعمة كغنى وصحة (ثم نزعناها منه انه ليؤس) أى قاطع رجاءه من عود أمثالها لعلة صبره وعدم ثقته بالله (كفور) أى عظيم الكفران لما سلف من النعم (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) كصحة بعد سقم وفرج بعد شدة (ليقولن ذهب السيآت عنى) أى المصائب التى تحزننى (انه لفرح) أى بطر بالنعم مغتر بها (فخور) على الناس بما أوتى من النعم مشغول بذلك عن الشكر (الا الذين صبروا) عند البلاء استسلاما لقضاء الله (وعملوا الصالحات) عند الراحة والخير شكرا على ذلك (أولئك لهم مغفرة) عظيمة لذنوبهم وان جمت (وأجر) أى ثواب (كبير) لاعمالهم الحسنة (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك) فلعل للزجر والتبعيد أى لا تترك تبليغ بعض ما يوحى اليك من البينات الدالة على حقية نبوتك ولا يضق صدرك بتلاوته عليهم فى أثناء الدعوة والمحاجة كراهة (أن يقولوا لولا أنزل عليه) أى على محمد (كنز) أى مال كثير مخزون يدل على صدقه (أو جاء معه ملك) يصدقه والمعنى لا تترك التبليغ ولا يضق صدرك به بسبب قول القوم لك ان كنت صادقا فى انك رسول الاله الذى تصفه بالقدرة على كل شئ وبانك عزيز عنده مع انك فقير فهلا أنزل عليك ما تستغنى به وتغنى أحبابك من الكد والعناء وان كنت صادقا فهلا أنزل عليك ملكا يشهد لك بالرسالة فتزول الشبهة فى أمرك فلما لم يفعل الهك ذلك فأنت غير صادق فنزل قوله تعالى (انما أنت نذير) فلا تبال بما صدر عنهم من الرد والقبول (والله على كل شئ وكيل) أى حفيظ فتوكل عليه فى جميع أمورك فانه فاعل بهم ما يليق بحالهم (أم يقولون افتراه) أى بل أيقولون افترى محمد القرآن من تلقاء نفسه وليس من عند الله (قل) لهم ارخاء للعنان ان كان الامر كما تقولون (فأتوا بعشر سور مثله) أى القرآن فى البلاغة وحسن النظم (مفتريات) من عند أنفسكم فانكم أقدر على ذلك منى لانكم عرب فصحاء ممارسون للاشعار ومزاولون أنواع النظم والنثر (وادعوا) للمعاونة فى المعارضة (من استطعتم من دون الله) أى من الاصنام والكهنة (ان كنتم صادقين) فى ادعاء كون القرآن مفترى على الله (فان لم يستجيبوا) أى من تدعونهم من دون الله (لكم) أيها الكفار فى الاعانة على المعارضة (فاعلموا) يا معشر الكفار (انما أنزل بعلم الله) أى ان الذى أنزل ملتبس بعلم الله أى هو من عند الله اذ لو كان مفترى على الله لوجب ان يقدر الخلق على مثله ولما لم يقدروا عليه ثبت انه من عند الله (وأن لا اله الا هو) أى واعلموا انه لا شريك لله فى الالوهية ولا يقدر على ما يقدر هو عليه أحد أى لما ثبت عجز الخصوم عن المعارضة ثبت كون القرآن حقا وثبت كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقا فى دعوى الرسالة وفى خبره انه لا اله الا الله (فهل أنتم مسلمون) أى فهل أنتم داخلون فى الاسلام والمعنى فان لم يستجب لكم آلهتكم وسائر من اليهم تجأرون فى ملماتكم الى المعاونة فاعلموا ان القرآن خارج عن دائرة قدرة البشر وانه منزل من خالق القوى والقدر واعلموا أيضا ان آلهتكم بمعزل عن رتبة الشركة فى الالوهية فهل أنتم داخلون فى الاسلام بعد قيام هذه الحجة القاطعة (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) بعمل الخير

من

من العبادات وايصال المنفعة الى الحيوانات (نوف اليهم أعمالهم فيها) أى نوصل اليهم ثمرات أعمالهم في الحياة الدنيا كاملة (وهم فيها) أى في الحياة الدنيا (لايبخسون) أى لا ينقصون نقصا كليا ولا يحرمون من ذلك حرمانا كليا هو ما يرزقون فيهما من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الاولاد ونحو ذلك (أولئك) أى المريدون لزينة الدنيا الموفون فيها ثمرات أعمالهم (الذين ليس لهم في الآخرة الا النار) بسبب هذه الاعمال الفاسدة المقرونة بالرياء روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعوذوا بالله من جب الحزن قيل وما جب الحزن قال واد في جهنم يلقى فيه القراء المراؤن وقال صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى الناس ان فيه خيرا ولا خير فيه (وحبط ماصنعوا فيها) وهذا ان تعلق بحبط فالضمير عائد على الآخرة أى وظهر في الآخرة حبط ماصنعوه من الاعمال وان تعلق بصنعوا فالضمير يعود على الحياة الدنيا أى وحبط ماصنعوه في الدنيا من أعمال البر (وباطل ما كانوا يعملون) فباطل اما خبر مقدم ومابعده مبتدأ مؤخر أو عطف على الخبر ومابعده فاعل له ويرجح هذا قراءة زيد بن على وبطل ما كانوا يعملون على صيغة الماضي معطوف على حبط أى ظهر بطلان عملهم في نفسه في أثناء تحصيل المطالب الدنيوية وقرئ وباطلا ما كانوا يعملون على ان ما ابهامية أو في معنى المصدر (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة) أى أفمن كان على برهان من ربه عرف به صحة الدين الحق ويتبع ذلك البرهان شاهد من ربه وهو القرآن ويتبع ذلك البرهان من قبل مجئ الشاهد الذى هو القرآن شاهد آخر وهو كتاب موسى حال كونه مقتدى به في الدين وسببا لحصول الرحمة لانه يهدى الى الحق في الدنيا والدين كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها في انهم ليس لهم في الآخرة الا النار لا بل بين الفريقين تباين بين فالحاصل انه اجتمع في تثبيت صحة هذا الدين أمور ثلاثة أولها دلالة الدلائل العقلية اليقينية على صحته وثانيها شهادة القرآن بصحته وثالثها شهادة التوراة بصحته فعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هذا اليقين في القوة والجلاء الى حيث لا يمكن الزيادة عليه فلا يبقى في صحته شك (أولئك) أى الموصوفون بالصفات الحميدة (يؤمنون به) أى بالقرآن كعبد الله بن سلام وغيره ممن اتصف بتلك الصفات وهذا الفريق ليس له في الآخرة الا الجنة (ومن يكفر به) أى بالقرآن (من الاحزاب) أى أصناف الكفار (فالنار موعده) أى مكان وعده وهو الذى فيها مالا يوصف من أفانين العذاب روى سعيد ابن جبير عن أبي موسى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يسمع بي يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بي الا كان من أهل النار قال أبو موسى فقلت في نفسي ان النبي صلى الله عليه وسلم يقول مثل هذا الا عن القرآن فوجدت الله تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده (فلا تك في مرية منه انه الحق من ربك) أى فلا تك في شك من القرآن أنه الحق من ربك نزل به جبريل أو المعنى فلا تك في شك من أن مصير من كفر بالقرآن النار أن هذا الوعد هو الثابت ممن يربيك في دينك ودنياك والخطاب للنبي والمراد غيره (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بذلك اما لاختلال أفكارهم واما لعنادهم (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بأن نسب اليه مالا يليق به كقولهم في الاصنام أنها شفعاؤهم عند الله (أولئك) الموصوفون بالافتراء على الله تعالى (يعرضون على ربهم) عرضا تظهر به فضيحتهم أى يساقون الى الاماكن المعدة للحساب والسؤال (ويقول الاشهاد) من الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم في الدنيا والانبياء عند العرض (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) بالافتراء عليه ثم لما أخبر الله تعالى عن حالهم في القيامة أخبر عن حالهم في الحال بقوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) بالزام

الكفر والضلال أى انهم فى الحال الملعونون من عند الله (الذين يصدون عن سبيل الله) أى الذين يمنعون من الدين الحق كل من يقدرون على منعه بالقاء الشبهات (و يبغونها عوجا) أى يطلبون سبيل الله زيغا بتعويج الدلائل المستقيمة (وهم) أى والحال أنهم (بالآخرة هم كافرون) أى بالبعث بعد الموت جاحدون (أولئك لم يكونوا معجزين فى الارض) أى لا يمكنهم أن يفلتوا بأنفسهم من عذاب الله بالهرب من الارض مع سعتها ان أراد الله تعذيبهم (وما كان لهم من دون الله من أولياء) أى أنصار يدفعون عذاب الله عنهم أى ان عدم نزول العذاب ليس لاجل أنهم قدروا على منع الله من انزال العذاب بالفرار ونحوه ولا لاجل أن لهم ناصرا يمنع العذاب عنهم كما زعموا أن الاصنام شفعاؤهم عند الله بل لانه تعالى أمهلهم كى يتوبوا عن كفرهم فاذا أبوا الا الثبات عليه فلا بد من مضاعفة العذاب فى الآخرة كما قال تعالى (يضاعف لهم العذاب) أى فيعذبون فى الآخرة على ضلالهم فى أنفسهم وعلى اضلالهم غيرهم وهذا غير خارج عن قوله تعالى ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وقرأ ابن كثير وابن عامر و يعقوب بالتشديد (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) وهذا تعليل لمضاعفة العذاب أى لانهم كانوا عاجزين عن الوقوف على دلائل الله تعالى (أولئك الذين خسروا أنفسهم) أى فانهم اشتروا عبادة الاصنام بعبادة الله تعالى وهذا أعظم وجوه الخسران (وضل عنهم ما كانوا يفترون) من شفاعة الاصنام لهم فلم يبق معهم غير الندامة (لا جرم) أى لا بد (أنهم فى الآخرة هم الاخسرون) بذهاب الجنة وما فيها أى أنهم أخسر من كل خاسر لانهم أظلم من كل ظالم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم) أى ان الذين آمنوا بكل ما يجب الايمان به وآتوا بالاعمال الصالحات واطمأنت قلوبهم عند أداء الاعمال الى ذكر الله فارغة عن الالتفات الى ما سوى الله تعالى واطمأنت الى صدق وعد الله بالثواب على تلك الاعمال وخافت قلوبهم من أن يكونوا أتوا بتلك الاعمال مع وجود الاخلال ومن أن لا تكون مقبولة (أولئك) المنعوتون بتلك النعوت الجميلة (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى دائمون (مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع) أى صفة الكافر كصفة شخص متصف بالعمى والصمم فلا يهتدى لمقصوده وصفة المؤمن كصفة شخص متصف بالبصر والسمع فاهتدى لمطلوبه (هل يستويان مثلا) أى صفة وحالا (أفلا تذكرون) أى أتشكون فى عدم الاستواء ولا تتعظون بأمثال القرآن فتؤمنوا (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير) للعصاة من العقاب (مبين) أى بين النذارة فأبين لكم طريق الخلاص من العذاب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى أنى بفتح الهمزة أى متلبسا بالانذار والباقون بالكسر على معنى فقال انى لكم (أن لا تعبدوا الا الله) بدل من انى لكم الخ على قراءة الفتح ومجرور بالباء المقدرة التى للتعدية المتعلقة بأرسلنا (انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) فى الدنيا أو فى الآخرة (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) أى الاشراف منهم (ما نراك الا بشرا مثلنا) أى ما نعلمك الا آدميا مثلنا ليس فيك مزية تخصك بوجوب الطاعة علينا (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) أى أخساؤنا كالحجامين والنساجين والاساكفة (بادى الرأى) قرأ أبو عمرو ونصر عن الكسائى بادئ بالهمزة والباقون بالياء ونصبه على الظرفية أى فى ابتداء حدوث الرأى ولو احتاطوا فى الكفر ما اتبعوك أو فى ظاهر رأى العين (وما نرى لكم علينا من فضل) أى لا نرى لك ولمن تبعوك بعد الاتباع فضلا علينا لا فى العقل ولا فى رعاية المصالح العاجلة ولا فى قوة الجدل (بل نظنكم كاذبين) أى بل نظنك يا نوح فى دعوى النبوة

ونظن أصحابك كاذبين فى تصديق نبوتك (قال) أى نوح (ياقوم أرأيتم) أى اخبرونى (ان كنت على بينة من ربى) أى على برهان عقلى فى معرفة ذات الله وصفاته وما يجب وما يمتنع وما يجوز عليه (وآتانى رحمة من عنده) أى نبوة ومعجزة دالة على النبوة (فعميت عليكم) أى وصار ذلك البرهان مشكوكا فى عقولكم وقرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم فعميت بضم العين وتشديد الميم والباقون بفتح العين وتخفيف الميم (أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) أى فهل أقدر على ان أجعلكم بحيث تصلون الى معرفة ذلك البرهان وأنتم منكرون وله المعنى انكم زعمتم ان عهد النبوة لا ينا له الا من له فضيلة على سائر الناس اخبرونى ان امتزت عنكم بحيازة فضيلة من ربى وهى دليل العقل وآتانى بحسبها نبوة من عنده نخفى عليكم دليل العقل ولم تنالوه ولم تعلموا حيازتى لها الى الآن حتى زعمتم انى مثلكم وهى متحققة فى نفسها انلزمكم قبول نبوتى التابعة لها والحال انكم كارهون لذلك فيكون الاستفهام لطلب الاقرار وحاصل الكلام انهم لما قالوا وما نرى لكم علينا من فضل ذكر نوح عليه السلام ان ذلك بسبب ان الحجة عميت عليكم واشتبهت فأما لو تركتم العناد واللجاج ونظرتم فى الدليل لظهر المقصود وتبين ان الله تعالى آتانا عليكم فضلا عظيما وأنا لا أقدر على اعطائكم الالهام والمعرفة فى تلك الحجة وانما أقدر على ان أدعوكم الى الله (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله) أى قال نوح عليه السلام أنا لا أطلب منكم على تبليغ دعوة الرسالة مالا حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرا أو غنيا وما أجرى على هذه الطاعة الا على رب العالمين وان ظننتم انى انما اشتغلت بهذا التبليغ لاجل أخذ أموالكم فهذا الظن منكم خطاء وانما أسعى فى طلب الدين لا فى طلب الدنيا وهذا يوجب فضلى عليكم فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد (وما أنا بطارد الذين آمنوا) بقولكم لى امنع واطرد هؤلاء الاسافلة عنك ونحن نتبعك فانا نستحيى ان نجلس معهم فى مجلسك (انهم ملاقوا ربهم) أى انهم فائزون فى الآخرة بلقاء الله تعالى فان طردتهم استخصمونى فى الآخرة عنده فأعاقب على طردهم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) ان منزلة المؤمنين عند الله تعالى أعلى وان طردهم يوجب غضب الله تعالى (ويا قوم من ينصرنى من الله) أى بدفع نزول سخطه عنى (ان طردتهم) فان الطرد ظلم موجب للسخط قطعا (أفلا تذكرون) أى أتأمرونني بطردهم فلا تتعظون عما أقول لكم (ولا أقول لكم) حين أدعى النبوة (عندى خزائن الله) أى رزقه وأمواله وهذا رد لقولهم وما نرى لكم علينا من فضل كالمال (ولا أعلم الغيب) أى ولا أقول انى أعلم الغيب حتى تسارعوا الى الانكار والاستبعاد وهذا رد لقولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى أى فى ظاهر حالهم وأول فكرهم وفى الباطن لم يتبعوك فقال نوح لهم انى انما أعول على الظاهر لانى لا أعلم الغيب فأحكم به (ولا أقول انى ملك) رد لقولهم ما نراك الا بشرا مثلنا فكأن نوحا قال أنا لم أدع الملكية حتى تقولوا ذلك أى انكم اتخذتم فقدان هذه الامور الثلاثة ذريعة الى تكذيبى والحال انى لا أدعى شيأ من ذلك ولا الذى أدعيه يتعلق بشئ منها وانما يتعلق بالفضائل النفسانية التى بها تتفاوت مقادير البشر (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) أى ولا أقول كما تقولون فى حق الذين تحتقرهم أعينكم (لن يؤتيهم الله خيرا) أى هداية وأجرا (الله أعلم بما فى أنفسهم) أى بما فى قلوبهم من الايمان (انى اذا) أى اذا قلت ذلك (لمن الظالمين) لنفسى ولهم فى وصفهم بأنهم لا خير لهم مع ان الله أعطاهم خيرى الدارين (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) أى فأتيت بأنواع الجدال (فأتنا بما تعدنا) من العذاب (ان كنت من الصادقين) فيما تقول (قال)

أى نوح (انما يأتيكم به الله) أى ان الاتيان بالعذاب الذى تستعجلونه أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله تعالى (ان شاء وما أنتم بمعجزين) أى بمانعين من العذاب بالهرب أو بالمدافعة كما تدفعوننى فى الكلام (ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) أى ان كان الله يريد ان يضلكم عن الهدى فان أردت ان أحذركم من عذاب الله وأدعوكم الى التوحيد لا ينفعكم دعائى الى التوحيد وتحذيرى اياكم من عذاب الله (هو ربكم) أى مالك التصرف فى ذواتكم وفى صفاتكم قبل الموت وعند الموت (واليه) تعالى (ترجعون) بعد الموت فيجازيكم على أعمالكم (أم يقولون افتراه) أى بل أيقول قوم نوح ان نوحا افترى بما أتانا به من عند نفسه مسندا الى الله تعالى (قل) يانوح (ان افتريته) أى ان اختلقت الوحى الذى بلغته اليكم من تلقاء نفسى (فعلى اجرامى) أى فعلى عقاب اكتسابى للذنب وان كنت صادقا وكذبتمونى فعليكم عقاب ذلك التكذيب (وأنا برئ مما تجرمون) أى من عقاب كسبكم الذنب باسناد الافتراء الى (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) أى فلا تحزن بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والايذاء فى هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم (واصنع الفلك بأعيننا) أى اصنع السفينة ملتبسا بابصارنا لك وتعهدنا بتعليمك كيفية صنعها (ووحينا) أى وبأمرنا لك (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) أى لا تدعنى باستدفاع العذاب عنهم أو المعنى لا تراجعنى فى نجاة الذين كفروا ابنك كنعان وامرأتك راعلة (انهم مغرقون) أى محكوم عليهم بالاغراق بالطوفان (ويصنع الفلك) أى أقبل نوح يصنعها وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ القار وكل ما يحتاج اليه فى عملها وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة فى سنتين فكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وطولها فى السماء ثلاثين ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاث بطون فجعل فى البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وركب هو ومن معه البطن الاعلى وحمل ما يحتاج اليه من الزاد وغيره (وكلما مر عليه ملأ من قومه) أى طبقة من كبرائهم (سخروا منه) أى كانوا يتضاحكون لعمله السفينة ويقولون يانوح كنت تدعى رسالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجارا وكان يصنعها فى موضع بعيد عن الماء جدا وكانوا يقولون ليس ههنا ماء ولا يمكنك نقلها الى الانهار العظيمة والى البحار فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون (قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) اليوم منا أى ان حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فانا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) أى فسوف تعلمون أينا يأتيه عذاب فى الدنيا يهينه وهو عذاب الغرق من هو أحق بالسخرية ومن هو أحمد عاقبة (ويحل عليه عذاب مقيم) أى وأينا ينزل عليه عذاب النار الدائم فى الآخرة (حتى اذا جاء أمرنا) أى عذابنا الموعود به (وفار التنور) أى نبع الماء من تنور الخبز وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها روى انه قيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب وقيل كان التنور لآدم وكانت حواء تخبز فيه الخبز فصار الى نوح وكان من حجارة وهو فى الكوفة على يمين الداخل مما يلى باب كندة فى المسجد (قلنا احمل فيها) أى السفينة (من كل زوجين اثنين) وقرأ حفص من كل بالتنوين أى من شئ زوجين اثنين كل منهما زوج للآخر والجمهور على الاضافة أى من كل فردين متزاوجين اثنين بان تحمل من الطير ذكرا وانثى ومن الغنم ذكرا وانثى وهكذا وتترك الباقى والمراد من الحيوانات التى تنفع والتى تلد أو تبيض فيخرج المضرات والتى

تنشا

تنشأ من العفونة والتراب كالدود والقمل والبق والبعوض (وأهلك) عطف على زوجين على قراءة حفص وعلى اثنين على قراءة غيره (الا من سبق عليه القول) بأنه من المغرقين بسبب ظلمهم في قوله تعالى ولا تخاطبني في الذين ظلموا الآية والمراد به ابنه كنعان وأمه واعلة فانهما كانا كافرين فحمل نوح في السفينة زوجته المؤمنة وأولاده الثلاثة مع نسائهم سام وحام ويافث فسام أبو العرب وحام أبو السودان ويافث أبو الترك (ومن آمن) عطف على زوجين أو على اثنين أي واحمل من آمن من غير أهلك (وما آمن معه الا قليل) وعن ابن عباس قال كان في سفينة نوح ثمانون انسانا نصفهم رجال ونصفهم نساء وقال مقاتل في ناحية الموصل قرية يقال لها قرية الثمانين سميت بذلك لان هؤلاء لما خرجوا من السفينة بنوها فسميت بهذا الاسم (وقال) أي نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين (اركبوا فيها بسم الله) أي اركبوا في السفينة ذاكرين اسم الله (مجريها ومرساها) أي وقت جريها وارسائها قيل كان نوح عليه السلام اذا أراد ان يجريها يقول بسم الله فتجري واذا أراد ان يرسيها يقول بسم الله فترسو (ان ربي لغفور رحيم) أي لولا مغفرته تعالى ورحمته اياكم لما نجاكم لانكم لا تنفكون عن أنواع الزلات (وهي تجري بهم في موج كالجبال) في عظمه وارتفاعه وذلك يدل على وجود الرياح الشديدة في ذلك الوقت قال علماء السير أرسل الله تعالى المطر أربعين يوما وليلة وخرج الماء من الارض وارتفع الماء على أعلا جبل وأطوله أربعين ذراعا حتى أغرق كل شئ (ونادى نوح ابنه) كنعان قبل سير السفينة (وكان في معزل) أي في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه واخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا (يا بني اركب معنا) في السفينة (ولا تكن مع الكافرين) أي في المكان وهو وجه الارض خارج السفينة في الدين لان نوحا عليه السلام يحذر ابنه عن الهلكة لا ينهى عن الكفر في ذلك الوقت (قال سآوي) أي ألتجئ (الى جبل يعصمني من الماء) لارتفاعه (قال) أي نوح (لا عاصم اليوم من أمر الله) أي عذابه (الا من رحم) أي الا الله الراحم والتقدير لا فرار من الله الا الى الله وهذا تأويل في غاية الحسن وقيل لا مكان يعصم من عذاب الله الا مكان من رحمه الله وهو السفينة وقيل لا ذا عصمة الا من رحمه الله (وحال بينهما الموج) أي حال الموج بين نوح وابنه كنعان (فكان من المغرقين) أي فصار كنعان من المهلكين بالطوفان (وقيل) أي قال الله (يا أرض ابلعي ماءك) أي انشفي ما على وجهك من ماء الطوفان (ويا سماء أقلعي) أي امسكي عن ارسال المطر (وغيض الماء) أي نقص ما بين السماء والارض من الماء (وقضي الامر) أي أتم الامر من هلاك قوم نوح (واستوت) أي استقرت الفلك (على الجودي) أي على جبل بالجزيرة قريب من الموصل يقال له الجودي وكان ذلك الجبل منخفضا روي انه عليه السلام ركب في الفلك في عاشر رجب ومرت بالبيت الحرام فطافت به سبعا ونزل عن الفلك في عاشر المحرم فصام ذلك اليوم وأمر من معه بصيامه شكرا لله تعالى وبنوا قرية بقرب ذلك الجبل فسموها قرية الثمانين فهي أول قرية عمرت على الارض بعد الطوفان (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أي قال نوح وأصحابه بعدوا بعدا من رحمة الله للقوم المشركين بحيث لا يرجى عودهم وهذا الكلام جار مجرى الدعاء عليهم لان الغالب ممن يسلم من الامر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فاذا اهلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام (ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني) كنعان (من أهلي) وقد وعدتني انجاءهم في ضمن قولك واحمل أهلك (وان وعدك الحق) أي ان كل وعد تعده لا يتطرق اليه خلف (وأنت أحكم الحاكمين) أي لانك أعدل الحاكمين وهذا دعاء سيدنا نوح عليه السلام في غاية التلطف وهي مثل دعاء سيدنا أيوب عليه السلام اني مسني

الضر وأنت أرحم الراحمين (قال) أي الله تعالى (يا نوح انه) أي هذا الابن الذي سألتني نجاته
(ليس من أهلك) الذي وعدتك أن أنجيهم معك (انه عمل غير صالح) أي لان هذا الابن ذو عمل غير
مرضي وقرأ الكسائي ويعقوب عمل على صيغة الفعل وغير بالنصب أي لانه عمل عملا غير مرضي وهو
الشرك (فلا تسألن ما ليس لك به علم) أي اذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب مني مطلبا لا تعلم يقينا
أن حصوله صواب وموافق للحكمة (اني أعظك أن تكون من الجاهلين) أي اني أنهاك عن أن تكون
من الجاهلين بالسؤال سمي سؤاله عليه السلام جهلا لان حب الولد شغله عن تذكر استثناء من سبق عليه
القول منهم بالاهلاك (قال رب اني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم) أي أعوذ بك من أن أطلب
منك من بعد هذا مطلوبا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة (والا تغفر لي) جهلي واقدامي على سؤال ما ليس
لي به علم (وترحمني) بقبول توبتي (أكن من الخاسرين) أعمالا وليس في الآيات ما يقتضي صدور
ذنب ومعصية من نوح عليه السلام سوى اقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه وهذا ليس بذنب ولا معصية
وانما لجأ الى الله تعالى وسأله المغفرة والرحمة لان حسنات الابرار سيآت المقربين (قيل) أي قال الله
(يا نوح اهبط) أي انزل من السفينة (بسلام) أي ملتبسا بأمن من جميع المكاره المتعلقة بالدين (منا
وبركات عليك) أي خيرات نامية عليك وهذا بشارة من الله تعالى بالسلامة من التهديد وبنيل الحاجات
من المأكول والمشروب (وعلى أمم ممن معك) أي وعلى أمم مؤمنة ناشئة من الذين معك الى يوم القيامة
(وأمم) كافرة متناسلة ممن معك (سنمتعهم) مدة في الدنيا (ثم) في الآخرة (يمسهم منا عذاب أليم)
فقوله وأمم مبتدأ وجملة قوله سنمتعهم خبر (تلك من أنباء الغيب) أي تلك التفاصيل التي بيناها من
الاخبار التي كانت غائبة عن الخلق (نوحيها) أي تلك الاخبار (اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك)
بطريق التفصيل (من قبل هذا) أي من قبل ايحائنا اليك بنزول القرآن (فاصبر) على أذى
هؤلاء الكفار كما صبر نوح على أذى أولئك الكفار (ان العاقبة) أي آخر الامر بالظفر في الدنيا وبالفوز
في الآخرة (للمتقين) كما عرفته في نوح وقومه ولك فيه أسوة حسنة (والى عاد أخاهم) أي ولقد أرسلنا
الى عاد واحدا منهم في النسب نبيهم (هودا قال يا قوم اعبدوا الله) وحده (ما لكم من اله غيره) بالرفع
صفة للمحل وبالجر على قراءة الكسائي صفة للفظ (ان أنتم الا مفترون) أي كاذبون في قولكم ان الاصنام
تستحق العبادة (يا قوم لا أسألكم عليه) أي على ارشادكم الى التوحيد (أجرا ان أجري الا على
الذي فطرني) أي خلقني (أفلا تعقلون) اني مصيب في المنع من عبادة الاصنام (ويا قوم استغفروا
ربكم) أي سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم (ثم توبوا اليه) من بعد التوحيد بالندم على
ما مضى وبالعزم على أن لا تعودوا لمثله (يرسل السماء) أي المطر (عليكم مدرارا) أي كثير السيلان
(ويزدكم قوة الى قوتكم) بالمال والولد والشدة في الاعضاء قيل حبس الله تعالى عنهم المطر ثلاث سنين
وعقمت نساؤهم ثلاثين سنة لم تلد (ولا تتولوا مجرمين) أي ولا تعرضوا عما أدعوكم اليه مصرين على
آثامكم (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) أي بمعجزة (وما نحن بتاركي آلهتنا) أي بتاركي عبادتها (عن
قولك) أي لاجل قولك (وما نحن لك بمؤمنين) أي بمصدقين بالرسالة (ان نقول الا اعتراك بعض
آلهتنا بسوء) أي ما نقول في شأنك الا قولنا أصابك بعض آلهتنا بجنون لانك شتمتها ومنعت عن عبادتها
(قال اني أشهد الله) علي (واشهدوا) أنتم علي (أني بريء مما تشركون من دونه) أي من اشراككم
آلهة من دون الله (فكيدوني جميعا) أي فاعملوا في هلاكي أنتم وآلهتكم جميعا (ثم لا تنظرون) أي

لاتؤجلونى (انى توكلت على الله ربى وربكم) أى انى فوضت أمرى الى الله مالكى ومالككم (مامن دابة الاهو آخذ بناصيتها) أى مامن حيوان الا وهو تحت قهره وقدرته وهو منقاد لقضائه وقدره (ان ربى على صراط مستقيم) أى انه تعالى وان كان قادرا على عباده لكنه لا يظلمهم ولا يفعل بهم الا ماهو الحق والعدل والصواب (فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) أى فان تعرضوا عن الايمان والتوبة لم أعاتب على تقصير فى الابلاغ لانى قد أبلغتكم وصرتم محجوجين من الله تعالى لانكم أصررتم على التكذيب (ويستخلف ربى قوما غيركم) أى يخلق ربى بعدكم من هو خير منكم وأطوع وهذا اشارة الى نزول عذاب الاستئصال (ولا تضرونه شيأ) أى لا ينقص هلاككم من ملك الله شيأ (ان ربى على كل شئ حفيظ) فيحفظ لاعمال العباد حتى يجازيهم عليها (ولما جاء أمرنا) أى عذابنا الدنيوى وهو السموم التى تدخل من أنوفهم وتخرج من أدبارهم فترفعهم فى الجو وتصرعهم على الارض على وجوههم فتتقطع أعضاؤهم (نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة عظيمة كائنة (منا ونجيناهم من عذاب غليظ) وهو العذاب الاخروى (وتلك) القبيلة (عاد جحدوا بآيات ربهم) أى دلالة المعجزات على صدق هود (وعصوا رسله) وجمع الرسول مع انه لم يرسل اليهم غير هود لبيان ان عصيانهم له عليه السلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد (واتبعوا أمر كل جبار) أى مرتفع متمرد (عنيد) أى منازع معارض أى واتبع السفلة أمر رؤسائهم الدعاة الى الضلال والى تكذيب الرسل (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أى جعل الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير مصاحبا لهم وملازما فى الدنيا والآخرة (ألا ان عادا كفروا ربهم) أى كفروا بربهم (ألا بعدا لعاد) وهذا دعاء عليهم بالهلاك وتحقيرهم (قوم هود) عطف بيان لعاد وهذه عاد قديمة واحترز به عن عاد ثانية ارم ذات العماد (والى ثمود أخاهم صالحا) وثمود اسم أبى القبيلة وهو بين صالح وبينه خمسة اجداد وبين صالح وهود مائة سنة وعاش صالح مائتى سنة وثمانين سنة (قال ياقوم اعبدوا الله) وحده (مالكم من اله غيره هو أنشأكم من الارض) فان الانسان مخلوق من المنى وهو متولد من الدم وهو متولد من الاغذية وهى اما حيوانية واما نباتية فانتهاء الحيوانية الى النبات وهو متولد من الارض فثبت أن الله تعالى أنشأ الانسان من الارض (واستعمركم فيها) أى جعلكم سكان الارض وصيركم عامرين لها أو جعلكم معمرين ديارا كم تسكنونها مدة أعماركم ثم تتركونها لغيركم (فاستغفروه) أى آمنوا بالله وحده (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره (ان ربى قريب) بالعلم والسمع والرحمة (مجيب) دعاء المحتاجين بفضله ورحمته (قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أى قبل نهيك ايانا عن عبادة الاوثان لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد فانك كنت تعطف على فقرائنا وتعين ضعفاءنا وتعود مرضانا فقوى رجاؤنا فيك أنك من الاحباب ومن أنصار ديننا فكيف أظهرت العداوة ثم قالوا متعجبين تعجبا شديدا (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) أى ما عبدوه من الاوثان (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد وترك عبادة الاوثان (مريب) أى موقع فى اضطراب القلوب وانتفاء الطمأنينة (قال ياقوم أرأيتم) أى اخبرونى (ان كنت) فى الحقيقة (على بينة) أى بصيرة وبرهان (من ربى وآتانى منه رحمة) أى نبوة (فمن ينصرنى من الله) أى من ينجينى من عذابه (ان عصيته) أى بالمساهلة فى تبليغ الرسالة وفى المجاراة معكم (فما تزيدوننى غير تخسير) أى فما تزيدوننى بما تقولون غير بصيرة فى خسارتكم أى وما زادنى

قولكم الاقولي لكم انكم لخاسرون (و ياقوم هذه ناقة الله لكم آية) أى معجزة دالة على صدق نبوتي
فان الله خلقها من الصخرة فى جوف الجبل حاملا من غير ذكر على تلك الصورة دفعة واحدة وقد حصل
منها لبن كثير يكفى الخلق العظيم (فذروها) أى فاتركوها (تأكل فى أرض الله) أى ترع نباتها
وتشرب ماءها فليس عليكم كلفة فى مؤنتها وكانت هى تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا ينتفعون بلبنها
(ولا تمسوها بسوء) أى لا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوها بشئ من السوء (فيأخذكم عذاب قريب)
أى عاجل لا يتراخى عن مسكم لها بالسوء الا يسيرا وهو ثلاثة أيام (فعقروها) أى فقتلها قدار بن
سالف ومصدع بن زهر وقيل زينت عقرها لهم عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار فضرب بها قدار بأمرهم فى
رجليها فاوقعها فذبحوها واقتسموا لحمها على ألف وخمسمائة دار (فقال) لهم صالح بعد قتلهم لها (تمتعوا)
أى عيشوا (فى داركم) أى فى بلادكم (ثلاثة أيام) من العقر الاربعاء والخميس والجمعة ثم يأتيكم
العذاب فى اليوم الرابع يوم السبت وانما أقاموا ثلاثة أيام لان الفصيل رغى ثلاثا وانفجرت الصخرة بعد
رغائه فدخلها ولما عقروا الناقة أنذرهم صالح بنزول العذاب ورغبهم فى الايمان فقالوا يا صالح وما علامة
العذاب فقال تصير وجوهكم فى اليوم الاول مصفرة وفى الثانى محمرة وفى الثالث مسودة وفى الرابع
يأتيكم العذاب صبيحته (ذلك) أى نزول العذاب عقب ثلاثة أيام (وعد غير مكذوب فلما جاء أمرنا)
أى عذابنا (نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ) أى ونجينا صالحا والذين آمنوا
معه من العذاب النازل بقومه الكافرين ومن الخزى الذى لزمهم وبقى العيب منسوبا اليهم لان معنى
الخزى العيب الذى تظهر فضيحته ويستحيا من مثله وقرأ الكسائى ونافع فى رواية ورش وقالون هنا
وفى المعارج يومئذ بفتح الميم لاضافة يوم الى اذ وهو مبنى فيكون مبنيا والباقون بكسر الميم فيهما لاضافة يوم
الى الجملة من المبتدأ والخبر فلما قطع المضاف اليه عن اذ نون ليدل التنوين على ذلك ثم كسرت الذال
لسكونها وسكون التنوين ولم يلزم من اضافة يوم الى المبنى أن يكون مبنيا لان هذه الاضافة غير لازمة (ان
ربك هو القوى العزيز) فانه أوصل ذلك العذاب الى الكافر وصان أهل الايمان عنه وهذا التمييز
لا يصح الا من القادر الذى يقدر على قهر طبائع الاشياء فجعل الشئ الواحد بالنسبة الى انسان بلاء وعذابا
وبالنسبة الى انسان آخر راحة وريحانا (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) مع الزلزلة أى صيحة جبريل فقد
صاح عليهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ فى الارض فتقطعت قلوبهم فى
صدورهم فماتوا جميعا (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ميتين لا يتحركون ولا يضطربون عند ابتداء نزول
العذاب ساقطين على وجوههم (كأن لم يغنوا فيها) أى كأنهم لم يقيموا فى بلادهم فانهم صاروا رمادا
(ألا ان ثمود كفروا ربهم الا بعدا لثمود) قوم صالح من رحمة الله (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم) من الملائكة
جبريل وميكائيل واسرافيل (بالبشرى) أى متلبسين بالبشارة له بالولد من سارة (قالوا سلاما) أى
سلمنا عليك سلاما (قال سلام) أى قال ابراهيم أمرى سلام أى لست مريدا غير السلامة وقرأ حمزة
والكسائى هنا وفى الذاريات بكسر السين وسكون اللام (فما لبث) أى ابراهيم (أن جاء بعجل) أى فى
المجئ بولد بقرة (حنيذ) أى مشوى على حجارة محماة فى حفرة فى الارض فوضعه بين أيديهم (فلما رأى
أيديهم لا تصل اليه) أى العجل (نكرهم) أى أنكرهم (وأوجس) أى أدرك (منهم خيفة)
وظن أنهم لصوص حيث لم يأكلوا من طعامه فلما علموا خوفه (قالوا لا تخف) منا يا ابراهيم (انا أرسلنا)
بالعذاب (الى قوم لوط) وهو ابن هاران أخى ابرهيم (وامرأته قائمة) تخدم الاضياف وتسمع مقالتهم

وابراهيم عليه السلام جالس معهم (فضحكت) أى ففرحت سارة بزوال الخوف عنها وعن ابراهيم وبحصول البشارة بحصول الولد وبهلاك أهل الفساد وقال مجاهد وعكرمة أى حاضت سارة عند فرحها بالسلامة من الخوف فلما ظهر حيضها بشرت بحصول الولد (فبشرناها باسحق) على ألسنة رسلنا وانما نسبت البشارة لسارة دون سيدنا ابراهيم عليه السلام لانها كانت أشوق الى الولد منه لانها كانت لم يأتها ولد قط بخلافه فقد أتاه اسمعيل قبل اسحق بثلاث عشرة سنة (ومن وراء اسحق يعقوب) قرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب بالنصب أى ووهبنا يعقوب من بعد اسحق والباقون بالرفع على الابتداء أى ومن بعد اسحق يعقوب مولود (قالت ياويلتا) هى كلمة تقال للتعجب عند أمر عظيم أى ياذلى احضر فهذا أوان حضورك (أألد وأنا عجوز) بنت ثمان وتسعين سنة (وهذا بعلى) أى زوجى (شيخا) ابن مائة وعشرين سنة (ان هذا) أى حصول الولد من هرمين مثلنا (لشئ عجيب) بالنسبة الى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده ومقصودها استعظام نعمة الله تعالى عليها فى ضمن الاستعجاب العادى لا استبعاد قدرته تعالى على ذلك (قالوا) أى الملائكة لسارة (أتعجبين من أمر الله) أى من قدرة الله (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أى يا أهل بيت ابراهيم أى رحمة الله الواسعة لكل شئ وخيراته الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة لازمة لكم لا تفارقكم فاذا رأيتم ان الله خرق العادات فى تخصيصكم بهذه الكرامات العالية فكيف يليق به التعجب (انه حميد) أى فاعل ما يستوجب الحمد وموصل العبد المطيع الى مراده (مجيد) أى كريم لا يمنع الطالب عن مطلوبه (فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط) أى فلما زال عن ابراهيم الخوف وحصل له السرور بسبب مجىء البشرى بحصول الولد جادل رسلنا فى شأن قوم لوط حيث قال للملائكة حين قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين (ان ابراهيم لحليم) أى غير عجول على كل من أساء اليه فلذلك طلب تأخير العذاب عنهم رجاء اقدامهم على الايمان والتوبة عن المعاصى (أواه) أى كثير التضرع الى الله عند وصول الشدائد الى الغير (منيب) أى رجاع الى الله فى ازالة ذلك العذاب عنهم قالت الملائكة لابراهيم (يا ابراهيم أعرض عن هذا) أى اترك هذا الجدال (انه قد جاء أمر ربك) بايصال هذا العذاب اليهم (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) أى غير مصروف عنهم ولا مدفوع بجدال ولا دعاء ولا غيرهما (ولما جاءت رسلنا) أى هؤلاء الملائكة (لوطا سىء بهم) أى حزن بسببهم (وضاق بهم ذرعا) أى صدر الانهم انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط عليهما السلام ودخلوا عليه فى صور شبان مرد حسان الوجوه فخاف ان يقصدهم قومه وان يعجز عن مدافعتهم وبين القريتين أربع فراسخ (وقال هذا يوم عصيب) أى شديد على فلما دخلت الملائكة دار لوط عليه السلام ولم يعلم بذلك أحد خرجت امرأته الكافرة فأخبرت قومها وقالت دخل دارنا قوم ما رأيت أحسن وجوها ولا أنظف ثيابا ولا أطيب رائحة منهم (وجاءه) أى لوطا وهو فى بيته مع أضيافه (قومه يهرعون) أى يسوق بعضهم بعضا (اليه) لطلب الفاحشة من أضيافه (ومن قبل) أى والحال من قبل مجىء هؤلاء الملائكة الى لوط (كانوا يعملون السيآت) وهى اتيان الرجال فى أدبارهم أى فهم معتادون لذلك فلا حياء عندهم منه (قال) أى لوط

(ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) أى فتزوجوهن والمراد بالجمع مافوق الواحد لما صحت الروايتان لسيدنا لوط عليه السلام بنتين فقط وهما زنتا وزعوراء وقال السدى اسم الكبرى ريا والصغرى رغوثا وكان فى ملته يجوز تزوج الكافر بالمسلمة أو قال ذلك على سبيل الدفع لا على سبيل التحقيق وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم جواز تزويج المسلمات من الكفار (فاتقوا الله) بترك الفواحش (ولا تخزون فى ضيفى) أى لا تخجلونى فى أضيافى لان مضيف الضيف يلزمه الخجالة من كل فعل قبيح يوصل الى الضيف (أليس منكم رجل رشيد) يهتدى الى الحق ويرعوى عن الباطل ويرد هؤلاء الاوباش عن أضيافى (قالوا لقد علمت) يالوط (مالنا فى بناتك من حق) أى شهوة أى انك قد علمت ان لا سبيل الى المناكحة بيننا وبينك (وانك لتعلم مانريد) من اتيان الذكران (قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) أى لو قويت على دفعكم بنفسى أو رجعت الى عشيرة قوية لبالغت فى دفعكم وانما قال ذلك لانه لم يكن من قومه نسب بل كان غريبا فيهم لانه كان أولا بالعراق مع ابراهيم فلما هاجر الى الشام أرسله الله تعالى الى أهل سذوم وهى قرية عند حمص أو المعنى لو قويت على الدفع لدفعتكم بل أعتصم بعناية الله تعالى (قالوا) أى هؤلاء الملائكة (يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) بضرر فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب ودخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان فى بيت لوط قوما سحرة (فأسر بأهلك بقطع من الليل) أى فاخرج مع أهلك فى نصف الليل لتستبقوا العذاب الذى موعده الصبح (ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالرفع أى لا يتأخر منكم أحد الا امرأتك وانها المنافقة والباقون بالنصب والمعنى ولا ينظر أحد الى ورائه منك ومن أهلك الا امرأتك وانما نهوا عن الالتفات ليسرعوا فى السير فان من يلتفت الى ماوراءه لا يخلو عن أدنى وقفة وهذه القراءة تقتضى كون لوط غير مأمور بالاسراء بها وقراءة الرفع تقتضى كونه مأمورا بذلك (انه مصيبها) أى امرأتك (ماأصابهم) من العذاب (ان موعدهم الصبح) أى ان وقت عذابهم وهلاكهم الصبح لانه وقت الراحة فحلول العذاب حينئذ أفظع وهذا تعليل للنهى عن الالتفات المشعر بالحث على الاسراع (أليس الصبح بقريب) وهذا تأكيد للتعليل فان قرب الصبح داع الى الاسراع فى الاسراء للتباعد عن مواضع العذاب (فلما جاء أمرنا) أى وقت عذابنا وهو الصبح (جعلنا عاليها) أى عالى قرى قوم لوط وهى خمس مدائن فيها أربعمائة ألف ألف (سافلها) روى ان جبريل عليه السلام أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها الى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمار ونباح الكلاب وصياح الديوك ولم تنكفئ لهم جرة ولم ينكب لهم اناء ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الارض (وأمطرنا عليها) أى على أهل تلك القرى الخارجين عنها فى الاسفار وغيرها (حجارة من سجيل) أى من طين متحجر (منضود) أى كان بعض الحجارة فوق بعض فى النزول (مسومة) أى مخططة بالسواد والحمرة والبياض أى كان عليها علامة تتميز بها عن حجارة الارض (عند ربك) أى فى خزائنه التى لا يتصرف فيها أحد الا هو (وماهى من الظالمين ببعيد) أى ماهذه الحجارة من كل ظالم ببعيد فانهم بسبب ظلمهم مستحقون لها أى فان الظالمين حقيق بأن تمطر عليهم (والى مدين) أى وأرسلنا الى أولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام (أخاهم) فى النسب (شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله) وحده ولا تشركوا به شيأ (مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان)

أى لاتنقصوا حقوق الناس بالكيل والوزن (انى أراكم بخير) أى ملتبسين بسعة تغنيكم عن النقص (وانى أخاف عليكم) ان لم توفوا بالكيل والوزن (عذاب يوم محيط) أى يحيط بكم ولا ينفلت منكم أحد (و ياقوم أوفوا المكيال والميزان) أى أتموهما (بالقسط) أى بالعدل من غير زيادة ولا نقصان (ولا تبخسوا الناس) بسبب عدم اعتدالهما (أشياءهم) أى أموالهم التى يشترونها بهما (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) أى ولا تعملوا فى افساد مصالح الغير فان ذلك فى الحقيقة افساد مصالح أنفسكم (بقيت الله خير لكم) أى المال الحلال الذى يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق التطفيف (ان كنتم مؤمنين) أى مصدقين لى فى مقالتى لكم وقرئ تقية الله بالفوقية أى تقواه تعالى عن المعاصى (وما أنا عليكم بحفيظ) أى أحفظكم من القبائح ولست بحافظ عليكم نعم الله اذ لو لم تتركوا هذا العمل القبيح لزالت النعم عنكم (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) وقوله أو ان نفعل معطوف على مايعبد وأو بمعنى الواو والمعنى هل صلاتك تأمرك بتكليفك ايانا ترك عبادة مايعبد آباؤنا من الاوثان وترك فعلنا مانشاء من الاخذ والاعطاء والزيادة والنقص روى ان شعيبا كان كثير الصلاة فى الليل والنهار وكان قومه اذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا فقصدوا بقولهم أصلاتك تأمرك السخرية (انك لأنت الحليم الرشيد) أى كنت عندنا مشهورا بأنك حليم رشيد فكيف تنهانا عن دين ألفيناه من آبائنا (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى) أى علم وهداية ودين ونبوة (ورزقنى منه) أى من عنده باعانته بلا كد منى (رزقا حسنا) أى مالا حلالا فهل يجوز لى مع هذا الانعام العظيم ان أخون فى وحيه وأن أخالفه فى أمره ونهيه وهذا الجواب مطابق لقولهم لسيدنا شعيب انك لأنت الحليم الرشيد فكيف يليق بك مع حلمك ورشدك أن تنهانا عن دين آبائنا فكأن شعيبا قال ان نعم الله تعالى عندى كثيرة وهو أمرنى بهذا التبليغ والرسالة فكيف يليق بى مع كثرة نعم الله تعالى على ان أخالف أمره ومعنى الآية على هذا الوجه ياقوم اخبرونى ان كنت نبيا من عند الله تعالى ورزقنى مالا حلالا أستغنى به عن العالمين أيصح ان أخالف أمره وأوافقكم فيما تأتون وماتذرون (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) أى ليس مرادى ان أمنعكم عن التطفيف وان أفعله (ان أريد الا الاصلاح ما استطعت) أى ما أريد الا أن أصلحكم بموعظتى مدة استطاعتى للاصلاح لا أقصر فيه والمعنى انكم تعرفون من حالى انى لا أسعى الا فى الاصلاح وازالة الخصومة حتى انكم أقررتم بأنى حليم رشيد فلما أمرتكم بالتوحيد وترك ايذاء الناس فاعلموا أنه دين حق وانه ليس غرضى منه ايقاع الخصومة فانكم تعرفون انى أبغض ذلك الطريق ولا أدور الا على مايوجب الصلاح بقدر طاقتى وذلك هو الابلاغ والانذار (وما توفيقى) أى ماقدرتى على تنفيذ كل الاعمال الصالحة (الا بالله) أى الا بمعونته وهدايته (عليه توكلت) أى عليه تعالى اعتمدت فى جميع أمورى (واليه أنيب) أى عليه أقبل (وياقوم لايجرمنكم شقاقى) أى لاتكسبنكم معاداتكم لى (أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من الريح العقيم (أو قوم صالح) من الصيحة والرجفة (وما قوم لوط منكم ببعيد) أى وما خبر اهلاك قوم لوط بالخسف منكم ببعيد فان لم تعتبروا بمن قبلكم من الأمم المعدودة فاعتبروا بهم فان بلادهم قريبة من مدين واهلاكهم أقرب الاهلاكات التى عرفها الناس فى زمان شعيب (واستغفروا ربكم) عن عبادة الاوثان (ثم توبوا اليه) عن البخس (ان ربى رحيم) أى عظيم الرحمة للتائبين (ودود) أى محب لهم (قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول) أى مانفهم

مرادك وانما قالوا ذلك لانهم لم يجدوا الى محاورته سبيلا سوى المنع عن طريق الحق كما هو ديدن المفحم المحجوج (وانا لنراك فينا) أى فيما بيننا (ضعيفا) أى لا تقدر على منع القوم عن نفسك ان أرادوا بك سوأ (ولولا رهطك) أى لولا حرمة قومك عندنا بسبب كونهم على ملتنا (لرجمناك) أى لقتلناك بالحجارة أو لشتمناك وطردناك (وما أنت علينا بعزيز) أى معظم فيسهل علينا قتلك وايذاؤك وانما نمتنع من ذلك لرعاية حرمة عشيرتك لموافقتهم لنا فى الدين لا لقوة شوكتهم (قال) لهم (ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله) والمعنى حفظكم اياى رعاية لامر الله تعالى أولى من حفظكم اياى رعاية لحق رهطى فالله تعالى أولى ان يتبع أمره (واتخذتموه وراءكم ظهريا) أى جعلتموا الله شيأ منبوذا خلف ظهرك منسيا لا يعبأ به (ان ربى بما تعملون) من الاعمال السيئة (محيط) أى عالم فلا يخفى عليه شىء منها فيجازيكم عليها (وياقوم اعملوا على مكانتكم) أى على غاية استطاعتكم من ايصال الشرور الى (انى عامل) بقدر ما آتانى الله تعالى من القدرة (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) أى سوف تعرفون الشقى الذى يأتيه عذاب يهلكه والذى هو كاذب فى ادعاء القوة والقدرة على رحم شعيب عليه السلام وفى نسبته الى الضعف (وارتقبوا) أى انتظروا عاقبة ما أقول (انى معكم رقيب) أى منتظر (ولما جاء أمرنا) أى عذابنا (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه) من ذلك العذاب (برحمة منا) أى بسبب رحمة كائنة منا لهم (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) أى صيحة جبريل والزلزلة أيضا فأهلكوا بهما (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) أى ميتين ملازمين لاماكنهم (كأن لم يغنوا فيها) أى كأنهم لم يقيموا فى ديارهم احياء مترددين (ألا بعدا لمدين) أى هلاكا لقوم شعيب (كما بعدت ثمود) أى كما هلكت قوم صالح أى فانهما أهلكا بنوع من العذاب وهو الصيحة الا أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم وهذا فى أهل قرية شعيب وأما أصحاب الايكة فأهلكوا بعذاب الظلة وهو نار نزلت من السماء أحرقتهم (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين) أى ولقد أرسلنا موسى بالتوراة مع ما فيها من الاحكام وأيدناه بمعجزات قاهرة دالة على صدق نبوته ورسالته (الى فرعون وملئه) أى جماعته (فاتبعوا أمر فرعون) أى أمره اياهم بالكفر بموسى ومعجزاته (وما أمر فرعون برشيد) أى بمرشد الى خير فانه كان دهريا نافيا للصانع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم (يقدم قومه) أى يقود قومه جميعا (يوم القيامة فأوردهم النار) أى ان فرعون كان قدوة لقومه فى الضلال وفى دخول البحر والغرق فى الدنيا فكذلك يتقدمهم يوم القيامة فى دخول النار والحرق (وبئس الورد المورود) أى بئس الورد الذى يردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار على ضد ذلك (وأتبعوا) أى الملأ الذين تبعوا أمر فرعون (فى هذه) أى فى الدنيا (لعنة) من الأمم بعدهم الى يوم القيامة (ويوم القيامة) أيضا من أهل الموقف قاطبة (بئس الرفد المرفود) أى بئس العون المعان عونهم اى بئس اللعنة الاولى المعان باللعنة الثانية عونهم وهى اللعنة فى الدارين وسميت اللعنة عونا لانها اذا تبعتهم فى الدنيا أبعدتهم عن رحمة الله واعانتهم على ما هم فيه من الضلال وسميت رفدا أى عونا لهذا المعنى على التهكم وسميت معانا لانها أرفدت فى الآخرة بلعنة أخرى ليكونا هاديين الى طريق الجحيم (ذلك) أى الذى ذكرناه فى هذه السورة من القصص السبعة (من أنباء القرى نقصه عليك) أى ذلك بعض أخبار القرى المهلكة بجناية أهلها مقصوص عليك لتخبر به قومك لعلهم يعتبروا والا فينزل

بهم مثل منازل بالقرى المهلكة (منها) أى القرى (قائم) أى أثر باق (و) منها (حصيد) أى ذاهب الاثر فشبه ما بقى من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وما محى منها بالزرع المحصود (وما ظلمناهم) بالعذاب والاهلاك (ولكن ظلموا أنفسكم) بالكفر والمعصية (فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك) أى فما نفعتهم أصنامهم الذين يعبدونها فى شئ البتة ولا دفعت شيأ من عذاب الله عنهم حين جاءهم (وما زادوهم غير تتبيب) أى وما زادت الاصنام عابديها غير اهلاك فان الكفار كانوا يعتقدون فى الاصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار ثم زال عنهم بسبب ذلك الاعتقاد منافع الدنيا والآخرة وجلب اليهم مضار الدنيا والآخرة فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران وقرئ آلهتهم اللاتى بالجمع ويدعون بالبناء للمجهول (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى) وقرأ عاصم والجحدرى اذ أخذ بألف واحدة (وهى ظالمة) أى ومثل ذلك الاخذ المذكور أخذ ربك أهل القرى اذا أخذهم وهم ظالمون أنفسهم بالكفر أى ان كل من شارك أولئك المتقدمين فى فعل ما لا ينبغى فلا بد وان يشاركهم فى ذلك الاخذ (ان أخذه أليم شديد) أى وجيع صعب على المأخوذ لا يرجى منه الخلاص (ان فى ذلك) أى القصص السبعة (لآية) أى لموعظة (لمن خاف عذاب الآخرة) فينتفع بسماع هذه القصص ويعلم ان القادر على انزال عذاب الدنيا قادر على انزال عذاب الآخرة فان فى هذه القصص عذاب الدارين وقد حصل عذاب الدنيا (ذلك) أى يوم الآخرة (يوم مجموع له الناس) أى يجمع فى ذلك اليوم الاولون والآخرون للمحاسبة والجزاء (وذلك يوم مشهود) أى يحضر فيه أهل السماء وأهل الارض (وما نؤخره) أى ذلك اليوم (الا لاجل معدود) أى الا لاجل انقضاء وقت محدود وهو مدة الدنيا (يوم يأت) أى حين يأتى ذلك اليوم المؤخر (لا تكلم نفس الا باذنه) أى الله تعالى فى التكلم فالمأذون فى الكلام هو الجوابات الصحيحة والممنوع عنه هو ذكر الاعذار الباطلة (فنهم) أى من أهل الموقف (شقى) أى من مات على الكفر وان تقدم منه ايمان (وسعيد) أى من مات على الايمان وان تقدم منه كفر (فأما الذين شقوا ففى النار) أى فمستقرون فيها (لهم فيها زفير) أى صوت شديد (وشهيق) أى صوت ضعيف (خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك) والا فى المعنى بمعنى واو العطف والاستثناء منقطع يقدر بلكن أو بسوى فالمعنى دائمين فى النار مثل دوام السموات والارض منذ خلقت الى أن تفنى وزيادة على هذه المدة وهى ما شاء الله مما لا نهاية له (ان ربك فعال لما يريد) من غير اعتراض (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك) أى مثل دوام السموات والارض منذ خلقتا سوى ما شاء ربك زائدا على ذلك وهو لا منتهى له (عطاء غير مجذوذ) أى غير مقطوع وعطاء نصب على المصدرية أى يعطيهم عطاء وهذا ظاهر فى انه ليس المراد من هذا الاستثناء كون هذه الحالة منقطعة وما ذكر من ان عذاب الكفار فى جهنم دائم أبدا هو ما دلت عليه الآيات والاخبار وأطبق عليه جمهور الامة سلفا وخلفا ولا ظلم على الله فى ذلك لان الكافر كان عازما على الكفر ما دام حيا فعوقب دائما فهو لم يعاقب بالدائم الا على دائم فلم يكن عذابه الا جزاء وفاقا وقرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم سعدوا بضم السين والباقون بفتحها (فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء) أى فلا تك يا أشرف الخلق فى شك من حال ما يعبد كفار قريش من الاوثان فى انها لا تنفع لهم (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل) أى ليس لهم فى عبادة الاصنام مستند الا تقليد آبائهم فانهم أشبهوا آباءهم فى لزوم الجهل والتقليد (وانا لموفوهم نصيبهم

غير منقوص) أى انا معطوا هؤلاء الكفرة ما يخصهم من العذاب ونصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية تاما كما أعطينا آباءهم أنصباءهم من ذلك (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (فاختلف فيه) أى فى شأنه فآمن به قوم وكفر به قوم آخرون كما اختلف قومك فى القرآن فلا تحزن فان ما وقع لك وقع لمن قبلك (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) أى لولا الحكم الازلى بتأخير العذاب عن امتك الى يوم القيامة لاوقع القضاء بين المختلفين من قومك بانزال العذاب الذى يستحقه المبطلون ليتميزوا به عن المحقين (وانهم) أى وان كفار قومك (لفى شك) عظيم (منه) أى القرآن (مريب) أى ظاهر الشك أو موقع فى الشك (وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم) قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر عن عاصم ان ولما مخففتين وأبو عمرو والكسائى شدد اان وخففا لما وحمزة وابن عامر وحفص شددوهما أى وان كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين والله لفريق يوفيهم ربك أجزية أعمالهم أو المعنى وان جميعهم والله ليوفينهم الآية قالوا وأحسن ما قيل ان أصل لما لما بالتنوين بمعنى جميعا (انه بما يعملون خبير) أى ان ربك بما يعمله كل فرد من المختلفين من الخير والشر عالم لا يخفى عليه شئ من أعمال عباده وان دقت (فاستقم كما أمرت) أى مثل الاستقامة التى أمرت بها فى العقائد والاعمال والاخلاق فان الاستقامة فى العقائد اجتناب التشبيه والتعطيل وفى الاعمال الاحتراز عن الزيادة والنقصان وفى الاخلاق التباعد عن طرفى الافراط والتفريط وهذا فى غاية العسر وعن بعضهم قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت له روى عنك انك قلت شيبتنى هود واخواتها فقال نعم فقلت وبأى آية فقال بقوله تعالى فاستقم كما أمرت (ومن تاب معك) من الكفر وشاركك فى الايمان فمن منصوب على انه مفعول معه أو مرفوع عطف على الضمير فى أمرت (ولا تطغوا) أى لا تنحرفوا عما حد لكم بافراط أو تفريط فان كلا طرفى قصد الامور ذميم (انه بما تعملون بصير) فيجازيكم على ذلك (ولا تركنوا الى الذين ظلموا) أى ولا تميلوا أدنى ميل الى الذين وجد منهم الظلم (فتمسكم النار) أى فتصيبكم بسبب ذلك (وما لكم من دون الله من أولياء) أى من أنصار ينقذونكم من النار (ثم لا تنصرون) من جهة الله تعالى قال المحققون الركون المنهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم ومشاركتكم فى شئ من تلك الابواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل فى الركون (وأقم الصلاة طرفى النهار) أى غدوة وعشية فالصبح فى الغدوة والظهر والعصر فى العشية (وزلفا من الليل) أى ساعات منه قريبة من النهار وهى المغرب والعشاء (ان الحسنات) كالصلوات الخمس (يذهبن السيآت) أى يكفرنها وفى الحديث ان الصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر روى ان أبا اليسر بن عمرو الانصارى قال أتتنى امرأة تشترى تمرا فقلت لها ان فى البيت تمرا أطيب من هذا فدخلت معى البيت فقبلتها فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر حتى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال لى أخنت رجلا غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى نزلت هذه الآية فقرأها على فقال نعم اذهب فانها كفارة لما عملت (ذلك) أى القرآن (ذكرى للذاكرين) أى عظة للمتعظين أو ذلك الحسنات كفارات لذنوب التائبين (واصبر) يا أشرف الخلق على مشاق ما أمرت به (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أى ان الله يوفى الصابرين أجور أعمالهم من غير بخس أصلا (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الارض الا قليلا ممن أنجينا منهم) والمراد بالتحضيض

النفى

النفى أى فما كان من القرون الماضية المهلكة بالعذاب جماعة أصحاب جودة فى العقل وفضل ينهون عن الفساد الاقليلا وهم من أنجيناهم من العذاب نهوا عن الفساد (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) أى واتبع الذين تركوا النهى عن المنكرات ما أنعموا من الشهوات واشتغلوا بتحصيل الرياسات وأعرضوا عما وراء ذلك (وكانوا مجرمين) أى كافرين فان سبب استئصال الامم المهلكة فشو الظلم وشوع ترك النهى عن المنكرات مع الكفر (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) أى لايملك ربك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين فى المعاملات بينهم أى ان عذاب الاستئصال لاينزل لاجل كون القوم معتقدين للشرك بل انما ينزل ذلك اذا أساؤا فى المعاملات وسعوا فى الايذاء للناس وظلم الخلق لفرط مسامحته تعالى فى حقوقه ولذلك تقدم حقوق العباد على حقوقه تعالى عند تزاحم الحقوق (ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أى أهل ملة واحدة وهى الاسلام بحيث لايختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك (ولايزالون مختلفين الامن رحم ربك) أى ولايزالون مخالفين لدين الحق الاقوما قد هداهم الله تعالى بفضله اليه فلم يخالفوه (ولذلك خلقهم) أى وللمذكور من الاختلاف والرحمة خلق الناس كافة فان الله تعالى خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين ومصيرهم النار وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين ومصيرهم الجنة (وتمت كلمة ربك) أى ثبت قول ربك (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أى من كفارهما أجمعين (وكلا) أى كل نبأ (نقص عليك من أنباء الرسل) أى من أخبارهم وماجرى لهم مع قومهم (ماتثبت به فؤادك) أى مانقوى به قلبك لتصبر على أذى قومك وتتأسى بالرسل الذين خلوا من قبلك (وجاءك فى هذه) الانباء المقصوصة عليك (الحق) أى البراهين الدالة على التوحيد والنبوة (وموعظة) أى تنفير عن الدنيا (وذكرى للمؤمنين) أى ارشاد لهم الى الاعمال الصالحة (وقل للذين لايؤمنون) بهذا الحق (اعملوا على مكانتكم) أى ثابتين على حالتكم وهى الكفر (اناعاملون) على حالتنا وهى الايمان أو المعنى افعلوا كل ماتقدرون عليه فى حقى من الشر نحن عاملون على قدرتنا والمراد بهذا الامر التهديد (وانتظروا) مايعدكم الشيطان به من الخذلان (انامنتظرون) ماوعدنا الرحمن من أنواع الغفران والاحسان (ولله غيب السموات والأرض) فان علمه تعالى نافذ فى جميع الكليات والجزئيات والحاضرات والغائبات عن العباد (واليه يرجع الامر كله) أى أمر الخلق كلهم فى الدنيا والآخرة (فاعبده) أى فاشتغل بالعبادات الجسدانية والروحانية أما العبادات الجسدانية فأفضل الحركات الصلاة وأكمل السكنات الصيام وأنفع البر الصدقة وأما العبادات الروحانية فهى الفكر والتأمل فى عجائب صنع الله تعالى فى ملكوت السموات والارض (وتوكل عليه) أى ثق به تعالى فى جميع أمورك فانه كافيك (ومار بك بغافل عما تعملون) وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب أى فانه تعالى لايضيع طاعات المطيعين ولايهمل أحوال المتمردين الجاحدين وذلك بأن يحضروا فى موقف القيامة ويحاسبوا على النقير والقطمير ويعاتبوا فى الصغير والكبير ثم يحصل عاقبة الامر فريق فى الجنة وفريق فى السعير

﴿سورة يوسف عليه السلام مكية وهى مائة واحدى عشرة آية وألف وتسعمائة وست وتسعون كلمة وسبعة آلاف ومائة وستة وسبعون حرفا﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) وعن ابن عباس انه قال سألت اليهود النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن

أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فنزلت هذه السورة (الر تلك آيات الكتاب المبين) أى تلك الآيات التى نزلت اليك فى هذه السورة المسماة الر هى آيات الكتاب المبين وهو القرآن الذى بين الهدى وقصص الاولين (انا أنزلناه) أى هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه (قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) أى لكى تفهموا معانيه فى أمر الدين فتعلموا أن قصه كذلك ممن لم يتعلم القصص معجزا لا يتصور الا بالايحاء (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن) أى بسبب ايحائنا اليك يا أكرم الرسل هذه السورة لما فيه من العبر من انه لا مانع من قدر الله تعالى وأن الحسد سبب للخذلان وأن الصبر مفتاح الفرج (وان كنت من قبله) أى وانه أى الشأن كنت من قبل ايحائنا اليك هذه السورة (لمن الغافلين) عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط (اذ قال يوسف) منصوب بقال يابنى أى قال يعقوب يابنى وقت قول يوسف له كيت وكيت أو بدل من أحسن القصص بدل اشتمال (لابيه) يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام (يا أبت انى رأيت) فى منام النهار (أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) قال وهب رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين أن احدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة فى الارض كهيئة الدائرة واذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعتها فذكر ذلك لابيه فقال اياك أن تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لا تذكرها لهم فيبغوا لك الغوائل روى عن جابر رضى الله عنه ان يهوديا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اخبرنى عن النجوم التى رآهن يوسف عليه السلام فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال صلى الله عليه وسلم لليهودى اذا أخبرتك بذلك هل تسلم فقال نعم قال جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروخ والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف عليه السلام والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودى أى والله انها لاسماؤها (قال) أى يعقوب ليوسف فى السر (يابنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا) أى فيفعلوا لاجل هلاكك كيدا خفيا عن فهمك لا تتصدى لمدافعته (ان الشيطان للانسان) أى لبنى آدم (عدو مبين) أى ظاهر العداوة فلا يقصر فى اضلال اخوتك وحملهم على الحسد وما لا خير فيه كما فعل بآدم وحواء واخوة يوسف الذين يخشى غوائلهم الاحد عشر هم يهوذا ور وبيل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينة فهؤلاء بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالى وجاد وآشر فهؤلاء بنوه من سريتين زلفة وبلهة واما بنيامين فهو شقيق يوسف وأمهما راحيل التى تزوجها يعقوب بعد وفاة أختها ليا (وكذلك) أى كما اجتباك لهذه الرؤية الدالة على كبر شأنك (يجتبيك ربك) للنبوة (ويعلمك من تأويل الاحاديث) أى تعبير الرؤيا اذ هى أحاديث الملك ان كانت صادقة وأحاديث النفس والشيطان ان كانت كاذبة (ويتم نعمته عليك) بسعادات الدنيا والآخرة أما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم والاتباع والتوسع فى المال والجاه والاجلال فى قلوب الخلق وحسن الثناء وأما سعادات الآخرة فالعلوم الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق فى معرفة الله تعالى (وعلى آل يعقوب) أى أولاده (كما أتمها) أى نعمته (على أبويك من قبل) أى من قبل هذا الوقت (ابرهيم واسحق) عطف بيان لابويك (ان ربك عليم حكيم) فالله أعلم حيث يجعل رسالته ومقدس عن العبث فلا يضع النبوة الا فى نفس قدسية وهذا يقتضى حصول النبوة لاولاد يعقوب وأيضا ان رؤية يوسف اخوته كواكب دليل على مصير أمرهم

الى

الى النبوة فان الكواكب يهتدى بأنوارها وكانت تأويلها بأحد عشر نفسا لهم فضل يستضىء بعلمهم ودينهم أهل الارض لانه لاشئ أضوء من الكواكب وأما ما وقع منهم فى حق يوسف فهو قبل النبوة فالعصمة من المعاصى انما تعتبر وقت النبوة لاقبلها على خلاف فى ذلك (لقد كان فى يوسف واخوته) أى فى قصتهم (آيات) أى عبرات (للسائلين) أى لكل من سأل عن قصتهم وعرفها أو للطالبين للآيات المعتبرين بها فانهم المنتفعون بها دون من عداهم (اذ قالوا) أى بعض العشرة لبعضهم (ليوسف وأخوه) الشقيق بنيامين بكسر الباء وفتحها (أحب الى أبينا منا ونحن عصبة) أى والحال انا جماعة قائمون بدفع المفاسد والآفات مشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات وقائمون بمصالح الاب فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بذلك وبكوننا أكبر سنا ونقل عن على رضى الله عنه انه قرأ ونحن عصبة بالنصب (ان أبانا لفى ضلال) عن رعاية المصالح فى الدنيا (مبين) أى ظاهر الحال وانما خصص على يوسف أبوه بالبر لانه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة مالم يجد فى سائر الاولاد ولانه وان كان صغيرا كان يخدم أباه بأنواع من الخدمة أعلى مما كان يصدر عن سائر الاولاد قال شمعون ودان والباقون كانوا راضين الامن قال لاتقتلوا الخ (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه (يخل لكم وجه أبيكم) أى يقبل عليكم أبوكم بكليته ولا يلتفت الى غيركم (وتكونوا من بعده) أى من بعد يوسف من قتله وتغريبه فى أرض بعيدة (قوما صالحين) أى تائبين الى الله تعالى من الكبائر ومتفرغين لاصلاح أمور دنياكم وصالحين مع أبيكم باصلاح ما بينكم وبينه (قال قائل منهم) أى من اخوة يوسف هو يهوذا فانه أقدمهم فى الرأى والفضل وأقربهم الى يوسف سنا (لاتقتلوا يوسف) وقال قتادة القائل لاخوته روبيل حتى قال القتل كبيرة عظيمة (وألقوه فى غيابة الجب) أى فى قعره وقرأ نافع غيابات بالجمع فى الموضعين قال قتادة الجب هنا هو بئر بيت المقدس وقال وهب هو فى أرض الاردن وقال ابن زيد هو بحيرة طبرية (يلتقطه بعض السيارة) أى يرفعه بعض طائفة تسير فى الارض (ان كنتم فاعلين) بمشورتى ولم يقطع القول عليهم بل انما عرض عليهم ذلك تأليفا لهم وحذرا من نسبتهم له الى الافتيات أو ان كنتم فاعلين ما عزمتم عليه من ازالته من عند أبيه ولا بد فافعلوا هذا القدر أى القاءه فى البئر والاولى أن لاتفعلوا شيأ من القتل والتغريب (قالوا) لابيهم اعمالا للحيلة فى الوصول الى مقاصدهم مستفهمين على وجه التعجب لانه علم منهم السوء وهذا مبنى على مقدمات محذوفة وذلك أنهم قالوا أولا ليوسف اخرج معنا الى الصحراء الى مواشينا فنستبق ونصيد وقالوا له سل أباك أن يرسلك معنا فسأله فتوقف يعقوب فقالوا له (يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف) أى أى شئ ثبت لك لاتجعلنا أمناء عليه مع أنه أخونا وأنك أبونا ونحن بنوك (و) الحال (انا له لناصحون) أى لعاطفون عليه قائمون بمصلحته وبحفظه أى هم أظهر واعند أبيهم أنهم فى غاية المحبة ليوسف وفى غاية الشفقة عليه (أرسله معنا غدا) الى الصحراء (يرتع) أى يتسع فى أكل الفواكه ونحوها (ويلعب) بالاستباق والانتضال تمرينا لقتال الاعداء وبالاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر لا للهو وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائى بمثناة تحتية على اسناد الفعل ليوسف لانهم سألوا ارسال يوسف معهم ليفرح هو باللعب لاليفرحوا به (وانا له لحافظون) من أن يناله مكروه (قال انى ليحزننى أن تذهبوا به) أى ليؤلم قلبى ذهابكم به لانى لا أصبر عنه ساعة (وأخاف أن يأكله الذئب) لكثرة الذئب فى تلك الارض (وأنتم عنه غافلون) لاشتغالكم بالاتساع فى الملاذ وبنحو التناضل (قالوا) لابيهم

(لئن أكله الذئب ونحن عصبة) أى جماعة كثيرة عشرة تكفى الخطوب بآرائنا (انا اذا) أى اذ لم نقدر على حفظ أخينا (لخاسرون) أى لقوم عاجزون وهذا جواب عن عذر يعقوب الثانى وأما عذره الاول فلم يجيبوا عنه لكون غرضهم ايقاعه فى الحزن ولكون حقدهم بسبب ذلك العذر وهو شدة حبه له فتغافلوا عنه (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب) أى فأرسله معهم فلما ذهبوا به وعزموا على جعله فى ظلمة البئر فجعلوه فيها قال السدى ان يوسف عليه السلام لما برز مع اخوته أظهروا له العداوة الشديدة وجعل هذا الاخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحيما فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك لا بكاك فقال يهوذا أليس قد أعطيتمونى موثقا أن لا تقتلوه فانطلقوا به الى الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب فقال لهم ردوا على قميصى لاتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا لتؤنسك ثم دلوه فى البئر حتى اذا بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم آوى الى صخرة فقام بها وهو يبكى فنادوه فظن ان رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهوذا فمنعهم من ذلك وكان يهوذا يأتيه بالطعام وبقى فيها ثلاث ليال وروى أنه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال يا شاهدا غير غائب ويا قريبا غير بعيد ويا غالبا غير مغلوب اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا وروى أن ابراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق ودفعه اسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف فجاءه جبريل فأخرجه من التميمة وألبسه اياه وروى أن جبريل قال له اذا رهبت شيأ فقل يا صريخ المستصرخين ويا غوث المستغيثين ويا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكانى وتعلم حالى ولا يخفى عليك شئ من أمرى فلما قالها يوسف حفته الملائكة واستأنس فى الجب (وأوحينا اليه) فى الجب ازالة لوحشته عن قلبه وتبشيرا له بما يؤل اليه أمره وكان ابن سبع عشرة سنة (لتنبئنهم بأمرهم هذا) أى لتخبرن يا يوسف اخوتك بصنيعهم هذا بك بعد هذا اليوم (وهم لا يشعرون) فى ذلك الوقت أنك يوسف حتى تخبرهم لعلو شأنك وبعد حالك عن أوهامهم والمقصود تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصيرون تحت قهره وقدرته (وجاؤا أباهم عشاء يبكون) أى لما طرحوا يوسف فى الجب رجعوا الى أبيهم وقت العشاء فى ظلمة الليل متباكين وقرئ عشيا بالتصغير لعشى أى آخر النهار وقرئ عشى بالضم والقصر جمع أعشى فعند ذلك فزع يعقوب وقال هل أصابكم فى غنمكم شئ قالوا لا قال وأين يوسف (قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق) أى يسابق بعضنا بعضا فى الرمى وروى أن فى قراءة عبد الله انا ذهبنا ننتضل (وتركنا يوسف عند متاعنا) من ثياب وأزواد وغيرهما يحفظه (فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا) أى بمصدق لنا فى هذه المقالة (ولو كنا صادقين) أى ولو كنا عندك موصوفين بالصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيئ الظن بنا غير واثق بقولنا (وجاؤا على قميصه) أى فوق قميص يوسف (بدم كذب) أى بدم ملابس لكذب وقرئ كذبا على أنه حال من الضمير أى جاؤا كاذبين أو مفعول له وقرأت عائشة رضى الله عنها بدم كدب بالدال المهملة أى كدر أو طرى (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا) أى قال يعقوب ليس الامر كما تقولون بل زينت لكم أنفسكم أمرا غير ما تصفون قيل لما جاؤا على قميصه بدم جدى وقد ذهلوا عن خرق القميص فلما رأى يعقوب القميص صحيحا قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق قميصه وقال بعضهم بل قتله اللصوص فقال كيف قتلوه وتركوا

قميصه

قيصه وهم الى قيصه أحوج منه الى قتله وقيل انهم أتوه بذئب وقالوا هذا أكله فقال يعقوب أيها الذئب أنت أكلت ولدى وثمرة فؤادى فأنطقه الله عز وجل وقال والله ما أكلت ولدك ولا رأيته قط ولا يحل لنا أن نأكل لحوم الانبياء فقال له يعقوب فكيف وقعت فى أرض كنعان قال جئت لصلة الرحم قرابة لى فأخذونى وأتوابى اليك فأطلقه يعقوب (فصبر جميل) أى فصبرى صبر جميل أو فصبر جميل أولى من الجزع وهو أن لا يشكو فى البلاء لاحد غير الله تعالى (والله المستعان) أى المطلوب منه العون (على ما تصفون) أى على تحمل ما تصفون من هلاك يوسف وكان الله تعالى قد قضى على يعقوب أن يوصل اليه تلك الغموم الشديدة والهموم العظيمة ليكثر رجوعه الى الله تعالى و ينقطع تعلق فكره عن الدنيا فيصل الى درجة عالية فى العبودية لا يمكن الوصول اليها الا بتحمل المحن الشديدة والله أعلم (وجاءت سيارة) أى رفقة تسير من جهة مدين يريدون مصر فأخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون فى الارض حتى وقعوا فى الاراضى التى فيها الجب وهى أرض دوثن بين مدين ومصر فنزلوا عليه (فأرسلوا واردهم) أى ساقيهم ليطلب لهم الماء وهو من يهيئ الارشية والدلاء فيتقدم الرفقة الى الماء يقال له مالك بن دعر الخزاعى ابن أخى سيدنا شعيب عليه السلام وهو رجل من العرب من أهل مدين (فأدلى دلوه) أى فأرخى دلوه فى جب يوسف فتعلق هو فلم يقدر الساقى على نزعه من البئر فنظر فيه فرأى غلاما قد تعلق بالدلو فنادى أصحابه (قال يابشرى) أى يا أصحابى وقال الاعمش انه دعا امرأة اسمها بشرى وقال السدى انه نادى صاحبه واسمه بشرى كما قرأه حمزة وعاصم والكسائى بغير ياء المتكلم بعد الالف المقصورة وقال أبو على الفارسى والوجه أن يجعل البشرى اسما للبشارة فنادى ذلك بشارة لنفسه كأنه يقول يا أيتها البشرى هذا الوقت وقتك ولو كنت ممن يخاطب لخوطبت الآن ولامرت بالحضور ويدل على هذا قراءة الباقين يابشراى بفتح ياء المتكلم بعد الياء على الاضافة قالوا ماذا لك يا مالك قال (هذا غلام) أحسن ما يكون من الغلمان فكان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا تبسم ظهر النور من ضواحكه واذا تكلم ظهر من ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه اه فاجتمعوا عليه فأخرجوه من الجب بعد مكثه فيها ثلاثة أيام (وأسروه بضاعة) أى أخفوه حال كونه متاعا تجارة اى كتم الوارد مالك وأصحابه من بقية القوم ذلك لانهم قالوا ان قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيه وان قلنا اشتريناه سألونا الشركة فالاصوب ان نقول ان أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على ان نبيعه لهم بمصر (والله عليم بما يعملون) أى بما ينشأ من عمل اخوة يوسف ليوسف من ايقاعه فى البلاء الشديد وهو سبب لوصوله الى مصر ولتنقله فى أحوال الى ان صار ملك مصر وحصل ذلك الذى رآه فى النوم فرحم الله به العباد والبلاد (وشروه) أى باع يوسف من استخرجوه من البئر (بثمن بخس) أى حرام (دراهم معدودة) فانهم فى ذلك الزمان كانوا لا يزنون ما كان أقل من أربعين دينارا (وكانوا) أى البائعون (فيه) أى فى يوسف (من الزاهدين) أى من الذين لا يرغبون لانهم خافوا ان يظهر المستحق فينتزعه من يدهم فكذلك باعوه من أول مساوم بأوكس الاثمان (وقال الذى اشتراه من مصر) أى فى مصر من مالك بن دعر وكان اشتراه بعشرين درهما وحلة ونعلين فالذى اشتراه فى مصر هو قطفير خازن الملك الريان بن الوليد وهو صاحب جنوده وقد آمن الملك بيوسف ومات فى حياة يوسف عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى الاسلام فأبى واشترى ذلك الوزير وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره

ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) زليخا وقال ابن اسحق اسمها راعيل بنت رعائيل (أكرمى مثواه) أى اجعلى منزله عندك كريما حسنا مرضيا والمعنى أحسنى تعهده (عسى أن ينفعنا) أى يقوم باصلاح مهماتنا (أو نتخذه ولدا) أى نتبناه وكان قطفير لا يأتى النساء (وكذلك مكنا ليوسف فى الارض) أى وكما نجينا يوسف من القتل والجب وجعلنا فى قلب الوزير حنوا عليه نعطيه مكانة اى رتبة عالية فى أرض مصر (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) أى تعبير بعض المنامات التى أعظمها رؤيا الملك وصاحبى السجن وهذا عطف على مقدر متعلق بمكنا اى جعلنا يوسف وجيها بين أهل مصر ومحببا فى قلوبهم لينشأ منه ماجرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه بعض تأويل الرؤيا (والله غالب على أمره) أى أمر نفسه لانه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه فى أرضه وسمائه (ولكن أكثر الناس) وهم الكفار (لا يعلمون) ان الامر كله لله وان قضاء الله غالب فمن تأمل فى أحوال الدنيا عرف ذلك (ولما بلغ أشده) وهو ما بين الثلاثين والاربعين (آتيناه حكما وعلما) أى حكمة عملية وحكمة نظرية وانما قدم الحكمة العملية هنا على العلمية لان أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية ثم يترقون منها الى الحكمة النظرية وأما أصحاب الافكار العقلية والانظار الروحانية فانهم يصلون الى الحكمة النظرية أولا ثم ينزلون منها الى الحكمة العملية وطريقة يوسف عليه السلام هو الاول لانه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله تعالى عليه أبواب المكاشفات (وكذلك) اى مثل ذلك الجزاء العجيب (نجزى المحسنين) اى كل من يحسن فى عمله وعن الحسن من أحسن عبادة ربه فى شبيبته آتاه الله الحكمة فى اكتهاله (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) اى طلبت زليخا من يوسف ان يجامعها (وغلقت الابواب) اى أبواب البيت السبعة ثم دعته الى نفسها (وقالت هيت لك) قرأ نافع وابن عامر فى رواية ابن ذكوان هيت بكسر الهاء وفتح التاء وقرأ ابن كثير هيت بضم التاء وفتحهامع فتح الهاء وقرأ هشام بن عمار عن أبى عامر هئت لك بكسر الهاء وبالهمزة الساكنة وضم التاء والباقون بفتح الهاء واسكان الياء وفتح التاء وان قرأ هيت بفتح الهاء والتاء أو ضم التاء فمعناه تعال وبادر أنا لك وان قرأت بكسر الهاء ثم بالهمزة الساكنة وضم التاء فمعناه تهيأت لك (قال) يوسف (معاذ الله) أى أعوذ بالله معاذا مما تدعيننى اليه (انه) أى الشأن العظيم (ربى) أى سيدى العزيز (أحسن مثواى) أى تعهدى حيث أمرك باكرامى فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الاحسان بالخيانة فى حرمه (انه) أى الشأن (لا يفلح الظالمون) أى المجازون للاحسان بالاساءة (ولقد همت به وهم بها) أى قصدت زليخا مخالطة يوسف مع التصميم وقصد مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب لا بقصد اختيارى وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والاجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم ولهذا قال بعض أهل الحقائق الهم قسمان هم ثابت وهو اذا كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام والعبد غير مأخوذ به مالم يتكلم أو يعمل (لولا أن رأى برهان ربه) أى لولا ان أيقن بحجة ربه الدالة على كمال قبح الزنا وجواب لولا محذوف أى لولا مشاهدته برهان ربه فى شأن الزنا لجرى على موجب ميله الجبلى لكنه حيث كان البرهان الذى هو الحكم والعلم حاضرا لديه حضور من يراه بالعين فلم يهم أصلا والحاصل ان هذا البرهان عند المحققين المثبتين لعصمة الانبياء هو

حجة الله تعالى فى تحريم الزنا والعلم بما على الزانى من العقاب أو المراد برؤية البرهان حصول الاخلاق الحميدة وتذكير الاحوال الرادعة لهم عن الاقدام على المنكرات وقيل ان البرهان هو النبوة المانعة من اتيان الفواحش وقيل انه عليه السلام رأى مكتوبا فى سقف البيت ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا وأما الذين نسبوا المعصية الى يوسف فقالوا انه رأى يعقوب عاضا على ابهامه أو هتف به هاتف وقال له لا تعمل عمل السفهاء وانت مكتوب فى ديوان الانبياء أو تمثل له يعقوب فضرب فى صدره فخرجت منيه من أنامله أو رأى كفا من غير ذراع مكتوبا فيه وما تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا الآية (كذلك) أى مثل ذلك التثبيت ثبتناه (لنصرف عنه السوء) أى مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بشهوة (والفحشاء) أى الزنا (انه من عبادنا المخلصين) قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام فى جميع القرآن أى الذين أخلصوا دينهم لله تعالى والباقون بفتح اللام أى الذين اختارهم الله لطاعته بان عصمهم عما هو قادح فيها أو أخلصهم من كل سوء (واستبقا الباب) أى تسابقا الى الباب البرانى الذى هو المخلص فان سبق يوسف فتح الباب للخروج وان سبقت زليخا أمسكت الباب لمنع الخروج (وقدت قميصه من دبر) أى شقت قميص يوسف من خلف بنصفين من وسطه الى قدميه فغلبها يوسف وخرج وخرجت خلفه (وألفيا سيدها) أى صادفا زوجها قطفير (لدى الباب) أى البرانى روى كعب رضى الله عنه أنه لما هرب يوسف عليه السلام صار فراش القفل يتناثر حتى خرج من الابواب (قالت) لزوجها خائفة من التهمة (ما جزاء من أراد بأهلك سوأ) قيل ان يوسف أراد ان يضربها ويدفعها عن نفسه وكان ذلك بالنسبة اليها جاريا مجرى السوء فذكرت كلاما مبهما ثم خافت ان يقتله العزيز وهى شديدة الحب له فقالت (الا أن يسجن أو عذاب أليم) أى ليس جزاؤه الا السجن أو الضرب الوجيع وانما بدأت بذكر الضرب لان المحب لا يشتهى ايلام المحبوب وانما أرادت أن يسجن يوما أو أقل على سبيل التخفيف أما الحبس الطويل فلا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب أن يجعل من المسجونين (قال هى راودتنى عن نفسى) ولم يقل هذه ولا تلك لفرط استحيائه وهو أدب حسن حيث أتى بلفظ الغيبة ولم يكن يوسف يريد أن يهتك سترها ولكن لما لطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه فصرح بالامر فقال هى طالبتنى للمواتاة (وشهد شاهد من أهلها) وهو ابن داية زليخا أو ابن خال لها وكان عمره شهرين أنطقه الله تعالى لبراءة يوسف وروى أن العزيز اشترى يوسف بوزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه لؤلؤا ووزنه مرجانا ووزنه مسكا ووزنه عنبرا فلما ذهب به الى البيت شغفت به زليخا فقالت لحاضنتها ما الحيلة فقالت لها ياسيدتى لو نظر اليك لكان أسرع حبا منك اليه ولو رأى حسنك وجمالك وصفاء لونك ما قر له قرار دونك فقالت وكيف ذلك فقالت مكنينى من الاموال فقالت خزائنى بين يديك فخذى ماشئت لا حساب عليك وأمرت باحضار أهل البناء والهندسة وقالت أريد بيتا يرى الوجه فى سقفه وفى حيطانه كما يرى فى المرآة المصقولة فقالوا نعم فبنوا لها بيتا سموه القيطون فلما تم دعت المصور وأمرته بصنع سرير من ذهب مرصع بالجواهر واليواقيت وفرشته بالديباج والسندس وصورت صورة يوسف وزليخا متعانقين ثم زينت زليخا وخرجت الى يوسف مستعجلة وقالت يا يوسف أجب سيدتك فانها تدعوك فى بيتها القيطون وكان سميعا مطيعا وكان بيده قضيب من ذهب يلعب به فرماه وأسرع لباب البيت فلما وضع قدمه الواحدة أحس قلبه بالشر وأراد الرجوع فأسرعت زليخا اليه وجرته للسرير فغمض عينيه وأطرق رأسه وبكا حياء من الله تعالى وراودته عن نفسه فأبى فقالت له لم تخالف أمرى فقال خوفا من الله واكراما لسيدى الذى أحلنى محل

أولاده فقالت أما الهلك فأنا أعطيك جميع الاموال تصدق بها بل بك ليغفر لك هذا الذنب وأما سيدك فأنا أطعمه السم حتى يتهرى لحمه وأكون أنا وأموالى ملكك فقام وبادر الى الباب من غير أن يكون بينه وبينها سبب من الاسباب فجذبته فمزقت قميصه من خلفه وهو فار فوافق ذلك الوقت أن العزيز مر بالباب فنظر العزيز لزليخا فرآها مزينة حاسرة عن وجهها ونظر الى يوسف فرآه منكس الرأس باكى العين فوقف متحيرا فى أمرهما ينظر اليه مرة واليها مرة فقالت له ان غلامك هذا يريد أن يخونك فى أهلك أى شئ جزاؤه أن يسجن أو عذاب أليم فقال له العزيز يا يوسف ما كان هذا جزائى منك أحللتك محل أولادى وتخوننى فى أهلى فقال يوسف عليه السلام ان لى شاهدا يشهد لى بالبراءة فقال له أين الشاهد وليس معكما فى البيت ثالث فقال هذا الطفل يشهد لى بالبراءة فأوحى الله لجبريل أن اهبط على الطفل وشق لسانه حتى يشهد لعبدى يوسف بالبراءة فعند ذلك تنحنح الطفل وقال أيها الملك ان عندى فى أمرك هذا مالك فيه فرج ومخرج انظر الى قميص الغلام العبرانى (ان كان قميصه قد من قبل) أى شق من قدام (فصدقت) أى فقد صدقت المرأة (وهو من الكاذبين) فى قوله هى راودتنى (وان كان قميصه قد من دبر) أى من خلف (فكذبت) أى فقد كذبت المرأة فى دعواها (وهو من الصادقين) فى قوله هى راودتنى (فلما رأى) أى زوجها (قميصه قد من دبر قال) لها زوجها قطفير وقد قطع بصدقه وكذبها (انه) أى هذا القذف له فى ضمن قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوأ (من كيدكن) أى من جنس مكركن أيتها النساء (ان كيدكن عظيم) لان لهن فى هذا الباب من الحيل ما لا يكون للرجال ولان كيدهن فى هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال (يوسف أعرض عن هذا) أى يا يوسف أعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار العظيم بسببها واكتمه فقد ظهر صدقك ونزاهتك (واستغفرى) يا زليخا (لذنبك) الذى صدر عنك أى توبى الى الله تعالى بما رميت يوسف به وهو برىء منه (انك كنت) بسبب ذلك (من الخاطئين) فى هذا القول الذى لا يليق بمقام الانبياء وكان العزيز رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وكان قليل الغيرة بل قال فى البحران تربة مصر تقتضى هذا ولهذا لا ينشأ فيها الاسد ولو دخل فيها لا يبقى ثم أخبرت زليخا بعض النساء بما حصل لها وأمرتهن بالكتم فلم يكتمن بل أشعن الامر (وقال نسوة فى المدينة) أى أشعن الامر فى مصر (امرأة العزيز) اى الملك قطفير (تراود فتاها عن نفسه) أى وقال جماعة من النساء وكن خمسا وهن امرأة صاحب دواب الملك وامرأة صاحب سجنه وامرأة خبازه وامرأة صاحب مطبخه وامرأة ساقيه فتحدثن بما بينهن وقلن امرأة العزيز تراود عبدها الكنعانى عن نفسه وهو يمتنع منها (قد شغفها حبا) أى قد شق فتاها شغاف قلبها من جهة الحب وقرأ جماعة من الصحابة والتابعين شعفها بالعين المهملة أى قد أحرق حبها فتاها حجاب قلبها والمعنى ان اشتغالها بحبه صار حجابا بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة فلا يخطر ببالها الا هو (انا لنراها فى ضلال مبين) أى انا نعلمها فى ضلال واضح عن طريق الرشد بسبب حبها اياه (فلما سمعت بمكرهن) أى قولهن المستدعى لنظرهن الى وجه يوسف (أرسلت اليهن) أى أرادت اظهار عذرها فاتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن الخمس المذكورات (وأعتدت) أى أحضرت (لهن متكأ) أى وسائد يتكئن عليها هذا ان قرأت مشددة فان قرأت مخففة فمعناها الترنجة فانهم كانوا يتكئون على المسانيد عند الطعام والشراب والحديث على عادة المتكبرين ولذلك جاء النهى عنه فى الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا (وآتت) أى أعطت (كل واحدة منهن سكينا)

لاجل

لاجل أكل الفاكهة واللحم لانهم كانوا لا يأكلون من اللحم الا ما يقطعون بسكاكينهم (وقالت) أى زليخا ليوسف وهن مشغولات بأعمال الخناجر فى الطعام (اخرج عليهن) أى ابرز لهن ومر عليهن فان يوسف عليه السلام ما قدر على مخالفتها خوفا منها (فلما رأينه أكبرنه) أى أعظمنه وهبنه ودهشن عند رؤيته من شدة جماله وقيل معنى أكبرن أى حضن والهاء اما للسكت أو ضمير راجع الى يوسف على حذف اللام أى حضن له من شدة الشبق وأيضا ان المرأة اذا فزعت فربما أسقطت ولدها فحاضت ويقال أكبرت المرأة أى دخلت فى الكبر وذلك اذا حاضت لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر (وقطعن أيديهن) أى جرحن أيديهن حتى سال الدم ولم يجدن الألم لفرط دهشتهن وشغل قلوبهن بيوسف (وقلن حاش لله) أى تنزيها لله تعالى من العجز حيث قدر على خلق جميل مثل هذا (ما هذا بشرا) أى ليس يوسف آدميا وقرأ ابن مسعود ما هذا بشر بالرفع وقرئ ما هذا بشرى أى ما هو بعبد مملوك للبشر حاصل بشراء (ان هذا الا ملك كريم) على الله فانه قد ثبت فى العقول انه لا شئ أحسن من الملك كما ثبت فيها أن لا شئ أقبح من الشيطان وقيل ان النسوة لما رأين يوسف لم يلتفت اليهن البتة ورأين عليه هيبة النبوة والرسالة وسيما الطهارة قلن انا ما رأينا فيه أثرا من آثار الشهوة ولا صفة من الانسانية فهذا قد تطهر عن جميع الصفات المغروزة فى البشر وقد ترقى عن حد الانسانية ودخل فى الملكية (قالت) أى زليخا لهن (فذلكن الذى لمتننى فيه) أى فهذا الذى ترينه هو ذلك العبد الكنعانى الذى عيبتننى فى الافتتان به قبل أن تتصورنه حق تصوره ولو حصلت صورته فى خيالكن لتركتن هذه الملامة (ولقد راودته عن نفسه) حسبما سمعتن وقلتن (فاستعصم) أى فامتنع عنى بالعفة (ولئن لم يفعل ما آمره) أى ان لم يفعل يوسف مقتضى أمرى اياه من قضاء شهوتى (ليسجنن) أى ليعاقبن بالحبس (وليكونن من الصاغرين) أى من الذليلين فى السجن فقلن ليوسف أطع مولاتك (قال) أى يوسف مناجيا لربه عز وجل (رب السجن أحب الى) أى يارب دخول السجن أحب عندى (مما يدعوننى اليه) من مواتاتها التى تؤدى الى الشقاء والعذاب الاليم (والا تصرف عنى كيدهن) بالتثبيت على العصمة فان كل واحدة منهن كانت ترغب يوسف على موافقة زليخا وتخوفه على مخالفتها (أصب اليهن) أى أمل الى اجابتهن على قضية الطبيعة البشرية وحكم القوة الشهوية (وأكن من الجاهلين) أى وأصر من الذين لا يعملون بعلمهم (فاستجاب له ربه) دعاءه الذى فى ضمن قوله والا تصرف عنى الخ فان فيه التجاء الى الله تعالى جريا على سنن الانبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات وطلب النجاة من الشرور على جناب الله تعالى كقول المستغيث أدركنى والا هلكت (فصرف عنه كيدهن) حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة حتى وطن نفسه على مشقة السجن (انه هو السميع) لدعاء المتضرعين اليه (العليم) للنيات فيجيب ما طاب منه العزم (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات) أى ثم ظهر للعزيز وأصحابه المشاركين له فى الرأى من بعد ما رأوا الشواهد الدالة على براءة يوسف عليه السلام كشهادة الصبى وقد القميص من دبر وقطع النساء أيديهن سجنه عليه السلام قائلين والله (ليسجننه حتى حين) أى الى انقطاع مقالة الناس فى المدينة فان زليخا لما أيست من يوسف بجميع حيلها كى تحمله على موافقة مرادها قالت لزوجها ان هذا العبد العبرانى فضحنى فى الناس يقول لهم انى راودته عن نفسه فاما أن تأذن لى فأخرج وأعتذر اليهم واما أن تسجنه فسجنه (ودخل معه السجن فتيان) أى عبدان للملك مصر الكبير وهو الريان بن الوليد العمليق سمى أحدهما وهو صاحب شرابه سرهم وسمى الآخر وهو صاحب مطبخه برهم وقيل اسم الاول

مرطش والثاني رأسان وسبب سجنهما ان جماعة من أهل مصر أرادوا قتل الملك فجعلوا الهما رشوة على ان يسمها الملك في طعامه وشرابه فأجاباهم الى ذلك ثم ان الساقي ندم ورجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الخبز بين يدى الملك قال الساقي لا تأكل أيها الملك فان الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب أيها الملك فان الشراب مسموم فقال الملك للساقي اشربه فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من الطعام فأبى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق انهما دخلا مع يوسف فلما دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول انى أعبر الاحلام (قال أحدهما) وهو صاحب شراب الملك (انى أرانى أعصر خمرا) أى انى رأيت نفسى أعصر عنبا واسقى الملك (وقال الآخر) وهو الخباز (انى أرانى) أى رأيتنى (أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله) أى اخبرنا بتفسير رؤيانا (انا نراك من المحسنين) أى من العالمين بتفسير الرؤيا ومن المحسنين الى أهل السجن فيسليهم ويقول اصبروا وابشروا تؤجروا فقالوا بارك الله فيك يافتى ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يافتى فقال أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ابن ذبيح الله اسحق ابن خليل الله ابراهيم فقال له صاحب السجن يافتى والله لو استطعت خليت سبيلك ولكنى أحسن جوارك واختر اى بيوت السجن شئت أى ان الساقى قال لسيدنا يوسف أيها العالم انى رأيت فى المنام كأنى فى بستان وفيه شجرة عنب فيها ثلاثة أغصان وعليها ثلاثة عناقيد من العنب فجنيتها وكان كأس الملك فى يدى فعصرتها وسقيت الملك فشربه وقال الخباز انى رأيت فى المنام كأنى أخرج من مطبخ الملك وعلى رأسى ثلاث سلال من الخبز فوقع طير على أعلاها وأكل منها ولما قصا عليه الرؤيا كره ان يعبرها لهما حين سألاه لما علم مافيها من المكروه لاحدهما فأعرض عن سؤالهما وأخذ فى غيره من اظهار المعجزة والنبوة والدعاء الى التوحيد لانه علم ان أحدهما هالك فأراد ان يدخله فى الاسلام فبدأ باظهار المعجزة لهذا السبب (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله) أى لا يأتيكما طعام ترزقانه فى منزلكما على حسب عادتكما المطردة الا أخبرتكما بعاقبته فهو يفيد الصحة أو السقم وبلونه وجنسه (قبل أن يأتيكما) وكيف لا أعلم تعبير رؤياكما وهذا راجع الى ان يوسف ادعى الاخبار عن الغيب وهو يجرى مجرى قول عيسى وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم (ذلكما) أى هذا التأويل والاخبار بالمغيبات (مما علمنى ربى) بالوحى والالهام لا على جهة الكهانة والنجوم (انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) أى انى امتنعت عن دين قوم لا يؤمنون بالله وبالبعث بعد الموت (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) وانما قال يوسف ذلك ترغيبا لصاحبيه فى الايمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال (ما كان) أى لا يصح (لنا) معاشر الانبياء (أن نشرك بالله من شئ) أى أى شئ كان من ملك أو جنى أو انسى فضلا عن ان نشرك به صنما لا يسمع ولا يبصر (ذلك) أى التوحيد الذى هو ترك الاشراك (من فضل الله علينا) بالوحى (وعلى الناس) بارسالنا اليهم (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أى لا يوحدون الله تعالى (ياصاحبى السجن) أى ياصاحبى فى السجن أو ياساكنى السجن كما قيل لسكان الجنة أصحاب الجنة (أأرباب متفرقون) أى مختلفون فى الكبر والصغر واللون من ذهب وفضة وحديد وصفر وخشب وحجارة وغير ذلك (خير) لكما (أم الله الواحد القهار) أى هذه الاصنام معمولة ومقهورة فان الانسان اذا أراد كسرها قدر عليها فهى مقهورة ولا ينتظر حصول منفعة من جهتها واله العالم فعال قهار قادر على ايصال الخيرات ودفع الآفات والمراد أعبادة آلهة شتى مقهورة خير أم عبادة

الله المتوحد بالالوهية الغالب على خلقه ولا يغالب خير (ماتعبدون من دونه) أى من غير الله شيأ (الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أى الاذوات أوجدتم وآباؤكم لها أسماء آلهة بمحض ضلالتكم (ماأنزل الله بها) أى بتلك التسمية المتبعة للعبادة (من سلطان) أى من حجة تدل على صحتها وتحقيق مسمياتها فى تلك الذوات فكأنكم لا تعبدون الا الاسماء المجردة عن الذوات والمعنى انكم سميتم مالم يدل على استحقاقه الالوهية عقل ولا نقل آلهة ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ماتطلقون عليها (ان الحكم الالله) أى ليس الحكم فى أمر العبادة الالله فليس لغير الله حكم واجب القبول ولا أمر واجب الالتزام (أمر) على ألسنة الانبياء عليهم السلام (أن لاتعبدوا الا اياه) لان العبادة نهاية التعظيم فلا تليق الا بمن حصل منه نهاية الانعام وهو الله تعالى لان منه الخلق والاحياء والرزق والهداية ونعم الله كثيرة وجهات احسانه الى الخلق غير متناهية (ذلك) أى تخصيصه تعالى بالعبادة (الدين القيم) أى الذى تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ان ذلك هو الدين المستقيم لجهلهم بتلك البراهين ولما فرغ سيدنا يوسف من الدعاء الى عبادة الله تعالى رجع الى تعبير رؤياهما فقال (ياصاحبى السجن أما أحدكما) وهو الشرابى (فيسقى ربه) أى سيده (خمرا وأما الآخر) وهو الخباز (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) روى ان الساقى لما قص رؤياه على يوسف قال له ما أحسن مارأيت أما الكرم فهو العمل الذى كنت فيه وأما العنب فهو عزك فى ذلك العمل وأما الاغصان الثلاثة فثلاثة أيام يوجه اليك الملك عند انقضائهن وأما العنب الذى عصرت وناولت الملك فهو ان يردك الى عملك فتصير كما كنت بل أحسن ولما قص الخباز رؤياه على يوسف قال له بئسما رأيت أما خروجك من المطبخ فهو ان تخرج من عملك وأما ثلاث سلال فهى ثلاثة أيام تكون فى السجن وأما أكل الطير من رأسك فهو ان يخرجك الملك بعد ثلاثة أيام ويصلبك وتأكل الطير من رأسك ففزعا التعبير رؤيا الخباز وقالا جميعا مارأينا شيأ انما كنا نلعب فقال لهما يوسف (قضى الامر الذى فيه تستفتيان) أى تم الامر الذى تسألان عنه رأيتما أولم تريا فكما قلتما وقلت لكما كذلك يكون (وقال) أى يوسف عليه السلام (للذى ظن أنه ناج) أى للرجل الذى ظنه ناجيا من القتل (منهما) أى من صاحبيه وهو الساقى (اذكرنى عند ربك) أى عند سيدك الملك الكبير فقل له ان فى السجن غلاما محبس ظلما خمس سنين (فأنساه الشيطان ذكر ربه) أى أنسى الشيطان بوسوسته الشرابى ذكره ليوسف عند الملك ويقال فأنسى الشيطان يوسف ان يذكر ربه حتى طلب الفرج من مخلوق مثله وذلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فان الاستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة الاان حسنات الابرار سيئات المقربين فالاولى بالصديقين ان لايشتغلوا الا بسبب الاسباب ولذلك جوزى يوسف بسنتين فى الحبس كما قال تعالى (فلبث) أى يوسف (فى السجن) بسبب ذلك القول (بضع سنين) أى سبع سنين خمس منها قبل ذلك القول وثنتان بعده هذا هو الصحيح (وقال الملك) الريان بن الوليد (انى أرى) أى رأيت فى منامى (سبع بقرات سمان) قد خرجن من النهر ثم خرج منه بعدهن سبع بقرات مهازيل (يأكلهن سبع عجاف) أى ابتلعت العجاف السمان ودخلن فى بطونهن ولم يتبين على العجاف شئ منهن (و) انى أرى (سبع سنبلات خضر) أى قد انعقد حبها (وأخر) أى وسبعا أخر (يابسات) أى قد بلغت أوان الحصد فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتهن شئ فقلق الملك لما رأى الناقص الضعيف قد استولى على القوى الكامل حتى غلبه فجمع سحرته وكهنته ومعبريه وأخبرهم بما رأى فى منامه

وسألهم عن تأويلها فأعجزهم الله تعالى عن تأويل هذه الرؤيا ليكون ذلك سببا لخلاص يوسف من السجن فهذا هو قوله (يا أيها الملأ) أى السحرة والكهنة والمعبرون للرؤيا (أفتونى فى رؤياى) أى بينوا الى تعبير رؤياى هذه (ان كنتم للرؤيا تعبرون) أى ان كنتم تعلمون بانتقال الرؤيا من الصور الخيالية الى المعانى النفسانية التى هى مثالها (قالوا) أى أشراف العلماء والحكماء (أضغاث أحلام) أى هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة لا حقيقة لها (وما نحن بتأويل الاحلام) أى المنامات الباطلة التى لا أصل لها (بعالمين) أى لانه لا تأويل لها وانما التأويل للرؤيا الصادقة (وقال الذى نجا منهما) أى الذى خلص من السجن من صاحبى يوسف بعد ان جلس بين يدى الملك أى قال الشرابى للملك ان فى الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق فى الكل وما أخطأ فى حرف فان أذنت مضيت اليه وجئتك بالجواب (وادكر بعد أمة) أى تذكر الشرابى يوسف بعد مدة طويلة وقرأ الاشهب العقيلى بعد امة بكسر الهمزة أى بعد ما أنعم عليه بالنجاة وقرئ بعد أمه بفتح الهمزة والميم ثم بالهاء أى بعد نسيان (أنا أنبؤكم بتأويله) أى أنا أخبرك أيها الملك بتعبير رؤياك (فأرسلون) الى السجن فارسله اليه فأتى يوسف فقال له (يوسف أيها الصديق) أى البالغ فى الصدق (أفتنا) أى بين لنا (فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع) من البقر (عجاف و) فى (سبع سنبلات خضر و) فى سبع (أخر) من السنابل (يابسات) أى فى رؤيا ذلك رآها الملك (لعلى أرجع الى الناس) أى أعود الى الملك وجماعته بفتواك (لعلهم يعلمون) فضلك وعلمك فان الساقى علم عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسئلة فخاف ان يعجز يوسف عنه أيضا (قال تزرعون سبع سنين دأبا) أى متتابعة على عادتكم فى الزراعة (فما حصدتم) من الزرع فى كل سنة (فذروه فى سنبله) أى كوافره ولا تدوسوه لئلا يقع فيه السوس فان ذلك أبقى له على طول الزمان (الا قليلا مما تأكلون) أى الا الاكل ما أردتم أكله فدوسوه فى تلك السنين وهذا تأويل السبع السمان والسبع الخضر (ثم يأتى من بعد ذلك) أى من بعد السبع سنين المخصبة (سبع شداد) أى سبع سنين قحطة صعاب على الناس وهذا تأويل السبع العجاف والسبع اليابسات (يأكلن ما قدمتم لهن) أى تأكلون الحب المزروع وقت السنين المخصبة المتروك فى سنبله فى السنين المجدبة (الا قليلا مما تحصنون) أى تدخرون للبذر فأكل ما جمع أيام السنين المخصبة فى السنين المجدبة تأويل ابتلاع العجاف السمان (ثم يأتى من بعد ذلك) أى من بعد السنين المجدبة (عام فيه يغاث الناس) أى ينقذ الناس من كرب الجدب (وفيه يعصرون) ما من عادته أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه لكثرتها وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع وقيل معناه يمطرون وقيل معناه ينجون من الشدة وعلى هذين يقرأ بالبناء للمفعول وهذا من مدلولات المنام لانه لما كانت العجاف سبعا دل ذلك على أن السنين المجدبة لا تزيد على هذا العدد فالحاصل بعده هو الخصب على العادة الالهية حيث يوسع الله على عباده بعد تضييقه عليهم فلما رجع الشرابى الى الملك وأخبره بما ذكره يوسف استحسنه الملك (وقال الملك ائتونى به) أى بيوسف لما علم من فضله وعلمه فرجع الساقى الى يوسف (فلما جاءه) أى يوسف (الرسول) وقال له أجب الملك (قال) أى يوسف له (ارجع الى ربك) أى الى سيدك الملك الكبير (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) أى فاسأل الملك بأن يفتش عن شأن تلك النسوة ليعلم براءتى عن تلك التهمة وانما لم يخرج يوسف من

السجن في الحال لانه لو خرج قبل ظهور براءته من تلك التهمة عند الملك فلربما يقدر الحاسد على أن يتوسل الى الطعن فيه بعد خروجه (ان ربي) أي سيدي ومربي وهو ذلك الملك (بكيدهن) أي بمكرهن (عليم) فلما أبي يوسف أن يخرج من السجن قبل تبين الامر رجع الرسول الى الملك فأخبره بما قال يوسف عليه السلام فأمر الملك باحضارهن وكانت زليخا معهن (قال) أي الملك مخاطبا لهن لان كل واحدة منهن راودت يوسف لاجل امرأة العزيز بقولها ليوسف أطع مولاتك (ماخطبكن) أي ماشأنكن (اذ راودتن يوسف عن نفسه) أي خادعتنه هل وجدتن فيه ميلا الى قولكن (قلن حاش لله) أي تنزيها له (ماعلمنا عليه) أي يوسف (من سوء) أي من خيانة في شئ من الاشياء (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) أي الآن تبين الحق ليوسف (أنا راودته عن نفسه) أي أنا دعوته الى نفسي (وانه لمن الصادقين) أي في قوله حين افتريت عليه هي راودتني عن نفسي وانما أقرت زليخا بذنبها وأشهدت لبراءة يوسف عن الذنب مكافأة على فعل يوسف حيث ترك ذكرها وقال مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن مع أن الفتن كلها انما نشأت من جهتها وقد عرفت أن ذلك لرعاية حقها ولتعظيمها ولاخفاء الامر عليها فجاء الرسول الى يوسف فأخبره بجواب النسوة وبقول زليخا فقال يوسف وهو في السجن (ذلك) أي الذي فعلت من ردي الرسول لطلب البراءة انما كان (ليعلم) أي الملك الصغير الذي هو قطفير زوج زليخا (أني لم أخنه) في حرمته كما زعم (بالغيب) أي وأنا غائب عنه أو هو غائب عني (و) ليعلم (أن الله لايهدي كيد الخائنين) أي لاينفذه ولو كنت خائنا لما خلصني الله تعالى من هذه الورطة (وما أبرئ نفسي) أي والحال اني لم أقصد بذلك تنزيه نفسي من الزلل وبراءتها منه (ان النفس) البشرية (لامارة بالسوء) أي ميالة الى القبائح راغبة في المعصية ولما كان قوله ذلك ليعلم اني لم أخنه جاريا مجرى مدح النفس استدركه بقوله وما أبرئ نفسي أي لا أمدحها (الا مارحم ربي) أي الا نفسا عصمها ربي من الوقوع في المهالك (ان ربي غفور) للهم الذي هممت به (رحيم) لمن تاب وهذا ما عليه أكثر المفسرين وقال بعضهم من اسم الاشارة الى هنا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك الذي قلت ليعلم يوسف اني لم أخنه بالغيب أي اني لم أقل في يوسف وهو في السجن خلاف الحق فاني وان أحلت الذنب عليه عند حضوره ما أحلت الذنب عليه عند غيبته وأن الله لايهدي كيد الخائنين أي لايرضاه فاني لما أقدمت على المكر لاشك افتضحت وأن يوسف لما كان بريئا من الذنب لاشك طهره الله عنه وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة حيث راودته وقلت في حقه ماقلت وأودعته في السجن ومقصود زليخا بهذا الكلام الاعتذار عما كان وتنزيه يوسف من الذنب ان كل نفس لامارة بالسوء الا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف عليه السلام ان ربي غفور لمن استغفر من ذنبه رحيم له فعلى هذا يكون تأنيه عليه السلام في الخروج من السجن لعدم رضاه ملاقاة الملك حتى يتبين أنه انما سجن بظلم عظيم مع ماله من نباهة الشأن ليتلقاه الملك بما يليق به من الاجلال وقد حصل ذلك (وقال الملك) أي الكبير وهو الريان (ائتوني به) أي بيوسف (أستخلصه لنفسي) أي اجعله خاصا بي دون العزيز روي أن الرسول قال ليوسف عليه السلام قم الى الملك متنظفا من درن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة فكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء فلما أراد الدخول على الملك قال اللهم اني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم دخل على الملك فسلم عليه بالعربية فقال له الملك ماهذا اللسان قال لسان عمي اسماعيل ثم دعا له

بالعبرانية فقال له وما هذا اللسان قال هذا لسان آبائي وكان الملك يتكلم بسبعين لغة ولم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجابه يوسف به وزاد عليه بالعربية والعبرانية وروى أنه لما رآه الملك شابا وهو في ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة قال للشرابي أهذا هو الذي علم تأويل رؤياي قال نعم فأقبل على يوسف وقال اني أحب أن أسمع تأويل الرؤيا منك شفاها فأجاب بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته فذلك قوله تعالى (فلما كلمه) أي كلم الملك يوسف (قال) أي الملك (انك اليوم لدينا مكين) أي ذو منزلة رفيعة (أمين) أي ذو أمانة على كل شئ فما ترى أيها الصديق (قال) أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام فاذا جاءت السنون المجدبة بعنا الغلات فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لى بهذا الشغل فقال يوسف (اجعلني على خزائن الارض) أي ولني أمر خزائن أرض مصر (اني حفيظ) لما وليتني ولجميع مصالح الناس (عليم) بوجوه التصرف في الاموال وبجميع ألسن الغرباء الذين يأتونني وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية اذا كان الطالب ممن يقدر على اقامة العدل وان كان الطلب من يد الكافر (وكذلك) أي مثل ذلك الانعام الذي أنعمنا عليه من تقريبنا اياه من قلب الملك وانجائنا اياه من غم الحبس (مكنا ليوسف في الارض) أي أقدرناه على ما يريد برفع الموانع في أرض مصر (يتبوأ منها حيث يشاء) أي نازلا في أي موضع يريد يوسف من بلادها وروى أنها كانت أربعين فرسخا في أربعين فرسخا وقرأ ابن كثير نشاء بالنون مسندا الى الله تعالى روى أنه لما تمت السنة من يوم سأل يوسف الامارة دعاه الملك فتوجه وأخرج خاتم الملك وجعله في أصبعه وقلده بسيفه وجعل له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع عليه ستون فراشا وضرب له عليه حلة من استبرق فقال يوسف عليه السلام أما السرير فاشد به ملكك وأما الخاتم فادبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي فقال الملك قد وضعته اجلالا لك واقرارا بفضلك وأمره أن يخرج فخرج متوجا لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فيه من صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت له الملوك وفوض الملك الاكبر اليه ملكه وأمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه ومات قطفير بعد ذلك فزوجه عليه السلام الملك امرأته زليخا فلما دخل يوسف عليها قال لها أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت له أيها الصديق لا تلمني فاني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي وعصمك الله فأصابها يوسف فوجدها عذراء فولدت له ذكرين أفرائيم وميشا فاستولى يوسف ملك مصر وأقام فيها العدل وأحبه الرجال والنساء وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام في السنة الاولى بالدنانير والدراهم وفي الثانية بالحلي والجواهر وفي الثالثة بالدواب وفي الرابعة بالجواري والعبيد وفي الخامسة بالضياع والعقار وفي السادسة بأولادهم وفي السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا صار عبدا له عليه السلام فقال أهل مصر ما رأينا كاليوم ملكا أجل وأعظم من يوسف فقال للملك كيف رأيت صنع الله بي فيما خولني فما ترى في هؤلاء قال الملك الرأى رأيك ونحن لك تبع قال فاني أشهد الله وأشهدك اني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم وكان يوسف لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس ومات الملك في حياة يوسف (نصيب برحمتنا) أي بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم (من نشاء) من عبادنا (ولا نضيع أجر المحسنين) لان

اضاعة الاجر اما أن تكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع فى حق الله تعالى فكانت الاضاعة ممتنعة (ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) أى ولاجر المحسنين وهم الذين آمنوا بالله والكتب والرسل واتقوا الفواحش فى الآخرة خير لهم والمراد أن يوسف وان كان قد وصل الى الدرجات الرفيعة فى الدنيا فثوابه الذى أعده الله له فى الآخرة أفضل وأكمل وقد ثبت أن الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين (وجاء اخوة يوسف) الى مصر وهم عشرة ليمتاروا أى لما وصل القحط الى البلدة التى يسكنها يعقوب عليه السلام وهى ثغور الشام من أرض فلسطين قال لبنيه ان بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا اليه واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون اليه من الطعام فخرجوا غير بنيامين حتى قدموا مصر (فدخلوا عليه) أى على يوسف وهو فى مجلس ولايته (فعرفهم) بأول نظرة نظر اليهم لقوة فهمه (وهم له منكرون) أى والحال انهم لا يعرفونه لطول المدة فبين أن ألقوه فى الجب ودخولهم عليه أربعون سنة ولانهم رأوه جالسا على سرير الملك وعليه ثياب حرير وفى عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهب فكلموه بالعبرانية فقال لهم من أنتم وأى شئ أقدمكم بلادى فقالوا اقدمنا لاخذ الميرة ونحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد فقال لعلكم عيون تطلعون على عوراتنا وتخبرون بها أعداءنا فقالوا معاذ الله قال من أين أنتم قالوا من بلاد كنعان نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبى من أنبياء الله اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فهلك منا واحد فقال كم أنتم ههنا قالوا عشرة قال فأين الحادى عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك لانه أخوه الشقيق قال فمن يشهد لكم انكم لستم عيونا وان ما تقولون حق قالوا نحن ببلاد غربة لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا قال فأتونى بأخيكم الذى من أبيكم ان كنتم صادقين فأنا اكتفى بذلك منكم قالوا ان أبانا يحزن لفراقه قال فاتركوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتونى به فاقترعوا فيما بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف فى أمر الجب فتركوه عنده فأمر بانزالهم واكرامهم (ولما جهزهم بجهازهم) أى فلما أوقر يوسف ابلهم بالميرة وأصلحهم بالزاد وما يحتاج اليه المسافر (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) اذا رجعتم لتمتاروا مرة أخرى لاعلم صدقكم فيما قلتم ان لنا أخا من أبينا عند أبينا (ألا ترون أنى أوف الكيل) أى أتمه وأزيدكم حمل بعير آخر لاجل أخيكم وحملا آخر لابيكم لانهم قالوا ان لنا أبا شيخا كبيرا وأخا آخر بقى معه لان يوسف لا يزيد لاحد من حمل بعير (وأنا خير المنزلين) أى خير المضيفين فانه عليه السلام كان قد أحسن ضيافتهم مدة اقامتهم عنده (فان لم تأتونى به) أى بأخيكم من أبيكم اذ عدتم مرة أخرى (فلا كيل لكم عندى) أى فلا طعام لكم يكال عندى (ولا تقربون) أى لا تدخلوا بلادى فضلا عن وصولكم الى (قالوا سنراود عنه أباه) أى سنطلبه من أبيه ونحتال على ان ننزعه من يده (وانا لفاعلون) ما أمرتنا به من أن نجيئك بأخينا فانهم كانوا محتاجين الى تحصيل الطعام ولا يمكن الا من عنده (وقال لفتيانه) أى لخدامه الكيالين وقرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم لفتيانه بالالف والنون والباقون لفتيته بالتاء من غير ألف (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) أى دسوا دراهمهم التى اشتروا بها الطعام فى أوعيتهم التى يحملون فيها الطعام (لعلهم يعرفونها) أى لكى يعرفوا بضاعتهم (اذا انقلبوا الى أهلهم) أى اذا رجعوا الى أبيهم وفرغوا أوعيتهم (لعلهم يرجعون) أى لعل معرفتهم ذلك تدعوهم الى الرجوع الينا لانهم اذا علموا ان ذلك من سخاء يوسف بعثهم على العود عليه للرغبة فى معاملته وأيضا ان سيدنا يوسف يخاف من ان لا يكون عند أبيه من الدراهم ما يرجعون به

مرة أخرى (لما رجعوا) أى اخوة يوسف غير شمعون (الى أبيهم) بكنعان (قالوا) قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع (يا أبانا منع منا الكيل) أى حكم العزيز بمنع الطعام بعد هذه المرة ان لم يذهب معنا بنيامين اليه (فأرسل معنا أخانا) بنيامين الى مصر وقال يعقوب أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر وأخبروه بالقصة (نكتل) أى نرفع المانع من الكيل بسببه ونكتل بسببه من الطعام ما نشاء وقرأ حمزة والكسائى يكتل بالياء أى يكتل أخونا لنفسه مع اكتيالنا (وانا له لحافظون) من أن يصيبه مكروه وضامنون برده اليك (قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل) أى قال لهم يعقوب كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم وانكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه فى يوسف وضمنتم لى حفظه فما فعلتم فلما لم يحصل الامن والحفظ هناك فكيف يحصل ههنا وانما أفوض الامر الى الله (فالله خير حافظا) منكم قرأ حفص وحمزة والكسائى بفتح الحاء وبألف بعدها على التمييز أى حفظ الله لبنيامين خير من حفظكم وقرأ الباقون حفظا بكسر الحاء وسكون الفاء وقرأ الاعمش والله خير حافظ وقرأ أبو هريرة خير الحافظين (وهو أرحم الراحمين) وهو أرحم به من والديه ومن اخوته وقيل ان يعقوب لما ذكر يوسف قال فالله خير حافظا الخ أى حفظ ليوسف لانه كان يعلم أن يوسف حى (ولما فتحوا متاعهم) أى أوعيتهم التى وضعوا فيها الميرة بحضرة أبيهم (وجدوا بضاعتهم) وهى ثمن الميرة الذى دفعوه ليوسف (ردت اليهم قالوا يا أبانا ما نبغى) أى ما نكذب بما قلنا من انا قدمنا على خير رجل انزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة أو المعنى أى شىء نريد من اكرام الملك (هذه بضاعتنا ردت الينا) هل من مزيد على ذلك فقد أحسن الملك مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا فلا نطلب وراء ذلك احسانا وقيل المعنى نحن لا نطلب منك يا أبانا عند رجوعنا الى الملك بضاعة أخرى فان هذه التى ردت الينا كافية لنا فى ثمن الطعام (ونمير أهلنا) أى نأتى بالطعام الى أهلنا برجوعنا الى ذلك الملك بتلك البضاعة وهذا معطوف على محذوف والتقدير فنستعين بهذه البضاعة ونمير أهلنا (ونحفظ أخانا) بنيامين من المكاره فى الذهاب والاياب (ونزداد) بسببه (كيل بعير) أى وقر بعير له (ذلك كيل يسير) أى ذلك الحمل الذى نزداده كيل قليل على الملك لانه قد أحسن الينا وأكرمنا بأكثر من ذلك ويقال ذلك الذى نطلب منك أمر يسير (قال) لهم أبوهم (لن أرسله) أى بنيامين (معكم حتى تؤتون موثقا من الله) أى حتى تعطونى عهدا من الله أى حتى تحلفوا بالله (لتأتننى به الا أن يحاط بكم) أى فى حال ان تموتوا أو فى حال أن تصيروا مغلوبين فلا تقدروا الاتيان به الى (فلما آتوه موثقهم) أى أعطوا أباهم عهدهم من الله على رده الى أبيهم فقالوا فى حلفهم بالله رب محمد لنأتينك به (قال) أى يعقوب (الله على ما نقول وكيل) أى شهيد فان وفيتم بالعهد جازاكم الله بأحسن الجزاء وان غدرتم به كافأكم بأعظم العقوبات (وقال) ناصحا لهم لما أزمع على ارسالهم جميعا (يا بنى لا تدخلوا) مصر (من باب واحد) من أبوابها الاربعة (وادخلوا من أبواب متفرقة) انما أمرهم بذلك لانه خاف عليهم العين فانهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة وكانوا أولاد رجل واحد وقد تجملوا فى هذه الكرة أكثر مما فى المرة الاولى (وما أغنى عنكم من الله من شىء) أى لا أدفع عنكم بتدبيرى شيأ مما قضى الله عليكم فان الحذر لا يمنع القدر والانسان مأمور بأن يحذر عن الاشياء المهلكة والاغذية الضارة وان يسعى فى تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان (ان الحكم) أى ما الحكم بالالزام والمنع (الا لله) وحده (عليه توكلت) أى اليه وحده فوضت أمرى وأمركم (وعليه) دون غيره (فليتوكل المتوكلون) أى فليثق الواثقون

(ولما

(ولما دخلوا) أى المدينة (من حيث أمرهم أبوهم) أى من الابواب المتفرقة (ما كان) أى دخولهم متفرقين (يغنى) أى يخرج (عنهم) أى الداخلين (من الله) أى من قضائه (من شئ الا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) أى لكن الدخول على صفة التفرق أظهر حاجة فى قلب يعقوب وهى خوفه عليهم من اصابة العين وهذا تصديق الله لقول يعقوب وما أغنى عنكم من الله من شئ (وانه) أى يعقوب (لذو علم لما علمناه) أى لفوائد ما علمناه أى انه عامل بما علمه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان يعقوب بهذه الصفة والعلم (ولما دخلوا على يوسف) أى فى محل حكمه (آوى اليه أخاه) أى أنزل معه فى منزله أى لما أتى اخوة يوسف بأخيه بنيامين قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وستجدون ذلك عندى فأكرمهم وأضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لاجلسنى معه فقال يوسف بقى أخوكم فريدا فأجلسه معه على مائدة وجعل يواكله ثم أنزل كل اثنين منهم بيتا فبقى بنيامين وحده وقال هذا لا ثانى له فاتركوه معى فضمه يوسف اليه وشم ريح أبيه منه حتى أصبح فلما خلا به قال له يوسف ما اسمك وقال بنيامين قال وما بنيامين قال المثكل وهو لما ولد هلكت أمه قال وما اسم أمك قال راحيل بنت لاوى قال فهل لك من ولد قال لى عشرة بنين قال فهل لك من أخ لامك قال كان لى أخ فهلك قال يوسف أتحب ان أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال بنيامين ومن يجد أخا مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام اليه وعانقه و(قال انى أنا أخوك فلا تبتئس) أى فلا تحزن (بما كانوا يعملون) أى لا تلتفت الى ما صنعوه فيما تقدم من أعمالهم المنكرة وفيما يعملون بك من الجفاء ويقولون لك من التعيير والاذى قال بنيامين فأنا لا أفارقك وقال يوسف قد علمت اغتمام والدى بى فاذا احبستك عندى ازداد غمه ولا يمكننى هذا الا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك الى ما لا يحمد قال لا أبالى فافعل ما بدا لك فانى لا أفارقك قال يوسف فانى أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بالسرقة لاحتال فى ردك بعد اطلاقك معهم قال فافعل ما شئت فذلك قوله تعالى (فلما جهزهم بجهازهم) أى فلما هيأ يوسف لهم ما يحتاجون للسفر وحمل لهم أحمالهم من الطعام على ابلهم (جعل السقاية فى رحل أخيه) أى دس مشربته التى كان يشرب فيها فى وعاء طعام أخيه الشقيق بنيامين ثم أمرهم بالسير ثم أرسل خلفهم عبده (ثم أذن مؤذن) أى نادى مناد مع رفع صوت مرارا كثيرا (أيتها العير) أى يا أصحاب الابل التى عليها الاحمال (انكم لسارقون) وهذا الكلام اما على سبيل الاستفهام واما على قصد المعاريض والمعنى انكم لسارقون ليوسف من أبيه ليكون المنادى مندوحا عن الكذب (قالوا) أى اخوة يوسف (وأقبلوا عليهم) أى والحال انهم التفتوا الى جماعة الملك المؤذن وأصحابه (ماذا تفقدون) أى أى شئ ضاع منكم (قالوا) أى أصحاب الملك (نفقد صواع الملك) أى نطلب اناء الملك الذى كان يشرب فيه ويكيل وانما اتخذ هذا الاناء مكيالا لعزة ما يكال به فى ذلك الوقت قال المؤذن (ولمن جاء به) أى بالاناء من عند نفسه مظهرا له قبل التفتيش (حمل بعير) من الطعام أجرة له (وأنا به) أى بالحمل (زعيم) أى كفيل أؤديه اليه لان الاناء كان من الذهب وقد اتهمنى الملك (قالوا تالله لقد علمتم) يا أهل مصر (ما جئنا لنفسد فى الارض) أى أرض مصر بحضرة الناس (وما كنا سارقين) لانه قد ظهر من أحوالهم امتناعهم من التصرف فى أموال الناس بالكلية لا بالاكل ولا بارسال الدواب فى مزارع الناس ولانهم لما وجدوا بضاعتهم فى رحالهم حملوها من بلادهم الى مصر ولم يستحلوا أخذها (قالوا) أى أصحاب يوسف

(فما جزاؤه) أى فما جزاء سرقة الصواع فى شريعتكم (ان كنتم كاذبين) فى نفى كون الصواع فيكم (قالوا) أى اخوة يوسف (جزاؤه من وجد فى رحله) أى جزاء سرقة الصواع هو أخذ الانسان الذى وجد الصواع فى متاعه (فهو جزاؤه) أى فاسترقاق ذلك الشخص سنة هو جزاء سرقته لا غير فأفتوا بشريعتهم (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء (نجزى الظالمين) بالسرقة فى ارضنا هذا من بقية كلام اخوة يوسف وقيل من كلام أصحاب يوسف جوابا لقول اخوته ذلك (فبدأ) أى يوسف بعد مارجعوا اليه (بأوعيتهم) أى بتفتيش أوعية الاخوة العشرة (قبل) تفتيش (وعاء أخيه) بنيامين لنفى التهمة روى أنه لما بلغت النوبة الى وعائه قال ما أظن هذا أخذ شيأ فقال اخوة يوسف والله لا نترك حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا (ثم استخرجها) أى الصواع (من وعاء أخيه) فقال له فرحك الله كما فرحتنى (كذلك كدنا ليوسف) أى كما ألهمنا اخوة يوسف ان جزاء السارق أن يسترق كذلك ألهمنا يوسف حتى دس الصواع فى رحل أخيه ليضمه اليه على ما حكم به اخوته (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك الا أن يشاء الله) أى لم يكن يوسف يأخذ أخاه فى حكم الملك بسبب من الاسباب لا بسبب مشيئة الله وهو حكم أبيه أى وكان حكم ملك مصر فى السارق أن يضرب و يغرم مثلى قيمة المسروق فما كان يوسف قادرا على حبس أخيه عند نفسه الا أن الله تعالى كاد له ما جرى على لسان اخوته ان جزاء السارق هو الاسترقاق (نرفع درجات من نشاء) وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتنوين والباقون بالاضافة أى نرفع رتبا كثيرة عالية من العلم من نشاء رفعه (وفوق كل ذى علم عليم) أى ان اخوة يوسف كانوا علماء فضلاء و يوسف كان زائدا عليهم فى العلم ففوق كل عالم عالم الى أن ينتهى العلم الى الله تعالى فليس فوقه أحد (قالوا) أى اخوة يوسف تبرئة لانفسهم (ان يسرق) أى بنيامين سقاية الملك (فقد سرق أخ له من قبل) أى قالوا للملك ان هذا الامر ليس بغريب من بنيامين فان أخاه الذى هلك كان سارقا أيضا قال سعيد بن جبير كان جد يوسف أبو أمه كافرا يعبد الاوثان فأمرته أمه بأن يسرق تلك الاوثان و يكسرها فلعله يترك عبادة الاوثان ففعل ذلك فهذا هو السرقة (فأسرها) أى اجابتهم (يوسف فى نفسه) أى فى قلبه (ولم يبدها) أى لم يظهر الاجابة (لهم قال) أى يوسف فى نفسه (أنتم شر مكانا) أى منزلة فى السرقة من يوسف حيث سرقتم أخاكم من أبيكم (والله أعلم بما تصفون) أى بحقيقة ما تذكرون من أمر يوسف هل يوجب عود مذمة اليه أم لا (قالوا) مستعطفين (يا أيها العزيز) أى ملك مصر (ان له) أى بنيامين (أبا شيخا كبيرا) فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو يفرح به ان رددناه (فخذ أحدنا مكانه) أى بدلا منه فى الاسترقاق (انا نراك من المحسنين) الينا فى حسن الضيافة ورد البضاعة الينا فأتمم احسانك الينا بهذه التتمة (قال معاذ الله) أى نعوذ بالله معاذا من (أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) لان أخذنا له انما هو بقضية فتواكم (انا اذا) أى ان أخذنا بريئا بمذنب (لظالمون) فى مذهبكم وما لنا ذلك ولهذا الكلام معنى باطن وهو ان الله تعالى انما أمرنى بالوحى أن آخذ بنيامين لمصالح يعلمها الله تعالى فلو أخذت غيره كنت عاملا بخلاف الوحى فصرت ظالما للنفس (فلما استيأسوا منه) أى من يوسف (خلصوا نجيا) أى تفردوا عن سائر الناس يتناجون (قال كبيرهم) فى السن وهو روبيل أو فى العقل وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون (ألم تعلموا) يا اخوتاه (أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) فى رد بنيامين اليه (ومن قبل ما فرطتم فى يوسف) فما مزيدة والجار والمجرور متعلق بفرطتم أى ومن قبل أخذكم العهد فى شأن بنيامين قصرتم

فى

فى شأن يوسف ولم تفوا بوعدكم على النصح والحفظ له أو مصدرية عطفا على مفعول تعلموا أى ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا وتفريطكم السابق فى شأن يوسف أو وتركم ميثاقه فى حق يوسف أو موصولة عطفا على مفعول تعلموا أيضا أى ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقا والذى قدمتموه فى حق يوسف من الخيانة العظيمة من قبل تقصيركم فى بنيامين (فلن أبرح الارض) أى فلن أفارق أرض مصر (حتى يأذن لى أبى) فى الرجوع اليه (أو يحكم الله لى) بالخروج منها على وجه لا يؤدى الى نقض الميثاق أو بخلاص أخى من يد العزيز بسبب من الاسباب (وهو خير الحاكمين) لانه لا يحكم الا بالعدل والحق روى أنهم كلموا العزيز فى اطلاق بنيامين فقال روبيل أيها الملك لتردن الينا أخانا أو لأصيحن صيحة لا تبقى بمصر حامل الا ألقت ولدها ووقفت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه فقال يوسف لابنه قم الى جنب روبيل فمسه فذهب ذلك الابن فمسه فسكن غضبه فقال روبيل ان هذا بذر من بذر يعقوب وهمّ أن يصيح فركض يوسف عليه السلام على الارض وأخذ بملابسه وجذبه فسقط على الارض وقال له أنتم يا معشر العبرانيين تزعمون أن لا أحد أشد منكم فلما رأوا ما نزل بهم ورأوا أن لا سبيل الى الخلاص خضعوا ثم قال لهم كبيرهم (ارجعوا) يا اخوتى (الى أبيكم) دونى (فقولوا) له متلطفين بخطابكم (يا أبانا ان ابنك سرق) صواع الملك من ذهب (وما شهدنا الا بما علمنا) أى رأينا ان الصواع استخرجت من وعائه (وما كنا للغيب) أى باطن الحال (حافظين) أى ان حقيقة الامر غير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله فلعل الصواع دس فى رحله ونحن لا نعلم ذلك (وأسأل القرية التى كنا فيها) أى واسئل أهل قرية من قرى مصر التى كنا فيها (والعير التى أقبلنا فيها) أى واسأل أصحاب الابل التى عليها الاحمال الذين جئنا معهم وهم قوم من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام (وانا لصادقون) فى أقوالنا فرجع التسعة الى أبيهم فقالوا له ما قال كبيرهم (قال) أى يعقوب (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) أى بل زينت لكم أنفسكم اخراج بنيامين عنى الى مصر طلبا للمنفعة فعاد من ذلك ضرر (فصبر جميل) أى فعلىّ صبر بلا جزع ولما رجع القوم الى يعقوب عليه السلام وأخبروه بالواقعة بكى وقال يا بنى لا تخرجون من عندى مرة الا ونقص بعضكم ذهبتم مرة فنقص يوسف ومرة ثانية نقص شمعون ومرة ثالثة نقص روبيل و بنيامين ثم بكى وقال (عسى الله أن يأتينى بهم) أى بيوسف وأخيه الشقيق وأخيه الذى توقف فى مصر (جميعا) فلا يتخلف منهم أحد وانما قال يعقوب هذه المقالة على سبيل حسن الظن بالله تعالى لانه اذا اشتد البلاء كان أسرع الى الفرج ولانه علم بما جرى عليه وعلى بنيه من رؤيا يوسف (انه هو العليم) بحالى وحالهم (الحكيم) أى الذى لم يبتلنى الا لحكمة بالغة (وتولى عنهم) أى وأعرض يعقوب عن بنيه حين بلغوه خبر بنيامين وخرج من بينهم كراهة لما سمع منهم (وقال يا أسفا) أى يا شدة حزنى (على يوسف) أى أشكو الى الله أسفى ولم يسترجع يعقوب أى لم يقل انا لله وانا اليه راجعون لان الاسترجاع خاص بهذه الامة (وابيضت عيناه من الحزن) أى ضعف بصره من كثرة البكاء فان الدمع يكثر عند غلبة البكاء فتصير العين كأنها بيضاء من بياض الماء الخارج منها (فهو كظيم) أى ممسك على حزنه فلا يظهره أو ممتلئ من الحزن أو مملوء من الغيظ على أولاده (قالوا) أى الجماعة الذين كانوا فى الدار من أولاد أولاده وخدمه (تالله تفتؤ تذكر يوسف) أى والله لا تزال تذكر يوسف (حتى تكون حرضا) أى فاسدا فى جسمك وعقلك (أو تكون من الهالكين) أى من الاموات فكأنهم قالوا أنت الآن فى بلاء شديد ونخاف عليك أن يحصل فيك ما هو أزيد منه وأرادوا بهذا القول منعه عن

كثرة البكا (قال) أى يعقوب لهم (انما أشكو بثى وحزنى الى الله) أى لاأذكر الحزن العظيم ولا الحزن القليل الامع الله (وأعلم من الله مالاتعلمون) أى أعلم من رحمته مالاتعلمون وهوانه تعالى يأتينى بالفرج من حيث لاأحتسب أى انه يعلم ان رؤيا يوسف صادقة وليعلم أن يوسف حى لان ملك الموت قال ان أطلبه ههنا وأشار الى جهة مصر ويعلم ان بنيامين لايسرق وقد سمع أن الملك ما آذاه وما ضربه فغلب على ظنه ان ذلك الملك هو يوسف فمن ذلك قال (يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) أى استعلموا بعض أخبار يوسف وأخيه بنيامين فان حالهما مجهولة وحياتهما مرجوة بخلاف حال روبيل (ولاتيأسوا من روح الله) أى لاتقنطوا من فرج الله وفضله وقرأ الحسن وقتادة من روح الله بضم الراء أى من رحمته (انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون) لان اليأس من رحمة الله تعالى لايحصل الا اذا اعتقد الانسان ان الاله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر فثبت ان اليأس لايحصل الا لمن كان كافرا أى فقبلوا من أبيهم تلك الوصية فعادوا الى مصر مرة ثالثة (فلما دخلوا عليه) أى يوسف (قالوا ياأيها العزيز) أى الملك القادر القوى (مسنا وأهلنا الضر) أى أصابنا ومن تركناهم وراءنا الهزال من شدة الجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) أى بدراهم رديئة لاتقبل فى ثمن الطعام وتقبل فيما بين الناس (فأوف لنا الكيل) أى أتممه لنا كما تتمم لنا بالدراهم الجياد (وتصدق علينا) بالمسامحة عن مابين الثمنين (ان الله يجزى المتصدقين) فى الدنيا والآخرة وروى انهم لما قالوا ذلك وتضرعوا اليه اغرورقت عيناه فعند ذلك (قال) مجيبا عما عرضوا به من طلب رد أخيهم بنيامين (هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه) أى ما أعظم ما أتيتم من أمر يوسف وأخيه من تفريق يوسف من أبيه وافراده عن أخيه لأبيه وأمه (اذ أنتم جاهلون) أى حال كونكم جاهلين عقبى فعلكم ليوسف من خلاصه من الجب وولايته السلطنة (قالوا) أى اخوته (أئنك لأنت يوسف) قرأ ابن كثير انك على لفظ الخبر وقرأ نافع أينك بفتح الالف غير ممدودة وبالياء وقرأ أبو عمرو آينك بعد الالف وهو رواية قالون عن نافع والباقون أئنك بهمزتين وكل ذلك على الاستفهام لانهم فهموا من فحوى كلامه عليه السلام أو من ابصار ثناياه وقت تبسمه عند تكلمه بذلك وقال من قرأ على الخبران الاخوة لم يعرفوا يوسف حتى رفع التاج عن رأسه فرأوا فى فرقه علامة تشبه الشامة البيضاء كما كان ليعقوب واسحق مثل ذلك فلما عرفوه بتلك العلامة قالوا ذلك (قال) جوابا لسؤالهم (أنا يوسف وهذا) أى بنيامين (أخى) أى شقيقى (قدمن الله علينا) بالجمع بيننا بعد التفرقة وبكل عز ولم يقل عليه السلام فى الجواب هو أنا بل صرح بالاسم تعظيما لمانزل به عليه السلام من ظلم اخوته وما عوضه الله من النصر والملك فكأنه قال أنا يوسف الذى ظلمتمونى على أعظم الوجوه وأنا العاجز الذى قصدتم قتله والله تعالى أوصلنى الى أعظم المناصب كما ترون فكان فى اظهار الاسم هذه المعانى ولهذا قال وهذا أخى مع انهم كانوا يعرفونه لان مقصوده عليه السلام أن يقول وهذا أيضا مظلوم ثم صار هو منعما عليه من الله تعالى كما ترون (انه) أى الشأن والحديث (من يتق) معاصى الله (ويصبر) على أذى الناس والمحن (فان الله لايضيع أجر المحسنين) ويقوم الظاهر مقام الضمير لاشتماله على النعتين اللذين هما التقوى والصبر (قالوا تالله لقد آثرك الله) أى فضلك الله (علينا) بالعلم والحلم والحسن والعقل والملك (وان كنا) أى وان الشأن كنا (لخاطئين) أى لمتعمدين فى الاثم فهم اعتذروا منه وتابوا (قال لاتثريب عليكم اليوم) خبر ثان أى انى حكمت فى هذا اليوم بان لاتوبيخ مطلقا وتقدير الكلام اليوم حكمت بهذا الحكم العام المتناول لكل الاوقات لان

لا تثريب نفي للماهية فيقتضي انتفاء جميع أفراد الماهية فذلك مفيد للنفي المشتمل لكل الاوقات (يغفر الله لكم) ما كان منكم (وهو أرحم الراحمين) يغفر الصغائر والكبائر أي لما بين يوسف لهم انه أزال عنهم ملامة الدنيا بعد اليوم طلب من الله أن يزيل عنهم عقاب الآخرة وروى أن اخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا اليه انك تحضرنا في مائدتك بكرة وعشيا ونحن نستحيي منك لما صدر منا من الاساءة اليك فقال يوسف عليه السلام ان أهل مصر وان ملكت فيهم كانوا ينظرون الي بالعين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ولقد شرفت الآن باتيانكم وعظمت في العيون لما علم الناس انكم اخوتي واني من حفدة ابراهيم عليه السلام فقال يوسف (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت) الي (بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين) من النساء والذراري والموالي وكانوا نحو سبعين انسانا وحمل القميص يهوذا وقال أنا أحزنته بحمل القميص ملطخا بالدم اليه فأفرحه كما أحزنته فحمله وهو حاف حاسر من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا (ولما فصلت العير) أي خرجت الابل التي عليها الاحمال لاخوة يوسف من العريش وهي قرية بين مصر وكنعان (قال أبوهم) يعقوب لمن حضر عنده من أولاد بنيه وقرابته (اني لأجد ريح يوسف) أي اني لاشم ريح الجنة من قميص يوسف (لولا أن تفندون) أي لولا ان تنسبوني الى الخرف وفساد الرأي من هرم لصدقتموني والتحقيق أن يقال انه تعالى أوصل تلك الرائحة الى سيدنا يعقوب على سبيل اظهار المعجزات لان وصول الرائحة اليه من المسافة البعيدة ثمانية أيام مثلا أمر مناقض للعادة فيكون معجزة له (قالوا) أي الحاضرون عنده (تالله انك لفي ضلالك القديم) أي لفي حبك الاول ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه وكان يوسف عندهم قدمات (فلما أن جاء البشير) وهو يهوذا بالقميص (ألقاه على وجهه) أي ألقى البشير القميص على وجه يعقوب (فارتد بصيرا) أي فصار يعقوب بصيرا العظم فرحه (قال ألم أقل لكم اني أعلم من الله مالا تعلمون) من حياة يوسف وان رؤياه صدق وان الله يجمع بيننا (قالوا) اعتذارا عما حصل منهم (يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا) أي اطلب لنا من الله غفر ذنوبنا (انا كنا خاطئين) أي متعمدين للاثم في أمر يوسف (قال سوف أستغفر لكم ربي) أي أدعو لكم ربي ليلة الجمعة وقت السحر (انه هو الغفور الرحيم) فقام الى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ منها رفع يديه وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عليه واغفر لاولادي ما فعلوه في حق يوسف فأوحى الله تعالى اليه اني قد غفرت لك ولهم أجمعين روى أن يوسف عليه السلام وجه الى أبيه جهازا ومائتي راحلة مع اخوته ليأتوا بجميع أهله الى مصر وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف فقد بورك فيهم كثيرا حتى بلغوا هذا العدد في مدة موسى مع أن بينه وبين يوسف أربعمائة سنة فخرج يوسف في أربعة آلاف من الجند لكل واحد منهم جبة من فضة وراية خز وقصب فتزينت الصحراء بهم واصطفوا صفوفا ولما صعد يعقوب ومعه أولاده وحفدته ونظر الى الصحراء مملوءة بالفرسان مزينة بالالوان فنظر اليهم متعجبا فقال جبريل انظر الى الهواء فان الملائكة قد حضرت سرورا بحالك وكانوا باكين محزونين مدة لاجلك وهاجت الفرسان بعضهم في بعض وصهلت الخيول وسبحت الملائكة وضربت بالطبول والبوقات فصار اليوم كأنه يوم القيامة وكان دخولهم في مصر يوم عاشوراء (فلما دخلوا على يوسف) في محل ضرب فيه يوسف خيامه حين خرج من مصر لتلقي أبيه (آوى اليه أبويه) أي ضم يوسف اليه أباه وخالته واعتنقهما فان أمه ماتت في النفاس

بأخيه بنيامين فعنى بنيامين بالعبرانية ابن الوجع ولما ماتت أمه تزوج أبوه بخالته فان الرابة تدعى أما
(وقال) أى يوسف لجميع أهله (ادخلوا مصر) للاقامة بها (ان شاء الله آمنين) على أنفسكم
وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحدا وكانوا فيما سلف يخافون ملوك مصر (ورفع أبويه على العرش)
أى لما نزلوا فى مصر أجلس يوسف أباه وخالته معه فى السرير الرفيع الذى كان يجلس عليه (وخروا له
سجدا) أى وخر والله سجدا شكرا لاجل يوسف واجتماعهم به وكان يوسف كالقبلة لهم كما سجدت
الملائكة لآدم فان الله أمر يعقوب بالسجود لحكمة خفية وذلك لان اخوة يوسف ربما حملهم التكبر عن
السجود على سبيل التواضع لا على سبيل العبادة ويوسف لم يكن راضيا بذلك السجود فى قلبه لكن لما علم
ان الله أمر يعقوب بذلك سكت ولان يعقوب علم أنهم لو لم يفعلوا ذلك لظهر الفتن والاحقاد القديمة بعد
كونها فالسجود لزوال الاستعلاء والنفرة عن قلوبهم وذلك جائز فى ذلك الزمان فلما جاءت هذه الشريعة
نسخت هذه الفعلة ويقال كان سجودهم تحيتهم فيما بينهم كهيئة الركوع نحو فعل الاعاجم (وقال)
أى يوسف (يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) أى هذا السجود تصديق رؤياى الكائنة من قبل
المصائب التى وقعت فكان يوسف يقول يا أبت لا يليق بمثلك على جلالتك فى العلم والدين والنبوة أن
تسجد لولدك الا أن هذا أمر أمرت به فان رؤيا الانبياء حق وذلك قوله تعالى حكاية عن قول يوسف (قد
جعلها ربى حقا) وكأنه قيل ليعقوب انك كنت دائم الرغبة فى وصال يوسف ودائم الحزن بسبب فراقه
فاذا وجدته فاسجد له فكان الامر بذلك السجود من تمام التشديد من الله تعالى على يعقوب عليه السلام
قال سلمان كان بين رؤياه وتأويلها أربعون عاما (وقد أحسن بى) أى وقد لطف بى محسنا الى (اذ
أخرجنى من السجن) انما ذكر اخراجه من السجن ولم يذكر اخراجه من الجب لئلا تخجل اخوته ولان
خروجه من السجن كان سببا الصير ورته ملكا ولوصوله الى أبيه واخوته ولزوال التهمة عنه وكان ذلك
من أعظم نعمه تعالى عليه (وجاء بكم من البدو) أى من البادية وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية
فسكنوا البادية وقال على بن طلحة أى من فلسطين (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى) أى
من بعد أن أفسد الشيطان بيننا بالحسد (ان ربى لطيف لما يشاء) أى مدبر لما يشاء من خفايا الامور
فاذا أراد الله حصول شىء سهل أسبابه فحصل وان كان فى غاية البعد عن الحصول عند العقول (انه هو
العليم) بالوجه الذى يسهل تحصيل ذلك الصعب (الحكيم) أى المحكم فى فعله مبرأ عن العبث والباطل
وروى أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعا وعشرين سنة فلما حضرته الوفاة أوصى الى ابنه يوسف أن
يحمل جسده الى الشام ويدفنه عند قبر أبيه اسحق فلما مات بمصر حمله يوسف وجعله فى تابوت من ساج
فوافق ذلك موت عيص أخى يعقوب وكانا قد ولدا فى بطن واحد فدفنا فى قبر واحد وكان عمرهما مائة
وسبعة وأربعين سنة فلما دفن يوسف أباه رجع الى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة فلما تم أمره
وعلم أن نعيم الدنيا لا يدوم سأل الله حسن العاقبة فقال (رب قد آتيتنى من الملك) أى بعضا منه وهو
ملك مصر (وعلمتنى من تأويل الاحاديث) أى بعضا من تعبير الرؤيا (فاطر السموات والارض) أى
يا خالقهما (أنت وليى) أى أنت الذى تتولى اصلاح جميع مهماتى (فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما)
دعا يوسف بذلك مع علمه بأن كل نبى لا يموت الا مسلما لاظهار العبودية والافتقار وشدة الرغبة فى طلب
سعادة الخاتمة وتعليما لغيره والمطلوب ههنا كمال حال المسلم وهو أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر
قلبه على ذلك الاستسلام ويرضى بقضاء الله وقدره ويكون مطمئن النفس منشرح الصدر منفسح القلب

في ذلك وهذه الحالة زائدة على الاسلام الذي هو ضد الكفر (وألحقني بالصالحين) أي بآبائي المرسلين ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب في ثوابهم ودرجاتهم في الجنة وولد ليوسف أفرايم وميشا وولد لافرايم نون وولد لنون يوشع فتى موسى عليه السلام ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة مصر بعد يوسف ولم يزل بنو اسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه الى أن بعث الله تعالى موسى عليه السلام (ذلك) أي خبر يوسف واخوته (من أنباء الغيب) الذي لا يحوم حوله أحد (نوحيه اليك وما كنت لديهم) أي عند اخوة يوسف (اذ أجمعوا أمرهم) أي حين عزموا على القائهم يوسف في غيابة الجب (وهم يمكرون) أي والحال انهم يحتالون بيوسف ويريدون بذلك قتل يوسف أي ذلك الخبر لا سبيل الى معرفتك اياه الا بالوحي وأما ما ينقله أهل الكتاب فلبس على ما هو عليه ومثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور الا بالحضور فيكون معجزا لان محمدا لم يطالع الكتب ولم يأخذ عن أحد من البشر وما كانت بلده بلد العلماء فاتيانه بهذه القصة على وجه لم يقع فيها غلط كيف لا يكون معجزا (وما أكثر الناس) وهم قريش واليهود (ولو حرصت) أي بالغت في طلب ايمانهم باظهار الآيات الدالة على صدقك (بمؤمنين) لاصرارهم على العناد روى أن اليهود وقريشا لما سألوا عن قصة يوسف وعدوا أن يسلموا فلما أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يسلموا حزن النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (وما تسألهم عليه) أي على تبليغ الانباء التي أوحينا اليك (من أجر) كما يفعله حملة الاخبار (ان هو) أي القرآن الذي أوحينا اليك (الا ذكر للعالمين) عامة أي عظة من الله تعالى لهم في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد والتكاليف والقصص فان الوعظ العام ينافي أخذ الاجر من البعض وهذا القرآن مشتمل على هذه المنافع العظيمة ولا تطلب منهم مالا فلو كانوا عقلاء لقبلوا منك (وكأين من آية) أي وكم من عدد شئت من العلامات الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته وعلمه وحكمته غير هذه الآية التي جئت بها كائنة (في السموات والارض) من الاجرام الفلكية وتغير أحوالها ومن الجبال والبحار وسائر ما في الارض من العجائب (يمرون عليها) أي يشاهدونها ولا يتأملون فيها وقرئ برفع والارض على الابتداء ويمرون عليها خبره وقرأ السدي بنصبها على معنى ويطؤن الارض (وهم عنها) أي الآية (معرضون) أي غير متفكرين فيها فلا عجب اذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك يا أشرف الخلق (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) أي لا يؤمن أكثرهم بوجود الله الا في حال شركهم فالكافرون مقرون بوجود الله لكنهم يثبتون له شريكا في المعبودية وعن ابن عباس ان أهل مكة قالوا الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته وقال عبدة الاصنام ربنا الله وحده والاصنام شفعاؤنا عنده وقالت اليهود ربنا الله وحده وعزير ابن الله وقالت النصارى ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابن الله وقال عبدة الشمس والقمر ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا وكل من هؤلاء لم يوحدوا بل أشركوا وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده ولا شريك معه (أفأمنوا) أي أهل مكة (أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) أي أفلم يخافوا أن تأتيهم في الدنيا عقوبة تشملهم (أو تأتيهم الساعة بغتة) أي فجاءة من غير سبق علامة (وهم لا يشعرون) باتيانها غير مستعدين لها (قل) يا أشرف الخلق لاهل مكة (هذه) أي الدعوة الى التوحيد والايمان بالاخلاص (سبيلي) أي ديني (أدعوا الى الله) بهذا الدين (على بصيرة) أي حجة واضحة (أنا ومن اتبعني) فادعوا اما مستأنف أو حال من الياء وعلى بصيرة اما حال من فاعل أدعوا أو من الياء وأنا اما توكيد للمستكن في أدعوا أو في على بصيرة ومن اتبعني عطف على فاعل أدعو وقال

صلى الله عليه وسلم العلماء أمناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون لما يدعونهم اليه (وسبحان الله) أى وأسبح سبحان الله (وما أنا من المشركين) الذين اتخذوا مع الله ضدا وولدا (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى) وهذا رد على أهل مكة حيث أنكروا نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا هلا بعث الله ملكا والمعنى كيف يتعجبون من ارسالنا اياك مع ان سائر الرسل الذين كانوا من قبلك بشر مثلك حالهم كحالك ولم يبعث الله رسولا من أهل البادية قال صلى الله عليه وسلم من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل وقرأ حفص عن عاصم نوحى بالنون مبنيا للفاعل والباقون بالياء مبنيا للمفعول (أفلم يسيروا) أى أهل مكة (فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أى كيف صار آخر أمر المكذبين للرسل والآيات من قبلهم فيعتبروا واعاحل بهم من عذابنا (ولدار الآخرة) أى الجنة (خير للذين اتقوا) معاصى الله (أفلا تعقلون) وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتاء على الخطاب لاهل مكة والباقون على الغيبة (حتى اذا استيأس الرسل) أى لا يغررهم تماديهم فيما هم فيه من الراحة والرخاء فان من قبلهم أمهلوا حتى آيس الرسل عن النصر عليهم فى الدنيا (وظنوا أنهم قد كذبوا) قرأ عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف الذال المكسورة والمعنى وظن القوم أن الرسل أخلفوا فى وعدهم بالنصر أى أخلف الله وعده لرسلهم بالنصر وقرأ الباقون بالتشديد والمعنى وظن الرسل أنهم قد كذبهم الامم الذين آمنوا بهم بما جاؤا به من الله وهذا التأويل منقول عن عائشة رضى الله عنها وهو أحسن الوجوه وقالت ان البلاء لم يزل من الانبياء حتى خافوا من أن يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم (جاءهم نصرنا) لهم بهلاك أعدائهم (فنجى من نشاء) هم الرسل والمؤمنون بهم وقرأ ابن عامر وعاصم بنون واحدة فعل ماض مبنى للمفعول والباقون بنونين الثانية ساكنة وبسكون الياء فعل مضارع (ولا يرد بأسنا) أى عذابنا (عن القوم المجرمين) أى المشركين اذا نزل بهم (لقد كان فى قصصهم) بفتح القاف اى قصص يوسف واخوته وأبيه عليهم السلام وقرئ بكسر القاف أى قصص الانبياء وأممهم (عبرة) أى عظة عظيمة (لأولى الالباب) أى لذوى العقول الذين انتفعوا بمعرفتها (ما كان) أى هذا القرآن فقد تقدم ذكره فى قوله تعالى انا أنزلناه قرآنا عربيا (حديثا يفترى) فلا يصح من محمد ان يختلق فيه ولا يصح الكذب من القرآن فليس بكذب فى نفسه (ولكن تصديق الذى بين يديه) أى ولكن كان القرآن مصدق الكتب التى قبله (وتفصيل كل شئ) أى ومبين الحلال والحرام وسائر ما يتصل بالدين (وهدى) فى الدنيا من الضلالة (ورحمة) أى سببا لحصول الرحمة من العذاب يوم القيامة (لقوم يؤمنون) أى يصدقونه فانه المنتفعون به

﴿سورة الرعد مكية الا آيتين فهما مدنيتان وهما قوله تعالى ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة الآية وقوله تعالى ويقول الذين كفروا الى ومن عنده علم الكتاب وقيل مدنية سوى قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال الآيتين وآياتها خمس وأربعون وكلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم المر) اسم للسورة أى هذه السورة مسماة بهذا الاسم وقال ابن عباس فى رواية عطاء معناه أنا الله الملك الرحمن وقال فى رواية غيره أنا الله أعلم وأرى ما تعملون وتقولون (تلك) أى آيات السورة المسماة بالمر (آيات الكتاب) أى الكتاب العجيب الكامل (والذى أنزل اليك من ربك)

وهو القرآن (الحق) أى هو المطابق للواقع فى كل ما نطق به (ولكن أكثر الناس) أى مشركى مكة (لا يؤمنون) بالقرآن لاخلالهم بالنظر (الله الذى رفع السموات بغير عمد) أى بغير دعائم (ترونها) كلام مستأنف أو حال من السموات أى وأنتم ترون السموات مرفوعة بلاعماد أو صفة لعمد والمعنى ان الله رفع السموات بغير عمد مرئية لكم من العيوب بل لها عمد غير مرئية وهى قدرة الله تعالى أى اغا بقيت السموات واقفة فى الجو العالى بقدرة الله تعالى (ثم استوى على العرش) أى استولى الله على العرش بالحفظ والتدبير وظهر تصرفه فى هذه الاشياء بعد خلق السموات ويقال السلطان للملك اذا استقام أمره انه استوى على عرشه أى سريره الذى يجلس عليه فالاستواء على العرش كناية عن جريان التدبير والحكم (وسخر الشمس والقمر) أى وذللهما لمنافع الخلق (كل) منهما (يجرى) فى فلكه حسب ما أريد منهما (لأجل مسمى) لمدة معينة فيها تتم دورته قال ابن عباس للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم فى ستة أشهر ثم انها تعود مرة أخرى الى واحد منها فى ستة أشهر أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا فالله تعالى قدر لكل واحد منهما سيرا خاصا الى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء فلزم ان يكون لهما بحسب كل لحظة حالة أخرى لم تكن حاصلة قبل ذلك (يدبر الامر) أى يدبر أمر الخلق بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والاغناء والافقار وبانزال الوحى وبعثة الرسل وتكاليف العباد (يفصل الآيات) أى يحدث الله بعض الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته عقب بعض على سبيل التمييز والتفصيل (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) أى لكى تصدقوا بالبعث بعد الموت فهذه الدلائل المذكورة كما تدل على وجود الصانع تدل على صحة القول بالحشر والنشر لان من قدر على خلق هذه الاشياء وتدبيرها على كثرتها فلان يقدر على النشر والحشر أولى وروى ان رجلا قال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه كيف يحاسب الله الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة (وهو الذى مد الارض) أى بسطها طولا وعرضا على الماء (وجعل فيها) أى الارض (رواسى) أى جبالا ثوابت أوتادا لها (وأنهارا) أى مجارى للماء واسعة لمنافع الخلق (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) أى وجعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة فى الدنيا صنفين اما فى اللون كالابيض والاسود أو فى الطعم كالحلو والحامض أو فى القدر كالكبير والصغير أو فى الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك (يغشى الليل النهار) أى يستر النهار بالليل (ان فى ذلك) المذكور من مد الارض وايتادها بالرواسى واجراء الانهار وخلق الثمرات واغشاء الليل النهار (لآيات) دالة على وحدانية الله تعالى (لقوم يتفكرون) فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب (وفى الارض قطع) أى بقاع مختلفة فى الاوصاف (متجاورات) أى متقاربات فمنها أرض سبخة رديئة وبجنبها أرض عذبة جيدة ومنها صلبة وبقربها رخوة الى غير ذلك والاختلاف من دلائل قدرته تعالى (وجنات) أى بساتين (من أعناب وزرع ونخيل صنوان) أى تنبت من أصل واحد ثلاث نخلات فأكثر أى يجمع أصول الاربعة مثلا فى أصل واحد (وغير صنوان) أى هو مفترق أصولها واحدة واحدة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان كلها بالرفع عطفا على قوله وجنات والباقون بالجر عطفا على أعناب وقرأ حفص عن عاصم فى رواية القواس صنوان بضم الصاد والباقون بكسرها (يسقى بماء واحد) فى الطبع سواء كان السقى بماء الامطار أو بماء الانهار قرأ عاصم وابن عامر يسقى بالياء أى كل المذكور

من القطع ومابعده والباقون بالتاء أى جنات (ونفضل بعضها) أى الجنات (على بعض فى الاكل) بضم الهمزة أى فى المهيأ للا كل طعما وشكلا ورائحة وحلاوة وحموضة ولونا وقدرا ونفعا وضرا وقرأ حمزة والكسائى يفضل بالياء عطفا على يدبر والباقون بالنون (ان فى ذلك) أى المفصل من أحوال القطع والجنات (لآيات) أى دلالات كثيرة ظاهرة (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم فى التدبر (وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد) أى وان تعجب يا أكرم الخلق من تكذيبهم اياك بعدما كانوا قد حكموا عليك انك من الصادقين فحقيق بالعجب قولهم أنعاد خلقا جديدا بعد الموت وبعد أن صرنا ترابا وفينا الروح كما كنا قبل الموت فانهم عرفوا ان الله على كل شئ قدير فمن كانت قدرته وافية بهذه الاشياء العظيمة كيف لا تكون وافية باعادة الانسان بعد موته لان القادر على الاقوى قادر على الاضعف بالاولى (أولئك) أى المنكرون لقدرته تعالى على البعث بعدما عاينوا الآيات الباهرة (الذين كفروا بربهم) لانهم أنكروا قدرته وعلمه وصدقه فى خبره (وأولئك) أى أهل الكفر (الاغلال فى أعناقهم) يوم القيامة (وأولئك) أى أهل الاغلال (أصحاب النار) أى سكان النار (هم فيها) أى النار (خالدون) لا ينفكون عنها (ويستعجلونك) استهزاء منهم (بالسيئة) أى بنزول العذاب عليهم (قبل الحسنة) أى قبل طلب الاحسان اليهم بالامهال وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يهددهم تارة بعذاب القيامة وتارة بعذاب الدنيا فكلما هددهم بعذاب القيامة أنكروا البعث والجزاء وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا له استهزاء بانذاره فجئنا بهذا العذاب (وقد خلت من قبلهم المثلات) أى والحال انه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بها (وان ربك لذو مغفرة للناس) أى لذو امهال لهم وتأخير للعذاب منهم (على ظلمهم) أى حال كونهم ظالمين أنفسهم بالمعاصى (وان ربك لشديد العقاب) فيعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخير ما استعجلوه ليس للاهمال (ويقول الذين كفروا) وهم المستعجلون بالعذاب أيضا (لولا أنزل عليه آية من ربه) أى قالوا اعنادا هلا أنزل على محمد من ربه علامة لنبوته كما أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام قال تعالى له صلى الله عليه وسلم ازالة لرغبته فى حصول مقترحاتهم (انما أنت منذر) أى انما أنت يا أشرف الخلق رسول مخوف من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون ولا حاجة الى الزامهم باتيان ما اقترحوا من الآيات (ولكل قوم هاد) أى نبى مخصوص له هداية مخصوصة فلما كان الغالب فى زمان موسى هو السحر جعل معجزته من جنس ذلك وهو العصا واليد ولما كان الغالب فى أيام عيسى الطب جعل معجزته ما كان من جنس ذلك وهو احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص ولما كان الغالب فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم الفصاحة جعل معجزته ما كان لائقا بذلك الزمان وهو فصاحة القرآن فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم فبان لا يؤمنوا عند اظهار سائر المعجزات أولى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) من حين العلوق الى زمن الولادة من أى شئ تحمل وعلى أى حال (وما تغيض الارحام وما تزداد) أى فى عدد الولد واحد واثنين وثلاثة وأربعة وفى جثته فقد يكون الولد مخدجا وتاما وفى مدة ولادته فقد يكون مدة الحمل تسعة أشهر وأزيد عليها الى سنتين عند أبى حنيفة والى أربعة سنين عند الشافعى والى خمسة عند مالك (وكل شئ) من الاشياء (عنده) أى فى علمه تعالى (بمقدار) أى بحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه (عالم الغيب) أى ما غاب عن العباد (والشهادة) أى ما علمه العباد (الكبير) أى العظيم الذى يصغر غيره بالنسبة الى كبريائه (المتعال) أى المنزه عن كل ما لا يجوز عليه فى ذاته (سواء

منكم

To: www.al-mostafa.com

منكم من أسر القول) في نفسه فلم يظهره على أحد (ومن جهر به) أي أظهره لغيره وقال ابن عباس أي سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الالسنة (ومن هو مستخف) أي مستتر (بالليل وسارب) أي بارز يراه كل أحد (بالنهار) وقال مجاهد أي وسواء من أقدم على القبائح سرا في ظلمات الليل ومن أتى بها ظاهرا بالنهار أي فان علمه تعالى محيط بالكل (له) أي لكل من أسر أو جهر والمستخفي والسارب أو لعالم الغيب والشهادة (معقبات) أي ملائكة حفظة يعقب بعضهم بعضا في المجيء الى من ذكر ويعقبون أقواله وأفعاله بالكتب (من بين يديه ومن خلفه) أي يحيطون بمن ذكر فيعدون عليه أعماله وأقواله ولا يشذ من حفظهم اياها شيء أصلا (يحفظونه) أي من ذكر (من أمر الله) أي من بأس الله حين أذنب بالاستمهال أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله وقد قرئ به أو بسبب أمر الله كما تدل له قراءة علي وابن عباس وزيد بن علي وعكرمة بأمر الله (ان الله لا يغير ما بقوم) من أمن ونعمة (حتى يغيروا ما بأنفسهم) بترك الشكر (واذا أراد الله بقوم سوأ) أي هلاكا (فلا مرد له) أي لم تغن المعقبات شيأ فلا راد لعذاب الله ولا ناقض لحكمه (ومالهم من دونه) أي من غير الله (من وال) أي مانع من عذاب الله الذي أراده بهم بتغيير ما بهم (هو الذي يريكم البرق) وهو لمعان يظهر من خلال السحاب (خوفا) أي خائفين من وقوع الصواعق (وطمعا) أي وطامعين في نزول الغيث أو ذا خوف لمن له فيه المطر ضرر كالمسافر ومن يجفف التمر والزبيب والقمح وذا طمع لمن له فيه نفع كالحراث (وينشئ السحاب) أي ويرفع الغمام المنسحب في الجو (الثقال) بالماء (ويسبح الرعد بحمده) قيل الرعد اسم ملك موكل بالسحاب والصوت المسموع لنا هو صوته بالتسبيح وقيل هو صوت الآلة الذي يتولد عند ضرب السحاب بها وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان اليهود سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق أي آلات من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله قالوا فما الصوت الذي نسمع قال زجره السحاب ويقال الرعد صوت السحاب وتسبيحه هو دلالته على وحدانية الله تعالى وفضله المستلزم لحمده (والملائكة من خيفته) أي وتسبح جميع الملائكة من هيبة الله تعالى وفي رواية عن ابن عباس الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث يؤمر وانه يحوز الماء في نقرة ابهامه وانه يسبح الله تعالى فاذا سبح لا يبقى ملك في السماء الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر (ويرسل الصواعق) وهي نيران تنشأ من السحاب (فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله) أي في شأن الله (وهو شديد المحال) أي العقاب نزلت هذه الآية في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخي لبيد بن ربيعة فانهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم يخاصمانه ويريدان الفتك به صلى الله عليه وسلم فقال أربد أخو لبيد اخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد فلما رجع أرسل الله عليه صاعقة في يوم صحو صائف فأحرقته ورمى عامرا بغدة كغدة البعير فمات على ظهر فرسه وعن الحسن أنه قال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه النبي صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه الى الله تعالى ورسوله فقال لهم اخبروني من رب محمد هذا الذي تدعونني اليه فهل هو من ذهب أم من فضة أم من حديد أم من نحاس فاستعظموا مقالته فرجعوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا اليه فرجعوا اليه فقال أجيب محمدا الى رب لا أراه ولا أعرفه فرجعوا اليه صلى الله عليه وسلم وقالوا يا رسول الله ما زادنا على مقالته الاولى بل أخبث منها فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا اليه فرجعوا اليه فبينما هم عنده ينازعونه ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق

الكافر وهم جلوس عنده فرجعوا ليخبروا النبي صلى الله عليه وسلم بالخبر فاستقبلهم الاصحاب فقالوا احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم قالوا أوحى الله الى النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ويرسل الصواعق الخ (له دعوة الحق) أي لله الدعوة المطابقة للواقع حيث جعلها افتتاح الاسلام بحيث لا يقبل بدونها وهي شهادة أن لا اله الا الله وهي كلمة الاخلاص (والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء) أي والاصنام الذين يعبدهم الكفار من غير الله لا يستجيبون لهم بشيء من طلباتهم الا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد (ليبلغ فاه وما هو ببالغه) أي ليبلغ الماء بنفسه من غير أن يغترف الى فيه وما الماء ببالغ فيه أبدا لكونه جمادا لا يشعر بعطشه ولا يبسط يده اليه فكما لا يبلغ الماء في هذا الرجل العطشان كذلك لا تنفع الاصنام من عبدها (وما دعاء الكافرين الا في ضلال) أي وما عبادة الكافرين الا في ضياع لا منفعة فيها لانهم ان عبدوا الاصنام لم يقدروا على نفعهم وان عبدوا الله لم يقبل منهم لاشراكهم (ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها) أي ولله يعبد من في السموات ومن في الارض من الملائكة وبعض المؤمنين من الثقلين حال كونهم طائعين بسهولة ونشاط وحال كونهم كارهين للعبادة بمشقة لصعوبة ذلك على بعض المؤمنين (وظلالهم بالغدو والآصال) أي ولله يسجد ظلال من يسجد غدوة عن ايمانهم وعشية عن شمائلهم (قل) يا أشرف الخلق لقومك (من رب السموات والارض قل الله) أمر الله رسوله بهذا الجواب اشعارا بأنه متعين للجوابية وبأنهم لا ينكرونه البتة ثم ألزمهم الحجة فقال (قل أفاتخذتم من دونه أولياء) أي أبعد اقراركم هذا عبدتم من غير الله أربابا (لا يملكون لأنفسهم نفعا) يستجلبونه (ولا ضرا) يدفعونه عن أنفسهم فبالاولى أن يكونوا عاجزين عن تحصيل المنفعة للغير ودفع المضرة عن الغير فاذا عجزوا عن ذلك كانت عبادتهم محض العبث والسفه (قل هل يستوي الاعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور) أي قل لهم هل يستوي الجاهل بمستحق العبادة والعالم بذلك وهل يستوي الجهل بالحجة والعلم بها (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) أي بل أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا العبادة كما استحقها أي هذه الاشياء التي زعموا انها شركاء لله ليس لها خلق يشبه خلق الله حتى يقولوا انها تشارك الله في كونها خالقة فوجب أن تشاركه في الالوهية واستحقاق العبادة بل هؤلاء المشركون يعلمون بالضرورة ان هذه الاصنام لم يصدر عنها فعل البتة واذا كان الامر كذلك كان حكمهم بكونها شركاء لله في الالوهية محض الجهل (قل الله خالق كل شيء) فلا شريك له في الخلق فلا يشاركه في استحقاق العبادة أحد (وهو الواحد) أي المتفرد بالالوهية (القهار) لكل ما سواه (أنزل من السماء) أي من جهتها (ماء فسالت) بذلك الماء (أودية) أي أنهار (بقدرها) من الماء فان صغر الوادي قل الماء وان اتسع الوادي كثر الماء (فاحتمل السيل) أي الجاري (زبدا) أي غثاء (رابيا) أي منتفخا فوق الماء (ومما يوقدون عليه في النار) أي من الجواهر كالنحاس والذهب والفضة (ابتغاء حلية أو متاع) أي لطلب اتخاذ زينة أو اتخاذ متاع كالاواني (زبد) أي خبث (مثله) أي مثل وسخ الماء في أن كلا منهما شيء من الاكدار (كذلك) أي مثل هذا التبيين الامور الاربعة الماء والجوهر والزبدين (يضرب الله الحق والباطل) أي يبين الله مثل الايمان والكفر (فأما الزبد) من الماء والجوهر (فيذهب جفاء) أي يرميه الماء الى الساحل ويرميه الكير (وأما ما ينفع الناس) من الماء الصافي والفلز الخالص (فيمكث في الارض) فالماء

يثبت

يثبت بعضه فى منافعه ويسلك بعضه فى عروق الارض الى العيون والآبار والفلز يصاغ من بعضه أنواع الحلى ويتخذ من بعضه أصناف الآلات فينتفع بكل من ذلك مدة طويلة والحاصل أن القرآن شبه بالماء فالله أنزله من سماء الكبرياء والاحسان وشبهت القلوب المنورة بالاودية لان القلوب تستقر فيها أنوار علوم القرآن كما ان الاودية يستقر فيها الماء فيحصل فى كل قلب من أنوار علوم القرآن ما يليق به من قوة فهمه وقصوره كما يحصل فى كل واد من مياه الامطار ما يليق به من سعته وضيقه وكما ان الماء يعلوه وضر والفلز يخالطه خبث ثم ان ذلك يذهب ويبقى الخالص منه كذلك بيانات القرآن تختلط بها شبهات ثم تزول ويبقى العلم والدين فى الآخر وشبهت القلوب المظلمة بالسيل أى فاحتملت القلوب المنورة الحق بقدر سعتها بالنور واحتملت القلوب المظلمة باطلا كثيرا بهواها (كذلك) أى مثل ذلك الضرب العجيب (يضرب الله الامثال) أى يبين الله أمثال الحق والباطل فيجعلها فى غاية الوضوح (للذين استجابوا لربهم الحسنى) أى للذين أجابوا ربهم الى ما دعاهم اليه من التوحيد والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله المنفعة الدائمة الخالصة عن شوائب المضرة المقرونة بالاجلال وهى الجنة (والذين لم يستجيبوا له لو أن ما لهم ما فى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) أى والاشقياء الذين عاندوا الحق الجلى لو أن لهم ما فى الارض من أصناف الاموال جميعا لجعلوا ما فى الارض ومثله فداء أنفسهم من العذاب لان محبوب كل انسان ذاته فاذا كانت فى ضرر وكان مالكا لكل شئ فانه يرضى أن يجعل جميع ملكه فداء لها لانه حب ما سواها ليكون وسيلة الى مصالحها (أولئك لهم سوء الحساب) بأن يحاسبوا بكل ذنب فلا يغفر منه شئ (ومأواهم جهنم وبئس المهاد) أى المستقر هى (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى) أى أفمن يعلم أن القرآن الذى مثل بالماء النازل من السماء وبالابريز الخالص فى المنفعة هو الحق كمن لا يعلم (انما يتذكر أولوا الالباب) أى انما يتعظ بالقرآن وينتفع بهذه الامثلة ذوو العقول الذين يطلبون من كل صورة معناها (الذين يوفون بعهد الله) أى بما كلف الله العبد به فيدخل فيه الاتيان بجميع المأمورات والوفاء بالعقود فى المعاملات وأداء الامانات (ولا ينقضون الميثاق) وهو ما التزمه العبد من أنواع الطاعات بحسب اختيار نفسه كالنذر بالطاعات والخيرات (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) وهو رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد فيدخل فيه صلة الرحم والقرابة الثابتة بسبب اخوة الايمان وعيادة المريض وشهود الجنائز وافشاء السلام على الناس والتبسم فى وجوههم وكف الاذى عنهم ويدخل فى العباد كل حيوان حتى الدجاجة والهرة (ويخشون ربهم) والخشية نوعان خوف من أن يقع خلل فى طاعاته وخوف هيبة وان كان العبد فى عين طاعته (ويخافون سوء الحساب) فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا (والذين صبروا) على فعل العبادات وعلى ثقل الامراض والمضار والغموم وعلى ترك المشتهيات (ابتغاء وجه ربهم) أى طلبا لرضاه خاصة من غير أن ينظروا الى جانب الخلق رياء وسمعة ولا الى جانب النفس زينة وعجبا فكما ان العاشق يرضى بضرب معشوقه لالتذاذه بالنظر الى وجهه فكذلك العبد يرضى بالمحنة لاستغراقه فى معرفة نور الله تعالى (وأقاموا الصلاة) وأفردها بالذكر تنبيها على كونها أشرف من سائر العبادات ولا يمتنع ادخال النوافل فيها (وأنفقوا) نفقة واجبة ومندوبة (مما رزقناهم سرا) لمن لم يعرف بالمال أو لمن لا يتهم بترك الزكاة أو عند اعطائه من تمنعه المروءة من أخذه ظاهرا أو فى التطوع (وعلانية) لغير ذلك (ويدرؤن بالحسنة السيئة) أى يدفعون المعصية بالتوبة ولا يجازون الشر بالشر بل يجازون الشر بالخير (أولئك لهم عقبى الدار) أى عاقبة

الدنيا ومرجع أهلها (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أي يدخل جنات عدن المنعوتون بتلك النعوت الجليلة ومن آمن كما آمنوا من أصولهم وان علوا ذكورا كانوا أو أناثا ومن أزواجهم اللاتي متن في عصمتهم وذرياتهم وان لم يعمل مثل أعمالهم لان الله تعالى جعل من ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه في الجنة وانما يلحق بهم من آمن من أهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم كرامة لهم وتعظيما لشأنهم وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وقوله جنات عدن بيان لعقبى أو خبر مبتدا مضمر (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) لكل واحد منهم خيمة من درة مجوفة لها أربعة آلاف باب لكل باب مصراع من ذهب يدخل عليهم من كل باب ملائكة يقولون لهم (سلام عليكم) أي سلمكم الله دعاء لهم وبشارة بدوام السلامة (بما صبرتم) متعلق بعليكم أو بمحذوف أي هذه الكرامة العظمى بسبب صبركم على الطاعات وترك المحرمات وعلى المحن (فنعم عقبى الدار) أي نعم عاقبة الدار التي كنتم عملتم فيها هذه الكرامات التي ترونها (والذين ينقضون عهد الله) أي لا يعملون مقتضى الادلة (من بعد ميثاقه) أي من بعد أن وثق الله تلك الادلة أو المعنى يتركون فرائض الله من بعد توكيده (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) أي ما أوجب الله وصله فيدخل فيه وصل الرسول بمعاونة دينه ووصل سائر من له حق (ويفسدون في الارض) بالدعاء الى غير دين الله وبالظلم في النفوس والاموال (أولئك) أي الموصوفون بالقبائح (لهم اللعنة) أي الابعاد من خيري الدنيا والآخرة الى نقمة (ولهم سوء الدار) أي سوء عاقبة الدنيا (الله يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن يشاء) من عباده (ويقدر) أي يعطي من يشاء منهم بقدر كفايته لا يفضل عنه شيء أي ان فتح باب الرزق في الدنيا لا تعلق له بالكفر والايمان بل هو متعلق بمجرد مشيئته تعالى فقد يوسع على الكافر استدراجا ويضيق على المؤمن امتحانا لصبره وتكفيرا لذنوبه فالدنيا دار امتحان (وفرحوا) أي فرح من بسط الله له رزقه من كفار مكة فرح بطر (بالحياة الدنيا) لا فرح سرور بفضل الله تعالى (وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع) أي انهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة والحال ان ما بطروا به في مقابلة ما أعرضوا عنه شيء قليل النفع سريع النفاد كمتاع البيت وزاد الراعي (ويقول الذين كفروا) أي أهل مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) أي هلا أنزل على محمد من ربه علامة لنبوته كما كانت للرسل الاولين (قل) لهؤلاء المعاندين (ان الله يضل من يشاء) عن دينه (ويهدي اليه) أي يرشد الى دينه (من أناب) أي من أقبل اليه أي ما أعظم عنادكم في الآيات التي ظهرت على يد الرسول ان الله يضل من كان على صفتكم من شدة الشكيمة على الكفر فلا سبيل الى اهتدائهم وان أنزلت عليهم كل آية طلبوها ويهدي اليه بأدنى آية جاء بها الرسول من كان على خلاف صفتكم (الذين آمنوا) بما جاء به الرسول (وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أي بكلام الله أي ان علم المؤمنين بكون القرآن معجزا يوجب حصول الطمأنينة لهم في كون محمد صلى الله عليه وسلم نبيا حقا من عند الله وان شكهم في انهم أتوا بالطاعات كاملة يوجب الوجل في قلوبهم (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أي ان الاكسير اذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسي انقلب ذهبا باقيا على كر الازمان فاكسير جلال الله تعالى اذا وقع في القلب أولى ان يقلبه جوهرا صافيا نورانيا لا يقبل التغير (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم) روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده تنبت الحلي والحلل وان أغصانها لترى من وراء سور الجنة ويقال طوبى شجرة في الجنة ساقها من من ذهب وثمرها من كل لون وثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها فتنبت الحلي والحلل وأصلها في دار النبي

صلى الله عليه وسلم وأغصانها متدليات فى كل دار وغرفة فى الجنة وتحتها كثبان المسك والعنبر والزعفران وينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل (وحسن مآب) أى مقر (كذلك) أى مثل ارسالنا الأنبياء الى أمم واعطائنا اياهم كتبا تتلى عليهم (أرسلناك فى أمة) أى الى جماعة كثيرة (قد خلت من قبلها أمم) أى قد تقدمتها أمم كثيرة (لتتلو عليهم) أى على أمتك (الذى أوحينا اليك) فلماذا اقترحوا غيره (وهم) أى والحال ان أمتك (يكفرون بالرحمن) الذى رحمته وسعت كل شىء وما بهم من نعمة فمنه وكفروا بنعمته فى ارسال مثلك اليهم وفى انزال هذا القرآن المعجز عليهم روى الضحاك عن ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن أى اخضعوا بالصلاة وغيرها للرحمن أى الذى لا نعمة لكم الا منه قالوا وما الرحمن متجاهلين فى معرفته فضلا عن معرفة نعمته معبرين بأداة ما لا يعقل قال الله تعالى (قل) لهم يا أشرف الخلق (هو) أى الرحمن الذى أنكرتم معرفته (ربى) أى خالقى ومبلغى الى مراتب الكمال (لا اله الا هو) أى لا مستحق للعبادة سواه (عليه توكلت) فى جميع أمورى لا على أحد سواه (واليه متاب) أى مرجعى فى الآخرة (ولو أن قرآنا سيرت به) أى زعزعت بتلاوته (الجبال) من أماكنها كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه السلام (أو قطعت به الارض) أى شققت وجعلت أنهارا وعيونا كما فعل بالحجر حين ضربه موسى بعصاه أو جعلت قطعا بعيدة (أو كلم به الموتى) بعد ان أحييت بقراءته عليها كما أحييت لعيسى عليه السلام لكان هو هذا القرآن لكونه ينطوى على عجائب آثار قدرة الله تعالى روى ان أهل مكة منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أمية قعدوا فى فناء الكعبة فأتاهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض الاسلام عليهم فقال له عبد الله بن أمية المخزومى ان سرك ان نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فادفعها عنا حتى ينفسح المكان علينا لانها ضيقة لمزارعنا واجعل لنا فيها أنهارا وعيونا لنغرس الاشجار ونزرع فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال تسير معه أو سخر لنا الريح لنركبها الى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع فى يومنا كما سخرت لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان كما زعمت أو أحى لنا جدك قصيا لنسأله أحق ما تقول أم باطل فان عيسى كان يحيى الموتى ولست بأهون على الله منه فأنزل الله تعالى هذه الآية ولو أن قرآنا الخ (بل لله الامر جميعا) أى بل لله الامر الذى يدور عليه فلك الاكوان وجودا وعدما ان شاء فعل وان شاء لم يفعل فالله قادر على الاتيان بما اقترحوه من الآيات الا ان ارادته لم تتعلق بذلك لعلمه بانه لا تلين له شكيمتهم (أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) أى أغفل المؤمنون عن كون الامر جميعا لله تعالى فلم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هداية جميع الناس الى دينه لهداهم لكنه تعالى لم يشأها فلم يظهر ما اقترحوا من الآيات قيل لما سأل الكفار تلك الآيات طمع المؤمنون فى ايمانهم فطلبوا نزولها ليؤمنوا وعلم الله انهم لا يؤمنون برؤيتها (ولا يزال الذين كفروا) من أهل مكة (تصيبهم بما صنعوا) من سوء أعمالهم (قارعة) أى داهية تقرعهم بما ينزل الله عليهم فى كل وقت من أنواع البلايا والمصائب فى نفوسهم وأولادهم وأموالهم (أو تحل قريبا من دارهم) أى أو تنزل تلك القارعة مكانا قريبا منهم فيفزعون منها (حتى يأتى وعد الله) وهو موتهم أو القيامة (ان الله لا يخلف الميعاد) اى الوعد والمقصود من هذا تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وازالة الحزن عنه (ولقد استهزئ برسل من قبلك) أى ان أقوام سائر الانبياء استهزؤا بهم كما ان قومك استهزؤا بك (فأمليت للذين كفروا) أى فتركتهم بعد الاستهزاء مدة طويلة فى راحة وأمن (ثم أخذتهم) بالعقوبة (فكيف كان عقاب)

أى على أى حالة كان عقابنا اياهم هل كان ظلما لهم أوكان عدلا (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى أفمن هو حافظ كل نفس مع ماعملت من خير وشر وهو الله القادر على كل الممكنات العالم بجميع الجزئيات والكليات كالاصنام التى لا تضر ولا تنفع (وجعلوا) أى الكفار (لله شركاء قل سموهم) أى سموهم بالآلهة وهذا أمر على سبيل التهديد والمعنى سواء سميتموهم بهذا الاسم أولم تسموهم به فانها لا تستحق ان يلتفت العاقل اليها لحقارتها (أم تنبؤنه بما لا يعلم فى الارض أم بظاهر من القول) أى أتقدرون على ان تخبروا الله بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى أم تتفوهون باظهار قول من غير اعتبار معنى أى أتقولون بأفواهكم من غير فكر وأنتم ألباء فتفكروا فى ذلك لتعلموا بطلانه وانما خص بنفى الشريك عن الارض وان لم يكن له تعالى شريك البتة لان الكفار ادعوا ان له تعالى شركاء فى الارض لا فى غيرها (بل زين للذين كفروا مكرهم) أى تمويههم الاباطيل فانهم أظهروا أن شركاءهم آلهة حقا وهم يعلمون بطلان ذلك وليس فيهم فى الباطن الا تقليد الآباء (وصدوا عن السبيل) قرأ عاصم وحمزة والكسائى هنا وفى حم المؤمن بضم الصاد أى منعوا عن سبيل الحق والباقون بفتح الصاد أى أعرضوا عنه أوصرفوا غيرهم عنه وقرئ بكسر الصاد على نقل حركة الدال المكسورة اليها (ومن يضلل الله) عن دينه بسوء اختياره (فماله من هاد) أى موفق للهدى (لهم عذاب فى الحياة الدنيا) بالقتل والسبي واغتنام الاموال واللعن (ولعذاب الآخرة أشق) أى أشد من عذاب الدنيا بالقوة وكثرة الانواع وعدم الانقطاع وعدم اختلاط شىء من الراحة (ومالهم من الله) أى عذابه (من واق) أى حافظ يعصمهم من ذلك (مثل الجنة) أى صفة الجنة (التى وعد المتقون) عن الكفر والمعاصى (تجرى من تحتها الانهار) أى أنهار الخمر والماء والعسل واللبن (أكلها دائم) أى ثمرها لا ينقطع (وظلها) كذلك أيضا فليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة (تلك) أى الجنة (عقبى الذين اتقوا) أى منتهى أمرهم (وعقبى الكافرين) أى آخر أمرهم (النار) لا غير (والذين آتيناهم الكتاب) أى أعطيناهم علم التوراة والانجيل وهم من أسلم من اليهود كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة (يفرحون بما أنزل اليك) أى بالقرآن لكونهم آمنوا به (ومن الاحزاب) أى بقية أهل الكتاب وسائر المشركين (من ينكر بعضه) أى بعض القرآن وهو الشرائع الحادثة (قل انما أمرت أن أعبد الله) وحده فعبادة الله واجبة على المرء فبهذا يبطل القول بالجبر المحض وقول نفاة التكاليف ولا تمكن عبادة الله الا بعد معرفة الله ولا سبيل الى معرفته الا بالدليل فهذا دليل على أن المرء مكلف بالنظر والاستدلال فى معرفة ذات الصانع وصفاته ومايجب ومايجوز ومايستحيل عليه (ولا أشرك به) وهذا يدل على نفى الشركاء فيبطل من أثبت معبودا سوى الله تعالى سواء قال ان المعبود هو الشمس أو القمر أو الكواكب أو الاصنام أو الارواح العلوية أو يزدان وأهرمن على مايقوله المجوس أو النور والظلمة على مايقوله الثنوية (اليه) أى الى الله خاصة (أدعو) خلقه فكما يجب عليه صلى الله عليه وسلم الاتيان بالعبادة كذلك يجب عليه صلى الله عليه وسلم الدعوة الى عبودية الله تعالى وهذا اشارة الى نبوته صلى الله عليه وسلم (واليه) أى الى الله تعالى وحده (مآب) أى مرجعى للجزاء وهذا اشارة الى النشر والحشر والبعث والقيامة فاذا تأمل الانسان فى هذه الالفاظ القليلة عرف أنها محتوية على جميع المطالب فى الدين (وكذلك) أى كما أنزلنا الكتب على الانبياء بلسانهم (أنزلناه) أى ما أنزل اليك

(حكما) أى حاكما يحكم فى القضايا والواقعات (عربيا) أى مترجما بلسان العرب (ولئن اتبعت أهواءهم) أى الكفار (بعد ما جاءك من العلم) الفائض من ذلك الحكم العربي (مالك من الله من ولى) أى قريب ينفعك (ولا واق) أى مانع يمنعك من مصارع السوء روى أن المشركين دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملة آبائه فهدده الله تعالى على اتباع أهوائهم فى ذلك (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا) أى نساء فقد كان لسليمان ثلاثمائة امرأة حرة وسبعمائة سرية وكان لابيه داود مائة امرأة (وذرية) أى أولادا مثل ابراهيم واسحق و يعقوب (وما كان لرسول أن يأتى بآية) مما اقترح عليه (الا باذن الله) أى بارادته (لكل أجل) أى لكل وقت من الاوقات (كتاب) أى حكم معين مكتوب فى صحف الملائكة التى تنسخها من اللوح المحفوظ فقد أثبت فيها ان أمر كذا يكون فى وقت كذا على ما تقتضيه الحكمة (يمحو الله ما يشاء) من الاحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت (ويثبت) أى يبقيه على حاله (وعنده أم الكتاب) أى أصله وهو اللوح المحفوظ اذ ما من شئ من الذاهب والثابت الا وهو مكتوب فيه كما هو فالحكمة فيه أن يظهر للملائكة كونه تعالى عالما بجميع المعلومات على سبيل التفصيل فعند الله كتابان كتاب يكتبه الملائكة على الخلق وهو محل المحو والاثبات وكتاب كتبه القلم بنفسه فى اللوح المحفوظ وهو الباقى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان الله ولا شئ ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق الى قيام الساعة اعلم أن القوم كانوا يذكرون أنواعا من الشبهات فى ابطال نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فالشبهة الاولى انهم عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة الزوجات و بأكل الطعام والمشى فى الاسواق و بكونه من جنس البشر وقالوا لو كان محمد رسولا من عند الله لما اشتغل بالنسوة بل كان مشتغلا بالنسك والزهد وقالوا الرسول الذى يرسله الله الى الخلق لا بد وأن يكون من جنس الملائكة وقالوا لو كان محمد رسولا من الله لما أكل الطعام ولما مشى فى الاسواق فأجاب الله تعالى عن ذلك بقوله ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية أى ان الانبياء الذين كانوا قبل محمد كانوا من جنس البشر فاتصفوا بصفاته من الزواج والاكل ونحو ذلك ولم يقدح ذلك فى نبوتهم فكيف يجعلون ذلك قادحا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والشبهة الثانية قولهم لو كان محمد رسولا من عند الله لكان أى شئ طلبناه من المعجزات أتى به ولم يتوقف فأجاب الله تعالى عنه بقوله وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله أى ان المعجزة الواحدة كافية فى اظهار الحجة فالزائدة عليها مفوضة الى مشيئة الله تعالى ان شاء أظهرها وان شاء لم يظهرها والشبهة الثالثة أنه صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب فيهم وظهور النصرة له ولاصحابه فلما تأخر ذلك طعنوا فى نبوته صلى الله عليه وسلم وقالوا لو كان محمد نبيا لما ظهر كذبه فأجاب الله تعالى عنه بقوله لكل أجل كتاب أى ان نزول العذاب على الكفار وظهور النصرة للاولياء قضى الله بحصولها فى أوقات مخصوصة ولكل حادث وقت معين ولكل أجل كتاب فقبل حضور ذلك الوقت لا يحدث ذلك الحادث فتأخر تلك المواعيد لا يدل على كونه صلى الله عليه وسلم كاذبا والشبهة الرابعة قولهم لو كان محمد صادقا فى دعوى الرسالة لم ينسخ الاحكام التى نص الله تعالى على ثبوتها فى الشرائع المتقدمة لكنه حرفها كما فى القبلة ونسخ أكثر أحكام التوراة والانجيل فوجب أن لا يكون نبيا فأجاب الله عنه بقوله يمحو الله ما يشاء و يثبت (واما نرينك) أى ان نرك (بعض الذى نعدهم) به من العذاب فى حياتك (أو نتوفينك) أى نقبضنك قبل أن نريك (فانما عليك البلاغ) أى سواء أريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوى فى حياتك أو توفيناك

قبل ظهوره فالواجب عليك تبليغ أحكام الله تعالى وأداء رسالته وأمانته فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فان ذلك لما نعلم من المصالح الخفية (وعلينا الحساب) أى وعلينا لا عليك محاسبة أعمالهم السيئة ومجازاتها (أولم يروا أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها) أى أأنكر أهل مكة نزول ما وعدناهم ولم يروا أنا نأخذ أرضهم نفتحها من نواحيها للمسلمين شيأ فشيأ ونلحقها بدار الاسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والاسر والاجلاء أليس هذا من ذلك (والله يحكم) ما يشاء كما يشاء وقد حكم للاسلام بالعزة والاقبال وعلى الكفر بالذلة والادبار (لا معقب لحكمه) أى لا راد له (وهو سريع الحساب) أى فبعد زمن قليل يحاسبهم فى الآخرة بعد ما عذبهم فى الدنيا بالقتل والاسر والاخراج من ديارهم (وقد مكر الذين من قبلهم) أى وقد مكر الكفار الذين مضوا من قبل كفار مكة بأنبيائهم فنمرود مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكر وا بعيسى كما مكر هؤلاء بك (فلله المكر جميعا) أى ان مكر جميع الماكرين حاصل بتخليقه تعالى وارادته فوجب أن لا يكون الخوف الا من الله تعالى (يعلم ما تكسب كل نفس) فكل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع فلا قدرة للعبد على الفعل والترك (وسيعلم الكفار) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو الكافر على لفظ المفرد وقرأ جناح ابن حبيش وسيعلم على صيغة المجهول من الاعلام أى سيخبر (لمن عقبى الدار) أى لمن العاقبة الجيدة (ويقول الذين كفروا) أى اليهود وغيرهم (لست مرسلا) من الله يا محمد (قل) لهم يا أكرم الرسل (كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) فانه تعالى قد أظهر المعجزات الدالة على كونى صادقا فى دعوى الرسالة (ومن عنده علم الكتاب) أى السماوى ككعب الاحبار وسلمان الفارسى وعبد الله ابن سلام وتميم الدارى وآصف بن برخيا فكل من كان عالما بالتوراة والانجيل علم أن محمدا مرسل من عند الله وقرئ ومن عنده علم الكتاب بمن الجارة التى لابتداء الغاية أى ومن عند الله حصل علم القرآن لان أحدا لا يعلمه الا من تعليمه ثم على هذه القراءة قرئ أيضا علم الكتاب على البناء للمفعول أى انما أمر الله نبيه أن يحتج عليهم بشهادة الله على رسالته ولا يكون ذلك الا باظهار القرآن ولا يعلم العبد كون القرآن معجزا الا بعد العلم بما فيه من أسراره بين الله تعالى ان هذا العلم لا يحصل الا من عند الله

﴿سورة ابراهيم مكية وآياتها اثنتان وخمسون وكلماتها ثمانمائة واحدى وثلاثون وحروفها ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم الر كتاب) أى السورة المسماة بالر كتاب (أنزلناه اليك) يا أشرف الخلق (لتخرج الناس) كافة بدعائك اياهم (من الظلمات) أى ظلمات الكفر والضلالة والجهل (الى النور) أى الايمان وهذه الآية دالة على أن طرق الكفر والبدعة كثيرة وطريق الحق واحد (باذن ربهم) أى بتسهيله فان الرسول لا يمكنه اخراج الناس من الظلمات الى النور الا بمشيئة الله وتخليقه (الى صراط العزيز الحميد) أى الى دين الكامل القدرة المستحق للحمد فى كل أفعاله (الله) قرأه نافع وابن عامر بالرفع (الذى له ما فى السموات وما فى الارض) ملكا وملكا (وويل للكافرين من عذاب شديد) أى لما ترك الكفار عبادة الله الذى هو المالك للسموات والارض ولكل ما فيهما وعبدوا ما لا يملك ضرا ولا نفعا فالويل ثم الويل لمن كان كذلك أى يولولون أى يصيحون من عذاب غليظ ويقولون يا ويلاه (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) أى يختارون الدنيا على الآخرة فهم ضالون (ويصدون عن سبيل الله) أى يمنعون الناس عن

قبول دين الله فهم مضلون (ويبغونها عوجا) أي يطلبون لسبيل الله زيغا ويقولون لمن يريدون اضلاله انها زائغة غير مستقيمة فهذا نهاية الضلال والاضلال (أولئك) الموصوفون بتلك القبائح (في ضلال) عن طريق الحق (بعيد) أي في غاية البعد عنه فلا يوجد ضلال أكمل من هذا الضلال (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه) أي الا متكلما بلغة من أرسل اليهم الرسول أيا كان وهم بالنسبة لغير سيدنا محمد خصوص عشيرة رسولهم وبالنسبة اليه كل من أرسل اليه من أصناف الخلق لان رسالته عامة لجميع الخلق وهو صلى الله عليه وسلم كان يخاطب كل قوم بلغتهم وان لم يثبت انه تكلم باللغة التركية لانه لم يصادف انه خاطب أحدا من أهلها ولو خاطبه لكلمه بها (ليبين لهم) ما كلفوا به بلغاتهم فيكون فهمهم لاسرار الشريعة أسهل ووقوفهم على المقصود أكمل (فيضل الله) عن دينه (من يشاء) أي بمنع الالطاف تعالى به (ويهدي) لدينه بمنح الالطاف (من يشاء) فتقوية البيان لا توجب حصول الهداية فربما قوي البيان ولا تحصل الهداية وربما ضعف البيان وحصلت الهداية لان الهداية والضلال لا يحصلان الا من الله تعالى (وهو العزيز الحكيم) فلا يغالب في مشيئته ولا يفعل شيأ الا لحكمة (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) وهي معجزاته التي أظهرها لبني اسرائيل (أن أخرج قومك من الظلمات) أي ظلمات الكفر (الى النور) أي نور الايمان فان مفسرة لارسلنا (وذكرهم بأيام الله) أي بنعم الله عليهم كانفلاق البحر وتظليل الغمام وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل في ما سلف من الايام وببأس الله عليهم وهي أيامهم تحت قهر فرعون وبعذاب الله ممن كذب الرسل فيما سلف من الايام كما نزل بعاد وثمود وغيرهم ليرغبوا الى الوعد فيصدقوا وليحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب (ان في ذلك) أي في التذكير بالوقائع (لآيات) أي دلائل (لكل صبار شكور) وهذا تنبيه على ان المؤمن يجب ان لا يخلو زمانه عن أحد الامرين الصبر والشكر لان الحال اما أن يكون حال بلية أو حال عطية فان جرى الوقت على ما يلائم طبعه كان شكورا وان جرى بما لا يلائم طبعه كان صبارا فالانتفاع بهذا التذكير لا يكون الا لمن كان صابرا أو شاكرا (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) أي مستقرة عليكم (اذ أنجاكم من آل فرعون) أي وقت انجائه اياكم منهم (يسومونكم سوء العذاب) أي يطلبون منكم الاعمال الشاقة (ويذبحون) تذبيحا كثيرا (أبناءكم) صغارا (ويستحيون نساءكم) أي يستخدمونهن كبارا بالاستحياء ويبقونهن منفردات عن الرجال (وفي ذلكم) أي المذكور من الافعال الفظيعة (بلاء من ربكم عظيم) لا يطاق وفي الخلاص من ذلك نعمة عظيمة (واذ تأذن ربكم) أي واذكروا حين أعلم ربكم في الكتاب وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه واذ قال ربكم (لئن شكرتم) يا بني اسرائيل نعمة الانجاء واهلاك العدو وغير ذلك بالايمان الخالص والعمل الصالح (لازيدنكم) نعمة الى نعمة وحقيقة الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه ومزيد النعم الجسمانية ان كل من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر كان وصول نعم الله اليه أكثر ومزيد النعم الروحانية ان النفس اذا اشتغلت بمطالعة أنواع فضل الله واحسانه أوجب ذلك الاشتغال تأكد محبة العبد لله تعالى ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة الى أن يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات الى النعم فالشكر مقام شريف يوجب السعادة في الدين والدنيا (ولئن كفرتم) أي أنكرتم نعمتي فعسى يصيبكم عذابي (ان عذابي لشديد) وكفران النعمة لا يكون الا عند الجهل بكون تلك النعمة نعمة من الله تعالى والجاهل بها جاهل بالله والجهل بالله من أعظم أنواع العذاب (وقال موسى ان تكفروا) نعمه تعالى ولم

تشكروها (أنتم) يابنى اسرائيل (ومن فى الارض جميعا) لم يرجع ضرر الكفر اليكم عليكم (فان الله لغنى) عن شكر الشاكرين (حميد) أى مستحق للحمد فى ذاته وان لم يحمده أحد بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده (ألم يأتكم) يابنى اسرائيل (نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم) أى من بعد هؤلاء المذكورين (لايعلمهم الاالله) أى لايعلم عددهم الاالله لكثرتهم وهذه الجملة حال من الذين أو من الضمير المستكن فى من بعدهم (جاءتهم رسلهم بالبينات) أى بالدلائل الواضحة على صدقهم وهذه الجملة تفسير لنبأ الذين من قبلكم (فردوا أيديهم فى أفواههم) أى وعض الكفار أيديهم من الغيظ من شدة نفرتهم عن استماع كلام الرسل أو وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين الى الرسل أى كفوا عن هذا الكلام واسكتوا (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) على ادعائكم فانهم ما أقروا بأن أوامر الرسل ومنهياتهم من الله تعالى (وانا لفى شك) عظيم (مما تدعوننا اليه) من الايمان بالله والتوحيد وقرئ تدعونا بادغام النون (مريب) أى ذى قلق النفس (قالت رسلهم أفى الله شك) أى أفى وجود الله ووحدته شك وهو أظهر من كل ظاهر (فاطر السموات والارض) أى مبدعهما وما فيهما (يدعوكم) الى التوحيد بارساله ايانا (ليغفر لكم) بسببه (من ذنوبكم) فى الجاهلية (ويؤخركم الى أجل مسمى) أى يؤخر موتكم الى وقت معين عند الله ان آمنتم والا عاجلكم الله بالاستئصال (قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا) من غير فضل (تريدون) بالدعوة (أن تصدونا) أى تصرفونا (عما كان يعبد آباؤنا) أى عن عبادة مااستمر آباؤنا على عبادته (فأتونا بسلطان مبين) أى وان كنتم رسلا من الله فأتونا بحجة ظاهرة تدل على صحة ماتدعونه من النبوة حتى نترك مالم نزل نعبده قالوا ذلك عنادا فان الرسل قد أتوهم بالآيات الظاهرة (قالت لهم رسلهم) مجاراة معهم فى أول مقالتهم (ان نحن الا بشر مثلكم) كما تقولون (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) بالنبوة فانها عطية من الله من غير سبب (وما كان لنا) أى مااستقام لنا (أن نأتيكم بسلطان) أى بحجة (الا باذن الله) أى بارادته (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ومقصود الرسل بهذا القول حمل أنفسهم على التوكل فان الكفار أخذوا فى التخويف حتى قالوا للرسل توكلوا أنتم على الله حتى ترواما يفعل بكم فقالت الرسل (ومالنا أن لانتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) أى أى عذر لنا فى ترك التوكل على الله والحال انه قد هدانا طرقه التى نعرفه بها ونعلم ان الامور كلها بيده (ولنصبرن على ما آذيتمونا) بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) أمر الرسل فى هذا أتباعهم بالتوكل بعد أمر أنفسهم به وذلك يدل على ان الآمر بالخير لايؤثر الا بعد الاتيان به فالانسان اما ان يكون ناقصا أو كاملا فالناقص اما ان يكون ناقصا غير ساع فى تنقيص حال غيره فهو ضال واما أن يكون ساعيا فى ذلك فهو مضل واما خاليا عن الوصفين فهو مهتد والكامل اما أن يكون غير قادر على تكميل الغير فهو ولى واما قادرا على ذلك فهو نبى فالولى هو الانسان الكامل والنبى هو الانسان الكامل المكمل (وقال الذين كفروا) أى الغالون فى الكفر (لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا) أى من مدينتنا (أو لتعودن فى ملتنا) أى لتصيرن داخلين فى ملتنا (فأوحى اليهم) أى الرسل (ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض) أى أرض الظالمين وديارهم (من بعدهم) أى من بعد هلاكهم (ذلك) أى اسكان الارض ثابت (لمن خاف مقامى) أى لمن خافنى وخاف حفظى لاعماله (وخاف وعيد) أى عذابى الموعود للكفار (واستفتحوا) أى طلب كل من الرسل والقوم النصرة على عدوه

فنصر

فنصر الله الرسل (وخاب كل جبار) أي خسر عند الدعاء من النصرة كل متكبر عن عبادة الله (عنيد) أي منحرف عن الحق (من ورائه جهنم) أي من بعد هذه الخيبة جهنم يلقى فيها (ويسقى من ماء صديد) أي مما يسيل من جلود أهل النار من القيح والدم (يتجرعه) أي يتناوله جرعة جرعة على الاستمرار لغلبة العطش والحرارة عليه (ولا يكاد يسيغه) أي لا يكاد أن يجريه في الحلق بل يستمسكه فيه لمرارته ونتنه فوصوله الى الجوف ليس باجازة (ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت) أي يجد ذلك الكافر ألم الموت من كل مكان من أعضائه حتى من أصول شعره وابهام رجله والحال انه لا يموت من ذلك العذاب (ومن ورائه عذاب غليظ) أي ومن بعد ذلك العذاب عذاب أشد مما هو عليه لا ينقطع ولا يخف بسبب الاعتياد كما في عذاب الدنيا (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم) أي صفة أعمالهم الصالحة كصدقة وصلة رحم واعتاق رقاب وفداء أسير وقرى ضيف وبر والدوا غاثة ملهوف (كرماد اشتدت) أي ذرت (به الريح في يوم عاصف) أي شديد الريح (لا يقدرون مما كسبوا على شيء) أي لا يجدون يوم القيامة أثر ما عملوا في الدنيا من ثواب أو تخفيف عذاب كما لا يوجد من الرماد شيء اذ اذرته الريح وذلك لفقد شرط الاعمال وهو الايمان (ذلك) أي عملهم (هو الضلال البعيد) أي الضياع البعيد عن نيل الثواب (ألم تر) أي قد أخبرت أيها المخاطب (أن الله خلق السموات والارض بالحق) أي ملتبسا بالحكمة وليس عبثا وقرأ حمزة والكسائي خالق السموات على اسم الفاعل والاضافة (ان يشأ يذهبكم) أي يهلككم بالمرة (ويأت بخلق جديد) سواكم أطوع لله منكم (وماذلك) أي اذهابكم والاتيان ببدلكم (على الله بعزيز) أي بمتعسر لان القادر لا يصعب عليه شيء (وبرزوا لله جميعا) أي ويخرجون من قبورهم الى الله ليحاسبهم ويجازيهم على قدر أعمالهم (فقال الضعفاء) في الرأي وهم السفلة (للذين استكبروا) عن عبادة الله وهم أكابرهم (انا كنا لكم تبعا) في الدنيا في تكذيب الرسل والاعراض عن نصيحتهم (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) أي فهل أنتم في هذا اليوم دافعون عنا بعض شيء هو عذاب الله (قالوا) أي القادة (لو هدانا الله لهديناكم) أي لو خلصنا الله من العقاب وهدانا الى طريق الجنة لهديناكم طريق النجاة ودفعنا عنكم بعض العذاب ولكن سد الله عنا طريق الخلاص (سواء علينا أجزعنا) مما لقينا (أم صبرنا) على ذلك أي الصياح بالتضرع والصبر مستويان علينا في عدم الانجاء (مالنا من محيص) أي محل هرب من العقاب (وقال الشيطان) أي يقول ابليس رئيس الشياطين خطيبا في محفل الاشقياء من الثقلين (لما قضي الامر) أي فرغ منه بأن استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وقد قالوا له اشفع لنا فانك أضللتنا (ان الله وعدكم وعد الحق) وهو الوعد بالبعث والجزاء على الاعمال فصدق في وعده اياكم (ووعدتكم) ان لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار ولئن كان فالاصنام شفعاؤكم (فأخلفتكم) أي كذبت لكم وتبين خلف وعدي (وما كان لي عليكم من سلطان) أي حجة تدل على صدقي أو قهر فاقهركم على الكفر والمعاصي (الا أن دعوتكم) أي الا دعائي اياكم الى الضلالة بوسوستي (فاستجبتم لي) أي أجبتموني (فلا تلوموني) بوعدي اياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر (ولوموا أنفسكم) حيث أجبتموني باختياركم حين دعوتكم بلا دليل فما كان مني الا الدعاء والقاء الوسوسة وقد سمعتم دلائل الله وجاءتكم الرسل وكان من الواجب عليكم ان لا تغتروا بقولي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا علي في هذا الباب (ما أنا بمصرخكم) أي بمغيثكم من عذابكم (وما أنتم بمصرخي) أي بمغيثي من عذابي (اني كفرت)

بما أشركتمون من قبل) أى انى الآن تبرأت من اشراككم اياى مع الله فى الطاعة من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا أى لان الكفار كانوا يطيعون ابليس فى أعمال الشر كما يطاع الله فى أعمال الخير ومعنى اشراكهم ابليس بالله تعالى طاعتهم لابليس فى تزيينه لهم فى عبادة الاوثان (ان الظالمين لهم عذاب أليم) هذا تمام كلام ابليس قطعا لاطماع أولئك الكفار عن الاغاثة فالوقف على من قبل حسن أو ابتداء كلام من حضرة الله تعالى ايقاظا للسامعين حتى يحاسبوا أنفسهم و يتدبروا عواقبهم فالوقف على من قبل تام كما هو عند أبى عمرو (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم) متعلق بادخل أى أدخلتهم الملائكة بأمر ربهم (تحيتهم فيها سلام) فان بعضهم يحيي بعضا بهذه الكلمة والملائكة يحيونهم بها والرب الرحيم يحييهم أيضا بهذه الكلمة وقرأ الحسن وأدخل على صيغة التكلم وعلى هذه القراءة فقوله باذن ربهم متعلق بتحيتهم أى تحييهم الملائكة بالسلام باذن ربهم (ألم تر) أى ألم تخبر يا أشرف الخلق (كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة) أى كيف جعل الله كلمة طيبة وهى لا اله الا الله مثلا وهى (كشجرة طيبة) وهى النخلة (أصلها ثابت) أى ضارب بعروقه فى الارض (وفرعها فى السماء) أى أعلاها فى الهواء (تؤتى أكلها) أى تعطى هذه الشجرة ثمرها (كل حين) أى كل وقت وكل ساعة ليلا أو نهارا شتاء أو صيفا فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس الى حين الطرى الرطب فأكلها دائم فى كل وقت (باذن ربها) أى بارادة خالقها كذلك كلمة التوحيد ثابتة فى قلب المؤمن بالبرهان وعمل المؤمن المخلص يرفع الى السماء وفى كل حين يعمل خيرا بأمر ربه وحكمة تمثيل كلمة التوحيد بالشجرة ان الشجرة تكون بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال كذلك التوحيد يكون بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالابدان (ويضرب الله الامثال) أى يبين الله صفات التوحيد (للناس لعلهم يتذكرون) أى يتعظون لان فى ضرب الامثال تصوير المعانى فيحصل به الفهم التام والوصول الى المطلوب (ومثل كلمة خبيثة) وهى الشرك بالله (كشجرة خبيثة) كالحنظل والكشوث وهى نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير ان يضرب بعرق فى الارض (اجتثت) أى استؤصلت (من فوق الارض) لكون عروقها فى وجه الارض أى ليس لها أصل ولا عرق يغوص فى الارض فتسميتها شجرة للمشاكلة فكذلك الشرك بالله ليس له حجة ولا قوة (ما لها من قرار) أى ثبات على وجه الارض فلا يقبل مع الشرك عمل (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) أى الذى يثبت بالحجة عندهم وتمكن فى قلوبهم وهو شهادة ان لا اله الا الله (فى الحياة الدنيا) فلا يزالون عن تلك الشهادة اذا افتتنوا فى دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس وشمسون والذين فتنهم أصحاب الاخدود (وفى الآخرة) أى فى القبر حين يقال له من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم وحكى ان سهل بن عمار العملى يقول رأيت يزيد بن هرون فى منامى بعد موته فقلت ما فعل الله بك قال أتانى فى قبرى ملكان فظان فقالا من ربك وما دينك ومن نبيك فأخذت بلحيتى البيضاء فقلت لهما ألمثلى يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا وكلما كانت مواظبة العبد على ذكر لا اله الا الله وعلى التأمل فى دقائقها أتم وأكمل كان رسوخ هذه المعرفة فى قلبه بعد الموت أقوى وأكمل قال ابن عباس من داوم على الشهادة فى الحياة الدنيا يثبته الله عليها فى قبره ويلقنه اياها وانما فسر الآخرة ههنا بالقبر لان الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا ودخل فى أحكام

الآخرة (ويضل الله الظالمين) أي يصرف الله المشركين عن قول لا اله الا الله في الدنيا وفي القبر وعند
خروجهم من القبور فانهم اذا سئلوا في قبورهم قالوا لا ندري (ويفعل الله ما يشاء) من الاضلال
والتثبيت ومن صرف منكر ونكير (ألم تر) أي ألم تنظر (الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) كأهل
مكة حيث أسكنهم الله حرمه الآمن ووسع عليهم أبواب رزقه وشرفهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفروا
ذلك فقحطوا سبع سنين فقتلوا وأسروا يوم بدر (وأحلوا قومهم) أي أنزل بعض قريش المطعمون يوم
بدر وهم بنو أمية وبنو المغيرة أتباعهم وهم بقية قريش بسبب اضلالهم اياهم (دار البوار) أي دار
الهلاك (جهنم يصلونها) أي يدخلونها يوم القيامة مقاسين لحرها (وبئس القرار) أي بئس المنزل
جهنم (وجعلوا لله أندادا) أي أشباها وشركاء في التسمية والحظ والعبادة (ليضلوا عن سبيله) الذي
هو التوحيد وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء فاللام للعاقبة والباقون بضمها فاللام اما للعاقبة لان عبادة
الاوثان سبب يؤدي الى الضلال أو للتعليل فالذين اتخذوا الاوثان يريدون اضلال غيرهم وتحقيق لام
العاقبة ان المقصود من الشيء لا يحصل الا في آخر المراتب كما قيل أول الفكر آخر العمل وكل ما حصل في
العاقبة كان شبيها بالامر المقصود في هذا المعنى (قل تمتعوا) بعبادتكم الاوثان وعيشوا بكفركم
وهذا الامر تهديد لهم (فان مصيركم) أي مرجعكم يوم القيامة (الى النار) ليس الا (قل لعبادي
الذين آمنوا يقيموا الصلاة) وهذا اما مجزوم في جواب أمر محذوف أي قل لهم أقيموا الصلاة فان
قلت لهم ذلك يقوموا الصلاة أو مجزوم بلام أمر مقدر أي ليقيموا الصلاة أي الواجبة (وينفقوا مما
رزقناهم) أي أعطيناهم (سرا وعلانية) أي أنفقوا انفاق سر وعلانية والمراد حث المؤمنين على
الشكر لنعم الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية وعلى ترك التمتع بمتاع الدنيا كما هو صنيع الكفرة (من
قبل أن يأتي يوم لا بيع) أي معارضة (فيه ولا خلال) أي مصادقة تنفع وهو يوم القيامة وانما
الانتفاع فيه للمؤمن بالعمل الصالح او الانفاق لوجه الله تعالى (الله الذي خلق السموات والارض) وهما
أصلان في دلالة وجود الصانع (وأنزل من السماء) أي السحاب (ماء) فلولا السماء لم يصح انزال
الماء منها ولولا الارض لم يوجد ما يستقر الماء فيه (فأخرج به) أي بذلك الماء (من الثمرات رزقا لكم)
تعيشون به فاذا علم المكلفون ان في تحصيل هذه المنافع القليلة تحمل المتاعب فالمنافع العظيمة الدائمة
في الآخرة أولى بتحمل المشاق في طلبها (وسخر لكم الفلك) أي السفن (لتجري) أي الفلك جريا
تابعا لارادتكم (بأمره) أي بمشيئته التي نيط بها كل شيء فان الانتفاع بما ينبت من الارض لا يكمل الا
بوجود الفلك لنقله الى البلد الآخر المحتاج أهلها اليه (وسخر لكم الانهار) أي لتنتفعوا بها في نحو
الشرب وسقي الزراعات (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أي جاريين فيما يعود الى مصالح العباد
لا يفتران في سيرهما الى انقضاء عمر الدنيا ولولاهما لاختلت مصالح العالم بالكلية (وسخر لكم الليل
والنهار) لمنامكم ومعاشكم (وآتاكم من كل ما سألتموه) أي كل ما لم تصلح أحوالكم الا به فكأنكم
سألتموه أو من كل ما طلبتموه بلسان الحال (وان تعدوا نعمة الله) التي أنعم الله بها عليكم (لا تحصوها)
أي لا تطيقوا على عد أنواعها فضلا عن عد أفرادها فانها غير متناهية (ان الانسان لظلوم كفار) أي
فان الانسان مجبول على النسيان والملالة فاذا وجد نعمة نسيها في الحال وترك شكرها فذلك ظلم وان لم
ينسها فانه يملها فيقع في كفران النعمة وأيضا ان نعم الله كثيرة فمتى حاول الانسان التأمل في بعضها غفل
عن الباقي (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد) أي مكة (آمنا) من الخراب ومن الخوف لمن التجأ

اليه (واجنبني وبني أن نعبد الاصنام) أي ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الاسلام ومن البعد عن عبادة الاصنام أو المراد اعصمنا من الشرك الخفي وهو عند الصوفية تعليق القلب بالوسائط وبالاسباب الظاهرة (رب انهن أضللن كثيرا من الناس) أي ان الاصنام ضل بهن كثير من الناس أي لما حصل الاضلال عند عبادتهم انسب اليها (فمن تبعني) في ديني واعتقادي (فانه مني) أي فانه جار مجرى بعضي لقربه مني (ومن عصاني) أي خالف ديني (فانك غفور رحيم) أي فانك قادر على ان تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر الى الاسلام (ربنا انى أسكنت من ذريتي) أي بعض ذريتي اسمعيل ومن سيولد له (بواد غير ذي زرع) أي في واد ليس فيه زرع (عند بيتك المحرم) أي المعظم الذي يهابه كل جبار أو الذي منع من الطوفان وهو مكة شرفها الله تعالى فلعله قال ذلك باعتبار ما سيؤول اليه أو باعتبار ما كان (ربنا ليقيموا الصلاة) أي يا ربنا انما أسكنت قوما من ذريتي وهم اسماعيل وأولاده في هذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا الصلاة نحو الكعبة (فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم) أي فاجعل قلوب بعض الناس تسرع الى ذريتي شوقا اليهم بنقل المعاشات اليهم بسبب التجارات بالنسك والطاعة لله تعالى وقرأ العامة تهوى بكسر الواو وقرأ أمير المؤمنين علي وزيد بن علي ومحمد بن علي وجعفر بن محمد ومجاهد بفتح الواو أي تحبهم وقرئ على البناء للمفعول أي اجعل قلوب بعض الناس ممالة اليهم (وارزقهم) أي ذريتي (من الثمرات لعلهم يشكرون) تلك النعمة فان ابراهيم عليه السلام انما طلب تيسير المنافع على أولاده لاجل ان يتفرغوا لاقامة الصلاة وأداء الواجبات (ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن) من الحاجات وغيرها فلا حاجة بنا الى الدعاء انما ندعوك اظهارا للعبودية لك وافتقارا الى ما عندك (وما يخفى على الله من شئ في الارض ولا في السماء) وهذه الجملة من كلام الله تعالى تصديقا لابراهيم عليه السلام وهي اعتراض بين كلامي ابراهيم فالوقف على نعلن حسن كالوقف على في السماء (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر) أي حال كوني بعد الكبر (اسمعيل واسحق) روى انه لما ولد اسماعيل كان سن ابراهيم تسعا وتسعين سنة ولما ولد اسحق كان سنه مائة واثنتي عشرة سنة (ان ربي لسميع الدعاء) أي لمجيب الدعاء وهو عالم بالمقصود (رب اجعلني مقيم الصلاة) أي مثابرا عليها (ومن ذريتي) أي واجعل بعض ذريتي كذلك (ربنا وتقبل دعاء) وقال ابن عباس أي عبادتي (ربنا اغفر لي) ما فرط مني من ترك الاولى في باب الدين وغير ذلك (ولوالدي) وهذا الاستغفار قبل تبين أمرهما وقرأ ابن حسين ولوالدي بسكون الياء وقرأ الحسين بن علي ومحمد وزيد ابنا علي بن الحسين ولولدي بفتحات وهما اسماعيل واسحق وقرأ ابن يعمر ولولدي بضم الواو وسكون اللام وكسر الدال جمع ولد فالقراآت الشاذة ثلاثة (وللمؤمنين) كافة أي من ذرية ابراهيم وغيرهم ففي هذا الدعاء بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة والله تعالى لا يرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام (يوم يقوم الحساب) أي يوم يثبت محاسبة أعمال المكلفين على وجه العدل (ولا تحسبن الله) يا أشرف الخلق (غافلا عما يعمل الظالمون) أي تارك عقوبة المشركين عما عملوا والمراد تثبيته صلى الله عليه وسلم على ما كان عليه من انه صلى الله عليه وسلم لا يحسب الله غافلا والمقصود تنبيهه على انه تعالى لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لزم عليه تعالى أحد الامور الثلاثة اما أن يكون غافلا عن ذلك الظالم أو عاجزا عن الانتقام أو راضيا بذلك الظلم وكل ذلك محال عليه تعالى فامتنع أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم (انما يؤخرهم) بلا عذاب الاستئصال (ليوم) أي لاجل يوم (تشخص فيه الابصار) أي تبقى مفتوحة لا تتحرك أجفانهم

للدهشة (مهطعين) أى مسرعين نحو البلاء ناظرين الى الداعى وهو جبريل حيث يدعو الى الحشر من صخرة بيت المقدس (مقنعى رؤسهم) أى رافعى رؤسهم الى السماء لا ينظر أحد الى أحد (لا يرتد اليهم طرفهم) أى يدوم شخوص أبصارهم لدوام الحيرة فى قلوبهم (وأفئدتهم هواء) أى خالية عن جميع الافكار لعظم ما ينالهم من الحيرة لما تحققوه من العقاب وحصول هذه الصفات الخمسة عند المحاسبة (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) أى وخوف الكفار يا أكرم الرسل أهوال يوم القيامة (فيقول الذين ظلموا) أى كل من ظلم بالشرك (ربنا أخرنا الى أجل قريب) أى أخر العذاب عنا وردنا الى الدنيا وأمهلنا الى حد من الزمان قريب (نجب دعوتك) لنا على ألسنة الرسل الى التوحيد (ونتبع الرسل) فيما جاؤنا به أى نتدارك فى الدنيا ما فاتنا من اجابة الدعوة واتباع الرسل فيقول الله لهم توبيخا (أولم تكونوا أقسمتم) أى أطلبتم هذا المطلوب وهل لم تكونوا حلفتم (من قبل) هذا اليوم أى فى الدنيا (ما لكم من زوال) أى كانوا يقولون بالحلف لا زوال لنا من هذه الحياة الى حياة أخرى ومن هذه الدار الى دار المجازاة أما زوالهم من غنى الى فقر ومن شباب الى هرم ومن حياة الى موت فلا ينكرونه (وسكنتم) معطوف على أقسمتم (فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعصية وهم قوم نوح وعاد وثمود لان من شاهد هذه الاحوال وجب عليه أن يعتبر فاذا لم يعتبر كان مستحقا للتقريع (وتبين لكم) أى وظهر لكم حالهم بمشاهدة الآثار وبتواتر الاخبار (كيف فعلنا بهم) من الاهلاك بما فعلوا من الفساد وقرئ وبين على المجهول وقرئ أيضا ونبين بنون المتكلم أى أولم نبين لكم (وضربنا لكم الامثال) أى بينا لكم الامثال فى القرآن بما يعلم به انه تعالى قادر على الاعادة كما قدر على الابتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل (وقد مكروا) أى المهلكون (مكرهم) حال من الضمير فى فعلنا بهم أى فعلنا بهم ما فعلنا والحال انهم قد مكروا فى ابطال الحق مكرهم الذى جاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لا يقدر عليه غيرهم (وعند الله مكرهم) أى أخذهم بالعذاب الذى يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون وهذه الجملة حال من الضمير فى مكروا (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) أى وان كان مكرهم فى غاية العظم والشدة بحيث تزول منه الجبال فان وصلية وقيل ان نافية واللام لتأكيدها ويتنصره قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وما كان مكرهم فالجملة حينئذ حال من الضمير فى مكروا أى ومكروا مكرهم والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الشرائع والمعجزات وقيل هى مخففة من ان أى وانه كان مكرهم ليزول منه ما هو كالجبال فى الثبات من الشرائع والمعجزات وقرأ الكسائى وحده لتزول بفتح اللام الفارقة ورفع الفعل فالجملة حينئذ حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم أى وعند الله المكر بهم والحال أن مكرهم فى غاية القوة بحيث تزول منه الجبال (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) تفريع على ولا تحسبن الله الخ فكأنه قيل واذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من الشدائد وبما يسألونه من الرد الى الدنيا وبما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم فى أحوال من سبقهم من الامم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلهم باهلاكهم فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم اخلافنا رسلنا وعدنا فمخلف اما متعد لاثنين مضاف لمفعوله الثانى واما متعد لواحد مضاف لمفعوله ورسله مفعول لوعده (ان الله عزيز) أى غالب لا يماكر (ذو انتقام) لاوليائه من أعدائه (يوم تبدل الارض غير الارض) أى تغير فى صفاتها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت (والسموات) أى تبدل السموات غير السموات فتنتثر كواكبها وتكسف شمسها ويخسف قمرها وتكون السماء أبوابا وذكر شبيب بن

ابراهيم بن حيدرة أن الارض والسموات يبدلان كرتين احداهما قبل نفخة الصعق فتنتثر أولا الكواكب وتكسف الشمس والقمر وتصير السماء كالمهل ثم تكشط عن رؤسهم ثم تسير الجبال ثم تموج الارض ثم تصير البحار نيرانا ثم تنشق الارض من قطر الى قطر فاذا نفخ فى الصور نفخة الصعق طويت السماء وبدلت السماء سماء أخرى من ذهب ودحيت الارض أى مدت مد الاديم وأعيدت كما كانت فيها القبور والبشر على ظهرها وفى بطنها وتبدل تبديلا ثانيا اذا وقفوا فى المحشر فتبدل لهم ساهرة يحاسبون عليها وهى أرض بيضاء من فضة وحينئذ يقوم الناس على الصراط وعلى متن جهنم وهى أرض من نار فاذا جاوزوا الصراط حصل أهل الجنان من وراء الصراط فى الجنان وأهل النيران فى النار بدلت الارض خبزا نقيا فأكلوا من تحت أرجلهم وعند دخولهم الجنة كانت الارض قرصا واحدا يأكل منه جميع من دخل الجنة وأدامهم زيادة كبد ثور الجنة وزيادة كبد النون وحاصل كلام القرطبى أن تبديل هذه الارض بأرض أخرى من فضة يكون قبل الصراط وتكون الخلائق اذ ذاك مرفوعة فى أيدى ملائكة سماء الدنيا وأن تبديل الارض بأرض من خبز يكون بعد الصراط وتكون الخلائق اذ ذاك على الصراط وهذه الارض خاصة بالمؤمنين عند دخولهم الجنة وقال الرازى لا يبعد أن يقال المراد من تبديل الارض والسموات هو انه تعالى يجعل الارض جهنم ويجعل السموات الجنة (وبرزوا لله الواحد القهار) أى واذكروا يوم يبرز الخلائق جميعا من قبورهم للحساب والجزاء (وترى المجرمين) أى وتبصر يا أكرم الخلق الكافرين (يومئذ) أى يوم اذ برزوا لله تعالى (مقرنين) أى قرن بعضهم ببعض بحسب مشاركتهم فى العقائد والاعمال (فى الاصفاد) أى القيود (سرابيلهم) أى قمصانهم (من قطران) وهو ما يتحلب من شجر الابهل فيطبخ ويطلى به الابل الجربى فيحرق الجرب بحرارته وقد تصل الى الجوف والمراد انه تطلى به جلود أهل النار ليجتمع عليهم الانواع الاربعة من العذاب لذع القطران ووحشة لونه ونتن ريحه واسراع النار فى جلودهم (وتغشى وجوههم النار) أى تعلوها النار وخص الله هذا العضو بظهور آثار العقاب كما خص القلب بذلك فى قوله تعالى نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة لان الرأس محل الفكر والوهم والخيال والقلب موضع العلم والجهل ولا يظهر أثر هذه الاحوال الا فى الوجه ولانه مجمع الحواس وخلوه عن القطران ويفعل الله بهم تلك الامور الثلاثة (ليجزى الله كل نفس) مجرمة (ما كسبت) من أنواع الكفر والمعاصى جزاء موافقا لعملها (ان الله سريع الحساب) فلا يشغله حساب عن حساب ولا يظلمهم ولا يزيد على عقابهم الذى يستحقونه (هذا) أى الموعظة التى فى هذه السورة (بلاغ) أى كفاية فى الموعظة (للناس ولينذروا به) عطف على مقدر متعلق ببلاغ أى كفاية لهم لينتصحوا ولينذروا به أى بهذا البلاغ (وليعلموا) بما فيه من الادلة (أنما هو) أى الله (اله واحد) لا شريك له (وليذكر أولوا الالباب) أى وليتعظوا بذلك وهذه الآيات مشعرة بان التذكير بهذه المواعظ يوجب الوقوف على التوحيد والاقبال على العمل الصالح

﴿سورة الحجر مكية وهى تسع وتسعون آية وستمائة وأربع وخمسون كلمة وألفان وسبعمائة وسبعون حرفا﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم الر) قال ابن عباس أى أنا الله أرى (تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) أى تلك الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل فى كونه كتابا وفى كونه قرآنا مفيدا للبيان لسبيل الرشد والغى

وللفرق بين الحق والباطل وهو الكتاب الذى وعد الله تعالى به محمدا صلى الله عليه وسلم و تنكير القرآن للتفخيم كتعريف الكتاب فالمقصود الوصفان وقيل الواو للقسم أى أقسم بالقرآن المبين بالحلال والحرام و بالامر والنهى (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) أى ان الكافر بالقرآن كلما رأى حالا من أحوال العذاب و رأى حالا من أحوال المسلم تمنى كونه فى الدنيا منقادا لحكمه ومذعنا لامره وذلك عند الموت وعند اسوداد وجوه الكفار وعند دخولهم النار وعند رؤيتهم خروج عصاة المسلمين من النار فرب للتكثير باعتبار مرات التمنى وللتقليل باعتبار زمان الافاقة فأزمان افاقتهم قليلة بالنسبة لازمان الدهشة وكونه للتقليل أبلغ فى التهديد ومعناه انه يكفيك قليل الندم فى كونه زاجرا لك عن هذا العمل فكيف كثيره وأيضا انه يشغلهم العذاب عن تمنى ذلك الا فى القليل وقرأ نافع وعاصم ربما بتخفيف الباء والباقون بالتشديد (ذرهم) أى اترك كفار مكة يا أشرف الرسل عن النهى عما هم عليه بالنصيحة اذ لا سبيل الى ارعوائهم عن ذلك بل مرهم بتناول ما يتناولونه (يأكلوا ويتمتعوا) أى يأخذوا حظوظهم من دنياهم فتلك اخلاقهم ولا خلاق لهم فى الآخرة (ويلههم الامل) أى يشغلهم الامل عند الاخذ بحظهم عن الايمان والطاعة (فسوف يعلمون) عند الموت وفى القبر ويوم القيامة ماذا يفعل بهم وعن على رضى الله عنه انه قال انما أخشى عليكم اثنين طول الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق (وما أهلكنا من قرية) من القرى بالخسف بها و بأهلها كما فعل ببعضها وباخلائها عن أهلها غب اهلاكهم بعذاب الاستئصال كما فعل ببعض آخر (الا ولها) فى ذلك الشأن (كتاب معلوم) أى أجل مؤقت لهلاكها مكتوب فى اللوح المحفوظ لا يغفل عنه (ما تسبق من أمة) من الامم المهلكة وغيرهم (أجلها) المكتوب فى كتابها فلا يجىء هلاكها ولا موتها قبل مجىء كتابها (وما يستأخرون) عن أجلها (وقالوا) أى كفار مكة عبد الله بن أمية المخزومى وأصحابه استهزاء للنبى صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) أى القرآن فى زعمه (انك لمجنون) أى انك لتقول قول المجانين حتى تدعى ان الله تعالى نزل عليك القرآن (لوما تأتينا بالملائكة) أى هلا أتيتنا بالملائكة يشهدون بصحة نبوتك و يعضدونك فى الانذار (ان كنت من الصادقين) فى مقالتك انك نبى وان هذا القرآن من عند الله فأجاب الله تعالى عن قولهم بقوله تعالى (ما ننزل الملائكة الا بالحق) أى فالحق فى حق الكفار تنزيل الملائكة بعذاب الاستئصال كما فعل بامثالهم من الامم السالفة لا التنزيل بما اقترحوا من أخبارها لهم بصدق الرسول فان ذلك من باب التنزيل بالوحى الذى لا يكاد يفتح على غير الانبياء من افراد كمل المؤمنين فكيف على أولئك الكفرة وقرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم ما ننزل بنون المتكلم وبكسر الزاى المشددة والملائكة بالنصب وقرأ شعبة عن عاصم ما تنزل ببناء الفعل للمفعول والملائكة بالرفع والباقون تنزل الملائكة (وما كانوا اذا) أى اذ نزلت عليهم الملائكة بالعذاب (منظرين) أى مؤخرين ساعة أى ولو نزلنا الملائكة ما أخر عذابهم ونحن لا نريد عذاب الاستئصال بهذه الامة فلهذا السبب ما أنزلنا الملائكة (انا نحن نزلنا الذكر) الذى انكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك الى الجنون (وانا له) أى الذكر (لحافظون) من الشياطين حتى لا يزيدوا فيه ولا ينقصوا منه ولا يغيروا احكامه ويقال وانا لمحمد لحافظون من الكفار والشياطين (ولقد أرسلنا) رسلا (من قبلك) يا أكرم الرسل (فى شيع الاولين) أى فى امم الاولين (وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن) أى عادة هؤلاء الجهال مع الرسل ذلك الاستهزاء كما يفعله هؤلاء الكفرة بك وهذا تسلية

رسول الله صلى الله عليه وسلم (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) أي مثل ذلك السلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤا به من الكتاب نسلك الذكر في قلوب كفار مكة (لا يؤمنون به) أي بالذكر وهذا حال من ضمير نسلكه أولا محل له من الاعراب تفسير للجملة السابقة والمراد من هذا السلك هو انه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه ومع هذه الاحوال لا يؤمنون به عنادا منهم (وقد خلت سنة الاولين) أي وقد مضت سيرة الاولين بتكذيب الرسل ومضت سيرة الله فيهم باهلاكه اياهم بعد التكذيب وهذه الجملة استئناف جيء بها تكملة للتسلية وتهديد الكفار مكة (ولو فتحنا عليهم) أي كفار مكة الذين اقترحوا نزول الملائكة (بابا من السماء فظلوا فيه) أي في ذلك الباب (يعرجون) أي يصعدون يرون ما فيها من العجائب عيانا (لقالوا) لفرط عنادهم (انما سكرت أبصارنا) أي غشيت بالسحر وقرأ ابن كثير بتخفيف الكاف والباقون بتشديدها فهو يوجب تكثيرا أو حيرت من السكر كما يعضده قراءة من قرأ سكرت أي حارت (بل نحن قوم مسحورون) أي قد سحر محمد عقولنا كما قالوه عند ظهور سائر المعجزات من انشقاق القمر ومن القرآن الذي لا يستطيع الجن والانس ان يأتوا بمثله (ولقد جعلنا في السماء بروجا) أي محال تسير فيها الكواكب السيارة وهي المريخ بكسر الميم وهو كوكب في السماء الخامسة وله الحمل والعقرب والزهرة بضم ففتح وهي في السماء الثالثة ولها الثور والميزان وعطارد بفتح العين وهي في الثانية ولها الجوزاء والسنبلة والقمر وهو في الاولى وله السرطان والشمس وهي في الرابعة ولها الاسد والمشتري وهو في السادسة وله القوس والحوت وزحل وهو في السابعة وله الجدي والحوت وجملة البروج اثنا عشر ووجه دلالة البروج على وجود الصانع المختار هو ان طبائع هذه البروج مختلفة فالفلك مركب من هذه الاجزاء المختلفة وكل مركب لا بد له من مركب يركب تلك الاجزاء بحسب الاختيار والحكمة فثبت ان كون السماء مركبة من البروج يدل على وجود الفاعل المختار وهو المطلوب (وزيناها) أي السماء بالشمس والقمر والنجوم (للناظرين) بأبصارهم وبصائرهم فيستدلون بها على قدرة صانعها ووحدته (وحفظناها من كل شيطان رجيم) أي مرمي بالشهاب فلا يقدر أن يصعد اليها ويوسوس في أهلها ويقف على أحوالها (الا من استرق السمع) أي الا من اختلس المسموع سرا من غير دخول (فأتبعه شهاب) أي لحقه شعلة نار ساطعة تنفصل من الكوكب (مبين) أي ظاهر امره للمبصرين (والارض مددناها) أي بسطناها على وجه الماء (وألقينا فيها) أي على الارض (رواسي) أي جبالا ثوابت لكيلا تميل بأهلها ولتكون دلالة للناس على طرق الارض لانها كالاعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال (وأنبتنا فيها) أي الارض (من كل شيء موزون) أي مستحسن مناسب أو موزون بوزن فالمعادن كلها موزونة وذلك مثل الذهب والفضة والحديد والرصاص وغير ذلك والنبات يرجع عاقبتها الى الوزن لان الحبوب توزن وكذلك الفواكه في الاكثر (وجعلنا لكم فيها) أي الارض (معايش) أي ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما مما يتعلق به البقاء مدة حياتكم في الدنيا (ومن لستم له برازقين) أي وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والخدم والعبيد والدواب والطيور وما أشبهها فالناس يظنون في أكثر الامر انهم الذين يرزقونهم وذلك خطأ فان الله هو الرزاق يرزق الكل (وان من شيء الا عندنا خزائنه) أي ان جميع الممكنات مقدورة لله تعالى يخرجها من العدم الى الوجود كيف شاء شبهت مقدوراته تعالى الفائتة للحصر في كونها

مستورة عن علوم العالمين وكونها مهيأة لايجاده بحيث متى تعلقت الارادة بوجودها وجدت من غير تأخر بنفائس الاموال المخزونة فى الخزائن السلطانية (وما ننزله) أى مانوجد شيأ (الا بقدر معلوم) أى الا ملتبسا بمقدار معين تقتضيه الحكمة فقوله تعالى وان من شئ الا عندنا خزائنه اشارة الى كون مقدوراته غير متناهية وقوله تعالى وما ننزله الا بقدر معلوم اشارة الى ان كل ما يدخل فى الوجود منها فهو متناه ومتى كان الخارج الى الوجود منها متناهيا كان مختصا بوقت مقدر وبحيز معين وبصفات معينة بدلا عن أضدادها فتخصيص كل شئ بما اختص به لا بد له من حكمة تقتضى ذلك وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال ان فى العرش تمثال جميع ما خلق الله فى البحر والبر وهو تأويل قوله تعالى وان من شئ الا عندنا خزائنه (وأرسلنا الرياح لواقح) أى حوامل لانها تحمل الماء وتمجه فى السحاب (فأنزلنا من السماء) أى السحاب (ماء فأسقيناكموه) أى جعلناه لكم سقيا وفى هذا دلالة على جعل الماء معدا لهم ينتفعون به متى شاؤا (وما أنتم له بخازنين) أى نحن القادرون على ايجاده وخزنه فى السحاب وانزاله فى الارض وما أنتم على ذلك بقادرين وقيل ما أنتم بخازنين له بعدما أنزلناه فى الغدران والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها لنجعلها سقيا لكم أى معدا السقى أنفسكم ومواشيكم وأراضيكم مع ان طبيعة الماء تقتضى الغور (وانا لنحن نحيى ونميت) أى لا قدرة على الاحياء ولا على الاماتة الا لنا (ونحن الوارثون) أى الباقون بعد فناء الخلق المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازى (ولقد علمنا المستقدمين منكم) أى من تقدم منكم ولادة وموتا (ولقد علمنا المستأخرين) أى من تأخر ولادة وموتا وقال ابن عباس فى رواية عطاء معنى المستقدمين أهل طاعة الله تعالى ومعنى المستأخرين المتخلفون عن طاعة الله تعالى (وان ربك هو يحشرهم) للجزاء (انه حكيم) أى متقن فى أفعاله فيأتى بالافعال على ما ينبغى وعالم بحقائق الاشياء على ما هى عليه (عليم) أى وسع علمه كل شئ (ولقد خلقنا الانسان) أى آدم (من صلصال) أى من طين يابس غير مطبوخ يصوت عند نقره (من حمأ) أى كائن من طين متغير أسود بطول مجاورة الماء (مسنون) أى مصور بصورة الآدمى قال المفسرون خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين فصوره وتركه فى الشمس أربعين سنة فصار صلصالا كالخزف ولا يدرى أحد ما يراد به ولم يروا شيأ من الصور يشبهه الى أن نفخ فيه الروح (والجان) وهو أبو الجن والاصح ان الشياطين قسم من الجن فكل من كان منهم مؤمنا فانه لا يسمى بالشيطان وكل من كان منهم كافرا يسمى بهذا الاسم (خلقناه من قبل) أى من قبل خلق الانسان (من نار السموم) أى من نار الحر الشديد النافذ فى المسام أو من نار الريح الحارة (واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا) أى جسما كثيفا يلاقى بخلاف الجن والملائكة فانهم لا يلاقون للطف أجسامهم (من صلصال) أى من طين يتصلصل (من حمأ مسنون) أى من طين منتن رطب (فاذا سويته) أى أتممت خلقه باليدين والرجلين والعينين وغير ذلك (ونفخت فيه من روحى) أى جعلت الروح فيه وليس ثم نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة ما يحيا آدم به من الروح التى هى من أمره تعالى (فقعوا) اى خروا (له) أى لذلك البشر (ساجدين) بوضع الجبهة على الارض لا بالانحناء تعظيما له فالسجود كان لآدم فى الحقيقة أو المعنى اسجدوا لله تعالى بوضع الجبهة على الارض وآدم عليه السلام بمنزلة القبلة لذلك السجود حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) أى فخلقه فسواه فجعل فيه الحياة فسجد الملائكة فمعنى كلهم أى لم يشذ منهم أحد ومعنى أجمعون أى لم يتأخر فى ذلك أحد منهم عن أحد أى فالكل سجدوا دفعة واحدة (الا ابليس) رئيسهم (أبى أن يكون مع

الساجدين قال) أى الله تعالى (يا ابليس مالك أن لا تكون مع الساجدين) أى أى سبب لك فى أن لا تكون مع الساجدين لآدم (قال) أى ابليس (لم أكن لاسجد) أى لا يصح منى ان أسجد (لبشر) أى جسم كثيف لانه مخلوق من أشرف العناصر واعلاها وانا نار وحانى لطيف (خلقته) أى البشر (من صلصال) ناشئ (من حمأ مسنون قال) الله تعالى (فاخرج منها) أى من زمرة الملائكة المعززين ويقال من رحمتى والفاء فى جواب شرط مقدر أى فحيث عصيت وتكبرت فاخرج منها (فانك رجيم) أى مطرود عن الرحمة (وان عليك اللعنة) أى الابعاد عن الرحمة (الى يوم الدين) أى الجزاء أى انك مدعو باللعنة فى السموات والارض الى يوم الحساب من غير ان يعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا ينسى اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب ان شدة العذاب تذهل عنه (قال) ابليس (رب فأنظرنى) أى أخرنى ولا تمتنى (الى يوم يبعثون) أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد الملعون بهذا السؤال ان لا يذوق الموت لاستحالته بعد يوم البعث وان يجد فسحة فى اغوائهم (قال) الله تعالى (فانك من المنظرين) أى المؤجلين (الى يوم الوقت المعلوم) وهو وقت النفخة الاولى التى علم أنه يموت كل الخلائق فيه (قال) ابليس (رب بما أغويتنى لازينن لهم فى الارض) أى أقسم باغوائك اياى لازينن لذرية آدم المعاصى فى الدنيا التى هى دار الغرور (ولاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بكسر اللام فى كل القرآن أى الذين أخلصوا دينهم عن كل شائب يناقض التوحيد وقرأ الباقون بفتح اللام أى الذين أخلصهم الله تعالى بالتوفيق والعصمة وعصمهم من كيد ابليس قال تعالى (هذا صراط على مستقيم) أى هذا الاخلاص طريق يؤدى الى كرامتى وثوابى من غير اعوجاج وقرأ يعقوب على بالرفع والتنوين على أنه صفة لصراط أى هذا الاخلاص طريق رفيع لا عوج فيه (ان عبادى) سواء كانوا المخلصين أو لم يكونوا المخلصين (ليس لك عليهم سلطان) أى قدرة أصلا على الاغواء (الا من اتبعك من الغاوين) ولما أوهم ابليس فى كلامه ان له على بعض عباد الله تسلطا بالاغواء بين الله كذبه فيه وذكر أن اغواءه للغاوين ليس بطريق تصرفه بالاغواء بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم (وان جهنم لموعدهم) أى لمصير المتبعين (أجمعين لها) أى لجهنم (سبعة أبواب) أى سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى المتابعة وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاويه (لكل باب) أى دركة (منهم) أى الاتباع (جزء) أى حزب معين (مقسوم) أى مفرز من غيره ففى الدركة الاولى أهل التوحيد الذين ادخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون منها وفى الثانية النصارى وفى الثالثة اليهود وفى الرابعة الصابئون وفى الخامسة المجوس وفى السادسة أهل الشرك وفى السابعة المنافقون والحاصل ان الله تعالى يجزئ أتباع ابليس سبعة أجزاء فيدخل كل جزء منهم دركة من النار والسبب فى التجزئة ان مراتب الكفر مختلفة بالغلظ والخفة فصارت مراتب العذاب مختلفة بذلك (ان المتقين) من الكفر (فى جنات وعيون) أى مستقرون فيهما لكل منهم عدة منهما (ادخلوها بسلام) أى ادخلوا الجنة سالمين من كل آفة (آمنين) من كل خوف أى لما ملكوا جنات كثيرة فكلما أرادوا ان ينتقلوا من جنة الى أخرى قيل لهم ادخلوها بسلام آمنين وقرئ أدخلوها أمر من الله تعالى للملائكة بادخالهم فى الجنة وقرأ الحسن أدخلوها مبنيا للمفعول على صيغة الماضى المزيد فيه (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) أى عداوة كانت بينهم فى الدنيا (اخوانا) حال من ضمير صدورهم أو من فاعل ادخلوها (على سرر) من ذهب مكللة بالزبرجد

والدر

والدر والياقوت تدور بهم الاسرة حيثما داروا (متقابلين) فى الزيارة أى انهم اذا اجتمعوا ثم أرادوا الانصراف يدور سرير كل واحد منهم به بحيث يصير راكبه مقابلا بوجهه لمن كان عنده وقفاه الى الجهة التى يسير لها السرير وهذا أبلغ فى الانس والاكرام (لا يمسهم فيها نصب) أى تعب لحصول كل ما يريدونه من غير مزاولة عمل أصلا (وماهم منها بمخرجين) لان تمام النعمة بالخلود (نبئ عبادى) اى اخبر يا أشرف الرسل كل من كان معترفا بعبوديتى (أنى أنا الغفور) للعصاة من المؤمنين (الرحيم) بهم (وأن عذابى) للعصاة ان عذبت (هو العذاب الاليم) وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون والنار بين أيديكم فنزل قوله تعالى نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم (ونبئهم) أى خبر ياسيد المرسلين عبادى (عن ضيف ابراهيم) وهم ملائكة على صور غلمان حسان منهم جبريل (اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أى نسلم سلاما أى قالوا تحية لابراهيم (قال انا منكم وجلون) أى خائفون قال ابراهيم ذلك حين امتنعوا من أكل ماقربه اليهم من العجل الحنيذ لان العادة ان الضيف اذا لم يأكل مما قدم له يكون خائنا (قالوا لا توجل) أى لا تخف يا ابراهيم منا (انا نبشرك بغلام) أى ولد هو اسحق (عليم) فى صغره حليم فى كبره (قال أبشرتمونى) بذلك (على أن مسنى الكبر) أى بعدما أصابنى الكبر (فبم تبشرون) أى فبأى أعجوبة تبشروننى فما استفهام بمعنى التعجب أراد ابراهيم بهذا السؤال ان يعرف انه تعالى يعطيه الولد مع ابقائه على صفة الشيخوخة أو بعد قلبه شابا فبينوا ان الله تعالى أعطاه الولد مع ابقائه على صفة الشيخوخة قرأ نافع تبشرون بكسر النون خفيفة فى كل القرآن وقرأ ابن كثير بكسر النون وتشديدها والباقون بفتح النون خفيفة (قالوا بشرناك بالحق) أى بطريقة هى حق وهو أمر الله تعالى (فلا تكن من القانطين) أى من الآيسين من الولد فان الله قادر على أن يخلق بشرا بغير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر (قال) ابراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) أى لا يقنط من رحمة ربه الا المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح فى ربه فلا يعرفون سعة رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته ومراد سيدنا ابراهيم بهذا القول نفى القنوط عن نفسه على أبلغ وجه أى ليس بى قنوط من رحمته تعالى وانما الذى أقول لبيان منافاة حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة على وقرأ أبو عمرو والكسائى يقنط بكسر النون وقرئ شاذا بضم النون (قال) ابراهيم لجبريل واعوانه (فما خطبكم) أى شأنكم الخطير سوى البشارة (أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين) لاهلاكهم (الا آل لوط) ابنتيه زاعورا وريثا وامرأته الصالحة (انا لمنجوهم) أى لوطا وآله (أجمعين) أى مما يصيب القوم (الا امرأته) واعلة المنافقة (قدرنا) أى قضينا عليها (انها لمن الغابرين) أى الباقين مع الكفرة لتهلك معهم وقرأ أبو بكر عن عاصم قدرنا بتخفيف الدال ههنا وفى النمل وقرأ حمزة والكسائى لمنجوهم بسكون النون لخرجوا من عند ابراهيم وسافروا من قريته الى قرية لوط وكان بينهما أربعة فراسخ (فلما جاء آل لوط المرسلون) هم الملائكة الذين ضافوا ابراهيم (قال) لوط لهم (انكم قوم منكرون) أى تنكركم نفسى فأخاف ان تصيبونى بشر ولا أعرف غرضكم لاى غرض دخلتم على (قالوا) أى الملائكة (بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أى ماجئناك بما تنكرنا لاجله بل جئناك بالعذاب الذى هددت قومك به فيشكون فى مجيئه بهم ويكذبونك وهو مايشفيك من عدوك ومافيه سرورك (وأتيناك بالحق) أى بالاخبار بمجئ العذاب (وانا لصادقون) فى مقالتنا ان العذاب نازل عليهم (فأسر بأهلك بقطع من الليل) أى فسر بنتيك

وامرأتك الصالحة فى جزء من الليل عند السحر (واتبع أدبارهم) أى امش خلفهم جهة مصر لاجل ان تطمئن عليهم وتعرف انهم ناجون (ولا يلتفت منكم أحد) الى ورائه اذا سمع الصيحة لئلا ترتاعوا من عظيم ما نزل بهم من البلاء (وامضوا حيث تؤمرون) أى سيروا الى المكان الذى أمركم الله بالذهاب اليه وهو صعر (وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) أى وأخبرنا لوطا عن ذلك الامر ان آخر هؤلاء المجرمين مستأصل حال دخولهم فى الصبح أى يتم استئصالهم حال ظهور الصبح حتى لا يبقى منهم أحد (وجاء أهل المدينة) أى مدينة سذوم الى دار لوط (يستبشرون) أى يظهرون السرور باضياف لوط وقالوا نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجها ولا أحسن شكلا منهم فذهبوا الى دار لوط طلبا منه لاولئك المرد (قال) لهم لوط (ان هؤلاء ضيفى فلا تفضحون) أى فلا تظهروا عارى عندهم فان الضيف يجب اكرامه فاذا قصدتموهم بالسوء كان ذلك اهانة بى (واتقوا الله) فى فعل الفاحشة (ولا تخزون) أى ولا تخجلونى (قالوا أولم ننهك عن العالمين) أى ألسنا قد نهيناك عن أن تكلمنا فى أحد من الناس اذا قصدناه بالفاحشة وكان لوط ينهاهم عنها بقدر وسعه (قال هؤلاء بناتى) فتزوجوهن (ان كنتم فاعلين) قضاء الوطر (لعمرك) قسمى وهذا قسم من الملائكة بحياة لوط عليه السلام (انهم لفى سكرتهم) أى فى شدة غلمتهم التى أزالت عقولهم (يعمهون) أى يتحيرون فكيف يقبلون قولك ويلتفتون الى نصيحتك (فأخذتهم الصيحة) أى صيحة عظيمة مهلكة (مشرقين) أى داخلين فى وقت شروق الشمس (فجعلنا عاليها) أى المدينة (سافلها) وكانت قراهم أربعة فيها أربعمائة ألف مقاتل (وأمطرنا عليهم) أى على أهل المدينة قبل تمام الانقلاب أو على من كان منهم خارجا عن المدينة بأن كان غائبا فى سفر أو غيره (حجارة من سجيل) أى وحل مطبوخ بالنار عليه كتاب (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من قصة ابراهيم وقصة لوط (لآيات) أى لعبرات (للمتوسمين) أى للمتفكرين (وانها) أى مدينة قوم لوط (لبسبيل مقيم) أى فى طريق ثابت لم يخف والذين يمرون من الحجاز الى الشام يشاهدونها (ان فى ذلك) أى فى كون المدينة مشاهدة للناس فى ذهابهم وايابهم (لآية) أى لعبرة عظيمة (للمؤمنين) أى لكل من آمن بالله وصدق الانبياء فانهم عرفوا أن ما حاق بهم من العذاب لمخالفتهم لرسل الله تعالى أما الذين لا يؤمنون فيحملونه على حوادث العالم (وان كان أصحاب الايكة) أى وان الشأن كان أصحاب بقعة الاشجار وكانوا يسكنونها وكان أكثر شجرهم الدوم (لظالمين) بتكذيبهم شعيبا عليه السلام (فانتقمنا منهم) روى أن الله تعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى أخذ بانفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله لهم سحابة كالظلة فالتجأوا اليها واجتمعوا تحتها للتظلل بها فبعث الله عليهم منها نارا فاحرقتهم جميعا (وانهما) أى قريات لوط وقريات شعيب (لبامام مبين) أى لفى طريق واضح يمر أهل مكة عليهما (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) أى صالحا وجملة المرسلين فالقوم براهمة منكرون لكل الرسل والحجر واد بين المدينة الشريفة والشام وآثاره باقية يمر عليها ركب الشام فى ذهابه الى الحجاز وكان ثمود يسكنونه (وآتيناهم آياتنا) أى أعطيناهم الناقة وكان فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم جثتها وقرب ولادتها عند خروجها من الصخرة وكثرة لبنها وشربها (فكانوا عنها) أى تلك الآيات (معرضين) فلا يستدلون بها على صدق صالح عليه السلام حتى قتلوا الناقة (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء لوثاقتها (فأخذتهم الصيحة مصبحين) أى صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ فى الارض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم عند الصباح

(فما

(فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى فلم يدفع عنهم ما كانوا يعملون من نحت تلك الجبال بنقرها بالمعوال وجمع الاموال ما نزل بهم من البلاء (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) أى الا بسبب العدل فكيف يليق بحكمته اهمال أمرك يا أكرم الرسل (وان الساعة لآتية) فان الله لينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك على حسناتك ويجازيهم على سيآتهم (فاصفح الصفح الجميل) أى أعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم اعراضا جميلا بحلم والمقصود من هذا الكلام أن يظهر الرسول الخلق الحسن والعفو فلا يكون منسوخا (ان ربك هو الخلاق العليم) أى انه تعالى خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم وتفاوت أحوالهم وعلم كونهم كذلك لمحض ارادته (ولقد آتيناك سبعا من المثانى) أى سبع آيات هى المثانى وهى الفاتحة وهذا قول عمر وعلى وابن مسعود وأبى هريرة والحسن وأبى العالية ومجاهد والضحاك وسعيد ابن جبير وقتادة وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هى السبع المثانى وقيل سميت الفاتحة مثانى لانها قسمان ثناء ودعاء وأيضا النصف الاول منها حق الربوبية وهو الثناء والنصف الثانى حق العبودية وهو الدعاء (والقرآن العظيم) وهذا من عطف الكل على البعض فبعض الشئ مغاير لمجموعه فيكفى هذا القدر من المغايرة فى حسن العطف ونقل عن ابن عباس وطاوس أن السبع المثانى هو القرآن كله وعلى هذا فهو عطف أحد الوصفين على الآخر مع وحدة ذات الموصوف وانما حسن العطف لاختلاف اللفظين فان القرآن سبعة أسباع كل سبع صحيفة وكله مثانى أمر ونهى ووعد ووعيد وحلال وحرام وناسخ ومنسوخ وحقيقة ومجاز ومحكم ومتشابه وخبر ما كان وما يكون ومدحة لقوم ومذمة لقوم وسبب نزول هذه الآية أن سبع قوافل أقبلت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير فى يوم واحد فيها أنواع من البز والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها ولانفقناها فى سبيل الله فقال الله تعالى لهم لقد أعطيتكم سبع آيات هى خير لكم من هذه القوافل السبع ويدل على صحة هذا قوله تعالى (لاتمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم) أى لا تنظرن بالرغبة الى ما أعطيناه رجالا من الكفرة من متاع الدنيا وزخارفها فان ما فى الدنيا بالنسبة الى ما أعطيناك مستحقر (ولا تحزن عليهم) أى لا تحزن لاجل عدم ايمانهم (واخفض جناحك للمؤمنين) أى تواضع لهم ولين جانبك لهم (وقل انى أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين) أى انى منذر آت بالبينات فانذرتكم مثل ما نزل بالذين اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عن الايمان ويقولون لمن سلكها لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعى النبوة فانه مجنون وربما قالوا ساحر وربما قالوا شاعر وربما قالوا كاهن وسموا المقتسمين لانهم اقتسموا هذه الطرق فاماتهم الله شر ميتة (الذين جعلوا القرآن عضين) أى الذى جزؤا القرآن أجزاء فقالوا سحر وشعر وكهانة ومفترى وأساطير الاولين (فوربك لنسألنهم أجمعين) يوم القيامة (عما كانوا يعملون) فى الدنيا من قول وفعل وترك (فاصدع بما تؤمر) أى اظهر ما تؤمر به وافرق بين الحق والباطل (وأعرض عن المشركين) أى لا تبال بهم ولا تلتفت الى لومهم اياك على اظهار الدعوة وهذا ليس بمنسوخ لان معنى هذا الاعراض ترك المبالاة بهم (انا كفيناك المستهزئين) أى الذين يبالغون فى الاستهزاء بك وفى ايذائك (الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون) ماذا يفعل بهم فاهلكهم الله فى يوم وليلة وكانوا خمسة من أشراف قريش الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والحرث ابن قيس والاسود بن المطلب والاسود بن عبد يغوث فاما الوليد المخزومى فمر بنبال فأصاب النبل عرقا فى عقبه فقطعه فمات وأما العاص السهمى فدخلت فى أخمصه شوكة فقال لدغت لدغت وانتفخت رجله

حتى صارت كالرماد فمات وأما الحرث السهمي فانه أكل حوتا مالحا فأصابه العطش فشرب عليه الماء حتى انشق بطنه فمات وأما الاسود بن المطلب فرماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعته عينه فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك وأما الاسود بن عبد يغوث فانه خرج في يوم شديد الحر فاصابه السموم فاسود حتى عاد حبشيا فرجع الى بيته فلم يفتحوا عليه الباب فنطح رأسه ببابه حتى مات وكلهم كانوا يقولون قتلنا رب محمد صلى الله عليه وسلم (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك) بحسب الطبيعة البشرية وان كان جميع أموره صلى الله عليه وسلم مفوضا الى ربه (بما يقولون) أى بسبب ما يقولون من كلمات الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء به وبك (فسبح بحمد ربك) أى فافزع الى الله تعالى فيما نابك من الغم بالتسبيح ملتبسا بحمده تعالى (وكن من الساجدين) أى من المصلين وكان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى الموت فانه متيقن اللحوق بكل حي مخلوق أى واعبد ربك في زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة عن هذه العبادة

﴿سورة النحل وتسمى سورة النعم مكية الا ثلاث آيات في آخرها مائة وثمان وعشرون آية وألف وثمانمائة واحدى وأربعون كلمة وستة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم أتى أمر الله) أى العذاب الموعود للكفرة والحاصل أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ولم يروا شيأ نسبوه الى الكذب فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله تعالى أتى أمر الله أى قد حصل حكم الله بنزول العذاب من الازل الى الابد وانما لم يحصل المحكوم به لانه تعالى خصص حصوله بوقت معين (فلا تستعجلوه) أى لا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت ولما قالت الكفار انا سلمنا لك يا محمد صحة ما تقوله من انه تعالى حكم بانزال العذاب علينا اما في الدنيا واما في الآخرة الا أنا نعبد هذه الاصنام فانها شفعاؤنا عند الله فهي تشفع لنا عنده فنتخلص من هذا العذاب المحكوم به بسبب شفاعة هذه الاصنام فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) فنزه الله تعالى نفسه عن شركة الشركاء وأن يكون لاحد أن يشفع عنده الا باذنه ولما قال الكفار انه تعالى قضى على بعض عباده بالسراء وعلى آخرين بالضراء ولكن كيف يمكنك يا محمد ان تعرف هذه الاسرار التي لا يعلمها الا الله تعالى وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله وأحكامه في ملكه وملكوته فأجاب الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى (ينزل الملائكة) أى جبريل ومن معه من الملائكة (بالروح) أى بكلام الله تعالى (من أمره) أى ان الروح هي أمره تعالى (على من يشاء من عباده) وهم الانبياء (أن أنذروا) أى أعلموا الناس (أنه لا اله الا أنا فاتقون) بالاتيان بعبادتي وتقرير هذا الكلام انه تعالى ينزل الملائكة على من يشاء من عبيده ويأمر الله ذلك العبد الذي نزلت عليه الملائكة بان يبلغ الى سائر الخلق ان اله العالم واحد كلفهم بمعرفة التوحيد وبالعبادة له وبين انهم ان فعلوا ذلك فازوا بخيري الدنيا والآخرة وان تمردوا وقعوا في شر الدنيا والآخرة فبهذا الطريق صار ذلك العبد مخصوصا بهذه المعارف من دون سائر الخلق فقوله تعالى لا اله الا أنا اشارة الى الاحكام الاصولية وقوله تعالى فاتقون اشارة الى الاحكام الفروعية (خلق السموات والارض بالحق) أى أوجدهما على صفات خصصهما بحكمته ولما احتج تعالى بخلق السموات والارض على حدوثهما قال بعده (تعالى عما يشركون) فالقائلون بقدم السموات والارض كأنهم أثبتوا لله شريكا في القدم فنزه تعالى نفسه عن ذلك وبين انه

لا

لا قديم الا هو فالمقصود من قوله أولا سبحانه وتعالى عما يشركون ابطال قول من يقول ان الاصنام تشفع للكفار فى دفع عقاب الله عنهم والمقصود ههنا ابطال قول من يقول أجسام السموات والارض قديمة نزه الله تعالى نفسه عن ان يشاركه غيره فى القدم (خلق الانسان من نطفة) منتنة (فاذا هو) بعد قوة عقله وعظم فهمه (خصيم) لربه (مبين) أى ظاهر الخصومة منكر لخالقه قائل من يحيي العظام وهى رميم وهذا اشارة الى الاستدلال باحوال نفس الانسان على وجود الصانع الحكيم فان الانتقال من الحالة الخسيسة الى الحالة العالية لا يحصل الا بتدبير مدبر حكيم عليم (والانعام) أى الابل والبقر والغنم (خلقها لكم فيها دفء) أى ما يتدفأ به من اللباس المتخذ من الاصواف والاوبار والاشعار (ومنافع) هى درها وركوبها والحراثة بها وغير ذلك (ومنها) أى من لحومها (تأكلون ولكم فيها جمال) أى منظر حسن عند الناس (حين تريحون) أى تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشى (وحين تسرحون) أى تخرجونها من حظائرها الى المرعى بالغداة (وتحمل) أى الابل (اثقالكم) أى أمتعتكم (الى بلد لم تكونوا بالغيه) أى واصلين اليه على غير الابل (الا بشق الانفس) أى الا بتعب النفس أو الا بذهاب نصف قوة البدن والشق بكسر الشين وفتحها معناه المشقة والنصف (ان ربكم لرؤف رحيم) ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسر لكم الامور الشاقة (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) أى وخلق هذه الاشياء للركوب وللنظر الحسن واحتج بهذه الآية من يحرم لحوم الخيل وقالوا ان الله تعالى خص هذه بالركوب فعلمنا أنها مخلوقة للركوب لا للاكل وهو قول ابن عباس واليه ذهب الحكم ومالك وأبو حنيفة وذهب جماعة من أهل العلم الى اباحة لحوم الخيل وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير واليه ذهب الشافعى وأحمد واسحق واحتجوا على اباحة لحوم الخيل بما روى عن أسماء بنت أبى بكر الصديق قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة أخرجه البخارى ومسلم وروى الشيخان عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية وأذن فى لحوم الخيل (ويخلق مالا تعلمون) أى ويخلق فى الدنيا غير ما عدد من أصناف النعم وروى عن ابن عباس انه قال ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيها جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل فيزداد نورا الى نور وجمالا الى جمال وعظما الى عظم ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك فيدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور وسبعون ألف ملك الكعبة لا يعودون اليه الى يوم القيامة (وعلى الله قصد السبيل) أى وعلى الله بيان استقامة الطريق وهو الاسلام (ومنها) أى من السبيل (جائر) أى مائل عن الحق وهو أنواع الكفر والضلال (ولو شاء لهداكم أجمعين) الى استقامة الطريق (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم) ولكل حى (منه) أى الماء (شراب ومنه شجر) أى من الماء ما ينبت على الارض (فيه) أى فى الشجر ترعون مواشيكم (ينبت لكم به) أى بالماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب) والانسان خلق محتاجا الى الغذاء وهو اما أن يكون من الحيوان أو من النبات والغذاء الحيوانى انما يحصل من اسامة الحيوانات وأما الغذاء النباتى فقسمان حبوب وفواكه فالحبوب هى مابه قوام بدن الانسان وأشرف الفواكه الزيتون والنخيل والاعناب أما الزيتون فلانه فاكهة من وجه وادام من وجه آخر لكثرة ما فيه من الدهن ومنافع الادهان كثيرة فى الاكل والطلى واشتغال السرج واما امتياز النخيل والاعناب من سائر الفواكه فظاهر (ومن

كل الثمرات) مما لا يمكن على الناس تفصيل أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها (ان فى ذلك) أى فى انزال الماء وانبات ماذكرا (لآية) دالة على تفرده تعالى بالالوهية (لقوم يتفكرون) ألا ترى ان الحبة الواحدة اذا وضعت فى الارض ومر عليها مقدار من الزمان مع رطوبة الارض فانها تنتفخ و ينشق أعلاها فيصعد منه شجرة الى الهواء وأسفلها نغوص منه عروق فى الارض ثم ينمو الاعلى و يقوى وتخرج منه الاوراق والازهار والاكمام والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطباع والطعوم والالوان والروائح والاشكال والمنافع ومن تفكر فى ذلك علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن ان يشبهه أحد فى شئ من صفات الكمال (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات) قرأ ابن عامر والشمس والقمر والنجوم بالرفع على الابتداء ومسخرات خبرها وقرأ حفص عن عاصم والنجوم بالرفع والباقون بالنصب فى الجميع ومسخرات حال منه أى انه تعالى سخر للناس هذه الاشياء وجعلها موافقة لمصالحهم حال كونها مسخرات الله تعالى (بأمره) أى بارادته كيف شاء (ان فى ذلك) أى تسخير الليل ومابعده (لآيات لقوم يعقلون) أى يعلمون ان تسخيرها من الله تعالى (وما ذرأ لكم فى الارض) أى وسخر لكم ما خلق لكم فى الارض من حيوان ونبات (مختلفا ألوانه ان فى ذلك) أى فى اختلاف ما فى الارض (لآية لقوم يذكرون) أى يتعظون فان اختلاف طبائع ما فى الارض وأشكاله مع اتحاد مواده انما هو بصنع حكيم عليم قادر مختار منزه عن كونه جسمانيا وذلك هو الله تعالى (وهو الذى سخر البحر) ومعنى تسخير الله تعالى اياه للخلق جعله بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها اما بالركوب أو بالغوص (لتأكلوا منه لحما) أى سمكا (طريا) والتعبير عن السمك باللحم مع كونه حيوانا لانحصار الانتفاع به فى الاكل ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والتنبيه على طلب المسارعة الى أكله لسرعة فساده (وتستخرجوا منه حلية) أى لؤلؤ ومرجانا (تلبسونها) أى تلبسها نساؤكم لاجلكم فان زينة النساء بالحلى انما هو لاجل الرجال فهى حلية لكم بهذا الاعتبار (وترى الفلك) أى تبصر السفن (فيه مواخر) أى جوارى فى البحر مقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها (ولتبتغوا من فضله) أى لتركبوها للوصول الى البلدان الشاسعة فتطلبوا الرزق بالتجارة وغيرها من فضل الله تعالى (ولعلكم تشكرون) أى تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون بادائها بالطاعة والتوحيد (وألقى فى الارض رواسى) أى جعل فيها جبالا ثوابت (أن تميد بكم) أى كراهة ان تميل بكم الارض وتضطرب (وأنهارا) أى جعل فى الارض أنهارا جارية لمنافعكم (وسبلا) أى جعل فيها طرقا (لعلكم تهتدون) أى لكى تهتدوا بها فى أسفاركم الى مقاصدكم (وعلامات) أى جعل فى الارض امارات الطرق التى يستدل بها المارون وهى الجبال والرياح والتراب فان جماعة يشمون التراب و يتعرفون بذلك الشم الطرق (وبالنجم هم يهتدون) بالليل فى البرارى والبحار وقال السدى هو الثريا والفرقدان و بنات نعش والجدى (أفمن يخلق) هذه الاشياء وهو الله تعالى (كمن لا يخلق) شيأ أصلا وهو الاصنام (أفلا تذكرون) أى ألا تلاحظون فلا تتذكرون فان هذا القدر لا يحتاج الى تفكر ولا الى شئ سوى التذكر فيكفى فيه ان تتنبهوا على ما فى عقولكم من ان العبادة لا تليق الا بالمنعم الاعظم فكيف يليق بالعاقل ان يشتغل بعبادة من لا يستحق العبادة و يترك عبادة من يستحقها (وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها) أى انكم لا تعرفونها على سبيل التمام واذا لم تعرفوها امتنع منكم القيام بشكرها على سبيل التمام ومما يدل قطعا على ان عقول الخلق قاصرة عن معرفة أقسام

نعم

نعم الله تعالى ان كل جزء من أجزاء البدن الانسانى لوظهر فيه أدنى خلل لتنغص العيش على الانسان وتمنى أن ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل ثم انه تعالى يدبر أحوال بدن الانسان على الوجه الاكمل مع أن الانسان لاعلم له بوجود ذلك الجزء ولا بكيفية مصالحه فليكن هذا المثال حاضرا فى ذهنك ثم تأمل فى جميع ماخلق الله فى هذا العالم من المعادن والنبات والحيوان وجعلها مهيأة لانتفاعك بها حتى تعلم أن عقول الخلق تفنى فى معرفة حكمة الرحمن فى خلق الانسان فضلا عن سائر وجوه الاحسان ثم الطريق الى الشكر أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها (ان الله لغفور) للتقصير الصادر عنكم فى القيام بشكر نعمه (رحيم) بكم حيث لم يقطع نعمه عنكم بسبب تقصيركم (والله يعلم ماتسرون) أى تضمرونه من العقائد والاعمال (وما تعلنون) أى تظهرونه منهما وهذه الاصنام جمادات لامعرفة لها بشئ أصلا فكيف تحسن عبادتها (والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيأ) أى والآلهة الذين يعبدهم الكفار من دون الله لايقدرون أن يخلقوا شيأ قرأ حفص عن عاصم يسرون ويعلنون ويدعون بالياء على الغيبة لكن مانقل عن السمين أن قراءة الياء التحتية شاذة فى الفعلين الاولين وقرأ أبو بكر عن عاصم يدعون خاصة بالياء على المغايبة وقرئ على صيغة المبنى للمفعول (وهم يخلقون) أى ان الاصنام مخلوقة لله تعالى منحوتة من الحجارة وغيرها (أموات) أى جمادات لاروح فيها (غير أحياء) أى لاتأتيها الحياة أصلا (ومايشعرون أيان يبعثون) أى ومايشعر أولئك الآلهة متى يبعث عبدتهم من القبور وفى هذا تهكم بالمشركين فى أن آلهتهم لايعلمون وقت بعثهم فكيف وقت جزائهم على عبادتهم وقيل المعنى ان هذه الاصنام لاتعرف متى يبعثها الله تعالى قال ابن عباس ان الله تعالى يبعث الاصنام ولها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بها الى النار (الهكم اله واحد) لايشاركه شئ فى شئ (فالذين لايؤمنون بالآخرة) ولايرغبون فى حصول الثواب ولايرهبون من الوقوع فى العقاب (قلوبهم منكرة) لوحدانية الله تعالى ولكل كلام يخالف قولهم (وهم مستكبرون) عن الرجوع من الباطل الى الحق (لاجرم) أى حق (أن الله يعلم مايسرون) من قلوبهم (ومايعلنون) من استكبارهم (انه لايحب المستكبرين) على خلقه فما بالك بالمستكبرين على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم (واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم) أى واذا قال وفود الحاج لاولئك المنكرين المستكبرين عما أنزل الله تعالى على محمد عليه السلام (قالوا أساطير الاولين) أى هذا الذى تذكرون انه منزل من ربكم هو أكاذيب الاولين ليس فيه شئ من العلوم والحقائق (ليحملوا أوزارهم) أى آثامهم الخاصة بهم وهى آثام ضلالهم (كاملة يوم القيامة) أى لم يخفف من عقابهم شئ يوم القيامة بمصيبة اصابتهم فى الدنيا فقوله ليحملوا متعلق بقالوا فاللام للعاقبة وقوله يوم القيامة ظرف ليحملوا (ومن أوزار الذين يضلونهم) أى وليحملوا أيضا من جنس آثام من ضل باضلالهم أى فيحصل للرؤساء مثل أوزار الاتباع (بغير علم) أى ان هؤلاء الرؤساء يقدمون على الاضلال جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد فى مقابلته (ألاساء مايزرون) أى بئس مايحملونه من الذنوب حملهم هذا (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم) أى قد رتبوا منصوبات ليمكروا بها أنبياء الله تعالى فأهلكهم الله تعالى وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنيانا شديدا ودعموه فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم سقفه بنيانهم فأهلكهم شبهت حال أولئك الماكرين فى تسويتهم المكايد وفى ابطاله تعالى تلك الحيل وجعله تعالى اياها أسبابا لهلاكهم بحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين

فضعضعت تلك الاساطين فسقط عليهم السقف فهلكوا فهو مثل ضربه الله تعالى لمن مكر بآخر فأهلكه الله بمكره ومنه المثل السائر على ألسنة الناس من حفر لاخيه قليبا وقع فيه قريبا (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) أى انهم اعتمدوا على منصوباتهم ثم تولد البلاء منها باعيانها فهؤلاء الماكرون القائلون ان القرآن أساطير الاولين سيأتيهم من العذاب العاجل من جهة لا تخطر ببالهم مثل ما أتاهم (ثم) الله تعالى (يوم القيامة يخزيهم) أى يذل الكفار بعذاب (و يقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) أى يقول الله لهم تفضيحا أين شركائى فى زعمكم الذين كنتم تخاصمون الانبياء والمؤمنين فى شأن الشركاء حين بينوا لكم بطلانها وقرأ نافع تشاقون بكسر النون (قال الذين أوتوا العلم) أى يقول المؤمنون الذين أوتوا علما بدلائل التوحيد حين يرون خزى الكفار وهم فى الموقف (ان الخزى) أى الفضيحة (اليوم والسوء) أى العذاب (على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة) أى عزرائيل وأعوانه (ظالمى أنفسهم) أى مستمرين على الكفر فانهم ظلموا أنفسهم حيث عرضوها للعذاب المخلد وقرأ حمزة يتوفاهم بالياء مع الامالة فى الموضعين (فألقوا السلم) أى أسلموا وأقروا لله بالعبودية عند الموت قائلين (ما كنا نعمل من سوء) أى شرك فى زعمنا فتقول الملائكة (بلى) كنتم تعملون أعظم الشرك (ان الله عليم بما كنتم تعملون) من الشرك فلا فائدة لكم فى انكاركم (فادخلوا أبواب جهنم) أى ليدخل كل صنف من الكفرة فى طبقة هو موعود بها والمراد دخولهم فيها فى وقته فان ذلك تخويف عظيم وان تراخى المخوف به لا دخول القبر الذى هو حفرة من حفر النيران (خالدين فيها) أى دركات جهنم لا يخرجون منها (فلبئس مثوى المتكبرين) عن قبول التوحيد وسائر ما أتت به الانبياء (وقيل للذين اتقوا) أى خافوا الشرك وأيقنوا انه لا اله الا الله محمد رسول الله (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) أى أنزل خيرا قال المفسرون كان فى أيام الموسم يأتى الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون انه ساحر وكاهن وكذاب فيأتى المؤمنين فيسألهم عن محمد وما أنزل الله عليه فيقولون خيرا أى أنزل خيرا والذى قالوه من الجواب موصوف بانه خير (للذين أحسنوا) أى قالوا لا اله الا الله معا لاعتقاد الحق (فى هذه الدنيا حسنة) أى ثناء ورفعة وتعظيم وهذه الجملة بدل من قوله خيرا أو تفسير له وذلك أن الخير هو الوحى الذى أنزل الله تعالى فيه قوله من أحسن فى الدنيا بالطاعة فله حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة وقوله تعالى فى هذه الدنيا متعلق بقوله حسنة (ولدار الآخرة خير) مما حصل لهم فى الدنيا (ولنعم دار المتقين) والمخصوص بالمدح اما محذوف تقديره دار الآخرة أو هى دار الدنيا لان المتقين يتزودون فيها للآخرة واما قوله تعالى (جنات عدن) وهذه تدل على القصور والبساتين وعلى الدوام (يدخلونها) يوم القيامة صفة لجنات أو حال (تجرى من تحتها الانهار) أى انهار الخمر والماء والعسل واللبن وهذه تدل على أن هناك أبنية يرتفعون عليها وتكون الانهار جارية من تحتهم (لهم فيها ما يشاؤن) من أنواع المشتهيات والمتمنيات وهذه الكلمة تدل على حصول كل الخيرات والسعادات (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء الاوفى (يجزى الله المتقين) أى كل من يتقى من الشرك والمعاصى (الذين تتوفاهم الملائكة) أى تقبضهم (طيبين) أى طاهرين من الكفر مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين الى حضرة القدس فرحين ببشارة الملائكة اياهم بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتألم بالموت (يقولون) أى الملائكة عند الموت وهذه حال من الملائكة وطيبين حال من المفعول (سلام عليكم) أى لا يلحقكم مكروه وعن محمد بن كعب القرظى قال اذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولى الله الله

بقرأ عليك السلام و بشره بالجنة (ادخلوا الجنة) اى جنات عدن وهى خاصة لكم كأنكم فيها والمراد دخولهم فيها فى وقته فان ذلك بشارة عظيمة وان تراخى المبشر به لا دخول القبر الذى هو روضة من رياض الجنة فان الملائكة لما بشروهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكأنهم فيها (بما كنتم تعملون) أى بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة (هل ينظرون) أى ما ينتظر الكفار الذين طعنوا فى القرآن وأنكروا النبوة (الا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم بالتهديد (أو يأتى أمر ربك) أى عذاب ربك فى الدنيا بهلاكهم (كذلك) أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والتكذيب والاستهزاء (فعل الذين من قبلهم) من الامم فأصابهم العذاب المعجل (وما ظلمهم الله) بذلك فانه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بأن كذبوا الرسل فاستحقوا ما نزل بهم (فأصابهم سيآت ما عملوا) أى عقاب سيآت أعمالهم (وحاق) أى وأحاط (بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى عقاب استهزائهم من جوانبهم (وقال الذين أشركوا) أى من أهل مكة للرسول صلى الله عليه وسلم تكذيبا له وطعنا فى الرسالة (لو شاء الله) عدم عبادتنا الشئ غيره (ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا) الذى نقتدى بهم فى ديننا (ولا حرمنا من دونه من شئ) من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى واشراكنا بالله الاوثان وتحريمنا بالانعام والحرث بمشيئته تعالى فهو راض بذلك وحينئذ فلا فائدة فى مجيئك الينا بالامر والنهى وفى ارسالك (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (فعل الذين من قبلهم) من الامم فأشركوا بالله وحرموا حله وردوا رسله وجادلوهم بالباطل حين نهوهم على الخطأ وهدوهم الى الحق (فهل على الرسل الا البلاغ المبين) أى ليست وظيفة الرسل الا تبليغ الرسالة تبليغا واضحا فهو واجب عليهم وأما حصول الايمان فلا يتعلق بالرسول (ولقد بعثنا فى كل أمة) من الامم السالفة (رسولا) خاصا بهم كما بعثناك الى قومك (أن اعبدوا الله) وحده (واجتنبوا الطاغوت) أى اجتنبوا عبادة ما تعبدون من دون الله أو اجتنبوا طاعة الشيطان فى دعائه لكم الى الضلالة (فمنهم) أى من تلك الامم (من هدى الله) الى الحق الذى هو عبادته (ومنهم من حقت) أى ثبتت (عليه الضلالة) فلم يجب الرسول الى الايمان فضل عن الحق وعمى عن الصدق ووقع فى الكفر (فسيروا) يا معشر كفار قريش (فى الارض) أى فان كنتم فى شك من أخبار الرسل فسيروا فى الارض (فانظروا) فى أكنافها واعتبروا (كيف كان عاقبة المكذبين) بالرسل من عاد وثمود وأمثالهم لتعرفوا أن العذاب نازل بكم كما نزل بهم (ان تحرص على هداهم) أى ان تطلب يا سيد الرسل توحيد كفار قريش بجهدك فلا تقدر على ذلك (فان الله لا يهدى من يضل) أى لانه تعالى لا يخلق الهداية قسرا فيمن يخلق فيه الضلالة لسوء اختياره وقرئ لا يهدى بالبناء للمفعول (وما لهم من ناصرين) أى وليس لهم أحد يعينهم على مطلوبهم فى الدنيا والآخرة من دفع العذاب عنهم (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أى حلف الذين أشركوا غاية ايمانهم واذا حلف الرجل بالله فقد حلف جهد يمينه فان الكفار كانوا يحلفون بآبائهم وآلهتهم فاذا كان الامر عظيما حلفوا بالله وهذا عطف على قوله تعالى وقال الذين أشركوا اعلاما بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث مقسمين (لا يبعث الله من يموت) فانهم يجدون فى عقولهم أن الشئ اذا صار عدما محضا لا يعود بعينه بل العائد يكون شيأ آخر ولقد رد الله تعالى عليهم ابلغ رد بقوله (بلى وعدا عليه حقا) أى بلى يبعثهم الله بالبعث وعدا حقا لا خلف فيه ثابتا على الله فينجزه لامتناع الخلف فى وعده (ولكن أكثر الناس) أى أهل مكة (لا يعلمون) انهم يبعثون لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناع البعث ولجهلهم بشؤن

الله تعالى من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال (ليبين لهم) أى بلى يبعثهم ليبين لمن يموت (الذى يختلفون فيه) من أمور البعث وغيرها من أمور الدين فيثيب المحق من المؤمنين و يعذب المبطل من الكافرين (وليعلم الذين كفروا) بالله بالاشراك وانكار البعث والنبوة يوم القيامة (أنهم كانوا كاذبين) فى ما أقسموا فيه وفى كل ما يقولون (انما قولنا لشئ) أى شئ كان (اذا أردناه) أى وقت ارادتنا لوجوده (أن نقول له كن) أى احدث وهو خبر المبتدا (فيكون) أى فيحدث عقب ذلك من غير توقف وهذا تمثيل لنفى الكلام والتعب فليس هنالك قول ولا مقول له ولا آمر ولا مأمور بل هو تمثيل لسهولة حصول المقدورات عند تعلق ارادته تعالى بها وتصوير لسرعة حدوثها ولكن العباد خوطبوا بذلك على قدر عقولهم ولو أراد الله خلق الدنيا وما فيها فى قدر لمح البصر لقدر على ذلك فالمعنى انما ايجاد الشئ عند تعلق ارادتنا به ان نوجده فى أسرع ما يكون (والذين هاجروا) من مكة الى المدينة (فى الله) أى لاظهار دينه (من بعد ما ظلموا النبوئنهم فى الدنيا حسنة) أى أرضا كريمة آمنة وهى المدينة وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أخرجهم أهل مكة من ديارهم فهاجروا الى الحبشة ثم الى المدينة وعلى هذا يكون نزول الآية فى أصحاب الهجرتين فيكون نزولها فى المدينة بين الهجرتين وقال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت هذه الآية فى ستة من الصحابة صهيب و بلال وعمار وخباب وعابس و جبير أخذهم المشركون بمكة يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام الى الكفر فأما بلال يخرجونه الى بطحاء مكة فى شدة الحر و يشدونه و يجعلون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد فاشتراه منهم أبو بكر وأعتقه وأما صهيب فقال أنا رجل كبير ان كنت معكم لم أنفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم وهاجر وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر فتركوا عذابهم ثم هاجروا فبسبب هجرتهم ظهرت قوة الاسلام كما ان بنصرة الانصار قويت شوكتهم فلذلك غلبوا على أهل مكة وعلى العرب قاطبة وعلى أهل المشرق والمغرب وعن عمر انه كان اذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أكبر (ولأجر الآخرة أكبر) أى وللأجر الكائن فى الآخرة وهو النعيم الكائن فى الجنة أعظم من الاجر الكائن فى الدنيا (لو كانوا يعلمون) أى لو علم الكفار ان الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم فى الدين (الذين صبروا) على أذية الكفار ومفارقة الاهل والوطن وعلى المجاهدة وبذل الاموال والانفس فى سبيل الله (وعلى ربهم يتوكلون) أى اليه خاصة يفوضون الامر كله معرضين عما سواه (وما أرسلنا من قبلك) يا أكرم الرسل الى الامم من طوائف البشر (الا رجالا نوحى اليهم) بواسطة الملائكة وهذا رد لقريش حين قالوا الله أعلى وأعظم من ان يكون رسوله واحدا من البشر بل لو أراد بعثة رسول الينا لبعث ملكا (فاسألوا أهل الذكر) أى أهل العلم باخبار الماضين فاذا سألوهم فلابد ان يجيبوا بان الرسل الذين أرسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة من قلوبهم (ان كنتم لا تعلمون) ان الرسل من البشر (بالبينات والزبر) متعلق بمحذوف على انه صفة لرجالا أى رجالا ملتبسين بالمعجزات الدالة على صدق من يدعى الرسالة و بالتكاليف التى يبلغونها من الله تعالى الى العباد أو متعلق بيوحى أى نوحى اليهم بالحجج الواضحة و بالكتب أو متعلق بذلك أى فاسألوا أهل العلم بالحجج وبالكتب القديمة من التوراة والانجيل أو متعلق بلا تعلمون أى ان كنتم لا تعلمون ان الله لم يرسل الرسل الا انسيا بالعلامات و بخبر كتب الاولين فاسألوا كل من يذكر بعلم وتحقيق واسألوا أهل الكتب الذين يعرفون معانى كتب الله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر) أى القرآن

سى

سمى ذكرالان فيه تنبيها للغافلين (لتبين للناس) كافة (مانزل اليهم) فى ذلك الذكر من الاحكام والشرائع وغير ذلك من أحوال الامم المهلكة بأفانين العذاب على حسب أعمالهم الموجبة لذلك (ولعلهم يتفكرون) فيما نزل اليهم فيتنبهوا لما فيه من العبر ويحترزوا عما يؤدى الى مثل ما أصاب الاولين من العذاب (أفأمن الذين مكروا السيئات) أى سعوا من أهل مكة ومن حول المدينة فى ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه على سبيل الخفية (أن يخسف الله بهم الارض) كما خسف بقارون وأصحابه (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) أى فى حال غفلتهم فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط (أو يأخذهم) بالعقوبة (فى تقلبهم) أى فى أسفارهم وحركتهم اقبالا وادبارا (فما هم بمعجزين) أى وهم لا يعجزون الله بسبب سفرهم فى البلاد البعيدة بل يدركهم الله حيث كانوا (أو يأخذهم على تخوف) أى على ان ينقص شيأ بعد شئ فى أموالهم وأنفسهم حتى يهلكوا أو على مخافة عن العذاب بان يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون (فان ربكم لرؤف رحيم) حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها (أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله) أى ألم ينظر أهل مكة ولم يروا بابصارهم الى جسم قائم له ظل من جبل وشجر وبناء يرجع ظلاله من المشرق ومن المغرب واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد (وهم داخرون) أى منقادون لقدرة الله تعالى وتدبيره ولما وصفت الظلال بالانقياد لامره تعالى أشبهت العقلاء فعبر عنها بلفظ من يعقل وقرأ حمزة والكسائى تروا بالتاء على الخطاب وقرأ أبو عمرو وحده تتفيؤ بالتاء (ولله يسجد ما فى السموات) من الشمس والقمر والنجوم (وما فى الارض من دابة والملائكة) عطف على ما فى السموات ولما بين الله تعالى أولا ان الجمادات بأسرها منقادة لله تعالى بين بهذه الآية ان الحيوانات بأسرها منقادة لله تعالى فأخسها الدواب وأشرفها الملائكة وذلك دليل على ان كل المخلوقات منقادة لله تعالى (وهم) أى الملائكة مع علو شأنهم (لا يستكبرون) عن عبادته تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) وهذه الجملة بيان لقوله لا يستكبرون أو حال من ضميره أى خائفين لمالك أمرهم خوف هيبة واجلال وهو فوقهم بالقهر (ويفعلون ما يؤمرون) به من الطاعات والتدبيرات فبواطنهم وظواهرهم مبرأة من الاخلاق الفاسدة والافعال الباطلة (وقال الله) لجميع المكلفين (لا تتخذوا الهين اثنين) أى لا تعبدوا الله والاصنام ولما بين الله تعالى أولا ان كل ما سوى الله سواء كان من عالم الارواح أو من عالم الاجسام فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى أتبعه فى هذه الآية بالنهى عن الشرك والمقصود من التكرير تأكيد التنفير عن الاشراك بالله وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح (انما هو اله واحد) أى لما دلت الدلائل السابقة على انه لا بد للعالم من الاله وقد ثبت ان وجود الالهين محال ثبت انه لا اله الا الواحد الاحد (فاياى فارهبون) أى ان كنتم راهبين شيأ فارهبونى لا غير فانى ذلك الواحد الذى يسجد له ما فى السموات والارض ولما كان الاله واحدا والواجب لذاته واحدا كان كل ما سواه حاصلا بتخليقه وايجاده فثبت ان تكون أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان أفعال العباد من جملة ما فى السموات والارض ووجب ان يكون جميع المخلوقات فى ملكه وتصرفه وتحت قهره وذلك قوله تعالى (وله ما فى السموات والارض) أى خلقا وملكا (وله الدين واصبا) أى لله تعالى الطاعة دائما فليس من أحد يطاع الا انقطعت تلك الطاعة بالموت أو بسبب فى حال الحياة الا الله تعالى فان طاعته واجبة أبدا وفى الآية دقيقة أخرى فعنى قوله تعالى له ما فى السموات والارض ان كل ما سوى الله محتاج فى انقلابه من العدم الى

الوجودمن الوجود الى العدم الى مخصص ومعنى قوله تعالى وله الدين واصبا ان هذا الاحتياج الى المرجح حاصل دائما أبدا لان الممكن حال بقائه لا يستغنى عن المرجح لان علة الحاجة هى الامكان وهو من لوازم الماهية فوجب ان تكون الحاجة حاصلة حال حدوثها وحال بقائها (أفغير الله تتقون) أى انكم بعد ماعرفتم ان اله العالم واحد وان كل ماسواه محتاج اليه فى وقت حدوثه وفى وقت دوامه فبعد العلم بهذه الاصول كيف يعقل ان يكون للانسان رغبة فى غير الله أو رهبة عن غير الله تعالى (وما بكم من نعمة فمن الله) أى أى شئ يصاحبكم من نعمة آية نعمة كانت فهى من الله فيجب على العاقل أن لا يخاف الا الله وأن لا يشكر الا الله (ثم اذا مسكم الضر) كالاسقام (فاليه تجأرون) أى ترفعون أصواتكم بالاستغاثة فى كشفه لا الى غيره (ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم) أى اذا فريق كفروهم أنتم (بربهم يشركون) غيره وهذا اضلال كامل (ليكفروا بما آتيناهم) أى ان عاقبة تلك التضرعات ما كانت الا كفران نعمة ازالة المكروه عنهم وقيل ان هذه اللام لام الامر الوارد للتهديد كقوله تعالى (فتمتعوا) أى عيشوا فى الكفر (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم وماينزل بكم من العذاب (ويجعلون) أى المشركون (لما لا يعلمون) أى للاصنام التى لا يعلم المشركون انها تضر من حيث عبادتها ولا تنفع (نصيبا مما رزقناهم) من الزرع والانعام وغيرهما تقربا اليها (تالله لتسئلن) يوم القيامة سؤال توبيخ (عما كنتم تفترون) أى تكذبون على الله من انه أمركم بذلك الجعل (ويجعلون لله البنات) أى يقول خزاعة وكنانة الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه الله ذاته عن نسبة الولد اليه وأمر الله تعالى الخلق بالتعجب من جراءتهم على وصف الملائكة بالانوثة ثم نسبتها بالولدية الى الله تعالى (ولهم مايشتهون) ويجعلون لانفسهم مايختارون من البنين (واذا بشر أحدهم بالانثى) أى والحال انه اذا أخبر بولادة الانثى (ظل وجهه مسودا) أى صار وجهه متغيرا تغير مغتم من الحياء من الناس (وهو كظيم) أى ممتلئ غما وحزنا وغيظا من زوجته فكيف ينسب البنات اليه تعالى وجملة واذا بشر حال من الواو فى ويجعلون (يتوارى من القوم) أى يختفى من قومه. (من سوء مابشر به) أى من أجل كراهية الانثى التى أخبر بها من حيث كونها لا تكتسب وكونها يخاف عليها الزنا وكان الرجل فى الجاهلية اذا ظهر آثار الطلق بامرأته اختفى عن القوم الى ان يعلم مايولد له فان كان ذكرا فرح به وان كان أنثى حزن ولم يظهر للناس أياما يدبر فيها ماذا يصنع بها وذلك قوله تعالى (أيمسكه على هون) أى أيحفظ مابشر به من الانثى مع رضاه بذل نفسه (أم يدسه فى التراب) أى أم يخفيه فى التراب بالوأد فالعرب كانوا مختلفين فى قتل البنات فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها فيها الى ان تموت ومنهم من يرميها من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وهم كانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية وتارة خوفا من الفقر ولزوم النفقة (ألا ساء مايحكمون) حكمهم هذا حيث يجعلون له تعالى ماعادته عندهم حقارة والحال انهم يتباعدون عنه (للذين لا يؤمنون بالآخرة) أى بالبعث بعد الموت (مثل السوء) أى الصفة القبيحة وهى احتياجهم الى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم وللاستعلاء به وكراهتهم الاناث خوف الفقر والعار مع احتياجهم اليهن للنكاح (ولله المثل الاعلى) أى الصفة المقدسة وهى الصفة الالوهية المنزهة عن صفات المخلوقين وعن الولد (وهو العزيز) أى المنفرد بكمال القدرة (الحكيم) أى الذى يفعل مايفعل بالحكمة البالغة (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها) أى الارض (من دابة) أى لو يؤاخذهم الله بما كسبوا من كفر ومعصية لا يبقى لهم نسل فيلزم ان لا يبقى فى العالم أحد من الناس فحينئذ لا يبقى فى الارض

احد

أحـدمن الدواب أيضالانهامخلوقة لمنافع البشر (ولـكن يؤخرهـم الى أجل مسمى) أى معين عندالله تعالى لاعمـارهـم ليتوالدوا (فاذاجاء أجلهـم لايستأخرون) عن ذلك الاجل (ساعة) أى فذة (ولا يسـتقدمون) واغـاذكرالاستقدام مع انه لايتصور عنـدمجىء الاجل مبالغة فى بيان عدم الاستئخار بنظمه فى سلك مايمتنع (ويجعلون لله مايكرهون) أى وينسبون اليه تعالى البنات التى يكرهونها لانفسهم (وتصف ألسنتهم الـكذب أن لهم الحسنى) بدل من الـكذب أى يصون أنفسهم بأنهم فازوابرضوان الله تعالى بسبب اثبات البنات له تعالى وبأنهم على الدين الحق (لاجرم) أى ثبت (أن لهم النار) التى ليس وراءعـذابها عذاب (وأنهم مفرطون) أى متروكون فى النار وقرأنافع وقتيبة عن الكسائى بكسر الراء أى مفرطين على أنفسهم فى الذنوب (تالله لقد أرسلنا) رسلا (الى أمم من قبلك) فدعوهم الى الحق (فزين لهم الشيطان أعمالهم) القبيحة فرأوها حسنة فـكذبوا الرسل (فهو وليهم اليوم) أى فالشيطان متولى أمورهم فى الدنيا باغوائهم وقرينهم فى النار (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم) هوعذاب النار (وماأنزلنا عليك الـكتاب) أى القرآن (الالتبين لهم الذى اختلفوا فيه) أى الالتبين للناس بواسطة بيانات القرآن الاشياء التى اختلفوا فيهامن التوحيد والشرك والجبر والقدر وأحوال المعاد والاحكام كتحريم الميتة وتحليل نحو البحيرة (وهدى ورحمة) أى وللهداية من الضـلالة وللرحمة من العـذاب (لقوم يؤمنون) بالقرآن لانهم المغتنمون آثاره (والله أنزل من السمـاء ماء فأحيا به الارض بعدموتها) أى والله خلق السماء على وجه ينزل منه الماء ويصيرذلك المـاء سببالنبات الزرع والشجر ولخروج النور والثمر (ان فى ذلك) أى فى انزال الماء واحياء الارض اليابسة (لآية) دالة على وحدته تعالى وعلمه وقدرته وحكمته (لقوم يسمعون) هـذه المواعظ سماع تفـكر لان من لم يسمع بقلبه فكأنه أصم (وان لـكم فى الانعام لعبرة) عظيمة اذا تفـكرتم فيها (نسقيكم مما فى بطونه) أى الانعام قرأابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وحمزة والـكسائى نسقيكم بضم النون والباقون بالفتح (من بين فرث) أى روث فى الـكرش (ودم لبناخالصا) أى لايخالطه الفرث ولا الدم وقوله لبنامفعول ثان وقوله من بين حال من ماالتى للتبعيض أوللابتداء أومن لبناوعن ابن عباس انه قال اذا استقرالعلف فى الـكرش صارأسفله فرثا وأعـلاه دماوأوسطه لبنافيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضرع ويبـقى الفرث كماهو (سـائغا للشاربين) أى جاريافى حـلوقهـم لذيذافلايغص أحدباللبن (ومن ثمرات النخيل والاعنـاب) أى ونسقيكم من عصيرثمرات النخيل والاعناب (تتخذون منه سكرا) أى خمرا (ورزقاحسنا) كالدبس والخل والتمر والزبيب والله تعالى ذكرمافى هذه الاشياء من المنافع وخاطب بها المشركين والخمرمن اشربتهم فهـى منفعة فى حقهم ثم نبه فى هذه الآية على تحريمها لانه ميزبينهـا وبين الرزق الحسن فى الذكر فوجب ان لاتـكون الخمر رزقاحسناوالخمر يكون حسنابحسب الشهوة ولايكون حسنابحسب الشريعة وهذه الآية جامعة بين العتاب والمنة وهذا اذا كانت الخمر محرمة قبل نزوهـا وان كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فهـى دالة على كراهتها (ان فى ذلك) أى فى اخراج اللبن من بين الروث والدم وفى اخراج الخمر والرزق الحسـن من الثمرات (لآية) دالة على قـدرته تعالى (لقوم يعـقلون) أى يستعملون عقولهم بالتأمل فى الآيات فيعلمون ان هذه الاحوال لايقدرعليها الاالله تعالى (وأوحى ربك الى النحل) أى ألهـم ربك النحل (أن اتخذى من الجبال بيوتا) أى أوكارا (ومن الشجر) أى ممايوافق مصالحك ويليق بك (ومما يعرشون) أى ممـايرفعـه الناس ويبنونه لك أى ان الله قدرفى

أنفس النحل الاعمال العجيبة التى تعجز عنها العقلاء من البشر وذلك ان النحل تبنى بيوتا على شكل مسدس من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الاشكال لكان فيها فرج خالية ضائعة فالهام ذلك الحيوان الضعيف بهذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت الا بآلات مثل المسطر والفرجار (ثم كلى من كل الثمرات) أى من كل ثمرة تشتهينها مرها وحلوها (فاسلكى سبل ربك) أى فاذا أكلتها فاسلكى راجعة الى بيوتك سبل ربك (ذللا) حال من السبل أى مسخرة لك أو من الضمير فى اسلكى أى فاسلكى منقادة لما أمرت به ولذا يقسم يعسوبها أعمالها بينها فبعض يعمل الشمع وبعض يعمل العسل وبعض يستقى الماء ويصبه فى البيت وبعض يبنى البيوت (يخرج من بطونها شراب) أى عسل (مختلف ألوانه) من أبيض وأسود وأصفر وأحمر على قدر ما تأكل من الثمار والازهار أو بحسب اختلاف الفصل أو سن النحل فيستحيل المأكول فى بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من أفواهها يسيل كاللعاب (فيه) أى فى ذلك الشراب (شفاء للناس) من الاوجاع لا سيما البلغمية فانه فيها عظيم النفع وعن ابن مسعود العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور فعليكم بالشفاءين العسل والقرآن (ان فى ذلك) أى فى اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة وفى اهتدائها الى جمع الاجزاء العسلية من أطراف الاشجار والاوراق (لآية) أى لعبرة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر فى شؤون النحل جزم قطعا بان له خالقا قادرا حكيما يلهمها ذلك (والله خلقكم) فان خالق الابدان هو الله تعالى (ثم يتوفاكم) أى يقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم فان الحياة والموت انما حصلا بتخليق الله تعالى وبتقديره (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أى أحقره وهو الهرم قال العلماء عمر الانسان له أربع مراتب أولها سن النشو وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وثانيها سن الوقوف وهى من ذلك الى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل وثالثها سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة وهو من ذلك الى ستين سنة ورابعها سن الانحطاط الكبير وهو سن الشيخوخة وهو من ذلك الى خمسة وستين سنة وفيه يتبين النقص والهرم قال على بن أبى طالب أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقال قتادة تسعون سنة وقال السدى انه الخرف أى زوال العقل وقيل والمسلم لا يزداد بسبب طول العمر الا كرامة على الله تعالى وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر (لكيلا يعلم بعد علم شيأ) أى ليصير الى حالة شبيهة بحال الطفولية فى نقصان العقل وسوء الفهم وفى النسيان (ان الله عليم) بمقادير أعمالكم (قدير) على تحويلكم من حال الى حال وكان الانسان ميتا حين كان نطفة ثم صار حيا ثم مات فلما كان الموت الاول جائزا كان عود الموت جائزا فكذلك لما كانت الحياة الاولى جائزة وجب أن يكون عود الحياة جائزا فى المرة الثانية ومتى كان الامر كذلك ثبت أن القول بالبعث والنشر والحشر حق (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) أى فاوت بينكم فى الرزق كما فاوت بينكم فى الذكاء والبلادة والحسن والقبح والصحة والسقم (فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء) أى فليس الذين فضلوا فى الرزق على غيرهم بجاعلى رزقهم لعبيدهم حتى تكون عبيدهم فيه معهم سواء فى الملك وهم أمثالهم فى البشرية والمخلوقية والمرزوقية قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت هذه الآية فى نصارى نجران حين قالوا ان عيسى بن مريم ابن الله فالمعنى أنكم لا تشركون عبيدكم فيما ملكتم فتكونون سواء فكيف جعلتم عبدى عيسى ابنا لى وشريكا لى فى

الالهية (أفبنعمة الله يجحدون) فان من أثبت لله شريكا فقد أسند اليه بعض الخيرات فكان جاحدا لكونها من عند الله تعالى وأيضا ان أهل الطبائع وأهل النجوم يضيفون أكثر هذه النعم الى الطبائع والى النجوم وذلك يوجب كونهم جاحدين لكونها من الله تعالى وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر تجحدون بالتاء على الخطاب (والله جعل لكم من أنفسكم) أى من جنسكم (أزواجا) أى زوجات لتأنسوا بها وتقيموا بها مصالحكم قال الاطباء والتفاوت بين الذكر والانثى ان الذكر أسخن مزاجا والانثى أكثر رطوبة فالمنى اذا أنصب الى الخصية اليمنى من الرجل ثم أنصب منها الى الجانب الايمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما فى الذكورة وان أنصب الى الخصية اليسرى من الرجل ثم أنصب منها الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد أنثى تاما فى الانوثة وان انصب الى الخصية اليمنى ثم انصب منها الى الجانب الايسر كان الولد ذكرا فى طبيعة الاناث وان انصب الى الخصية اليسرى ثم انصب منها الى الجانب الايمن من الرحم كان الولد أنثى فى طبيعة الذكور (وجعل لكم من أزواجكم) أى من نسائكم (بنين وحفدة) أى خدما يسرعون فى طاعتكم وهم اما أولاد الاولاد واما البنات فانهن يخدمن البيوت أتم خدمة وأما الاختان على البنات أى فيحصل لهم الاختان بسبب البنات (ورزقكم من الطيبات) أى بعض اللذائذ من النبات والحيوان فالمرزوق فى الدنيا أنموذج لما فى الآخرة وكل الطيبات فى الجنة (أفبالباطل يؤمنون) أى أيكفرون بالله الذى شأنه ذلك المذكور ويؤمنون بالباطل بأن يحرموا على أنفسهم طيبات أحلها الله لهم مثل البحيرة والسائبة والوصيلة ويبيحوا لانفسهم محرمات حرمها الله عليهم وهى الميتة والدم ولحم الخنزير وماذبح على النصب أى لم يحكمون بتلك الاحكام الباطلة (وبنعمة الله هم يكفرون) أى وبانعام الله فى تحليل الطيبات وتحريم الخبيثات يجحدون (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ) أى أيعبدون الأصنام التى لا تملك لعبدتهم رزقا من المطر والنبات لا قليلا ولا كثيرا فشيأ بدل من رزقا (ولا يستطيعون) أى وليس للاصنام استطاعة تحصيل الملك وهذا معطوف على مالا يملك وعبر عن الاصنام بلفظ ما اعتبارا للحقيقة وبلفظ جمع العقلاء اعتبارا لاعتقادهم فيها أنها آلهة (فلا تضربوا لله الامثال) أى لا تشبهوا الله تعالى بخلقه فى شأن من الشؤون فان عبدة الاوثان كانوا يقولون ان اله العالم أعظم من أن يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب أو هذه الاصنام ثم ان الكواكب والاصنام عبيد الاله الاكبر الاعظم فان أصاغر الناس يخدمون أكابر خدم الملك وأولئك الاكابر يخدمون الملك فكذا ههنا عندهذا قال الله تعالى لهم اتركوا عبادة هذه الاصنام والكواكب ولا تجعلوا لله الامثال التى ذكرتموها وكونوا مخلصين فى عبادة الاله القدير الحكيم (ان الله يعلم) أى خطأ قولكم الاشتغال بعبادة عبيد الملك أدخل فى التعظيم من الاشتغال بعبادة نفس الملك لان هذا الدليل قياس والقياس يجب تركه عند ورود النص (وأنتم لا تعلمون) ذلك فتقعون فى مهاوى الضلال (ضرب الله مثلا) بالعبد والحر (عبدا مملوكا لا يقدر على شئ) من التصرفات (ومن رزقناه منا رزقا حسنا) أى مستحسنا عند الناس مرضيا (فهو ينفق منه سرا وجهرا) أى حال السر والجهر (هل يستوون) أى هل يستوى العبيد والاحرار الموصوفون بتلك الصفات مع أن الفريقين سيان فى البشرية والمخلوقية لله تعالى وأن ما ينفقه الاحرار ليس مما لهم دخل فى ايجاده بل هو مما أعطاه الله تعالى اياهم فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برب العالمين حيث تشركون به مالا ذليل أذل منه وهو الاصنام والمعنى لو فرضنا عبدا مملوكا لا يقدر على التصرف وحرا غنيا كريما كثير الانفاق فى كل وقت فصريح

العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما فى التعظيم والاجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما فى الصورة والبشرية فكيف يجوز للعاقل أن يسوى بين الله القادر على الرزق وبين الاصنام التى لا تقدر البتة (الحمد لله) أى كل الحمد لله تعالى لانه معطى جميع النعم لا يستحقه أحد غيره فضلا عن استحقاق العبادة (بل أكثرهم لا يعلمون) ان كل الحمد لله وحده فيسندون نعمه تعالى الى غيره ويعبدونه لاجلها وبعض الكفار يعلمون ذلك وانما لا يعلمون سبب الحمد عنادا كقوله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم) أى الذى لا يحسن الكلام ولا يعقل (لا يقدر على شئ) للعجز التام وللنقصان الكامل (وهو كل على مولاه) أى هذا الابكم ثقيل على من يعوله (أينما يوجهه لا يأت بخير) أى أينما يرسله من يلى أمره فى وجه معين لا يأت بمطلوب لانه عاجز لا يحسن شيأ ولا يفهم (هل يستوى هو) أى هذا الموصوف بهذه الصفات الاربع (ومن يأمر بالعدل) أى من هو منطيق فهم ينفع الناس بحثهم على العدل (وهو على صراط مستقيم) أى وهو عادل مبرأ عن العبث واذا ثبت فى بديهة العقل أن الابكم العاجز لا يساوى الناطق القادر الكامل فى الفضل والشرف مع استوائهما فى البشرية فلان نحكم بأن الجماد لا يكون مساويا لرب العالمين فى المعبودية أولى (ولله غيب السموات والارض) أى ولله تعالى خاصة الامور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة فان علمه تعالى حضورى وتحقق الغيوب فى أنفسها علم بالنسبة اليه تعالى وهذا بيان كمال العلم (وما أمر الساعة الا كلمح البصر) أى وما أمر اقامة الساعة وهى اماتة الاحياء واحياء الاموات من الاولين والآخرين وتبديل صور الاكوان أجمعين الا كرجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها فى سهولته (أو هو أقرب) أى بل أمر اقامة الساعة أقرب من طرف العين فى السرعة بأن يكون فى زمان نصف تلك الحركة فالله تعالى يحيى الخلق دفعة وهى فى جزء غير منقسم وهذا بيان كمال القدرة (ان الله على كل شئ قدير) فان الله تعالى متى أراد شيأ ايجاده أو اعدامه حصل فى أسرع ما كان (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ) أى غير عارفين شيأ أصلا (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) أى جعل لكم هذه الاشياء آلات تحصلون بها المعرفة (لعلكم تشكرون) أى لكى تستعملوها فى شكر ما أنعم الله به عليكم طورا غب طور فتسمعوا مواعظ الله وتبصروا دلائل الله وتعقلوا عظمة الله (ألم يروا الى الطير) أى ألم ينظر كفار مكة بابصارهم اليها وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى تروا بالتاء على خطاب العامة (مسخرات) أى مذللات للطيران (فى جو السماء) أى فى الهواء المتباعد من الارض قال كعب الاحبار ان الطير ترتفع فى الجو مسافة اثنى عشر ميلا ولا ترتفع فوق ذلك (ما يمسكهن) فى الجو حين قبض أجنحتهن وبسطها ووقوفهن (الا الله) بقدرته الواسعة فان جسد الطير ثقيل يمتنع بقاؤه فى الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه فبقاؤه فى الجو معلقا فعله وحاصل باختياره فثبت أن خالق فعل العبد هو الله تعالى (ان فى ذلك) أى تسخير الطير للطيران بأن جعل لها أجنحة خفيفة وأذنابا كذلك فاذا بسطت أجنحتها وأذنابها تخرق ما بين يديها من الهواء (لآيات) أى لعلامات لوحدانية الله تعالى (لقوم يؤمنون) أى يصدقون أن امساكهن من الله تعالى فانه تعالى أعطى الطير جناحا يبسطه مرة ويكسره مرة أخرى وخلق الهواء خلقة رقيقة يسهل بسبب خرقه ولولا ذلك لما أمكن الطيران (والله جعل لكم من بيوتكم) التى تبنونها (سكنا) أى موضعا تسكنون فيه (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) مغايرة لبيوتكم المعهودة هى الخيام (تستخفونها) أى

تجدونها خفيفة عليكم فى حملها ونقلها ونقضها فى أسفاركم (يوم ظعنكم) أى وقت سيركم فى أسفاركم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح العين (ويوم اقامتكم) أى وقت نزولكم فى الضرب (ومن أصوافها) أى الانعام (وأوبارها وأشعارها أثاثا) أى وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الابل وأشعار المعز أنواع متاع البيت من الفرش والاكسية (ومتاعا) أى ما ينتفع به فى البيت خاصة ويتزين به (الى حين) أى الى وقت البلاء (والله جعل لكم مما خلق) من غير صنع من جهتكم (ظلالا) أى ما يستظلون به من شدة الحر وهى ظلال الجدران والاشجار والجبال والغمام (وجعل لكم من الجبال اكنانا) أى مواضع تستكنون فيها من شدة البرد والحر من الكهوف والغيران والسروب (وجعل لكم سرابيل) أى ثيابا من القطن والكتان والصوف وغيرها (تقيكم الحر) فى الصيف والبرد فى الشتاء ولم يذكر الله تعالى وقاية البرد لتقدمه فى قوله تعالى فيها دفء (وسرابيل) أى جواشن (تقيكم بأسكم) أى الشدة الذى يصل الى بعضكم من بعض فى الحرب من الطعن والضرب والرمى (كذلك) أى مثل ما خلق الله هذه الاشياء لكم وأنعم بها عليكم (يتم نعمته) فى الدنيا (عليكم لعلكم) يا أهل مكة (تسلمون) أى تؤمنون به تعالى وتنقادوا لامره وقرئ تسلمون بفتح التاء واللام أى لكى تسلموا من الجراحات أو من الشرك (فان تولوا) أى أعرضوا عن الاسلام وآثروا متابعة الآباء فلا نقص من جهتك (فانما عليك البلاغ المبين) أى لان وظيفتك هى البلاغ الواضح فقد فعلته (يعرفون نعمة الله) أى يقرون أن هذه النعم كلها من الله (ثم ينكرونها) أى لا يشكرونها بالتوحيد لانهم قالوا انما حصلت هذه النعم بشفاعة هذه الاصنام (وأكثرهم الكافرون) أى المنكرون بقلوبهم غير مقرين بأن هذه النعم من الله (ويوم نبعث) أى وخوفهم يوم نأتى (من كل أمة شهيدا) يشهد لهم بالايمان وعليهم بالكفر وهو نبيها (ثم لا يؤذن للذين كفروا) فى الاعتذار وفى كثرة الكلام ليظهر لهم كونهم آيسين من رحمة الله تعالى (ولاهم يستعتبون) أى لا يكلفون أن يرضوا ربهم بالعبادات فلا يقال لهم ارضوا ربكم بالتوبة لان الآخرة ليست بدار عمل وانما هى دار الجزاء (واذا رأى الذين ظلموا) أنفسهم بالكفر (العذاب) أى عذاب جهنم بعد شهادة الشهداء (فلا يخفف عنهم) ذلك العذاب (ولاهم ينظرون) أى يمهلون فعذابهم يكون دائما لان التوبة هناك غير موجودة (واذا رأى الذين أشركوا) أى اذا أبصروا يوم القيامة (شركاءهم) أى الاصنام التى يسمونها شركاء الله تعالى (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا) أى آلهتنا (الذين كنا ندعوا) أى نعبدهم (من دونك) أى هؤلاء الذين كنا نقول انهم شركاء الله فى المعبودية (فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون) أى فبادر شركاؤهم بالجواب الى المشركين بقولهم انكم لكاذبون فى قولكم انا نستحق العبادة وأنكم عبدتمونا حقيقة بل انما عبدتم أهواءكم والمعنى أنه تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق فى تلك الاصنام حتى تقول هذا القول (وألقوا الى الله يومئذ السلم) أى أسرع المشركون الى الله يومئذ الانقياد لحكم الله فاقروا بالبراءة عن الشركاء وربوبية الله بعد ان كانوا فى الدنيا متكبرين عنه لما عجزوا عن الجواب لكن الانقياد فى هذا اليوم لا ينفعهم لانقطاع التكليف فيه (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى ذهب عنهم افتراؤهم على الله من أن لله شريكا وبطل أملهم من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى (الذين كفروا) فى أنفسهم (وصدوا عن سبيل الله) أى منعوا الناس عن الدخول فى الاسلام وحملوهم على الكفر (زدناهم عذابا فوق العذاب) أى بحيات وعقارب وجوع وعطش وزمهرير وغير ذلك فيخرجون من النار الى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد الى النار (بما كانوا

يفسدون) بذلك الصد (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) وهو أعضاؤهم فالله تعالى ينطق عشرة من أعضاء الانسان حتى أنها تشهد عليه وهي العينان والاذنان والرجلان واليدان والجلد واللسان (وجئنا بك) ياسيد الرسل (شهيدا على هؤلاء) أي الامم كلهم (ونزلنا عليك الكتاب) أي القرآن (تبيانا لكل شئ) من أمور الدين بنص فيه على بعضها وباحالته لبعضها على السنة أو على الاجماع أو على القياس فكانت السنة والاجماع والقياس مستندة الى تبيان الكتاب (وهدى ورحمة) للعالمين فان حرمان الكفرة من مغانم آثار الكتاب من تفريطهم لا من جهة الكتاب (وبشرى للمسلمين) خاصة لانهم المنتفعون بذلك (ان الله يأمر بالعدل) أي بالتوسط في الامور وهو رأس الفضائل كلها فيندرج تحته فضيلة القوة العقلية فالحكمة متوسطة بين الجربزة والبلادة وفضيلة القوة الشهوية البهيمية فالعفة متوسطة بين الخلاعة والخمود وفضيلة القوة الغضبية السبعية فالشجاعة متوسطة بين التهور والجبن ويندرج فيه أيضا الحكم الاعتقادية فالتوحيد متوسط بين التعطيل والتشريك فنفي الاله تعطيل محض واثبات أكثر من اله واحد تشريك والعدل هو اثبات الاله الواحد وهو قول لا اله الا الله والقول بالكسب متوسط بين الجبر والقدر فان القول بأن العبد ليس له قدرة واختيار جبر محض والقول بأن العبد مستقل بافعاله قدر محض والعدل أن يقال ان العبد يفعل الفعل لكن بواسطة قدرة وداعية يخلقهما الله تعالى فيه والقول بأن الله تعالى لا يؤاخذ عبده على شئ من الذنوب مساهلة عظيمة والقول بانه تعالى يخلد في النار عبده الآتي بالمعصية الواحدة تشديد عظيم والعدل هو القول بانه تعالى يخرج من النار كل من اعتقد أنه لا اله الا الله ويندرج تحته أيضا الحكم العملية فالتعبد باداء الواجبات متوسط بين البطالة والترهب والختان مأمور به في شريعتنا فان ابقاء الجلدة مبالغة في تقوية اللذة والاخصاء وقطع الآلات كما عليه المانوية افراط فكانت الشريعة انما أمرت بالختان سعيا في تقليل تلك اللذة حتى يصير ميل الانسان الى قضاء شهوة الجماع الى حد الاعتدال ولئلا تصير الرغبة فيه غالبة على الطبع ويندرج تحته أيضا الحكم الخلقية فالجود متوسط بين البخل والتبذير وشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسط بين التشديد والتساهل قال الله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا أي متباعدين عن طرفي الافراط والتفريط في كل الامور ولما بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادات قال تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ولما أخذ قوم في المساهلة قال تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا والمطلوب رعاية العدل بين طرفي الافراط والتفريط (والاحسان) أي المبالغة في أداء الطاعات اما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل واما بحسب الكيفية كالاستغراق في شهود مقامات الربوبية والحاصل ان العدل عبارة عن القدر الواجب والاحسان عبارة عن الزيادة في ذلك (وايتاء ذي القربى) أي اعطاء الاقارب ما يحتاجون اليه قال صلى الله عليه وسلم ان أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم (وينهى عن الفحشاء) أي المعاصي كلها (والمنكر) وهو ما لا يعرف في شريعة (والبغي) أي الاستعلاء على الناس والترفع والحاصل ان الفحشاء هي الافراط في متابعة القوة الشهوية فهي انما ترغب في تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن اذن الشريعة وان المنكر هو الافراط في اظهار آثار القوة الغضبية السبعية فهي انما تسعى في الايذاء الى سائر الناس وايصال البلاء اليهم فالناس ينكرون تلك الحالة وان البغي من آثار القوة الوهمية الشيطانية فهي انما تسعى في التطاول على الناس والترفع عليهم واظهار الرياسة والتقدم (يعظكم) أي يأمركم بتلك الثلاثة وينهاكم عن هذه الثلاثة (لعلكم تذكرون) أي لارادة أن تتذكروا

طاعته تعالى وهذا يدل على ان الله تعالى يطلب الايمان من الكل (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) وهو العهد الذى يلتزمه الانسان باختياره فيدخل فيه المبايعة على الايمان بالله و برسوله وعهد الجهاد وعهد الوفاء بالمنذورات والاشياء المؤكدة باليمين (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) بالقصد فيفرق بين اليمين المؤكد بالعزم و بين لغو اليمين (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) أى شاهدا فان من حلف بالله قد جعل الله كفيلا بالوفاء بسبب ذلك الحلف وهذه واو الحال أى لا تنقضوا الايمان وقد قلتم الله شاهد علينا بالوفاء (ان الله يعلم ما تفعلون) من النقض والوفاء فيجازيكم على ذلك ان خيرا فخير وان شرا فشر وفى هذا ترغيب وترهيب (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة) أى من بعد قوة الغزل بفتلها وابرامها (أنكاثا) أى أنقاضا وهو مفعول ثان لنقضت بمعنى جعلت أو حال من غزلها مؤكدة لعاملها أى منكوثا قيل المشبه به معين وهى امرأة فى مكة اسمها رائطة بنت سعد بنت تيم وقيل تلقب بجعرانة وكانت حمقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع وسنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل الصوف والوبر هى وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن (تتخذون أيمانكم دخلا) أى مكرا (بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة) وهو استفهام بمعنى الانكار والمعنى أتصيرون ايمانكم غشا بينكم بسبب ان أمة أزيد فى القوة والكثرة من أمة أخرى قال مجاهد كان قريش يحالفون الحلفاء ثم اذا وجدوا شوكة فى اعادى حلفائهم نقضوا عهدهم مع الحلفاء وعاهدوا اعداء حلفائهم (انما يبلوكم الله به) أى يعاملكم بالاكثر معاملة من يختبركم لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله أم تغترون بكثرة قوم (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) فى الدنيا أى حين يجازيكم على أعمالكم بالثواب والعقاب (ولو شاء الله) مشيئة قسر (لجعلكم أمة واحدة) متفقة على الاسلام (ولكن) لم يشأ ذلك بل شاء اختلافكم لقضية حكمة يعلمها الله ولذلك (يضل من يشاء و يهدى من يشاء) وروى الواحدى ان عزيرا قال يارب خلقت الخلق فتضل من تشاء وتهدى من تشاء فقال ياعزير أعرض عن هذا فأعاده ثانيا فقال اعرض عن هذا فأعاده ثالثا فقال اعرض عن هذا والا محوت اسمك من النبوة (ولتسئلن) جميعا يوم القيامة (عما كنتم تعملون) فى الدنيا وهذا اشارة الى الكسب الذى عليه يدور أمر الهداية والضلال (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا) أى خديعة (بينكم) أى لا تنقضوا عهدكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وبشرائعه (فتزل قدم بعد ثبوتها) على الطريق الحق بالايمان أى فتزلوا عن طاعة الله فان من نقض عهد الاسلام فقد سقط عن الدرجات العالية ووقع فى الضلالة (وتذوقوا السوء) أى العذاب فى الدنيا (بما صددتم عن سبيل الله) أى بامتناعكم عن دين الله و بصرفكم الناس عنه بأيمانكم التى أردتم بها اخفاء الحق (ولكم) مع ذلك فى الآخرة (عذاب عظيم) أى غير منفك اذا متم على ذلك (ولا تشتروا بعهد الله) أى لا تأخذوا بمقابلة بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) أى عرض الدنيا وكانت قريش يعدون ضعفة المسلمين على الارتداد بحطام الدنيا أى انكم وان وجدتم على نقض عهد الاسلام خيرا من خيرات الدنيا لا تلتفتوا اليه وان كان كثيرا لان الذى أعده الله تعالى على الاستمرار على الاسلام أفضل مما تجدونه فى الدنيا على نقض عهد الاسلام (ان ما عند الله) من ثواب الدارين الغنيمة والثواب الاخروى (هو خير لكم) مما يعدونه (ان كنتم تعلمون) تفاوت ما بين العوضين (ما عندكم ينفد) وان جم عدده (وما عند الله) من خزائن رحمته الدنيوية والاخروية (باق) لا نفاد له (ولنجزين الذين صبروا) على مشاق التزام شرائع

الاسلام (أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى بحسب أحسن افراد أعمالهم والمعنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الادنى من أعمالهم ما نعطيه بمقابلة الفرد الاعلى منها من الاجر الجزيل وفى هذا من العدة الجميلة باغتفار ما قد يطرأ عليهم فى اثناء الصبر من بعض جزع وبنظمه فى سلك الصبر الجميل وقرأ ابن كثير وعاصم ولنجزينهم بنون العظمة على طريقة الالتفات والباقون بالياء من غير التفات واللام لام قسم أى والله ليجزين الله (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) فى الدنيا فيعيش عيشا طيبا فالموسر ظاهر والمعسر يطيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقع الأجر العظيم فان قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله تعالى والقلب اذا كان مملوأ من هذه المعارف لم يتسع للاحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا أما قلب الجاهل فانه خال عن معرفة الله تعالى فيصير مملوأ من الاحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا (ولنجزينهم) فى الآخرة (أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى بجزاء أحسن من أعمالهم (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) أى فاذا أردت قراءة القرآن فاسأل الله ان يعصمك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله لئلا يوسوسك فى القراءة أى فقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهذا الامر للندب عند الجمهور وللوجوب عند عطاء وحيث أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة عند قراءة القرآن فما ظنكم بمن عداه صلى الله عليه وسلم فيمن عدا القراءة من الاعمال (انه) أى الشيطان (ليس له سلطان) أى تسلط (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) أى والى ربهم يفوضون أمورهم وبه يعوذون فى كل ما يأتون ويذرون فان وسوسته لا تؤثر فيهم ودعوته غير مستجابة عندهم (انما سلطانه) أى ولايته بدعوته (على الذين يتولونه) أى يطيعونه (والذين هم به) أى بربهم (مشركون) أى والذين هم بسبب حمل الشيطان اياهم على الشرك بالله صاروا مشركين (واذا بدلنا آية مكان آية) أى واذا نسخنا حكم آية فابدلنا مكانه حكما آخر (والله أعلم بما ينزل) من التغليظ والتخفيف فى مصالح العباد وما الشرائع الا مصالح للعباد فى المعاش والمعاد فالمصالح تدور وهذه الجملة اعتراضية بين الشرط وجوابه لتوبيخ الكفرة على كونهم ينسبون رسول الله الى الافتراء فى التبديل وللتنبيه على فساد رأيهم (قالوا) أى الكفار من أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم (انما أنت مفتر) أى مختلق من تلقاء نفسك قال ابن عباس رضى الله عنهما اذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ألين منها تقول كفار قريش والله ما محمد الا يسخر باصحابه اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه وانه لا يقول هذه الاشياء الا من عند نفسه فانزل الله تعالى هذه الآية (بل أكثرهم لا يعلمون) ان الله لا يأمر عباده الا بما يصلح لهم وان فى النسخ حكما بالغة واسناد هذا الحكم الى الاكثر لما أن منهم من يعلم ذلك وانما ينكره عنادا (قل نزله) أى القرآن (روح القدس) أى الروح المطهر من الادناس البشرية وهو جبريل (من ربك) يا أكرم الخلق (بالحق) أى بالموافق للحكمة (ليثبت الذين آمنوا) على الايمان بأن القرآن كلام الله فانهم اذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم (وهدى وبشرى للمسلمين) وهذان معطوفان على ليثبت فهما منصوبان باعتبار محله ومجروران باعتبار المصدر المؤول (ولقد نعلم أنهم) أى كفار مكة (يقولون انما يعلمه بشر) أى انما يعلم محمدا القرآن بشر لا جبريل كما يدعى قال عبد الله بن مسلم الحضرمى كنا عبدين لنا أحدهما يقال له يسار والآخر جبر وكانا يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والانجيل وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه فأجاب الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى (لسان

الذى

الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) أي كلام الذي ينسبون اليه عبراني لم يتكلم بالعربية ولم يأت بفصيح الكلام وهذا القرآن كلام عربي ذو بيان وفصاحة فكيف يعلم محمدا وهو جاء كم بهذا القرآن الفصيح الذي عجزتم عنه وأنتم أهل الفصاحة فكيف يقدر من هو أعجمي على مثل هذا القرآن وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذي تشيرون اليه فثبت بهذا الدليل أن القرآن وحي أوحاه الله الى محمد وليس هو من تعليم الذي تشيرون اليه ولا هو آت به من تلقاء نفسه بل هو وحي من الله تعالى (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) أي لا يصدقون أنها من عند الله بل يسمونها افتراء أو معلمة من البشر (لا يهديهم الله) الى طريق الجنة (ولهم) في الآخرة (عذاب أليم) أي بل يسوقهم الى النار (انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) أي ان المفتري هو الذي يكذب بآيات الله ويقول انها افتراء ومعلمة من البشر وهذا رد لقولهم انما أنت مفتر وقلب للامر عليهم ببيان أنهم هم المفترون (وأولئك هم الكاذبون) أي الكاملون في الكذب اذ لا كذب أعظم من تكذيب آيات الله تعالى (من كفر بالله من بعد ايمانه) أي من تلفظ بكلمة الكفر من بعد ايمانه به تعالى فعليه غضب من الله فمن موصولة مبتدأ وخبره محذوف لدلالة الخبر الآتي عليه (الا من أكره) على التلفظ بالكفر فتلفظ به بأمر لا طاقة له به كالتخويف بالقتل كالضرب الشديد وكالايلامات القوية مما يخاف على نفسه أو على عضو من أعضائه (وقلبه مطمئن بالايمان) أي والحال ان قلبه لم تتغير عقيدته وهذا دليل على ان الايمان هو التصديق بالقلب (ولكن من شرح بالكفر صدرا) أي ولكن من اعتقد الكفر وانشرح به قلبا (فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) روي ان قريشا أكرهوا عمارا وأباه ياسر وأمه سمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين وضربها أبو جهل بحربة في فرجها فماتت وقتل ياسر وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوا عليه فقيل يا رسول الله ان عمارا كفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال مالك ان عادوا لك فقل لهم ما قلت فنزلت هذه الآية (ذلك) أي الكفر بعد الايمان (بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) أي بسبب انهم رجحوا الدنيا على الآخرة (وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) أي وبأنه تعالى ما هداهم الى الايمان وما عصمهم عن الكفر (أولئك) الموصوفون بتلك القبائح (الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فأبت عن التأمل في الحق وادراكه (وأولئك هم الغافلون) عما يراد بهم في الآخرة من العذاب فلا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر عواقب الامور (لا جرم) أي حق (أنهم في الآخرة هم الخاسرون) حيث صرفوا أعمارهم فيما أفضى بهم الى العذاب المخلد (ثم ان ربك للذين هاجروا) الى المدينة أي ناصرهم (من بعد ما فتنوا) أي عذبوا نزلت هذه الآية في عياش بن ربيعة أخي أبي جهل من الرضاعة أو من أمه وفي أبي جندل بن سهل والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعبد الله بن أسد الثقفي فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ثم انهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا وقرأ ابن عامر فتنوا بالبناء للفاعل أي عذبوا المؤمنين كعامر بن الحضرمي أكره مولاه جبرا الرومي حتى ارتد ثم أسلما وحسن اسلامهما وهاجرا (ثم جاهدوا) في سبيل الله (وصبروا) على الطاعة والمرازي (ان ربك من بعدها) أي من بعد هذه الاعمال الثلاثة (لغفور) لما فعلوا من قبل (رحيم) فينعم عليهم مجازاة على ما صنعوا من بعد وهذه الآية ان كانت نازلة فيمن أظهر الكفر فالمراد أن حاله اذا هاجر وجاهد وصبر كحال

من لا يكره فلا اثم له فى ذلك وان كانت واردة فيمن ارتد فالمراد ان التوبة والقيام بما يجب عليه يحصلان له الغفران والرحمة ويزيلان العتاب (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) فالظرف منصوب برحيم أو بمحذوف أى ذكرهم يوم يأتى كل انسان يعتذر عن ذاته ويسعى فى خلاصه من العذاب كقولهم هؤلاء أضلونا السبيلا وقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك من الاعتذارات وروى عكرمة عن ابن عباس فى هذه الآية قال ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد فيقول الروح يارب لم يكن لى يد أبطش بها ولا رجل أمشى بها ولا عين أبصر بها فضعف عليه العذاب فيقول الجسد يارب أنت خلقتنى كالخشبة ليس لى يد أبطش بها ولا رجل أمشى بها ولا عين أبصر بها فجاء هذا الروح كشعاع النور فبه نطق لسانى وبه أبصرت عيناى وبه مشت رجلاى فيضرب الله لهما مثلا أعمى ومقعدا دخلا بستانا فيه ثمار فالاعمى لا يبصر الثمر والمقعد لا يتناوله فحمل الاعمى المقعد فأصابا الثمر فعلى من يكون العذاب قالا عليهما قال الله تعالى عليكما جميعا العذاب (وتوفى كل نفس ما عملت) أى وتعطى كل نفس جزاء ما عملت كاملا (وهم لا يظلمون) بالعقاب بغير ذنب وبالزيادة فى العقاب على الذنوب (وضرب الله مثلا قرية) أى جعل الله مثلا أهل قرية مكة (كانت آمنة) أى كان أهلها ذوى أمن فلا يحتاجون الى الانتقال عنها بسبب الخوف من العدو (مطمئنة) أى كان أهلها صالحا لان هواء ذلك البلد لما كان ملائما لامزجتهم اطمأنوا اليه واستقروا فيه فلا يحتاجون الى الانتقال منه بسبب الامراض (يأتيها رزقها رغدا من كل مكان) أى يأتى أهل تلك القرية أقوات واسعة من نواحيها من بر وبحر فلا يحتاجون الى الانتقال عنها بسبب ضيق الرزق قالت العقلاء من بحر الرجز

ثلاثة ليس لها نهايه * الامن والصحة والكفايه

(فكفرت بأنعم الله) أى كفر أهلها بنعمه تعالى وهى نعمة الامن والصحة والرزق الواسع (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) أى أذاق الله أهلها ضرر الجوع والخوف من حرب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فان الاحوال التى حصلت لهم عند الجوع والخوف نوعان أحدهما انه لما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع والخوف فأشبها الطعام وثانيهما ان أثر الجوع والخوف لما اشتد صار كأنه أحاط بهم من كل الجهات فأشبه اللباس وقد ظهر أثرهما عليهم من الهزال وصفرة اللون ونهكة البدن وسوء الحال وكسوف البال ويشبه أيضا أثر الخوف باللباس فى الاحاطة واللزوم وأثر الجوع بالطعام المر البشع فى الكراهة (بما كانوا يصنعون) من تكذيب النبى صلى الله عليه وسلم واخراجه من مكة وهم قتله فالله تعالى ابتلاهم بالجوع سبع سنين فقطع عنهم المطر وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة والعلهز وهو وبر يخلط بالدم والقد وهو جلد الماعز الصغير حتى كان أحدهم ينظر الى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع وأما خوفهم فهو لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يبعث اليهم السرايا فيغيرون على من حولهم من العرب فكان أهل مكة يخافونهم ثم ان رؤساء مكة أرسلوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب فى جماعة فقدموا المدينة عليه وقال له أبو سفيان يا محمد انك جئت تأمر بصلة الرحم والعفو وان قومك قد هلكوا فادع الله لهم فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذن للناس بحمل الطعام اليهم وهم بعد مشركون وهذه الآية نزلت فى المدينة لان الله تعالى وصف القرية بصفات ست كانت هذه الصفات موجودة فى أهل مكة فضربها الله مثلا لاهل المدينة يحذرهم أن يصنعوا مثل صنيعهم فيصيبهم

مثل

مثل ما أصابهم من الجوع والخوف والنبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالقتال وهو بمكة وانما أمر بالقتال لما هاجر الى المدينة فكان يبعث السرايا الى حول مكة يخوفهم بذلك وهو بالمدينة (ولقد جاءهم) أى جاء أهل تلك القرية وهى مكة (رسول منهم) أى من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فاخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وأنذرهم سوء عاقبة ما يأتون وما يذرون (فكذبوه) فى رسالته (فأخذهم العذاب) بالجوع الذى كان بمكة (وهم ظالمون) أى والحال انهم كافرون بتكذيب رسول الله (فكلوا) يا معشر المسلمين (مما رزقكم الله) أى من الغنائم (حلالا طيبا) أى انكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهى الميتة والدم (واشكروا نعمة الله) أى واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران (ان كنتم اياه تعبدون) أى تطيعون (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) فهذه الآية دالة على حصر المحرمات فى هذه الاربع فالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع داخلة فى الميتة وما ذبح على النصب داخل تحت قوله تعالى وما أهل لغير الله به (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) أى فمن دعته ضرورة المخمصة الى تناول شئ من ذلك غير ظالم على مضطر آخر ولا متجاوز قدر الضرورة وسد الرمق فالله لا يؤاخذه بذلك (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) أى ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لاجل ذكر ألسنتكم الكذب ولتعودها به (لتفتروا على الله الكذب) وهذا بدل من التعليل الاول أى انهم كانوا ينسبون ذلك التحليل والتحريم الى الله تعالى ويقولون ان الله أمرنا بذلك (ان الذين يفترون على الله الكذب) فى أمر من الامور (لا يفلحون) أى لا يفوزون بخير لا فى الدنيا ولا فى الآخرة (متاع قليل) أى منفعتهم فى أفعال الجاهلية منفعة قليلة (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم وعلى الذين هادوا) خاصة (حرمنا ما قصصنا عليك) يا أشرف المرسلين (من قبل) أى من قبل تحريمنا على أهل ملتك ما عدد لك من المحرمات وهو الذى سبق ذكره فى سورة الانعام (وما ظلمناهم) بتحريم ذلك (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا ما يؤدى ذلك التحريم (ثم ان ربك للذين عملوا السوء) أى الكفر والمعاصى (بجهالة) أى بسبب جهالة لان أحدا لا يختار الكفر ما لم يعتقد كونه حقا ولا يفعل المعصية ما لم تصر الشهوة غالبة للعقل فكل من عمل السوء يكون بسبب الجهالة (ثم تابوا من بعد ذلك) أى عمل السوء (وأصلحوا) بأن آمنوا وأطاعوا الله (ان ربك من بعدها) أى التوبة (لغفور) لذلك السوء (رحيم) يثيب على طاعتهم تركا وفعلا أى لما بالغ الله فى تهديد المشركين على أنواع قبائحهم من انكار البعث والنبوة وكون القرآن من عند الله وتحريم ما حل الله وتحليل ما حرمه بين الله أن مثال تلك القبائح لا تمنعهم من قبول التوبة وحصول المغفرة والرحمة اذا ندموا على ما فعلوا وآمنوا فالله يخلصهم من العذاب (ان ابراهيم كان أمة) على انفراده لكماله فى صفات الخير وجمعه فضائل وهو رئيس أهل التوحيد ولانه كان مؤمنا وحده والناس كلهم كانوا كفارا ولذلك وصفه بتسع صفات (قانتا لله) أى مطيعا له تعالى قائما بأمره (حنيفا) أى مائلا عن كل دين باطل الى الدين الحق لا يزول عنه (ولم يك من المشركين) فى أمر من أمور دينهم فانه كان من الموحدين فى الصغر والكبر (شاكرا لأنعمه) روى أن ابراهيم عليه السلام كان لا يتغذى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فأخر غداءه فاذا هو بقوم من الملائكة فى صورة البشر فدعاهم الى الطعام فاظهروا ان بهم علة الجذام فقال الآن يجب على مؤاكلتكم فلولا عزتكم على الله تعالى لما ابتلاكم بهذا البلاء (اجتباه) أى اصطفاه للنبوة (وهداه الى صراط مستقيم) أى هداه فى الدعوة الى طريق موصل الى

الله تعالى وهو ملة الاسلام (وآتيناه فى الدنيا حسنة) أى ولدا صالحا وسيرة حسنة عند كل أهل الاديان لجميع الملل يترضون عن ابراهيم ولا يكفر به أحد (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) أى لمن أصحاب الدرجات العالية فى الجنة (ثم أوحينا اليك) ياسيد المرسلين مع علو طبقتك (أن اتبع ملة ابراهيم) أى فى كيفية الدعوة الى التوحيد وهو أن يدعو اليه بطريق الرفق والسهولة وايتان الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة على ماهو الطريقة المألوفة فى القرآن (حنيفا) أى مائلا عن الباطل حال من ابراهيم (وما كان من المشركين) وهذا تكرير لما سبق لزيادة تأكيد فى الرد على المشركين حيث زعموا انهم كانوا على ملة ابراهيم (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) أى انما فرض تعظيم يوم السبت على الذين خالفوا نبيهم موسى عليه السلام لاجل يوم السبت فان أهل الملل اتفقوا على انه تعالى خلق العالم فى ستة أيام وبدأ تعالى بالتكوين من يوم الاحد وتم فى يوم الجمعة وكان يوم السبت يوم الفراغ فأمر سيدنا موسى عليه السلام اليهود أن يعظموا يوم الجمعة كما هو ملة ابراهيم عليه السلام بالتفرغ للعبادة فيه وترك الاشغال فيكون عيدا فخالفوا كلهم وقالوا نحن نوافق ربنا فى ترك الاعمال فاختاروا السبت فاذن الله تعالى لهم فيه وشدد عليهم بتحريم الاصطياد فيه وقالت النصارى مبدأ التكوين هو يوم الاحد فنجعل هذا اليوم عيدا لنا وقد جاءهم عيسى عليه السلام بالجمعة أيضا فقالوا لا نريد أن يكون عيد اليهود بعد عيدنا واتخذوا الاحد عيدا لهم وقلنا معشر الامة المحمدية يوم الجمعة هو يوم الكمال لحصول التمام يوجب الفرح الكامل فهو أحق بالتعظيم وبجعله عيدا وأيضا ان الله تعالى خلق فى يوم الجمعة أبا البشر آدم عليه السلام وهو أشرف خلقه وتاب عليه فيه فكان يوم الجمعة أشرف الايام لهذا السبب ولان الله تعالى اختار يوم الجمعة لهذه الامة ولم يختاروه لانفسهم (وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فى الدين فانه تعالى سيحكم للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب (ادع) يا أشرف الرسل من بعثت اليهم من الامة قاطبة (الى سبيل ربك) أى الى دينه (بالحكمة) أى الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية وهذه أشرف الدرجات وهى التى قال الله تعالى فى صفتها ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا (والموعظة الحسنة) أى الامارات الظنية والدلائل الاقناعية (وجادلهم بالتى هى أحسن) أى بدليل مركب من مقدمات مقبولة فالناس على ثلاثة أقسام * الاول أصحاب العقول الصحيحة الذين يطلبون معرفة الاشياء على حقائقها * والثانى أصحاب النظر السليم الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان * والثالث الذين تغلب على طباعهم المخاصمة لا طلب العلوم اليقينية فقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة الخ معناه ادع الاقوياء الكاملين الى الدين الحق بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الاشياء بحقائقها وهم خواص الصحابة وغيرهم وادع عوام الخلق بالدلائل الاقناعية الظنية وهم أرباب السلامة وفيهم الكثرة وتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الاحسن الاكمل وهى التى تفيد افحامهم والزامهم والجدل ليس من باب الدعوة بل المقصود منه قطع الجدل عن باب الدعوة لانها لا تحصل أى ولما أمر الله محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ابراهيم بين الشئ الذى أمره بمتابعته فيه وهو أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهى الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطريق الاحسن (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) الذى أمرك بدعوة الخلق اليه وأعرض عن قبوله (وهو أعلم بالمهتدين) اليه أى انك مكلف بالدعوة الى الله تعالى بهذه الطرق الثلاثة وحصول الهداية لا يتعلق بك فانه تعالى هو العالم بضلال النفوس المظلمة المكدرة وباهتداء النفوس المشرقة الصافية (وان عاقبتم) أى ان أردتم المعاقبة (فعاقبوا بمثل

ماعوقبتم به) أن عثل مافعل بكم ولا تزيدوا عليه وقدمر أنه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم ان يدعو الخلق الى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة وتلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وبالحكم عليه بالضلالة وذلك مما يشوش قلوبهم ويحمل أكثرهم على قصد ذلك الداعى بالقتل تارة وبالضرب ثانيا وبالشتم ثالثا ثم ان ذلك الداعى اذا عرف ذلك يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء بالقتل أو بالضرب فعند هذا أمر الله الداعى فى هذا المقام برعاية العدل وترك الزيادة وهى ظلم وهو ممنوع فى عدل الله ورحمته والله تعالى أمر فى هذه الآية برعاية الانصاف فيدخل فيها ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى عمه حمزة قد مثل به المشركون فى أحد فقطعوا أنفه وأذنيه وذكره وأنثييه وبقر وابطنه قال لئن أظفرنى الله بهم لامثلن بسبعين منهم مكانك فنزلت هذه الآية فكفر عن يمينه وكف عما أراده (ولئن صبرتم) عن المعاقبة بالمثل (لهو) أى الصبر (خير للصابرين) لان الرحمة أفضل من القسوة والنفع أفضل من الايلام والمقصود من هذه الآية تعليم حسن الادب فى كيفية الدعوة الى الله تعالى وطلب ترك الزيادة من الظالم وهذا ليس بمنسوخ (واصبر) على ما أصابك من جهتهم من فنون الاذية (وما صبرك) بشئ من الاشياء (الا بالله) أى بذكره وبالاستغراق فى مراقبة شؤنه تعالى وبالتبتل اليه تعالى بمجامع الهمة (ولا تحزن عليهم) أى الكافرين بسبب اعراضهم عنك واستحقاقهم للعذاب الدائم (ولا تك فى ضيق) أى غم وقرأ ابن كثير بكسر الضاد (مما يمكرون) أى من مكرهم بك فى المستقبل فالضيق اذا قوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل الجوانب (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وهذا يدل على أن كمال السعادة للانسان فى هذين الامرين التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله والمراد بالمعية هى بالرحمة والفضل والرتبة

﴿سورة بنى اسرائيل وتسمى سورة الاسراء وسبحان مكية غير قوله وان كادوا ليستفزونك الى قوله سلطانا نصيرا فهؤلاء الآيات الثمانية مدنيات وعدد آياتها مائة وعشر وكلماتها ألف وخمسمائة وثلاث وثلاثون وعدد حروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم سبحان الذى أسرى بعبده) أى تبرأ عن الشر بك من سير عبده محمدا صلى الله عليه وسلم (ليلا) أى فى جزء قليل من الليل (من المسجد الحرام) أى من حرم مكة من بيت أم هانئ بنت أبى طالب (الى المسجد الاقصى) أى الابعد من الارض وأقرب الى السماء وهو مسجد بيت المقدس وسمى أقصى لانه أبعد المساجد التى تزار ويطلب بها الاجر من المسجد الحرام وروى ان عبد الله ابن سلام قال فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم عند قراءته هذه الآية لانه وسط الدنيا لا يزيد شيأ ولا ينقص فقال صلى الله عليه وسلم صدقت ثم قال ويقال له البيت المقدس والزيتون ولا يقال له الحرم اه والحكمة فى اسرائه صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس ليحصل له العروج الى السماء مستويا من غير تعويج لما روى عن كعب ان باب السماء الذى يقال له مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس قال وهو أقرب الارض الى السماء بثمانية عشر ميلا وقيل الحكمة فى ذلك ان الشام خيرة الله تعالى من أرضه كما فى حديث صحيح فهى أفضل الارض بعد الحرمين وأول أقليم ظهر فيه ملكه صلى الله عليه وسلم وروى ان صخرة بيت المقدس من جنة الفردوس وقيل الحكمة فى ذلك لاظهار الحق على من عاند لانه لو عرج به

من مكة الى السماء لم يجد لمعانده سبيلا الى الايضاح فلما ذكر انه أسرى به الى بيت المقدس سألوه عن
أشياء من بيت المقدس كانوا علموا انه صلى الله عليه وسلم لم يكن رآها قبل ذلك لما أخبرهم بها حصل
التحقق بصدقه فيما ذكر من الاسراء به الى بيت المقدس فى ليلة واذا صح خبره فى ذلك لزم تصديقه
فى بقية ذلك من خبر المعراج الى السموات وقيل الحكمة فى ذلك ليجمع الله له صلى الله عليه وسلم بين القبلتين
(الذى باركنا حوله) أى المسجد الاقصى من أرض الشام بركة دنيوية بالمياه والاشجار وبركة دينية
لانه مهبط الوحى ومتعبد الانبياء وأماكنهم أحياء وأمواتا وفى قوله تعالى سبحان الذى أسرى الخ معنى
التنزيه والتعجب أشار الله تعالى بذلك الى أعجب أمر جرى بينه تعالى و بين أفضل خلقه (لنريه) أى
محمدا صلى الله عليه وسلم (من آياتنا) أى بعض عجائب قدرتنا العظيمة التى من جملتها ذهابه فى برهة
من الليل مسيرة شهر وثبت بالدليل ان خالق العالم قادر على كل الممكنات فحصول الحركة البالغة فى السرعة
الى هذا الحد فى جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممكن وحينئذ يلزم أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن
الوجود فى نفسه لكن يبقى التعجب لانه حاصل فى جميع المعجزات فانقلاب العصا ثعبانا تبلع سبعين ألفا
من الحبال والعصى ثم تعود فى الحال عصا صغيرة كما كانت أمر عجيب وخروج الناقة العظيمة من الجبل
الاصم واظلال الجبل العظيم فى الهواء عجيب وكذا القول فى جميع المعجزات فان كان مجرد التعجب يوجب
الانكار لزم الجزم بفساد القول باثبات المعجزات وهو فرع على تسليم أصل النبوة وان كان مجرد التعجب
لا يوجب الابطال فكذا ههنا فثبت ان المعراج ممكن غير ممتنع (انه هو السميع البصير) أى انه تعالى هو
السميع لاقوال محمد صلى الله عليه وسلم وأحواله بلا اذن البصير بأفعاله بلا عين فيكرمه ويقربه بحسب
ذلك أى فهو عالم بكونها مهذبة خالصة من شوائب الهوى مقرونة بالصدق والصفاء مستأهلة للقرب والزلفى
ويقال انه تعالى هو السميع لمقالة قريش البصير بهم روى عن ابن عباس انه صلى الله عليه وسلم كان نائما
فى بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به ورجع من ليلته وقص القصة على أم هانئ وقال مثل لى النبيون
فصليت بهم فلما قام ليخرج الى المسجد تشبثت هى بثوبه صلى الله عليه وسلم فقال مالك قالت أخشى ان
يكذبك الناس وقومك ان أخبرتهم قال وان كذبونى فلما خرج جلس اليه أبو جهل فأخبره بحديث الاسراء
فقال أبو جهل يا معشر كعب بن لؤى بن غالب هلم فحدثهم فمن مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا
وارتد ناس ممن كان آمن به صلى الله عليه وسلم وذهب رجال الى أبى بكر وقالوا له ان صاحبك يقول كذا
وكذا فقال أبو بكر ان كان قد قال ذلك فهو صادق قالوا أتصدقه على ذلك قال انى أصدقه على أبعد من ذلك
أى كأنه قال لما سلمت رسالته فقد صدقته فيما هو أعظم من هذا فكيف أكذبه فى هذا ثم جاء أبو بكر الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الرسول له تلك التفاصيل فكلما ذكر صلى الله عليه وسلم شيأ قال له أبو
بكر صدقت فلما تم الكلام قال أبو بكر أشهد انك رسول الله حقا فقال له الرسول وأنا أشهد أنك الصديق
حقا ويقال ان هذا العبد الذى اختصصناه بالاسراء هو خاصة السميع لكلامنا البصير لذاتنا فهو السميع
أذنا وقلبا بالاجابة لنا والقبول لاوامرنا البصير بصرا وبصيرة وتوسيط ضمير الفصل للاشعار باختصاصه
صلى الله عليه وسلم وحده بهذه الكرامة ولهذا عقب الله تعالى بقوله هذا (وآتينا موسى الكتاب) أى
التوراة أى لما ذكر الله تعالى تشريف محمد صلى الله عليه وسلم بالاسراء ذكر عقبه تشريف موسى
عليه السلام بانزال التوراة عليه مع ما فيه من دعوته عليه السلام الى الطور وما وقع فيه من المناجاة جمعا
بين الامرين المتحدين فى المعنى أى آتيناه التوراة بعد ما أسرينا به الى الطور (وجعلناه هدى لبنى

اسرائيل

اسرائيل) والضمير يعود الى الكتاب أو الى موسى أى جعلناموسى يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر الى نور العلم والدين الحق (أن لا تتخذوا) فلا ناهية وان بمعنى أى التفسيرية أو زائدة وتتخذوا على اضمار القول أى فقلنا لا تتخذوا وقرأ أبو عمرو ان لا يتخذوا بالياء خبرا عن بنى اسرائيل فان مصدرية ولا نافية ولام التعليل مقدرة والمعنى آتينا موسى الكتاب لهداية بنى اسرائيل لئلا يتخذوا (من دونى وكيلا) أى ربا تفوضون اليه أموركم (ذرية من حملنا مع نوح) نصب على الاختصاص على قراءة النهى وعلى مفعول يتخذوا الاول ومن دونى حال من وكيلا والتقدير لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا فالناس كلهم ذرية نوح لانه كان معه فى السفينة ثلاثة بنين سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك (انه) أى نوحا (كان عبدا شكورا) أى كثير الشكر فى جميع حالاته وفى هذا اعلام بأن انجاء من معه كان ببركة شكره وحث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك والمعنى ولا تشركوا بى لان نوحا كان عبدا شكورا وأنتم من ذريته فاقتدوا به كما أن آباءكم اقتدوا به وانما يكون العبد شكورا اذا كان موحدا لا يرى حصول شئ من النعم الا من فضل الله تعالى روى أن نوحا عليه السلام كان اذا أكل قال الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء أجاعنى واذا شرب قال الحمد لله الذى سقانى ولو شاء أظمأنى واذا اكتسى قال الحمد لله الذى كسانى ولو شاء أعرانى واذا احتذى قال الحمد لله الذى حذانى ولو شاء أحفانى واذا قضى حاجته قال الحمد لله الذى أخرج عنى أذاه فى عافية ولو شاء حبسه واذا أراد الافطار عرض طعامه على من آمن به فان وجده محتاجا آثره به (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب) أى أخبرناهم فى التوراة بحصول الفساد مرتين (لتفسدن فى الارض) أى أرض الشام (مرتين) الاول مخالفة حكم التوراة وحبس أرميا عليه السلام حين أنذرهم سخط الله تعالى وقتل شعيا نبى الله فى الشجرة وذلك انه لما مات صدقيا ملكهم تنافسوا فى الملك وقتل بعضهم بعضا وهم لا يسمعون من نبيهم فقال الله تعالى له قم فى قومك فلما فرغ مما أوحى الله اليه عدوا عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ هدبة من ثوبه فأراهم اياها فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه فى وسطها والثانى قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم الصلاة والسلام (ولتعلن) أى لتغلبن الناس بغير الحق (علوا كبيرا) أى مجاوزا للحدود ويقال لكل متجبر قد علا (فاذا جاء وعد أولاهما) أولى مرتى الفساد (بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس) أى قتال (شديد) عن حذيفة قال قلت يارسول الله لقد كان بيت المقدس عند الله عظيما جسيم الخطر عظيم القدر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من أجل البيوت ابتناه الله تعالى لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودر وياقوت وزمرذ وذلك ان سليمان بن داود لما بناه سخر له الجن يأتونه بالذهب والفضة من المعادن وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرذ وسخر له الجن حتى بنوه من هذه الاصناف قال حذيفة فقلت يارسول الله كيف أخذت هذه الاشياء من بيت المقدس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بنى اسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الانبياء سلط الله عليهم بخت نصر وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة سنة وهو قوله تعالى فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد (فجاسوا خلال الديار) أى فترددوا فى أوساط الديار ودخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسبوا النساء والاطفال وأخذوا الاموال وجميع ما كان فى بيت المقدس من هذه الاصناف فاحتملوها على سبعين ألفا وماثة ألف عجلة حتى أودعوها أرض بابل فأقاموا يستخدمون بنى اسرائيل ويستملكونهم بالخزى والعقاب والنكال مائة عام (وكان) أى

ذلك البعث (وعدا مفعولا) أى منجزا (ثم رددنا لكم الكرة) أى الدولة (عليهم) أى على الذين
فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تبتم عن ذنوبكم و رجعتم عن الافساد بظهور كورش الهمذانى على
بخت نصر (وأمددناكم بأموال) كثيرة بعدما نهبت أموالكم (وبنين) بعدما سبت أولادكم
(وجعلناكم أكثر نفيرا) أى رجالا وعددا أى ثم ان الله عز وجل رحمهم فأوحى الى ملك من ملوك فارس
وهو كورش الهمذانى ان تسير الى المجوس فى أرض بابل وان تستنقذ من فى أيديهم من بنى اسرائيل فسار
اليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقى من بنى اسرائيل من أيدى المجوس واستنقذ ذلك
الحلى الذى كان من البيت المقدس ورده الله اليه كما كان أول مرة (ان أحسنتم) بفعل الطاعات
(أحسنتم لأنفسكم) فان ببركة تلك الطاعات يفتح الله به عليكم أبواب الخيرات (وان أسأتم) بفعل
المحرمات (فلها) أى فقد أسأتم الى أنفسكم فان بشؤم تلك المعاصى يفتح الله به عليكم أبواب العقوبات
(فاذا جاء وعد الآخرة) أى وعد المرة الآخرة بعثنا تطوس بن اسبيانوس الرومى مع جنوده (ليسوؤا
وجوهكم) أى ليجعلوا آثار الحزن ظاهرة فى وجوهكم وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة ليسوء
بالتوحيد أى ليحزن الله أو الوعد أو البعث وجوهكم وقرأ الكسائى لنسوء بنون العظيمة (وليدخلوا
المسجد) أى بيت المقدس (كما دخلوه أول مرة) أى كما دخل الاعداء فيه فى أول مرة (وليتبروا ما
علوا) أى ليهلكوا البلاد التى علوا عليها (تتبيرا) أى اهلاكا أى فلما رجعت بنو اسرائيل الى البيت
المقدس عادوا الى المعاصى فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر فغزاهم فى البر والبحر فسباهم وقتلهم وأخذ
أموالهم ونساءهم وأخذ جميع ما فى بيت المقدس واحتمله على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة حتى أودعه فى
كنيسة الذهب فهو فيها الآن حتى يأخذه المهدى و يرده الى بيت المقدس وهو ألف سفينة وسبعمائة
سفينة يرسى بها على يافا حتى ينقل الى بيت المقدس (عسى ربكم أن يرحمكم) أى لعل ربكم أن يرحمكم بعد
المرة الآخرة ان تبتم توبة أخرى من المعاصى يا بنى اسرائيل (وان عدتم) الى الفساد مرة أخرى (عدنا) الى
صب البلاء عليكم فى الدنيا مرة أخرى وان عدتم الى الاحسان عدنا الى الرحمة وقد عادوا الى فعل ما لا ينبغى
وهو التكذيب لمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد فى التوراة والانجيل فعاد الله عليهم بالتعذيب على
أيدى العرب فجرى القتل والجلاء على قريظة و بنى النضير و بنى قينقاع و يهود خيبر والباقى منهم
مقهورون بضرب الجزية (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أى سجنا لا يستطيعون الخروج منها أبدا
(ان هذا القرآن) الذى آتيناكه (يهدى) كل الناس (للتى هى أقوم) أى للطريقة التى هى أقوم الطرائق
وهى ملة الاسلام فبعضهم يصل بهدايته وهم المؤمنون وبعضهم لا وهم الكافرون (ويبشر المؤمنين الذين
يعملون الصالحات) من التقوى والاحسان (أن لهم أجرا كبيرا) أى بأن لهم فى مقابلة تلك الاعمال أجرا
كبيرا بحسب الذات و بحسب التضعيف (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) وهو
عذاب جهنم وهذا عطف على قوله ان لهم فالقرآن يبشر المؤمنين ببشارتين بأجر كبير و بتعذيب أعدائهم
واعلم ان أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين وان بعضهم قال لن تمسنا النار الا أياما
معدودات فهم بذلك صاروا كالمنكرين للآخرة (ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير) فى الالحاح
أى ان الانسان قد يبالغ فى الدعاء طلبا للشئ يعتقد ان خيره فيه مع ان ذلك الشئ يكون منبع ضرره
وهو يبالغ فى طلبه لجهله بحال ذلك الشئ وانما يقدم على مثل هذا العمل لكونه مغترا بظواهر الامور
غير متفحص عن حقائقها واسرارها روى ان النضر بن الحرث قال اللهم انصر خير الحزبين اللهم ان كان

هذا

هذا هو الحق من عندك الى آخره فأجاب الله تعالى دعاءه وضرب رقبته يوم بدر وقيل المراد ان الانسان في وقت الضجر يلعن نفسه وأهله وولده وماله ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك (وكان الانسان) بحسب جبلته (عجولا) أي ضجرا لا يتأنى الى ان يزول عنه ما يطرأ عليه فان كل أحد من الناس لا يخلو عن عجلة ولو تركها لكان تركها أصلح في الدنيا والدين (وجعلنا الليل والنهار آيتين) أي علامتين دالتين على تمام علمنا وكمال قدرتنا فلما بين الله تعالى ان هذا القرآن يدل على الطريق الاقوم ذكر الدلائل الدالة على وحدته تعالى وهو عجائب العالم العلوي والسفلي فالقرآن نعم الدين ووجود الليل والنهار نعم الدنيا فلولاهما لما حصل للخلق الراحة والكسب والقرآن ممتزج من المحكم والمتشابه فكذلك الدهر مركب من الليل والنهار فالمحكم كالنهار والمتشابه كالليل فكما ان المقصود من التكاليف لا يتم الا بذكر المحكم والمتشابه فكذلك الزمان لا يحصل الانتفاع به الا بالليل والنهار (فمحونا آية الليل) وهي القمر لانه يبدو في أول الامر على صورة الهلال ثم لا يزال يتزايد نوره حتى يصير بدرا كاملا ثم يشرع في الانتقاص قليلا قليلا الى أن يعود الى المحاق (وجعلنا آية النهار) وهي الشمس (مبصرة) أي مضيئة ذات أشعة تظهر بها الاشياء المظلمة فالاضاءة سبب لحصول الابصار (لتبتغوا فضلا من ربكم) أي لتطلبوا في الليل والنهار فضل ربكم من الرزق الحلال بالكسب ومن الثواب الجزيل باداء الطاعات واحترازا المنهيات (ولتعلموا) بتعاقبهما (عدد السنين والحساب) أي حساب ما دون السنين من الشهور والايام والساعات لاقامة مصالح الحكم الدينية والدنيوية (وكل شيء) تفتقرون اليه في مصالح دينكم ودنياكم (فصلناه تفصيلا) أي بيناه في القرآن تبيينا بليغا لا شبهة فيه فظهر كون القرآن يهدي للتي هي أقوم ظهورا بينا (وكل انسان ألزمناه طائره) أي عمله الذي قدرناه عليه من خير وشر (في عنقه) وذكر العنق كناية عن شدة اللزوم أي ألزمناه عمله كلزوم القلادة أو الغل للعنق بحيث لا يفارقه عمله أبدا فان كان خيرا كان زينة له كالطوق وان كان شرا كان شينا له كالغل على رقبته وانما يكنى العمل بالطير لان العرب اذا أرادوا الاقدام على عمل اعتبروا أحوال الطير فهل يطير متيامنا أو متياسرا أو صاعدا الى الجو الى غير ذلك فيستدلون بكل واحد منها على الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم سمي نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه وقيل المراد بالطائر صحيفة الاعمال التي كتبتها الملائكة الحفظة فاذا مات العبد طويت تلك الصحيفة وجعلت معه في قبره حتى تخرج له يوم القيامة وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال يا رسول الله ما أول ما يلقى الميت اذا أدخل قبره قال يا ابن مسعود ما سألني عنه أحد الا أنت فأول ما يناديه ملك اسمه رومان يجوس خلال المقابر فيقول يا عبد الله اكتب عملك فيقول ليس معي دواة ولا قرطاس ولا قلم فيقول كفنك قرطاسك ومدادك ريقك وقلمك أصبعك فيقطع له قطعة من كفنه ثم يشرع العبد يكتب وان كان غير كاتب في الدنيا فيذكر حينئذ حسناته وسيآته كيوم واحد ثم يطوي الملك القطعة ويعلقها في عنقه ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه أي عمله فيه وقيل المراد بالطائر كتاب اجابته في القبر لمنكر ونكير (ونخرج له يوم القيامة كتابا) أي مكتوبا فيه عمله (يلقاه) أي يلقى الانسان وقرأ ابن عامر يلقاه بضم الياء وفتح اللام والقاف المشددة أي يعطاه (منشورا) أي مفتوحا ويقال له (اقرأ كتابك) قال الحسن وقتادة يقرأ ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئا وقال بكر بن عبد الله يؤتى بالمؤمن يوم القيامة بصحيفته وهو يقرؤها وحسناته في ظهرها يغبطه الناس عليها وسيآته في جوف صحيفته وهو يقرؤها

حتى اذاظن انها قد أوبقته قال الله تعالى اذهب فقد غفرتها لك فيما بيني و بينك فيعظم سروره (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أى محاسبا قال الحسن ومن عدل الله فى حقك جعلك حسيب نفسك وقال السدى يقول الكافر يومئذ له تعالى انك قضيت انك لست بظلام للعبيد فاجعلنى أحاسب نفسى فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه) أى من اهتدى بهداية القرآن وعمل بما فى تضاعيفه من الاحكام وانتهى عما نهاه عنه فانما تعود منفعة اهتدائه الى نفسه لا تتخطاه الى من لم يهتد فان ثواب العمل الصالح مختص بفاعله (ومن ضل فانما يضل عليها) أى ومن ضل عن الطريقة التى يهديه اليها فانما وبال ضلاله عليه لا على من لم يباشره (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا تحمل نفس حاملة للاثم اثم نفس أخرى بطيبة النفس حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن اثمها ولكن يحمل عليها بالقصاص فلا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى فكل أحد مختص بذنب نفسه وهذا قطع لاطماع الكفار حيث كانوا يزعمون انهم ان لم يكونوا على الحق فالعقاب على اسلافهم الذين قلدوهم الدين الفاسد (وما كنا معذبين) قوما بالهلاك (حتى نبعث اليوم (رسولا) يهديهم الى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع وأهل الفترتين بين نوح وادريس وبين عيسى ومحمد عليهم السلام ثلاثة عشر قسما ستة سعداء وأربعة أشقياء وثلاثة تحت المشيئة فأما السعداء فقسم وحد الله تعالى بنور وجده فى قلبه كقس بن ساعدة فانه كان اذا سئل هل لهذا العالم اله قال البعرة تدل على البعير وأثر الاقدام يدل على المسير وقسم وحد الله تعالى بما تجلى لقلبه من النور الذى لا يقدر على دفعه وقسم ألقى فى نفسه واطلع من كشفه على منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به فى عالم الغيب وقسم اتبع ملة حق ممن تقدمه وقسم طالع فى كتب الانبياء فعرف شرف محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به وقسم آمن بنبيه الذى أرسل اليه وأدرك رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به فله أجران وأما الاشقياء فقسم عطل بلا نظر بل بتقليد وقسم عطل بعدما أثبت بلا استقصاء نظر وقسم أشرك عن تقليد محض وقسم علم الحق وعانده وأما الذى تحت المشيئة فقسم عطل فلم يقر بوجود الاله عن نظر ناقص لضعف فى طبائعه وقسم أشرك عن نظر أخطأ فيه وقسم عطل بعدما أثبت بغير نظر قوى ونقل عن السيوطى ان أبوى النبى صلى الله عليه وسلم لم تبلغهما الدعوة والله تعالى يقول وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وحكم من لم تبلغه الدعوة انه يموت ناجيا ولا يعذب ويدخل الجنة (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها) أى واذا دنا وقت تعلق ارادتنا باهلاك قرية بعذاب الاستئصال أمرنا على لسان الرسول المبعوث الى أهلها رؤساها بالاعمال الصالحات وهى الايمان والطاعة وروى برواية غير مشهورة عن نافع وابن عباس آمرنا مترفيها بعد الهمزة أى كثرنا أغنياءها وفساقها وعن أبى عمرو أمرنا بتشديد الميم أى جعلنا جبابرتها أمراء (ففسقوا فيها) أى فخرجوا عما أمرهم الله وعملوا المعاصى فيها (فحق عليها القول) أى فثبت عليها ما توعدناهم به على لسان رسولنا من الاهلاك (فدمرناها تدميرا) أى فأهلكناها اهلاك الاستئصال (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) أى وكثيرا أهلكنا من الامم الماضية من بعد قوم نوح فان الطريق الذى ذكرناه هو عادتنا مع الذين يفسقون من القرون الذين كانوا بعد نوح وهم عاد وثمود وغيرهم وانما قال تعالى من بعد نوح لانه أول من كذبه قومه وخوف تعالى بهذه الآية كفار مكة (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) فانه تعالى عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات وثبت انه قادر على كل الممكنات فكان قادرا على ايصال الجزاء الى كل أحد بقدر استحقاقه فانه

منزه عن الظلم وهذه بشارة عظيمة لأهل الطاعة وتخويف عظيم لأهل المعصية (من كان يريد
بالذي يعمله (العاجلة) أي الدار العاجلة فقط (عجلنا له فيها) أي في تلك الدار (ما نشاء) تعجيله له
من نعيمها (لمن نريد) تعجيل ما نشاء له وهذا بدل من الضمير باعادة الجار بدل بعض من كل فلا
يجد كل واحد جميع ما يهواه فان كثيرا من الكفار يعرضون عن الدين في طلب الدنيا ثم يبقون
محرومين عن الدنيا والدين (ثم جعلنا له) في الآخرة مكان ما عجلناه (جهنم) وما فيها من أنواع
العذاب (يصلاها) أي يدخلها (مذموما) أي مهانا بالذم (مدحورا) أي مطرودا من رحمة الله
تعالى قيل نزلت هذه الآية في مرثد بن غمامة (ومن أراد الآخرة) أي أراد بعمله ثواب الآخرة
(وسعى لها) أي للدار الآخرة (سعيها) بأن يكون العمل من باب القرب والطاعات (وهو مؤمن)
ايمانا صحيحا (فأولئك كان سعيهم) أي عملهم (مشكورا) أي مقبولا عند الله أحسن القبول
قيل نزلت هذه الآية في بلال المؤذن (كلا) أي كل واحد من الفريقين مريد الدنيا ومريد
الآخرة (نمد) أي نزيد بالعطاء (هؤلاء) أي الذين يريدون الدنيا (وهؤلاء) أي الذين يريدون الآخرة
وهذان بدلان من كلا فان الله يوسع عليهما في الرزق من الأموال والاولاد وغيرهما من أسباب العز
والزينة في الدنيا (من عطاء ربك) أي من معطاه الواسع وهذا متعلق بنمد (وما كان عطاء ربك) أي
معطاه في الدنيا (محظورا) أي ممنوعا من أحد مؤمنا كان أو كافرا لان الكل مخلوقون في دار العمل
فأزاح تعالى العذر عن الكل وأوصل تعالى متاع الدنيا الى الكل على القدر الذي يقتضيه الصلاح (أنظر)
أيها الانسان بنظر الاعتبار (كيف فضلنا بعضهم على بعض) فيما أمددناهم به من العطايا في الدنيا
فمن وضيع ورفيع وظالع وضليع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك (وللآخرة أكبر درجات) من درجات
الدنيا فان درجات الآخرة باقية غير متناهية ونعم الدنيا فانية متناهية (وأكبر تفضيلا) من تفضيل
درجات الدنيا أي التفاوت في الآخرة أكبر لان التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها ثم ذكر الله
تعالى من أنواع التكاليف خمسة وعشرين نوعا بعضها أصلي وبعضها فرعي وهي تفصيل للثلاثة شروط
لأهل الثواب وهي ارادة الآخرة بالعمل وان يسعى سعيا موافقا لطلب الآخرة وأن يكون مؤمنا فقال
(لا تجعل) أيها الانسان (مع الله الها آخر فتقعد) أي فتمكث في الناس أو فتعجز عن سعادة الآخرة
أو فتصير (مذموما) من الملائكة والمؤمنين (مخذولا) من الله تعالى (وقضى ربك) أي أمر أمرا
جزما وقرأ علي وابن عباس وعبد الله ووصى ربك (أن لا تعبدوا الا اياه) فان اما مفسرة أو مخففة من
الثقيلة واسمها ضمير الشان ولا ناهية (وبالوالدين) أي احسنوا بهما (احسانا) عظيما كاملا فان
احسانهما اليك قد بلغ الغاية العظيمة فوجب أن يكون احسانك اليهما كذلك ومع ذلك لا تحصل المكافأة
لان انعامهما عليك كان على سبيل الابتداء وفي الامثال المشهورة ان البادئ بالبر لا يكافأ (اما يبلغن
عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف) أي ان يبلغا الى حالة الضعف وهما عندك في آخر
العمر كما كنت عندهما في أول العمر فلا تتضجر لواحد منهما بما تستقذر منه ولا تستثقل من مؤنته أي ولا
تقل له كلاما رديئا اذا وجدت منه رائحة تؤذيك كما انهما لا يتقذران منك حين كنت تخرأ أو تبول وقرأ
حمزة والكسائي يبلغان فأحدهما بدل من ضمير التثنية وقرأ ابن كثير وابن عامر أف بفتح الفاء من غير
تنوين ونافع وحفص بكسر الفاء مع التنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين (ولا تنهرهما) أي
لا تغلظ لهما في الكلام والمراد من قوله تعالى فلا تقل لهما أف المنع من اظهار الضجر بالقليل أو الكثير

ومن قوله ولا تنهرهما المنع من اظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليه (وقل لهما قولا كريما) أى لينا حسنا بان يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم (واخفض لهما جناح الذل) أى لين لهما جانبك المذلول والمراد افعل التواضع لهما (من الرحمة) أى من أجل فرط عطفك عليهما و رقتك لهما بسبب ضعفهما لا لاجل خوفك من العار (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) أى ادع لهما بالرحمة ولو خمس مرات فى اليوم والليلة بأن تقول رب ارحمهما برحمتك الدنيوية والاخروية رحمة مثل تربيتهما اياى فى صغرى ويجوز أن تكون الكاف للتعليل أى لاجل تربيتهما لى (ربكم أعلم بما فى نفوسكم) من الاخلاص وعدمه فى برهما (ان تكونوا صالحين) أى صادقين فى نية البر بالوالدين ان كنتم رجاعين الى الله تعالى (فانه) تعالى (كان للاوابين) أى للرجاعين اليه تعالى عما فرط منهم (غفورا) فيكفر عنهم سيئاتهم (وآت ذا القربى) أى اعط ذا القرابة من جهة الاب والام وان بعد (حقه) من صلة الرحم بالمال أو غيره (والمسكين) أى اعط المسكين حقه من الاحسان اليه (وابن السبيل) أى اعط الضيف النازل بك حقه وهو اكرامه ثلاثة أيام (ولا تبذر تبذيرا) وهو انفاق المال فى المعصية وفى الفخر والسمعة (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) أى أتباعهم فى الصرف فى المعاصى (وكان الشيطان لربه كفورا) فانه يستعمل بدنه فى المعاصى والافساد فى الارض وكذلك كل من رزقه الله تعالى مالا أو جاها فصرفه الى غير مرضاة الله تعالى كان كفورا لنعمة الله تعالى فكان المبذرون موافقين للشياطين فى تلك الصفة (واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) أى ان أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالرد لكونك كنت فقيرا فى وقت طلبهم منك (فقل لهم قولا ميسورا) أى لينا سهلا بأن تعدهم بالاعطاء عند مجئ الرزق أو تقول لهم الله يسهل وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم كان بعد نزول هذه الآية اذا لم يكن عنده ما يعطى وسئل يقول يرزقنا الله تعالى واياكم من فضله اه وقوله تعالى ابتغاء رحمة من ربك ترجوها كناية عن الفقر لان فاقد المال يطلب رحمة الله فسمى الفقر بابتغاء رحمة الله من اطلاق اسم المسبب على اسم السبب (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) أى لا تجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط أى لا تمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك (ولا تبسطها) فى الانفاق (كل البسط) أى فى وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات أى ولا تتوسع فى الانفاق توسعا مفرطا بحيث لا يبقى فى يدك شئ (فتقعد ملوما) أى فتصير ملوما عند الله وعند أصحابك فهم يلومونك على تضييع المال بالكلية وابقاء الاهل والولد فى الضر وتبقى ملوما عند نفسك بسبب سوء تدبيرك وترك الحزم فى مهمات معاشك (محسورا) أى نادما أو منقطعا عنك الاحباب بسبب ذهاب الأسباب (ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى ان الله يوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض الآخر وهو ربى المربوب و يدفع حاجاته على مقدار الصلاح فعلى العباد أن يقتصدوا فى الانفاق وان يستنوا بسنته تعالى (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ويعلم ان مصلحة كل انسان فى ان لا يعطيه الا ذلك القدر فالتفاوت فى أرزاق العباد لاجل رعاية الصلاح لا لاجل البخل (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق) أى خشية وقوع فقر بكم فقتل الاولاد ان كان لخوف الفقر فهو سوء ظن بالله وان كان لاجل الغيرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم فالاول ضد التعظيم لامر الله تعالى والثانى ضد الشفقة على خلق الله قال بعضهم والذى حملهم على قتل الاولاد البخل وطول الامل (نحن نرزقهم واياكم) أى نرزقهم من غير أن ينقص من رزقكم شئ فيطرأ عليكم

ما تخشونه من الفقر (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) أى ذنبا عظيما وقرأ الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وقرأ ابن عامر بفتح الخاء والطاء مع القصر بمعنى ضد الصواب وقرأ ابن كثير بفتح الخاء والطاء مع المد (ولا تقربوا الزنا) باتيان مقدماته (انه) أى الزنا (كان فاحشة) أى ظاهرة القبح لاشتماله على فساد الانساب وعلى التقاتل فان الانسان لا يعرف ان الولد الذى أتت به الزانية أهو منه أو من غيره فلا يقوم بتربيته وذلك يوجب ضياع الاولاد وانقطاع النسل وخراب العالم (وساء سبيلا) لانه لا يبقى فرق بين الانسان والبهائم فى عدم اختصاص الذكران بالاناث فالله تعالى وصف الزنا فى آية أخرى بصفات ثلاثة فالذى لم يذكر هنا كونه مقتا فان المرأة اذا اعترفت على الزنا يستقذرها كل طبع سليم وكل خاطر سليم واذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع أكثر الخلق فحينئذ لا تحصل لها الالفة ولا يتم الازدواج (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) قتلها بالاسلام والعهد (الا بالحق) أى بسبب الحق وهو عند القصاص فهو متعلق بلا تقتلوا (ومن قتل مظلوما) بغير حق يبيح القتل للقاتل (فقد جعلنا لوليه) من الوارث أو السلطان عند عدم الوارث (سلطانا) أى استيلاء على القاتل يؤاخذه بالقصاص أو بالدية (فلا يسرف فى القتل) أى فلا يسرف الولى فى أمر القتل بأن يزيد على القتل المثلة وقطع الاعضاء أو بان يقتل غير القاتل من أقاربه أو بأن تقتل الاثنين مكان الواحد أو بأن يقتل القاتل مع أخذ الدية وقيل المعنى ولا يسرف القاتل الظالم والاسراف هو اقدامه على القتل بالظلم وقرأ حمزة والكسائى فلا تسرف بالتاء على الخطاب أى لا تسرف فى القتل أيها الولى أى اكتف باستيفاء القصاص ولا تطلب الزيادة أو لا تسرف أيها الانسان أى لا تفعل القتل الذى هو ظلم محض فانك ان قتلت مظلوما استولى فى القصاص منك ويعضد هذا قراءة ولا تسرفوا (انه كان منصورا) قال مجاهد ان المقتول المظلوم كان منصورا فى الدنيا بايجاب القود على قاتله وفى الآخرة بكثرة الثواب له وبكثرة العقاب لقاتله وقال قتادة ان ولى المقتول كان منصورا على القاتل حيث أوجب الله له القصاص أو الدية وأمر الحكام بمعونته فى استيفاء حقه فليكتف بهذا القدر ولا يطمع فى الزيادة (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن) وهى حفظه وارباحه (حتى يبلغ أشده) أى حتى يبلغ الى حيث يمكنه بسبب رشده القيام بمصالح ماله فحينئذ تزول ولاية غيره عنه فان بلغ غير كامل العقل لم تزل الولاية عنه (وأوفوا بالعهد) سواء جرى بينكم وبين ربكم أو جرى بينكم وبين الناس (ان العهد كان مسئولا) أى مسئولا عنه فيسئل الناكث ويعاتب عليه يوم القيامة (وأوفوا الكيل) أى أتموه (اذا كلتم) لغيركم (وزنوا بالقسطاس المستقيم) أى بميزان العدل بحيث لا يميل الى أحد الجانبين (ذلك) أى الوزن بالميزان المعتدل وايفاء الكيل والعهد (خير) فى الدنيا فانه يوجب الذكر الجميل بين الناس (وأحسن تأويلا) أى عاقبة فى الآخرة فانه يخلص من العقاب الشديد (ولا تقف ما ليس لك به علم) أى لا تكن أيها الانسان فى اتباع ما لا علم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله الى مقصده والمراد بالعلم هو الظن المستفاد من سند (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك) أى كل واحد من تلك الاعضاء (كان عنه مسئولا) أى كان كل واحد منها مسئولا عن نفسه أى عما فعل به صاحبه ولا يبعد أن يخلق الله الحياة والعقل والنطق فى هذه الاعضاء ثم انه تعالى يوجه السؤال عليها وفى هذا دليل على أن العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية روى عن شكل بن حميد قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به فأخذ بيدى ثم قال قل أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر لسانى وشر قلبى وشر منيى

قال حفظتها (ولا تمش فى الارض مرحا) أى ذا شدة فرح أى لا تمش مشيا يدل على الكبرياء والعظمة (انك لن تخرق الارض) أى لن تثقبها بشدة وطأتك (ولن تبلغ الجبال طولا) أى لن يبلغ طولك الجبال والمعنى تواضع ولا تتكبر فانك خلق ضعيف من خلق الله فلا يليق بك التكبر (كل ذلك) أى المذكور من الخصال الخمس والعشرين (كان سيئه) بضم الهمزة والهاء أى السيئ منه وهى المنهيات الاثنى عشرة (عند ربك مكروها) أى محرما مبغوضا فاعله معاقبا عليه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو سيئة بالتاء و بالنصب وهو خبر كان وعند ربك صفة لسيئة ومكروها خبر ثان لكان والمعنى كل ما تقدم من المنهيات وهى اثنتا عشرة خصلة كان سيئة أى ذنبا (ذلك مما أوحى اليك ربك) أى ذلك التكاليف الاربعة وعشرون نوعا بعض ما أوحى اليك ربك (من الحكمة) التى هى معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لاجل العمل به وهذا خبر ثان (ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما) يلومك نفسك وغيرها (مدحورا) أى مبعدا من رحمة الله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين) أى أختاركم ربكم فخصكم بالذكور (واتخذ) لنفسه (من الملائكة اناثا) أى ان كفار مكة اعتقدوا أن أشرف الاولاد البنون وأخسهم البنات ثم انهم أثبتوا البنين لانفسهم مع علمهم بنهاية نقصهم وأثبتوا البنات لله مع علمهم بأن الله هو الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له وذلك يدل على نهاية جهلهم (انكم لتقولون) بسبب ذلك الاعتقاد (قولا عظيما) فى الفرية على الله حيث تجعلونه تعالى من نوع الاجسام ثم تنسبون اليه ما تكرهون من أخس الاولاد ثم تصفون الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق بالانوثة التى هى أخس أوصاف الحيوان (ولقد صرفنا) أى كررنا هذه الدلائل (فى هذا القرآن) أى فى مواضع منه (ليذكروا) بفتح الذال والكاف وتشديدهما أى ليعرفوا ابطلان ما يقولونه وقرأ حمزة والكسائى ليذكروا ساكنة الذال مضمومة الكاف أى ليفهموا ما فى القرآن أو ليذكروه بألسنتهم فان الذكر باللسان قد يؤدى الى تأثر القلب بمعناه (وما يزيدهم) أى والحال ما يزيدهم ذلك التكرير (الا نفورا) أى تباعدا عن الايمان وهذا دليل على أن الله ما أراد الايمان من الكفار (قل) فى اظهار بطلان ذلك من جهة أخرى (لو كان معه) تعالى (آلهة كما يقولون) أى كونا موافقا لما يقولون (اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا) أى لطلبوا الى من له الملك سبيلا بالمغالبة كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض وقيل المعنى لو كانت هذه الاصنام تقربكم الى الله زلفى كما تقولون لطلبت لانفسها المراتب العالية فلما لم تقدر على ذلك فكيف يدرك فى العقل أن تقربكم الى الله منزلة (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) أى تنزه الله وارتفع بصفات الكمال عن الشركاء والنقائص ارتفاعا عظيما (تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن) أى تنزه الله تعالى السموات السبع والارض عن كل نقص بدلالة أحوالها على توحيد الله تعالى وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك و يصير لها بمنزلة التسبيح وتسبح العقلاء بلسان المقال وقرأ ابن كثير كما يقولون وعما يقولون ويسبح بالياء فى هذه الثلاثة وقرأ حمزة والكسائى كلها بالتاء وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم فى الاول بالتاء على الخطاب وفى الثانى والثالث بالياء وقرأ حفص عن عاصم الاولين بالياء على الحكاية والاخير بالتاء وقرأ أبو عمرو الاول والاخير بالتاء والاوسط بالياء (وان من شئ الا يسبح بحمده) أى ما من شئ من الاشياء حيوانا كان أو نباتا أو جمادا الا ينزهه تعالى متلبسا بحمده بلسان الحال عما لا يليق بذاته تعالى من لوازم الامكان فالاكوان بأسرها شاهدة بتلك النزاهة (ولكن لا تفقهون) أيها المشركون (تسبيحهم) فان الكفار وان كانوا مقرين بألسنتهم باثبات اله العالم لم يتفكروا فى أنواع

الدلائل ولم يعلموا كمال قدرته تعالى فاستبعدوا كونه تعالى قادرا على النشر والحشر فهم غافلون عن أكثر دلائل التوحيد والنبوة والمعاد لانهم أثبتوا الله شركاء وزوجا وولدا وقرئ لا يفقهون على صيغة المبني للمفعول مع فتح الفاء وتشديد القاف (انه كان حليما) ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم ولذا كان (غفورا) لمن تاب منكم (واذا قرأت القرآن) بمكة (جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة) أي المنكرين للبعث (حجابا مستورا) روى ابن عباس ان أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم ويستمعون الى حديثه فقال النضر يوما ما أدري ما يقول محمد غير اني أرى شفته تتحرك بشيء وقال أبو سفيان اني لا أرى بعض ما يقوله حقا وقال أبو جهل هو مجنون وقال أبو لهب هو كاهن وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر فنزلت هذه الآية والله تعالى خلق حجابا في عيونهم يمنعهم عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم وعن ادراك ما عليه من النبوة وعن فهم قدره الجليل وذلك الحجاب شيء لا يراه أحد فكان مستورا من هذا الوجه (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أي موانع من (أن يفقهوه) أي يفهموا القرآن حق الفهم (وفي آذانهم وقرا) أي صمما مانعا من سماعه اللائق به أي كان بعضهم يحجب بصره عن رؤية النبي اذا أراده بمكروه وهو يقرأ القرآن وبعضهم يحجب قلبه عن ادراك القرآن ويحجب سمعه عن سماعه (واذا ذكرت ربك في القرآن وحده) أي غير مقرونا بآلهتهم في الالوهية وهذا منصوب على الحال من ربك أو على الظرف (ولوا على أدبارهم نفورا) أي متباعدين عن قولك أي كان الكفار عند استماع القرآن على حالتين فاذا سمعوا من القرآن ما ليس فيه ذكر الله بقوا متحيرين لا يفهمون منه شيأ واذا سمعوا آية فيها ذكر الله تعالى وذم الشرك بالله تركوا ذلك المجلس ولا يستطيعون سماع القرآن (نحن أعلم بما يستمعون) الى قراءة القرآن (به) أي بسببه من الهزء والتكذيب (اذ يستمعون اليك) أي الى قراءتك روى أنه صلى الله عليه وسلم كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان وعن يساره رجلان من ولد قصي أو من بني عبد الدار فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار (واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا) أي ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم اذ هم ذو نجوى اذ يقول المشركون بعضهم لبعض انكم ان اتبعتم محمدا فقد اتبعتم رجلا زال عقله عن حد الاعتدال روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا أن يتخذ طعاما ويدعو اليه أشراف قريش من المشركين ففعل علي ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى التوحيد وقال قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم العرب وتنقاد لكم العجم فأبوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبي صلى الله عليه وسلم القرآن والدعوة الى الله تعالى يقولون بينهم متناجين هو ساحر وهو مسحور وما أشبه ذلك من القول فأخبر الله تعالى بأنهم يقولون ما تتبعون ان وجد منكم الاتباع الا رجلا مخدوعا من قبل الشيطان فانه يخيل له فيظن أنه ملك ومن جهة الناس فان محمدا يتعلم من بعض الناس هذه الكلمات وأولئك يخدعونه بهذه الحكايات (أنظر) يا أشرف الرسل (كيف ضربوا لك الامثال) فكل أحد شبهك بشيء آخر فقالوا انه كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون (فضلوا) في جميع ذلك القول عن طريق الحق (فلا يستطيعون سبيلا) الى طعن يمكن أن يقبله أحد فيأتون بما لا يرتاب في بطلانه أحد (وقالوا أئذا كنا) أي صرنا (عظاما) بالية (ورفاتا) أي ترابا رميما (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أي مخلوقين بتجدد الروح فينا بعد الموت (قل) لهم يا أكرم الرسل (كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا) آخر (مما يكبر في صدوركم) والمعنى لو تكونون حجارة مع

أنها لا تقبل الحياة بحال أو حديد ادامع أنه أصلب من الحجارة أو خلقا غيرهما كائنا من الاشياء التى تعظم فى اعتقادكم عن قبول الحياة كالسموات والارض فلابد من ايجاد الحياة فيكم فان قدرته تعالى لا تعجز عن احيائكم لاشتراك الاجسام فى قبول الاعراض فكيف اذا كنتم عظاما عزقة وقد كانت طرية موصوفة بالحياة من قبل والشئ أقبل لما اعتيد فيه مما لم يعتد (فسيقولون) تماديا فى الاستهزاء (من يعيدنا) أى من الذى يقدر على اعادة الحياة الينا اذا صرنا كذلك (قل الذى فطركم أول مرة) أى قل ارشادا لهم الى طريقة الاستدلال فالذى ابتدأ خلقكم أول مرة من غير مثال يعيدكم الى الحياة بالقدرة التى ابتدأكم بها افكما لم تعجز تلك عن البداءة لا تعجز عن الاعادة (فسينغضون اليك رؤسهم) أى فسيحركونها جهتك تعجبا وتكذيبا لقولك (ويقولون) استهزاء (متى هو) أى الذى وعدتنا من الاعادة (قل عسى أن يكون) ذلك (قريبا) اذ كل آت قريب (يوم يدعوكم) على لسان اسرافيل بالنداء الذى يسمعكم من القبور وهو النفخة الاخيرة فان اسرافيل ينادى أيتها الاجسام البالية والعظام النخرة والاجزاء المتفرقة عودى كما كنت بقدرة الله تعالى وباذنه (فتستجيبون بحمده) قال سعيد بن جبير أى فيخرجون من قبورهم وينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك قال المفسرون حمدوا حين لا ينفعهم الحمد وقال الزمخشرى بحمده حال منهم أى حامدين وهذا مبالغة فى انقيادهم للبعث (وتظنون) عندما ترون الاهوال الهائلة (ان لبثتم) أى ما مكثتم فى القبور أو فى الدنيا (الا قليلا) كالذى مر على قرية (وقل لعبادى) أى المؤمنين اذا أردتم اتيان الحجة على المخالفين فاذكروها غير مخلوط بالشتم والسب فيقابلونهم بمثله ولا يخاشنوهم بل (يقولوا) لهم الكلمة (التى هى أحسن) كأن يقولوا يهديكم الله وقيل نزلت هذه الآية فى عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فأمره الله تعالى بالعفو (ان الشيطان ينزغ بينهم) أى يهيج الشر بين الناس ويغرى بعضهم على بعض لتقع بينهم المخاصمة (ان الشيطان كان) فى قديم الزمان (للانسان عدوا مبينا) أى ظاهر العداوة (ربكم أعلم بكم) أى بعاقبة أمركم (ان يشأ يرحمكم) بأن يوفقكم للايمان والمعرفة الى ان تموتوا فينجيكم من العذاب (أو ان يشأ يعذبكم) بان يميتكم على الكفر فيعذبكم الا ان تلك المشيئة غائبة عنكم فاجتهدوا أنتم فى طلب الدين الحق ولا تصروا على الباطل لئلا تصيروا محرومين عن السعادات الابدية ويقال هذه تفسير للتى هى أحسن أى قولوا لهم هذه الكلمة ولا تقولوا أيها المؤمنون للمشركين انكم من أهل النار فانه مما يهيجهم على الشر مع ان عاقبة أمرهم مغيبة عنكم فعسى يهديهم الله الى الايمان ويقال ان يشأ ينجيكم منهم وان يشأ يسلطهم عليكم (وما أرسلناك عليهم وكيلا) أى موكولا اليك أمرهم فتقسرهم على الايمان وانما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بالمداراة عليهم فان اللين عند الدعوة يؤثر فى القلب ويفيد حصول المقصود (وربك أعلم بمن فى السموات والارض) أى بأحوالهم فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء ممن يستحق ذلك وهو رد عليهم اذ قالوا بعيد أن يكون يتيم أبى طالب نبيا ولا يجوز اطلاق يتيم على النبى صلى الله عليه وسلم لاشعاره بالتحقير حتى أفتى بعض المالكية بقتل قائله كما فى الشفاء (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) بالفضائل النفسانية لا بكثرة الاموال والاتباع وهذا اشارة الى تفضيل رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (وآتينا داود زبورا) فيه ذكر فضل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكونه خاتم النبيين وأمته خير الامم وكون الارض يرثها عباد الله الصالحون وهم محمد وأمته وهذا بيان أن تفضيل داود بايتاء الزبور لا بايتاء الملك والسلطنة ورد لقول اليهود لا نبى بعد موسى

ولا كتاب بعد التوراة أى فاذا أعطى الله تعالى التوراة فلم يبعد ان يعطى داود زبورا وعيسى الانجيل ومحمدا القرآن ولم يبعد أن يفضل محمدا على جميع الخلق فكيف تنكر اليهود ذلك وكفار قريش فضل محمد واعطاءه القرآن (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) أى قل يا أشرف الخلق للكفار ادعوا عند الشدة الذين عبدتم من دون الله كعيسى ومريم وعزير وطائفة من الملائكة وطائفة من الجن (فلا يملكون) أى لا يستطيعون (كشف الضر عنكم) أى رفع الشدة عنكم (ولا تحويلا) للضر الى غيركم (أولئك الذين يدعون) أى الذين يتألهونهم (يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) أى يحرص من هو أقرب الى ربهم القربة بالطاعة اليه فأولئك مبتدا وخبره يبتغون والذين عطف بيان والوسيلة مفعول ليبتغون والى ربهم متعلق بالوسيلة وأى موصولة بدل من فاعل يبتغون وقيل ان اسم الموصول خبر لاسم الاشارة ويبتغون حال من فاعل يدعون والمعنى أولئك المعبودون لهم يعبدون ربهم يطلبون بتلك العبادة القربة الى ربهم والفضيلة عنده وهم أقرب اليه (ويرجون رحمته) بها (ويخافون عذابه) بتركها كدأب سائر العباد فأين هم من كشف الضر فكيف يكونون آلهة (ان عذاب ربك كان محذورا) أى يجب الحذر عنه (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا) أى وما من قرية طائعة أهلها أو عاصية الا وتهلك اما بالموت واما بالعذاب فالصالحة يكون اهلاكها بالموت والطالحة يكون اهلاكها بالعذاب بنحو السيف أو المعنى ما من قرية من قرى الكفار الا وتخرب اما بالاستئصال بالكلية أو تعذب بعذاب شديد دون ذلك كقتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الاموال وأخذ الجزية وبفنون العقوبات الاخروية (كان ذلك) أى الاهلاك والتعذيب (فى الكتاب) أى اللوح المحفوظ (مسطورا) أى مكتوبا وقد بين فيه أسباب ذلك ووقته وروى عن بعضهم ان خراب مكة من الحبشة وخراب المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان وعن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال آخر قرية من قرى الاسلام خرابا المدينة (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون) أى ما منعنا من ارسال المعجزات التى طلبتها قريش من احياء الموتى وقلب الصفا ذهبا وازالة الجبال عن مكة ليزرعوا مكانها الا تكذيب الاولين بالمعجزات حين جاءتهم باقتراحهم فيستحقوا عذاب الاستئصال أى لو أظهر الله تلك المعجزات المقترحة لقريش ثم لم يؤمنوا بها صاروا مستحقين لعذاب الاستئصال لكن انزاله على هذه الامة غير جائز لان الله تعالى علم ان فيهم من سيؤمن أو يؤمن أولادهم فلهذه المصلحة ما أجابهم الله تعالى الى مطلوبهم (وآتينا ثمود) باقتراحهم (الناقة مبصرة) بكسر الصاد أى مبينة لنبوة صالح (فظلموا بها) أى ظلموا أنفسهم بتكذيبهم بها وأقبلوا أنفسهم للهلاك بعقرها (وما نرسل بالآيات) المقترحة (الا تخويفا) من نزول العذاب المستأصل على المقترحين فان لم يخافوا ذلك نزل أو ما نرسل بغير مقترحة كالمعجزات وآيات القرآن الا تخويفا بعذاب الآخرة فان أمر المكذبين بها مؤخر الى يوم القيامة (واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس) أى واذكر يا أشرف الخلق اذ بشرناك بأن الله يغلب أهل مكة ويقهرهم ويظهر دولتك عليهم وهذه بشارة بوقعة بدر وعبر الله بالماضى لان كل ما أخبر الله بوقوعه فهو واجب الوقوع فكان كالواقع (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك) ليلة المعراج وهى ما رآه النبى صلى الله عليه وسلم على اليقظة بعينى رأسه من عجائب الارض والسماء (الا فتنة للناس) أى الا امتحانا لاهل مكة لان النبى صلى الله عليه وسلم لما ذكر لهم قصة

الاسراء فنهم من كذبه ومنهم من كفر بعد اسلامه ومنهم من نافق ومنهم من توقف فى حاله ومنهم من تردد فى قلبه ومنهم من صدق كلامه صلى الله عليه وسلم وازداد المخلصون ايمانا (والشجرة الملعونة) أى المذمومة (فى القرآن) وهى الزقوم أى وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن الا فتنة للناس حيث قالوا ان محمدا يزعم ان نار جهنم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر فكيف تنبت فى النار شجرة رطبة وهى تحرق الشجر فينسبوا لله العجز عن خلق شجرة فى النار غافلين عن قدرته تعالى على كل شىء وان النعامة تبتلع الجمر والحديد المحمى بالنار ولا يحرقها وان السمندل وهى دويبة فى بلاد الترك يتخذ من وبره مناديل فاذا اتسخت طرحت فى النار فيذهب وسخها وتبقى هى سالمة لا تعمل فيها النار (ونخوفهم) بشجرة الزقوم وبعذاب الدنيا والآخرة (فما يزيدهم) ذلك التخويف (الا طغيانا كبيرا) أى الا تماديا فى المعصية متجاوزا عن الحد فلو انا أرسلنا ما اقترحوه من الآيات لازدادوا تماديا فى العناد فأهلكوا بعذاب الاستئصال كعادة من قبلهم وقد حكمنا بتأخير العقوبة العامة لهذه الامة الى الطامة الكبرى (واذقلنا للملائكة) الذين كانوا فى الارض (اسجدوا لآدم) بوضع الجبهة عليه اما هو المسجود له أو هو قبلة للسجود والمسجود له هو الله تعالى (فسجدوا الا ابليس) وكان داخلا تحت الامر بالسجود لانه مندرج تحت زمرتهم (قال) عندما وبخه الله تعالى (أأسجد لمن خلقت طينا) أى من طين (قال) أى ابليس بعد الاستنظار (أرأيتك هذا الذى كرمت على) أى أخبرنى عن هذا الذى فضلته على بأمرك بى بالسجود له لم فضلته على وانا خير منه من حيث أنا مخلوق من العنصر العالى (لئن أخرتن) حيا (الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته) أى لاستأصلنهم بالاغواء أو لاقودنهم الى المعاصى كما تقاد الدابة بحبلها (الا قليلا) لا أقدر أن أقاوم شكيمتهم قرأ ابن كثير أخرتنى باثبات ياء المتكلم فى الوصل والوقف وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى بالحذف وقرأ نافع وأبو عمرو باثباته فى الوصل دون الوقف (قال) تعالى له (اذهب) أى امض لشأنك الذى اخترته واعلم (فمن تبعك منهم) أى ذرية آدم فى دينك (فان جهنم جزاؤكم) أى جزاؤك ومن تبعك (جزاء موفورا) أى مكملا فكل معصية توجد يحصل لابليس مثل وزر ذلك العامل لانه هو الاصل فيها واذلك يخاطب بالوعيد (واستفزز) أى استزل (من استطعت منهم) استزلاله (بصوتك) أى بدعائك الى معصية الله تعالى (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) أى واجمع عليهم مصحوبا بجنودك الركاب والمشاة فروى أبو الضحى عن ابن عباس انه قال كل راكب أو ماش فى معصية الله تعالى فهو من خيل ابليس وجنوده وقرأ حفص عن عاصم ورجلك بكسر الجيم وقرأ غيره بالضم أو بالسكون (وشاركهم فى الاموال) أى فى كل تصرف قبيح فيها (والاولاد) أى فى الافعال القبيحة والحرف الذميمة والاديان الزائغة والاسماء المنكرة (وعدهم) أى بالامانى الباطلة (وما يعدهم الشيطان الا غرورا) أى ما يعدهم من الامانى الكاذبة الا لاجل الغرور وهذه الجملة اعتراض واقع بين الجمل التى خاطب الله بها الشيطان (ان عبادى) المخلصين (ليس لك عليهم سلطان) أى غلبة وقدرة على أغوائهم (وكفى بربك وكيلا) أى حفيظا فان الشيطان وان كان قادرا على الوسوسة فان الله أرحم بعباده فهو يدفع عنهم كيد الشيطان (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر) أى الذى يسوق لمنافعكم السفن على وجه البحر (لتبتغوا من فضله) أى رزقه تعالى بالتجارة وغيرها (انه كان بكم رحيما) حيث سهل عليكم ما يعسر من أسباب ما تحتاجون اليه (واذا مسكم الضر) أى خوف الغرق (فى البحر ضل من تدعون) أى ذهب عن خواطركم ما كنتم

تعبدون

تعبدون من دون الله (الا اياه) تعالى فتسألون من الله تعالى النجاة لانكم تعلمون انه لا ينجيكم سواه (فلما نجاكم) من الغرق وأخرجكم من البحر (الى البر أعرضتم) عن الشكر والتوحيد ورجعتم الى الاشراك (وكان الانسان كفورا) أى منكر النعم الله (أفأمنتم أن يخسف بكم) أى أنجوتم من هول البحر فأمنتم ان نغور البر بكم (جانب البر) الذى أنتم فيه ونصيركم تحت الثرى كما خسف بقارون (أو يرسل عليكم) من فوقكم (حاصبا) أى ريحا ترمى حجارة كما أرسل على قوم لوط (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) أى حافظا يحفظكم من ذلك (أم أمنتم أن يعيدكم فيه) أى فى البحر (تارة أخرى) باسباب تلجئكم الى أن تركبوه وان كرهتم (فيرسل عليكم قاصفا) أى كاسرا (من الريح فيغرقكم) بعد كسر فلككم فى البحر (بما كفرتم) أى بسبب اشراككم وكفرانكم لنعمة الانجاء (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أى ثائرا يطالبنا بما فعلنا بكم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو هذه الخمسة ان نخسف أو نرسل ان نعيدكم فنرسل فنغرقكم بنون العظمة على سبيل الالتفات والباقون بياء الغيبة (ولقد كرمنا بنى آدم) بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على ما فى الارض والتمتع به والتمكن من الصناعات والعلم والنطق وتناول الطعام باليد وغير ذلك (وحملناهم فى البر) على الدواب وغيرها (والبحر) على السفن (ورزقناهم من الطيبات) أى من أنواع المستلذات الحيوانية كاللحم والسمن واللبن والنباتية كالثمار والحبوب (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) أى فضلناهم على غير الملائكة تفضيلا عظيما بالعقل والقوى المدركة التى يميز بها الحق من الباطل والحسن من القبيح فحق عليهم ان يشكروا هذه النعم ويستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقة (يوم ندعو كل أناس بامامهم) أى عن اقتدوا به روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه ينادى يوم القيامة يا أمة ابراهيم يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الانبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ثم ينادى يا اتباع فرعون يا اتباع نمروذ يا اتباع ثمود وقال الضحاك وابن زيد أى بكتابهم الذى أنزل عليهم فينادى فى القيامة يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الانجيل وقال الربيع وأبو العالية والحسن أى بكتاب أعمالهم كأن يقال يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر وقيل بمذاهبهم فيقال يا حنفى يا شافعى يا معتزلى يا قدرى ونحو ذلك وقرئ يدعى كل اناس على البناء للمفعول (فمن أوتى كتابه بيمينه) وهم أولوا البصائر فى الدنيا (فأولئك يقرؤن كتابهم) الذى أعطوه فرحا بما سطر فيه من الحسنات (ولا يظلمون) أى لا ينقصون من أجور أعمالهم المكتوبة فى كتبهم (فتيلا) أى قدر فتيل وهو القشرة التى فى شق النواة (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى) أى من كان فى الدنيا أعمى عما يرى من قدرة الله فى خلق السموات والارض والبحار والجبال والناس والدواب وعن الشكر عن النعم المذكورة فى الآيات المتقدمة فهو فى الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ويستولى الخوف والدهشة على قلبه فيثقل لسانه عن قراءة كتابه (وأضل سبيلا) من الاعمى لتعطل الآلات بالكلية (وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك) أى ان الشأن قاربوا ان يزيلوك عن حكم القرآن (لتفترى علينا غيره) أى لتكذب علينا غير الذى أوحينا اليك (واذا لاتخذوك خليلا) أى لو اتبعت أهواءهم لكنت وليا لهم ولخرجت من ولايتى قال ابن عباس فى رواية عطاء قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا متعنا باللات سنة وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ولم يجبهم فكرر وا ذلك الالتماس وقالوا انا نحب أن تعرف العرب

فضلنا عليهم فان كرهت ماتقول وخشيت ان تقول العرب أعطيتهم مالم تعطنا فقل الله أمرني بذلك فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وداخلهم الطمع فصاح عليهم عمر وقال أماترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا) أى لولا تثبيتنا اياك على الحق بعصمتنا اياك لقاربت أن تميل اليهم شيأ يسيرا فيما طلبوك (اذا) لو قاربت الميل من قلبك (لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) أى لصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا ومثلى عذابه فى الآخرة (ثم) اذا أذقناك العذاب المضاعف (لاتجدلك علينا نصيرا) أى أحدا يخلصك من عذابنا (وان كادوا ليستفزونك) أى ليستزلونك (من الارض ليخرجوك منها واذا لايلبثون خلافك الاقليلا) أى واذا لوأخرجوك لا يلبثون بعد اخراجك الازمانا قليلا حتى نهلكهم قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا يا أبا القاسم ان الانبياء انما بعثوا بالشام وهى بلاد مقدسة وكانت مسكن ابراهيم فلو خرجت الى الشام آمنا بك وأتبعناك وقد علمنا أنه لايمنعك من الخروج الاخوف الروم فان كنت رسول الله فالله مانعك منهم فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة حتى يجتمع اليه أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج الى الشام لحرصه على دخول الناس فى دين الله فنزلت هذه الآية فرجع ثم قتل منهم بنى قريظة وأجلى بنى النضير بعد زمن قليل وعلى هذا فالآية مدنية والمراد بالارض أرض المدينة وهذا قول الكلبى وقال قتادة ومجاهد هم المشركون ان يخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكفهم الله تعالى عنه حتى أمره بالهجرة فخرج بنفسه فأهلكوا ببدر بعد هجرته صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فالآية مكية والمراد بالارض أرض مكة وهذا اختيار الزجاج وقرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو وشعبة خلفك بفتح الخاء وسكون اللام والباقون خلافك بكسر الخاء وفتح اللام مع المد (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) أى سننا سنته فيمن قد أرسلنا قبلك أى ان عادة الله اهلاك كل قوم أخرجوا نبيهم من بينهم (ولاتجد لسنتنا تحويلا) أى تغييرا أى أن ما أجرى الله تعالى به العادة لايقدر أحد ان يبدل تلك العادة (أقم الصلاة لدلوك الشمس) أى لاجل زوال الشمس عن كبد السماء (الى غسق الليل) أى الى اجتماع ظلمة الليل وهو وقت صلاة العشاء والمعنى أقم الصلاة من وقت زوال الشمس الى ظلمة الليل بأن تديم كل صلاة فى وقتها فيدخل فى هذا الظهر والعصر والمغرب (وقرآن الفجر) أى أقم صلاة الفجر (ان قرآن الفجر كان مشهودا) تحضره الملائكة الكاتبون والحفظة فانهم يتعاقبون على ابن آدم فى صلاة الصبح وصلاة العصر وتشهده شواهد القدرة من تبدل الظلمة بالضياء وتبدل النوم بالانتباه فتشهد العقول بأنه لايقدر على تقليب كلية هذا العالم الا الخالق المدبر بالحكمة البالغة وتشهده الجماعة الكثيرة (ومن الليل فتهجد به) أى وقم بعض الليل فاترك النوم فى ذلك الوقت للصلاة وقيل المعنى تهجد بالقرآن بعض الليل أى صل فى ذلك بالقرآن (نافلة لك) أى زيادة لك فى كثرة الثواب وارتفاع الدرجات مختصة بك فان كل طاعة يأتى بها النبى صلى الله عليه وسلم سوى المكتوبة لايكون تأثيرها فى كفارة الذنوب البتة لان الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بل يكون تأثيرها فى زيادة الدرجات وكثرة الثواب فلهذا سميت بافلة بخلاف الامة فان لهم ذنوبا محتاجة الى الكفارات فهذه الطاعات لهم لتكفير الذنوب فلهذا السبب قال تعالى نافلة لك أى ان الطاعات هذه زوائد فى حقك لا فى غيرك كما نقل عن مجاهد والسدى ومن قال ان صلاة الليل كانت واجبة على النبى صلى الله عليه وسلم قالوا

معنى نافلة لك ان صلاة الليل فريضة عليك زائدة على الصلوات الخمس خاصة بك دون أمتك (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) أى ان يقيمك ربك مقاما محمودا عندك وعند جميع الناس وروى أبو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لامتى (وقل رب أدخلنى مدخل صدق) أى فى المدينة (وأخرجنى مخرج صدق) أى من مكة اليها وذلك حين أمر النبى بالهجرة كما قاله ابن عباس والحسن أو المعنى وأخرجنى من المدينة الى مكة ظالبا عليها بفتحها وقيل الاكمل مما سبق أن يقال رب أدخلنى فى الصلاة وأخرجنى منها مع الصدق والاخلاص وحضور قلبى بذكرك ومع القيام بلوازم شكرك والاكمل من ذلك أن يقال رب ادخلنى فى القيام بمهمات أداء شريعتك وأخرجنى بعد الفراغ منها اخراجا لا يبقى على منها تبعة والاعلى مما سبق أن يقال رب ادخلنى فى بحار دلائل توحيدك وتنزيهك ثم أخرجنى من الاشتغال بالدليل الى ضياء معرفة المدلول ومن التأمل فى آثار حدوث المحدثات الى الاستغراق فى معرفة الفرد المنزه عن التغيرات وقيل المعنى رب أدخلنى القبر ادخالا مرضيا وأخرجنى منه عند البعث اخراجا مرضيا ملقى بالكرامة (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) أى اجعل لى فى هذا البلد من لدنك قوة ظاهرة فى تثبيت دينك واظهار شرعك أو اجعل لى من عندك حجة بينة تنصرنى بها على جميع من يخالفنى (وقل جاء الحق) أى ظهر الاسلام (وزهق الباطل) أى هلك الشرك وتسويلات الشيطان (ان الباطل) أى أى باطل كان (كان) بجبلته (زهوقا) زائلا على أسرع الوجوه (وننزل من القرآن ما هو شفاء) من جميع الامراض الظاهرة والباطنة (ورحمة للمؤمنين) لان القرآن يعلم كيفية اكتساب العلوم العالية والاخلاق الفاضلة التى يصل بها الانسان الى قرب رب العالمين (ولا يزيد الظالمين الا خسارا) أى لا يزيد القرآن المشركين الا هلاكا بتكذيبهم (واذا أنعمنا على الانسان) بأن وصل الى مطلوبه (أعرض) أى اغتر وصار غافلا عن طاعة الله (ونأى بجانبه) أى تباعد من أهل الحق ولم يقتد بهم تعظما لنفسه كديدن المستكبرين (واذا مسه الشر) أى أصابه بلاء (كان يؤسا) أى قنوطا من رحمة الله حزينا ولم يتفرغ لذكر الله تعالى (قل كل) أى كل أحد (يعمل) عمله (على شاكلته) أى طريقته التى توافق حاله فى الهدى والضلالة فان كانت نفسه طاهرة صدرت عنه أفعال جميلة وان كانت نفسه خبيثة صدرت عنه أفعال رديئة (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى أصوب طريقا (ويسألونك عن الروح) الذى هو سبب حياة البدن بنفخه فيه (قل الروح من أمر ربى) أى من فعل ربى أو من علم ربى فانه مما اختص الله تعالى بعلمه روى ان اليهود قالوا لقريش سلوا محمدا عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عنها جميعا أو سكت فليس بنبى وان أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فبين صلى الله عليه وسلم لهم القصتين وأبهم شأن الروح وهو مبهم فى التوراة (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) فان عقول الخلق عاجزة عن معرفة حقيقة الروح وقال بعضهم جاء فى الخبر فى بعض الروايات ان الله تعالى خلق ثلاثمائة وستين ألف عالم ولكنه جعلها محصورة فى عالمين وهما الخلق والامر كما قال تعالى ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين فعبر عن عالم الدنيا وهو ما يدرك بالحواس الخمس الظاهرة السمع والبصر والشم والذوق واللمس بالخلق وعبر عن عالم الآخرة وهو ما يدرك بالحواس الخمس الباطنة العقل والقلب والسر والروح والخفى بالامر فعالم الامر هو الاوليات التى خلقها الله تعالى للبقاء بمحض الامر التكوينى من غير تحصل من أصل وهى الروح والعقل والقلم واللوح والعرش والكرسى والجنة والنار وسمى عالم الامر أمرا لان الله

أوجده بلا واسطة شئ بل بأمر كن من لا شئ ولما كان أمره تعالى قديما فما يكون بالامر القديم
كان باقيا وان كان حادثا وسمى عالم الخلق خلقا لانه تعالى أوجده بوساطة شئ مخلوق خلقه للفناء فمعنى
الروح من أمر ربى انه من عالم الامر والبقاء لا من عالم الخلق والفناء اهـ فلا يمكن تعريف الروح بمباديه
ولا يحيط بكنهه دائرة ادراك البشر وانما الممكن هذا القدر الاجمالى ولذا قال تعالى وما أوتيتم من العلم
الا قليلا أى وما أعطيتم من العلم فيما عند الله الا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحواس (ولئن شئنا
لنذهبن بالذى أوحينا اليك) من القرآن أى لنزيلن العلم به عن القلوب وعن المصاحف (ثم لا تجد لك
به) أى القرآن (علينا وكيلا) أى من تتوكل عليه فى استرداد شئ منه محفوظا مسطورا (الا رحمة
من ربك) أى لكن أبقيناه الى قرب قيام الساعة رحمة من ربك فعند ذلك يرفع من الصدور والمصاحف
(ان فضله كان عليك كبيرا) بابقاء العلم والقرآن عليك وبجعلك سيد ولد آدم وخاتم النبيين واعطائك
المقام المحمود (قل) لمن يزعمون أن القرآن من كلام البشر (لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا
بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) أى لئن اتفق الانس والجن والملائكة على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى
البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى لا يقدرون على اتيان مثله وتخصيص الثقلين بالذكر لان المنكر فى
كونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما لا لان غيرهما قادر على المعارضة (ولو كان بعضهم لبعض
ظهيرا) أى معينا بضم أقوى ما فيه الى أقوى ما فى صاحبه (ولقد صرفنا) أى كررنا بوجوه مختلفة
توجب زيادة بيان (للناس) أى لاهل مكة (فى هذا القرآن) المنعوت بالنعوت الفاضلة (من كل
مثل) أى من كل معنى بديع يشبه المثل فى الغرابة ليتلقوه بالقبول (فأبى أكثر الناس) أى فلم يرض
أكثر أهل مكة (الا كفورا) أى جحودا للحق (وقالوا) عند ظهور عجزهم بالقرآن وغيره من
المعجزات الباهرة (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض) أى أرض مكة (ينبوعا) أى عينا لا ينضب
ماؤها (أو تكون لك) وحدك (جنة) أى بستان تستر أشجاره ما تحتها من العرصة (من نخيل وعنب)
أى وأشجار عنب وعبر بالثمرة لان الانتفاع بغيرها من الكرم قليل (فتفجر) أى أنت (الانهار
خلالها) أى وسطها (تفجيرا) والمراد اجراء الانهار فى وسط البستان عند سقيها أو ادامة اجرائها
وتفجر الاولى تكون بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم عند عاصم وحمزة والكسائى وبضم التاء وفتح الفاء
وكسر الجيم المشددة عند الباقين ولم تختلف السبعة فى تفجر الثانية انها مشددة (أو تسقط السماء كما
زعمت) بقولك ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء (علينا كسفا) أى قطعا
بالعذاب (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) أى مقابلين ومرئيين لنا (أو يكون لك بيت من زخرف) أى
ذهب وفضة كامل الحسن (أو ترقى فى السماء) أى تصعد اليها (ولن نؤمن لرقيك) أى لصعودك
الى السماء أصلا (حتى تنزل علينا كتابا) من الله (نقرؤه) فيه أنك رسول الله الينا أى لما ظهر لهم كون
القرآن معجزا اقترحوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أنواع من المعجزات كما حكى عن ابن عباس أن
رؤساء أهل مكة أرسلوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم جلوس عند الكعبة فأتاهم فقالوا يا محمد ان
أرض مكة ضيقة فسير جبالها لننتفع فيها وفجر لنا فيها عيونا نزرع فيها فقال لا أقدر عليه فقال قائل منهم
أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا فقال لا أقدر عليه فقيل أو يكون لك بيت من
زخرف فيغنيك عنا فقال لا أقدر عليه فقيل له أما تستطيع أن تأتى قومك بما يسألونك فقال لا أستطيع
قالوا فاذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا فقال عبد الله بن

أمية المخزومي وهو ابن عاتكة عمته صلى الله عليه وسلم لا أومن بك أبدا حتى تشد سلما الى السماء فتصعد فيه ونحن ننظر اليك فتأتي بنسخة منشورة معك بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ثم بعد ذلك لا أدري أتؤمن بك أم لا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله حزينا فأنزل الله تعالى هذه الآية (قل) وقرأ ابن كثير وابن عامر قال بصيغة الماضي (سبحان ربي) أي أنزه ربي عن أن يكون له اتيان وذهاب وأتعجب من اقتراحاتهم (هل كنت الا بشرا رسولا) أي مأمورا من قبل ربي بتبليغ الرسالة كسائر الرسل لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله عليهم من الآيات (وما منع الناس) أي أهل مكة (أن يؤمنوا) بنبوتك (اذ جاءهم الهدى) أي القرآن (الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا) الينا أي وما منع الناس من الايمان وقت مجيء الوحي الا اعتقادهم ان الله تعالى لو أرسل رسولا الى الخلق لوجب أن يكون من الملائكة وانكارهم أن يكون من جنس البشر (قل) لهم من جهتنا جوابا لقولهم (لو كان في الارض ملائكة يمشون) عليها (مطمئنين) أي قارين فيها من غير أن يعرجوا في السماء (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) أي لو كان أهل الارض ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة أما لو كان أهل الارض من البشر لوجب أن يكون رسولهم من البشر لتمكنهم من الاجتماع والفهم منه لمماثلتهم له في الجنس (قل) لهم (كفى بالله) وحده (شهيدا بيني وبينكم) باني رسوله اليكم (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) أي محيطا ببواطن أحوالهم وظواهرها أي فانكم انما أنكرتم هذا لمحض الحسد والاستنكاف من الانقياد للحق (ومن يهد الله فهو المهتد) بحذف الياء من الرسم هنا وفي الكهف وأما في النطق فقرأ نافع وأبو عمرو باثبات الياء وصلا وحذفها وقفا وحذفها الباقون في الحالين (ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء) أي أنصارا (من دونه) تعالى يهدونهم الى طريق الحق أي فمن سبق لهم حكم الله بالايمان وجب أن يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال استحال ان ينقلبوا عن ذلك الضلال وان يوجد من يصرفهم عنه (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) فقد روي أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم قال ان الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (عميا) لا يبصرون ما يسر أعينهم (وبكما) لا ينطقون ما يقبل منهم (وصما) لا يسمعون ما يلذ مسامعهم (مأواهم جهنم كلما خبت) أي سكن لهبها بعد أكل جلودهم ولحومهم بأن لم يبق فيهم ما تتعلق به النار (زدناهم سعيرا) أي توقدا باعادة الجلود واللحوم ولعل ذلك عقوبة لهم على انكارهم الاعادة بعد الفناء بتكريرها مرة بعد أخرى ليروها عيانا حيث لم يعلموها برهانا (ذلك) العذاب (جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا) الدالة على صحة الاعادة دلالة واضحة (وقالوا) منكرين لقدرتنا (أئذا كنا عظاما ورفاتا) أي ترابا رميما (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أي بعثا جديدا (أولم يروا) أي ألم يتفكروا ولم يبصروا بعيون قلوبهم (أن الله الذي خلق السموات والارض قادر على أن يخلق) أي يعيد بالاحياء (مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) أي وقتا معلوما عند الله لا شك فيه عند المؤمنين وهو يوم القيامة (فأبى الظالمون) أي لم يقبل المشركون بعد هذه الدلائل الظاهرة (الا كفورا) أي جحودا للاجل (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي) أي خزائن رزقه التي أفاضها على كافة الموجودات (اذا لأمسكتم) ما ملكتم (خشية الانفاق) أي مخافة الفقر فلا فائدة في اسعافكم بذلك المطلوب الذي التمستموه (وكان الانسان قتورا) أي بخيلا (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أي واضحات الدلالة على نبوته وهي اليد والعصا والجراد والقمل والضفادع

والدم والطوفان والسنون ونقص الثمرات (فاسأل بني اسرائيل) أي فاسأل يا أشرف الرسل بني اسرائيل الذين كانوا في زمانك عن موسى فيما جرى بينه وبين فرعون وقومه ليظهر صدق ماذكرته عند المشركين فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد وهذه الجملة اعتراضية بين العامل والمعمول (اذجاءهم) أي حين جاء موسى بني اسرائيل الذين كانوا في زمانه عليه السلام وهذا الظرف متعلق بآتينا فأظهر ما آتيناه من الآيات عند فرعون وبلغه ما أرسل به (فقال له فرعون اني لأظنك يا موسى مسحورا) أي مغلوب العقل (قال) لفرعون (لقد علمت) قرأ الكسائي بضم التاء والباقون بفتحها فالضم قراءة علي والفتح قراءة ابن عباس (ما أنزل هؤلاء) الآيات على (الا رب السموات والارض بصائر) أي أدلة ظاهرة يستدل بها على صدقي ولكنك تنكرها للحسد وحب الدنيا (واني لأظنك) أي لأعلمك (يا فرعون مثبورا) أي ملعونا ممنوعا من الخير (فأراد أن يستفزهم) أي أراد فرعون أن يخرج موسى وقومه (من الارض) بالقتل (فأغرقناه ومن معه جميعا) في البحر (وقلنا من بعده) أي من بعد اغراقهم (لبني اسرائيل اسكنوا الارض) أي أرض الشام ومصر (فاذاجاء وعد الآخرة) أي البعث بعد الموت (جئنا بكم) من قبوركم الى المحشر (لفيفا) أي مختلطين أنتم وهم فيختلط جميع الخلق المسلم والكافر والبر والفاجر ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) أي ما أردنا بانزال القرآن الا اثبات الحق وكما أردناهذا المعنى فكذلك حصل هذا المعنى ووصل اليهم بعد انزاله عليك ليس فيه تبديل أو يقال وما أنزلنا القرآن الا ملتبسا بالحكمة المقتضية لانزاله وما نزل الا ملتبسا بما اشتمل عليه من العقائد والاحكام ونحوها (وما أرسلناك) يا أفضل الخلق (الا مبشرا) للطيع بالثواب (ونذيرا) للعاصي بالعقاب فهؤلاء الجهال الذين اقترحوا عليك تلك المعجزات وتمردوا عن قبول دينك لاشئ عليك من كفرهم (وقرآنا فرقناه) وقرأ العامة بتخفيف الراء أي بينا حلاله وحرامه أو فرقنا فيه بين الحق والباطل وقرأ علي وجماعة من الصحابة وغيرهم بالتشديد أي فرقنا آياته بين أمر ونهي وحكم وأحكام ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار ماضية ومستقبلة أو نزلناه مفرقا في ثلاث وعشرين سنة أوفي عشرين سنة على الخلاف في تقارن النبوة والرسالة وتعاقبهما (لتقرأه على الناس على مكث) بضم الميم وفتحها أي على تأن لتكون الاحاطة على دقائقه وحقائقه أسهل (ونزلناه) من عندنا (تنزيلا) متفرقا آية وآيتين وثلاثا وهكذا بحسب ماتقتضيه الحكمة ومايحصل من الواقعات (قل) للذين اقترحوا تلك المعجزات (آمنوا به) أي القرآن (أولا تؤمنوا) فان ايمانكم به لايزيده كمالا وامتناعكم عن الايمان به لايورثه نقصا (ان الذين أوتوا العلم من قبله) أي من قبل نزول القرآن منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي (اذا يتلى) أي القرآن (عليهم يخرون للاذقان) أي يسقطون على وجوههم بغاية الخوف (سجدا) لله شكرا على انجاز وعده في تلك الكتب من بعثتك ونزول القرآن (ويقولون) في سجودهم (سبحان ربنا) أي تنزيها له عن خلف وعده (ان) أي ان الشان (كان وعد ربنا) بانزال القرآن وبعث محمد صلى الله عليه وسلم (لمفعولا) أي منجزا (ويخرون للاذقان) للسجود لما أثر فيهم من مواعظ القرآن (يبكون) من خشية الله (ويزيدهم) أي القرآن أو البكا أو السجود أو المتلو (خشوعا) أي تواضعا لله كما يزيدهم يقينا بالله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) أي سموا المعبود بحق بهذا الاسم قال ابن عباس سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعل يقول في سجوده يا الله يا رحمن فقال أبو جهل ان محمدا ينهانا عن

آلهتنا وهو يدعو الحسين فأنزل الله هذه الآية أى ان شئتم قولوا يا الله وان شئتم قولوا يا رحمن (أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى) أى أى هذين الاسمين سميتم فهو حسن لان للمسمى بذلك الاسماء الحسنى ومعنى حسن أسماء الله كونها مفيدة لمعانى التحميد والتقديس والتمجيد والتعظيم وعلى صفات الجلال والكمال (ولا تجهر بصلاتك) أى بقراءة صلاتك (ولا تخافت بها) أى بقراءتها روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بالقراءة فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى اليه ولا تجهر بصلاتك فيسمع المشركون فيسبوا الله عدوا بغير علم ولا تخافت بها فلا تسمع أصحابك (وابتغ بين ذلك) أى اطلب بين الجهر والمخافتة (سبيلا) أى أمرا وسطا روى أن النبى صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة وكان أبو بكر يخفى صوته بالقراءة فى صلاته وكان عمر يرفع صوته فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر لم تخفى صوتك فقال أناجى ربى وقد علم حاجتى وقال لعمر لم ترفع صوتك فقال أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أبابكر أن يرفع صوته قليلا وعمر ان يخفض صوته قليلا (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا عزير بن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله فكل من له ولد هو محدث محتاج فلا يقدر على كمال الانعام فلا يستحق كمال الحمد وكل من له ولد يمسك جميع النعم لولده فاذا لم يكن له ولد أفاض تلك النعم على عبيده فلو كان له تعالى ولد لكان منقضيا فلا يقدر على كمال الانعام فى كل الاوقات فلا يستحق الحمد على الاطلاق (ولم يكن له شريك فى الملك) أى فى الالوهية كما يقوله الثنوية القائلون بتعدد الآلهة لانه لو كان معه اله آخر لتصرف فى الموجودات فلا يعرف حينئذ ان هذه النعم حصلت منه أو من شريكه فلا يعرف كونه مستحقا للحمد والشكر (ولم يكن له ولى من الذل) أى ناصر منه لانه لو جاز عليه ناصر من أجل المذلة لم يجب شكره لجواز أن يكون غيره تعالى حمله على الانعام أو منعه منه (وكبره تكبيرا) فالتحميد يجب أن يكون مقرونا بالتكبير والتكبير يكون فى ذاته تعالى بأن يعتقد أنه واجب الوجود لذاته وانه غنى عن كل ما سواه وفى صفاته بأن يعتقد ان كل صفة له فهو من صفات الجلال والكمال والعز والعظمة وكل واحد من تلك الصفات لا نهاية له وان كل صفة له قديمة سرمدية منزهة عن التغير وفى أفعاله كان يقول انا نحمد الله ونكبره عن أن يجرى فى سلطانه شئ لا على وفق حكمه وارادته فالكل واقع بقضاء الله وقدرته وارادته وفى أحكامه بأن يعتقد أنه ملك مطاع فلا اعتراض لاحد عليه فى شئ من أحكامه يعز من يشاء ويذل من يشاء وفى أسمائه بأن لا يذكر الا بأسمائه الحسنى ولا يصف الا بصفاته المنزهة ثم ينبغى للعبد بعد أن يبالغ فى التكبير والتنزيه والتحميد والطاعة مقدار عقله وفهمه أن يعترف أن عقله وفهمه لا يفى بمعرفة جلال الله ولسانه لا يفى بشكره وأعضاءه لا تفى بخدمته فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافيا بكنه مجده وعزته وروى أن قول العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها وعن عمرو بن شعيب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه وقل الحمد لله الآية واسأل الله الرحمة قبل الموت وعند الموت وبعد الموت أنه تعالى ناشر العظام بعد الموت وسامع الصوت حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم آمين

سورة الكهف مكية غير آيتين ذكر فيهما عيينة بن حصن الفزارى وهى مائة واحدى
عشرة آية وكلماتها ألف وخمسمائة وسبع وسبعون
وحروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله) وهو الاعلام بثبوت الحمد لله والثناء بذلك (الذى أنزل على عبده)
محمد صلى الله عليه وسلم (الكتاب) أى القرآن (ولم يجعل له عوجا) أى اختلالا فى النظم وتنافيا
فى المعنى وهو كامل فى ذاته وهذه الجملة معطوفة على أنزل (قيما) أى وجعله قائما بمصالح العباد
وأحكام الدين وقيل هاتان الجملتان حالان من الكتاب متواليتان أى غير مجعول له عوجا قيما (لينذر)
تعالى بالكتاب الكافرين (بأسا شديدا من لدنه) أى عذابا شديدا نازلا من عنده تعالى (ويبشر
المؤمنين) أى المصدقين به وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء وسكون الموحدة وضم الشين (الذين يعملون
الصالحات أن لهم أجرا حسنا) فى الجنة (ماكثين فيه أبدا) أى خالدين فى الاجر من غير انتهاء (وينذر
الذين قالوا اتخذ الله ولدا) وهم كفار العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله واليهود القائلون عزير بن
الله والنصارى القائلون المسيح ابن الله (ما لهم به من علم ولا لآبائهم) أى ليس لهم ولا لاحد من أسلافهم الذين
قلدوه علم بهذا القول أهو صواب أو خطأ بل انما قالوه رميا عن جهالة من غير فكر (كبرت كلمة تخرج
من أفواههم) فكلمة بالنصب على التمييز و بالرفع على الفاعلية فعلى النصب يكون فاعل كبرت مضمر
مفسر بما بعده وهو للذم والمخصوص بالذم محذوف تقديره كبرت الكلمة كلمة خارجة من أفواههم تلك
المقالة الشنعاء والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب أى ما أكبرها كلمة (ان يقولون الا كذبا) أى
ما يقولون فى ذلك الشأن الا مقولا كذبا (فلعلك باخع نفسك على آثارهم) والمراد بالترجى النهى عن
الغم أى لا تهلك نفسك بالغم من بعد اعراضهم عن الايمان بك (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) أى بهذا
القرآن (أسفا) أى لفرط الحزن (انا جعلنا ما على الارض) حيوانا كان أو نباتا أو معدنا (زينة
لها) أى الارض ليتمتع بها الناظرون من المكلفين و ينتفعوا بها نظرا واستدلالا فان العقارب والحيات
من حيث تذكيرهما العذاب الآخر من نوع المنافع بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على
وجود الصانع ووحدته (لنبلوهم) أى لنعاملهم معاملة من يختبرهم (أيهم أحسن عملا) أى أيهم
أطوع لله وأشد استمرارا على خدمته (وانا لجاعلون ما عليها) أى الارض من المخلوقات قاطبة عند
تناهى عمر الدنيا (صعيدا جرزا) أى ترابا لا نبات فيه (أم حسبت) أى أظننت (أن أصحاب الكهف
والرقيم كانوا من آياتنا) أى من بين آياتنا (عجبا) أى آية ذات عجب وفى الآيات أى آثار قدرة الله
تعالى ما هو أعجب من ذلك وهى السماء والارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار وعجبا خبر
كان ومن آياتنا حال منه والكهف هو الغار الواسع فى الجبل والرقيم كلب أصحاب الكهف وقيل هو لوح
رصاصى أو حجرى كتبت فيه أسماؤهم وقصتهم وجعل على باب الكهف وهم كانوا فتية من أشراف
الروم أرادهم دقيانوس على الشرك فهربوا منه بدينهم (اذ أوى الفتية الى الكهف) ظرف لعجبا أى
حين التجأ الشبان الى الكهف (فقالوا) عقب استقرارهم فيه (ربنا آتنا من لدنك رحمة) خاصة
تستوجب المغفرة والرزق والامن من الاعداء (وهيئ لنا من أمرنا رشدا) أى يسر لنا من أمرنا الذى
نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك اصابة للطريق الموصل الى المطلوب (فضربنا على
آذانهم) أى فعقب هذا القول ألقينا على آذانهم حجابا يمنع من أن تصل الى أسماعهم الاصوات
الموقظة من نومهم (فى الكهف سنين عددا) أى معدودة وفى الكهف حال من المضاف اليه (ثم
بعثناهم) أى أيقظناهم من نومهم الثقيل (لنعلم) أى لنعاملهم معاملة من يختبرهم (أى الحزبين)
أى المختلفين فى مدة لبثهم (أحصى لما لبثوا أمدا) أى ضبط غاية للبثهم فيظهر لهم عجزهم و يفوضون

ذلك

ذلك الى العليم الخبير و يتعرفون ماصنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانهم فيزدادون يقينا بكمال قدرته تعالى وعلمه و يستبصرون به أمر البعث و يكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم فالمراد بالحزبين نفس أصحاب الكهف وأحصى فعل ماض وأمدا مفعول به وقرئ ليعلم بالياء مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل من الاعلام أى ليعلم الله الناس أى الحزبين أحصى الخ (نحن نقص عليك) ياأشرف الخلق (نبأهم بالحق) أى على وجه الصدق (انهم فتية) أى جماعة من الشبان (آمنوا بربهم) بالتحقيق لا بالتقليد (وزدناهم هدى) أى بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين (وربطنا على قلوبهم) أى قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الاهل والاخوان واجترأوا على الرد على دقيانوس الجبار (اذ قاموا) أى حين انتصبوا لاظهار شعار الدين أو وقت قاموا بين يدى الملك دقيانوس الكافر فانه كان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله تعالى هؤلاء الفتية حتى عصوا ذلك الجبار وأقروا بربوبية الله تعالى وصرحوا بالبراءة من الشركاء (فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها) أى لن نعبد أبدا معبودا آخر (لقد قلنا اذا شططا) أى والله لئن عبدنا غيره لقد قلنا حينئذ قولا زورا على الله قال أصحاب الكهف عند خروجهم من عند الملك دقيانوس الكافر (هؤلاء قومنا اتخذوا) أى عبدوا (من دونه آلهة) فقومنا عطف بيان لاسم الاشارة أو خبر له واتخذوا حال منه (لولا يأتون عليهم بسلطان بين) أى هلا يأتون على عبادتهم بحجة ظاهرة وهذا انكار وتعجيز وتبكيت لهم (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى فليس أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا بنسبة الشريك اليه تعالى فان الحكم بثبوت الشئ مع عدم الدليل عليه ظلم وافتراء على الله وهذا من أعظم الدلائل على فساد القول بالتقليد قال بعض الفتية لبعض وقت اعتزالهم (واذ اعتزلتموهم وما يعبدون) أى واذ أردتم اعتزالهم واعتزال الشئ الذى تعبدونه (الا الله فأووا الى الكهف) أى التجئوا اليه وهذا جواب اذ (ينشر لكم ربكم من رحمته) أى يبسطها عليكم فى الدارين (و يهيء لكم من أمركم مرفقا) أى و يسهل لكم من أمركم الذى أنتم عليه من الفرار بالدين ما تنتفعون به غدا وقرأ نافع وابن عامر وعاصم فى رواية مرفقا بفتح الميم وكسر الفاء والجمهور بالعكس (وترى الشمس) خطاب لكل أحد بيان لحالهم بعد ما صاروا الى الكهف وهذا ليس اخبارا بوقوع الرؤية تحقيقا بل الاخبار بكون الكهف بحيث لو أبصرته تبصر الشمس (اذا طلعت تزاور) قرأ ابن عامر تزور وسا كنة الزاى مشدد الراء ونافع وابن كثير وابو عمرو تزاور بتشديد الزاى وبالالف وعاصم وحمزة والكسائى تزاور بالتخفيف والالف أى تميل (عن كهفهم ذات اليمين) أى جانب الكهف الذى يلى المغرب فلا يقع عليهم شعاع الشمس (واذا غربت تقرضهم ذات الشمال) أى تعدل عن سمت رؤسهم الى جهة الشمال الذى يلى المشرق فان الله منع ضوء الشمس من الوقوع عليهم وذلك خارق للعادة وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف (وهم فى فجوة منه) أى والحال انهم فى فضاء متسع من الكهف معرض لاصابة الشمس (ذلك) أى المذكور من انامتهم وحمايتهم من اصابة الشمس لهم فى ذلك الغار تلك المدة الطويلة (من آيات الله) العجيبة على كمال علمه وقدرته وعلى وحدته (من يهد الله) الى الحق بالتوفيق له (فهو المهتد) أى الذى أصاب الفلاح مثل أصحاب الكهف (ومن يضلل) الله (فلن تجد له) أبدا (وليا مرشدا) أى ناصرا يهديه الى الفلاح كدقيانوس الكافر وأصحابه (وتحسبهم أيقاظا) أى لو رأيتهم أيها المخاطب لانفتاح عيونهم على هيئة الناظر (وهم رقود) أى نيام

(ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) ليبنال النسيم جميع أبدانهم ولئلا يتأثر مايلى الارض منها بطول المكث فالله قادر على حفظهم من غير تقليب ولكن جعل لكل شئ سببا فى أغلب الاحوال (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) أى بموضع الباب من الكهف وكان الكلب أغر أو أصفر أو أصهب أو أحمر أو أصفر واسمه قطمير أو ريان أو تتوه أو قطمور او ثور او حمران وكان لواحد منهم فلما خرجوا تبعهم فمنعوه فأنطقه الله وتكلم وقال أنا أحب أحباب الله فمكنوه من الذهاب معهم فلما ناموا نام كنومهم ولما استيقظوا استيقظ معهم ولما ماتوا مات معهم (لو اطلعت عليهم) أى لو شاهدتهم (لوليت منهم فرارا) أى لادبرت عنهم هربا بما شاهدت منهم (ولملئت منهم رعبا) أى خوفا يملأ الصدر لما ألبسهم الله تعالى من الهيبة فكل من رآهم فزع فزعا شديدا وقرأ نافع وابن كثير لملئت بتشديد اللام وروى أيضا عن ابن كثير بالتخفيف كالجمهور وقرأ السوسى بابدال الهمزة ياء وقفا ووصلا وحمزة فى الوقف فقط وقرأ ابن عامر والكسائى رعبا بضم العين فى جميع القرآن والباقون بالاسكان (وكذلك) أى كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلى آية دالة على كمال قدرتنا (بعثناهم) أى أيقظناهم من النوم بعد مضى ثلثمائة سنة وتسع سنين (ليتساءلوا بينهم) أى ليسأل بعضهم بعضا فى مدة لبثهم (قال قائل منهم) هو رئيسهم واسمه مكسلمينا (كم لبثتم) أى كم مقدار مكثكم فى منامكم فى هذا الغار (قالوا) أى بعضهم (لبثنا يوما) لانهم دخلوا الكهف غدوة ثم ناموا طلوع الشمس وكان انتباههم آخر النهار فلما خرجوا فنظروا الى الشمس وقد بقى منها شئ قالوا (أو بعض يوم قالوا) أى بعض آخر منهم وهو مكسلمينا (ربكم أعلم بما لبثتم) فأنتم لاتعلمون مدة لبثكم (فابعثوا أحدكم) هو تمليخا كما قاله ابن اسحق (بورقكم هذه الى المدينة) وهى منبج أو أفسوس بضم الهمزة هذا فى الجاهلية وتسمى فى الاسلام طرسوس بفتح الراء (فلينظر أيها) أى أى أهلها (أزكى طعاما) أى أبعد عن كل حرام لان ملكهم كان ظالما وعامة أهل بلدهم كانوا مجوسا وفيهم قوم يخفون ايمانهم (فليأتكم برزق) أى بطعام (منه) أى من ذلك الازكى (وليتلطف) أى وليرفق فى الشراء كى لا يغبن وفى دخول المدينة لئلا يعرف (ولا يشعرن بكم أحدا) أى لا يخبرن بمكانكم أحدا من أهل المدينة فان ذلك يستلزم شيوع أخباركم (انهم ان يظهروا عليكم) أى ان يطلعوا على أنفسكم أو على مكانكم (يرجموكم) أى أى يقتلوكم بالرجم (أو يعيدوكم فى ملتهم) أى يصيروكم الى ملتهم كرها (ولن تفلحوا) أى لن تسعدوا (اذا) أى ان دخلتم فيها ولو بالكره (أبدا) أى فى الدنيا والآخرة (وكذلك) أى وكما أنمناهم وبعثناهم (أعثرنا عليهم) أى أطلعنا الناس المؤمنين والكافرين على أحوالهم وكان ملكهم يومئذ مسلما يسمى بيستفاد وذلك ان دقيانوس مات وقبضت قرون ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح واختلف أهل مملكته فى الحشر وبعث الاجساد من القبور فشك فى ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا انما تحشر الارواح دون الاجساد فان الجسد تأكله الارض وقال بعضهم تبعث الارواح والاجساد جميعا وكبر ذلك على الملك وبقى حيران لا يدرى كيف يبين أمر البعث لهم حتى دخل بيته وأغلق بابه ولبس المسوح وقعد على الرماد وتضرع الى الله تعالى فى طلب حجة وبرهان فأعثر الله على أهل الكهف فانهم لما بعثوا أحدهم بورقهم الى المدينة ليأتيهم برزق منها استنكر شخصه واستنكر ورقه لانه ظهرت فى بشرة وجهه آثار عجيبة تدل على ان مدته قد طالت طولا خارجا عن العادة ولان ورقه كان على ضرب دقيانوس فاتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك وكان صالحا قد آمن هو ومن معه فلما نظر اليه قال

لعل

لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك فقد كنت أدعو الله أن يرينيهم وسأل الفتى فأخبره بأنه ومن معه خرجوا فرارا من الملك دقيانوس فسر الملك بذلك وقال لقومه لعل الله قد بعث لكم آية فلنسر الى الكهف فركب مع أهل المدينة اليهم فلما دنوا الى الكهف قال تمليخا أنا أدخل عليهم لئلا يرعبوا فدخل عليهم وأعلمهم بأن الامة أمة مسلمة فخرجوا الى الملك وعظموه وعظمهم ثم رجعوا الى كهفهم ورجع من شك فى بعث الاجساد فهذا معنى أعثرنا عليهم (ليعلموا) أى الذين أعثرناهم وهم الملك ورعيته على أحوالهم العجيبة (أن وعد الله) بالبعث للروح والجثة معا (حق) أى صادق بطريق أن القادر على انامتهم مدة طويلة وابقائهم على حالهم بلا غذاء قادر على احياء الموتى قال بعض العارفين علامة اليقظة بعد النوم علامة البعث بعد الموت (وأن الساعة) أى وقت بعث الخلائق جميعا للحساب والجزاء (لا ريب فيها) أى لا شك فى قيامها (اذ يتنازعون بينهم أمرهم) فى صحة البعث وهذا ظرف لقوله تعالى أعثرنا لا لقوله ليعلموا أى أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمرهم ليرتفع الخلاف ويتبين الحق (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا) أى لما أعثرناهم عليهم فرأوا ما رأوا فعاد الفتية الى كهفهم فأماتهم الله تعالى فقال بعضهم ابنوا على باب كهفهم بنيانا لئلا يتطرق اليهم الناس ضنا بتربيتهم (ربهم أعلم بهم) كأن المتنازعين لما رأوا عدم اهتدائهم الى حقيقة حالهم من حيث النسب والاسم ومن حيث العدد ومن حيث اللبث فى الكهف قالوا ذلك تفويضا للامر الى علام الغيوب (قال الذين غلبوا على أمرهم) وهم الملك والمسلمون أو أولياء أصحاب الكهف أو رؤساء البلد (لنتخذن عليهم مسجدا) نعبد الله فيه ونستبقى آثارهم بسبب ذلك المسجد (سيقولون) أى يقول بعض المتنازعين لك يا أشرف الخلق وهم اليهود أو السيد وأصحابه وهم اليعقوبية من نصارى نجران هم (ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون) أى النصارى أو العاقب وأصحابه وهم النسطورية منهم هم (خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب) أى ظنا بالغيب من غير دليل ولا برهان (ويقولون) أى المسلمون أو الملكانية من النصارى هم (سبعة وثامنهم كلبهم قل) يا أشرف الخلق (ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) من الناس وكان على رضى الله عنه يقول كانوا سبعة وأسماؤهم تمليخا مكشلمينا مشلمينا هؤلاء الثلاثة أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش دبرنوش شاذنوش وكان الملك يستشير هؤلاء الستة فى أمره والسابع الراعى الذى وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسمه كفشطيطيوش واسم كلبه قطمير وقال ابن عباس هم سبعة مكسلمينا تمليخا مرطونس نينونس ساربونس ذونوانس فليستطيونس وهو الراعى وعن ابن مسعود كانوا تسعة وسماهم ابن اسحق تمليخا مكسلمينا محسلينا مرطونس كسوطونس سورس يكربوس بطسوس قالوس اهـ وقال ابن عباس رضى الله عنهما خواص أسماء أهل الكهف تنفع لتسعة أشياء للطلب والهرب ولطفء الحريق تكتب على خرقة وترمى فى وسط النار تطفأ باذن الله تعالى ولبكاء الطفل والحمى المثلثة وللصداع تشد على العضد الايمن ولام الصبيان وللركوب فى البر والبحر ولحفظ المال ولنماء العقل ونجاة الاثمين (فلا تمار فيهم) أى فلا تجادل معهم فى عدد الفتية (الا مراء ظاهرا) بأن لا تكذبهم فى تعيين ذلك العدد بل تقول هذا التعيين لا دليل عليه (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) أى لا تشاور الى أحد من أهل الكتاب فى شأن الفتية (ولا تقولن) يا أكرم الرسل (لشئ) أى لاجل شئ تعزم عليه (انى فاعل ذلك) الشئ (غدا) أى فيما يستقبل من الزمان (الا أن يشاء الله) أى الا قائلا ان شاء الله أى لا تقل لشئ فى حال من الاحوال الا

في حال تلبسك بالتعليق بالمشيئة بأن تقول ان شاء الله نزلت هذه الآية حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين فسألوه صلى الله عليه وسلم فقال ائتوني غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه وكذبته قريش (واذكر ربك) بالتسبيح والاستغفار (اذا نسيت) كلمة الاستثناء وهذا مبالغة في الحث على ذكر هذه الكلمة (وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا) أي لعل ربي يؤتيني أعظم دلالة على صحة نبوتي من نبأ أصحاب الكهف (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) وهذا اخبار من الله عن مدة لبثهم ردا على أهل الكتاب المختلفين فيها فقال بعضهم ثلاثمائة وبعضهم ثلاثمائة وتسع والسنون عندهم شمسية فهذان القولان غير ما أخبر الله به من أن السنين ثلاثمائة وتسع قمرية والتفاوت بين الشمسية والقمرية في كل مائة سنة ثلاث سنين لان السنة الشمسية تزيد على السنة القمرية بعشرة أيام واحدى وعشرين ساعة وخمس ساعة قرأ حمزة والكسائي ثلاثمائة بغير تنوين فهو مضاف لسنين والباقون بالتنوين فسنين عطف بيان (قل الله أعلم بما لبثوا) أي بالزمان الذي لبثوا فيه في نومهم قبل بعثهم أي الله أعلم بحقيقة ذلك وكيفيته فارجعوا الى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب وهذا اشارة الى أن الاخبار من الله لا من عنده صلى الله عليه وسلم (له غيب السموات والارض) أي له تعالى علم ما خفي من أحوال أهلهما لانه موجدهما ومدبرهما (أبصر به وأسمع) أي ما أبصر الله وما أسمعه بكل شيء وهذا التعجب يدل على ان شأن علمه تعالى بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه ادراك المدركين لا يحجبه شيء ولا يحول عنه حائل (ما لهم) أي لاهل السموات والارض (من دونه) تعالى (من ولي) يتولى أمورهم ويقيم لهم تدبير أنفسهم فكيف يعلمون هذه الواقعة من غير اعلامه تعالى (ولا يشرك) تعالى (في حكمه أحدا) فلما حكم تعالى أن لبثهم هو هذا المقدار فليس لاحد أن يقول قولا بخلافه وقرأ ابن عامر لا تشرك بالتاء على الخطاب لكل أحد وبالجزم على النهي أي ولا تسأل أحدا عما أخبرك الله به من عدة أصحاب الكهف ومن مدة لبثهم في الغار واقتصر على حكمه تعالى ولا تشرك أحدا في طلب معرفة هذه الواقعة (واتل ما أوحي اليك من كتاب ربك) ولا تسمع لقولهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله (لا مبدل لكلماته) أي لا قادر على تبديلها (ولن تجد من دونه) تعالى (ملتحدا) أي ملجأ تعدل اليه ان هممت بالتبديل للقرآن (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) أي يعبدونه في كل الاوقات قرأ ابن عامر بالغدوة بضم الغين وسكون الدال (يريدون وجهه) أي مريدين بعبادتهم رضاه تعالى (ولا تعد عيناك عنهم) أي لا تنصرف عيناك عنهم الى غيرهم (تريد زينة الحياة الدنيا) أي ترغب في مجالسة الاغنياء وجميل الصورة (ولا تطع) في تنحية الفقراء عن مجالسك (من أغفلنا قلبه) أي وجدنا قلبه غافلا (عن ذكرنا) أي عن توحيدنا (واتبع هواه) في عبادة الاصنام (وكان أمره) في متابعة الهوى (فرطا) أي ضائعا نزلت هذه الآية في عيينة بن حصن الفزاري فانه أتى النبي صلى الله عليه وسلم قبل ان يسلم وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان الفارسي وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوص يشقه وينسجه فقال عيينة للنبي أما يؤذيه ريح هؤلاء ونحن سادة مضر واشرافها ان أسلمنا تسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك الا هؤلاء فنحهم عنك حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا ولهم مجلسا وقد أسلم هو رضي الله عنه وحسن اسلامه وكان في حنين من المؤلفة قلوبهم فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم منها مائة بعير وكذلك أعطى الاقرع بن حابس وأعطى العباس بن مرداس أربعين بعيرا وروى أبو

سعيد رضي الله عنه قال كنت فيما السافي عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم ليستتر بعض من العرى وقارئ يقرأ من القرآن لجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماذا كنتم تصنعون قلنا يارسول الله كان واحد يقرأ من كتاب الله ونحن نسمع فقال صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت ان أصبر نفسي معهم ثم جلس وسطنا وقال ابشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل الاغنياء بمقدار خمسين ألف سنة (وقل الحق من ربكم) أي قل لاولئك الغافلين هذا الدين الحق اغا أتى من عند الله فان قبلتموه عاد النفع اليكم وان لم تقبلوه عاد الضرر اليكم ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى والقبح والحسن والخمول والشهرة (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) فالله تعالى لم يأذن في طرد من آمن وعمل صالحا لاجل ان يدخل في الايمان جمع من الكفار وهذه الصيغة تهديد وليست بتخيير (انا أعتدنا للظالمين) أي هيأنا لمن أنف عن قبول الحق لاجل ان من قبلوه فقراء (نارا أحاط بهم سرادقها) أي فسطاطها فلا مخلص لهم منها (وان يستغيثوا) من العطش (يغاثوا بماء كالمهل) أي كدردى الزيت أو كالفضة المذابة (يشوى الوجوه) أي اذا قرب الى الفم ليشرب سقطت فروة وجهه (بئس الشراب) ذلك الماء لان المقصود بشرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ في احتراق الاجسام مبلغا عظيما (وساءت مرتفقا) أي وساءت النار منزلا ومجتمعا للرفقة مع الكفار والشياطين (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لانضيع أجر من أحسن عملا) أي لا نبطل ثواب من أخلص عملا (أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم) أي من تحت مساكنهم (الانهار يحلون فيها من أساور من ذهب) ويسور المؤمن في الجنة بسوار من ذهب وبسوار من فضة وبسوار من لؤلؤ فيكون في يده هذه الانواع الثلاثة وفي الحديث الصحيح تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس) وهو الديباج اللطيف (واستبرق) وهو الديباج الصفيق فان الخضرة أحسن الالوان وأكثرها طراوة (متكئين فيها على الارائك) أي ويجلسون في الجنة متربعين على السرر في الحجال وهي بيوت تزين بأنواع الزينة اما السرير وحده فلا يسمى أريكة (نعم الثواب) ذلك (وحسنت) أي الارائك (مرتفقا) أي منزلا ومجتمعا للرفقة مع الانبياء والصالحين (واضرب لهم مثلا رجلين) أي بين لهؤلاء الذين يطلبون طرد المؤمنين لضعفهم مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين شريكين في بني اسرائيل أحدهما كافر اسمه قطروس والآخر مؤمن اسمه يهوذا أو تمليخا لهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار واني أشتري منك أرضا في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال هذا اللهم ان فلانا بنى دارا بألف دينار واني اشتريت منك دارا في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم تزوج صاحبه امرأة وأنفق عليها ألف دينار فقال هذا اللهم اني أخطب اليك امرأة من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه اشترى خدما ومتاعا بألف دينار فقال هذا اللهم اني أشتري منك خدما ومتاعا في الجنة بألف دينار فتصدق بها ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبي لعله ينالني منه معروف فجلس على طريق حتى مر به في حشمه فقام اليه فنظر اليه صاحبه فعرفه فقال له فلان قال نعم فقال ما شأنك قال أصابتني حاجة بعدك فأتيتك لتعينني بخير قال فما فعل مالك فقص عليه قصته فقال وانك لمن المصدقين فطرده ووبخه على التصدق بماله وآل أمرهما الى ما حكاه الله تعالى فنزل في شأنهما قوله تعالى واضرب لهم مثلا رجلين (جعلنا لاحدهما) وهو الكافر (جنتين من أعناب) أي بستانين من كروم

متنوعة (وحففناهما بنخل) أي جعلنا النخل محيطا بالجنتين (وجعلنا بينهما) أي وسط أرض الجنتين (زرعا) ليكون كل منهما جامعا للاقوات والفواكه فتأتي هذه الارض في كل وقت بمنفعة فكانت منافعهما متواصلة (كلتا الجنتين آتت أكلها) أي أخرجت ثمرها كل عام (ولم تظلم منه) أي لم تنقص من ثمرها (شيأ وفجرنا خلالهما) أي أجرينا في داخل تلك الجنتين (نهرا) وفي قراءة يعقوب وفجرنا بالتخفيف (وكان له) أي لصاحب الجنتين (ثمر) قرأ عاصم بفتح الثاء والميم أي ثمر البستان وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم والباقون بضم الثاء والميم في الموضعين أي أنواع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك (فقال) أي صاحب الجنتين (لصاحبه) الذي جعل مثلا للفقراء المؤمنين (وهو) أي صاحب الجنتين (يحاوره) أي يراجع صاحبه بالكلام الذي فيه الافتخار بالمال والناس (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أي أكثر أصحابا من الاولاد وغيرهم ويقال وهو أي صاحبه المؤمن يراجع الكافر في الكلام بالوعظ والدعاء الى الايمان بالله وبالبعث (ودخل جنته) أي بستانه مع صاحبه يطوف به فيها ويريه حسنها (وهو ظالم لنفسه) أي ضار لها بكفره وعجبه واعتماده على ماله (قال) استئناف بيان لسبب الظلم (ما أظن أن تبيد هذه أبدا) أي ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبدا (وما أظن الساعة) أي القيامة التي هي وقت البعث (قائمة) أي حاصلة (ولئن رددت الى ربي) بالبعث عند قيامه كما تقول (لأجدن) يومئذ (خيرا منها) أي من هذه الجنة (منقلبا) أي عاقبة وسبب هذه اليمين الفاجرة اعتقاده انما أعطاه الله المال في الدنيا لكرامته عنده تعالى وهي معه بعد الموت وقرأ نافع وابن كثير منهما أي الجنتين (قال له) أي لصاحب الجنة (صاحبه) الذي هو المؤمن (وهو) أي المؤمن (يحاوره) أي يجاوب الكافر بالتوبيخ على شكه في حصول البعث (أكفرت بالذي خلقك من تراب) أي من آدم وهو من تراب (ثم من نطفة) لابيك وأمك (ثم سواك رجلا) أي صيرك انسانا ذكرا وهيأك هيئة تعقل وتصلح للتكليف فهل يجوز في العقل مع هذه الحالة اهماله تعالى أمرك فان من قدر على بدء خلقه من تراب قدر ان يعيده منه وجعل الكفر بالبعث كفرا بالله لان منشأه الشك في كمال قدرة الله (لكنا) أي لكن أنا أقول (هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا) أي أنت كافر بالله لكني مؤمن به موحد ثم قال المؤمن للكافر (ولولا اذ دخلت جنتك) أي وهلا حين دخلت بستانك (قلت) عند اعجابك بها (ما شاء الله) أي الامر هو الذي شاءه الله (لا قوة الا بالله) أي لا قوة لأحد على أمر من الامور الا باعانة الله واقداره وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من رأى شيأ فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة الا بالله لم يضره (ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا) وخدما في الدنيا (فعسى ربي أن يؤتين) أي يعطيني في الآخرة (خيرا من جنتك) لايماني (ويرسل عليها) أي على جنتك (حسبانا) أي نارا (من السماء فتصبح صعيدا زلقا) أي فتصير جنتك أرضا ملساء لا نبات فيها بحيث تزلق الرجل لكفرك (أو يصبح ماؤها غورا) أي غائصا في الارض (فلن تستطيع) أنت (له) أي الماء (طلبا) أي حيلة تدركه بها وقوله تعالى أو يصبح عطف على قوله تعالى فتصبح وان كان الحسبان بمعنى النار لانها الحكم الالهي بتخريبها الجنة فيتسبب عنه صيرورتها أملس أو صيرورة مائها غائرا ثم أخبر الله تعالى انه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال (وأحيط بثمره) أي أهلك ثمر بستانه بالكلية وجميع أمواله (فأصبح يقلب كفيه) أي صار يضرب احداهما على الاخرى وانما يفعل هذا ندامة (على ما أنفق فيها) أي في عمارة جنته لانه أنفق ما يمكن ادخاره من الاموال الكثيرة في مثل هذا

الشيء

الشئ السريع الزوال وقوله على ما أنفق متعلق بيقلب لانه ضمن معنى يندم كأنه قيل فأصبح يندم على ماصنع فان من عظمت ندامته يصفق احدى يديه على الأخرى (وهى) أى الجنة (خاوية على عروشها) أى ساقطة على سقوف الجنة وهى سقطت على الجدران وهذه اللفظة كناية عن هلاك البستان بالكلية (ويقول) أى الكافر تلهفا على تلف المال (يا) أى تنبهوا ياقومى (ليتنى لم أشرك بربى أحدا) وهذا الكافر تذكر كلام المؤمن وعلم انها هلكت جنته بشؤم شركه فتمنى أن لا يكون مشركا فلم يصبه ما أصابه (ولم تكن له) أى الكافر (فئة ينصرونه) بدفع الهلاك عن الجنة أو برد الهالك منها أو باتيان مثله (من دون الله) فانه وحده قادر على ذلك وقرأ حمزة والكسائى ولم يكن بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية (وما كان منتصرا) أى قادرا بنفسه على واحد من هذه الامور (هنالك الولاية) أى فى مثل ذلك الوقت وفى ذلك المقام النصرة (لله الحق) فلا يقدر عليها أحد وقرأ حمزة والكسائى الولاية بكسر الواو بمعنى الملك فالمعنى أى فى تلك الدار الآخرة السلطان لله والباقون بفتحها أى النصرة وقرأ أبو عمرو والكسائى الحق بالرفع صفة للولاية وقرأ الباقون بالجر صفة لله أى الثابت الذى لا يزول (هو) تعالى (خير ثوابا) أى اثابة فى الآخرة لمن آمن به والتجأ اليه (وخير عقبا) أى عاقبة لمن رجاه وعمل لوجهه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع والكسائى وابن عامر بضم القاف وعاصم وحمزة بتسكينها وقرئ عقبى كرجعى والكل بمعنى العاقبة (واضرب لهم) أى واذكر للذين افتخروا بأموالهم على فقراء المسلمين (مثل الحياة الدنيا) أى صفتها العجيبة فى فنائها (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض) أى اختلط بعض أنواع النبات ببعضها الآخر بسبب هذا الماء أى صار النبات فى المنظر فى غاية الحسن (فأصبح هشيما) أى فصار النبات بعد بهجتها يابسا مكسورا (تذروه الرياح) أى تفرقه ولم يبق منها شئ وقرأ حمزة والكسائى الريح بالتوحيد (وكان الله على كل شئ مقتدرا) أى قادرا على الكمال بتكوينه أولا وتنميته وسطا وابطاله آخرا فأحوال الدنيا كذلك تظهر أولا فى غاية النضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ فى الانحطاط الى أن تنتهى الى الفناء ومثل هذا الشئ ليس للعاقل أن يفرح به (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقراض فيقبح بالعاقل أن يفتخر به (والباقيات الصالحات) أى اعمال الخيرات التى تبقى له ثمرتها أبدا من الصلوات الخمس واعمال الحج وصيام رمضان والطيب من القول (خير عند ربك) أى فى الآخرة (ثوابا) فتعود الى صاحبها (وخير أملا) فينال بها صاحبها فى الآخرة كل ما كان يرجوه فى الدنيا لان صاحب تلك الاعمال يأمل فى الدنيا نصيبه من ثواب الله فى الآخرة وللغزالى فى هذا وجه لطيف فقال روى ان من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر حسنات فاذا قال والحمد لله صارت عشرين فاذا قال ولا اله الا الله صارت ثلاثين فاذا قال والله أكبر صارت أربعين وتحقيق القول فى ذلك أن أعظم مراتب الثواب هو الاستغراق فى معرفة الله وفى محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه تعالى منزها عن كل ما لا يليق به فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا قال مع ذلك والحمد لله فقد أقر بأن الله تعالى مع كونه منزها عن كل ما لا ينبغى فهو المبتدئ لافادة كل ما ينبغى ولافاضة كل خير وكمال فاذا قال مع ذلك ولا اله الا الله فقد أقر بأنه ليس فى الوجود موجود منزه عن كل ما لا ينبغى مبتدئ لافاضة كل ما ينبغى الا الواحد فاذا قال والله أكبر ومعنى أكبر أى أعظم من أن يصل العقل الى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة أربعة فكانت درجات الثواب أربعة فهذه الكلمات الاربع تسمى الباقيات الصالحات (ويوم نسير الجبال)

أى واذكر لهم حين نسير أجزاء الجبال عن وجه الارض بعد ان نجعلها غبارا مفرقا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير الجبال بالتاء الفوقية بالبناء للمفعول ورفع الجبال (وترى الارض) خطاب لكل أحد وقرئ على صيغة البناء للمفعول (بارزة) أى ظاهرة ليس عليها ما يسترها من جبال وأشجار وبناء وحيوان وظل وبحار (وحشرناهم) أى جمعنا الخلائق الى الموقف من كل أوب للحساب (فلم نغادر منهم) أى لم نترك من الاولين والآخرين (أحدا) الا وجمعناهم لذلك اليوم (وعرضوا على ربك) كعرض الجند على السلطان ليقضى بينهم (صفا) أى مصطفين وقد ورد فى الحديث الصحيح يجمع الله الاولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا وفى حديث آخر أهل الجنة مائة وعشرون صفا أنتم منها ثمانون اهـ مقولا لهم (لقد جئتمونا) كائنين (كما خلقناكم أول مرة) حفاة عراة غرلا بلا أموال وأعوان (بل زعمتم) فى الدنيا (أن لن نجعل لكم موعدا) أى وقتا للبعث (ووضع الكتاب) أى وضع فى هذا اليوم كتاب كل انسان فى يده اليمنى ان كان مؤمنا وفى يده اليسرى ان كان كافرا فقد تطايرت الكتب الى أيدى الخلق مثل الثلج (فترى المجرمين) أى المشركين والمنافقين (مشفقين مما فيه) أى خائفين مما فى الكتاب من أعمالهم الخبيثة أى يحصل لهم خوف العقاب من الله بذنوبهم وخوف الفضيحة عند الخلق بظهور الجرائم لاهل الموقف (ويقولون) عند وقوفهم على ما فى الكتاب من السيئات (يا ويلتنا) أى يا هلكتنا (مال هذا الكتاب) أى أى شئ له (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة) من أعمالنا (الا أحصاها) أى عدها (ووجدوا ما عملوا) فى الدنيا من السيئات (حاضرا) أى مكتوبا فى صحفهم (ولا يظلم ربك أحدا) فلا ينقص من حسنات أحد ولا يزيد على سيئات أحد (واذ قلنا) أى واذكر لهم وقت قولنا (للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) جميعا امتثالا بالامر (الا ابليس) فانه لم يسجد بل تكبر على آدم لانه افتخر بأصله (كان من الجن) أى من نوع الجن الذين هم الشياطين فالذى خلق من نار هو أبوهم (ففسق عن أمر ربه) أى خرج عن طاعته بترك السجود (أفتتخذونه وذريته أولياء) أى أبعد ما وجد من ابليس ما وجد تتخذونه وذريته أصدقاء يا بنى آدم (من دونى) فتطيعونهم بدل طاعتى (وهم لكم عدو) أى والحال ان ابليس وذريته لكم أعداء (بئس للظالمين بدلا) من الله تعالى فى الطاعة ابليس وذريته وعن مجاهد قال ولد ابليس خمسة بتر والاعور وزلنبور ومسوط وداسم فبتر صاحب المصائب والاعور صاحب الزنا وزلنبور الذى يفرق بين الناس ويبصر الرجل عيوب غيره ومسوط صاحب الصخب والاخبار يأتى بها فيلقيها فى أفواه الناس ولا يجدون لها أصلا وداسم الذى اذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر اسم الله دخل معه واذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه (ما أشهدتهم) أى ما أحضرت ابليس وذريته (خلق السموات والارض) فانى خلقتهم قبل خلقهم (ولا خلق أنفسهم) أى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض (وما كنت متخذ المضلين) للناس وهم الشياطين (عضدا) أى أعوانا فى شأن الخلق حتى يتوهم شركتهم بى فى بعض أحكام الربوبية والمعنى ما أطلعتهم على أسرار التكوين وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فكيف تطيعونهم يا بنى آدم (ويوم يقول) أى واذكر لهم يا أشرف الخلق أحوال المشركين وآلهتهم يوم القيامة اذ يقول الله تعجيزا وقرأ حمزة بنون العظمة (نادوا شركائى) أى نادوا آلهتكم التى قلتم انهم شركائى (الذين زعمتم) أى عبدتم لمنعوكم من عذابى (فدعوهم) للاغاثة (فلم يستجيبوا لهم) الى ما دعوهم اليه (وجعلنا بينهم) أى المشركين وآلهتهم (موبقا) أى حاجزا بعيدا أو واديا فى جهنم من قيح ودم وذلك ان المشركين الذين اتخذوا من دون

الله آلهة الملائكة وعزيرا وعيسى ومريم عليهم السلام دعواهؤلاء فلم يجيبوهم استهانة بهم واشتغالا بأنفسهم ثم حيل بينهم فأدخل الله تعالى هؤلاء المشركين جهنم وأدخل عزيرا وعيسى ومريم الجنة وسار الملائكة الى حيث أراد الله من الكرامة وحصل بين الكفار ومعبوديهم هذا الحاجز وهو ذلك الوادى (ورأى المجرمون) أى الكافرون (النار) من مكان بعيد (فظنوا أنهم مواقعوها) أى مخالطوها فى تلك الساعة من غير تأخير لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها (ولم يجدوا عنها مصرفا) أى معدلا الى غيرها لان الملائكة تسوقهم اليها (ولقد صرفنا) أى ذكرنا على وجوه كثيرة (فى هذا القرآن للناس) أى لمنفعتهم (من كل مثل) أى من كل نوع من أنواع المعانى البديعة الداعية الى الايمان التى هى فى فى الغرابة كالمثل ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا (وكان الانسان) بجبلته (أكثر شئ جدلا) أى وكان خصومة الانسان بالباطل أكثر شئ فيه (وما منع الناس) أى اهل مكة (أن يؤمنوا اذجاءهم الهدى) أى القرآن الهادى الى الايمان (ويستغفروا ربهم) عما فرط منهم من الذنوب (الا أن تأتيهم سنة الاولين) أى الا طلب اتيان سنتنا فى الاولين وهو عذاب الاستئصال (أو يأتيهم العذاب قبلا) وقرأ حمزة وعاصم والكسائى بضم القاف والباء أى أنواعا من العذاب تتواصل مع كونهم أحياء والباقون بكسر القاف وفتح الباء أى عيانا وقرئ بفتحتين أى مستقبلا (وما نرسل المرسلين) الى الامم (الا مبشرين) بالثواب على أفعال الطاعة (ومنذرين) بالعقاب على أفعال المعصية (ويجادل الذين كفروا) المرسلين (بالباطل) أى باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات (ليدحضوا به الحق) أى ليبطلوا بجدالهم الشرائع (واتخذوا آياتى) التى هى معجزات الرسل (وما أنذروا) أى وانذارهم بالعذاب (هزوا) أى سخرية (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) أى ليس أحد أظلم ممن وعظ بالقرآن (فأعرض عنها) أى فصرف عن تلك الآيات ولم يتدبرها (ونسى ما قدمت يداه) أى تغافل عن كفره وذنوبه ولم يتفكر فى عاقبته (انا جعلنا على قلوبهم أكنة) أى أغطية (أن يفقهوه) أى مانعة من أن يفهموا القرآن (وفى آذانهم وقرا) أى صمما مانعا من استماعه (وان تدعهم الى الهدى) أى الى التوحيد (فلن يهتدوا اذن أبدا) أى فلن يوجد منهم اهتداء البتة مدة التكليف (وربك الغفور) أى البليغ لستر ذنوبهم بالحلم عنها الى وقت آخر (ذو الرحمة) بتأخير العقوبة عنهم (لو يؤاخذهم) أى لو يريد الله مؤاخذتهم (بما كسبوا) من الذنوب (لعجل لهم العذاب) فى الدنيا (بل لهم موعد) أى وقت لهلاكهم (لن يجدوا من دونه) أى العذاب (موئلا) أى مرجعا فمن يكون مرجعه العذاب فلا يوجد منه الخلاص (وتلك القرى) أى وأهل قرى عاد وثمود وأمثالهما (أهلكناهم) فى الدنيا (لما ظلموا) أى حين كفروا (وجعلنا لمهلكهم موعدا) أى وقتا معينا لا يتأخرون عنه وقرأ شعبة بفتح الميم واللام أى لهلاكهم وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام أى لوقت هلاكهم والباقون بضم الميم وفتح اللام أى لاهلاكنا اياهم (واذ قال) أى واذكر حين قال (موسى لفتاه) يوشع بن نون بن افرايم بن يوسف عليه السلام وكان يوشع من أشراف بنى اسرائيل وانما سمى فتا موسى عليه السلام لانه كان يخدمه وكان موسى عليه السلام وقع فى قلبه ان ليس فى الارض أحد أعلم منى فقال الله ياموسى ان لى فى الارض عبدا أعبد لى منك وأعلم وهو الخضر فقال موسى يارب دلنى عليه فقال الله له خذ سمكا مالحا وامض على شاطئ البحر حتى تلقى صخرة عندها عين الحياة فانضح على السمكة منها حتى تحيا السمكة فثم تلقى الخضر فأخذ حوتا فجعله فى مكتل فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فأخبرنى فذهبا يمشيان (لا أبرح)

أى لا أزال سائرا (حتى أبلغ مجمع البحرين) أى ملتقى بحر فارس والروم مما يلى المشرق (أو أمضى حقبا) أى أو أسير زمانا طويلا أتيقن معه فوات الطلب أو أسير ثمانين سنة (فلما بلغا مجمع بينهما) أى بلغا موضعا يجتمع فيه موسى وصاحبه الذى كان يقصده وهو الخضر (نسيا حوتهما) أى نسيا خبر حوتهما وتفقد أمره وقد جعل فقدانه امارة لوجدان المطلوب (فاتخذ سبيله فى البحر سربا) أى فادركته الحياة بسبب برد الماء الذى أصابه فتحرك فى المكتل فخرج منه وسقط فى البحر فاتخذ الحوت فى البحر مسلكا كالسرب قيل ان الفتى كان يغسل السمكة لانها كانت مملحة فطفرت وسارت (فلما جاوزا) أى موسى وفتاه مجمع البحرين وذهبا كثيرا وألقى على موسى الجوع (قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا) الذى بعد مجاوزة الصخرة (نصبا) أى تعبا قيل ان موسى لم يتعب ولم يجع قبل ذلك (قال) أى فتاه (أرأيت اذ أوينا الى الصخرة) أى أأبصرت حالنا اذ اقتنا عند الصخرة (فانى نسيت الحوت) أى خبر الحوت (وما انسانيه الا الشيطان أن أذكره) بدل اشتمال من الهاء أى وما انسانى ذكر أمر الحوت لك الا الشيطان بوسوسته الشاغلة عن ذلك وقرأ حفص بضم الهاء من أنسانيه (واتخذ) أى الحوت (سبيله فى البحر عجبا) أى اتخاذا عجبا وهو كون مسلكه كالسرب فلم يلتئم الماء وجمد ما تحت الحوت منه حتى رجع موسى اليه فرأى مسلكه وكون الحوت قدمات وأكل شقه الايسر ثم حيى بعد ذلك (قال) أى موسى (ذلك) أى الذى ذكرت من أمر الحوت (ما كنا نبغ) أى الذى كنا نطلبه لانه امارة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائى باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير أثبتها فى الحالين والباقون حذفوها فى الحالين اتباعا للرسم (فارتدا على آثارهما قصصا) أى فرجعا مفتشين آثارهما أو وفاقتصاصا على آثارهما اقتصاصا حتى أتيا الصخرة (فوجدا عبدا من عبادنا) وهو الخضر واسمه بليا بن ملكان وكنيته أبو العباس وهو من نسل نوح وكان أبوه من الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا وروى أنهما وجدا الخضر وهو نائم على وجه الماء وهو مغطى بثوب أبيض أو أخضر طرفه تحت رجليه والآخر تحت رأسه فسلم عليه موسى فرفع رأسه واستوى جالسا وقال وعليك السلام يا نبى بنى اسرائيل فقال له موسى ومن أخبرك أنى نبى بنى اسرائيل فقال الذى أدراك بى ودلك على والصحيح ان الخضر نبى وذهب الجمهور الى انه حى الى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة (آتيناه رحمة من عندنا) أى أكرمناه بالنبوة كما قاله ابن عباس (وعلمناه من لدنا علما) وهو علم الغيوب (قال له موسى) على سبيل التأدب والتلطف فى طرف الاستئذان (هل أتبعك) أى أصحبك (على أن تعلمن) أثبت الياء نافع وأبو عمرو وصلا لا وقفا وابن كثير فى الحالين والباقون حذفوها (مما علمت رشدا) أى علما يرشدنى فى دينى وقرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وتسكين الشين قال له الخضر كفى بالتوراة علما وبنى اسرائيل شغلا فقال له موسى ان الله أمرنى بهذا فحينئذ (قال) له الخضر يا موسى (انك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) أى على ما لم تعلم به بيانا وحكمة أى انك يا موسى لا تصبر على أمور لم تعلم حقائقها يا موسى انى على علم من علم الله تعالى علمنيه لا تعلمه أى وهو علم الكشف وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه أى وهو علم ظاهر الشريعة (قال) له موسى (ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) عطف على صابرا أى ستجدنى صابرا على ما أرى منك وغير مخالف لامرك (قال) له الخضر (فان اتبعتنى) أى صحبتنى (فلا تسألنى عن شئ) تشاهده من أفعالى ولو منكرا بحسب علمك الظاهر (حتى أحدث لك منه ذكرا) أى حتى أبتدئ باخبارك

ببيان

بيان ذلك الشئ وقرأ ابن عامر فلا تسألن بالنون المثقلة وبغير ياء وروى عنه تسألني مثقلة مع الياء وهي قراءة نافع وقرأ باقي السبعة بسكون اللام وتخفيف النون وقرأ أبو جعفر هنا تسلن بفتح السين واللام وتشديد النون من غير همز (فانطلقا) أي موسى والخضر عليهما السلام على الساحل يطلبان السفينة وأما يوشع فقد صرفه موسى الى بني اسرائيل أو كان معهما وانما لم يذكر في الآية لانه تابع لموسى فاكتفى بذكر المتبوع عن التابع فالمقصود ذكر موسى والخضر (حتى اذا ركبا في السفينة خرقها) أي ثقبها الخضر وعن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم مرت بهم سفينة فكلموا أهلها ان يحملوهم فعرفوا الخضر بعلامة فحملوهم بغير نول فلما لجوا أي وصلوا الى الماء الغزير أخذ الخضر فاسا وأخرج بها لوحا من السفينة (قال) له موسى (أخرقتها لتغرق أهلها) أي لتغرق أنت أهل هذه السفينة وقرأ حمزة والكسائي ليغرق أهلها بالياء المفتوحة وفتح الراء ورفع أهلها (لقد جئت شيأ امرا) أي لقد فعلت شيأ عظيما شديدا على القوم روى أن الماء لم يدخل السفينة وروى أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشى به الخرق (قال) له الخضر (ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا قال) موسى (لا تؤاخذني بما نسيت) أي بما تركت من وصيتك أول مرة أو هذا من التورية وايهام خلاف المراد فيتقي موسى بها الكذب مع التوصل الى الغرض وهو بسط عذره في الانكار فالمراد بما نسيه شئ آخر غير الوصية لكنه أوهم أنها المنسية (ولا ترهقني من أمري عسرا) أي لا تكلفني مشقة في أمر صحبتي اياك فقبل الخضر عذر موسى فخرجا من السفينة (فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما) بين قريتين لم يبلغ الحنث يلعب مع عشرة صبيان كان وضئ الوجه اسمه خيشور فأخذه الخضر (فقتله) بذبحه مضطجعا بالسكين أو بفتل عنقه (قال) له موسى (أقتلت نفسا زكية) أي بريئة من الذنوب (بغير نفس) أي بغير قتل نفس محرمة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بألف بعد الزاي وبتخفيف الياء والباقون بالتشديد وبغير ألف (لقد جئت شيأ نكرا) أي لقد فعلت فعلا منكرا (قال) الخضر (ألم أقل لك) يا موسى زاد الخضر لك هنا تقريعا لموسى وتحاملا في الخطأ (انك لن تستطيع معي صبرا) قيل ان يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه (قال) موسى (ان سألتك عن شئ بعدها) أي بعد هذه المرة (فلا تصاحبني) أي لا تجعلني صاحبك وقرئ لا تصحبني بضم التاء وسكون الصاد (قد بلغت من لدني عذرا) أي قد وجدت من قبلي عذرا حيث خالفتك ثلاث مرات قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم في بعض الروايات بتخفيف النون وضم الدال وفي بعض الروايات عن عاصم بضم اللام وسكون الدال روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك ولو لبث مع صاحبه لابصر أعجب الاعاجيب (فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية) بعد الغروب في ليلة باردة ممطرة وهي انطاكية أو أبرقة (استطعما أهلها) أي طلبا من أهلها الخبز على سبيل الضيافة فاقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح في كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند خوف الضرر الشديد وعن أبي هريرة قال أطعمتهما امرأة من أهل بربرة بعد ان طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعوا للنساء ولعنا رجالهم فقوله تعالى استطعما جواب اذا أو صفة لقرية (فأبوا أن يضيفوهما) عن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا أهل قرية لئاما (فوجدا فيها) أي القرية (جدارا) مائلا (يريد أن ينقض) أي يقرب من السقوط وكان ارتفاعه مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعا وامتداده على وجه الارض خمسمائة ذراع (فأقامه) أي رفعه الخضر بيده فاستقام أو مسحه بيده فاستوى أو هدمه ثم بناه (قال) موسى (لو شئت) يا خضر (لاتخذت عليه أجرا) أي طلبت على عملك أجرة تصرفها

الى تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات أى كان ينبغى لك أن تأخذ منهم جعلا على فعلك لتقصيرهم فينا مع حاجتنا وليس لنا فى اصلاح الجدار فائدة فهو من فضول العمل وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كانت الاولى من موسى نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا قيل فى تفسير هذه الآيات التى وقعت لموسى مع الخضر أنها حجة على موسى وعتب عليه وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة نودى ياموسى أين كان تدبيرك هذا وأنت فى التابوت مطروحا فى اليم لما أنكر أمر الغلام قيل له أين انكارك هذا من وكزك للقبطى وقضائك عليه فلما أنكر اقامة الجدار نودى أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر (قال) له الخضر (هذا فراق بينى و بينك) أى هذا الانكار على ترك الاجر سبب فراق حصل بينى و بينك (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) السين للتأكيد لا للاستقبال لعدم تراخى التنبئة أى أظهر لك بيان وجه مالم تصبر عليه أى حكمة هذه الامور الثلاثة قبل فراقى لك (أما السفينة) التى أخرقتها (فكانت لمساكين يعملون فى البحر) فيعبرون بالناس مؤاجرين للسفينة لحمل الامتعة ونحوها كانت لعشرة اخوة من المساكين ورثوها من أبيهم خمسة زمنى وخمسة يعملون فى البحر فاما العمال منهم فأحدهم كان مجذوما والثانى كان أعور والثالث كان أعرج والرابع كان آدر والخامس كان محموما لا تنقطع عنه الحمى الدهر كله وهو أصغرهم والخمسة الذين لا يطيقون العمل أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون وكان البحر الذى يعملون فيه ما بين فارس والروم (فأردت أن أعيبها) أى ان أجعلها ذات عيب (وكان وراءهم) أى أمامهم كما قرأ به ابن عباس وابن جبير (ملك) كافر اسمه هدد بن بدد أو جلندى ابن كركر (يأخذ كل سفينة) صحيحة كما قرأ بذلك ابن عباس وابن جبير (غصبا) من أصحابها ولم يكن عندهم علم به فلذلك تعيبتها فاذا جاوز والملك أصلحوها (وأما الغلام) الذى قتلته (فكان أبواه مؤمنين) من [illegible] تلك القرية اسم الأب كازبرا واسم الأم سهوا (فخشينا أن يرهقهما) أى نخفنا أن يحمل الوالدين المؤمنين (طغيانا وكفرا) لمحبتهما له وقرئ فخاف ربك أى كره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الامر أن يلحق الوالدين معصية وكفرا أو يقال فعلم ربك أن يوقعهما فى الكفر وقيل ان أبويه فرح به حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقى لكان فيه هلاكهما فليرض العبد بقضاء الله تعالى فان قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب وقيل كان الغلام رجلا كافرا لصا قتالا فمن ذلك قتله الخضر وكان اسمه جيسور (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة) أى صلاحا وطهارة من الذنوب والاخلاق الرديئة (وأقرب رحما) أى عطفا بأبويه وأوصل رحما بأن يكون أبر بهما قال ابن عباس أبدلا بنتا ولدت نبيا وهو الذى كان بعد موسى الذى قالت له بنو اسرائيل ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله وكان اسمه شمعون وقرأ أبو عمرو ونافع بفتح الباء وتشديد الدال هنا وفى التحريم وفى القلم وقرأ ابن عامر فى احدى الروايتين عن أبى عمرو رحما بضم الحاء (وأما الجدار) الذى سويته (فكان لغلامين يتيمين) هما أصرم وصريم ابنا كاشح وأمهما دنيا (فى المدينة) وهى المعبر عنها أولا بالقرية تحقر الها لخسة أهلها وعبر عنها هنا بالمدينة تعظيما لها من حيث اشتمالها على هذين الغلامين وأبيهما (وكان تحته كنز لهما) عن أبى الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال كان ذهبا وفضة رواه البخارى فى تاريخه والترمذى والحاكم وقيل كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد

رسول

رسول الله (وكان أبوهما صالحا) وهذا يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الابناء وقد روى ان الله يحفظ الصالح فى سبعة من ذريته (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) أى قوتهما وكمال رأيهما (ويستخرجا كنزهما) أى دفينهما من تحت الجدار ولولا انى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته وضاع بالكلية (رحمة من ربك) مفعول له وعامله أراد أى نعمة لهما من ربك أو عامله مقدر أى فعلت هذه الافعال وحيا من ربك (وما فعلته) أى ما فعلت ما رأيت من هذه الاحوال (عن أمرى) أى عن اجتهادى ورأيى (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) أى ذلك الاجوبة الثلاثة تفسير ما لم تصبر عليه من الوقائع الثلاثة وحذف التاء بعد السين هنا للتخفيف روى أن موسى عليه السلام لما أراد أن يفارق الخضر قال له أوصنى قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به وقيل ان الخضر لما أراد أن يفارق موسى قال له موسى أوصنى قال كن بساما ولا تكن ضحاكا ودع اللجاجة ولا تمش فى غير حاجة ولا تعب على الخطائين خطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران (ويسألونك عن ذى القرنين) أى يسألك يا أشرف الخلق أهل مكة عن خبر ذى القرنين اسمه اسكندر بن فيلفوس اليونانى كان عبدا صالحا ملكه الله الارض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة وكان وزيره الخضر والصحيح أنه لم يكن نبيا وانما كان ملكا صالحا عادلا ملك الاقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم ودانت له البلاد وكان داعيا الى الله (قل) لهم فى الجواب (سأتلو عليكم منه ذكرا) أى سأذكر لكم من حال ذى القرنين خبرا مذكورا والسين للتأكيد وللدلالة على التحقق (انا مكنا له فى الارض) أى انا جعلنا له قدرة على التصرف فى الارض من حيث التدبير والرأى وعلى الاسباب حيث سخر له السحاب وبسط له النور وكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير فى الارض (وآتيناه من كل شئ) يحتاج اليه فى اصلاح ملكه (سببا) أى طريقا يوصله الى ذلك الشئ المقصود كآلات السير وكثرة الجند (فأتبع سببا) أى فأخذ طريقا يوصله الى استقصاء بقاع الارض ليملأها عدلا (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) أى منتهى الارض من جهة المغرب بحيث لا يمكن أحدا من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له أوقيانوس الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات التى هى مبدأ الاطوال (وجدها) أى الشمس (تغرب) فى رأى العين (فى عين) أى بحر محيط (حمئة) أى ذات طين أسود شديد السخونة كما يدل عليه قراءة شعبة وحمزة والكسائى وابن عامر حامية بألف بعد الحاء وبياء بعد الميم وهى قراءة ابن مسعود وطلحة (ووجد عندها) أى عند تلك العين (قوما) كفارا لباسهم جلود الوحوش وطعامهم ما يلفظه البحر من السمك (قلنا) بالهام (يا ذا القرنين اما أن تعذب) بالقتل (واما أن تتخذ فيهم حسنا) أى أمرا ذا حسن بأن تتركهم أحياء (قال) أى ذو القرنين (أما من ظلم) نفسه باستمراره على الكفر (فسوف نعذبه) بالقتل بعد طول الدعاء الى الاسلام (ثم يرد الى ربه) فى الآخرة (فيعذبه) فيها (عذابا نكرا) أى شديدا وهو عذاب النار (وأما من آمن) بسبب دعوتى (وعمل صالحا فله جزاء الحسنى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بنصب جزاء أى فله الجنة فى الآخرة من جهة الجزاء وقرأ الباقون برفعه والاضافة أى فله فى الدارين جزاء الفعلة الحسنى التى هى الايمان والعمل الصالح (وسنقول له) أى لمن آمن (من أمرنا يسرا) أى قولا سهلا مما نأمره به من الزكاة والخراج وغيرهما ولا نأمره بالصعب الشاق (ثم أتبع سببا) أى ثم أخذ ذو القرنين طريقا نحو المشرق من جهة الجنوب (حتى اذا بلغ مطلع الشمس) أى موضع طلوعها من معمورة الارض (وجدها) أى الشمس (تطلع على قوم) هم الزنج (لم نجعل

لهم من دونها) أى الشمس (سترا) من اللباس فيكونون عراة أبدا فاذا طلعت الشمس دخلوا الاسراب أو البحر فاذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم (كذلك) أى أمر ذى القرنين فيهم كأمره فى أهل المغرب فحكم فى أهل المطلع كما حكم فى أهل المغرب من تعذيب الظالمين والاحسان الى المؤمنين (وقد أحطنا بما لديه خبرا) أى وقد علمنا بما كان عند ذى القرنين من الخبر (ثم أتبع سببا) أى ثم سلك ذو القرنين طريقا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا نحو الروم من الجنوب الى الشمال (حتى اذا بلغ بين السدين) أى بين الجبلين العاليين الاملسين فلا يستطاع الصعود عليهما فى آخر بلاد الترك مما يلى المشرق ويسمى كل منهما سدا لانه سد فجاج الارض (وجد من دونهما) أى من ورائهما مجاوزا عنهما (قوما لا يكادون يفقهون قولا) أى أمة من الناس لا يقربون يفهمون قول غيرهم لقلة فطنتهم وفى قراءة حمزة والكسائى ضم الياء وسكون الفاء وكسر القاف أى لا يفهمون الناس كلامهم لغرابة لغتهم وهم من أولاد يافث وذو القرنين من أولاد سام قال أهل التاريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث أما سام فهو أبو العرب والعجم والروم وأما حام فهو أبو الحبشة والزنج والنوبة وأما يافث فهو أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج (قالوا) لذى القرنين بواسطة ترجمان عن هو مجاورهم ويفهم كلامهم أو بغير ترجمان على أن فهم ذى القرنين كلامهم وافهام كلامه اياهم من جملة ما أعطاه الله تعالى من الاسباب (ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض) أى فى أرضنا يأكلون كل شئ أخضر ويحملون كل شئ يابس ويقتلون أولادنا وهى يأجوج ومأجوج لكثرتهم وروى حذيفة حديثا مرفوعا أن يأجوج أمة ومأجوج أمة فكل أمة أربعة آلاف أمة لا يموت الواحد منهم حتى ينظر ألف ذكر من صلبه كلهم قد حملوا السلاح وهم من ولد آدم يسيرون الى خراب الدنيا وهم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال شجر الصنوبر طوله عشرون ومائة ذراع فى السماء وصنف منهم طوله وعرضه سواء عشرون ومائة ذراع وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد وصنف منهم يفترش أحدهم احدى أذنيه ويلتحف بالآخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير الا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية (فهل نجعل لك خرجا) وفى قراءة حمزة والكسائى بفتح الراء مع مده والباقين بسكون الراء فقيل الخرج ما كان على كل رأس والخراج ما كان على البلد وقيل الخرج ما كان بالتبرع والخراج ما يلزم أداؤه (على أن تجعل بيننا وبينهم) أى يأجوج ومأجوج (سدا) أى حاجزا بين هذين الجبلين فلا يصلون الينا (قال) ذو القرنين (ما مكنى فيه ربى خير) أى ما جعلنى فيه ربى قادرا من المال الكثير والملك الواسع وسائر الاسباب خير مما تعرضون على من الجعل فلا حاجة بى اليه وقرأ ابن كثير مكننى بفك الادغام (فأعينونى بقوة) أى بآلات الحدادين وبصناع يحسنون البناء والعمل (أجعل بينكم وبينهم ردما) أى حاجزا حصينا وبرزخا متينا وهو أكبر من السد وأوثق (آتونى زبر الحديد) بمد الهمزة أى اعطونى قطع الحديد الكبيرة وقرأ حمزة ائتونى بوصل الهمزة فى الموضعين ووافقه أبو بكر هنا وخالفه فى الموضع الثانى والمعنى جيئونى بزبر الحديد فزبر على قراءة همزة الوصل منصوبة على اسقاط الخافض وحفر ذو القرنين الأساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين الى أعلاهما وكان طوله مائة فرسخ (حتى اذا ساوى بين الصدفين) أى بين طرفى الجبلين بالبناء أى انهم جاؤا ذا القرنين بزبر الحديد فشرع يبنى شيأ فشيأ حتى

اذا

اذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساويا لهما في السمك وكان ارتفاعه مائتي ذراع وعرضه خمسين ذراعا ووضع المنافخ والنار حول ذلك (قال) للعملة (انفخوا) بالكيران في الحديد المبني ففخوا (حتى اذا جعله نارا) أي اذا جعل الحديد مثل النار (قال) للذين يتولون أمر النحاس من الاذابة ونحوها (آتوني) أي اعطوني نحاسا مذابا. (أفرغ عليه قطرا) أي أصب على الحديد المحمي نحاسا مذابا فأفرغه عليه فدخل مكان الحطب والفحم وامتزج بالحديد والتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا وهذه كرامة عظيمة حيث صرف الله تأثير الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين والمفرغين للقطر (فما اسطاعوا) بحذف تاء بعد السين أي فلم يقدر يأجوج ومأجوج (أن يظهروه) أي أن يعلوا ظهر الجبل لارتفاعه وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) أي خرقا من أسفله لصلابته وثخنه لانه كان خمسين ذراعا وكان ارتفاعه مائتي ذراع وكان طول السد على وجه الارض مائة فرسخ ومسيرة الفرسخ ساعة ونصف فتكون مسيرة السد مائة وخمسين ساعة مسيرة اثنى عشر يوما ونصفا (قال) أي ذو القرنين لمن عنده (هذا السد (رحمة) أي نعمة عظيمة (من ربي) على جميع الخلق (فاذا جاء وعد ربي) أي وقت وعد ربي بخروج يأجوج ومأجوج (جعله) أي هذا السد (دكاء) بالمد أي أرضا مستوية وقرئ دكا أي مكسورا حتى يصير ترابا (وكان وعد ربي) بخروجهم وقت قرب الساعة (حقا) أي صدقا (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) أي صيرنا بعض يأجوج ومأجوج يوم خروجهم من السد يختلط ببعضهم الآخر من شدة الازدحام عند خروجهم لكثرتهم وذلك عقب موت الدجال فينحاز عيسى بالمؤمنين الى جبل الطور فرارا منهم روى انهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ولا يصلون الى من تحصن منهم بورد أو ذكر ويحبس نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لاحدهم خيرا من مائة دينار فيتوجهون الى الله تعالى بالدعاء فيسلط الله تعالى دودا في أنوفهم وآذانهم فيموتون به ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه الى الارض فلا يجدون في الارض موضع شبر الا ملأه زهمهم ونتنهم فيتوجه نبي الله عيسى وأصحابه الى الله تعالى فيرسل سبحانه وتعالى عليهم طيرا فتلقيهم في البحر ثم يرسل مطرا يغسل الارض حتى تصير كالمرآة ثم يقال للارض انبتي ثمرتك وردي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الغنم والابل حتى أن اللقحة لتكفي الجماعة الكثيرة فبينما هم كذلك اذ بعث الله تعالى عليهم ريحا طيبة فتأخذهم تحت اباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة (ونفخ في الصور) نفخة ثانية للبعث (فجمعناهم) أي يأجوج ومأجوج وغيرهم (جمعا) أي جمعا عجيبا بعدما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) أي أظهرناها لهم مع قربهم منها يوم اذ جمعنا الخلائق كافة اظهارا هائلا فذلك يجري مجرى عقابهم لحصول الغم العظيم بسبب رؤيتها وسماعها تغيظا وزفيرا (الذين كانت أعينهم) أي أعين قلوبهم وهم في الدنيا (في غطاء) أي غشاوة كثيفة (عن ذكري) على وجه يليق بشأني وعن كتابي فلا يهتدون به (وكانوا لا يستطيعون سمعا) الى قراءة القرآن فلا يؤمنون به (أفحسب الذين كفروا) أي كفروا بي مع جلالة شأني فظنوا (أن يتخذوا عبادي من دوني) من الملائكة وعيسى وعزير (أولياء) أي معبودين ينصرونهم من عذابي والمعنى أفظنوا انهم ينتفعون بمن عبدوه من عبادي مع اعراضهم عن تدبر الآيات السمعية والمشاهد وقرأ ابو بكر أفحسب الذين كفروا باسكون

السين ورفع الباء وذكر أنه قراءة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أي أفكافيهم اتخاذهم ذلك من دون طاعتي (انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) أي منزلا (قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا) في الآخرة (الذين ضل سعيهم) أي بطل عملهم (في الحياة الدنيا) متعلق بسعيهم لا بضل وذلك كالعتق والوقف واغاثة الملهوف لان الكفر لا تنفع معه طاعة (وهم يحسبون) أي والحال انهم يظنون (انهم يحسنون صنعا) أي يحسنون في أعمالهم بالاتيان بها على الوجه اللائق ويحسبون انهم ينتفعون بآثارها قيل المراد بهم أهل الكتابين وقيل الرهبانية الذين يحبسون أنفسهم في الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة وجملة وهم يحسبون حال من فاعل ضل وهو أولى من كونها حالا من المضاف اليه (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم) أي بدلائله الداعية الى توحيده عقلا ونقلا (ولقائه) أي وكفروا بالبعث بعد الموت وبرؤيته تعالى في الآخرة (فحبطت أعمالهم) أي بطلت لانكارهم الدلائل (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أي فلا نجعل لمن حبطت أعمالهم حبوطا كليا يوم القيامة مقدارا بل نزدري بهم فليس لهم عندنا قيمة أصلا ولا يوزن من خيراتهم قدر ذرة (ذلك جزاؤهم) أي ذلك الذي ذكرناه من أنواع الوعيد هو جزاؤهم (جهنم) عطف بيان للخبر (بما كفروا واتخذوا آياتي) الدالة على وحدانيتي (ورسلي) المؤيدين بالمعجزات (هزوا) أي مهزوا بهما (ان الذين آمنوا) بآيات ربهم ولقائه (وعملوا الصالحات) من الاعمال (كانت لهم) فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده (جنات الفردوس نزلا) أي منزلا خبر كانت ولهم متعلق بمحذوف حال من نزلا (خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) أي لا يطلبون تحولا الى غيرها وهذا يدل على غاية الكمال فلا مزيد عليها في خيرات الجنة حتى يريد أشياء غيرها فان الانسان في الدنيا اذا وصل الى أي درجة كانت من السعادات فهو طامح الطرف الى ما هو أعلى منها وعن كعب انه قال ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها وفيها الانهار الاربعة فاذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فان فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي) أي قل يا أشرف الخلق لو كان ماء البحر مدادا البحر بكلمات علم ربي وحكمته لنفد ماء البحر مع كثرته في كتابتها ولم يبق منه شيء لتناهيه من غير أن تنفد كلمات ربي لعدم تناهيها وقرأ حمزة والكسائي ينفد بالياء التحتية (ولو جئنا بمثله) أي بمثل ماء البحر (مددا) أي زيادة لنفد البحر ولم تنفد كلمات ربي وقيل هنا بمعنى غير أو بمعنى دون وروي أن حيي بن أخطب قال في كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ثم تقرؤن وما أوتيتم من العلم الا قليلا فنزلت هذه الآية أي ان ذلك الحكمة خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله ثم أمر الله تعالى سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بان يسلك طريقة التواضع فقال (قل) لهم بعدما بينت لهم شأن كلماته تعالى (انما أنا بشر مثلكم) لا أدعي الاحاطة بكلماته تعالى التامة (يوحى الي) من تلك الكلمات (أنما الهكم اله واحد) لا شريك له في الخلق ولا في سائر أحكام الالوهية وانما تميزت عنكم بذلك الوحي (فمن كان يرجو لقاء ربه) أي فمن استمر على رجاء كرامته تعالى (فليعمل) لتحصيل تلك الطلبة العزيزة (عملا صالحا) لائقا بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) اشراكا جليا كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ولا اشراكا خفيا كما يفعله أهل الرياء روي أن جندب بن زهير العامري قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاعمل العمل لله فاذا اطلع عليه سرني فقال صلى الله

عليه وسلم ان الله لا يقبل ما شورك فيه فنزلت هذه الآية تصديقا له وروى أنه صلى الله عليه وسلم
قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية فالرواية الاولى محمولة على ما اذا قصد بعمله
الرياء والسمعة والرواية الثانية محمولة على ما اذا قصد أن يقتدى به
والمقام الاول مقام المبتدئين والمقام الثانى مقام
الكاملين والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله
وصحبه أجمعين
آمين

تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى أوله سورة مريم

﴿فهرست الجزء الاول من تفسير القرآن المجيد المسمى بمراح لبيد للشيخ محمد نووى﴾

صحيفة		صحيفة	
٢	سورة الفاتحة	٣٤٤	سورة يونس
٣	سورة البقرة	٣٦٠	سورة هود
٧٧	سورة آل عمران	٣٧٧	سورة يوسف
١٢٨	سورة النساء	٤٠٠	سورة الرعد
١٧٧	سورة المائدة	٤١٠	سورة ابراهيم
٢١٨	سورة الانعام	٤١٨	سورة الحجر
٢٥٩	سورة الاعراف	٤٢٦	سورة النحل
٣٠٠	سورة الانفال	٤٤٧	سورة الاسرا
٣١٤	سورة التوبة	٤٦٧	سورة الكهف

﴿تم﴾